رفع
المساهم
غفر الله له ولوالديه

أنوار التنزيل وأسرار التأويل

المسمى

تفسير البيضاوي

تأليف

القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي

حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وضبط نصه

محمد صبحي حسن حلاق و محمد أحمد الأطرش

المجلد الأول

مؤسسة الإيمان
بيروت - لبنان

دار الرشيد
دمشق - بيروت

تفسير البيضاوي

المسمى

أنوار التنزيل وأسرار التأويل

تأليف

القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي

ت: ٧٩١ هـ

حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وضبط نصه

محمد صبحي بن حسن حلاق و الدكتور محمود أحمد الأطرش

المجلد الأول

مؤسسة الإيمان
بيروت - لبنان

دار الرشيد
دمشق - بيروت

جَميعُ الحقوق محفوظَة
لدار الرَّشيد

الطبعة الأولى
١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

إن الحمد لله، نحمدُه ونستعينهُ ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومن يُضلل، فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة وكلّ بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد:

فإن أجل العلوم وأشرفها هو ما كان لخدمة كتاب الله تبارك وتعالى، وقد بذل العلماء كثيراً من الجهود لخدمة كتاب الله تعالى وبيان مراميه وتوضيح معانيه، وكان من أجل هذه الكتب تفسير البيضاوي المسمى «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» وقد عكف عليه العلماء وطلاب العلم بالدرس والشرح.

لذلك كانت خدمة هذا الكتاب من أجل الأعمال التي نسأل الله تعالى أن يجعله في صحائف أعمالنا، وخاصة أن عبارة البيضاوي تدق أحياناً وتخفى إلا على ذي بصيرة ثاقبة، وضبط عبارته قد يزيل كثيراً من الإشكال والغموض.

أولاً ـ التعريف بمؤلف هذا التفسير:

١ ـ اسمه ونسبه:

هو الإمام عبد الله بن عمر بن محمد بن علي، أبو سعيد، البيضاوي، الشيرازي، الفارسي الشافعي القاضي، المفتي، العالم بالفقه، والتفسير، وأصول الفقه، وأصول الدين والمنطق، والعربية، والنحو، والتاريخ والهيئة.

والبيضاوي: نسبة إلى البيضاء من بلاد فارس، وهي مدينة كبيرة من أعمال شيراز، وأكبر مدينة بإصطخر، وينتسب إليها جماعة من العلماء، وهذه النسبة للبيضاء أشهر النسب، وبها

يعرف[1].

والشيرازي: نسبة إلى شيراز، وهي بلدة عظيمة مشهورة في وسط بلاد فارس ونسب البيضاوي إليها لأن البيضاء تابعة لها، ولأنه تولى قضاء شيراز مدة.

والفارسي: نسبة إلى بلاد فارس التي ولد فيها، ونشأ في ربوعها، وتربى في أحضانها، وتعلم لغتها، كتب فيها، وألف بعض كتبه باللغة الفارسية، ويعتبر البيضاوي من أعلام الأدب الفارسي.

والشافعي: نسبة إلى مذهب الإمام محمد بن إدريس الشافعي في الفقه الإسلامي، وينسب البيضاوي إليه لأنه تفقه على هذا المذهب، وتولى القضاء للحكم بأحكامه، وصنف بعض الكتب الفقهية في المذهب الشافعي، وقدم فيه خدمات جُلَّى.

ويعرف البيضاوي بالقاضي، وقاضي القضاة، لأنه تولى هذين المنصبين فترة من الزمن.

٢ ـ ولادته ونشأته:

ولد البيضاوي في مدينة «البيضاء» باتفاق، ولم يذكر مرجع واحد تاريخ ولادته، كما أغفلت جميع المصادر التي اطلعت عليها سنَّهُ عند الوفاة، مما يستحيل علينا تقدير ولادته، لكن يفهم من كتب التراجم أن البيضاوي رحمه الله كان من المعمَّرين، وعاش طويلاً.

وأما نشأة البيضاوي، فيظهر أنه نشأ في البيضاء، وتربى فيها على يد والده، وبدأ التعلم وتحصيل الفقه وغيره في البيضاء، وقد اقتصرت كتب التراجم على أنه تفقه بوالده، وهو ما صرح به القاضي البيضاوي نفسه.

قال اليافعي في «مرآة الجنان»[2]: «تفقه بأبيه، وتفقه والده بالعلامة مجير الدين محمود بن المبارك البغدادي، الشافعي، وتفقه مجير الدين بالإمام زين الدين حجة الإسلام أبي حامد الغزالي رحمهم الله تعالى» هـ.

ويحتمل أن البيضاوي رحل إلى شيراز وتبريز وسائر بلاد فارس يطلب العلم، ويكتسب المعارف، ودليلنا على ذلك نتاج البيضاوي ومعارفه وثقافته واختلاف العلوم التي صنف فيها. وكذلك انتقال والده إلى شيراز وكان مقرَّباً للأتابك أبي بكر بن سعد بن زنكي الذي حكم فارس سنة (٦٢٣ ـ ٦٥٨ هـ) وولاه قاضي القضاة[3] فاستقر في شيراز والغالب أن يكون الوالد قد صحب ابنه معه إلى شيراز.

كما ثبت في ترجمة البيضاوي أنه رحل إلى تبريز والتقى بالشيخ (محمد الكتحتائي) ويظهر أن هذه الرحلة كانت بعد أن تولى القضاء بشيراز، كما ثبت أن البيضاوي استقر بعد ذلك في تبريز ومات فيها.

---

(١) انظر «الأنساب» للسمعاني (١/ ٤٣١ ـ ٤٣٢) ومراصد الاطلاع (١/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣).

(٢) (٤/ ٢٢٠) الطبعة الأولى ـ حيدر آباد الدكن ـ سنة (١٣٣٩ هـ).

(٣) «دائرة المعارف الإسلامية» (٩/ ٣٢) ط: الشعب.

٣ ـ شيوخه وتلامذته:

أ) شيوخه:

قضى البيضاوي معظم حياته في شيراز المشهورة بالعلم، وأخذ العلوم المختلفة عن كبار العلماء فيها.

لكن كتب التراجم والتاريخ لم تحفظ لنا أسماء العلماء والشيوخ الذين أخذ عنهم، وسكتت عن رخلاته في طلب العلم. ولم يصل إلينا إلا ما صرح به البيضاوي نفسه من تفقهه على والده عمر بن محمد بن علي البيضاوي الذي كان قاضي الممالك عند الدولة السلفرية في بلاد فارس[١].

وأشارت بعض المراجع إلى أن القاضي البيضاوي كان متأثراً بالشيخ (محمد بن محمد الكتحتائي) الذي ساعده في تولي القضاء.

ب) تلامذته:

لم يكن حظ البيضاوي في معرفة تلامذته أحسن حالاً من معرفة شيوخه، فلم يذكر المؤرخون أحداً من تلامذة البيضاوي إلا ما جاء في ثنايا الكتب وأسماء المؤلفين. وهم:

١ ـ أحمد بن الحسن، الشيخ فخر الدين، الإمام الجارَ بَرْدِيُّ، العالم الفاضل، الدَّيِّن الوقور الذي كان مواظباً على العلم وإفادة الطلبة[٢].

٢ ـ الشيخ زين الدين الهنكي، تلميذ البيضاوي، الذي صار شيخاً لعضد الدين الإيجي، صاحب التصانيف المشهورة، وقال طاش كبرى زاده: «الهَنْكي»[٣].

٣ ـ الشيخ كمال الدين المراغي، وهو عمر بن إلياس بن يونس، أبو القاسم، الصوفي الذي ولد بأذربيجان سنة (٦٤٣ هـ)[٤].

٤ ـ الشيخ عبد الرحمن الأصبهاني[٥].

٤ ـ أقوال العلماء فيه:

قال ابن كثير في «البداية والنهاية»[٦]: «هو القاضي الإمام العلاّمة، ناصر الدين، عبد الله بن عمر الشيرازي، قاضيها وعالمها وعالم أذربيجان وتلك النواحي»هـ.

وقال ابن السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى»[٧]: «كان إماماً مبرِّزاً، نظَّاراً، صالحاً متعبداً، زاهداً» هـ.

---

(١) انظر «مرآة الجنان» (٤/ ٢٢٠) و«التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان» (ص١١٦) ط: شركة التجارة ـ بغداد سنة ١٣٧٦ هـ.

(٢) انظر ترجمته في «البدر الطالع» (١/ ٤٧) و«الدرر الكامنة» (١/ ١٣٢).

(٣) انظر ترجمته في «البدر الطالع» (١/ ٣٢٦) و«الدرر الكامنة» (٢/ ٤٢٩).

(٤) انظر «الدرر الكامنة» (٣/ ٢٣٢).

(٥) انظر «الغاية القصوى» ـ المقدمة (١/ ٦٧) ـ والمراجع المشار إليها في الهامش ـ ط: دار النصر بمصر سنة ١٩٨٢ م.

(٦) (١٣/ ٣٠٩) تصوير عن الطبعة الأولى عام ١٩٦٦ م.

(٧) (٨/ ١٥٧).

وقال الإسنوي في «طبقات الشافعية»[1]: «كان المذكور عالماً بعلوم كثيرة، صالحاً خيِّراً» هـ.

وقال اليافعي في «مرآة الجنان»[2]: «الإمام، أعلم العلماء الأعلام، ذو التصانيف المفيدة المحققه والمباحث الحميدة المدقّقه» هـ.

٥ ـ مؤلفاته[3].

١ ـ «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» ويسمى «تفسير البيضاوي» وهو كتابنا هذا.

٢ ـ «تحفة الأبرار» في شرح مصابيح السنة للبغوي في الحديث الشريف.

٣ ـ «الغاية القصوى في دراية الفتوى» في فروع الفقه الشافعي.

٤ ـ «شرح التنبيه للشيرازي» في الفقه الشافعي. ذكره ابن كثير.

٥ ـ «منهاج الوصول إلى علم الأصول».

٦ ـ «شرح منهاج الوصول».

٧ ـ «شرح المنتخب» في أصول الفقه للإمام فخر الدين الرازي.

٨ ـ «شرح المحصول» في أصول الفقه للإمام فخر الدين الرازي. أيضاً ذكره ابن كثير.

٩ ـ «مرصاد الأفهام إلى مبادىء الأحكام» وهو شرح مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه.

١٠ ـ «طوالع الأنوار في أصول الدين».

١١ ـ «مصباح الأرواح» اختصر فيه طوالع الأنوار في أصول الدين.

١٢ ـ «الإيضاح في أصول الدين» وهو شرح على كتاب المصباح.

١٣ ـ «شرح الكافية» في النحو لابن الحاجب.

١٤ ـ «لب الألباب في علم الإعراب» اختصر فيه الكافية لابن الحاجب.

١٥ ـ «شرح المطالع» وهو مطالع الأنوار في الحكمة والمنطق للقاضي سراج الدين الأرموي.

١٦ ـ «متن في علم الهيئة» وهو مختصر ذكره الخفاجي.

١٧ ـ «نظام التواريخ» باللغة الفارسية، من ابتداء الخلق حتى سنة (٦٧٤ هـ).

١٨ ـ «التهذيب والأخلاق» في التصوف، ذكره محب الدين الخطيب في مقدمة نهاية السول.

١٩ ـ «رسالة في موضوعات العلم وتعارفها» ذكرها البغدادي والزركلي.

٢٠ ـ «شرح الفصول» لنصير الدين الطوسي، ذكره البغدادي والخوانساري.

٢١ ـ «منتهى المنى في شرح أسماء الله الحسنى» ذكره البغدادي.

---

(١) (١/ ٢٨٣) مطبعة الإرشاد ـ بغداد سنة ١٣٩٠ هـ. تحقيق الجبوري.

(٢) (٤/ ٢٢٠).

(٣) انظر «بغية الوعاة» (٢/ ٥٠ ـ ٥١). ومعجم المؤلفين (٢/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧ رقم ٨١٣٩) وطبقات المفسرين للداوودي (١/ ٢٤٨ رقم ٢٣٠). والوافي بالوفيات للصفدي (١٧/ ٣٧٩). وكتاب «القاضي البيضاوي» للدكتور محمد الزحيلي. وكتاب «القاضي ناصر الدين البيضاوي وأثره في أصول الفقه» للدكتور: جلال الدين عبد الرحمن. وشذرات الذهب (٥/ ٣٩٢) ومعجم المفسرين لنويهض (١/ ٣١٨) وطبقات المفسرين للسبكي (٨/ ١٥٧) وطبقات الشافعية للقاضي ابن شهبة (٢/ ١٧٢) والأعلام للزركلي (٤/ ١١٠) والتفسير والمفسرون (١/ ٢٨٢).

٦ ـ وفاته:

مات البيضاوي رحمه الله سنة خمس وثمانين وستمائة بتبريز، كذا ذكره الصفدي وقال السبكي: سنة إحدى وتسعين. والله أعلم.

ثانياً ـ التعريف بتفسير العلامة البيضاوي وطريقته في تأليفه:

تفسير العلامة البيضاوي، تفسير متوسط الحجم، جمع فيه صاحبه بين التفسير والتأويل، على مقتضى قواعد اللغة العربية، وقرر فيه الأدلة على أصول أهل السنة.

وقد اختصر البيضاوي تفسيره من الكشاف للزمخشري، ولكنه ترك ما فيه من اعتزالات، وإن كان أحياناً يذهب إلى ما يذهب إليه صاحب الكشاف، ومن ذلك أنه عندما فسر قوله تعالى في الآية (٢٧٥) من سورة البقرة: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ وجدناه يقول: «إلا قياماً كقيام المصروع، وهو وارد على ما يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع».. ثم يفسر المس بالجنون ويقول: «وهذا أيضاً من زعماتهم أن الجني يمس الرجل فيخلط عقله»[1].

ولا شك أن هذا موافق لما ذهب إليه الزمخشري من أن الجن لا تسلط لها على الإنسان إلا بالوسوسة والإغواء.

كما أننا نجد البيضاوي قد وقع فيما وقع فيه صاحب الكشاف، من ذكره في نهاية كل سورة حديثاً في فضلها وما لقارئها من الثواب والأجز عند الله، وقد عرفنا قيمة هذه الأحاديث فقلنا إنها موضوعة باتفاق أهل الحديث، ولست أعرف كيف اغتر بها البيضاوي فرواها وتابع الزمخشري في ذكرها عند آخر تفسيره لكل سورة، مع ماله من مكانة علمية، وسيأتي اعتذار بعض الناس عنه في ذلك، وإن كان اعتذاراً ضعيفاً، لا يكفي لتبرير هذا العمل الذي لا يليق بعالم كالبيضاوي له قيمته ومكانته.

وكذلك استمد البيضاوي تفسيره من التفسير الكبير المسمى بـ «مفاتيح الغيب» للفخر الرازي، ومن تفسير الراغب الأصفهاني، وضم لذلك بعض الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين، كما أنه أعمل فيه عقله، فضمنه نكتاً بارعة، ولطائف رائعة، واستنباطات دقيقة، كل هذا في أسلوب رائع موجز؛ وعبارة تدق أحياناً وتخفى إلا على ذي بصيرة ثاقبة، وفطنة نيرة. وهو يهتم أحياناً بذكر القراءات، ولكنه لا يلتزم المتواتر منها فيذكر الشاذ، كما أنه يعرض للصناعة النحوية، ولكن بدون توسع واستفاضة، كما أنه يتعرض عند آيات الأحكام لبعض المسائل الفقهية بدون توسع منه في ذلك، وإن كان يظهر لنا أنه يميل غالباً لتأييد مذهبه وترويجه، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٢٢٨) من سورة البقرة: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾. يقول ما نصه: «وقروء جمع قرء، وهو يطلق للحيض كقوله ﷺ: «دعي الصلاة أيام أقرائك»[2]. والطهر الفاصل بين الحيضتين، كقول الأعشى:

---

(١) (١/٢٦٧) دار الكتب العربية ١٣٣٠هـ.

(٢) أخرجه أبو داود (١/٢٠٨ رقم ٢٩٧) والترمذي (١/٢٢٠ رقم ١٢٦) وابن ماجه (١/٢٠٤ رقم ٦٢٥) إسناده ضعيف من حديث عدي بن ثابت عن أبيه عن جده وله شواهد من حديث عائشة وأم سلمة وسودة بنت زمعة فهو

مـــورثـــة مـــالاً وفـــي الحـــي رفعـــة لمـــا ضـــاع فيهـــا مـــن قـــروء نســـائكـــا

وأصله الانتقال من الطهر إلى الحيض، وهو المراد في الآية؛ لأنه الدال على براءة الرحم لا الحيض كما قاله الحنفية، لقوله تعالى: ﴿فطلقوهن لعدتهن﴾ [الطلاق: ١] أي وقت عدتهن، والطلاق المشروع لا يكون في الحيض، وأما قوله: «طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان»(١) فلا يقاوم ما رواه الشيخان(٢) في قصة ابن عمر: «مره فليراجعها، ثم ليمسكها حتى تطهر، ثم تحيض، ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك بعد، وإن شاء طلق قبل أن يمس، فتلك العدة التي أمر الله تعالى أن تطلق لها النساء»(٣).

كذلك نجد البيضاوي كثيراً ما يقرر مذهب أهل السنة، ومذهب المعتزلة عندما يعرض لتفسير آية لها صلة بنقطة من نقط النزاع بينهم.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآيتين (٢و٣) من سورة البقرة: ﴿هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾ نراه يعرض لبيان معنى الإيمان والنفاق عند أهل السنة والمعتزلة والخوارج، بتوسع ظاهر، وترجيح منه لمذهب أهل السنة(٤).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في أول سورة البقرة أيضاً: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ نراه يتعرض للخلاف الذي بين أهل السنة والمعتزلة فيما يطلق عليه اسم الرزق، ويذكر وجهة نظر كل فريق، مع ترجيحه لمذهب أهل السنة(٥).

والبيضاوي رحمه الله مقل جداً من ذكر الروايات الإسرائيلية، وهو يصدر الرواية بقوله: روى أو قيل، إشعاراً منه بضعفها.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية(٢٢) من سورة النمل: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ يقول بعد فراغه من تفسيرها: روى أنه عليه السلام لما أتم بناء بيت المقدس تجهز، للحج... إلى آخر القصة التي يقف البيضاوي بعد روايتها موقف المجوز لها، غير القاطع بصحتها، حيث يقول ما نصه: «ولعل في عجائب قدرة الله وما خص به خاصة عباده أشياء أعظم من ذلك، يستكبرها من يعرفها، ويستنكرها من ينكرها»(٦).

= بها صحيح انظر نصب الراية للزيلعي (١/ ٢٠٢).

(١) أخرجه الترمذي (٣/ ٤٨٨ رقم ١١٨٢) وأبو داود (٢/ ٦٣٩ رقم ٢١٨٩) والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٣٦٩ ـ ٣٧٠، ٤٢٦) وابن ماجه (١/ ٦٧٢ رقم ٢٠٨٠) والحاكم (٢/ ٢٠٥) من حديث عائشة قال الترمذي: «حديث عائشة غريب، لا نعرفه إلا من حديث مظاهر بن أسلم، ومظاهر لا نعرفُ له في العلم غير هذا الحديث» هـ، وقال أبو داود: وهو حديث مجهول، وقال الألباني: في الإرواء (٧/ ١٤٨ رقم ٢٠٦٦): ضعيف.

(٢) البخاري (٩/ ٦٥٣ رقم ٤٩٠٨) ومسلم (٢/ ١٠٩٣ رقم ١٤٧١).

(٣) (١/ ٢٤٠).

(٤) (١/ ٥٣ ـ ٥٦).

(٥) (١/ ٥٨ ـ ٥٩).

(٦) (٤/ ١١٥).

ثم إن البيضاوي إذا عرض للآيات الكونية، فإنه لا يتركها بدون أن يخوض في مباحث الكون والطبيعة، ولعل هذه الظاهرة سرت إليه من طريق التفسير الكبير للفخر الرازي، الذي استمد منه كما قلنا، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١٠) من سورة الصافات: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ نراه يعرض لحقيقة الشهاب ذلك فيقول: «وما قيل إنه بخار يصعد إلى الأثير فيشتعل فتخمين، إن صح لم ينافِ ذلك» إلى آخر كلامه في هذا الموضع[١].

هذا وأرى أن أسوق لك بعض العبارات الشارحة لنهج البيضاوي في تفسيره، والمبينة لمصادره التي رجع إليها واختصره منها، كشاهد على بعض ما ذكرناه من ناحية، وتتميماً للفائدة من ناحية أخرى.

قال البيضاوي نفسه في مقدمة تفسيره هذا ـ بعد الديباجة ـ ما نصه:

«ولطالما أحدث نفسي بأن أصنف في هذا الفن ـ يعني التفسير ـ كتاباً يحتوي على صفوة ما بلغني من عظماء الصحابة، وعلماء التابعين ومن دونهم من السلف الصالحين، وينطوي على نكات بارعة، ولطائف رائعة، استنبطتها أنا ومن قبلي من أفاضل المتأخرين، وأماثل المحققين، ويعرب عن وجوه القراءات المشهورة المعزية إلى الأئمة الثمانية المشهورين، والشواذ المروية عن القراء المعتبرين، إلا أن قصور بضاعتي يثبطني عن الإقدام، ويمنعني عن الانتصاب في هذا المقام، حتى سنح لي بعد الاستخارة ما صمم به عزمي على الشروع فيما أردته، والإتيان بما قصدته، ناوياً أن أسميه بـ «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»[٢].

ويقول في آخر الكتاب ما نصه: «وقد اتفق إتمام تعليق سواد هذا الكتاب المنطوي على فرائد ذوي الألباب، المشتمل على خلاصة أقوال أكابر الأئمة، وصفوة آراء أعلام الأمة، في تفسير القرآن وتحقيق معانيه، والكشف عن عويصات ألفاظه ومعجزات مبانيه، مع الإيجاز، الخالي عن الإخلال والتلخيص العاري عن الإضلال، الموسوم بـ «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»[٣].

وكأني به في هذه الجملة الأخيرة، يشير إلى أنه اختصره من تفسير الكشاف ولخص منه، ضمن ما اختصره ولخصه من كتب التفسير الأخرى، غير أنه ترك ما فيه من نزعات الضلال وشطحات الاعتزال.

ويقول الجلال السيوطي رحمه الله في حاشيته على هذا التفسير المسمى بـ «نواهد الأبكار وشوارد الأفكار» ما نصه: «وإن القاضي ناصر الدين البيضاوي لخص هذا الكتاب فأجاد، وأتى بكل مستجاد، وميز ما فيه أماكن الاعتزال، وطرح موضع الدسائس وأزال، وحرر مهمات، واستدرك تتمات، فظهر كأنه سبيكة نضار واشتهر اشتهار الشمس في رابعة النهار، عكف عليه العاكفون، ونهج بذكر محاسنه الواصفون، وذاق طعم دقائقه العارفون، فأكب عليه العلماء تدريساً ومطالعةً، وبادروا إلى تلقيه بالقبول رغبة فيه ومسارعة»[٤].

---

(١) (٥/٣).

(٢) (١/٦).

(٣) (٥/٢٠٤).

(٤) المدخل المنير لشيخ مخلوف ص٤١، مطبعة المعاهد سنة ١٣٥١ هـ.

ويقول صاحب «كشف الظنون» (١/ ١٢٧ ـ ١٢٨) ما نصه: «وتفسيره هذا ـ يريد تفسير البيضاوي ـ كتاب عظيم الشأن، غني عن البيان، لخص فيه من الكشاف ما يتعلق بالإعراب والمعاني والبيان، ومن التفسير الكبير ما يتعلق بالحكمة والكلام، ومن تفسير الراغب ما يتعلق بالاشتقاق وغوامض الحقائق ولطائف الإشارات وضم إليه ما روى زناد فكره من الوجوه المعقولة، فجلا رين الشك عن السريرة، وزاد في العلم بسطة وبصيرة، كما قال المنشي:

أولو الألباب لم يأتوا ... بكشف قناع ما يتلى
ولكن كان للقاضي ... يد بيضاء لا تبلى

ولكونه متبحراً جال في ميدان فرسان الكلام، فأظهر مهارته في العلوم حسبما يليق بالمقام، كشف القناع تارة عن وجوه محاسن الإشارة، وملح الاستعارة، وهتك الأستار الأخرى عن أسرار المعقولات بيد الحكمة ولسانها، وترجمان المناطقة وميزانها، فحل ما أشكل على الأنام، وذلل لهم صعاب المرام، وأورد في المباحث الدقيقة ما يؤمن به عن الشبه المضلة، وأوضح لهم مناهج الأدلة، والذي ذكره من وجوه التفسير ثانياً أو ثالثاً أو رابعاً بلفظ قيل، فهو ضعيف ضعف المرجوح أو ضعف المردود.

وأما الوجه الذي تفرد فيه، وظن بعضهم أنه مما لا ينبغي أن يكون من الوجوه التفسيرية السنية، كقوله: وحمل الملائكة العرش وحفيفهم حوله مجاز، عن حفظهم وتدبيرهم له[1] ونحوه، فهو ظن من لعله يقصر فهمه عن تصور مبانيه، ولا يبلغ علمه إلى الإحاطة بما فيه فمن اعترض بمثله على كلامه كأنه ينصب الحبالة للعنقاء، ويروم أن يقبض نسر السماء؛ لأنه مالك زمام العلوم الدينية، والفنون اليقينية، على مذهب أهل السنة والجماعة، وقد اعترفوا له قاطبة بالفضل المطلق، وسلموا إليه قصب السبق، فكان تفسيره يحتوي فنوناً من العلم وعرة المسالك، وأنواعاً من القواعد المختلفة الطرائق، وقل من برز، في فن إلا وصده عن سواه وشغله، والمرء عدو لما جهله، فلا يصل إلى مرامه إلا من نظر إليه بعين فكره، وأعمى عين هواه، واستبعد نفسه في طاعة مولاه، حتى يسلم من الغلط والزلل، ويقتدر على رد السفسطة والجدل.

وأما أكثر الأحاديث التي أوردها في أواخر السور، فإنه لكونه ممن صفت مرآة قلبه، وتعرض لنفحات ربه، تسامح فيه، وأعرض عن أسباب التجريح والتعديل، ونحا نحو الترغيب والتأويل، عالماً بأنها مما فاه صاحبه بزور، ودلى بغرور.

ثم إن هذا الكتاب رزق من عند الله سبحانه وتعالى بحسن القبول عند جمهور الأفاضل والفحول، فعكفوا عليه بالدرس والتحشية، فمنهم من علق تعليقة على سورة منه، ومنهم من حشى تحشية تامة، ومنهم من كتب على بعض مواضع منه» هـ.

ثم عد من هذه الحواشي ما يزيد عدده على الأربعين، ولا أطيل بذكرها، ومن شاء الاطلاع على

---

(١) انظر تفسير البيضاوي لقوله تعالى في الآية (٧) من سورة غافر: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ الآية (٥/ ٣٤).

ذلك فليرجع إليه في موضعه الذي أشرت إليه، وحسبي أن أقول: ـ والقائل الذهبي ـ إن أشهر هذه الحواشي وأكثرها تداولاً ونفعاً: حاشية قاضي زاده، وحاشية الشهاب الخفاجي، وحاشية القونوي.

وجملة القول، فالكتاب من أمهات كتب التفسير، التي لا يستغني عنها من يريد أن يفهم كلام الله تعالى، ويقف على أسراره ومعانيه، وهو مطبوع عدة طبعات ومتوسط في حجمه[1].

ولما كان لهذا الكتاب تلك المكانة الرفيعة بين كتب التفسير، كان ينبغي أن يتوفر الكتاب في المكتبات بشكل أنيق، وأن يكون محققاً فهو من أجدر الكتب التي ينبغي تحقيقها، ولكن للأسف لا توجد في المكتبات سوى نسخ قديمة، منها نسخة قديمة مكتوبة بخط اليد، وقد قامت دار الفكر بتصويرها، ومنها نسخ مطبوعة قديمة وبهامشها حاشية الكازورني، ثم قامت دار الكتب العلمية في بيروت بطباعة هذا الكتاب طباعة حديثة وهو ـ مع الأسف ـ مليء بالأخطاء، ولا تكاد صفحة تخلو من خطأ، فأحياناً تترك كلمات وأحياناً تترك أسطر، وكثيراً ما غيّر شكل الكلمة الإملائية.

لذلك وقع في قلبنا خدمة هذا الكتاب الجليل، بشكل يتفق مع مكانته وشهرته العلمية، وكذلك طمعاً في ثواب الله، وخدمة للإسلام، والمسلمين فالله نسأل أن يجعل ما قدمناه في ميزان حسناتنا يوم العرض عليه.

ثالثاً ـ مقارنة مختصرة بين تفسير البيضاوي وتفسير أبي السعود:

نظراً لاشتهار تفسير البيضاوي في أرجاء العالم الإسلامي وقد عكف عليه طلاب العلم والعلماء بالدرس والشرح، فقد عكف العلامة أبو السعود ومنذ مطلع حياته على تفسيري: الكشاف، والبيضاوي، وكان يدور في خلده أثناء عكوفه على المدارسة فيهما أن ينظم درر فوائدهما في سمط دقيق، ويرتب غرر فرائدهما على ترتيب أنيق، ويضيف إليهما ما ألفاه في تضاعيف الكتب من جواهر الحقائق على نسق أنيق وأسلوب بديع، وتحقيقات رصينة وتدقيقات متينة، ويبرز، من دقائق سر الكتاب ما تطمئن إليه النفوس وتقر به العيون، ورغم كثرة مشاغله وضيق وقته انتهز، بعض الفرص ما دوّن به تفسيره الذي سماه «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم».

وقد كان تفسير أبي السعود بحق من أجود التفاسير وأجلها حيث كشف فيه عن أسرار البلاغة القرآنية ولطائف العبارات والإشارات بما لم يسبقه إليه أحد في بابه، ولذلك ذاعت شهرته في الأقطار والأمصار وعكف عليه العلماء بالدرس.

ومن خلال المتابعة بين تفسيري البيضاوي وأبي السعود نجد أن أبا السعود اعتمد اعتماداً أساسياً على تفسير البيضاوي فكان في الغالب ينقل عبارة البيضاوي نفسها أو يكتبها بأسلوبه البليغ الرصين بعبارة قد تكون أوضح أو أكثر غموضاً من عبارة البيضاوي، وبإمكاننا إثبات هذه المقارنة بين التفسيرين:

---

(١) التفسير والمفسرون، تأليف: د. «محمد حسين الذهبي» رحمه الله تعالى (١/ ٢٨٢ ـ ٢٨٨).

١ ـ قد يختصر أبو السعود ما ورد في البيضاوي، فقد يترك بعض الروايات أو الأقوال التي ذكرها البيضاوي فيذكر قولاً واحداً، بينما يكون البيضاوي قد ذكر أكثر من قول.

٢ ـ كثيراً ما يردّ أبو السعود على البيضاوي من خلال شرحه على البيضاوي إن اختار رأياً مخالفاً، فيقول: وأما ما قيل كذا وكذا، فيرده.

٣ ـ قد تجد تفصيلاً عند أبي السعود دون البيضاوي وقد تجد تفصيلاً عند البيضاوي أعرض عنه أبو السعود.

٤ ـ قد تجد البيضاوي أكثر غوصاً وتعرضاً للصرف وبيان أصول الكلمات واشتقاقها.

٥ ـ البيضاوي يشير للنكات البلاغية ولطائف الإشارات ولا يكررها في بقية الآيات وقد يذكر أنه وردت الإشارة إليها عند آية كذا وكذا، بينما أبو السعود يشير لكل نكتة بلاغية كلما وردت.

٦ ـ أبو السعود اعتمد على القراءة المشتهرة قراءة حفص عن عاصم، بينما اعتمد البيضاوي على غير قراءة حفص ولعلها قراءة نافع أو ابن كثير.

٧ ـ أبو السعود يذكر القراءات المتواترة وغير المتواترة، وقد يذكر قراءات لم يذكرها البيضاوي إلا أن أبا السعود يذكر المتواتر وغيره وبلفظ قرىء كذا وقرىء كذا فهو لا يفرّق بين القراءة المتواترة وغيرها.

أما البيضاوي فيذكر القراءات المتواترة ويشير لأصحابها أما القراءات غير المتواترة فيذكرها بلفظ قرىء.

٨ ـ البيضاوي يضعّف بعض القراءات المتواترة من جهة اللغة اعتماداً على مذهب نحوي كما ضعف قراءة حمزة في أول النساء «والأرحام».

٩ ـ أبو السعود والبيضاوي قد يذكران حديثاً صحيحاً بلفظ روي المنبىء بضعفه عند المحدثين وقد يكون في الصحيحين.

١٠ ـ أبو السعود والبيضاوي يذكران أحاديث في فضائل كل سورة في نهايتها، وهي أحاديث موضوعة في غالبها باتفاق المحدثين.

١١ ـ أبو السعود يتبع البيضاوي في ما وقع فيه من هفوات اعتزالية تسربت إليه من الكشاف.

وعليه فلكل تفسير من التفسيرين ميزة خاصة

---

(١) وقد قام المحقق «محمد صبحي حسن الحلاق» بتحقيق وتخريج تفسير أبي السعود ولله الحمد والمنة.

رابعاً ـ وصف المخطوط الذي اعتمدنا عليه:

المخطوطة «أ»: أول المخطوط: الحمد لله الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً...

آخر المخطوط: من قرأ المعوذتين فكأنما قرأ الكتب التي أنزلها الله تعالى.

الخط: نسخي معتاد.

خ: ٥ ذو الحجة/١٠٥٦ هـ.

ق: ٣٨٧ م: ٣٣س: ٣٠×٢١

ملاحظات: نص القرآن بالمداد الأحمر، يبدأ من الفاتحة إلى الناس من وقف الإمام يحيى.

خامساً ـ منهجنا في تحقيق الكتاب وتخريجه:

١ ـ نسخ المخطوط.

٢ ـ مقدمة وتحتوي على:

١ ـ التعريف بمؤلف هذا التفسير.

٢ ـ التعريف بتفسير البيضاوي وطريقته في تأليفه.

٣ ـ مقارنة مختصرة بين تفسير البيضاوي وتفسير أبي السعود.

٤ ـ وصف المخطوط.

٣ ـ منهجنا في تحقيق الكتاب وتخريجه.

٤ ـ تحقيق نص التفسير وضبطه بالشكل، ليزيل كثيراً من غموض العبارة.

٥ ـ تخريج الآيات الواردة في التفسير بذكر رقمها وسورها.

٦ ـ ضبط القراءات ـ المتواترة وغيرها ـ بالرجوع إلى كتب القراءات.

٧ ـ تخريج الأحاديث من مصادرها.

٨ ـ بيان مرتبة كل حديث من الصحة أو الضعف.

٩ ـ ترجمة الأعلام المذكورة في التفسير غالباً.

١٠ ـ تعريف بالفروق الواردة في التفسير.

١١ ـ ووضع اسم السورة ورقم الآيات المفسرة في أعلى الصفحة.

١٢ ـ شرح الكلمات الغريبة، والتعليق على بعض المسائل التي تدعو الحاجة إليها.

١٣ ـ إضافة النكات البلاغية التي أضافها أبو السعود على البيضاوي لتزداد فائدة الكتاب العلمية.

١٤ ـ التعليق على ما وقع فيه البيضاوي:

أ ـ تضعيف بعض القراءات المتواترة استناداً لمذهب نحوي، كما ضعف قراءة حمزة في أول النساء «والأرحام» بالكسر، رغم أنها صحيحة من حيث ثبوت القراءة بها ومن حيث اللغة كما ذكر أبو حيان، وقد تسرب إليه هذا التضعيف من الكشاف دون الانتباه إليه، وقد ورد ذلك في أكثر من موطن.

ب ـ تسربت إليه بعض الاعتزاليات من الكشاف، وقد ورد ذلك في أكثر من موطن فنبهت عليها مبيناً

أقوال أهل السنة في ذلك.

ج - أورد في نهاية كل سورة حديثاً في فضلها وهي في جملتها موضوعة باتفاق أهل الحديث.

د - أورد أحاديث في البخاري ومسلم أو في أحدهما، ويصدرها بكلمة «روي» وهذه الصيغة من صيغ التمريض التي يُصدر بها الحديث الضعيف دون الحسن والصحيح فتنبه.

هـ - البيضاوي شافعي المذهب، وقد ينسب للحنفية أقوالاً غير محررة، كما في مسألة بيع دور مكة وأجارتها حيث نقل عنهم عدم جواز بيع دور مكة وأجارتها والفتوى عندهم بخلافه.

١٥ ـ كثيراً ما يحيل البيضاوي على مواطن سابقة، فيذكر أنه قد مرّ تحقيقه في سورة كذا ولم يذكر الآية التي بحث فيها ذلك المبحث، فنعود للموطن الذي حقق عنده البحث ونشير إليه.

١٦ ـ التعليق على تأويلات البيضاوي وإثبات قول السلف رضي الله عنهم.

اللهم اجعل أعمالنا كلها صالحة...
واجعلها لوجهك خالصة...
ولا تجعل لأحد فيها شيئاً.

تفسير البيضاوي

المسمّى

أنوار التنزيل وأسرار التأويل

تأليف

القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي

ت: ٧٩١ هـ

حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وضبط نصه

محمد صبحي بن حسن حلاق و الدكتور محمود أحمد الأطرش

تنبيه

ـ تم ضبط الآيات القرآنية في صلب التفسير بما يتفق مع التفسير، وقد اعتمد البيضاوي على غير قراءة حفص عن عاصم.

ـ إتماماً لفائدة الكتاب العلمية تمت إضافة النكات البلاغية التي أضافها أبو السعود على البيضاوي، وقد تم ذكرها في الهامش، وقد ذكرناها في الغالب بعبارة تكون أوضح من عبارة أبي السعود وقد تمت الإشارة في الهامش إلى تفسير أبي السعود بالحرف «س» أي أن ما ذكره في الهامش «س» يعني أنه مأخوذ من أبي السعود.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾
«قرآن كريم»[١]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

خطبة الكتاب

الحمد لله الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، فتحدى بأقصر سورة من سوره مصاقع الخطباء من العرب العَرْباء فلم يجد به قديراً، وأفحم من تصدى لمعارضته من فصحاء عدنان وبُلَغَاء قحطان حتى حَسِبوا أنهم سُحِّروا تسحيراً، ثم بين للناس ما نزل إليهم حسبما عنّ لهم من مصالحهم ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب تذكيراً، فكشف لهم قناع الانغلاق عن آيات محكمات هُنَّ أم الكتاب وأُخر متشابهات هن رموز الخطاب تأويلاً وتفسيراً، وأبرز غوامض الحقائق ولطائف الدقائق ليتجلى لهم خفايا الملك والملكوت وخبايا قدس الجبروت ليتفكروا فيها تفكيراً، ومهد لهم قواعد الأحكام وأوضاعها من نصوص الآيات وألْمَاعَها ليذهب عنهم الرجس ويطهرهم تطهيراً، فمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد فهو في الدارين حميد وسعيد، ومن لم يرفع إليه رأسه وأطفأ نبراسه يعش ذميماً ويصلى سعيراً. فيا واجب الوجود ويا فائض الجود ويا غاية كل مقصود صل عليه صلاة توازي غناءه وتجازي عناءه وعلى من أعانه وقرر تبيانه تقريراً، وأَفِضْ علينا من بركاتهم واسلك بنا مسالك كراماتهم، وسلم عليهم وعلينا تسليماً كثيراً.

(وبعدُ) فإن أعظم العلوم مقداراً وأرفعها شرفاً ومناراً علمُ التفسير الذي هو رئيس العلوم الدّينية ورأسها ومبنى قواعد الشرع وأساسها، لا يليق لتعاطيه والتصدي للتكلم فيه إلا من برع في العلوم الدينية كلها أصولها وفروعها وفاق في الصناعات العربية والفنون الأدبية بأنواعها[٢]. ولطالما أحدث

---

(١) النحل: ٤٤.

(٢) بين العلماء أنواع العلوم التي يجب توفرها في المفسر وهي: علم اللغة والنحو والصرف، وعلم البلاغة، وعلم أصول الفقه، وعلم التوحيد، ومعرفة أسباب النزول، والقصص، والناسخ والمنسوخ، والأحاديث المبينة للمجمل والمبهم، وعلم الموهبة وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم ولا يناله من في قلبه بدعة أو كبر أو حب دنيا أو ميل إلى المعاصي، قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾. وقال الشافعي:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور ... ونور الله لا يهدى لعاصي

وهذه العلوم إنما هي لتحقيق أعلى مراتب التفسير ومعرفة دقائق أسراره وتأويل المتشابهات بالمحكمات ونحوها، أما تدبر آياته بحيث يستشعر المرء عظمة ربه سبحانه وتعالى والتي يفهمها الإنسان عند إطلاق اللفظ

نفسي بأن أصنف في هذا الفن كتاباً يحتوي على صفوة ما بلغني من عظماء الصحابة وعلماء التابعين ومن دونهم من السلف الصالحين، وينطوي على نُكَتٍ بارعة ولطائفَ رائعة استنبطتُها أنا ومَنْ قبلي من أفاضل المتأخرين وأماثل المحققين، ويعرب عن وجوه القراءات المشهورة المعزية[١] إلى الأئمة الثمانية المشهورين والشواذّ المروية عن القراء المعتبرين، إلا أن قصور بضاعتي يثبطني عن الإقدام ويمنعني عن الانتصاب في هذا المقام، حتى سنح لي بعد الاستخارة ما صَمَّمَ به عزمي على الشروع فيما أردته والإتيان بما قصدته، ناوياً أن أسميَه بعد أن أتممه «بأنوار التنزيل وأسرار التأويل». فها أنا الآن أشرع وبحسن توفيقه أقول وهو الموفق لكل خير ومعطي كل مسؤول.

* * *

= فهذا قدر مشترك بين عامة الناس وهو المأمور به للتدبر والتذكر لأنه سبحانه سهله ويسره، وذلك أدنى مراتب التفسير. انظر مناهل العرفان، محمد عبد العظيم الزرقاني (١/٥١٩) الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(١) المشهور «المعزوّة» بالواو، ويجوز أن تكون بالياء وهي لغة (المصباح المنير مادة «عزو») ويريد بقوله: القراءات المشهورة المعزية إلى الأئمة الثمانية المشهورين، وهم السبع المشهورون إضافة إلى يعقوب البصري.

سورة الفاتحة ١
وآياتها سبع

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾
إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ
ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

وتسمى أم القرآن، لأنها مُفْتتحُه ومبدؤه فكأنها أصله ومنشؤه؛ ولذلك تسمى أساساً، أو لأنها تشتمل على ما فيه من الثناء على الله سبحانه وتعالى والتعبد بأمره ونهيه وبيان وعده ووعيده، أو على جملة معانيه من الحِكَم النظريّة والأحكام العملية التي هي سلوك الطريق المستقيم والاطّلاعُ على مراتب السعداء ومنازل الأشقياء. وسورة الكنز والوافية والكافية لذلك. وسورة الحمد والشكر والدعاء وتعليم المسألة، لاشتمالها عليها. والصلاة، لوجوب قراءتها أو استحبابها فيها. والشافية والشفاء، لقوله عليه الصلاة والسلام: «هي شفاء من كل داء»[1]. والسبع المثاني، لأنها سبع آيات بالاتفاق، إلا أن منهم من عدّ التسمية دون «أنعمت عليهم»، ومنهم من عكس، وتثنى في الصلاة. أو الإنزالِ، إن صح أنها نزلت بمكة حين فرضت الصلاة وبالمدينة حين حولت القبلة[2]، وقد صح أنها مكية لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾[3]، وهو مكي بالنص[4].

---

(١) وهو حديث ضعيف: أخرجه الدارمي (٢/ ٤٤٥) والبيهقي في الشعب (٢/ ٤٥٠ رقم ٢٣٧٠) وقال هذا منقطع وأورده التبريزي في «مشكاة المصابيح» (١/ ٦٦٧ رقم ٢١٧٠) وعزاه إلى الدارمي والبيهقي في شعب الإيمان. وأورده السيوطي في «الجامع الصغير» رقم: «٥٨٢٧» وعزاه للبيهقي أيضاً من حديث عبدالملك بن عمير مرسلاً ورمز السيوطي لضعفه وضعفه الألباني أيضاً في «ضعيف الجامع» (٤/ ٨٨ رقم ٣٩٥٥).

(٢) اختار النسفي القول بأن الفاتحة مكية ومدنية، فقال: (والأصح أنها مكية ومدنية، نزلت بمكة حين فرضت الصلاة، ثم نزلت بالمدينة حين حولت القبلة إلى الكعبة) تفسير النسفي (١/ ٣).

(٣) الحجر «٨٧».

(٤) استدل البيضاوي على مكية سورة الفاتحة بآية سورة الحجر، لأنه عبر بالماضي «آتيناك» وسورة الحجر مكية.. لكنه لا يلزم من ذلك كون الفاتحة مكية، لأنه كثيراً ما يرد الماضي بمعنى المستقبل كما في قوله تعالى: «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً» ـ الفتح «١» ـ وقوله: «إنا أعطيناك الكوثر» ـ الكوثر «١» ـ. والأقوى من ذلك هو الاستدلالُ=

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ من الفاتحة ومن كل سورة[١]، وعليه قراء مكة والكوفة وفقهاؤهما وابن المبارك[٢] رحمه الله تعالى والشافعي[٣]. وخالفهم قراء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها ومالك[٤] والأوزاعي[٥]، ولم ينص أبو حنيفة[٦] رحمه الله تعالى فيه بشيء فَظُنّ أنها ليست من السورة عنده، وسئل محمد بن الحسن[٧] عنها فقال: ما بين الدفتين كلام الله تعالى. ولنا أحاديث كثيرة: منها ما روى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه، أنه عليه الصلاة والسلام قال: «فاتحة الكتاب سبع آيات، أولاهن بسم الله الرحمن الرحيم»[٨]. وقول أم سلمة رضي الله عنها: قرأ رسول الله ﷺ الفاتحة وعدّ بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين آية[٩]. ومن أجلهما اختلف

= بالنقل عن الصحابة الذي شاهدوا الوحي والتنزيل. (روح المعاني ١/ ٣٣).

(١) ذهب البيضاوي إلى أن البسملة آية من الفاتحة ومن كل سورة، وهذا مذهبه ـ مذهب الشافعية ـ وهي مسألة ذات خلاف شديد بين العلماء، ولكل فريق أدلته، وقد اتفقوا على أنها بعض آية من سورة النمل.
ولعل أوفق الآراء في ذلك أنها آية مستقلة في بداية كل سورة ذكرت فيها، وإنما كتبت للفصل والتبرك، ويدل عليه ما ورد عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم. رواه أبو داود بإسناد صحيح، كما ذكر الشوكاني في فتح القدير (١/ ١٧). وانظر أهم أدلة كل فريق في تفسير آيات الأحكام للصابوني (١/ ٤٧).

(٢) عبدالله بن المبارك، ولد (١١٨)هـ، وتوفي (١٨١)هـ، الحافظ، شيخ الإسلام، المجاهد، التاجر، صاحب التصانيف والرحلات، أفنى عمره في الأسفار حاجاً ومجاهداً وتاجراً، كان من سكان خراسان، ومات بهيت على الفرات (الأعلام ٤/ ١١٥).

(٣) الشافعي هو محمد بن إدريس. . أحد أئمة المذاهب الأربعة، ولد بغزة في فلسطين (١٥٠)هـ وتوفي بمصر عام (٢٠٤)هـ، كان أشعر الناس وأعرفهم بالفقه (الأعلام ٦/ ٢٦).

(٤) مالك بن أنس، أبو عبدالله، إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة ولد عام (٩٣)هـ بالمدينة وتوفي فيها عام (١٧٩)هـ من أشهر كتبه «الموطأ» (الأعلام ٥/ ٢٥٧).

(٥) هو عبدالرحمن بن عمرو الأوزاعي، إمام الديار الشامية في الفقه والزهد ولد في بعلبك في لبنان عام (٨٨)هـ. وتوفي في بيروت عام (١٥٧)هـ (الأعلام ٣/ ٣٢٠).

(٦) هو النعمان بن ثابت الكوفي، أحد أئمة المذاهب الأربعة، ولد بالكوفة عام (٨٠)هـ ونشأ بها امتنع عن القضاء ورعاً، وكان قوي الحجة، كريماً في أخلاقه، جواداً، حسن المنطق والصورة قال الشافعي: الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة (الأعلام ٨/ ٣٦).

(٧) محمد بن الحسن الشيباني، إمام بالفقه والأصول، وهو الذي نشر علم أبي حنيفة، ولد بواسط عام (١٣١)هـ ونشأ بالكوفة وتوفي بالري عام (١٨٩)هـ، وكان قوي البيان فصيحاً (الأعلام ٦/ ٨٠).

(٨) حديث أبي هريرة ضعيف.
أخرجه الدارقطني (١/ ٣١٢ رقم ٣٦) عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا قرأتم الحمد لله فاقرؤوا بسم الله الرحمن الرحيم، إنها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني، وبسم الله الرحمن الرحيم إحداها». قال أبو بكر الحنفي: ثم لقيت نوحاً فحدثني عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة بمثله، ولم يرفعه.
وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٣٧٦) وفي الشعب (٢/ ٤٣٠ رقم ٢٣٢٤).

(٩) حديث أم سلمة ضعيف روى الشافعي عن مسلم عن ابن جريج عن ابن أبي مليكة عن أم سلمة أنها قالت «قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتحة الكتاب فعدَّ بسم الله الرحمن الرحيم آية. . .» الحديث كما في «التفسير الكبير» (١/ ١٩٦) للفخر الرازي وتعقبه الألوسي بقوله (١/ ٤٢): «أما ما ذكره ـ الفخر الرازي ـ في الحجة الأولى

في أنها آية برأسها أم بما بعدها، والإجماع على أن ما بين الدفتين كلام الله سبحانه وتعالى، والوفاق على إثباتها في المصاحف مع المبالغة في تجريد القرآن حتى لم تكتب آمين. والباءُ متعلقة بمحذوف تقديره: بسم الله أقرأُ، لأن الذي يتلوه مقروء، وكذلك يضمر كل فاعل ما يَجْعَل التسمية مبدأً له، وذلك أوْلى من أن يضمر أبدأُ لعدم ما يطابقه ويدل عليه؛ أو ابتدائي لزيادة إضمار فيه، وتقديمُ المعمول ههنا أوقعُ كما في قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِاهَا﴾[١] وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[٢] لأنه أهم وأدل على الاختصاص وأدخل في التعظيم وأوفق للوجود فإن اسمه سبحانه وتعالى مُقَدَّم على القراءة، كيف لا وقد جُعِل آلة لها من حيث إن الفعل لا يتم ولا يعتد به شرعاً مالم يصدر باسمه تعالى لقوله عليه الصلاة والسلام: «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر»[٣]. وقيل الباء للمصاحبة، والمعنى متبركاً باسم الله تعالى أقرأ، وهذا وما بعده إلى آخر السورة مقولٌ على ألسنة العباد ليعلموا كيف يُتبركُ باسمه ويُحْمَدُ على نعمه ويُسأل من فضله. وإنما كسرت ومن حق الحروف المفرَدَة أن تفتَح لاختصاصها بلزوم الحرفية والجر[٤]، كما كسرت لامُ الأمر ولامُ الإضافة داخلةً على المُظْهَر للفصل بينهما وبين لامِ الابتداء. والاسمُ عند أصحابنا البصريين من الأسماء التي حُذفت أعجازُها لكثرة الاستعمال وبُنيتَ أوائلها على السكون وأُدْخِل عليها ـ مُبتدأً بها ـ همزةُ الوصل، لأن من دأبهم أن يبتدئوا بالمتحرك ويقفوا على الساكن، ويشهد له تصريفه على أسماء وأسامي وسُمِيّ وسُمِيت ومجيءُ سمًى كهدًى لغةٌ فيه قال:

والله أسماكَ سُمًى مُبارَكاً آثَرك الله بهِ إيثَاركا

والقلبُ بعيد غير مطرد. واشتقاقُه من السموّ لأنه رفعة للمسمى وشعار له، ومن السمة عند

= من حديث أم سلمة بالوجه الذي رواه مخالفاً لما في البيضاوي ـ ص٢ ـ المخالف ـ اعتراض على البيضاوي ـ لما في الكتب الحديثية. فيجاب عنه بأن أبا مليكة لم يثبت سماعه عن أم سلمة. وبتقديره للمعاصرة يقال إن هذا اللفظ لم يوجد في المشهور ولعله نقل بالمعنى لبعض الروايات على حسب ما يلوح له» هـ.

قلت من هذه الروايات ما أخرجه الدارقطني في سننه (١/ ٣١٢ ـ ٣١٣ رقم ٣٧): من طريق ابن جريج عن عبدالله بن أبي مليكة، عن أم سلمة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ يقطع قراءته آية آية: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، واللفظ لعبدالله بن محمد، إسناده صحيح وكلهم ثقات، قال لنا عبدالله بن محمد: ورواه عمر بن هارون عن ابن جريج، فزاد فيه كلاماً.

(١) هود: «٤١».

(٢) الفاتحة: «٥».

(٣) يشير المؤلف رحمه الله تعالى إلى الحديث الذي أخرجه السبكي في طبقاته (١/ ١٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «كلُّ أمرٍ ذي بالٍ لا يُبْدَأُ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع» وهو حديث ضعيف جداً قلت في سنده «ابن عمران» ويُعرف بابن الجندي، ترجمه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٥/ ٧٧) وقال: كان يضعف في روايته، ويطعن عليه في مذهبه ـ «يعنى التشيع» ـ وقال ابن حجر في «اللسان» (١/ ٢٨٨ رقم ٨٥٢): «روى عنه خلق يروي عن البغوي. وقال العتيقي: كان يرمى بالتشيع. وأورد ابن الجوزي في الموضوعات في فضل عليّ حديثاً بسند رجاله ثقات إلا الجندي فقال: هذا موضوع ولا يتعدي الجندي» هـ.

(٤) أي بنيت الباء على الكسر لأنها تلازم الحرفية والجرّ، فكسرت لتشابه حركتُها عَمَلَها.

الكوفيين، وأصلُه وَسَمٌ حذفت الواو وعوضت عنها همزة الوصل ليَقِلّ إعلالُه. ورُدّ بأن الهمزة لم تُعهد داخلةً على ما حذف صدره في كلامهم(١)، ومن لغاته سِمٌ وسُمٌ قال:

بسْمِ الذي في كُلِّ سُورةٍ سِمُهْ

والاسمُ إنْ أريد به اللفظ فغيرُ المسمّى، لأنه يتألف من أصوات متقطعة غير قارّة، ويختلف باختلاف الأمم والأعصار، ويتعدد تارة ويتحد أخرى، والمسمّى لا يكون كذلك. وإن أريد به ذاتُ الشيء فهو المسمّى لكنه لم يشتهر بهذا المعنى، وقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾(٢) و﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾(٣) المراد به اللفظ لأنه كما يجب تنزيه ذاته سبحانه وتعالى وصفاته عن النقائص يجب تنزيه الألفاظ الموضوعة لها عن الرفث وسوء الأدب. أو الاسمُ فيه مُقْحَم كما في قول الشاعر:

إلى الحولِ ثُم اسمُ السلامِ عليكُما

وإن أريد به الصفة ـ كما هو رأي الشيخ أبي الحسن الأشعري(٤) ـ انقسم انقسامَ الصفة عنده: إلى ما هو نفس المسمّى وإلى ما هو غيره وإلى ما ليس هو ولا غيره. وإنما قال بسم الله ولم يقل بالله، لأن التبرك والاستعانة بذكر اسمه(٥)، أو للفرق بين اليمين والتيمّن. ولم تكتب الألف على ما هو وضع الخط لكثرة الاستعمال، وطُوِّلت الباءُ عوضاً عنها. (والله) أصله إله، فحذفت الهمزة وعُوِّض عنها الألفُ واللامُ ولذلك قيل: يا الله ـ بالقطع ـ إلا أنه مختص بالمعبود بالحق. والإله في الأصل لكل معبود، ثم غلب على المعبود بالحق. واشتقاقه من أَلِه إلهة وألوهة وألوهية بمعنى عَبَد ومنه تألّه واستأله، وقيل من أَلِه إذا تحير لأن العقول تتحير في معرفته، أو من أَلَهتُ إلى فلان أي سكنت إليه لأن القلوب تطمئن بذكره والأرواح تسكن إلى معرفته، أو من أَلِه إذا فزع من أمر نزل عليه. وآلَهَهُ غيرُه أجاره إذ العائذُ يَفْزَعُ إليه وهو يجيره حقيقة أو بزعمه، أو من أَلِه الفصيل إذا ولع بأمه إذ العباد يولَعون بالتضرع إليه في الشدائد، أو من وَلِه إذا تحير وتخبط عقله وكان أصله وِلاه فقلبت الواو همزة لاستثقال الكسرة عليها استثقالُ الضمة في وجوه فقيل إله كإعاء وإشاح، ويردُّه الجمع على آلهة دون أَوْلهة، وقيل أصله لاهٍ مصدرُ لاهَ يليه ليْهاً ولاهاً إذا احتجب وارتفع لأنه سبحانه وتعالى محجوب عن إدراك الأبصار ومرتفع على كل شيء وعما لا يليق به ويشهد له قول الشاعر:

كحِلفةٍ من أبي رباحٍ يُشهِدُها لاهُهُ الكِبارُ

---

(١) رجح أبو حيان أن أصله (سَمَو). البحر المحيط (١/ ١٤).

(٢) الرحمٰن: «٧٨».

(٣) الأعلى: «١».

(٤) أبو الحسن الأشعري: هو علي بن إسماعيل بن إسحاق.. من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري. ولد بالبصرة عام (٢٦٠)هـ وتوفي ببغداد عام (٣٢٤)هـ. وتلقى مذهب المعتزلة وتقدم فيهم ثم رجع وجاهر بخلافهم، ومصنفاته كثيرة (الأعلام ٤/ ٢٦٣).

(٥) الاستعانة تارة تكون بذاته تعالى، وحقيقتُها طلبُ المعونة على إيقاع الفعل، أي إفاضة القدرة بما يتمكن به العبد من أداء ما يلزمه. وتارة أخرى باسمه جل وعلا، وحقيقتها طلبُ المعونة في كون الفعل معتداً به شرعاً، فإنه مالم يصدّر باسمه تعالى فإنه يكون بمنزلة المعدوم (أبو السعود ١/ ١٠).

وقيل علمٌ لذاته المخصوصة لأنه يوصف ولا يوصف به[١]، ولأنه لا بد له من اسم تجرى عليه صفاتُه ولا يصلح له مما يطلق عليه سواه، ولأنه لو كان وصفاً لم يكن قول: لا إله إلا الله توحيداً مثل: لا إله إلا الرحمن فإنه لا يمنع الشركة. والأظهرُ أنه وصف في أصله لكنه لما غلب عليه بحيث لا يستعمل في غيره وصار له كالعَلَم مثل: الثريّا والصعق أُجريَ مجراه في إجراء الأوصاف عليه وامتناع الوصف به وعدم تطرق احتمال الشركة إليه، لأن ذاته من حيث هو بلا اعتبار أمر آخر حقيقي أو غيره غير معقول للبشر فلا يمكن أن يدل عليه بلفظ، ولأنه لو دل على مجرد ذاته المخصوصة لما أفاد ظاهر قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[٢] معنى صحيحاً، ولأن معنى الاشتقاق هو كون أحد اللفظين مشاركاً للآخر في المعنى والتركيب وهو حاصل بينه وبين الأصول المذكورة، وقيل أصله لاها بالسريانية فعرّب بحذف الألف الأخيرة وإدخال اللام عليه. وتفخيمُ لامه إذا انفتح ما قبله أو انضم سُنَّة، وقيل مطلقاً. وحذفُ أَلِفِه لحْنٌ تفسُدُ به الصلاة ولا ينعقد به صريح اليمين، وقد جاء لضرورة الشعر:

ألاَ لا بــــارَكَ الله فــــي سُهيــــلِ إذا مـــــا الله بــــارَكَ فـــــي الـــــرِّجَـــالِ

والرحمن الرحيم: اسمان بنيا للمبالغة من رحِم، كالغضبان من غضب والعليم من علم. والرحمةُ في اللغة: رقة القلب وانعطافٌ يقتضي التفضل والإحسان، ومنه الرَّحِم لانعطافها على ما فيها. وأسماءُ الله تعالى إنما تؤخذ باعتبار الغايات التي هي أفعالٌ دون المبادي التي تكون انفعالات. والرحمنُ أبلغ من الرحيم، لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى كما في قَطَّعَ وقَطَعَ وكُبَّار وكِبَار، وذلك إنما يؤخذ تارة باعتبار الكمية وأخرى باعتبار الكيفية، فعلى الأول قيل: يا رحمٰن الدنيا ـ لأنه يعم المؤمن والكافر ورحيم الآخرة ـ لأنه يخص المؤمن، وعلى الثاني قيل: يا رحمٰن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا لأن النعم الأخروية كلها جسام وأما النعم الدنيوية فجليلة[٣] وحقيرة. وإنما قُدِّم[٤] والقياسُ يقتضي الترقي من الأدنى إلى الأعلى لتقدم رحمة الدنيا ولأنه صار كالعَلَم من حيث إنه لا يوصف به غيرُه لأن معناه المنعم الحقيقي البالغُ في الرحمة غايتَها، وذلك لا يَصْدُق على غيره لأن من عداه فهو مستعيض بلطفه وإنعامه يريد به جزيل ثوابٍ أو جميل ثناء أو مزيج رقة الجنسية أو حب المال عن القلب، ثم إنه كالواسطة في ذلك لأن ذات النعم ووجودها والقدرة على إيصالها والداعية الباعثة عليه والتمكن من الانتفاع بها والقوى التي بها يحصل الانتفاع إلى غير ذلك مِنْ خَلْقِه لا يقدر عليها أحد غيره، أو لأن الرحمٰن لما دل على جلائل النعم وأُوْصَلِها ذَكَرَ الرحيم ليتناول ما خرج منها فيكون كالتتمة والرديف له، أو للمحافظة على رؤوس الآي.

والأظهرُ أنه غير مصروف وإن حُظِر اختصاصه بالله تعالى أن يكون له مؤنث على فَعْلى أو فعلانة

---

(١) أي يقال: إله واحد حكيم عليم ولا يقال شيء إله، كما يقال كتاب مرقوم ولا يقال شيء كتاب.

(٢) الأنعام: «٣».

(٣) جليلة أي حقيرة لا قيمة لها، وهو من أسماء الأضداد.

(٤) أي قُدِّم لفظ الرحمن على الرحيم، والقياس يقتضي تقديم الرحيم على الرحمن..

إلحاقاً له بما هو الغالب في بابه. وإنما خص التسمية بهذه الأسماء ليعلم العارف أن المستحق لأن يستعان به في مجامع الأمور هو المعبود الحقيقي الذي هو مولي النعم كلها عاجلها وآجلها جليلها وحقيرها، فيتوجه بشَرِّ أشَرِّهِ إلى جناب القُدُس ويتمسك بحبل التوفيق ويشغل سره بذكره والاستعداد به عن غيره[١].

(٢) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الحمد: هو الثناءُ على الجميل الاختياري من نعمة أو غيرها، والمدحُ: هو الثناء على الجميل مطلقاً. تقول حمدت زيداً على علمه وكرمه، ولا تقول حمدته على حسنه، بل مدحْته. وقيل هما أَخَوان[٢] والشكر: مقابلةُ النعمة قولاً وعملاً واعتقاداً قال:

أفادَتْكُمُ النُّعْمَاءُ مني ثلاثةً   يدي ولساني والضَّميرَ المُحجَّبا

فهو أعم منهما من وجه وأخص من آخر[٣]. ولما كان الحمد من شعبِ الشكر أشيع للنعمة وأدل على مكانها لخفاء الاعتقاد وما في آداب الجوارح من الاحتمال جُعل رأسَ الشكر والعمدةَ، فيه فقال عليه الصلاة والسلام: «الحمد رأس الشكر، ما شكر الله من لم يحمده»[٤].

والذمُّ نقيض الحمد والكفران نقيضُ الشكر. ورفعه بالابتداء وخبرُه لله. وأصله النصب وقد قرىء به[٥]. وإنما عدل عنه إلى الرفع ليدل على عموم الحمد وثباته له دون تجدده وحدوثه[٦] وهو من

---

(١) ولتحريك صفة الرحمة بالعباد فيتراحمون فيما بينهم، ويلتمسون رحمته جل شأنه.

(٢) المدح أعم من الحمد، وهو بمعنى وسَّعْتُ شكره (المصباح المنير للفيومي مادة مدح) وقد أنكر الألوسي على الزمخشري قوله بترادف المدح والحمد (روح المعاني ١/ ٧٠).

(٣) الحمد أعم من الشكر لأنه يفيد الثناء على الجميل الاختياري من نعمة أو غيرها، أما الشكر فهو ثناء على النعمة فقط، فلا يقال شكرته على قوته، ولكن يقال شكرته على إحسانه وكرمه. والحمد أخص من الشكر لأنه يكون باللسان فقط، أما الشكر فباللسان والقلب والجوارح.

(٤) وهو حديث ضعيف أخرجه عبدالرزاق في المصنف (١٠/ ٤٢٤ رقم ١٩٥٧٤) والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٩٦ رقم ٤٣٩٥) من حديث عبدالله بن عمرو وفيه انقطاع، وأورده السيوطي في (الجامع الصغير) (٣/ ٤١٨ رقم ٣٨٣٥ مع الفيض) وعزاه إلى عبدالرزاق في الجامع، وإلى البيهقي في شعب الإيمان. ورمز السيوطي لحسنه، وقال المناوي «قال المصنف في شرح التقريب: رواه الخطابي في غريبه ـ (١/ ٣٤٥ ـ ٣٤٦) ـ والديلمي في الفردوس ـ (٢/ ١٥٥ رقم ٢٧٨٤) ـ بسند رجاله ثقات، لكنه منقطع، وفي حاشية القاضي: منقطع بين قتادة وابن عمرو» هـ.
ورواه البغوي في تفسير (سبحان) من حديث ابن عباس، وفيه: نصر بن حماد ـ وهو ضعيف ـ كما في «الكافي الشاف» لابن حجر ـ (٤/ ٢رقم ٤) ـ وضعف الألباني حديث ابن عمرو في ضعيف الجامع (٣/ ١١٣ رقم ٢٧٨٩).

(٥) قال أبو السعود: (وأصله النصب، كما هو شأن المصادر المنصوبة بأفعالها المضمرة التي لا تكاد تستعمل معها، نحو: شكراً وعجباً، كأنه قيل: نحمد الله حمداً ـ بنونِ الحكاية ـ ليوافق ما في قوله تعالى «إياك نعبد وإياك نستعين» لاتحاد الفاعل في الكل) تفسير أبو السعود ١/ ١٢. .

(٦) الجملة الاسمية والجملة الفعلية
الجملة الاسمية تفيد الدوام والثبات والاستقرار، وذلك أن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئاً فشيئاً، وأما الفعل فموضوعه على أن يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئاً بعد شيء، فإذا

المصادر التي تنصب بأفعال مضمرة لا تكاد تستعمل معها. . والتعريفُ فيه للجنس ومعناه: الإشارةُ إلى ما يَعْرِف كل أحد أن الحمد ما هو، أو للاستغراق إذ الحمد في الحقيقة كله له، إذ ما من خير إلا وهو موليه بوسط أو بغير وسط كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[١] وفيه إشعار بأنه تعالى حي قادر مريد عالم، إذ الحمد لا يستحقه إلا مَنْ كان هذا شأنه. وقرىء الحمدِ لله بإتباع الدال اللام وبالعكس تنزيلاً لهما من حيث إنهما يستعملان معاً منزلة كلمة واحدة[٢].

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الربّ في الأصل مصدر بمعنى التربية، وهي تبليغُ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً، ثم وُصفَ به للمبالغة كالصوم والعدل. وقيل: هو نعتٌ من رَبَّهُ يَرُبُّه فهو رب، كقولك نَمّ يَنُمُّ فهو نَمٌّ، ثم سُمِّيَ به المالِكُ لأنه يحفظ ما يملكه ويُرَبِّيه. ولا يُطلق على غيره تعالى إلا مقيداً كقوله: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾[٣]. والعالَمُ اسمٌ لما يُعْلَمُ به، كالخاتَم والقالَب، غلب فيما يُعْلم به الصانع تعالى، وهو كل ما سواه من الجواهر والأعراض، فإنها لإمكانها وافتقارها إلى مؤثِّرٍ واجبٍ لذاته تدل على وجوده. وإنما جَمَعَه ليشمل ما تحته من الأجناس المختلفة، وغَلَّبَ العقلاءَ منهم فجَمَعَهُ بالياء والنون كسائر أوصافهم. وقيل: اسمٌ وُضِع لذوي العِلْم من الملائكة والثقلين، وتناوُله لغيرهم على سبيل الاستتباع. وقيل: عنى به الناس ههنا فإن كل واحد منهم عالَم من حيث إنه يشتمل على نظائر ما في العالم الكبير من الجواهر والأعراض يُعْلَمُ بها الصانع كما يُعلمُ بما أبدعه في العالَم الكبير، ولذلك سوى بين النظر فيهما، وقال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[٤]. وقرىء ربَّ العالمين بالنصب على المدح، أو النداء، أو بالفعل الذي دل عليه الحمد، وفيه دليل على أن الممكنات كما هي مفتقرة إلى المحدِث حال حدوثهافهي مفتقرة إلى المبقي حال بقائها.

(٣) ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ كَرَّره للتعليل على ما سنذكره.

= قلت: زيد منطلق فقد أثبت الانطلاق فعلاً له من غير أن تجعله يتجدد ويحدث منه شيئاً فشيئاً، بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك: زيد طويل وعمرو قصير، فكما لا تقصد ههنا إلى أن تجعل الطول والقصر يتجدد ويحدث بل توجبهما وتثبتهما فقط وتقضي بوجودهما على الإطلاق كذلك لا يتعرض في قولك زيد منطلق لأكثر من إثباته لزيد. وأما الفعل فإنك تقصد فيه إلى ذلك، فإن قلت: زيد ينطلق فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءاً فجزءاً وجعلته يزاوله ويوجبه (انظر روح المعاني ١/ ٧٥ «الهامش»).

ثم إن الفعل يدل على زمن محدد، ماض أو حاضر أو مستقبل، فتكون الجملة الفعلية محصورة زمنياً بزمن الفعل، أما الاسم فلا يفيد ذلك.

ولذلك كانت الجملة الاسمية تفيد الدوام والثبات والاستقرار. ولذلك كان الحمد ـ بالرفع ـ أبلغ لأن التقدير الحمد ثابت لله أو مستقر، أما التقدير في حال النصب: نحمد الله الحمدَ أو حمداً ولذلك لما دخلت الملائكة على إبراهيم عليه السلام وحيوْه رد عليهم بأبلغ من سلامهم «.. فقالوا سلاماً قال سلامٌ..» ـ الذاريات «٢٥» ـ والتقدير: نسلم عليك سلاماً، فقال: سلامٌ عليكم أي سلام ثابت مستقر عليكم...

(١) النحل: «٥٣».

(٢) أي قرىء بكسر الدال في الحمد لإتباعها اللام.

(٣) يوسف: «٥٠».

(٤) الذاريات: «٢١».

(٤) ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قراءة عاصم[١] والكسائي[٢] ويعقوب[٣] ويعضده قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾[٤]، وقرأ الباقون: مَلِكِ. وهو المختار لأنه قراءة أهل الحرمين[٥] ولقوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ؟﴾[٦]، ولما فيه من التعظيم. والمالكُ هو المتصرف في الأعيان المملوكَة كيف يشاء من المِلْكِ. والمَلِكُ هو المتصرف بالأمر والنهي في المأمورين مِنَ المُلْكِ. وقُرِىء مَلْكِ بالتخفيف، ومَلَكَ بلفظ العمل، ومالكاً بالنصب على المدح أو الحال، ومالكٌ بالرفع منوناً، ومضافاً على أنه خبر مبتدأ محذوف، ومَلِكٌ مضافاً بالرفع والنصب. ويومُ الدين يوم الجزاء، ومنه «كما تدين تدان» وبيت الحماسة:

ولـــم يَبْـــقَ سِـــوَى العـــدوا ن دِنَّـــاهُـــمْ كمـــا دَانُـــوا

أضاف اسم الفاعل إلى الظرف إجراءً له مجرى المفعول به على الاتساع كقولهم: يا سارقَ الليلةَ أهلَ الدار، ومعناه: مَلَكَ الأمور يوم الدين على طريقة: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾[٧]، أَوْلَهُ الملك في هذا اليوم، على وجه الاستمرار لتكون الإضافة حقيقية معدة لوقوعه صفة للمعرفة. وقيل الدين: الشريعة،

---

(١) هو أبو بكر عاصم بن أبي النجود الأسدي، كان قارئاً متقناً، آية في التحرير والإتقان والفصاحة وحسن الصوت بقراءة القرآن، توفي بالكوفة أو بالسماوة سنة (١٢٧)هـ، روى عنه شعبة وحفص كلاهما بدون واسطة، وهو أحد القراء السبعة.

(٢) الكسائي: هو علي بن حمزة الكسائي النحوي، كان أعلم الناس بالنحو وأوحدهم بالغريب وأوحد الناس بالقرآن، وهو أحد القراء السبعة، روى عنه الدوري وأبو الحارث، توفي سنة (١٨٩)هـ.

(٣) يعقوب بن إسحاق الحضرمي أبو محمد، قرأ على أبي المنذر سلام بن سليمان الطويل وقرأ سلاّم على عاصم وعلى أبي عمرو، اشتهر بالرواية عنه روْح بن عبدالمؤمن ورويس، وهو من القراء العشرة، توفي عام (٢٠٥)هـ.

(٤) الانفطار: «١٩».

(٥) القراءات في «مالك يوم الدين» وما أثبته البيضاوي من أن الكسائي قرأ «مالك» ـ بإثبات الألف ـ ليس بإطلاقه، فقد قرأ أيضاً «مَلِك» بحذف الألف (المبسوط لابن مهران ص٨٣)

ثم إن البيضاوي اختار قراءة «مَلِك» على «مالك» والاختيار غير مسلّم به، لأن القراءتين صحيحتان سنداً، وقد قرأ بالقراءتين جمع كبير من القراء. ولا يصح اختيار قراءة متواترة على أخرى، ولكن يمكن القول بأن قراءة أكثر شمولاً من قراءة أخرى.. ولعل ما يمكن قوله: إن القراءتين صحيحتان حسنتان، غير أن القراءة بدون ألف «ملك» أشمل وأقوى في المعنى، ولكن جمعاً بين القراءتين نقول: تعددت القراءات لتفيد تعدد الوصف فالله تعالى مِلِكٌ ومالك، وقد ورد في القرآن وصفه بهما كقوله تعالى «الملكِ القدوس» ـ الحشر «٢٣» ـ وقوله «ملك الناس» ـ الناس «٢» ـ وقوله تعالى: «قل اللهم مالك الملك» ـ آل عمران «٢٦» ـ.

(انظر: الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي بن أبي طالب ٢٩/١، تحقيق محي الدين رمضان)

قال الشوكاني: (والحق أن لكل واحد من الوصفين نوع أخصية لا يوجد في الآخر، فالمالك يقدر على مالا يقدر عليه الملك من التصرفات بما هو مالك له بالبيع والهبة والعتق ونحوها، والملك يقدر على مالا يقدر عليه المالك من التصرفات العائدة إلى تدبير الملك وحياطته ورعاية مصالح الرعية، فالمالك أقوى من الملك في بعض الأمور، والملك أقوى من المالك في بعض الأمور. والفرق بين الوصفين بالنسبة إلى الرب سبحانه أن الملك صفة لذاته، والمالك صفة لفعله) فتح القدير للشوكاني ٢٢/١.

(٦) غافر: «١٦».

(٧) الأعراف: «٤٤» أي نادوا أصحاب النار تبجحاً وتبكيتاً عليهم.

وقيل: الطاعة، والمعنى يوم جزاء الدين، وتخصيص اليوم بالإضافة: إما لتعظيمه، أو لتفرده تعالى بنفوذ الأمر فيه[(١)]. وإجراءُ هذه الأوصاف على الله تعالى من كونه موجِداً للعالَمين رباً لهم منعِماً عليهم بالنعم كلها ظاهرها وباطنها عاجلها وآجلها مالكاً لأمورهم يوم الثواب والعقاب للدلالة على أنه الحقيق بالحمد لا أحدَ أحق به منه بل لا يستحقه على الحقيقة سواه؛ فإنّ تَرتُّبَ الحكم على الوصف يُشْعر بعلّيته له[(٢)]، وللإشعار من طريق المفهوم على أن من لم يتصف بتلك الصفات لا يَستأهِل لأن يُحمد فضلاً عن أن يُعبد، فيكون دليلاً على ما بعده، فالوصفُ الأول لبيان ما هو الموجب للحمد ـ وهو الإيجاد والتربية ـ والثاني والثالث للدلالة على أنه متفضل بذلك مختار فيه ليس يصدر منه لإيجاب بالذات أو وجوب عليه قضية لسوابق الأعمال حتى يستحق به الحمد، والرابع لتحقيق الاختصاص فإنه مما لا يقبل الشركة فيه بوجه ما، وتضمينِ الوعد للحامدين والوعيد للمعرضين.

(٥) ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ثم إنه لما ذُكِر الحقيق بالحمد، ووُصِف بصفات عظام تَمَيَّز بها عن سائر الذوات وتعلق العلم بمعلوم معين خوطب بذلك، أي: يا مَنْ هذا شأنُه نخصك بالعبادة والاستعانة، ليكون أدلَّ على الاختصاص، وللترقي من البرهان إلى العِيَان والانتقال من الغيبة إلى الشهود، فكأن المعلومَ صار عِيَاناً والمعقول مشاهداً والغيبة حضوراً، بَنَى أول الكلام على ما هو مبادي حال العارف من الذكْر والفكر والتأمل في أسمائه والنظر في آلائه والاستدلال بصنائعه على عظيم شأنه وباهر سلطانه، ثم قفّى بما هو منتهى أمره وهو أن يخوض لجة الوصول ويصير من أهل المشاهدة فيراه عِياناً ويناجيه شفاهاً[(٣)].

اللهم اجعلنا من الواصلين للعَيْن دون السامعين للأثر. ومن عادة العربِ التفنُّنُ في الكلام والعدولُ من أسلوب إلى آخر تطريةً له وتنشيطاً للسامع، فيُعْدَل من الخطاب إلى الغيبة ومن الغيْبة إلى التكلم وبالعكس، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾[(٤)] وقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ﴾[(٥)] وقول امرىء . . . .

---

(١) وتخصيص يوم الدين من بين سائر ما يقع فيه من القيامة والحشر والحساب، لكونه أدخل في الترغيب والترهيب.

(٢) أي أن ما وصف به تعالى نفسه من صفات الربوبية والرحمة ومُلك ذلك اليوم الرهيب هو العلة الباعثة على الحمد.

(٣) قال أبو السعود: (لما أجري عليه من النعوت الجليلة التي أوجبت له تعالى أكمل تميز وأتمَّ ظهور، بحيث تبدل خفاءُ الغيبة بجلاء الحضور، فاستدعى استعمال صيغة الخطاب والإيذانُ بأن حق التالي ـ بعدما تأمل فيما سلف، من تفرده تعالى بذاته الأقدس المستوجب للمعبودية وامتيازه بذاته عما سواه بالكلية واستبداده بجلائل الصفات وأحكام الربوبية. . . وافتقار الكل إليه. . . . ـ أن يترقى من رتبة البرهان إلى طبقة العيان وينتقل من عالم الغيبة إلى عالم الشهود. . . كأنه واقف لدى مولاه ماثل بين يديه وهو يدعو بالخضوع والإخبات ويقرع بالضراعة باب المناجاة، قائلاً: يا من هذه شئون ذاته وصفاته نخصك بالعبادة والاستعانة. . . ولعل هذا هو السرّ في اختصاص السورة الكريمة بوجوب القراءة في كل ركعة من الصلاة التي هي مناجاة العبد لمولاه. .) تفسير أبو السعود ١/١٦.

(٤) يونس: «٢٢».

(٥) فاطر: «٩».

القيس[١].

تطـــاوَلَ ليلُـــكَ بـــالإثمِـــدِ ونـــامَ الخلـــيُّ ولـــم تَـــرْقُـــدِ
وبـــاتَ وبـــاتَـــتْ لـــه ليلـــة كَلَيْلَـــةِ ذي العـــائـــرِ الأرْمَـــدِ
وَذلِـــكَ مـــنْ نَبَـــأ جـــاءنـــي وخبـــرْتـــهُ عَـــن أبـــي الأسْـــودِ

وإيّا ضميرٌ منصوب منفصل، وما يلحقه من الياء والكاف والهاء حروف زيدت لبيان التكلم والخطاب والغيبة لا محل لها من الإعراب، كالتاء في أنتَ والكاف في أرأيتَكَ. وقال الخليل[٢]: إيّا مضاف إليها، واحتج بما حكاه عن بعض العرب إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشوابّ، وهو شاذٌ لا يُعتمد عليه. وقيل: هي الضمائر، وإيّا عمدة فإنها لمّا فُصِلت عن العوامل تعذر النطق بها مفردة فضُم إليها إيا لتستقل به، وقيل: الضمير هو المجموع. وقرىء أَيّاك بفتح الهمزة، وهَيّاك بقلبها هاء.

والعبادةُ: أقصى غاية الخضوع والتذلل، ومنه طريق معبد أي مذلل وثوب ذو عَبَدة إذا كان في غاية الصفاقة، ولذلك لا تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى.

والاستعانة: طلب المعونة، وهي إما ضرورية أو غير ضرورية، والضرورية مالا يتأتى الفعلُ دونَه كاقتدارِ الفاعلِ وتصوره وحصول آلةٍ ومادةٍ يُفعل بها فيها وعند استجماعها يوصَفُ الرجل بالاستطاعة ويصح أن يُكلَّفَ بالفعل. وغيرُ الضرورية تحصيلُ ما يتيسر به الفعل ويسهل كالراحلة في السفر للقادر على المشي، أو يُقرِّب الفاعلَ إلى الفعل ويحثُّه عليه، وهذا القِسْم لا يتوقف عليه صحة التكليف. والمرادُ طلب المعونة في المهمات كلها أو في أداء العبادات، والضميرُ المستكنُّ في الفعلين للقارىء ومن معه من الحَفَظة وحاضري صلاة الجماعة. أوْلَهُ ولسائر الموحدين، أدرج عبادتَه في تضاعيف عبادتهم وخلط حاجته بحاجتهم لعلها تُقبَل ببركتها ويجاب إليها، ولهذا شرعت الجماعة. وقدم المفعول للتعظيم، والاهتمام به، والدلالةِ على الحصر ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما معناه نعبدك ولا نعبد غيرك، وتقديم ما هو مقدَّمٌ في الوجود، والتنبيهِ على أن العابد ينبغي أن يكون نظرُه إلى المعبود أولاً وبالذات؛ ومنه إلى العبادة لا من حَيث إنها عبادة صدرت عنه بل من حيث إنها نسبة شريفة إليه ووُصلة سَنِيَّة بينه وبين الحق، فإن العارف إنما يحقُّ وصولُه إذا استغرق في ملاحظة جناب القدُس وغاب عما عداه، حتى إنه لا يلاحظ نفسه ولا حالا من أحوالها إلا من حيث إنها ملاحظة له ومنتسبة إليه، ولذلك فضل ما حكى الله عن حبيبه حين قال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[٣]. على ما حكاه عن كليمه حين قال: ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾[٤]. وكرَّر الضميرَ للتنصيص على أنه المستعان به

---

(١) امرؤ القيس: هو امرؤ القيس بن حُجُر بن الحارث بن عمر بن حجر وقال بعض الرواة: هو امرؤ القيس بن الصمت توفي سنة ٨٠ قبل الهجرة المعلقة الأولى من المعلقات العشر ص٥ ـ ١٨.

(٢) الخليل بن أحمد بن عمرو الفراهيدي، من أئمة اللغة والأدب وواضع علم العروض، وهو أستاذ سيبويه النحوي ولد عام (١٠٠)هـ بالبصرة وتوفي بها عام (١٧٠)هـ.

(٣) التوبة «٤٠».

(٤) الشعراء: «٦٢».

لا غير(١). وقُدِّمتِ العبادةُ على الاستعانةِ ليتوافق رؤوس الآي، ويُعلم منه أن تقديم الوسيلة على طلب الحاجة أدعى إلى الإجابة.

وأقول: لما نَسَبَ المتكلمُ العبادة إلى نفسه أوْهَم ذلك تبجُّحاً واعتداداً منه بما يَصْدر عنه، فعقَّبه بقوله: «وإياك نستعين» ليدل على أن العبادة أيضاً مما لا يَتِمُّ ولا يَستتبُّ له إلا بمعونة منه وتوفيق(٢)، وقيل: الواو للحال والمعنى نعبدك مستعينين بك. وقُرِىء بكسر النون فيهما وهي لغةُ بني تميم فإنهم يَكْسِرون حروف المضارعة سوى الياء إذا لم ينضم ما بعدها.

(٦) ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ بيانٌ للمعونة المطلوبة فكأنه قال: كيف أُعينكم؟ فقالوا اهدنا، أو إفرادٌ لما هو المقصود الأعظم. والهدايةُ دلالةٌ بلطف ولذلك تستعمل في الخير، وقوله تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾(٣) واردٌ على التهكم، ومنه الهداية وهوادي الوحش لمقدماتها، والفعل منه هدى، وأصله أن يُعدى باللام أو إلى، فعومل معاملة اختار في قوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾(٤). وهدايةُ الله تعالى تتنوع أنواعاً لا يُحصيها عَدٌّ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾(٥) ولكنها تنحصر في أجناس مترتبة:

الأول: إفاضة القُوى التي بها يتمكن المرء من الاهتداء إلى مصالحه كالقوة العقلية والحواس الباطنة والمشاعر الظاهرة.

والثاني: نصبُ الدلائل الفارقة بين الحق والباطل والصلاح والفساد وإليه أشار حيث قال: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾(٦) وقال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾(٧).

والثالث: الهدايةُ بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وإياها عنى بقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾(٨) وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾(٩).

والرابع: أن يكشف على قلوبهم السرائر ويريَهم الأشياء كما هي بالوحي أو الإلهام والمنامات الصادقة، وهذا قسم يختص بنيله الأنبياءُ والأولياءُ وإياه عنى بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ

---

(١) قال أبو السعود: (وتكرير الضمير المنصوب للتنصيص على تخصيصه تعالى بكل واحدة من العبادة والاستعانة، ولإبراز الاستلذاذ بالمناجاة والخطاب) تفسير أبو السعود ١/ ١٧.

(٢) تقديم العبادة على الاستعانة، لأن العبادة من مقتضيات مدلول الاسم الجليل، أما الاستعانة فمن الأحكام المبنية على الصفات المذكورة، ولأن العبادة من حقوق الله تعالى والاستعانة من حقوق المستعين، ولأن العبادة واجبة حتماً والاستعانة تابعة للمستعان فيه في الوجوب وعدمه (انظر: أبو السعود ١/ ١٧).

(٣) الصافات: «٢٣».

(٤) الأعراف: «١٥٥».

(٥) إبراهيم: «٣٤».

(٦) البلد: «١٠».

(٧) فصلت: «١٧».

(٨) الأنبياء «٧٣».

(٩) الإسراء: «٩».

اقْتَدِهْ﴾[1]. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[2]. فالمطلوبُ: إما زيادة ما مُنِحُوه من الهُدى أو الثبات عليه أو حصولُ المراتب المرتبة عليه، فإذا قالَه العارفُ بالله الواصلُ عنى: أَرْشِدْنا طريق السير فيك لتمحوَ عنا ظلمات أحوالنا وتُميط غواشيَ أبداننا لنستضيء بنور قُدُسك فنراك بنورك. والأمرُ والدعاءُ يتشاركان لفظاً ومعنىً ويتفاوتان بالاستعلاء والتسفُّل[3]، وقيل: بالرتبة.

والسراط: من سَرَطَ الطعام إذا ابتلعه فكأنه يَسْرَطُ السابلةَ، ولذلك سُمِّي لَقَماً لأنه يلْتقمُهم. والصراط من قَلْبِ السين صاداً ليطابق الطاء في الإطباق، وقد يُشَمُّ الصادُ صوت الزاي ليكون أقربَ إلى المبدل منه. وقرأ ابن كثير[4] برواية قنبل[5] عنه ورويس[6] عن يعقوب[7] بالأصل، وحمزة[8] بالإشمام، والباقون بالصاد وهو لغة قريش. والثابت في الإمام[9]، وجمعه سُرُطٌ ككتب وهو كالطريق في التذكير والتأنيث.

والمستقيم: المستوي. والمراد به طريق الحق، وقيل: هو ملة الإسلام.

(٧) ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بدل من الأول بدلَ الكل، وهو في حكم تكرير العاملِ من حيث إنه المقصود بالنِّسبة، وفائدتُه التوكيدُ والتنصيصُ على أن طريقَ المسلمين هو المشهود عليه بالاستقامة على آكَدِ وجْهٍ وأبلغِهِ، لأنه جُعِل كالتفسير والبيان له فكأنه من البيِّنِ الذي لا خفاء فيه أن الطريق المستقيم ما يكون طريق المؤمنين. وقيل الذين أنعمت عليهم: الأنبياء، وقيل: النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابُه، وقيل: أصحاب موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام قبل التحريف والنسخ[10]. وقرئ صراط مَنْ أنعمت عليهم. والإنعامُ: إيصال النعمة، وهي في الأصل الحالة التي

---

(١) الأنعام «٩٠».

(٢) العنكبوت: «٦٩».

(٣) أي الأمر والدعاء يتشاركان لفظاً، فكلاهما يفيد الطلب، ويتفاوتان بالاستعلاء والتسفُّل، فهو من الأعلى إلى الأدنى أمر ومن الأدنى إلى الأعلى دعاء.

(٤) ابن كثير: هو عبدالله بن كثير الداري، أحد القراء السبعة، وكان إمام الناس في القراءة بمكة، لقي من الصحابة عبدالله بن الزبير، وأبا أيوب الأنصاري وأنس بن مالك، واشتهر بالرواية عنه ـ بواسطة أصحابه ـ البزي وقنبل، توفي عام (١٢٠)هـ بمكة.

(٥) قنبل هو محمد بن عبدالرحمن بن خالد بن محمد المخزومي المكي، يكنى أبا عمر ويلقب بقُنبل لشدته كان إماماً في القراءة ضابطاً ثقة يؤمه الناس من أقطار الأرض، أخذ القراءة عن أبي الحسن أحمد القواس عن وهب عن القسط عن شبل ومعروف، وكلاهما قرأ على ابن كثير، توفي (٢٩١)هـ.

(٦) رويس هو أبو عبدالله محمد بن المتوكل اللؤلؤي البصري، ويعرف برويس اشتهر بالرواية عن يعقوب ويعقوب من القراء العشرة، وكان رويس من أحذق أصحاب يعقوب، توفي بالبصرة سنة (٢٣٨)هـ.

(٧) يعقوب سبقت ترجمته عند الآية «٤» من الفاتحة.

(٨) حمزة هو أبو عمارة حمزة بن حبيب الزيات الكوفي، مولى عكرمة بن ربيع التيمي وكان حمزة ورعاً عالماً بكتاب الله مجوداً له، عارفاً بالفرائض والعربية، حافظاً للحديث، وهو أحد القراء السبعة، توفي بحلوان مصر عام (١٥٦)هـ.

(٩) الثابت في الإمام، أي المصحف الإمام وهو مصحف عثمان ـ رضي الله عنه ـ.

(١٠) ولعل الأظهر أنهم المذكورون في قوله تعالى «فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء=

يستلذها الإنسان فأطلقت لما يستلذه من النعمة وهي اللِّين، ونِعَمُ الله وإن كانت لا تحصى كما قال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[(١)] تنحصر في جنسين: دنيوي وأخروي.

والأول قسمان: وَهْبِيّ وكَسْبِيّ، والوهبي قسمان: رُوحاني كنفخ الروح فيه وإشراقهِ بالعقل وما يتبعه من القُوى كالفهم والفكر والنظر، وجِسْماني كتخليق البدن والقُوى الحالّة فيه والهيئات العارضةِ له من الصحة وكمال الأعضاء، والكَسْبِيُّ: تزكية النفس عن الرذائل وتحليتُها بالأخلاق السَّنِيَّة والمَلَكَاتِ الفاضلة. وتزيينُ البدن بالهيئات المطبوعة والحُلى المستحسنة وحصولُ الجاه والمال.

والثاني: أن يغفر له ما فَرَط منه ويرضى عنه ويبوِّئَه في أعلى عليين مع الملائكة المقربين أَبَد الآبدين. والمرادُ هو القسمُ الأخير وما يكون وُصْلةً إلى نَيْله من الآخرة فإن ما عدا ذلك يشترك فيه المؤمن والكافر.

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ بدلٌ من الذين، على معنى أن المنعَمَ عليهم هم الذين سلِموا من الغضب والضلال، أو صفةٌ له مُبيِّنة أو مُقَيِّدَة على معنى أنهم جمعوا بين النعمة المطلقة ـ وهي نعمة الإيمان ـ وبين السلامة من الغضب والضلال، وذلك إنما يصح بأحد تأويلَيْن[(٢)]: إجراءِ الموصول مجرى النكِرة إذا لم يُقْصَدُ به معهودٌ كالمُحَلَّى في قوله:

ولَقَد أَمرُّ على اللئيمِ يَسُبُّني

وقولهم: إني لأَمُرُّ على الرجل مثلِك فيكرمني. أو جَعْلِ (غير) معْرفةً بالإضافةِ، لأنه أُضِيف إلى مالَهُ ضدٌّ واحدٌ وهو المنعَم عليهم، فيتعين تعين الحركة من غير السكون.

وعن ابن كثير نَصْبُه على الحال من الضمير المجرور، والعاملُ أنعمت أو بإضمار أعني أو بالاستثناء إن فسر النعم بما يعم القبيلين. والغضبُ: ثَوَرَانُ النفس إرادة الانتقام، فإذا أُسْنِد إلى الله تعالى أُريد به المنتهى والغايةُ على ما مر[(٣)]. وعليهم في محل الرفع لأنه نائب مناب الفاعل بخلاف الأول. ولا مزيدةٌ لتأكيد ما في (غير) مِنْ معنى النفي[(٤)]، فكأنه قال: لا المغضوب عليهم ولا الضالين،

= والصالحين» النساء «٦٩» فالقرآن يفسر بعضه بعضاً.

(١) إبراهيم: «٣٤».

(٢) أي يصح اعتبار (غير) صفة للذين، والاسم الموصول معرفة، و(غير) لا يتعرف بالإضافة بأحد اعتبارين: الأول: إجراء الاسم الموصول مجرى النكرة لأنه لم يُقصد به معهود أو أن (غير) جاز اعتباره معرفة لوقوعه بين متضادين وهما معرفتان فجاز تعريفه بالإضافة (انظر توضيح ذلك في تفسير النسفي ١/ ٨).

(٣) أي يراد به الانتقام دون غيره من ثوران النفس لأنه لا يجوز على الله تعالى.

(٤) يذهب البيضاوي إلى القول بأن «لا» في قوله: «ولا الضالين» مزيدة، وقد جيء بها لتأكيد معنى النفي في (غير) عند قوله «غير المغضوب عليهم» ـ الفاتحة ـ.

و(لا) عند البصريين زائدة تفيد التوكيد، وعند الكوفيين بمعنى غير (النسفي ١/ ٨) وهذا يتطلب منا وقفة عند هذه القضية، وهي

قضية الزوائد في كتاب الله تعالى[(١)]

ظهرت قضية الزوائد بعد وجود المذاهب النحوية وبعد أن كثر التراشق والتشاد المذهبي بين الكوفيين =

ولذلك جاز أنا زيداً غيرُ ضارب، كما جاز أنا زيداً لا ضاربٌ، وإن امتنع أنا زيداً مثل ضارب. وقرىء وغير الضالين. والضلالُ: العدول عن الطريق السوي عمداً أو خطأ، وله عرض عريض والتفاوت ما بين أدناه وأقصاه كثير.

قيل: المغضوب عليهم اليهود لقوله تعالى فيهم: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ﴾[1]، والضالين: النصارى لقوله تعالى: ﴿قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا﴾[2]، وقد روي مرفوعاً. ويتجه أن يُقال: المغضوب عليهم العصاة والضالين الجاهلون بالله[3]، لأن المنعَمَ عليه من وُفِّق للجمع بين معرفة

= والبصريين.. إلا أن علماء التفسير الذين لم تهيمن عليهم المذاهب النحوية وقفوا من قضية الزيادة موقفاً صريحاً وشددوا النكير على القائلين بالزيادة.

فابن جرير الطبري لا يترك فرصة تسمح له إلا وينبه على خطر هذا القول وبطلانه فعند قوله تعالى: «وإذ قال ربك للملائكة» ـ البقرة (٣٠) ـ. يرد على من قال بزيادة «إذ» وعند قوله تعالى: «فقليلاً ما يؤمنون» ـ البقرة «٨٨» ـ يرد على من قال بزيادة «ما».

وكذلك فعل الزمخشري حينما رد القول بزيادة «لا» عند قوله تعالى: «لا أقسم بيوم القيامة» ـ القيامة «١» ـ وإن كان يقول بالزيادة في بعض الأحيان.

وفي العصر الحديث وجد من حمل لواء الرد على القائلين بالزيادة في كتاب الله تعالى، فهذا محمد عبده يرد القول بالزيادة عند قوله تعالى: «فقليلاً ما يؤمنون» ـ البقرة «٨٨» ـ يرد على من قال بزيادة «ما»... وهذا مصطفى صادق الرافعي يعرض لقضية الزوائد في كتابه «إعجاز القرآن» ويخلص إلى القول بأن ما يسمى زائداً من حيث الإعراب له من جمال الإيقاع. وروعة النظم والزيادة في المعنى مالا يتم حسن الكلام ورونق اللفظ إلا به[2]. وهذا الشيخ محمد عبدالله دراز ينافح بكل حجة وبرهان مثبتاً أن كل حرف في كتاب الله إنما جاء لهدف راداً القول بالزيادة[3].

وهكذا وقف كثير من العلماء من قضية الزوائد موقف المعارض، مبينين أن كل حرف أو كلمة أو نحو ذلك إنما جاء لمعنى ولا تتم حقيقة المعنى إلا به.

لكنّ البيضاوي رغم قوله بالزيادة وتكراره لها في كثير من المواطن لا يقصد منها أنها لا قيمة لها بل جيء بها لتفيد التوكيد فقال: (ولا نعني بالمزيد اللغو الضائع، فإن القرآن كله هدىً وبيان، بل مالم يوضع لمعنى يراد منه، وإنما وضعت لأن تذكر مع غيرها فتفيد له وثاقة وقوة، وهو زيادة مع الهدى غير قادح فيه)[4].

(١) المائدة: «٦٠».

(٢) المائدة: «٧٧».

(٣) لم يلتزم البيضاوي بما ورد من أحاديث في تعيين المغضوب عليهم والضالين، وأورد تعيين المغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى بلفظ قيل المنبىء بضعفه، لكنه ورد ذلك مرفوعاً وبحديث حسن أو صحيح عند أحمد (٣٧٨/٤) والترمذي وحسنه (٢٩٥٤) وابن حبان في صحيحه (١٧١٥) ص٤٢٤ من موارد الظمآن. وقد أورد ابن كثير روايات كثيرة في ذلك (تفسير ابن كثير ٢٨/١) حتى ورد عن ابن أبي حاتم قوله: (لا أعلم فيه خلافاً بين المفسرين) روح المعاني (٩٦/١).

---

(١) هذا بحث مختصر من بحث مخطوط بعنوان «قضية الزوائد في كتاب الله» لفضل حسن عباس.

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي ص٢٣١، الطبعة الثانية، دار الكتاب العربي، بيروت.

(٣) النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز ص١٣٣، الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م، دار القلم، الكويت.

(٤) تفسير البيضاوي (٧٤/١). =

الحق لذاته والخيرِ للعمل به، وكان المقابل له من اختل إحدى قوتيه العاقلة والعاملة، والمخلُّ بالعمل فاسقٌ مغضوب عليه لقوله تعالى في القاتل عمداً: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾(١)، والمخلُّ بالعقل جاهل ضالٌ لقوله: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾(٢). وقرىء ولا الضألين بالهمزة على لغة من جَدَّ في الهرب من الْتقاء الساكنين.

﴿آمين﴾ اسمُ الفِعْل الذي هو اسْتَجِبْ. وعن ابن عباس قال سألت رسول الله ﷺ عن معناه فقال: افعل(٣)، بني على الفتح كأين لالتقاء الساكنين، وجاء مدُّ ألفِهِ وقصْرُها قال:

ويرحَمُ الله عبداً قالَ آمِينا

وقال:

أمينَ فزادَ الله ما بيننا بُعدا

وليس من القرآن وفاقاً، لكن يُسَنّ خَتْمُ السورة به لقوله عليه الصلاة والسلام «علمني جبريل آمين عند فراغي من قراءة الفاتحة» وقال: «إنه كالختم على الكتاب»(٤). وفي معناه قول علي رضي الله

= لكن البيضاوي لم يردّ ما ورد من أحاديث مرفوعة، إلا أنه عمم لفظ المغضوب عليهم مستنداً إلى نصوص القرآن الكريم فكان المراد به العصاة، وعمم لفظ الضالين مستنداً لنصوص القرآن الكريم فكان المراد به الجاهلون بالله، ويدخل فيهم دخولاً أولياً اليهود والنصارى فإن أخص أوصاف اليهود أنهم فقدوا العمل مع علمهم بالحقيقة فاستوجب ذلك غضب الله عليهم، وأخص أوصاف النصارى أنهم فقدوا العلم فاستوجب ذلك وصفهم بالضلال، وإلا فكل من عدل عن الحق يوصف بالغضب عليه وبالضلال.

(١) النساء: «٩٣».

(٢) يونس: «٣٢».

(٣) وهو حديث ضعيف جداً.
أورده ابن حجر في «الكافي الشافِ» (٤/٣ رقم ٧) وقال: «أخرجه الثعلبي من رواية أبي صالح عنه بإسناد واهٍ».
قلت: علته «الكلبي» و«أبو صالح».
أما الكلبي: فهو محمد بن السائب بن بشير أبو النضر الكوفي، نسابة عالم بالتفسير والأخبار والأيام، متروك، قال الحافظ: متهم بالكذب، رمي بالرفض.
وقد كفره بعض العلماء لأنه كان يؤمن بالرجعة ـ رجعة عليّ رضي الله عنه ـ وكان يقول: كان جبريل يوحي إلى النبي ﷺ فقام النبي ﷺ لحاجته وجلس علي، فأوحى إلى علي، وكان يقول:
أنا سَبَئي. مات سنة (١٤٦هـ).
[المجروحين (٢/ ٢٥٣) وتهذيب التهذيب (٩/ ١٥٧)]
وأما أبو صالح: فهو باذام ـ ويقال: باذان ـ مولى أم هانىء، ضعيف مدلس وقال ابن حبان: كان يحدث عن ابن عباس ولم يسمع منه.
[المجروحين (١/ ١٨٥) والتقريب (١/ ٩٣)].
قلت: وساق ابن كثير الحديث في تفسيره (١/ ٣٣) من رواية جويبر، عن الضحاك عنه بلفظ: ما معنى «آمين»؟ قال: رب افعل. وجويبر بن سعيد الأزدي البلخي، نزيل الكوفة راوي التفسير ضعيف جداً. مات بعد (١٤٠هـ) [التقريب (١/ ١٣٦)].

(٤) وهو حديث ضعيف قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (٤/٣ رقم٨): لم أجده هكذا. وفي «الدعاء» =

عنه: آمين خاتم رب العالمين، ختم به دعاء عبده. يقوله الإمام ويجهر به في الجهرية لما روي عن وائل بن حجر[١] «أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا قرأ ولا الضالين قال آمين ورفع بها صوته»[٢].

وعن أبي حنيفة رضي الله عنه أنه لا يقوله، والمشهورُ عنه أنه يُخْفِيه كما رواه عبدالله بن مغفل[٣] وأنس. والمأموم يُؤَمِّن معه لقوله عليه الصلاة والسلام: «إذا قال الإمام ولا الضالين فقولوا آمين فإن الملائكة تقول آمين فمن وافق تأمينُه تأمينَ الملائكة غُفِر له ما تقدم من ذنبه»[٤]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لأبيّ «ألا أخبرك بسورة لم يُنَزَّل في التوراة والإنجيل والقرآن مثلها. قال: قلت بلى يا رسول الله. قال: فاتحة الكتاب إنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»[٥].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ أتاه مَلَك فقال: أَبْشِر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفاً منهما إلا أُعطيتَه»[٦].

وعن حذيفة بن اليمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن القوم ليبعث الله عليهم العذاب حتماً مقضياً فيقرأ صبي من صبيانهم في الكتاب: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ فيسمعه الله تعالى

لابن أبي شيبة من رواة أبي ميسرة أحد كبار التابعين قال: «أقرأ جبريل عليه السلام النبي ﷺ فاتحة الكتاب، فلما قال ولا الضالين قال له قل: آمين فقال: آمين» ـ قلت: وهو مرسل ضعيف ـ. وأخرج أبو داود (١/٥٧٧ رقم ٩٣٨) عن أبي زُهير النميري، وكان من الصحابة، فيتحدث أحسن الحديث فإذا دعا الرجل منا بدعاء قال: اختمه بآمين، فإن آمين مثل الطابع على الصحيفة»..

وأخرجه الطبراني في كتاب الدعاء (٢/٨٨٨ رقم٢١٨) وفي إسناده «صُبيْحُ بن مُحْرَز الحمصي» مقبول [التقريب ١/٣٦٤ رقم٦٨] ولم أقف على متابع له. وقال ابن عبدالبر: إسناده ليس بالقائم [عون المعبود: (٣/٢١٥)]

وروى ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً: «آمين خاتم رب العالمين على عباده المؤمنين».

وأخرجه الطبراني في الدعاء (٢/٨٨٩ رقم٢١٩) وفي إسناده: المؤمل بن عبدالرحمن، وهو ضعيف [التقريب (٢/٢٩٠)]. وإسماعيل بن يعلى الثقفي، ضعيف جداً[الكامل: (١/٣٠٩ ـ ٣١١)].

وخلاصة القول إن الحديث ضعيف والله أعلم.

(١) وائل بن حُجْر الحضرمي القحطاني، وفد على النبي عليه السلام فرحب به وبسط له رداءه وأجلسه عليه، وشارك في الفتوح واستقر في الكوفة، وله أحاديث عن النبي ﷺ توفي (٥٠)هـ (الأعلام ٨/١٠٦).

(٢) أخرجه أبو داود (١/٥٧٤ رقم ٩٣٣ عنه: أنه صلى خلف رسول الله ﷺ فجهر بآمين...» وسنده حسن.

وأخرجه الترمذي (٢/٢٧ رقم ٢٤٨) عنه: قال: سمعت النبي ﷺ قرأ: «غير المغضوب عليهم ولا الضالين» فقال: آمين، ومَدَّ بها صَوْتَهُ» وقال الترمذي: حديث حسن...

وأخرجه ابن ماجة (١/٢٧٨ رقم ٨٥٥) عنه: قال: «صليتُ مع النبي ﷺ فلما قال «ولا الضالين» قال: آمين. فسمعناهَا» وخلاصة القول إن الحديث حسن والله أعلم.

(٣) عبدالله بن مغفل المزني، صحابي، سكن المدينة، وكان أحد العشرة الذين بعثهم عمر ليفقهوا الناس بالبصرة، وتوفي فيها عام (٥٧)هـ وقيل غيره، وله (٤٣) ثلاثة وأربعون حديثاً (الأعلام ٤/١٤٠).

(٤) رواه البخاري (٧٨٢، ٤٤٧٥).

(٥) أخرجه الترمذي (٥/١٥٥ رقم ٢٨٧٥) وقال حديث حسن صحيح، وهو كما قال وقد تقدم.

(٦) رواه مسلم (٢٥٤).

فيرفع عنهم بذلك العذاب أربعين سنة»[1].

* * *

(١) وهو حديث موضوع:
أورده ابن حجر في «الكافي الشافِ» (٤/ ٣ رقم١٢) وقال: أخرجه الثعلبي من رواية أبي معاوية عن أبي مالك الأشجعي عن ربعي عنه. قلت: إلا أن دون أبي معاوية من لا يحتج به وله شاهد في «مسند الدارمي» ـ(٢/ ٤٣٨) ـ عن ثابت بن عجلان قال: «كان يقال إنَّ الله ليريد العذاب بأهل الأرض فإذا سمع تعليم الصبيان بالحكمة صرف ذلك عنهم» يعنى بالحكمة: القرآن» هـ.

سُورَةُ البَقَرَةِ ٢
وآياتها ست وثمانون ومائتان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾

(١) ﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ وسائرُ الألفاظ التي يُتهجى بها أسماءٌ، مسمياتُها الحروف التي رُكبت منها الكَلِمُ، لدخولها في حدِّ الاسم واعتوارِ ما يُخَصُّ به من التعريف والتنكير والجمع والتصغير ونحو ذلك عليها، وبه صرح الخليل وأبو علي[(١)]. وما روى ابنُ مسعود رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «مَنْ قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنةٌ والحسنةُ بعشر أمثالها، لا أقول الٓم حرف، بل ألف حرف ولام حرف وميم حرف»[(٢)] . . . .

---

(١) هو الحسن بن أحمد بن عبدالغفار، أبو علي الفارسي النحوي، واحد زمانه في علم العربية، أخذ عن الزجاج وابن السراج ومبرمان وطوّق بلاد الشام وقال كثير من تلامذته إنه أعلم من المبرد. وبرع من طلبته جماعة كابن جنّي، وعلي بن عيسى الرَّبَعي، وكان متهماً بالاعتزال.
وسكن طرابلس مدة ثم حلب، واتصل بسيف الدولة.
ومصنفاته كثيرة نافعة، عاش تسعاً وثمانين سنة، مات ببغداد وفي ربيع الأول سنة سبع وسبعين وثلاثمئة.
[بغية الوعاة ـ (١/ ٤٩٦ ـ ٤٩٨ رقم ١٠٣٠) ـ وتاريخ بغداد (٧/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦)].

(٢) وهو حديث صحيح.
أخرجه الترمذي (٥/ ١٧٥ رقم ٢٩١٠) وقال: حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلاّ من هذا الوجه، وقال: يروى هذا الحديث من غير وجه عن ابن مسعود ورواه أبو الأحوص عن ابن مسعود، رفعه بعضهم، ووقفه بعضهم عن ابن مسعود.
وأخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ٢١٦ رقم ٦٧٩) من طريقه عنه ثم قال: لا أدري حفظه أم لا؟.
وأخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٥٥٥، ٥٦٦) من طريقين عن أبي الأحوص عنه مرفوعاً كما أخرجه موقوفاً (١/ ٥٦٦).
قال في طريق إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص: صحيح الإسناد ولم يخرجاه لصالح بن عمر. وقال الذهبي: صالح ثقة خرّج لهُ مسلم. لكن إبراهيم بن مسلم ـ الهجري ـ ضعيف. =

فالمراد به غيرُ المعنى الذي اصطُلِحَ عليه، فإن تخصيصه به عُرْفٌ مجدَّد بل المعنى اللغوي، ولعله سماه باسم مدلوله.

ولما كانت مسمياتُها حروفاً وُحداناً وهي مركبة، صُدِّرت بها لتكون تأديتُها بالمسمّى أولَ ما يقرع السمع، واستعيرتْ الهمزة مكان الألف لِتعذُّر الابتداء بها وهي مالم تلِها العوامل موقوفةٌ خالية عن الإعراب لفَقْد موجبه ومقتضيه، لكنها قابلةٌ إياه ومعرضة له إذ لم تناسب مبنى الأصل ولذلك قيل: ﴿صٓ﴾ و﴿قٓ﴾ مجموعاً فيهما بين الساكنين، ولم تعاملْ معاملة أيْنَ وهؤلاء. ثم إن مسمياتِها لما كانت عنصرَ الكلام وبسائطَه التي يتركب منها افتُتِحت السورة بطائفة منها إيقاظاً لمن تحدى بالقرآن وتنبيهاً على أن أصل المتلوِّ عليهم كلامٌ منظوم مما ينظمون منه كلامهم، فلو كان من عند غير الله لما عَجَزُوا عن آخرهم مع تظاهُرِهم وقوة فصاحتهم عن الإتيان بما يُدانيه، وليكون أولُ ما يقرع الأسماع مستقلاً بنوعٍ من الإعجاز، فإن النطق بأسماء الحروف مختص بمن خَطَّ ودرس، فأما مِنَ الأميِّ الذي لم يخالطْ الكتاب فمستَبْعَد مستغرَب خارق للعادة كالكتابة والتلاوة، سِيَما وقد راعى في ذلك ما يعجِزُ عنه الأديبُ الأريب الفائقُ في فنّه، وهو أنه أورد في هذا الفواتح أربعةَ عشرَ اسماً هي نصفُ أسامي حروف المعجم ـ إن لم يُعدّ فيها الألف حرفاً برأسها ـ في تسع وعشرين سورةً بعددها إذا عُدَّ فيها الألفُ الأصلية مشتملةً على أنصاف أنواعها، فذكر من المهْمُوسة ـ وهي ما يضْعُف الاعتمادُ على مخرجه ويجمعها «ستشحثك خصفه» ـ نِصْفَها: الحاءُ والهاء والصاد والسين والكاف، ومن البواقي المجهورةِ نصفَها يجمعه «لن يقطع أمر»، ومن الشديدة الثمانيةِ المجموعة في (أجدت طبقك) أربعةً يجمعُها (أقطك)، ومن البواقي الرخوةِ عشرةً يجمعُها «حَمِسَ على نَصْرِه» ومن المطبَقَةِ التي هي الصّاد والضاد والطاء والظاء نصفَها، ومن البواقي المنْفَتحة نصفَها، ومن القلقلة ـ وهي: حروفٌ تضْطرب عند خروجها، ويجمعُها (قد طبج) ـ نصفَها الأقلَّ لقلتها، ومن اللِّينتيْن الياءَ لأنها أقل ثِقَلاً، ومن المستَعْلِيَة ـ وهي: التي يتصعّد الصوتُ بها في الحنك الأعلى، وهي سبعة القاف والصاد والطاء والخاء والغين والضاد والظاء ـ نصفَها الأقل، ومن البواقي المنخفضة نصفَها، ومن حروف البدل ـ وهي أحدَ عشرَ على ما ذكره سيبويه[1]، واختاره ابن جني[2] ويجمعُها «أحد طويت» ـ منها الستةَ

= وقال في طريق عاصم بن أبي النَّجُود عنه: صحيح الإسناد، وسكت الذهبي عنه.
وأخرجه الدارمي (٢/ ٤٢٩) من طريق أبي الأحوص عنه موقوفاً عليه. ووصله الخطيب في تاريخ بغداد (١/ ٢٨٥) بهذا الطريق وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» (ص٢٧٩ رقم ٨٠٨) من طريق شريك عن أبي أسحاق عن أبي الأحوص عنه موقوفاً عليه.
وشريك سيء الحفظ، وأورد الألباني الحديث في «الصحيحة» رقم (٦٦٠) وصححه في تخريج «المشكاة» (١/ ٦٥٩ رقم ٢١٣٧).

(١) سيبويه هو عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي، إمام النحاة وأول من بسط علم النحو، ولد في إحدى قرى شيراز عام (١٤٨)هـ وقدم البصرة ولزم الخليل بن أحمد ففاقه، ورحل إلى بغداد وناظر الكسائي، وتوفي بالأهواز عام (١٨٠)هـ (الأعلام ٥/ ٨١).

(٢) هو عثمان بن جنِّي أبو الفتح النحوي.
من أحذق أهل الأدب وأعلمهم بالنحو والتصريف. قال في دمية القصر: وليس لأحد من أئمة الأدب في فتح =

الشائعةَ المشهورة التي يجمعها «أهطمين» وقد زاد بعضهم سبعةً أخرى وهي اللام في (أصيلال) والصاد والزاي في (صراط وزراط) والفاء في (أجداف) والعين في (أعن) والثاء في (ثروغ الدلو) والباء في «باسمك» حتى صارت ثمانيةَ عشرَ، وقد ذَكَرَ منها تسعةً: الستةُ المذكورة واللام والصاد والعين. ومما يُدْغَم في مثله ولا يدغم في المقارِبِ ـ وهي خمسةَ عشرَ: الهمزة والهاء والعين والصاد والطاء والميم والياء والخاء والغين والضاد والفاء والظاء والشين والزَاي والواو ـ نصفَها الأقل. ومما يدغم فيهما ـ وهي الثلاثة عشر الباقية ـ نصفَها الأكثر: الحاء والقاف والكاف والراء والسين واللام والنون، لِمَا في الإدغام من الخِفَّة والفصاحة، ومن الأربعةِ التي لا تُدْغَمُ فيما يقاربُها ويُدْغَم فيها مُقَاربُها ـ وهي: الميم والزاي والسين والفاء ـ نصفَها.

ولما كانت الحروفُ الذِّلْقيَةُ التي يُعْتَمدُ عليها بذِلْقِ اللسان ـ وهي ستةٌ يجمعُها (ربّ مُنْفل) ـ والحَلْقِيَةُ التي هي الحاء والخاء والعين والغين والهاء والهمزة كثيرةَ الوقوع في الكلام ذكر ثُلُثَيْهما. ولما كانت أبنيةُ المزيد لاَ تتجاوزُ عن السُّباعية ذكر من الزوائدِ العشَرَة التي يجمعُها (اليوم تنساه) سبعةَ أحرف منها تنبيهاً على ذلك، ولو استقرَيْت الكَلِمَ وتراكيبَها وجدتَ الحروف المتروكة من كل جنس مَكْثُورةً بالمذكورة، ثم إنه ذكرها مفردةً وثنائيةً وثلاثيةً ورُباعيةً وخُماسيّة إيذاناً بأن المتحدى به مُركَّب من كلماتهم التي أصولُها كلماتٌ مفردة، ومركبة من حرفين فصاعداً إلى الخمسة، وذَكَرَ ثلاثَ مفردات في ثلاث سور لأنها توجَدُ في الأقسام الثلاثة: الاسمَ والفعل والحرفَ، وأربعَ ثنائياتٍ لأنها تكون في الحرف بلا حذف كـ «بل»، وفي الفعل بحذف ثقل كـ «قل» وفي الاسم بغير حذف كـ «من»، وبه كـ «دم» في تسع سور لوقوعها في كل واحد من الأقسام الثلاثة على ثلاثة أوجه: ففي الأسماء من وإذ وذو، وفي الأفعال قل وبع وخف، وفي الحروف مِنْ وإن ومُذْ ـ على لغة من جَرَّبهَا ـ وثلاثُ ثلاثيات لمجيئها في الأقسام الثلاثة في ثلاثَ عشْرَة سورةً تنبيهاً على أن أصول الأبنية المستعملةَ ثلاثةَ عشَرَ عَشْرةٌ منها للأسماء وثلاثة للأفعال ورباعيتين وخماسيتين تنبيهاً على أن لكل منهما أصلاً، كجعفر وسفرجل، ومُلحقاً: كقِرْدَد وجَحَنْفَل، ولعلها فُرِّقت على السور ولم تعد بأجمعها في أول القرآن لهذه الفائدة مع ما فيه من إعادة التحدي وتكريرِ التنبيه والمبالغةِ فيه.

والمعنى: أن هذا المتحدَّى به مؤلفٌ من جنس هذه الحروف، أو المؤلفُ منها، كذا وقيل: هي أسماء للسور، وعليه إطباق الأكثر، سُمِّيت بها إشعاراً بأنها كلماتٌ معروفةُ التركيب، فلو لم تكن وحياً من الله تعالى لم تتساقط مقدرتُهم دون معارضتها. واستُدِلّ عليه بأنها لو لم تكن مُفْهِمَةً كان الخطابُ بها كالخطاب بالمهْمَل والتكلم بالزنجيّ مع العربي، ولم يكن القرآن بأسره بياناً وهدىً، ولما أمكن التحدي به. وإن كانت مُفْهِمَة، فإما أن يُرادَ بها السورُ التي هي مستهلُّها على أنها ألقابُها أو

= المقفلات، وشرح المشكلات ماله، سيما في علم الإعراب.

صنف: الخصائص في النحو، سر الصناعة، شرح تعريف المازني، شرح مستغلق الحماسة، شرح المقصور والممدود، شرحان على ديوان المتنبي، اللمع في النحو، وغير ذلك.

مولده قبل الثلاثين وثلاثمائة، ومات لليلتين بقيتا من صفر سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة. [بغية الوعاة (٢/ ١٣٢ رقم ١٦٢٥)].

غير ذلك، والثاني باطل، لأنه إما أن يكون المرادُ ما وضعت له في لغة العرب فظاهرٌ أنه ليس كذلك، أو غيرُه، وهو باطل، لأن القرآن نزل على لغتهم لقوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[1] فلا يُحمَلُ على ما ليس في لغتهم.

لا يقال: لم لا يجوز أن تكون مزيدةً للتنبيهِ والدلالةِ على انقطاع كلام واستئناف آخر ـ كما قاله قطرب؟ ـ أو إشارةٌ إلى كلمات هي منها اقتُصِرت عليها اقتصارَ الشاعرِ في قولِه:

قلتُ لها قفي فقالتْ قَافْ

كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: الألفُ آلاء الله واللام لفظه والميم مُلْكُه، وعنه أن ألرآ وحمَ ونَ مجموعها الرحمن، وعنه أن آلم معناه: أنا الله أعلم، ونحو ذلك في سائر الفواتح، وعنه أن الألف من الله واللام من جبريل والميم من محمد، أي: القرآن منزَّلٌ من الله بلسان جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام. أو[2] إلى مُدَدِ أقوام وآجالٍ بحساب الجُمَّل، كما قال أبو العالية[3] متمسكاً بما روى: «أنه عليه الصلاة والسلام لَمَّا أتاه اليهودُ تَلا عليهم آلم البقرة. فحَسَبُوه وقالوا: كيف نَدْخُل في دينٍ مُدَّته إحدى وسبعون سنة. فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقالوا: فهل غيره؟ فقال: المصَ والرَ والمَر. فقالوا: خلطْتَ علينا فلا ندري بأيها نأخذ»[4]. فإنّ تلاوتَه إياها بهذا الترتيب عليهم وتَقْريرُهم على استنباطهم دليلٌ على ذلك. وهذه الدَّلالةُ وإن لم تكن عربيةً لكنّها لاشتهارها فيما بين الناس حتى العربُ تُلحِقُها بالمُعْرَبات كالمشكاةِ والسجيل والقسطاس، أو دلالةٌ على الحروف المبسوطة مُقْسَماً بها لشرفها من حيث إنها بَسائطُ أسماء الله تعالى ومادةُ خطابه.

هذا وإن القول بأنها أسماءُ السور يخرجها إلى ما ليس في لغة العرب، لأن التسمية بثلاثة أسماء فصاعداً مستكرَه عندهم ويؤدي إلى اتحاد الاسم والمسمى، ويستدعي تأخرَ الجزء عن الكل من حيث إن الاسم متأخرٌ عن المسمى بالرتبة، لأنا نقول: إن هذه الألفاظ لم تُعْهَد مزيدةً للتنبيهِ والدَّلالة على الانقطاع، والاستئنافُ يلزمُها وغيرَها من حيث إنها فواتحُ السور، ولا يقتضي ذلك أن لا يكون لها معنى في حيزها ولم تستعمل للاختصار من كلمات معينة في لغتهم، أما الشعرُ فشاذّ، وأما قول ابن عباس فتنبيهٌ على أن هذه الحروف منبع الأسماء ومبادىء الخطاب وتمثيل بأمثلة حسنة، ألا ترى أنه عدّ كل حرف من كلمات متباينَة لا تفسير، وتخصيصٌ بهذه المعاني دون غيرها إذ لا مخصِّص لفظاً ومعنىً ولا بحساب الجُمَّل فتُلْحَق بالمعْرَبات، والحديثُ لا دليلَ فيه، لجواز أنه عليه الصلاة والسلام تبسم تعجباً من جهلهم، وجَعْلِها مُقْسَماً بها وإن كان غير ممتنع لكنه يُحْوِج إلى إضمار أشياءَ لا دليل عليها، والتسميةُ بثلاثة أسماء إنما تمتنع إذا ركبت وجعلت اسماً واحداً على طريقة بَعْلَبَكّ فأما إذا

---

(١) الشعراء: «١٩٥».

(٢) عطف على قوله (إشارة إلى كلمات. . .).

(٣) أبو العالية هو: رفيع بن مهران الرياحي البصري، من كبار التابعين، ثقة، كثير الإرسال في رواية الأحاديث، توفي (١٠٦)هـ. انظر تقريب التهذيب (١/ ٢٥٢).

(٤) رواه البخاري في تاريخه (٢/ ٢٠٨) في ترجمة جابر بن عبدالله بن رئاب، ورواه ابن جرير (١/ ٩٢ ـ ٩٣) من طريق ابن إسحاق عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وإسناده ضعيف لضعف الكلبي.

نُثِرت نثرَ أسماء العدد فلا، وناهيك بتسويةِ سيبويه بين التسمية بالجملة والبيت من الشعر وطائفة من أسماء حروف المعجم، والمسمى هو مجموع السورة والاسمُ جزؤها فلا اتحاد، وهو مقدَّم من حيث ذاته مؤخر باعتبار كونه اسماً، فلا دور لاختلاف الجهتين. والوجه الأول[١] أقرب إلى التحقيق وأوفقُ لِلَطائفِ التنزيل وأسلمُ من لزوم النقل ووقوعِ الاشتراك في الأعْلام من واضع واحد فإنه يعود بالنقض على ما هو مقصود بالعَلَمِيّة. وقيل: إنها أسماءَ القرآن ولذلكَ أُخبِر عنها بالكتاب والقرآن.

وقيل: إنها أسماء الله تعالى، ويدل عليه أن علياً كرم الله وجهه كان يقول: يا كهيعصَ، ويا حمعسقَ، ولعله أراد يا منزلَهما.

وقيل الألف: من أقصى الحلق وهو مبدأ المخارج، واللام: من طرف اللسان وهو أوسطها، والميم: من الشفة وهو آخرها جمع بينها إيماءً إلى أن العبد ينبغي أن يكون أولُ كلامه وأوسطه وآخره ذكرَ الله تعالى.

وقيل: إنه سرٌّ استأثره الله بعلْمِه وقد روي عن الخلفاء الأربعة وغيرهم من الصحابة ما يقرب منه، ولعلهم أرادوا أنها أسرارٌ بيْنَ الله تعالى ورسوله ورموزٌ لم يُقصد بها إفهام غيره إذ يبعد الخطاب بما لا يفيد. فإن جعلتَها أسماءَ الله تعالى أو القرآنَ أو السورَ كان لها حظٌّ من الإعراب إما الرفعُ على الابتداء، أو الخبرُ، أو النصبُ بتقدير فعل القسم على طريقة الله لأفعلنّ بالنصب أو غيرُه كما ذُكِرَ، أو الجرُّ على إضمار حرف القسَم، ويتأتى الإعراب لفظاً والحكايةُ فيما كانت مفردة أو موازنة لمفرد كحمَ فإنها كهابيلَ، والحكايةُ ليست إلا فيما عدا ذلك، وسيعود إليك ذكْرُه مفصلاً إن شاء الله تعالى، وإن أبقيتَها على معانيها فإن قَدّرْتَ بالمؤلَّفِ من هذه الحروف كان في حيِّزِ الرفع بالابتداء أو الخبر على ما مر، وإن جَعَلْتَها مُقْسَماً بها يكونُ كلُّ كلمة منها منصوباً أو مجروراً على اللغتين في الله لأفعلنّ، وتكون جملةً قَسَمِيّةً بالفعل المقدَّر له، وإن جعلتها أبعاضَ كلماتٍ أو أصواتاً مُنَزَّلةً منزلةَ حروف التنبيه لم يكن لها محلٌّ من الإعراب كالجُمَلِ المبتدأة والمفردات المعدودة ويوقَفُ عليها وَقْفَ التّمامِ إذا قدّرت بحيث لا تحتاج إلى ما بعدها، وليس شيءٌ منها آيةً عند غير الكوفيين. وأما عندَهم فالَمَ في مواضعها، والمصَ وكهيعصَ وطه وطسمَ وطسَ ويسَ وحمَ آيةٌ، وحمعسقَ آيتان، والبواقي ليست

---

(١) وهو أن هذه الحروف افتتحت بها السورة إيقاظاً لمن تحدى بالقرآن، وتنبيهاً على أن أصل المتلوّ عليهم كلام منظوم مما ينظمون منه كلامهم، فلو كان من عند غير الله لما عجزوا عن الإتيان بما يدانيه.
ولعل هذا القول هو أكثر الآراء شيوعاً بين المفسرين. ولا شك أن في ذلك سرٌّ من أسرار علم الكتاب، ولم يرد في تفسير ذلك شيء عن رسول الله ﷺ يمكن الاعتماد عليه.. وقد ناقش الشوكاني الآراء المذكورة في ذلك وخلص إلى القول بأن الأسلم أن لا يتكلم فيه المرء بشيء، مع الاعتراف بأن في إنزالها حكمة لله عز وجل لا تبلغها عقولنا ولا تهتدي إليها أفهامنا. (فتح القدير ١/ ٣٢).
ويذهب الألوسي ـ بعد استعراض الأقوال في ذلك ـ إلى أن ذلك علم مستور وسر محجوب عَجَزت العلماء عن إدراكه... ثم يبين الفائدة في ذلك فيقول: (إن الإنسان إذا وقف على المعنى وأحاط به سقط وَقْعُه عن القلب، وإذا لم يقف على المقصود منه ـ مع القطع بأن المتكلم به حكيم ـ فإنه يبقى قلبه منقلباً إليه أبداً ومتلفتاً نحوه سرمداً...) (روح المعاني ١/ ١٠١).

بآيات، وهذا توقيفٌ لا مجال للقياس فيه.

(٢) ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ ذلك إشارة إلى آلم إن أُوِّل بالمؤلَّفِ من هذه الحروف أو فُسر بالسورة أو القرآن، فإنه لما تُكلِّم به وتَقَضَّى أو وصل من المرسِل إلى المرسَل إليه صار متباعداً أشير إليه بما يُشار به إلى البعيد[١]، وتذكيرُه ـ متى أريد بآلم السورة ـ لتذكير الكتاب فإنه خبره أو صفته الذي هو هو، أو إلى الكتاب فيكون صفتَه، والمرادُ به الكتابُ الموعود إنزالُه بنحو قوله تعالى ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[٢]، أو في الكتب المتقدمة. وهو مصدر سمي به المفعول للمبالغة.

وقيل فِعال بمعنى المفعول كاللباس، ثم أطلق على المنظوم عبارةً قبل أن يُكتَب لأنه مما يكتب. وأصل الكَتْبِ الجمعُ ومنه الكتيبة.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ معناه: أنه لوضوحه وسطوع برهانه بحيث لا يرتابُ العاقلُ بعد النظر الصحيح في كونه وحياً بالغاً حد الإعجاز لا أن أحداً لا يرتاب فيه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾[٣] الآية. فإنه ما أَبْعَد عنهم الريْبَ بل عرَّفَهم الطريق المُريح له، وهو أن يجتهدوا في معارضة نجْم من نُجومه[٤] ويبذُلوا فيها غاية جَهْدهم حتى إذا عجَزوا عنها تحقق لهم أن ليس فيه مجال للشبهة ولا مدخل للريبة.

وقيل: معناه لا ريب فيه للمتقين. وهدىً حال من الضمير المجرور، والعاملُ فيه الظرفُ الواقع صفةً للمنفيّ. والريْب في الأصل مصدر رابَني الشيءُ إذا حصل فيك الريبة، وهي قلقُ النفس واضطرابُها، سُمِّي به الشك لأنه يقلق النفس ويزيل الطمأنينة. وفي الحديث «دع ما يَريبك إلى مالا يَريبك، فإن الشك رِيبة والصدقَ طمأنينة»[٥] ومنه رِيَبُ الزمان لنوائبه.

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يهديهم إلى الحق. والهدى في الأصل كالسُّرى والتقى ومعناه الدَّلالة.

وقيل: الدلالة الموصلة إلى البُغْية لأنه جُعل مقابل الضلالة في قوله تعالى: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ

---

(١) أشير إلى الكتاب باسم الإشارة البعيد «ذلك» بسبب علوّ شأنه وكونه في الغاية القصوى من الفضل والشرف، فالبعد فيه بُعْدٌ معنوي وليس مكانياً. وسماه كتاباً لأن مآله الكتابة. . ويراد به جميع القرآن وإن لم يتم نزوله، إما باعتبار تحققه في علم الله عز وجل، أو باعتبار ثبوته في اللوح المحفوظ أو باعتبار نزوله جملة للسماء الدنيا. (أبو السعود ١/ ٢٣).

(٢) المزمل: «٥».

(٣) البقرة: «٢٣».

(٤) أي جزء من أجزائه.

(٥) وهو حديث صحيح:
أخرجه الحاكم (٢/ ١٣) والطبراني في الكبير (٣/ ٧٥، ٧٦ رقم ٢٧٠٨، ٢٧١١) والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٥٢ رقم ٥٧٤٧) وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٢٦٤) والترمذي (٤/ ٦٦٨ رقم ٢٥١٨) والنسائي (٨/ ٣٢٧ ـ ٣٢٨ رقم ٥٧١١) والطيالسي (ص١٦٣ رقم ١١٧٨) وأحمد (١/ ٢٠٠). قال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي وهو كما قالا، وقال الترمذي حديث حسن صحيح.
وصححه الألباني في إرواء الغليل (٧/ ١٥٥ ـ ١٥٦ رقم ٢٠٧٤).

مُّبِينٍ﴾[(١)] ولأنه لا يقال مَهْديّ إلا لمن اهتدى إلى المطلوب. واختصاصُه بالمتقين لأنهم المهتدون به والمنتفعون بنصه وإن كانت دَلالتُه عامة لكل ناظر من مسلم أو كافر، وبهذا الاعتبار قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾[(٢)]، أو لأنه لا ينتفع بالتأمل فيه إلا من صَقَل العقل واستعمله في تدبر الآيات والنظر في المعجزات وَتَعرُّف النبوات، لأنه كالغذاء الصالح لحفظ الصحة فإنه لا يجلب نفعاً مالم تكن الصحة حاصلة، وإليه أشار بقوله تعالى ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[(٣)]. ولا يقدح ما فيه من المجمل والمتشابه في كونه هدى لما لم ينفكّ عن بيانٍ يعيِّنُ المرادَ منه.

والمتقي: اسم فاعل من قولهم وقاه فاتقى. والوقاية: فَرْط الصيانة. وهو في عرف الشرع اسم لمن يقي نفسه مما يضره في الآخرة، وله ثلاث مراتب:

الأولى: التوقي من العذاب المخلَّد بالتبرّي من الشرك وعليه قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[(٤)].

والثانية: التجنبُ عن كل ما يؤثم، من فعل أو ترك، حتى الصغائرُ عند قوم، وهو المتعارَف باسم التقوى في الشرع، وهو المعني بقوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾[(٥)].

والثالثة: أن يتنزه عما يشغل سره عن الحق ويتبتل إليه بشرّ أشرَه، وهو التقوى الحقيقي المطلوب بقوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[(٦)] وقد فُسِّر قوله ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ههنا على الأوجه الثلاثة[(٧)].

واعلم أن الآية تحتمل أوْجهاً من الإعراب: أن يكون الٓمٓ مبتدأ على أنه اسم للقرآن أو السورة أو مُقدَّرٌ بالمؤلَّف منها، وذلك خبرُه ـ وإن كان أخصَّ من المؤلَّف مطلقاً ـ، والأصلُ أن الأخص لا يُحمَل على الأعمّ لأنَّ المرادَ به المؤلَّفُ الكامل في تأليفه البالغُ أقصى درجات الفصاحة ومراتبِ البلاغة، والكتابُ صفةُ ذلكَ.

وأن يكون الٓمٓ خبرُ مبتدإٍ محذوف وذلك خبراً ثانياً، أو بدلاً والكتابُ صفتُه. ولا ريْبَ في المشهورة مبنيٌّ، لتضمُّنِه معنى مِنْ، منصوبُ المحلّ على أنه اسم لا النافية للجنس العاملَةِ عمل إنَّ،

---

(١) سبأ: «٢٤».

(٢) البقرة: «١٨٥».

(٣) الإسراء: «٨٢».

(٤) الفتح: «٢٦».

(٥) الأعراف: «٩٦».

(٦) آل عمران: «١٠٢».

(٧) وحقيقة التقوى هي تجنب الشبهات، وهو الورع، فيبتعد عن كثير من الحلال خشية الوقوع في الحرام، قال عليه الصلاة والسلام: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذراً مما به بأس». رواه الترمذي (٢٤٥١) وقال: حديث غريب. وله شواهد.

لأنها تقتضيها ولازمةٌ للأسماء لزومَها. وفي قراءة أبي الشعثاء(١) مرفوعٌ بِلا التي بمعنى ليْس، وفيه خبرُه، ولم يُقَدَّمْ كما قُدِّم في قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾(٢) لأنه لم يُقصد تخصيصُ نفيِ الريبِ به من بين سائر الكتب كما قُصد ثَمَّةَ(٣)، أو صفتُه وللمتقين خبرُه. وهدىً نُصِبَ على الحال، أو الخبرُ محذوفٌ كما في لا ضير. فلذلك وقف على لا ريب، على أن فيه خبر هدى قُدِّم عليه لتنكيره، والتقديرُ: لا ريب فيه، فيه هدى، وأن يكون ذلك مبتدأ والكتاب خبرُه على معنى: أنه الكتاب الكامل الذي يستأهل أن يُسمى كتاباً، أو صفتُه وما بعده خبره والجملة خبرُ آلَم.

والأولى أن يُقال: إنها جُمَل متناسقة تقرر اللاحقةُ منها السابقةَ ولذلك لم يُدخِل العاطفَ بينهما، فالّم جملة دلت على أن المتحدى به هو المؤلَّفُ من جنس ما يُرَكِّبون منه كلامَهم، وذلك الكتاب جملةٌ ثانية مقرِّرة لجهة التحدي، ولا ريب فيه جملة ثالثة تَشْهد على كماله بأن الكتاب المنعوتَ بغاية الكمال، إذ لا كمال أعلى مما للحق واليقين، وهدىً للمتقين بما يُقدَّر له مبتدأ جملةٌ رابعةٌ تؤكِّد كونَه حقاً لا يحوم الشك حولَه بأنه هدى للمتقين؛ أو تَسْتَتْبع السابقةُ منها اللاحقةَ استتباعَ الدليل للمدلول، وبيانُه أنه لما نبَّه أولاً على إعجاز المتحدى به من حيث إنه من جنس كلامهم وقد عَجَزوا عن معارضته استُنتج منه أنه الكتاب البالغُ حدَّ الكمال واستلزم ذلك أن لا يتشبث الريب بأطرافه إذ لا أنقص مما يعتريه الشك والشبهة، وما كان كذلك كان لا محالة هدى للمتقين. وفي كل واحدة منها نكتة ذات جزالة، ففي الأولى الحذف والرمز إلى المقصود مع التعليل، وفي الثانية فخامة التعريف، وفي الثالثة تأخير الظرف حذراً عن إيهام الباطل، وفي الرابعة الحذف والتوصيف بالمصدر للمبالغة. وإيرادُه منكَّراً للتعظيم. وتخصيصُ الهدى بالمتقين باعتبار الغاية وتسميةَ المشارفِ للتقوى متقياً إيجازاً وتفخيماً لشأنه.

(٣) ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ إما موصولٌ بالمتقين على أنه صفةٌ مجرورة مقيِّدة له ـ إنْ فسر التقوى بترك مالا ينبغي ـ مترتِّبةٌ عليه ترتبَ التَّحلية على التخلية والتصويرِ على التصقيل، أو موضِّحةٌ ـ إن فُسِّر بما يعم فِعْلَ الحسناتِ وتركَ السيئات ـ لاشتماله على ما هو أصلُ الأعمالِ وأساسُ الحسنات من الإيمان والصلاة والصدقة، فإنها أمهات الأعمال النفسانية والعبادات البدنية والمالية المستتبعة لسائر الطاعات والتجنب عن المعاصي غالباً، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾(٤). وقوله عليه الصلاة والسلام: «الصلاة عماد الدين» و«الزكاة قنطرة الإسلام»(٥). أو

---

(١) أبو الشعثاء لم أجده.

(٢) الصافات: «٤٧».

(٣) بمعنى أنه لم يَقصد نفي الريب عن الكتاب وإثباته لبقية الكتب، أي أنه اختص من بين الكتب ومنها السماوية بأنه لا ريب فيه، وقد ارتاب فيه منافقون ونحوهم، ولهذا قدم الريب وأخر الظرف لأنه لم يقصد التخصيص. ويريد القول: بأنه لا يحق لأحد أن يرتاب فيه.
أما في قوله تعالى: «لا فيها غوْل» ـ الصافات «٤٧» ـ فقد قصد التخصيص أي أن خمر الآخرة يخالف خمر الدنيا، بحيث أن خمر الدنيا يُذهب العقل أما خمر الآخرة فخصصه بأنه لا يذهب العقل، ولذلك قدم الظرف (فيها) في هذا الموطن.

(٤) العنكبوت: «٤٥».

(٥) قوله عليه السلام «الصلاة عماد الدين. والزكاة قنطرة الإسلام» يوهم أن ذلك حديث واحد، وليس كذلك، بل=

مسوقةٌ للمدح بما تضمنه المتقين. وتخصيصُ الإيمان بالغيب وإقامةِ الصلاة وإيتاءِ الزكاة بالذِّكْر إظهارٌ لفضلها على سائر ما يدخل تحت اسم التقوى. أو على أنه مدح منصوب، أو مرفوع بتقدير أعني أو هم الذين. وإما مفصولٌ عنه مرفوع بالابتداء وخبرُه أولئك على هدى، فيكونُ الوقفُ على المتقين تاماً.

= هما حديثان:

الأول: أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٣٩ رقم ٢٨٠٧) عن عمر قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله أيُّ شيءٍ أحبُّ عند الله في الإسلام. قال: «الصلاة لوقتها ومن ترك الصلاة فلا دين له، والصلاة عماد الدين». قال أبو عبدالله ـ أي الحاكم ـ عكرمة لم يسمع من عمر، وأظنهُ أراد عن ابن عمر ـ يعني رواه عن ابن عمر فإنه لقيه وسمع منه ـ.

انظر «المراسيل» لابن أبي حاتم: ص١٥٨ رقم ٥٨٦).

فالحديث ضعيف. وقد رمز لضعفه السيوطي في «الجامع الصغير» ص٣١٩ رقم ١٥٨٥) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٣/ ٢٨٦ رقم ٣٥٦٨).

● وله شاهد من حديث علي بن أبي طالب بلفظ «الصلاةُ عماد الدين والجهاد سنامُ العَمَل، والزكاة بين ذلك» أخرجه الديلمي في مسند الفردوس والأصبهاني في الترغيب ـ كما في فيض القدير (٤/ ٢٤٨) ـ.

وقال المناوي: فيه الحارث ضعيف جداً، وذَهِل ابنُ الصلاح في مشكل الوسيط قال هذا غير صحيح ولا معروف فكأنه لم يظفر به. وهو حديث ضعيف. رمز السيوطي في «الجامع الصغير» رقم (٥١٨٧) لضعفه، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٣/ ٢٨٦ رقم ٣٥٦٧) وانظر «تلخيص الحبير» (١/ ١٧٣).

● وله شاهد آخر من حديث معاذ بلفظ «رأس هذا الأمر الإسلام، ومن أسلم سَلِم، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد، لا يناله إلاّ أفضلُهم» أخرجه الطبراني في الكبير (٢٠/ ٥٥ رقم ٩٦) وفيه «علي بن يزيد الألهاني» متروك الحديث قال النسائي في الضعفاء والمتروكين رقم (٤٥٥).

● وحديث معاذ هذا روي من طرق أخرى بسياق طويل ورد فيه «عمود الصلاة».

أخرجه الترمذي (٥/ ١١ رقم ٢٦١٦) وابن ماجة (٢/ ١٣١٤ رقم ٣٩٧٣) وأحمد في المسند (٥/ ٢٣١، ٢٣٣، ٢٣٧) وعبد بن حميد، رقم (١١٢) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (رقم ١٩٦ و١٩٧) وهناد في الزهد (رقم: ١٠٩٠، ١٠٩١) والحاكم (٢/ ٧٦) و(٢/ ٤١٢ ـ ٤١٣).

والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٢٠) والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٤٣، ١٤٤ رقم ٢٩٢ و٢٩٣ و٢٩٤) و(٢٠/ ١٤٧، ١٤٨ رقم ٣٠٤ و٣٠٥) كلهم من طرق عن معاذ بن جبل، وبعضهم مطولاً، وبعضهم مُقتصراً على قوله «رأس هذا الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد».

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي والبيهقي.

وقال ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص٤٠٣ ـ ٤٠٤) رقم (٢٩) بضعف الحديث ومال الألباني في الإرواء (رقم: ٤١٣) إلى ضعف الحديث.

(وأما الحديث الثاني): فقد أخرجه الطبراني في الكبير والأوسط من حديث أبي الدرداء. كما في مجمع الزوائد (٣/ ٦٢) وقال الهيثمي: «رجاله موثقون إلا أن (بقيّة) مدلس وهو ثقة» وكذلك أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ١٩٥ رقم ٣٣١٠) والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ١٨٣ رقم ٢٧٠) وابن عدي في الكامل (٤/ ١٤١٧) وابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٤٩٣ رقم ٨١٤) وقال: لا يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (٤/ ٤ رقم ٢١) رواه إسحاق في مسنده من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه به سواء وفيه الضحاك بن حُمره. وهو ضعيف.

والخلاصة أن الحديث ضعيف. وقد ضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٣/ ٢٠١ رقم ٣١٩١).

والإيمانُ في اللغة عبارة عن التصديق مأخوذٌ من الأَمْن، كأن المصدِّق أَمِنَ المصدَّق من التكذيب والمخالفة. وتعديتُه بالباء لتضمنه معنى الاعتراف. وقد يُطلَق بمعنى الوثوق من حيثُ إن الواثق بالشيء صارَ ذا أمنٍ منه، ومنه ما أمنتُ أن أجد صحابةً، وكلا الوجهين حسن في يؤمنون بالغيب.

وأما في الشرع: فالتصديقُ بما علم بالضرورة أنه من دين محمد صلى الله عليه وسلم كالتوحيدِ والنبوة والبعث والجزاء، ومجموعُ ثلاثةِ أمورٍ: اعتقادُ الحق والإقرار به والعمل بمقتضاه عند جمهور المحدثين والمعتزلة[١] والخوارج[٢] فمن أخلّ بالاعتقاد وحدَه فهو منافق[٣]، ومن أخل بالإقرار فكافر[٤]، ومن أخل بالعمل ففاسق وِفاقاً، وكافر عند الخوارج، وخارج عن الإيمان غيرَ داخل في الكفر عند المعتزلة. والذي يدل على أنه التصديقُ وحده: أنه سبحانه وتعالى أضاف الإيمان إلى القلب فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾[٥]، ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[٦]، ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾[٧]، ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[٨]، وعطف عليه العمل الصالح في مواضعَ لا تحصى، وقرنه بالمعاصي

---

(١) المعتزلة: تنفي الصفات عن الله تعالى خوفاً من التشبيه كما يزعمون، ولذا تأولوا جميع الصفات التي أثبتها الله تعالى لنفسه، وأثبتها رسول الله ﷺ ومن ذلك صفة الكلام لله تعالى فجعلوا القرآن الذي هو كلام الله متصلاً بباب العدل الذي هو أحد أصول التوحيد الخمسة عندهم ووجه اتصاله أن القرآن فعل من أفعال الله وباب العدل كلام في أفعاله وعلى هذا فهم يقولون: القرآن كلام الله ووحيه، وهو مخلوق محدث، ونعرف هذا بأحد طريقين:
(أ) أن يكون واقعاً على وجه لا يصح وقوعه على ذلك الوجه من القادرين بالقدرة كأنه يوجد في حصاة أو شجرة أو حجر أو غير ذلك.
(ب) أن يخبرنا نبي صادق.
انظر شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار (ص٥٢٧ ـ ٥٣٩) وقد فصل الأشعري كلام المعتزلة في كتابه المقالات (١/ ٢٦٧) «ولا شك أن هذا مخالف لما عليه سلف الأمة الذين أثبتوا صفات الكمال لله سبحانه وتعالى حسب ما جاء في القرآن والسنة ومن ذلك صفة الكلام فالله يتكلم متى شاء وإذا شاء، وهي من صفات الأفعال، وقد كفَّر السلف من تأول تلك الصفة على نحو تأويل المعتزلة وغيرهم، وقد حكى بعض تلك الأقوال البخاري في كتابه «خلق أفعال العباد» (ص٢٩ ـ ٤٦) تحقيق: د. عبدالرحمن عميرة والإمام أحمد في كتابه «الرد على الجهمية والزنادقة» (ص١٣٠ ـ ١٣٤) تحقيق الدكتور عبدالرحمن عميرة.

(٢) الخوارج: سموا بهذا الاسم، لخروجهم على الإمام علي رضي الله عنه ونزلوا بأرض يقال لها حروراء فسموا بالحرورية وهم الذين يكفرون أصحاب الكبائر ويقولون بأنهم مخلدون في النار. كما يقولون بالخروج على أئمة الجور وأن الإمامة جائزة في غير قريش وهم يكفرون عثمان وعلياً وطلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم، ويعظمون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما [الملل والنحل للشهرستاني (١/ ١١٤ ـ ١١٥) ومقالات الإسلاميين ص٨٦].

(٣) يريد بالنفاق نفاق الاعتقاد وهو إبطان الكفر وإظهار الإسلام.

(٤) الإخلال بالإقرار هو: أن ينطق بما يخالف الإيمان، كأن يتلفظ بالكفر ونحوه مع عدم ما يبرره من خوف حقيقي ونحوه «إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان».

(٥) المجادلة: «٢٢».

(٦) النحل: «١٠٦».

(٧) المائدة: «٤١».

(٨) الحجرات: «١٤».

فقال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾[(١)]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾[(٢)]، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾[(٣)] مع ما فيه من قلة التغيير فإنه أقربُ إلى الأصل وهو مُتَعَيِّن الإرادة في الآية، إذْ المعدّى بالباء هو التصديقُ وفاقاً. ثم اختُلف في أن مجردَ التصديق بالقلب هل هو كاف ـ لأنه المقصود ـ أم لابد من انضمام الإقرار به للمتمكن منه؟ ولعل الحقَّ هو الثاني، لأنه تعالى ذم المعانِدَ أكثر من ذمِّ الجاهلِ المقصر، وللمانع أن يجعلَ الذمَّ للإنكار لا لعدم الإقرار للمتمكن منه[(٤)].

والغيبُ مصدرٌ وُصف به للمبالغة، كالشهادة في قوله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾[(٥)] والعربُ تسمي المطمئنّ من الأرض والخمْصة التي تلي الكلية غَيْباً، أو فَيْعَل خففَ كقيل، والمرادُ به الخفيّ الذي لا يدركه الحس ولا تقتضيه بديهة العقل. وهو قسمان: قسم لا دليل عليه وهو المعنيّ بقوله تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[(٦)] وقسم نُصِبَ عليه دليلٌ كالصانعِ وصفاتِه واليوم الآخر وأحواله وهو المراد به في هذه الآية، هذا إذا جعلته صلةً للإيمان وأوقعته موقعَ المفعول به، وإن جعلتَه حالاً على تقدير ملتبسين بالغيب كان بمعنى الغَيْبة والخفاء. والمعنى أنهم يؤمنون غائبين عنكم لا كالمنافقين الذين إذا لقُوا الذين آمنوا قالوا آمنَّا وإذا خلوْا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون. أو عن المؤمن به لما روي أن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: والذي لا إله غيره ما آمن أحد أفضل من إيمان بغيب، ثم قرأ هذه الآية[(٧)]. وقيل المراد بالغيب: القلب لأنه

---

(١) الحجرات: «٩».

(٢) البقرة: «١٧٨».

(٣) الأنعام: «٨٢».

(٤) قضية تعريف الإيمان وهل يدخل فيه العمل؟ وهل يكفي مجرد التصديق؟... الأولى أن يكون فيه أن الإيمان في أصله يفيد التصديق، والتصديق يكون بالقلب واللسان والجوارح، والقلب هو مقرّ التصديق وأساس الإيمان، واللسان يصدق ما وقر في القلب أو يكذبه فإن ظهر لنا تصديق اللسان أقررنا بذلك، وما كان في القلب فأمره إلى الله لأنه وجده هو الذي يطلع على السرائر، فإن خالف اللسانُ فنحكم بالظاهر. وكذا تصديق الجوارح فإن صدقت الجوارحُ الإيمان حكمنا به، وإن وقع من الجوارح ما يناقض الإيمان فنحكم بالظاهر، فمن أهان القرآن حكمنا بكفره.

وهكذا فإن التصديق يكون بالقلب واللسان والجوارح، وعليه فالعمل ليس داخلاً في أصل الإيمان بل دليل عليه ومصدق له، فإن ظهر من العمل ما يناقض الإيمان حكمنا به.

أما هل يكفي مجرد التصديق؟ أقول: مجرد التصديق القلبي كاف عند الله تعالى للنجاة من الخلود في النار وإن لم يعمل بأي عمل صالح بشرط أن لا يظهر منه ما يناقض الإيمان، وغير كاف عند العبد لأن العبد لا يطلع على القلوب إنما يحكم بالظاهر فيحكم على القول والعمل.

(٥) التوبة: «٩٤».

(٦) الأنعام: «٥٩».

(٧) وهو حديث صحيح.

أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٦٠) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وهو كما قالا.

مستور، والمعنى يؤمنون بقلوبهم لا كمن يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم. فالباء على الأول للتعدية. وعلى الثاني للمصاحبة. وعلى الثالث للآلة.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي يُعدِّلون أركانها ويحفظونَها من أن يقع زَيْغ في أفعالها مِنْ أقام العُود إذا قوَّمَه، أو يواظبون عليها من قامَت السوقُ إذا نفقت وأقمتَها إذا جعلتَها نافقة قال:

أقَامَتْ غزالةُ سُوقَ الضِّرابِ لأهْلِ العِرَاقينِ حَولاً قَمِيطا

فإنه إذا حوفظ عليها كانت كالنافق الذي يُرغَبُ فيه وإذا ضُيِّعت كانت كالكاسد المرغوب عنه، أو يتشمرون لأدائها من غير فتور ولا توانٍ من قولهم قام بالأمر وأَقَامَه إذا جدّ فيه وتجلّد، وضدُّه قعد عن الأمر وتقاعد، أو يؤدونها، عَبَّر عن الأداء بالإقامة لاشتمالها على القيام كما عبَّر عنها بالقنوتِ والركوع والسجود والتسبيح. والأولُ أظهر، لأنه أَشْهَرُ وإلى الحقيقة أقربُ وأفْيَدُ، لتضمُّنه التنبيه على أن الحقيقَ بالمدح مَنْ راعى حدودها الظاهرةَ من الفرائض والسُّنن وحقوقَها الباطنة من الخشوع والإقبال بقلبه على الله تعالى، لا المصلون الذين هم عن صلاتهم ساهون، ولذلك ذُكِر في سياقِ المدح والمقيمين الصلاة وفي معرض الذم فويل للمصلين. والصلاةُ فعلة من صلّى إذا دَعَا كالزكاة من زكى، كُتبتا بالواو على لفظ المفَخَّم، وإنما سُمي الفعل المخصوصُ بها لاشتماله على الدعاء.

وقيل: أصل صلَى حَرَّك الصَّلْوَيْن، لأن المصلي يفعله في ركوعه وسجوده، واشتهارُ هذا اللفظ في المعنى الثاني مع عدم اشتهاره في الأول لا يقدح في نقله عنه، وإنما سمي الداعي مُصَلِّياً تشبيهاً له في تخشعه بالراكع الساجد.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ الرزق في اللغة: الحظ قال تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[1]. والعرف خصصه بتخصيص الشيء بالحيوان للانتفاع به وتمكينه منه.

وأما المعتزلةُ لما استحالوا على الله تعالى أن يُمَكِّنَ من الحرام لأنه مَنَعَ من الانتفاع به وأمر بالزجر عنه قالوا: الحرامُ ليس برزق، ألا ترى أنه تعالى أسند الرزق ههنا إلى نفسه إيذاناً بأنهم ينفقون الحلال المطلق فإن إنفاق الحرام لا يوجب المدح، وذمَّ المشركين على تحريم بعض ما رزقهُم الله تعالى بقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾[2]. وأصحابُنا جعلوا الإسناد للتعظيم والتحريضِ على الإنفاق، والذمَّ لتحريم ما لم يَحْرم. واختصاصُ ما رزقناهم بالحلال للقرينة. وتمسَّكوا لشمولِ الرزقِ لهُ بقوله صلى الله عليه وسلم في حديث عمرو بن قرة[3]. «لقد رزقك الله طيِّباً، فاخترتَ ما حرم الله عليك من رزقه مكانَ ما أحل الله لك من حلاله»[4]. وبأنه لو لم يكن رزقاً

(١) الواقعة: «٨٢».

(٢) يونس: «٥٩».

(٣) عمرو بنَ قُرَّة: لقي النبي ﷺ كما في أسد الغابة (٤/ ٢٦٢ رقم ٤٠٠٢).

(٤) وهو حديث موضوع.
أخرجه ابن ماجة (٢/ ٨٧١ رقم ٢٦١٣).
قال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٢/ ٨٠ رقم ٩٢٧): «هذا إسناد ضعيف بشر بن نمير البصري قال فيه =

لم يكن المتغذي به طولَ عمرهِ مرزوقاً، وليس كذلك لقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[1].

وأنفق الشيءَ وأنفده أخوان، ولو استقريت الألفاظ وجدت كل ما فاؤهُ نونٌ وعينَه فاءٌ دالاً على معنى الذهاب والخروج[2]، والظاهرُ من هذا الإنفاق صرفُ المال في سبيل الخير من الفرض والنفل. ومن فَسَّره بالزكاة ذَكَرَ أفضل أنواعه والأصلَ فيه، أو خصصه بها لاقترانه بما هو شقيقها. وتقديمُ المفعول للاهتمام به وللمحافظة على رؤوس الآي. وإدخالُ مِنْ التبعيضية عليه لمنع المكلَّفِ عن الإسراف المنهيِّ عنه. ويُحتمل أن يُراد به الإنفاق من جميع المعاونِ التي آتاهم الله من النعم الظاهرة والباطنة، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام: «إن علماً لا يُقال به ككنزٍ لا يُنْفَقُ منه»[3] وإليه ذهب من قال: ومما خصصناهم به من أنوار المعرفة يُفيضون.

(٤) ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ هم مؤمنو أهل الكتاب كعبدالله بن سلام[4]

= يحيى بن سعيد القطان كان ركناً من أركان الكذب، وقال أحمد: ترك الناس حديثه، وقال البخاري: منكر الحديث، وقال أبو حاتم: متروك، وقال النسائي غير ثقة، ويحيى بن العلاء قال فيه أحمد كان يضع الحديث، وقال ابن عدي أحاديثه لا يتابع عليها وكلها غير محفوظة والضعيف على رواياته وحديثه بيّن وأحاديثه موضوعات» هـ.

(١) هود: «٦».

(٢) مثل نفد ونفذ ونفر ونفس ونحوه... ولعل هذا في جميع الكلام، فكل كلمة اتفقت في الحرفين الأولين مع غيرها واختلفت في الأخير كانت بمعنى متقارب مثل: اللام والزاي في لزب ولزج ولزّ ولزِق ولزِم.. فهذه الكلمات تفيد الملازمة واللصوق.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (١/ ١٦٤) ـ كما في مجمع الزوائد ـ عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: (مثل الذي يتعلم العلم ثم لا يحدِّث به كمثل الذي يكنِزُ الكنز فلا يُنفِق) قال الهيثمي: فيه ابن لهيعة وهو ضعيف.
وأخرجه أبو خيثمة في «العلم» (رقم: ١٦٢) وابن عبدالبر في «الجامع» (١/ ١٢٢).
● وله شاهد من حديث ابن عمر: وابن عبدالبر في (الجامع) (١/ ١٢٢) وابن عساكر في تاريخه (٦/ ٢٠٧) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٠٢٣).
● وله شاهد آخر من حديث ابن عباس: أخرجه البيهقي في «المدخل» رقم:(٥٧٨) وابن عبد البر في «الجامع» (١/ ١٢٢) وفيه موسى بن عبيدة الرَّبَذي وهو ضعيف.
● وله شاهد ثالث من قول أبي هريرة: أخرجه الخطيب في «إقتضاء العلم العمل» رقم (١٢) وفيه: إبراهيم الهجري ضعيف. ولعله هو الذي رفعه فقد أخرج أحمد (٢/ ٤٩٩) والبزار (١/ ١٠٠ رقم ١٧٦ ـ كشف الأستار) مرفوعاً وقال الهيثمي في المجمع «١/ ١٨٤»: «رجاله مُوَثقون».
● وله شاهد رابع من حديث عبدالله بن مسعود: أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١/ ١٨٠ رقم ٢٦٣) وفيه أيضاً إبراهيم الهجري ضعيف.
● وله شاهد خامس من قول سلمان الفارسي: أخرجه أبو خيثمة في العلم رقم (١٢) وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣/ ٣٣٤) والدارمي (١/ ١٣٨) والبيهقي في «المدخل» رقم (٥٧٦) ورجاله ثقات إلا حصين بن عقبة فهو صدوق والخلاصة أن حديث أبي هريرة المرفوع صحيح. وحديث ابن عمر صحيح وحديث عبدالله بن مسعود حسن والله أعلم.

(٤) عبدالله بن سَلام بن الحارث، صحابي، أسلم عند قدوم النبي عليه السلام المدينة، شهد مع عمر فتح بيت =

رضي الله تعالى عنه وأضرابِهِ، معطوفون على الذين يؤمنون بالغيب، داخلون معهم في جملة المتقين دخول أخَصَّين تحت أعمّ، إذ المراد بأولئك الذين آمنوا عن شرك وإنكار وبهؤلاء مقابلوهم، فكانت الآيتان تفصيلاً للمتقين، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما. أو على المتقين وكأنه قال هدى للمتقين عن الشرك والذين آمنوا من أهل الملل. ويحتمل أن يراد بهم الأولون بأعيانهم(١)، وَوُسِّط العاطف كما وسط في قوله:

إلــى المَلِــكِ القَــرْمِ وابــنِ الهمــامِ وليْــثِ الكتيبــةِ فــي المــزْدَحــمْ

وقوله:

يــا لهــفَ ذؤابــةَ للحــارثِ الصَــ ــائــحِ فــالغَــانــمِ فــالآيِــبِ

على معنى أنهم الجامعون بين الإيمان بما يدركه العقل جُملةً والإتيانِ بما يصدِّقه من العبادات البدنية والمالية، وبين الإيمان بما لا طريق إليه عبر السمع. وكرر الموصولَ تنبيهاً على تغايُر القبيلين وتبايُن السبيلين. أو طائفة منهم وهم مؤمنو أهل الكتاب، ذكرهم مخصصين عن الجملة كذكر جبريل وميكائيل بعد الملائكة تعظيماً لشأنهم وترغيباً لأمثالهم.

والإنزال: نقلُ الشيء من الأعلى إلى الأسفل، وهو إنما يلحق المعاني بتوسط لحوقه الذوات الحاملةَ لها، ولعل نزول الكتبِ الإلٰهية على الرسل بأن يلتقفه المَلَكُ من الله تعالى تلقُّفاً روحانياً، أو يحفظَه من اللوح المحفوظ فينزلُ به فيبلغُه إلى الرسول. والمراد ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ القرآنُ بأسره والشريعةُ عن آخرها. وإنما عَبَّر عنه بلفظ الماضي وإن كان بعضه مترقَّباً تغليباً للموجود على مالم يوجد، أو تنزيلاً للمنتظَر منزلة الواقع، ونظيرُه قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾(٢)، فإن الجنَّ لم يسمعوا جميعه ولم يكن الكتاب كله مُنَزَّلاً حينئذ. وبما ﴿أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ التوراة والإنجيل وسائر الكتب السابقة، والإيمانُ بها جملةً فرضُ عَيْن، وبالأول دون الثاني تفصيلاً من حيث إنا متعبدون بتفاصيله فرض، ولكن على الكفاية. لأن وجوبَه على كل أحدٍ يوجبُ الحرج وفسادَ المعاش(٣).

﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ أي يوقنون إيقاناً زال معه ما كانوا عليه من أن الجَنَّة لا يدخلها إلا من كان هُوداً أو نصارى وأن النار لم تمسهم إلا أياماً معدودة، واختلافُهم في نعيم الجنة: أهو من جنس نعيم

= المقدس والجابية، ولما كانت الفتنة بين علي ومعاوية اعتزلها وأقام بالمدينة إلى أن مات فيها عام (٤٣)هـ (الأعلام ٤/ ٩٠).

(١) وقد رجح الشوكاني أن هذه الآية في المؤمنين كالتي قبلها. وتوسيط العاطف هنا ليس لأجل المغايرة بين الذوات إنما لأجل اختلاف الصفات. (انظر فتح القدير ١/ ٣٧ وأبو السعود ١/ ٣٢).

(٢) الأحقاف: «٣٠».

(٣) ورد بناء الفعلين «أنزل» على المفعول أي مبني للمجهول للجري على سنن الكبرياء (أبو السعود ١/ ٣٣).

أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ
أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ

الدنيا أو غيرِه؟ وفي دوامه وانقطاعه، وفي تقديم الصلة وبناء يوقنون على هُمْ تعريضٌ لمن عداهم من أهل الكتاب، وبأن اعتقادهم في أمر الآخرة غير مطابِق ولا صادر عن إيقان. واليقينُ: إتقان العلم بنفي الشك والشبهة عنه نظراً واستدلالاً، ولذلك لا يوصفُ به علم الباريء ولا العلوم الضرورية. والآخرة تأنيث الآخِر، صفةُ الدار بدليل قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾[١] فغُلِّبت كالدنيا. وعن نافع[٢] أنه خففها بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام. وقرىء يؤقنون بقلب الواو همزة لضم ما قبلها إجراءً لها مجرى المضمومة في وُجُوه وَوُقِّتَتْ، ونظيره:

لحـبُّ المـؤقِـدِ إن إلـى مـؤسَـى وجعـدةَ إذ أضـاءهمـا الـوقـودُ

(٥) ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ الجملة في محل الرفع إن جُعل أحد الموصولين مفصولاً عن المتقين خبرٌ له، فكأنه لما قيل هدى للمتقين قيل ما بالُهم خُصُّوا بذلك؟. فأجيب بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ إلى آخر الآيات. وإلا فاستئنافٌ لا محل لها، فكأنه نتيجةُ الأحكامِ والصفات المتقدمة، أو جوابُ سائل قال: ما للموصوفين بهذه الصفات اختصوا بالهدى؟ ونظيره أحسنتَ إلى زيد صديقِك القديم حقيقٌ بالإحسان، فإن اسم الإشارة ههنا كإعادة المصوف بصفاته المذكورة، وهو أبلغُ من أن يستأنف بإعادة الاسم وحده لما فيه من بيان المقتضي وتلخيصه، فإن ترتُّبَ الحكم على الوصف إيذانٌ بأنه الموجب له. ومعنى الاستعلاء في ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ تمثيلُ تمكُّنهم من الهدى واستقرارِهم عليه بحالٍ من اعتلى الشيء وركِبَه، وقد صرحوا به في قولهم: امتطى الجهل وغوى واقتعد غاربَ الهوى، وذلك إنما يحصُل باستفراغ الفكر وإدامة النظر فيما نُصِبَ من الحجج والمواظبةِ على محاسبة النفس في العمل. ونُكِّرَ هدىً للتعظيم. فكأنه أريد به ضرب لا يبالغ كنهه ولا يقادر قدره، ونظيره قول الهذلي[٣]:

فـلا وأبـي الطيـرُ المـربَّـةَ بـالضُّحَـى علـى خـالـدٍ لقـدْ وقَعْـتَ علـى لحـم

وأُكِد تعظيمه بأن الله تعالى مَانِحُهُ والموفق له، وقد أدغمت النون في الراء بغنة وبغير غنة.

---

(١) القصص: «٨٣».

(٢) نافع هو: أبو رويم نافع بن عبدالرحمن بن أبي نعيم المدني، أخذ القراءة عن أبي جعفر القاري وعن سبعين من التابعين، وهم أخذوا عن عبدالله بن عباس وأبي هريرة عن أبيّ بن كعب عن رسول الله ﷺ، انتهت إليه رئاسة الإقراء بالمدينة، وهو أحد القراء السبعة، اشتهر بالرواية عنه ورش وقالون، توفي (١٦٩)هـ.

(٣) الهذلي هو سعيد بن مسعود الهذلي، من كبار المغنين من أهل مكة، وكان يُقترح عليه الغناء بالأبيات من الشعر فيضع لها اللحن ارتجالاً ويغنيها توفي (١١٠)هـ (الأعلام ٣/١٠٢).

﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ كرر فيه اسمَ الإشارة تنبيهاً على أنّ اتصافَهم بتلك الصفات يقتضي كلَّ واحدة من الأثرتين وأن كلاً منهما كاف في تمييزهم بها عن غيرهم[١]، ووُسِّط العاطفُ لاختلاف مفهوم الجملتين ههنا بخلاف قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[٢]، فإن التسجيل بالغفْلة والتشبيهَ بالبهائم شيء واحد فكانت الجملةُ الثانية مقررةً للأولى فلا تناسب العطف. وهم: فصْلٌ يَفْصِل الخبرَ عن الصفة ويؤكِّد النِّسبَة ويُفيد اختصاص المسنَدِ بالمسنَد إليه، أو مبتدأ والمفلحون خبرُه والجملةُ خبر أولئك. والمفلح بالحاء والجيم: الفائز بالمطلوب، كأنه الذي انفتحت له وجوه الظَّفَر، وهذا التركيبُ وما يشاركه في الفاء والعين نحو فلق وفلذ وفلي يدل على الشَّقِّ والفَتْح. وتعريف المفلحين للدلالة على أن المتقين هم الناس الذين بلغك أنهم المفلحون في الآخرة، أو الإشارة إلى ما يعرفه كل أحد من حقيقة المفلحين وخصوصياتهم.

تنبيه: تأمل كيف نبه سبحانه وتعالى على اختصاص المتقين بنيْل مالا ينالُه كلُّ أحد من وجوه شتى، وبناءُ الكلام على اسم الإشارة للتعليل مع الإيجاز، وتكريرُه وتعريفُ الخبرِ وتوسيطُ الفَصْل لإظهار قَدْرهم والترغيبِ في اقتفاء أثرهم. وقد تشبث به الوَعِيديةُ في خلود الفُسَّاق من أهل القبلة في العذاب[٣]، ورُدّ بأن المراد بالمفلحين: الكاملون في الفلاح، ويلزمه عدم كمال الفلاح لمن ليس على صفتهم لا عدم الفلاح له رأساً.

(٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لما ذكر خاصَّةَ عبادهِ وخلاصةَ أوليائه بصفاتهم التي أهلتهم للهدى والفلاح عقَّبهم بأضدادهم العتاةِ المردةِ الذين لا ينفع فيهم الهدى ولا تغني عنهم الآياتُ والنذر. ولم يعطفْ قصتهم على قصة المؤمنين كما عطف في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾[٤] لتباينهما في الغرض، فإن الأُولى سيقت لذكر الكتاب وبيان شأنه والأخرى مسوقةٌ لشرح تمردهم وانهماكهم في الضلال. و«إنّ» من الحروف التي تشابهُ الفعل في عدد الحروف والبناءِ على الفتح ولزومِ الأسماء وإعطاءِ معانيه[٥]، والمتعدي خاصةً في دخولها على اسمين، ولذلك أُعمِلت عملَه الفرعيَّ، وهو نصبُ الجزء الأول ورفع الثاني إيذاناً بأنه فرع في العمل دخيلٍ فيه، وقال الكوفيون: الخبرُ قبل دخولها كان مرفوعاً بالخبرية، وهي بعدُ باقيةٌ مقتضية للرفع قضيةً للاستصحابِ فلا يرفعه الحرفُ. وأجيب بأن اقتضاءَ الخبرية الرفعَ مشروطٌ بالتجرد لتخلفه عنها في خبر كان، وقد زال بدخولها فتعين إعْمالُ الحرف. وفائدتُها تأكيدُ النسبة وتحقيقُها، ولذلك يُتَلَقَّى

---

(١) ويفيد تكرير اسم الإشارة إظهار مزيد العناية بشأن المشار إليهم (أبو السعود ١/ ٣٤).
(٢) الأعراف: «١٧٩».
(٣) يريد بالوعيدية المعتزلة والخوارج، حيث قالوا بأن تارك الواجب مخلد في العذاب، لأنّ قَصْر جنس الفلاح على الموصوفين يقتضي انتفاء الفلاح عن تارك الواجبات... وقد رُدّ عليهم بأن المراد بالمفلحين: الكاملون في الفلاح... (انظر روح المعاني ١/ ١٢٥).
(٤) الانفطار: «١٣».
(٥) الضمير في «معانيه» يعود على الفعل، أي أن «إن» تعطي معاني الفعل. وكذلك تشبه «إنّ» الفعل في دخول نون الوقاية عليها، مثل: إنني ولعلني..

بها القَسَم ويُصدَّرُ بها الأجوبة وتُذكَرُ في معرض الشك، مثلُ قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾(١)، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾(٢) قال المبرد(٣): قولُك عبدُالله قائم إخبار عن قيامه، وإنَّ عبدالله قائم جواب سائل عن قيامه، وإن عبدالله لقائم جواب مُنكِر لقيامه. وتعريفُ الموصول: إما مُعْهَدٌ والمراد به ناس بأعيانهم كأبي لهب وأبي جهل والوليد بن المغيرة وأحبار اليهود، أو للجنس متناولاً من صمَّم على الكفر وغيرهم، فخصّ منهم غيرَ المصرين بما أسند إليه. والكفر لغةً: سَتْر النعمة، وأصله الكَفْر ـ بالفتح ـ وهو الستر، ومنه قيل للزارع وللّيل كافر ولِكِمَام الثمرة كافور. وفي الشرع: إنكارُ ما علم بالضرورة مجيءُ الرسول ﷺ به، وإنما عُدَّ لُبسُ الغيار وشدُّ الزنار ونحوُهما كفراً لأنها تدُل على التكذيب، فإن من صدق الرسول ﷺ لا يجترىء عليها ظاهراً لا أنها كفر في أنفسها.

واحتجت المعتزلة بما جاء في القرآن بلفظ الماضي على حدوثه لاستدعائه سابقةَ المُخْبَر عنه، وأجيب بأنه: مقتضى التعلق وحدوثُه لا يستلزم حدوث الكلام كما في العلم(٤).

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ خبر إن، وسواء اسمٌ بمعنى الاستواء نُعِتَ به كما نُعِتَ بالمصادر قال الله تعالى: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾(٥) رُفِعَ بأنه خبرُ إنّ وما بعده مرتفع به على الفاعلية كأنه قيل: إن الذين كفروا مستوٍ عليهم إنذارك وعدمه، أو بأنه خبر لما بعده بمعنى: إنذارُك وعدمه سيان عليهم، والفعلُ إنما يُمْتَنَعُ الإخبار عنه إذا أريد به تمامُ ما وضع له، أما لو أطلق وأريد به اللفظ أو مطلق الحدث المدلول عليه ضمناً على الاتساع فهو كالاسم في الإضافة، والإسنادُ إليه كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ﴾(٦) وقوله: ﴿يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾(٧) وقولِهم: تَسْمَعُ بِالْمعِيديِّ خيرٌ مِنْ أَنْ تَرَاه.

وإنما عُدِل ههنا عن المصدر إلى الفعل لما فيه من إيهام التجدد، وحَسُن دخول الهمزة وأم عليه لتقرير معنى الاستواء وتأكيده، فإنهما جُرِّدتا عن معنى الاستفهام لمجرد الاستواء كما جُرِّدت حروف

---

(١) الكهف «٨٤».

(٢) الأعراف: «١٠٤».

(٣) المبرِّد هو محمد بن يزيد الأزدي، إمام العربية ببغداد في زمنه وأحد أئمة الأدب والأخبار، ولد بالبصرة (٢١٠)هـ وتوفي ببغداد (٢٨٦)هـ، واسمه بفتح الراء المشددة عند الأكثر، وبعضهم يكسرها. (الأعلام ٧/ ١٤٤).

(٤) التعبير بلفظ الماضي لا يستدعي حدوثه، وذلك أن الفعل الماضي يدل على زمن ماض وحدث متحقق، والقرآنُ الكريم قد يستخدم الفعل الماضي ليدل على مجرد تحقق وقوع الحدث دون زمنه، كما في قوله تعالى: «وقال الذين استكبروا للذين استُضعفوا» ـ سبأ «٣٢» ـ فعبر بالفعل «قال» وهو فعل ماض من حيث إعرابُه، ولكن القول المذكور يكون يوم القيامة ولم يَحدث بعد.. لذلك قيل فيه بأنه عبر بالفعل الماضي ليدل على تحقق وقوعه.

وهو كالعِلْم من حيث إن حدوث تعلق العلم بالمعلوم لا يستدعي حدوث العلم وفي قوله تعالى: «إن الذين كفروا» عبر بالماضي ليدل على تحقق الكفر منهم وتمكنه في نفوسهم.

(٥) آل عمران: «٦٤».

(٦) البقرة: «١٣».

(٧) المائدة: «١١٩».

النداء عن الطلب لمجرد التخصيص في قولهم: اللهم اغفر لنا أيتها العصابة.

والإنذارُ: التخويف[١] أريد به التخويف من عذاب الله، وإنما اقتُصر عليه دون البشارة لأنه أوقع في القلب وأشد تأثيراً في النفس من حيثُ إن دفع الضر أهم من جلب النفع، فإذا لم ينفع فيهم كانت البشارة بعدم النفع أولى. وقرىء أَأَنذرتهم بتحقيق الهمزتين وتخفيف الثانية بيْن بيْن، وقلبها ألفاً وهو لحن لأن المتحركة لا تُقلب ولأنه يؤدي إلى جمع الساكنين على غير حده، وبتوسيطِ ألف بينهما محققتين، وبتوسيطِها والثانيةُ بين بين، وبحذفِ الاستفهامية، وبحذفِها وإلقاءِ حركتها على الساكن قبلَها.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جملة مفسِّرة لإجمال ما قبلها فيما فيه الاستواء فلا محل لها، أو حال مؤكدة، أو بدل ٦
عنه، أو خبر إن، والجملة قبلها اعتراضٌ بما هو علّةُ الحكم.

والآية مما احتج به من جوَّز تكليف مالا يُطاق، فإنه سبحانه وتعالى أخبر عنهم بأنهم لا يؤمنون وأمرهم بالإيمان، فلو آمنوا انقلب خبرُه كذباً وشَمِل إيمانهم الإيمان بأنهم لا يؤمنون فيجتمعُ الضدان. والحقُّ أن التكليف بالممتنع لذاته وإن جاز عقلاً من حيثُ إن الأحكام لا تستدعي غرضاً سيما الامتثال لكنه غير واقع للاستقراء، والإخبارُ بوقوع الشيء أو عدمِه لا ينفي القدرة عليه كإخباره تعالى عما يفعله هو أو العبد باختياره. وفائدة الإنذار بعد العلم بأنه لا ينجع إلزامُ الحجة، وحيازةُ الرسول فضل الإبلاغ، ولذلك قال: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ ولم يقل سواء عليك، كما قال لعَبَدَة الأصنام: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾[٢]. وفي الآية إخبارٌ بالغيب على ما هو به إنْ أُريد بالموصول أشخاصٌ بأعيانهم فهي من المعجزات.

(٧) ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ تعليل للحكم السابق وبيانٌ لما يقتضيه. والخَتم الكتْمُ، سمِّي به الاستيثاقُ من الشيء بضربِ الخاتَم عليه لأنه كتْم له، والبلوغُ آخرَه نظراً إلى أنه آخرُ فعل يُفعل في إحرازه. والغِشاوة: فِعَالة من غشاه إذا غطاه، بُنيت لما يشتمل على الشيء، كالعصابة والعمامة. ولا ختمَ ولا تغشية على الحقيقة، وإنما المراد بهما أن يحدث في نفوسهم هيئة تمرنهم على استحباب الكفر والمعاصي، واستقباحِ الإيمان والطاعات بسبب غيهم، وانهماكِهم في التقليد، وإعراضِهم عن النظر الصحيح، فتجعلُ قلوبَهم بحيث لا يَنفُذُ فيها الحقُّ، وأسماعَهم تعاف استماعَه فتصير كأنها مستوثَقٌ منها بالختم، وأبصارَهم لا تجتلي الآياتِ المنصوبةَ لهم في الأنفس والآفاق كما تجتليها أعين المستبصرين، فتصيرُ كأنها غُطي عليها وحيل بينها وبين الإبصار. وسماه على الاستعارة خَتْماً وتغشية، أوْ مَثَّلَ قلوبهم ومشاعرهم المؤوفة بها بأشياءَ ضُرِبَ حجابٌ بينها وبين الاستنفاع بها خَتْماً وتغطية، وقد عبَّر عن إحداث هذه الهيئة بالطَّبْع في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾[٣]، وبالإغفال في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن

---

(١) قال الراغب: الإنذار: إخبار فيه تخويف (المفردات مادة «نذر»).

(٢) الأعراف: «١٩٣».

(٣) النحل: ١٠٨.

﴿ذِكْرِنَا﴾[١]، وبالإقساء في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾[٢] وهي من حيث إن الممكنات بأسرها مستندةٌ إلى الله تعالى واقعةٌ بقدرته أسندت إليه، ومن حيث إنها مسبَّبة مما اقترفوه بدليل قوله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[٤] وَرَدَت الآيةُ ناعيةً عليهم شناعةَ صفتهم ووخامة عاقبتهم. واضطربت المعتزلة فيه فذكروا وجوهاً من التأويل:

الأول: أن القومَ لما أعرضوا عن الحق وتمكَّن ذلك في قلوبهم حتى صار كالطبيعة لهم، شُبِّه بالوصْف الخَلْقيّ المجبول عليه.

الثاني: أن المراد به تمثيلُ حال قلوبهم بقلوب البهائم التي خلقها الله تعالى خالية عن الفِطَن. أو قلوبٌ مقدَّرٌ ختم الله عليها، ونظيره سال به الوادي إذا هلكَ وطارت به العنقاء إذا طالت غيبته.

الثالث: أن ذلك في الحقيقة فعلُ الشيطان أو الكافر، لكن لما كان صدوره عنه بإقداره تعالى إياه أُسنِد إليه إسنادَ الفعل إلى المسبِّب.

الرابع: أن أعراقهم لما رسخت في الكفر واستحكمت بحيث لم يبقَ طريق إلى تحصيل إيمانهم سوى الإلجاء والقسر، ثم لم يقسرْهم إبقاءً على غرض التكليف، عَبَّر عن تركه بالختم فإنه سدٌّ لإيمانهم. وفيه إشعار على تمادي أمرهم في الغي وتناهي انهماكهم في الضلال والبغي.

الخامس: أن يكون حكايةً لما كان الكفرة يقولون مثل: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[٥] تهكماً واستهزاءً بهم كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾[٦] الآية.

السادس: أن ذلك في الآخرة، وإنما أخبر عنه بالماضي لتحققه وتيقن وقوعه ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾[٧].

السابع: أن المراد بالخَتْم وَسْمُ قُلوبِهم بسِمَةٍ تعرِفُها الملائكة، فيُبْغِضونهم وينفُرون عنهم، وعلى هذا المنهاج كلامنا وكلامهم فيما يضاف إلى الله تعالى من طبع وإضلال ونحوهما.

و﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ معطوف على قلوبهم لقوله تعالى: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾[٨] وللوفاق على الوقف عليه، ولأنهما لما اشتركا في الإدراك من جميع الجوانب جَعَل ما يمنعُهما من خاصِّ فِعْلهما الخَتْم الذي يَمْنَعُ من جميع الجهات، وإدراكُ الأبصار لما اخْتَصَّ بجهة المقابلة جُعِلَ المانعُ لها عن فعلها

(١) الكهف: ٢٨.
(٢) المائدة: ١٣.
(٣) النساء: ١٥٥.
(٤) المنافقون: ٣.
(٥) فصلت: ٥.
(٦) البينة: ١.
(٧) الإسراء: ٩٧.
(٨) الجاثية: ٢٣.

الغشاوة المختصة بتلك الجهة. وكرر الجارّ ليكونَ أدلَّ على شدة الختم في الموضعين، واستقلالِ كل منهما بالحكم. ووَحَّد السمع للأمن من اللَّبْس واعتبار الأصل، فإنه مصدر في أصله والمصادر لا تُجمع. أو على تقديرِ مضافٍ مثل: وعلى حواسِّ سمعهم(١)

والأبصارُ جمعُ بصر وهو: إدراكُ العين، وقد يطلق مجازاً على القوة الباصرة وعلى العضو، وكذا السمعُ، ولعلّ المراد بهما في الآية العضوُ لأنه أشد مناسبة للختم والتغطية، وبالقلب ما هو محلُّ العلم، وقد يطلقُ ويراد به العقلُ والمعرفة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾(٢). وإنما جاز إمالتُها مع الصاد لأن الراء المكسورة تَغْلب المستعلية لما فيها من التكرير. وغشاوة رُفِعَ بالابتداء عند سيبويه، وبالجارِّ والمجرور عند الأخفش(٣)، ويؤيده العطفُ على الجملة الفعلية. وقرىء بالنصب على تقديرِ وجَعَل على أبصارهم غشاوةً، أو على حذف الجار وإيصال الختم بنفسه إليه والمعنى: وختم على أبصارهم بغشاوة، وقرىء بالضم والرفع، وبالفتح والنصب وهما لغتان فيها. وغِشْوة بالكسر مرفوعة، وبالفتح مرفوعة ومنصوبة وعشاوة بالعين الغير المعجمة.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وعيدٌ وبيان لما يستحقونه. والعذابُ كالنكال بناءً ومعنىً، تقول: عَذَبَ عن الشيء ونكل عنه إذا أمْسَك، ومنه الماء العذب لأنه يقمع العطش ويردعه ولذلك سمي نُقَاخاً وفُراتاً، ثم اتسع فأُطْلِق على كل ألم قادح وإن لم يكن نكالاً، أي: عقاباً يردعُ الجاني عن المعاودة فهو أعمّ منهما. وقيل اشتقاقه من التعذيب الذي هو إزالة العذب كالتقْذِية والتمريض. والعظيمُ نقيض الحقير،

---

(١) وقدم ختم القلوب على ختم السمع والأبصار للإيذان بأنها الأصل في عدم إيمانهم، وللإشعار بأن ختمها ليس بطريق التبعية لختم السمع والأبصار باعتبار أنهما الطريق إليها، بل هي مختومة على حدة.
وقدم السمع على البصر للاشتراك بينه وبين قلوبهم في تلك الحال، أو لأن جنايتهم من حيث السمع ـ الذي به يتلقى الأحكام الشرعية وبه يتحقق الإنذار ـ أعظم منها من حيث البصر الذي به يشاهد الأحوال الدالة على التوحيد (أبو السعود ١/ ٣٨).
وأكثر ما يرد السمع في القرآن الكريم مقدماً على البصر، لما للسمع من أهمية عظمى ـ في تلقي العلوم إذ يمتد عمله ليصل إلى ما وراء المحسوس فيتناول ما شاهده المرسلون وما أطلعهم الله عليه من غيب. . .
وفي سورة الكهف قدم البصر على السمع فقال: «أبصِر به وأسمِع. .» ـ الكهف «٢٦» ـ وذلك لأنّ المتحدثَ عنه من قبيل المبصرات، كما أفاده أبو السعود (٥/ ٢١٨).

(٢) ق: «٣٧».

(٣) الأخفش: هو سعيدُ بن مَسْعدة أبو الحسن الأخفش الأوسط، أحد الأخافش الثلاثة المشهورين، ورابع الأخافش المذكورين في هذا الكتاب ـ بغية الوعاة ـ كان مولى بني مُجاشِع بن دارم من أهل بلْخ. سكن البصرة، وكان أجلع لا تنطبق شفتاه على لسانه. قرأ النحو على سيبويه، وكان أسنّ منه، ولم يأخذ عن الخليل، وكان معتزلياً، حدث عن الكلبي، والنَّخَعيّ وهشام بن عروة، وروى عنه أبو حاتم السِّجستانيّ، ودخل بغداد وأقام بها مدة، وروى وصنف بها.
ومن مصنفاته: الأوساط في النحو، ومعاني القرآن، والمقاييس في النحو، والاشتقاق، والمسائل، والعروض، والقوافي وغير ذلك. .
ومات سنة عشر ـ وقيل سنة خمس عشرة، وقيل إحدى وعشرين ـ ومائتين: [بغية الوعاة للسيوطي (١/ ٥٩٠ ـ ٥٩١ رقم ١٢٤٤)].

والكبيرُ نقيضُ الصغير، فكما أنّ الحقيرَ دون الصغير، فالعظيمُ فوق الكبيرِ، ومعنى التوصيفِ به أنه إذا قيس بسائر ما يجانِسُه قَصُر عنه جميعُه وحقُر بالإضافة إليه. ومعنى التنكير في الآية أن على أبصارهم نوعَ غشاوة ليس مما يتعارفه الناس، وهو التعامي عن الآيات، ولهم من الآلام العظام نوع عظيم لا يعلم كنهه إلا الله.

(٨) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ لما افتتح سبحانه وتعالى بشرح حال الكتاب وساق لبيانه ذكر المؤمنين الذين أخلصوا دينهم لله تعالى وواطأت فيه قلوبُهم ألسنتَهم، وثنّى بأضدادهم الذين مَحَضُوا الكفر ظاهراً وباطناً ولم يلتفتوا لفتة رأساً، ثَلَّث بالقِسم الثالث المذبذب بين القِسْمين وهم الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم تكميلاً للقسم، وهم أخبثُ الكفرة وأبغضُهم إلى الله لأنهم مَوَّهوا الكفر وخَلَطوا به خداعاً واستهزاءً، ولذلك طَوَّلَ في بيان خبثهم وجهلهم واستهزأ بهم وتهكم بأفعالهم وسجل على عَمَهِهم وطغيانهم وضرب لهم الأمثال وأنزل فيهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[1] وقصتُهم عن آخرها معطوفة على قصة المصِرِّين.

والناسُ أصله أُناس لقولهم: إنسانٌ وأُنْس وأَنَاسيّ، فحُذفت الهمزة حَذْفَها في لوقة وعُوِّض عنها حرف التعريف ولذلك لا يكاد يُجْمَع بينهما. وقوله:

إنَّ المنايا يَطَّلِعْنَ على الإناسِ الآمِنِينَا

شاذ. وهو اسمُ جمع كرجال، إذ لم يثبت فِعال في أبنية الجمع، مأخوذ من أَنِسَ لأنهم يَسْتأنِسون بأمثالهم، أو آنَسَ لأنهم ظاهرون مُبْصَرون، ولذلك سُمّوا بشراً كما سمي الجن جنّاً لاجتنانهم. واللامُ فيه للجنس، ومِنْ موصوفة إذ لا عهد فكأنه قال: ومن الناسِ ناسٌ يقولون، أو للعهد والمعهودُ: هم الذين كفروا، ومِنْ موصولة مرادٌ بها ابن أُبيّ وأصحابُه ونظراؤه، فإنهم من حيث إنهم صمَّموا على النفاق دخلوا في عداد الكفار المختومِ على قلوبهم، واختصاصُهم بزياداتٍ زادوها على الكفر لا يأبى دخولَهم تحت هذا الجنس، فإن الأجناس إنما تتنوعُ بزياداتٍ يختلف فيها أبعاضُها فعلى هذا تكون الآية تَقْسيماً للقِسم الثاني.

واختصاصُ الإيمان بالله وباليوم الآخر بالذكر تخصيصٌ لما هو المقصود الأعظم من الإيمان وادعاءٌ بأنهم احتازوا الإيمان من جانبَيْه وأحاطوا بقُطْرَيه، وإيذانٌ بأنهم منافقون فيما يظنون أنهم مخلصون فيه، فكيف بما يَقْصدون به النفاق؟! لأن القوم كانوا يهوداً وكانوا يؤمنون بالله وباليوم الآخر إيماناً كَلاَ إيمان، لاعتقادِهم التشبيهَ واتخاذَ الولد وأن الجنة لا يدخلُها غيرُهم وأن النار لا تمسُّهم إلا أياماً معدودة وغيرَها، ويرون المؤمنين أنهم آمنوا مِثْل إيمانهم، وبيانٌ لتضاعف خبثهم وإفراطهم في كفرهم؛ لأن ما قالوه لو صَدَر عنهم لا على وجه الخداع والنفاق وعقيدتُهم عقيدتُهم لم يكن إيماناً، فكيف وقد قالوه تمويهاً على المسلمين وتهكماً بهم؟! وفي تَكْرار الباءِ ادعاءُ الإيمان بكل واحدٍ على الأصالةِ والاستحكام.

---

(١) النساء: «١٤٥».

والقولُ: هو التلفُّظ بما يفيد، ويُقال بمعنى المقول، وللمعنى المتصوَّر في النفس المعبَّر عنه باللفظ، وللرأي والمذهب مجازاً.

والمرادُ باليوم الآخر من وقت الحشر إلى مالا ينتهي، أو إلى أن يدخل أهلُ الجنةِ الجنةَ. وأهلُ النارِ النارَ لأنه آخرُ الأوقات المحدودة(١).

﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ إنكارُ ما ادعوْه ونفيُ ما انتحلوا إثباته، وكان أصلُه وما آمنوا لِيطابقَ قولَهم في التصريح بشأن الفعل دون الفاعل لكنه عُكِسَ تأكيداً أو مبالغةً في التكذيب، لأنّ إخراج ذواتهم من عداد المؤمنين أبلغُ من نفي الإيمان عنهم في ماضي الزمان(٢)، ولذلك أكّد النفيَ بالباء. وأطلقَ الإيمانَ على معنى أنهم ليسوا من الإيمان في شيء، ويُحتَمل أن يُقيَّد بما قيّدوا به لأنه جوابُه.

والآيةُ تدل على أن من ادّعى الإيمان وخالف قلبُه لسانَه بالاعتقاد لم يكن مؤمناً، لأن من تفوه بالشهادتين فارغَ القلب عما يوافقُه أو ينافيه لم يكن مؤمناً. والخلاف مع الكرّامية(٣) في الثاني فلا ينهضُ حجة عليهم(٤).

(٩) ﴿يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الخَدْع: أن تُوهِم غيرَك خلاف ما تُخفيه من المكروه لتُنْزِله عما هو

---

(١) وفي الآية ورد لفظ يقول بالإفراد وذلك باعتبار لفظةِ «مِن». . أما جَمْعُهُ في قوله «آمنّا بالله» وما بعده فباعتبار معناها (أبو السعود ١/ ٤٠).

(٢) أي أنه آثر الجملة الاسمية في إنكار دعواهم، فقال: «وما هم بمؤمنين» ولم يقل: وما آمنوا، وذلك للمبالغة في الرد بإفادة انتفاء الإيمان عنهم في جميع الأزمنة لا في الماضي فقط كما تفيده الجملة الفعلية (أبو السعود ١/ ٤٠).

(٣) الكرامية: وهم أتباع أبي عبدالله محمد بن كرام السجستاني طرد من سجستان بسبب بدعته، ومن بدعهم أنهم يغالون في إثبات الصفات لله إلى حد التشبيه، وقولهم إن الإيمان هو قول باللسان فقط دون المعرفة والعمل، وموافقتهم المعتزلة في الحسن والقبح، توفي ابن كرام سنة (٢٥٥هـ).
انظر «الفرق بين الفرق ٢١٥ وما بعدها. ولسان الميزان (٥/ ٣٥٣) وما بعدها.

(٤) لعل اللبْس في قضية الإيمان ومخالفة اللسان لما وقر في القلب هو عدم التفريق بين الإيمان المقبول عند الله تعالى والإيمان المقبول عند الناس.
فالإيمانُ المقبول عند الله تعالى مرجعه إلى القلب، والله وحده يعلم ما في القلوب ويحاسب عليها، ولا عبرة لمن نطق بالكفر مُكرهاً، كما دل عليه قوله تعالى: «إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان. . » ـ النحل «١٠٦» ـ أما من شُرح صدره بالكفر فهو الكافر.
أما المقبول عند الناس فمرجعه إلى الظاهر: اللسان والجوارح، والله تعالى يتولى السرائر. فمن نطق بالشهادة ولا يوجد من فعله ما يناقضها فإيمانه مقبول عند العباد ولا دخل لهم في ما وقر في قلبه، فلذلك عاملَ النبيُّ ﷺ المنافقين على أنهم مسلمين رغم علمه عليه السلام بنفاقهم ورغم إقرار القرآن بعدم إيمانهم وشهادة الله عليهم بأنهم كاذبون حينما قالوا: «نشهد إنك لرسول الله».
وعليه فمن أظهر الإيمان واعتقادُه مخالف لذلك فليس بمؤمن عند الله تعالى، وهو منافق، إلا أنه مقبول بظاهره للعباد.
أما من نطق بلسانه بالشهادتين ولم يكن في قلبه ما يوافقه أو ينافيه، لعل الأصل فيه هو الإيمان لأن كل مولود يولد على الفطرة، ولعله غير موجود في الواقع. =

فيه وعما هو بصدده، من قولهم خَدَعَ الضبُ إذا توارى في جحره، وضبٌّ خادِع وخَدِعٌ إذا أوهم الحارس إقباله عليه ثم خرج من باب آخر، وأصله الإخفاء ومنه المخْدَع للخزانة، والأخْدَعان لعِرْقين خفيين في العُنُق، والمخادعة تكون بين اثنين. وخداعهم مع الله ليس على ظاهره، لأنه لا تَخفَى عليه خافيةٌ ولأنهم لم يقصدوا خديعته، بل المراد إما مخادعةُ رسولِهِ على حذف المضاف، أو على أن معاملةَ الرسول معاملةُ الله من حيثُ إنه خليفتُه كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾(١). ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾(٢)، وإمّا أن صورة صنيعهم مع الله تعالى من إظهار الإيمان واستبطانِ الكفر، وصُنْعِ الله معهم بإجراءِ أحكام المسلمين عليهم، وهم عنده أخبثُ الكفار وأهل الدَّرْك الأسفل من النار، استدراجاً لهم وامتثالِ الرسول ﷺ والمؤمنين أمرَ الله في إخفاءِ حالهم، وإجراءِ حكم الإسلام عليهم مجازاةً لهم بمثل صنيعهم، صورةَ صنيعِ المتخادعَيْن. ويحتمل أن يُراد بيخادعون يخدعون لأنه بيان ليقول، أو استئناف بذكر ما هو الغرضُ منه، إلا أنه أخرج في زنة فَاعَلَ للمبالغة، فإن الزِّنَة لما كانت للمبالغة والفعلُ متى غولِبَ فيه، كان أبلغَ منه إذا جاء بلا مقابلةِ معارضٍ ومُبَارٍ استصْحَبَت ذلك، ويعضِّده قراءةُ من قرأ يَخْدَعون. وكان غرضُهم في ذلك أن يدفعوا عن أنفسهم ما يَطْرُق به مَنْ سواهم من الكفرة، وأن يفعلَ بهم ما يفعلُ بالمؤمنين من الإكرام والإعطاء، وأن يختلطوا بالمسلمين فيطَّلعوا على أسرارهم ويذيعوها إلى منابِذِيهم إلى غير ذلك من الأغراض والمقاصد.

﴿وَمَا يُخَٰدِعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾(٣) قراءةُ نافع وابن كثير وأبي عمرو(٤) والمعنى: أن دائرة الخداع راجعة إليهم وضررُها يُحيق بهم، أو أنهم في ذلك خدعوا أنفسهم لَمَّا غرُّوها بذلك وخدعتهم أنفسُهم حيث حدثتهم بالأمانيِّ الفارغةِ وحملتهم على مخادعة من لا تَخفَى عليه خافية. وقرأ الباقون وما يَخْدَعون، لأن المخادعة لا تُتَصوَّر إلا بين اثنين، وقرىء ويُخَدِّعون من خَدَّع ويَخَدِّعُون بمعنى يختدعون ويُخْدَعون ويُخَادَعُون على البناء للمفعول، ونصبُ أنفسهم بنزع الخافض. والنفسُ ذات الشيء وحقيقتُه، ثم قيل للرُّوح لأن نفسَ الحي به، وللقلب لأنه محل الرُّوح أو متعلَّقُهُ، وللدّمِ لأن قَوامها به، وللماء لفَرْط حاجتها إليه، وللرأي في قولهم فلان يؤامِر نفسه لأنه ينبعث عنها أو يشبه ذاتاً تأمُرُه وتشير عليه. والمراد بالأنفس ههنا ذواتهم ويحتمل حملها على أرواحهم وآرائهم.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ لا يحسون لذلك لتمادي غفلتهم. جَعَلَ لُحوقَ وَبَالِ الخِداع ورجوعَ ضرره إليهم في الظهور كالمحسوس الذي لا يخفى إلا على مؤوف الحواس. والشعورُ: الإحساس، ومشاعرُ الإنسان

---

(١) النساء: «٨٠».

(٢) الفتح: «١٠».

(٣) أثبتت القراءة هنا بخلاف قراءة حفص عن عاصم لتوافق كلام المفسر، إذ قراءة حفص «وما يخدعون».

(٤) أبو عمرو هو: زبان بن العلا بن عمار البصري، كان أعلم الناس بالقراءة مع صدق وأمانة وثقة في الدين، روى عن مجاهد بن جبر وسعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبيّ بن كعب عن رسول الله ﷺ وهو أحد القراء السبعة، اشتهر بالرواية عنه الدوري والسوسي ولكن بواسطة اليزيدي وتوفي أبو عمرو (١٥٤)هـ.

أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ
إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ
ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ
شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ

حواسُّه، وأصله الشِّعْر ومنه الشِّعار.

(١٠) ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ﴾ المرضُ حقيقةٌ فيما يَعرِضُ للبدن فيُخرِجُه عن الاعتدال الخاص به ويوجب الخلل في أفعاله، ومجازٌ في الأعراض النفسانية التي تُخلُّ بكمالها كالجهل وسوء العقيدة والحسد والضغينة وحب المعاصي، لأنها مانعةٌ من نيل الفضائل أو مؤديةٌ إلى زوال الحياة الحقيقية الأبدية. والآيةُ الكريمة تحتملُهُما فإن قلوبهم كانت متألمة تحرُّقاً على ما فات عنهم من الرياسة، وحَسَداً على ما يرون من ثبات أمر الرسول ﷺ واستعلاء شأنه يوماً فيوماً، وزاد الله غمهم بما زاد في إعلاء أمره وإشادة ذكره، ونفوسُهُم كانت موصوفةً بالكفر وسوء الاعتقاد ومعاداة النبي ﷺ ونحوها، فزاد الله سبحانه وتعالى ذلك بالطَّبْع أو بازدياد التكاليفِ وتكرير الوحي وتضاعُفِ النصر، وكان إسنادُ الزيادة إلى الله تعالى من حيث إنه مُسَبِّبٌ من فعله، وإسنادُها إلى السورة في قولَه تعالى: ﴿فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا﴾[1] لكونها سبباً.

ويحتمل أن يراد بالمرض ما تداخَلَ قلوبَهُم من الجُبْن والخَوَرِ حين شاهدوا شوكة المسلمين وإمدادَ الله تعالى لهم بالملائكة وقذفِ الرعب في قلوبهم، وبزيادتهِ تَضْعيفَه بما زاد لرسول الله ﷺ نصرةً على الأعداء وتَبَسُّطاً في البلاد.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾ أي: مؤلم يقال: أَلِمٌ فهو أليم كوَجِعٌ فهو وجيع، وُصف به العذاب للمبالغة كقوله:

تحيةُ بينِهمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ

على طريقة قولهم: جدّ جده.

﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ قرأها عاصمٌ وحمزة والكسائيّ، والمعنى بسبب كذبهم، أو ببَدَلِه جزاءً لَهُم وهو قولهم آمنّا. وقرأ الباقون يُكَذِّبون، من كذَّبَه لأنهم كانوا يُكذِّبون الرسول عليه الصلاة والسلام بقلوبهم وإذا خلوْا إلى شياطينهم، أو مِنْ كَذَّب الذي هو للمبالغة أو للتكثير مثل بين الشيء ومُوَّتت البهائمُ، أو من كذَّبَ الوحشي إذا جرى شوطاً وقف لينظر ما وراءه فإن المنافق متحيِّر متردد. والكذب: هو الخبر عن الشيء على خلاف ما هو به، وهو حرام كلُّه لأنه عُلِّل به استحقاقُ العذابِ حيثُ رُتِّبَ عليه[2]. وما روي أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كَذَبَ ثلاث كَذِبات، فالمراد التعريض،

---

(١) التوبة: «١٢٥».

(٢) قوله عن الكذب: وهو حرام كله غير مسلّم به لما ذكره العلماء ودلت عليه النصوص من جواز الكذب في بعض =

ولكن لما شابه الكَذِبَ في صورته سُمِّيَ به[١].

(١١) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ عطفٌ على يُكذِّبون أو يقول. وما روي عن سلمان رضي الله عنه أن أهل هذه الآية لم يأتوا بعدُ، فلعلّه أراد به أن أهلها ليس الذين كانوا فقط بل وسيكون من بعدُ مَنْ حالُه حالُهم لأن الآية متصلة بما قبلها بالضمير الذي فيها. والفسادُ: خروج الشيء عن الاعتدال. والصلاحُ ضدُّه، وكلاهما يَعُمّان كل ضارٍّ ونافع.

وكان من فسادهم في الأرض هَيْجُ الحُروب والفِتَن بمخادعة المسلمين وممالأةِ الكفار عليهم بإفشاء الأسرار إليهم، فإن ذلك يؤدي إلى فساد ما في الأرض من الناس والدواب والحَرْث.

ومنه إظهارُ المعاصي والإهانةُ بالدِّين فإن الإخلال بالشرائع والإعراضَ عنها مما يوجب الهَرجَ والمَرجَ ويُخِلُّ بنظام العالم. والقائلُ هو الله تعالى، أو الرسول ﷺ، أو بعضُ المؤمنين. وقرأ الكسائي وهشام[٢] «قيل» بإشمام الضمِّ الأوَّلَ.

﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ جوابٌ لإذا ردٌّ للناصح على سبيل المبالغة، والمعنى أنه لا يصح مخاطبتنا بذلك فإن شأننا ليس إلا الإصلاح وإنّ حالَنا متمحضة عن شوائب الفساد، لأن «إنما» تفيد قصر ما دخلت عليه على ما بعده، مثل إنما زيد منطلق وإنما ينطلق زيد، وإنما قالوا ذلك: لأنهم تصوروا الفساد بصورة الصلاح لما في قلوبهم من المرض كما قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾[٣].

(١٢) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ ردٌّ لما ادّعوه أبلغَ ردّ للاستئنافِ به وتصديرِه بحرفَيْ التأكيد: ألاَ المنبهة على تحقيقِ ما بعدها، فإنّ همزة الاستفهام التي للإنكار إذا دخلت على النفي أفادت تحقيقاً، ونظيرُه أليس ذلك بقادر، ولذلك لا تكاد تقع الجملة بعدها إلا مصدَّرة بما يلتقي به

= المواطن. قال النووي: (إن الكلام وسيلة إلى المقاصد، فكل مقصود محمودٍ يمكن تحصيله بغير الكذب يَحرم الكذب فيه، وإن لم يكن تحصيله إلا بالكذب، جاز الكذب.

ثم إن كان ذلك المقصود مباحاً كان الكذب مباحاً، وإن كان واجباً، كان الكذب واجباً، فإذا اختفى مسلم من ظالم يريد قتله، أو أخذَ مالِه، وأخفى مالَه، وسئل إنسان عنه وجب الكذب بإخفائه... واستدل العلماء لجواز الكذب في هذا الحال بحديث أم كلثوم رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس، فينْمي خيراً أو يقول خيراً». قالت أم كلثوم: ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقول الناس إلا في ثلاث. تعني: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها. رواه مسلم «٢٦٠٥») رياض الصالحين للنووي ص٥٨٦.

ولعل المراد من حديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها بما فيه صلاح حياتهما كأن يقول لها بأنه يحبها وتقول له ذلك وإن كانا غير صادقيْن.

(١) ما أورده البيضاوي حديث أن إبراهيم كذب... بلفظ روي المفيد للتمريض عند المحدثين هو خلاف اصطلاح أهل الحديث، فالحديث وارد في الصحيحين عند البخاري (٣٣٥٨، ٥٠٨٤) وعند مسلم (٤/ ١٨٤٠).

(٢) هشام: وقد أخذ القراءة عن عراك بن خالد المزي عن يحيى بن الحارث الذمادي عن ابن عامر واشتهر بالرواية عن ابن عامر أحد القراء السبعة، وكان هشام قاضياً فقيهاً محدثاً ثقة ضابطاً وتوفي بدمشق عام (٢٤٥)هـ.

(٣) فاطر: «٨».

القَسَمُ، وأُختُها أمَا التي هي من طلائع القَسَم وإنْ المقررة للنسبة. وتعريفُ الخبر وتوسيط الفصل لردِّ ما في قولهم إنما نحن مصلحون من التعريض للمؤمنين، والاستدراك بلا يشعرون.

(١٣) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا﴾ من تمام النصح والإرشاد فإنّ كمالُ الإيمان بمجموع الأمرين: الإعراضُ عما لا ينبغي وهو المقصود بقوله: ﴿لَا تُفْسِدُوا﴾، والإتيانُ بما ينبغي وهو المطلوب بقوله: ﴿ءَامِنُوا﴾.

﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ في حيز النصب على المصدر، وما مصدريةٌ أو كافَّة مثلها في رُبما. واللام في الناس للجنس، والمرادُ به الكاملون في الإنسانية العاملون بقضية العقل، فإن اسم الجنس كما يُستعمل لمسماه مطلقاً يستعمل لما يَسْتجمع المعاني المخصوصةَ به والمقصودةَ منه، ولذلك يُسْلَب عن غيره فيقال: زيد ليس بإنسان، ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾[1] ونحوه وقد جمعهما الشاعر في قوله:

إذِ الناسُ ناسٌ والزمانُ زمان

أو للعهدِ، والمراد به الرسول ﷺ ومَنْ معه. أَوْ مَنْ آمن من أهل جلدتهم كابن سلاّم وأصحابه، والمعنى آمنوا إيماناً مقروناً بالإخلاص متمحضاً عن شوائب النفاق مماثلاً لإيمانهم. واستُدِل به على قبول توبة الزنديق وأن الإقرار باللسان إيمان وإن لم يُفِدِ التقييد.

﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ الهمزةُ فيه للإنكار، واللام مشارٌ بها إلى الناس، أو الجنس بأسره وهم مندرجون فيه على زعمهم، وإنما سَفَّهُوهُم لاعتقادهم فسادَ رأيهم أو لتحقير شأنهم، فإن أكثر المؤمنين كانوا فقراء ومنهم موالي: كصهيب وبلال، أو للتجلد وعدم المبالاة بمن آمن منهم إن فُسِّر الناسُ بعبدالله بن سلام وأشياعه. والسَّفَه: خِفَّةٌ وسخافةُ رأيٍ يقتضيهما نُقصان العقل، والحُلُم يقابله.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ رد ومبالغة في تجهيلهم، فإن الجاهلَ بجهله الجازِم على خلاف ما هو الواقعُ أعظمُ ضلالةً وأتمُّ جهالةً من المتوقِّفِ المعْتَرِف بجهله، فإنه ربما يُعْذَرُ وتنفعُه الآياتُ والنُّذُر. وإنما فُصلت الآية بلا يعلمون والتي قبلها بلا يشعرون لأنه أكثرُ طباقاً لذِكرِ السَّفَهِ، ولأن الوقوف على أمر الدين والتميز بين الحق والباطل مما يَفْتقر إلى نظر وفكر، وأما النفاق وما فيه من الفتن والفساد فإنما يُدْرك بأدنى تفطُّن وتأمل فيما يُشاهَد من أقوالهم وأفعالهم.

(١٤) ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ بيانٌ لمعاملتهم المؤمنينَ والكفارَ، وما صُدِّرت به القصةُ فمَسَاقُه لبيان مذهبهم وتمهيدِ نفاقهم فليس بتكرير. روي أن ابن أبيّ وأصحابَه استقبلهم نفر من الصحابة، فقال لقومه: انظروا كيف أرد هؤلاءِ السفهاءَ عنكم، فأخذ بيد أبي بكر رضي الله عنه فقال: مرحباً بالصِدِّيق سيد بني تيم وشيخِ الإسلام وثاني رسولِ الله في الغار الباذلِ نفْسَه ومالَه لرسول الله ﷺ، ثم أخذ بيد عمر رضي الله عنه فقال: مرحباً بسيد بني عَدِيّ الفاروقِ القوي في دينه الباذلِ نفسَه ومالَه لرسول الله ﷺ، ثم أخذ بيد علي رضي الله عنه فقال: مرحباً بابن عم رسول الله ﷺ

(١) البقرة: «١٨».

وخَتَنهِ سيد بني هاشم، ما خلا رسولَ الله ﷺ. فنزلت[١]. واللقاء المصادفة يقال: لقِيته ولاقيْته إذا صادفته واستقبلته، ومنه ألقيْتُه إذا طرحتُه فإنك بطرحه جعلتَه بحيث يَلْقى.

﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ من خلوت بفلان وإليه إذا انفردت معه، أو من خلاك ذَمٌّ أي عدَّاك ومضى عنك، ومنه القرون الخالية، أو من خلوت به إذا سخرت منه. وعدِّي بإلى لتضمُّن معنى الإنهاء. والمرادُ بشياطينهم: الذين ماثلوا الشيطان في تمردهم، وهم المظهِرونَ كفرَهم، وإضافتُهم إليهم للمشاركة في الكفر، أو كبارُ المنافقين والقائلون صغارُهم. وجعل سيبويه نونه تارة أصلية على أنه من شَطَنَ إذا بعدُ فإنه بعيد عن الصلاح، ويشهد له قولهم: تشيطن، وأخرى زائدة على أنه من شاط إذا بَطَل، ومن أسمائه الباطل.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ أي في الدين والاعتقاد، خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية والشياطينَ بالجملة الاسمية المؤكَّدةِ بإنّ، لأنهم قصدوا بالأُولى دعوى إحداث الإيمان وبالثانية تحقيقَ ثباتهم على ما كانوا عليه، ولأنه لم يكن لهم باعث من عقيدة وصدقِ رغبة فيما خاطبوا به المؤمنين، ولا تَوَقُّعُ رواجِ ادعاءِ الكمالِ في الإيمان على المؤمنين من المهاجرين والأنصار بخلاف ما قالوه مع الكفار[٢].

﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ تأكيد لما قبله لأن المستهزىء بالشيء المستخفَّ به مُصِرٌّ على خلافه، أو بدل منه لأن من حقر الإسلام فقد عظَّم الكفر، أو استئناف فكأن الشياطين قالوا لهم لمّا قالوا إنا معكم: إن صح ذلك فما بالُكم توافقون المؤمنين وتَدَّعون الإيمان فأجابوا بذلك. والاستهزاءُ السخرية والاستخفاف يقال: هزئت واستهزأت بمعنى، كأجبت واستجبت، وأصله الخفّة من الهُزْء وهو القتل السريع يقال: هَزَأ فلان إذا مات على مكانه، وناقتُه تَهْزَأ به أي تسرع وتخف.

(١٥) ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ يجازيهم على استهزائهم، سُمِّي جزاءُ الاستهزاء باسمه كما سمي جزاء السيئة سيئة، إما لمقابلة اللفظ باللفظ، أو لكونه مماثلاً له في القَدْر، أو يَرْجِعُ وبال الاستهزاء عليهم فيكون كالمستَهْزَىء بهم، أو يُنزِل بهم الحقارة والهوان الذي هو لازمُ الاستهزاء أو الغرضُ منه، أو يعاملُهم معاملَةَ المستهزىء: أما في الدنيا فبإجراء أحكام المسلمين عليهم واستدراجهم بالإمهال والزيادة في النعمة على التمادي في الطغيان، وأما في الآخرة: فبأن يَفْتَحَ لهم ـ وهم في النار ـ باباً إلى الجنة فيسرعون نحوه فإذا صاروا إليه سَدَّ عليهم الباب، وذلك قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾[٣]. وإنما استُؤنف به ولم يَعْطِف ليدل على أن الله تعالى تولى مجازاتهم، ولم يحوج المؤمنين إلى أن يعارضوهم، وأنَّ استهزاءهم لا يؤبه به في مقابلة ما يفعلُ الله تعالى بهم. ولعلّه لم

---

(١) أورده الواحدي في «أسباب النزول» ص١٩ تحت الآية (وإذا لقُوا الذينَ آمَنُوا) [البقرة: ١٤]، قال الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في عبدالله بن أبيّ وأصحابه...» الحديث وذكره ابن حجر في «الكافي الشاف» (٤/٥ رقم ٣٠) وقال «محمد بن مروان متروك متهم بوضع الحديث، وسياقه في غاية النكارة» اهـ، قلت: وأبو صالح ضعيف مدلس. والحديث موضوع والله أعلم.

(٢) قيل خاطبوا شياطينهم بالجملة الإسمية لدفع ما توهم أن شياطينهم شكوا في إيمانهم لقولهم مع المؤمنين: آمنّا (حاشية الكازروني على البيضاوي (١/٨٧)).

(٣) المطففين: «٣٤».

يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾
مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا
يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ
أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ

يقل: الله مستهزىء بهم ليطابق قولَهم، إيماءً بأن الاستهزاء يَحْدُث حالاً فحالاً ويتجدد حيناً بعد حين، وهكذا كانت نكايات الله فيهم كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ﴾[١].

﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ من مدَّ الجيشَ وأمدَّه إذا زاده وقوّاه، ومنه مددتُ السراجَ والأرضَ إذا استصلحتهما بالزيت والسماد، لا من المد في العُمُر فإنه يُعَدّى باللام كأملى له. ويدل عليه قراءة ابن كثير ويُمِدُّهم. والمعتزلةُ لما تعذر عليهم إجراءُ الكلام على ظاهره قالوا: لما منعهم الله تعالى ألطافَه التي يمنحها المؤمنين وخذلهم بسبب كفرهم وإصرارهم وسدَّهم طرقَ التوفيق على أنفسهم فتزايدت بسببه قلوبُهم رَيْناً وظُلْمة تزايدَ قلوبِ المؤمنين انشراحاً ونوراً، وأمكن الشيطان من إغوائهم فزادهم طغياناً. أُسْنِدَ ذلك إلى الله تعالى إسناد الفعلِ إلى المسبَّب مجازاً، وأضاف الطغيان إليهم لئلا يُتوهم أن إسنادَ الفعل إليه على الحقيقة، ومصداقُ ذلك: أنه لما أَسْنَدَ المدَّ إلى الشياطين أَطْلق الغي وقال: ﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ﴾[٢]، أو أصلُه يمدّ لهم بمعنى يملي لهم ويمدّ في أعمارهم كي يتنبهوا ويطيعوا فما زادوا إلا طغياناً وعمهاً، فحذفت اللام وعدِّي الفعل بنفسه كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ ﴾[٣]. أو التقدير يمدهم استصلاحاً، وهم مع ذلك يعمهون في طغيانهم. والطُّغيانُ ـ بالضمّ والكسر ـ كلُقْيان، والطغيانُ: تجاوزُ الحد في العتو والغلو في الكفر، وأصله تجاوز الشيء عن مكانه قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ ﴾[٤]. والعمه في البصيرة كالعمى في البصر، وهو: التحير في الأمر يقال رجل عامِهٌ وعَمِهٌ وأرض عمْهاءُ لا منار بها، قال:

أعْمَى الهُدَى بالجاهِلِين العمهْ

(١٦) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ اختاروها عليه واستبدلوها به، وأصله بذل الثمن لتحصيل ما يُطلَب من الأعيان، فإن كان أحد العِوَضَيْن ناضاً[٥] تعين من حيث إنه لا يُطلب لعَيْنه أن يكون ثمناً وبذلُه اشتراءً، وإلا فأي العِوَضَيْن تصورتَه بصورة الثمن فباذِلُه مشترٍ وآخذه بائع، ولذلك عُدَّت الكلمتان من الأضداد، ثم استعير للإعراض عما في يده محصلاً به غيره، سواء كان من المعاني

(١) التوبة: «١٢٦».
(٢) الأعراف: «٢٠٢».
(٣) الأعراف: «١٥٥».
(٤) الحاقة: «١١».
(٥) النضّ والناضّ هي الدراهم والدنانير كما يسميها الحجازيون (المصباح المنير، مادة نضّ).

أو الأعيان، ومنه قول الشاعر:

أَخَذْتُ بالجُمْلَةِ رأساً أَزْعَرا وبالثَّنايا الواضِحَاتِ الدُّرَرا
وبالطَّويلِ العُمرِ عمراً جيذراً كما اشتَرَى المُسْلمُ إذ تَنَصَّرا

ثم اتسع فيه فاستُعمِل للرغبة عن الشيء طمعاً في غيره، والمعنى: أنهم أخلُّوا بالهدى الذي جعله الله لهم بالفطرة التي فُطِرَ الناسُ عليها محصِّلين الضلالة التي ذهبوا إليها؛ أو اختاروا الضلالة واستحبوها على الهدى.

﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾.

ترشيحٌ للمجاز[1]، لَمَّا استعمَل الاشتراء في معاملتهم أتبعه ما يشاكِلُه تمثيلاً لخسارتِهم، ونحوه:

وَلَمَّا رأيتُ النسرَ عزَّ بنَ دأيةٍ وعَشَّشَ في وَكْرَيْهِ جَاشَ لَهُ صَدْري

والتجارةُ: طلب الربح بالبيع والشراء. والربحُ: الفضل على رأس المال، ولذلك سمي شَفًا، وإسنادُهُ إلى التجارة وهو لأربابها على الاتساع لتلبُّسها بالفاعل، أو لمشابهتها إياه من حيثُ إنها سببُ الربح والخُسران.

﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ لطرق التجارة، فإن المقصود منها سلامةُ رأس المال والربحُ، وهؤلاء قد أضاعوا الطَّلْبَتَيْن لأن رأس مَالِهم كان الفطرةَ السليمةَ والعقلَ الصرف، فلما اعتقدوا هذه الضلالات بَطَل استعدادُهم واختل عقلهم ولم يبقَ لهم رأسُ مال يتوسلون به إلى دَرْك الحق ونيل الكمال، فبقُوا خاسرين آيسين من الربح فاقدين للأصل.

(١٧) ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ لما جاء بحقيقة حالهم عقَّبها بضرب المثل زيادةً في التوضيح والتقرير، فإنه أوقعُ في القلب وأقمعُ للخصم الألد، لأنه يريك المتخيَّلَ محققاً والمعقولَ محسوساً، ولأمر ما أكثَرَ الله في كتبه الأمثال، وفشت في كلام الأنبياء والحكماء. والمَثَلُ في الأصل بمعنى النظير يقال: مَثَلٌ ومِثْلٌ ومَثِيلٌ كشَبَهٌ وشِبْهٌ وشبيه، ثم قيل للقول السائر الممثَّل مَضْرِبُه بمَوْرِدِهِ، ولا يُضرب إلا ما فيه غرابةٌ، ولذلك حوفظ عليه من التغيير، ثم استُعير لكل حال أو قصة أو صفة لها شأن وفيها غرابة مثل قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[3].

والمعنى: حالُهم العجيبة الشأن كحال من استوقد ناراً. والذي: بمعنى الذين كما في قوله تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾[4] إن جُعل مرجعُ الضمير في «بنورهم»، وإنما جاز ذلك ولم يَجُزْ وضعُ القائم موضعَ القائمين لأنه غير مقصود بالوصف، بل الجملةُ التي هي صلته وهو وُصْلَة إلى وصف

---

(١) الترشيح هو: ذكر شيء يلائم المستعار منه، فإن الربح ـ وكذا التجارة ـ يلائم المستعار منه الذي هو معنى الشراء الحقيقي. وأصل معنى الترشيح: تربية الأم ولدها بجعل اللبن في فيه شيئاً بعد شيء إلى أن يقوى على المصّ، ولما كان في ذكر ما يلائم المستعار منه تقوية للاستعارة وتربية لها سمي ترشيحاً. (حاشية الكازروني ١/ ٨٩).

(٢) الرعد: «٣٥».

(٣) النحل: «٦٠».

(٤) التوبة: «٦٩».

المعرفة بها لأنه ليس باسم تامٌ بل هو كالجزء منه، فحقه أنه لا يُجْمَع كما لا نَجْمَع أخواتِها، ويستوي فيه الواحد والجمع، وليس الذين جَمْعُه المصحَّح، بل ذو زيادة زيدت لزيادة المعنى ولذلك جاء بالياء أبداً على اللغة الفصيحة التي عليها التنزيل، ولكونه مستطالاً بصلته استَحقّ التخفيف، ولذلك بولغ فيه فحُذِفَ ياؤه ثم كَسْرَته ثم اقتُصِر على اللام في أسماء الفاعِلِين والمفعولين، أو قُصِد به جنسُ المستوقدين، أو الفوج الذي استوْقَدَ. والاستيقاد: طلب الوقود والسعيُ في تحصيله، وهو سطوع النار وارتفاع لهبها. واشتقاق النار من: نار ينُور نَوْراً إذا نفر لأن فيها حركةً واضطراباً.

﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ﴾ أي: النارُ ما حول المُسْتَوْقِدِ إن جعلتَها متعدية، وإلا أمكن أن تكون مُسْنَدة إلى ما، والتأنيثُ لأن ما حولَه أشياءُ وأماكنُ أو إلى ضمير النار، وما: موصولة في معنى الأمكنة نُصِبَ على الظرف، أو مزيدةٌ وحولَه ظرفٌ، وتأليف الحوْل للدوران، وقيل للعامِ حَوْلٌ لأنه يدور.

﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ جوابُ لمّا، والضمير للذي، وجمعُه للحمل على المعنى، وعلى هذا إنما قال: ﴿بِنُورِهِمۡ﴾ ولم يقل: بنارهم لأنه المراد من إيقادها. أو استئنافٌ أجيب به اعتراض سائلٍ يقول: ما بالُهم شُبِّهت حالهم بحال مستوقد انطفأت ناره؟ أو بدلٌ من جملة التمثيلِ على سبيل البيان. والضميرُ على الوجهيْن للمنافقين، والجوابُ محذوف كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ﴾[1] للإيجاز وأَمْنِ الالتباس. وإسنادُ الذهاب إلى الله تعالى: إما لأن الكل بفعله، أو لأن الإطفاء حصل بسببٍ خفيٍّ أو أمر سماوي كريح أو مطر، أو للمبالغة ولذلك عُدِّي الفعلُ بالباء دون الهمزة لما فيها من معنى الاستصحاب والاستمساك، يقال: ذهب السلطان بمالِهِ إذا أخذه، وما أخذه الله وأمسكه فلا مرسلَ له، ولذلك عَدَلَ عن الضَّوْء الذي هو مقتضى اللفظ إلى النُّور، فإنه لو قيل: ذهب الله بضَوْئهم احتَمَلَ ذهابُه بما في الضوء من الزيادة وبقاءِ ما يسمى نوراً، والغرضُ إزالة النور عنهم رأساً، ألا ترى كيف قرر ذلك وأكده بقوله: ﴿وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ فذكر الظُّلمة التي هي عدمُ النور وانطماسُهُ بالكلية، وجمعَها ونكَّرها ووصفَها بأنها ظلمة خالصة لا يَتَراءى فيها شبحان. وتَرَكَ في الأصل بمعنى طرح وخلَّى، وله مفعول واحد فضُمِّن معنى صير، فجرى مجرى أفعال القلوب كقوله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ﴾[2].

وقول الشاعر:

فتــركْتُــه جَــزَرَ السِّبــاع يَنُشْنَــهُ ... يقضُمْــنَ حُســنَ بنــانِــهِ والمِعْصَــمِ

والظلمةُ مأخوذة من قولهم: ما ظلمك أن تفعلَ كذا؟ أي ما منعك، لأنها تسُدُّ البصر وتمنع الرؤية. وظلماتُهم: ظلمةُ الكفر وظلمةُ النفاق وظلمةُ يوم القيامة ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾[3]، أو ظلمةُ الضلال وظلمة سَخَطِ الله. وظلمة العقاب السرمديّ، أو ظلمةٌ شديدةٌ كأنها ظلمة متراكمة، ومفعول ﴿لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ من قبيل المطروح المتروك فكأن الفعل غير متعدٍّ.

---

(١) يوسف: «١٥».

(٢) البقرة: «١٧».

(٣) الحديد: «١٢».

والآية مَثَلٌ ضربه الله لمن آتاه ضَرْباً من الهُدَى فأضاعه ولم يتوصل به إلى نعيم الأبد فبقي متحيِّراً متحسِّراً، تقريراً وتوضيحاً لما تضمنته الآيةُ الأولى. ويدخُلُ تحت عمومه هؤلاء المنافقون، فإنهم أضاعوا ما نطقت به ألسنتهم من الحق باستبطان الكفر وإظهارِهِ حين خلوْا إلى شياطينهم، وَمَنْ آثر الضلالةَ على الهدى المجعولِ له بالفطرة أو ارتدّ عن دينه بعدما آمن، ومَنْ صحَّ له أحوالُ الإرادة فادعى أحوالَ المحبة فأذهب الله عنه ما أشرق عليه من أنوار الإرادة. أو مَثَّل لإيمانهم من حيثُ إنه يعود عليهم بحقن الدماءِ وسلامة الأموال والأولاد ومشاركةِ المسلمين في المغانم والأحكام بالنار الموقدة للاستضاءة، ولذهاب أثره وانطماس نوره، بإهلاكِهم وإفشاءِ حالهم بإطفاء الله تعالى إياها وإذهاب نورِها.

(١٨) ﴿ صُمٌّ بُكۡمٌ عُمۡيٌ ﴾ لما سَدُّوا مسامعهم عن الإصاخة إلى الحق وأبوْا أن يُنْطِقُوا به ألسنتَهم ويَتَبصَّرُوا الآياتِ بأبصارهم، جُعِلُوا كأنما أُيِفت مشاعرُهم وانتفت قُواهم كقوله:

صُمٌّ إذا سَمِعُوا خَيْراً ذُكِرْتُ بِهِ وإنْ ذُكِرْتُ بسوءٍ عندَهُمْ أذنوا

وكقوله:

أَصَمُّ عن الشي الَّذي لا أُرِيدُهُ وأَسْمَعُ خَلْقِ الله حينَ أُرِيدُ

وإطلاقُها عليهم على طريقة التمثيل، لا الاستعارة إذ من شرطها أن يُطوى ذكر المستعار له، بحيث يمكن حمل الكلام على المستعار منه لولا القرينةُ كقول زهير[١]:

لَدَى أسدٍ شاكي السِّلاحِ مُقَذَّفٍ لَهُ لِبَدٌ أظفارُه لم تُقَلَّمِ

ومن ثَمّ ترى المُفْلِّقِين السَّحَرَة يُضْربون عن توهم التشبيه صفحاً كما قال أبو تمام الطائي[٢]:

وَيصعَدُ حتى يَظُنَّ الجَهولُ بأنَّ لَهُ حَاجةً في السَّماءِ

وههنا وإن طُوِيَ ذِكْرُه بحذف المبتدأ لكنّه في حكم المنطوق به، ونظيرُه:

أَسَدٌ عليَّ وفي الحُرُوبِ نَعَامَةٌ فتْخَاءُ تنفر مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ

---

(١) زهير بن أبي سلمى: ربيعة بن رباح المزني من مضر: حكيم الشعراء في الجاهلية، وفي أئمة الأدب من يفضله على شعراء العرب كافة. قال ابن الأعرابي: كان لزهير في الشعر مالم يكن لغيره كان أبوه شاعراً، وخاله شاعراً، وأخته سلمى شاعرة، وابناه كعب وبجير شاعرين وأخته الخنساء شاعرة ولد في بلاد «مُزَيْنة» بنواحي المدينة وكان يقيم في الحاجر (من ديار نجد) واستمر بنوه فيه بعد الإسلام، وكانت قصائده تسمى «الحوليّات» أشهر شعره معلقته التي مطلعها «أمِن أمّ أوفى دمنة لم تكلم» وهي من الطويل، مات سنة (١٣ ق.هـ) [الأعلام للزركلي (٣/ ٥٢)].

(٢) أبو تمام الطائي: هو حبيب بن أوس بن الحارث الطائي، أبو تمام، الشاعر، الأديب، أحد أمراء البيان، ولد في جاسم (من قرى حوران بسورية) ورحل إلى مصر، واستقدمه المعتصم إلى بغداد، فأجازه وقدمه على شعراء وقته في العراق، ثم ولي بريد الموصل فلم يتم سنتين حتى توفي بها سنة (٢٣١هـ) في شعره قوة وجزالة، وله تصانيف منها: (فحول الشعراء ـ خ) و«ديوان الحماسة ـ ط» وغيرها.
[الأعلام للزركلي (٢/ ١٦٥)].

هذا إذا جعَلْتَ الضمير للمنافقين على أن الآية فَذْلَكَةُ التمثيلِ ونتيجتُه، وإنْ جعلتَه للمستوقِدين، فهي على حقيقتها. والمعنى: أنهم لما أوقدوا ناراً فذهب الله بنورهم، وتركهم في ظلمات هائلة أدهشتهم بحيث اختلت حواسُّهم وانتقصت قُواهم. وثلاثتُها قرنت بالنصب على الحال من مفعول تركهم. والصَّمَم: أصلُه صلابةٌ من اكتناز الأجزاء، ومنه قيل حجر أصمّ وقناة صماء وصمام القارورة، سُمِّي به فُقْدان حاسة السمع لأن سببَه أن يكون باطن الصِّماخ مُكْتَنِزاً لا تجويف فيه فيشتمل على هواء يَسْمع الصوت بتموُّجه. والبَكَمُ الخَرَس. والعمى: عدم البصر عما من شأنه أن يُبْصَر وقد يقال لعدم البصيرة.

﴿ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ لا يعودون إلى الهدى الذي باعوه وضيعوه، أو عن الضلالة التي اشتروها، أو فَهُم متحيرون لا يدرون أيتقدمون أم يتأخرون وإلى حيث ابتدؤوا منه كيف يرجعون. والفاء للدلالة على أن اتصافهم بالأحكام السابقة سبب لتحيرهم واحتباسهم.

(١٩) ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ عطف على الذي استوقد أي كمَثَل ذوي صيِّب لقَوله: ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم ﴾ و«أو» في الأصل للتساوي في الشك، ثم اتسع فيها فأطلقت للتساوي من غير شكّ مِثْل: جالس الحسن أو ابن سيرين، وقولُه تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾[1] فإنها تفيد التساوي في حسن المجالسة ووجوب العِصْيان ومن ذلك قوله: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ ﴾. ومعناه أن قصة المنافقين مُشَبَّهة بهاتين القصتين، وأنهما سواء في صحة التشبيه بهما، وأنت مخيَّر في التمثيل بهما أو بأيهما شئت. والصيِّب: فَيْعَل من الصَّوْب وهو النزول، يقال للمطر وللسحاب.

قال الشماخ[2]:

وأسْحَمَ دانٍ صادقِ الرعْدِ صَيِّبِ

وفي الآية يحتملُهما، وتنكيرُه: لأنه أريد به نوع من المطر شديد. وتعريفُ السماء للدَّلالة على أن الغَمام مُطبِقٌ آخذٌ بآفاق السماء كلِّها فإن كل أُفُق منها يسمى سماءً كما أن كل طبقة منها سماءٌ، وقال:

وَمِنْ بَعْدِ أرضٍ بينَنَا وسماءِ

أمِدَّ به ما في الصيب من المبالغة من جهة الأصل والبناء والتنكير، وقيل المراد بالسماء السحابُ فاللام لتعريف الماهية.

﴿ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ إنْ أريد بالصيِّب المطر فظُلُماتُه ظلمةُ تكاثُفِه بتتابُع القَطْر وظلمةُ غَمامه مع ظلمة الليل، وجَعْلُهُ مكاناً للرعد والبرق لأنهما في أعلاه ومنحَدَرِه ملتبسين به. وإن أريد به السحاب،

---

(١) الإنسان: «٢٤».

(٢) الشماخ: هو الشماخ بن ضرار بن حرملة بن سنان المازني الذبياني الغطفاني: شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام وهو من طبقة لبيد والنابغة. كان شديد متون الشعر، ولبيد أسهل منه منطقاً، وكان أرجز الناس على البديهة. جمع بعض شعره في «ديوان ـ ط» شهد القادسية، وتوفي في غزوة موقان. وأخباره كثيرة، قال البغدادي وآخرون: اسمه معقل بن ضرار. والشماخ لقبه ومات سنة (٢٢هـ) [الأعلام للزركلي (٣/ ١٧٥)].

﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ
لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ
أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ
شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا﴾

فظلماته سُحمته وتطبيقُه مع ظلمة الليل. وارتفاعُها بالظرف وِفاقاً لأنه معتَمِد على موصوف. والرعد: صوت يسمع من السحاب، والمشهور أن سببَه اضطراب أجرام السحاب واصطكاكها إذا حَدَّتها الريح من الارتعاد. والبرقُ ما يَلمع من السحاب، من بَرِقَ الشيءُ بريقاً، وكلاهما مصدر في الأصل ولذلك لم يُجمعا.

﴿يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم﴾ الضمير لأصحاب الصيّب، وهو وإن حُذِفَ لفظُه وأقيم الصيبُ مقامَه لكنَّ معناه باق، فيجوز أن يُعوَّل عليه كما عَوَّل حسانُ في قوله:

يسقُــون مَــنْ وَرَدَ البَـريــصَ عَليهــمُ ... بَــرَدَى يصفِّــقُ بــالــرَّحِيــقِ السَّلْسَــلِ

حيث ذكر الضمير لأن المعنى ماءُ بَرَدى، والجملةُ استئنافٌ فكأنه لما ذكر ما يؤذن بالشدة والهوْل قيل: فكيف حالهم مع مثل ذلك؟ فأجيبَ بها، وإنما أطلق الأصابع موضع الأنامل للمبالغة.

﴿مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ متعلق بيجعلون أي من أجلها يجعلون، كقولهم سقاه من الغيمة. والصاعقةُ قصفةُ رعدٍ هائل معها نارٌ لا تمر بشيء إلا أتت عليه، من الصعق وهو شدة الصوت، وقد تطلق على كل هائل مسموع أو مشاهَد، يقال صعقته الصاعقة إذا أهلكته بالإحراق أو شدة الصوت. وقرىء من الصواقع وهو ليس بقلب من الصواعق لاستواء كِلا البناءَيْن في التصرف يقال: صقع الديك وخطيب مصقع وصقعتْه الصاقعة، وهي في الأصل إما صفة لقصفةِ الرعدِ أو للرعد. والتاء للمبالغة كما في الراوية أو مصدر كالعافية والكاذبة.

﴿حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾ نُصِبَ على العلّة كقوله:

وأَغْفِــرُ عَــوراءَ الكَــريــمِ ادِّخَــارَهُ ... وأَصْفَــحُ عــنْ شتــمِ اللئيــمِ تَكَــرُّمَــا

والموت: زوال الحياة، وقيل عَرَضٌ يَضادُها لقوله: ﴿خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾[1]، وَرُدَّ بأن الخلق بمعنى التقدير، والأعدام مقدرة.

﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ لا يفوتونه كما لا يفوت المحاطَ به المحيطُ، لا يخلصهم الخداع والحيل، والجملة اعتراضية لا محل لها.

(٢٠) ﴿يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ﴾ استئناف ثان كأنه جواب لمن يقول: ما حالهم مع تلك

---

(١) الملك: «٢».

الصواعق؟. وكادَ من أفعال المقاربة، وضعت لمقاربة الخبر من الوجود لعُرُوض سببه لكنه لم يوجد، إما لفَقْد شرط أو لوجود مانع، وعسى موضوعة لرجائه، فهي خبر محض ولذلك جاءت متصرفةً بخلافِ عسى، وخبرُها مشروط فيه أن يكون فعلاً مضارعاً تنبيهاً على أنه المقصودُ بالقرب من غير أن، لتوكيدِ القرب بالدلالة على الحال، وقد تدخل عليه حَمْلاً لها على عسى، كما تُحْمَلُ عليها بالحذف من خبرها لمشاركتهما في أصل معنى المقاربة. والخَطْف الأخذ بسرعة وقرىء يَخْطِف ـ بكسر الطاء ـ ويَخَطِّفُ على أنه يختطفُ فنقلت فتحة التاء إلى الخاء ثم أدغمت في الطاء، ويَخِطِّفُ بكسر الخاء لالتقاء الساكنين وإتباع الياء لها، ويُخَطِّفُ ويتخطف.

﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْۚ﴾ استئناف ثالث كأنه قيل: ما يفعلون في تارتَيْ خفوقِ البرق وخُفْيَتِهِ؟ فأجيب بذلك. وأضاء إما متعدٍّ والمفعول محذوف بمعنى كلما نور لهم ممشى أخذوه، أو لازم بمعنى كلما لمع لهم مشوا في مطرح نوره، وكذلك أظلم فإنه جاء متعدياً منقولاً من ظَلَم الليلُ، ويشهد له قراءة أُظْلِمَ على البناء للمفعول، وقول أبي تمام:

هُمَا أظلَمَا حالَيَّ ثُمَّتَ أَجْلَيَا ظَلامَيْهِما عن وَجْهِ أَمْرَدَ أشيبِ

فإنه وإن كان من المحدِّثين لكنه من علماء العربية، فلا يبعُدُ أن يجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه. وإنما قال مع الإضاءة ﴿كُلَّمَآ﴾ ومع الإظلام ﴿إِذَآ﴾ لأنهم حُرَّاص على المشي، فكلما صادفوا منه فرصة انتهزوها، ولا كذلك التوقف. ومعنى قاموا وقفوا، ومنه قامت السوق إذا ركدت، وقام الماء إذا جَمَدَ. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۚ﴾ أي ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم بقصيف الرعد وأبصارِهم بوميض البرق لذهب بهما. فحذف المفعول لدلالة الجواب عليه، ولقد تكاثر حذفُه في شاء وأراد حتى لا يكاد يُذْكر إلا في الشيء المستغرب كقوله:

فَلَوْ شِئْتُ أن أبكي دَماً لَبَكَيْتُهُ

ولو: من حروف الشرط، وظاهرُها الدَّلالةُ على انتفاء الأول لانتفاء الثاني، ضرورة انتفاء الملزوم عند انتفاء لازِمِه. وقرىء: لأذهَبَ بأسماعهم، بزيادة الباء كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾(١).

وفائدة هذه الشرطية إبداءُ المانع لذهاب سمعهم وأبصارهم مع قيام ما يقتضيه، والتنبيه على أن تأثير الأسباب في مسبباتها مشروط بمشيئة الله تعالى، وأن وجودها مرتبط بأسبابها واقع بقدرته، وقولُه:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كالتصريح به والتقرير له. والشيءُ يختصّ بالموجود، لأنه في الأصلِ مصدرُ شاءَ أُطْلِقَ بمعنى شاء تارة، وحينئذ يتناولُ الباريءَ تعالى كما قال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾(٢) وبمعنى مَشِيءٍ أخرى، أي مشيءٌ وجوده وما شاء الله وجودَه فهو موجود في الجملة وعليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٣). ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾(٤) فهما على عمومهما بلا مثْنوية.

---

(١) البقرة: «١٩٥».
(٢) الأنعام: «١٩».
(٣) البقرة: «٢٠».
(٤) الزمر: «٦٢».

والمعتزلة لما قالوا الشيءُ ما يصحُ أن يوجد وهو يعم الواجب والممكن، أو ما يصح أن يُعْلم ويُخْبَرَ عنه فيعمّ الممتنع أيضاً، لزمهم التخصيص بالممكن في الموضعين بدليل العقل.

والقدرة: هو التمكن من إيجاد الشيء. وقيل صفة تقتضي التمكُّن، وقيل قدرة الإنسان هيئة بها يتمكن من الفعل وقدرة الله تعالى عبارة عن نفي العجز عنه، والقادرُ هو الذي إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل، والقدير الفعال لما يشاء على ما يشاء ولذلك قلما يوصفُ به غيرُ الباري تعالى، واشتقاق القدرة من القَدْرِ لأن القادر يوقع الفعل على مقدار قوته أو على مقدار ما تقتضيه مشيئته. وفيه دليل على أن الحادث حالَ حدوثه والمُمْكن حال بقائه مقدوران وأن مقدورَ العبد مقدورٌ لله تعالى، لأنه شيءٌ وكل شيء مقدور لله تعالى. والظاهر أن التمثيلين من جملة التمثيلات المؤلَّفة، وهو أن يُشَبَّه كيْفيةٌ منتزعةٌ من مجموع تضامَّتْ أجزاؤه وتلاصقتْ حتى صارت شيئاً واحداً بأخرى مثلها، كقوله تعالى ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾[1] الآية، فإنه تشبيهُ حال اليهود في جهلهم بما معهم من التوراة بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكمة. والغرضُ منهما تمثيلُ حال المنافقين من الحِيرة والشدة بما يكابِد من انطفأت نارُه بعد إيقادها في ظلمة، أو بحال من أخذَتْه السماء في ليلة مظلمة مع رعد قاصِف وبرق خاطف وخوف من الصواعق. ويمكن جعلُهُما من قَبيل التمثيلِ المفرد، وهو أن تأخذ أشياء فرادى فتشبِّهُها بأمثالها كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝٢١﴾[2] وقول امرىء القيس[3]:

كـأنَّ قلـوبَ الطيـر رَطْبـاً ويـابِسـاً لـدَى وكـرِهـا العنّـابُ والحشـفُ البـالـي

بأن يشبِّه في الأول: ذواتِ المنافقين بالمستوقِدِين، وإظهارَهمُ الإيمانَ باستيقادِ النار، وما انتَفعوا به من حَقْن الدماء وسلامة الأموال والأولاد وغيرِ ذلك بإضاءة النار ما حول المستوقِدِين، وزوالِ ذلك عنهم على القرب بإهلاكهم وبإفشاء حالهم وإبقائهم في الخَسَار الدائم والعذابِ السرمد بإطفاءِ نارِهم والذهاب بنورها. وفي الثاني: أنفسَهم بأصحاب الصيِّب وإيمانَهم المخالَطَ بالكفر والخداع بصيِّب فيه ظلمات ورعد وبرق، من حيث إنه وإن كان نافعاً في نفسه لكنه لما وُجِدَ في هذه الصورة عاد نفعُه ضُراً ونفاقُهم حذراً عن نكايات المؤمنين، وما يطرقون به من سواهم من الكفرة بجعلِ الأصابع في الآذان من الصواعق حذر الموت، من حيث إنه لا يَرُدُّ من قَدَرِ الله تعالى شيئاً، ولا يَخلُص مما يُريد بهم من المضار وتحيُّرِهم لشدة الأمر وجهلهم بما يأتون ويذرون، بأنهم كلما صادفوا من البرق خَفْقة انتهزوها فرصة مع خوف أن تُخْطَفَ أبصارُهم فَخَطُوا خُطاً يسيرة، ثم إذا خفي وَفَتَر لَمعانُهُ بقُوا متقيدين لا حِرَاك بهم. وقيل: شبه الإيمان والقرآن وسائر ما أوتي الإنسانُ من المعارف التي هي سبب الحياة الأبدية بالصَيِّب الذي به حياة الأرض، وما ارتُكِبت بها من الشُّبَهِ المبطلة واعتُرِضَت دونها من الاعتراضات المشككة بالظلمات، وشَبَّه ما فيها من الوعد والوعيد بالرعد، وما فيها من الآيات الباهرة

---

(١) الجمعة: «٥».

(٢) فاطر: «٢١».

(٣) سبقت ترجمته في سورة الفاتحة آية (٥).

بالبرق، وتصامَّهم عما يسمعون من الوعيد بحال من يهوله الرعد فيخاف صواعقه فيسد أذنيه عنها مع أنه لا خلاص لهم منها وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[١]، واهتزازَهم لما يلمع لهم من رَشَدٍ يدركونه أو رَفَدٍ تطمح إليه أبصارهم بمشيهم في مطرح ضوء البرق كلما أضاء لهم، وتحيرهم وتوقفَهم في الأمر حين تَعْرِض لهم شبهة أو تعن لهم مصيبة بتوقفهم إذا أظلم عليهم.

ونبه سبحانه بقوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ﴾[٢] على أنه تعالى جعل لهم السمع والأبصار ليتوسلوا بها إلى الهدى والفلاح، ثم إنهم صرفوها إلى الحظوظ العاجلة وسدُّوها عن الفوائد الآجلة، ولو شاء الله لجعلهم بالحالة التي يجعلونها لأنفسهم، فإنه على ما يشاء قدير.

(٢١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ لما عدد فِرقَ المكلفين وذكر خواصهم ومصارفَ أمورهم، أقبل عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات هَزّاً للسامع وتنشيطاً له واهتماماً بأمر العبادة وتفخيماً لشأنها وجبراً لكلفة العبادة بلذة المخاطبة. ويا: حرف وضع لنداء البعيد وقد يُنادى به القريب تنزيلاً له منزلة البعيد، إما لعظمته كقول الداعي: يا رب ويا الله هو أقرب إليه من حبل الوريد، أو لغفلته وسوء فهمه، أو للاعتناء بالمدعو له وزيادة الحث عليه. وهو مع المنادَى جملة مفيدة، لأنه نائب مناب فعل. وأيُّ: جُعِل وُصْلةٌ إلى نداء المعرَّف باللام، فإن إدخال «يا» عليه متعذر لتعذُّرِ الجمع بين حرفي التعريف فإنهما كَمِثْلَيْن وأُعْطِي حكم المنادى وأجري عليه المقصودُ بالنداء وصفاً موضِّحاً له، والتزامُ رفعه إشعاراً بأنه المقصود، وأُقحمت بينهما هاء التنبيه تأكيداً وتعويضاً عما يستحقه ـ أي من المضاف إليه ـ. وإنما كثُر النداء على هذه الطريقة في القرآن لاستقلاله بأوجه من التأكيد، وكلُّ ما نادى اللهُ له عبادَه ـ من حيث إنها أمورٌ عِظَام من حقها أن يتفطنوا إليها ويقبلوا بقلوبهم عليها وأكثرهم عنها غافلون ـ حقيق[٣] بأن يُنادى له بالآكد الأبلغ. والجُموعُ وأسماؤها المحلاة باللام للعموم حيث لا عهد، ويدلُّ عليه صحةُ الاستثناء منها، أو التأكيدُ بما يفيد العموم كقوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ﴾[٤] واستدلالُ الصحابة بعمومها شائعاً وذائعاً، فالناسُ يعمُّ الموجودين وقتَ النزول لفظاً ومَنْ سيوجد، لما تواتر من دينه عليه الصلاة والسلام أن مقتضى خطابه وأحكامه شاملٌ للقَبيلَيْن ثابت إلى قيام الساعة إلا ما خصه الدليل. وما روي عن علقمة[٥] والحسن[٦] أنّ كل شيء نزل فيه

---

(١) البقرة: «١٩».

(٢) البقرة: «٢٠».

(٣) حقيقٌ: خبر كلُّ ما نادى.

(٤) الحجر: «٣٠».

(٥) علقمة هو: علقمة بن قيس بن عبدالله بن مالك النَّخَعي الكوفي، ولد في حياة رسول الله ﷺ وهو من أشهر رواه عبدالله بن مسعود، وأعرفهم به، وأعلمهم بعلمه. قال أبو المثنى: إذا رأيت علقمة فلا يضرك أن لا ترى عبدالله، أشبه الناس به سمتاً وهدياً. وقال داود بن أبي هند: قلت: لشعبة: أخبرني عن أصحاب عبدالله، قال: كان علقمة أنظر القوم به، وكان رحمه الله ثقة مأموناً. على جانب عظيم من الورع والصلاح، قال فيه الإمام أحمد: ثقة من أهل الخير، وهو عند أصحاب الكتب الستة. وقال مرة الهمداني: كان علقمة من الربانيين، قال أبو نعيم: مات سنة (٦١هـ) وعمره تسعون سنة [تهذيب التهذيب (٧/ ٢٤٤ رقم ٤٨٥)].

(٦) الحسن البصري: هو الحسن بن أبي الحسن يسار البصري، أبو سعيد، مولى زيد بن ثابت الأنصاريّ، ويقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فمكيّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فمدني[1]، إن صح رفعُه فلا يوجِب تخصيصَه بالكفار ولا أمْرَهم بالعبادة، فإن المأمورَ به هو القدْرُ المشتركُ بين بدء العبادة والزيادة فيها والمواظبة عليها، فالمطلوب من الكفار هو الشروع فيها بعد الإتيان بما يجبُ تقديمُه من المعرفة والإقرار بالصانع، فإنّ من لوازم وجوب الشيء وجوبُ مالا يتمُّ إلا به، وكما أن الحدث لا يَمْنع وجوب الصلاة فالكفر لا يمنع وجوب العبادة، بل يجب رفعه والاشتغالُ بها عقيبه. ومن المؤمنين[2] ازديادُهم وثباتهم عليها، وإنما قال ﴿رَبَّكُمُ﴾ تنبيهاً على أن الموجب للعبادة هي الربوبيةُ.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ صفة جَرَتْ عليه تعالى للتعظيم والتعليل، ويُحتملُ التقييدُ والتوضيحُ إن خصَّ الخطابَ بالمشركين، وأريدَ بالرَّب أعمُّ من الرب الحقيقي والآلهةِ التي يسمونها أرباباً. والخلقُ إيجاد الشيء على تقدير واستواء، وأصلُه التقدير يقال: خَلَقَ النَّعلَ إذا قدَّرها وسوّاها بالمقياس.

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ متناولٌ كل ما يَتقدَّم الإنسان بالذات أو بالزمان. منصوبٌ معطوفٌ على الضمير المنصوب في ﴿خَلَقَكُمْ﴾. والجملة أُخرِجَتْ مَخْرَجَ المقرَّر عندهم، إما لاعترافهم به كما قالَ الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[3] أو لتمكّنهم من العِلْم به بأدنى نظر. وقرىء «مَنْ قَبْلكم» على إقحام الموصول الثاني بين الأول وصِلَتِهِ تأكيداً، كما أَقْحَم جريرُ في قوله:

يا تيم تيمَ عُدَيٍّ لا أبا لَكمُو

تيماً الثاني بين الأول وما أضيف إليه.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ حال من الضمير في ﴿ٱعْبُدُواْ﴾ كأنه قال: اعبدوا ربكم راجين أن تنخرطوا في سِلْك المتقين الفائزين بالهدى والفلاح المستوجبين جوار الله تعالى. نبه به على أن التقوى منتهى درجات السالكين وهو التبري من كل شيء سوى الله تعالى إلى الله، وأنّ العابد ينبغي أن لا يغتر بعبادته، ويكونَ ذا خوفٍ ورجاء قال تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[4] ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ

= مولى جميل بن قُطْبَة، وأمه خيرة مولاة أم سلمة، نشأ بالمدينة وحفظ كتاب الله في خلافة عثمان وسمعه يخطب مرات، وكان يوم الدار ابن أربع عشرة سنة ثم كبر ولازم الجهاد ولازم العلم والعمل، وقال عنه ابن سعد «كان جامعاً عالماً رفيعاً ثقة حجة مأموناً عابداً ناسكاً كثير العلم فصيحاً جميلاً وسيماً. . . وما أرسله فليس هو بحجة» وقال الذهبي «هو مدلس فلا يحتج بقوله عمن لم يدركه، وقد يدلس عمن لقيه ويسقط من بينه وبينه، ولكنه حافظ علامة من بحور العلم فقيه النفس، كبير الشأن عديم النظير، مليح التذكير، بليغ الموعظة، رأس في أنواع الخير» مات سنة عشرة ومئة وله ثمان وثمانون سنة [تذكرة الحفاظ (١/ ٧١ ـ ٧٢ رقم ٦٦) وأخبار القضاة (٢/ ٣ ـ ١٥)].

(١) صحح ابن حجر هذه الرواية عن علقمة، لكنه قال بأن هذا محمول على أن المراد بالمكي ما وقع خطاباً لأهل مكة والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة، لأن الغالب على أهل مكة كان الكفر فخوطبوا «يا أيها الناس» والغالب على أهل المدينة الإيمان فخوطبوا «يا أيها الذين آمنوا» (انظر الكافي الشافِ ص٥ وهذا الأثر أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٠/ ٥٢٢) في فضائل القرآن.

(٢) أي والمطلوب من المؤمنين، فهي عطف على قوله: فالمطلوب من الكفار.

(٣) الزخرف: «٨٧».

(٤) السجدة: «١٦».

عَذَابَهُۥٓ﴾[١]. أو من مفعولِ[٢] ﴿خَلَقَكُمْ﴾ والمعطوفِ عليه على معنى أنه خلقكم ومَنْ قبلَكم في صورة مَنْ يُرجى منه التقوى لترجُّح أمره باجتماع أسبابه وكثرة الدواعي إليه. وغَلَّبَ المخاطَبين على الغائبين في اللفظ، والمعنيِ على إرادتهم جميعاً. وقيل تعليلٌ للخلق، أي خلقكم لكي تتقوا كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٣]. وهو ضعيفٌ إذ لم يثبُتْ في اللغة مثلُه[٤].

والآية تدل على أن الطريقَ إلى معرفة الله تعالى والعلمَ بوَحدانيته واستحقاقَه للعبادة النظرُ في صنعه والاستدلالُ بأفعاله، وأن العبد لا يستحق بعبادته عليه ثواباً، فإنها لما وجبت عليه شُكراً لِمَا عدّده عليه من النعم السابقة فهو كأجيرٍ أخَذَ الأجر قبل العمل.

(٢٢) ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ صفة ثانية، أو مدح منصوب، أو مرفوع، أو مبتدأ خبره فلا تجعلوا. وجَعَلَ من الأفعال العامّة يجيء على ثلاثة أوجهٍ: بمعنى صار، وطفِقَ فلا يتعدى كقوله:

فقَـدْ جعلـتْ قلـوصَ بنـي سُهَيْـلٍ ... مِـنَ الأكْـوارِ مـرتعُهـا قَـريـبُ

وبمعنى أَوْجَد فيتعدّى إلى مفعولٍ واحدٍ كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[٥] وبمعنى صير، ويتعدى إلى مفعولين كقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾[٦] والتَّصييرُ يكون بالفعل تارة، وبالقول أو العقد أخرى. ومعنى جَعَلها فراشاً أن جَعَل بعض جوانبها بارزاً ظاهراً عن الماء ـ مع ما في طبعه من الإحاطة بها ـ وصيَّرها متوسطةً بين الصلابة واللطافة حتى صارت مهيَّأة لأن يقعدوا ويناموا عليها كالفراش المبسوط، وذلك لا يستدعي كونها مسطحة، لأن كُرَيَّة شكلها مع عِظَم حجمها واتساع جرمها لا تأبى الافتراش عليها.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ قُبَّة مضروبةً عليكم. والسماءُ اسم جنس يقع على الواحد والمتعدِّد كالدينار

---

(١) الإسراء: «٥٧».
(٢) عطف على قوله: حال من الضمير، بمعنى: حالٌ من الضمير أو من مفعول خلقكم والمعطوف عليه.
(٣) الذاريات: «٥٦».
(٤) يدل المعنى الوضعي لكلمة «لعل» على إنشاء توقع أمر متردد بين الوقوع وعدمه مع رجحان الأول. وهو إما محبوب فيسمى ترجياً أو مكروه فيسمى إشفاقاً. وذلك المعنى قد يعتبر تحققه بالفعل، وهو إما من جهة المتكلم كقولك: لعل الله يرحمني، أو من جهة المخاطب كقوله تعالى: «فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى» ـ طه: ٤٤ ـ تنزيلاً له منزلة المتكلم.. وقد يعتبر تحققه بالقوة بضرب من التجوز إيذاناً بأن هذا الأمر حقيق بالوقوع من غير أن يعتبر أن هناك توقع الفعل من متوقع أصلاً.
وهذا المعنى إن روعي في الآية في قوله «لعلكم تتقون» فيستحيل إرادته لامتناع التوقع من علام الغيوب فيصار للاستعارة بتشبيه طلبه تعالى من عباده التقوى برجاء الراجي من المرجو منه أمراً هيِّن الحصول في كون متعلق كل منهما متردداً بين الوقوع وعدمه مع رجحان الأول فيستعار له كلمة لعل استعارة تبعية حرفية للمبالغة في الدلالة على قوة الطلب وقرب المطلوب من الوقوع، أو يصار إلى التمثيل بأن يلاحظ خلقه تعالى إياهم مستعدين للتقوى وطلبه إياها منهم وهم متمكنون منها، وينتزع من ذلك هيئة متشبه بهيئة منتزعة من الراجي ورجائه منه شيئاً سهل المنال.. (أبو السعود ١/ ٥٩).
(٥) الأنعام: «١».
(٦) البقرة: «٢٢».

والدرهم، وقيل: جمع سماءة. والبناء مصدر، سُمِّي به المبنى بيتاً كان أو قبة أو خِباء، ومنه بنى على امرأته، لأنهم كانوا إذا تزوجوا ضربوا عليها خباءً جديداً.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ عطفٌ على جَعَل، وخروج الثمار بقدرة الله تعالى ومشيئته، ولكنْ جعل الماء الممزوجَ بالتراب سبباً في إخراجها ومادة لها كالنطفة للحيوان، بأن أجرى عادته بإفاضة صورِها وكيفياتها على المادة الممتزجة منهما، أو أودع في الماء قوة فاعلة وفي الأرض قوة قابلة يتولد من اجتماعهما أنواعُ الثمار، وهو قادر على أن يوجد الأشياء كلها بلا أسباب وموادَّ كما أبدع نفوس الأسباب والمواد، ولكنْ له في إنشائها مدرجاً من حال إلى حال صنائع وحِكَم يجدد فيها لأولي الأبصار عِبَراً، وسكوناً إلى عظيم قدرته ليس في إيجادها دفعة، و﴿مِن﴾ الأولى للابتداء سواء أريد بالسماء السحابُ فإن ما عَلاَك سماءٌ، أو الفَلَكُ فإن المطر يبتدىء من السماء إلى السحاب ومنه إلى الأرض على ما دلت عليه الظواهر، أو من أسباب سماوية تثير الأجزاء الرَّطْبة من أعماق الأرض إلى جو الهواء فتنعقد سحاباً ماطراً. و﴿مِنَ﴾ الثانية للتبعيض بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ﴾(١) واكتنافِ المنكرين له، أعني ماءً ورزقاً، كأنه قال: وأنزلنا من السماء بعضَ الماء فأخرجنا به بعض الثمرات ليكون بعضَ رزقكم، وهكذا الواقعُ إذ لم ينزل من السماء الماءُ كلُّه، ولا أُخرِج بالمطر كلُّ الثمرات، ولا جُعِلَ كلُّ المرزوق ثماراً. أو للتبيين. ورزقاً مفعول بمعنى المرزوق كقولك أنفقت من الدراهم ألفاً. وإنما ساغ الثَّمَرات والموضعُ موضعُ الكثرة، لأنه أراد بالثمرات جماعة الثمرة التي في قولك أدركت ثمرة بستانه ويؤيده قراءة من قرأ: «من الثمرة» على التوحيد، أو لأن الجموع يتعاور بعضُها موقع بعض كقوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾(٢) وقوله: ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾(٣)، أو لأنها لما كانت محلاةً باللام خرجت عن حد القلة. و﴿لَّكُمْ﴾ صفةُ رزقاً إن أريد به المرزوق ومفعولِه إن أريد به المصدر كأنه قال: رزقاً إياكم.

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ متعلقٌ باعبدوا على أنه نهيٌ معطوفٌ عليه، أو نفيٌ منصوبٌ بإضمارِ أنْ جوابٌ له أو بلعل على أنْ نَصْبَ تَجْعلوا نصبَ فاطَّلِع في قوله تعالى: ﴿لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ۝٣٦ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ﴾(٤) إلحاقاً لها بالأشياء الستة لاشتراكها في أنها غير موجِبَة(٥)، والمعنى: إن تتقوا لا تجعلوا لله أنداداً، أو بالذي جعل إن استأْنَفْتَ به على أنه نهيٌ وقَعَ خبراً على تأويل مقولٍ فيه: لا تجعلوا، والفاءُ للسببية أدخلت عليه لتَضَمُّن المبتدأ معنى الشرط، والمعنى: أنّ من خصكم بهذه النعم الجسام والآياتِ العظام ينبغي أن لا يُشْرَكَ به. والندُّ: المِثْل المناوىء، قال جرير:

---

(١) فاطر: «٢٧».

(٢) الدخان: «٢٥».

(٣) البقرة: «٢٢٨».

(٤) غافر: «٣٧».

(٥) الأشياء الستة هي: الأمر والنهي والاستفهام والعرض والتمني والنفي، والمراد بكونها غير موجِبة: عدم استفادة شيء لشيء من تلك الأمور. وفي العبارة تسامح والأولى أن يقال: لاشتراكها في عدم الإيجاب (حاشية الكازروني ١/ ١١٠).

أتيمــــاً تَجْعلـــونَ إِلـــيَّ نــــدّاً	وما تيــمٌ لِـذي حَسَـبٍ نَـدِيــدُ

مِنْ نَدَّ يَنِدُّ ندوداً: إذا نفر، ونادَدْتُ الرَّجُلَ خالفتُه، خُصَّ بالمخالف المماثل في الذات كما خُصّ المساوي بالمماثل في القَدْر. وتسميةُ ما يعبده المشركون من دون الله أنداداً وما زعموا أنها تُساويه في ذاته وصفاته ولا أنها تخالفُه في أفعاله، لأنهم لما تركوا عبادته إلى عبادتها وسمُّوها آلهة شابهت حالُهم حالَ من يعْتقِد أنها ذواتٌ واجبةٌ بالذات قادرةٌ على أن تدفع عنهم بأس الله وتمنحَهم ما لم يُرِدِ الله بهم من خير، فتهكَّم بهم وشنَّع عليهم بأن جَعَلوا أنداداً لمن يُمْتَنَعُ أن يكون له ندّ[١]. ولهذا قال مُوَحِّد الجاهلية زيد بن عمرو بن نفيل[٢]:

أَرَبّــاً واحِــداً أَمْ أَلْــفُ رَبٍّ	أَدِيـــنُ إذا تقسَّمــتِ الأمــورُ
تــركْــت الــلاتَ والعــزَّى جميعــاً	كــذلــكَ يَفْعَــلُ الـرجُـلُ البصِيــرُ

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ حالٌ من ضمير فلا تجعلوا، ومفعولُ تعلمون مطروحٌ، أي: وحالُكم أنكم من أهل العلم والنظر وإصابة الرأي، فلو تأملتم أدنى تأمل اضطر عقلكم إلى إثبات موجدٍ للممكنات منفردٍ بوجوب الذات متعالٍ عن مشابهة المخلوقات أو مَنْوِيٍّ وهو أنها لا تماثله ولا تقدر على مثل ما يفعله كقوله سبحانه وتعالى: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾[٣] وعلى هذا فالمقصود منه التوبيخ والتثريب، لا تقييد الحكم وقصره عليه، فإن العالِمَ والجاهل المتمكِّن من العلم سواء في التكليف.

واعلم أَن مضمون الآيتين هو الأمرُ بعبادة الله سبحانه وتعالى، والنهيُ عن الإشراك به تعالى، والإشارةُ إلى ما هو العلةُ والمقتضى. وبيانُه أنه رَتَّب الأمرَ بالعبادة على صفة الربوبية إشعاراً بأنها العلةُ لوجوبها، ثم بَيَّن ربوبيتَه بأنه تعالى خالقُهم وخالقُ أصولهم وما يحتاجون إليه في معاشهم من المَقَلَّة والمَظَلَّة والمطاعِم والملابِس، فإن الثمرة أعمُّ من المطعوم، والرزقَ أعمُّ من المأكول والمشروب. ثم لما كانت هذه الأمور التي لا يقدر عليها غيره شاهدةً على وحدانيته تعالى رتب تعالى عليها النهيَ عن

---

(١) في الآية لفتات بيانية أوردها أبو السعود حيث جاء في تفسيره: أنه قيل: أنداداً ـ بلفظ الجمع ـ وذلك باعتبار الواقع فكانوا يعبدون أنداداً لا باعتبار أن النهي عن الجمع دون الإفراد وأوقع الاسم الجليل موقع الضمير فقال «الله» ولم يقل: فلا تجعلوا له وذلك لتعيين المعبود بالذات إثر تعيينه بالصفات وتعليلِ الحكم بوصف الألوهية التي عليها يدور أمر الوحدانية واستحالة الشركة والإيذانِ باستتباعها لسائر الصفات.
والفاء للإشعار بعلية ما قبلها من الصفات المجراة عليه تعالى للنهي أو الانتهاء أو لأن مآل النهي هو الأمر بتخصيص العبادة به تعالى المترتب على أصلها. . (أبو السعود ١/ ٦٢).

(٢) زيد بن عمرو بن نفيل: هو زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى القرشي العدوي، أحد الحكماء، لم يدرك الإسلام، وكان يكره عبادة الأوثان ولا يأكل مما ذبح عليها، ورحل إلى الشام باحثاً عن عبادات أهلها، فلم تستمِله اليهودية ولا النصرانية، فعاد إلى مكة يعبد الله على دين إبراهيم وجاهر بعداء الأوثان، فتألب عليه جمع من قريش، فأخرجوه من مكة، فانصرف إلى حراء» وكان لا يدخل مكة إلاّ سراً.
رآه النبي ﷺ قبل النبوة وتوفي قبل مبعث النبي ﷺ بخمس سنين. وله شعر قليل.
[الأعلام للزركلي (٣/ ٦٠)].

(٣) الروم: «٤٠».

الإشراك به، ولعله سبحانه أراد من الآية الأخيرة ـ مع ما دل عليه الظاهرُ وسيق فيه الكلام ـ الإشارةَ إلى تفصيل خلق الإنسان وما أفاض عليه من المعاني والصفات على طريقة التمثيل، فَمَثَّل البدنَ بالأرض، والنفسَ بالسماء، والعقلَ بالماء، وما أفاض عليه من الفضائل العملية والنظرية المحصَّلة بواسطة استعمال العقل للحواس وازدواجَ القوى النفسانية والبدنية بالثمَرات المتولِّدة من ازدواج القِوى السماوية الفاعلة والأرضية المنفعلة بقدرة الفاعل المختار، فإن لكل آية ظهراً وبطناً ولكل حد مطلعاً.

(٢٣) ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ لما قرَّر وَحدانيته تعالى وبيّن الطريق الموصل إلى العلم بها، ذكر عقيبه ما هو الحجة على نبوة محمد ﷺ، وهو القرآن المعجز بفصاحته التي بذَّت فصاحةَ كلِّ مُنطِق، وإفحامُهُ مَنْ طولب بمعارضته من مصاقعِ الخطباء من العرب العَرْباء مع كَثْرتهم وإفراطِهم في المضادة والمضارة، وتهالكهم على المعازَّة والمعارَّة، وعُرِف ما يَتَعرف به إعجازه ويُتَيقَّن أنه من عند الله كما يدعيه. وإنما قال ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ لأن نزوله نَجْماً منجَّماً بحسب الوقائع على ما ترى عليه أهلِ الشعر والخطابة مما يُريبهم، كما حكى الله عنهم فقال ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾[1]. فكان الواجبُ تحديهم على هذا الوجه إزاحةً للشبهة وإلزاماً للحجة. وأضافَ العبد إلى نفسه تعالى تنويهاً بذكره وتنبيهاً على أنه مختص به مُنقادٌ لحُكْمِهِ تعالى. وقرىء عبادِنا: يريد محمداً ﷺ وأمته. والسورةُ: الطائفةُ من القرآن المترجمة التي أقلها ثلاث آيات، وهي إن جُعِلت واوها أصلية منقولةٌ من سُورِ المدينة لأنها محيطة بطائفة من القرآن مُفرزَة محوزَة على حيالها أو محتوية على أنواعِ من العلم احتواءَ سور المدينة على ما فيها، أو من السورة التي هي الرتبة، قال النابغة:

ولِرهْطِ حرابٍ وَقَدٌّ سُورةٌ … في المجْدِ ليسَ غرابُها بمطَارِ

لأن السُورَ كالمنازل والمراتب يترقى فيها القارىء، أوْلَهَا مراتب في الطول والقِصَر والفَضْل والشرف وثواب القراءة. وإن جعلت مُبْدَلة من الهمزة فمن السورة التي هي البقيّة والقطعةُ من الشيء. والحكمةُ في تقطيعِ القرآن سوراً: إفرادُ الأنواع، وتلاحق الأشكال، وتجاوب النظم، وتنشيط القارىء، وتسهيل الحفظ، والترغيب فيه، فإنه إذا ختَمَ سورةً نَفَّسَ ذلك عنه، كالمسافر إذا عَلِم أنه قطع ميلاً أو طوى بريداً، والحافظُ متى حذِقَها اعتقد أنه أخذ من القرآن حظاً تاماً وفاز بطائفة محدودة مستقلة بنفسها، فَعَظُم ذلك عنده وابتهج به إلى غير ذلك من الفوائد[2].

﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ صفةُ سورة أي: بسورة كائنة من مثله، والضميرُ لما نزلنا، ومِنْ للتبعيض أو للتبيين. وزائدة عند الأخفش أي بسورة مماثلة للقرآن العظيم في البلاغة وحُسْن النظم. أو لعبدنا، ومن

---

(١) الفرقان: «٣٢».

(٢) صدّر الآية بقوله: «وإن كنتم» ولم يقل: وإن ارتبتم... للمبالغة في تنزيه ساحة التنزيل عن شائبة وقوع الريب فيه، حسبما نطق به في قوله تعالى: «لا ريب فيه» ـ البقرة «٢» ـ وللإشعار بأن ذلك الريب إن وقع فمن جهتهم لا من جهته العالية (أبو السعود ١/٦٣).... وفي ذكره صلى الله عليه وسلم بعنوان العبودية مع الإضافة إلى ضمير الجلالة من التشريف والتنويه والتنبيه على اختصاصه به عز وجل وانقياده لأوامره تعالى مالا يخفى. (أبو السعود ١/ ٦٤).

للابتداء أي: بسورة كائنة ممن هو على حاله عليه الصلاة والسلام من كونه بشراً أمياً لم يقرأ الكتب ولم يتعلم العلوم. أو صلةُ فاتوا، والضمير للعبد صلى الله عليه وسلم، والردُّ إلى المُنَزَّلِ أَوْجَهُ لأنه المطابق لقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾(١) ولسائر آيات التحدي، ولأن الكلامَ فيه لا في المنزَّلِ عليه فَحَقُّه أن لا ينفكَ عنه ليتَّسق الترتيبُ والنَّظم، ولأن مخاطبة الجمِّ الغفير بأن يأتوا بمثل ما أتى به واحدٌ من أبناء جلدتهم أبلغُ في التحدي من أن يقال لهم: ليأت بنحو ما أوتي به هذا آخَرُ مِثْلُهُ، ولأنه معجز في نفسه لا بالنسبة إليه لقوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾(٢)، ولأن رده إلى عبدنا يوهم إمكانَ صدوره ممن لم يكن على صفته، ولا يلائمه قوله تعالى.

﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فإنه أمر بأن يستعينوا بكل من ينصرهم ويعينهم. والشهداءُ جمع شهيد بمعنى الحاضر، أو القائم بالشهادة، أو الناصر، أو الإمام. وكأنه سمي به لأنه يَحْضُر النوادي وتُبْرَمُ بمَحْضَرِه الأمور، إذ التركيب للحضور، إما بالذات أو بالتصور، ومنه قيل: للمقتول في سبيل الله شهيد لأنه حضر ما كان يرجوه، أو الملائكة حضروه. ومعنى ﴿دُونِ﴾ أدنى مكان من الشيء ومنه تدوين الكتب، لأنه إدناء البعض من البعض، ودونك هذا أي: خذه من أدنى مكان منك، ثم استعير للرُّتَب فقيل: زيد دون عمرو أي: في الشرف، ومنه الشيء الدون، ثم اتسع فيه فاستُعمل في كل تجاوز حد إلى حد وتخطي أمر إلى آخر، قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٣) أي لا يتجاوزوا ولاية المؤمنين إلى ولاية الكافرين. قال أمية(٤):

يا نفسُ مالَكِ دونَ اللهِ منْ واقِ

أي إذا تجاوزتِ وقاية الله فلا يقيك غيرُه، و﴿مِّن﴾ متعلقةٌ بادعوا. والمعنى وادعوا للمعارضة من حضركم، أو رجوتم معونتَه من إنسكم وجنِّكم وآلهتكم غيرَ الله سبحانه وتعالى، فإنه لا يقدر على أن يأتيَ بمثله إلا الله. أو: وادعوا من دون الله شهداء يشهدون لكم بأن ما أتيتم به مثله، ولا تستشهدوا بالله فإنه من دَيْدَن المبهوت العاجز عن إقامة الحجة. أو بشهدائكم أي الذين اتخذتموهم من دون الله أولياءَ وآلهةً، وزعمتم أنها تشهد لكم يوم القيامة. أو الذين يشهدون لكم بين يدي الله تعالى على زعمكم من قول الأعشى(٥):

---

(١) البقرة: «٢٣».

(٢) الإسراء: «٨٨».

(٣) آل عمران: «٢٨».

(٤) أمية: واسمه: عبدالله بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي، وقد صدقه النبي ﷺ في بعض شعره.
وقال ابن قتيبة في طبقات الشعراء ـ ٣٢٩ ـ وكان أمية يُخبر أن نبياً يخرُج قد أظلّ زمانه، وكان يؤمل أن يكون ذلك النبيّ فلما بلغه خروج النبي ﷺ كفر به حسداً.
ولم يختلف أصحاب الأخبار أنه مات كافراً في التاسعة وقيل: إنه مات سنة تسع من الهجرة في الطائف كافراً قبل أن يسلم الثقفيون. [«خزانة الأدب» للبغدادي (١/ ٢٤٧ ـ ٢٥٣)].

(٥) الأعشى هو: ميمون بن قيس بن جندل. من بني قيس بن ثعلبة الوائلي، أبو بصير، المعروف بأعشى قيس ويقال له أعشى بكر بن وائل، والأعشى الكبير: من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية، وأحد أصحاب المعلقات، كان=

ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ
مُتَشَٰبِهًاۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ۞إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ
أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ
مِن رَّبِّهِمْۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا

تريكَ القَذَى مِنْ دونِها وهي دُونَهُ

ليعينوكم وفي أمْرِهم أن يستظْهروا بالجماد في معارضة القرآن العزيز غايةُ التبكيت والتهكمُ بهم. وقيل: من دون الله أي من دون أوليائه، يعني فصحاء العرب ووجوه المشاهد ليشهدوا لكم أن ما أتيتم به مثلُه، فإنّ العاقل لا يرضى لنفسه أن يشهد بصحة ما اتضح فسادُه وبان اختِلالُه.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنه من كلام البشر، وجوابُه محذوف دل عليه ما قبله. والصدقُ: الإخبار المطابِقُ، وقيل: مع اعتقاد المُخبر أنه كذلك عن دَلالةٍ أو أمارة، لأنه تعالى كذَّب المنافقين في قولهم: إنك لرسول الله، لما لم يعتقدوا مطابقَتَه، ورُدَّ بصَرْف التكذيب إلى قولهم نشهد، لأن الشهادة إخبارٌ عما عَلِمَهُ وهم ما كانوا عالمين به.

(٢٤) ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُۖ﴾ لما بين لهم ما يتعرفون به أمرَ الرسول ﷺ وما جاء به وميز لهم الحق عن الباطل، رتب عليه ما هو كالفذْلكة له[1]، وهو أنكم إذا اجتهدتم في معارضته وعجَزْتم جميعاً عن الإتيان بما يساويه أو يدانيه، ظهر أنه معجز والتصديق به واجب، فآمنوا به واتقوا العذاب المُعَدَّ لمن كذّب، فعبَّر عن الإتيان المكيَّف بالفعل الذي يعم الإتيان وغيره إيجازاً، ونزَّل لازِمَ الجزاءِ منزلَته على سبيل الكناية تقريراً للمُكنىٰ عنه وتهويلاً لشأن العناد وتصريحاً بالوعيد مع الإيجاز، وصدَّر الشرطية بإنْ التي للشكِّ والحالُ يقتضي إذا الذي للوجوب، فإن القائل سبحانه وتعالى لم يكن شاكاً في عجزهم، ولذلك نفىٰ إتيانهم مُعْتَرَضاً بين الشرط والجزاء تهكماً بهم وخطاباً معهم على حَسَب ظَنهم، فإن العجز قبل التأمل لم يكن مُحَقَّقاً عندهم. وتفعلوا: جَزْم بِلَمْ لأنها واجبةُ الإعمال مختصةٌ بالمضارع متصلة بالمعمول، ولأنها لما صيَّرته ماضياً صارت

= كثير الوفود على الملوك من العرب والفرس غزير الشعر، يسلك فيه كل مسلك، وليس أحد ممن عرف قبله أكثر شعراً منه وكان يغني بشعره فسمي «صنَّاجة العرب»، قال البغدادي كان يفد على الملوك ولا سيما الملوك الفرس ولذلك كثرت الألفاظ الفارسية في شعره، عاش عمراً طويلاً وأدرك الإسلام ولم يسلم ولقب بالأعشى لضعف بصره وعَمِيَ في أواخر عمره. مولده ووفاته في قرية «منفوحة» باليمامة قرب مدينة «الرياض» وفيها داره وبها قبره، أخباره كثيرة توفي عام سبعة هجرية.
[الأعلام للزركلي (٧/ ٣٤١)].

(١) الفذْلكة تعني التعليل والاستنتاج، بمعنى أنه إذا ثبت عجزكم فذلك لأنه معجز فآمنوا به.

كالجزء منه، وحرفُ الشرط كالداخل على المجموع فكأنه قال: فإن تَرَكْتُم الفعل، ولذلك ساغَ اجتماعُهُما. ولَنْ كَلاَ في نفي المستقبل غيرَ أنه أبلغُ وهو حرف مقتَضَبٌ عند سيبويه والخليل في إحدى الروايتين عنه، وفي الرواية الأخرى أصلُه لا أنْ، وعند الفرّاء[1] لا فأبدلت ألِفُها نوناً. والوَقود ـ بالفتح ـ ما توقَد به النار، وبالضمِّ المصْدَر وقد جاء المصدر بالفتحِ قال سيبويهِ: وسمعنا من يقول وَقَدْت النار وقوداً عالياً، واسمٌ بالضمِّ ولعله مصدر سُمِّي به كما قيل: فلان فَخَر قومه وزيَّن بلده، وقد قرىء به والظاهر أن المراد به الاسم، وإن أريد به المصدر فعلى حذف مضاف أي: وقودها احتراق الناس. والحجارة: وهي جمع حجر، كَجِمَالة جمع جمل وهو قليل غير منقاس، والمراد بها الأصنام التي نَحَتُوها وقرنوا بها أنفسهم وعبدوها طمعاً في شفاعتها والانتفاع بها واستدفاع المَضَارِّ لمكانتهم، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[2]. عُذِّبوا بما هو منشأ جُرْمهم كما عذب الكافرون بما كنزوه، أو بنقيض ما كانوا يتوقعون زيادةً في تحسرهم. وقيل: الذهب والفضة التي كانوا يكنزونها ويغترون بها، وعلى هذا لم يكن لتخصيص إعداد هذا النوع من العذاب بالكفار وجهٌ، وقيل: حجارة الكبريت وهو تخصيص بغير دليل وإبطالٌ للمقصود، إذ الغرض تهويل شأنها وتفاقُمُ لَهَبِها بحيث تتقد بما لا يتقد به غيرها، والكبريت تتقد به كل نار وإن ضَعُفت، فإن صح هذا عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فلعله عنىٰ به أن الأحجار كلها لتلك النار كحجارة الكبريت لسائر النيران. ولما كانت الآية مدنيةً نزلت بعد ما نزل بمكة قوله تعالى في سورة التحريم ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾[3] وسمعوه، صح تعريفُ النار ووقوعُ الجملة صلةً بإزائها، فإنها يجب أن تكون قصةً معلومة.

﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ هيئت لهم وجعلت عِدَّة لعذابهم. وقرىء: أعتدت من العتاد بمعنى العدة، والجملة استئناف، أو حال بإضمار قد من النار لا الضمير الذي في وقودها، وإن جعلته مصدراً للفصل بينهما بالخبر. وفي الآيتين ما يدل على النبوة من وجوه:

الأول: ما فيهما من التحدي والتحريض على الجدِّ وبذل الوُسع في المعارضة بالتقريع والتهديد وتعليقِ الوعيد على عدم الإتيان بما يعارضُ أقصرَ سورة من سور القرآن، ثم إنهم مع كثرتهم واشتهارهم بالفصاحة وتهالكهم على المضادة لم يتصدوْا لمعارضته، التجؤوا إلى جَلاء الوطن وبَذْل المُهَج.

والثاني: أنهما يتضمنان الإخبار عن الغيب على ما هو به، فإنهم لو عارضوه بشيء لامتنع خفاؤه عادة سيما والطاعنون فيه أكثر من الذابِّين عنه في كل عصر.

---

(١) الفرّاء هو يحيى بن زياد بن عبدالله بن منظور الديلمي، إمام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب، ولد بالكوفة (١٤٤)هـ وتوفي في طريق مكة عام (٢٠٧)هـ، وكان مع تقدمه في اللغة فقيهاً متكلماً. ويميل للاعتزال وله تفسير «معاني القرآن» (الأعلام ٨/ ١٤٦).

(٢) الأنبياء: «٩٨».

(٣) التحريم: «٦».

والثالث: أنه صلى الله عليه وسلم لو شك في أمره لما دعاهم إلى المعارضة بهذه المبالغة، مخافةَ أن يُعَارَضَ فتُدْحَضَ حجتُهُ. وقوله تعالى ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ دل على أن النار مخلوقة مُعَدَّةٌ الآن لهم[١].

(٢٥) ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾[٢] عطف على الجملة السابقة، والمقصودُ عطفُ حالِ من آمن بالقرآن العظيم ووصف ثوابه، على حال من كفر به وكيفية عقابه، على ما جرت به العادة الإلهية من أن يُشْفَعَ الترغيبُ بالترهيب، تنشيطاً لاكتساب ما ينجي وتثبيطاً عن اقتراف ما يردي، لا عطف الفعل نفسه حتى يجب أن يطلب له ما يشاكله من أمر أو نهي فيعطف عليه أو على فاتقوا، لأنهم إذا لم يأتوا بما يعارضه بعد التحدي ظهر إعجازُه، وإذا ظهر ذلك فمن كفر به استوجب العقابَ، ومن آمن به استحق الثوابَ، وذلك يستدعي أن يخوِّفَ هؤلاء ويبشرَ هؤلاء، وإنما أُمِرَ الرسولُ ﷺ، أو عالمُ كل عصر، أو كل أحد يقدر على البشارة بأن يبشرهم. ولم يخاطبْهم بالبشارة كما خاطب الكفرة، تفخيماً لشأنهم وإيذاناً بأنهم أحقاء بأن يبشروا ويهنأوا بما أعد لهم.

وقرىء وبُشِّرَ ـ على البناء للمفعول ـ عطفاً على أُعدَّت فيكونُ استئنافاً. والبشارة: الخبرُ السارُّ فإنه يُظْهِر أثرَ السرور في البَشَرَة، ولذلك قال الفقهاء البِشارةُ: هي الخبر الأول، حتى لو قال الرجل لعبيده: من بشرني بقدوم ولدي فهو حر، فأخبروه فرادى عُتِق أوَّلُهُم، ولو قال: من أخبرني، عُتقوا جميعاً، وأما قوله تعالى ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٣] فعلى التهكم أو على طريقة قوله: تَحِيَّةُ بينِهمْ ضَرْبٌ وَجيْعُ.

والصالحاتُ جمعُ صالحة وهي من الصفات الغالبة التي تجري مجرىٰ الأسماء كالحسنة، قال الحطيئة[٤]:

كيْـفَ الهِجَـاءُ ومـا تَنْفَـكُ صـالحـةٌ مـن آل لامٍ بظُهْـرِ الغَيْـبِ تَـأْتينـي

وهي من الأعمال ما سوَّغه الشرع وحسنه، وتأنيثها على تأويل الخِصْلة أو الخُلَّة، واللام فيها للجنس، وعطفُ العمل على الإيمان مرتباً للحكم عليهما إشعاراً بأن السبب في استحقاق هذه البشارة مجموعُ الأمرين والجمعُ بين الوصفين، فإن الإيمان الذي هو عبارة عن التحقيق والتصديق أُسٌّ، والعمل الصالح كالبناء عليه، ولا غَنَاءَ بأسٍّ لا بِناءَ عليه، ولذلك قلما ذُكِرا منفردين. وفيه دليل على أنها خارجة عن مسمى الإيمان، إذ الأصل أن الشيء لا يُعْطَفُ على نفسه ولا على ما هو داخل فيه.

---

(١) أظهر اسم الكافرين ولم يقل: أعدت لمن لم يؤمن ولم يتق النار أو أعدت لهم لأجل أن يذمهم ويعلل الحكم بكفرهم (أبو السعود ١/ ٦٨).

(٢) لما ذكر تعالى جزاء الكافرين عقبه بجزاء المؤمنين للجمع بين الترغيب والترهيب وتنشيط المؤمنين للطاعة (فتح القدير ١/ ٥٤).

(٣) آل عمران: «٢١».

(٤) الحطيئة: هو جَرْوَل بن أوس وكنيتهُ أبو مُليكة واختلف في تلقيبه بالحطيئة فقيل لقب بذلك لقصره، وهو أحد فحول الشعراء، مُتصرِّف في فنون الشعر: من المديح، والهجاء، والفخر، وكان سفيهاً شرِّيراً، ينتسب إلى القبائل وكان إذا غضب على قبيلة انتمى إلى أخرى.
[خزانة الأدب للبغدادي (٢/ ٤٠٦ ـ ٤٠٧)].

﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ منصوبٌ بنزع الخافض وإفضاءُ الفعل إليه، أو مجرور بإضمارِهِ مثل: اللهِ لأفعلنَّ. والجَنَّةُ: المَرَّةُ من الجَنِّ وهو مصدر جَنَّهُ إذا ستره، ومدار التركيب على الستر، سمي بها الشجرُ المظلِّلُ لالتفافِ أغصانه للمبالغةِ كأنه يَسْتُر ما تحته سَتْرة واحدة قال زهير[١]:

كـأنَّ عَينـي فـي غَـربـي مقتلَـة — مـن النـواضِـحِ تَسْقـي جَنَّـةً سُحُقـا

أي نخلاً طوالاً، ثم البستانُ لما فيه من الأشجار المتكاثفة المظللة، ثم دارُ الثواب لما فيها من الجنان، وقيل: سميت بذلك لأنه ستر في الدنيا ما أُعِدَّ فيها للبشر من أفنان النعم كما قال سبحانه وتعالى ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[٢] وجمعُها وتنكيرُها لأنَّ الجنان على ما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما سبع: جنةُ الفردوس، وجنة عدْن، وجنة النعيم، ودارُ الخلد، وجنةُ المأوى، ودارُ السلام، وَعِلِّيُون، وفي كل واحدة منها مراتبُ ودرجات متفاوتة على حسب تفاوت الأعمال والعمَّال. واللامُ في ﴿لَهُمْ﴾ تدل على استحقاقهم إياها، لأجل ما ترتب عليه من الإيمان والعمل الصالح، لا لذاته فإنه لا يكافىءُ النعمَ السابقة فضلاً عن أن يقتضيَ ثواباً وجزاء فيما يُسْتَقْبل، بل بجعل الشارع ومقتضى وعدِه تعالى، لا علىٰ الإطلاق، بل بشرط أن يستمر عليه حتى يموتَ وهو مؤمنٌ لقوله تعالى ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾[٣] وقولِهِ تعالى لنبيه ﷺ ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[٤] وأشباهِ ذلك. ولعله سبحانه وتعالى لم يقيِّدْ ههنا استغناءً بها[٥].

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي من تحت أشجارها، كما تراها جاريةً تحت الأشجار النابتةِ على شواطئها، وعن مسروق[٦] أنهارُ الجنة تجري في غير أخدود. واللامُ في الأنهار للجنس كما في قولك لفلان: بستانٌ في الماء الجاري، أو للعهد، والمعهود: هي الأنهار المذكورةُ في قوله تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾[٧] الآية. والنَّهْرُ ـ بالفتح والسكون ـ المجرىٰ الواسع فوق الجدْوَل ودون البحر كالنيل والفرات، والتركيبُ للسعَة، والمرادُ بها ماؤها على الإضمار أو المجاز أو المجاري أنفسها.

---

(١) زهير بن أبي سلمى: تقدم ترجمتهُ في سورة البقرة الآية (١٨).
(٢) السجدة: «١٧».
(٣) البقرة: «٢١٧».
(٤) الزمر: «٦٥».
(٥) أي لم يقيد البشارة بالجنة لمن آمن واستمر إيمانه حتى وفاته للاستغناء عنها.
(٦) مسروق: هو أبو عائشة، مسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية الهمداني الكوفي العابد، روى عن الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وأبيّ بن كعب، وغيرهم. وكان أعلم أصحاب ابن مسعود، يمتاز بورعه وعلمه وعدالته، وكان شُريح القاضي يستشيرهُ في معضلات المسائل. وقال علي بن المديني ما أقدّم على مسروق من أصحاب عبدالله أحداً.
وقال ابن معين: ثقة، لا يسأل عن مثله. وله أحاديث صالحة وقد أخرج له الستة. هذا وقد روى عن شعبة عن أبي إسحاق أنه قال: حج مسروق فلم ينم إلاّ ساجداً. وكانت وفاته سنة ثلاث وستين من الهجرة على الأشهر. [تهذيب التهذيب (١٠/ ١٠٠ رقم ٢٠٦)].
(٧) محمد: «١٥».

وإسنادُ الجري إليها مجازٌ كما في قوله تعالى ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾(١) الآية.

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا﴾ صفة ثانية لجنات، أو خبر مبتدأ محذوف، أو جملة مستأنفة. كأنه لما قيل: إن لهم جناتٍ. وقع في خَلَد السامع أثمارها مثْل ثمار الدنيا، أو أجناسٍ أخَرَ فأزيح بذلك. و﴿كُلَّمَا﴾ نصب على الظرف، و﴿رِّزْقًا﴾ مفعول به، ومِنْ الأولى والثانية للابتداء واقعتان موقع الحال، وأصل الكلام ومعناه: كلَّ حين رزِقوا مرزوقاً مبتدأ من الجنات مبتدأ من ثمرة، قيَّدَ الرزق بكونه مبتدَأ من الجنات، وابتداؤه منها بابتدائه من ثَمَرة، فصاحبُ الحال الأولى رزقاً وصاحب الحال الثانية ضميرُه المستكنّ في الحال، ويحتمل أن يكون من ثمرة بياناً تقدم كما في قولك: رأيت منك أسداً، وهذا إشارة إلى نوعِ ما رزقوا كقولك مشيراً إلى نهر جار: هذا الماء لا ينقطع، فإنك لا تعني به العَيْنَ المشاهدَةَ منه بَل النوع المعلوم المستمر بتعاقب جريانه وإن كانت الإشارة إلى عينه، فالمعنى هذا مِثْلُ الذي رزقنا، ولكن لما استَحْكَم الشبهُ بينهما جُعِل ذاتَه ذاتَه كقولك: أبو يوسف أبو حنيفة.

﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبلِ هذا في الدنيا، جَعَلَ ثمرَ الجنة من جنس ثمر الدنيا لتميل النفس إليه أول ما يُرىٰ، فإن الطباع مائلة إلى المألوف متنفرة عن غيره، ويتبين لها مزيته وكُنْهَ النعمة فيه، إذ لو كان جنساً لم يُعْهَد ظنَّ أنه لا يكون إلا كذلك، أو في الجنة لأن طعامها متشابهٌ في الصورة، كما حكىٰ ابن كثير(٢) عن الحسن رضي الله عنهما: أن أحدهم يؤتى بالصَّحْفَة فيأكلُ منها، ثم يؤتىٰ بأخرى فيراها مثلَ الأولى فيقول ذلك، فيقول المَلَكُ: كُلْ فاللوْن واحد والطعم مختلف(٣). أو كما روِي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «والذي نفس محمد بيده، إن الرجل من أهل الجنة ليتناولُ الثمرة ليأكلَها فما هي بواصلة إلى فيه، حتى يُبْدِل الله تعالى مكانها مثلها»(٤). فلعلهم إذ رأوْها على الهيئة الأولى قالوا

---

(١) الزلزلة: «٢».

(٢) ابن كثير: هو يحيى بن أبي كثير الطائي، ثقة ثبت، من الطبقة الخامسة، توفي (١٣٢هـ) (انظر التقريب ٢/ ٣٥٦).

(٣) أخرجه ابن جرير (١/ ١٧١) عن يحيى بن أبي كثير. وفيه شيخ من المصيصة -لم يسمَّ وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٩٦).

● ويحيى بن أبي كثير الطائي، أو نصر اليمامي، ثقة ثبتٌ، من الطبقة الخامسة توفي سنة (١٣٢هـ) [التقريب (٢/ ٣٥٦)].

(٤) أخرج الطبراني في الكبير (٢/ ١٠٢ رقم ١٤٤٩) والبزار (٤/ ٢٠٠) رقم (٣٥٣٠) كلاهما من طريق ريحان بن سعد، عن عباد بن منصور، عن أيوب عن أبي قلابة، عن أبي أسماء عن ثوبان قال: قال النبي ﷺ: «إنَّ الرجُل إذا نزع من الجنة عادتْ مكانها أخرى» وأورده الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٤١٤) وقال: رجال الطبراني وأحد إسنادي البزار ثقات قلت: وفيه عباد بن منصور: صدوق يدلس وتغير بآخره [التقريب ١/ ٣٩٣]، وأخرجه البزار (٤/ ٢٠٠ رقم ٣٥٣٠) من طريق إسحاق بن إدريس، ثنا أبان، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي أسماء عن ثوبان عن النبي ﷺ قال بنحوه وفيه إسحاق بن إدريس: ضعيف [انظر المجروحين (١/ ١٣٥) والجرح والتعديل (٢/ ٢١٣)].

والخلاصة أن الأثر يرتقي إلى درجة الحسن لغيره بمتابعة أحد الوجهين للآخر.

ذلك، والأول أظهر لمحافظته على عموم ﴿كُلَّمَا﴾ فإنه يدل على ترديدهم هذا القول كل مرة رزقوا، والداعي لهم إلى ذلك فَرْطُ استغرابهم وتبجُّحهم بما وَجَدوا من التفاوت العظيم في اللذة والتشابُهِ البليغِ في الصورة.

﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ اعتراض يقرر ذلك، والضميرُ على الأول راجع إلى ما رزقوا في الدارين فإنه مدلول عليه بقوله عز من قائل ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ ونظيره قوله عز وجل ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾(١) أي بجنسي الغني والفقير، وعلى الثاني إلى الرزق. فإن قيل: التشابهُ هو التماثل في الصفة، وهو مفقود بين ثمرات الدنيا والآخرة كما قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ليس في الجنة من أطعمة إلا الأسماء(٢). قلت: التشابه بينهما حاصل في الصورة التي هي مناطُ الاسم دون المقدار والطعم، وهو كاف في إطلاق التشابه. هذا: وإن للآية الكريمة مَحْمَلاً آخر، وهو أن مستلذاتِ أهل الجنة في مقابلة ما رُزقوا في الدنيا من المعارف والطاعات متفاوتة في اللذة بحسب تفاوتها، فيُحتمل أن يكون المراد من ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا﴾ أنه ثوابه، ومن تشابُهِهِما تماثُلُهُما في الشرف والمزية وعلوُّ الطبقة، فيكونُ هذا في الوعد نظير قوله ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٣) في الوعيد.

﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ مما يُستَقذر من النساء ويُذمُّ من أحوالهن كالحيض والدَّرن ودَنَسِ الطبْع وسوء الخُلُق، فإن التطهيرَ يُستعمل في الأجسام والأخلاق والأفعال. وقرىء: مُطَهَّراتٌ وهما لغتان فصيحتان يقال: النساءُ فعلت وفعلن، وهُنّ فاعلةٌ وفواعل، قال:

وإذَا العَــذَارى بــالــدُّخَــانِ تقنَّعَــتْ   واسْتَعجلــتْ نَصْــبَ القُــدورِ فملَّــت

فالجمعُ على اللفظ، والإفرادُ على تأويل الجماعة، ومُطَّهِّرَة ـ بتشديد الطاء وكسر الهاء ـ بمعنى مُتَطهِّرة، ومُطَهَّرة أبلغ من طاهِرَةٍ ومُطَّهِّرة للإشعار بأن مطهِّراً طهَّرهن وليس هو إلا الله عز وجل. والزوجُ يقال للذكر والأنثى، وهو في الأصل لما له قرين من جنسه كزوْج الخُفِّ، فإن قيل: فائدةُ المطعوم هو التغذي ودفع ضرر الجوع، وفائدةُ المنكوح التوالدُ وحفظ النوع، وهي مستغنى عنها في الجنة. قلتُ: مطاعم الجنة ومناكحُها وسائر أحوالها إنما تشارِكُ نظائرها الدنيوية في بعض الصفات والاعتبارات، وتسمى بأسمائها على سبيل الاستعارة والتمثيل، ولا تشاركُها في تمام حقيقتها حتى تستلزِمَ جميع ما يلزمُها وتفيدَ عينَ فائدها.

﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ دائمون. والخُلْد والخلود في الأصل الثباتُ المديدُ دام أمْ لَمْ يَدُم، ولذلك قيل للأثافي والأحجار خوالِدٌ، وللجزء الذي يبقى من الإنسان على حاله ما دام حياً خُلْدٌ، ولو كان

---

(١) النساء: «١٣٥».

(٢) أخرجه هناد في «الزهد» رقم (٣) و(٨) وابن جرير في التفسير (١/ ١٧٤) ووكيع في «الزهد» رقم (١) ومسدد في مسنده، وابن المنذر، وابن أبي حاتم ـ كما في الدر المنثور للسيوطي (١/ ٩٦) ـ وأورد الأثر الألباني في صحيح الجامع (٢/٩٥٣ رقم ٥٤١٠) وعزاه للضياء في المختارة، وأبي نعيم وصححهُ.

(٣) العنكبوت: «٥٥».

وضعُهُ للدوام كانَ التقييدُ بالتأبيدِ في قوله تعالى ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ﴾[1] لغواً، واستعمالُهُ حيث لا دوامَ كقولهم وَقْفٌ مُخَلَّد يوجِبُ اشتراكاً أوْ مجازاً. والأصلُ ينفيهما بخلاف ما لو وُضِع للأعم منه فاستُعمل فيه بذلك الاعتبار، كإطلاق الجسم على الإنسان مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ﴾[2] لكنَّ المرادَ به ههنا الدوام عند الجمهور لما يشهد له من الآيات والسُّنن.

فإن قيل: الأبدانُ مركبة من أجزاء متضادَّةِ الكيفيةِ، معرَّضةٌ للاستحلالاتِ المؤديةِ إلى الانفكاك والانحلال فكيف يُعْقَل خلودُها في الجنان؟ قلت: إنه تعالى يُعيدُها بحيثُ لا يَعْتورها الاستحالةُ بأن يجعلَ أجزاءها مَثَلاً متقاومةً في الكيفية، متساويةً في القوة لا يقوىٰ شيء منها على إحالة الآخر، متعانقةً متلازمةً لا ينفك بعضُها عن بعض كما يُشاهَدُ في بعض المعادن.

هذا وإنّ قياس ذلك العالَمِ وأحوالَه على ما نجدُه ونشاهدُه من نقصِ العقل وضَعْف البصيرة. واعلم أنه لما كان معظمُ اللذات الحسية مقصوراً على المساكن والمطاعم والمناكح ـ على ما دل عليه الاستقراءُ ـ كان ملاكُ ذلك كله الدوامَ والثباتَ، فإن كل نعمة جليلةٍ إذا قارنها خوفُ الزوالِ كانت منغَّصة غير صافية من شوائب الألم، بشرَ المؤمنين بها ومثلَ ما أعد لهم في الآخرة بأبهى ما يُستَلَذُّ به منها، وأزالَ عنهم خوفَ الفوات بوعد الخلود ليدلَّ على كمالهم في التنعم والسرور.

(٢٦) ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ﴾ لما كانت الآيات السابقةُ متضمنةً لأنواع من التمثيل، عقَّبَ ذلك ببيان حُسْنه وما هو الحق له والشرط فيه، وهو أن يكون على وِفق الممثَّل له من الجهة التي تعلَّق بها التمثيلُ في العِظَم والصغر والخسة والشرف دون الممثَّل، فإن التمثيل إنما يُصار إليه لكشفِ المعنى الممثَّل له ورفعِ الحجاب عنه وإبرازِهِ في صورة المشاهَدِ المحسوس، ليساعدَ فيه الوهمُ العقلَ ويصالِحَه عليه، فإن المعنى الصِّرْف إنما يدركُه العقلُ مع منازَعَةٍ من الوهم، لأن مِنْ طبعِهِ الميلَ إلى الحس وحبَّ المحاكاة، ولذلك شاعت الأمثالُ في الكتب الإلهية وفَشَت في عبارات البلغاء وإشارات الحكماء، فيُمثَّلُ الحقيرُ بالحقير كما يمثَّلُ العظيمُ بالعظيم، وإن كان المِثْلُ أعظمَ من كل عظيم، كما مُثِّل في الإنجيل غلُّ الصدور بالنُّخالة، والقلوبُ القاسية بالحصاة، ومخاطبةُ السفهاء بإثارة الزنابير. وجاء في كلام العرب: أَسْمَعَ من قِراد وأطْيَشَ من فراشة وأعزَّ من مُخِّ البَعُوض. لا ما قالت الجَهَلَةُ من الكفار: لِمَا مثل الله حالَ المنافقين بحال المستوقِدين؟ وأصحابَ الصيِّب وعبادةَ الأصنام في الوَهْن والضَّعف ببيت العنكبوت؟ وجَعَلَها أقلَّ من الذباب وأخسَّ قدراً منه؟ [ف] الله سبحانه وتعالى أعلىٰ وأجلُّ من أن يَضْرب الأمثالَ ويذكر الذباب والعنكبوت. وأيضاً: لَمَّا أرشدهم إلى ما يدل على أن المتحدّىٰ به وحيٌ مُنَزَّلٌ ورتب عليه وعيد مَنْ كفر به ووعد من آمن به ـ بعد ظهور أمره ـ شَرَعَ في جوابِ ما طَعَنُوا به فيه فقال تعالى ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ﴾ أي لا يترك ضرب المَثَل بالبعوضة ترك من يستحْيي أن يُمَثِّل بها لحقارتها. والحياءُ: انقباضُ النفس عن القبيح مخافةَ الذم، وهو الوَسَط بين الوقاحةِ: التي هي الجَراءةُ على القبائح وعدمُ المبالاة بها، والخجلِ: الذي هو انحصارُ النفس عن

---

(١) النساء: «١٦٩».

(٢) الأنبياء: «٣٤».

الفعل مطلقاً. واشتقاقُهُ من الحياة، فإنه انكسارٌ يعتري القوة الحيوانية فيردُّها عن أفعالها، فقيل: حَيِيَ الرجلُ، كما يقال نَسِيَ وحَشِيَ إذا اعْتَلت نَسَاهُ وحَشَاهُ. وإذا وصف به الباري تعالى كما جاء في الحديث «إن الله يستحْيِي من ذي الشيْبة المسلم أن يعذبَه»[1] «إن الله حيي كريم يستحيي إذا رفع العبدُ يديه أن يردَّهما صفراً حتى يضعَ فيهما خيراً»[2] فالمرادُ به التركُ اللازمُ . . . .

---

(١) وهو حديث ضعيف جداً:
أخرج ابن حبان في «المجروحين»(١/١٦٨) عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ، يعني: عن الله عز وجل: «إني لأستحي من عبدي وأَمَتي تشيبَ رأسَ أَمتي وعبدي في الإسلام، ثم أعذبهما في النار بعد ذلك، ولأنا أعظم عفواً من أن أستر على عبدي، ثم أفضحه، ولا أزال أغفر لعبدي ما استغفرني».
وأخرج ابن حبان في «المجروحين» (٢/٢٦٧) عن أنس بن مالك، قال قال رسول الله ﷺ: «جاءني جبريل عن الله تبارك وتعالى أنه قال جل وعلا: وعزّتي وجلالي، ووحدانيتي وارتفاع مكاني وفاقَةِ خَلْقي إليَّ واستوائي على عرشي إني لأستحيي من عبدي وأَمَتي يشيبان في الإسلام ثم أعذبهما. . . فرأيتُ رسول الله ﷺ يبكي عند ذلك فقلت: يا رسول الله ما يبكيك؟ قال: بكيت على من يستحي الله منه ولا يستحي من الله».
قال ابن حبان: باطل لا أصل له، وسويد بن عبدالعزيز ضعفه ابن معين، ونوح بن ذكوان منكر الحديث، وأيوب بن ذكوان لا يتابع على حديثه. ومحمد بن عبدالله الأنصاري، يقال له ابن زياد يروي عن الثقات ماليس من حديثهم.
وتعقبه السيوطي في «اللآلىء المصنوعة» (١/ ١٣٣ ـ ١٣٤): بقوله: الحديث الأول: أخرجه العقيلي، والحديث الثاني أخرجه البيهقي في الزهد ثم قال: وقد روى من غير هذا الوجه بغير هذا اللفظ، بسند أصلح من هذا، وللحديث طرق أخرى عند ابن النجار في تاريخه، وأبي الشيخ وابن أبي الفرات في جزئه، والشيرازي في الألقاب وكلها ضعيفة وفي بعضها من أُتهم بالوضع.
وجاء من حديث جرير أخرجه الخطيب بسند ضعيف.
ومن حديث أبي هريرة بمعناه أخرجه الديلمي.
ومن حديث حذيفة بن اليمان، وعبدالله بن عمر، أخرجهما زاهر بن طاهر الشحامي في الإلهيات.
ومن حديث سلمان أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب العمر.
والخلاصة: أن الحديث ضعيف جداً.
[أُنظر «تنزيه الشريعة» (١/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥)].

(٢) وهو حديث صحيح.
أخرجه أبو داوود (٢/ ١٦٥ رقم ١٤٨٨) والترمذي (٥/٥٥٦ ـ ٥٥٧ رقم ٣٥٥٦) والحاكم في المستدرك (١/ ٤٩٦) وابن ماجة (٢/ ١٢٧١ رقم ٣٨٦٥) وأحمد في المسند (٥/ ٤٣٨) وابن حبان في الإحسان (٢/ ١٧٩ رقم ٨٧٣). كلهم من طريق جعفر بن ميمون صاحب الأنماط عن أبي عثمان النهدي عن سلمان مرفوعاً.
وجعفر بن ميمون صدوق يخطىء ـ التقريب ـ (١/ ١٣٣).
لكن تابعه سليمان التيمي بهذا الإسناد عند الحاكم (١/ ٥٣٥) وابن حبان في الإحسان (٢/ ١٢٠ رقم ٨٧٧).
وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. وكذا صححهُ الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٠٨) وقد روى الحديث موقوفاً: أخرجه أحمد (٥/ ٤٣٨) والحاكم (١/ ٤٩٧) من طريق سليمان التيمي، ووكيع في زهده (رقم ٥٠٤) وعنه هنّاد في زهده رقم (١٣٦١) من طريق يزيد بن أبي صالح. كلهم عن سلمان موقوفاً عليه. وله شواهد:
١ ـ من حديث أنس أخرجه الحاكم (١/ ٤٩٧ ـ ٤٩٨) وصححه، وتعقبه الذهبي، فقال: عامر بن يساف ذو =

للانقباض[١]، كما أن المرادَ من رحمتِه وغضبِه إصابةُ المعروفِ والمكروهِ اللازمَيْن لمعنييهما، ونظيرُه قول من يَصِف إبلاً:

إذا ما استَحيَنَ الماءَ يعْرِضُ نَفْسَهُ كرَعْنَ بسَبْتٍ في إناءٍ من الوَرْدِ

وإنما عُدِل به عن الترك لما فيه من التمثيل والمبالغة، وتحتملُ الآيةُ خاصةً أن يكون مجيئُه على المقابلةِ لِمَا وَقَعَ في كلام الكفرة. وضربُ المَثَل اعتمالُه، من ضربِ الخاتَم، وأصلُه وَقْعُ شيء على آخر. وأنْ بِصِلَتِها مخفوضُ المحَلّ عند الخليل بإضمار مِنْ، منصوبٌ بإفضاء الفِعْل إليه بعد حذفها عند سيبويه. وما إبهاميةٌ تزيدُ النكرةَ إبهاماً وشَيَاعاً وتسدُّ عنها طرقَ التقييد، كقولك أعطني كتاباً ما، أيْ: أيَّ كتابٍ كان. أو مزيدةٌ للتأكيدِ كالتي في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[٢] ولا نعْني بالمزيد اللغوَ الضائعَ، فإنّ القرآن كلَّه هدًى وبيانٌ، بل ما لم يوضعْ لمعنىً يُراد مِنْه، وإنما وضعت لأن تُذْكَرَ مع غيرها فتفيدَ له وَثَاقةً وقوة، وهو زيادةٌ في الهدَىٰ غيرُ قادحٍ فيه. وبعوضةً عطفُ بيانٍ لمَثَلاً أو مفعول ليضرب، ومَثَلاً حالٌ تقدمت عليه لأنه نكرة، أو هما مفعولاه لتضمُّنه معنىٰ الجَعْل. وقرئت بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، وعلى هذا يَحْتمل ﴿مَا﴾ وجوهاً أخر: أن تكون موصولةً حُذِفَ صدرُ صِلَتِها كما حذف في قوله ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾[٣] وموصوفةً بصفةٍ كذلك ومحلُّها النصب بالبدليَّة على الوجهين، واستفهاميةً هي المبتدأ، كأنه لما رد استبعادهم ضرب الله الأمثال، قال بعده:

= مناكير. [انظر الكامل لابن عدي (٥/١٧٣٩)] والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع (٢/١١٢).
وحديث أنس أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/١٣١) من طريق أبان عنه، وأبان كذاب.
٢ ـ من حديث جابر: أخرجه أبو يعلى في المسند (٣/٣٩١ رقم ١٠٠/١٨٦٧) وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر وهو ضعيف. وذكر الهيثمي الحديث في «المجمع» (١٠/١٤٩) وقال «رواه أبو يعلى، والطبراني في الأوسط وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر وقد وثق على ضعفه، وبقية رجالهما رجال الصحيح».
والخلاصة أن الحديث صحيح والله أعلم.

(١) بمعنى أن انقباض النفس من أمرٍ ما يستدعي تركَه، وكما في الحديث المذكور «إن الله يستحيي من ذي الشيبة المسلم أن يعذبه» بمعنى أن ذلك يستدعي ترك تعذيبه.
والمراد به في الآية «إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما..» سَلْبُ ذلك الترك، ونفيُ النفي إثباتٌ، بمعنى: أن الله يضرب بذلك مثلاً... وقد ورد التعبير بهذا الأسلوب للمبالغة.
قال أبو السعود: (فالمراد ههنا: عدم ترك ضرب المَثَل المُمَاثِلِ لترك من يستحيي من ضربه، وفيه رمزٌ إلى تعاضد الدواعي إلى ضربه..) أبو السعود ١/٧٢.
أما وصف الله تعالى بالحياء أو في أي وصف يفيد المشابهة بالمخلوقات فلا يكون على حقيقته الكائنة في العباد، فاللغة وضعت لتدل في المخلوق على هيئة معينة، ولا يعني وصف الخالق بتلك الهيئة على حقيقتها، إنما تدل في الخالق على هيئة يعلمها الله وحده. والله تعالى خاطبهم بهذه العبارات لأنهم يفهمونها، إذ لا يمكن للّغة أيّاً كانت أن تحيط بوصف الله على حقيقته. فأصل الدلالة اللغوية مفهومة للعباد أما كيفية قيامها بذات الله فهي غير معقولة والله أعلم بحقيقتها. ولذلك ورد عن الإمام مالك قوله عن الاستواء: الاستواء معلوم، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب...

(٢) آل عمران: «١٥٩».
(٣) الأنعام: «١٥٤».

ما البعوضة فما فوقها حتى لا يضرب به المثل؟! بل له أن يُمَثِّل بما هو أحقرُ من ذلك، ونظيرُه فلان لا يبالي مما يَهَبُ مَا دينارٌ وديناران. والبعوضُ: فعولٌ من البُعْض، وهو القَطْعُ كالبِضْع العَضْب، غلب على هذا النوع كالخُموش.

﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ عطفٌ على بعوضة، أو «ما» إنْ جُعِل اسماً، ومعناه ما زاد عليها في الجثة كالذباب والعنكبوت، كأنه قَصَدَ به ردَّ ما استنكروه. والمعنى: أنه لا يستحيي ضربَ المثل بالبعوض فضْلاً عما هو أكبرُ منه، أو في المعنى الذي جُعِلت فيه مثلاً، وهو الصِّغر والحقارة كجَنَاحِها فإنه عليه الصلاة والسلام ضَرَبَه مثلاً للدنيا، ونظيرُه في الاحتمالين ما روي أن رجلاً بمنىً خَرَّ على طُنُبِ فُسطاط[1] فقالت عائشة رضي الله عنها سمعت رسول الله ﷺ قال «ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها، إلا كتبت له بها درجة، ومحيت عنه بها خطيئة»[2]. فإنه يُحْتَمَلُ ما تجاوَزَ الشوكةَ في الألم كالخرور وما زاد عليها في القِلَّة كنَخْبَةِ النملة[3]، لقوله عليه الصلاة والسلام «ما أصاب المؤمن من مكروه فهو كفارة لخطاياه حتى نخبة النملة»[4].

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أمّا حرف تفصيل يُفصِّل ما أُجْمِل ويؤكد ما به صُدِّر ويتضمن معنى الشرط، ولذلك يجابُ بالفاء. قال سيبويه: أما زيد فذاهب، معناه: مهما يكن من شيء فزيد ذاهب، أي هو ذاهب لا محالةَ وأنه منه عزيمة، وكان الأصلُ دخول الفاء على الجملة لأنها الجزاء، لكن كرهوا إيلاءَها حرف الشرط فأدخلوها على الخبر وعوَّضوا المبتدأ عن الشرط لفظاً، وفي تصديره الجملتيْن به إخمادٌ لأمر المؤمنين واعتدادٌ بعلمهم وذم بليغ للكافرين على قولهم، والضميرُ في ﴿أَنَّهُ﴾ للمَثَل، أو لأن يضرب. و﴿ٱلْحَقُّ﴾ الثابت الذي لا يَسوغُ إنكارُه، يعمّ الأعيان الثابتة والأفعال الصائبة والأقوال الصادقة، من قولهم حق الأمر إذا ثبت، ومنه: ثوب محقق أي محكم النسج.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ﴾ كان من حقِّه: وأما الذين كفروا فلا يعلمون، ليطابق قرينَه ويقابِلَ قَسِيمهُ، لكنْ لما كان قولُهم هذا دليلاً واضحاً على كمال جهلهم عَدَلَ إليه على سبيل الكناية ليكون كالبرهان عليه.

---

(١) طنب الفسطاط: الحبل الذي يُشدُّ به بيت الشعر.

(٢) أخرجه البخاري (١٠/١٠٣ رقم ٥٦٤٠) من حديث عائشة بلفظ «ما من مصيبة تُصيب المسلم إلاَّ كفَّر الله بها عنه، حتى الشوكة يشاكها» وأخرجه مسلم (٤/١٩٩١ رقم ٤٦/٢٥٧٢) عنها بلفظ الكتاب.

(٣) نُخْبة النملة: أي لدغتها.

(٤) قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (ص١١٧): لم أجده.
قلت: انظر الحديث السابق. وأخرج مسلم في صحيحه (٤/١٩٩٢ ـ ١٩٩٣ رقم ٥٢/٢٥٧٣) عن أبي سعيد وأبي هريرة، أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: «ما يُصيب المؤمن من وَصَب ولا نَصَب ولا سَقَم ولا حَزَن، حتى الهَمِّ يُهِمُّه إلاّ كُفِّر به من سيئاته» وأخرج مسلم (٤/١٩٩٣ رقم ٢٥٧٤) عن أبي هريرة قال: لما نزلت «من يعملْ سُوءاً يُجزَ بِهِ [النساء: ١٢٣] بَلَغَتْ من المسلمين مَبْلَغاً شديداً، فقال رسول الله ﷺ: «قاربوا وسدِّدُوا ففي كل ما يصابُ به المسلم كفارةٌ. حتى النَّكْبة يُنْكَبُها، أو الشوكة يُشاكها».
=

وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ
وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾
كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٨﴾
هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ
وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٩﴾ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ

﴿ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ﴾ يَحْتَمِلُ وجهين: أن تكون ﴿ مَا﴾ استفهامية و﴿ذا﴾ بمعنى الذي وما بعدَه صلتُه، والمجموعُ خبر ما. وأن تكون ﴿ما﴾ مع ﴿ذا﴾ اسماً واحداً بمعنى: أيُّ شيء، منصوبَ المحل على المفعولية مثل ما أراد الله، والأحسنُ في جوابه الرفعُ على الأول، والنصبُ على الثاني، ليطابق الجوابُ السؤالَ. والإرادة: نزوعُ النفس وميْلُها إلى الفعل بحيث يحمِلُها عليه، وتقال للقوة التي هي مبدأُ النزوع، والأول مع الفعل والثاني قبله، وكلا المعنيين غيرُ متصوَّرٍ اتصافُ الباري تعالى به، ولذلك اختُلف في معنى إرادته فقيل: إرادتُه لأفعالِهِ أنّهُ غيرُ ساهٍ ولا مُكْرَهٍ، ولأفعالِ غيرِه أمْرَه بها. فعلى هذا لم تكن المعاصي بإرادته، وقيل: علمُه باشتمال الأمر على النظام الأكمل، والوجه الأصلح، فإنه يدعو القادر إلى تحصيله، والحقُّ: أنه ترجيحُ أحد مقدورَيْه على الآخر وتخصيصُه بوجه دون وجه، أو معنى يوجب هذا الترجيح، وهي أعم من الاختيار فإنه ميْل مع تفضيلٍ وفي هذا استحقارٌ واسترذال. و﴿ مَثَلٗاۘ﴾ نصبٌ على التمييز، أو الحال كقوله تعالى ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ﴾[1].

﴿ مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ﴾[2] جوابُ ماذا، أي: إضلالٌ كثير وإهداء كثير، وَضَعَ الفعل موضِعَ المصدر للإشعار بالحدوث والتجدد، أو بيانٌ للجملتين المصدرتين بإمّا، وتسجيل بأن العِلْم بكونه حقاً هدى وبيان، وأن الجهل ـ بوجه إيراده والإنكارَ لحسن مورده ـ ضلالٌ وفسوق، وكثرةُ كل واحد من القبيلتين بالنظر إلى أنفسهم لا بالقياس إلى مقابليهم، فإن المَهْديين قليلون بالإضافة إلى أهل الضلال كما قال تعالى ﴿وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ﴾[3]، ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[4] ويُحْتَمَل أن يكون كثرةُ الضالين من حيث العدد، وكثرةُ المهديين باعتبار الفضل والشرف كما قال:

قليلٌ إذا عُدُّوا كَثيرٌ إذا شَدُّوا

وقال:

---

(١) الأعراف: «٧٣».

(٢) قدم الإضلال على الهداية مع تقدم حال المهتدين على حال الضالين فيما قبله ليكون أول ما يقرع أسماعهم من الجواب أمراً فظيعاً يسوؤهم ويفتّ في أعضادهم، وهو السرّ في تخصيص هذه الفائدة بالذكر (أبو السعود ١/ ٧٤).

(٣) ص: «٢٤».

(٤) سبأ: «١٣».

إنَّ الكِـــرامَ كثيـــرٌ فـــي البـــلادِ وإنْ قلُّـــوا كمـــا غيـــرهُـــم قـــلٌّ وإنْ كَثُـــرُوا

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي الخارجين عن حد الإيمان، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[(١)] من قولهم: فَسَقَت الرُّطَبَة عن قشرها إذا خرجت. وأصلُ الفسق: الخروج عن القصد قال رؤبة[(٢)]:

فواسِقاً عَنْ قَصْدِهَا جَوائراً

والفاسقُ في الشرع: الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبيرة، وله درجات ثلاث:

الأولى: التغابي وهو أن يرتكبَها أحياناً مستقبحاً إياها.

والثانية: الانهماكُ وهو أن يعتاد ارتكابها غيرَ مبالٍ بها.

والثالثة: الجُحُودُ وهو أن يرتكبها مُستصوِباً إياها، فإذا شارف هذا المقام وتخطىٰ خططَه خلع رِبْقة الإيمان من عنقه ولابس الكفر. وما دام هو في درجة التغابي أو الانهماك فلا يُسلبُ عنه اسم المؤمن لاتصافه بالتصديق الذي هو مسمىٰ الإيمان، ولقوله تعالى ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾[(٣)] والمعتزلةُ لما قالوا: الإيمانُ عبارة عن مجموع التصديق والإقرار والعملِ والكفرُ تكذيبُ الحق وجحودُه جَعَلوه قسماً ثالثاً نازلاً بين منزلتي المؤمن والكافر لمشاركته كلَّ واحد منهما في بعض الأحكام. وتخصيصُ الإضلال بهم مُرَتَّباً على صفة الفِسق يدل على أنه الذي أعدّهم للإضلال وأدى بهم إلى الضلال، وذلك لأن كفرَهم وعدولَهم عن الحق وإصرارَهم بالباطل صرَفَتْ وجوهَ أفكارهم عن حِكْمة المَثَل إلى حقارة الممثَّل به، حتى رسخت به جهالتُهم وازدادت ضلالتُهم فأنكروه واستهزؤوا به. وقرىء يُضَلُّ بالبناء للمفعول والفاسقون بالرفع.

(٢٧) ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ صفة للفاسقين للذم وتقرير الفسق. والنقضُ: فسخ التركيب، وأصلُه في طاقات الحبل، واستعمالُه في إبطال العهْد من حيثُ إن العهد يُستعار له الحبل لما فيه من ربط أحد المتعاهِدَين بالآخر، فإن أُطلق مع لفظ الحبل كان ترشيحاً للمجاز، وإن ذُكر مع العهد كان رمزاً إلى ما هو من روادفه وهو أن العهد حبلٌ في ثبات الوُصلة بين المتعاهدين، كقولك شجاع يفترس أقرانه وعالم يغترف منه الناس، فإن فيه تنبيهاً على أنه أسد في شجاعته بحْرٌ بالنظر إلى إفادته. والعهدُ: الموْثِق ووضعه لما من شأنه أن يراعىٰ ويُتَعهَّد كالوصية واليمين، ويقال للدار من حيث إنها تراعىٰ بالرجوع إليها. والتاريخ لأنه يُحْفَظُ، وهذا العهد: إما العهد المأخوذ بالعقل، وهو الحجة القائمة على عباده الدالةُ على توحيده ووجوب وجوده وصدق رسوله، وعليه أُوِّلَ قوله تعالى ﴿وَأَشْهَدَهُمْ

---

(١) التوبة: «٦٧».

(٢) رؤبة: هو رؤبة بن عبدالله العجاج بن رؤبة التميمي السعدي، أبو الحجاف، أو أبو محمد، راجزة من العظماء المشهورين، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية كان أكثر مقامه في البصرة فأخذ عنه أعيان أهل اللغة وكان يحتجون بشعره ويقولون بإمامته في اللغة، مات في البادية، وقد أسن وله «ديوان رجز ـ ط» وفي الوفيات: لما مات رؤبة قال الخليل: دفنا الشعر واللغة والفصاحة، توفي سنة ١٤٥هـ [الأعلام للزركلي (٣/ ٣٤)].

(٣) الحجرات: «٩».

عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾[١]. أو المأخوذَ بالرسل على الأمم، بأنهم إذا بُعث إليهم رسول مصدِّق بالمعجزات صدقوه واتبعوه ولم يكتموا أمره ولم يخالفوا حكمه، وإليه أشار بقوله ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾[٢] ونظائرُه. وقيل: عهود الله تعالى ثلاثة: عهد أخذه على جميع ذرية آدم بأن يُقِرّوا بربوبيته، وعهد أخذه على النبيين بأن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه، وعهد أخذه على العلماء بأن يبينوا الحق ولا يكتموه.

﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ الضميرُ للعهد، والميثاقُ: اسم لما يقع به الوثاقة وهي الاستحكام، والمرادُ به ما وَثَّق الله به عهده من الآيات والكتب، أو ما وَثَّقُوه به من الالتزام والقَبول، ويحتمل أن يكون بمعنى المصدر. و﴿مِنۢ﴾ للابتداء فإن ابتداء النقض بعد الميثاق.

﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ يَحتَمِل كل قطيعة لا يرضاها الله تعالى، كقطع الرحم والإعراض عن موالاة المؤمنين والتفرقةُ بين الأنبياء ـ عليهم السلام ـ والكتبِ في التصديق وتركُ الجماعات المفروضة وسائرُ ما فيه رفضُ خير أو تعاطي شر، فإنه يقطع الوُصلة بين الله وبين العبد المقصودةِ بالذات من كل وصْل وفَصْل. والأمرُ هو للقولِ الطالبِ للفعل، وقيل: مع العلو، وقيل: مع الاستعلاء، وبه سُمي الأمرُ ـ الذي هو واحد الأمور ـ تسميةً للمفعول به بالمصدر، فإنه مما يؤمَرُ به، كما قيل له: شأنٌ وهو الطلبُ والقصدُ، يقال: شأَنْت شأنه، إذا قصدتُ قصدَه. و﴿أَن يُوصَلَ﴾ يَحتَمل النصبَ والخفضَ، على أنه بدلٌ من ما، أو ضميرِه. والثاني أحسنُ لفظاً ومعنىً.

﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالمنع عن الإيمان والاستهزاء بالحق وقطع الوُصَلِ التي بها نظام العالم وصلاحه.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الذين خَسِروا بإهمال العقلِ عن النظر واقتناص ما يفيدهم الحياةَ الأبدية، واستبدالِ الإنكار والطعنِ في الآيات بالإيمان بها، والنظرِ في حقائقها والاقتباسِ من أنوارها، واشتراءِ النقض بالوفاء، والفسادِ بالصلاح، والعقابِ بالثواب.

(٢٨) ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ استخبارٌ فيه إنكار وتعجيبٌ لكفرهم بإنكار الحال التي يقع عليها على الطريقِ البرهاني، فإن صدورَه لا ينفك عن حالٍ وصِفَةٍ، فإذا أُنكِر أن يكون لكفرهم حالٌ يوجد عليها استَلزَمَ ذلك إنكارَ وجودِه، فهو أبلغُ وأقوى في إنكار الكفر من أتكفرون وأوفَقُ لما بعده من الحال. والخطابُ مع الذين كفروا، لَمّا وصفَهم بالكفر وسوء المقال وخبْثِ الفِعال خاطبهم على طريقة الالتفات ووبَّخهم على كفرهم مع علمهم بحالهم المقتضيةِ خلاف ذلك، والمعنى أخبروني على أي حال تكفرون.

﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ أي أجساماً لا حياة لها، عناصرَ وأغذية وأخلاطاً ونطفاً ومضَغاً مخلقة وغير مخلقة.

---

(١) الأعراف: «١٧٢».
(٢) آل عمران: «١٨٧».

﴿ فَأَحْيَٰكُمْ ﴾ بخلق الأرواح ونفخِها فيكم، وإنما عطَفَه بالفاء لأنه متصل بما عطف عليه غيرَ متراخٍ عنه بخلاف البواقي.

﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ عندما تُقضى آجالُكم. ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ بالنشور يوم ينفخ في الصور أو للسؤال في القبور ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ بعد الحشر فيجازيَكم بأعمالكم، أو تُنشَرون إليه من قبوركم للحساب، فما أعْجبَ كفرَكُم مع علمكم بحالكم هذه! فإن قيل: إن علموا أنهم كانوا أمواتاً فأحياهم ثم يميتهم لم يعلموا أنه يحييهم ثم إليه يرجعون، قلت: تمكُّنُهم من العلم بهما، لِمَا نَصَبَ لهم من الدلائل مُنَزَّلٌ منزلةَ علمهم في إزاحة العذر، سيما وفي الآية تنبيه على ما يدل على صحتهما، وهو أنه تعالى لَمَّا قَدَرَ على إحيائهم أولاً قَدِر على أن يحييَهم ثانياً، فإن بدءَ الخلق ليس بأهونَ عليه من إعادته. أو الخطابُ مع القبيلين، فإنه سبحانه وتعالى لما بين دلائل التوحيد والنبوة ووعدهم على الإيمان وأوعدهم على الكفر، أكّدَ ذلك بأنْ عدّد عليهم النعم العامة والخاصة واستَقْبَحَ صدور الكفر منهم واستبعده عنهم مع تلك النعم الجليلة، فإن عِظَم النعم يوجب عظمَ معصيةِ النعم، فإن قيل: كيف تعد الإماتة من النعم المقتضية للشكر؟ قلت: لما كانت وُصلةً إلى الحياة الثانية التي هي الحياة الحقيقية كما قال الله تعالى ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾[1] كانت من النعم العظيمة مع أن المعدودَ عليهم نعمة هو المعنى المنتزعُ من القصة بأسرها، كما أن الواقع حالاً هو العلم بها لا كل واحد من الجُمل، فإن بعضها ماضٍ وبعضَها مستقبَل وكلاهما لا يصح أن يقع حالا. أو مع المؤمنين خاصة، لتقرير المِنّة عليهم وتبعيد الكفر عنهم، على معنى كيف يُتصوَّر منكم الكفرُ وكنتم أمواتاً جهالاً فأحياكم بما أفادكم من العلم والإيمان ثم يميتكم الموت المعروف ثم يحييكم الحياة الحقيقية ثم إليه ترجعون، فيثيبكم بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. والحياةُ حقيقيةٌ في القوة الحساسة أو ما يقتضيها، وبها سمي الحيوان حيواناً مجازاً في القوة النامية، لأنها من طلائعها ومقدماتها، وفيما يَخُصُّ الإنسان من الفضائل كالعقل والعلم والإيمان، من حيث إنها كمالها وغايتها، والموتُ بإزائها يقال على ما يقابلها في كل مرتبة قال تعالى ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾[2] وقال ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾[3] وقال: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾[4]. وإذا وُصف به الباري تعالى أريد بها صحةُ اتصافِهِ بالعلم والقدرة اللازمة لهذه القوة فينا، أو معنىً قائمٌ بذاته يقتضي ذلك على الاستعارة. وقرأ يعقوبُ تَرْجِعُون ـ بفتح التاء ـ في جميع القرآن.

(٢٩) ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ بيانُ نعمة أخرى مرتَّبةٌ على الأولى، فإنها خَلْقُهم أحياءً قادرين مرة بعد أخرى، وهذه خلقُ ما يَتَوقَّف عليه بقاؤهم وتمَّ به معاشهم. ومعنى ﴿ لَكُم ﴾ لأجلكم وانتفاعكم في دنياكم باستنفاعكم بها في مصالحِ أبدانكم ـ بوَسَط أو بغير وسَط ـ ودينِكم بالاستدلال والاعتبار والتعرُّف لما يلائمها من لذاتِ الآخرةَ وآلامها لا على وجه الغرض، فإن الفاعل

---

(١) العنكبوت: «٦٤».
(٢) الجاثية: «٢٦».
(٣) الحديد: «١٧».
(٤) الأنعام: «١٢٢».

لغَرَض مستكمِل به، بل على أنه كالغرض من حيثُ إنه عاقبة الفعل ومؤداه وهو يقتضي إباحة الأشياء النافعة، ولا يمنعُ اختصاصَ بعضها ببعض لأسباب عارضة، فإنه يدل على أن الكل للكل لا أن كل واحد لكل واحد، وما يعمُّ كلَّ ما في الأرض، إلا إذا أريد بها جهةُ السَّفْل كما يراد بالسماء جهة العلو. وجميعاً: حال من الموصول الثاني(١).

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ قصْدٌ إليها بإرادته، من قولهم استوى إليه كالسهم المرسَل إذا قصده قصداً مستوياً من غير أن يلوي على شيء. وأصلُ الاستواء طلب السَّواء، وإطلاقُه على الاعتدال لما فيه من تسوية وَضع الأجزاء، ولا يمكن حمله عليه لأنه من خواص الأجسام وقيل استوى أي: استولى وَمَلَكَ، قال:

قَـدِ اسْتَـوَى بِشْـرٌ علـى العِـرَاقِ   مِـنْ غَيْـرِ سَيْـفٍ وَدَمٍ مُهْـرَاقِ

والأولُ أوفقُ للأصل والصلةِ المعدَّىٰ بها والتسويةِ المترتبة عليه بالفاء. والمرادُ بالسماء هذه الأجرامُ العلوية أو جهات العلو، و﴿ثُمَّ﴾ لعله لتفاوُت ما بين الخَلْقين، وفضلُ خلْقِ السماء على خلق الأرض كقوله تعالى ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾(٢) لا للتراخي في الوقت، فإنه يخالف ظاهر قوله تعالى ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾(٣) فإنه يدل على تأخُّر دحْوِ الأرض المتقدِّم على خلق ما فيها عن خلق السماء وتسويتها، إلا أن تَستأنِف بدحاها مقدَّراً لنصب الأرض فعلاً آخر دلَّ عليه ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾(٤) مثلُ تعرف الأرض وتدبرُ أمرها بعد ذلك، لكنّه خلافُ الظاهر.

﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ عدَّلهن وخلَقَهن مصونةً من العِوَج والفُطور. و﴿هن﴾ ضميرُ السماء إن فُسِّرت بالأجرام لأنه جمع، أو هو في معنى الجمع، وإلا فمبْهم يفسرُه ما بعدَه كقولهم: ربه رجلاً.

﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ بدلٌ أو تفسير. فإن قيل: أليس إن أصحاب الأرصاد أثبتوا تسعة أفلاك؟ قلت: فيما ذكروه شكوك، وإن صح فليس في الآية نفيُ الزائد مع أنه إنْ ضَمَّ إليها العرش والكرسي لم يبقَ خلاف.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيه تعليلٌ، كأنه قال: ولكونه عالماً بكنْه الأشياء كلها خَلَقَ ما خلق على هذا النمط الأكمل والوجه الأنفع، واستدلالٌ بأنّ من كان فعله على هذا النسق العجيب والترتيب الأنيق كان عليماً، فإن إتقان الأفعال وإحكامَها وتخصيصَها بالوجه الأحسن الأنفع لا يُتصور إلا من عالم حكيم رحيم، وإزاحةٌ لما يَخْتَلِج في صدورهم من أن الأبدان بعدما تبددت وتفتتت أجزاؤها واتصلت

---

(١) غير سبكه عن سبك ما قبله ـ مع اتحادهما في المقصود ـ إبانة لما بينهما من التفاوت، فإن ما يتعلق بذواتهم من الإحياء والإماتة والحشر أدخل في الحث على الإيمان والكف عن الكفر مما يتعلق بمعايشهم وما يجري مجراها. وقدم الظرف «لكم» على المفعول الصريح لتعجيل المسرّة ببيان كونه نافعاً للمخاطبين وللتشويق إليه. (أبو السعود ١/٧٨).

(٢) البلد: «١٧».

(٣) النازعات: «٣٠».

(٤) النازعات: «٢٧».

بما يشاكِلُها كيف تُجْمَع أجزاءُ كل بدن مرة ثانية بحيث لا يَشذُّ شيء منها ولا ينضم إليها ما لم يكن معها فيعاد منها كما كان، ونظيرُه قوله تعالى ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

واعلم أن صحة الحشر مبنية على ثلاث مقدمات، وقد برهن عليها في هاتين الآيتين: أما الأولى فهي: أن مواد الأبدان قابلةٌ للجمع والحياةِ وأشارَ إلى البرهان عليها بقوله ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ فإنَّ تعاقُبَ الافتراق والاجتماع والموت والحياة عليها يدل على أنها قابلة لها بذاتها، وما بالذات يأبى أن يزول ويتغير. وأما الثانية والثالثة: فإنه عز وجل عالم بها وبمواقعها، قادر على جمعها وإحيائها، وأشار إلى وجه إثباتهما بأنه تعالى قادر على إبدائها وإبداء ما هو أعظم خَلْقاً وأعجبُ صُنْعاً فكان أَقْدَر على إعادتهم وإحيائهم، وأنه تعالى خلق ما خلق خَلْقاً مستوياً مُحْكَماً من غير تفاوت واختلال مراعٍ فيه مصالِحهم وسدُّ حاجاتهم. وذلك دليل على تناهي علمه وكمال حكمته جلت قدرته ودقت حكمتُه. وقد سَكَّنَ نافع وأبو عمرو والكِسائي: الهاء من نحو فهو وهْو تشبيهاً له بعضد.

(٣٠) ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[١] تعداد لنعمة ثالثة تعم الناس كلهم، فإن خلق آدم وإكرامَه وتفضيلَه على ملائكته بأنْ أمَرَهم بالسجود له إنعام يعمُّ ذريته. وإذْ: ظرف وُضِع لزمانٍ نسبة ماضيةٍ وَقَع فيه أخرى، كما وُضِع إذا لِزَمان نسبةٍ مستَقْبَلة يقع فيه أخرى[٢]، ولذلك يجب إضافتُهما إلى الجُمَل كحيثُ في المكان، وبُنِيتا تشبيهاً لهما بالموصولات، واستُعملتا للتعليل والمجازاة، ومحلُّهما النصب أبداً بالظرفية فإنهما من الظروف الغير المتصرِّفة لما ذكرناه، وأما قوله تعالى ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾[٣] ونحوه، فعلى تأويل: اذكر الحادث إذا كان كذا، فَحُذِف الحادثُ وأُقيم الظرفُ مقامه، وعاملُه في الآية: قالوا أو اذكُر على التأويل المذكور، لأنه جاء معمولاً له صريحاً في القرآن كثيراً، أو مُضْمَرٌ دل عليه مضمون الآية المتقدمة، مثلُ وبدأ خلْقَكم إذْ قال، وعلى هذا فالجملةُ معطوفة على خَلَقَ لكم داخلةٌ في حكم الصلة. وعن معمر[٤] أنه مزيد. والملائكةُ جمع ملأك على الأصل كالشمائل جمع شَمْأل، والتاء لتأنيث الجمع، وهو مقلوبُ مألك من الألوكة وهي: الرسالة، لأنهم وسائطُ بين الله تعالى وبين الناس، فهم رسل الله أو كالرسل إليهم. واختَلَفَ

---

(١) تلوين الخطاب بتوجيهه إلى النبي ﷺ خاصة للإيذان بأن فحوى الكلام ليس مما يُهتدى إليه بأدلة العقل، كالأمور المشاهدة التي نبه عليها الكفرة بطريق الخطاب، بل إنما طريقه الوحي الخاص به عليه السلام.
وفي التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى الكمال، مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام من الإنباء عن تشريفه عليه السلام مالا يخفى. (أبو السعود ١/ ٧٩).

(٢) وقد توضع إحداهما موضع الأخرى (فتح القدير ١/ ٦٢).

(٣) الأحقاف: «٢١».

(٤) مَعْمَر: هو مَعْمَر بن المثنى اللغوي البصري أبو عبيدة مولى بنى تيم، تيم قريش، رهط أبي بكر الصديق، أخذ عن يونس وأبي عمرو وهو أول من صنف في غريب الحديث وكان أعلم من الأصمعي وأبي زيد بالأنساب والأيام، وكان شعوبياً وقيل كان يرى رأي الخوارج الإباضيّة. صنف المجاز في غريب القرآن، الأمثال في غريب الحديث، أيام العرب، معاني القرآن، وغيرها. . .، ولد سنة اثنتي عشرة ومائة، ومات سنة تسع، وقيل ثمان، وقيل عشر، وقيل إحدى عشرة ـ ومائتين. [بغية الوعاة (٢/ ٢٩٤ ـ ٢٩٦ رقم ٢٠١٠)].

العقلاءُ في حقيقتهم بعد اتفاقهم على أنها ذواتٌ موجودة قائمة بأنفسها، فذهب أكثرُ المسلمين إلى أنها أجسام لطيفة قادرة على التشكّل بأشكال مختلفة، مستدلين بأن الرسل كانوا يرَوْنهم كذلك. وقالت طائفة من النصارى: هي النفوسُ الفاضلة البشرية المفارقةُ للأبدان. وزعم الحكماء أنهم جواهرُ مجردة مخالفةٌ للنفوس الناطقةِ في الحقيقة، منقسمةٌ إلى قسمين: قسم شأنهم الاستغراقُ في معرفة الحق جل جلاله والتنزه عن الاشتغال بغيره، كما وصفهم في محكم تنزيله فقال تعالى ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾[1] وهم العِلِّيُّون والملائكةُ المقربون. وقسم يدبر الأمر من السماء إلى الأرض على ما سبق به القضاءُ وجرى به القلم الإلهي ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾[2] وهم المدبراتُ أمراً، فمنهم سماوية، ومنهم أرضية، على تفصيل أثبته في كتاب الطوالع.

والمقولُ لهم: الملائكةُ كلهم لعموم اللفظ وعدم المخصِّص، وقيل ملائكةُ الأرض، وقيل إبليس ومن كان معه في محاربة الجن، فإنه تعالى أسكنهم في الأرض أولاً فأفسدوا فيها، فبعث إليهم إبليسَ في جُنْد من الملائكة فدمّرهم وفرقهم في الجزائر والجبال. وجاعلٌ: مِنْ جَعَل الذي له مفعولان وهما ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾ أُعمِل فيهما، لأنه بمعنى المستقبَل ومعتمِدٌ على مسندٍ إليه، ويجوز أن يكون بمعنى خالق. والخليفةُ مَنْ يخلُفُ غيرَه وينوب منابه، والهاءُ فيه للمبالغة، والمرادُ به آدم عليه الصلاة والسلام لأنه كان خليفة الله في أرضه، وكذلك كل نبي استخلفهم الله في عِمَارة الأرض وسياسة الناس وتكميل نفوسهم وتنفيذ أمره فيهم، لا لحاجةٍ به تعالى إلى من ينوبُه. بل لقُصُور المستَخْلَفِ عليه عن قَبول فيضه وتلقي أمره بغير وسط، ولذلك لم يستنبىء مَلَكاً كما قال الله تعالى ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا﴾[3] الا ترى أن الأنبياء لما فاقت قوتُهم واشتعلت قريحتُهم بحيث يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار أرسل إليهم الملائكة ومن كان منهم أعلىٰ رتبةً كلَّمهُ بلا واسطة كما كَلَّمَ موسى عليه السلام في الميقات ومحمداً ﷺ ليلة المعراج، ونظيرُ ذلك في الطبيعة أن العَظْم لما عَجَز عن قبول الغذاء من اللحم لما بينهما من التباعد جعل الباري تعالى بحكمته بينهما الغضروفَ المناسبَ لهما ليأخذ من هذا ويعطي ذلك. أو خليفةً مَنْ سَكَنَ الأرض قبلَه، أو هو وذريتُه لأنهم يَخلُفُون مَنْ قبلهم، أو يخلف بعضهم بعضاً. وإفرادُ اللفظ: إما للاستغناء بذِكْره عن ذكر بنيه كما استُغني بذكر أبي القبيلة في قولهم: مُضَر وهاشم، أو على تأويلِ مَنْ يخلُفُكم أو خَلَفاً يخلُفكم. وفائدةُ قوله تعالى هذا للملائكة تعليمُ المشاوَرَة وتعظيمُ شأن المجعول، بأن بَشَّرَ عز وجل بوجود سكان ملكُوته ولقَّبه بالخليفة قبل خلقه، وإظهارُ فضله الراجحِ على ما فيه من المفاسدِ بسؤالهم، وجوابُه وبيانُ أن الحكمة تقتضي إيجادَ ما يغلِب خيرُه، فإنَّ تركَ الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير إلى غير ذلك.

---

(١) الأنبياء: «٢٠».

(٢) التحريم: «٦».

(٣) الأنعام: «٩».

قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ تعجبٌ من أن يستخلف لعِمارة الأرض وإصلاحِهَا من يفسد فيها، أو يستخلفَ مكان أهلِ الطاعة أهلَ المعصية، واستكشافٌ عما خفِيَ عليهم من الحكمة التي بهرت تلك المفاسد وألغتها، واستخبارٌ عما يرشدُهم ويزيحُ شبهتهم كسؤال المتعلم معلِّمَه عما يختلج في صدره، وليس باعتراض على الله تعالى جلت قدرته ولا طعنٌ في بني آدم على وجه الغيبة، فإنهم أعلى من أن يُظن بهم ذلك لقوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾[1] وإنما عرفوا ذلك بإخبار من الله تعالى أو تلقٍّ من اللوح أو استنباطٌ عما رَكَزَ في عقولهم أن العصمة من خواصهم أو قياسٌ لأحد الثقلين على الآخر. والسَّفْكُ والسَّبْكُ والسَّفْحُ والشَّنُّ أنواعٌ من الصبّ، فالسفك يقال في الدم والدمع، والسبكُ في الجواهر المذابة، والسفحُ في الصب من أعلى، والشنّ في الصب من فم القربة ونحوها، وكذلك السَّنُّ. وقرىء يُسْفَكُ ـ على البناء للمفعول ـ فيكون الراجع إلى مَنْ، سواء جعل موصولاً أو موصوفاً محذوفاً، أي: يسفك الدماء فيهم.

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ حالٌ مقرِّرة لجهة الإشكال كقولك: أتُحسن إلى أعدائك وأنا الصديق المحتاج القديم؟! والمعنى: أتستخلف عصاة ونحن معصومون أحقاء بذلك؟ والمقصود منه الاستفسارُ عما رجَّحهم ـ مع ما هو متوَقع منهم ـ على الملائكة المعصومين في الاستخلاف، لا العجب والتفاخر. وكأنهم عَلِموا أن المجعول خليفةً ذو ثلاث قُوى عليها مدار أمره: شهْوية وغضبيّة تؤديان به إلى الفساد وسفك الدماء وعقلية تدعوه إلى المعرفة والطاعة. ونظروا إليها مفردة وقالوا: ما الحكمة في استخلافه؟ وهو باعتبارِ تينك القوتين لا تقتضي الحكمةُ إيجادَه فضلاً عن استخلافه، وأما باعتبار القوة العقلية فنحن نُقيم ما يتوقع منها سليماً عن معارضة تلك المفاسد. وغَفَلوا عن فضيلة كل واحدة من القوتين إذا صارت مهذبة مطواعة للعقل متمرنة على الخير كالعفة والشجاعة ومجاهدة الهوى والإنصاف، ولم يعلموا أن التركيب يفيد ما يقصر عنه الآحاد كالإحاطة بالجزئيات واستنباط الصناعات واستخراج منافع الكائنات من القوة إلى الفعل الذي هو المقصود من الاستخلاف، وإليه أشار تعالى إجمالاً بقوله.

﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ والتسبيح تَبْعيدُ الله تعالى عن السوء وكذلك التقديس، من سَبَح في الأرض والماء، وقدّس في الأرض إذا ذهب فيها وأبعد، ويقال قَدُسَ إذا طهُر لأن مطهر الشيء مبْعِدٌ له عن الأقذار. و﴿بِحَمْدِكَ﴾ في موضع الحال، أي: متلبسين بحمدك على ما ألهمتنا معرفتَك ووفقتنا

---

(١) الأنبياء: ٢٦، ٢٧.

لتسبيحك، تداركوا به ما أوهم إسنادَ التسبيح إلى أنفسهم، ونقدس لك نطهر نفوسنا عن الذنوب لأجلك، كأنهم قابَلوا الفسادَ ـ المفسَّر بالشرك عند قوم ـ بالتسبيح، وسفكَ الدماء ـ الذي هو أعظم الأفعال الذميمة ـ بتطهير النفوس عن الآثام، وقيل: نقدسك واللامُ مزيدة.

(٣١) ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ إما بخلْق علم ضروري بها فيه أو إلقاءٍ في روعه، ولا يفتقر إلى سابقة اصطلاح ليتسلسل. والتعليمُ فعلٌ يترتب عليه العلمِ غالباً، ولذلك يقال علمته فلم يتعلم. وآدم اسم أعجمي كآزر وشالخ؛ واشتقاقُه من الأُدْمة أو الأَدْمة ـ بالفتح ـ بمعنى الأسوة، أو من أديم الأرض، لما روي عنه عليه الصلاة والسلام «أنه تعالى قبض قبضة من جميعِ الأرض سهلها وحَزْنِها فخلق منها آدم»[١] فلذلك يأتي بنوه أخيافاً[٢]، أو من الأَدَم أو الأَدَمة بمعنى الأُلفة، تعسفٌ[٣] كاشتقاق إدريس من الدَّرْس، ويعقوب من العقب، وإبليس من الإبلاس. والاسم باعتبار الاشتقاق ما يكون علامةً للشيء ودليلاً يرفعه إلى الذهن مع الألفاظ والصفات والأفعال، واستعمالُه عرفاً في اللفظ الموضوع لمعنى سواءٌ كان مركباً أو مفرداً مخبَراً عنه أو خبراً أو رابطة بينهما. واصطلاحاً: في المفرد الدال على معنىً في نفسه غيرَ مقترنٍ بأحدِ الأزمنة الثلاثة. والمرادُ في الآية إما الأول أو الثاني وهو يستلزم الأول، لأن العلم بألفاظٍ من حيثُ الدَّلالة متوقِّفٌ على العلم بالمعاني، والمعنى: أنه تعالى خلقه من أجزاء مختلفة وقوًى متباينة، مستعداً لإدراك أنواع المدرَكات من المعقولات والمحسوسات والمتخيلات والموهومات، وألهمه معرفةَ ذواتِ الأشياء وخواصِّها وأسمائها وأصولِ العلوم وقوانينِ الصناعات وكيفيةِ آلاتها[٤].

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ الضميرُ فيه للمسميات المدلولِ عليها ضمناً، إذ التقديرُ أسماءَ المسميات فحذف المضاف إليه لدلالة المضاف عليه وعوِّض عنه اللام كقوله تعالى: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾[٥]

---

(١) وهو حديث صحيح.
أخرجه أبو داود (٥/ ٦٧ رقم ٤٦٩٣) والترمذي (٥/ ٢٠٤ رقم ٢٩٥٥) وأحمد في المسند (٤/ ٤٠٠ ـ ٤٠٦) وابن جرير في التفسير (١/ ٢١٤) وابن سعد في الطبقات (١/ ٢٦) وابن خزيمة في التوحيد (ص٦٤) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ١٠٤) و(٨/ ١٣٥) كلهم من حديث أبي موسى الأشعري. قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى خلقَ آدم من قبضَةٍ قبضَها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قَدْر الأرض، فجاء منهمُ الأحمرُ والأبيضُ والأسودُ وبين ذلِكَ، والسَّهْل والحزْن والخبيثُ والطيِّبُ».
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢/ ١٠٩) و«الصحيحة» (رقم: ١٦٣٠).

(٢) أخيافاً: أي متفرقون.

(٣) قوله تعسف خبر للمبتدأ (واشتقاقه..).

(٤) أورد لفظ آدم ـ عليه السلام ـ باسمه العَلَميّ لزيادة تعيين المراد بالخليفة، ولأن ذكره بعنوان الخلافة لا يلائم مقام تمهيد مباديها...
والتعليم عبارة عن فعل يترتب عليهُ العلم.. ويتوقف على استعداد المتعلم لقبول الفيض وتلقيه من جهته...
وهو السرّ في إيثاره على الإعلام والإنباء (أبو السعود ١/ ٨٤).

(٥) مريم: «٤».

وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ
وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا
وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ
وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ

لأن العرض للسؤال عن أسماء المعروضات فلا يكون المعروض نفسَ الأشياء سيما إن أريد به الألفاظ، والمرادُ به ذوات الأشياء أو مدلولات الألفاظ. وتذكيرُه ليُغَلِّب ما اشتمل عليه من العقلاء. وقرىء عرضهنّ وعرضها، على معنى عرض مسمياتهن أو مسمياتها.

﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ تبكيتٌ لهم وتنبيه على عجزهم عن أمر الخلافة، فإن التصرف والتدبير إقامةُ المَعْدلة قبل تحقق المعرفة، والوقوفُ على مراتب الاستعدادات وقَدْر الحقوق محالٌ، وليس بتكليف ليكون من باب التكليف بالمحال. والإنباءُ: إخبار فيه إعلام، ولذلك يجري مجرى كل واحد منهما.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في زعمكم أنكم أحقاء بالخلافة لعصمتكم، أو أن خلقهم واستخلافهم وهذه صفتهم لا يليق بالحكيم، وهو وإن لم يصرحوا به لكنه لازمُ مقالِهم. والتصديقُ كما يتطرق إلى الكلام باعتبار منطوقه قد يتطرق إليه بفرض ما يلزم مدلوله من الأخبار، وبهذا الاعتبار يعتري الإنشاءات.

(٣٢) ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ اعترافٌ بالعجز والقصور، وإشعارٌ بأن سؤالهم كان استفساراً ولم يكن اعتراضاً، وأنه قد بان لهم ما خَفِي عليهم من فَضْل الإنسان والحكمة في خلقه، وإظهارٌ لشكر نعمته بما عرّفهم وكشف لهم ما اعتقل عليهم، ومراعاةٌ للأدب بتفويض العلم كله إليه. وسبحان: مصدرٌ كغُفْران، ولا يكاد يستعمل إلا مضافاً منصوباً بإضمارِ فِعْله كـ«معاذَ الله». وقد أُجْرِيَ عَلَماً للتسبيح بمعنى التنزيه على الشذوذ في قوله: سبحان من علقمة الفاخر. وتصديرُ الكلام به اعتذارٌ عن الاستفسار والجهلِ بحقيقة الحال، ولذلك جُعِل مفتاحَ التوبة فقال موسى عليه السلام: ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾[1] وقال يونس: ﴿سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2].

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي لا يخفى عليه خافية. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ المُحْكِم لمبدَعاته الذي لا يفعل إلا ما فيه حكمة بالغة. وأنت فصلٌ، وقيل: تأكيدٌ للكاف كما في قولك: مررت بك أنت، وإن لم يجز: مررت بأنت، إذ التابع يسوغ فيه مالا يسوغ في المتبوع، ولذلك جاز: يا هذا الرجل، ولم يجز: يا الرجل، وقيل: مبتدأ خبره ما بعده والجملة خبر إن.

(٣٣) ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ أي: أَعْلِمْهم، وقرىء بقلْب الهمزة ياءً، وحذفِها بكسر الهاء فيهما.

﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ استحضارٌ

---

(١) الأعراف: «١٤٣».
(٢) الأنبياء: «٨٧».

لقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[١] لكنه جاء به على وجه أبسط ليكون كالحجة عليه، فإنه تعالى لما علم ما خفي عليهم من أمور السماوات والأرض وما ظهر لهم من أحوالهم الظاهرة والباطنة علم مالا يعلمون، وفيه تعريضٌ بمعاتبتهم على ترك الأوْلى، وهو أن يتوقفوا مترصِّدين لأن يبين لهم. وقيل ﴿مَا تُبۡدُونَ﴾ قولُهم: أتجعل فيها من يفسد فيها. وما ﴿تَكۡتُمُونَ﴾ استبطانُهم أنهم أحقاء بالخلافة وأنه تعالى لا يخلق خلقاً أفضل منهم. وقيل: ما أظهروا من الطاعة، وأسرَّ إبليسُ منهم من المعصية[٢]. والهمزة للإنكار دخلت حرف الجَحْد فأفادت الإثبات والتقرير[٣].

واعلم أن هذه الآيات تدل على شَرَف الإنسان ومزيةِ العلم وفضلِه على العبادة وأنه شرطٌ في الخلافة بل العمدةُ فيها، وأن التعليم يصح إسناده إلى الله تعالى، وإن لم يصح إطلاق المعلِّم عليه لاختصاصه بمن يَحْترف به، وأن اللغات توقيفية، فإن الأسماء تدل على الألفاظ بخصوص أو عموم، وتعليمُها ظاهر في إلقائها على المتعلِّم مبيِّناً له معانيها، وذلك يستدعي سابقَةَ وضعٍ، والأصلُ ينفي أن يكون ذلك الوضعُ ممن كان قبلَ آدم فيكونَ من الله سبحانه وتعالى، وأن مفهومَ الحكمة زائد على مفهومِ العلم وإلا لتكرَّر قولُه: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ وأن علوم الملائكة وكمالاتهم تقبل الزيادة، والحكماءُ مَنَعُوا ذلكَ في الطبقة العليا منهم وحملوا عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ﴾[٤] وأن آدم أفضلُ من هؤلاء الملائكة لأنه أعلم منهم والأعلم أفضل لقوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾[٥] وأنه تعالى يَعْلَم الأشياء قبل حدوثها[٦].

(٣٤) ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ لما أنبأهم بأسمائهم وعلّمهم مالم يعلموا أمرَهم بالسجود له اعترافاً بفضله وأداء لحقه واعتذاراً عما قالوا فيه، وقيل: أمَرَهم به قبل أن يسوِّي خَلْقَه لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[٧] امتحاناً لهم وإظهاراً لفضله. والعاطفُ عَطَفَ الظرفَ على الظرف السابق إن نصبته بمضمر، وإلا عَطَفَه بما يقدَّر عاملاً فيه على الجملة المتقدمة، بل القصة بأسرها على القصة الأخرى، وهي نعمة رابعة عدها عليهم. والسجودُ في الأصل تذلُّل مع تَطَامُنٍ قال

---

(١) البقرة: «٣٠».

(٢) الأولى عدم تخصيص (تبدون وتكتمون) فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

(٣) أي أن همزة الإنكار في قوله (ألم) دخلت على لم وهي تفيد النفي فأفادت الإثبات والتقرير، وذلك أن نفيَ النفي إثبات.

(٤) الصافات: «١٦٤».

(٥) الزمر: «٩».

(٦) وفي الآية لفتات بيانية أشار إليها أبو السعود وهي:
الفاء في قوله «فلما أنبأهم..» فصيحة دلت على محذوف يقتضيه المقام وذلك للإيذان بتقرره وغناه عن الذكر وللإشعار بتحققه في أسرع ما يكون.
وأظهر الأسماء في موقع الإضمار فقال «أنبأهم بأسمائهم» ولم يقل أنبأهم بهم، وذلك لإظهار كمال العناية بشأنها والإيذان بأنه ـ عليه السلام ـ أنبأهم بها على وجه التفصيل لا الإجمال وغير الأسلوب في قوله: «وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون» عن سابقه للإيذان باستمرار كتمهم... (أبو السعود ١/ ٨٦).

(٧) ص: «٧٢».

الشاعر:

تَرَى الأَكمَ فِيها سُجَّداً للحَوافِرِ

وقال آخر:

وقُلْنَ لَه اسْجُدْ لِلَيلى فَاسْجَدَا

يعني: البعيرُ إذا طأطأ رأسه. وفي الشرع: وَضْعُ الجبهة على قصد العبادة. والمأمور به إما المعنى الشرعي، فالمسجود له بالحقيقة هو الله تعالى وجَعَلَ آدمَ قِبْلةً لسجودهم تفخيماً لشأنه، أو سبباً لوجوبه، فكأنه تعالى لمّا خلقه بحيث يكون نموذجاً للمبدعات كلها بل الموجودات بأسرها ونسخةً لما في العالم الروحاني والجسماني وذريعةً للملائكة إلى استيفاء ما قُدِّر لهم من الكمالات ووُصلة إلى ظهور ما تباينوا فيه من المراتب والدرجات، أمَرَهم[1] بالسجود تذللاً لما رأوا فيه من عظيم قدرته وباهر آياته وشكراً لما أنعم عليهم بواسطته، فاللام فيه كاللام في قول حسان رضي الله تعالى عنه:

أَلَيْسَ أَوَّلَ مَنْ صَلَّى لقبلتِكُمْ[2]　　وأَعْرَفَ الناسِ بالقرآنِ والسُّنَنِ

أو في قوله تعالى ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ[2] ٱلشَّمۡسِ﴾[3].

وأما المعنى اللغوي وهو التواضُعُ لآدم تحية وتعظيماً له، كسجود إخوة يوسف له، أو التذلل والانقياد بالسعي في تحصيل ما ينوط به معاشهم ويتم به كمالهم. والكلام في أن المأمورين بالسجود الملائكةُ كلُّهم أو طائفةٌ منهم ما سبق[4].

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ امتنع عما أمر به، استكباراً من أن يتخذه وصلة في عبادة ربه، أو

---

(١) قوله أمَرَهم هي جواب لمّا خلقه بحيث...

(٢) اللام في قول حسان «لقبلتكم» بمعنى إلى، وفي قوله تعالى «الدلوك» للسببية.

(٣) الإسراء: «٧٨».

(٤) قضية سجود الملائكة لآدم عليه السلام واختلافهم في معناها، هل هي على حقيقتها الشرعية كالسجود في الصلاة أم على تأويل آخر؟
لعل الأظهر في ذلك أن المراد به هو المعنى الشرعي وهو وضع الجبهة على الأرض، إكراماً وإعظاماً واحتراماً لآدم، وهو طاعة لله عز وجل لأنها امتثال لأمره. وقد اختار هذا القول ابن كثير ١/ ٧٥ والشوكاني في فتح القدير ١/ ٦٦. وقواه الرازي وضعف ما عداه من القولين الآخرين وهما كونه جعل قبلة، إذ لا يظهر فيه شرف، والآخر وهو أن المراد بالسجود الخضوع لا الانحناء ووضع الجبهة على الأرض وهو ضعيف كما قال. وقوله تعالى في إخوة يوسف «وخرّوا له سجداً» ـ يوسف «١٠٠» ـ يؤيد ذلك فكانت تحية الناس يومئذ السجود (التفسير الكبير ٢/ ٢١٣) وقال الألوسي: (ألا ترى أن الكعبة ليست بأشرف ممن سجد إليها) روح المعاني ١/ ٢٢٨.
فسجود الملائكة لآدم يحمل على معناه الشرعي. إذ لا يعني تعظيم الكعبة والسجود إليها عبادتها...
وفي قوله تعالى «وإذ قلنا..» تغيير للأسلوب عن سابقه، ففي الأول كان الحديث عن خلق آدم واستخلافه فناسب ذكر الربوبية مضافاً إلى أحب خلفائه إليه، فقال: «وإذ قال ربك». أما هنا فالمقام مقام إيراد أمر يناسب العظمة، ففي السجود تعظيم ولما أمر بفعله لغيره أشار إلى كبريائه الغنية عن التعظيم، فقال: «وإذ قلنا» بضمير العظمة. (روح المعاني ١/ ٢٢٩).

يعظمه ويتلقاه بالتحية، أو يخدمه ويسعى فيما فيه خيره وصلاحه. والإباء: امتناع باختيار. والتكبر: أن يرى الرجل نفسه أكبر من غيره. والاستكبار طلب ذلك بالتشبع.

﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي في علم الله تعالى، أو صار منهم باستقباحه أمرَ الله تعالى إياه بالسجود لآدم اعتقاداً بأنه أفضل منه، والأفضل لا يَحْسُنُ أن يؤمر بالتخضُّع للمفضول والتوسل به كما أشعر به قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾(١) جواباً لقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾(٢). لا بترك الواجب وحده. والآيةُ تدل على أن آدم عليه السلام أفضلُ من الملائكة المأمورين بالسجود له، ولو من وجه، وأن إبليس كان من الملائكة وإلا لم يتناوله أمرُهم ولا يصح استثناؤه منهم، ولا يُرَدُّ على ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾(٣) لجواز أن يقال إنه كان من الجن فعلاً ومن الملائكة نوعاً، ولأن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما روى: أن من الملائكة ضرباً يتوالدون يقال لهم الجن ومنهم إبليس(٤). ولِمَنْ زعم أنه لم يكن من الملائكة أن يقول: إنه كان جنياً نشأ بين أظهر الملائكة وكان مغموراً بالألوف منهم فغلبوا عليه، أو الجنُّ أيضاً كانوا مأمورين مع الملائكة لكنه استغنى بذكر الملائكة عن ذكرهم، فإنه إذا علم أن الأكابرَ مأمورون بالتذلل لأحد والتوسل به علم أن الأصاغر أيضاً مأمورون به. والضمير في فسجدوا راجع إلى القبيلين، كأنه قال فسجد المأمورون بالسجود إلا إبليس، وأن من الملائكة من ليس بمعصوم وإن كان الغالب فيهم العصمة(٥)، كما أن من الإنس معصومين والغالبُ فيهم عدمُ العصمة، ولعل ضرباً من الملائكة لا يخالف الشياطين بالذات، وإنما يخالفهم بالعوارض والصفات كالبررة والفسقة من الإنس والجن يشملهما، وكان إبليس من هذا الصنف كما قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فلذلك صح عليه التغير عن حاله والهبوط من محله، كما أشار إليه بقوله عز وعلا: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾(٦) لا يقال: كيف يصح ذلك والملائكة خلقت من نور والجن من نار؟ لِمَا روت عائشةُ رضي الله تعالى عنها أنه عليه الصلاة والسلام قال: «خلقت الملائكة من النور، وخلق الجن من مارج من نار»(٧) لأنه كالتمثيل لما ذكرنا فإن المراد بالنور الجوهر المضيء والنار كذلك غيرَ أن ضوءَها مكدَّر مغمور بالدخان محذور عنه بسبب ما يصحبه من فَرْط الحرارة والإحراق فإذا صارت مهذبة مصفّاة كانت محض نور ومتى نكصت عادت الحالة الأولى جذِعة ولا تزال تتزايد حتى ينطفىء نورها ويبقى الدخان الصرف، وهذا أشبه بالصواب وأوفق للجمع بين النصوص، والعلم عند الله سبحانه وتعالى(٨).

---

(١) الأعراف: «١٢».

(٢) ص: «٧٥».

(٣) الكهف: «٥٠».

(٤) لم أقف عليه.

(٥) لعل هذا القول يخالف عموم الآية «لا يعصون الله ما أمرهم. . .» ـ التحريم «٦» ـ.

(٦) الكهف: «٥٠».

(٧) مسلم (٢٩٩٦) وأحمد (٦/ ١٥٣، ١٦٨).

(٨) لا تنافي بين أن يكون إبليس كان من الجن وأنه من الملائكة، فلعل الله أن يكون سلبه الصفات الملكية وألبسه الصفات الشيطانية فعصى عند ذلك، والملَك ما دام ملَكاً لا يعصي (روح المعاني ١/ ٢٣٠).

ومن فوائد الآية استقباح الاستكبار وأنه قد يفضي بصاحبه إلى الكفر، والحث على الائتمار لأمره وترك الخوض في سره، وأن الأمر للوجوب، وأن الذي علم الله تعالى من حاله أنه يتوفى على الكفر هو الكافر على الحقيقة، إذ العبرة بالخواتم وإن كان بحكم الحال مؤمناً وهو الموافاة المنسوبة إلى شيخنا أبي الحسن الأشعري رحمه الله تعالى.

(٣٥) ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ السكنى من السكون لأنها استقرار ولَبث، و﴿أَنتَ﴾ تأكيد أكّد به المستكنّ ليصح العطفُ عليه، وإنما لم يخاطبهما أولاً تنبيهاً على أنه المقصود بالحكم والمعطوف عليه تَبَعٌ له. والجنة دار الثواب، لأن اللام للعهد ولا معهود غيرها. ومن زعم أنها لم تُخلَق بعدُ قال: إنه بستان كان بأرض فلسطين أو بين فارس وكرمان خَلَقَه الله تعالى امتحاناً لآدم، وحَمَلَ الإهباط على الانتقال منه إلى أرض الهند(١) كما في قوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾(٢) ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ واسعاً رافهاً، صفة مصدر محذوف.

﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أيَّ مكان من الجنة شئتما، وسع الأمر عليهما إزاحةً للعُملة، والعذر في التناول من الشجرة المنهي عنها من بين أشجارها الفائتة للحصر.

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيه مبالغاتٌ، تعليقُ النهي بالقرب الذي هو من مقدمات التناول مبالغةً في تحريمه، ووجوبُ الاجتناب عنه، وتنبيهاً على أن القرب من الشيء يورِّث داعية، وميلاً يأخذُ بمجامع القلب ويلهيه عما هو مقتضى العقل والشرع، كما روي «حبك الشيء يعمي ويصم»(٣) فينبغي أن لا يحوما حول ما حرم الله عليهما مخافةَ أن يقعا فيه، وجعله سبباً لأن يكونا من الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب المعاصي، أو بنقصِ حظهما بالإتيان بما يُخِلِ بالكرامة والنعيم، فإن الفاء تفيد السببية سواء جُعِلَتِ للعطف على النهي أو الجواب له. والشجرة هي الحنطة أو الكَرْمة أو التينة أو شجرةٌ من أكل منها أحدث، والأَولى أن لا تُعَيَّن من غير قاطع كما لم تعين في الآية، لعدم توقف ما هو المقصود عليه. وقرىء بكسر الشين، وتِقْرَبا بكسر التاء، وهذي بالياء.

(٣٦) ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ حِينَ أصدر زلتَهما عن الشجرة وحملهما على الزَّلة بسببها، ونظير «عن» هذه في قوله تعالى ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾(٤). أو أزلهما عن الجنة بمعنى أذهبهما، ويعضده قراءة حمزة فَأَزَالهما وهما متقاربان في المعنى، غير أن أزلّ يقتضي عَثْرة مع الزوال، وإزلاله قوله: ﴿هَلْ

---

(١) هذا القول للمعتزلة، وقد قال عنه الألوسي: (وكون حَمْلها على ما ذُكِرَ يجري مجرى الملاعبة بالدين والمراغمة لإجماع المسلمين غير مسلَّم) روح المعاني ١/ ٢٣٣.

(٢) البقرة: «٦١».

(٣) أخرجه أبو داود من حديث أبي الدرداء مرفوعاً (٥١٣٠) وأخرجه أحمد (٥/ ١٩٤، ٦/ ٤٥٠) وابن عدي (٢/ ٤٧٢) في ترجمة أبي بكر بن أبي مريم. والبخاري في التاريخ الكبير (٣/ ١٧٢) ترجمة خالد بن محمد الثقفي.
والحديث ضعيف لأن فيه أبي بكر بن أبي مريم وهو ضعيف جداً كما في التقريب (٢/ ٣٩٨).

(٤) الكهف: «٨٢».

أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[١] وقوله: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾[٢] ومقاسمته إياها بقوله: ﴿إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[٣]. واختُلف في أنه تَمَثَّل لهما فقاوَلَهما بذلك[٤]، أو ألقاه إليهما على طريق الوسوسة، وأنه كيف توصل إلى إزلالهما بعدما قيل له: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾[٥] فقيل: إنه منع من الدخول على جهة التَّكْرمة كما كان يدخل مع الملائكة، ولم يمنع أن يدخل للوسوسة ابتلاء لآدم وحواء. وقيل: قام عند الباب فناداهما. وقيل: تمثل بصورة دابة فدخل ولم تعرفه الخَزَنَة. وقيل: دخل في فم الحيّة حتى دخلت به. وقيل: أرسل بعض أتباعه فأزلهما، والعلم عند الله سبحانه وتعالى.

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أي من الكرامة والنعيم.

﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟﴾ خطاب لآدم عليه الصلاة والسلام وحواء لقوله سبحانه وتعالى: ﴿قال اهبطا منها جميعاً﴾[٦]. وجمعُ الضمير لأنهما أصلا الجِنْس فكأنهما الإنس كلهم. أو هما وإبليس أُخرج منها ثانياً بعدما كان يدخلها للوسوسة، أو دخلها مسارقة أو من السماء.

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ حال استغني فيها عن الواو بالضمير، والمعنى متعادِين يبغي بعضكم على بعض بتضليله.

﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ موضع استقرار، أو استقرارٍ.

﴿وَمَتَٰعٌ﴾ تمتع. ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ يريد به وقت الموت أو القيامة.

(٣٧) ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ استقبلها بالأخذ والقبول والعمل بها حين علمها. وقرأ ابن كثير بنصب آدم ورفعِ الكلمات على أنها استقبلته وبلَغته وهي قوله تعالى ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾[٧] الآية، وقيل: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: يا رب ألم تخلقني بيدك؟ قال: بلى، قال: يا رب ألم تنفخ في الروح من روحك؟ قال: بلى، قال: يا رب ألم تسبق رحمتك غضبك؟ قال: بلى، قال: ألم تسكني جنتك؟ قال: بلى، قال: يا رب إن تبت وأصلحت أراجعي أنت إلى الجنة؟ قال: نعم[٨]. وأصل الكلمة: الكَلْم، وهو التأثير المدْرَك بإحدى الحاستين السمع والبصر

---

(١) طه: «١٢٠».

(٢) الأعراف: «٢٠».

(٣) الأعراف: «٢١».

(٤) وهذا ما ذهب إليه الجمهور كما ذكر الشوكاني في فتح القدير ١/ ٦٨.

(٥) ص: «٧٧».

(٦) طه: «١٢٣».

(٧) الأعراف: «٢٣».

(٨) وهو أثر موقوف على ابن عباس، بسند حسن.
أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٤٥) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي وعزاه السيوطي في الدر المنثور (١/ ١٤٢) إلى الغريابي، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في التوبة وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، =

كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ
هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ
ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ
بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ

كالكلام والجراحة والحركة(١).

﴿فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾ رجع عليه بالرحمة وقبول التوبة، وإنما رتبه بالفاء على تلقِّي الكلمات لتضمُّنه معنى التوبة: وهو الاعتراف بالذنب والندم عليه والعزم على أن لا يعود إليه. واكتفي بذكر آدم لأن حواء كانت تبعاً له في الحكم ولذلك طوي ذِكْرُ النساء في أكثر القرآن والسنن.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ الرجاع على عباده بالمغفرة، أو الذي يكثر إعانتهم على التوبة، وأصل التوبة: الرجوع، فإذا وصف بها العبد كان رجوعاً عن المعصية، وإذا وصف بها الباري تعالى أريد بها الرجوع عن العقوبة إلى المغفرة.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ المبالغ في الرحمة، وفي الجمع بين الوصفين، وَعْدٌ للتائب بالإحسان مع العفو.

(٣٨) ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ﴾ كرِّر للتأكيد، أو لاختلاف المقصود فإن الأول دل على أن هبوطَهم إلى دارِ بليَّة يتعادون فيها ولا يخلدون، والثاني أشعر بأنهم أُهْبِطوا للتكليف، فمن اهتدى الهدى نجا ومن ضلَّه هلك، والتنبيه على أن مخافة الإهباط المقترن بأحد هذين الأمرين وحدها كافية للحازم أن تعوقه عن مخالفة حكم الله سبحانه وتعالى، فكيف بالمقترن بهما؟ ولكنه نسي ولم نجد له عزماً، وأن كل واحد منهما كفى به نَكالاً لمن أراد أن يذَّكر. وقيل الأول من الجنة إلى السماء الدنيا، والثاني منها إلى الأرض وهو كما ترى. وجميعاً حالٌ في اللفظ تأكيدٌ في المعنى كأنه قيل: اهبطوا أنتم أجمعون، ولذلك لا يستدعي اجتماعُهم على الهبوط في زمان واحد كقولك: جاؤوا جميعاً ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ الشرط الثاني مع جوابه جواب الشرط الأول، وما مزيدة أُكِّدتْ به إنْ ولذلك حَسُن تأكيدُ الفعل بالنون وإن لم يكن فيه معنى الطلب، والمعنى: إن يأتينكم مني هدىً بإنزال أو إرسال فمن تبعه منكم نجا وفاز. وإنما جيء بحرف الشك، وإتيانُ الهدى كائنٌ لا محالة لأنه محتمَلٌ في نفسه غيرَ واجب عقلاً. وكرر لفظَ الهدى ولم يُضمر لأنه أراد بالثاني أعمَّ من الأول، وهو ما أتى به الرسل واقتضاه العقل، أي: فمن تبع ما أتاه مراعياً فيه ما يشهد به العقل فلا خوف عليهم فضلاً عن أن يَحِلَّ بهم مكروه، ولا هُمْ يفوتُ عنهم محبوب فيحزنوا عليه، فالخوف

= وابن مردويه.

(١) قوله تعالى: «فتلقى آدم من ربه..» تعرضٌ لعنوان الربوبية مع الإضافة إليه ـ عليه السلام ـ للتشريف والإيذان بعلّيته لإلقاء الكلمات المدلول عليه بتلقيها. (أبو السعود ١/ ٩٢).
وإظهار الهدى مضافاً إلى ضمير الجلالة لتعظيمه وتأكيد وجوب اتباعه (أبو السعود ١/ ٩٣).

على المتوقَّع والحزنُ على الواقع، نفَى عنهم العقاب وأثبت لهم الثواب على آكدِ وجهٍ وأبلغِه. وقرىء هُدَيَّ على لغة هديل ولا خوفَ بالفتح.

(٣٩) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ عطفٌ على فمن تَبع إلى آخره قسيم له كأنه قال: ومن لم يتبع بل كفروا بالله وكذبوا بآياته، أو كفروا بالآيات جَنَاناً وكذبوا بها لساناً، فيكون الفعلان متوجهين إلى الجارّ والمجرور. والآيَةُ في الأصل العلامةُ الظاهرة، ويقال للمصنوعات من حيثُ إنها تَدُل على وجود الصانع وعلمه وقدرته، ولكل طائفة من كلمات القرآن المتميزة عن غيرها بفصل، واشتقاقُها من آي لأنها تبيِّن آياً من أي أو من أوى إليه، وأصلها أَيَة أو أَوْيَة كتَمْرة فأُبدلت عينُها ألفاً على غير قياس أو أَيِيَة أو أَوَيَة كَرَمَكَة[١] فأعلت أو آيِيَة كقائِلة فحذفت الهمزة تخفيفاً. والمراد بآياتنا الآياتُ المنزلة أو ما يعمها والمعقولةُ. وقد تمسكت الحَشَوِية[٢] بهذه القصة على عدم عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من وجوه:

الأول: أن آدم صلوات الله عليه كان نبياً، وارتكب المنهيَّ عنه والمرتكبُ له عاص.

والثاني: أنه جُعِل بارتكابه من الظالمين والظالمُ ملعون لقوله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[٣].

والثالث: أنه تعالى أَسْنَد إليه العصيان والغيّ فقال ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾[٤].

والرابع: أنه تعالى لقنَّه التوبة، وهي الرجوع عن الذنب والندم عليه.

والخامس: اعترافُه بأنه خاسر لولا مغفرةُ الله تعالى إياه بقوله: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ والخاسر من يكون ذا كبيرة.

والسادس: أنه لو لم يذنب لم يجرِ عليه ما جرى. والجواب من وجوه:

الأول: أنه لم يكن نبياً حينئذ، والمدعي مطالَبٌ بالبيان.

والثاني: أن النهي للتنزيه، وإنما سُمِّي ظالماً وخاسراً لأنه ظلم نفسه وخسِر حظَّه بترك الأَوْلى له. وأما إسناد الغي والعصيان إليه فسيأتي الجواب عنه في موضعه إن شاء الله تعالى[٥]. وإنما أُمر بالتوبة تلافياً لما فات عنه، وجرى عليه ما جرى معاتبة له على ترك الأَوْلى ووفاء بما قاله للملائكة قبل خلقه.

---

(١) الرَّمكة هي: الأنثى من البراذين (المصباح المنير مادة رمك).

(٢) الحشوية: هم قوم تمسكوا بالظواهر فذهبوا إلى التجسيم وغيره وهي من الفرق الضالة. قال السبكي في «شرح أصول ابن الحاجب» الحشوية طائفة ضلُّوا عن سواء السبيل، يجرون آيات الله على ظاهرها ويعتقدون أنه المراد، سموا بذلك لأنهم كانوا في حلقة الحسن البصري، فوجدهم يتكلمون كلاماً. فقال: ردُّوا هؤلاء إلى حشاء القلعة فنسبوا إلى حشاء فهم حشوية وقيل غير ذلك. انظر «منهاج السنة النبوية» لابن تيمية (٢/ ٥٢٠).

(٣) هود: «١٨».

(٤) طه: «١٢١».

(٥) قوله: «وعصى آدم ربه فغوى» ـ طه: «١٢١» ـ غوى: أي ضلّ عن المطلوب وخاب حيث طلب الخلد بأكل الشجرة، أو ضل عن الرشد حيث اغتر بقول العدو ـ (تفسير البيضاوي ٢/ ٦٠) ـ.

والثالث: أنه فَعَلَه ناسياً لقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾(١) ولكنه عوتب بترك التحفُّظ عن أسباب النسيان، ولعله وإن حُطَّ عن الأمة لم يُحَطّ عن الأنبياء لِعِظَم قدرهم كما قال عليه الصلاة والسلام «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأولياء، ثم الأمثل فالأمثل»(٢). أو أدى فعلُه إلى ما جرى عليه على طريق السببية المقدَّرة دون المؤاخَذة على تناوله، كتناول السم على الجاهل بشأنه. لا يقال إنه باطل لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا﴾(٣)، و﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾(٤) الآيتين، لأنه ليس فيهما ما يدل على أن تناولَه حين ما قال له إبليس، فلعل مقاله أوْرَث فيه ميلاً طبيعياً، ثم إنه كف نفسَه عنه مراعاة لحكم الله تعالى إلى أن نسي ذلك، وزال المانع فحَمَلَهُ الطبْع عليه.

والرابع: أنه عليه السلام أقدم عليه بسبب اجتهادٍ أخطأ فيه، فإنه ظن أن النهي للتنزيه، أو الإشارةِ إلى عين تلك الشجرة فتناول من غيرها من نوعها وكان المرادُ بها الإشارة إلى النوع، كما روي أنه عليه الصلاة والسلام «أخذ حريراً وذهباً بيده وقال: «هذان حرام على ذكور أمتي حل لإناثها»(٥). وإنما جرى عليه ما جرى تعظيماً لشأن الخطيئة ليجتنبها أولادُه. وفيها دَلالة على أن الجنة مخلوقةٌ وأنها في جهة عالية، وأن التوبةَ مقبولةٌ، وأن متبعَ الهدى مأمونُ العاقبة، وأن عذاب النار دائم، وأن الكافر فيه مخلَّد، وأن غيره لا يخلَّدُ فيه بمفهوم قوله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

واعلم أنه سبحانه وتعالى لما ذكر دلائل التوحيد والنبوةَ والمعاد، وعقَّبها تعداد النعم العامة تقريراً لها وتأكيداً، فإنها من حيث إنها حوادثُ محكمةٌ تَدُل على مُحْدِثٍ حكيم له الخلق والأمر وحده لا شريك له، ومن حيثُ إن الإخبار بها على ما هو مثبَت في الكتب السابقة ممن لم يتعلمْها ولم يمارس شيئاً منها إخبارٌ بالغيب معجِز يدل على نبوة المُخْبِر عنها، ومن حيثُ اشتمالُها على خلق الإنسان وأصولِه وما هو أعظم من ذلك تدلُّ على أنه قادر على الإعادة كما كان قادراً على الإبداء، خاطب أهلَ العلم والكتابِ منهم وأمرهم أن يذكروا نعم الله تعالى عليهم ويُوفوا بعهده في اتباع الحق واقتفاء الحجج ليكونوا أول من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وما أنزل عليه فقال:

(٤٠) ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي أولادُ يعقوب، والابن من البِناء لأنه مَبْنى أبيه، ولذلك يُنسب المصنوع

---

(١) طه: «١١٥».

(٢) أخرجه بدون قوله «ثم الأولياء» الترمذي (٢٣٩٨) وقال حسن صحيح، وأخرجه ابن ماجة (٤٠٢٣) وأحمد (١/ ١٧٢) والحاكم (١/ ٤١) وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) الأعراف: «٢٠».

(٤) الأعراف: «٢١».

(٥) أخرجه أحمد (١/ ١١٥) وأبو داود (٢/ ٣٣٠ رقم ٤٠٥٧) والنسائي (٨/ ١٦٠ رقم ٥١٤٥) وابن ماجة (٢/ ١١٨٩ رقم ٣٥٩٥) وابن حبان في الموارد رقم (١٤٦٥) من حديث علي.
ورجال إسناده ثقات غير أبي أفلح الهمدَاني، وثقه ابن حبان وقال ابن القطان مجهول.
لكن للحديث شاهد من حديث أبي موسى، وشاهد آخر من حديث ابن عباس، وشاهد ثالث من حديث ابن عمر انظر تخريجها غاية المرام للألباني (رقم ٧٧).
وخلاصة القول أن الحديث صحيح بشواهده والله أعلم.

إلى صانعه فيقال: أبو الحرب وبنت الفكر. وإسرائيلُ لقبُ يعقوبَ عليه السلام ومعناه بالعبرية: صفوة الله، وقيل: عبدالله، وقرىء إسرائِلَ بحذف الياء وإسرالَ بحذفهما وإسراييل بقلب الهمزة ياء.

﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي بالتفكر فيها والقيام بشكرها، وتقييدُ النعمة بهم لأن الإنسان غيورٌ حسود بالطبْع، فإذا نظر إلى ما أنعم الله على غيره حَمَلَه الغَيْرةُ والحسد على الكُفْران والسَّخَط، وإن نظر إلى ما أنعم الله به عليه حَمَلَه حب النعمة على الرضى والشكر. وقيل أراد بها ما أنعم الله به على آبائهم من الإنجاء من فرعون والغرق ومن العفو عن اتخاذ العجل وعليهم من إدراك زمن محمد صلى الله عليه وسلم. وقرىء ادَّكِرُوا[١] والأصل إذ تكروا. ونعمتي بإسكان الياء وَقْفاً وإسقاطِها دَرْجاً هو مذهب من لا يحرِّكُ الياء المكسورَ ما قبلها.

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي ﴾ بالإيمان والطاعة.

﴿ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ بحسن الإثابة والعهد يضاف إلى المُعَاهِدِ والمُعَاهَدِ، ولعل الأول مضاف إلى الفاعل والثاني إلى المفعول، فإنه تعالى عَهِد إليهم بالإيمان والعمل الصالح بنصب الدلائل وإنزال الكتب، ووَعَدَ لهم بالثواب على حسناتهم، وللوفاء بهما عرض عريض فأول مراتب الوفاء منا هو الإتيان بكلمتي الشهادة، ومِنَ[٢] الله تعالى حَقْنُ الدم والمال، وآخرُها منا الاستغراق في بحر التوحيد بحيث يغفُل عن نفسه فضلاً عن غيره، ومن الله تعالى: الفوز باللقاء الدائم. وما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أوفوا بعهدي في اتباع محمد صلى الله عليه وسلم، أوف بعهدكم في رفع الآصار والأغلال[٣]. وعن غيره أوفوا بأداء الفرائض وترك الكبائر أُوفِ بالمغفرة والثواب. أو أوْفوا بالاستقامة على الطريق المستقيم أوف بالكرامة والنعيم المقيم، فبالنظر إلى الوسائط. وقيل كلاهما مضاف إلى المفعول والمعنى: أوفوا بما عاهدتموني من الإيمان والتزام الطاعة أوف بما عاهدتكم من حسن الإثابة. وتفصيل العهدين في سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾[٤] إلى قوله: ﴿ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾[٥]. وقرىء أُوَفِّ بالتشديد للمبالغة.

﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ فيما تأتون وتذرون وخصوصاً في نقض العهد، وهو آكَدُ في إفادة التخصيص من إياك نعبد لما فيه مع التقديم من تكرير المفعول والفاءِ الجزائية الدالة على تضمن الكلام معنى الشرط، كأنه قيل: إن كنتم راهبين شيئاً فارهبون. والرهبة: خوف مع تحرّز. والآية متضمنة للوعد والوعيد دالة على وجوب الشكر والوفاء بالعهد، وأن المؤمن ينبغي أن لا يخاف أحداً إلا الله تعالى[٦].

(٤١) ﴿ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ ﴾ إفرادٌ للإيمان بالأمر به والحث عليه لأنه المقصودُ

---

(١) قرىء بالدال المهملة المشددة على وزن افتعلوا (روح المعاني ١/ ٢٤٢).

(٢) قوله ومن الله تعالى، أي والعهد من الله تعالى...

(٣) أخرج ابن جرير في التفسير (١/ ٢٥٠) نحوه بسند ضعيف، لضعف محمد بن حميد الرازي. [انظر الجرح والتعديل (٧/ ٢٣٢) والمجروحين (٢/ ٣٠٣) والتقريب (٢/ ١٥٦)].

(٤) المائدة: «١٢».

(٥) المائدة: «١٢».

(٦) خصص بني إسرائيل بالذكر والتذكير لأنهم أوفر الناس نعمة وأكثرهم كفراً بها (أبو السعود ١/ ٩٤).

بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ

والعمدةُ للوفاء بالعهود، وتقييدُ المُنَزَّل بأنه مصدِّقٌ لما معهم من الكتب الإلهية من حيث إنه نازلٌ حسبما نعت فيها، أو مطابقٌ لها في القَصص والمواعيد والدعاء إلى التوحيد والأمر بالعبادة والعدل بين الناس والنهي عن المعاصي والفواحش، وفيما يخالفها من جزئيات الأحكام بسبب تفاوت الأعصار في المصالح من حيث إن كل واحدة منها حقّ بالإضافة إلى زمانها، مُرَاعى فيها صلاح من خوطب بها، حتى لو نزل المتقدم في أيام المتأخر لنزل على وِفْقه، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «لو كان موسى حياً لما وسعه إلا اتباعي»[1] تنبيه على أن اتباعها لا ينافي الإيمان به، بل يوجبه ولذلك عرض بقوله:

﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ بأن الواجب أن يكونوا أول من آمن به، ولأنهم كانوا أهلَ النظر في معجزاته والعلم بشأنه والمستفتحين به والمبشِّرين بزمانه. و﴿أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ وقع خبراً عن ضمير الجمع بتقدير: أول فريق أو فوج، أو بتأويل لا يكن كل واحد منكم أول كافر به، كقولك كسانا حُلّةً. فإن قيل: كيف نُهوا عن التقدم في الكفر وقد سبقهم مشركو العرب؟. قلت: المراد به التعريض لا الدَّلالة على ما نَطَق به الظاهر، كقولك: أما أنا فلست بجاهل، أو ولا تكونوا أول كافر به من أهل الكتاب، أو ممن كفر بما معه فإنَّ من كفر بالقرآن فقد كفر بما يصدقه، أو مثل من كفر من مشركي مكة. وأوّلَ: أفعَلَ لا فِعَلَ له، وقيل: أصله أوْأَل من وَأَل، فأُبدلت همزته واواً تخفيفاً غير قياسي أو أأْوَل من آلَ فقُلِبت همزته واواً وأدغمت.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ولا تستبدلوا بالإيمان بها والاتباع لها حظوظ الدنيا، فإنها وإن جَلّت قليلة مستَرْذَلةٌ بالإضافة إلى ما يفوت عنكم من حظوظ الآخرة بترك الإيمان. قيل: كان لهم رياسة في قومهم ورسوم وهدايا منهم فخافوا عليها لو اتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاختاروها عليه. وقيل:

---

(١) وهو حديث حسن.
أخرجه أحمد في المسند (٣/٣٨٧) من طريق مجالد عن الشعبي عن جابر بن عبدالله، أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه النبي ﷺ، فغضب، فقال: أمتهوِّكون فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده، لو أن موسى صلى الله عليه وسلم كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني» ومتهوِّكون: متحيِّرون.
وكذا أخرجه الدارمي (١/ ١١١٥) وابن عبدالبر في «جامع بيان العلم» (٢/ ٤٢) وفيه مجالد بن سعيد الهمداني: ليس بالقوي وقد تغير في آخر عمره. ولكن للحديث شواهد.
انظرها في إرواء الغليل للألباني (٦/ ٣٤ ـ ٣٨) فهو بها حسن.

كانوا يأخذون الرّشَى فيحرِفون الحق ويكتمونه[١].

﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ بالإيمان واتباع الحق والإعراض عن الدنيا. ولما كانت الآية السابقة مشتملةً على ما هو كالمبادي لما في الآية الثانية فُصِّلت بالرهْبة التي هي مقدمة التقوى، ولأن الخطاب بها عمّ العالِمَ والمقلِّد أمرهم بالرهبة التي هي مبدأ السلوك، والخطابُ بالثانية لما خصَّ أهلِ العلم أمرهم بالتقوى التي هي منتهاه.

(٤٢) ﴿وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ عطف على ما قبله. واللَّبْس الخلْط وقد يلزمه جعْلُ الشيء مشْتَبِهاً بغيره، والمعنى لا تخلُطوا الحق المنزل عليكم بالباطل الذي تخترعونه وتكتمونه حتى لا يميز بينهما، أو ولا تجعلوا الحق ملتبساً بسبب خلط الباطل الذي تكتبونه في خلاله أو تذكرونه في تأويله.

﴿وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ﴾ جَزْم داخل تحت حكم النهي، كأنهم أُمروا بالإيمان وترك الضلال ونُهوا عن الإضلال بالتلبيسِ على من سمع الحق والإخفاءِ على من لم يسمعه. أو نصبٌ بإضمار أنْ على أنّ الواو للجمع بمعنى مع، أي لا تجمعوا لَبْس الحق بالباطل وكِتْمانه، ويعضده أنه في مصحف ابن مسعود وتكتمون أي وأنتم تكتمون بمعنى كاتمين، وفيه إشعار بأن استقباحَ اللبْس لما يصحبه من كتمان الحق.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ عالمين بأنكم لابِسون كاتمون، فإنه أقبح، إذ الجاهل قد يُعذر.

(٤٣) ﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يعني صلاة المسلمين وزكاتَهم فإن غيرهما كلا صلاة ولا زكاة. أمَرَهم بفروع الإسلام بعد ما أمرهم بأصوله، وفيه دليل على أن الكفار مخاطَبون بها. والزكاة: من زكا الزرع، إذا نما، فإن إخراجها يستجلب بركة في المال ويثمر للنفس فضيلةَ الكَرَم. أو من الزكاء بمعنى: الطهارة، فإنها تطهِّر المال من الخبث والنفس من البخل.

﴿وَٱرْكَعُوا مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي في جماعتهم، فإن صلاة الجماعة تفضُل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة لما فيها من تظاهر النفوس. وعبَّر عن الصلاة بالركوع احترازاً عن صلاة اليهود. وقيل الركوع: الخضوع والانقياد لما يلزمهم الشارع، قال الأضبط السعدي[٢]:

لا تـــذلَّ الضَّعِيـــفَ عَلَّـــكَ أَنْ تَـــرْ ... كَـــعَ يَـــوْمـــاً والـــدهـــرُ قَـــدْ رَفَعَـــهْ

(٤٤) ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾ تقرير مع توبيخ وتعجيب. والبرُّ: التوسع في الخير، من البَر وهو

---

(١) عبّر عن المشترى ـ الذي هو العمدة في عقود المعاوضة ـ بالثمن الذي شأنه أن يكون وسيلة فيها، وقرنت الآيات ـ التي حقها أن يتنافس فيها المتنافسون ـ بالباء التي تصحب الوسائل إيذاناً بتعكيسهم، حيث جعلوا ما هو المقصد الأصلي وسيلةً والوسيلةَ مقصِداً (أبو السعود ١/ ٩٦).

(٢) هو الأضبط بن مَريع بن عوف بن كعب السعدي التميمي، شاعر جاهلي قديم أساء إليه قومه، فانتقل عنهم إلى آخرين ففعلوا كالأولين، فقال: بكل وادٍ بنو سعدا يعني قوم وهو صاحب الأبيات التي منها:

واقنَـــعْ مـــن الـــدهـــر مـــا أتـــاك بـــه ... مـــن قـــرَّ عينـــاً بعيشـــه نفعَـــهْ

وصِـــلْ حبـــالَ البعيـــد إن وَصَـــلَ الـ ... ـحبـــلَ واقـــصِ القـــريـــب إن قطعَـــهْ

[الأعلام للزركلي (١/ ٣٣٤)]. والأبيات من المنسرح. =

الفضاء الواسع يتناول كل خير، ولذلك قيل البر ثلاثة: بر في عبادة الله تعالى، وبر في مراعاة الأقارب. وبر في معاملة الأجانب.

﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ وتتركونها من البر كالمنسيات، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في أحبار المدينة، كانوا يأمرون سراً من نصحوه باتباع محمد صلى الله عليه وسلم ولا يتبعونه[١]. وقيل: كانوا يأمرون بالصدقة ولا يتصدقون ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ تبكيت كقوله ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٢] أي تتلون التوراة، وفيها الوعيد على العناد وترك البر ومخالفة القول العمل.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قبح صنيعكم فيصدَّكم عنه، أو أفلا عقْل لكم يمنعكم عما تعلمون وخامة عاقبته. والعقل في الأصل الحبس، سمي به الإدراك الإنساني لأنه يحبسه عما يُقبح ويعْقِله على ما يحسن، ثم القوة التي بها النفس تدرك هذا الإدراك. والآية ناعية على من يعظ غيره ولا يتعظ بنفسه سوءَ صنيعه وخبثَ نفسه، وأن فعله فعلَ الجاهل بالشرع أو الأحمق الخالي عن العقل، فإن الجامع بينهما تأبى عنه شَكِيمته، والمراد بها حث الواعظ على تزكية النفس والإقبالُ عليها بالتكميل لتقوم فيُقِيم غيره، لا منعَ الفاسق عن الوعظ فإن الإخلال بأحد الأمرين المأمور بهما لا يوجب الإخلال بالآخر.

(٤٥) ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ متصل بما قبله، كأنهم لما أُمِرُوا بما يشُق عليهم لما فيه من الكُلفة وترك الرياسة والإعراضِ عن المال عولجوا بذلك، والمعنى: استعينوا على حوائجكم بانتظار النُّجح والفرج توكلاً على الله، أو بالصوم الذي هو صبر عن المفطرات لما فيه من كسر الشهوة وتصفية النفس. والتوسل بالصلاة والالتجاء إليها، فإنها جامعة لأنواع العبادات النفسانية والبدنية، من الطهارة وستر العورة وصرف المال فيهما، والتوجه إلى الكعبة والعكوف للعبادة، وإظهار الخشوع بالجوارح، وإخلاص النية بالقلب، ومجاهدة الشيطان، ومناجاة الحق، وقراءة القرآن، والتكلم بالشهادتين وكف النفس عن الأطيبين حتى تُجَابُوا إلى تحصيل المآرب وجبر المصائب، روي أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة[٣]. ويجوز أن يراد بها الدعاء:

﴿وَإِنَّهَا﴾: أي وإن الاستعانة بهما أو الصلاة. وتخصيصُها بردِّ الضمير إليها لعظم شأنها واستجماعها ضروباً من الصبر. أو جملة ما أمروا بها ونهوا عنها.

---

(١) أخرجه الواحدي في «أسباب النزول» ص٢١ وفيه قال: ابن عباس في رواية الكلبي، عن أبي حاتم، بالإسناد الذي ذكر: نزلت في يهود المدينة كان الرجل منهم يقول لصهره ولذوي قرابته ولمن بينهم وبينه رَضاعٌ من المسلمين: اثبتْ على الدين الذي أنت عليه، وما يأمرك به هذا الرجل ـ يعنون محمداً ﷺ ـ فإن أمره حق، فكانوا يأمرون الناس بذلك ولا يفعلونه». والكلبي متروك كما تقدم في غير مرة.

(٢) البقرة: «٢٢».

(٣) وهو حديث ضعيف:
أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٣٨٨) وأبو داود في السنن (٢/ ٧٨ رقم ١٣١٩) والمروزي في تعظيم الصلاة (رقم: ٢١٢) والخطيب في تاريخ بغداد (٦/ ٢٧٤) من حديث حذيفة.
وقال الألباني في تخريج المشكاة رقم (١٣٢٥): «إسناده ضعيف فيه محمد بن عبدالله الدؤلي، عن عبدالعزيز أخي حذيفة، وهما مجهولان، والخلاصة أن الحديث ضعيف والله أعلم.

عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ
يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ
وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ

﴿ لَكَبِيرَةٌ ﴾ لثقيلة شاقة كقوله تعالى: ﴿ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾[١].

﴿ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ أي المخبتين، والخشوعُ الإخباتُ ومنه الخَشْعة للرملة المتطامنة. والخضوع اللين والانقياد، ولذلك يقال الخشوع بالجوارح والخضوع بالقلب.

(٤٦) ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ أي يتوقعون لقاء الله تعالى ونيْلَ ما عنده، أو يتيقنون أنهم يحشرون إلى الله فيجازيَهم[٢]، ويؤيده أن في مصحف ابن مسعود ﴿يعلمون﴾ وكأن الظنّ لمّا شابَهَ العلم في الرُّجحان أُطلق عليه لتضمُّن معنى التوقع[٣]، قال أوس بن حجر[٤]:

فأرسلتُهُ مُسْتَيْقِنَ الظنِّ أنَّهُ مخالِطُ ما بينَ الشَّراسِيفِ جائِفُ

وإنما لم تثقُل عليهم ثقلها على غيرهم فإن نفوسهم مرتاضَة بأمثالها متوقِّعة في مقابلتها ما يُستحقر لأجله مشاقُّها ويُستلذ بسببه متاعبها، ومن ثمة قال عليه الصلاة والسلام «وجعلت قرة عيني في الصلاة»[٥].

(٤٧) ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ كرره للتأكيد وتذكير التفضيل الذي هو أجل النعم خصوصاً، وربَطَه بالوعيد الشديد تخويفاً لمن غفل عنها وأخل بحقوقها.

﴿ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ ﴾ عطف على نعمتي.

﴿ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي عالمي زمانهم، يريد به تفضيلَ آبائهم الذين كانوا في عصر موسى عليه الصلاة

---

(١) الشورى: «١٣».

(٢) قال الراغب الأصفهاني في بيان معنى الظن: (الظنّ اسم لما يحصل عن أمارة ومتى قويت أدت إلى العلم، ومتى ضعُفت جداً لم يتجاوز حدّ التوهم) المفردات مادة ظن.

(٣) قوله: «ملاقوا ربهم» فيه تعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إليهم، للإيذان بفيضان إحسانه إليهم (أبو السعود ١/ ٩٨).

(٤) أوس بن حجَر بن مالك التميمي أبو شُريح. شاعر تميم في الجاهلية أو من كبار شعرائها. في نسبه اختلاف بعد أبيه حجر وهو زوج أم زهير بن أبي سلمى، كان كثير الأسفار... ولم يدرك الإسلام، في شعره حكمة ورقة، وله ديوان شعر. [الأعلام للزركلي (٢/ ٣١)].

(٥) وهو حديث صحيح.
أخرجه أبو يعلى في المسند (٦/ ١٩٩ رقم ٧٢٧/ ٣٤٨٢) من حديث أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «حُبِّبَ إليَّ النِّساءُ، والطِّيبُ، وجُعِلَ قُرَّةَ عَيْنِي في الصلاة».
وأخرجه أحمد في المسند (٣/ ١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥) والنسائي (٧/ ٦١ ـ ٦٢ رقم ٣٩٣٩ و٣٩٤٠) والحاكم في المستدرك (٢/ ١٦٠) وقال: صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي. وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم: ٣١٢٤).

والسلام وبعده، قبل إن يَضُروا بما منحهم الله تعالى من العلم والإيمان والعمل الصالح، وجعْلهم أنبياء وملوكاً مقسطين. واستدل به على تفضيل البشر على المَلَك وهو ضعيف.

(٤٨) ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا ﴾ أي ما فيه من الحساب والعذاب.

﴿ لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا ﴾ لا تقضي عنها شيئاً من الحقوق، أو شيئاً من الجزاء فيكون نصبه على المصدر، وقرىء لا تُجْزِىءُ من أجزأ عنه إذا أغنى وعلى هذا تعيَّن أن يكون مصدراً، وإيراده مُنكَّراً مع تنكير النفسيْن للتعميم والإقناط الكلي، والجملة صفة ليوماً، والعائد فيها محذوف تقديره لا تَجْزي فيه، ومن لم يجوّز حذف العائد المجرور قال: اتُّسع فيه فحُذِف عنه الجارّ وأُجريَ مجرى المفعول به ثم حُذف كما حذف من قوله: أم مال أصابوا.

﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ أي من النفس الثانية العاصية، أو من الأولى، وكأنه أريد بالآية نفيُ أن يَدْفَع العذابَ أحدٌ عن أحد من كل وجه مُحْتَمَل، فإنه إما أن يكون قهراً أو غيره، والأول النصرة، والثاني إما أن يكون مجاناً أو غيره. والأول أن يشفع له والثاني إما بأداء ما كان عليه وهو أن يجزى عنه، أو بغيره وهو أن يعطى عنه عدلاً. والشفاعةُ من الشَّفْع كأن المشفوع له كان فرداً فجعَلَه الشفيعُ شفْعاً بضم نفسه إليه، والعدل الفدية. وقيل: البَدل وأصله التسوية سمّى به الفدية لأنها سميت بالمفدى، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ولا تُقْبل بالتاء.

﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ يُمْنَعون من عذاب الله، والضميرُ لما دلت عليه النفسُ الثانية المنكَّرة الواقعة في سياق النفس من النفوس الكثيرة، وتذكيره بمعنى العباد أو الأناسيّ. والنصر أخص من المعونة لاختصاصه بدفع الضر. وقد تمسكت المعتزلة بهذه الآية على نفي الشفاعة لأهل الكبائر، وأجيب بأنها خصوصة بالكفار للآيات والأحاديث الواردة في الشفاعة، ويؤيده أن الخطاب معهم، والآية نزلت رداً لما كانت اليهود تزعُم أن آباءهم تشفعُ لهم.

(٤٩) ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ تفصيل لما أَجْمَلَه في قوله ﴿ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾[1] وعطفٌ على نعمتي عطفَ جبريل وميكائيل على الملائكة، وقرىء أنجيْتكم. وأصلُ آل أهلَ لأن تصغيرَه أُهَيْل، وخُصّ بالإضافة إلى أولي الخطر كالأنبياء والملوك. وفرعون لقب لمن مَلَكَ العمالقة ككسرى وقيصر لملكي الفرس والروم. ولعُتُوِّهم اشتُقَّ منه تَفَرْعن الرجلُ إذا عتا وتجبر، وكان فرعونُ موسى مصعبُ بن ريان، وقيل ابنُه وليد من بقايا عاد. وفرعون يوسف عليه السلام ريان وكان بينهما أكثر من أربعمائة سنة..

﴿ يَسُومُونَكُمْ ﴾ يبغونكم، من سامَهُ خَسْفاً إذا أوْلاه ظلماً، وأصل السوْم الذهاب في طلب الشيء.

﴿ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ أفظَعَه فإنه قبيح بالإضافة إلى سائره، والسُّوءُ مصدر ساء يسوء ونصبُه على المفعول ليسومونكم، والجملةُ حال من الضمير في نجيناكم أو من آل فرعون أو منهما جميعاً لأن فيها ضمير كل واحد منهما.

---

(١) البقرة: «٤٠».

﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾ بيان ليسومونكم ولذلك لم يُعطف، وقرىء يَذْبَحُون بالتخفيف. وإنما فعلوا بهم ذلك لأن فرعون رأى في المنام، أو قال له الكهنة: سيولد منهم من يذهب بملكه، فلم يرُدَّ اجتهادُهم من قَدَرِ الله شيئاً.

﴿ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ ﴾ محنةٌ، إن أشير بذلكم إلى صنيعهم، ونعمة إن أشيرَ به إلى الإنجاء، وأصلُه الاختبار لكن لما كان اختبارُ الله تعالى عبادَه تارة بالمحنة وتارة بالمنْحَة أُطْلِق عليهما، ويجوز أنْ يُشارَ بذلكم إلى الجملة ويراد به الامتحان الشائع بينهما.

﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ بتسليطهم عليكم، أو ببعث موسى عليه السلام وتوفيقه لتخليصكم، أو بهما. ﴿ عَظِيمٌ ﴾ صفة بلاء. وفي الآية تنبيه على أن ما يصيب العبد من خير أو شر اختبارٌ من الله تعالى، فعليه أن يشكر على مسارِّه ويصبر على مضارِّه ليكون من خير المختَبَرين.

(٥٠) ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ ﴾ فَلَقْناه وفَصَلْنا بين بعضه وبعض حتى حصلت فيه مسالكُ بسلوككم فيه. أو بسبب إنجائكم، أو ملتبساً بكم كقوله:

تدُوسُ بِنَا الجَماجِم والتَّرِيبا

وقرىء فَرَّقْنا على بناء التكثير لأن المسالك كانت اثني عشر بعدد الأسباط.

﴿ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾ أراد به فرعونَ وقومه، واقتُصِر على ذكرهم للعلم بأنه كان أَوْلى به، وقيل شخصه كما روي أن الحسن رضي الله تعالى عنه كان يقول: اللهم صل على آل محمد، أي شخصه واستُغني بذكره عن ذكر أتباعه.

﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ ذلك، أي غَرَقَهم وإطباقَ البحر عليهم، أو انفلاقَ البحر عن طرق يابسة مذلَّلة، أو جُثَثَهم التي قذفها البحر إلى الساحل، أو ينظر بعضكم بعضاً. روي أنه تعالى أمر موسى عليه السلام أن يسري ببني إسرائيل، فخرج بهم فصبَّحهم فرعونُ وجنوده، وصادفوهم على شاطىء البحر، فأوحى الله تعالى إليه أن اضرب بعصاك البحر، فضربه فظهر فيه اثنا عشر طريقاً يابساً فسلكوها فقالوا: يا موسى نخاف أن يَغرَق بعضُنا ولا نعلمُ، ففتح الله فيها كُوًى فتراءَوْا وتسامَعُوا حتى عَبَروا البحر، ثم لما وصل إليهِ فرعون ورآه منفلِقاً اقتحم فيه هو وجنوده فالتطم عليهم وأَغرقهم أجمعين.

واعلم أن هذه الواقعة من أعظم ما أنعم الله به على بني إسرائيل، ومن الآيات الملْجِئة إلى العلم بوجود الصانع الحكيم وتصديق موسى عليه الصلاة والسلام، ثم إنهم بعد ذلك اتخذوا العجل وقالوا ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾[١] ونحو ذلك، فهم بمعزِل في الفطنة والذكاءِ وسلامة النفس وحسنِ الاتباع عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم، مع أن ما تواتر من معجزاته أمورٌ نظرية مثلُ: القرآنُ والتحدي به والفضائلُ المجتمعة فيه الشاهِدَةُ على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم دقيقة تدركها الأذكياء، وإخباره عليه الصلاة والسلام عنها من جملة معجزاته على ما مر تقريره.

---

(١) البقرة: «٥٥».

نَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم
مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ
لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ
لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى

(٥١) ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ لما عادوا إلى مصر بعد هلاك فرعون وعد الله موسى أن يعطيه التوراة، وضرب له ميقاتاً ذا القعدة وعشر ذي الحجة[1] وعبر عنها بالليالي لأنها غرر الشهور. وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وابن عامر[2] وحمزة والكسائي واعدنا لأنه تعالى وعَدَه الوحيَ. ووعده موسى عليه السلام المجيءَ للميقات إلى الطور.

﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ إلهاً أو معبوداً.

﴿ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ من بعد موسى عليه السلام، أو مضيه.

﴿ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ بإشراككم.

(٥٢) ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم ﴾ حين تبتم، والعفوُ محو الجريمة، من عفا إذا دَرَس. ﴿ مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أي الاتخاذ. ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي لكي تشكروا عفوه.

(٥٣) ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ ﴾ يعني التوراةَ الجامعَ بين كونه كتاباً منزلاً وحجة تُفرِّق بين الحق والباطل. وقيل أراد بالفرقان معجزاتهِ الفارقة بين المحق والمبطل في الدعوى أو بين الكفر والإيمان. وقيل الشرعَ الفارق بين الحلال والحرام، أو النصرَ الذي فرق بينه وبين عدوه كقوله تعالى ﴿ يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ ﴾[3] يريد به يوم بدر.

﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ لكي تهتدوا بتدبر الكتاب والتفكر في الآيات.

(٥٤) ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾ فاعزِموا على التوبة والرجوعِ إلى مَنْ خلقكم برآءَ من التفاوت ومميزاً بعضكم عن بعض بصُور وهيئات مختلفة، وأصل التركيبِ لخلوصِ الشيء عن غيره، إما على سبيل التقصي كقولهم برِئَ المريض من مرضه والمديون من دينه أو الإنشاءِ كقولهم برأ الله آدم من الطين أو فتوبوا.

﴿ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ إتماماً لتوبتكم بالبخْع أو قَطْع الشهوات، كما قيل من لم يعذب نفسه لم يُنَعِّمها

---

(١) تعيين الأربعين بأنها ذو القعدة وعشر من ذي الحجة رواه ابن جرير عن أبي العالية وذكره ابن كثير بلفظ. قيل (١/ ٨٨) وقيل في تعيينها غير ذلك. انظر روح المعاني (١/ ٢٥٧).

(٢) ابن عامر هو: عبدالله اليحصبي، وهو تابعي جليل لقي واثلة بن الأسقع والنعمان بن بشير، وقد أخذ القراءة عن المغيرة بن أبي شهاب المخزومي عن عثمان بن عفان عن رسول الله ﷺ، وقيل إنه قرأ على عثمان نفسه، وهو أحد القراء السبعة، واشتهر بالرواية عنه هشام وابن ذكوان، وتوفي بدمشق (١١٨)هـ.

(٣) الأنفال: «٤١».

ٱللَّهَ جَهۡرَةً فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٦﴾
وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن
كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ
سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ

ومن لم يَقْتلها لم يُخيِها. وقيل أُمروا أن يقتل بعضهم بعضاً. وقيل أُمر من لم يعبدِ العجل أن يقتل العَبَدَة. روي أن الرجل كان يرى بعضه وقريبه فلم يقدر على المضيّ لأمر الله، فأرسل الله ضبابة وسحابة سوداء لا يتباصرون، فأخذوا يقتتلون من الغداة إلى العشي حتى دعا موسى وهارون فكشفت السحابة ونزلت التوبة، وكانت القتلى سبعين ألفاً[1]. والفاءُ الأولى للتسبب، والثانيةُ للتعقيب.

﴿ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ ﴾ من حيث إنه طُهرة من الشرك ووُصلة إلى الحياة الأبدية والبهجة السرمدية.

﴿ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ ﴾ متعلقٌ بمحذوف إنْ جعلْتَه من كلام موسى عليه السلام لهم تقديره: إنْ فعلتم ما أُمرتم به فقد تاب عليكم، أو عطفٌ على محذوف إن جعَلْتَه خطاباً من الله تعالى لهم على طريقة الالتفات، كأنه قال: ففعلتم ما أمرتم به فتاب عليكم بارئُكم. وذكرُ البارىء وترتيبُ الأمر عليه إشعارٌ بأنهم بلغوا غاية الجهالة والغباوة، حتى تركوا عبادة خالِقِهم الحكيم إلى عبادة البقر التي هي مَثَلٌ في الغباوة، وأن من لم يعرف حق مُنعمه حقيق بأن لا يسترد منه، ولذلك أُمروا بالقتل وفك التركيب.

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ للذي يُكثر توفيقَ التوبة، أو قبولَها من المذنبين، ويبالغ في الإنعام عليهم.

(٥٥) ﴿ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ ﴾ أي لأجل قولك، أو لن نقر لك.

﴿ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ ﴾ عياناً وهي في الأصل مصدر قولُك: جهرت بالقراءة، استعيرت للمعاينة، ونصبُها على المصدر لأنها نوع من الرؤية، أو الحال من الفاعل أو المفعول. وقرىء جَهَرَة بالفتح على أنها مصدر كالغَلَبَة، أو جمعُ جاهر كالكَتَبَة فيكون حالاً من الفاعل قطعاً، والقائلون هم السبعون الذين اختارهم موسى عليه السلام للميقات. وقيل عشرة آلاف من قومه. والمؤمَنُ به: إن الله الذي أعطاك التوراة وكلمك، أو إنك نبي.

﴿ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ ﴾ لفرْط العناد والتعنُّت وطلب المستحيل، فإنهم ظنوا أنه تعالى يُشبه الأجسام فطلبوا رؤيته رؤيةَ الأجسام في الجهات والأحياز المقابلة للرائي، وهي محال، بل الممكن أن يُرى رؤية منزهة عن الكيفية، وذلك للمؤمنين في الآخرة ولأفراد من الأنبياء في بعض الأحوال في الدنيا. قيل جاءت نار من السماء فأحرقتهم. وقيل صيحة. وقيل جنود سمِعوا بحسيسها فخروا صعقين ميتين يوماً وليلة.

---

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس بسند صحيح (١/ ٢٨٦) في التفسير.

﴿ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ ما أصابكم بنفسه أو أثره.

(٥٦) ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ بسبب الصاعقة، وقيد للبعث لأنه قد يكون عن إغماء أو نوم كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾(١).

﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمةَ البعث، أو ما كفرتموه لِمَا رأيتم بأس الله بالصاعقة.

(٥٧) ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ سخر الله لهم السحاب يظلُّهم من الشمس حين كانوا في التيه.

﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ الترنجبين والسُّمَّاني. قيل كان ينزل عليهم المن مثل الثلج من الفجر إلى الطلوع، وتَبعَث الجنوبُ عليهم السمانيّ، وينزل بالليل عمودُ نار يسيرون في ضوئه، وكانت ثيابهم لا تتسخ ولا تَبلى.

﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ على إرادة القول.

﴿ وَمَا ظَلَمُونَا﴾ فيه اختصار، وأصله فظلموا بأن كفروا هذه النعم وما ظلمونا.

﴿ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكفران لأنه لا يتخطاهم ضرره.

(٥٨) ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ يعني بيتَ المقدس، وقيل أريحا أمروا به بعد التيه.

﴿ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ واسعاً، ونصبُه على المصدر، أو الحال من الواو.

﴿ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ﴾ أي باب القرية، أو القبة التي كانوا يصلون إليها، فإنهم لم يدخلوا بيت المقدس في حياة موسى عليه الصلاة والسلام.

﴿ سُجَّدًا﴾ متطامنين مخبتين، أو ساجدين لله شكراً على إخراجهم من التيه.

﴿ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ أي مسألتُنا، أو أمرك حطة وهي فعلة من الحَطِّ كالجِلسة، وقرىء بالنصب على الأصل بمعنى: حط عنا ذنوبنا حطة، أو على أنه مفعول قولوا أي قولوا هذه الكلمة. وقيل معناه أمرنا حطة أي: أن نحط في هذه القرية ونقيم بها.

﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ بسجودكم ودعائكم. وقرأ نافع بالياء وابن عامر بالتاء على البناء للمفعول. وخطايا أصلُهُ خطايىء كخطايع، فعند سيبويه أنه أبدلت الياءُ الزائدة همزةً لوقوعها بعد الألف، واجتمعت همزتان فأبدلت الثانية ياء ثم قلبت ألفاً، وكانت الهمزة بين الألفين فأبدلت ياء. وعند الخليل قُدِّمت الهمزة على الياء ثم فعل بهما ما ذكر.

﴿ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ثواباً، جعل الامتثال توبةً للمُسيء وسببَ زيادةِ الثواب للمحسن، وأخرجه عن صورة الجواب إلى الوعد إيهاماً بأن المحسن بصدد ذلك وإن لم يفعله، فكيف إذا فعله؟! وأنه تعالى يفعل لا محالة.

(٥٩) ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ بدلوا بما أمروا به من التوبة والاستغفار بطلب

---

(١) الكهف: ١٢.

ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ
مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ
مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ
طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ

ما يشتهون من أعراض الدنيا[١].

﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ كرره مبالغة في تقبيح أمرهم وإشعاراً بأن الإنزال عليهم لظلمهم بوضع غير المأمور به موضعَه، أو على أنفسهم بأن تركوا ما يوجب نجاتها إلى ما يوجب هلاكها.

﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ عذاباً مقدراً من السماء بسبب فسقهم، والرجزُ في الأصل: ما يُعَاف عنه، وكذلك الرجس. وقرىء بالضم وهو لغة فيه. والمرادُ به الطاعون. روي أنه مات في ساعة أربعة وعشرون ألفاً.

(٦٠) ﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ لما عطِشوا في التيه.

﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ اللامُ فيه للعهد على ما روي أنه كان حجراً طورياً حَمَلَه معه، وكانت تنبُع من كل وجه ثلاث أعين، تسيل كل عين في جدول إلى سبط، وكانوا ستمائة ألف وسعة المعسكر اثنا عشر ميلاً، أو حجراً أهبطه آدم من الجنة، ووقع إلى شعيب عليه السلام فأعطاه لموسى مع العصا، أو الحجر الذي فرّ بثوبه لما وضعه عليه ليغتسل وبرأه الله به عما رموه به من الأُدْرَة[٢]، فأشار إليه جبريل عليه السلام بحمله، أو للجنس وهذا أظهرُ في الحجة. قيل لم يأمره بأن يضرب حجراً بعينه، ولكن لما قالوا: كيف بنا لو أفضينا إلى أرض لا حجارة بها؟ حَمَل حجراً في مخلاته وكان يضربه بعصاه إذا نزل فينفجر ويضربه بها إذا ارتحل فييبس، فقالوا: إن فقد موسى عصاه مِتْنا عطشاً، فأوحى الله إليه لا تقرع الحجر وكلمْه يطعك لعلهم يعتبرون. وقيل كان الحجر من رخام وكان ذراعاً في ذراع، والعصا عشرة أذرع على طول موسى عليه السلام من آس الجنة ولها شعبتان تتقدان في الظلمة[٣].

﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ متعلق بمحذوف تقديره: فإن ضُربَت فقد انفجرت، أو فَضَرب فانفجرت[٤]، كما مر في قوله تعالى ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾[٥]. وقرىء عَشِرة بكسر الشين وفتحها وهما لغتان فيه.

---

(١) ورد في تبديلهم أنهم دخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا حبة في شعرة (ابن كثير ١/ ٩٥).

(٢) الأدرة هي انتفاخ الخصية (المصباح المنير مادة أدِر).

(٣) تعيين كيفية الحجر وشكله وكيفية ضربه من الإسرائيليات التي لم نؤمر بتصديقها ولا تكذيبها.

(٤) قال أبو السعود: («فانفجرت» عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام، قد حذف للدلالة على كمال سرعة تحقق الانفجار، كأنه حصل عقيب الأمر بالضرب) ١/ ١٠٦.

(٥) البقرة: «٥٤».

أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ
عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ
عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ كل سبط.

﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾ عينهم التي يشربون منها.

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ على تقدير القول:

﴿مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ يريد به ما رزقهم الله من المن والسلوى وماء العيون. وقيل الماءُ وحده لأنه يشرب ويؤكل مما ينبت به[1]. ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ لا تعتدوا حالَ إفسادكم[2]، وإنما قيَّده لأنه وإن غَلَبَ في الفساد قد يكون منه ما ليس بفساد، كمقابلة الظالم المعتدي بفعله، ومنه ما يتضمن صلاحاً راجحاً كقَتْلِ الخضرِ عليه السلام الغلامَ وخرقِهِ السفينة، ويَقْرُبُ منه العَيْث غير أنه يغلب فيما يُدْرَك حساً. ومن أنكر أمثال هذه المعجزات فلغاية جَهْلِهِ بالله وقلّة تدبره في عجائب صنعه، فإنه لمّا أمكن أن يكون من الأحجار ما يحلِق الشعر وينفُر عن الخلّ ويجذِب الحديد، لم يَمْتنع أن يخلق الله حجراً يسخره لجذب الماء من تحت الأرض، أو لجذب الهواء من الجوانب ويصيِّره ماء بقوة التبريد ونحو ذلك.

(٦١) ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ يريدون به ما رُزقوا في التيه من المن والسلوى، وبوَحدته[3] أنه لا يختلف ولا يتبدل، كقولهم طعامُ مائدة الأمير واحدٌ يريدون أنه لا تتغير ألوانُه وبذلك أجمعوا، أو ضربٌ واحد، لأنهما طعام أهلِ التلذذ وهم كانوا فلاّحةً فنزعوا إلى عَكَرهم[4] واشتهوا ما ألفوه. ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾[5] سله لنا بدعائك إياه ﴿يُخْرِجْ لَنَا﴾ يظهر ويوجد، وجزمه بأنه جواب فادع فإن دعوته سبب الإجابة. ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ من الإسناد المجازي، وإقامةِ القابِلِ مقام الفاعِلِ، ومِنْ للتبعيض. ﴿مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ تفسير وبيان وقع موقع الحال، وقيلَ بدل بإعادة

(١) قولهم أن المراد بالرزق هو الماء وحده يأباه أن المأمور به أكل النعمة لا ما سيطلبونه وإضافة الرزق إليه تعالى مع أن الكلّ إليه خلقاً وملكاً: إما للتشريف وإما لظهوره بغير سبب عادي.
ولم يقل: من رزقنا كما يقتضيه قوله تعالى «فقلنا» للإيذان بأن الأكل والشرب لم يكن بطريق الخطاب بل بواسطة موسى عليه السلام (أبو السعود ١/١٠٦).

(٢) العثيّ أشد أنواع الفساد (أبو السعود ١/١٠٦).

(٣) أي ويريدون بوحدته.

(٤) العَكَر هو ما رسب من الزيت ونحوه.

(٥) التعرض لعنوان الربوبية لتمهيد مبادىء الإجابة (أبو السعود ١/١٠٦).

الجارّ. والبقل ما أنبتته الأرض من الخضر والمراد به أطايبه التي تؤكل، والفوم الحنطة ويقال للخبز ومنه فوِّموا لنا، وقيل الثوم وقرىء قُثَّائِها بالضم، وهو لغة فيه. ﴿قَالَ﴾ أي الله، أو موسى عليه السلام. ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ﴾ أقرب منزلة وأدْوَن قدراً. وأصلُ الدنو القرب في المكان فاستُعير للخسة كما استُعير البعد للشرف والرِّفعة، فقيل بعيد المحل بعيد الهمة، وقرىء أدنأُ من الدناءة. ﴿بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ يريد به المن والسلوى فإنه خيرٌ في اللذة والنفع وعدم الحاجة إلى السعي. ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ انحدروا إليه من التيه، يقال هَبَط الوادي إذا نزل به، وهبط منه إذا خرج منه، وقرىء بالضم. والمصرُ البلدُ العظيم وأصلُه الحدّ بين الشيئين، وقيل أراد به العلم، وإنما صرَّفه لسكون وسطه أو على تأويل البلد، ويؤيده أنه غير منون في مصحف ابن مسعود. وقيل أصلُه مصرائيم فعُرِّب. ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ أحيطت بهم إحاطة القبة بمن ضُربت عليه، أو ألصقت بهم، من ضَرَبَ الطين على الحائط مجازاةً لهم على كفران النعمة. واليهودُ في غالب الأمر أذلاءُ مساكينُ، إما على الحقيقة أو على التكلُّف مخافةَ أن تضاعف جزيتهم. ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ رجعوا به، أو صاروا أحقاء بغضبه، مِنْ باء فلان بفلان إذا كان حقيقاً بأن يقتل به، وأصل البَوْء المساواة. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من ضرب الذلة والمسكنة والبوْء بالغضب. ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ بسبب كفرهم بالمعجزات، التي من جملتها ما عُدَّ عليهم من فَلْق البحر، وإظلال الغمام، وإنزال المن والسلوَى، وانفجار العيون من الحجر. أو بالكتب المنزلة: كالإنجيل، والفرقان، وآيةِ الرجم والتي فيها نَعْتُ محمد صلى الله عليه وسلم من التوراة، وقتلِهم الأنبياء فإنهم قَتَلوا شعياء وزكريا ويحيى وغيرهم بغير الحق عندهم، إذ لم يروْا منهم ما يعتقدون به جواز قتلهم، وإنما حَمَلَهم على ذلك اتباعُ الهوى وحب الدنيا كما أشار إليه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ أي: جَرَّهم العصيانُ والتمادي والاعتداء فيه إلى الكفر بالآيات وقتل النبيين. فإن صغار الذنوب سبب يؤدي إلى ارتكاب كبارِها، كما أن صغار الطاعات أسباب مؤدية إلى تحري كبارِها. وقيل كرر الإشارة للدلالة على أن ما لحِقهم كما هو بسبب الكفرِ والقتلِ فهو بسبب ارتكابهم المعاصي واعتدائهم حدود الله تعالى. وقيل الإشارة إلى الكفر والقتل، والباءُ بمعنى مع وإنما جُوِّزت الإشارة بالمفرد إلى شيئين فصاعداً على تأويل ما ذُكر، أو تقدم للاختصار، ونظيره في الضمير قول رؤبة يصف بقرة:

فيهــا خُطُــوطٌ مِــنْ سَــوادٍ وبَلَــقْ كــأنــهُ فــي الجِلْــدِ تَــوْلِيــعُ البَهَــقْ

والذي حسَّن ذلك أن تثنية المضمَرات والمبهَمات وجمعَها وتأنيثَها ليست على الحقيقة، ولذلك جاء الذي بمعنى الجمع.

(٦٢) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بألسنتهم، يريد به المتديِّنين بدين محمد صلى الله عليه وسلم المخلصين منهم والمنافقين، وقيل المنافقين لانخراطهم في سلك الكفَرة[1] ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ تهودوا، يقال هادَ

---

(١) تأتي هذه الآية في هذا السياق ـ سياق الحديث عن بني إسرائيل ـ لتدل على أن العبرة بحقيقة القصيدة، لا بعصبية جنس أو قوم. . =

مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۖ فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ
وَرَحۡمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً
خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهَا نَكَٰلٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا وَمَا خَلۡفَهَا وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ
ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ

وتهوّد إذا دخل في اليهودية، ويهود: إما عربي من هاد إذا تاب، سموا بذلك لمّا تابوا من عبادة العجل، وإما مُعَرَّب يهوذا وكأنهم سموا باسم أكبر أولاد يعقوب عليه السلام ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ جمع نَصْرانٍ كندامى وندمان، والياءُ في نصراني للمبالغة كما في أحمَرِي، سموا بذلك لأنهم نصروا المسيح عليه السلام، أو لأنهم كانوا معه في قرية يقال لها نصران أو ناصرة فسموا باسمها، أو من اسمها. ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ قوم بين النصارى والمجوس. وقيل أصل دينهم دين نوح عليه السلام. وقيل هم عَبَدة الملائكة. وقيل عبدة الكواكب[1]، وهو إن كان عربياً فَمِنْ صبأ إذا خرج. وقرأ نافع وحده بالياء إما لأنه خفف الهمزة وأبدلها ياء، أو لأنه من صبأ إذا مال لأنهم مالوا عن سائر الأديان إلى دينهم أو من الحق إلى الباطل.

﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ من كان منهم في دينه قبل أن يُنسخ ـ مصدقاً بقلبه بالمبدأ والمعاد، عاملاً بمقتضى شرعه ـ. وقيل من آمن من هؤلاء الكفرة إيماناً خالصاً ودخل في الإسلام دخولاً صادقاً: ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ الذي وَعَدَ لهم على إيمانهم وعملهم. ﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ حين يخاف الكفار من العقاب، ويحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب. و﴿مَنۡ﴾ مبتدأ خبره ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ﴾ والجملة خبر إنّ، أو بدل من اسم إنَّ وخبرُها ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ﴾ والفاءُ لتضمن المسند إليه معنى الشرط، وقد مَنَع سيبويه دخولها في خبر إن من حيث إنها لا تتدخل الشرطية، ورُدَّ بقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾[2].

. (٦٣) ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ﴾ باتباع موسى والعمل بالتوراة. ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ حتى أعطيتم الميثاق، روي أن موسى عليه الصلاة والسلام لما جاءهم بالتوراة فرأوْا ما فيها من التكاليف الشاقة كَبُرت عليهم وأبوْا قَبُولها، فأمِر جبريل عليه السلام فقلع الطور فظلله فوقهم حتى قَبِلوا. ﴿خُذُواْ﴾ على إرادة القول: ﴿مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم﴾ من الكتاب ﴿بِقُوَّةٖ﴾ بجد وعزيمة. ﴿وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ ادرسوه ولا تنسوه، أو تفكروا فيه فإنه ذِكْرٌ بالقلب، أو اعملوا به. ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ لكي تتقوا المعاصي، أو

= وعليه فالمراد بالذين آمنوا هم المؤمنون بالإسلام، لا المنافقون، وذلك لأنه رتب على ذلك عدم الخوف والحزن وهو لا يكون للمنافقين.
وإدراجهم في سلك الكافرين لما سبقت الإشارة إليه من أن العبرة بالعقيدة لا بالجنسية.

(١) رجح ابن كثير أن المراد بالصابئين قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين، إنما هم قوم باقون على فطرتهم ولا دين مقرر لهم يتبعونه (ابن كثير ١/ ١٠٠).

(٢) البروج: ١٠.

رجاءً منكم أن تكونوا متقين. ويجوز عند المعتزلة أن يتعلق بالقول المحذوف، أي: قلنا خذوا واذكروا إرادة أن تتقوا.

(٦٤) ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أعرضتم عن الوفاء بالميثاق بعد أخذه. ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بتوفيقكم للتوبة، أو بمحمد صلى الله عليه وسلم يدعوكم إلى الحق ويهديكم إليه. ﴿لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ المغبونين بالانهماك في المعاصي، أو بالخبط والضلال في فترة من الرسل. ولو في الأصل لامتناع الشيء لامتناعِ غيره، فإذا دخل على لاَ أفاد إثباتاً وهو امتناعُ الشيء لثبوت غيره، والاسمُ الواقعُ بعدَه عند سيبويه مبتدأ خبرُهُ واجبُ الحذفِ لدلالة الكلام عليه وسدِّ الجواب مَسدَّه، وعند الكوفيين فاعلُ فعلٍ محذوف.

(٦٥) ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ اللام موطِّئة للقسم. والسبتُ مصدرُ قولك سَبَتَت اليهود إذا عظمت يوم السبت، وأصلُه القطع أُمِروا بأن يجردوه للعبادة فاعتدى فيه ناس منهم في زمن داود عليه السلام. واشتغلوا بالصيد، وذلك أنهم كانوا يسكنون قرية على ساحل يقال لها أَيْلة، وإذا كان يوم السبت لم يبقَ حوت في البحر إلا حضر هناك وأخرج خُرْطومه، فإذا مضى تفرقت فحفروا حِيَاضاً وشرعوا إليها الجداول وكانت الحيتان تدخلها يوم السبت فيصطادونها يوم الأحد. ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ جامعين بين صورة القِرَدة والخُسُوء: وهو الصَّغار والطرد، وقال مجاهد ما مُسِخت صورهم ولكن قلوبهم[1]، فمُثِّلوا بالقردة كما مثلوا بالحمار في قوله تعالى ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾[2] وقوله ﴿كُونُوا۟﴾ ليس بأمر إذ لا قدرة لهم عليه، وإنما المرادُ به سرعة التكوين، وأنهم صاروا كذلك كما أراد بهم، وقرىء قَرِدة بفتح القاف وكسر الراء، وخاسين بغير همزة.

(٦٦) ﴿فَجَعَلْنَٰهَا﴾ أي المسخة، أو العقوبة. ﴿نَكَٰلًا﴾ عبرة تَنْكُل المعتبِر بها، أي تمنعه. ومنه النكل للقيد. ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ لما قبلها وما بعدها من الأمم إذ ذُكِرت حالُهم في زبر الأولين واشتهرت قصتهم في الآخرين، أو لمعاصريهم ومَنْ بعدهم، أو لما بحَضْرتها من القرى وما تباعَدَ عنها، أو لأهل تلك القرية وما حواليها، أو لأجل ما تقدم عليها من ذنوبهم وما تأخر منها. ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ من قومهم، أو لكل متق سمعها.

(٦٧) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ أول هذه القصة قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا﴾[3] وإنما فُكّت عنه وقُدِّمت عليه لاستقلالها بنوعٍ آخرَ من مساويهم، وهو الاستهزاء بالأمر والاستقصاء في السؤال وترك المسارعة إلى الامتثال. وقصته: أنه كان فيهم شيخ موسر فقتل ابنَه بنو أخيه طمَعاً في ميراثه، وطرحوه على باب المدينة، ثم جاؤوا يطالبون بدمه، فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها ليحيا فيُخبِر بقاتله. ﴿قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ أي مكان هزؤ، أو أهله ومهزوءاً بنا، أو الهزؤ نفسه لفَرْط الاستهزاء استبعاداً لما قاله واستخفافاً به، وقرأ حمزة

---

(١) رجح ابن كثير أن المسخ كان صورياً ومضوياً، وردّ قول مجاهد (ابن كثير ١/ ١٠٢).

(٢) الجمعة: «٥».

(٣) المرسلات: «٣٣».

﴿يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾
قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ
ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ﴾

وإسماعيلُ[1] عن نافع بالسكون، وحفصٌ[2] عن عاصم بالضم وقلب الهمزة واواً. ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ لأن الهزؤ في مثل ذلك جهل وسفه، نفى عن نفسه ما رمي به على طريقة البرهان، وأخرج ذلك في صورة الاستعاذة استفظاعاً له.

(٦٨) ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ أي ما حالُها وصفتُها، وكان حقُّهم أن يقولوا: أيّ بقرة هي؟ أو كيف هي؟ لأن ﴿مَا﴾ يُسألُ به عن الجنس غالباً، لكنهم لما رأوا ما أُمروا به على حالٍ لم يوجد بها شيء من جنسه أجْرَوْه مجرى مالم يعرفوا حقيقته ولم يروا مثله. ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ لا مسنة ولا فتية، يقال فَرَضَت البقَرة فروضاً من الفَرْض وهو القطع، كأنها فرضَتْ سنها، وتركيب البِكْر للأولية ومن البُكْرة والباكورة.

﴿عَوَانٌ﴾ نصَفٌ. قال: نواعِمُ بينَ أبْكارٍ وَعُونُ.

﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي بين ما ذكر من الفارض والبكر ولذلك أضيف إليه بيْن، فإنه لا يضاف إلا إلى متعدد، وعَوْدُ هذه الكنايات وإجراءُ تلك الصفات على بقرة يدل على أن المراد بها معينةٌ، ويلزمه تأخير البيان عن وقت الخطاب، ومَنْ أنكر ذلك زعم أن المراد بها بقرة مِنْ شِقِّ البقر غيرَ مخصوصةٍ ثم انقلبت مخصوصةً بسؤالهم، ويلزمه النسخ قبل الفعل، فإن التخصيص إبطال للتخيير الثابت بالنص، والحقُّ جوازُهما، ويؤيد الرأي الثاني ظاهر اللفظ والمروي عنه عليه الصلاة والسلام «لو ذبحوا أي بقرة أرادوا لأجزأتهم، ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم»[3]. وتقريعُهم بالتمادي

---

(١) هو إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سليمان، مولى الخليفة عبدالملك بن مروان، أبو علي البغدادي، المعروف: بالقالي نسبه إلى قالى قلى، بلد من أعمال أرمينية.
قال الزُّبيديّ: كان أعلم الناس بنحو البصريين، وأحفظ أهلِ زمانه للغة وأرواهم للشعر الجاهلي، وأحفظهم له.
ولد سنة (٢٨٨هـ) بديار بَكْرٍ، وقدم بغداد سنة (٣٠٣هـ) فقرأ النحو والعربية والأدب، وسمع الحديث. وخرج من بغداد سنة (٣٢٨هـ) فدخل قُرطبة سنة (٣٣٠هـ) وقرأ عليه الناس كتب اللغة والأخبار. وصنّف بها الأمالي، النوادر، المقصور، الممدود، شرح المعلقات... وغير ذلك.
مات بقرطبة ليلة السبت لسبع خَلون من جُمادي الأولى ـ وقيل الآخرة ـ سنة (٣٥٦هـ) [«بغية الوعاة» للسيوطي (٤٥٣/١ رقم ٩٢٥)].

(٢) هو حفص بن سليمان بن المغيرة البزاز، اشتهر بالرواية عن عاصم الذي هو أحد القراء السبعة، وكان ربيب عاصم تربى في حجره وقرأ عليه وتعلم منه كما يتعلم الصبي من معلمه، فلذلك كان أدق من شعبة الذي اشتهر بالرواية أيضاً عن عاصم، توفي حفص (١٨٠)هـ.

(٣) أخرجه ابن مردويه وابن أبي حاتم والبزار، كلهم من طريق الحسن عن أبي هريرة. وفي سنده عباد بن منصور وفيه ضعف (الكافي الشاف ص٨ رقم ٥٣).

إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ
فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا
ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم
مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا

وزجرهم على المراجعة بقوله ﴿فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ أي ما تؤمرونه، بمعنى تؤمرون به من قولهم: أمرتُك الخير فافعل ما أُمرت به، أو أمركم بمعنى مأموركم.

(٦٩) ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ الفُقُوع نُصوعُ الصفرة ولذلك تؤكَّدُ به، فيقال: أصفرُ فاقعٌ كما يقال أسودُ حالِكٌ، وفي إسناده إلى اللون وهو صفة صفراء لملابستِه بها فَضْل تأكيدٍ كأنه قيل: صفراء شديدة الصفرة صفرتُها، وعن الحسن سوداءُ شديدةُ السواد، وبه فسر قوله تعالى: ﴿جِمَـٰلَتٌ صُفْرٌ﴾(١). قال الأعشى:

تلْـكَ خَيلـي مِنْـهُ وتلـكَ رِكَـابـي هُــنَّ صُفْـرٌ أولادُهـا كـالـزَّبيـبِ

ولعله عبَّر بالصفرة عن السواد لأنها من مقدماته، أو لأن سواد الإبل تعلُوه صفرة وفيه نَظَر، لأن الصفرة بهذا المعنى لا تؤكَّد بالفُقوع ﴿تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ﴾ أي تعجبُهم، والسرور أصله لذة في القلب عند حصول نفع، أو توقُّعه من السر.

(٧٠) ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾ تكرير للسؤال الأول واستكشاف زائد. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ اعتذارٌ عنه، أي إن البقر الموصوفَ بالتعوِين والصُّفرة كثير فاشتَبه علينا، وقرىء إن الباقر وهو اسم لجماعة البقر والأباقر والبواقر، ويتشابه وتتشابه بالياء والتاء، وتُشَابه ويُشَابه ويَشَّابه بطرح التاء وإدغامها في الشين على التذكير والتأنيث، وتشابَهت وتشابَّهت مخففاً ومشدداً، وتَشَبَّهُ بمعنى تتشبه وتُشْبِه بالتذكير ومتشابه ومتشابهَة ومتشبِّه ومتشبهة. ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ إلى المراد ذبحها، أو إلى القاتل، وفي الحديث «لو لم يستثنوا لما بُيِّنَتْ لهم آخر الأبد»(٢). واحتج به أصحابنا على أن الحوادث بإرادة الله سبحانه وتعالى، وأن الأمر قد ينفك عن الإرادة وإلا لم يكن للشرط بعد الأمر معنى. والمعتزلة والكرامية على حدوث الإرادة، وأجيب بأن التعليق باعتبار التعلُّق.

(٧١) ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ أي لم تذلل لِكرابِ الأرض وسَقْي الحرث، و﴿لَّا ذَلُولٌ﴾ صفة لبقرة بمعنى غير ذلول، ولا الثانية مزيدة لتأكيد الأولى والفعلان صفتا ذلول كأنه قيل: لا ذلول مثيرة وساقية، وقرىء لا ذلولَ بالفتح أي حيث هي، كقولك مررت برجل لا بخيل

---

(١) المرسلات: «٣٣».

(٢) أخرجه ابن جرير (١/٣٤٧ ـ ٣٤٨) مرفوعاً مفصلاً، وأخرجه بنحوه سعيد بن منصور عن عكرمة مرفوعاً مرسلاً، وأخرجه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة موصولاً، وفي إسناده «سرور بن المغيرة عن عباد بن منصور» وكلاهما ضعيف.

ولا جبان، أي حيث هو، وتسقي من أسقى. ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ سلمها الله تعالى من العيوب، أو أهلَها من العمل، أو أخلَصَ لونها من سلم له كذا إذا خلص له ﴿لَّا شِيَةَ﴾ لا لَوْن فيها يخالف لون جلدها، وهي في الأصل مصدر، وَشَاهُ وَشْياً وشِيَة إذا خلط بلونه لوناً آخر. ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بحقيقة وصف البقرة وحقَّقتها لنا، وقرىء آلآن بالمد على الاستفهام، ولاَن بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام. ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ فيه اختصار، والتقدير: فحصَّلوا البقرة المنعوتة فذبحوها. ﴿وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ لتطويلهم وكثرة مراجعاتهم، أو لخوف الفضيحة في ظهور القاتل، أو لغلاء ثمنها. إذ روي (أن شيخاً صالحاً منهم كان له عِجلة، فأتى بها الغيضة وقال: اللهم إني استودعتُكها لابني حتى يكبُر، فشبت وكانت وحيدة بتلك الصفات، فساوموها من اليتيم وأمِّه حتى اشتروْها بملء مَسْكِها ذهباً، وكانت البقرة إذ ذاك بثلاثة دنانير). وكاد من أفعال المقاربة وُضِع لدُنوِّ الخبر حصولاً، فإذا دخل عليه النفيُ قيل معناه الإثبات مطلقاً وقيل ماضياً، والصحيح أنه كسائر الأفعال ولا ينافي قولُه ﴿وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ قولَه فذبحوها لاختلاف وقتَيْهما، إذ المعنى أنهم ما قاربوا أن يفعلوا حتى انتهت سؤالاتُهم وانقطعت تعلُّلاتُهم، ففعلوا كالمضطر المُلْجَأ إلى الفعل.

(٧٢) ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ خطاباً للجمع لوجود القتل فيهم ﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا﴾ اختصمتم في شأنها، إذ المتخاصمان يدفع بعضهما بعضاً، أو تدافعتم بأن طرح كلٌّ قتْلَها عن نفسه إلى صاحبه، وأصلُه تدارأتم فأُدغمت التاء في الدال واجتُلبت لها همزة الوصل ﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ مظهرهُ لا محالةَ، وأُعمِلَ مخرجٌ لأنه حكايةُ مستقبلٍ كما أُعمِلَ ﴿بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾(١) لأنه حكايةُ حالٍ ماضية.

(٧٣) ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ﴾ عطفٌ على ادارأتم وما بينها اعتراضٌ، والضمير للنفس، والتذكيرُ على تأويل الشخص أو القتيل ﴿بِبَعْضِهَا﴾ أي بعضٍ كان وقيل: بأصغريها. وقيل بلسانها. وقيل بفخِذها اليمنى وقيل بالأذن. وقيل بالعجب ﴿كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يدل على ما حذف وهو فضربوه فَحَيِيَ، والخطابُ مع مَنْ حَضَرَ حياةَ القتيل، أو نزولَ الآية ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ دلائلَه على كمال قدرته. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لكي يَكْمُلَ عقلُكم وتعلموا أن من قدر على إحياء نفس قدر على إحياء الأنفس كلها، أو تعملوا على قضيته. ولعلّه تعالى إنما لم يحيه ابتداءً وشَرَطَ فيه ما شرط لما فيه من التقرب وأداء الواجب ونفع اليتيم والتنبيه على بركة التوكل والشفقة على الأولاد، وأن من حق الطالب أن يقدم قُرْبة، والمُتَقرِّب أن يتحرى الأحسنَ ويغالي بثمنه، كما روي عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه ضحى بنجيبة اشتراها بثلاثمائة دينار(٢). وأن المؤثر في الحقيقة هو اللهُ تعالى، والأسبابُ أماراتٌ لا أَثَر لها، وأن من أراد أن يعرف أعدى عدوه الساعي في إماتته الموت الحقيقي فطريقه أن يذبح بقَرَةَ نَفْسِه التي هي القوةُ الشهوية حين زال عنها شَرَه الصبا، ولم يلْحَقْها ضعف الكِبَر، وكانت معجبة رائقة المنظر غير مذللة

---

(١) الكهف: «١٨».

(٢) أخرجه أبو داود (١٧٥٦) من رواية الجهم بن الجارود عن سالم... وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٣/ ٢٣١) وقال: لا نعرف لجهم سماعاً من سالم، وقال الذهبي في الميزان (١/ ٤٢٦) فيه جهالة، وقال ابن حجر: مقبول (التقريب ١/ ١٢٥).
والخلاصة أن الحديث ضعيف. وقد ضعفه الألباني في ضعيف أبي داود.

يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ۞أَفَتَطْمَعُونَ
أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ
يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ
اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾

في طلب الدنيا، مسلمة عن دنسها لا سِمَة بها من مقابحها بحيث يصل أثره إلى نفسه فتحيا حياة طيباً وتعربُ عما به ينكشف الحال، ويرتفع ما بين العقل والوهم من التدارؤ والنزاع.

(٧٤) ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ القساوة عبارة عن الغِلَظِ مع الصَّلابة، كما في الحجر. وقساوة القلب مَثَلٌ في نَبْوِه عن الاعتبار، وثم لاستبعاد القسوة ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ يعني إحياء القتيل، أو جميع ما عُدِّد من الآيات فإنها مما توجب لِين القلب. ﴿فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ﴾ في قسوتها ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ منها، والمعنى أنها في القساوة مثل الحجارة أو أزيد عليها، أو أنها مثلُها أو مثلُ ما هو أشدُّ منها قسوةً كالحديد، فحُذِف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، ويعضده قراءة الحسن بالجر عطفاً على الحجارة، وإنما لم يَقُل أقسى لما في أشدّ من المبالغة والدلالةِ على اشتداد القسوتين واشتمالِ المُفَضَّل على زيادة و﴿أَوْ﴾ للتخيير، أو للترديد بمعنى: أن من عرف حالها شبهها بالحجارة أو بما هو أقسى منها[١].

﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ تعليل للتفضيل، والمعنى: أن الحجارة تتأثرُ وتنفعل، فإنّ منها ما يتشقق فينبع منه الماء وتنفجر منه الأنهار، ومنها ما يتردى من أعلى الجبل انقياداً لما أراد الله تعالى به. وقلوب هؤلاء لا تتأثر ولا تنفعل عن أمره تعالى. والتفجُّر التفتّح بسَعَةٍ وكثْرة، والخشية مجازٌ عن الانقياد. وقرىء إنْ، على أنها المخففة من الثقيلة وتلزمُها اللام الفارقة بينها وبين إنْ النافية، ويَهْبُط بالضمّ.

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وعيد على ذلك، وقرأ ابن كثير ونافع ويعقوب وخلف[٢] وأبو بكر[٣] بالياء ضمّاً إلى ما بعده، والباقون بالتاء.

(٧٥) ﴿۞أَفَتَطْمَعُونَ﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ﴿أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ أن يصدِّقوكم، أو يؤمنوا لأجل دعوتكم، يعني اليهود. ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ طائفة من أسلافهم ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ اللَّهِ﴾ يعني التوراة. ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ كنعت محمد صلى الله عليه وسلم، وآية الرجم.

---

(١) قوله: «فهي كالحجارة أو أشد قسوة» أوردها بالجملة الاسمية مع كون ما سبق جملة فعلية للدلالة على استمرار قساوة قلوبهم. (أبو السعود ١/ ١١٥).

(٢) خلف: هو أبو محمد خلف بن هشام بن طالب بن البزار، وكان زاهداً عابداً اشتهر بالرواية عن حمزة أحد القراء السبعة وتوفي عام (٢٢٩)هـ.

(٣) أبو بكر: هو شعبة بن عياش بن سالم الأسدي، ويكنى أبا بكر لأن شعبة اسم مشترك بينه وبين شعبة بن الحجاج البصري، وكان شعبة إماماً عالماً كبيراً، اشتهر بالرواية عن عاصم الذي هو أحد القراء السبعة، وقد توفي بالكوفة عام (١٩٣)هـ.

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ
ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا
يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ
أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ

أو تأويله فيفسرونه بما يشتهون. وقيل هؤلاء من السبعين المختارين سمعوا كلام الله تعالى حين كلم موسى عليه السلام بالطور، ثم قالوا سمعنا اللهَ تعالى يقول في آخره: إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا وإن شئتم فلا تفعلوا. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي فهموه بعقولهم ولم يبقَ لهم فيه رِيبة. ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم مفترون مبطلون، ومعنى الآية: أن أحبار هؤلاء ومقدميهم كانوا على هذه الحالة، فما ظنك بسَفَلَتِهم وجهّالهم، وأنهم إن كفروا وحرفوا فلهم سابقة في ذلك.

(٧٦) ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يعني منافقيهم. ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ بأنكم على الحق، وإن رسولكم هو المبشَّر به في التوراة ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟﴾ أي الذين لم ينافقوا منهم عاتبين على من نافق. ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾[1] بما بين لكم في التوراة من نعت محمد صلى الله عليه وسلم، أو الذين نافقوا لأعقابهم إظهاراً للتصلب في اليهودية، ومنعاً لهم عن إبداء ما وجدوا في كتابهم، فينافقون الفريقين. فالاستفهام على الأول تقريع وعلى الثاني إنكار ونهي ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ ليحتجوا عليكم بما أنزل ربكم في كتابه، جعلوا محاجَّتهم بكتاب الله وحُكْمه محاجةً عنده كما يقال عند الله كذا، ويراد به أنه جاء في كتابه وحُكْمه. وقيل عند ذكر ربكم، أو بين يدي رسول ربكم.

وقيل عند ربكم في القيامة وفيه نظر إذْ الإخفاءُ لا يدفعه. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إما من تمام كلام اللائمين وتقديرُه: أفلا تعقلون أنهم يحاجونكم به فيحجونكم، أو خطاب من الله تعالى للمؤمنين متصل بقوله ﴿۞أَفَتَطْمَعُونَ﴾، والمعنى: أفلا تعقلون حالهم وأن لا مطمع لكم في إيمانهم.

(٧٧) ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني هؤلاء المنافقين، أو اللائمين، أو كليهما، أو إياهم والمحرفين. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ومن جملتهما إسرارُهم الكفر وإعلانُهم الإيمان، وإخفاء ما فتح الله عليهم، وإظهار غيره، وتحريف الكلم عن مواضعه ومعانيه[2].

(٧٨) ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ جَهَلَة لا يعرفون الكتابة فيطالعوا التوراة، ويتحققوا ما فيها. أو التوراة ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ استثناء منقطع. والأماني: جمع أمنية، وهي في الأصل ما يُقَدِّرُه الإنسانُ في نفسه من مَنَى إذا قَدَّر، ولذلك تطلق على الكذب وعلى ما يتمنى وما يقرأ، والمعنى:

---

(١) عبر عنه بالفتح للإيذان بأنه سر مكنون وباب مغلق لا يقف عليه أحد (أبو السعود ١/ ١١٧).

(٢) قدم الإسرار على الإعلان للإيذان بافتضاحهم ووقوع ما يحذرونه من أول الأمر، والمبالغة في بيان شمول علمه المحيط لجميع المعلومات، كأنّ علمه بما يسرونه أقدم منه بما يعلنونه مع كونهما في الحقيقة على السوية (أبو السعود ١/ ١١٨).

ولكن يعتقدون أكاذيب أخذوها تقليداً من المُحَرِّفين، أو مواعيد فارغة سمعوها منهم من أن الجنة لا يدخلُها إلا من كان هوداً، وأن النار لن تمسَّهم إلا أياماً معدودة. وقيل إلا ما يقرؤون قراءة عارية عن معرفة المعنى وتدبره من قوله:

تَمَنَّى كِتَابَ الله أَوَّلَ لَيْلِهِ   تمني دَاودَ الزبُورَ على رِسْلِ

وهو لا يناسب وصفهم بأنهم أميون. ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ما هم إلا قوم يظنون لا عِلْم لهم، وقد يُطلق الظن بإزاءِ العلم على كل رأيٍ واعتقادٍ من غير قاطع، وإن جَزَمَ به صاحبهُ: كاعتقاد المقلد والزائغ عن الحق لشبهة.

(٧٩) ﴿فَوَيْلٌ﴾ أي تحسر وهَلَكٌ. ومن قال إنه وادٍ أو جبلٌ في جهنم فمعناه: أن فيها موضعاً يتبوأ فيه من جعل له الويل، ولعله سماه بذلك مجازاً. وهو في الأصل مصدر لا فعل له وإنما ساغ الابتداء به نكرةً لأنه دعاء. ﴿لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني المحرِّفين، ولعله أراد به ما كتبوه من التأويلات الزائغة. ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ تأكيدٌ كقولك: كتبتُه بيميني ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ كي يُحَصِّلوا به عرضاً من أعراضِ الدنيا، فإنه وإن جُعِل قليل بالنسبة إلى ما استوجبوه من العقاب الدائم. ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني المحرَّف. ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ يريد به الرُّشى.

(٨٠) ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ المس اتصال الشيء بالبشرة بحيث تتأثر الحاسةُ به، واللمس كالطلب له ولذلك يقال ألمسُه فلا أجده. ﴿إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ محصورة قليلة، روي أن بعضهم قالوا نعذَّب بعدد أيام عبادة العجل أربعين يوماً، وبعضهم قالوا مدةُ الدنيا سبعة آلاف سنة وإنما نُعذَّب مكان كل ألف سنة يوماً ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾ خبراً أو وعد بما تزعمون. وقرأ ابن كثير وحفص بإظهار الذال. والباقون بإدغامه ﴿فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾ جواب شرط مقدر أي: إن اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده، وفيه دليل على أن الخُلْف في خبرِهِ محال.

﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أم معادِلةٌ لهمزة الاستفهام بمعنى أيُّ الأمرين كائن، على سبيل التقرير للعلم بوقوع أحدِهما، أو منقطعةٌ بمعنى: بل أتقولون، على التقرير والتقريع.

(٨١) ﴿بَلَىٰ﴾ إثباتٌ لما نفَوْه من مَساس النار لهم زماناً مديداً ودهراً طويلاً على وجه أعم، ليكون كالبرهان على بطلان قولهم، وتختص بجواب النفي ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ قبيحة، والفرق بينها وبين الخطيئة أنها قد تقال فيما يُقصد بالذات، والخطيئة تغْلِب فيما يُقصد بالعَرَضِ لأنه من الخطأ، والكسب: استجلاب النفع. وتعليقه بالسيئة على طريق قوله ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(١).

﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ أي استولت عليه، وشمِلَت جملةَ أحوالِه حتى صار كالمُحَاطِ بها لا يخلو عنها شيءٌ من جوانبه، وهذا إنما يصح في شأن الكافر لأن غيره وإن لم يكن له سوى تصديقِ قلبه وإقرارِ لسانه فلمْ تُحطْ الخطيئة به، ولذلك فسرها السلف بالكفر. وتحقيق ذلك: أن من أذنب ذنباً ولم يقلع عنه استجرَّه إلى معاودة مثله والانهماك فيه وارتكاب ما هو أكبر منه، حتى تستوليَ عليه الذنوبُ

---

(١) آل عمران: «٢١».

ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي
ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ
ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ
دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٨٤﴾

وتأخذ بمجامع قلبه فيصيرَ بطبعه مائلاً إلى المعاصي، مستحسناً إياها معتقِداً أن لا لذة سواها، مبغِضاً لمن يمنعُه عنها مكذِّباً لمن ينصحه فيها، كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾[1]. وقرأ نافع خطيئاته. وقرىء خطيَّته وخطيّاتُه على القلب والإدغام فيهما. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾[2] ملازموها في الآخرة كما أنهم ملازمون أسبابها في الدنيا ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ دائمون، أو لابثون لبثاً طويلاً. والآية كما ترى لا حجة فيها على خلود صاحب الكبيرة وكذا التي قبلها.

(٨٢) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ جرت عادته سبحانه وتعالى على أن يُشفِع وعده بوعيده، لتُرجى رحمته ويُخشى عذابُه، وعطفُ العمل على الإيمان يدل على خروجه عن مُسَماه.

(٨٣) ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ إخبارٌ في معنى النهي كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ﴾ وهو أبلغ من صريح النهي لما فيه من إيهام أن المنهيَّ سارعٌ إلى الانتهاء فهو يخبر عنه، ويعضده قراءة: لا تعبدوا وعطْفُ قولوا عليه، فيكون على إرادة القول. وقيل: تقديره أن لا يعبدوا فلما حَذَفَ أَنْ رُفِعَ كقوله:

ألا أيهذا الزاجِري أحضُرَ الوَغَى	وأنْ أشهَدَ اللذاتِ هَلْ أنتَ مُخلِدي

ويدل عليه قراءة: ألا تعبدوا، فيكون بدلاً عن الميثاق، أو معمولاً له بحذف الجار. وقيل إنه جواب قسم دل عليه المعنى كأنه قال: وحَلَّفناهم لا يعبدون. وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وعاصم ويعقوب بالتاء حكاية لما خوطبوا به، والباقون بالياء لأنهم غيبٌ ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا﴾ تعَلّق بمضمر تقديره: وتحسنون أو أحسنوا ﴿وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ عطف على الوالدين. واليتامى جمع يتيم كنديم وندامى وهو قليل. ومسكين مِفعيل من السكون، كأن الفقر أسكنه ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ أي قولاً حسناً، وسماه حَسَنَاً للمبالغة. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب حسناً بفتحتين. وقرىء حُسُناً بضمتين وهو لغة أهل الحجاز، وحُسْنى على المصدر كبُشرى، والمرادُ به ما فيه تخلُّق وإرشاد

---

(١) الروم: «١٠».

(٢) إيراد اسم الإشارة المنبىء عن استحضار المشار إليه بما له من الأوصاف للإشعار بعليتها لصاحبية النار. وما فيه من معنى البعد للتنبيه على بُعد منزلتهم في الكفر والخطايا (أبو السعود ١/ ١٢٢).

ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم
بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ
بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يريد بهما ما فُرِض عليهم في ملتهم ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ على طريقة الالتفات، ولعل الخطاب مع الموجودين منهم في عهد رسول الله ﷺ ومَنْ قبلهم على التغليب، أي أعرضتم عن الميثاق ورفضتموه ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ يريد به من أقام اليهودية على وجهها قبل النسخ، ومن أسلم منهم ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ قوم عاداتهم الإعراض عن الوفاء والطاعة. وأصل الإعراض الذهابُ عن المواجهة إلى جهة العَرْض.

(٨٤) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ على نحو ما سبق، والمرادُ به أن لا يتعرَّض بعضهم بعضاً بالقتل والإجلاء عن الوطن. وإنما جُعل قتل الرجل غيرَه قتلَ نفسِهِ لاتصاله به نسباً أو ديناً، أو لأنه يوجبه قصاصاً. وقيل معناه لا ترتكبوا ما يبيح سفك دمائكم وإخراجَكم من دياركم، أو لا تفعلوا ما يُرْديكم ويصرفُكم عن الحياة الأبدية فإنه القتل في الحقيقة، ولا تقترفوا ما تُمْنَعون به عن الجنة التي هي دارُكم، فإنه الجلاء الحقيقي ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ بالميثاق واعترفتم بلزومه ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ توكيدٌ كقولك: أقر فلان شاهداً على نفسه. وقيل وأنتم أيها الموجودون تشهدون على إقرار أسلافكم، فيكون إسناد الإقرار إليهم مجازاً.

(٨٥) ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ استبعادٌ لما ارتكبوه بعد الميثاق والإقرارِ به والشهادةِ عليه. وأنتم مبتدأ وهؤلاء خبرُهُ على معنى أنتم بعد ذلك هؤلاء الناقضون، كقولك أنت ذلك الرجل الذي فعل كذا، نَزَّلَ تغيُّرَ الصفة منزلَة تغيُّر الذات، وعدَّهم باعتبار ما أَسْنَدَ إليهم حُضُوراً وباعتبار ما سيحكي عنهم غَيَباً. وقوله تعالى: ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ﴾ إما حال والعامل فيها معنى الإشارة، أو بيان لهذه الجملة. وقيل: هؤلاء تأكيد، والخبر هو الجملة. وقيل بمعنى الذين والجملة صلته والمجموع هو الخبر، وقرىء تُقَتِّلُونَ على التكثير. ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ حال من فاعل تُخرِجون، أو من مفعوله، أو كليهما. والتظاهر التعاون من الظَّهر. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بحذف إحدى التاءين. وقرىء بإظهارها، وتَظَّهَّرون بمعنى تتظهرون ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ﴾ روي أن قريظة كانوا حلفاء الأوس، والنضير حلفاء الخزرج، فإذا اقتتلا عاون كلُّ فريق حلفاءَه في القتل وتخريب الديار وإجلاء أهلها، وإذا أُسِر أحد من الفريقين جَمَعُوا له حتى يُفْدُوه. وقيل معناه إن يأتوكم أسارى في أيدي الشياطين تتصدوا لإنقاذهم بالإرشاد والوعظ مع تضييعكم أنفسكم كقوله

يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ
وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا
تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ
عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟

تعالى: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾(١). وقرأ حمزة أَسْرَى وهو جمع أسير كجريح وجَرحى، وأُسارى جمعه كسكرى وسُكارى. وقيل هو أيضاً جمع أسير، وكأنه شُبِّه بالكسلان وجمع جمعه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وابن عامر تفدوهم ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ﴾ متعلق بقوله وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم، وما بينهما اعتراض، والضمير للشأن، أو مُبْهَم ويفسره إخراجهم، أو راجع إلى ما دل عليه تخرجون من المصدر. وإخراجهم بدل أو بيان ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ يعني الفداء.

﴿ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ﴾ يعني حَرْمَةُ المقاتلة والإجلاء. ﴿ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ كقتل قريظة وسَبْيهم. وإجلاء بني النضير، وضَرْبِ الجزية على غيرهم. وأصلُ الخزيِ ذُلٌّ يُستحيا منه، ولذلك يُستعمل في كل منهما. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ لأن عصيانهم أشد. ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تأكيد للوعيد، أي الله سبحانه وتعالى بالمرصاد لا يغفُل عن أفعالهم. وقرأ عاصم في رواية المفضّل، تردون على الخطاب لقوله ﴿مِّنكُمْ﴾. وابن كثير ونافع وعاصم في رواية أبي بكر، وخلف ويعقوب يعملون على أن الضمير لمَنْ.

(٨٦) ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ﴾ آثروا الحياة الدنيا على الآخرة. ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ بنقص الجزية في الدنيا، والتعذيب في الآخرة. ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ بدفعهما عنهم.

(٨٧) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي التوراة ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ﴾ أي أرسلنا على أثره الرسل، كقوله سبحانه وتعالى ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ﴾(٢). يقال قَفّاه إذا تبعه، وقَفّاهُ به إذا أتبعه إياه من القَفَا، نحو ذَنَّبَه من الذنب ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ المعجزات الواضحات كإحياء الموتى وإبراء الأكمَه والأبرص والإخبار بالمغيبات، أو الإنجيل. وعيسى بالعبرية أبشوع. ومريم بمعنى الخادم، وهو بالعربية من النساء كالزِّير من الرجال، قال رؤبة: قُلْتُ لِزِيرٍ لَمْ تَصِلْهُ مَرْيمه. ووزنه مفعَل إذ لم يثبت فعيل ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾ وقويناه، وقرىء آيدناه بالمدّ ﴿ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ﴾ بالرُّوح المقدسة كقولك: حاتِم الجود ورجلُ صدقٍ، وأراد به جبريل، وقيل: روح عيسى عليه الصلاة والسلام، ووصفها به لطهارته عن مس الشيطان، أو لكرامته على الله سبحانه وتعالى ولذلك أضافه إلى نفسه تعالى، أو لأنه لم تضمَّه الأصلابُ والأرحام الطوامثُ. أو . . . .

(١) البقرة: ٤٤.
(٢) المؤمنون: ٤٤.

كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ
أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ
وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ
عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن
قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ

الإنجيلُ[١]، أو اسم الله الأعظم الذي كان يحيي به الموتى. وقرأ ابن كثير القُدْس بالإسكان في جميع القرآن ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾ بما لا تحبه. يقال هوِيَ بالكسر هَوىً إذا أحب، وهَوى بالفتح هُوياً بالضم إذا سقط. ووُسِّطت الهمزة بين الفاء وما تعلقت به توبيخاً لهم على تعقيبهم ذاك بهذا وتعجيباً من شأنهم، ويُحْتَمَل أن يكون استئنافاً والفاء للعطف على مقدَّر، ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان واتباع الرسل. ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾ كموسى وعيسى عليهما السلام، والفاء للسببية أو للتفصيل ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ كزكريا ويحيى عليهما السلام، وإنما ذُكِر بلفظ المضارع على حكاية الحالِ الماضيةِ استحضاراً لها في النفوس، فإن الأمر فظيع. أو مراعاةً للفواصل، أو للدلالة على أنكم بعدُ فيه، فإنكم تتحومون حول قتل محمد صلى الله عليه وسلم لولا أني أعصمه منكم، ولذلك سحرتموه وسممتم له الشاة[٢].

(٨٨) ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾[٣] مغشَّاة بأغطية خَلْقِية لا يصل إليها ما جئتَ به ولا تفقهُه، مستعارٌ من الأغْلَف الذي لم يُختَن وقيل أصله غُلُف جمع غلاف فَخُفِّف، والمعنى أنها أوعية للعلم لا تَسْمعُ علماً إلا وَعَتْه، ولا تعي ما تقولُ. أو نحن مستغنون بما فيها عن غيره. ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ رد لما قالوه، والمعنى أنها خلقت على الفطرة والتمكن من قبول الحق، ولكن الله خَذَلَهم بكفرهم فأبطل استعدادهم، أو أنها لم تأبَ قبول ما تقولُه لخللٍ فيه، بل لأن الله تعالى خذلهم بكفرهم كما قال تعالى ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ﴾[٤]، أو هم كفرة ملعونون فمن أين لهم دعوى العلم والاستغناء عنك؟

---

(١) قوله أو الإنجيل عطف على قوله: وأراد به جبريل.

(٢) خصّ عيسى عليه السلام بالذكر من بين الرسل الذين بعثوا بعد موسى ووصِف بما ذكر من إيتاء البينات والتأييد بروح القدس لما أن بعثتهم كانت لتنفيذ أحكام التوراة وتقريرها، أما عيسى عليه السلام فقد نُسخ بشرعه كثير من أحكامها، ولحسم مادة اعتقادهم الباطل في حقه عليه السلام ببيان حقيته وإظهاره كما قبح ما فعلوا به عليه السلام.
وعبر بقوله «بما لا تهوى أنفسكم» للإيذان بأن مدار الرد والقبول عندهم هو المخالفةُ، لأهواءِ أنفسهم والموافقة لها لا لشيء آخر. (أبو السعود ١/١٢٧).

(٣) قوله: «وقالوا قلوبُنا غلْف» بيان لفن آخر من قبائحهم على طريق الالتفات إلى الغيبة إشعاراً بإبعادهم عن رتبة الخطاب، لما فُصِّل من مخازيهم الموجبة للإعراض عنهم (أبو السعود ١/١٢٧).

(٤) محمد: «٢٣».

﴿ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فإيماناً قليلاً يؤمنون، وما مزيدة للمبالغة في التقليل، وهو إيمانهم ببعض الكتاب. وقيل: أراد بالقلة العدم.

(٨٩) ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يعني القرآن ﴿ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من كتابهم، وقرىء بالنصب على الحال من كتاب لتخصُّصه بالوصف، وجواب لمّا محذوف دل عليه جواب لِمَا الثانية. ﴿ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي يستنصرون على المشركين ويقولون: اللهم انصرنا بنبيٍّ آخرِ الزمان المنعوت في التوراة. أو يفتحون عليهم ويعرفونهم أن نبياً يبعث منهم وقد قرب زمانه، والسين للمبالغة والإشعارِ أن الفاعل يسأل ذلك عن نفسه ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟﴾[1] من الحق. ﴿ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ حسداً وخوفاً على الرياسة. ﴿ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي عليهم، وأتى بالمُظْهَر للدلالة على أنهم لُعِنوا لكفرهم، فتكونَ اللام للعهد، ويجوز أن تكونَ للجنس ويدخلون فيه دخولاً أولياً لأن الكلام فيهم.

(٩٠) ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ ما نكرة بمعنى شيء مميِّزَة لفاعلِ بئس المستكنّ، واشتروْا صفته ومعناه باعوا، أو اشتروا بحسب ظنهم، فإنهم ظنوا أنهم خلَّصوا أنفسهم من العقاب بما فعلوا. ﴿ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ هو المخصوص بالذم ﴿ بَغْيًا﴾ طلباً لما ليس لهم وحسداً، وهو علةُ ﴿ أَن يَكْفُرُوا۟﴾ دون ﴿ ٱشْتَرَوْا۟﴾ للفصل. ﴿ أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ﴾ لأن ينزل، أي حسدوه على أن ينزل الله. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وسهل[2] ويعقوب بالتخفيف. ﴿ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يعني الوحي. ﴿ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ على من اختاره للرسالة ﴿ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ للكفر والحسد على من هو أفضل الخلق. وقيل: لكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم بعد عيسى عليه السلام، أو بعد قولهم عزيرٌ ابنُ الله ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يراد به إذلالُهم، بخلاف عذاب العاصي فإنه طُهْره لذنوبه.

(٩١) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ يعم الكتب المنزلة بأسرها. ﴿ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أي بالتوراة ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ حال من الضمير في قالوا، ووراء في الأصل مصدرٌ جُعل ظرفاً، ويضاف إلى الفاعل فيراد به ما يتوارى به وهو خلفه، وإلى المفعول فيراد به ما يواريه وهو قدّامُه، ولذلك عُدَّ من الأضداد. ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الضمير لما وراءه، والمراد به القرآن ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ حال مؤكدة تتضمن رد مقالهم، فإنهم لما كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ اعتراض عليهم بقتل الأنبياء مع ادعاء الإيمان بالتوراة والتوراةُ لا تسوِّغه، وإنما أَسْنَدَه إليهم لأنه فِعْلُ آبائهم، وأنهم راضون به عازمون عليه. وقرأ نافع وحده أَنْبِئاء الله مهموزاً في جميع القرآن.

---

(١) أورد الاسم الموصول «ما» لبيان كمال مكابرتهم، فإن معرفة ما جاءهم من مبادىء الإيمان به ودواعيه لا محالة. والفاء للدلالة على تعقيب مجيئه للاستفتاح به من غير أن يتخلل بينهما مدة منسية له (أبو السعود ١/١٢٨).

(٢) سهل: هو سهل بن عبدالله بن يونس بن عيسى بن عبدالله بن رَفيع التسْتَريُّ وكنيته أبو محمد، وكان من الزهاد وله كلام حسن، صحب خاله محمد بن سوَّار، وشاهد ذا النُّون المِصريّ سنة خروجه للحج بمكة توفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين [المنتظم (٥/١٦٣) وطبقات الصوفية (ص٣٠٦ رقم ١٠)].

بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ
ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ
بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلۡ إِن كَانَتۡ
لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾

(٩٢) ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ يعني الآيات التسع المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ﴾[1] ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾ أي إلهاً ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ من بعد مجيء موسى، أو ذهابه إلى الطور ﴿وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ حال، بمعنى اتخذتم العجل ظالمين بعبادته، أو بالإخلال بآيات الله تعالى، أو اعتراض بمعنى وأنتم قوم عادتكم الظلم.

ومساقُ الآية أيضاً لإبطال قولهم ﴿نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾[2] والتنبيهِ على أن طريقتَهم مع الرسول طريقةَ أسلافهم مع موسى عليهما الصلاة والسلام، لا لتكرير القصة وكذا ما بعده.

(٩٣) ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ﴾ أي قلنا لهم: خذوا ما أمرتم به في التوراة بجدٍّ واسمعوا سماع طاعة. ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا﴾ قولك ﴿وَعَصَيۡنَا﴾ أمرك ﴿وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾ تداخلَهم حبُّه ورسخ في قلوبهم صورتُه لفرط شغفهم به، كما يتداخل الصبغُ الثوبَ والشرابُ أعماقَ البدن. وفي قلوبهم: بيان لمكان الإشراب كقوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ﴾[3] ﴿بِكُفۡرِهِمۡۚ﴾ بسبب كفرهم وذلك لأنهم كانوا مُجَسِّمة أو حلولية ولم يروا جسماً أعجبَ منه، فتمكّن في قلوبهم ما سوّل لهم السامري ﴿قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ﴾ أي بالتوراة، والمخصوصُ بالذم محذوف، نحو هذا الأمر أو ما يعمه وغيره من قبائحهم المعدودة في الآيات الثلاث إلزاماً عليهم ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ تقرير للقدح في دعواهم الإيمان بالتوراة، وتقديره: إن كنتم مؤمنين بها لم يأمركم بهذه القبائح ولا يرخّص لكم فيها إيمانكم بها، أو إن كنتم مؤمنين بها فبئسما يأمركم به إيمانكم بها، لأن المؤمن ينبغي أن لا يتعاطى إلا ما يقتضيه إيمانُه، لكن الإيمان بها لا يأمر به، فإذاً لستم بمؤمنين.

(٩٤) ﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ﴾ خاصة بكم كما قلتم: لن يدخلَ الجنة إلا من كان هوداً، ونصبها على الحال من الدار. ﴿مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ سائرهم، واللام للجنس، أو المسلمين واللام للعهد ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ لأن من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاقها وأحب التخلص إليها من الدار ذات الشوائب، كما قال علي رضي الله تعالى عنه: لا أبالي سقطت على الموت، أو سقط الموت علي. وقال عمار رضي الله تعالى عنه بصفّين: الآن ألاقي الأحبة محمداً

---

(١) الإسراء: «١٠١».
(٢) البقرة: «٩١».
(٣) النساء: «١٠».

وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ

وحزبه. وقال حذيفة رضي الله عنه حين احتُضِر: جاء حبيب على فاقة لا أفلح من ندم أي: على التمني، سيما إذا علم أنها سالمة له لا يشاركه فيها غيره.

(٩٥) ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من موجبات النار، كالكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم، والقرآنِ، وتحريفِ التوراة. ولما كانت اليد العاملة مختصةً بالإنسان آلةٌ لقدرته بها عامةُ صنائعهِ ومنها أكثرُ منافعه عبّر بها عن النفس تارة والقدرة أخرى، وهذه الجملة إخبار بالغيب وكان كما أخبر، لأنهم لو تمنوا لنُقِل واشتُهِر، فإن التمني ليس من عمل القلب ليخفى، بل هو أن يقول: ليتَ لي كذا، ولو كان بالقلب لقالوا: تمنينا. وعن النبي صلى الله عليه وسلم «لو تمنوا الموت لغص كل إنسان بِرِيقه فمات مكانَه، وما بقي على وجه الأرض يهودي»[1] ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ تهديد لهم وتنبيه على أنهم ظالمون في دعوى ما ليس لهم، ونفيُه عمن هُوَ لهم.

(٩٦) ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ مِنْ وَجَدَ بعقله الجاري مجرى عَلِمَ، ومفعولاه هم وأحرص الناس، وتنكير حياة لأنه أريد بها فردٌ من أفرادها وهي: الحياة المتطاولة، وقرىء باللام. ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ محمول على المعنى وكأنه قال: أحرص من الناس على الحياة ومن الذين أشركوا. وإفرادُه بالذكر للمبالغة، فإن حرصَهم شديدٌ إذ لم يعرفوا إلا الحياة العاجلة، والزيادة في التوبيخ والتقريع، فإنهم لما زاد حرصهم ـ وهم مقرون بالجزاء على حرص المنكرين ـ دل ذلك على علمهم بأنهم صائرون إلى النار، ويجوز أن يُراد وأحرص من الذين أشركوا، فحَذَف أحرص لدلالة الأول عليه، وأن يكون خبر مبتدأ محذوف صفته ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾ على أنه أريد بالذين أشركوا اليهود لأنهم قالوا: عزير ابنُ الله، أي: ومنهم ناس يود أحدهم، وهو على الأولين بيان لزيادة حرصهم على طريق الاستئناف.

---

(١) أخرج البيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٢٧٤) من طريق الكلبي، عن أبي صالح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن كنتم في مقالتكم صادقين فقولوا: اللهم أمتنا. فو الذي نفسي في يده لا يقولها رجل منكم إلا غَصَّ بريقه فمات مكانه...».

والكلبي متروك، وأبو صالح ضعيف مدلس.

● وأخرج أحمد في المسند (١/ ٢٤٨) عن ابن عباس قال: قال أبو جهل لئن رأيت رسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة لآتينّه حتى أطأ عنقهُ، قال: فقال: «لو فعل لأخذته الملائكة عياناً. ولو أن اليهود تمنَّوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم في النار...».

قلت: أخرج البخاري (٨/ ٧٢٤ رقم ٤٩٥٨) والترمذي (٥/ ٤٤٣ رقم ٣٣٤٨) الشطر الأول فقط.

وقال الحافظ في «الفتح» (٨/ ٧٢٤): وأما بهذه الزيادة «ولو أن اليهود تمنوا لماتوا» فهي عند الإسماعيلي.

كما أخرجه ابن جرير في التفسير (١/ ٤٢٤) مرفوعاً وموقوفاً بدون الشطر الأول.

﴿لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ حكاية لودادتهم، ولو بمعنى ليت وكان أصله: لو أعمر، فأُجريَ على الغيبة لقوله: يود، كقولك حلف بالله ليفعلن ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ الضمير لأحدهم، وأن يعمر فاعل مزحزحه، أي وما أحدهم بمن يزحزحه من العذاب تعميره، أو لما دل عليه يعمر. وأن يعمر بدل منه. أو منهم، وأن يعمَّر موضحه. وأصل سنة سَنْوة لقولهم سنوات. وقيل سَنْهَة كجبهة لقولهم سانهته وتسنَّهَتِ النخلةُ إذا أتت عليها السنون، والزحزحة التبعيد ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فيجازيهم.

(٩٧) ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ نزل في عبد الله بن صوريا[١]، سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمَّن ينزلُ عليه بالوحي؟ فقال: جبريل، فقال: ذاك عدوُّنا عادانا مراراً، وأشَدُّها أنه أنزل على نبينا أنّ بيت المقدس سيَخْرُبه بختنصر، فبعثنا من يقتله فرآه ببابلَ فدفع عنه جبريل. وقال: إن كان ربكم أمَرَه بهلاكِكم فلا يسلِّطكم عليه وإلا فَبِمَ تقتلونه؟[٢]. وقيل: دخل عمر رضي الله تعالى عنه مِدْراس اليهود يوماً، فسألهم عن جبريل فقالوا: ذاك عدونا يُطْلع محمداً على أسرارنا وإنه صاحب كل خسف وعذاب، وميكائيل صاحبُ الخصب والسلام، فقال: وما مَنْزلَتُهما من الله؟ قالوا: جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره وبينهما عداوة، فقال: لئن كانا كما تقولون فليسا بعدوَّيْن ولأنتم أكفر من الحمير، ومن كان عدو أحدهما فهو عدو الله. ثم رجع عمر فوجد جبريل قد سبَقَه بالوحي فقال عليه الصلاة والسلام «لقد وافقك ربك يا عمر»[٣]. وفي جبريل ثمان لغات قرىء بهن أربع في: المشهور جَبْرَئِيل كسلسبيل قراءة حمزة والكسائي، وجَبْرِيل بكسر الراء وحذف الهمزة قراءة ابن كثير، وجَبْرَئِل كجحمرش قراءة عاصم برواية أبي بكر، وجِبْرِيل كقنديل قراءة الباقين. وأربع في الشواذ: جَبْرائل وجَبْرائيل كجبراعيل، وجَبْرَئلّ وجَبْرين[٤] ومنع صرفه للعجمة والتعريف، ومعناه عبدالله. ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ﴾ البارزُ الأول لجبريل والثاني للقرآن، وإضمارُه غير مذكور يدل على فخامة شأنه كأنه لتعينه وفَرْط شهرته لم يحتج إلى سبق ذكره. ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ فإنه القابل الأول للوحي، ومحل الفهم والحفظ، وكان حقُّه على قلبي لكنه جاء على حكاية كلام الله تعالى كأنه قال: قل ما تكلمت به. ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بأمره، أو تيسيره حال من فاعل نَزَّله. ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أحوالٌ من مفعوله، والظاهر أن جواب الشرط ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ﴾، والمعنى من عادى منهم جبريل فقد خلع رِبْقة الإنصاف، أو كفر بما معه من الكتاب بمعاداته إياه لنزوله عليك بالوحي، لأنه نزل كتاباً مصدقاً للكتب المتقدمة، فحذف الجواب وأقيم علتُه مقامَه، أو مَنْ عاداه فالسبب في عداوته أنه نزله عليك. وقيل محذوف مثل: فليَمُت غيظاً، أو فهو عدو لي وأنا عدو له.

---

(١) عبدالله بن صوريا: يهودي من أحبار «فَدَك».

(٢) أورده البغوي في تفسيره (١/٩٦) بلا سند. وأخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٢٤ ـ ٢٥ من حديث ابن عباس.

(٣) أخرجه الواحدي في أسباب النزول (ص٢٥ ـ ٢٦) من طريق علي بن مسهر، عن داود، عن الشعبي، عنه. وأخرجه ابن جرير في التفسير (١/٤٣٣) من طريق داود عن الشعبي، كما رواه من طريق مجاهد عن الشعبي نحوه (١/٤٣٥) وعن قتادة قوله.

(٤) قال الألوسي: (أفصحها وأشهرها جِبريْل كقِنديْل وهي قراءة أبي عمرو ونافع وابن عامر وحفص عن عاصم) (روح المعاني ١/٣٣٢).

لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُوا۟
عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا
مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

كما قال:

(٩٨) ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ أراد بعداوة الله مخالَفَتَه عِناداً، أو معاداةُ المقربين من عباده، وصدَّر الكلام بذكره تفخيماً لشأنهم كقوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾[١]. وأفرد المَلَكَيْن بالذكر لفضلهما كأنهما من جنس آخر، والتنبيه على أن معاداة الواحد والكل سواءٌ في الكفر واستجلاب العداوة من الله تعالى، وأن من عادى أحدَهم فكأنه عادى الجميعَ، إذ الموجبُ لعداوتهم ومحبتهم على الحقيقة واحد، ولأن المحاجة كانت فيهما. ووضعُ الظاهر[٢] موضع المضمر للدلالة على أنه تعالى عاداهم لكفرهم، وأن عداوة الملائكة والرسل كفر. وقرأ نافع ميكائل كميكاعل، وأبو عمرو ويعقوب وعاصم برواية حفص ميكَال كميعاد، والباقون ميكائيل بالهمزة والياء بعدها. وقرىء ميكَئِل كميكعل، وميكئيل كميكعيل، وميكايل.

(٩٩) ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ أي المتمردون من الكَفَرة. والفسقُ إذا استعمل في نوع من المعاصي دل على عِظَمه كأنه ستجاوز عن حده. نزل في ابن صوريا حين قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل عليك من آية فنتبعك.

(١٠٠) ﴿أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُوا۟ عَهْدًا﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف على محذوف تقديره أكَفروا بالآيات وكلما عاهدوا، وقرىء بسكون الواو على أن التقدير إلا الذين فسقوا، أو كلما عاهدوا، وقرىء عوهِدوا وعَهِدوا. ﴿ نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾ نقضه، وأصل النبْذ الطرح، لكنه يغلِب فيما يُنسى، وإنما قال فريقٌ لأن بعضهم لم يَنْقُض ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ رد لما يُتوهم من أن الفريق هم الأقلون، أو أن من لم ينبُذ جِهاراً فهم مؤمنون به خفاءً.

. (١٠١) ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ[٣] عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ كعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام. ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ﴾ يعني التوراة[٤]، لأن كفرهم بالرسولِ المصدِّق لها كفر بها فيما يصدِّقه ونبذ لما فيها من وجوب الإيمان بالرسل المؤيَّدين بالآيات. وقيل ما مع الرسول صلى الله عليه وسلم هو القرآن.

---

(١) التوبة: «٦٢».

(٢) أي قال: «عدوّ للكافرين» ولم يقل عدو لهم، فأظهر لفظ الكافرين ولم يُشِر إليهم بالإضمار رغم العلم بهم ودلالة السياق عليهم.

(٣) التنكير في رسول للتفخيم، ووصف الرسول بأنه من عند الله لإفادة مزيد تعظيمه بتأكيد ما أفاده التنكير من الفخامة الذاتية الإضافية (أبو السعود ١/ ١٣٦).

(٤) وصف التوراة على هذا المعنى بأنه كتاب الله تشريف لها وتعظيم لحقها عليهم وتهويل لما اجترؤوا عليه من الكفر بها (أبو السعود ١/ ١٣٦).

وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾

﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ مَثَلٌ لإعراضهم عنه رأساً، بالإعراض عما يُرمى به وراء الظهر لعدم الالتفات إليه. ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه كتاب الله، يعني أن علمهم به رصين ولكن يتجاهلون عناداً. واعلم أنه تعالى دل بالآيتين على أن جيل اليهود أربع فرق: فرقة آمنوا بالتوراة وقاموا بحقوقها كمؤمني أهل الكتاب وهم الأقلون المدلول عليهم بقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1]. وفرقة جاهَرُوا بنبذ عهودها وتخطي حدودها تمرداً وفسوقاً، وهم المعنيون بقوله ﴿نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾[2]. وفرقة لم يجاهروا بنبذها ولكن نَبَذوا لجهلهم بها وهم الأكثرون. وفرقة تمسكوا بها ظاهراً ونبذوها خفية عالمين بالحال، بغياً وعناداً وهم المتجاهلون.

(١٠٢) ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ عطف على نَبَذ، أي نبذوا كتاب الله واتبعوا كتب السحر التي تقرؤها أو تتبعها الشياطين من الجن أو الإنس أو منهما. ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ أي عهده، وتتلو حكايةُ حالٍ ماضِية. قيل: كانوا يسترقون السمع ويضمُّون إلى ما سمعوا أكاذيب، ويلقونها إلى الكهنة وهم يدوِّنونها ويعلِّمون الناس، وفشا ذلك في عهد سليمان عليه السلام حتى قيل: إن الجن يَعْلَمُون الغيب، وأن مُلْكَ سليمان تَمَّ بهذا العلم، وأنه تُسَخَّرُ به الجن والإنس والريح له. ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ تكذيب لمن زعم ذلك، وعبَّر عن السحر بالكفر ليدل على أنه كفر، وأن من كان نبياً كان معصوماً منه. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ باستعماله، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ولكنْ بالتخفيف ورفعِ الشياطين. ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ إغواءً وإضلالاً، والجملةُ حال من الضمير. والمرادُ بالسحر ما يُستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان مما لا يستقِل به الإنسان، وذلك لا يستتبّ إلا لمن يناسبُه في الشَّرارة وخُبْث النفس، فإن التناسب شرط في التضامّ والتعاون، وبهذا تَمَيَّزَ الساحرُ عن النبي والولي، وأما ما يُتعجبُ منه كما يفعله أصحاب الحِيَل بمعونة الآلات والأدوية أو يريه صاحبُ خفة اليد فغير مذموم، وتسميته سحراً عمل التجوّز، أو لما فيه من الدقة لأنه في الأصل لما خفيَ سببه. ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ عطف على السحر والمراد بهما واحد، والعطف لتغاير الاعتبار، أو المراد به نوع أقوى منه، أو على ما تتلو. وهما ملَكَان أُنزلا لتعليم السحر ابتلاءً من الله للناس وتمييزاً بينه وبين المعجزة. وما روي أنهما مثلا بشرَيْن ورُكِّب فيهما الشهوةُ فتعرَّضا لامرأة يقال

---

(١) البقرة: «١٠٠».

(٢) البقرة: «١٠٠».

لها زهْرة فحملتهما على المعاصي والشرك ثم صعدت إلى السماء بما تعلمت منهما فمحكي عن اليهود، ولعله من رموز الأوائل، وحلُّه لا يخفى على ذوي البصائر. وقيل: رجلان سُميا ملكين باعتبار صلاحِهما، ويؤيده قراءة الملكين بالكسر. وقيل: ما أُنزل نفيٌ معطوف على ما كفر سليمانُ تكذيبٌ لليهود في هذه القصة. ﴿بِبَابِلَ﴾ ظرف أو حال من الملكين أو الضمير في أُنزل، والمشهورُ أنه بلد من سوادِ الكوفة. ﴿هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾ عطفُ بيانٍ للملكين، ومَنْعُ صرفهما للعَلَميّة والعُجمة، ولو كانا من الهرت والمرت بمعنى الكسر لانصرفا. ومَنْ جَعَل ما نافيةً أبْدَلهما من الشياطين بدلَ البعض، وما بينهما اعتراض. وقرىء بالرفع على هما هاروتُ وماروتُ. ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ فمعناه على الأول ما يعلمان أحداً حتى ينصحاه ويقولا له إنما نحن ابتلاء من الله، فمَنْ تعلم مِنّا وعمل به كَفَر، ومن تعلم وتوقّى عَمَلَه ثبت على الإيمان، فلا تكفرْ باعتقادِ جوازه والعمل به. وفيه دليل على أن تعلمَ السحر وما لا يجوز اتباعه غير محظور، وإنما المنع من اتباعه والعمل به. وعلى الثاني ما يُعَلمانه حتى يقولا إنما نحن مفتونان فلا تكن مثْلَنا. ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾ الضمير لما دل عليه من أحد. ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ أي من السحر ما يكون سببَ تفريقهما. ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ لأنه وغيرَه من الأسباب غيرُ مؤثِّرةٍ بالذات، بل بأمره تعالى وجَعْله. وقرىء بضاري على الإضافة إلى أحد، وجُعِل الجارّ جزء منه والفصل بالظرف.

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ﴾ لأنهم يقصدون به العمل، أو لأن العلم يجر إلى العمل غالباً ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ إذ مجرد العلم به غير مقصود ولا نافع في الدارين. وفيه أن التحرز عنه أولى ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟﴾ أي اليهود. ﴿لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ أي استبدل ما تتلوا الشياطين بكتاب الله تعالى، والأظهرُ أن اللام لامُ الابتداء علَّقت عَلِموا عن العمل ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ نصيب ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ يَحتمل المعنيين على ما مر. ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ يتفكرون فيه، أو يعلمون قبحه على التعيين، أو حقية ما يَتْبَعه من العذاب، والمثْبَت لهم أولاً على التوكيد القَسَميّ العقلُ الغريزي أو العِلْم الإجمالي بقبح الفعل، أو ترتب العقاب من غير تحقيق وقيل: معناه لو كانوا يعملون بعلمهم، فإن من لم يعمل بما علم فهو كمن لم يعلم.

وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا
تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن
يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ
أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ

(١٠٣) ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ﴾ بالرسول والكتاب. ﴿ وَٱتَّقَوْا۟ ﴾ بترك المعاصي، كنبذ كتاب الله واتباع السحر ﴿ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ جواب لو، وأصله لأُثيبوا مثوبة من عند الله خيراً مما شَرَوْا به أنفسهم، فحذف الفعل وركب الباقي جملة اسمية لتدل على ثبات المثوبة والجزم بخيريتها، وحُذِف المفضل عليه إجلالاً للمفضل من أن يُنسَب إليه، وتنكيرُ المثوبة لأن المعنى لشيء من الثواب خير، وقيل: لو للتمني، ولمثوبة كلام مبتدأ. وقرىء لَمَثْوَبَة كمشورة، وأنما سمي الجزاء ثواباً ومثوبة لأن المحسِن يثوب إليه ﴿ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ أن ثواب الله خير مما هم فيه، وقد علموا، لكنه جَهَّلَهُم لترك التدبر، أو العمل بالعلم.

(١٠٤) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا ﴾ الرعْي حفظ الغير لمصلحته، وكان المسلمون يقولون للرسول عليه الصلاة والسلام راعِنا أي راقبنا وتأنَّ بنا فيما تلقننا حتى نفهمه، وسمع اليهود فافترصوه وخاطبوه به مريدين نسبته إلى الرَّعْن، أو سبه بالكلمة العبرانية التي كانوا يتسابون بها وهي راعينا، فنُهِيَ المؤمنون عنها وأمروا بما يفيد تلك الفائدة ولا يقبل التلبيس، وهو انظرنا بمعنى انظر إلينا، أو انتظرنا من نَظَره إذا انتظره. وقرىء أَنْظِرنا من الإنظار أي أمهلنا لنحفظ. وقرىء راعُونا على لفظ الجمع للتوقير، وراعِناً بالتنوين أي قولاً ذا رعن نسبة إلى الرعن وهو الهوج، لما شابه قولهم راعينا وتُسبِّب للسبّ. ﴿ وَٱسْمَعُوا۟ ﴾ وأحسنوا الاستماع حتى لا تفتقروا إلى طلب المراعاة، أو واسمعوا سماع قبول لا كسماع اليهود، أو واسمعوا ما أُمِرتم به بجد حتى لا تعودوا إلى ما نهيتم عنه. ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يعني الذين تهاونوا بالرسول عليه الصلاة والسلام وسبوه.

(١٠٥) ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ [1] كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ نزلت تكذيباً لجمع من اليهود يظهرون مودة المؤمنين، ويزعمون أنهم يودون لهم الخير. والود: محبة الشيء مع تمنيه، ولذلك يستعمل في كل منهما، ومِنْ للتبيين كما في قوله تعالى ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾[2] ﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ مفعول يود، ومِنْ الأولى مزيدة للاستغراق، والثانية للابتداء، وفُسِّر الخير بالوحي. والمعنى أنهم يحسُدونكم به وما يحبون أن ينزل عليكم شيء منه وبالعلم

(١) وضع الموصول موضع الضمير للإشعار بعليّة ما في حيز الصلة لعدم وُدِّهم. (أبو السعود ١٤١/١). أي قال: «ما يود الذين كفروا» ولم يقل: ما يودون. . .

(٢) البينة: «١».

وبالنصرة، ولعل المراد به ما يعم ذلك ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ يستنبئه ويعلمه الحكمة وينصره لا يجب عليه شيء، وليس لأحد عليه حق ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ إشعار بأن النبوة من الفضل، وأن حِرْمان بعض عباده ليس لضيق فضله، بل لمشيئته وما عرف فيه من حكمته.

(١٠٦) ﴿۞مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا﴾ نزلت لما قال المشركون أو اليهودُ: ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمر بخلافه. والنسخ في اللغة: إزالة الصورة عن الشيء وإثباتُها في غيره كنسخ الظِّلِّ للشمس والنقْل ومنه التناسخ، ثم استُعمل لكل واحد منهما كقولك: نسخَت الريحُ الأثر ونسختُ الكتاب، ونسخُ الآية بيانُ انتهاءِ التعبّد بقراءتها أو الحكمِ المستفاد منها أو بهما جميعاً. وإنساؤها إذهابها عن القلوب. وما شرطية جازمة لننسخ منتصبةً به على المفعولية. وقرأ ابن عامر ما نُنْسِخ من أنسخ أي نأمرك أو جبريلَ بنسخها أو نجدها منسوخة. وابن كثير وأبو عمرو نَنْسَأها أي نؤخرها من النَّسْء، وقرىء نُنْسِها أي نُنْس أحداً إياها وننسها أي أنت، وتُنْسَها على البناء للمفعول، ونُنْسِكَها بإضمار المفعولين ﴿نَأۡتِ بِخَيۡرٍ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ﴾ أي بما هو خير للعباد في النفع والثواب، أو مثلها في الثواب. وقرأ أبو عمرو بقلب الهمزة ألفاً. ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على النسخ والإتيان بمثْل المنسوخ، أو بما هو خير منه. والآية دلت على جواز النسخ وتأخيرِ الإنزال، إذ الأصلُ اختصاصُ أنَّ وما يتضمنُها بالأمور المحتمَلة، وذلك لأن الأحكامَ شرعت والآياتِ نزلتْ لمصالح العباد وتكميل نفوسهم فضلاً من الله ورحمة، وذلك يختلف باختلاف الأعصار والأشخاص، كأسباب المعاش فإن النافع في عصر قد يَضُرّ في عصرٍ غيره. واحتج بها مَنْ منع النسخ بلا بدلٍ أو ببدل أثقلَ ونسخَ الكتاب بالسنة، فإن الناسخ هو المأتي به بدلاً والسنةُ ليست كذلك. والكل ضعيف، إذ قد يكون عدم الحكم أو الأثقل أصلح، والنسخُ قد يُعرَف بغيره، والسنةُ مما أتى به الله تعالى، وليس المراد بالخير والمِثْل ما يكون كذلك في اللفظ. والمعتزلةُ على حدوثِ القرآن، فإن التغيُّر والتفاوت من لوازمه. وأجيب: بأنهما من عوارِض الأمور المتعلقة بالمعنى القائم بالذات القديم[(١)].

(١٠٧) ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والمرادُ هو وأمته لقوله ﴿وَمَا لَكُم﴾. وإنما أَفْرَده لأنه أعلَمُهم ومبدأُ علمهم. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وهو كالدليل على قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ أو على جواز النسخ ولذلك تُرِك العاطفُ. ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾ وإنما هو الذي يملك أموركم ويجريها على ما يصلحكم. والفَرق بين الولي والنصير: أن الولي قد يَضْعُف عن النصرة، والنصير قد يكون أجنبياً عن المنصور، فيكون بينهما عموم من وجه.

---

(١) لا ضير في القول بالنسخ، رغم وجود الخلاف بين العلماء في وجود النسخ وعدمه. لكنّ الأولى عدم التوسع في استخدامه صيانة لكتاب الله تعالى. والأولى أن يتم استعمال التدرج في التشريع ونحوه، فإنه أظهر للحكمة. والخلاف في وجود النسخ وعدمه لعله لفظي أكثر مما هو حقيقي.

وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ
بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ
كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ
ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ

(١٠٨) ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أمْ معادِلَة للهمزة في ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ أي: ألم تعلموا أنه مالك الأمور قادرٌ على الأشياء كلها يأمر وينهى كما أراد، أم تعلمون وتقترحون بالسؤال كما اقترحت اليهود على موسى عليه السلام. أو منقطعةٌ والمرادُ أن يوصيَهم بالثقة به وترك الاقتراح عليه. قيل: نزلت في أهلِ الكتاب حين سألوا أن ينزل الله عليهم كتاباً من السماء. وقيل: في المشركين لما قالوا ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾[1] ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ ومن تَرَكَ الثقة بالآيات البينات وشكَّ فيها واقترح غيرها، فقد ضل الطريق المستقيم حتى وقع في الكفر بعد الإيمان. ومعنى الآية لا تقترِحوا فَتَضِلُّوا وسط السبيل، ويؤدي بكم الضلال إلى البعد عن المقصد وتبديل الكفر بالإيمان. وقرىء يُبْدِل من أبدل.

(١٠٩) ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني أحبارَهم. ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾[2] أَنْ يُرِدّوكم، فإنّ لوْ تنوب عن أنْ في المعنى دون اللفظ: ﴿مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾ مرتدين، وهو حال من ضمير المخاطبين[3] ﴿حَسَدًا﴾ عِلَّةُ وَدَّ. ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ يجوز أن يتعلق بوَدّ، أي تمنوا ذلك من عند أنفسهم وتشهِّيهم، لا من قِبَلِ التديُّن والميل مع الحق. أو بحسداً أي حسداً بالغاً منبعثاً من أصل نفوسهم ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ بالمعجزات والنعوت المذكورة في التوراة. ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟﴾ العفو ترك عقوبة المذنب، والصفح ترك تثريبه. ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ الذي هو الإذنُ في قتالهم وضربُ الجزية عليهم، أو قتل بني قريظة وإجلاء بني النضير. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه منسوخ بآية السيف، وفيه نظر إذ الأمرُ غيرُ مطلق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيَقْدر على الانتقام منهم.

(١١٠) ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ عَطْفٌ على فاعفوا، كأنه أمرهم بالصبر والمخالفة والملجأ إلى الله تعالى بالعبادة والبر ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ كصلاة وصدقة. وقرىء تُقْدِموا من أقدم

---

(١) الإسراء: «٩٣».

(٢) (لوْ) بمعنى التمني.. وقيل هي هنا بمنزلة أنْ الناصبة فلا يكون لها جواب وينسبك منها ومما بعدها مصدر يقع مفعولاً لِوَدّوا، والتقدير: ودّوا ردّكم. وقيل هي على حقيقتها، وجوابُها محذوف، تقديره: لو يَرُدونكم كفاراً لسُرُّوا بذلك (أبو السعود ١/ ١٤٥).

(٣) والأولى أن يكون (كفاراً) مفعولاً ثانياً على تضمين الرد معنى التعيير، أي يعيِّرونكم وهذا لما فيه من صريح الدلالة على كون الكفر المفروض بطريق القسر.
وإيراد الظرف (من بعد إيمانكم) مع عدم الحاجة إليه ـ بسبب كون المخاطبين مؤمنين ـ مع توسيطه بين المفعولين لإظهار كمال شناعة ما أرادوه وغاية بعده من الوقوع (أبو السعود ١/ ١٤٦).

إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ

﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي ثوابه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يَضيع عنده عمل. وقرىء بالياء فيكونَ وعيداً.

(١١١) ﴿وَقَالُواْ﴾ عطف على وَدَّ، والضمير لأهل الكتاب من اليهود والنصارى. ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾ لفٌّ بين قولي الفريقين كما في قوله تعالى ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾[1] ثقة بفهم السامع، وهود جمعُ هائِدٍ كعُوذٍ وعائذ، وتوحيدُ الاسم المضمَر في كان وجمعُ الخبر لاعتبار اللفظ والمعنى. ﴿تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ﴾ إشارة إلى الأماني المذكورة، وهي أن لا يُنزَّل على المؤمنين خيرٌ من ربهم وأن يَرُدوهم كفاراً وأن لا يدخل الجنة غيرُهم، أو إلى ما في الآية على حذفِ المضاف أي أمثالُ تلك الأُمنية أمانيُّهم، والجملة اعتراض، والأمنية أفعولة من التمني كالأُضحوكة والأعجوبة. ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾ على اختصاصكم بدخول الجنة. ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم فإن كل قول لا دليل عليه غير ثابت.

(١١٢) ﴿بَلَىٰ﴾[2] إثبات لما نفَوْه من دخول غيرهم الجنة ﴿مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ﴾ أخلص له نفسه[3] أو قَصْدَه، وأصلُه العُضوُ ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ في عمله[4] ﴿فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ﴾ الذي وُعِد له على عمله ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ ثابتاً عن ربه لا يضيع ولا يَنقص، والجملة جواب مَنْ إن كانت شرطيةً وخبرُها إن كانت موصولة. والفاء فيها لتضمنها معنى الشرط فيكون الرد بقوله: بلى وحْدَه، ويَحْسُنُ الوقف عليه. ويجوز أن يكون مَنْ أسلم فاعلُ فِعْل مقدّر مِثْل بلى يدخُلها من أسلم ﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ في الآخرة.

(١١٣) ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ أي على أمر يصح ويُعْتَدّ به. نزلت لما قدم وفد نجران على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأتاهم أحبار اليهود فتناظروا وتقاولوا بذلك. ﴿وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ﴾ الواو للحال، والكتاب للجنس أي: قالوا ذلك وهم مِنْ أهل العلم والكتاب. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلُ ذلك ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ﴾ كعبدة الأصنام

---

(١) البقرة: «١٣٥».

(٢) عدل عن إبطال صريح ما ادعوه وسلك هذا المسلك إبانة لغاية حرمانهم مما علقوا به أطماعهم وإظهاراً لكمال عجزهم عن إثبات مدّعاهم (أبو السعود ١/١٤٧).

(٣) عبر عنها بالوجه لأنه أشرف الأعضاء ومجمع المشاعر ومظهر آثار الخضوع الذي هو من أخص خصائص الإخلاص (أبو السعود ١/١١٤٧).

(٤) الإحسان هو أن تأتي بالعمل على أحسن وجه سواء كان في العبادة أو المعاملة...

فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا
ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى
ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾
وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾

والمُعَطِّلة[(١)]. وَبَّخَهم على المكابرة والتشبه بالجهال. فإن قيل: لِمَ وبخهم وقد صدقوا، فإن كِلا الدِّينين بعد النسخ ليس بشيء؟. قلت: لم يَقصدوا ذلك، وإنما قَصَد به كل فريق إبطال دِين الآخَر من أصلِه والكفرِ بنبيه وكتابِه، مع أن ما لم ينسخ منهما حق واجبُ القَبول والعمل به ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ﴾ يَفْصِل ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بين الفريقين ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بما يَقْسِم لكل فريق ما يليق به من العقاب. وقيل حكمه بينهم أن يكذبهم ويدخلهم النار.

(١١٤) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ عام لكل من خرب مسجداً، أو سعى في تعطيل مكان مرشح للصلاة، وإن نزل في الروم لما غزوا بيت المقدس وخربوه وقتلوا أهله[(٢)]. أو في المشركين لما منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية[(٣)] ﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ .ثاني مفعولي منع ﴿وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ بالهدم، أو التعطيل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي المانعون ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ ما كان ينبغي لهم أن يدخلوها إلا بخشية وخشوع فضلاً عن أن يجترئوا على تخريبها، أو ما كان الحق أن يدخلوها إلا خائفين من المؤمنين أن يَبْطِشوا بهم فضلاً عن أن يمنعوهم منها، أو ما كان لهم في علم الله وقضائه، فيكون وعداً للمؤمنين بالنصرة واستخلاص المساجد منهم وقد نجّز وعده. وقيل: معناه النهي عن تمكينهم من الدخول في المسجد، واختلف الأئمة فيه فجوز أبو حنيفة ومنع مالك، وفرق الشافعي بين المسجد الحرام وغيره ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ قتل وسبي، أو ذلة بضرب الجزية ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ بكفرهم وظلمهم.

(١١٥) ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ يريد بهما ناحيتي الأرض، أي له الأرض كلها لا يختص به مكان دون مكان، فإن مُنِعتم أن تصلوا في المسجد الحرام، أو الأقصى فقد جَعَلْتُ لكم الأرض مسجداً. ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ﴾ ففي أي مكان فعلتم التولية شطر القبلة ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ أي جهته التي أمر بها، فإن إمكان التولية لا يختص بمسجد أو مكان. أو فثم ذاته: أي هو عالم مطلع بما يفعل فيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ بإحاطته بالأشياء، أو برحمته يريد التوسعة على عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالحهم وأعمالهم في الأماكن كلها، وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنها نزلت في صلاة المسافر على الراحلة[(٤)].

---

(١) المعطلة هم الذين عطلوا صفات الله تعالى ولم يصفوه بشيء مما وصف به نفسه وهو مذهب الجهم بن صفوان
(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣١. وقال: هذا قول ابن عباس في رواية الكلبي. قلت: والكلبي متروك.
(٣) أخرجه الواحدي عن ابن عباس (أسباب النزول ص٣٩) وإسناده حسن كما في تخريج أسباب النزول تحقيق عصام الحميدان ص٣٦.
(٤) أخرجه مسلم (٤٨٦/١ ـ ٤٨٧ رقم ٣٣، ٣٤/ ٧٠٠)، والترمذي (٢٠٥/٥ رقم ٢٩٥٨) كلاهما من طريق =

وقيل: في قوم عَمِيت عليهم القبلة فصلوا إلى أنحاء مختلفة، فلما أصبحوا تبينوا خطأهم[١]، وعلى هذا لو أخطأ المجتهد ثم تبين له الخطأ لم يلزمْه التدارك. وقيل: هي توطئة لنسخ القِبلة وتنزيهٌ للمعبود أن يكون في حيز وجهة.

(١١٦) ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ نزلت لما قال اليهود: عزير ابنُ الله والنصارى: المسيح ابن الله ومشركو العرب: الملائكةُ بناتُ الله، وعطفُهُ على قالت اليهود أو منعُ أو مفهومُ قوله تعالى ومَنْ أظلم. وقرأ ابن عامر بغير واو ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه له عن ذلك، فإنه يقتضي التشبيهَ والحاجة وسرعةَ الفناء، ألا ترى أن الأجرام الفَلَكِيَّة ـ مع إمكانها وفنائها ـ لما كانت باقية مادام العالم لم تَتخذ ما يكون لها كالولد اتخاذَ الحيوان والنبات اختياراً أو طبعاً. ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ رد لما قالوه واستدلال على فساده، والمعنى أنه تعالى خالقٌ ما في السموات والأرض الذي من جملته الملائكة وعزير والمسيح ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ منقادون لا يَمتنعون عن مشيئته وتكوينه، وكل ما كان بهذه الصفة لم يجانِس مُكَوِّنه الواجبَ لذاته فلا يكون له ولد، لأن من حق الولد أن يجانِس والدَه. وإنما جاء بما الذي لغير أولي العلم وقال قانتون على تغليبِ أولي العلم تحقيراً لشأنهم، وتنوينُ كلٌّ عوضٌ عن المضاف إليه، أي كل ما فيهما. ويجوز أن يراد كلُّ مَنْ جعلوه ولداً له مطيعاً مقرونٌ بالعبودية، فيكون

= سعيد بن جُبير عنه. ولفظه «كان رسول الله ﷺ يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته، حيث كان وجهه، قال: وفيه نزلت (فأينما تولوا) وفي رواية عنده: «ثم تلا ابن عمر: فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فثمَّ وجه الله» وقال: في هذا نزلت.

(١) يشير المؤلف رحمه الله إلى الحديث الذي أخرجه الترمذي (٥/ ٢٠٥ رقم ٢٩٥٧) عن عامر بن ربيعة قال: كنا مع النبي ﷺ في سفره في ليلة مظلمة فلم ندرِ أين القبلة فصلى كل رجل منا على حياله. فلما أصبحنا ذكرنا ذلك للنبي ﷺ فنزلت (فأينما تولوا فثم وجهُ الله).
وقال الترمذي هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث أشعث السمان عن أبي الربيع عن عاصم بن عبيدالله، وأشعث قال عنه الحافظ في التقريب متروك. وقال ابن كثير وشيخهُ عاصم أيضاً ضعيف.
ولكن للحديث شاهد من حديث جابر قال: كنا مع رسول الله ﷺ في مسير أو سَرِيَّة فأصابنا غيمٌ فتحرَّينا، واختلفنا في القبلة، فصلى كل رجل منا على حدة، فجعل أحدنا يخطر بين يديه لنعلم أمكنتنا، فلما أصبحنا نظرناه فإذا نحن قد صلينا على غير القبلة، فذكرنا ذلك للنبي ﷺ فقال: قد أجزأت صلاتكم».
أخرجه الدارقطني (١/ ٢٧١ رقم ٤) والحاكم (١/ ٢٠٦) والبيهقي في السنن الكبرى (٢/ ١٠) من طريق محمد بن سالم عن عطاء عنه قال الحاكم هذا حديث محتج برواته كُلهم غير محمد بن سالم فإني لا أعرفه بعدالة ولا جرح. وتعقبهُ الذهبي بقوله هو أبو سهل واه.
وقال الألباني في الإرواء (١/ ٣٢٤): وضعفه الدارقطني كما يأتي وقد توبع. فرواه الدارقطني (١/ ٢٧١ رقم ٢) والبيهقي (٢/ ١٠) من طريق أحمد بن عبيدالله بن الحسن العنبري قال: وجدت في كتاب أبي: ثنا عبدالملك بن أبي سليمان العرزمي عن عطاء به نحوه.
ولكن فيه أحمد بن عبيدالله العنبري ليس بالمشهور. . . . وعلة البيهقي بما فيه من الوِجادة وليس بشيء.
وللحديث متابعة أخرى فرواه البيهقي عن محمد بن عبيدالله العرزمي عن عطاء به نحوه وقال: تفرد به محمد بن سالم ومحمد بن عبيدالله العرزمي عن عطاء وهما ضعيفان وكذا قال الدارقطني.
وبالجملة فالحديث بهذا الشاهد مع طرقه الثلاث عن عطاء يرقى إلى درجة الحسن إن شاء الله.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا
يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا
ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾

إلزاماً بعد إقامة الحجة، والآية مشعِرة على فساد ما قالوه من ثلاثة أوجه، واحتج بها الفقهاء على أن من مَلَكَ ولَدَه عُتِق عليه، لأنه تعالى نفى الولد بإثبات الملك، وذلك يقتضي تنافيهما.

(١١٧) ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مبدعُهما، ونظيره السميع في قوله:

أمِنْ ريحانة الداعي السَّمِيع يؤرّقُني وأصْحَابي هُجُوعُ

أو بديعُ سمواته وأرضه، من بَدِع فهو بديع. وهو حجة رابعة، وتقريرها أن الوالد عُنْصرُ الولد المنفعلِ بانفصال مادته عنه، والله سبحانه وتعالى مبدِع الأشياء كلها فاعلٌ على الإطلاق منزَّه عن الانفعال فلا يكون والداً. والإبداع: اختراع الشيء لا عن الشيء دفعة، وهو أَلْيَقُ بهذا الموضوع من الصنع الذي هو: تركيب الصور لا بالعنصر، والتكوينِ الذي يكون بتغييرٍ وفي زمان غالباً[١]. وقرىء بديعِ مجروراً على البدل من الضمير في له. وبديعَ منصوباً على المدح.

﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ أي أراد شيئاً، وأصل القضاء إتمامُ الشيء قوةً كقوله تعالى ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾[٢]، أو فعلاً كقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾[٣]. وأُطلِق على تعلق الإرادة الإلهية بوجود الشيء من حيث إنه يُوجِبُه. ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ مِنْ كان التامة بمعنى أحدث فيحدث، وليس المراد به حقيقة أمرٍ وامتثالٍ بل تمثيلُ حصولِ ما تعلقت به إرادته بلا مُهلة بطاعةِ المأمور المطيع بلا توقف. وفيه تقرير لمعنى الإبداع، وإيماءٌ إلى حجة خامسة وهي: أن اتخاذ الولد مما يكون بأطوار ومهْلة، وفِعْله تعالى مستغنٍ عن ذلك. وقرأ ابن عامر فيكونَ بفتح النون. واعلم أن السبب في هذه الضلالة: أن أرباب الشرائع المتقدمة كانوا يُطلقون الأب على الله تعالى باعتبار أنه السبب الأول، حتى قالوا إن الأب هو الربّ الأصغر واللهُ سبحانه وتعالى هو الرب الأكبر، ثم ظنت الجهلة منهم أن المراد به معنى الولادة فاعتقدوا ذلك تقليداً، ولذلك كُفِّر قائلُه ومنع منه مطلقاً حسماً لمادة الفساد.

(١١٨) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي جهلة المشركين، أو المتجاهلون من أهل الكتاب[٤]. ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ هلا يكلمنا الله كما يكلم الملائكة، أو يوحي إلينا بأنك رسوله. ﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ حجةٌ

---

(١) معنى البديع إذا استعمل في الله تعالى فإنه يفيد إيجاد الشيء بغير آلة ولا مادة ولا زمان ولا مكان، وليس ذلك إلا لله تعالى (المفردات للراغب مادة بدع).

(٢) الإسراء: «٢٣».

(٣) فصلت: «١٢».

(٤) وصف أهل الكتاب بأنهم لا يعلمون لعدم علمهم بالتوحيد والنبوة كما ينبغي، أو لعدم علمهم بموجب عملهم، أو لأن ما يحكى عنهم لا يصدر عمن له شائبة علم أصلاً (أبو السعود ١/١٥١).

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾

على صدقك، والأول استكبارٌ والثاني جحود، لأن ما أتاهم آيات الله استهانة به وعناداً، ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ من الأمم الماضية ﴿مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ فقالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾(١). ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾(٢) ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قلوب هؤلاء ومَنْ قبلهم في العَمى والعِناد. وقرىء بتشديد الشين. ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي يطلبون اليقين، أو يوقنون الحقائق لا يعتريهم شبهة ولا عناد. وفيه إشارة إلى أنهم ما قالوا ذلك لخفاء في الآيات أو لطلب مزيد اليقين، وإنما قالوه عتواً وعناداً.

(١١٩) ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ متلبساً مؤيداً به. ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ فلا عليك إن أصروا وكابروا. ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بَلَّغت. وقرأ نافع ويعقوب: لا تَسْأَلْ، على أنه نهي للرسول صلى الله عليه وسلم عن السؤال عن حال أبويه. أو تعظيم لعقوبة الكفار كأنها لفظاعتها لا يَقْدِر أن يُخْبِر عنها، أو السامعُ لا يصبر على استماع خبرها فنهاه عن السؤال. والجحيم: المتأجج من النار(٣).

(١٢٠) ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ مبالغة في إقناط الرسول ﷺ من إسلامهم، فإنهم إذا لم يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم، فكيف يتبعون ملته؟! ولعلهم قالوا مثل ذلك فحكى الله عنهم ولذلك قال ﴿قُلْ﴾ تعليماً للجواب. ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي هدى الله الذي هو الإسلام هو الهدى إلى الحق، لا ما تدْعون إليه. ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ آراءَهم الزائفة. والملةُ ما شرعه الله تعالى لعباده على لسان أنبيائه، من أمللت الكتاب إذا أمليته، والهوى: رأيٌ يَتْبَع الشهوة ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي الوحي، أو الدين المعلوم صحتُه. ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفع عنك عقابه وهو جواب لئِن(٤).

(١٢١) ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يريد به مؤمني أهل الكتاب ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ بمراعاة اللفظ عن التحريف والتدبر في معناه والعمل بمقتضاه، وهو حال مقدَّرة والخبر ما بعده، أو خبر على أن المراد بالموصول مؤمنو أهل الكتاب ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ بكتابهم دون المُحَرِّفين. ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ بالتحريف

---

(١) النساء: «١٥٣».

(٢) المائدة: «١١٢».

(٣) وفي التعبير عنهم بأنهم أصحاب الجحيم دون الكفر والتكذيب ونحوهما وعيد شديد لهم وإيذان بأنهم مطبوع عليهم لا يُرجى منهم الإيمان.. (أبو السعود ١/ ١٥٢).

(٤) (وحيث لم يستلزم نفيُ الولي نفيَ النصير وسَّط «لا» بين المعطوفين لتأكيد النفي، وهذا من باب التهييج والإلهاب) أبو السعود ١/ ١٥٣.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ
عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ۞وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ
رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

والكفر بما يصدقه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ حيث اشتروا الكفر بالإيمان.

(١٢٢، ١٢٣) ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (١٢٣) ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ لما صدَّر قصتَهم بالأمر بذكر النعم والقيام بحقوقها والحذر من إضاعتها والخوف من الساعة وأهوالها، كرر ذلك وختم به الكلام معهم مبالغة في النصح وإيذاناً بأنه فَذْلَكة القضية والمقصود من القصة.

(١٢٤) ﴿۞وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ﴾[1] كلفه بأوامر ونواه، والابتلاءُ في الأصل التكليف بالأمر الشاق من البلاء، لكنه لما استلزَم الاختبار بالنسبة إلى من يجهل العواقب ظُنَّ ترادفهما، والضمير لإبراهيم، وحَسُن لتقدُّمه لفظاً وإن تأخر رتبة، لأن الشرط أحد التقدمين. والكلمات قد تطلق على المعاني فلذلك فسرت بالخصال الثلاثين المحمودة المذكورة في قوله تعالى ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾[2] الآية وقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ﴾[3] إلى آخر الآية، وقوله ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾[4] إلى قوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾[5] كما فسرت بها في قوله ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ﴾[6] وبالعشر التي هي من سُنَنه، وبمناسك الحج؛ وبالكواكب، والقمريْن، والختان، وذبح الولد، والنار، والهجرة. على أنه تعالى عامَلَه بها معامَلَة المختَبر بهن وبما تضمنته الآياتُ التي بعدها. وقرىء إبراهيمُ ربَّه على أنه دعا ربه بكلمات مثل ﴿أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾[7]. ﴿ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا﴾[8] ليرى هل يجيبه. وقرأ ابن عامر إبراهام بالألف جميع ما في هذه السورة.

---

(١) كان الحديث فيما مضى عن بني إسرائيل ومواقفهم من أنبيائهم وشرائعهم ومن مواثيقهم وعهودهم منذ عهد موسى حتى عهد محمد عليهما السلام وموقفهم من الدعوة الجديدة ومحاولاتهم في تهويد المسلمين وغيرهم.
ومن ثم يرجع السياق إلى عهد إبراهيم عليه السلام حيث يعتزون بنسبتهم إليه، كما تعتز قريش بنسبتها إلى إسماعيل عليه السلام.. فيبين القرآن الكريم قصتهما ويتحدث عن البيت الحرام وبنائه وذلك لتقرير الحقائق في ادعاءات اليهود والنصارى والمشركين وليبين أن قبلتهم كانت الكعبة ليمهد للحديث عن تغيير القبلة، وأن دينهم التوحيد الخالص وأن محمداً عليه السلام على نهج إبراهيم وإسماعيل، فمن كان من ملتهما فليتبع محمداً ﷺ (انظر: في ظلال القرآن ١/ ١١١).

(٢) التوبة: «١١٢».

(٣) الأحزاب: «٣٥».

(٤) المؤمنون: «١».

(٥) المؤمنون: «١٠».

(٦) البقرة: «٣٧».

(٧) البقرة: «٢٦٠».

(٨) إبراهيم: «٣٥».

وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ

﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ فأداهن كُمَّلاً وقام بهن حق القيام، لقوله تعالى ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾(1) وفي القراءة الأخيرة الضميرُ لربه، أي أعطاه جميع ما دَعاه. ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ استئنافٌ إن أضمرتَ ناصِبَ إذْ، كأنه قيل: فماذا قال ربه حين أتمهن، فأجيب بذلك. أو بيانٌ لقوله ابتلى فتكونُ الكلماتُ ما ذكَره من الإمامة وتطهير البيت ورفع قواعده والإسلام. وإن نصبتَه يقال فالمجموع جملةٌ معطوفة على ما قبلها، أو جاعل من جعل الذي له مفعولان. والإمامُ اسمٌ لمن يُؤتَمُّ به وإمامته عامَّة مؤبَّدة، إذ لم يُبْعثْ بعده نبي إلا كان من ذريته مأموراً باتباعه. ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ عطف على الكاف أي وبعضِ ذريتي، كما تقول: وزيداً، في جواب: سأكرمك. والذرية نسل الرجل، فُعْلية أو فُعُولة قلبت راؤها الثانية ياءً كما في تقضَّيت، من الذَّرِّ بمعنى التفريق، أو فعولة أو فعيلة قلبت همزتها من الذرْء بمعنى الخلق. وقرىء ذِرِّيتي بالكسر وهي لغة. ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ إجابة إلى مُلْتَمَسِه، وتنبيه على أنه قد يكون من ذريته ظَلَمة، وأنهم لا ينالون الإمامة لأنها أمانة من الله تعالى وعهد، والظالم لا يصلح لها، وإنما ينالها البررة الأتقياء منهم. وفيه دليل على عصمة الأنبياء من الكبائر قبل البعثة، وأن الفاسق لا يصلح للإمامة. وقرىء الظالمون والمعنى واحد إذ كل ما نالك فقد نلته.

(١٢٥) ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ﴾ أي الكعبة، غَلَب عليها كالنجم على الثريا. ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ مرجعاً يثوب إليه أعيان الزوار أو أمثالهم، أو موضعَ ثواب يثابون بحَجه واعتماره. وقرىء: مثابات أي لأنه مثابةُ كل أحد. ﴿وَأَمْنًا﴾ وموضعَ أمن لا يُتعرضُ لأهله كقوله تعالى ﴿حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾(2) أو يأمَنُ حاجُّهُ من عذاب الآخرة من حيث إن الحج يَجُبُّ ما قبلَه، أولا يؤاخَذُ الجاني الملتجىء إليه حتى يَخْرُج، وهو مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه. ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ على إرادة القول، أو عطف على المقدَّر عاملاً لإذ، أو اعتراض معطوف على مضمَر تقديره توبوا إليه واتخذوا، على أن الخطاب لأمة محمد ﷺ، وهو أمر استحباب، ومقامُ إبراهيم هو الحجر الذي فيه أثر قَدَمِه، أو الموضعُ الذي كان فيه الحجر حين قام عليه ودعا الناس إلى الحج، أو رَفْعُ بناء البيت وهو موضعُه اليوم. روي أنه عليه الصلاة والسلام أخذ بيد عمر رضي الله تعالى عنه وقال: «هذا مقام إبراهيم، فقال عمر: أفلا نتخذه مصلى، فقال: لم أومر بذلك، فلم تغِب الشمس حتى نزلت»(3) وقيل المراد به الأمر

---

(١) النجم: «٣٧».

(٢) العنكبوت: «٦٧».

(٣) أخرجه ابن مردويه من طريق عمر بن ميمون عن عمر ـ كما في الدر المنثور (١/ ٢٩٠ ـ ٢٩١) ـ. وأخرج الحديث بدون هذه القصة البخاري (١/ ٥٠٤ رقم ٤٠٢) و(٨/ ١٦٨ رقم ٤٤٨٣). وأحمد في مسنده (١/ ٢٤، ٣٦) من طريق حميد عن أنس عن عمر قال: (وافقت ربي في ثلاث، أو وافقني ربي في ثلاث: قلت: يا رسول الله! لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى، فنزلت «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى». . .). =

بركعتي الطواف، لما روى جابر أنه عليه الصلاة والسلام لما فرغ من طوافه عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين وقرأ: واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى[١] وللشافعي رحمه الله تعالى في وجوبهما قولان. وقيل: مقام إبراهيم الحرمُ كله. وقيل مواقف الحج واتخاذُها مصلى أن يُدعى فيها ويتقرب إلى الله تعالى[٢] وقرأ نافع وابن عامر واتَّخَذُوا بلفظ الماضي عطفاً على جعلْنا، أي: واتخذ الناسُ مقامَه الموسوم به، يعني الكعبة قبلة يصلون إليها. ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ أمرناهما. ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾[٣] ويجوز أن تكون أنْ مفسِّرة لتضمن العهد معنى القول، يريد طهراه من الأوثان والأنجاس وما لا يليق به، أو أَخْلِصاه. ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ حوله. ﴿وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾ المقيمين عنده، أو المعتكفين فيه ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾. أي المصلين، جمع راكع وساجد.

(١٢٦) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا﴾ يريد به البلد، أو المكان. ﴿بَلَدًا ءَامِنًا﴾[٤] ذا أمن كقوله تعالى ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾[٥]. أو آمناً أهله كقولك: ليل نائم ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ أَبْدَل مِنْ ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ أهله بَدَلَ البعض للتخصيص ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ﴾ عطف على من آمن والمعنى وارزق من كفر، قاس إبراهيم عليه الصلاة والسلام الرزق على الإمامة، فنبه سبحانه على أن الرزق رحمة دنيوية تعم المؤمن والكافر، بخلاف الإمامة والتقدم في الدين. أو مبتدأ متضمن معنى الشرط ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ خبره، والكفر وإن لم يكن سبباً للتمتيع لكنه سبب لتقليله، بأن يجعله مقصوراً بحظوظ الدنيا غير متوسل به إلى نيل الثواب، ولذلك عَطَف عليه ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾ أي أَلزّه إليه لزّ المضطر لكفره وتضييعه ما مُتعتُه به من النعم[٦]، وقليلاً نصب على المصدر، أو الظرف. وقرىء بلفظ الأمر فيهما على أنه من دعاء إبراهيم وفي قال ضميره. وقرأ ابن عامر فأُمْتِعُهُ من أَمْتَعَ. وقرىء فنُمتعه ثم نضطره، وإضطره بكسر الهمزة على لغة من يكسر حروف المضارعة، وأضطره بإدغام الضاد وهو ضعيف لأن حروف (ضم شفر) يدغم فيها ما يجاورها دون العكس.

= وأخرجه مسلم (٤/ ١٨٦٥ رقم ٢٤/ ٢٣٩٩) عن طريق نافع عن ابن عمر عن عمر قال: (وافقت ربي في ثلاث في مقام إبراهيم. . .).

(١) أخرجه مسلم من حديث جابر الطويل (٢/ ٨٨٧ رقم ١٤٧/ ١٢١٨).

(٢) وأولى الأقوال هو الأول، وهو أن المراد بمقام إبراهيم الحجر الذي كان يقوم عليه إبراهيم لبناء الكعبة لما ارتفع الجدار. وقد دلت الأحاديث الصحيحة على ذلك كما ذكر الشوكاني (فتح القدير ١/ ١٤٠).

(٣) إضافة البيت إلى ضمير الجلالة للتشريف (أبو السعود ١/ ١٥٧).

(٤) أورد لفظ البلد هنا منكراً غير معرَّف، بينما ورد في سورة إبراهيم معرَّفاً «رب اجعل هذا البلد» إبراهيم «٣٥»، فإن حُمل على تكرر السؤال فأجيب له بأحدهما وتأخر الآخرُ لحكمة. . أو كرره لأن المعتاد في البلدية الاستمرار بعد التحقق بخلاف الأمن. وإن حمل على وحدة السؤال وتكرر الحكاية، فالظاهر أن المسؤول كلا الأمرين (البلدية والأمن) وقد حكى ذلك ههنا واقتصر هناك على سؤال الأمن اكتفاء بحكاية جعل أفئدة الناس تهوي إليهم (أبو السعود ١/ ١٥٨) بمعنى: اجعل هذا بلداً آمنا، أي اجعله بلداً واجعله آمناً. أما اجعل هذا البلد آمناً. أي ارزقه الأمن.

(٥) الحاقة: «٢١».

(٦) تغيير سبكه للإيذان بأن الكفر سبب لاضطرارهم إلى عذاب النار (أبو السعود ١/ ١٥٩).

﴿ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧
رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسۡلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ
ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ﴾

﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ المخصوص بالذم محذوف، وهو العذاب.

(١٢٧) ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ حكاية حال ماضية[1]. والقواعدُ جمع قاعدة وهي الأساس صفة غالبة من القعود بمعنى الثبات، ولعله مَجاز من المقابل للقيام، ومنه قعَدك الله، ورفعُها: البناءُ عليها، فإنه ينقلها عن هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع، ويُحتَمَل أن يرادَ بها سافَات البناء فإن كل سافٍ قاعدة ما يوضع فوقه ويرفعها بناؤها. وقيل المراد رفعُ مكانته وإظهار شرفه بتعظيمه ودعاءِ الناس إلى حجه. وفي إبهام القواعد وتبيينها تفخيم لشأنها. ﴿وَإِسۡمَٰعِيلُ﴾ كان يناولُه الحجارةَ، ولكنه لما كان له مدخل في البناء عُطِفَ عليه[2]. وقيل: كانا يبنيان في طرفين، أو على التناوب. ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ﴾ أي يقولان ربنا تقبل منا، وقد قرىء به والجملة حال منهما. ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعائنا ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بنياتنا[3].

(١٢٨) ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ﴾ مخلصين لك من أسلم وجهه، أو مستسلمين من أسلم إذا استسلم وانقاد، والمراد طلب الزيادة في الإخلاص والإذعان أو الثبات عليه. وقرىء مُسْلِمِين على أن المراد أنفسُهما وهاجر. أو أن التثنية من مراتب الجمع. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسۡلِمَةً لَّكَ﴾ أي واجعل بعض ذريتنا، وإنما خصَّا الذرية بالدعاء لأنهم أحق بالشفقة ولأنهم إذا صلحوا صلح بهم الأتباع، وخصَّا بعضهم لمَّا أُعلِما أن في ذريتهما ظلمة، وعَلِما أن الحكمة الإلهية لا تقتضي الاتفاق على الإخلاص والإقبال الكلي على الله تعالى، فإنه مما يشوش المعاش، ولذلك قيل: لولا الحمقى لخربت الدنيا، وقيل: أراد بالأمة أمة محمد ﷺ، ويجوز أن تكون مِنْ للتبيين كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ﴾[4] قُدِّم على المبيَّن وفُصِل به بين العاطف والمعطوف كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾[5]. ﴿وَأَرِنَا﴾ من رأى بمعنى أبصر أو عرف، ولذلك لم يتجاوز مفعولين ﴿مَنَاسِكَنَا﴾ متعبداتنا في الحج، أو مذابحنا. والنُّسُك في الأصلِ غاية العبادة، وشاع في الحج لما فيه من الكُلْفة والبعد عن العادة. وقرأ ابـن كثير ....

---

(١) صيغة الاستقبال «يرفع» لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة المنبئة عن المعجزة الباهرة (أبو السعود ١/١٥٩).

(٢) ولعل تأخيره عن المفعول للإيذان بأن الأصل في الرفع هو إبراهيم وإسماعيل تبع له (أبو السعود ١/ ١٦٠).

(٣) وقصر نعتي السمع والعلم عليه تعالى لإظهار اختصاص دعائهما به تعالى وانقطاع رجائهما عما سواه بالكلية (أبو السعود ١/١٦١).

(٤) النور: «٥٥».

(٥) الطلاق: «١٢».

والسوسي[١] عن أبي عمرو ويعقوب أرْنا، قياساً على فَخْذ في فَخِذ، وفيه إجحاف لأن الكسرة منقولة من الهمزة الساقطة دليل عليها[٢]. وقرأ الدوري[٣] عن أبي عمرو بالاختلاس[٤] ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾ استتابة لذريتهما، أو عما فرط منهما سهواً. ولعلهما قالا هضماً لأنفسهما وإرشاداً لذريتهما ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ لمن تاب.

(١٢٩) ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ﴾ في الأمة المسلمة ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ ولم يبعث من ذريتهما غير محمد ﷺ، فهو المجاب به دعوتهما كما قال عليه الصلاة والسلام «أنا دعوة إبراهيم، وبشرى عيسى، ورؤيا أمي»[٥]. ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ يقرأ عليهم ويبلغهم ما توحي إليه من دلائل التوحيد والنبوة. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ

---

(١) السوسي هو أبو شعيب صالح بن زياد، مقرىء ضابط محرر ثقة، أخذ القراءة عن اليزيدي عن أبي عمرو، واشتهر بالرواية عن أبي عمرو أحد القراء السبعة، وتوفي عام (٢٦١)هـ.

(٢) قوله: فيه إجحاف. قال عنه الألوسي بأنه (مما لا ينبغي لأن القراءة من المتواترات، ومثلها أيضاً موجود في كلام العرب العرباء) روح المعاني ١/٣٨٦.

(٣) الدوري هو أبو عمر حفص بن عمر المقرىء الضرير، ولقب بالدوري نسبة إلى الدور وهو موضع بالجانب الشرقي من بغداد، وكان الدوري ثقة ضابطاً وهو أول من جمع القراءات، اشتهر بالرواية عن أبي عمرو أحد القراء السبعة وأخذها عنه بواسطة اليزيدي، وتوفي (٢٤٦)هـ.

(٤) أي باختلاس كسرة الراء وعدم إشباعها (انظر: المبسوط في القراءات العشر لابن مهران ص١٢٣).

(٥) أخرجه أحمد في المسند (٤/١٢٧) وابن حبان (ص٥١٢ رقم ٢٠٩٣ ـ الموارد) والحاكم في المستدرك (٢/٤١٨) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد» وأقره الذهبي وابن سعد في الطبقات (١/١٤٨)، وابن جرير في تفسيره (١/٥٥٦) والطبراني في الكبير (١٨/٢٥٢، ٢٥٣ رقم ٦٢٩، ٦٣٠، ٦٣١) والبيهقي في الدلائل (١/ ٨٠، ٨٣)، و(٢/ ١٣٠) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/٢٢٣). عن عرباض بن سارية. وقال: وأحد أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح. غير سعيد بن سويد. وقد وثقه ابن حبان وللحديث شواهد منها:
(منها): حديث أبي أمامة: قال: قلت: يا رسول الله! ما كان أول بدء أمرك؟ قال: دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت منه قصور الشام.
أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٢) وابن سعد (١/ ١٤٩) وابن عدي في الكامل (٦/ ٢٠٥٥). وفيه «الفرج بن فضالة» وهو ضعيف (التقريب ٢/١٠٨) وأورده الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٢٢) وقال رواه أحمد وإسناده حسن وله شواهد تقويه، ورواه الطبراني.
(ومنها): حديث ابن معدان عن أصحاب النبي ﷺ، قالوا يا رسول الله أخبرنا عن نفسك؟ فقال: دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له بصرى، وبصرى من الشام.
أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٠٠) وقال: خالد بن معدان من خيار التابعين، صحب معاذ بن جبل فمن بعده من الصحابة، فإذا أسند حديثاً إلى الصحابة فإنه صحيح الإسناد وإن لم يخرجاه، ووافقه الذهبي.
قلت: وأخرج الدارمي (١/٨) قصة شق صدر النبي ﷺ في آخرها: حدثت أمي بالذي لقِيت فلم يَرُعْها، وقالت: إني رأيت حين حملتُ خرج مني، يعني نوراً، أضاءت منه قصور الشام. وأخرج الدارمي أيضاً هذه القصة، من طريق خالد بن معدان، عن عبدالرحمٰن بن عمرو السلمي عن عتبة بن عبدالسلمي عن النبي ﷺ.
وأخرجه الحاكم (٢/ ٦١٦) لكنه سقط عنده «عبدالرحمٰن بن عمرو» من السند، فالسند عنده «خالد» عن عتبة، عن النبي ﷺ.

=

إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ
وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن. ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ ما تكمل به نفوسهم من المعارف والأحكام. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ عن الشرك والمعاصي ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يقهر ولا يغلب على ما يريد ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ المحكم له.

(١٣٠) ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ استبعاد وإنكار لأن يكون أحد يَرْغَبُ عن ملته الواضحة الغراء، أي لا يرغب أحد عن ملته. ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ إلا من استمهنها وأذلها واستخف بها. قال المبرّد[1] وثعلب[2] سفِه ـ بالكسر ـ متعدّ وبالضم لازم، ويشهد له ما جاء في الحديث «الكبر أن تسفه الحق، وتغمص الناس»[3]. وقيل: أصله سَفِه نفسُه على الرفع، فنصب على التمييز نحو غَبَن رأيَه وألَم رأسُه، وقول النابغة الذبياني[4]:

وَنَـأْخُـذُ بَعْـدَهُ بِـذِنَـابِ عَيْـشٍ ... أجَـبَّ الظَّهْـرِ لَيْـسَ لَـهُ سِنَـامُ

أو سفِهَ في نفسه، فنُصب بنزع الخافض. والمستثنى في محل الرفع على المختار بدلاً من الضمير في يرغب لأنه في معنى النفي. ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ حجة وبيان لذلك، فإن من كان صفوة العباد في الدنيا مشهوداً له بالاستقامة والصلاح يومَ القيامة كان حقيقاً بالاتباع له

= وخالد بن معدان سمع عن عتبة بن عبد، فلعله روى الحديث المذكور عن عتبة عن النبي ﷺ.
والخلاصة أن الحديث حسن بشواهده. وانظر «الصحيحة» للمحدث الألباني (رقم ١٥٤٦).

(١) المبرد: سبقت ترجمته ص٢١.

(٢) هو أحمد بن يحيى بن يسار الشيباني مولاهم الإمام البغدادي، أبو العباس ثعلب، إمام الكوفيين في النحو واللغة، ولد سنة (٢٠٠هـ). وابتدأ النظر في العربية والشعر واللغة سنة ست عشرة، وحفظ كتب الفرّاء فلم يشذ منها حرف، وعني بالنحو أكثر من غيره، فلما أتقنهُ أكب على الشعر والمعاني والغريب.
صنف: المصون في النحو، اختلاف النحويين، معاني القرآن، معاني الشعر، القراءات، التصفير، الوقف والإبتداء، الهجاء، الأمالي، غريب القرآن وغيرها.
وثقل سمعه بأخَرَة، ثم صُمّ. وتوفي يوم السبت لعشر خلون من جمادي الأولى سنة إحدى وتسعين ومائتين.
[بغية الوعاة للسيوطي (١/ ٣٩٦ رقم ٧٨٧)].

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٢/ ٦٩ رقم ١٣١٧) وأورده الهيثمي في «المجمع» (٥/ ١٣٤). وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط والبزار بنحوه وفيه: محمد بن أبي ليلى وهو سيء الحفظ وحديثه حسن بالشواهد التي تقدمت في هذا الباب. ولكن عبدالرحمن لم يسمع ثابت.

(٤) هو زياد بن معاوية بن ضِباب الذُّبياني الغطفاني المُضَري، أبو أُمامة: شاعر جاهلي، من الطبقة الأولى، من أهل الحجاز. كانت تضرب له قُبة من جلد أحمر بسوق عُكاظ، فتقصد الشعراء فتعرض عليه أشعارها. شعره كثير، جمع بعضه في «ديوان ـ ط» صغير وكان أحسن شعراء العرب ديباجة، لا تكلف في شعره ولا حشو وعاش عمراً طويلاً. مات سنة (١٨ق.هـ).
[الأعلام للزركلي (٣/ ٥٤ ـ ٥٥)].

وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾
أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ
إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾

لا يَرْغب عنه إلا سفيه أو متسفه أذل نفسه بالجهل والإعراض عن النظر.

(١٣١) ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] ظرف لاصطفيناه، أو تعليل له، أو منصوب بإضمار اذكُر. كأنه قيل: اذكر ذلك الوقت لتعلمَ أنه المصطفى الصالح المستحقُّ للإمامة والتقدم، وأنه نال ما نال بالمبادرة إلى الإذعان وإخلاص السر حين دعاه ربه وأخطَر ببالِهِ دلائله المؤديةَ إلى المعرفة الداعية إلى الإسلام. روي أنها نزلت لما دعا عبدالله بن سلام ابني أخيه: سلمة ومهاجراً إلى الإسلام، فأسلم سلمةُ وأبى مهاجرُ.

(١٣٢) ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ﴾ التوصية هي التقدم إلى الغير بفعلٍ فيه صلاح وقُرْبة، وأصلها الوَصل يقال: وصاه إذا وصله، وفصّاه: إذا فصله، كأن الموصي يصل فعله بفعل الموصَى. والضمير في «بها» للملّة، أو لقوله أسلمت على تأويل الكلمة أو الجملة. وقرأ نافع وابن عامر وأوصى والأول أبلغ ﴿وَيَعْقُوبُ﴾ عطف على إبراهيم، أي ووصى هو أيضاً بها بنيه. وقرىء بالنصب على أنه ممن وصاه إبراهيم ﴿يَٰبَنِيَّ﴾. على إضمار القول عند البصريين، متعلق بوصى عند الكوفيين لأنه نوع منه. ونظيره:

رجُـلاَنِ مِـنْ ضَبَّـةَ أخبَـرَانـا   أنَّـا رَأَيْنَـا رَجُـلاً عُـرِيَـانـا

بالكسر، وبنو إبراهيم كانوا أربعة: إسماعيل وإسحاق ومدْين ومدان. وقيل: ثمانية. وقيل: أربعة عشر: وبنو يعقوب اثنا عشر: روبيل وشمعون ولاوي ويهوذا ويشسوخور وبولون وتفتوني ودون وكودا وأوشير وبنيامين ويوسف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ دين الإسلام الذي هو صفوة الأديان لقوله تعالى ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ظاهرُه النهي عن الموت على خلاف حال الإسلام، والمقصود هو النهي عن أن يكونوا على خلاف تلك الحال إذا ماتوا، والأمر بالثبات على الإسلام كقولك: لا تصلِّ إلا وأنت خاشع. وتغيير العبارة للدلالة على أن موتهم لا على الإسلام موت لا خير فيه وأن من حقه أن لا يَحِلّ بهم، ونظيره في الأمر مُتْ وأنت شهيد. وروي أن اليهود قالوا لرسول الله ﷺ: ألست تعلم أن يعقوب أوصى بنيه باليهودية يوم مات فنزلت:

(١٣٣) ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ أم منقطعة ومعنى الهمزة فيها الإنكار، أي ما كنتم حاضرين إذ حضر يعقوب الموتُ وقال لبنيه ما قال فلِمَ تدّعون اليهودية عليه، أو متصلة بمحذوف

---

(١) الالتفات مع التعرض لعنوان الربوبية والإضافة إليه عليه السلام لإظهار مزيد اللطف به والاعتناء بتربيته.
وإضافة الرب في جوابه عليه السلام إلى العالمين للإيذان بكمال قوة إسلامه، حيث أيقن حين النظر بشمول ربوبيته للعالمين قاطبة لا لنفسه وحده كما هو المأمور به. (أبو السعود ١/ ١٦٣).

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا
أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا
وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن

تقديره أكنتم غائبين أم كنتم شاهدين. وقيل: الخطاب للمؤمنين والمعنى ما شاهدتم ذلك وإنما علمتموه بالوحي وقرىء حَضِرَ بالكسر.

﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ﴾ بدل من إذ حضر. ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ أي: أيُّ شيء تعبدونه؟ أراد به تقريرَهم على التوحيد والإسلام وأخْذَ ميثاقهم على الثبات عليهما، و«ما» يُسأَلُ به عن كل شيء مالم يُعْرَف، فإذا عُرِف خُصَّ العقلاءُ بِمنْ إذا سُئِل عن تعيينه، وإن سئل عن وصفه قيل: ما زيد أفقيه أم طبيب؟. ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ المتفَق على وجوده وألوهيته ووجوب عبادته، وعَدُّ إسمعيل من آبائه تغليباً للأب والجد، أو لأنه كالأب لقوله عليه الصلاة والسلام: «عم الرجل صنو أبيه»[١]. كما قال عليه الصلاة والسلام في العباس رضي الله عنه: «هذا بقية آبائي»[٢]. وقرىء إله أبيك، على أنه جمع بالواو والنون كما قال:

وَلَمَّا تَبَيَّنَّ أَصْوَاتَنَا بَكَيْنَ وَفَدَّيْنَنَا بِالأَبِينَا

أو مفرد وإبراهيم وحدَه عطفُ بيان.

﴿إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ بدل من إله آبائك كقوله تعالى ﴿بِالنَّاصِيَةِ ۝ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ﴾[٣]. وفائدتُه التصريح بالتوحيد، ونفي التوهمِ الناشىء من تكرير المضاف لتعذر العطف على المجرور والتأكيد، أو نصبٌ على الاختصاص ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ حال من فاعل نعبد، أو مفعوله، أو منهما. ويحتمل أن يكون اعتراضاً.

---

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٦٧٦ رقم ١١/ ٩٨٣) وأحمد في المسند (٢/ ٣٢٢) وأبو داود (٢/ ٢٧٣ ـ ٢٧٥ رقم ١٦٢٣) كلهم من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة كما أخرجه أحمد في المسند (١/ ٩٤) من حديث علي.
وأخرجه الطبراني في الكبير (١٠/ ٨٧ رقم ٩٩٨٥) وابن عدي في الكامل (٦/ ٢٢٠٦) كلهم من حديث ابن مسعود.
وأخرجه الطبراني في الكبير (١٠/ ٣٥٣ رقم ١٠٦٩٨) من حديث ابن عباس.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٢/ ١٠٩ رقم ١٢٢٦٠) من حديث مجاهد مرسلاً وإسناده صحيح.
وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٨٠ رقم ١١١٠٧) من حديث ابن عباس وأورده الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٦٩) وفيه عبدالله بن خراش وهو ضعيف ووثقه ابن حبان وقال: ربما أخطأ وبقية رجاله وثقوا.
وأخرجه الطبراني أيضاً في المعجم الصغير (١/ ٣٤٤ رقم ٥٧٢ ـ الروض الداني) وأورده الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٢٦٩) وقال فيه جماعة لم أعرفهم.
والخلاصة أن الحديث ضعيف. وقد ضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١/ ١٠٧ رقم ٢١٥).

(٣) العلق: «١٦».

(١٣٤) ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ يعني إبراهيم ويعقوب وبنيهما، والأمة في الأصل المقصود، وسُمِّي بها الجماعة، لأن الفِرَقَ تؤمها. ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾ لكلٍّ أجرُ عمله، والمعنى أن انتسابكم إليهم لا يوجب انتفاعَكم بأعمالهم، وإنما تنتفعون بموافقتهم واتباعهم، كما قال عليه الصلاة والسلام: «لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم»[١]. ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي لا تؤاخذون بسيئاتهم كما لا تثابون بحسناتهم.

(١٣٥) ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾ الضمير الغائب لأهل الكتاب، وأوْ للتنويع، والمعنى مقالتُهم أحد هذين القولين. قالت اليهود كونوا هودا. وقال النصارى كونوا نصارى ﴿ تَهْتَدُوا۟ ﴾ جواب الأمر. ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾ أي بل نكون ملة إبراهيم، أي أهلَ ملته، أو بل نتبع ملة إبراهيم. وقرىء بالرفع أي مِلّتُه مِلّتنا، أو عكسه، أو نحن ملته بمعنى نحن أهلُ ملته. ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الباطل إلى الحق. حال من المضاف، أو المضاف إليه كقوله تعالى ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾[٢]. ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ تعريض بأهل الكتاب وغيرهم، فإنهم يدعون اتباعه وهم مشركون.

(١٣٦) ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الخطاب للمؤمنين لقوله تعالى ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾[٣]. ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ القرآن، قُدِّم ذكرُه لأنه أوّل بالإضافة إلينا، أو سبب للإيمان بغيره ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ الصحف، وهي وإن نزلت إلى إبراهيم لكنهم لما كانوا مُتَعبَّدين بتفاصيلها داخِلين تحت أحكامها فهي أيضاً مُنَزَّلة إليهم، كما أن القرآن منزّل إلينا. والأسباط جمع سبط وهو الحافد، يريد به حَفَدَة يعقوب، أو أبناءه وذراريهم فإنهم حفدةُ إبراهيم وإسحاق ﴿ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ التوراة والإنجيل، أفردهما بالذكر بحُكْم أبلغ لأن أمْرَهما بالإضافة إلى موسى وعيسى مغاير لما سبق، والنزاع وقع فيهما ﴿ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ ﴾ جملة المذكورين منهم وغير المذكورين. ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ مُنَزّلاً عليهم من ربهم. ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ كاليهود، فنؤمن ببعض ونكفر ببعض، وأحد لوقوعه في سياق النفي عامٌّ فساغ أن يضافَ إليه بَيْن. ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ﴾ أي لله. ﴿ مُسْلِمُونَ﴾ مذعنون مخلصون.

(١٣٧) ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ﴾ من باب التعجيز والتبكيت، كقوله تعالى ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾[٤] إذ لا مِثْلَ لمَا آمن به المسلمون، ولا دين كدين الإسلام. وقيل: الباء للآلة دون التعدية، والمعنى إن تحروْا الإيمان بطريق يهدي إلى الحق مثلَ طريقكم، فإنّ وحدة المقصد لا تأبى

---

(١) قال ابن حجر في الكافي الشافِ (٤/ ١٢ رقم ٧٩) لم أجده وقد أخرج البخاري (٥/ ٣٨٢ رقم ٢٧٥٣) و(٦/ ٥٥١ رقم ٣٥٢٧) و(٨/ ٥٠١ رقم ٤٧٧١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عز وجل (وأنذر عشيرتك الأقربين) قال: يا معشر قريش ـ أو كلمة نحوها ـ اشتَرُوا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً. يا بني عبد منافٍ لا أغني عنكم من الله شيئاً. يا عباس بن عبدالمطلب لا أغني عنك من الله شيئاً. يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً. ويا فاطمةُ بنتَ محمدٍ سليني ما شئتِ من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً».

(٢) الأعراف: «٤٣».

(٣) البقرة: «١٣٧».

(٤) البقرة: «٢٣».

رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ
ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾
صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾

تعدد الطرق، أو مزيدة للتأكيد كقوله تعالى: ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾[١]. والمعنى فإن آمنوا بالله إيماناً مثلَ إيمانكم به، أو المِثْل مقحم[٢] كما في قوله ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾[٣] أي عليه، ويشهد له قراءة من قرأ بما آمنتم به، أو بالذي آمنتم به ﴿وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾ أي إن أعرضوا عن الإيمان، أو عما تقولون لهم فما هم إلا في شقاق الحق، وهو المناوأة والمخالفة، فإن كل واحد من المتخالِفين في شِقٍّ غير شق الآخر[٤] ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ تسلية وتسكين للمؤمنين، ووعد لهم بالحفظ والنصرة على من ناوأهم[٥] ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ إما من تمام الوعد، بمعنى أنه يسمع أقوالكم ويعلم إخلاصكم وهو مُجَازيكم لا محالة، أو وعيد للمعرضين، بمعنى أنه يسمع ما يبدون ويعلم ما يخفون وهو معاقبُهم عليه.

(١٣٨) ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ أي صبَغنا اللهُ صبغتَه، وهي فطرةُ الله تعالى التي فطر الناس عليها، فإنها حِلْيَةُ الإنسان كما أن الصبغة حليةُ المصبوغ، أو هدانا الله هدايته وأرشدنا حجته، أو طهَّر قلوبنا بالإيمان تطهيره، وسماه صبغة لأنه ظهر أثرُه عليهم ظهورَ الصَّبْغ على المصبوغ وتداخَلَ في قلوبهم تداخُلَ الصِّبغ الثوب، أو للمشاكلة. فإن النصارى كانوا يغمِسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعْمودية ويقولون: هو تطهير لهم وبه تتحقق نصرانيتُهم. ونصبها على أنه مصدر مؤكد لقوله آمنا، وقيل على الإغراء، وقيل على البدل من ملة إبراهيم عليه السلام[٦].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ لا صِبْغةَ أحسنُ من صبغته ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ تعريض بهم، أي لا نشركُ به كشرككم. وهو عطف على آمنا، وذلك يقتضي دخول قوله صبغة الله في مفعول قولوا، ولِمَنْ ينصِبُها على الإغراء أو البدل أن يُضمِر قولوا معطوفاً على الزموا أو اتبعوا ملة إبراهيم وقولوا آمنا.

---

(١) يونس: «٢٧».

(٢) قوله: مزيدة للتأكيد وقوله: أو المِثْل مقحم.. هذا يقتضي الزيادة ويخالف فصاحة القرآن كما ذهب إليه البعض، وقد سبق الحديث عنه عند قوله «ولا الضالين» في الفاتحة «٧» فارجع إليه.

(٣) الأحقاف: «١٠».

(٤) والتنوين في قوله «شقاق» للتفخيم.
وأوثرت الجملة الاسمية للدلالة على ثباتهم واستقرارهم في ذلك.

(٥) وفي قوله «فسيكفيكهم الله» تلوين للخطاب بتجريده للنبي عليه السلام لأنه الأصل والعمدة في ذلك وللإيذان بأن القيام بأمور الحروب وتحمل المؤن والمشاق.. من وظائف الرؤساء، فنعمته تعالى في حقه عليه السلام أتم وأكمل (أبو السعود ١/١٦٨).

(٦) إضافة الصبغة إلى الله عز وجل للتشريف والإيذان بأنها عطية منه تعالى لا يستقل العبد بتحصيلها (أبو السعود ١/١٦٨).

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾
أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ قُلْ أَأَنْتُمْ
أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾
تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾

بدلَ اتبعوا، حتى لا يلزم فك النظم وسوء الترتيب.

(١٣٩) ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا﴾ أتجادلوننا. ﴿فِي اللَّهِ﴾ في شأنه واصطفائه نبياً من العرب دونكم، روي أن أهل الكتاب قالوا: الأنبياء كلهم منا، لو كنت نبياً لكنت منا. فنزلت: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ لا اختصاصَ له بقوم دون قوم، يصيب برحمته من يشاء من عباده. ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ فلا يبعُدُ أن يُكرِمَنا بأعمالنا، كأنه ألزمهم على كل مذهب ينتحلونه إفحاماً وتبكيتاً، فإن كرامة النبوة إمّا تفضُّلٌ من الله على من يشاء والكل فيه سواء وإما إفاضةُ حقٍّ على المستعدين لها بالمواظبة على الطاعة والتحلي بالإخلاص، وكما أنّ لكم أعمالاً رُبما يعتبرُها الله في إعطائها، فلنا أيضاً أعمال. ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ موحدون نخصه بالإيمان والطاعة دونكم.

(١٤٠) ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ أم منقطعة والهمزة للإنكار. وعلى قراءة ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص بالتاء يحتمل أن تكون معادِلة للهمزة في أتحاجوننا، بمعنى أي الأمرين تأتون المحاجة أو ادعاء اليهودية أو النصرانية على الأنبياء؟! ﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ وقد نفى الأمرين عن إبراهيم بقوله ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾[(١)] واحتج عليه بقوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾[(٢)]. وهؤلاء المعطوفون عليه أتباعه في الدين وفاقاً. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ يعني شهادة الله لإبراهيم بالحنيفية والبراءةَ عن اليهودية والنصرانية، والمعنى لا أحد أظلم من أهل الكتاب، لأنهم كتموا هذه الشهادة. أو مِنّا لو كتمنا هذه الشهادة، وفيه تعريض بكتمانهم شهادة الله لمحمد عليه الصلاة والسلام بالنبوة في كتبهم وغيرها، ومن للابتداء كما في قوله تعالى ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[(٣)]. ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وعيد لهم، وقرىء بالياء.

(١٤١) ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تكرير للمبالغة في التحذير والزجر عما استحكم في الطباع من الافتخار بالآباء والاتكال عليهم. وقيل: الخطاب فيما سبق لهم وفي هذه الآية لنا تحذيراً عن الاقتداء بهم. وقيل: المراد بالأمة في الأول الأنبياء وفي الثاني أسلاف اليهود والنصارى.

---

(١) آل عمران: «٦٧».
(٢) آل عمران: «٦٥».
(٣) التوبة: «١».

﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾

(١٤٢) ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ الذين خفَّت أحلامُهم واستمهنوها بالتقليد والإعراض عن النظر، يريد به المنكرين لتغيير القبلة من المنافقين واليهود والمشركين. وفائدةُ تقديم الإخبار به توطينُ النفس وإعدادُ الجواب وإظهارُ المعجزة. ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ﴾ ما صرفهم. ﴿عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ يعني بيت المقدس. والقبلةُ في الأصل الحالة التي عليها الإنسان من الاستقبال فصارت عُرْفاً للمكان المتوجَّه نحوَه للصلاة ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ لا يختص به مكان دون مكان بخاصية ذاتية تمنع إقامة غيرِه مقامَه، وإنما العبرة بارتسام أمره لا بخصوص المكان ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو ما ترتضيه الحكمة وتقتضيه المصلحة من التوجه إلى بيت المقدس تارة والكعبة أخرى[(١)].

(١٤٣) ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مفهوم الآية المتقدمة[(٢)]، أي كما جعلناكم مَهديين إلى الصراط المستقيم، أو جعلنا قبلتكم أفضل القِبَل. ﴿جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي خياراً، أو عدولاً مزكين بالعلم والعمل. وهو في الأصل اسمٌ للمكان الذي تستوي إليه المساحة من الجوانب، ثم استُعير للخصال المحمودة لوقوعها بين طرفي إفراط وتفريط كالجود بين الإسراف والبخل والشجاعة بين التهور والجبن، ثم أطلق على المتصف بها مستوياً فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث كسائر الأسماء التي وصف بها، واستُدِل به على أن الإجماع حجة إذ لو كان فيما اتفقوا عليه باطل لانثلَمت به عدالتهم ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ علة للجعل، أي لتعلموا بالتأمل فيما نصَبَ لكم من الحُجج، وأنزل عليكم من الكتاب أنه تعالى ما بخِل على أحد وما ظلم، بل أوضح السبل وأرسل الرسل، فبلغوا ونصحوا. ولكن الذين كفروا حمَلَهم الشقاءُ على اتباع الشهوات والإعراض عن الآيات، فتشهدون بذلك على معاصريكم وعلى الذين مَنْ قبلكم، أو بعدَكم. روي أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء، فيطالبهم الله ببينة التبليغ ـ وهو أعلم بهم ـ إقامة للحجة على المنكرين، فيؤتى بأمة محمد ﷺ فيشهدون، فتقول الأمم من أين عرفتم؟ فيقولون: علمنا ذلك بإخبار الله تعالى في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق، فيؤتى بمحمد ﷺ فيسأل عن حال أمته، فيشهد بعدالتهم[(٣)] وهذه الشهادة وإن كانت لهم لكن لما كان الرسول عليه السلام كالرقيب المهيمن على أمته

---

(١) تخصيص السفهاء بالذكر لا يقتضي تسليم الباقين لتحويل القبلة وارتضاءهم إياه (أبو السعود ١/ ١٧١).

(٢) أشار باسم الإشارة البعيد للإيذان بعلو درجة المشار إليه وبعد منزلته في الفضل (أبو السعود ١/ ١٧٢).

(٣) تصديره للحديث الصحيح بصيغة التمريض غير سائغة عند أهل الحديث فقد أخرج الحديث البخاري (١٨/ ١٧١ رقم ٤٤٨٧) و(١٣/ ٣١٦ رقم ٣٧٤٩) والترمذي (٥/ ٢٠٧ رقم ٢٩٦١) وقال حديث حسن صحيح.
والنسائي في السنن الكبرى ـ كما في تحفة الأشراف (٣/ ٣٤٦) ـ وغيره عن أبي سعيد الخذري قال: «قال رسول الله ﷺ: يُدعى نوحٌ يوم القيامة فَيَقول: لبّيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول نعم. فيقال =

مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ

عدّى بعلى، وقدمت الصلةُ للدلالة على اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم. ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ أي الجهة التي كنت عليها، وهي الكعبة فإنه عليه الصلاة والسلام كان يصلي إليها بمكة، ثم لما هاجر أُمِر بالصلاة إلى الصخرة تألفاً لليهود. أو الصخرة لقول ابن عباس رضي الله عنهما: كانت قبلته بمكة بيت المقدس إلا أنه كان يجعل الكعبة بينه وبينها[1] فالمخبر به على الأول الجعل الناسخ، وعلى الثاني المنسوخ. والمعنى أن أصل أمرك أن تستقبل الكعبة، وما جعلنا قبلتك بيت المقدس.

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ﴾ إلا لنمتحن به الناسَ ونعلم من يتّبِعُك في الصلاة إليها، ممن يرتد عن دينك إلفاً لِقبلة آبائه. أو لنعلم الآن من يتبع الرسول ممن لا يتبعه وما كان لعارض يزول بزواله. وعلى الأول معناه: ما رددناك إلى التي كنت عليها إلا لنعلم الثابتَ على الإسلام ممن ينكُص على عقبيه لقلقِه وضَعْف إيمانه. فإن قيل: كيف يكون علمه تعالى غاية الجعل وهو لم يزل عالماً؟ قلت: هذا وأشباهُه باعتبار التعلق الحالي الذي هو مناط الجزاء، والمعنى ليتعلق علمُنا به موجوداً. وقيل: ليعلم رسولُه والمؤمنون، لكنه أسنده إلى نفسه لأنهم خواصُّه، أو لتميز الثابت من المتزلزل كقوله تعالى ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[2] فوَضع العِلْمَ موضع التمييز المسبَّب عنه، ويشهد له قراءة لِيُعْلَمَ على البناء للمفعول، والعلم إما بمعنى المعرفة، أو معلق لما في مَنْ من معنى الاستفهام، أو مفعوله الثاني ممن ينقلب، أي لنعلم من يتبع الرسول متميزاً ممن ينقلب. ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ إنْ هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفاصلة. وقال الكوفيون هي النافية واللام بمعنى إلا. والضمير لما دل عليه قوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ﴾[3] من الجَعْلة، أو الردة، أو التولية، أو التحويلة، أو القبلة. وقرىء لكبيرةٌ بالرفع فتكون كان زائدة ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾ إلى حِكْمة الأحكام الثابتين على الإيمان والاتباع ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾ أي ثباتكم على الإيمان. وقيل:

لأمته: هل بلّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟: فيقول محمدٌ وأمتُه. فيشهدون أنه قد بَلَّغ، ويكون الرسولُ عليكم شهيداً فذلك قوله جلَّ ذِكرهُ (وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً). والوسط: «العدل».

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢/٣) وأحمد في المسند (١/٣٢٥) وابن سعد في الطبقات (١/٢٤٣) والبزار في كشف الأستار (١/ ٢١٠ ـ ٢١١ رقم ٤١٨) والطبراني في الكبير (١١/ ٦٧ رقم ١١٠٦٦) عنه وأورده الهيثمي في «المجمع» (٢/ ١٢) وقال: رجاله رجال الصحيح.

(٢) الأنفال: «٣٧».

(٣) البقرة: «١٤٣».

إيمانكم بالقبلة المنسوخة، أو صلاتكم إليها لما روى «أنه عليه السلام لما وجه إلى الكعبة قالوا: كيف بمن مات يا رسول الله قبل التحويل من إخواننا» فنزلت[(١)] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ فلا يضيع أجورهم ولا يدع صلاحهم، ولعله قدم الرؤوف وهو أبلغ محافظةً على الفواصل. وقرأ الحرميان[(٢)] وابن عامر وحفص لرؤوف بالمد، والباقون بالقصر.

(١٤٤) ﴿قَدۡ نَرَىٰ﴾ ربما نرى ﴿تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾ تردُّد وجهك في جهة السماء تطلعاً للوحي، وكان رسول الله ﷺ يقع في روعه ويتوقع من ربه أن يحوله إلى الكعبة، لأنها قبلة أبيه إبراهيم وأقدم القبلتين وأدعى للعرب إلى الإيمان ولمخالفة اليهود، وذلك يدل على كمال أدبه حيث انتظر ولم يسأل ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ﴾ فنمكننك من استقبالها من قولك: وليته كذا إذا صيرته والياً له، أو فلنجعلنك تلي جهتها ﴿تَرۡضَىٰهَاۚ﴾ تحبها وتتشوق إليها، لمقاصد دينية وافقت مشيئة الله وحكمته. ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ﴾ اصرف وجهك[(٣)]. ﴿شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾ نحوه. وقيل: الشطر في الأصل لما انفصل عن الشيء من شَطَر إذا انفصل، ودارٌ شَطُور: أي منفصلة عن الدور، ثم استُعمل لجانبه وإن لم ينفصل كالقطر. والحرام المحرم أي محرم فيه القتال أو ممنوع من الظلمة أن يتعرضوه، وإنما ذَكَر المسجد دون الكعبة لأنه عليه الصلاة والسلام كان في المدينة والبعيد يكفيه مراعاة الجهة، فإن استقبال عينها حرج عليه بخلاف القريب. روي أنه عليه الصلاة والسلام قدم المدينة، فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً[(٤)]، ثم وُجِّه إلى الكعبة في رجب بعد الزوال قبل قتال بدر بشهرين، وقد صلى بأصحابه في مسجد بني سلمة ركعتين من الظهر، فتحول في الصلاة واستقبل الميزاب، وتبادل الرجال والنساء صفوفَهم، فسمي المسجد مسجد القبلتين. ﴿وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ﴾ خُصَّ الرسولَ بالخطاب تعظيماً له وإيجاباً لرغبته، ثم عُمِّم تصريحاً بعموم الحكم وتأكيداً لأمر القبلة وتحضيضاً للأمة على المتابعة. ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ﴾ جملة لعلمهم بأنَّ عادته تعالى تخصيصُ كل شريعة بقبلة، وتفصيلاً لتضمن كتبهم أنه ﷺ يصلي إلى القبلتين، والضمير للتحويل أو التوجه ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ وعد ووعيد للفريقين. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بالياء.

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٩٥ رقم ٤٠) و(٨/ ١٧١ رقم ٤٤٨٦) من حديث البراء بن عازب.
● وأخرجه أحمد في المسند (٣٤٧/١) والترمذي (٢٠٨/٥ رقم ٢٩٦٤) والحاكم في المستدرك (٢٦٩/٢) وأبو داود (٥/ ٦٠ رقم ٤٦٨٠) والطبراني في جامع البيان (١٧/٢) كلهم من طريق سماك عن عكرمة عن ابن عباس وقال الترمذي: حسن صحيح، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي قلت: رواية سماك عن عكرمة مضطربة لكن الحديث مخرج في البخاري كما تقدم آنفاً.

(٢) الحرميان: نافع وابن كثير.

(٣) الفاء في فولّ وجهك لتفريع الأمر بالتولية على الأمر الكريم.
وتخصيص التولية بالوجه لأنه مدار التوجه ومعياره، وقيل المراد به كل البدن (أبو السعود ١/ ١٧٤).

(٤) أخرجه البخاري (١/ ٩٥ رقم ٤٠) و(١/ ٥٠٢ رقم ٣٩٩) و(٨/ ١٧١ رقم ٤٤٨٦) و(١٣/ ٢٣٢ رقم ٧٢٥٢) ومسلم (١/ ٣٧٤ رقم ١٢/ ٥٢٥) وفي جميع المواضع وقع بالشك (ستة عشر أو سبعة عشر شهراً) عنه وأما بدون شك فقد أخرجه مسلم (١/ ٣٧٤ رقم ٥٢٥/١١) عنه أيضاً.

مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟
قِبْلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ
بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ
كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ

(١٤٥) ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾ برهان وحجة على أن الكعبة قبلة، واللام موطِّئة للقسم ﴿مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَۚ﴾ جواب للقسم المضمر، والقَسَمُ وجوابه سادٌّ مسدّ جواب الشرط، والمعنى ما تركوا قبلتك لشبهة تزيلها بالحجة وإنما خالفوك مكابرة وعناداً. ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْۚ﴾ قطع لأطماعهم، فإنهم قالوا: لو ثَبَتَّ على قبلتنا لكنا نرجو أن تكون صاحبَنا الذي ننتظره تغريراً له وطمعاً في رجوعه، وقبلتُهم وإن تعددت لكنها متحدة بالبطلان ومخالفة الحق[١]. ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍۚ﴾ فإن اليهود تستقبل الصخرةَ، والنصارى مطلعَ الشمس. لا يرجى توافقُهم كما لا يرجى موافقتهم لك، لتصلب كل حزب فيما هو فيه ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِۙ﴾ على سبيل الفرض والتقدير، أي: ولئن اتبعتهم مَثَلاً بعدما بانَ لك الحق وجاءك فيه الوحي ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وأكد تهديده وبالغ فيه من سبعة أوجه: أحدها: الإتيان باللام الموطِّئة للقسم: ثانيها: القَسم المضمَر. ثالثها: حرف التحقيق وهو إن. رابعها: تركيبُه من جملة فعلية وجملة اسمية. وخامسها: الإتيان باللام في الخبر. وسادسها: جَعْله من الظالمين، ولم يقل إنك ظالم لأن في الاندراج معهم إيهاماً بحصول أنواع الظلم. وسابعها: التقييد بمجيء العلم تعظيماً للحق المعلوم، وتحريضاً على اقتفائه وتحذيراً عن متابعة الهوى، واستفظاعاً لصدور الذنب عن الأنبياء[٢].

(١٤٦) ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني علماءَهم ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ الضمير لرسول الله ﷺ، وإن لم يسبق ذكْرُه لدلالة الكلام عليه. وقيل للعلم، أو القرآن، أو التحويل ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْۖ﴾ يشهد للأول: أي يعرفونه بأوصافه كمعرفتهم أبناءَهم لا يلتبسون عليهم بغيرهم. عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه سأل عبدالله بن سلام رضي الله تعالى عنه، عن رسول الله ﷺ فقال: أنا أعلم به مني بابني قال: ولم، قال: لأني لست أشك في محمد أنه نبي فأما ولدي فلعل والدته قد خانت[٣]. ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تخصيص لمن عاند واستثناء لمن آمن.

(١٤٧) ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ﴾ كلام مستأنف، والحق إما مبتدأ خبره من ربك واللام للعهد، والإشارةُ إلى ما عليه الرسول ﷺ، أو الحق الذي يكتمونه، أو للجنس. والمعنى: أن الحق ما ثبت أنه من الله تعالى كالذي أنت عليه لا مالم يثبت كالذي عليه أهل الكتاب، وإما خبرُ مبتدإٍ محذوف أي هو الحق

(١) وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على دوام مضمونها واستمراره (أبو السعود ١/ ١٧٥).
(٢) وسّط «إذاً» بين اسم إنّ وخبرها لتقرير ما بينهما من النسبة (أبو السعود ١/ ١٧٥).
(٣) ذكره الألوسي في تفسيره (٢/ ١٣) بصيغة التمريض.

فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ
ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ
وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ
ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ

ومن ربك حال، أو خبرٌ بعد خبر. وقرىء بالنصب على أنه بدل من الأول، أو مفعول يعلمون[(١)] ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكين في أنه من ربك، أو في كِتمانهم الحقَّ عالمين به، وليس المراد به نهي الرسول ﷺ عن الشك فيه لأنه غير متوقع منه وليس بقصد واختيار بل إما تحقيقُ الأمر وإنه بحيث لا يشك فيه ناظر أو أمْرُ الأمة باكتساب المعارف المزيحة للشك على الوجه الأبلغ.

(١٤٨) ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ﴾ ولكل أمة قبلة، أو لكل قوم من المسلمين جهة وجانب من الكعبة، والتنوينُ بدلُ الإضافة ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ أحد المفعولين محذوف، أي هو موليها وجهَه، أو الله تعالى موليها إياه. وقرىء ولكلِّ وُجْهةٍ بالإضافة، والمعنى وكل وجهة الله موليها أهلها، واللام مزيدة للتأكيد جبراً لضعف العامل. وقرأ ابن عامر: مَوْلاها أي هو مولى تلك الجهة أي قد وليها ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ من أمر القبلة وغيره مما يُنال به سعادة الدارين، أو الفاضلات من الجهات وهي المسامِتَةُ للكعبة ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي: في أي موضع تكونوا من موافق ومخالف مجتمع الأجزاء ومفترقها يحشركم الله إلى المحشر للجزاء، أو أينما تكونوا من أعماق الأرض وقُلَل الجبال يقبض أرواحكم، أو أينما تكونوا من الجهات المتقابلة يأت بكم الله جميعاً ويجعل صلواتكم كأنها إلى جهة واحدة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على الإماتة والإحياء والجمع.

(١٤٩) ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ ومن أي مكان خرجت للسفر ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ إذا صليت ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ وإن هذا الأمر ﴿لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وقرأ أبو عمرو بالياء والباقون بالتاء.

(١٥٠) ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ[(٢)] وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ كرر هذا الحُكم لتعدد عِلَله، فإنه تعالى ذكر للتحويل ثلاث علل: تعظيمُ الرسول ﷺ بابتغاء مرضاته، وجريُ العادة الإلهية على أن يولي أهل كل ملة وصاحب دعوة وجهة يستقبلها ويتميز بها، ودفع حجج المخالفين على ما نبينه. وقرن بكل علة معلولها كما يُقرَن المدلولُ بكل واحد من دلائله تقريباً وتقريراً، مع أن القبلة لها شأن. والنسخ من مظان الفتنةِ والشبهةِ فبالحريّ أن يُؤكَّد أمْرُها ويُعادَ ذكرُها مرة بعد أخرى. ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ علة لقولهِ فولُّوا، والمعنى أن التولية عن الصخرة إلى

---

(١) وقوله «من ربك» فيه تعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام لإظهار اللطف به عليه السلام (أبو السعود ١/ ١٧٦).

(٢) كرر قوله «ومن حيث خرجت..» لما أن للقبلة شأن خطير والنسخ من مظان الشبهة والفتنة فأكد أمرها مرة بعد أخرى مع أنه قد ذكر في كل مرة حكمة مستقلة (أبو السعود ١/ ١٧٨).

إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ
رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ
تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ

الكعبة تدفع احتجاج اليهودِ بأن المنعوتَ في التوراة قِبْلتُهُ الكعبة، وأن محمداً يجحد ديننا ويتبعنا في قبلتنا. والمشركين بأنه يدعي ملة إبراهيم ويخالف قبلته ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ استثناء من الناس، أي لئلا يكون لأحد من الناس حجة إلا المعاندين منهم بأنهم يقولون: ما تَحوَّلَ إلى الكعبة إلا مَيْلاً إلى دين قومه وحباً لبلده، أو بَدَا لهُ فرجع إلى قبلة آبائه ويوشك أن يرجع إلى دينهم. وسمَّى هذه حجة كقوله تعالى ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[1] لأنهم يسوقونها مساقها. وقيل الحجة بمعنى الاحتجاج. وقيل الاستثناء للمبالغة في نفي الحجة رأساً كقوله:

ولاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِراعِ الكَتَائِبِ

للعلم بأن الظالم لا حجة له، وقرىء: أَلاَ الذين ظلموا منهم. على أنه استئناف بحرف التنبيه. ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ فلا تخافوهم، فإن مَطَاعِنَهم لا تضركم. ﴿وَٱخْشَوْنِي﴾ فلا تخالفوا ما أمرتُكم به. ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ علةُ محذوفٍ أي وأَمَرْتكم لإتمامي النعمة عليكم وإرادتي اهتداءكم[2]، أو عطفٌ على علة مقدَّرة مثل: واخشوني لأحفظكم منهم ولأتم نعمتي عليكم، أو لئلا يكون وفي الحديث «تمام النعمة دخول الجنة»[3]. وعن علي رضي الله تعالى عنه «تمام النعمة الموت على الإسلام».

(١٥١) ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ متصل بما قبله، أي ولأتم نعمتي عليكم في أمر القبلة، أو في الآخرة كما أتممتها بإرسال رسول منكم، أو بما بعده أي كما ذَكَرْتكم بالإرسال فاذكروني. ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ﴾ يحملكم على ما تصيرون به أزكياء، قدَّمه باعتبار القصد وأخره في دعوة إبراهيم عليه السلام باعتبار الفعل ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ بالفكر والنظر، إذ لا طريق إلى معرفته سوى الوحي، وكرّر الفعل ليدل على أنه جنس آخر.

(١٥٢) ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ﴾ بالطاعة. ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالثواب. ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي﴾ ما أنعمت به عليكم. ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ بجحد النعم وعصيان الأمر.

(١٥٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ﴾ عن المعاصي وحظوظ النفس، ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ التي هي أم

---

١) الشورى: «١٦».
٢) وعبر عن الإرادة بكلمة لعل الموضوعة للترجي على طريقة الاستعارة التبعية من الدلالة على كمال العناية بالهداية
٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص٢٥٣ رقم ٧٢٥) والترمذي (٥/ ٥٤١ رقم ٣٥٢٧) وقال: حسن، وأخرجه أحمد (٥/ ٢٣١) وعبد بن حميد (ص٦٦ رقم ١٠٧) والطبراني في الكبير (٢٠/ ٥٥ ـ ٥٦ رقم ٩٧) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٠٤) والخطيب في تاريخه (٣/ ١٢٦ ـ ١٢٧) كلهم من حديث معاذ وهو حديث ضعيف.

إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾
وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾
ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ

العبادات، ومعراج المؤمنين، ومناجاة رب العالمين. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بالنصر وإجابة الدعوة.

(١٥٤) ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ﴾ أي هم أموات ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ أي بل هم أحياء. ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ ما حالهم، وهو تنبيه على أن حياتهم ليست بالجسد ولا من جنس ما يُحِسُّ به مِنَ الحيوانات، وإنما هي أمر لا يدرك بالعقل بل بالوحي، وعن الحسن إن الشهداء أحياء عند ربهم تعرض أرزاقهم على أرواحهم فيصل إليهم الروح والفَرَح، كما تُعرض النار على أرواح آل فرعون غدواً وعشياً فيصل إليهم الألم والوجع. والآية نزلت في شهداء بدر، وكانوا أربعة عشر، وفيها دلالة على أن الأرواح جواهر قائمة بأنفسها مغايرة لما يحس به من البدن تبقى بعد الموت داركة، وعليه جمهور الصحابة والتابعين، وبه نطقت الآيات والسنن، وعلى هذا فتخصيص الشهداء لاختصاصهم بالقرب من الله تعالى ومزيد البهجة والكرامة.

(١٥٥) ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ ولنصيبنكم إصابةَ من يَخْتبِرُ لأحوالكم، هل تصبرون على البلاء وتستسلمون للقضاء؟ ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ﴾ أي بقليل من ذلك، وإنما قلّله بالإضافة إلى ما وَقاهم منه ليخفف عليهم. ويريهم أن رحمته لا تفارقُهم، أو بالنسبةِ إلى ما يُصيبُ به معانديهم في الآخرة، وإنما أخبرهم به قبل وقوعه ليوطِّنوا عليه نفوسَهم ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ عطف على شيء، أو الخوف، وعن الشافعي رضي الله عنه الخوف: خوف الله، والجوع: صوم رمضان، والنقص: من الأموال الصدقات والزكوات، ومن الأنفس: الأمراض، ومن: الثمرات موت الأولاد[١]. وعن النبي ﷺ «إذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة: أقبضتم روح ولد عبدي؟ فيقولون نعم، فيقول الله: أقبضتم ثمرة فؤاده، فيقولون نعم، فيقول الله تعالى: ماذا قال عبدي؟ فيقولون حمدك واسترجع، فيقول الله: ابنو لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد»[٢] ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

(١٥٦) ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، أو لمن تتأتى منه البِشارة. والمصيبةُ تعمّ ما يصيب الإنسان من مكروه، لقوله عليه الصلاة والسلام: «كل شيء يؤذي المؤمن فهو له مصيبة»[٣]. وليس الصبر بالاسترجاع باللسان، بل به وبالقلب بأن يتصور ما خُلِقَ لأجله

---

(١) قال ابن كثير: وفي هذا نظر والله أعلم (ابن كثير ١/ ١٨٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٣/ ٣٤١ رقم ١٠٢١) والطيالسي في مسنده (ص٦٩ رقم ٥٠٨) وأحمد (٤/ ٤١٥) وعبد بن حميد (ص١٩٤ ـ ١٩٥ رقم ٥٥١) وابن حبان (ص١٨٥ رقم ٧٢٦ ـ الموارد) من حديث أبي موسى. وقال الترمذي: حسن. وحسنه الألباني في الصحيحة رقم (١٤٠٨).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الفراء ـ كما في الدر المنثور (١/ ٣٨٠) ـ من حديث عكرمة مرسلاً بهذا اللفظ.

وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ
ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُولَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾

وأنه راجع إلى ربه ويتذكر نعم الله عليه ليرى أن ما بقي عليه أضعافُ ما استرده منه فيهوِّن على نفسه، ويستسلم له. والمبشر به محذوف دل عليه.

(١٥٧) ﴿أُولَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾[١] الصلاة في الأصل الدعاء، ومن الله تعالى التزكية والمغفرة. وجمعُها للتنبيه على كثرتها وتنوعها. والمراد بالرحمة اللطفُ والإحسان. وعن النبي ﷺ «من استرجع عند المصيبة، جبر الله مصيبته، وأحسن عقباه، وجعل له خلفاً صالحاً يرضاه»[٢] ﴿وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ للحق والصوابِ حيث استرجعوا وسلموا لقضاء الله تعالى.

(١٥٨) ﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ﴾ هما عَلَمَا جبلين بمكة. ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ من أعلام مناسكه، جمع شعيرة وهي العلامة. ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ﴾ الحج لغة القصد، والاعتمار الزيارة. فَغَلَبا شرعاً على قصدِ البيت وزيارته على الوجهين المخصوصين. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ كان إساف على الصفا ونائلة على المروة، وكان أهل الجاهلية إذا سعوْا مسحوهما. فلما جاء الإسلام وكسرت الأصنام تحرَّج المسلمون أنِ يطوفوا بينهما لذلك فنزلت. والإجماع على أنه مشروع في الحج والعمرة، وإنما الخلاف في وجوبه: فعن أحمد[٣] أنه سنة، وبه قال أنس وابن عباس رضي الله عنهم لقوله ﴿فَلَا جُنَاحَ

= ● وأخرج الطبراني في الكبير (٨/ ٢٤٠ رقم ٧٨٢٤) عن عبيدالله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة قال: انقطع قبال رسول الله ﷺ فاسترجع، فقالوا أمصيبة يا رسول الله؟.
قال: «ما أصاب المؤمن مما يكره فهو مصيبة».
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٣٣١) بإسناد ضعيف. وذلك بسبب عبيدالله بن زحر، وعلي بن يزيد.
● وأخرج الطبراني في الكبير أيضاً (٨/ ١٥٥ ـ ١٥٦ رقم ٧٦٠٠) عن مكحول عن أبي أمامة قال خرجنا مع رسول الله ﷺ فانقطع شسع النبي ﷺ فقال «إنا لله وإنا إليه راجعون» فقال له رجل هذا الشسع؟ فقال رسول الله ﷺ «إنها مصيبة».
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٣٣١) وفيه «العلاء بن كثير» وهو متروك.

(١) معنى البعد فيه للإيذان بعلو رتبتهم (أبو السعود ١/ ١٨٠).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/ ٢٥٥ رقم ١٣٠٢٧) والطبري في جامع البيان (٢/ ٤٢ ـ ٣٢) من حديث ابن عباس.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٣٣١) وقال فيه: علي بن أبي طلحة وهو ضعيف.

(٣) هو أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل، ولد في شهر ربيع الأول سنة أربع وستين ومائة، وطلب العلم صغيراً، ورحل لطلبه إلى الشام والحجاز واليمن وغيرها حتى أجمع على إمامته وتقواه وورعِهِ وزهده.
قال أبو زرعة: كانت كتبه اثني عشرَ حملاً، وكان يحفظها عن ظهر قلب، وكان يحفظ ألف ألف حديث. وألف المسند الكبير أعظم المسانيد وأحسنَها وضعاً وانتقاداً، فإنه لم يدخل فيه إلا ما يُحتج به مع كونه انتقاهُ من أكثر من سبعمائة ألف حديث وخمسين ألف حديث. وكانت وفاته سنة إحدى وأربعين ومائتين على الصحيح ببغداد =

عَلَيۡهِ﴾ فإنه يفهم منه التخيير وهو ضعيف ، لأن نفي الجُناح يدل على الجواز الداخل في معنى الوجوب، فلا يدفعه. وعن أبي حنيفة رحمه الله تعالى أنه واجب، يُجْبَر بالدم. وعن مالك والشافعي رحمهما الله أنه ركن لقوله عليه الصلاة والسلام «اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي»(٢). ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا﴾ أي فِعْلَ طاعة فرضاً كان أو نفلاً، أو زاد على ما فَرَض الله عليه من حج أو عمرة، أو طواف أو تطوع بالسعي إن قلنا إنه سنة. وخيراً نُصِبَ على أنه صفة مصدر محذوف، أو بحذف الجار وإيصال الفعل إليه، أو بتعدية الفعل لتضمنه معنى أتى أو فَعَل. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب يَطّوع وأصله يتطوع فأُدغم مثل يَطّوف ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ مثيب على الطاعة لا تخفى عليه.

(١٥٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ﴾ كأحبار اليهود. ﴿مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ كالآيات الشاهدة على أمر محمد ﷺ. ﴿وَٱلۡهُدَىٰ﴾ وما يهدي إلى وجوب اتباعه والإيمان به. ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ﴾ لخصناه. ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في التوراة. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ أي الذين يتأتى منهم اللعن عليهم من الملائكة والثقلين.

= مدينة السلام.

[تاريخ بغداد (٢/ ٤١٢ ـ ٤٢٣ رقم ٢٣١٧) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ١١٠ رقم ٤٥)].

(١) لأن مفهوم الآية رفع الجناح عمن تطوف بالصفا والمروة لأنهم في الجاهلية كانوا يُهلُّون لمناة الطاغية ويعبدونها فكان البعض من المسلمين يتحرج من ذلك، فنزلت لرفع الحرج. وظاهره عدم الوجوب للسعي إلا أن الوجوب مفهوم من أدلة أخرى.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٤٢١) والشافعي في ترتيب المسند (١/ ٣٥١ رقم ٣٠٧) من حديث حبيبة بنت أبي تُجْراة العبدرية أن النبي ﷺ: قال «اسعَوا، فإن الله كتب عليكم السَّعْيَ» وفي إسناده عبدالله بن المؤمل وهو ضعيف، وله طريق أخرى في صحيح ابن خزيمة (٤/ ٢٣٧ رقم ٢٧٧٣) وإسناده ضعيف، عن ابن عباس. وأخرج أحمد في المسند (٦/ ٤٢١ ـ ٤٢٢) نحوه من حديث صفية بنت شيبة.

وأخرج الدارقطني (٢/ ٢٥٥ رقم ٨٤) والبيهقي في السنن الكبرى (٥/ ٩٧) من حديث صفية، قالت: أخبرتني نسوة من بني عبدالدار اللائي أدركن رسول الله ﷺ، قلن: دخلنا دار ابن أبي حسين فاطلعنا من باب مقطع فرأينا رسول الله ﷺ يشتدّ في المسعى، حتى إذا بلغ زقاق بني فلان موضعاً قد سماه من المسعى، استقبل الناس وقال: «يا أيها الناس اسعوا فإن المسعى قد كتب عليكم» وإسناده صحيح.

والخلاصة: أن الحديث صحيح.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ
ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ
مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ
ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

(١٦٠) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ عن الكتمان وسائر ما يجب أن يتاب عنه ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ ما أفسدوا بالتدارك. ﴿وَبَيَّنُوا۟﴾ ما بينه الله في كتابهم لتتم توبتُهم. وقيل ما أحدثوه من التوبة ليمحوا به سمة الكفر عن أنفسهم ويقتدي بهم أضرابهم ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾[1] بالقبول والمغفرة. ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ المبالغ في قبول التوبة وإفاضة الرحمة.

(١٦١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي ومن لم يتب من الكاتمين حتى مات ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ استقر عليهم اللعن من الله، ومن يعتد بلعنه من خلقه. وقيل: الأول لَعْنُهم أحياءً وهذا لعنهم أمواتاً. وقرىء والملائكةُ والناسُ أجمعون عطفاً على محل اسم الله لأنه فاعل في المعنى، كقولك أعجبني ضرب زيدٍ وعمرو، أو فاعلاً لفعل مقدر نحو وتلعنهم الملائكة.

(١٦٢) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي في اللعنة، أو النار. وإضمارُها قبل الذكر تفخيماً لشأنها وتهويلاً، أو اكتفاء بدلالة اللعن عليها. ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي لا يمهلون، أو لا ينتظرون ليعتذروا، أو لا ينظر إليهم نظر رحمة[2].

(١٦٣) ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ خطاب عام، أي المستحق منكم العبادة واحد لا شريك له يصح أن يُعبَد أو يسمى إلهاً. ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تقرير للوحدانية وإزاحة لأن يتوهم أن في الوجود إلهاً ولكن لا يستحق منهم العبادة. ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ كالحجة عليها، فإنه لما كان مُولي النعم كلِّها أصولِها وفروعِها وما سواه إما نعمة أو منعَم عليه لم يستحق العبادة أحد غيره، وهما خبران آخران لقوله إلٰهكم، أو لمبتدأ محذوف. قيل لما سمعه المشركون تعجبوا وقالوا: إن كنت صادقاً فائت بآية نعرف بها صدقك فنزلت.

(١٦٤) ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إنما جَمَع السموات وأفرد الأرض، لأنها طبقات متفاصِلة بالذات مختلفة بالحقيقة بخلاف الأرضين. ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ تعاقبهما كقوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾[3]. ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي ينفعهم، أو بالذي ينفعهم، والقصد به إلى الاستدلال بالبحر وأحواله، وتخصيص الفُلك بالذكر لأنه سبب الخوض فيه والاطلاع على

---

(١) فأولئك، إشارة إلى الموصول «الذين» باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة وهو قوله «تابوا» للإشعار بعليته للحكم (أبو السعود ١/ ١٨٣).

(٢) قوله: «ولا هم ينظرون» آثر الجملة الاسمية لإفادة النفي واستمراره (أبو السعود ١/ ١٨٣).

(٣) الفرقان: «٦٢».

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾

عجائبه، ولذلك قدّمه على ذكر المطر والسحاب، لأن منشأهما البحر في غالب الأمر، وتأنيث الفُلك لأنه بمعنى السفينة. وقرىء بضمتين على الأصل، أو الجمع وضمة الجمع غير ضمة الواحد عند المحققين. ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾ من الأولى للإبتداء، والثانية للبيان. والسماء يحتمل الفلك، والسحاب، وجهة العلو. ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بالنبات ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ عطف على أنزل، كأنه استدل بنزول المطر وتكوين النبات به وبث الحيوانات في الأرض، أو على أحيا فإن الدواب يَنْمُون بالخصب ويعيشون بالحياة. والبث النشر والتفريق. ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ في مهابها وأحوالها، وقرأ حمزة والكسائي على الإفراد. ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا ينزل ولا ينقشع، مع أن الطبع يقتضي أحدَهما حتى يأتي أمر الله تعالى. وقيل: مسخر الرياح تقلُّبه في الجو بمشيئة الله تعالى، واشتقاقُه من السَّحْب لأن بعضه يجر بعضاً. ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يتفكرون فيها وينظرون إليها بعيون عقولهم، وعنه ﷺ «ويل لمن قرأ هذه الآية فمج بها»[(١)] أي لم يتفكر فيها.

واعلم أن دلالة هذه الآيات على وجود الإله ووحدته من وجوه كثيرة يطول شرحها مفصلاً، والكلام المجمل أنها: أمور ممكنة وُجد كل منها بوجه مخصوص من وجوه محتملة وأنحاء مختلفة، إذ كان من الجائز مثلاً أن لا تتحرك السموات أو بعضها كالأرض، وأن تتحرك بعكس حركاتها وبحيث تصير المنطقة دائرة مارّة بالقطبينْ وأن لا يكون لها أَوج وحضيض أصلاً، وعلى هذا الوجه لبساطتها وتساوي أجزائها فلا بد لها من موجد قادر حكيم يوجدها على ما تستدعيه حكمتُه وتقتضيه مشيئته متعالياً عن معارضة غيره. إذ لو كان معه إله يقدر على ما يقدر عليه الآخر، فإن توافقت إرادتهما: فالفعل إن كان لهما لزم اجتماع مؤثِّرين على أثر واحد، وإن كان لأحدهما لزم ترجيح الفاعل بلا مرجح وعجز الآخر المنافي لآلهيته. وإن اختلفت: لزم التمانُع والتطارد، كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[(٢)]. وفي الآية تنبيه على شرف علم الكلام وأهله وحث على البحث والنظر فيه.

(١٦٥) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ من الأصنام. وقيل من الرؤساء الذين كانوا يطيعونهم لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾[(٣)] ولعل المراد أعمُّ منهما وهو ما يشغله

---

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن مردويه وابن المنذر في تفاسيرهم وابن أبي الدنيا في كتاب التفكر (الفتح السماوي ص٢٠٤) وأخرجه ابن حبان في صحيحه (الإحسان ٢/ ١٠ ـ ١١).
ورجاله رجال الحسن (تخريج الفتح السماوي ص٢٠٤).

(٢) الأنبياء: «٢٢».

(٣) البقرة: «١٦٦».

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ
لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم
بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾

عن الله ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ يعظِّمونهم ويطيعونهم ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ كتعظيمه والميل إلى طاعته، أي يسوون بينه وبينهم في المحبة والطاعة، والمحبة: ميل القلب من الحُبِّ، استُعير لِحَبَّة القلب، ثم اشتُق منه الحُبُّ لأنه أصابَها ورسخ فيها، ومحبة العبد لله تعالى إرادة طاعته والاعتناء بتحصيل مراضيه، ومحبة الله للعبد إرادة إكرامه واستعماله في الطاعة وصونه عن المعاصي. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ لأنه لا تنقطع محبتهم لله تعالى، بخلاف محبة الأنداد فإنها لأغراضٍ فاسدة موهومة تزول بأدنى سبب، ولذلك كانوا يَعْدِلُون عن آلهتهم إلى الله تعالى عند الشدائد، ويعبدون الصنم زماناً ثم يرفضونه إلى غيره.

﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ ولو يعلم هؤلاء الذين ظلموا باتخاذ الأنداد ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ إذ عاينوه يوم القيامة. وأجرى المستقبَل مجرى الماضي لتحققه كقوله تعالى ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾[(١)].

﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ سادٌّ مسد مفعولي يرى، وجوابُ لو محذوفٌ. أي لو يعلمون أن القوة لله جميعاً إذا عاينوا العذاب لندموا أشد الندم. وقيل هو متعلق الجواب والمفعولان محذوفان، والتقدير: ولو يرى الذين ظلموا أندادهم لا تنفع لعلموا أن القوة لله كلها لا ينفع ولا يضر غيره. وقرأ ابن عامر ونافع ويعقوب: ولو ترى على أنه خطاب للنبي ﷺ، أي ولو ترى ذلك لرأيتَ أمراً عظيماً، وابن عامر: إذ يُرَوْن على البناء للمفعول، ويعقوب إن بالكسر وكذا ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ على الاستئناف، أو إضمارِ القول.

(١٦٦) ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ بدل من إذ يرون، أي إذ تبرأ المتْبوعون من الأتباع. وقرىء بالعكس، أي تبرأ الأتباع من الرؤساء ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ أي رائين له، والواو للحال، وقد مضمرة. وقيل: عطفٌ على تبرأ ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ يحتمل العطف على تبرأ أو رأوا، والواو للحال، والأولُ أظهر. والأسبابُ: الوُصَلُ التي كانت بينهم من الأتباع والاتفاق على الدين والأغراض الداعية إلى ذلك. وأصل السبب: الحبل الذي يُرتقى به الشجر. وقرىء وتُقُطِّعت على البناء للمفعول.

(١٦٧) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾ لو للتمني ولذلك أجيب بالفاء، أي ليت لنا كرّة إلى الدنيا فنتبرأ منهم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلُ ذلك الإراءِ الفظيع. ﴿يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾ ندامات، وهي ثالثُ مفاعيل يُرى إن كان من رؤية القلب وإلا فَحالٌ ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أصله وما يخرجون فَعَدَل به إلى هذه العبارة للمبالغة في الخلود والإقناط عن الخلاص والرجوع إلى الدنيا.

---

(١) الأعراف: «٤٤».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨
إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾

(١٦٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلٗا﴾ نزلت في قوم حرموا على أنفسهم رفيعَ الأطعمة والملابسَ، وحلالاً مفعولُ كلوا أو صفةُ مصدر محذوف أو حال مما في الأرض، ومن للتبعيض إذ لا يؤكل كل ما في الأرض ﴿طَيِّبٗا﴾ يستطيبه الشرع أو الشهوة المستقيمة، إذ الحلال دل على الأول. ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ﴾ لا تقتدوا به في اتباع الهوى فتحرِّموا الحلال وتحللوا الحرام. وقرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والبزي[1] وأبو بكر حيثُ وَقَعَ بتسكين الطاء وهما لغتان في جمع خطوة، وهي ما بين قدمي الخاطي. وقرىء بضمتين وهمزة جُعِلت ضمة الطاء كأنها عليها، وبفتحتين على أنه جمع خطوة وهي المَرَّةُ من الخَطوِ ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة عند ذوي البصيرة وإن كان يُظهِر الموالاة لمن يغويه، ولذلك سماه ولياً في قوله تعالى ﴿أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾[2].

(١٦٩) ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ بيان لعداوته ووجوب التحرز عن متابعته. واستعير الأمر لتزيينه وبعثه لهم على الشر تسفيهاً لرأيهم وتحقيراً لشأنهم، والسوءُ والفحشاءُ: ما أنكره العقل واستقبحه الشرع، والعطفُ لاختلاف الوصفين فإنه سوء لاغتمام العاقل به وفحشاء باستقباحه إياه. وقيل: السوء يعم القبائح، والفحشاء ما يتجاوز الحد في القُبح من الكبائر. وقيل: الأول مالا حَدَّ فيه، والثاني ما شُرِع فيه الحد ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ كاتخاذ الأنداد وتحليل المحرمات وتحريم الطيبات، وفيه دليل على المنع من اتباع الظن رأساً. وأما اتباع المجتهد لما أدى إليه ظنٌّ مُسْتَنِد إلى مدرَك شرعي فوجوبه قطعي، والظن في طريقه كما بيناه في الكتب الأصولية.

(١٧٠) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ الضمير للناس، وعَدَلَ بالخطاب عنهم للنداء على ضلالهم، كأنه التفت إلى العقلاء وقال لهم: انظروا إلى هؤلاء الحمقى ماذا يجيبون. ﴿قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ ما وجدناهم عليه. نزلت في المشركين أمروا باتباع القرآن وسائر ما أَنْزَلَ الله من الحجج والآيات، فجنحوا إلى التقليد. وقيل في طائفة من اليهود دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فقالوا: بل نتَّبع ما وجدنا عليه آباءنا لأنهم كانوا خيراً منّا وأعلم. وعلى هذا فيعُم ما أنزل الله التوراةَ لأنها أيضاً تدعو إلى الإسلام. ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ الواو للحال أو العطف، والهمزة للرد والتعجيب. وجوابُ لو محذوف أي لو كان آباؤُهم جَهَلة لا يتفكرون في أمر الدين ولا يهتدون إلى الحق لاتّبعوهم. وهو دليل على المنع من التقليد لمن قدِر على النظر والاجتهاد. وأما

---

(١) البزي هو أحمد بن محمد بن عبدالله بن القاسم بن نافع بن أبي بزة، إمام ضابط ثقة، وكان إمام المسجد الحرام ومقرئه ومؤذنه، وإليه انتهت مشيخة الأمراء بمكة، وقد اشتهر بالرواية عن ابن كثير الذي هو من القراء السبعة، توفي عام (٢٥٠) هـ.

(٢) البقرة: «٢٥٧».

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا
حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ
إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾

اتِّباع الغير في الدين إذا عَلِم بدليلٍ ما أنه محِقّ كالأنبياء والمجتهدين في الأحكام فهو في الحقيقة ليس بتقليد بل اتباع لما أنزل الله.

(١٧١) ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ على حذف مضاف تقديره: ومَثَل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينعق، أو مَثَلُ الذين كفروا كمثل بهائم الذي ينعق. والمعنى أن الكفرة لانهماكهم في التقليد لا يُلْقون أذهانهم إلى ما يتلى عليهم ولا يتأملون فيما يقرر معهم، فهم في ذلك كالبهائم التي ينعق عليها فتسمع الصوت ولا تعرف مغزاه وتحس بالنداء ولا تفهم معناه. وقيل هو تمثيلهم في اتباع آبائهم على ظاهر حالهم جاهلين بحقيقتها بالبهائم التي تسمع الصوت ولا تفهم ما تحته. أو تمثيلهم في دعائهم الأصنام بالناعق في نعقه وهو التصويت على البهائم، وهذا يغني الإضمار ولكن لا يساعده قولُه إلا دعاء ونداء، لأن الأصنام لا تَسمَع إلا أن يُجعل ذلك من باب التمثيل المركب[(١)].

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ رفع على الذم. ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي بالفعل للإخلال بالنظر.

(١٧٢) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾ لما وَسَّع الأمرَ على الناس كافة وأباح لهم ما في الأرض سوى ما حرم عليهم، أمر المؤمنين منهم أن يتحروْا طيبات ما رُزقوا ويقوموا بحقوقها فقال ﴿وَٱشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ على ما رزقكم وأحل لكم. ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ إن صح أنكم تخصونه بالعبادة وتقرون أنه مولي النعم، فإن عبادته تعالى لا تتم إلا بالشكر. فالمعلق بفعل العبادة هو الأمر بالشكر لإتمامه، وهو عدم عند عدمه. وعن النبي ﷺ «يقول الله تعالى إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر غيري»[(٢)].

---

(١) وضع الموصول موضع الضمير. . . لذمهم بما في حيز الصلة وللإشعار بعلة ما أثبت لهم من الحكم والتقدير (أبو السعود ١/ ١٩٠).

(٢) وهو حديث ضعيف.
أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤/ ١٣٤ رقم ٤٥٦٣) من حديث أبي الدرداء.
وأورده الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (ص٢٢٥)، والديلمي في «الفردوس» (٣/ ١٦٦ رقم ٤٤٣٩).
والسيوطي في «الجامع الصغير» رقم (٦٠٠٨) ورمز لضعفه.
وقال المناوي: فيه: مُهنى بن يحيى: مجهول، وبقية بن الوليد أورده الذهبي في الضعفاء، وقال: يروي عن الكذابين ويدلسهم؛ وشريح بن عبيد ثقة لكنه مُرْسِل وأورده الألباني في «ضعيف الجامع» (٤/ ١١٠ رقم ٤٠٥٢) وضعفه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى
بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾

(١٧٣) ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ أكلها أو الانتفاع بها، وهي التي ماتت من غير ذكاة، والحديث ألحق بها ما أُبينَ من حي، والسمك والجراد أخرجهما العرف عنها أو استثناه الشرع، والحرمة المضافة إلى العين تفيد عرفاً حرمة التصرف فيها مطلقاً إلا ما خصه الدليل كالتصرف في المدبوغ ﴿وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ إنما خصَّ اللحم بالذكر لأنه معظم ما يؤكل من الحيوان وسائر أجزائه كالتابع له. ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ أي رُفِع به الصوت عند ذبحه للصنم. والإهلال أصله رؤية الهلال، يقال: أهلّ الهلال وأهلَلْته، لكن لما جرت العادة أن يُرفع الصوت بالتكبير إذا رُئي سمي ذلك إهلالاً، ثم قيل لرفع الصوت وإن كان لغيره. ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾ بالاستيثار على مضطر آخر. وقرأ عاصم وأبو عمرو وحمزة بكسر النون[1]. ﴿وَلَا عَادٍ﴾ سدّ الرمق أو الجوعة. وقيل: غير باغ على الوالي ولا عاد بقطع الطريق. فعلى هذا لا يُباح للعاصي بالسفر وهو ظاهر مذهب الشافعي وقول أحمد رحمهما الله تعالى. ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في تناوله. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما فعل ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالرخصة فيه. فإن قيل: «إنما» تفيدُ قصرَ الحكم على ما ذُكر وكم من حرام لم يذكر، قلت: المراد قَصْر الحُرمة على ما ذكر مما استحلوه لا مطلقاً، أو قصر حرمته على حال الاختيار كأنه قيل إنما حرم عليكم هذه الأشياء مالم تضطروا إليها.

(١٧٤) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عِوَضاً حقيراً. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَا[2] يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ إما في الحال، لأنهم أكلوا ما يتلبس بالنار لكونها عقوبة عليه فكأنه أكل النار كقوله:

أكَلْتُ دَماً إنْ لَمْ أَرُعْكِ بِضرةٍ بعِيدة مَهْوى القِرطِ طيبة النَّشر

يعني الدية. أو في المآل أي لا يأكلون يوم القيامة إلاّ النار. ومعنى في بطونهم: ملء بطونهم. يقال أكل في بطنه وأكل في بعض بطنه كقوله:

كلوا في بَعضِ بَطنِكمو تُعفُوا

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ عبارة عن غضبه عليهم، وتعريض بحرمانهم حال مقابليهم في الكرامة والزلفى من الله. ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ لا يثني عليهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم.

(١٧٥) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ في الدنيا. ﴿وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ﴾ في الآخرة، بكتمان الحق للمطامع والأغراض الدنيوية. ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ تعجب من حالهم في الالتباس

---

(١) وقرىء بضم النون «فمنُ اضطُر».
(٢) ما فيه من معنى البعد لبيان بُعْد منزلتهم في الشر والفساد (أبو السعود ١/١٩١).

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ

بموجبات النار من غير مبالاة. وما تامّة مرفوعة بالابتداء، وتخصيصها كتخصيص قولهم:

شرٌّ أَهَرَّ ذا نَابِ

أو استفهامية وما بعدها الخبر، أو موصولة وما بعدها صلة والخبر محذوف.

(١٧٦) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي ذلك العذاب بسبب أن الله نزل الكتاب بالحق فرفضوه بالتكذيب أو الكتمان. ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ اللام فيه إما للجنس، واختلافُهم إيمانُهم ببعض كتب الله تعالى وكفرهم ببعض، أو للعهد. والإشارة إما إلى التوراة، واختلفوا بمعنى تخلّفوا عن المنهج المستقيم في تأويلها، أو خلفوا خلال ما أنزل الله تعالى مكانه، أي حرفوا ما فيها. وإما إلى القرآن واختلافُهم فيه قولُهم سحرٌ وَتَقَوُّلٌ وكلام علّمه بَشَر وأساطير الأولين ﴿لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ لفي خلاف بعيد عن الحق.

(١٧٧) ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ البرُّ: كل فعل مرضٍ، والخطابُ لأهل الكتاب فإنهم أكثروا الخوض في أمر القبلة حين حُوِّلت وادعى كل طائفة أن البر هو التوجه إلى قبلته، فردَّ اللهُ تعالى عليهم وقال: ليس البرُّ ما أنتم عليه فإنه منسوخ ولكن البرَّ ما بينه الله واتبعه المؤمنون. وقيل عامٌّ لهم وللمسلمين، أي ليس البر مقصوراً بأمر القبلة، أو ليس البر العظيم الذي يَحْسُن أن تذهلوا بشأنه عن غيره أمرها، وقرأ حمزة وحفص البرَّ بالنصب ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ أي ولكن البر الذي ينبغي أن يُهْتَمّ به برُّ من آمن بالله، أو لكن ذا البر من آمن، ويؤيده قراءة من قرأ ولكن البار، والأول أوفق وأحسن. والمراد بالكتاب الجنس، أو القرآن. وقرأ نافع وابن عامر ولكنْ بالتخفيف ورفع البرّ. ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي على حب المال، قال عليه الصلاة والسلام لما سئل أي الصدقة أفضل قال: «أن تؤتيه وأنت صحيح شحيح تأمل العيش، وتخشى الفقر»[1]. وقيل الضمير لله، أو للمصدر. والجار والمجرور في موضع الحال. ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ يريد المحاويج منهم، ولم يُقَيِّد لعدم الالتباس. وقدَّم ذوي القربى لأن إيتاءهم أفضل كما قال عليه الصلاة والسلام «صدقتك على المسكين صدقة وعلى ذوي رحمك اثنتان، صدقة وصلة»[2].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٧٢) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.
وأورده ابن كثير في تفسيره (١/ ٢١٤) بعدما نقل كلام الحاكم، قال: وقد رواه وكيع عن الأعمش وسفيان عن زبيد عن مرة عن ابن مسعود موقوفاً وهو أصح.
وذكره أبو نعيم في الحلية (٧/ ٢٣٨) من طريق مسعر عن زبيد عن مرة عن ابن مسعود به وقال «مشهور من حديث مسعر رواه عنه الناس».

(٢) أخرجه الترمذي (٦٥٨) وقال: حديث حسن، وأخرجه النسائي (٢٥٨٣) وابن ماجة (١٨٤٤) وابن حبان =

وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ جمع المسكين وهو الذي أسكَنَته الخلّة، وأصله دائم السكون كالمسْكير للدائم السكر. ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ المسافر، سمي به لملازمته السبيلَ كما سُمي القاطع ابن الطريق. وقيل الضيف لأن السبيل يرعف به[1]. ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ الذين ألجأتهم الحاجة إلى السؤال، وقال عليه السلام «للسائل حق وإن جاء على فرسه»[2] ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ وفي تخليصها بمعاونة المكاتبين، أو فك الأسارى، أو ابتياع الرقاب لعتقها. ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة. ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يحتمل أن يكون المقصود منه ومن قوله: «وآتي المال» الزكاة المفروضة، ولكن الغرض من الأول بيان مصارفها، ومن الثاني أداؤها والحث عليها. ويحتمل أن يكون المرادُ بالأول نوافل الصدقات أو حقوقاً كانت في المال سوى الزكاة. وفي الحديث (نسخت الزكاةُ كلَّ صدقة). ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ عطف على من آمن. ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ نَصْبُه على المدح ولم يُعْطَفْ لفضل الصبر على سائر الأعمال. وعن الأزهري[3]: البأساء في الأموال كالفقر، والضراء في الأنفس كالمرض. ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ وقت مجاهدة العدو. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ في الدين واتباع الحق وطلب البر. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ عن الكفر وسائر الرذائل. والآية كما ترى جامعة للكمالات الإنسانية بأسرها دالة عليها صريحاً أو ضمناً، فإنها بكثرتها

= (الإحسان ٥/ ١٤٣) والحاكم (١/ ٤٠٧) وقال صحيح ووافقه الذهبي.

(١) أي يقدمه، وأصل الرعاف السبق والتقدم (المصباح المنير مادة رعف).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٠١) وابن أبي شيبة في المصنف (٣/ ١١٣) وأبو داود (٢/ ٣٠٦ رقم ١٦٦٥) والطبراني في الكبير (٣/ ١٤١ رقم ٢٨٩٣) وأبو يعلى في المسند (١٢/ ١٥٤ رقم ١٣/ ٦٧٨٤).
كلهم من طريق يعلى بن أبي يحيى، عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها الحسين بن علي.
وفيه يعلى ابن أبي يحيى المدني: مجهول ـ التقريب (٢/ ٣٧٩ رقم ٤١٦) ـ.
● وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٢/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤ رقم ٥٣٥) من حديث الهرماس بن زياد، وفيه عثمان بن قايد، وهو ضعيف ـ التقريب (٢/ ١٣) ـ.
● وقال مالك في الموطأ (٢/ ٩٩٦) عن زيد بن أسلم أن رسول الله ﷺ قال: فذكره. وهو مرسل والخلاصة أن الحديث ضعيف والله أعلم.

(٣) الأزهري هو: محمد بن أحمد بن الأزهر بن طلحةَ الأزهَريّ الهرويُّ اللغويُّ الشافعيّ ارتحل في طلب العلم بعد أن سمعَ ببلده من الحسين بن إدريس، ومحمد بن عبدالرحمن السامي وعِدَّة، وسمعَ ببغداد من أبي القاسم البغوي وابن أبي داود، وإبراهيم بن عرفَة، وابنِ السَّرّاج، وأبي الفضل المنذري، وترك ابنَ دُريد تورُّعاً، فإنه قال: دخلتُ داره فألفيته على كبر سنه سكران.
وكان رأساً في اللغة والفقه، ثقةً، ثبتاً، ديناً. وله كتاب «تهذيب اللغة» المشهور، وكتاب «التفسير» وكتاب «تفسير ألفاظ المُزَني» وغيرها.
مات في ربيع الآخر سنة سبعين وثلاثمائة عن ثمانٍ وثمانين سنة.
[معجم الأدباء (١٧/ ١٦٤ ـ ١٦٧) وطبقات الشافعية للسبكي (٣/ ٦٣ ـ ٦٨)].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾

وتشعبها منحصرةٌ في ثلاثة أشياء: صحة الاعتقاد، وحسن المعاشرة، وتهذيب النفس. وقد أشير إلى الأول بقوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ إلى ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾. وإلى الثاني بقوله: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ﴾ إلى ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ وإلى الثالث بقوله: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إلى آخرها، ولذلك وُصِف المستجمع لها بالصدق نظراً إلى إيمانه واعتقاده، وبالتقوى اعتباراً بمعاشرته للخلق ومعاملته مع الحق، وإليه أشار بقوله عليه السلام «من عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان»[١] [٢].

(١٧٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ كان في الجاهلية بين حيين من أحياء العرب دماء، وكان لأحدهما طولٌ على الآخر، فأقسموا لنقتُلنّ الحر منكم بالعبد والذكر بالأنثى، فلما جاء الإسلام تحاكموا إلى رسول الله ﷺ فنزلت، وأَمَرهم أن يَتباوَؤا[٣]. ولا تدل على أن لا يُقتل الحر بالعبد والذكر بالأنثى، كما لا تَدُل على عكسه، فإن المفهوم حيثُ لم يَظْهرْ للتخصيص غرضٌ سوى اختصاصِ الحكم، وقد بينا ما كان الغرض. وإنما منع مالك والشافعي رضي الله تعالى عنهما قَتْلَ الحر بالعبد سواء كان عبدَه أو عبدَ غيره، لما روي عن علي رضي الله تعالى عنه: أن رجلاً قتل عبده فجلده الرسول ﷺ ونفاه سنة ولم يُقِدْه به[٤] وروي عنه أنه قال من السنة أن لا يقتل

---

(١) أخرجه ابن المنذر في تفسيره ـ كما في الدر المنثور للسيوطي (١/ ٤١٢) ـ من حديث أبي ميسرة.

(٢) وفي هذه الآية لفتات بيانية يجدر أن نشير إليها:
قوله «ليس البرَّ أن تولوا» فجعل المصدر المسبوك من أنْ وما بعدها هي الاسم وأخره عن الخبر وذلك لأن المصدر المؤول أعرف من المحلى باللام لأنه يشبه الضمير من حيث أنه لا يوصف ولا يوصف به، والأعرف أحق بالاسمية، وكذا لمراعاة النظم.
وقوله: «ذوي القربى واليتامى» فقدم ذوي القربى لأن إيتاءهم صدقة وصلة رحم.
وقوله «وفي الرقاب» عدم عن ذكرهم بما يفيد ملكيتهم إما لعدم الإقرار بملكيتهم أو عدم ثبوته رأساً أو للإشعار برسوخهم في الاستحقاق والحاجة ولهذا استخدم حرف الجر (في) المفيد للإحاطة التامة.
وقوله «والموفون بعهدهم» آثر صيغة الفاعل للدلالة على وجوب استمرار الوفاء.
وقوله «والصابرين» غيّر سبكه عما قبله تنبيهاً على فضيلة الصبر.
وقوله «وحين البأس» زاد الحين على خلاف سابقها للإشعار بوقوعه أحياناً وسرعة انقضائه.
وقوله «وأولئك هم المتقون» وسّط الضمير للإشارة إلى انحصار التقوى فيهم (أبو السعود ١/ ١٩٤).

(٣) أي أن يَرْجِع كل واحد على الآخر بما عليه من حق.

(٤) أخرجه ابن ماجة (٢/ ٨٨٨ رقم ٢٦٦٤) والدارقطني في السنن (٣/ ١٤٤ رقم ١٨٨) والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٣٦ ـ ٣٧) وابن أبي شيبة في المصنف (٩/ ٣٠٤) كلهم من طريق إسحاق بن أبي فروة، عن إبراهيم بن عبدالله بن حنين عن أبيه عن علي رضي الله عنه.
ومن طريق ابن أبي فروة أيضاً عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: كما أخرجه الدارقطني (٣/ ١٤٣ ـ ١٤٤ =

مسلم بذي عهد ولا حر بعبد ولأن أبا بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما كانا لا يقتلان الحر بالعبد بين أظهر الصحابة من غير نكير. وللقياس على الأطراف، ومن سلم دلالته فليس له دعوى نسخِهِ بقوله تعالى ﴿ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾(١) لأنه حكايةُ ما في التوراة فلا يَنْسَخُ ما في القرآن. واحتجت الحنفية به على أن مقتضى العمد القَوَدُ وحدَه، وهو ضعيف إذ الواجب على التخيير يَصْدُق عليه أنه وَجَب وكُتِب، ولذلك قيل التخيير بين الواجب وغيره ليس نسخاً لوجوبه. وقرىء كَتَبَ على البناء للفاعل والقِصَاصَ بالنصب، وكذلك كل فعل جاء في القرآن. ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ﴾ أي شيء من العفو، لأنّ عَفَا لازمٌ. وفائدته الإشعار بأن بعض العفو كالعفو التامّ في إسقاط القصاص. وقيل عفا بمعنى ترك، وشيء مفعول به وهو ضعيف، إذ لم يثبت عفا الشيءَ بمعنى تركه بل أعفاه. وعفا يُعدَّى بِعَنْ إلى الجاني وإلى الذنب، قال الله تعالى ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾(٢) وقال ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ﴾(٣). فإذا عُدِّي به إلى الذنب عُدِّي إلى الجاني باللام، وعليه ما في الآية، كأنه قيل: فمن عفي له عن جنايته من جهة أخيه، يعني وليّ الدم. وذِكْرُه بلفظ الأُخوة الثابتة بينهما من الجنسية والإسلام ليرُقّ له ويعطِفَ عليه. ﴿فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ أي فليكن اتباع، أو فالأمر اتّباعٌ: والمرادُ به وصية العافي بأن يطلبَ الدّيةَ بالمعروف فلا يُعنِّفْ، والمعفو عنه بأن يؤديَها بالإحسان: وهو أن لا يمْطُلَ ولا يَبْخَس. وفيه دليل على أن الدية أحدُ مقتضى العمد، وإلا لما رَتَّب الأمرَ بأدائها على مطلق العفو. وللشافعي رضي الله تعالى عنه في المسألة قولان. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الحكم المذكور في العفو والدية. ﴿تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ﴾ لما فيه من التسهيل والنفع، قيل: كُتب على اليهود القصاصُ وحدَه وعلى النصارى العفوُ مطلقاً وخُيِّرت هذه الأمة بينهما وبين الدية تيسيراً عليهم وتقديراً للحكم على حَسَب مراتبهم. ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ أي قَتَل بعد العفو وأخْذِ الديةِ. ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ في الآخرة. وقيل في الدنيا بأن يُقتل لا محالة لقوله عليه السلام «لا أعافي أحداً قتل بعد أخذه الدية»(٤).

= رقم ١٨٧) والبيهقي (٨/ ٣٦) من طريق محمد بن عبدالعزيز الرملي، عن إسماعيل بن عياش، عن الأوزاعي، عن عمرو بن شعيب به وإسحاق بن أبي فروة متروك ـ التقريب (١/ ٥٩) ـ وقال ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٨/ ٨) عن محمد بن عبدالعزيز الرملي: ليس عندهم بالمحمود وإلى الضعف ما هو، وقال الحافظ: صدوق يَهِم، من رجال البخاري. وقال البيهقي: أسانيد هذه الأحاديث ضعيفة لا تقوم بشيء منها الحجة إلاّ أن أكثر أهل العلم على أن لا يقتل الرجل بعبده (٨/ ٣٧).
والخلاصة أن الحديث ضعيف.

(١) المائدة: ٤٥.

(٢) التوبة: «٤٣».

(٣) المائدة: «٩٥».

(٤) أخرجه أبو داود (٤٥٠٧) وأحمد (٣/ ٣٦٣) وفيه مطر بن طهمان الوراق لم يسمع من الحسن البصري وضعفه أكثر من واحد فالسند ضعيف، وقد ضعفه أحمد شاكر في تخريج الطبري رقم (٢٦٠٣) وضعفه آخرون.

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾

(١٧٩) ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ كلام في غاية الفصاحة والبلاغة من حيث جعلِ الشيء محل ضده، وعَرَّف القصاص ونَكَّر الحياة ليدل على أن في هذا الجنس من الحكم نوعاً من الحياة عظيماً، وذلك لأن العلم به يردع القاتل عن القتل فيكون سبب حياة نفسين، ولأنهم كانوا يقتلون غير القاتل والجماعة بالواحد فتثور الفتنة بينهم، فإذا اقتُصَّ من القاتل سَلِم الباقون فيكون ذلك سبباً لحياتهم، وعلى الأول فيه إضمار وعلى الثاني تخصيص. وقيل: المراد بها الحياة الأخروية، فإن القاتل إذا اقتُصَّ منه في الدنيا لم يؤاخذ به في الآخرة. ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ﴾ يحتمل أن يكونا خبرين لحياة وأن يكون أحدهما خبراً والآخر صلة له، أو حالاً من الضمير المستكنّ فيه. وقرىء في القصص، أي فيما قُصَّ عليكم من حكم القتل حياة، أو في القرآن حياة للقلوب. ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ذوي العقول الكاملة، ناداهم للتأمل في حكمة القصاص من استبقاء الأرواح وحفظ النفوس. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ في المحافظة على القصاص والحكم به والإذعان له، أو عن القصاص فتكُفُّوا عن القتل.

(١٨٠) ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي حضرت أسبابه وظهرت أماراته[١]. ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ أي مالاً. وقيل مالاً كثيراً، لما روي عن علي رضي الله تعالى عنه أن مولًى له أراد أن يوصي وله سبعمائة درهم، فمنعه وقال: قال الله تعالى: «إن ترك خيراً» والخير هو المال الكثير[٢]. وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رجلاً أراد أن يوصي فسألَتْه كَمْ مالُك؟ فقال: ثلاثة آلاف، فقالت: كَمْ عيالك؟ قال: أربعة، قالت: إنما قال الله تعالى «إن ترك خيراً» وأن هذا لشيء يسير فاتركه لعيالك[٣]. ﴿ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ مرفوع بكُتِب، وتذكيرُ فعلها للفصل، أو على تأويل أن يوصي، أو الإيصاء ولذلك ذكر الراجع في قوله ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ﴾. والعامل في إذا مدلول كُتِب لا الوصية لتقدمه عليها. وقيل مبتدأ خبره للوالدين، والجملة جواب الشرط بإضمار الفاء كقوله:

مَـنْ يَفْعَـلِ الحَسَنَـاتِ اللهُ يشكُـرُهَـا ... والشَّـرُّ بِـالشَّـرِ عِنْـدَ الله مِثْـلاَنِ

وَرُدَّ بأنه إن صح فمن ضرورات الشعر. وكان هذا الحكم في بدء الإسلام فنسخ بآية المواريث

(١) قوله «إذا حضر أحدَكم الموتُ» قدم المفعول لإفادة كمال تمكن الفاعل عند النفس وقت وروده عليها (أبو السعود ١/١٩٦).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١١/٢٠٨ رقم ١٠٩٩٢) وعبدالرَّزَّاق في المصنف (٩/٦٢)، والحاكم في المستدرك (٢/٢٧٣ ـ ٢٧٤) وقال: صحيح على شرط الشيخين، وتعقبه الذهبي بقوله: فيه انقطاع. وذلك لما قاله أبو حاتم في المراسيل (ص١٤٩)، والعلل (١/٥٤): «عروة عن علي مرسل». قلت: عروة ولد في أوائل خلافة عمر بن الخطاب، واستُخلف عليٌّ رضي الله عنه في سنة (٣٥هـ) فيمكن سماع عروة من علي قبل انتقاله إلى الكوفة.
وأخرجه الدارمي (٢/٤٠٥) والبيهقي في السنن الكبرى (٦/٢٧٠) والطبري في «جامع البيان» (٢/١٢١). كلهم عن هشام بن عروة عن أبيه عنه. . . والأثر رجاله ثقات.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١١/٢٠٨) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/٢٧٠) وعبدالرزاق في المصنف (٩/٦٣) وسعيد بن منصور ـ كما في الدر المنثور (١/٤٢٢) ـ عنها. والأثر إسناده صحيح.

﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٨١ فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾

وبقوله عليه الصلاة والسلام «إن الله أعطى كل ذي حق حقه، ألا لا وصية لوارث»[1] . وفيه نظر: لأن آية المواريث لا تعارضه بل تؤكده من حيث إنها تدل على تقديم الوصية مطلقاً، والحديث من الآحاد، وتلقي الأمةِ له بالقبول لا يُلْحقه بالمتواتر. ولعله احترز عنه من فسر الوصية بما أوصى به الله من توريث الوالدين والأقربين بقوله يوصيكم الله. أو بإيصاء المحتضِر لهم بتوفير ما أوصى به الله عليهم ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ﴾ بالعدل فلا يفضل الغنى، ولا بتجاوز الثلث. ﴿حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ مصدر مؤكد أي حق ذلك حقاً.

(١٨١) ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ﴾ غيره من الأوصياء والشهود. ﴿بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ﴾ أي وصل إليه وتحقَّق عنده، ﴿فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ﴾ فما إثم الإيصاء المغيَّر أو التبديل إلا على مُبَدِّليه لأنهم الذين حافوا وخالفوا الشرع. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ وعيد للمبدل بغير حق.

(١٨٢) ﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ﴾ أي توقع وعلِم، من قولهم أخاف أن ترسل السماء. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وأبو بكر مُوَصٍّ مشدداً. ﴿جَنَفًا﴾ ميلاً بالخطأ في الوصية. ﴿أَوۡ إِثۡمٗا﴾ تعمداً للحيف. ﴿فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ﴾ بين الموصى لهم بإجرائهم على نهج الشرع. ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ في هذا التبديل، لأنه تبديل باطل إلى حق بخلاف الأول. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ وعدٌ للمصلح، وذِكْر المغفرة لمطابقة ذِكْر الإثم وكون الفعل من جنس ما يؤثم.

(١٨٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾[2] يعني الأنبياء والأمم من لدن آدم عليه السلام، وفيه توكيد للحكم وترغيب في الفعل وتطييب على النفس. والصوم في اللغة: الإمساك عما تنازع إليه النفس، وفي الشرع: الإمساك عن المفطرات بياض النهار، فإنها معظم ما تشتهيه النفس. ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ المعاصي، فإن الصوم يكسر الشهوة التي هي مبدؤها كما قال

---

(١) وهو حديث صحيح من حديث عمرو بن خارجة، وأبي أمامة. أما حديث عمرو فقد أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٨٦ ـ ١٨٧) وابن ماجة في السنن (٢/ ٩٠٥ رقم ٢٧١٢) والنسائي في السنن (٦/ ٢٤٧) والترمذي (٤/ ٤٣٤ رقم ٢١٢١) وقال: حديث حسن صحيح. والدارقطني (٤/ ١٥٢ رقم ١٠) والبيهقي (٦/ ٢٦٤) وأخرجه الطيالسي في المسند (ص١٦٩ رقم ١٢١٧) والدارمي (٢/ ٤١٩) وهو حديث صحيح بشواهده كثيرة، وإلا فإن شهر بن حوشب ضعيف لسوء حفظه.

● وأما حديث أبي أمامة فأخرجه أحمد في المسند (٥/ ٢٦٧) وأبو داود (٣/ ٢٩٠ رقم ٢٨٧٠) وابن ماجة (٢/ ٩٠٥ رقم ٢٧١٣) والترمذي (٤/ ٤٣٣ رقم ٢١٢٠) وقال حديث حسن صحيح. والطيالسي في المسند (ص١٥٤ رقم ١١٢٧) والبيهقي (٦/ ٢٦٤) والدولابي في الكنى (١/ ٦٤) وسعيد بن منصور في سننه (١/ ١٢٥ رقم ٤٢٧) وفي إسناده إسماعيل بن عياش وهو قوي في الشاميين وهذا الحديث من روايته عنهم.

(٢) كرر النداء بيا أيها الذين آمنوا لإظهار مزيد الإعتناء (أبو السعود ١/ ١٩٨).

أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾

عليه الصلاة والسلام «فعليه بالصوم فإن الصوم له وجاء»[١] أو الإخلال بأدائه لأصالته وقِدَمه.

(١٨٤) ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ مؤقتات بعدد معلوم، أو قلائل، فإن القليل من المال يعد عداً والكثير يُهالُ هيْلاً، ونصبُها ليس بالصيام لوقوع الفصل بينهما بل بإضمار صوموا لدَلالة الصيام عليه، والمراد به رمضان أو ما وَجَب صومه قبل وجوبه ونُسِخ به، وهو عاشوراء أو ثلاثة أيام من كل شهر، أو بِكَمَا كُتِب على الظرفية، أو على أنه مفعول ثان لكُتِب عليكم على السعة. وقيل معناه صومكم كصومهم في عدد الأيام، لما روي: أن رمضان كتب على النصارى، فوقع في برد أو حر شديد فحولوه إلى الربيع وزادوا عليه عشرين كفارةً لتحويله. وقيل زادوا ذلك لموتان أصابهم. ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ مرضاً يضره الصوم أو يعسر معه. ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أو راكبُ سفر، وفيه إيماء إلى أن من سافر أثناء اليوم لم يفطر. ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي فعليه صوم عدد أيام المرض أو السفر من أيام أخر إن أفطر، فحُذِف الشرط والمضاف والمضاف إليه للعلم بها. وقرىء بالنصب أي فليصم عدة، وهذا على سبيل الرخصة. وقيل على الوجوب وإليه ذهب الظاهرية وبه قال أبو هريرة رضي الله عنه ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ وعلى المطيقين للصيام إن أفطروا. ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ نصف صاع من بُرّ أو صاع من غيره عند فقهاء العُراق، ومُدّ عند فقهاء الحجاز. رُخِّص لهم في ذلك أول الأمر لما أُمِروا بالصوم فاشتد عليهم لأنهم لم يتعودوه ثم نسخ. وقرأ نافع وابن عامر برواية ابن ذكوان[٢] بإضافة الفدية إلى الطعام وجمع المساكين، وقرأ ابن عامر برواية هشام[٣] مساكين بغير إضافة الفدية إلى الطعام، والباقون بغير إضافة وتوحيد مسكين، وقرِىء يُطَوَّقونه أي يُكَلَّفونه ويُقَلَّدونه من الطوق بمعنى الطاقة أو القِلادة، ويتطوّقونه أي يتكلفونه أو يتقلدونه، ويَطَّوقونه بالإدغام، ويُطَيَّقونه ويَطَّيَّقونه على أن أصلهما يَطْيُوقونه من فيعل وتفيعل بمعنى يطوقونه ويتطوقونه، وعلى هذه القراءات يحتمل معنى ثانياً وهو الرخصة لمن يتعبه الصوم ويجهده ـ وهم الشيوخ والعجائز ـ في الإفطار والفدية، فيكون ثابتاً وقد أول به القراءةُ المشهورة، أي يصومونه جَهْدهم وطاقتهم. ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ فزاد في الفدية. ﴿فَهُوَ﴾ فالتطوع أو

---

(١) أخرجه البخاري (٤/١١٩ رقم ١٩٠٥) ومسلم (٢/١٠١٨ رقم ١٤٠٠) وأخرجه أبو داود (٢/٥٣٨ رقم ٢٠٤٦) والترمذي (٣/٣٩٢ رقم ١٠٨١) والنسائي (٤/١٦٩) و(٦/٥٦ ـ ٥٧) بنحوه وابن ماجة (١/ ٥٩٢ رقم ١٨٤٥) من حديث ابن مسعود.

● الوجاء: بكسر الواو الوَجْء وهو أن يُرَضّ أنثيا الفحل رضاً شديداً يذهب شهوة الجماع، ويتنزل في قطعِهِ منزلة الخصَبيّ (لسان العرب: ١٥/ ٢١٤).

(٢) ابن ذكوان هو عبدالله بن أحمد بن بشير بن ذكوان القرشي الدمشقي. أخذ القراءة عن أيوب بن تميم عن يحيى بن الحارث الذماري عن ابن عامر، وابن عامر من القراء السبعة وتوفي ابن ذكوان (٢٤٢)هـ.

(٣) هشام: وكان قاضياً فقيهاً محدثاً ثقة ضابطاً، وأخذ القراءة عن عِراك بن خالد المزي عن يحيى بن الحارث الذماري عن ابن عامر، وتوفي بدمشق عام (٢٤٥)هـ.

شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

الخير. ﴿خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟﴾ أيها المُطِيقون، أو المطوقون وجهدتم طاقتكم، أو المرخصون في الإفطار ليندرج تحته المريض والمسافر. ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الفدية أو تطوع الخير أو منهما ومن التأخير للقضاء. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما في الصوم من الفضيلة وبراءة الذمة، وجوابه محذوف دل عليه ما قبله أي اخترتموه. وقيل معناه إن كنتم من أهل العلم والتدبر علمتم أن الصوم خير لكم من ذلك.

(١٨٥) ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ مبتدأ خبره ما بعده، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره ذلكم شهر رمضان، أو بدل من الصيام على حذفِ المضاف أي كتب عليكم الصيام صيام شهر رمضان. وقرىء بالنصب على إضمار صوموا، أو على أنه مفعول، وأن تصوموا وفيه ضعف، أو بدل من أيام معدودات. والشهر: من الشُّهرة، ورمضان: مصدر رمَضَ إذا احترق، فأضيف إليه الشهر وجُعل عَلَماً ومُنِع من الصرف للعَلَمية والألفِ والنون، كما مُنع دَأية في ابن دأية عَلَماً للغُراب للعَلَمية والتأنيث، وقوله عليه الصلاة والسلام «من صام رمضان»[(١)] فعلى حذف المضاف لأَمْن الالتباس، وإنما سموه بذلك إما لارتماضهم فيه من حر الجوع والعطش، أو لارتماض الذنوب فيه، أو لوقوعه أيام رَمَضِ الحرّ حين ما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة. ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ أي ابتدىء فيه إنزاله، وكان ذلك ليلة القدر، أو أنزل فيه جملة إلى سماء الدنيا ثم نزل منجماً إلى الأرض، أو أنزل في شأنه القرآن وهو قوله ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾. وعن النبي ﷺ «نزلت صحف إبراهيم عليه السلام أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لستٍّ مضيْن، والإنجيلُ لثلاثَ عشرةَ، والقرآن لأربع وعشرين»[(٢)] والموصولُ بصلته خبر المبتدأ أو صفته والخبر فمن شهد، والفاء لوصف المبتدأ بما تضمن معنى الشرط. وفيه إشعار بأن الإنزال فيه سبب اختصاصه بوجوب الصوم. ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ حالان من القرآن، أي أنزل وهو هداية للناس بإعجازه وآيات واضحات مما يهدي إلى الحق، ويفرق بينه وبين الباطل بما فيه

(١) أخرجه البخاري (١/ ٩٢ رقم ٣٨) و(٤/ ١١٥ رقم ١٩٠١) و(٤/ ٢٥٥ رقم ٢٠١٤) ومسلم (١/ ٥٢٣، ٥٢٤ رقم ١٧٥) كلاهما من طرق عن أبي سلمة عن أبي هريرة.
● وتتمة الحديث «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفِر له ما تقدم من ذنبه.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ١٠٧) والطبراني في الكبير (٢٢/ ٧٥ رقم ١٨٥) والطبري في «جامع البيان» (٢/ ١٤٥). كلهم من طريق عمران القطان عن قتادة عن ابن أبي مليح عن واثلة وقال الألباني في الصحيحة: «هذا إسناد حسن رجاله ثقات، وفي القطان كلام يسير وله شاهد من حديث ابن عباس مرفوعاً نحوه.
أخرجه ابن عساكر (٢/ ١٦٧/ ١ و٥/ ٣٥٢/ ١) من طريق علي بن أبي طلحة عنه. وهذا منقطع، لان علياً هذا لم يرَ ابن عباس» هـ.
قلت: وعمران القطان هذا حسن الحديث ـ التقريب (٢/ ٨٣) ـ والجرح والتعديل (٧/ ٢٩٧).

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

من الحكم والأحكام. ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فمن حضر في الشهر ولم يكن مسافراً فليصُم فيه، والأصل فمن شهد فيه فليصم فيه، لكن وُضِع المُظْهَر موضع المضمر الأول للتعظيم، ونُصِب على الظرف وحذف الجارّ ونصب الضمير الثاني على الاتساع. وقيل فمن شهد منكم هلال الشهر فليصمه، على أنه مفعول به كقولك: شهدت الجمعة أي صلاتها فيكون ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ مخصِّصاً له، لأن المسافر والمريض ممن شهد الشهر ولعل تكريره لذلك، أو لئلا يُتوهم نسخُه كما نُسخ قرينه. ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ أي يريد أن ييسر عليكم ولا يعسر، فلذلك أباح الفطر في السفر والمرض. ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ عَلَّلَ لفعل محذوف دل عليه ما سبق، أي وشرع جملة ما ذكر من أمر الشاهد بصوم الشهر والمرخص بالقضاء ومراعاةِ عِدَّة ما أَفطر فيه والترخيصِ لتكملوا العدة إلى آخرها على سبيل اللفّ، فإنّ قوله ولتكملوا العدة علةُ الأمر بمراعاة العدة، ولتكبروا الله علةُ الأمر بالقضاء وبيانِ كيفيته، ولعلكم تشكرون علةُ الترخيص والتيسير. أو الأفعال كلٌّ لفعله، أو معطوفةٌ على علة مقدرة مِثْل ليسهِّل عليكم، أو لتعلموا ما تعلمون ولتكملوا العدة، ويجوز أن يُعْطَف على اليسر أي ويريد بكم لتكملوا كقوله تعالى ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾[1] . والمعنيُّ بالتكبير تعظيمُ الله بالحمد والثناء عليه ولذلك عُدِّي بعلى، وقيل تكبير يوم الفطر، وقيل التكبيرُ عند الإهلال وما يحتمل المصدر والخبر، أي الذي هداكم إليه، وعن عاصم برواية أبي بكر ولتكمِّلوا بالتشديد.

(١٨٦) ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ أي فقل لهم إني قريب، وهو تمثيل لكمال علمه بأفعال العباد وأقوالهم واطلاعه على أحوالهم بحال من قُرب مكانه منهم، روي أن أعرابياً قال لرسول الله ﷺ أقريب ربُّنا فنناجيه أم بعيد فنناديه فنزلت[2] ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ تقرير للقرب، ووعد للداعي بالإجابة. ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ إذا دعوتهم للإيمان والطاعة كما أجيبهم إذا دعوني لمهماتهم ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ أمر بالثبات والمداومة عليه. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ راجين إصابة الرُّشد وهو إصابة الحق. وقرىء بفتح الشين وكسرها. واعلم أنه تعالى لما أمرهم بصوم الشهر ومراعاة العدة، وحثهم على القيام بوظائف التكبير والشكر عقّبه بهذه الآية الدالة على أنه تعالى خبير بأحوالهم سميع لأقوالهم مجيب لدعائهم مجازيهم على أعمالهم تأكيداً له وحثاً عليه، ثم بين أحكام الصوم فقال:

---

(١) الصف: «٨».

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان (٢/١٥٨) وابن مردويه وأبو الشيخ ـ كما في الدر المنثور للسيوطي (١/٤٦٩) ـ من طريق جرير عن عبدة السجستاني عن الصلب بن حكيم عن أبيه عن جده.
وقد عرَّف «الصلب» عن ابن جرير والسيوطي إلى «الصلت» بالمثناة، والصواب بالموحدة وهو مجهول. انظر الإكمال لابن ماكولا (٥/١٩٦) وتبصير المنتبه (٣/٨٣٩).
والخلاصة أن الحديث ضعيف.

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٰٔنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

(١٨٧) ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ روي أن المسلمين كانوا إذا أمسَوْا حلَّ لهم الأكل والشرب والجماع إلى أن يصلوا العشاء الآخرة أو يرقدوا، ثم: إن عمر رضي الله عنه باشَرَ بعد العشاء فندم وأتى النبي ﷺ واعتذر إليه، فقام رجال واعترفوا بما صنعوا بعد العشاء فنزلت[1] وليلة الصيام: الليلة التي تصبح منها صائماً. والرفث: كناية عن الجماع، لأنه لا يكاد يخلو من رَفَث وهو الإفصاح بما يجب أن يكنى عنه، وعُدِّي بإلى لتضمنه معنى الإفضاء، وإيثارُه ههنا لتقبيح ما ارتكبوه ولذلك سماه خيانة. وقرىء الرفوث ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ استئناف يبين سبب الإحلال وهو قلة الصبر عنهن وصعوبة اجتنابهن لكثرة المخالطة وشدة الملابسة، ولما كان الرجل والمرأة يعتنقان ويشتمل كل منهما على صاحبه شُبِّه باللباس قال الجعدي:

إِذَا مَا الضجِيعُ ثَنَّى عِطْفَهَا تَثَنَّتْ فَكَانَتْ عَلَيْهِ لِبَاسَا

أو لأن كل واحد منهما يستر حال صاحبه ويمنعه من الفجور. ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ تظلمونها بتعريضها للعقاب، وتنقيص حظها من الثواب، والاختيان أبلغُ من الخيانة

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٤٦٠) والطبري في جامع البيان (٢/ ١٦٥) كلهم من طريق «موسى بن جبير» مولى بني سلمة، عن كعب بن مالك قال عنه الحافظ: مستور ـ كما في التقريب (٢/ ٢٨١) ـ.
● المستور: من روى عنه أكثر من واحد ولم يوثق، وإليه الإشارة بلفظ مستور أو مجهول الحال.
وأخرج أبو داود (١/ ٣٤٧ رقم ٥٠٦) وأحمد (٥/ ٢٤٦) والطبري في «جامع البيان» (٢/ ١٦٤) كلهم من طريق ابن أبي ليلى عن معاذ بن جبل نحوه وقد تقدم أن ابن أبي ليلى لم يسمع من معاذ ومع ذلك فقد صححه الألباني في صحيح أبي داود وأخرجه الطبري (٢/ ١٦٥) من حديث ابن عباس، وفي إسناده «عبدالله كاتب الليث» وهو ضعيف. وأخرجه أبو داود أيضاً (٢/ ٧٣٦ رقم ٢٣١٣) من حديث ابن عباس أيضاً وفيه «علي بن الحسين بن واقد» وهو ضعيف ـ كما في المختصر للمنذري (٣/ ٢٠٧) ـ.
وحسن الألباني إسناد الحديث في صحيح أبي داود. قلت: كون الحرمة مخصصة بالنوم قد ورد في حديث البراء عند البخاري (٤/ ١٢٩ رقم ١٩١٥) وأبي داود (٢/ ٧٣٧ رقم ٢٣١١٤) والدارمي (٢/ ٥) عنه قال: «كان أصحاب محمد ﷺ إذا كان الرجل صائماً فحضر الإفطارُ فنام قبل أن يفطِرُ لم يأكل ليلته ولا يَومَهُ حتى يمسي.
وإنَّ قيس بن صِرْمة الأنصاري كان صائماً فلما حضر الإفطار أتى امرأتهُ فقال لها أعِندَكِ طعام؟ قالت: لا ولكن أنطلق فأطلُبُ لك وكان يومه يعمَلُ، فغلبتهُ عيناه. فجاءتهُ امرأتهُ، فلما رأتهُ قالت خيبةً لك، فلما انتصف النهار غشي عليه فذُكر ذلك للنبي ﷺ فنزلت هذه الآية (أُحِلَّ لكم ليلة الصيام الرَّفثُ إلى نسائكم) ففرحوا فرحاً شديداً ونزلت (وكُلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود).

كالاكتساب من الكسب. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ لما تبتم مما اقترفتموه. ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾ ومحا عنكم أثره. ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾ لِمَا نسخ عنكم التحريم، وفيه دليل على جواز نسخ السنة بالقرآن، والمباشرة: إلزاق البَشَرة بالبشرة كُنِّي به عن الجماع. ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ واطلبوا ما قدره لكم وأثبته في اللوح المحفوظ من الولد، والمعنى: أن المباشِر ينبغي أن يكون غرضه الولدَ فإنه الحكمة من خلق الشهوة وشرع النكاح لإقضاء الوَطَر، وقيل النهي عن العزل، وقيل عن غير المأتى والتقديرُ وابتغوا المحل الذي كَتَب الله لكم. ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ شبه أول ما يبدو من الفجر المعترِض في الأفق وما يمتد معه من غَبَش الليل بخيطين أبيض وأسود، واكتفى ببيان الخيط الأبيض بقوله من الفجر عن بيان الخيط الأسود لدلالته عليه، وبذلك خرجا عن الاستعارة إلى التمثيل.

ويجوز أن تكون من للتبعيض، فإن ما يبدو بعضَ الفجر. وما روي أنها نزلت ولم ينزل من الفجر، فعَمَد رجال إلى خيطين أسود وأبيض ولا يزالون يأكلون ويشربون حتى يتبينا لهم فنزلت[(١)]، إن صح فلعله كان قبل دخول رمضان وتأخيرُ البيان إلى وقت الحاجة جائز، أو اكتفى أولاً باشتهارهما في ذلك ثم صرح بالبيان لما التبس على بعضهم، وفي تجويز المباشرة إلى الصبح الدلالةُ على جواز تأخير الغُسْل إليه وصحةُ صوم المصبح جنباً ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ بيان لآخِر وقته وإخراج الليل عنه، فينفي صوم الوصال. ﴿وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ﴾ معتكفون فيها. والاعتكاف: هي اللبث في المسجد بقصد القُربة. والمراد بالمباشرة: الوطء. وعن قتادة كان الرجل يعتكف فيخرج إلى امرأته فيباشرها ثم يرجع فنهوا عن ذلك[(٢)]. وفيه دليل على أن الاعتكاف يكون في المسجد ولا يختص بمسجد دون مسجد، وأن الوطء يحرم فيه ويفسده لأن النهي في العبادات يوجب الفساد. ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي الأحكام التي ذكرت. ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ نهى أن يقرب الحد الحاجز بين الحق والباطل لئلا يداني الباطل، فضلاً عن أن يتخطى عنه. كما قال عليه الصلاة والسلام «إن لكل ملك حمى وإن حمى الله محارمه فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه»[(٣)]. وهو أبلغ من قوله فلا تعتدوها، ويجوز أن يريد بحدود الله محارمه ومناهيه. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك التبيين ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ مخالفة الأوامر والنواهي.

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٣٢ رقم ١٩١٧) و(١٨/ ١٨٢ ـ ١٨٣ رقم ٤٥١١) والنسائي في الكبرى ـ كما في تحفة الأشراف (٤/ ١٢١) ـ ومسلم (٢/ ٧٦٧ رقم ٣٥) كلهم من طريق أبي حازم عن سهل بن سعد.
● وأخرج البخاري (٤/ ١٣٢ رقم ١٩١٦) و(٨/ ١٨٢ رقم ٤٥٠٩، ٤٥١٠) ومسلم (٢/ ٧٦٦ رقم ٣٣) من حديث عدي بن حاتم أنه هو عمد إلى خيطين أبيض وأسود، فذكر نحو حديث سهل.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري (٢/ ١٨٠ ـ ١٨١) من طريقين عنه: الأول: عن بشر بن معاذ العقدي، عن يزيد بن زريع عن سعيد عنه.
الثاني: عن الحسن بن يحيى، عن عبدالرزاق، عن معمر عنه. وبشر بن معاذ، والحسن بن يحيى كلاهما صدوق، وباقي رجال الطريقين ثقات، فالأثر صحيح مرسل.
وقد روى الطبري معناه عن ابن عباس، والضحاك، والربيع، والسدي.

(٣) أخرجه البخاري (١/ ١٢٦ رقم ٥٢) و(٤/ ٢٩٠ رقم ٢٠٥١) ومسلم (٣/ ١٢١٩ رقم ١٠٧/ ١٥٩٩) كلاهما من رواية الشعبي عن النعمان بن بشير.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾

(١٨٨) ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي ولا يأكل بعضكم مال بعض بالوجه الذي لم يبحه الله تعالى. وبين نصب على الظرف، أو الحال من الأموال. ﴿وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ عطف على المنهي، أو نصب بإضمار أن. والإدلاء: الإلقاء، أي ولا تلقوا حكومتها إلى الحكام. ﴿لِتَأْكُلُواْ﴾ بالتحاكم. ﴿فَرِيقًا﴾ طائفة. ﴿مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ﴾ بما يوجب إثما، كشهادة الزور واليمين الكاذبة، أو ملتبسين بالإثم. ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم مبطلون، فإن ارتكاب المعصية مع العلم بها أقبح. روي أن عبدان الحضرمي ادعى على امرىء القيس الكندي قطعة من أرض ولم يكن له بيّنة، فحكم رسول الله ﷺ بأن يحلف امرؤ القيس، فهمَّ به فقرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾[(١)] الآية، فارتدع عن اليمين، وسلم الأرض إلى عبدان، فنزلت[(٢)]. وفيه دليل على أن حكم القاضي لا ينفُذُ باطناً، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام «إنما أنا بشر وأنتم تختصمون إلي، ولعل بعضكم يكونُ أَلْحَنَ بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فإنما أقضي له قطعة من نار»[(٣)].

(١٨٩) ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ سأله معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم[(٤)] فقالا: ما بال الهلال يبدو دقيقاً كالخيط، ثم يزيد حتى يستوي، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا[(٥)] ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ

---

(١) آل عمران: «٧٧».

(٢) الصحيح أن المخاصمة كانت بين ربيعة بن عبدان وبين امرىء القيس، وامرؤ القيس هذا هو صحابي جليل حفيد امرىء القيس الشاعر الجاهلي المشهور، وقد ثبت على الإسلام حين ارتدت قبيلته حتى قتل عمه المرتد ولعن الأشعث بن قيس على ارتداده. انظر ترجمته في أسد الغابة (١/ ١١١٥) وفي الإصابة (١/ ٦٣).
وهذا الأثر أخرجه الواحدي في أسباب النزول (ص٥٥) عن مقاتل بن حيان ولم يذكر سنده وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير وهو لم يسمع منه (تخريج الفتح السماوي ص٢٢٩).

(٣) أخرجه البخاري (٥/ ٢٨٨ رقم ٢٦٨٠) و(١٣/ ١٥٧ رقم ٧١٦٩) و(١٢/ ٣٣٩ رقم ٦٩٦٧) ومسلم (٣/ ١٣٣٧ رقم ٤) وأبي داود (٤/ ١٢ رقم ٣٥٨٣) والترمذي (٤/ ٦٢٤ رقم ١٣٣٩).
والنسائي (٢/ ٣٠٤ رقم ٥٤٠٣) و(٢/ ٣٠٨ رقم ٥٤٢٤) وابن ماجة (٢/ ٧٧٧ رقم ٢٣١٧) ومالك (٢/ ٧١٩ رقم ١) وأحمد (٦/ ٢٠٣، ٢٩٠، ٣٠٨، ٣٢٠).
● اللحن: الميل عن جهة الاستقامة (النهاية مادة لحن).

(٤) ثعلبة بن غنم: هكذا في الأصل، والصحيح ثعلبة بن غنمة بن عدي الأنصاري الخزرجي، شهد العقبتين وبدراً، واستشهد يوم الخندق وقيل يوم خيبر. انظر الإصابة (١/ ٢٠١) وأسد الغابة (١/ ٢٤٤).

(٥) أخرجه أبو نعيم وابن عساكر في تاريخ دمشق من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس =

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾

﴿وَٱلۡحَجِّۗ﴾ فإنهم سألوا عن الحكمة في اختلاف حال القمر وتبدل أمره، فأمره الله أن يجيب بأن الحكمة الظاهرة في ذلك أن تكون معالم للناس يؤقتون بها أمورهم، ومعالم للعبادات المؤقَّتة يُعرَف بها أوقاتها، وخصوصاً الحج فإن الوقت مراعى فيه أداء وقضاء. والمواقيت: جمع ميقات من الوقت، والفرقُ بينه وبين المدة والزمان: أن المدة المطلقة امتداد حركة الفَلَكِ من مبدئها إلى منتهاها. والزمانُ: مدة مقسومة، والوقتُ: الزمانُ المفروض لأمر. ﴿وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ وقرأ أبو عمرو وورش[(١)] وحفص بضم الباء، والباقون بالكسر[(٢)]. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾ وقرأ نافع وابن عامر بتخفيف ولكنْ، ورفع البر. كانت الأنصار إذا أحرموا لم يدخلوا داراً ولا فسطاطاً من بابه، وإنما يدخلون من نُقْب أو فُرْجة وراءه، ويَعُدُّون ذلك بِراً، فبين لهم أنه ليس ببر وإنما البر من اتقى المحارم والشهوات[(٣)]. ووجه اتصاله بما قبله أنهم سألوا عن الأمرين، أو أنه لما ذكر أنها مواقيت الحج وهذا أيضاً من أفعالهم في الحج ذكره للاستطراد، أو أنهم لما سألوا عمّا لا يَعْنيهم ولا يتعلق بعلم النبوة وتركوا السؤال عما يعنيهم ويختص بعلم النبوة عقَّب بذكره جواب ما سألوه تنبيهاً على أن اللائق بهم أن يسألوا أمثال ذلك ويهتموا بالعلم بها، أو أن المراد به التنبيه على تعكيسهم في السؤال بتمثيل حالهم بحال من ترك باب البيت ودخل من ورائه. والمعنى: وليس البرُّ بأن تعكِسوا مسائلكم ولكن البرَّ برُّ من اتقى ذلك ولم يجسر على مثله. ﴿وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ﴾ إذ ليس في العدول بِرٌّ فباشِروا الأمور من وجوهها. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في تغيير أحكامه والاعتراض على أفعاله. ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ لكي تظفروا بالهدى والبر[(٤)].

(١٩٠) ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جاهدوا لإعلاء كلمته وإعزاز دينه. ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ قيل: كان ذلك قبل أن أُمروا بقتال المشركين كافةً المقاتلين منهم والمحاجزين. وقيل معناه الذين يناصبونكم القتال ويُتوقع منهم ذلك دون غيرهم من المشايخ والصبيان والرهبان والنساء، أو الكفرة كلهم فإنهم بصدد قتال المسلمين وعلى قصده. ويؤيد الأول ما روي أن المشركين صدوا رسول الله ﷺ عام

= به ـ كما في أسباب النزول للسيوطي ص٢٨ ـ، قلت: إسناده واه بسبب السدي والكلبي.
وأخرج الطبري في «جامع البيان» (٢/ ١٨٥) عن قتادة بسند صحيح: سألوا نبي الله ﷺ عن ذلك لِمَ جعلت هذه الأهلة؟ فأنزل الله فيها ما تسمعون «هي مواقيتَ للناس» فجعلها لصوم المسلمين ولإفطارهم ولمناسكهم وحجهم ولعدة نسائهم ومحل دينهم في أشياء والله أعلم بما يصلح خلقه.

(١) ورش هو عثمان بن سعيد المصري، ويلقب بورش لشدة بياضه، رحل إلى المدينة فقرأ على نافع، ثم رجع إلى مصر فانتهت إليه رياسة الإقراء بها، توفي (١٩٧)هـ.

(٢) أي بضم الباء وكسرها.

(٣) أخرجه البخاري (١٨٠٣، ٤٥١٢).

(٤) أمر بالتقوى صراحة بعد بيان أن البر برّ من اتقى إظهاراً لزيادة الاعتناء بالتقوى وتمهيداً لقوله «لعلكم تفلحون» (أبو السعود ١/ ٢٠٣).

وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ
يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا
تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ
قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾

الحديبية، وصالحوه على أن يرجع من قابِلٍ فيُخْلوا له مكة ـ شرفها الله ـ ثلاثة أيام، فرجع لعمرة القضاء وخاف المسلمون أن لا يوفوا لهم ويقاتلوهم في الحرم. أو الشهر الحرام وكرهوا ذلك فنزلت[1] ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾ بابتداء القتال، أو بقتال المعاهِد، أو المفاجأة به من غير دعوة، أو المُثْلة، أو قتل من نُهيتم عن قتله. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ لا يريد بهم الخير.

(١٩١) ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ حيث وجدتموهم في حِلٍّ أو حَرَم. وأصل الثقف: الحِذق في إدراك الشيء عِلْماً كان أو عملاً. فهو يتضمن معنى الغلبة ولذلك استعمل فيها قال:

فـأمّـا تَثْقفُـونـي فَـاقتُلُـونـي　　فمَـنْ أُثْقَـفْ فَلَيْـسَ إلـى خُلُـودِ

﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي مكة، وقد فُعِل ذلك بمن لم يسلم يوم الفتح. ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ أي المحنة التي يفتتن بها الإنسان كالإخراج من الوطن أصعب من القتل لدوام تعبها وتألم النفس بها. وقيل: معناه شركُهم في الحرم وصدُّهم إياكم عنه أشد من قتلكم إياهم فيه. ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ أي لا تفاتحوهم بالقتال وهتك حرمة المسجد الحرام. ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ فلا تبالوا بقتالهم ثم فإنهم الذين هتكوا حرمته[2]. وقرأ حمزة والكسائي ولا تَقْتلوهم حتى يقتُلوكم فيه فإن قَتَلوكم. والمعنى حتى يقتُلوا بعضكم كقولهم قتلنا بنو أسد. ﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مثل ذلك جزاؤهم يفعل بهم مثل ما فعلوا.

(١٩٢) (١٩٣) ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ عن القتال والكفر ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لهم ما قد سلف ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ شرك ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ خالصاً له ليس للشيطان فيه نصيب. ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ عن الشرك. ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي فلا تعتدوا على المنتهين إذ لا يحسُن أن يَظْلِم إلا من ظُلِم، فوَضَعَ العلة موضع الحكم، وسمي جزاء الظلم باسمه للمشاكلة كقوله ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[3]. أو أنكم إن تعرضتم للمنتهين صرتم ظالمين وينعكس الأمر عليكم، والفاءُ الأولى للتعقيب والثانية للجزاء.

(١٩٤) ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ قاتلهم المشركون عام الحديبية في ذي القعدة واتفق خروجُهم

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢/١٩٧) عن قتادة في تفسير قوله تعالى: «الشهرُ الحرامُ بالشهرِ الحرامِ والحرماتُ قِصاصٌ» الآية (١٩٤).

(٢) قوله: «فإن قاتلوكم فاقتلوهم» عدل عن صيغة المفاعلة في قوله «فاقتلوهم» وقد ورد بها النهي والشرط لما فيها من وعد بالنصر والغلبة على الكافرين (أبو السعود ١/ ٢٠٤).

(٣) البقرة: «١٩٤».

﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

لعمرة القضاء فيه، وكرهوا أن يقاتلوهم فيه لحُرْمته فقيل لهم هذا الشهر بذاك وهَتْكُه بهتكه فلا تبالوا به. ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ احتجاج عليه، أي كل حرمة وهو ما يجب أن يُحافَظَ عليها يجري فيها القصاص، فلما هتكوا حرمة شهركم بالصد فافعلوا بهم مثله، وادخلوا عليهم عنوة واقتلوهم إن قاتلوكم. كما قال: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ وهو فَذْلكة التقرير. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الأنصار ولا تعتدوا إلى مالم يرخص لكم. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ فيحرسهم ويصلح شأنهم.

(١٩٥) ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ولا تمسكوا كل الإمساك. ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ بالإسراف وتضييع وجه المعاش، أو بالكف عن الغزو والإنفاق فيه، فإن ذلك يقوي العدو ويسلطهم على إهلاككم. ويؤيده ما روي عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنه قال: لما أعز الله الإسلام وكثر أهله رجعنا إلى أهالينا وأموالنا نقيم فيها ونصلحها فنزلت[١]، أو بالإمساك وحب المال فإنه يؤدي إلى الهلاك المؤبد، ولذلك سمي البخل هلاكاً وهو في الأصل انتهاء الشيء في الفساد[٢]، والإلقاء: طرح الشيء، وعُدِّي بإلى لتضمن معنى الانتهاء، والباءُ مزيدة والمراد بالأيدي الأنفس، والتهلُكة والهلاك والهَلْك واحد فهي مصدر كالتَّضرّة والتَّسرّة، أي لا توقعوا أنفسكم في الهلاك، وقيل: معناه لا تجعلوها آخذةً بأيديكم، أو لا تلقوا بأيديكم أنفُسَكم إليها فحُذِفَ المفعول. ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ أعمالكم وأخلاقكم، أو تفضلوا على المحاويج. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

(١٩٦) ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ أي ائتوا بهما تامّيْن مستجمعي المناسكِ لوجه الله تعالى، وهو على هذا يدل على وجوبهما، ويؤيده قراءة من قرأ وأقيموا الحج والعمرة لله، وما روى جابر رضي الله تعالى عنه «أنه قيل يا رسول الله العمرة واجبة مثل الحج، فقال: لا ولكنْ إن تعتمر خير لك»[٣]

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى ـ كما في تحفة الأشراف (٣/٨٨) ـ وأبو داود (٣/٢٧ رقم ٢٥١٢) والطيالسي في مسنده (ص٨٢) والطبري في «جامع البيان» (٢/ ٢٠٤) والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٧٥) و(٢/ ٨٤) عنه.
قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.
وقال الألباني: وقد وهِما فإن الشيخين لم يخرّجا لأسلم هذا، فالحديث صحيح فقط (الصحيحة ١٣).

(٢) قال الشوكاني: (والحق أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل ما صدق عليه أنه تهلكة في الدين أو الدنيا فهو داخل في هذا فتح القدير) (١/ ١٩٣).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٣١٦) والترمذي (٣/ ٢٧٠ رقم ٩٣١) والدارقطني (٢/ ٢٨٥) والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٣٤٩) كلهم من طريق حجاج بن أرطأة، عن محمد بن المنكدر عنه. وإسناده ضعيف ومع ذلك قال الترمذي: حسن صحيح. وانظر كلام ابن حجر في التلخيص (٢/ ٢٢٦) فقد أيد ضعفه. =

فمعارَضٌ بما روي «أن رجلاً قال لعمر رضي الله تعالى عنه، إني وجدت الحج والعمرة مكتوبين عليَّ أهللت بهما جميعاً، فقال: هديت لسنة نبيك»[١] ولا يقال إنه فسَّر وَجَد أَنهما مكتوبين بقوله أهللْت بهما فجاز أن يكون الوجوب بسبب إهلاله بهما، لأنه رتب الإهلال على الوَجدان وذلك يدل على أنه سبب الإهلال دون العكس[٢]. وقيل إتمامهما أن تحرم بهما من دُوَيْرة أهلك، أو أن تفرد لكل منهما سفراً، أو أن تجرده لهما لا تشوبهما بغرض دنيوي، أو أن تكون النفقة حلالاً. ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ مُنِعتم، يقال حصره العدو وأحصره إذا حبسه ومنعه عن المضي، مثل صده وأصده. والمرادُ حصْرُ العدوّ عند مالك والشافعي رحمهما الله تعالى لقوله تعالى ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾[٣] ولنزوله في الحديبية، ولقول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لا حصر إلا حصر العدو[٤] وكلُّ مَنْع من عدوٍّ أو مرض أو غيرهما عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى، لما روي عنه عليه الصلاة والسلام: «من كسر أو عرج فقد حل فعليه الحج من قابل»[٥] وهو ضعيف[٦] مؤوّل بما إذا شرط الإحلال به لقوله عليه الصلاة والسلام لضباعة بنت الزبير[٧]: «حجي واشترطي وقولي: اللهم محلي حيث حبستني»[٨] ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ فعليكم ما استيسر، أو فالواجب ما استيسر، أو فاهدوا ما استيسر. والمعنى إن أُحصِر المحرم وأراد أن يتحلل

---

(١) أخرجه أبو داود (٢/٣٩٣ رقم ١٧٩٨) والنسائي (٥/١٤٦ ـ ١٤٧ رقم ٢٧١٩) وابن ماجة (٢/٩٨٩ رقم ٢٩٧٠) وابن حبان (ص٢٤٤ ـ ٢٤٥ رقم ٩٨٥، ٩٨٦ ـ الموارد) وأحمد في المسند (١/ ١٤، ٢٥، ٣٤، ٣٧) والبيهقي (٤/ ٣٥٢، ٣٥٤) كلهم من طرق عن أبي وائل عن الصُّبَيّ بن معبد قال: كنت نصرانياً فأسلمت فأهللت بالحج والعمرة، فسمعني سليمان بن ربيعة وزيد بن صرمان فقالا: هذا أضل من بعير فقدمت على عمر فذكرت له فقال: هُدِيتَ لسُنة نبيِّك (مختصراً).
رجال الأثر ثقات والأثر صحيح. صححه الألباني (الإرواء رقم ٩٨٣).

(٢) ما ذهب إليه البيضاوي من وجوب العمرة هو مذهبه ـ مذهب الشافعية ـ ومن جمع بين الأدلة اختار أن العمرة سنة. وأجابوا عن الآية والأحاديث المصرحة بأنها فريضة بحمل ذلك على أنه قد وقع الدخول فيها، وهي بعد الشروع فيها واجبة بلا خلاف.
(انظر فتح القدير للشوكاني ١/ ١٩٥ وروح المعاني ٢/ ٧٩).

(٣) البقرة: «١٩٦».

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢/ ٢١٤) من طريق ابن جريج عن طاوس عن أبيه به.
كما أخرجه من طريق مجاهد وعطاء عن ابن عباس بلفظ «الحصرُ حصر العدو» ثم ذكر ما يفعل من أُحصِر.

(٥) أخرجه أبو داود (٢/ ٤٣٣ رقم ١٨٦٢) والترمذي (٣/ ٢٧٧ رقم ٩٤٠ وقال: حسن صحيح. والنسائي (٥/ ١٩٨ ـ ١٩٩ رقم ٢٨٦٠، ٢٨٦١) وابن ماجة (٢/ ١٠٢٨ رقم ٣٠٧٧) وأحمد في المسند (٣/ ٤٥٠) والدارمي (٢/ ٦١) كلهم من حديث الحجاج بن عمرو.
وهو حديث صحيح وقد صححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٦) لعل قول أبي حنيفة هو الأقوى، إذ الإحصار يكون من كل ما يمنع كالعدة ونحوه. وقد استعرض الألوسي الأدلة واختاره (روح المعاني ٢/ ٨١) وانظر ابن كثير ١/ ٢٢٠).

(٧) ضُباعة بنتُ الزبير هي: هي ضُبَاعة بنتُ عمّ رسول الله ﷺ الزبير بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف الهاشمية من المهاجرات، لها أحاديث يسير عن النبي ﷺ. بقيت ضُباعة إلى بعد عام أربعين.
[الإصابة (١٣/ ٢٦) والاستيعاب (١٣/ ٦٩) وتهذيب التهذيب (١٢/ ٤٦٠)].

(٨) أخرجه البخاري (٥٠٨٩) ومسلم (٢/ ٨٦٧) وآخرون.

تحلل بذبح هديٍ تيسر عليه من بَدَنة أو بقرة أو شاة حيث أحصر عند الأكثر، لأنه عليه الصلاة والسلام ذبح عام الحديبية بها وهي من الحل، وعند أبي حنيفة رحمه الله تعالى يبعث به ويجعل للمبعوث على يده يوم أمار فإذا جاء اليوم وظن أنه ذبح تحلل لقوله تعالى ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾ أي لا تَحِلّوا حتى تعلموا أن الهدي المبعوث إلى الحرم بلغ مَحِله أي مكانه الذي يجب أن ينحر فيه، وحملَ الأولون بلوغ الهدي محله على ذبحه حيث يحل الذبح فيه حِلاً كان أو حرماً، واقتصاره على الهدي دليل على عدم القضاء. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى يجب القضاء، والمحل ـ بالكسر ـ يطلق على المكان والزمان. والهدي: جمع هدية كجَدْي وجدية، وقرىء من الهُدَى جمع هدية كمُطى في مَطِية ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ مرضاً يحوجه إلى الحلق. ﴿أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾ كجراحة وقمل. ﴿فَفِدْيَةٌ﴾ فعليه فدية إن حلق. ﴿مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ بيان لجنس الفدية، وأما قدرها فقد روي أنه عليه الصلاة والسلام قال لكعب بن عجرة(١) «لعلك آذاك هَوامُك، قال: نعم يا رسول الله قال: احلق وصم ثلاثة أيام أو تصدق بفَرَقٍ على ستة مساكين أو انسك شاة»(٢) والفَرَق ثلاثة آصُع ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ الإحصار، أو كنتم في حال سعة وأمن. ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾ فمن استمتع وانتفع بالتقرب إلى الله بالعمرة قبل الانتفاع بتقرّبه بالحج في أشهره. وقيل: فمن استمتع بعد التحلل من عمرته باستباحة محظورات الإحرام إلى أن يُحْرم بالحج. ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾ فعليه دم استيسره بسبب التمتع، فهو دَمُ جُبْرانٍ يذبحُه إذا أحرم بالحج ولا يأكل منه. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى، إنه دم نسك فهو كالأضحية ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ أي الهدي. ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ﴾ في أيام الاشتغال به بعد الإحرام وقبل التحلل. قال أبو حنيفة رحمه الله في أشهره بين الإحرامين، والأحب أن يصوم سابع ذي الحجة وثامنه وتاسعه. ولا يجوز صومُ يوم النحر وأيامِ التشريق عند الأكثرين. ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ إلى أهليكم وهو أحد قولي الشافعي رضي الله تعالى عنه، أو نفرتم وفَرغتم من أعماله وهو قوله الثاني ومذهب أبي حنيفة رحمه الله تعالى. وقرىء سبعة بالنصب عطفاً على محل ثلاثة أيام. ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ﴾ فذلكة الحساب، وفائدتُها أن لا يَتوهَّم متوهم أن الواو بمعنى أو، كقولك جالس الحسن وابن سيرين، وأن يُعْلم العددُ جملة كما عُلِم تفصيلاً فإن أكثر العرب لم يحسنوا الحساب، وأن المراد بالسبعة هو العدد دون الكثرة فإنه يطلق لهما ﴿كَامِلَةٌ﴾ صفة مؤكدة تفيد المبالغة في محافظة العدد، أو مبيِّنة كمالَ العَشَرة فإنه أول عدد كامل إذ به تنتهي الآحاد وتتم مراتبها، أو مقيِّدة تقيد كمالِ بدليتها من الهدي. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الحكم

---

(١) كعب بن عُجرة الأنصاري السالميُّ المدني، من أهل بيعة الرضوان له عدّةُ أحاديث، مات سنة (٥٢هـ).
[تهذيب التهذيب (٨/ ٣٩٠) الإصابة (٣/ ٢٩٧ رقم ٧٤١٩)].

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ١٢ رقم ١٨١٤) و(٤/ ١٦ رقم ١٨١٥) و(٧/ ٤٤٤ رقم ٤١٥٩) و(٧/ ٤٥٧ رقم ٤١٩٠، ٤١٩١) و(١٠/ ١٢٣ رقم ٥٦٦٥) و(١٠/ ١٥٤ رقم ٥٧٠٣) و(١١/ ٥٩٣ رقم ٦٧٠٨) و(٨/ ١٨٦ رقم ٤٥١٧) ومسلم (٢/ ٨٥٩ رقم ٨٠) و(٢/ ٨٦١ رقم ٨٥) و(٢/ ٨٦٢ رقم ٨٦) والترمذي (٥/ ٢١٣ رقم ٢٩٧٣، ٢٩٧٤) والنسائي (٥/ ١٩٥ رقم ٢٨٥٢) وأبو داود (٢/ ٤٣٠، ٤٣١) وابن ماجة (٢/ ١٠٢٨ ـ ١٠٢٩ رقم ٣٠٧٩، ٣٠٨٠) ومالك في الموطأ (٩/ ٤١٧ رقم ٢٣٧، ٢٣٨) وأحمد في المسند (٤/ ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣) والطيالسي في المسند (ص١٤٣). من طرق وبألفاظ مختلفة عنه.

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾

المذكور عندنا، والتمتع عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى، لأنه لا مُتعة ولا قِران لحاضري المسجد الحرام عنده، فمن فعل ذلك أي التمتع منهم فعلَيه دمُ جناية. ﴿لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وهو من كان من الحرم على مسافة القصر عندنا، فإنّ مَنْ كان على أقل فهو مقيم في الحرم أو في حكمه. ومِنْ مسكنه وراء الميقات عنده وأهل الحِل عند طاوس[1] وغير المكي عند مالك. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في المحافظة على أوامره ونواهيه وخصوصاً في الحج ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[2] لمن لم يتقه كي يصدكم للعلم به عن العصيان.

(١٩٧) ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ﴾ أي وقته. كقولك البُرْدُ شهران. ﴿مَّعْلُومَٰتٌ﴾ معروفات وهي: شوال وذو القعدة وتسعة من ذي الحجة بليلة النحر عندنا، والعشر عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى. وذي الحجة كله عند مالك. وبناء على الخلاف على أن المراد بوقته وقتُ إحرامه، أو وقتُ أعماله ومناسكه، أو مالا يحسن فيه غيره من المناسك مطلقاً، فإن مالكاً كره العمرة في بقية ذي الحجة. وأبو حنيفة رحمه الله وإن صحح الإحرام به قبل شوال فقد استكرهه. وإنما سمي شهران وبعضُ شهر أشهراً إقامةً للبعض مقام الكل، أو إطلاقاً للجمع على ما فوق الواحد. ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ فمن أوجبه على نفسه بالإحرام فيهن عندنا، أو بالتلبية أو سوْق الهدي عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى وهو دليل على ما ذهب إليه الشافعي رحمه الله تعالى وأن من أحرم بالحج لزمه الإتمام. ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ فلا جماع، أو فلا فُحْش من الكلام. ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ ولا خروج عن حدود الشرع بالسيئات وارتكاب المحظورات. ﴿وَلَا جِدَالَ﴾ ولا مراء مع الخدم والرفقة. ﴿فِى ٱلْحَجِّ﴾[3] في أيامه، نفى الثلاثة على قصد النهي للمبالغة وللدلالة على أنها حقيقة بأن لا تكون، وما كانت منها مستقبَحة في أنفسها ففي الحج أقبح، كَلُبسِه الحريرَ في الصلاة والتطريبِ بقراءة القرآن لأنه خروج عن مقتضى الطبع والعادة إلى محض العبادة. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والأولين بالرفع على معنى: لا يكونن رفث ولا فسوق. والثالث بالفتح على معنى الإخبار بانتفاء الخلاف في الحج، وذلك أن قريشاً كانت تخالف سائر العرب فتقف بالمشعر الحرام، فارتفع الخلاف بأن أمروا أن يقعوا أيضاً بعرفة. ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ

---

(١) طاوس: هو أبو عبدالرحمن طاوس بن كيسان، اليماني الحميري الجَنَدي، مولى بحير بن ديسان، وقيل مولى همدان، وروى عن العبادلة الأربعة وغيرهم، وروي عنه أنه قال: جالست خمسين من الصحابة. وكان رحمه الله عالماً متقناً، خبيراً بمعاني كتاب الله تعالى....

وكان طاوس على جانب عظيم من الورع والأمانة، حتى شهد له بذلك أستاذه ابن عباس. فقال فيه: إني لأظن طاوساً من أهل الجنة. وقد أخرج له أصحاب الكتب الستة. وقال ابن معين: إنه ثقة. وقال الذهبي: كان طاوس شيخ أهل اليمن. مات بمكة سنة «ست ومائة»[تهذيب التهذيب (٥/ ٨ ـ ٩ رقم ١٤)].

(٢) إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتربية المهابة وإدخال الروعة (أبو السعود ١/ ٢٠٧).

(٣) والإظهار في مقام الإضمار لإظهار كمال الاعتناء بشأنه والإشعار بعلة الحكم (أبو السعود ١/ ٢٠٧).

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾

يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ حث على الخير عقب به النهي عن الشر ليستدل به ويستعمل مكانه. ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ وتزودوا لمعادكم التقوى فإنه خير زاد، وقيل: نزلت في أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزودون ويقولون: نحن متوكلون فيكونون كَلاً على الناس، فأمروا أن يتزودوا ويتقوا الإبرام في السؤال والتثقيل على الناس[1] ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ فإن قضية اللب خشيةَ الله وتقواه، حثهم على التقوى ثم أمرهم بأن يكون المقصود بها هو الله تعالى فيتبرأ من كل شيء سواه، وهو مقتضى العقل المعرَّى عن شوائب الهوى فلذلك خص أولي الألباب بهذا الخطاب.

(١٩٨) ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا﴾ أي في أن تبتغوا أي تطلبوا. ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ عطاء ورزقاً منه، يريد الربح بالتجارة، وقيل: كان عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقهم في الجاهلية يقيمونها مواسم الحج، وكانت معايشهم منها، فلما جاء الإسلام تأثموا منه فنزلت . ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ﴾ دفعتم منها بكثرة، من أفضت الماء إذا صببته بكثرة، وأصله أفضتم أنفسَكم فحُذِف المفعول كما حُذِف في دفعتُ من البصرة. وعرفات: جمع سمي به كأذرعات، وإنما نُوِّن وكُسِر وفيه العَلَمِيةُ والتأنيثُ لأن تنوين الجمع تنوينُ المقابلة لا تنوينَ التمكين، ولذلك يُجْمَعُ مع اللام، وذهاب الكسرة تبعُ ذهاب التنوين من غير عِوَضٍ لعدم الصرف، وهنا ليس كذلك. أو لأن التأنيث إما أن يكون بالتاء المذكورة وهي ليست تاء تأنيث، وإنما هي مع الألف التي قبلها علامةُ جمع المؤنث، أو بتاءٍ مقدرة كما في سعاد ولا يصح تقديرُها لأن المذكورة تمنعه من حيث إنها كالبدل لها لاختصاصها بالمؤنث كتاء بنت، وإنما سمي الموقف عرفة لأنه نعْتٌ لإبراهيم عليه الصلاة والسلام فلما أبصره عرفه، أو لأن جبريل عليه السلام كان يدور به في المشاعر فلما أراه إياه قال: قد عرفت، أو لأن آدم وحواء التقيا فيه فتعارفا، أو لأن الناس يتعارفون فيه، وعرفات للمبالغة في ذلك وهي من الأسماء المرتَجلة إلا أن يجعل جمع عارف، وفيه دليل على وجوب الوقوف بها لأن الإفاضة لا تكون إلا بعده وهي مأمور بها بقوله تعالى ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا﴾[3] أو مقدمة للذكر المأمور به وفيه نظر إذ الذكر غير واجب بل مستحب، وعلى تقدير أنه واجب فهو واجب مقيَّد لا واجب مطلق حتى تجب مقدمته والأمر به غير مطلق. ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ بالتلبية والتهليل والدعاء. وقيل: بصلاة العشاءين. ﴿عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ جَبَل يقف عليه الإمام ويسمى قزح. وقيل: ما بين مأزمي عرفة ووادي مُحسِّر، ويؤيد الأول ما روى جابر أنه عليه الصلاة والسلام لما صلى الفجر ـ يعني بالمزدلفة ـ بغَلَس، ركب

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤ رقم ١٥٢٣) عن ابن عباس.

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ٥٩٣ رقم ١٧٧٠) و(٤/ ٨٨ رقم ٢٠٥٠) و(٤/ ٣٢١ رقم ٢٠٩٨) من طرق عن ابن عباس.

(٣) البقرة: «١٩٩».

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾

ناقته حتى أتى المشعر الحرام فدعا وكبر وهلل، ولم يزل واقفاً حتى أسفر[1] وإنما سمي مشعراً لأنه مَعْلَم العبادة، ووصف بالحرام لحرمته. ومعنى عند المشعر الحرام: مما يليه ويقرب منه فإنه أفضل، وإلا فالمزدلفة كلها موقف إلا وادي مُحَسِّر. ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ كما علمكم، أو اذكروه ذكراً حسناً كما هداكم هداية حسنة إلى المناسك وغيرها. وما مصدرية أو كافّة. ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي الهُدى. ﴿لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي الجاهلين بالإيمان والطاعة، وإنْ هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة. وقيل: إنْ نافية واللام بمعنى إلا، كقوله تعالى ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[2].

(١٩٩) ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ أي من عرفة لا من المزدلفة، والخطاب مع قريش كانوا يقفون بجمع وسائر الناس بعرفة ويرون ذلك ترفعاً عليهم، فأُمِروا بأن يساووهم. وثم لتفاوت ما بين الإفاضتين كما في قولك أحسن إلى الناس ثم لا تحسن إلى غير كريم. وقيل: من المزدلفة إلى منىً بعد الإفاضة من عرفة إليها والخطاب عام. وقرىء الناس بالكسر أي الناسي يريد آدم من قوله سبحانه وتعالى ﴿فَنَسِىَ﴾[3] والمعنى أن الإفاضة من عرفة شَرْع قديم فلا تغيروه. ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ من جاهليتكم في تغيير المناسك ونحوه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر ذنب المستغفر وينعم عليه.

(٢٠٠) ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ﴾ فإذا قضيتم العبادات الحَجّية وفرغتم منها. ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾ فأكثروا ذكره وبالغوا فيه كما تفعلون بذكر آبائكم في المفاخرة. وكانت العرب إذا قضوا مناسكهم وقفوا بمنًى بين المسجد والجبل فيذكرون مفاخرَ آبائهم ومحاسن أيامهم. ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ إما مجرور معطوف على الذِّكر يَجْعلُ الذِّكْرَ ذاكراً على المجاز، والمعنى: فاذكروا الله ذكراً كذكركم آباءكم أو كذكرٍ أشدَّ منه وأبلغ، أو على ما أُضيف إليه على ضعْف بمعنى أو كذكر قومٍ أشد منكم ذكراً. وإما منصوب بالعطف على آباءكم وذكراً من فعل المذكور بمعنى أو كذكركم أشد مذكورية من آبائكم، أو بمضمر دل عليه المعنى تقديره: أو كونوا أشد ذكراً لله منكم لآبائكم. ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾ تفصيل للذاكرين إلى مُقِلٍّ لا يطلب بذكر الله تعالى إلا الدنيا ومُكْثِرٍ يطلب به خير الدارين، والمرادُ الحثُّ على الإكثار والإرشاد إليه. ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ اجعل إيتاءنا ومِنحتنا في الدنيا ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ أي نصيب وحظ لأن همه مقصور بالدنيا، أو من طلب خلاق.

---

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٨٩١ رقم ١٤٧) في سياق حديث حجة النبي صلى الله عليه وسلم الطويل.

(٢) الشعراء: «١٨٦».

(٣) طه: «١١٥».

(٢٠١) ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ يعني الصحة والكفاف وتوفيق الخير. ﴿ وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ يعني الثواب والرحمة. ﴿ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ بالعفو والمغفرة، وقول علي رضي الله تعالى عنه: الحسنة في الدنيا المرأة الصالحة وفي الآخرة الحوْراء وعذاب النار المرأة السوء وقول الحسن: الحسنة في الدنيا العلم والعبادة وفي الآخرة الجنة وقنا عذاب النار معناه احفظنا من الشهوات والذنوب المؤدية إلى النار أمثلة للمراد بها.

أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾

(٢٠٢) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الفريق الثاني، وقيل إليهما. ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ أي من جنسه وهو جزاؤه، أو من أجله كقوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟﴾[(١)] أو مما دُعوا به نعطيهم منه ما قدرناه فسمي الدعاء كسباً لأنه من الأعمال. ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ يحاسب العباد على كثرتهم وكثرة أعمالهم في مقدار لمحة، أو يوشك أن يقيم القيامة ويحاسب الناس فبادروا إلى الطاعات واكتساب الحسنات.

(٢٠٣) ﴿۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ كبروه في أدبار الصلاة وعند ذبح القرابين ورمي الجمار وغيرها في أيام التشريق. ﴿فَمَن تَعَجَّلَ﴾ فمن استعجل النَّفر. ﴿فِى يَوْمَيْنِ﴾ يوم القرّ والذي بعده[(٢)]، أي فمن نفر في ثاني أيام التشريق بعد رمي الجمار عندنا، وقبل طلوع الفجر عند أبي حنيفة. ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ باستعجاله. ﴿وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ ومن تأخر في النفر حتى رمى في اليوم الثالث بعد الزوال، وقال أبو حنيفة: يجوز تقديم رميه على الزوال. ومعنى نفي الإثم بالتعجيل والتأخير التخيير بينهما والرد على أهل الجاهلية فإن منهم من أثّم المتعجل ومنهم من أثّم المتأخر. ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ أي الذي ذكر من التخيير، أو من الأحكام لمن اتقى لأنه الحاج على الحقيقة والمنتفع به، أو لأجله حتى لا يتضرر بترك ما يهمه منهما. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في مجامع أموركم ليعبأ بكم. ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ للجزاء بعد الإحياء، وأصل الحشر الجمع وضم المتفرق[(٣)].

(٢٠٤) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ﴾ يروقك ويعظم في نفسك، والتعجب: حيرة تعرض للإنسان لجهله بسبب المتعجَّب منه. ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلق بالقول، أي ما يقوله في أمور الدنيا وأسباب

---

(١) نوح: «٢٥».
(٢) يوم القرّ هو أول أيام التشريق، وسمي به لأنّ الناس يَقِرُّون في منىً للنحر (المصباح المنير، مادة قرر).
(٣) أكد الأمر بالتقوى بقوله «واعلموا أنكم إليه تحشرون» فإنه من علم بالحشر والحساب والجزاء كان ذلك من أقوى الدواعي إلى ملازمة التقوى (أبو السعود ١/ ٢١٠).

المعاش، أو في معنى الدنيا فإنها مراد من ادعاء المحبة وإظهار الإيمان، أو بيُعجِبُك أي يعجبك قوله في الدنيا حلاوة وفصاحة ولا يعجبك في الآخرة لما يعتريه من الدهشة والحبسة، أو لأنه لا يؤذن له في الكلام. ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾ يحلف ويَستشهد الله على أن ما في قلبه موافق لكلامه. ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ شديد العداوة والجدال للمسلمين. والخصامُ المخاصمة ويجوز أن يكون جمع خَصْم كصعب وصعاب بمعنى أشد الخصوم خصومة. قيل نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي[1] وكان حسن المنظر حلو المنطق يوالي رسول الله ﷺ ويدَّعي الإسلام[2]. وقيل في للمنافقين كلهم.

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾

(٢٠٥) ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ أدبر وانصرف عنك. وقيل: إذا غَلَبَ وصار والياً. ﴿سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ﴾ كما فعله الأخنس بثَقيف إذ بيَّتهم وأحرق زروعهم وأهلك مواشيهم، أو كما يفعله ولاة السوء بالقتل والإتلاف، أو بالظلم حتى يمنعَ الله بشؤمه القَطْرَ فيهلِكَ الحرثُ والنسل. ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ لا يرتضيه فاحذروا غضبه عليه.

(٢٠٦) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ﴾ حملته الأَنَفة وحَمِية الجاهلية على الإثم الذي يؤمر بإتقانه لِجَاجاً، من قولك أخذتُه بكذا إذا حملتَهُ عليه وألزمتَه إياه. ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ﴾ كَفَتْه جزاءً وعذاباً، وجهنم عَلَم لدار العقاب وهو في الأصل مرادف للنار. وقيل معرَّب. ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ جواب قسم مقدَّر، والمخصوصُ بالذم محذوفٌ للعلم به، والمهاد الفراش. وقيل ما يوطأ للجنب.

(٢٠٧) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ﴾ يبيعها أي يبذلها في الجهاد، أو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى يُقتَل. ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ﴾ طلباً لرضاه. قيل: إنها نزلت في صهيب بن سنان الرومي، أخذه المشركون وعذبوه ليرتد فقال: إني شيخ كبير لا ينفعكم إن كنتُ معكم ولا يضركم إن كنت عليكم فخَلُّوني وما أنا عليه وخذوا مالي فقبِلوه منه وأتى المدينة[3]. ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ حيث

---

(١) الأخنس بن شريق الثقفي، أقبل إلى النبي ﷺ بالمدينة فأظهر له الإسلام فأعجب النبي ﷺ ذلك منه. ثم خرج من عند النبي ﷺ فمرّ بزرع لقوم وحمر، فأحرق الزرع وعقر الحمر...

(٢) أخرج الطبري في «جامع البيان» (٢/ ٣١٢) عن السدي قال: نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي أقبل إلى النبي ﷺ بالمدينة، فأظهر له الإسلام، فأعجب النبي ﷺ ذلك منه، وقال: إنما جئت أريد الإسلام، والله يعلم إني صادق، ثم خرج من عند النبي ﷺ فمر بزرع لقوم، وحُمُر، فأحرق الزرع، وعقر الحمر. فأنزل الله: «وإذا تولى سعى في الأرض....».

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢/ ٣٢١) وفيه أنها نزلت في صهيب وأبي ذر الغفاري، ثم ذكر قصتهما. وفي إسناده «سنيد» وهو ضعيف.
وأخرج الطبري نحوه عن الربيع لكن لم يسم ذاك الرجل الذي نزلت فيه، وفي إسناده «ابن أبي جعفر عن أبيه» =

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ
عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾
هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ
ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾

أرشدهم إلى مثل هذا الشراء وكلفهم بالجهاد فعرضهم لثواب الغزاة والشهداء.

(٢٠٨) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ السَّلم ـ بالكسر والفتح ـ الاستسلام والطاعة، ولذلك يُطلَق في الصلح والإسلام. فتحه ابن كثير ونافع والكسائي وكسره الباقون. وكافّة اسمٌ للجملة لأنها تكُفُّ الأجزاء من التفرق، حال من الضمير أو السّلم لأنها تؤنث كالحرب قال:

السِّلْمُ تَـأْخُـذُ مِنْهَـا مَـا رَضِيـتَ بِـهِ والحَـرْبُ يَكْفِيْـكَ مِـنْ أَنْفَـاسِهَـا جُـرَعُ

والمعنى استسلموا لله وأطيعوه جملة ظاهراً وباطناً، والخطاب للمنافقين، أو ادخلوا في الإسلام بكليتكم ولا تخلطوا به غيره. والخطاب لمؤمني أهل الكتاب، فإنهم بعد إسلامهم عَظَّموا السبت وحرموا الإبل وألبانَها، أو في شرائع الله كلها بالإيمان بالأنبياء والكتب جميعاً والخطاب لأهل الكتاب، أو في شُعَب الإسلام وأحكامه كلها فلا تخلوا بشيء والخطاب للمسلمين. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ بالتفرق والتفريق. ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة.

(٢٠٩) ﴿فَإِن زَلَلْتُم﴾ عن الدخول في السلم. ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ﴾ الآيات والحجج الشاهدة على أنه الحق. ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه الانتقام. ﴿حَكِيمٌ﴾ لا ينتقم إلا بحق.

(٢١٠) ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ استفهام في معنى النفي ولذلك جاء بعده. ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي يأتيهم أمره أو بأسه كقوله تعالى. ﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾[1] ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾[2] أو يأتيهم الله ببأسه فحُذِف المأتيُّ به للدلالة عليه[3] بقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿فِى ظُلَلٍ﴾ جمع ظلة كقُلَّة وقلل وهي ما أظلك، وقرىء ظِلال كقِلال. ﴿مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ السحاب الأبيض وإنما يأتيهم العذاب فيه لأنه مظنة الرحمة، فإذا جاء منه العذاب كان أفظعَ لأن الشر إذا جاء من حيث لا يُحتَسب كان أصعب فكيف إذا جاء من حيث يُحتسبُ الخير. ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ فإنهم الواسطة في إتيان أمره، أو الآتون على الحقيقة

= وكلاهما ضعيف.
ثم ذكر الطبري قولاً ثالثاً أنها نزلت في كل من شرى نفسه ابتغاء مرضاة الله، وأسنده عن أبي هريرة، وعمر بن الخطاب، ورجحه.

(١) النحل: «٣٣».

(٢) الأعراف: «٤».

(٣) قوله «إلا أن يأتيهم الله» فيه التفات إلى الغيبة، وذلك للإيذان بأن سوء صنيعهم موجب للإعراض عنهم. . وإيراد الانتظار بقوله «هل ينظرون» للإشعار بأنهم لانهماكهم فيما هم فيه من موجبات العقوبة كأنهم طالبون لها مترقبون لوقوعها (أبو السعود ١/ ٢١٣). =

بأسه. وقرىء بالجر عطفاً على ظُلل أو الغمام. ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أتم أمرَ إهلاكهم وفرَغ منه، وُضِع الماضي موضع المستقبل لدنوه وتيقن وقوعه. وقرىء وقضاءُ الأمر عطفاً على الملائكة. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم على البناء للمفعول على أنه من الراجع، وقرأ الباقون على البناء للفاعل بالتأنيث غير يعقوب على أنه من الرجوع، وقرىء أيضاً بالتذكير وبناء المفعول.

سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾
زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن
يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ
بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا
بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾

(٢١١) ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أمر للرسول ﷺ أو لكل أحد، والمراد بهذا السؤال تقريعُهم. ﴿كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ معجزة ظاهرة، أو آية في الكتب شاهدة على الحق والصواب على أيدي الأنبياء، وكمْ خبرية أو استفهامية مقرِّرة ومحلها النصب على المفعولية أو الرفع بالابتداء على حذفِ العائد من الخبر إلى المبتدأ. وآيةٌ مَميِّزُها. ومِنْ للفصل. ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ أي آيات الله فإنها سببُ الهدى الذي هو أجل النعم، بِجَعْلِها سببَ الضلالة وازديادَ الرجس أو بالتحريف والتأويل الزائغ. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ﴾ من بعد ما وصلت إليه وتمكن من معرفتها، وفيه تعريض بأنهم بدلوها بعد ما عَقَلوها ولذلك قيل تقديره فبدلوها ومن يبدل. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ فيعاقبه أشد عقوبة لأنه ارتكب أشد جريمة(١).

(٢١٢) ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ حَسُنت في أعينهم وأُشرِبت محبتُها في قلوبهم حتى تهالكوا عليها وأعرضوا عن غيرها، والمزيِّن في الحقيقة هو الله تعالى إذ ما من شيء إلا وهو فاعله، ويدل عليه قراءة زيَّنَ على البناء للفاعل، وكل من الشيطان والقوة الحيوانية وما خلقه الله فيها من الأمور البهية والأشياء الشهية مُزَيِّنٌ بالعَرَض.

﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يريد فقراء المؤمنين كبلال وعمار وصهيب، أي يسترذلونهم ويستهزئون بهم على رفضهم الدنيا وإقبالهم على العُقبى، ومِنْ للابتداء كأنهم جعلوا السخرية مبتدأة منهم(٢) ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لأنهم في عليين وهم في أسفل السافلين، أو لأنهم في كرامة وهم في مَذلّة، أو لأنهم يتطاولون عليهم فيسخرون منهم كما سخروا منهم في الدنيا، وإنما قال والذين اتقوا بعد قوله من الذين آمنوا ليدل على أنهم متقون وأن استعلاءهم للتقوى(٣) ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ في

(١) إظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة (أبو السعود ١/ ٢١٣).
(٢) وإيثار صيغة الاستقبال في قوله «ويسخرون» للدلالة على استمرار السخرية منهم (أبو السعود ١/ ٢١٤).
(٣) وأن إعراضهم عن الدنيا لكونها مخلّة بتبتلهم إلى جناب القدس شاغلة عنه (أبو السعود ١/ ٢١٤).

الدارين. ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقدير فيوسِّع في الدنيا استدراجاً تارة وابتلاء أخرى.

(٢١٣) ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ متفقين على الحق فيما بين آدم وإدريس أو نوح أو بعد الطوفان، أو متفقين على الجهالة والكفر في فترة إدريس أو نوح[١]. ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي فاختلفوا فبعث الله، وإنما حُذِف لدلالة قوله فيما اختلفوا فيه. وعن كعب[٢]: الذي علمتُه من عدد الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألفاً والمرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر والمذكور في القرآن باسم العَلَم ثمانية وعشرون[٣] ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يريد به الجنس ولا يريد به أنه أنزل مع كل واحد كتاباً يخصه، فإن أكثرهم لم يكن لهم كتاب يخصهم وإنما كانوا يأخذون بكتب من قبلهم.

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ حال من الكتاب، أي ملتبساً بالحق شاهداً به. ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي الله، أو النبي المبعوث، أو كتابه[٤] ﴿فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ في الحق الذي اختلفوا فيه، أو فيما التبس عليهم. ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ﴾ في الحق، أو الكتاب. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي الكتاب المنزل لإزالة الخلاف، أي عكسوا الأمر فجعلوا ما أُنزل مُزِيحاً للاختلاف سبباً لاستحكامه[٥]. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ حسداً بينهم وظلماً لحرصهم على الدنيا. ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي للحق الذي اختُلف فيه من

---

(١) والأول هو الأنسب بالنظم الكريم (أبو السعود ١/ ٢٠٤، وانظر ابن كثير ١/ ٢٣٧).

(٢) كعب: هو كعب الأحبار، روي عنه ونسب إليه كثير من الإسرائيليات وبعض ما نسب إليه حق واضح وبعضه كذب فاضح الأمر الذي جعل بعض النقاد يعتقد صحة كل ما نسب إليه، فيكيل له التهم جزافاً، ولا يرى كل مروياته الإسرائيلية إلا أكاذيب وأباطيل.

وإذا نحن تتبعنا حياة كعب في الإسلام، ورجعنا إلى مقالات بعض الصحابة فيه، وأحصينا من تحمل منهم عنه وروى له، ومن أخرج له من شيوخ الحديث في مصنفاتهم، لوجدنا فيه ما يدحض ما اتهم به.

فقد أسلم كعب، على المشهور، في خلافة عمر رضي الله عنه وسكن المدينة وصحب عمر، وروى عنه وشارك في غزو الروم في خلافته.

ولقد كان كعب على مبلغ عظيم من العلم والمعرفة الواسعة حتى لهج بعض الصحابة بالثناء عليه، فهذا أبو الدرداء رضي الله عنه يذكره فيقول «إن عند ابن الحميري لعلماً كثيراً» وجمهور العلماء على توثيق كعب ولذا لا نجد له ذكراً في كتب الضعفاء والمتروكين، حتى إن مسلماً أخرج له في صحيحه وكذلك أبو داود والترمذي والنسائي. وبذلك يتضح تحامل أحمد أمين ومحمد رشيد رضا على كعب الأحبار، كما أننا نعترض عليهما في اتهامهما لعلماء الجرح والتعديل بسبب عدم جرحهما لكعب.

والخلاصة أن كعباً مظلوم من مُتهميه ولا أقول عنه إلا أنه ىعه ٠امىں، وعالم استُغلّ اسمُه فنسب إليه روايات معظمها خرافات وأباطيل، لتروج بذلك على العامة ويتقبلها الأغمار من الجهلة. هـ.

[الإسرائيليات في التفسير والحديث للدكتور: محمد السيد حسين الذهبي (ص٩٥ ـ ١٠٤)].

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ١٧٨، ١٧٩) وابن سعد في الطبقات (١/ ٥٤) من حديث أبي ذر وفيه: أبو عمر الشامي الدمشقي ضعيف ـ كما في التقريب (٢/ ٤٥٤) ـ وأخرجه أحمد (٥/ ٢٦٥ ـ ٢٢٦) والطبراني في الكبير ـ كما في المجمع (١/ ١٥٩) ـ من حديث أبي أمامة، وقال الهيثمي مداره على علي بن يزيد وهو ضعيف.

(٤) وإظهار لفظ الناس لزيادة التعيين (أبو السعود ١/ ٢١٤).

(٥) عبر عن الإنزال بالإيتاء للتنبيه من أول الأمر على كمال تمكنهم من الوقوف على ما في تضاعيفه من الحق، فإن الإنزال لا يفيد تلك الفائدة (أبو السعود ١/ ٢١٤).

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟
حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ
قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ
عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن
تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾

اختلف. ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ بيان لما اختلفوا فيه. ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بأمره أو بإرادته ولطفه. ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لا يُضل سالكه.

(٢١٤) ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ خاطب به النبي ﷺ والمؤمنين بعد ما ذكَرَ اختلافَ الأمم على الأنبياء بعد مجيء الآيات تشجيعاً لهم على الثبات مع مخالفتهم. وأم منقطعة ومعنى الهمزة فيها الإنكار ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم﴾ ولم يأتكم، وأصل لمّا لمْ زيدت عليها ما، وفيها توقّع ولذلك جُعِلت مقابل قد. ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾ حالهم التي هي مَثَلٌ في الشدة. ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ بيان له على الاستئناف. ﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾ وأزعجوا إزعاجاً شديداً بما أصابهم من الشدائد. ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ لتناهي الشدة واستطالة المدة بحيث تقطعت حبال الصبر. وقرأ نافع يقولُ بالرفع على أنه حكاية حال ماضية كقولك مَرِضَ حتى لا يرجونه. ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ استبطاءً له لتأخره. ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ استئناف على إرادة القول أي فقيل لهم ذلك إسعافاً لهم إلى طَلِبتهم من عاجل النصر[1]، وفيه إشارة إلى أن الوصول إلى الله تعالى والفوز بالكرامة عنده برفض الهوى واللذات ومكابدة الشدائد والرياضات كما قال عليه الصلاة والسلام «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»[2].

(٢١٥) ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن عمرو بن الجموح الأنصاري كان شيخاً ذا مال عظيم، فقال يا رسول الله ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها فنزلت[3] ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ سئل عن المُنْفَق فأجيب ببيان المَصْرَف لأنه أهم، فإن اعتداد النفقة باعتباره ولأنه كان فى سؤال عمرو وإن لم يكن مذكوراً فى الآية، واقتصر في بيان المنفَق على ما تضمنه قوله ما أنفقتم من خير. ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾ في معنى الشرط. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ جوابه أي إن تفعلوا خيراً فإن الله يعلم كنهه ويوفي ثوابه، وليس في الآية ما ينافيه فرضُ الزكاة ليُنسَخ به.

---

(١) وإيثار الجملة الاسمية على الفعلية المناسبة لما قبلها وتصديرُها بحرف التنبيه والتأكيد من الدلالة على تحقيق مضمونها وتقريره مالا يخفى (أبو السعود ١/ ٢١٥).

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٧٤ رقم ١/ ٢٨٢٢) من حديث أنس. وأخرج البخاري (١١/ ٣٢٠ رقم ٦٤٨٧) ومسلم (٤/ ٢١٧٤ رقم ٢٨٢٣) وأحمد في المسند (٢/ ٣٣٣، ٣٥٤، ٣٧٣) من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه ابن المنذر ـ كما في الدر المنثور للسيوطي (١/ ٥٨٥) ـ عن مقاتل بن حيان ونقلهُ الواحدي في «أسباب النزول» (ص٥٤ ـ ٥٥) عن أبي صالح عن ابن عباس تعليقاً.

(٢١٦) ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ شاق عليكم مكروهٌ طبعاً، وهو مصدرٌ نُعِت به للمبالغة، أو فُعْل بمعنى مفعول كالخُبز. وقرىء بالفتح على أنه لغة فيه كالضُّعف والضَّعْف، أو بمعنى الإكراه على المجاز كأنهم أكرهوا عليه لشدته وعظم مشقته كقوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾(١) ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وهو جميع ما كُلفوا به، فإن الطبع يكرهه وهو مناط صلاحهم وسبب فلاحهم. ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ وهو جميع ما نُهوا عنه، فإن النفس تحبه وتهواه وهو يفضي بها إلى الردى، وإنما ذُكِرَ عسى لأن النفس إذا ارتاضت ينعكس الأمر عليها. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما هو خير لكم. ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك، وفيه دليل على أن الأحكام تتبع المصالح الراجحة وإن لم يعرف عينُها.

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾

(٢١٧) ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ روي أنه عليه الصلاة والسلام بعث عبدالله بن جحش ابن عمته على سرية في جمادى الآخرة ـ قبل بدر بشهرين ـ ليترصّد عِيراً لقريش فيها عمرو بن عبدالله الحضرمي وثلاثة معه، فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير وفيها من تجارة الطائف، وكان ذلك غُرَّةَ رجب وهم يظنونه من جمادى الآخرة، فقالت قريش: استحل محمدٌ الشهر الحرام شهراً يأمن فيه الخائف، ويبذعر فيه الناس إلى معايشهم. وشق ذلك على أصحاب السرية وقالوا ما نبرح حتى تنزل توبتنا، وردَّ رسول الله ﷺ العِير والأسارى(٢) وعن ابن عباس رضي الله عنهما لما نزلت أخذ رسول الله ﷺ الغنيمة وهي أول غنيمة في الإسلام، والسائلون هم المشركون كتبوا إليه في ذلك تشنيعاً وتعييراً وقيل أصحابُ السرية. ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ بدل اشتمال من الشهر الحرام. وقرىء عن قتال بتكرير العامل. ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ أي ذنب كبير، والأكثر أنه منسوخ بقوله تعالى ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾(٣) خلافاً لعطاء(٤) وهو نسخ الخاص بالعام وفيه خلاف، والأولى منع دلالة الآية على حرمة القتال في الشهر

---

(١) الأحقاف: «١٥».

(٢) أخرجه أبو يعلى في المسند (٣/١٠٢ ـ ١٠٣ رقم ١٦/١٥٣٤) والطبري في «جامع البيان» (٢/٣٤٩ ـ ٣٥٠) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/١١ ـ ١٢) من طريق معتمر بن سليمان قال: سمعت أبي عن صاحب له، وهو الحضرمي عن أبي السَّوَّار يحدّث عن جندب بن عبدالله البجلي.... الحديث وإسناده: حسن.
وذكره الهيثمي في «المجمع» (٦/١٩٨) وقال: رواه الطبراني ـ في الكبير (٢/١٦٢ رقم ١٦٧٠) ـ ورجاله ثقات.

(٣) التوبة: «٥».

(٤) عطاء بن أبي رباح: هو أبومحمد عطاء بن أبي رباح، المكي القرشي مولاهم، ولد سنة سبع وعشرين، وتوفي سنة أربع عشرة ومائة من الهجرة على أرجح الأقوال. =

الحرام مطلقاً فإنّ قتالٌ فيه نكرةٌ في حيّزٍ مُثْبَتٍ فلا يَعُمّ[(١)]. ﴿وَصَدٌّ﴾ صرف ومنع. ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي الإسلام، أو ما يوصل العبد إلى الله سبحانه وتعالى من الطاعات. ﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾ أي بالله. ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ على إرادة المضاف أي وصد المسجد الحرام كقول أبي دؤاد:

أكُلَّ امرِئٍ تَحْسَبِينَ امرأً ونَارٍ توقَّدُ بِاللَّيلِ نَارا

ولا يحسُن عطفه على ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لأن عطف قوله ﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾ على ﴿وَصَدٌّ﴾ مانع منه إذ لا يتقدم العطف على الموصول على العطف على الصلة ولا على الهاء في به، فإن العطف على الضمير المجرور إنما يكون بإعادة الجار. ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ﴾ أهل المسجد الحرام وهم النبي ﷺ والمؤمنون. ﴿أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ مما فعلته السرية خطأً وبناء على الظن، وهو خبر عن الأشياء الأربعة المعدودة من كبائر قريش. وأفعل مما يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث. ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ أي ما ترتكبونه من الإخراج والشرك أفظعُ مما ارتكبوه من قتلى الحضرميّ. ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾ إخبار عن دوام عداوة الكفار لهم وإنهم لا ينفكون عنها حتى يردوهم عن دينهم، وحتى للتعليل كقولك أعبدالله حتى أدخلَ الجنة. ﴿إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ وهو استبعاد لاستطاعتهم كقول الواثق بقوته: علي قرنه إن ظفرتَ بي فلا تُبْقِ عليّ، وإيذان بأنهم لا يردونهم. ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ قيد الردة بالموت عليها في إحباط الأعمال كما هو مذهب الشافعي رحمه الله تعالى، والمراد بها الأعمال النافعة. وقرىء حَبَطت بالفتح وهي لغة فيه. ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ لبطلان ما تخيلوه وفوات ما للإسلام من الفوائد الدنيوية. ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ بسقوط الثواب. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ كسائر الكفرة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

(٢١٨) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ نزلت أيضاً في أصحاب السرية لما ظن بهم أنهم إن سلموا من الإثم فليس لهم أجر. ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كرر الموصول لتعظيم الهجرة والجهاد كأنهما مستقلان في تحقيق الرجاء ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ ثوابه، أثبت لهم الرجاء إشعاراً بأن العمل غير موجب ولا قاطع في الدلالة سيما والعبرة بالخواتيم. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لما فعلوا خطأً وقلة احتياط. ﴿رَّحِيمٌ﴾ بإجزال الأجر والثواب.

= وحدث عن نفسه: أنه أدرك مائتين من الصحابة، وكان ثقة، فقيهاً، عالماً، كثير الحديث، وانتهت إليه فتوى أهل مكة، وكان ابن عباس يقول لأهل مكة إذا جلسوا إليه: تجتمعون إليّ ياأهل مكة وعندكم عطاء. . . .
[الجرح والتعديل (٦/ ٣٣٠) وغاية النهاية في طبقات القراء (١/ ٥١٣)].

(١) أوثر تنكير لفظ «قتال» احترازاً عن توهم التعيين، وإيذاناً بأن المراد مطلق القتال الواقع فيه أيّ قتال كان (أبوالسعود ١/ ٢١٧). =

﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾

(٢١٩) ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ روي أنه نزل بمكة قوله تعالى ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾[1] فأخذ المسلمون يشربونها، ثم إن عمرَ ومعاذاً ونفراً من الصحابة قالوا: أفتنا يا رسول الله في الخمر فإنها مُذْهِبة للعقل مُسْلِبة للمال، فنزلت هذه الآية فشربها قوم وتركها آخرون. ثم دعا عبدالرحمن بن عوف ناساً منهم فشربوا وسكروا، فأمّ أحدهم فقرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ فنزلت ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾[2] فقلَّ مَنْ يشربُها، ثم دعا عتبان بن مالك[3] سعد بن أبي وقاص في نفر فلما سكِروا افتخروا وتناشدوا، فأنشد سعدُ شعراً فيه هجاءُ الأنصار، فضربه أنصاري بلِحى بعير فشجّه، فشكا إلى رسول الله ﷺ فقال عمر رضي الله عنه: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[4] فقال عمر رضي الله عنه انتهينا يا رب[5]. والخمر في الأصل مصدر خَمَرَه إذا ستره، سمي بها عصير العنب والتمر إذا اشتد وغلا كأنه يَخمُر العقل، كما سمي سَكَراً لأنه يسكره أي يحجُزه، وهي حرام مطلقاً وكذا كلُّ ما أسكر عند أكثر العلماء. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: نقيع الزبيب والتمر إذا طُبخ حتى ذهب ثلثاه ثم اشتد حَلَّ شُربُه ما دون السُّكر[6]. والميسر أيضاً مصدر كالموعِد، سمي به القمار لأنه أخذ مال الغير بيُسْر أو سَلَب يساره، والمعنى يسألونك عن تعاطيهما لقوله تعالى ﴿قُلْ فِيهِمَآ﴾ أي في تعاطيهما. ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ من حيث إنه يؤدي إلى الانتكاب عن المأمور وارتكاب المحظور. وقرأ حمزة والكسائي كَثِيرٌ بالثاء. ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ من كسب المال والطَّرَب والالتذاذ ومصادقة الفتيان، وفي

---

(١) النحل: «٦٧».

(٢) النساء: «٤٣».

(٣) عتبان بن مالك بن عمرو بن العجلان الأنصاري الخزرجي السالمي، صحابي من البدريين آخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين عمر، مات في خلافة معاوية. [الأعلام للزركلي (٤/ ٢٠٠)].

(٤) المائدة: «٩١».

(٥) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٥٣) وأبوداود (٤/ ٧٨ رقم ٣٦٧٠) والترمذي (٥/ ٢٥٣ رقم ٣٠٤٩) والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٧٨) و(٤/ ١٤٣)، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. والنسائي (٨/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧ رقم ٥٥٤٠) كلهم من طرق عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن شرحبيل أبي ميسرة، عن عمر، وهو حديث صحيح.
وأخرجه الحاكم في المستدرك أيضاً (٤/ ١٤٣) من طريق حمزة الزيات عن أبي إسحاق، عن حارثة بن مضرب عن عمر وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.
وأخرج الطبري في «جامع البيان» (٢/ ٣٦١ ـ ٣٦٣) عن عبدالله بن عمر وسعيد بن جُبير، وزيد بن علي، والسري، وقتادة والربيع بنحو ماعند أبي السعود مختصراً ومطولاً.

(٦) قول أبي حنيفة مخالف لجمهور العلماء وهو قول مرجوح، حتى إن الفتوى في المذهب الحنفي على خلافه (انظر روح المعاني ٢/ ١١٣).

الخمر خصوصاً تشجيعُ الجبان وتوفير المروءة وتقوية الطبيعة[١]. ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾ أي المفاسد التي تنشأ منهما أعظم من المنافع المتوقعة منهما، ولهذا قيل إنها المحرِّمة للخمر لأن المفْسَدَة إذا ترجحت على المصلحة اقتضت تحريم الفعل، والأظهرُ أنه ليس كذلك لما مر من إبطال مذهب المعتزلة. ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ﴾ قيل سائله أيضاً عمرو بن الجموح سأل أولاً عن المُنْفَق والمَصْرَف، ثم سأل عن كيفية الإنفاق. ﴿قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾ العفو نقيض الجُهد ومنه يقال للأرض السهلة، وهو أن ينفق ما تيسر له بذلُه ولا يبلغ منه الجهد. قال:

خـذِي العَفْـوَ مِنِّي تَسْتَـديمـي مَـوَدَّتـي ولاَ تَنْطِقِـي فِـي سَـوْرَتـي حِيْـنَ أَغْضَـبُ

وروي أن رجلاً أتى النبي ﷺ ببيضة من ذهب أصابها في بعض المغانم فقال: خذها مني صدقة، فأعرض عليه الصلاة والسلام عنه حتى كرر عليه مراراً فقال: هاتها مغضباً فأخذها فحذفها حذفاً لو أصابه لشجه ثم قال: «يأتي أحدكم بماله كله يتصدق به ويجلس يتكفف الناس، إنما الصدقة عن ظهر غنى»[٢]. وقرأ أبو عمرو برفع العفو. ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي مثل ما بيَّن أن العفو أصلحُ من الجهد، أو ما ذكر من الأحكام، والكاف في موضع النصب صفة لمصدر محذوف أي تبيينا مثل هذا التبيين، وإنما وَحَّد العلامةَ والمخاطبُ به جمعٌ على تأويل القبيل والجمع[٣]، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ﴾ في الدلائل والأحكام.

---

(١) وفي تقديم إثمه على منافعه ووصفه بالكبَر مايدل على غلبة الأول مالايخفى (أبوالسعود ١/ ٢١٩).

(٢) وهو حديث ضعيف.
أخرجه أبو داود (٢/ ٣١٠ ـ ٣١١ رقم ١٦٧٣ ـ ١٦٧٤)، وابن حبان (ص٢١٤ رقم ٨٣٩ ـ موارد) والحاكم في المستدرك (١/ ٤١٣) والدارمي (١/ ٣٩١) والطبري في جامع البيان (٢/ ٣٦٦) وابن خزيمة (٤/ ٩٨) وأبويعلى في المسند (٤/ ٦٥ ـ ٦٦ رقم ٣١٩/ ٢٠٨٤).
كلهم من طريق محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد، عن جابر.
قال المنذري في المختصر (٢/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤): في إسناده «محمد بن إسحاق».
وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي. وليس كذلك فإن ابن إسحاق إنما أخرج له مسلم مقروناً بآخر، ثم هو مدلس، وقد عنعنه.
والخلاصة أن الحديث ضعيف. وقد ضعفه الألباني في الإرواء رقم (٨٩٨).
قلت: وقد ورد في معنى حديث جابر أحاديث صحيحة: (منها): حديث سعد بن أبي وقاص، قال: كان رسول الله ﷺ يعودني من وجع اشتد بي، فقلت: أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال لا. فقلت بالشطر؟ فقال: لا، ثم قال: الثلث، والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس» الحديث.
أخرجه البخاري (٣/ ١٦٤ رقم ١٢٩٥) و(٥/ ٣٦٣ رقم ٢٧٤٢) و(٧/ ٢٦٩ رقم ٣٩٣٦) و(٨/ ١٠٩ رقم ٤٤٠٩) و(٩/ ٤٩٧ رقم ٥٣٥٤) و(١٠/ ١٢٣ رقم ٥٦٦٨) و(١١/ ١٧٩ رقم ٦٣٧٣) و(١٢/ ١٤ رقم ٦٧٣٣) ومسلم (٣/ ١٢٥١، ١٣٥٣ رقم ٥، ٨/ ١٦٢٨).
(ومنها): حديث أبي هريرة مرفوعاً: «خيرُ الصدقة ما كان عن ظهرِ غنيّ وابدَأ بمن تعولُ».
أخرجه البخاري (٣/ ٢٩٤ رقم ١٤٢٦) وأحمد (٢/ ٢٤٥، ٢٧٨، ٤٠٢، ٤٣٤، ٤٧٦، ٤٨٠، ٥٢٤، ٥٢٧).
(ومنها): حديث حكيم بن حزام مرفوعاً: «اليدُ العُليا خيرٌ من اليد السُّفلى، وابدأ بمن تعول، وخيرُ الصدقةِ عن ظهرِ غنى، ومن يستعففْ يُعِفَّهُ الله ومن يستغنِ يُغنِهِ الله» أخرجه البخاري (٣/ ٢٩٤ رقم ١٤٢٧).

(٣) وصيغة الاستقبال في «يبين» لاستحضار الصورة (أبوالسعود ١/ ٢١٩).

فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

(٢٢٠) ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾ في أمور الدارين فتأخذون بالأصلح والأنفع فيهما وتجتنبون عما يضركم ولا ينفعكم، أو يضركم أكثر مما ينفعكم. ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ﴾ لما نزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا﴾(١) الآية اعتزلوا اليتامى ومخالطتَهم والاهتمامَ بأمرهم فشق ذلك عليهم، فذُكِر ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت(٢) ﴿قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ﴾ أي مداخلتُهم لإصلاحهم، أو إصلاح أموالهم خير من مجانبتِهم. ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ﴾ حث على المخالطة، أي أنهم إخوانكم في الدين ومِنْ حقِّ الأخ أن يخالط الأخ. وقيل المراد بالمخالطة المصاهرة. ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ﴾ وعيد ووعد لمن خالطهم لإفساد وإصلاح، أي يعلم أمرَه فيجازيَه عليه. ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ﴾ أي ولو شاء الله إعناتكم لأعنتكم، أي كلفكم ما يشق عليكم من العنت وهي المشقة ولم يجوز لكم مداخلتهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب يقدر على الإعنات. ﴿حَكِيمٞ﴾ يحكم ما تقتضيه الحكمة وتتسع له الطاقة.

(٢٢١) ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ﴾ أي ولا تتزوجوهن، وقرىء بالضم أي ولا تُزوجوهن من المسلمين. والمشركات تعم الكتابيات لأن أهل الكتاب مشركون لقوله تعالى ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾(٣) إلى قوله ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾(٤) ولكنها خصت عنها بقوله ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾(٥) روي أنه عليه الصلاة والسلام بعث مرثداً الغنوي(٦) إلى مكة ليخرج منها أناساً من المسلمين، فأتته عناق وكان يهواها في الجاهلية فقالت: ألا تخلو؟ فقال: إن الإسلام حال بيننا، فقالت: هل لك أن تتزوج بي فقال نعم ولكن أَستأمِر رسول الله ﷺ فاستأمره،

---

(١) النساء: «١٠».

(٢) أخرجه أبوداود (٣/٢٩١ ـ ٢٩٢ رقم ٢٨٧١) والنسائي (٦/٢٥٦ رقم ٦٣٦٩) والحاكم (٢/٣٠٣، ٣١٨) والطبري في جامع البيان (٢/٣٦٩ ـ ٣٧٠).
كلهم من طريق جرير عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.
قال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي. قلت: وحسن الألباني الحديث في صحيح أبي داود.

(٣) التوبة: «٣٠».

(٤) التوبة: «٣١».

(٥) المائدة: «٥».

(٦) مرثد الغنوي: صحابي بدري، استُشهد في عهد النبيﷺ، سنة ثلاث أو أربع في غزوة ذات الرجيع. [الإصابة (٣/٣٩٨) والتقريب (٢/٢٣٦)].

فنزلت[١] ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾ أي وَلأمرأة مؤمنة حرة كانت أو مملوكة، فإن الناس كلهم عبيد الله وإماؤه. ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ بحسنها وشمائلها، والواو للحال، ولوْ بمعنى إنْ وهو كثير. ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ ولا تزوجوا منهم المؤمنات حتى يؤمنوا، وهو على عمومه. ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ تعليل للنهي عن مواصلتهم وترغيب في مواصلة المؤمنين. ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين من المشركين والمشركات. ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي الكفر المؤدي إلى النار فلا يليق موالاتُهم ومصاهرتهم. ﴿وَاللَّهُ﴾ أي وأولياؤه، يعني المؤمنين حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه تفخيماً لشأنهم. ﴿يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ﴾ أي إلى الاعتقاد والعمل الموصلَيْن إليهما فهم الأحقاء بالمواصلة. ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي بتوفيق الله تعالى وتيسيره، أو بقضائه وإرادته. ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لكي يتذكروا، أو ليكونوا بحيث يرجى منهم التذكر لِمَا رُكِزَ في العقول من ميل الخير ومخالفة الهوى.

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾

(٢٢٢) ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ روي أن أهل الجاهلية كانوا لا يساكنون الحُيَّضَ ولا يؤاكلونها، كفعل اليهود والمجوس، واستمر ذلك إلى أن سأل أبو الدحداح[٢] في نفر من الصحابة عن ذلك فنزلت[٣]. والمحيض مصدر كالمجيء والمبيت، ولعله سبحانه وتعالى إنما ذكر يسألونك بغير واو

---

(١) قال ابن حجر في الكافي الشاف رقم (١٤٨): نزولها في هذه القصة ليس بصحيح. قلت: بل الصحيح أن آية النور «الزاني لاينكح إلا زانيةً أو مشركةً» هي التي نزلت في قصة مرثد.

(٢) أبو الدحداح هو ثابت بن الدحداح، وهو الذي قال يوم أحد: إن كان محمد قد قتل فإن الله حي لايموت، فقاتلوا عن دينكم.. فحمل بمن معه من المسلمين فطعنه خالد فأنفذه فوقع ميتاً، وقيل إنه جرح ثم برأ ومات بعد ذلك على فراشه.. (الإصابة ١/ ١٩١).

(٣) أخرج مسلم (١/ ٢٤٦ رقم ١٦) والترمذي (٥/ ٢١٤ رقم ٢٩٧٧) والنسائي (١/ ١٨٧ رقم ٣٦٩) وأبو داود (١/ ١٧٧ رقم ٢٥٨) و(٢/ ٦٢٠ رقم ٢١٦٥) وابن ماجة (١/ ٢١١ رقم ٦٤٣) كلهم من طريق حماد بن سلمة، عن ثابت عن أنس، أنَّ اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم، لم يؤاكلوها ولم يجامعوهنَّ في البيوتِ فسأل أصحابُ النبيِّ ﷺ النبيَّ ﷺ. فأنزل الله تعالى: «ويَسْألونك عن المحيض قُلْ هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض.... إلى آخر الآية (البقرة: ٢٢٢). فقال رسول الله ﷺ «اصْنَعُوا كلَّ شيء إلا النكاح» فبلغ ذلك اليهود فقالوا: مايريدُ هذا الرجل أن يَدَعَ من أمرنا شيئاً إلاَّ خالفنا فيه. فجاء أُسَيْد بنُ حُضير وعبَّادُ بن بشر فقالا: يارسول الله! إن اليهود تقول كذا وكذا. فلانُجامعُهُنَّ؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننَّا أنْ قد وَجَدَ عليهما. فخرجا فاستَقْبَلَهُما هَدِيَّةٌ من لبنٍ إلى النَّبيِّ ﷺ. فأرسل في آثارهما. فسقاهُما فعرفا أن لم يجدْ عليهما.
وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٢/ ٣٨١) عن قتادة نحو ماعند أبي السعود إلا سؤال أبي الدحداح.
وأخرج أيضاً الطبري (٢/ ٣٨١) عن السدي في قوله: «ويسألونك عن المحيض) قال: سأل عن ذلك ثابت بن الدحداح.

=

ثلاثاً ثم بها ثلاثاً، لأن السؤالات الأُوَل كانت في أوقات متفرقة والثلاثة الأخيرة كانت في وقت واحد فلذلك ذكرها بحرف الجمع. ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ أي الحيض شيء مستقذر مؤذٍ مَنْ يقربُه نفرة منه. ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ فاجتنبوا مجامعتهن لقوله عليه الصلاة والسلام «إنما أمرتم أن تعتزلوا مجامعتهن إذا حضن ولم يأمركم بإخراجهن من البيوت كفعل الأعاجم»[١]. وهو الاقتصاد بين إفراط اليهود وتفريط النصارى فإنهم كانوا يجامعوهن ولا يبالون بالحيض. وإنما وصفه بأنه أذى ورتب الحكم عليه بالفاء إشعاراً بأنه العلة. ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ تأكيد للحكم وبيان لغايته، وهو أن يغتسلن بعد الانقطاع ويدل عليه صريحاً قراءة حمزة والكسائي وعاصم في رواية ابن عباس يَطَّهَّرْن أي يتطهرن بمعنى يغتسلن والتزاماً قوله ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ فإنه يقتضي تأخير جواز الإتيان عن الغسل. وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه إذا طهرت لأكثر الحيض جاز قربانُها قبل الغسل[٢]. ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي المأتى الذي أمركم الله به وحلله لكم. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ من الذنوب. ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أي المتنزهين عن الفواحش والأقذار، كمجامعة الحائض والإتيان في غير المآتي.

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾

(٢٢٣) ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ مواضع حرث لكم. شبَّههن بها تشبيهاً لما يُلقى في أرحامهن من النطف بالبذور ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ﴾ أي فاتوهن كما تأتون المحارث، وهو كالبيان لقوله تعالى ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ من أي جهة شئتم، روي أن اليهود كانوا يقولون: من جامع امرأته من دبرها في قبلها كان ولدها أحول، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت[٣]. ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ ما يدخر لكم من

---

(١) قال ابن حجر في الكافي الشاف ص١٩ رقم (١٥٢) لم أجده.

(٢) قول أبي حنيفة مرجوح، وهو خلاف الجمهور، لمادل عليه قوله «فإذا تطهّرن» والقراءة الأخرى «حتى يَطّهّرن». وانظر ترجيح قول غير أبي حنيفة عند الألوسي (روح المعاني ٢/ ١٢٢) والشوكاني في (فتح القدير ١/ ٢٢٦).

(٣) أخرجه البخاري (٨/ ١٨٩ رقم ٤٥٢٨) ومسلم (٢/ ١٠٥٨ ـ ١٠٥٩ رقم ١١٧ ـ ١١٩) من حديث جابر.
ولمسلم من رواية النعمان بن راشد عن الزهري قوله: «إن شاء مُجبِّية، وإن شاء غير مُجبيه، غير أن ذلك في صمام واحد».

● مجبية: أي منكبة على وجهها تشبيهاً بهيئة السجود [النهاية: ١/ ٢٣٨].
● غير مجبية: أي مستلقية أو مُضطجعة.
● في صمام: قال ابن الأثير: والصمام ماانسد به الفرجة، فسمي به الفرج ويجوز أن يكون «في موضع صمام» على حذف المضاف.
[النهاية: ٣/ ٥٤].

وأخرجه أبو داود (٢/ ٦١٨ رقم ٢١٦٣) والترمذي (٥/ ٢١٥ رقم ٢٩٧٨) والنسائي في عشرة النساء (ص١١٣ رقم٨٨) وابن ماجة (١/ ٦٢٠ رقم ١٩٢٥) والدارمي (٨/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩) و(٢/ ١٤٥ ـ ١٤٦) وليس عند أحد منهم قوله «فذكر ذلك لرسول الله ﷺ».

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾

الثواب. وقيل هو طلب الولد. وقيل التسمية عند الوطء. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بالاجتناب عن معاصيه. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ﴾ فتزودوا مالا تفتضحون به. ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الكاملين في الإيمان بالكرامة والنعيم الدائم. أُمِرَ الرسولُ ﷺ أن ينصحَهم ويبشر من صدَّقه وامتثل أمره منهم.

(٢٢٤) ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ نزلت في الصدّيق رضي الله تعالى عنه لما حلف أن لا ينفق على مسطح لافترائه على عائشة رضي الله تعالى عنها، أو في عبدالله بن رواحة حلف أن لا يكلم خَتَنه بشير بن النعمان[1] ولا يصلح بينه وبين أخته. والعُرْضة فُعْلة بمعنى المفعول كالقَبضة تُطلق لما يعرِض دون الشيء وللمُعَرَّض للأمر، ومعنى الآية على الأول ولا تجعلوا الله حاجزاً لما حلفتم عليه من أنواع الخير، فيكون المراد بالإيمان الأمور المحلوف عليها، كقوله عليه الصلاة والسلام لابن سمرة[2] «إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها، فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك»[3]. وأنْ مع صلتها عطفُ بيانٍ لها، واللامُ صلةُ عُرْضة لما فيها من معنى الاعتراض، ويجوز أن تكون للتعليل ويتعلق أن بالفعل أو بعُرْضة أي ولا تجعلوا الله عرضة لأن تَبَرُّوا لأجل أيمانكم به، وعلى الثاني ولا تجعلوه معرضاً لأيمانكم فتبتذلوه بكثرة الحلف به، ولذلك ذم الحلاّف بقوله ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾[4] وأن تبروا علة للنهي أي أنهاكم عنه إرادة بَرّكم وتقواكم وإصلاحِكم بين الناس، فإن الحلاَّفَ مجترىء على الله تعالى، والمجترىء عليه لا يكون براً متقياً ولا موثوقاً به في إصلاح ذات البين ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأيمانكم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم.

(٢٢٥) ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ اللغو الساقط الذي لا يُعتد به من كلام غيره، ولغو اليمين مالا عَقْد معه كما سبق به اللسان أو تكلم به جاهلاً لمعناه كقول العرب: لا والله وبلى والله لمجرد التأكيد لقوله ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، والمعنى: لا يؤاخذكم الله بعقوبةٍ ولا كفارة بما لا قصْد معه، ولكن يؤاخذكم بهما أو بأحدهما بما قصدتم من الأيمان وواطَأت فيها قلوبُكم ألسنتكم. وقال أبو حنيفة: اللغو أن يحلف الرجل بناء على ظنّه الكاذب، والمعنى لا يعاقبكم بما أخطأتم فيه من

---

(١) بشير بن النعمان: هو بشير بن سعد بن النعمان بن أكّال، شهد أحداً والخندق مع أبيه والمشاهد كلها، قاله العدوي عن ابن القداح، ذكره ابن الدباغ [أسد الغابة (١/ ٢٣١ رقم ٤٦٠)].

(٢) ابن سمرة هو عبدالرحمن بن سمرة، من مسلمة الفتح، افتتح سجستان، سكن البصرة وتوفي فيها عام (٥٠)هـ (تقريب التهذيب ١/ ٤٨٣).

(٣) أخرجه البخاري (١١/ ٥١٦ ـ ٥١٧ رقم ٦٦٢٢) و(١٣/ ١٢٣ ـ ١٢٤ رقم ٧١٤٧) ومسلم (٣/ ١٢٧٣ ـ ١٢٧٤ رقم ١٩) وأبو داود (٣/ ٥٨٤ رقم ٣٢٧٧) والترمذي (٤/ ١٠٦ رقم ١٥٢٩) والنسائي (٧/ ١٠) وأحمد (٥/ ٦١، ٦٢، ٦٣) والدارمي (٢/ ١٨٦) كلهم من طريق الحسن عن عبدالرحمن بن سمرة وفي الباب من حديث عدي بن حاتم وأبي هريرة وأبي موسى وغيرهم. انظر تخريجها في «الروضة الندية» بتحقيقنا (٢/ ٣٦٠).

(٤) القلم: «١٠».

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾

الأيمان، ولكن يعاقبكم بما تعمَّدتُم الكذب فيه. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ حيث لم يؤاخذ باللغو ﴿حَلِيمٌ﴾ حيث لم يعجّل بالمؤاخذة على يمين الجِدِّ تربصاً للتوبة.

(٢٢٦) ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ أي يحلفون على أن لا يجامعوهن. والإيلاء: الحلف، وتعديته بعلى ولكن لما ضمن هذا القِسْم معنى البُعد عُدِّي بمن. ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ مبتدأ وما قبله خبره، أو فاعلُ الظرف على خلافٍ سبق. والتربص: الانتظارُ والتوقف أضيف إلى الظرف على الاتساع، أي للمُولي حقُّ التلبث في هذه المدة فلا يطالَب بفيء ولا طلاق، ولذلك قال الشافعي: لا إيلاء إلا في أكثر من أربعة أشهر ويؤيده ﴿فَإِن فَآءُو﴾ رجعوا في اليمين بالحنث، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ للمُولي إثم حنثه إذا كفّر، أو ما توخّى بالإيلاء من ضِرار المرأة ونحوه بالفيئة التي هي كالتوبة.

(٢٢٧) ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ﴾ وإن صمموا قصده ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لطلاقهم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بغرضهم فيه، وقال أبو حنيفة: الإيلاء في أربعة أشهر فما فوقها، وحكمه أن المُولي إن فاء في المدة بالوطء إن قدر وبالوعد إن عجَز صح الفيء ولزم الواطىءُ أن يكفِّر وإلا بانت بعدها بطلقة. وعندنا يطالب بعد المدة بأحد الأمرين فإن أبى عنهما طلق عليه الحاكم.

(٢٢٨) ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ﴾ يريد بها المدخول بهن من ذوات الأقراء، لما دلت عليه الآياتُ والأخبار أنّ حكم غيرهن خلاف ما ذكر. ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ خبر بمعنى الأمر، وتغييرُ العبارة للتأكيد والإشعار بأنه مما يجب أن يُسارَع إلى امتثاله، وكأن المخاطَب قَصَدَ أن يُمتثل الأمرُ فيخبِر عنه كقولك في الدعاء: رحمك الله، وبناؤه على المبتدأ يزيده فَضلُ تأكيد. ﴿بِأَنفُسِهِنَّ﴾ تهييج وبَعْث لهن على التربص، فإن نفوس النساء طوامحُ إلى الرجال، فأُمِرن بأن يقمعنها ويحملنها على التربص. ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ نصب على الظرف، أو المفعول به. أي يتربصن مُضِيها. وقُرُوء جمع قَرْء وهو يطلق للحيض، كقوله عليه الصلاة والسلام «دعي الصلاة أيام أقرائك»[1] وللطهر الفاصل بين الحيضتين كقول الأعشى:

---

١) أخرجه أبوداود (١/١٩١ رقم ٢٨٠) والنسائي (١/١٢١ رقم ٢١١) من حديث فاطمة بنت أبي حبيش. وهو حديث صحيح.
وأخرجه النسائي (١/١٢١ رقم ٢١٠) من حديث عائشة مرفوعاً بلفظ: «أن تترك الصلاة قدر أقرائها» وهو حديث صحيح.
قلت: وحديث فاطمة بنت أبي حُبيش مخرّج في الصحيحين لكن ليس عندهما لفظ «أقراء».
البخاري (١/٤٠٩ رقم ٣٠٦) و(١/٤٢٠ رقم ٣٢٠) و(١/٣٢٥ رقم ٣٢٥) و(١/٤٢٨ ـ ٤٢٩ رقم ٣٣١).
ومسلم (١/٢٦٢ رقم ٦٢) كلاهما من حديث عائشة بلفظ «فإذا أقبلت الحَيْضة فدعي الصلاة، وإذا أدبرت فاغسلي عنك الدم وصلي». ولفظه في رواية للبخاري «دعي الصلاة قدر الأيام التي كنت تحيضين فيها».

مـوَرِّثَــةٌ مَـالاً وَفِـي الحَـيِّ رفْعَــةً		لمَـا ضَـاعَ فِيهَـا مِـنْ قُـرُوءِ نِسَـائِكَـا

وأصله الانتقال من الطهر إلى الحيض، وهو المراد به في الآية لأنه الدالّ على براءة الرحِم لا الحيض، كما قاله الحنفية لقوله تعالى ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾[1] أي وقت عدتهن. والطلاق المشروع لا يكون في الحيض، وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان»[2] فلا يقاوم ما رواه الشيخان في قصة ابن عمر «مُرْه فليراجعها، ثم ليمسكها حتى تطهُر ثم تحيض ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك بعدُ وإن شاء طلّق قبل أن يَمَس، فتلك العدة التي أمر الله تعالى أن تُطَلَّق لها النساء»[3]. وكان القياس أن يُذكر بصيغة القِلَّة التي هي الأقراء، ولكنهم يتسعون في ذلك فيستعملون كل واحد من البناءين مكان الآخر، ولعلّ الحكم لماعمّ المطلقاتِ ذوات الأقراء تضمن معنى الكثرة فحسُن بناؤها. ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ ﴾ من الولد أو الحيض استعجالاً في العدة وإبطالاً لحقّ الرَّجعة، وفيه دليل على أن قولها مقبول في ذلك. ﴿ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ ليس المراد منه تقييد نفي الحل بإيمانهن، بل التنبيه على أنه ينافي الإيمان وأن المؤمن لا يجترِىء عليه ولا ينبغي له أن يَفْعل. ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ ﴾ أي أزواج المطلقات. ﴿ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ ﴾ إلى النكاح والرَّجعة إليهن، ولكن إذا كان الطلاق رجعياً للآية التي تتلوها فالضمير أخصّ من المرجوع إليه ولا امتناع فيه، كما لو كرر الظاهر وخصصه. والبُعُولة جمع بعل والتاء لتأنيث الجمع كالعمومة والخؤولة، أو مصدر من قولك بَعُل حَسَنُ البُعولة نعت به، أو أقيم مقام المضاف المحذوف أي وأهل بعولتهن، وأَفْعَلُ ههنا بمعنى الفاعل. ﴿ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أي في زمان التربص. ﴿ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا ﴾ بالرجعة لا لإضرار المرأة، وليس المراد

---

(١) الطلاق: «١».

(٢) أخرجه أبوداود (٢/ ٦٣٩ رقم ٢١٨٩) والترمذي (٣/ ٤٨٨ رقم ١١٨٢) وابن ماجة (١/ ٦٧٢ رقم ٢٠٨٠) والحاكم (٢/ ٢٠٥) والدارمي (٢/ ١٧٠) والدارقطني (٤/ ٣٩) والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٤٢٦) كلهم من طريق أبي عاصم عن ابن جريج، عن مظاهر بن أسلم، عن قاسم بن محمد عن عائشة بلفظ: «وقرؤها حيضتان».
قال أبو داود: هذا حديث مجهول.
وقال الترمذي: هذا حديث غريب لانعرفه مرفوعاً إلا من حديث مُظاهر بن أسلم.
قال الحاكم: لم يذكرهُ ـ أي مظاهراً ـ أحد من مُتقدّمي مشايخنا بجرح، فالحديث صحيح إذاً ووافقه الذهبي، فقال الألباني: هذا من عجائبه فإنه قد أورده في المغنى في الضعفاء (٢/ ٦٦٣ رقم ٦٢٩٥) وقال: قال ابن معين: ليس بشيء (الإرواء: رقم ٢٠٦٦). والخلاصة: أن الحديث ضعيف.
● وله شاهد من حديث ابن عمر: أخرجه ابن ماجة (١/ ٦٧٢ رقم ٢٠٧٩) والدارقطني (٤/ ٣٨) والبيهقي (٧/ ٣٦٩) والذهبي في الميزان (٣/ ٢٠٤) كلهم من طريق عمر بن شبيب بن عبدالله بن عيسى عن عطية العوفي عنه.
وعمر بن شبيب، وعطية العوفي: ضعيفان، قال الدارقطني والبيهقي منكر، غير ثابت من وجهين:
الأول: أن عطية العوفي ضعيف، وسالم ونافعٌ أثبتُ منه وأصح رواية.
الثاني: أن عمر بن شبيب ضعيف الحديث، لا يُحتج بروايته، ثم قالا: والصحيح مارواه سالم ونافع عن ابن عمر موقوفاً وقد روياه ـ الدارقطني والبيهقي ـ موقوفاً.
والصواب أن عِدة الأمة كالحرة، لأن أدلة الكتاب والسنة المشتملة على تفصيل العِدَد غيرُ مختصة بالحرائر.

(٣) البخاري (٨/ ٦٥٣ رقم ٤٩٠٨) ومسلم (٢/ ١٠٩٥ رقم ٤/ ١٤٧١).

منه شرطية قصد الإصلاح للرجعة بل التحريضُ عليه والمنع من قصد الضِّرار. ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾ أي ولهن حقوق على الرجال مثل حقوقهم عليهن في الوجوب واستحقاق المطالبة عليها، لافي الجنس. ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ﴾ زيادة في الحق وفضل فيه، لأن حقوقهم في أنفسهم وحقوقهن المهر والكفاف وترك الضرار ونحوها، أو شرف وفضيلة لأنهم قُوَّام عليهن وحُرَّاص لهن يشاركوهن في غرض الزواج ويُخَصون بفضيلة الرعاية والإنفاق ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يقدر على الانتقام ممن خالف الأحكام. ﴿حَكِيمٌ﴾ يشرعها لحكم ومصالح.

ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾

(٢٢٩) ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ أي التطليق الرجعي اثنان، لماروي أنهﷺ سُئِلَ أين الثالثة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «أو تسريح بإحسان»[(١)]. وقيل: معناه التطليق الشرعي تطليقة بعد تطليقة على التفريق، ولذلك قالت الحنفية الجمع بين الطلقتين والثلاث بدعة. ﴿فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ﴾ بالمراجعة وحسن المعاشرة، وهو يؤيد المعنى الأول. ﴿أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍۗ﴾ بالطلقة الثالثة، أو بأن لايراجعها حتى تَبين، وعلى المعنى الأخير حُكمٌ مبتدأ وتخييرٌ مُطلق عَقَّب به تعليمهم كيفية التطليق. ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ أي من الصدقات. روي أن جميلة بنت عبدالله بن أبيّ بن سلول، كانت تبغض زوجها ثابت بن قيس، فأتت رسول اللهﷺ فقالت: لاأنا ولاثابت لايجمع رأسي ورأسه شيء، والله مأعِيبُه في دين ولاخُلُق ولكني أكره الكفر في الإسلام، ومأطيقه بغضاً إني رفعت جانب الخباء فرأيته أقبل في جماعة من الرجال، فإذا هو أشدهم سواداً وأقصرهم قامة وأقبحهم وجهاً. فنزلت[(٢)]. فاختَلَعَت منه بحديقة كان أَصْدَقَها إياها. والخطاب مع الحكام وإسنادُ الأخذ والإيتاءِ إليهم لأنهم الآمرون بهما عند الترافع. وقيل إنه خطاب للأزواج ومابعده خطاب للحكام وهو يشوِّش النظم على القراءة المشهورة. ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ﴾ أي الزوجان. وقرىء يَظُنّا وهو يؤيد تفسير الخوف بالظن. ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ بترك إقامة أحكامه من مواجب الزوجية. وقرأ حمزة ويعقوب يُخَافَا على البناء للمفعول،

---

(١) أخرجه أبو داود في مراسيله (ص١٨٩ رقم ٢٢٠) وسعيد بن منصور في سننه (١/ ٣٤٠ ـ ٣٤١ رقم ١٤٥٦ و١٤٥٧) وعبدالرزاق في المصنف (٦/ ٣٣٧) وابن أبي شيبة في المصنف (٥/ ٢٥٩) والطبري في «جامع البيان» (٢/ ٤٠٥٨) والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٣٤٠) كلهم من طرق عن إسماعيل بن سميع، من حديث أبي رزين الأسدي به.
ورجاله ثقات، وقد ضعفه الشيخ أحمد شاكر لإرساله (الطبري رقم ٤٧٩٢، ٤٧٩٣).

(٢) قصة اختلاع زوجة ثابت بن قيس منه ثابتة بسند صحيح وفي روايات متعددة، ولكن ليس في شيء من طرق الحديث التصريح بنزول الآية في هذه القصة (الفتح السماوي ص٢٨٠ ـ ٢٨٢) وجميلة هي بنت أبيّ بن سلول أخت عبدالله رأس المنافقين على الأرجح (تخريج الفتح السماوي ص٢٧٨).

وإبدالُ أنْ بصِلَتِه من الضمير بدل الاشتمال، وقرىء تخافا وتقيما بتاء الخطاب. ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها الحكام. ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ على الرجل في أخذ ماافتدت به نفسها واختلعت، وعلى المرأة في إعطائه. ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ إشارة إلى ماحَدَّ من الأحكام. ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ فلاتتعدوْها بالمخالفة. ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ تعقيب للنهي بالوعيد مبالغةً في التهديد. واعلم أن ظاهر الآية يدل على أن الخُلع لايجوز من غير كراهة وشِقاق، ولابجميع ماساق الزوج إليها فضلاً عن الزائد، ويؤيد ذلك قولهﷺ «أيُّما امرأة سألت زوجها طلاقاً من غير بأس، فحرام عليها رائحة الجنة»[1]. وماروي أنه عليه الصلاة والسلام قال لجميلة: «أتردين عليه حديقته»؟ فقالت: أردُّها وأزيد عليها، فقال عليه الصلاة والسلام: «أما الزائد فلا»[2]. والجمهور استكرهوه ولكنْ نَفَّذُوه، فإن المنع عن العقد لايدُل على فساده وأنه يصح بلفظ المفاداة فإنه تعالى سماه افتداء. واختُلف في أنه إذا جرى بغير لفظ الطلاق هل هو فسخ أو طلاق، ومن جعله فسخاً احتج بقوله:

فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

(٢٣٠) ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ فإن تعقيبه للخلع بعد ذكر الطلقتين يقتضي أن يكون طلقة رابعة لو كان الخلع طلاقاً. والأظهرُ أنه طلاق لأنه فُرقة باختيار الزوج فهو كالطلاق بالعِوَض، وقوله فإن طلقها متعلق

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٧) وأبو داود (٢/ ٦٦٧ رقم ٢٢٢٦) وابن ماجة (١/ ٦٦٢ رقم ٢٠٥٥) والترمذي (٣/ ٤٩٣ رقم ١١٨٧) وقال حديث حسن.
وأخرجه الدارمي (٢/ ١٦٢) وابن حبان في الموارد رقم (١٣٢٠) والبيهقي في سننه (٧/ ٣١٦) والحاكم (٢/ ٢٠٠) وقال حديث صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وقال الألباني في «الإرواء» (٧/ ١٠٠) «وإنما هو على شرط مسلم وحده...» وهو حديث صحيح.

(٢) أخرج الدارقطني (٣/ ٢٥٥) عن أبي الزبير قال: إن ثابت بن قيس كانت عنده زينب بنت عبدالله بن أبي بن سلول، فذكر الحديث. وقال الحافظ: سنده قوي مع إرساله.
وقال ابن حجر في الفتح (٩/ ٣٩٨) فلعل لها إسمين، أو أحدُهما لقَبٌ وإلا «فجميلة» أصح.
وقد وقع في حديث آخرَ أن اسم امرأةِ ثابت «حبيبةُ بنت سهل» لما أخرج مالك (٢/ ٥٦٤) والشافعي في ترتيب (٢/ ٥٠) وأحمد (٦/ ٤٣٣ ـ ٤٣٤) والدارمي (٢/ ١٦٢ ـ ١٦٣) وابن سعد في الطبقات (٨/ ٤٤٥) والطبري في جامع البيان (٢/ ٤٦٢) وابن مِنده كما في الإصابة (٤/ ٢٧٠) كلهم من طريق يحيى بن سعيد، عن عمرة بنت عبدالرحمن قالت: إن حبيبة بنت سهل تزوجها ثابت بن قيس وكان رسول الله ﷺ قد همّ أن يتزوجها. وإن ثابتاً ضربها، فأصبحت على باب رسول الله ﷺ في الغَلَس تشكوه، فذكر الحديث.
● وأخرج البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٣١٣) عن ابن عباس «أن جميلة بنت ابن سلول أتت النبي ﷺ تريد الخُلع فقال لها: ما أصدقك؟ قالت: حديقة، قال: ردي عليه حديقتهُ.
● وأخرج البخاري (٩/ ٣٩٥ رقم ٥٢٧٤) عن عكرمة «أن أخت عبدالله بن أبي. بهذا. وقال: تردّين حديقته. قالت: نعم، فردّتها وأمره يطلقها....».

بقوله ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ أو تفسير لقوله ﴿أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ اعترِض بينهما ذكر الخُلْع دلالة على أن الطلاق يقع مجاناً تارة وبِعوَض أخرى، والمعنى فإن طلقها بعد الثنتين. ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ﴾ من بعد ذلك الطلاق. ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ﴾ حتى تتزوج غيره، والنكاحُ يَستنِدُ إلى كل منهما كالتزوج، وتَعَلَّق بظاهره من اقتصر على العقد كابن المسيب[1] واتفق الجمهور على أنه لابد من الإصابة لماروي أن امرأة رفاعة قالت لرسول الله ﷺ: إن رفاعه طلقني فبَتَّ طلاقي، وإن عبدالرحمن بن الزبير تزوجني وإن مامعه مثل هَدَبَة الثوب. فقال رسول الله ﷺ: «أتريدين أن ترجعي إلى رِفاعة؟ قالت: نعم، قال: لاحتى تذوقي عُسَيْلته ويذوق عُسَيْلتَك»[2]، فالآية مطلقة قيدتها السنة، ويحتمل أن يفسر النكاح بالإصابة، ويكون العقد مستفاداً من لفظ الزوج، والحكمة في هذا الحكم الردع عن التسرع إلى الطلاق والعود إلى المطلقة ثلاثاً والرغبة فيها. والنكاح بشرط التحليل فاسد عند الأكثر، وجوزه أبوحنيفة مع الكراهة، وقد لعن رسول الله ﷺ المحلِّل والمحلَّل له[3]. ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ الزوج الثاني، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ أن يرجع كل من المرأة والزوج الأول إلى الآخر بالزواج. ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ﴾ إن كان في ظنهما أنهما يقيمان ماحدده الله وشرعه من حقوق الزوجية، وتفسيرُ الظن بالعلم ههنا غير سديد لأن عواقب الأمور غيب تُظَنُّ ولاتعلم، ولأنه لايقال علمت أن يقوم زيد لأن أنْ الناصبة للتوقع وهو ينافي العلم. ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي الأحكام المذكورة. ﴿يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ يفهمون ويعلمون بمقتضى العلم.

---

(١) سعيد بن المسيَّب، سيد التابعين وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع ولد (١٣)هـ وتوفي بالمدينة (٩٤)هـ (الأعلام ٣/١٠٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥/٢٤٩ رقم ٢٦٣٩) ومسلم (٢/١٠٥٥ ـ ١٠٥٦ رقم ١١١/١٤٣٣) و(١١٢/١٤٣٣) وأبو داود (٢/٧٣١ رقم ٢٣٠٩)، والترمذي (٣/٤٢٦ رقم ١١١٨) والنسائي (٦/١٤٨) وابن ماجة (١/٦٢١ رقم ١٩٣٢) وأحمد في المسند (٦/٤٢، ٢٦). كلهم من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه أحمد (١/٤٥٠) والنسائي (٦/١٤٩) والترمذي (٣/٤٢٨ رقم ١١٢٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وقال الحافظ: صححه ابن القطان، وابن دقيق العيد على شرط البخاري وقال الألباني: وهو كما قالا. انظر التلخيص (٣/١٧٠ رقم ١٥٣٠).

● وأخرج أحمد في المسند (١/٨٧) وأبو داود (٢/٥٦٢ رقم ٢٠٧٦) وابن ماجة (١/٦٢٢ رقم ١٩٣٥) والترمذي (٣/٤٢٧ رقم ١١١٩) من حديث علي مثله. وهو حديث صحيح. صححه الألباني في صحيح ابن ماجة (١/٣٢٦ رقم ١٥٧١).

● وأخرج ابن ماجة (١/٦٢٣ رقم ١٩٣٦) والحاكم في المستدرك (٢/١٩٩) من حديث عقبة بن عامر. قال: «قال رسول الله ﷺ: ألا أخبِرُكم بالتَّيْسِ المُسْتعار؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: هو المحلِّل لعن الله المحلِّل والمُحَلَّلَ لهُ» وفي إسناده يحيى بن عثمان، وهو ضعيف وقد أعل بالإرسال. وهو حديث حسن. حسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (١/٣٢٦ رقم ١٥٧٢).

● وأخرج أحمد (٢/٣٢٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٧/٢٠٨) والبزار في كشف الأستار (٢/١٦٧ رقم ١٤٤٢) وابن أبي حاتم في العلل (١/٤١٣) من حديث أبي هريرة نحوه. وحسنه البخاري.

● وأخرج الحاكم في المستدرك (٢/١٩٩) والطبراني في الأوسط ـ كما في «المجمع» (٤/٢٦٧) ـ من حديث عمر: «أنهم كانوا يعُدّون التحليل سفاحاً في عهد رسول الله ﷺ» وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾

(٢٣١) ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي آخر عدتهن، والأجل يطلق للمدة ولمنتهاها فيقال لعمر الإنسان وللموت الذي به ينتهي قال:

كُلُّ حَيٍّ مُسْتَكْمِلٌ مُدَّةَ العُمُرِ وَمَوْتٌ إِذَا انْتَهَى أَجَلُه

والبلوغ هو الوصول إلى الشيء، وقد يقال للدنو منه على الاتساع، وهو المراد في الآية ليصح أو يُرتب عليه. ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ﴾ إذ لاإمساك بعد انقضاء الأجل، والمعنى فراجعوهن من غير ضرار، أو خلوهن حتى تنقضي عدتهن من غير تطويل، وهو إعادة للحكم في بعض صوره للاهتمام به. ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾ ولاتراجعوهن إرادة الإضرار بهن، كأن المطلق يترك المعتدة حتى تشارف الأجل ثم يراجعها لتطول العدة عليها، فنهي عنه بعد الأمر بضده مبالغة. ونَصْبُ ضراراً على العلة أو الحال بمعنى مضارين. ﴿لِّتَعْتَدُواْ﴾ لتظلموهن بالتطويل أو الإلجاء إلى الافتداء، واللام متعلقة بضراراً إذ المراد تقييده. ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ بتعريضها للعقاب. ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ﴾ بالإعراض عنها والتهاون في العمل بمافيها من قولهم لمن لم يجد في الأمر إنما أنت هازىء، كأنه نهى عن الهزؤ وأراد به الأمر بضده. وقيل: كان الرجل يتزوج ويطلق ويعتق ويقول: كنت ألعب فنزلت[1]. وعنه عليه الصلاة والسلام: «ثلاث جدهن جِدّ وهَزْلهن جد، الطلاق والنكاح والعتاق»[2] ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ التي من جملتها الهداية، وبعثة محمدﷺ بالشكر والقيام

---

(١) أخرجه ابن المنذر عن عبادة بن الصامت ـ كما في الدر المنثور (١/ ٦٨٣) ـ.

(٢) أخرجه أبو داود (٢/ ٦٦٣ رقم ٢١٩٤) والترمذي (٣/ ٤٩٠ رقم ١١٨٤) وقال: حسن غريب. وابن ماجة (١/ ٦٥٨ رقم ٢٠٣٩) والمستدرك (٢/ ١٩٨) وقال: صحيح الإسناد. وقال الذهبي: فيه «لين». والدارقطني (٣/ ٢٥٦، ٢٥٧) والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٣٤٠ ـ ٣٤١) وابن الجارود في المنتقى (ص٢٣٩ رقم ٧١٢) كلهم من طريق عبدالرحمن بن حبيب بنِ أردك عن عطاء بن أبي رباح، عن يوسف بن ماهك عن أبي هريرة.

● وأخرج الطبراني في المجمع (٤/ ٣٣٥) عن فضالة عن عبيد مرفوعاً: (ثلاث لا يجوز فيهن اللعِبُ: الطلاق والنكاح والعِتْق) وفي إسناده ابن لهيعة.

● وأخرج عبدالرزاق في المصنف (٦/ ١٣٤ رقم ١٠٢٤٩) عن أبي ذر مرفوعاً: «من طلّق وهو لاعب فطلاقُه جائز، ومن أعتق وهو لاعب فعِتقُه جائز ومن نكح وهو لاعب فنكاحه جائز» وفي إسناده انقطاع.

● وأخرج عبدالرزاق في المصنف (٦/ ١٣٤ رقم ١٠٢٤٧) عن علي موقوفاً.

● وأخرج عبدالرزاق في المصنف (٦/ ١٣٤ رقم ١٠٢٤٨) عن عمر مرفوعاً. وقال الألباني في الإرواء (٦/ ٢٢٤ رقم ١٨٢٦): «والذي يتلخص عندي مما سبق أن الحديث حسن بمجموع طريق أبي هريرة الأولى التي حسنها الترمذي، وطريق الحسن البصري المرسلة، وقد يزداد قوة بحديث عبادة بن الصامت، والآثار المذكورة عن الصحابة فإنها ـ ولو لم يتبين لنا ثبوتها عنهم من كل واحد منهم ـ تدل على أن معنى الحديث كان معروفاً عِندَهم.

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ
بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾
۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ
بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ
فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا
سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

بحقوقها. ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ القرآن والسنة، أفردهما بالذكر إظهاراً لشرفهما. ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ بماأنزل عليكم. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ تأكيد وتهديد.

(٢٣٢) ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي انقضت عدتهن، وعن الشافعي رحمه الله تعالى دلّ سياق الكلامين على افتراق البلوغين. ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ المخاطب به الأولياء لماروي أنها نزلت في معقل بن يسار حين عضل أخته جميلاء أن ترجع إلى زوجها الأول بالاستئناف[١] فيكون دليلاً على أن المرأة لاتُزوج نفسها، إذ لو تمكنت منه لم يكن لعضل الولي معنى[٢]، ولايعارَضُ بإسناد النكاح إليهن لأنه بسبب توقفه على إذنهن. وقيل الأزواج الذين يعضُلون نساءهم بعد مضي العدة ولايتركونهن يتزوجن عدواناً وقسراً، لأنه جواب قوله وإذا طلقتم النساء. وقيل الأولياء والأزواج. وقيل الناس كلهم، والمعنى: لايوجد فيمابينكم هذا الأمر فإنه إذا وجد بينهم وهم راضون به كانوا كالفاعلين له. والعَضْل الحبس والتضييق منه عَضَلت الدجاجةُ إذا نَشِب بيضُها فلم يخرج. ﴿إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم﴾ أي الخطاب والنساء وهو ظرف لأن ينكحن أو لاتعضلوهن. ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بمايعرفه الشرع وتستحسنه المروءة، حال من الضمير المرفوع أو صفة لمصدر محذوف أو تراضياً كائناً بالمعروف. وفيه دلالة على أن العضل عن التزوج من غير كفؤ غيرُ منهى عنه. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مامضى ذكره، والخطاب للجميع على تأويل القبيل أو كل واحد أو أن الكاف لمجرد الخطاب والفرق بين الحاضر والمنقضي دون تعيين المخاطبين، أو للرسولﷺ على طريقة قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[٣] للدلالة على أن حقيقة المشار إليه أمر لايكاد يتصوره كلُّ أحد. ﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ لأنه المتعظ به والمنتفع. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي العمل بمقتضى ماذكر. ﴿أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أنفع. ﴿وَأَطْهَرُ﴾ من دنس الآثام. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ مافيه النفع والصلاح. ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ لقصور علمكم.

---

(١) أخرجه البخاري (٨/١٩٢ رقم ٤٥٢٩) و(٩/١٨٣ رقم ٥١٣٠) و(٩/٤٨٢ رقم ٥٣٣٠، ٥٣٣١) وأبو داود (٢/٥٦٩ ـ ٥٧٠ رقم ٢٠٨٧) والنسائي في الكبرى كما في تحفة الأشراف (٨/٤٦١) والترمذي (٥/٢١٦ رقم ٢٩٨١) كلهم من طريق الحسن عنه في سياق أطول من ذلك.

(٢) قال أبو السعود: (وليس فيه دلالة على أن ليس للمرأة أن تزوج نفسها، وإلا لما احتيج إلى نهي الأولياء عن الفصل، لما أن النهي لدفع الضرر عنهن، فإنهن وإن قدرن على تزويج أنفسهن لكنهن يحترزن عن ذلك مخافة اللوم والقطيعة) أبو السعود ١/ ٢٢٩.

(٣) الطلاق: «١».

(٢٣٣) ﴿ ۞وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ ﴾ أمر عبر عنه بالخبر للمبالغة، ومعناه الندب أو الوجوب، فيُخَصّ بماإذا لم يرتضع الصبي إلا من أمه أو لم يوجد له ظئر[١] أو عجز الوالد عن الاستئجار. والوالدات يعم المطلقات وغيرهن، وقيل يختص بهن إذ الكلام فيهن. ﴿ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ أكده بصفة الكمال لأنه ممايُتسامح فيه. ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ بيان للمتوجَّه إليه الحكمُ أي ذلك لمن أراد إتمام الرضاعة، أو متعلق بيرضعن فإن الأب يجب عليه الإرضاع كالنفقة والأم ترضع له. وهو دليل على أن أقصى مدة الإرضاع حولان ولاعبرة به بعدهما وأنه يجوز أن ينقص عنه. ﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ ﴾ أي الذي يولد له يعني الوالد، فإن الولد يولد له ويُنسب إليه. وتغيير العبارة للإشارة إلى المعنى المقتضي لوجوب الإرضاع ومُؤَن المرضِعَة عليه. ﴿ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ ﴾ أجرة لهن، واختلف في استئجار الأم فجوزه الشافعي ومنعه أبوحنيفة رحمه الله تعالى مادامت زوجة أو معتدة نكاح. ﴿ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ حسب مايراه الحاكم ويفي به وسعه. ﴿ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ تعليل لإيجاب المؤن والتقييدِ بالمعروف ودليل على أنه سبحانه وتعالى لايُكَلِّفُ العبدَ بمالايطيقه وذلك لايمنع إمكانه. ﴿ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ﴾ تفصيل له وتقرير، أي لايكلف كل واحد منهما الآخر ماليس في وسعه ولايضاره بسبب الولد. وقرأ ابن كثير وأبوعمرو ويعقوب لاتضارُّ بالرفع بدلاً من قوله لاتُكَلَّفُ، وأصله على القراءتين تُضَارِر بالكسر على البناء للفاعل أو الفتح على البناء للمفعول، وعلى الوجه الأول يجوز أن يكون بمعنى تضرُّ والباء من صلته أي لايضرَّ الوالدان بالولد فيفرط في تعهده ويقصر فيما ينبغي له. وقرىء لاتضارْ بالسكون مع التشديد على نية الوقف وبه مع التخفيف على أنه من ضارَه يَضِيرُه. وإضافة الولد إليها تارة وإليه أخرى استعطافٌ لهما عليه وتنبيه على أنه حقيق بأن يتفقا على استصلاحه والإشفاق فلا ينبغي أن يَضُرا به أو أن يتضارا بسببه. ﴿ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾ عطف على قوله وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن، ومابينهما تعليل معترض، والمراد بالوارث وارثُ الأب وهو الصبي، أي مُؤَن المرضعة من ماله إذا مات الأب. وقيل الباقي من الأبوين من قوله عليه الصلاة والسلام: «واجعله الوارث منا»[٢]، وكلا القولين يوافق مذهب الشافعي رحمه الله تعالى إذ لانفقة عنده فيماعدا الولادة.

---

(١) الظئر يقال للمرأة الأجنبية التي تحضن ولد غيرها (المصباح المنير مادة ظئر).

(٢) أخرجهُ الترمذي (٥/٥٢٨ رقم ٣٥٠٢) والنسائي في عمل اليوم والليلة رقم (٤٠٢) كلاهما من طريق عبيدالله بن زحر، عن خالد بن أبي عمران، عن ابن عمر، بلفظ: قلّما كان رسول الله ﷺ يقومُ من مجلسٍ حتى يدْعُو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: اللهم اقسِمْ لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تُبلِّغُنَا به جنّتك، ومن اليقين ما تُهَوِّن به علينا مصيباتِ الدنيا، ومتِّعْنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييْتنا، واجعَلْهُ الوارثَ مِنَّا...».

وقال الترمذي: هذا الحديث حسن غريب. وقد روى بعضهم هذا الحديث عن خالد بن أبي عمران عن نافع عن ابن عمر.

وأخرجه من هذا الطريق النسائي في عمل اليوم والليلة رقم (٤٠١) من طريق «عبيدالله بن زحر أيضاً والحاكم (١/٥٢٨) من طريق كاتب الليث، عن الليث عن خالد بن عمران به بلفظ: «بارك لي في سمعي وبصري، واجعلهما الوارث مني».

وقال صحيح على شرط البخاري، ووافقه الذهبي. =

وقيل وارث الطفل وإليه ذهب ابن أبي ليلى. وقيل وارثه المحرم منه، وهو مذهب أبي حنيفة. وقيل عصابته وبه قال أبو زيد[١] وذلك إشارة إلى ماوجب على الأب من الرزق والكسوة. ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ أي فصالاً صادراً عن التراضي منهما والتشاور بينهما قبل الحولين، والتشاور والمشاوَرَة والمشُورة والمَشْوَرة استخراج الرأي، من شُرْتُ العسل إذا استخرجته. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ في ذلك وإنما اعتبر تراضيهما مراعاة لصلاح الطفل وحذراً أن يقدم أحدهما على مايَضُرُّ بِهِ لغرضٍ أو غيره. ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ أي تسترضعوا المراضع لأولادكم، يقال أرضعت المرأة الطفل واسترضعتها إياه، كقولك أنجح الله حاجتي واستنجحته إياها، فحذف المفعول الأول للاستغناء عنه. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فيه وإطلاقه يدل على أن للزوج أن يسترضع الولد ويمنع الزوجة من الإرضاع. ﴿إِذَا سَلَّمْتُم﴾ إلى المراضع. ﴿مَّا آتَيْتُم﴾ ماأردتم إيتاءه كقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾[٢] وقراءة ابن كثير ما أتيتم، من أتى إليه إحساناً إذا فعله. وقرىء أُوتيتم أي ماآتاكم الله وأقدركم عليه من الأجرة. ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ صلة سلمتم، أي بالوجه المتعارف المستحسن شرعاً. وجواب الشرط محذوف دل عليه ماقبله، وليس اشتراط التسليم لجواز الاسترضاع بل لسلوك ماهو الأولى والأصلح للطفل. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ مبالغة في المحافظة على ماشرع في أمر الأطفال والمراضع. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ حث وتهديد[٣].

قلت: أما إسناد الترمذي والنسائي ففيه: «عبيدالله بن زحر» وهو ضعيف ـ كما في الجرح والتعديل (٥/ ٣١٥) ـ. كما هو منقطع بين خالد بن أبي عمران وابن عمر عند الترمذي. انظر تهذيب الكمال للمزي (٨/ ١٤٢ رقم ١٦٣٩).
وأما إسناد الحاكم ففيه: «عبدالله بن صالح كاتب الليث، وهو ضعيف وللحديث شاهدان:
(الأول): حديث علي بن أبي طالب: أخرجه الطبراني في الصغير (٢/ ٢٢٥) رقم ١٠٧٠ ـ الروض الداني) والحاكم (١/ ٥٢٧) من طريق زين العابدين عنه بلفظ: «اللهم متعني بسمعي وبصري حتى تجعلهما الوارث مني» وقال الحاكم صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، قلت: زين العابدين لم يدرك علي بن أبي طالب ـ كما في المراسيل لابن أبي حاتم (ص١٣٩ وص١٨٦) ـ.
(والثاني): حديث عائشة: أخرجه الترمذي (٥/ ٥١٨ رقم ٣٤٨٠) والحاكم (١/ ٥٣٠) من طريق حبيب بن أبي ثابت عن عروة عنها بلفظ «اللهم عافني في جسدي وعافني في بصري واجعله الوارث مني».
وقال الترمذي: حسن غريب، سمعت محمداً ـ البخاري ـ يقول: حبيب بن أبي ثابت لم يسمع من عروة بن الزبير شيئاً. وقال الحاكم: صحيح الإسناد إن سلُم سماع حبيب من عروة، وقال الذهبي: فيه «بكر من بكار» قال النسائي: «ليس بثقة» قلت: «تابعه» معاوية بن هشام عند الترمذي، وهو صدوق وخلاصة القول إن حديث ابن عمر حسن والله أعلم.

(١) أبو زيد: هو سعيد بن أوس بن ثابت بن بشير بن قيس بن زيد بن النعمان بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج أبو زيد الأنصاري.
الإمام المشهور، كان إماماً نحوياً، صاحب تصانيف أدبية ولغوية، قيل: كان الأصمعي يحفظ ثلث اللغة، وأبو زيد ثلثي اللغة، والخليل بن أحمد نصف اللغة، وعمرو بن كَركرة الأعرابي يحفظ اللغة كلَّها.
ومن تصانيف أبي زيد: لغاتُ القرآن ـ اللامات، الجمع والتثنية، وغيرها.
توفي سنة (٢٢٥هـ) وقيل غير ذلك، عن ثلاث وتسعين سنة بالبصرة. [بغية الوعاة للسيوطي (١/ ٥٨٢ ـ ٥٨٣ رقم ١٢٢٢)].

(٢) المائدة: «٦».

(٣) في قوله «واعلموا أن الله...» إظهار للاسم الجليل في موضع الإضمار وذلك لتربية المهابة (أبو السعود :

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥)﴾

(٢٣٤) ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ أي أزواج الذين، أو والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بعدَهم، كقولهم السَّمْنُ مَنَوَانِ بدرهم[١]. وقرىء يَتوفون بفتح الياء أي يستوفون آجالهم، وتأنيث العشر باعتبار الليالي لأنها غُرر الشهور والأيام، ولذلك لايستعملون التذكير في مثله قط ذهاباً إلى الأيام حتى إنهم يقولون صَمتَ عشراً ويشهد له قوله تعالى ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾[٢] ثم ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾[٣]. ولعل المقتضي لهذا التقدير أن الجنين في غالب الأمر يتحرك لثلاثة أشهر إن كان ذكراً، ولأربعة إن كان أنثى فاعتُبر أقصى الأجلين، وزيد عليه العشر استظهاراً إذ ربما تضعُف حركتُه في المبادي فلايُحَسُّ بها، وعموم اللفظ يقتضي تساوي المسلمة والكتابية فيه، كما قاله الشافعي والحرة والأمة كما قاله الأصم[٤]، والحامل وغيرها، لكن القياس اقتضى تنصيف المدة للأمة، والإجماعُ خصَّ الحامل منه لقوله تعالى ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[٥]. وعن علي وابن عباس رضي الله تعالى عنهما إنها تعتد بأقصى الأجلين احتياطاً. ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي انقضت عدتهن. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الأئمة أو المسلمون جميعاً. ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ﴾ من التعرض للخطاب وسائر ماحرم عليهن للعدة. ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالوجه الذي لاينكره الشرع، ومفهومه أنهن لو فعلن ماينكره فعليهم أن يَكفُوهن، فإن قصّروا فعليهم الجناح. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه.

(٢٣٥) ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ التعريض والتلويح إيهام المقصود بمالم يوضَع له حقيقة ولامجازاً، كقول السائل جئتك لأُسلِّم عليك، والكنايةُ هي الدلالة على الشيء بذكر لوازمه وروادفه، كقولك طويلُ النِّجادِ للطويل وكثيرُ الرماد للمضياف. والخِطْبة بالضم والكسر اسم

١/ ٢٣١).

(١) أي منوان منه بدرهم حيث حذف الضمير الرابط.

(٢) طه: ﴿١٠٣﴾.

(٣) طه: ﴿١٠٤﴾.

(٤) الأصمّ: هو يوسف بن يعقوب الواسطي أبو بكر الأصم، إمام جامع واسط، ومقرئُها، وَمَنْ انتهى إليه عُلُوُّ رواية عاصم.
ولد سنة ثمان عشرة ومئتين، وتوفي سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة [معرفة القراء الكبار: (١/ ٢٥٠ رقم ١٥٦) وتاريخ بغداد (١٤/ ٣١٩ ـ ٣٢٠)].

(٥) الطلاق: ﴿٤﴾.

الحالة، غير أن المضمومة خُصّت بالموعظة والمكسورة بطلب المرأة، والمراد بالنساء المعتدات للوفاة، وتعريض خطبتها أن يقول لها إنك جميلة أو نافقة ومن غرضي أن أتزوج ونحو ذلك. ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْۚ﴾ أو أضمرتم في قلوبكم فلم تذكروه تصريحاً ولاتعريضاً. ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ ولاتصبرون على السكوت عنهن وعن الرغبة فيهن وفيه نوع توبيخ. ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ استدراك على محذوف دل عليه ستذكرونهن أي فاذكروهن ولكن لاتواعدوهن نكاحاً أو جماعاً، عبر بالسر عن الوطء لأنه مما يُسَرّ ثم عن العقد لأنه سبب فيه. وقيل معناه لاتواعدوهن في السر على أن المعنى بالمواعدة في السر المواعدة بمايُستهجن. ﴿إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًاۚ﴾ وهو أن تُعَرِّضوا ولاتُصَرِّحوا، والمستثنى منه محذوف أي: لاتواعدوهن مواعدةً إلا مواعدةً معروفة أو إلا مواعدةً بقولٍ معروف. وقيل إنه استثناء منقطع من سِرّاً وهو ضعيف لأدائه إلى قولك لا تواعدوهن إلا التعريض، وهو غير موعود. وفيه دليل حُرمة تصريح خطبة المعتدة وجواز تعريضها إن كانت معتدة وفاة. واختُلف في معتدّة الفراق البائن والأظهر جوازه. ﴿وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ ذكر العزم مبالغة في النهي عن العقد، أي ولاتعزموا عَقْد عقدة النكاح. وقيل معناه ولاتقطعوا عقدة النكاح فإن أصل العزم القطع.

﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ﴾ حتى ينتهي ما كُتب من العدة. ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ من العزم على ما لا يجوز. ﴿فَٱحْذَرُوهُۚ﴾ ولا تعزموا. ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن عزم ولم يفعل خشية من الله سبحانه وتعالى. ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجلكم بالعقوبة.

لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةًۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾

(٢٣٦) ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ لا تبعةَ من مهر. وقيل من وزر لأنه لا بدعة في الطلاق قبل المسيس. وقيل: كان النبي ﷺ يكثر النهي عن الطلاق فظُنّ أن فيه حرجاً فنفى ﴿إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي تجامعوهن. وقرأ حمزة والكسائي تُماَسُّوهن بضم التاء ومد الميم في جميع القرآن. ﴿أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةًۚ﴾ إلا أن تفرضوا، أو حتى تفرضوا أو وتفرضوا. والفَرْض تسمية المهر، وفريضةً نصب على المفعول به بمعنى فَعِيلة بمعنى مفعول. والتاء لنقل اللفظ من الوصفية إلى الإسمية، ويحتمل المصدر. والمعنى: أنه لا تبِعة على المطلّق من مطالبة المهر إذا كانت المطلّقة غيرَ ممسوسة ولم يسم لها مهراً، إذ لو كانت ممسوسة فعليه المُسمّى أو مهر المثل، ولو كانت غير ممسوسة ولكن سمي لها فلها نصف المسمى، فمنطوق الآية ينفي الوجوب في الصورة الأولى، ومفهومها يقتضي الوجوب على الجملة في الآخيرتين. ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ عطف على مقدر أي فطلقوهن ومتعوهن، والحكمة في إيجاب المُتعة جبْرُ إيحاشِ الطلاق، وتقديرها مفوض إلى رأي الحاكم ويؤيده قوله: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ أي على كل من الذي له سَعَة والمُقْتِرِ الضيِّقِ الحال ما يُطيقه ويليق به، ويدل عليه قوله عليه السلام لأنصاري طلق امرأته المفوّضة قبل أن يمسها «متعها

بقلنسوتك»[١]. وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه: هي دِرع ومِلْحَفة وخمار على حَسَب الحال إلا أن يقل مهر مثلها عن ذلك فلها نصف مهر المثل، ومفهوم الآية يقتضي تخصيص إيجاب المتعة للمفوَّضة التي لم يمسها الزوج، وألحق بها الشافعي رحمه الله تعالى في أحد قوليه الممسوسة المفوضة وغيرها قياساً، وهو مقدم على المفهوم. وقرأ حمزة والكسائي وحفص وابن ذكوان[٢] بفتح الدال ﴿مَتَٰعًا﴾ تمتيعاً. ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بالوجه الذي يستحسنه الشرع والمروءة. ﴿حَقًّا﴾ صفة لمتاعاً، أو مصدر مؤكد أي حق ذلك حقاً. ﴿عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الذين يحسنون إلى أنفسهم بالمسارعة إلى الامتثال، أو إلى المطلقات بالتمتيع وسماهم محسنين قبل الفعل للمشارفة ترغيباً وتحريضاً.

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾

(٢٣٧) ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ لما ذكر حكم المفوَّضة أتبعه حكم قسيمها. ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ أي فلهن، أو فالواجب نصف ما فرضتم لهن، وهو دليل على أن الجُناح المنفي ثم تبعة المهر وأن لا متعة مع التشطير لأنه قسيمها ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ أي المطلقات فلا يأخذن شيئاً، والصيغة تحتمل التذكير والتأنيث، والفرق في الأول أن الواو ضمير والنون علامة الرفع والثاني لام الفعل والنونُ ضمير والفعلُ مبني ولذلك لم يؤثر فيه أن ههنا ونصب المعطوف عليه. ﴿أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ أي الزوج المالك لعقده وحله عما يعود إليه بالتشطير فيسوق المهر إليها كاملاً، وهو مشعر بأن الطلاق قبل المسيس مخيّر للزوج غير مشطر بنفسه، وإليه ذهب بعض أصحابنا والحنفية. وقيل الولي الذي يلي عقد نكاحهن وذلك إذا كانت المرأة صغيرة، وهو قول قديم للشافعي رحمه الله تعالى. ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ يؤيد الوجه الأول وعفو الزوج على وجه التخيير ظاهر وعلى الوجه الآخر عبارة عن الزيادة على الحق، وتسميتُها عفواً إما على المشاكلة وإما لأنهم يسوقون المهر إلى النساء عند التزوج، فمن طلق قبل المسيس استحق استرداد النصف فإذا لم يستردَّه فقد عفا عنه. وعن جبير بن مطعم أنه تزوج امرأة وطلقها قبل الدخول فأكمل لها الصداق وقال أنا أحق بالعفو[٣]. ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي ولا تنسوا أن يتفضل بعضكم على بعض. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ

---

(١) لم أقف عليه؟!!

(٢) ابن ذكوان هو عبدالله بن أحمد بن بشير بن ذكوان القرشي الدمشقي، اشتهر بالرواية عن ابن عامر أحد القراء السبعة، قال عنه أبو زرعة الدمشقي: إنه الحافظ الدمشقي، لم يكن بالعراق ولا بالحجاز ولا بالشام ولا بمصر ولا بخراسان في زمن ابن ذكوان أقرأ منه» توفي عام (٢٤٢)هـ.

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٢٥١) والطبري في «جامع البيان» (٢/ ٥٤٦) والدارقطني (٣/ ٢٧٩) كلهم من طريق محمد بن عمرو، لكن البيهقي عنه عن أبي سلمه عنه، والطبري عنه عن نافع عنه والدارقطني عنه يحيى بن عبدالرحمن بن حاطب وأبي سلمة معاً عنه، وعنه عن يحيى وعنه عن أبي سلمة من طريقين عنه وقال =

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾

﴿بَصِيرٌ﴾ لا يضيع تفضلكم وإحسانكم.

(٢٣٨) ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ بالأداء لوقتها والمداومة عليها، ولعل الأمر بها في تضاعيف أحكام الأولاد والأزواج لئلا يلهيهم الاشتغال بشأنهم عنها. ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ أي الوسطى بينها، أو الفضلى منها خصوصاً وهي صلاة العصر لقوله عليه الصلاة والسلام يوم الأحزاب «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله بيوتهم ناراً»(١). وفضلها لكثرة اشتغال الناس في وقتها واجتماع الملائكة. وقيل صلاة الظهر لأنها في وسط النهار وكانت أشق الصلوات عليهم فكانت أفضل لقوله عليه الصلاة والسلام «أفضل العبادات أحمزها». وقيل صلاة الفجر لأنها بين صلاتي النهار والليل والواقعة في الحد المشترك بينهما ولأنها مشهودة. وقيل المغرب لأنها المتوسطة بالعدد ووتر النهار. وقيل العشاء لأنها بين جهريتين واقعتين طرفي الليل. وعن عائشة رضي الله تعالى عنها: أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ: والصلاة الوسطى صلاة العصر(٢)، فتكون صلاة من الأربع خصت بالذكر مع العصر لانفرادهما بالفضل. وقرىء بالنصب على الاختصاص والمدح(٣). ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ في الصلاة. ﴿قَٰنِتِينَ﴾ ذاكرين له في القيام، والقنوت الذكر فيه. وقيل خاشعين، وقال ابن المسيب المراد به القنوت في الصبح.

(٢٣٩) ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ من عدو أو غيره. ﴿فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ فصلوا راجلين أو راكبين ورجالاً جمع راجل أو رَجِل بمعناه كقائم وقيام، وفيه دليل على وجوب الصلاة حال

الآبادي في الطرق الثلاث: رواتهُ ثقات.

وبهذا يتقوى ما عند البيهقي ففي إسناده يحيى بن أبي حاطب وفيه كلام يسير.

(١) أخرجه مسلم ١/٤٣٧ رقم ٢٠٥) عن علي.

وأخرجه مسلم أيضاً رقم ٢٠٣، ٢٠٤ ليس فيهما ذكر العصر، لكن فيهما ما يُشعر بأنها العصر وهو قوله: حتى آبت: حتى غربت الشمس.

وأخرجه البخاري (٦/١٠٥ رقم ٢٩٣١) و(٧/٤٠٥ رقم ٤١١١) و(٨/١٩٥ رقم ٤٥٣٣) و(١١/١٩٤ رقم ٦٣٩٦) وعنده في الرقم الأخير «وهي صلاة العصر». وجزم الكرماني بأنه مُدرج.

وأخرجه أبو داود (١/٢٨٧ رقم ٤٠٩) وعنده أيضاً «صلاة العصر». والترمذي (٥/٢١٧ رقم ٢٩٨٤) والنسائي (١/٢٣٦ رقم ٤٧٣) وعندهما ما يُشعر بأنها صلاة العصر، وهو قوله «حتى غربت الشمس».

● وأخرج مسلم (١/٤٣٧ رقم ٢٠٦) والترمذي (٥/٢١٨ رقم ٢٩٧٥) من حديث ابن مسعود مرفوعاً بلفظ «الصلاة الوسطى صلاة العصر».

● وأخرج الترمذي (٥/٢١٧ رقم ٢٩٨٣) عن سمرة مرفوعاً بلفظ «صلاة الوسطى صلاة العصر».

(٢) وكانت هذه القراءة موجودة وقد صحت الأسانيد بنسخها كما ذكر الشوكاني في فتح القدير (١/٢٥٧).

(٣) وأرجح الأقوال في تعيين الصلاة الوسطى أنها صلاة العصر وهو ما ذهب إليه الجمهور. انظر فتح القدير للشوكاني ١/٢٥٦ حيث عرض الأدلة بإسهاب.

وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ
خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾
وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾

المسايفة[1] وإليه ذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه، وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى لا يصلى حال المشي والمسايفةِ مالم يمكن الوقوف. ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ وزال خوفكم. ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ صلوا صلاة الأمن[2]، أو اشكروه على الأمن. ﴿كَمَا عَلَّمَكُم﴾ ذكراً مثل ما علمكم من الشرائع وكيفية الصلاة حالتي الخوف والأمن أو شكراً يوازيه، وما مصدرية أو موصولة. ﴿مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ مفعول علمكم.

(٢٤٠) ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم﴾ قرأها بالنصب أبو عمرو وابن عامر وحمزة وحفص عن عاصم على تقدير والذين يتوفون منكم يوصون وصيةً، أو ليوصوا وصيةً، أو كَتَب اللهُ عليهم وصيةً، أو ألزم الذين يتوفون وصيةً. ويؤيد ذلك قراءة كُتِب عليكم الوصيةُ لأزواجكم متاعاً إلى الحول مكانه. وقرأ الباقون بالرفع على تقدير ووصيةُ الذين يتوفون، أو وحكمهم وصيةٌ، أو والذين يتوفون أهل وصيةٌ، أو كُتِبَ عليهم وصيةٌ، أو عليهم وصيةٌ وقرىء متاعٌ بَدَلَها. ﴿مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾ نَصْب بيوصون إنْ أضمرت وإلا فبالوصية وبمتاع على قراءة من قرأ لأنه بمعنى التمتيع. ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ بدل منه، أو مصدر مؤكد كقولك هذا القول غير ما تقول، أو حال من أزواجهم أي غير مُخْرِجات، والمعنى: أنه يجب على الذين يتوفون أن يوصوا قبل أن يحتضروا لأزواجهم بأن يمتعن بعدهم حولاً بالسكنى والنفقة، وكان ذلك في أول الإسلام ثم نسخت المدة بقوله ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ وهو وإن كان متقدماً في التلاوة فهو متأخر في النزول، وسقطت النفقة بتوريثها الربع أو الثمن، والسكنى لها بعدُ ثابتةٌ عندنا خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله. ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ عن منزل الأزواج. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الأئمة. ﴿فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ كالتطيب وترك الإحداد. ﴿مِن مَّعْرُوفٍ﴾ مما لم ينكره الشرع، وهذا يدل على أنه لم يكن يجب عليها ملازمة مسكن الزوج والحِداد عليه وإنما كانت مخيرة بين الملازمة وأخذ النفقة وبين الخروج وتركها. ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ ينتقم ممن خالفه منهم. ﴿حَكِيمٌ﴾ يراعي مصالحهم.

(٢٤١) ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أثبت المُتْعَة للمطلقات جميعاً بعدما أوجبها لواحدة منهن، وإفراد بعض العام بالحكم لا يخصصه إلا إذا جوّزنا تخصيص المنطوق بالمفهوم ولذلك أوجبها ابن جبير لكل مطلقة، وأول غيره بما يعم التمتيع الواجب والمستحب. وقال قوم المراد

---

(١) حال المسايفة أي حال التحام القتال.

(٢) عبر عن الصلاة بالذكر لأنه معظم أركانها (أبو السعود ١/ ٢٣٦).

(٣) هو سعيد بن جبير بن هشام، الإمام العَلَم أبو عبدالله الأسَديُّ الوالبيُّ مولاهم الكوفي قرأ على ابن عباس، وقرأ عليه أبو عمرو، والمنهال بن عمرو، وقال ابن عباس لأهل الكوفة: تسألوني وفيكم سعيد بن جُبير: وكان سعيد =

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾

بالمَتاع نفقة العدة، ويجوز أن تكون اللام للعهد والتكرير للتأكيد أو لتكرر القضية.

(٢٤٢) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق من أحكام الطلاق والعدة. ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ وعد بأنه سيبين لعباده من الدلائل والأحكام ما يحتاجون إليه معاشاً ومعاداً. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لعلكم تفهمونها فتستعملون العقل فيها.

(٢٤٣) ﴿۞ أَلَمْ تَرَ﴾ تعجيب وتقرير لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأرباب التواريخ، وقد يخاطب به من لم يرَ ومن لم يسمع فإنه صار مَثَلاً في التعجب. ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ يريد أهل داوردان قرية قبل واسط وقع فيها طاعون فخرجوا هاربين، فأماتهم الله ثم أحياهم ليعتبروا ويتيقنوا أن لا مفر من قضاء الله تعالى وقدره. أو قوماً من بني إسرائيل دعاهم مَلِكُهم إلى الجهاد ففروا حذر الموت فأماتهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم[1]. ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ أي ألوف كثيرة. قيل عشرة. وقيل ثلاثون. وقيل سبعون وقيل متألفون جمع إلْف أو آلِف كقاعد وقعود والواو للحال. ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ مفعول له. ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟﴾ أي قال لهم موتوا فماتوا كقوله ﴿كُن فَيَكُونُ﴾[2] والمعنى أنهم ماتوا ميتة رجل واحد من غير علة بأمر الله تعالى ومشيئته. وقيل ناداهم به مَلَك، وإنما أُسنِد إلى الله تعالى تخويفاً وتهويلاً. ﴿ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ قيل مر حزقيل عليه السلام على أهل داوردان[3] وقد عَرِيَت عظامهم وتفرقت أوصالهم، فتعجب من ذلك، فأوحى الله تعالى إليه نادِ فيهم أن قوموا بإذن الله تعالى، فنادى فقاموا يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت. وفائدة القصة تشجيعُ المسلمين على الجهاد والتعرض للشهادة وحثُّهم على التوكل والاستسلام للقضاء. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ حيث أحياهم ليعتبروا ويفوزوا وقص عليهم حالهم ليستبصروا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي لا يشكرونه كما ينبغي، ويجوز أن يُراد بالشكر الاعتبار والاستبصار.

(٢٤٤) ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لمّا بيّن أن الفرار من الموت غير مُخَلِّص منه وأن المقدر لا محالة واقع أمرهم بالقتال إذ لو جاء أجلهم في سبيل الله وإلا فالنصر والثواب. ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يقوله المتخلف والسابق. ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يضمرانه وهو من وراء الجزاء.

= من سادة التابعين علماً وفضلاً، وصدقاً وعبادة. واستُشهد بواسط في شعبان، سنة خمس وتسعين. [معرفة القراء للذهبي (١/ ٦٨ ـ ٦٩ رقم ٢٥) وسير أعلام النبلاء (٤/ ٣٢١ ـ ٣٤٢)].

(١) تعدية الرؤية بإلى في قوله «إلى الذين خرجوا» على تقدير كونها بمعنى الإبصار باعتبار معنى النظر، وعلى تقدير كونها إدراكاً قلبياً لتضمين معنى الوصول والانتهاء على معنى ألم ينته علمك إليهم (أبو السعود ١/ ٢٣٧).

(٢) الأنعام: «٧٣».

(٣) داوردان: قرية قبل واسط، وهي من نواحي شرق واسط، وبينهما فرسخ. انظر معجم البلدان (٢/ ٤٣٤).

﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا
نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا
نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا
مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾

(٢٤٥) ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾ من استفهامية مرفوعة الموضع بالابتداء، وذا خبره، والذي صفة ذا أو بدله، وإقراض الله سبحانه وتعالى مَثَل لتقديم العمل الذي به يطلب ثوابه. ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ إقراضاً حسناً مقروناً بالإخلاص وطيب النفس أو مقرضاً حلالاً طيباً. وقيل: القرض الحسن بالمجاهدة والإنفاق في سبيل الله ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ فيضاعف جزاءه، أخرجه على صورة المغالبة للمبالغة، وقرأ عاصم بالنصب على جواب الاستفهام حملاً على المعنى، فإن من ذا الذي يقرض الله في معنى أيقرض الله أحد. وقرأ ابن كثير فيُضَعِّفه بالرفع والتشديد وابن عامر ويعقوب بالنصب. ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ كثرة لا يقدرها إلا الله سبحانه وتعالى. وقيل الواحد بسبعمائة، وأضعافاً جمع ضعف ونصبه على الحال من الضمير المنصوب، أو المفعول الثاني لتضمن المضاعفة معنى التصيير أو المصدر على أن الضعف اسم مصدر وجمعه للتنويع. ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ يقتِر على بعض ويوسع على بعض حسب ما اقتضت حكمته، فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم كيلا يبدل حالكم. وقرأ نافع والكسائي والبزي وأبو بكر بالصاد ومثله في الأعراف في قوله تعالى ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾[1] ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على حسب ما قدمتم.

(٢٤٦) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الملأ جماعة يجتمعون للتشاور، ولا واحد له كالقوم ومِنْ للتبعيض. ﴿مِن بَعْدِ مُوسَى﴾ أي من بعد وفاته ومن للابتداء. ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ﴾ هو يوشع، أو شمعون، أو شمويل عليهم السلام. ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أقم لنا أميراً ننهضْ معه للقتال يدبر أمره ونَصْدُر فيه عن رأيه، وجزْمُ نقاتل على الجواب. وقرىء بالرفع على أنه حال أي ابعثه لنا مقدِّرين القتال، ويقاتل بالياء مجزوماً ومرفوعاً على الجواب والوصف لملِكاً. ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ فصَل بين عسى وخبره بالشرط، والمعنى أتوقع جُبنكم عن القتال إن كتب عليكم، فأدخَل هلْ على فعل التوقُّع مستفهماً عما هو المتوقع عنده تقريراً وتثبيتاً. وقرأ نافع عَسِيتُم بكسر السين. ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ أي أي غرض لنا في ترك القتال وقد عرض لنا ما يوجبه ويحث عليه من الإخراج عن الأوطان والإفراد عن الأولاد، وذلك أن جالوت ومن معه من العمالقة كانوا يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين، فظهروا على بني إسرائيل فأخذوا ديارهم وسبوْا أولادهم وأسروا من أبناء الملوك أربعمائة وأربعين. ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ ثلاثمائة وثلاثة عشر بعدد أهل بدر ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾

(١) الأعراف: «٦٩».

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ
أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى
ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ
ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ
مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

وعيد لهم على ظلمهم في ترك الجهاد.

(٢٤٧) ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ﴾ طالوت عَلَم عِبْرِيّ كدواد وجَعْله فَعْلُوتًا من الطول تعسف يدفعه منع صرفه، روي أن نبيهم ﷺ لما دعا الله أن يَمْلُكَهم أتى بعصا يُقَاسُ بها من يُمَلَّكُ عليهم فلم يساوِها إلا طالوت ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ من أين يكون له ذلك ويستأهل. ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ﴾ والحال أنا أحق بالملك منه وراثة ومَكِنة وإنه فقير لا مال له يعتضد به، وإنما قالوا ذلك لأن طالوت كان فقيراً راعياً أو سقّاء أو دباغاً من أولاد بنيامين ولم تكن فيهم النبوة والملك، وإنما كانت النبوة في أولاد لاوي بن يعقوب والمُلْك في أولاد يهوذا وكان فيهم من السبطيْن خلق. ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ لما استبعدوا تملكه لفقره وسقوط نسبه رد عليهم ذلك، أولاً بأن العمدة فيه اصطفاه الله سبحانه وتعالى وقد اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم، وثانياً بأن الشرط فيه وُفُور العلم ليتمكن به من معرفة الأمور السياسية، وجسامة البدن ليكون أعظم خطراً في القلوب وأقوى على مقاومة العدو ومكابدة الحروب لا ما ذكرتم وقد زاده الله فيهما وكان الرجل القائم يمد يده فينال رأسه، وثالثاً بأن الله تعالى مالك الملك على الإطلاق فله أن يؤتيه من يشاء، ورابعاً أنه واسع الفضل يوسع على الفقير ويغنيه عليم بمن يليق بالملك من النسيب وغيره.

(٢٤٨) ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ لما طلبوا منه حُجة على أنه سبحانه وتعالى اصطفى طالوت وملّكه عليهم. ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ الصندوق فَعْلُوت من التَّوْب، وهو الرجوع فإنه لا يزال يرجع إلى ما يخرج منه، وليس بفاعُول لقلّة نحو سَلِسَ وقَلِقَ، ومن قرأه بالهاء فلعله أبْدلَه منه كما أبدل من تاء التأنيث لاشتراكهما في الهمس والزيادة، ويريد به صندوق التوراة وكان من خشب الشمشاد مموهاً بالذهب نحواً من ثلاثة أذرع في ذراعين[1]. ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الضمير

---

(١) قوله عن التابوت (أنه كان من خشب الشمشاد مموهاً بالذهب...) هو من الإسرائيليات والإسرائيليات هي ما كان وارداً من العلم عن طريق بني إسرائيل سواء كان في كتبهم «التوراة والإنجيل» أو عن علمائهم.
والقرآن الكريم لم يبين في سياق القصص إلا ما تتم الحاجة إليه ويتعلق بغرض القصة. فهو يهمل التفصيلات التي لا فائدة في ذكرها في السياق.
وعليه فما ورد من تفصيلات عن الأسماء، وعن تعيين التابوت وطوله وشكل خشبه، وسفينة نوح وكيفيتها وأين استقرت... كل ذلك من الإسرائيليات التي أعرض القرآن عن تفصيلها. =

للإتيان أي في إتيانه سكون لكم وطمأنينة، أو للتابوت أي مودع فيه ما تسكُنون إليه وهو التوراة. وكان موسى عليه الصلاة والسلام إذا قاتل قدِمَه فتسكن نفوس بني إسرائيل ولا يفِرون. وقيل صورة كانت فيه من زبرجد أو ياقوت لها رأس وذنب كرأس الهرة وذنبها وجناحان فتئنّ فَيَزِفُّ التابوت نحوَ العدو وهم يتبعونه فإذا استقر ثبتوا وسكنوا ونزل النصر. وقيل صورة الأنبياء من آدم إلى محمد عليهم الصلاة والسلام. وقيل التابوت هو القلب والسكينة ما فيه من العلم والإخلاص وإتيانه مصير قلبه مقراً للعلم والوقار بعد أن لم يكن. ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ﴾ رُضاض الألواح[1] وعصا موسى وثيابه وعمامة هرون، وآلهما أبناؤهما أو أنفسهما. والآل مقحم لتفخيم شأنهما، أو أنبياء بني إسرائيل لأنهم أبناء عمهما. ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ قيل رفعه الله بعد موسى فنزلت به الملائكة وهم ينظرون إليه. وقيل كان بعده مع أنبيائهم يستفتحون به حتى أفسدوا فغلبهم الكفار عليه، وكان في أرض جالوت إلى أن ملّك الله طالوت فأصابهم بلاء حتى هلكت خمس مدائن فتشاءموا بالتابوت فوضعوه على ثورين فساقتهما الملائكة إلى طالوت. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يحتمل أن يكون من تمام كلام النبي عليه الصلاة والسلام وأن يكون ابتداء خطاب من الله سبحانه وتعالى.

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾

(٢٤٩) ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ﴾ انفصل بهم عن بلده لقتال العمالقة، وأصله فَصَل نفسَه عنه ولكن لما كثر حذف مفعوله صار كاللازم. روي: أنه قال لهم لا يخرج معي إلا الشاب النشيط الفارغ، فاجتمع إليه ممن اختاره ثمانون ألفاً، وكان الوقت قيظاً فسلكوا مفازة[2] وسألوا أن يُجري الله لهم نهراً. ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ مُعامُلكم معاملةَ المختبِر بما اقترحتموه. ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ

= ونحن لا يمكننا تصديق ولا تكذيب ما ورد من ذلك، إلا ما كان مخالفاً لصريح القرآن الكريم والسنة المطهرة (وانظر لبيان الإسرائيليات في التفسير الذهبي في التفسير والمفسرون ١/ ١٦٥) والبيضاوي يتعرض للإسرائيليات إلا أنه كثيراً ما يصدرها بلفظ قيل وروي الذي يدل على عدم الجزم به.

(١) رُضاضُ الألواح أي فتاتُها.

(٢) المفازة هي الموضع المُهْلك، مأخوذ من فَوّز بتشديد الواو ـ إذا مات ـ. وسميت مفازة لأنها مظنة الموت (المصباح المنير، مادة فوز).

﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾ فليس من أشياعي، أو ليس بمُتَّحِد معي. ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ أي من لم يذقه من طَعِم الشيء إذا ذاقه مأكولاً أو مشروباً، قال الشاعر: وَإِن شِئْتُ لَمْ أُطعَم نقاخاً(١) وَلاَ بَرْدا. وإنما علم ذلك بالوحي إن كان نبياً كما قيل، أو بإخبار النبي عليه الصلاة والسلام. ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ استثناء من قوله فمن شرب منه، وإنما قُدِّمت عليه الجملة الثانية للعناية بها كما قُدِّم والصائبون على الخبر في قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾(٢) والمعنى الرخصة في القليل دون الكثير، وقرأ ابن عامر والكوفيون غُرفة بضم الغين. ﴿فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ أي فكَرعوا فيه إذ الأصل في الشرب منه أن لا يكون بوسط، وتعميم الأول ليتصل الاستثناء، أو أفرطوا في الشرب منه إلا قليلاً منهم. وقرىء بالرفع حملاً على المعنى فإن قوله فشربوا منه في معنى فلم يطيعوه والقليل كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً. وقيل ثلاثة آلاف. وقيل: ألفاً، روي أن من اقتصر على الغَرفة كفته لشربه وإداوته(٣)، ومن لم يقتصر غلب عليه واسودت شفته ولم يقدر أن يمضي وهكذا الدنيا لقاصد الآخرة. ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ أي القليل الذين لم يخالفوه. ﴿قَالُواْ﴾ أي بعضهم لبعض. ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ لكثرتهم وقوتهم. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ أي قال الخُلَّص منهم الذين تيقنوا لقاء الله وتوقعوا ثوابه، أو علموا أنهم يستشهدون عما قريب فيلقون الله تعالى. وقيل: هم القليل الذين ثبتوا معه، والضمير في قالوا للكثير المنخذلين عنه اعتذاراً في التخلف وتخذيلاً للقليل، وكأنهم تقاولوا به والنهر بينهما. ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بحكمه وتيسيره، وكم تحتمل الخبر والاستفهام، ومِنْ مبيِّنة أو مزيدة. والفئة الفرقة من الناس مِنْ فَأَوْتُ رأسه إذا شققته، أو من فاء رجع فوزنُها فَعَة أو فَلَة(٤). ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ﴿٢٤٩﴾. بالنصر والإثابة(٥).

(٢٥٠) ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ أي ظهروا لهم ودنوا منهم. ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(٦) التجؤوا إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء، وفيه

---

(١) النقاخ هو الماء العذب الذي ينقخ الفؤاد ببرده.

(٢) البقرة: «٦٢».

(٣) الإداوة هي وعاء الماء للتطهير.

(٤) روعي في الجواب نكتة بديعة، حيث لم يقل أطاقت بفئة كثيرة ـ حسبما وقع في كلام أصحابهم ـ وهو مبالغة في رد مقالتهم وتسكين قلوبهم. وهو جواب ناشىء من ثقتهم بنصر الله وتأييده، ولا دخل في ذلك لظن لقاء الله تعالى... ولا ريب في أن ما ذكر في حيز الصلة ينبغي أن يكون مداراً للحكم الوارد على الموصول، فلا أقل من أن يكون وصفاً ملائماً له، فلعل المراد بلقائه تعالى لقاء نصره وتأييده، عبر عنه بذلك مبالغة (أبو السعود ١/ ٢٤٣).

(٥) وقال أبو السعود: (فإن المراد بالمعية معية نصره وتوفيقه حتماً، وحملها على المعية بالإثابة يأباه أنهم إنما قالوه تتميماً لجوابهم وتأييداً له بطريق الاعتراض التذييلي تشجيعاً لأصحابهم وتثبيتاً لهم على الصبر المؤدي إلى الغلبة. ولا تعلق له بما ذكر من المعية بالإثابة قطعا) أبو السعود ١/ ٢٤٣.

(٦) «قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً» في التوسل بوصف الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى الكمال وإيثار الإفراغ المعرب عن الكثرة وتنكير الصبر المفصح عن التفخيم من الجزالة مالا يخفى.

«وانصرنا على القوم الكافرين» وضع الكافرين في موضع الضمير العائد إلى جالوت وجنوده للإشعار بعلة النصر =

فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا
يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ
عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾
۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ
ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ
وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾

ترتيب بليغ إذ سألوا أولاً إفراغ الصبر في قلوبهم الذي هو ملاك الأمر، ثم ثبات القَدَم في مداحض الحرب المسبَّب عنه، ثم النصر على العدو المترتب عليهما غالباً.

(٢٥١) ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فكسروهم بنصره، أو مصاحبين لنصره إياهم إجابة لدعائهم. ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ قيل: كان إيشا في عسكر طالوت معه ستة من بنيه، وكان داود سابعهم وكان صغيراً يرعى الغنم، فأوحى الله إلى نبيهم أنه الذي يقتل جالوت فطلبه من أبيه فجاء وقد كلمه في الطريق ثلاثة أحجار وقالت له: إنك بنا تقتل جالوت، فحملها في مخلاته ورماه بها فقتله ثم زوجه طالوتُ بنته. ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ أي ملك بني إسرائيل ولم يجتمعوا قبل داود على مَلِك. ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي النبوة. ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ كالسَّرد وكلام الدواب والطير. ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ولولا أنه سبحانه وتعالى يدفع بعض الناس ببعض وينصر المسلمين على الكفار ويكف بهم فسادهم لغلبوا وأفسدوا في الأرض، أو لفسدت الأرض بشؤمهم. وقرأ نافع هنا وفي الحجّ دِفاعُ الله.

(٢٥٢) ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى ما قص من حديث الألوف وتمليك طالوت وإتيان التابوت وانهزام الجبابرة وقتلِ داودُ جالوتَ ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ بالوجه المطابق الذي لا يشك فيه أهل الكتاب وأرباب التواريخ. ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لما اخترت بها من غير تعرف واستماع.

(٢٥٣) ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾ إشارة إلى الجماعة المذكورة قصصها في السورة، أو المعلومة للرسول ﷺ، أو جماعة الرسل. واللام للاستغراق. ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بأن خصصناه بمَنْقَبة ليست لغيره. ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ تفضيل له، وهو موسى عليه الصلاة والسلام. وقيل: موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، كلم الله موسى ليلةَ الحيرة وفي الطور، ومحمداً عليه الصلاة والسلام ليلة المعراج حين كان قاب قوسين أو أدنى وبينهما بوْن بعيد، وقرىء كلَّمَ اللهَ وكَالَمَ اللهَ بالنصب، فإنه كلمَ اللهَ كما أن اللهَ كلمهُ ولذلك قيل كليم الله بمعنى مكالِمُهُ[1]. ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾[2] بأن فضله على غيره من وجوه متعددة أو بمراتب متباعدة، وهو محمد ﷺ فإنه خصه بالدعوة العامة والحُجج

= عليهم (أبو السعود ١/ ٢٤٤).

(١) إيراد الاسم الجليل «الله» بطريق الالتفات لتربية المهابة (أبو السعود ٢٤٦/١).

(٢) غير الأسلوب عن سابقه لتربية ما بينهم من اختلاف الحال في درجات الشرف (أبو السعود ١/ ٢٤٦).

المتكاثِرة والمعجزات المستمرة والآيات المتعاقبة بتعاقب الدهر والفضائل العلمية والعملية الفائتة للحصر. والإبهامُ لتفخيم شأنه كأنه العَلَم المتعيَّن لهذا الوصف المستغني عن التعيين. وقيل: إبراهيم عليه السلام خصصه بالخُلَّة التي هي أعلى المراتب. وقيل: إدريس عليه السلام لقوله تعالى ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[(١)] . وقيل: أولو العزم من الرسل. ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ خصَّه بالتعيين لإفراط اليهود والنصارى في تحقيره وتعظيمه، وجَعَل معجزاتِه سببَ تفضيله لأنها آياتٌ واضحة ومعجزات عظيمة لم يستجمعها غيره. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي هدى الناس جميعاً. ﴿مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾ من بعد الرسل. ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي المعجزات الواضحة لاختلافهم في الدين وتضليل بعضهم بعضاً. ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ﴾ بتوفيقه التزام دين الأنبياء تفضلاً. ﴿وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ لإعراضه عنه بخُذلانه. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ كرره للتأكيد. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ فيوفق من يشاء فضلاً ويخذل من يشاء عدلاً. والآية دليل على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام متفاوتةُ الأقدام، وأنه يجوز تفضيل بعضهم على بعض، ولكن بقاطع[(٢)] لأن اعتبار الظن فيما يتعلق بالعمل وأن الحوادث بيد الله سبحانه وتعالى تابعة لمشيئته خيراً كان أو شراً إيماناً أو كفراً.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

(٢٥٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ ما أوجبتُ عليكم إنفاقه. ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ من قبل أن يأتي يوم لا تقدرون فيه على تدارك ما فرَّطتم والخلاص من عذابه إذ لا بيع فيه فتحصلون ما تنفقونه، أو تفتدون به من العذاب، ولا خُلَّة حتى يُعينكم عليه أخِلاَّؤكم أو يسامحوكم به .ولا شفاعة ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾[(٣)] حتى تتكلوا على شفعاء تشفع لكم في حطِّ ما في ذِممكم، وإنما رفعت ثلاثتُها مع قصد التعميم لأنها في التقدير جواب: هل فيه بيع، أو خلة، أو شفاعة؟ وقد فتحها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب على الأصل. ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يريد والتاركون للزكاة هم الظالمون الذين ظلموا أنفسهم، أو وضعوا المال في غير موضعه وصرفوه على غير وجهه، فوُضِع الكافرون موضعَه تغليظاً لهم وتهديداً كقوله ﴿وَمَن كَفَرَ﴾[(٤)] مكان ومن لم يَحُجّ وإيذاناً بأن ترك الزكاة من صفات الكفار لقوله تعالى ﴿ويل للمشركين الذين لا يؤتون

(١) مريم: «٥٧».
(٢) أي بدليل قاطع لا ظنّ فيه.
(٣) طه: «١٠٩».
(٤) آل عمران: «٩٧».

الزكاة﴾[١].

(٢٥٥) ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ مبتدأ وخبر، والمعنى أنه المستحق للعبادة لا غيره. وللنحاة خلاف في أنه هل يُضمَر للأخير مَثَلٌ في الوجود أو يَصِح أن يوجد[٢]. ﴿ ٱلْحَىُّ ﴾ الذي يصح أن يَعْلَمَ ويَقْدِر، وكلُّ ما يصح له فهو واجبٌ لا يزول لامتناعه عن القوة والإمكان. ﴿ ٱلْقَيُّومُ ﴾ الدائم القيام بتدبير الخلق وحِفْظِه، فَيعُولُ مِنْ قَامَ بالأمر إذا حفظه، وقرىء القَيَّام والقَيِّم. ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ السِّنَة فتورٌ يتقدم النوم قال ابن الرقاع:

وسْنَانُ أَقْصَدَهُ النُّعَاسُ فَرَنَّقَتْ فِي عَيْنِهِ سِنَةٌ وَلَيْسَ بِنَائِمِ

والنومُ حال تَعْرِض للحيوان من استرخاءِ أعصاب الدماغ من رطوبات الأبخرة المتصاعدة، بحيث تقف الحواس الظاهرة عن الإحساس رأساً. وتقديم السِّنَةِ عليه ـ وقياسُ المبالغةِ عَكْسُهُ ـ على ترتيب الوجود[٣]. والجملةُ نفي للتشبيه وتأكيد لكونه حياً قيوماً، فإن من أَخَذَه نعاس أو نوم كان مؤفَ[٤] الحياة قاصراً في الحفظ والتدبير، ولذلك ترك العاطف فيه وفي الجمل التي بعده[٥]. ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ تقرير لقيوميَّته واحتجاجٌ به على تفرده في الألوهية، والمرادُ بما فيهما ما وُجد فيهما داخلاً في حقيقتهما أو خارجاً عنهما متمكناً فيهما فهو أبلغ من قوله: له السمواتُ والأرض وما فيهن. ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ بيان لكبرياء شأنه سبحانه وتعالى، وأنه لا أحد يساويه أو يُدانيه يستقلّ بأن يَدْفع ما يريده شفاعةً واستكانةً فضلاً عن أن يُعَاوقَه عناداً أو مناصبة أيْ مخاصمة. ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ ما قبلهم وما بعدهم، أو بالعكس لأنك مستقبلُ المستقبل ومستدبرُ الماضي، أو أمورَ الدنيا وأمورَ الآخرة، أو عكسَه، أو ما يحسُّونه وما يعقلونه، أو ما يدركونه وما لا يدركونه. والضمير لما في السموات والأرض، لأن فيهما العقلاء، أو لما دل عليه مَنْ ذا مِنَ الملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ ﴾ من معلوماته. ﴿ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ أن يَعْلموه، وعَطْفُه على ما قبله لأن مجموعَهما يدل على تفرده بالعِلْم الذاتي التام الدالّ على وحدانيته سبحانه وتعالى. ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ تصوير لعظمته وتمثيل مجرد كقوله تعالى ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ

---

(١) فصلت: «٧٦».

(٢) أي الخلاف في إضمار خبر «لا».

(٣) قوله: (وتقديم السِّنَة عليه ـ وقياس المبالغة عكسه ـ...) أي أنه في صورة الإثبات إذا أريد المبالغة يُقدم الأضعف فتقول: شجاع باسل، وفي صورة النفي بعكس ذلك فَيُقدم الأقوى فتقول: ليس بباسل بل ليس بشجاع، والمقام هنا مقام نفي.
إلا أن تقديم السِّنة على النوم يفيد المبالغة، من حيث إن نفي السِّنَة يدل على نفي النوم فنفيه ثانياً صريحاً يفيد المبالغة (حاشية الكازروني على تفسير البيضاوي ١/ ٢٥٧).

(٤) قوله (مؤف الحياة) أي أصابته آفة الحياة.

(٥) وتوسيط كلمة «لا» بين السِّنة والنوم للتنصيص على شمول النفي لكل منهما، كما في قوله تعالى: «ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة».
وفي التعبير عن عدم اعتراء النوم بعدم الأخذ لمراعاة الواقع، لأن عروض السنة والنوم إنما يكون بطريق الأخذ والاستيلاء (أبو السعود ١/ ٢٤٨).

﴿جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِۦ﴾[١] ولا كرسي في الحقيقة، ولا قاعد[٢]. وقيل كرسيه مجاز عن عِلْمه أو مُلْكه، مأخوذ من كرسي العالم والمَلِك. وقيل جسم بين يدي العرش ولذلك سمي كرسياً محيط بالسموات السبع، لقوله عليه الصلاة والسلام «ما السموات السبع والأرضون السبع من الكرسي، إلا كحَلْقة في فلاةٍ، وفضْلُ العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة»[٣] ولعله الفَلَكُ المشهور بفَلَك البروج، وهو في الأصل اسم لما يقعد عليه

---

(١) الزمر: «٦٧».

(٢) قدم البيضاوي القول بأن المراد بالكرسي تصوير لعظمته وتمثيل مجرد، وهو يدل على اختياره له، وتصدير بقية الأقوال بلفظ قيل الدال على ضعفها. وهو يفيد نفي حقيقة الكرسي. والذي حملهم على ذلك هو أن الكرسي في أصل اللغة اسم لما يُقعد عليه ولا يفضل عن مقعد القاعد، ووصفه تعالى بذلك يفيد المشابهة بالمخلوقات. ونفي الكرسي قاله الزمخشري في الكشاف ١/ ١٥٣ وتبعه البيضاوي وأبو السعود ١/ ٢٤٨.
والواقع أنه لا داعي لذلك، وإلا يلزم منه نفي كثير من الصفات، قال الألوسي:
(وأنت تعلم أن ذلك وأمثاله ليس بالداعي القوي لنفي الكرسي بالكلية، فالحق أنه ثابت كما نطقت به الأخبار الصحيحة. وتوهُّمُ التجسيم لا يُعبأ به، وإلا للزم نفي الكثير من الصفات، وهو بمعزل عن اتباع الشارع والتسليم له. وأكثر السلف الصالح جعلوا ذلك من المتشابه.. وفوضوا علمه إلى الله تعالى مع القول بغاية التنزيه والتقديس له تعالى شأنه) روح المعاني ٣/ ١٠.
وعليه فيكون معنى الكرسي أنه الجسم الذي وردت الآثار بوصفه وهو محيط بالسموات والأرض (انظر فتح القدير للشوكاني ١/ ٢٧٢، وروح المعاني للألوسي ٣/ ٩.
ويمكن أن يراد به العلم، كما ذهب إليه بعض السلف (فتح القدير ١/ ٢٧٢) وقد رجح هذا القول ابن جرير الطبري.
والله أعلم بذلك.

(٣) أخرجه ابن مردويه ـ كما في تفسير ابن كثير (١/ ٣١٧) ـ من طريق محمد بن أبي السري، أخبرنا محمد بن عبدالله التميمي، عن القاسم بن محمد الثقفي، عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر الغفاري.
ـ وفيه ابن السري، قال عنه ابنُ حجر في التقريب (٢/ ٢٠٤): صدوق كثير الغلط.
ـ ومحمد بن عبدالله التميمي: لم أجد ترجمته.
ـ والقاسم بنْ محمد الثقفي: مجهول.
وللحديث طرق أخرى:
(منها): ما أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» رقم (٢٥٩) وابن حبان (ص٥٣ رقم ٩٤ ـ موارد) و(ص٥٠٨ رقم ٢٠٧٩ ـ موارد) والبيهقي في الأسماء والصفات ص٤٠٥، من طريق إبراهيم بنِ هشامِ بن يحيى الغساني عن أبيه عن جده عن أبي إدريس الخولاني عنه.
ـ وفيه: إبراهيم قال عنه أبو حاتم في الجرح والتعديل (٢/ ١٤٣): كذاب.
(ومنها):
ما أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» رقم (٢٠٦) والبيهقي في الأسماء والصفات ص٤٠٤ من طريق يحيى بن سعيد السعدي، عن ابن جُريج، عن عطاء، عن عبيد بن عمير الليثي عنه.
ـ وفيه: يحيى السعيدي. قال عنه العقيلي في الضعفاء (٤/ ٤٠٤): لا يتابع على حديثه.
وقال ابن حبان في المجروحين (٣/ ١٢٩): يروي المقلوبات والمُلْزَقات لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد.
(ومنها): =

ولا يفضل عن مقعد القاعد، وكأنه منسوب إلى الكرسي وهو المِلْبد. ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ أي ولا يثقله، مأخوذ من الأَوَد وهو الاعوجاج. ﴿حِفْظُهُمَا﴾ أي حِفظُه السمواتِ والأرضَ، فَحَذَفَ الفاعل وأضاف المصدر إلى المفعول. ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ المتعالي عن الأنداد والأشباه. ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ المُستَحْقَرُ بالإضافة إليه كُلُّ ما سواه.

وهذه الآية مشتمِلة على أمهات المسائل الإلهية، فإنها دالة على أنه تعالى موجود واحد في الألوهية، متصفٌ بالحياة، واجبُ الوجود لذاته موجِد لغيره، إذ القيوم هو القائم بنفسه المُقِيم لغيره، منزّه عن التحيُّز والحلول، مبرأ عن التغير والفتور، لا يُنَاسِبُ الأشباح ولا يعتريه ما يعتري الأرواح، مالك المُلْك والملَكوت، ومبدع الأصول والفروع، ذو البطش الشديد، الذي لا يشفع عنده إلا من أَذِن له عالمُ الأشياء كلّها جليِّها وخفيها كُلِّيِّهَا وجزئيها، واسع الملك والقدرة كلَّ ما يَصح أن يَمْلِكَ ويَقْدِر عليه، لا يؤده شاق، ولا يشغله شأن، متعالٍ عما يدركه، وهو عظيم لا يحيط به فهم، ولذلك قالَ عليه الصلاة والسلام «إن أعظم آية في القرآن آية الكرسي، من قرأها بعث الله ملكاً يكتب من حسناته، ويمحو من سيئاته إلى الغد من تلك الساعة»[1]. وقال «من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة

= ما أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» رقم (٢٢٠) من طريق أصبغ بن الفرج عنه. وكذا أورده الذهبي في «العلو» ص٩١ وقال: هذا مرسل وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف.

(ومنها):

ما أخرجه محمد بن أبي شيبة في كتاب العرش (١/١١٤) ـ كما في الصحيحة (١/١٧٤) ـ وفي إسناده: «إسماعيلُ بن مسلم المكيُّ» وهو ضعيف.

والخلاصة أن الحديث حسن لغيره والله أعلم.

● قال الألباني في «الصحيحة» (١/١٧٦): والحديث خَرَجَ مَخْرجَ التفسير لقوله تعالى: «وسع كرسيه السموات والأرض» وهو صريح في كون الكرسي أعظم المخلوقات بعد العرش، وأنه جِرْم قائمٌ بنفسه وليس شيئاً معنوياً. ففيه رد على من يتأوله بمعنى المُلك وسعة السلطان، كما جاء في بعض التفاسير. ما روى عن ابن عباس أنه العلم فلا يصح إسناده إليه لأنه من رواية جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جُبير عنه. رواه بن جرير. قال ابن منده: ابن أبي المغيرة ليس بالقوي في ابن جبير.

واعلم أنه لا يصح في صفة الكرسي غير هذا الحديث، كما في بعض الروايات أنه موضع القدمين، وأن له أطيطاً كأطيط الرَّحْلِ الجديد، وأنه يحمله أربعة أملاك، لكل ملك أربعة وجوه، وأقدامهم في الصخرة التي تحت الأرض السابعة... إلخ فهذا كله لا يصح مرفوعاً عن النبي ﷺ. وبعضه أشد ضعفاً من بعض، وقد خرَّجْتُ بعضها فيما علقناه على كتاب: «ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القويمة البرهان» مُلحقاً بآخره. ط: المكتب الإسلامي.

(١) أخرج هذه الجملة مسلم في صحيحه (١/٥٥٦ رقم ٢٥٨) ولفظه: قال رسول الله ﷺ يا أبا المنذر: أتدري أيُّ آيةٍ من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: «الله لا إله إلا هو الحيُّ القيوم» قال: فضرب صدري، وقال «ليهنِك العلمُ أبا المنذر» من حديث أبي بن كعب.

وأخرجه عبد بن حميد في «المنتخب» رقم (١٧٨) وأبو داود (٢/١٥١ رقم ١٤٦٠) وأحمد (٥/١٤١).

● وأخرج الطبراني في الكبير (١/٣٣٤ رقم ٩٩٩) من حديث الأسقع البكري، بلفظ: «سأله إنسانٌ: أيةُ آيةٍ في القرآن أعظم؟ فقال النبي ﷺ «الله لا إله إلا هو الحي القيوم» حتى انقضت الآية.

وأورده الهيثمي في «المجمع» (٦/٣٢١) وقال: فيه راوٍ لم يُسَمَّ ـ وهو مولىً للأسقع ـ وقد وُثق، وبقية رجاله =

مكتوبة، لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت، ولا يواظب عليها إلى صِدِّيق أو عابد، ومن قرأها إذا أخذ مضجعه آمَنَه الله على نفسه وجارِه وجارِ جاره والأبياتِ حوله»[(١)].

= ثقات.

وأخرج ابن مردويه ـ كما في تفسير ابن كثير (١/ ٣١٤ ـ ٣١٥) ـ ولفظه: «خرج عمر بن الخطاب ذات يوم إلى الناس وهم سُماطات ـ أي جماعات ـ فقال: أيكم يُخبرني بأعظم آية في القرآن؟ فقال ابن مسعود: على الخبير سقطت، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أعظمُ آيةٍ في القرآن: الله لا إله إلا هو الحي القيوم». وفي إسناده: عيسى بن موسى غنجار. قال الحاكم: تتبعت رواياته عن الثقات فوجدتها مستقيمة.

قلت: حديثه هذا مستقيم فإن له شاهداً في الصحيح.

● وأخرج أحمد (٥/١٧٨، ١٧٩) والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٨٢) كلاهما من طريق أبي عمرو الدمشقي، عن عبيد بن خشخاش، عنه.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي. قلت: أبو عمرو الشامي الدمشقي ضعيف (التقريب: ٢/ ٤٥٤).

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٢/٤٥٨ رقم ٢٣٩٥) من طريق أبي إسحاق عن حبة العرني، سمعت علي بن أبي طالب يقول، فذكره دون قوله: «لا يواظب عليها إلا صدِّيق أو عابد» وذكر ما بعده.

وفي إسناده: نهشل بن سعيد، وهو متروك ـ الميزان (٤/ ٢٧٥) ـ وكذلك «حبة العرني» ضعفه البخاري وابن معين والنسائي، وقال الحافظ: صدوق له أغلاط وكان غالياً في التشيع ـ الجرح والتعديل (٣/ ٢٥٣) ـ والمجروحين (١/ ٢٦٧) والتقريب (١/ ١٤٨).

● وأخرجه البيهقي في «الشعب» أيضاً (٢/٤٥٨ ـ ٤٥٩ رقم ٢٣٩٦) من حديث أنس بلفظ «من قرأ في دبر كل صلاة مكتوبة آية الكرسي حُفِظ إلى الصلاة، ولا يحافظ عليها إلا نبي، أو صدِّيق، أو شهيد» وإسناده ضعيف سالم الخياط ـ الميزان (٢/ ١١١ ـ ١١٢) ـ.

● وصدر الحديث أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة رقم (١٠٠) والطبراني في الكبير (٨/ ١٣٤ رقم ٧٥٣٢) وابن السني في عمل اليوم والليلة رقم (١٢٤) كلهم من طريق محمد بن حِمْيَر، عن محمد بن زياد الألهاني عن أبي أمامة.

قال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير والأوسط بأسانيد أحدها جيد.

والحديث أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٢٤٤) وتعقب عليه السيوطي في اللآلىء (١/ ٢٣٠) وابن عراق في تنزيه الشريعة (١/ ٢٨٧) ونقلاً عن الحافظ ابن حجر في تخريج المشكاة أنه قال: غفل ابن الجوزي فأورده في الموضوعات وهو من أسمج ما وقع له، وقد تابع أبا أمامة، علي بن أبي طالب، وعبدالله بن عمرو، والمغيرة بن شعبة، وجابر، وأنس. ثم قال: إذا انضمت هذه الأحاديث بعضها إلى بعض أخذت قوة.

● وله شاهد عن المغيرة بن شعبة عند أبي نعيم في الحلية (٣/ ٢٢١) من رواية محمد بن كعب القرظي عنه. وغفل ابن الجوزي فأخرجه في الموضوعات.

وقال الألباني في الصحيحة (رقم ٩٧٢): إسناده ثقات إلا عمر بن إبراهيم، قال العقيلي في الضعفاء (٣/ ٤٥): لا يتابع عليه.

والخلاصة أن الحديث صحيح لغيره والله أعلم.

لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

(٢٥٦) ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ إذ الإكراه في الحقيقة إلزامُ الغير فِعْلاً لا يرى فيه خيراً يَحْمِلُه عليه، ولكن ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ تميز الإيمانُ من الكفر بالآيات الواضحة، ودلت الدلائل على أن الإيمان رُشْدٌ يوصل إلى السعادة الأبدية، والكفرَ غيّ يؤدي إلى الشقاوة السرمدية، والعاقلُ متى تبيّن له ذلك بادرت نفسه إلى الإيمان طلباً للفوز بالسعادة والنجاة، ولم يَحْتَجْ إلى الإكراه والإلجاء. وقيل إخبار في معنى النهي، أي لا تُكْرِهُوا في الدين، وهو إما عام منسوخ بقوله ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾(١)، أو خاص بأهل الكتاب لما روي أن أنصارياً كان له ابنان تنصرا قبل المبعث، ثم قدما المدينة فلزمهما أبوهما وقال: والله لا أَدَعُكما حتى تُسلما فأبيا، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ فقال: الأنصاري يا رسول الله أيُدْخَلُ بعضِي النار وأنا أنظر إليه فنزلت فخلاهما(٢). ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ بالشيطان، أو الأصنام، أو كل ما عُبِد من دون الله، أو صَدّ عن عبادة الله تعالى. فَعَلُوت من الطغيان قُلِبت عينُه ولامه. ﴿وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ بالتوحيد وتصديق الرسل(٣). ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ طَلَب الإمساك عن نفسه بالعروة الوثقى من الحبل الوثيق، وهي مستعارة لمتمسك الحق من النظر الصحيح والرأي القويم. ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾ لا انقطاع لها يقال فصمْتُه فانفصم إذا كسرتُه. ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ بالأقوال ﴿عَلِيمٌ﴾ بالنيات، ولعله تهديد على النفاق.

(٢٥٧) ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ محبُّهم(٤)، أو متولي أمورهم، والمرادُ بهم مَنْ أراد إيمانَه وثبت في علمه أنه يؤمن. ﴿يُخۡرِجُهُم﴾ بهدايته وتوفيقه. ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ظلمات الجهل واتباع الهوى وقبول الوساوس والشبه المؤدية إلى الكفر. ﴿إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ إلى الهدى الموصل إلى الإيمان، والجملة خبر بعد خبر، أو حال من المستكنّ في الخبر، أو من الموصول، أو منهما، أو استئناف مبين، أو مقرر للولاية(٥). ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ أي الشياطين، أو المُضِلاَّتُ من الهوى والشيطان وغيرهما. ﴿يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ من النور الذي منحوه بالفطرة، إلى الكفر وفساد الاستعداد والانهماك في الشهوات، أو من نور البينات إلى ظلمات الشكوك

(١) التحريم: «٩».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ ١٤) وإسناده ضعيف. لضعف محمد بن حميد الرازي شيخ الطبري، وجهالة محمد بن أبي محمد، وعنعنة محمد بن إسحاق.

(٣) قدم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله تعالى لتوقفه عليه، فإن التخلية متقدمة على التحلية (أبو السعود ١/ ٢٥٠) أو مراعاة للترتيب الواقعي أو للاتصال بلفظ الغي (روح المعاني ٣/ ١٣).

(٤) المحبة غير الولاية وإن كان من ثمرات المحبة ولاية الله تعالى.

(٥) وإفراد النور لبيان وحدة الحق، أما جمع الظلمات فلبيان تعدد فنون الضلال (أبو السعود ١/ ٢٥٠).

والشبهات[١]. وقيل: نزلت في قوم ارتدوا عن الإسلام، وإسناد الإخراج إلى الطاغوت باعتبار التسبّب لا يأبى تعلقَ قدرته تعالى وإرادته بها. ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وعيد وتحذير، ولعل عدم مقابلته بوعد المؤمنين تعظيم لشأنهم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

(٢٥٨) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾[٢] تعجيبٌ من محاجّة نمروذ[٣] وحماقتِه. ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ لأن آتاه أي أبطره إيتاءُ المُلْك وحَمَلَه على المحاجة، أو حاجّ لأجله شكراً له على طريقة العكس كقولك عاديتني لأني أحسنت إليك، أو وقت أن آتاه الله الملْك وهو حجة على من منع إيتاءَ الله المُلْك الكافرَ من المعتزلة. ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ ظرف لحاجّ، أو بدل من أن آتاه الله الملك على الوجه الثاني. ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ بخلق الحياة والموت في الأجساد. وقرأ حمزة ربِّ بحذف الياء. ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ بالعفو عن القتل وبالقتل. وقرأ نافع أنا بلا ألف. ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ أعرض إبراهيم عليه الصلاة والسلام عن الاعتراض على معارضته الفاسدة إلى الاحتجاج بما لا يقْدر فيه على نحو هذا التمويه دفعاً للمشاغبة، وهو في الحقيقة عدول عن مثالٍ خَفِيٍّ إلى مثال جليّ من مقدوراته التي يعجِز عن الإتيان بها غيره، لا عن حجة إلى أخرى. ولعل نمروذ زعم أنه يقدر أن يفعل كل جنس يفعله الله فنقضه إبراهيم بذلك، وإنما حَمَله عليه

---

(١) ولعل تغيير النظم في قوله «والذين كفروا...» للاحتراز عن وضع الطاغوت في مقابلة الاسم الجليل، ولقصد المبالغة بتكرير الإسناد مع الإيماء إلى التباين بين الفريقين من كل وجه حتى من جهة التعبير أيضاً (أبو السعود ٢٥١/١).

(٢) هذه الآية استشهاد على ما ذكر من أن الكفرة أولياؤهم الطاغوت وتقرير له على طريقة قوله تعالى: «ألم تر أنهم في كل واد يهيمون» ـ «الشعراء: ٢٢٥» ـ كما أن ما بعده استشهاد على ولايته تعالى للمؤمنين وتقرير لها.
وقد بدىء بهذا لرعاية الاقتران بينه وبين مدلوله، ولاستقلاله بأمر عجيب حقيق بأن يصدر به المقال وهو اجتراؤه على المحاجة في الله عز وجل وما أتى بها في أثنائها من العظيمة المنادية بكمال حماقته.. (أبو السعود ٢٥١/١).

(٣) نمروذ هو ملك بابل، وروي أنه ملك الدنيا مشارقها ومغاربها (ابن كثير ٢٩٦/١).

بَطَرُ المُلْك وحماقَتُه أو اعتقاد الحلول. وقيل لما كسر إبراهيم عليه الصلاة والسلام الأصنام سجنه أياماً ثم أخرجه ليحرقه، فقال له من ربك الذي تدعو إليه وحاجّه فيه. ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ فصار مبهوتاً. وقرىء فَبَهَتَ أي فغلب إبراهيمُ الكافرَ(١). ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالامتناع عن قبول الهداية. وقيل لا يهديهم محجة الاحتجاج أو سبيل النجاة، أو طريق الجنة يوم القيامة.

(٢٥٩) ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ تقديره أَوَ أرأيت مثل الذي فحُذِف لدلالة ألم تر عليه، وتخصيصُه بحرف التشبيه لأنَّ المُنكِر للإحياء كثير والجاهل بكيفيته أكثر من أن يحصى بخلاف مدعي الربوبية. وقيل الكاف مزيدة وتقديرُ الكلام ألم تر إلى الذي حاجّ أو الذي مرّ. وقيل إنه عطف محمول على المعنى كأنه قيل: ألم تر كالذي حاج، أو كالذي مر. وقيل: إنه من كلام إبراهيم ذكره جواباً لمعارضته وتقديرُه أو إن كنت تحيي فأحيي كإحياء الله تعالى الذي مر على قرية، وهو عزير بن شرحيا، أو الخضر، أو كافرٌ بالبعث، ويؤيده نَظْمُه مع نمروذ. والقرية بيت المقدس حين خرّبه بختنصر. وقيل القرية التي خرج منها الألوف. وقيل غيرهما واشتقاقها من القِرى وهو الجمع. ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ خالية ساقطة حيطانُها على سقوفها. ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ اعترافاً بالقصور عن معرفة طريق الإحياء واستعظاماً لقدرة المحيي إن كان القائل مؤمناً، واستبعاداً إن كان كافراً. وأنّى في موضع نصب على الظرف بمعنى متى أو على الحال بمعنى كيف(٢). ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ﴾ فألبثه ميتاً مائة عام، أو أماته الله فلبث ميتاً مائة عام. ﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ بالإحياء(٣). ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ﴾ القائل هو اللهُ، وساغَ أن يكلمه وإن كان كافراً لأنه آمن بعد البعث أو شارف الإيمان. وقيل مَلَك أو نبي. ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ كقول الظانّ. وقيل: إنه مات ضحىً وبعث بعد المائة قبيل الغروب فقال قبل النظر إلى الشمس يوماً ثم التفت فرأى بقية منها فقال أو بعض يوم على الإضراب. ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لم يتغير بمرور الزمان، واشتقاقه من السَّنة. والهاءُ أصلية إن قَدّرت لامَ السنة هاءً وهاءُ سكتٍ إن قدرت واواً، وقيل أصله لم يتسنن من الحمأ المسنون فأبدلت النون الثالثة حرف علة كتقضي البازي. وإنما أُفرد الضمير لأن الطعام والشراب كالجنس الواحد. وقيل كان طعامه تيناً وعنباً وشرابه عصيراً أو لبناً وكان الكل على حاله. وقرأ حمزة والكسائي لم يتسنّ بغير الهاء في الوصل. ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ كيف تفرقت عظامُه، أو انظر إليه سالماً في مكانه كما ربطته حفظناه بلا ماء وعلف كما حفظنا الطعام والشراب من التغير، والأول أدل على الحال وأوفق لما بعده. ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي وفعلنا ذلك لنجعلك آية. روي أنه أتى قومه على حماره وقال أنا عزير فكذبوه، فقرأ التوراة من الحفظ ولم يحفظها أحد قبله فعرفوه بذلك، وقالوا هو ابن الله. وقيل لما رجع إلى منزله كان شاباً وأولاده شيوخاً فإذا حدثهم بحديث قالوا حديث

---

(١) وإيراد الكفر في حيز الصلة للإشعار بعلة الحكم والتنصيص على كون المحاجة كفراً (أبو السعود ١/ ٢٥٢).

(٢) وتقديم المفعول «هذه» على الفاعل «اللهُ» للاعتناء بها من حيث أن الاستبعاد ناشىء من جهتها لا من جهة الفاعل (أبو السعود ١/ ٢٥٣).

(٣) عبر عن إحيائه بالبعث للدلالة على سرعته وسهولة تأتيه على البارىء تعالى كأنه بعثه من النوم، وللإيذان بأنه أعاده كهيئته يوم موته عاقلاً فاهماً مستعداً للنظر والاستدلال (أبو السعود ١/ ٢٥٣).

مائة سنة. ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ﴾ يعني عظام الحمار، أو الأموات الذين تعجب من إحيائهم[١]. ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ كيف نحييها، أو نرفع بعضها على بعض ونركبه عليه، وكيف منصوب بنُنْشِزُها والجملة حال من العظام أي: انظر إليها محياة. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب نُنْشِرُها من أنشر الله الموتى، وقرىء نَنْشُرُها من نَشَرَ بمعنى أنشر. ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ فاعلُ تبيَّن مضمر يفسره ما بعده تقديره: فلما تبين له أن الله على كل شيء قدير[٢]. ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فحُذِف الأول لدلالة الثاني عليه، أو يفسره ما قبله أي فلما تبين له ما أشكل عليه. وقرأ حمزة والكسائي قال اعْلمْ على الأمر والآمِرُ مخاطِبُه، أو هو نفسه خاطبها به على طريق التبكيت[٣].

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾

(٢٦٠) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ إنما سأل ذلك ليصير عِلْمه عياناً، وقيل لما قال نمروذ أنا أحيي وأميت قال له: إن إحياء الله تعالى برد الروح إلى بدنها، فقال نمروذ: هل عاينته فلم يقدر أن يقول نعم. وانتقل إلى تقرير آخر، ثم سأل ربه أن يريه ليطمئن قلبه على الجواب إنْ سُئل عنه مرة أخرى. ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ بأني قادر على الإحياء بإعادة التركيب والحياة، قال له ذلك ـ وقد علم أنه أغرَقُ الناس في الإيمان ـ ليجيب بما أجاب به فيَعْلَمَ السامعون غرضَه. ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ أي بلى آمنت ولكن سألت ذلك لأزيد بصيرة وسكونَ قلبٍ بمضامّة العيان إلى الوحي أو الاستدلال. ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾ قيل طاوساً وديكاً وغراباً وحمامة، ومنهم من ذكر النسر بدل الحمامة، وفيه إيماء إلى أن إحياء النفس بالحياة الأبدية إنما يتأتى بإماتة حب الشهوات والزخارف الذي هو صفة الطاوس، والصولة المشهور بها الديك، وخسة النفس وبعد الأمل المتصف بهما الغراب، والترفع والمسارعة إلى الهوى الموسوم بهما الحمام. وإنما خَصَّ الطيرَ لأنه أقرب إلى الإنسان وأجمعُ لخواصِ الحيوان، والطير مصدر سمي به أو جمع كصَحْب. ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ فأمِلْهن واضمُمهن إليك لتتأملَها وتعرف شَيَّاتِها لئلا تلتبس عليك بعد الإحياء. وقرأ حمزة ويعقوب فصِرْهن بالكسر وهما لغتان

(١) كرر الأمر بالنظر إلى العظام مع أن المراد عظام الحمار أيضاً لأن المأمور به أولاً هو النظر إليها من حيث دلالتها على ما ذكر من اللبث المديد، وثانياً هو النظر إليها من حيث تعتريها الحياة ومباديها، أي وانظر إلى عظام الحمار لتشاهد كيفية الإحياء في غيرك بعدما شاهدته في نفسك (أبو السعود ١/ ٢٥٤).

(٢) تعرض لكسو العظام باللحم ولم يتعرض لكيفية نفخ الروح لأنها مما لا تقتضي الحكمة بيانه (أبو السعود ١/ ٢٥٤).

(٣) وإيثار صيغة المضارع في قوله «أعلمُ» للدلالة على أن علمه بذلك مستمر نظراً إلى أن أصله لم يتغير ولم يتبدل، بل إنما تبدل بالعيان وصفه. وفيه إشعار بأنه إنما قال ما قال بناء على الاستبعاد العادي واستعظاماً للأمر (أبو السعود ١/ ٢٥٥).

قال:

وما صَيدُ الأعناقِ فيهم جِبلّةً ولكنْ أطرافَ الرماحِ تَصُورُها

وقال:

وفَرْعٌ يَصِيرُ الجِيدَ وَحْفٌ كأنّهُ على اللِّيتِ قِنْوانُ الكُرومِ الدَّوالِح

وقرىء فَصُرَّهن بضم الصاد وكسرها وهما لغتان، مشددة الراء من صرّه يَصرّه ويَصُرّه إذا جمعه وفَصَرْهُنّ من التصرية وهي الجمع أيضاً. ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ أي ثم جَزِّئهن وفرِّق أجزاءهن على الجبال التي بحضرتك. قيل كانت أربعة. وقيل سبعة. وقرأ أبو بكر جُزُؤاً وجُزُوَ[1] بضم الزاي حيث وقع. ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ﴾ قل لهن تعالين بإذن الله تعالى. ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ ساعيات مسرعات طيراناً أو مشياً. روي أنه أُمِر بأن يذبحَها وينتف ريشها ويقطعها فيمسك رؤوسها، ويخلطَ سائر أجزائها ويوزعَها على الجبال، ثم يناديهن، ففعل ذلك فجعل كل جزء يطير إلى آخر حتى صارت جثثاً ثم أقبلن فانضممن إلى رؤوسهن. وفيه إشارة إلى أن من أراد إحياء نفسه بالحياة الأبدية، فعليه أن يُقْبِل على القُوى البدنية فيقتلَها ويمزُج بعضها ببعض حتى تنكسر سوْرتها، فيطاوعنه مسرعات متى دعاهن بدعاية العقل أو الشرع. وكفى لك شاهداً على فضل إبراهيم عليه الصلاة والسلام وَيُمْنُ الضراعة في الدعاء وحسن الأدب في السؤال، إنه تعالى أراه ما أراد أن يريه في الحال على أيسر الوجوه، وأراه عُزَيراً بعد أن أماته مائة عام[2]. ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجز عما يريده. ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغة في كل ما يفعله ويذره.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾

(٢٦١) ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ أي مَثَل نفقتهم كمَثَل حبة، أو مثلهم كمثَل باذرِ حبة على حذف المضاف. ﴿أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ أسند الإنبات إلى الحبة لما كانت من الأسباب كما يسند إلى الأرض والماء، والمنبت على الحقيقة هو الله تعالى، والمعنى: أنه يَخرُج منها ساقٌ يتشعّب لكل منه سبعُ شعب لكل منها سنبلة فيها مائة حبة، وهو تمثيل لا يقتضي وقوعُه وقد يكون في الذُّرة والدُّخن وفي البُرّ في الأراضي المُغِلّة. ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ﴾ تلك المضاعفة.

---

(١) (جزؤ) هكذا مكتوبة في الأصل، ولعل الأصح أنها بطرح الهمزة وتشديد الزاي أي (جُزّا) وهي قراءة أبي جعفر (انظر البحر المحيط لأبي حيان ٢/ ٣٠٠).

(٢) قوله «ثم ادعهن يأتينك سعياً» اقتصر على حكاية أوامره عزّ وجل من غير تعرض لامتثاله عليه السلام ولا لما ترتب عليه من عجائب آثار قدرته تعالى للإيذان بأن ترتب تلك الأمور على الأوامر الجليلة واستحالة تخلفها عنها من الجلاء والظهور بحيث لا حاجة له إلى الذكر أصلاً (أبو السعود ١/ ٢٥٧).

﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ بفضله وعلى حسب حال المنفق من إخلاصه وتعبه، ومن أجل ذلك تفاوتت الأعمال في مقادير الثواب. ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ لا يضيق عليه ما يتفضل به من الزيادة. ﴿عَلِيمٌ﴾ بنية المنفق وقدر إنفاقه.

(٢٦٢) ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ نزلت في عثمان رضي الله تعالى عنه فإنه جهز جيش العُسْرة بألف بعير بأقتابها وأحلاسها، وعبدالرحمن بن عوف فإنه أتى النبي ﷺ بأربعة آلاف درهم صدقة[١]. والمنّ أن يَعتدّ بإحسانه على من أحسن إليه. والأذى أن يتطاول عليه بسبب ما أنعم إليه. وثم للتفاوت بين الإنفاق وترك المن والأذى[٢]. ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لعله لم يُدخل الفاء فيه وقد تضمّن ما أُسْنِد إليه معنى الشرط إيهاماً بأنهم أهل لذلك وإن لم يفعلوا فكيف بهم إذا فعلوا[٣].

۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

(٢٦٣) ﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ رد جميل. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ وتجاوز عن السائل والحاجة، أو نيل المغفرة من الله بالرد الجميل، أو عفو من السائل بأن يعذر ويغتفر رده. ﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ خبر عنهما، وإنما صح الابتداء بالنكرة لاختصاصها بالصفة. ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ﴾ عن إنفاق بمنٍّ وإيذاء. ﴿حَلِيمٌ﴾ عن معاجلة من يَمُنّ ويؤذي بالعقوبة.

(٢٦٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ لا تُحبطوا أجرها بكل واحد منهما. ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ كإبطال المنافق الذي يرائي بإنفاقه ولا يريد به رضا الله تعالى ولا ثواب الآخرة، أو مماثلين الذي ينفق رئاءَ الناس، والكاف في محل النصب على المصدر أو الحال، ورئاء نصب على المفعول له أو الحال بمعنى مرائياً أو المصدر أي إنفاقَ رئاءٍ. ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ أي فمثل المرائي في إنفاقه. ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ كمثل حجر أملس. ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾ مطر عظيمُ القَطْر. ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ أملسَ نقياً من التراب. ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ لا ينتفعون

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص٧٢ ـ ٧٣) عن الكلبي بدون إسناد.

(٢) قدم المنّ على الأذى لكثرة وقوعه.
وتوسيط كلمة «لا» بين المن والأذى للدلالة على شمول النفي لاتباع كل واحد منهما (أبو السعود ١/٢٥٨).

(٣) قال أبو السعود: (تخلية الخبر عن الفاء المفيدة لسببية ما قبلها لما بعدها للإيذان بأن ترتب الأجر على ما ذكر من الإنفاق وترك إتباع المن والأذى أمرٌ بيِّن لا يحتاج إلى التصريح بالسببية) ١/٢٥٨. أما ما ذكره البيضاوي فيأباه مقام الترغيب في الفعل.

بما فعلوا رئاء ولا يجدون له ثواباً، والضمير للذي ينفق باعتبار المعنى لأن المراد به الجنس، أو الجمع كما في قوله:

إنَّ الَّذِي حَانَتْ بِفَلْجٍ دِمَاؤُهُمْ هُمُ القَوْمُ كُلُّ القَوْمِ يَا أُمَّ خَالِدِ

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إلى الخير والرشاد، وفيه تعريض بأن الرئاء والمن والأذى على الإنفاق من صفات الكفار ولابد للمؤمن أن يتجنب عنها.

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

(٢٦٥) ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ وتثبيتاً بعض أنفسهم على الإيمان، فإن المال شقيق الروح، فمن بذل ماله لوجه الله ثَبَّت بعض نفسه ومَنْ بذل ماله وروحه ثبتها كلها، أو تصديقاً للإسلام وتحقيقاً للجزاء مبتدأ من أصل أنفسهم. وفيه تنبيه على أن حكمة الإنفاق للمنفق تزكية النفس عن البخل وحب المال. ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾ أي ومَثَل نفقة هؤلاء في الزكاة كمَثَل بستان بموضع مرتفع، فإن شجره يكون أحسن منظراً وأزكى ثمراً. وقرأ ابن عامر وعاصم بربوة بالفتح وقرىء بالكسر وثلاثتها لغات فيها[1]. ﴿ أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ مطر عظيم القطر. ﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا﴾ ثمرتها. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو بالسكون للتخفيف[2]. ﴿ ضِعْفَيْنِ﴾ مِثْلَيْ ما كانت تثمر بسبب الوابل. والمراد بالضِّعف المثل كما أريد بالزوج الواحد في قوله تعالى ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾[3] وقيل: أربعة أمثاله، ونصبه على الحال أي مضاعفاً. ﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ أي فيصيبها، أو فالذي يصيبها طلّ، أو فطل يكفيها لكَرَم منبتها وبرودة هوائها لارتفاع مكانها. وهو المطر الصغير القطر، والمعنى أن نفقات هؤلاء زاكية عند الله لا تضيع بحال وإن كانت تتفاوت باعتبار ما ينضم إليها من أحواله، ويجوز أن يكون التمثيل لحالهم عند الله تعالى بالجنة على الربوة ونفقاتهم الكثيرة والقليلة الزائدتين في زُلْفاهم بالوابل والطل. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تحذير عن الرئاء وترغيب في الإخلاص.

(٢٦٦) ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ الهمزة فيه للإنكار[4]. ﴿ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

---

(١) أي قرىء بفتح الراء وضمها وكسرها. ولم يذكر قراءة الضم لأنها الأصل عنده.

(٢) أي بسكون الكاف.

(٣) هود: «٤٠».

(٤) الود حبّ الشيء مع تمنيه.

والهمزة لإنكار الوقوع كقوله: أأضرب أبي؟ لا لإنكار الواقع، كقولك: أتضرب أباك؟ على أن مناط الإنكار ليس=

﴿ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ جَعَلَ الجنة منهما مع ما فيها من سائر الأشجار تغليباً لهما لشرفهما وكثرة منافعهما، ثم ذَكَرَ أن فيها من كل الثمرات ليدل على احتوائها على سائر أنواع الأشجار، ويجوز أن يكون المراد بالثمرات المنافع. ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ أي كبر السن، فإن الفاقة والعالة في الشيخوخة أصعب، والواو للحال أو للعطف حملاً على المعنى، فكأنه قيل: أيود أحدكم لو كانت له جنة وأصابه الكبر. ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾ صغار لا قدرة لهم على الكسب. ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ عطف على أصابه، أو تكون باعتبار المعنى. والإعصار ريح عاصفة تنعكس من الأرض إلى السماء مستديرة كعمود، والمعنى تمثيل حال من يفعل الأفعال الحسنة ويضم إليها ما يُحْبِطها كرياء وإيذاء في الحسرة والأسف، فإذا كان يومُ القيامة واشتدت حاجته إليها وجَدَها مُحْبَطَةً بحال مَنْ هذا شأنه. وأشْبَهُهم به من جال بِسِرِّه في عالم الملكوت وترقى بفكره إلى جناب الجبروت، ثم نكص على عقبيه إلى عالم الزُّور والتفت إلى ما سوى الحق وجعل سعيه هباء منثوراً. ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي تتفكرون فيها فتعتبرون بها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾

(٢٦٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ من حلاله أو جِيادِه. ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الحبوب والثمرات والمعادن، فَحَذَفَ المضاف لتقدم ذكره. ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ﴾ أي ولا تقصدوا الرديء منه أي من المال، أو مما أخرجنا لكم. وتخصيصُه بذلك لأن التفاوت فيه أكثر. وقرىء ولا تؤمموا [1] ولا تُيَمِّمُوا بضم التاء. ﴿تُنفِقُونَ﴾ حال مقدرة من فاعل تيمموا، ويجوز أن يتعلق به منه ويكون الضمير للخبيث والجملة حالاً منه. ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ﴾ أي وحالُكم أنكم لا تأخذونه في حقوقكم لرداءته. ﴿إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾ إلا أن تتسامحوا فيه، مجاز من أغمض بصره إذا غضه. وقرىء تُغَمَّضُوا أي تُحْمَلوا على الإغماض، أو توجَدُوا مُغَمَّضين. وعن ابن عباس رضي الله عنه: كانوا يتصدقون بحشف التمر وشراره فنهوا عنه. ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ﴾ عن إنفاقكم، وإنما يأمركم به لانتفاعكم. ﴿حَمِيدٌ﴾ بقبوله وإثابته.

(٢٦٨) ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ في الإنفاق، والوعد في الأصل شائع في الخير والشر. وقرىء الفقر بالضم والسكون، وبضمتين، وفتحتين [2]. ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ ويغريكم على البخل،

= جميع ما تعلق به الود بل إنما هو إصابة الإعصار وما يتبعها من الاحتراق (أبو السعود ١/ ٢٦٠).

(١) القراءة الواردة بفتح التاء، وعليه فتكتب الهمزة على ألف (ولا تَأَمَّمُوا) وهي قراءة عبدالله بن مسعود. (البحر المحيط ١/ ٣١٨، وروح المعاني ٣/ ٣٩).

(٢) «الشيطان يعدكم الفقر» عبر عن ذلك بالوعد مع أن الشيطان لم يُضِفْ مجيء الفقر إلى جهته للإيذان بمبالغته في =

والعرب تسمي البخيل فاحشاً. وقيل المعاصي ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ﴾ أي يعدكم في الإنفاق مغفرة لذنوبكم. ﴿وَفَضْلًا﴾ خلفاً أفضل مما أنفقتم في الدنيا أو في الآخرة. ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ أي واسع الفضل لمن أنفق. ﴿عَلِيمٌ﴾ بإنفاقه.

يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾

(٢٦٩) ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ﴾ تحقيق العلم وإتقان العلم. ﴿مَن يَشَآءُ﴾ مفعول أول أُخر للاهتمام بالمفعول الثاني ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ بناؤه للمفعول لأنه المقصود. وقرأ يعقوب بالكسر أي ومن يُؤْتِه الله الحِكمة[1]. ﴿فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أي: أيَّ خير كثير؟ إذ حيز له خير الدارين. ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ وما يتعظ بما قص من الآيات أو ما يتفكر، فإن المتفكر كالمتذكر لما أودع الله في قلبه من العلوم بالقوة. ﴿إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ذَوُو العقول الخالصة عن شوائب الوهم والركون إلى متابعة الهوى.

(٢٧٠) ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ قليلة أو كثيرة، سراً أو علانية، في حق أو باطل. ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ بشرط أو بغير شرط، في طاعة أو معصية[2]. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ فيجازيكم عليه. ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ينفقون في المعاصي وينذرون فيها، أو يمنعون الصدقات ولا يوفون بالنذر. ﴿وَمَا مِنْ أَنصَارٍ﴾ من ينصرهم من الله ويمنعهم من عقابه.

(٢٧١) ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾ فنِعْم شيئاً إبداؤُها. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بفتح النون وكسر العين على الأصل. وقرأ أبو بكر وأبو عمرو وقالون[3] بكسر النون وسكون العين، وروي عنهم بكسر النون وإخفاء حركة العين وهو أقيس. ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾ أي تعطوها مع الإخفاء. ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فالإخفاء خير لكم، وهذا في التطوع ولمَنْ لم يُعْرَف بالمال، فإن إبداء الغرض لغيره أفضل لنفي التهمة عنه. عن ابن عباس رضي الله عنهما: صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها سبعين ضعفاً، وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين

= الإخبار بتحقق مجيئه، كأنه نزله في تقرر الوقوع منزلة أفعاله الواقعة بحسب إرادته، أو لوقوعه في مقابلة وعده تعالى على طريق المشاكلة. (أبو السعود ١/ ٢٦٢).

(١) «ومَنْ يُؤتَ الحكمة» أظهر لفظ الحكمة في مقام الإضمار لبيان الاعتناء بشأنها وللإشعار بأنها علة الحكم (أبو السعود ١/ ٢٦٢).

(٢) والنذر هو: أن توجب على نفسك ما ليس بواجب لحدوث أمر (المفردات للراغب مادة نذر).

(٣) قالون: هو أبو موسى عيسى بن مينا النحوي، اشتهر بالرواية عن نافع أحد القراء السبعة، ولقب بقالون لجودة قراءته، توفي سنة (٢٢٠)هـ.

ضعفاً[١] ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْۗ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم في رواية حفص بالياء أي والله يكفر أو الإخفاء، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية ابن عياش[٢] ويعقوبَ بالنون مرفوعاً على أنه جملة فعلية مبتدأة أو اسمية معطوفة على ما بعد الفاء أي: ونحن نكفر، وقرأ نافع وحمزة والكسائي به مجزوماً على محل الفاء وما بعده، وقرىء بالتاء مرفوعاً ومجزوماً والفعل للصدقات. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ ترغيب في الإسرار.

﴿۞ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾

(٢٧٢) ﴿۞ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ﴾ لا يجب عليك أن تجعل الناس مهديين، وإنما عليك الإرشاد والحث على المحاسن والنهي عن المقابح كالمن والأذى وإنفاق الخبيث. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ صريح بأن الهداية من الله تعالى وبمشيئته، وإنها تخص بقوم دون قوم. ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ﴾ من نفقة معروفة. ﴿فَلِأَنفُسِكُمۡۚ﴾ فهو لأنفسكم لا ينتفع به غيركم فلا تَمُنّوا عليه ولا تنفقوا الخبيث. ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ﴾ حال، وكأنه قال وما تنفقون من خير فلأنفسكم غير منفقين إلا لابتغاء وجه الله وطلب ثوابه، أو عطف على ما قبله أي وليست نفقتكم إلا لابتغاء وجهه فما بالكم تمنون بها وتنفقون الخبيث. وقيل: نفي في معنى النهي. ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ﴾ ثوابُه أضعافاً مضاعفة، فهو تأكيد للشرطية السابقة، أو ما يخلف للمنفق استجابة لقوله عليه الصلاة والسلام «اللهم اجعل لمنفق خلفاً، ولممسك تلفاً»[٣] روي: أن ناساً من المسلمين كانت لهم أصهار ورضاع في اليهود، وكانوا ينفقون عليهم، فكرهوا لَمّا أسلموا أن ينفعوهم فنزلت[٤]. وهذا في غير الواجب

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ ٩٢) من طريق علي بن أبي طلحة عنه. وأورده الترمذي الحكيم في نوادره (ص٣٧٦) عن ابن عباس قال: «جعل الله صدقة التطوع يفضُل سرّها علانيتها سبعين ضعفاً، وجعل صدقة الفريضة علانيتها تفضُل سرّها بخمسة وعشرين ضعفاً، وكذلك جميع الفرائض والنوافل في الأشياء كلها.

(٢) ابن عياش، هو شعبة بن عياش بن سالم الأسدي، ويكنى أبا بكر، وهو إمام عالم اشتهر بالرواية عن عاصم أحد القراء السبعة، وتوفي ابن عياش (١٩٣)هـ بالكوفة.

(٣) أخرج البخاري (٣/ ٣٠٤ رقم ١٤٤٢) ومسلم (٢/ ٧٠٠ رقم ٧٥/ ١٠١٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من يوم يُصبحُ العِبادُ فيه إلاّ ملكان ينزلان فيقول أحدهما: «اللهمّ أعطِ منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهمّ أعطِ مُمْسِكاً تلفاً».
وفي الباب أحاديث وآثار. انظر تخريجها في «الزهد» للإمام وكيع (٢/ ٦٦٦ ـ ٦٦٨ رقم ٣٧٩).

(٤) أخرجه النسائي في الكبرى ـ كما في تحفة الأشراف (٤/ ٤٠٢) ـ والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٨٥) و(٤/ ١٥٦) =

أما الواجب فلا يجوز صرفه إلى الكفار. ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي لا تُنْقصون ثواب نفقاتكم.

(٢٧٣) ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ متعلق بمحذوف أي اعمدوا للفقراء، أو اجعلوا ما تنفقونه للفقراء، أو صدقاتكم للفقراء. ﴿الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أحصرهم الجهاد. ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لاشتغالهم به. ﴿ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ ذهاباً فيها للكسب. وقيل هم أهل الصفة كانوا نحواً من أربعمائة من فقراء المهاجرين يسكنون صفة المسجد يستغرقون أوقاتهم بالتعلم والعبادة، وكانوا يَخْرُجون في كل سرية بعثها رسول الله ﷺ. ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ﴾ بحالهم، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين. ﴿أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ من أجل تعففهم عن السؤال، ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ من الضعف ورثاثة الحال، والخطاب للرسول ﷺ، أو لكل أحد. ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ إلحاحاً. وهو أن يلازم المسؤول حتى يعطيه، من قولهم لَحَفَنِي من فَضْل لَحَافِه، أي أعطاني من فضل ما عنده، والمعنى أنهم لا يسألون وإن سألوا عن ضرورة لم يُلِحّوا. وقيل: هو نفي للأمرين كقوله:

على لا حِب لا يهتدي بمناره

فنصبه على المصدر فإنه كنوع من السؤال، أو على الحال. ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ ترغيب في الإنفاق وخصوصاً على هؤلاء.

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾

(٢٧٤) ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي يَعُمّون الأوقات والأحوال بالخير. نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، تصدق بأربعين ألف دينار عشرة بالليل وعشرة بالنهار، وعشرة بالسر وعشرة بالعلانية. وقيل في أمير المؤمنين علي رضي الله تعالى عنه: لم يملك إلا أربعة دراهم فتصدّق بدرهم ليلاً ودرهم نهاراً، ودرهم سراً ودرهم علانية. وقيل: في ربط الخيل في سبيل الله والإنفاق عليها[1]. ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ خبر الذين

= والطبري (٣/ ٩٥) والطبراني في الكبير (١٢/ ٥٤ رقم ١٢٤٥٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ١٩١) كلهم من طريق سفيان عن الأعمش، عن جعفر بن إياس، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.
قال الحاكم: صحيح الإسناد، وقال الذهبي على شرط البخاري ومسلم. وأخرجه البزار (٣/ ٤٢ ـ كشف) وأورده الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٣٢٤) وقال: رواه البزار ورجاله ثقات.

(١) لعل تقديم الليل على النهار والسرّ على العلانية للإيذان بمزية الإخفاء على الإظهار (أبو السعود ١/ ٢٦٥).

ينفقون، والفاء للسببية. وقيل للعطف والخبر محذوف أي ومنهم الذين ولذلك جوز الوقف على وعلانية.

(٢٧٥) ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ أي الآخذون له، وإنما ذكر الأكل لأنه أعظم منافع المال، ولأن الربا شائع في المطعومات وهو زيادة في الأجل، بأن يباع مطعوم بمطعوم أو نقد بنقد إلى أجل، أو في العِوَض بأن يباع أحدهما بأكثر منه من جنسه، وإنما كتب بالواو كالصلاة للتفخيم على لغة وزيدت الألف بعدها تشبيهاً بواو الجمع. ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ إذا بعثوا من قبورهم. ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ إلا قياماً كقيام المصروع، وهو وارد على ما يزعمون أن الشيطان يخبُط الإنسان فيصرع، والخبط ضرب على غير اتّساق كخبْط العشواء. ﴿مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾ أي الجنون، وهذا أيضاً من زعماتهم أن الجني يَمَسُّه فيختلطُ عقلُه ولذلك قيل: جَنَّ الرجلُ[(١)]. وهو متعلق بلا يقومون أي لا يقومون من المس الذي بهم بسبب أكل الربا، أو بيقوم أو بيتخبط فيكون نُهوضهم وسقوطهم كالمصروعين لا لاختلال عقولهم ولكن لأن الله أربى في بطونهم ما أكلوه من الربا فأثقلهم. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ﴾ أي ذلك العقاب بسبب أنهم نَظَموا الربا والبيعَ في سلك واحد لإفضائهما إلى الربح فاستحلوه استحلالَه. وكان الأصل إنما الربا مثلُ البيع ولكن عُكِسَ للمبالغة، كأنهم جعلوا الربا أصلاً وقاسوا به البيع، والفرق بيِّن فإنّ من أعطى درهمين بدرهم ضيع درهماً، ومن اشترى سلعة تساوي درهماً بدرهمين فلعل مساس الحاجة إليها، أو توقع رواجها يجبر هذا الغبن. ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ﴾ إنكار لتسويتهم وإبطال القياس بمعارضة النص. ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فمن بلغه وَعْظ من الله تعالى وزجر كالنهي عن الربا[(٢)]. ﴿فَٱنتَهَىٰ﴾ فاتعظ وتبع النهي. ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ تقدم أخذه التحريم ولا يسترد منه، وما في موضع الرفع بالظرف إن جعلت مَنْ موصولة، وبالابتداء إن جعلت شرطية على رأي سيبويه إذ الظرف غير معتمد على ما قبله. ﴿وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ يجازيه على انتهائه إن كان من قبول الموعظة وصدق النية. وقيل يحكم في شأنه ولا اعتراض لكم عليه. ﴿وَمَنۡ عَادَ﴾ إلى تحليل الربا، إذ الكلام فيه. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لأنهم كفروا به.

---

(١) قول البيضاوي: وهو وارد على ما يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع.. وقوله: وهذا أيضاً من زعماتهم أن الجني يمسه فيختلط عقله...
وهي مسألة اعتزالية خالف فيها المعتزلةُ أهلَ السنة، وهي: هل للشياطين أثر على الإنسان من حيث المسّ والصرع بما يتأثر فيه جسمه وعقله؟
فالمعتزلة ينكرون قدرة الشيطان على المسّ والصرع، وقالوا بأن الآية واردة على ما يزعمه العرب ويعتقدونه من أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع وأن الجنيّ يمسه فيختلط عقله. ونسب الألوسي ذلك إلى القفال من الشافعية... (انظر الكشاف للزمخشري ١/ ١٦٥ وتبعه البيضاوي وكذا أبو السعود ١/ ٢٦٦).
أما أهل السنة فيرون أن للشيطان القدرة على الصرع وللجني القدرة على المسّ. وقد دلت الأحاديث صراحة على ذلك. وتأثيرهم على من يستكين بأوهامه وتخيلاته لسلطانهم، أو يتعرض لتقبل مسهم وتخبطاتهم باستعاذته بهم والتماسه نفعهم، أو استخدامهم للإضرار بأعدائه من إخوانه من الإنس، أو يغفل عن ذكر الله وتلاوة القرآن ويتجافى عن التحصن بالأوراد والاستعاذات المأثورة.
(انظر روح المعاني للألوسي ٣/ ٤٩ والعقيدة الإسلامية لعبدالرحمن حبنكة ص٢٨٩).

(٢) «من ربه» تعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة للإشعار بكون مجيء الموعظة للتربية (أبو السعود ١/ ٢٦٦).

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا وَيُرْبِي الصَّدَقَـٰتِ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَوٰٓا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾

(٢٧٦) ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا﴾ يذهب ببركته ويهلك المال الذي يدخل فيه. ﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَـٰتِ﴾ يضاعف ثوابها ويبارك فيما أخرجت منه، وعنه عليه الصلاة والسلام «إن الله يقبل الصدقة ويربيها كما يربي أحدكم مهره»[١]. وعنه عليه الصلاة والسلام «ما نقصت زكاة من مال قط»[٢]. ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ﴾ لا يرضى ولا يحب محبته للتوابين. ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾ مُصرّ على تحليل المحرمات. ﴿أَثِيمٍ﴾ منهمك في ارتكابه.

(٢٧٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسوله وبما جاءهم منه. ﴿وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ﴾ عَطَفَهُمَا على ما يعمّهما لإنافتهما على سائر الأعمال الصالحة. ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من آت. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على فائت.

(٢٧٨) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَوٰٓا﴾ واتركوا بقايا ما شرطتم على الناس من الربا. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بقلوبكم فإن دليله امتثال ما أُمرتم به. روي: أنه كان لثَقيف مال على بعض قريش، فطالبوهم عند المحل بالمال والربا. فنزلت[٣].

---

(١) أخرج البخاري (٣/٢٧٨ رقم ١٤١٠) و(١٣/٤١٥ رقم ٧٤٣٠) ومسلم (٢/٧٠٢ رقم ٦٣، ٦٤/١٠١٤) والترمذي (٣/٤٩ ـ ٥٠ رقم ٦٦١ و٦٦٢) والنسائي (٥/٥٧ رقم ٢٥٢٥) وابن ماجة (١/٥٩٠ رقم ٨٨٢) والدارمي (١/٣٩٥) ومالك (٢/٩٩٥ رقم ١) وأحمد في المسند (٢/٢٦٨، ٣٣١، ٣٨٢، ٤٠٤، ٤١٨، ٤١٩، ٤٣١، ٤٧١، ٥٣٨، ٥٤١).

كلهم من طرق عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدَّق بعَدْلِ تمرةٍ من كسبٍ طيّبٍ ـ ولا يقبل الله إلاّ الطيّب ـ فإن الله يتقبّلُها بيمينه ثم يربّيها لصاحبهِ كما يربّي أحدُكم فَلُوَّهُ حتى تكون مثل الجبل».

(٢) أخرج أحمد في المسند (١/١٩٣) عن عبدالرحمن بن عوف قال: إن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث والذي نفس محمد بيده إن كنت لحالفاً عليهن، لا ينقصُ مالٌ من صدقة فتصدقوا، ولا يعفو عبد عن مظلمة يبتغي بها وجه الله إلا رفعه الله بها ـ وقال أبو سعيد مولى بني هاشم ـ إلا زاده الله بها عزاً يوم القيامة، ولا يفتح عند باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر».

● وأخرج أحمد أيضاً في المسند (٤/٢٣١) عن أبي كبشة الأنماري، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ثلاث أقسم عليهن وأحدثكم حديثاً فاحفظوه، قال: فأما الثلاث الذي أقسم عليهن فإنه ما نقص مال عبد صدقة، ولا ظلم عبد بمظلمة فيصبر عليها إلا زاده الله عز وجل عزاً ولا يفتح باب مسألة إلا فتح الله له باب فقر، وأما الذي احدثكم حديثاً فاحفظوه فإنه قال: إنما الدنيا لأربعة نفر. . .» الحديث.

● وأخرج مسلم (٤/٢٠٠١ رقم ٦٩/ ٢٥٨٨) عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «ما نَقَصَتْ صَدَقَةٌ من مالٍ، ما زاد الله عبداً بعفوٍ إلاّ عزاً. وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله».

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان»
(٣/١٠٦) عن السدي وفي إسناده «موسى بن هارون» وقد أخذ التفسير عن كتاب فأرسله عن عمرو بن حماد. =

فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾

(٢٧٩) ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي فاعلموا بها، من أذن بالشيء إذا عَلِم به، وقرأ حمزة وعاصم في رواية ابن عياش فآذنوا أي فأعلموا بها غيركم، من الأَذَن وهو الاستماع فإنه من طرق العلم. وتنكير حرب للتعظيم وذلك يقتضي أن يُقاتَلَ المُرْبي بعد الاستتابة حتى يفيء إلى أمر الله، كالباغي، ولا يقتضي كفره. روي: أنها لما نزلت قالت ثَقيف لا يَدَيَ لنا بحرب الله ورسوله[1]. ﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ من الارتباء واعتقاد حِلّه. ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾ بأخذ الزيادة. ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بالمطل والنقصان، ويُفْهم منه أنهم إن لم يتوبوا فليس لهم رأس مالهم وهو سديد على ما قلناه، إذ المصرّ على التحليل مرتدّ وماله فيء.

(٢٨٠) ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ وإن وقع غريم ذو عسرة. وقرىء ذا عسْرة أي وإن كان الغريم ذا عسرة. ﴿فَنَظِرَةٌ﴾ فالحكمُ نظِرة، أو فعليكم نَظِرة، أو فليكن نظرة وهي الإنظار. وقرىء فَنَاظِرُه على الخبر أي فالمستحق ناظِرُه بمعنى منتظره أو صاحب نظرته على طريق النّسب، وفَنَاظِرْهُ على الأمْر أي فسامِحْه بالنظرة. ﴿إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ يسار، وقرأ نافع وحمزة بضم السين، وهما لغتان كمَشْرَقة ومَشْرُقة. وقرىء بهما مضافين بحذف التاء عند الإضافة كقوله:

وأَخلَفُوكَ عَدَ الأَمْرِ الَّذِي وَعَدُوا

﴿وَأَن تَصَدَّقُوا۟﴾ بالإبراء. وقرأ عاصم بتخفيف الصاد. ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أكثر ثواباً من الإنظار، أو خير مما تأخذون لمضاعفة ثوابه ودوامه. وقيل: المراد بالتصدق الإنظار لقوله عليه الصلاة والسلام «لا يَحِلُّ دَيْنُ رجل مسلم فيؤخره إلا كان له بكل يوم صدقة»[2] ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما فيه من الذكر

= وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/١٠٧) عن ابن جريج، وفي إسناده «سنيد» وهو ضعيف.
وأخرجه أبو يعلى ـ كما في المجمع (٤/١١٩ ـ ١٢٠) ـ عن ابن عباس في سياق أطول وقال الهيثمي: فيه «محمد بن السائب الكلبي» وهو كذاب.

(١) أي لا قوة ولا قدرة لنا بحرب الله ورسوله.

(٢) أخرج أحمد في المسند (٤/٤٤٣) والطبراني في الكبير (١٨/٢٤٠ رقم ٦٠٣) كلاهما من طريق أبي بكر بن عياش عن الأعمش، عن أبي داود ـ الأعمى ـ عن عمران بن حُصين ولفظ أحمد «من كان له على رجل حقٌّ فمن أخّره كان له بكل يوم صدقة».
ولفظ الطبراني «إذا كان للرجل على رجل حق فأخره إلى أجله كان له صدقة، فإن أخره بعد أجله كان له بكل يوم صدقة». وأبو داود الأعمى كذاب.
● وأخرج أحمد في المسند (٥/٣٦٠) والحاكم في المستدرك (٢/٢٩) والبيهقي في السنن الكبرى (٥/٣٥٧) وأبو نعيم في أخبار أصفهان (٢/٢٨٦).
كلهم من رواية عبدالوارث، عن محمد بن جحادة، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ =

الجميل والأجر الجزيل.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾

(٢٨١) ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ يوم القيامة، أو يوم الموت فتأهبوا لمصيركم إليه. وقرأ أبو عمرو ويعقوب بفتح التاء وكسر الجيم[١]. ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ جزاء ما عملت من خير أو شر[٢] ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب وتضعيف عقاب. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنها آخر آية نزل بها جبريل عليه السلام وقال ضعها في رأس المائتين والثمانين من البقرة[٣] وعاش رسول الله ﷺ بعدها أحداً وعشرين يوماً وقيل أحداً وثمانين يوماً. وقيل سبعة أيام وقيل ثلاثة ساعات.

= يقول: «من أنظر مُعْسِراً فله بكل يوم صدقة قبل أن يحِلَّ الدَّيْن فإذا حلَّ الدَّيْنُ فأَنْظَره بعد ذلك فله بكل يومٍ مثله صدقة». قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وقال الألباني: إنما هو على شرط مسلم وحده، لأن سليمان بن بريدة لم يخرج له البخاري شيئاً، وإنما أخرج هو ومسلم لأخيه «عبدالله بن بريدة».

والحديث صححه الألباني في الإرواء (رقم: ١٤٣٨) والصحيحة (رقم: ٨٦).

● وأخرج الطبراني في الكبير (١١/ ١٥١ رقم ١١٣٣٠) عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من أنظر مُعْسِراً إلى مَيْسَرَته أنظره الله بذنبه إلى توبته».

وأورده الهيثمي في «المجمع» (٤/ ١٣٥) وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه الحكم بـن الجارود ضعفه الأزدي وشيخ الحكم وشيخ شيخه لم أعرفهما.

● وأخرج البخاري (٤/ ٣٠٧ رقم ٢٠٧٧) و(٥/ ٥٨ رقم ٢٣٩١) و(٦/ ٤٩٤ رقم ٣٤٥١) ومسلم (٣/ ١١٩٤ رقم ٢٦/ ١٥٦٠) كلاهما من حديث حذيفة مرفوعاً «تلقَّت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم فقالوا: أَعَمِلْت من الخير شيئاً؟ قال: كنت أداين الناس فآمر فتياني أن يُنظروا المُعْسِر، ويتجوَّزوا عن الموسر، قال: قال الله عز وجل: تجوّزوا عنه».

(١) تنكير اليوم للتفخيم والتهويل، وتعليق الاتقاء به للمبالغة في التحذير عما فيه من الشدائد والأهوال (أبو السعود ١/ ٢٦٨).

(٢) وتعميم التوفية لكل نفس للمبالغة في تهويل اليوم.. (أبو السعود ١/ ٢٦٨).

(٣) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٧/ ١٣٧) والطبراني ـ كما في «المجمع» (٦/ ٣٢٤) ـ بإسناد رجال أحدهما ثقات وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ١١٦) وقال: أخرجه أبو عبيد، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وابن الأنباري في المصاحف، وابن مردويه... من طرق عن ابن عباس وهو حديث صحيح. وأخرج ابن أبي شيبة عن السدي وعطية العوفي، مثله. وأخرج ابن الأنباري عن أبي صالح وسعيد بن جبير. مثله.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾

(٢٨٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ﴾ أي إذا داين بعضكم بعضاً، تقول: داينته إذا عاملته نسيئة معطياً أو آخذاً. وفائدة ذِكْرِ الدين أن لا يُتوهم من التداين المجازاة، ويُعْلم تنوعه إلى المؤجل والحالّ، وأنه الباعث على الكتبة ويكون مرجع ضمير فاكتبوه ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ معلوم الأيام والأشهر لا بالحصاد وقدوم الحاج. ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ لأنه أوثق وأدفع للنزاع، والجمهور على أنه استحباب. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن المراد به السلم وقال لما حرم الله الربا أباح السلم[١]. ﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ مَنْ يكتب السوية لا يزيد ولا ينقص، وهو في الحقيقة أمر للمتداينَيْن باختيار كاتب فقيه ديِّن حتى يجيء مكتوبهُ موثوقاً به معدّلاً بالشرع[٢]. ﴿وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ﴾ ولا يمتنع أحد من الكتاب. ﴿أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ﴾ مثل ما علمه الله من كتبة الوثائق، أو لا يأب أن ينفع الناس بكتابته كما نفعه الله بتعليمها كقوله ﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾[٣]. ﴿فَلۡيَكۡتُبۡ﴾ تلك الكتابة المُعَلَّمة. أَمَرَ بها بعد النهي عن الإباء عنها تأكيداً، ويجوز أن تتعلق الكاف بالأمر فيكون النهي عن الامتناع منها مطلقة ثم الأمر بها مقيدة. ﴿وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾ وليكن المملي مَنْ عليه الحق لأنه المُقِرُّ المشهودُ عليه، والإملال والإملاء واحد. ﴿وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ أي المملي، أو

(١) أخرج الطبراني في الكبير (١٢/ ٢٠٥ رقم ١٢٩٠٣) والحاكم (٢/ ٢٨٦) والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ١٨) والطبري في «جامع البيان» (٢/ ١١٦ ـ ١١٧).
كلهم من طرق عن قتادة، عن أبي حسان الأعرج أن ابن عباس سئل عن السلف، فقال: أشهد أن الله أحله، وأنزل فيه أطول آية في كتاب الله «يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه».
قال الحاكم: صحيح على شرطهما، وقال الذهبي: إبراهيم بن بشار الرمادي، عن ابن عينية.
قلت لم ينفرد به إبراهيم، فله طرق أخرى عند غير الحاكم لكنه ليس من رجال الشيخين.
وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (رقم: ١٣٦٩).

(٢) وحذف المفعول إما لتعينه أو للقصد إلى إيقاع نفس الفعل أي ليفعل الكتابة.
وقوله تعالى «بينكم» للإيذان بأن الكاتب ينبغي أن يتوسط بين المتداينين ويكتب كلامهما ولا يكتفي بكلام أحدهما (أبو السعود ١/ ٢٦٩).

(٣) القصص: «٧٧».

الكاتب[١] . ﴿ وَلَا يَبْخَسْ ﴾ ولا ينقص. ﴿ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾ أي من الحق، أو مما أُملي عليه[٢] . ﴿ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا ﴾ ناقص العقل مبذراً. ﴿ أَوْ ضَعِيفًا ﴾ صبياً أو شيخاً مختلاً. ﴿ أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ ﴾ أو غير مستطيع للإملال بنفسه لخرس أو جهل باللغة. ﴿ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ﴾ أي الذي يلي أمره ويقوم مقامه من قَيِّم إن كان صبياً أو مختل العقل، أو وكيل أو مترجم إن كان غير مستطيع. وهو دليل جَرَيان النيابة في الإقرار، ولعله مخصوص بما تعاطاه القيِّم أو الوكيل. ﴿ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ ﴾ واطلبوا أن يشهد على الديْن شاهدان. ﴿ مِن رِّجَالِكُمْ ﴾ من رجال المسلمين، وهو دليل اشتراط إسلام الشهود وإليه ذهب عامة العلماء وقال أبو حنيفة: تقبل شهادة الكفار بعضهم على بعض. ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ ﴾ فإن لم يكن الشاهدان رجلين. ﴿ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ ﴾ فليشهد أو فليُستَشهد رجل وامرأتان، وهذا مخصوص بالأموال عندنا وبما عدا الحدود والقصاص عند أبي حنيفة . ﴿ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ﴾ لعلمكم بعدالتهم[٣] . ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ عِلَّةُ اعتبار العدد أي لأجل أنّ إحداهما إن ضلت الشهادة بأن نسيتها ذكرتها الأخرى، والعلةُ في الحقيقة التذكير ولكن لما كان الضَّلال سبباً له نُزِّل منزلتَه كقولهم: أعددت السلاح أن يجيء عدو فأدفعه، وكأنه قيل: إرادةَ أن تُذَكِّر إحداهما الأخرى إن ضلت، وفيه إشعار بنُقصان عقلهن وقلة ضبطهن. وقرأ حمزة إن تضلّ على الشرط فتُذَكِّرُ بالرفع. وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب فَتُذْكِرَ من الإذكار[٤] . ﴿ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ﴾ لأداء الشهادة أو التحمل، وسموا شهداء قبل التحمُّل تنزيلاً لما يشارِف منزلة الواقع، وما مزيدةٌ. ﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ ﴾ ولا تَمَلُّوا من كثرة مدايناتكم أن تكتبوا الدين أو الحق أو الكتاب. وقيل كنّى بالسأم عن الكسل لأنه صفة المنافق، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «لا يقول المؤمن كسلت»[٥] ﴿ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا ﴾ صغيراً كان الحق أو كبيراً، أو مختصراً كان الكتاب أو مُشْبعاً. ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ﴾ إلى وقت حلوله الذي أقر به المَدْيون.

﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ إشارة إلى أن تَكتبوه. ﴿ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أكثر قسطاً. ﴿ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ ﴾ وأثبت لها وأعون على إقامتها، وهما مبنيان من أقسط وأقام على غير قياس، أو من قاسَطَ بمعنى ذي قسط وقويم، وإنما صحت الواو في أقوَمُ كما صحت في التعجب لجموده. ﴿ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ﴾ وأقرب في أن لا تشكوا في جنس الدين وقَدْرِه وأَجَلِه والشهودِ ونحو ذلك. ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ﴾ استثناء من الأمر بالكتابة. والتجارةُ الحاضرة تعمّ المبايعة بدين أو عين، وإدارتها بينهم تعاطيهم إياها يداً بيد أي: إلا أن تتبايعوا يداً بيد فلا بأس أن لا تكتبوا، لبُعده عن التنازع

---

(١) جمع بين الاسم الجليل والنعت الجميل للمبالغة في التحذير (أبو السعود ١/ ٢٧٠).

(٢) شدد القرآن في تكليف المملي حيث جمع بين الأمر بالاتقاء والنهي عن البخس لما فيه من الدواعي إلى المنهي عنه، فإن الإنسان مجبول على دفع الضرر عن نفسه (أبو السعود ١/ ٢٧٠).

(٣) قوله «ممن ترضون» تخصيصهم بالوصف المذكور مع أن اعتباره ينبغي أن يكون في كل شهيد وذلك لقلة اتصاف النساء به (أبو السعود ١/ ٢٧٠).

(٤) ولعل إيثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال أن تضل إحداهما فتذكرها الأخرى لتأكيد الإبهام والمبالغة في الاحتراز عن توهم اختصاص الضلال بإحداهما بعينها والتذكير بالأخرى (أبو السعود ١/ ٢٧٠).

(٥) لم أقف عليه.

والنسيان. ونصب عاصم تجارة على أنه الخبر والاسم مضمَر تقديره إلا أن تكون التجارة تجارة حاضرة كقوله:

بنـي أَسَـدٍ هَـلْ تَعْلَمُـونَ بَـلاَءَنَـا ... إذَا كَـانَ يَـوْمـاً ذَا كَـوَاكِـبَ أَشْنَعَـا

ورَفَعَها الباقون على أنها الاسم والخبر تديرونها أو على كان التامة. ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ هذا التبايع، أو مطلقاً لأنه أحوط. والأوامر التي في هذه الآية للاستحباب عند أكثر الأئمة. وقيل: إنها للوجوب ثم اختُلف في إحكامِها ونسخها. ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ يَحْتمل البناءين، ويدل عليه أنه قرىء ولا يضار بالكسر والفتح. وهو نهيهما عن ترك الإجابة والتحريف والتغيير في الكَتْب والشهادة، أو النهي عن الضرار بهما مثل أن يُعَجَّلا عن مهم ويُكَلَّفا الخروج عما حُدَّ لهما، ولا يُعطى الكاتب جَعْله، والشهيد مؤنة مجيئه حيث كان. ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ﴾ الضرار أو ما نهيتم عنه. ﴿فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ خروج عن الطاعة لا حق بكم. ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾ في مخالفة أمره ونهيه. ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ أحكامه المتضمنة لمصالحكم. ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ كرر لفظة «الله» في الجمل الثلاث لاستقلالها، فإن الأولى حث على التقوى، والثانية وعد بإنعامه، والثالثة تعظيم لشأنه. ولأنه أدخل في التعظيم من الكناية.

۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُواْ الشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾

(٢٨٣) ﴿۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أي مسافرين. ﴿وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ فالذي يُسْتَوثَقُ به رهان، أو فعليكم رهان، أو فليؤخذ رهان. وليس هذا التعليق لاشتراط السفر في الارتهان كما ظنه مجاهد[1] والضحاك[2] رحمهما الله تعالى لأنه عليه السلام رَهَنَ درعه في المدينة من يهودي على عشرين صاعاً من شعير أخذه لأهله[3]، بل لإقامة التوثق للارتهان مقام التوثق بالكتابة في السفر الذي

---

(١) مجاهد: هو مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكي، مولى بني مخزوم، تابعي إمام في التفسير، ولد في مكة، وسمع عائشة وأبا هريرة، وعبدالله بن عمرو، وعبدالله بن عباس، وكان أقل أصحابه رواية عنه في التفسير ولكنه أوثقهم. قال: قرأت القرآن على ابن عباس ثلاث مرات، أقف عند كل آية أسأله: فيما نزلت وكيف كانت؟ وهو أحد القائلين بالمذهب العقلي في تفسير القرآن. تنقل في الأسفار، واستقر في الكوفة. قال الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبُك به» وقال الذهبي: «أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به» وله تفسير اعتمد عليه الشافعي والبخاري وغيرهما. مات سنة (١٠٤هـ).

[معجم المفسرين لنويهض (٢/ ٤٦٢ ـ ٤٦٣) والتفسير والمفسرون للذهبي (١/ ١٠٦ ـ ١٠٩)].

(٢) الضحاك: هو الضحاك بن مزاحم الهلالي أبو القاسم ويقال أبو محمد الخراساني كان معلماً مرموق المكانة، ومفسراً مشهوراً. توفي سنة ١٠٥ وقيل غير ذلك.

[تهذيب التهذيب (٤/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨) والميزان (٢/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦)].

(٣) أخرجه البخاري (٤/ ٣٠٢ رقم ٢٠٦٨) و(٤/ ٣١٩ رقم ٢٠٩٦) و(٤/ ٣٩٩ رقم ٢٢٠٠) و(٤/ ٤٣٣ رقم ٢٢٥٢) و(٥/ ٥٣ رقم ٢٣٨٦) و(٥/ ١٤٢ رقم ٢٥٠٩) و(٦/ ٩٩ رقم ٢٩١٦) و(٨/ ١٥١ رقم ٤٤٦٧) ومسلم (٣/ ١٢٢٦ =

هو مظنة إعوازها. والجمهور على اعتبار القبض فيه غير مالك. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو فَرُهُن كسُقُف وكلاهما جمعُ رهنٍ بمعنى مرهون، وقرىء بإسكان الهاء على التخفيف. ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي بعضُ الدائنين بعضَ المديونين واستغنى بأمانته عن الارتهان. ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ أي دينه، سماه أمانة لائتمانه عليه بترك الارتهان به. وقرىء الذي ايتُمِن بقلب الهمزة ياء، والذي اتُّمِنَ بإدغام الياء في التاء وهو خطأ لأن المنقلبة عن الهمزة في حكمها فلا تدغم[١]. ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ في الخيانة وإنكار الحق وفيه مبالغات[٢]. ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ﴾ أيها الشهود، أو المدينون والشهادة شهادتهم على أنفسهم. ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ أي يأثم قلبه أو قلبه يأثم. والجملة خبر إنّ. وإسنادُ الإثم إلى القلب لأن الكتمان مقترَفُه، ونظيرُه: العين زانية والأُذُن زانية، أو للمبالغة فإنه رئيس الأعضاء وأفعالُه أعظم الأفعال، وكأنه قيل: تمكن الإثم في نفسه وأخذ أشرف أجزائه وفاقَ سائر ذنوبه. وقرىء قَلْبَه بالنصب كحسنٌ وجهَه. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ تهديد.

لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾

(٢٨٤) ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خَلقاً ومُلكاً. ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ يعني ما فيها من السوء والعزم عليه لترتب المغفرة والعذاب عليه. ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ يوم القيامة. وهو حجة على من أنكر الحساب كالمعتزلة والروافض[٣]. ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ مغفرته. ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ تعذيبه، وهو صريح في نفي وجوب التعذيب. وقد رفعَهُما ابن عامر وعاصم ويعقوب على الاستئناف، وجزَمَهُما الباقون عطفاً على جواب الشرط، ومن جزم بغير فاء جعلهما بدلاً منه بدل البعض من الكلّ أو الاشتمال كقوله:

مَتَى تَأْتِنَا تُلْمِمْ بنَا فِي دِيَارِنَا ... تجِدْ حَطَباً جَزْلاً وَنَاراً تَأَجَّجَا

وإدغام الراء في اللام لحن إذ الراء لا تدغم إلا في مثلها. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على الإحياء والمحاسبة[٤].

= رقم ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦/١٦٠٣) والنسائي (٧/٢٨٨ رقم ٤٦٠٩) من حديث عائشة.

● وأخرجه البخاري (٤/ ٣٠٢ رقم ٢٠٦٨) و(٥/ ١٤٠ رقم ٢٥٠٨) والنسائي (٧/ ٢٨٨ رقم ٢٦١٠) من حديث أنس.

(١) وقد أورد الألوسي قبول البعض لما رده البيضاوي (روح المعاني ٣/ ٦٣).

(٢) وفي الجمع بين عنوان الألوهية وصفة الربوبية من التأكيد والتحذير مالا يخفى (أبو السعود ١/ ٢٧٢).

(٣) الروافض: سُمُّوا بالرافضة لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر ـ وقيل لرفضهم زيد بن علي رضي الله عنه عندما أنكر عليهم الطعن في أبي بكر وعمر ـ، ومنعهم من ذلك فرفضوه فقال لهم زيد: رفضتموني؟ قالوا: نعم فبقى عليهم هذا الإسم. وأجمعت الرافضة على إثبات الإمامة عقلاً، وأن إمامة علي وتقديمه ثابت نصاً وأن الأئمة معصومون، وقالوا: إن الأمة ارتدت بتركها إمامة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، إلى غير ذلك من الأقوال الفاسدة. وهم أربع وعشرون فرقة.

(٤) حصل إشكال كبير في فهم هذه الآية، حتى إنه أشكل على الصحابة أنفسهم. =

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ
أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا
وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ
عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا
وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾

(٢٨٥) ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ شهادة وتنصيص من الله تعالى على صحة إيمانه والاعتداد به، وإنه جازم في أمره غير شاك فيه[١]. ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ لا يخلو من أن يُعْطَفَ المؤمنون على الرسول فيكونَ الضمير الذي ينوب عنه التنوين راجعاً إلى الرسول والمؤمنين، أو يُجْعَلَ مبتدأ فيكونَ الضمير للمؤمنين، وباعتباره يَصح وقوعُ كلٌّ بخبره خبرَ المبتدأ، ويكونُ إفرادُ الرسول بالحكم إمّا لتعظيمه أو لأن إيمانه عن مشاهدة وعيان وإيمانهم عن نظر واستدلال. وقرأ حمزة والكسائي: وكتابه يعني القرآن أو الجنس. والفرقُ بينه وبين الجمع أنه شائع في وُحْدان الجنسِ والجمعِ في جموعه، ولذلك قيل: الكتاب أكثر من الكتب[٢]. ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ أي يقولون لا نفرق. وقرأ يعقوب لا يُفَرِّقُ بالياء، على أن الفعلَ لكلٍّ، وقرىء لا يُفَرِّقُون حملاً على معناه كقوله تعالى ﴿وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ﴾[٣] واحد في معنى الجمع لوقوعه في سياق النفي كقوله تعالى ﴿فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾[٤] ولذلك دخل عليه بين، والمراد نفي الفرق بالتصديق والتكذيب ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا﴾ أجبنا. ﴿وَأَطَعۡنَاۖ﴾ أمرك. ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا﴾ اغفر لنا غفرانك، أو نطلب غفرانك[٥].

= إلا أن نص الآية يفيد أن الله تعالى يحاسب على ما تخفيه وما تظهره النفس، إلا أنه يغفر حديث النفس، ويؤيده قوله عليه السلام: «إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها، مالم تتكلم أو تعمل به».
ورجح الشوكاني في فتح القدير (١/ ٣٠٥) بأن الآية منسوخة.
ولعل الأول أولى وهو اختيار الألوسي فانظر أدلته وسبب اختياره في ذلك (روح المعاني ٣/ ٦٤).
وفي الآية لفتات بيانية: حيث قدم الجار والمجرور على الفاعل في قوله «يحاسبكم به الله» وذلك للاعتناء به.
وقدم الإبداء على الإخفاء بخلاف قوله تعالى: «قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله» ـ آل عمران: ٢٩ ـ فلما أن المعلق بما في أنفسهم ههنا هو المحاسبة والأصل فيها الأعمال الظاهرة، أما العلم فتعلقه بها كتعلقه بالأعمال الخافية.. كما أن مرتبة الإخفاء مقدمة على مرتبة الإبداء (أبو السعود ١/ ٢٧٣).

(١) قوله «من ربه» تعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام تشريف له وتنبيه على أن إنزاله إليه تربية وتكميل له عليه السلام (أبو السعود ١/ ٢٧٤).

(٢) وتغيير النظم عن سابقه لبيان التفاوت بين إيمانه عليه السلام وإيمانهم.
وفيه نوع تفصيل لما أجمل في سابقه وذلك لبيان الكفاية في الإيمان الإجمالي إن لم يوجد ما يخالفه (أبو السعود ١/ ٢٧٤).

(٣) النمل: «٨٧».

(٤) الحاقة: «٤٧».

(٥) قدم ذكر السمع والطاعة على طلب الغفران لأن تقديم الوسيلة على المسؤول أدعى إلى الإجابة والقبول. =

﴿وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ المرجع بعد الموت وهو إقرار منهم بالبعث.

(٢٨٦) ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ إلا ما تسعه قدرتُها فضلاً ورحمةً، أو ما دون مدى طاقتها بحيث يتسع فيه طوْقها ويتيسر عليها كقوله تعالى ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾(١) وهو يدل على عدم وقوع التكليف بالمِحَال ولا يدل على امتناعه. ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ﴾ من خير. ﴿وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ من شر لا يَنتفع بطاعتها ولا يتَضرر بمعاصيها غيرُها. وتخصيص الكسب بالخير والاكتساب بالشر لأن الاكتساب فيه احتمال والشرّ تشتهيه النفس وتنجذب إليه فكانت أجدَّ في تحصيله وأعْمَلَ بخلاف الخير. ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾ أي لا تؤاخذنا بما أدى بنا إلى نسيان أو خطأ من تفريط وقلة مبالاة، أو بأنفسهما إذ لا تَمْتنع المؤاخذة بهما عقلاً فإن الذنوب كالسموم فكما أن تناولها يؤدي إلى الهلاك ـ وإن كان خطأً ـ فتعاطي الذنوب لا يبعد أن يفضيَ إلى العقاب وإن لم تكن عزيمة، لكنه تعالى وعد التجاوز عنه رحمةً وفضلاً فيجوزُ أن يدعوَ الإنسان به استدامةً واعتداداً بالنعمة فيه، ويؤيد ذلك مفهوم قوله عليه الصلاة والسلام «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان»(٢). ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ

= والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إليهم للمبالغة في التضرع والجُوار (أبو السعود ١/ ٢٧٦).

(١) البقرة: «١٨٥».

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط ـ كما في «المجمع» (٦/ ٢٥٠) ـ لكن بلفظ: «وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه». وقال الألباني في الإرواء (رقم: ٨٢) الحديث بلفظ «رفع عن أمتي...» منكر.

● وله شاهد من حديث ابن عباس:

أخرجه ابن ماجة (١/ ٦٥٩ رقم ٢٠٤٥) والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٣٥٧) من رواية عطاء بن أبي رباح عنه، بلفظ «إن الله تجاوز عن أمتي...».

قال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (١/ ٣٥٣): «إسناده صحيح إن سلم من الانقطاع ـ والظاهر أنه منقطع بين عطاء وابن عباس بدليل زيادة «عبيد بن عمير» في الطريق ـ وليس ببعيد أن يكون السقط من جهة الوليد ابن مسلم، فإنه كان يدلس تدليس التسوية» هـ.

● والطريق التي أشار إليها البوصيري، أخرجه ابن حبان في الموارد رقم (١٤٩٨) والدارقطني (٤/ ١٧٠ ـ ١٧١) والحاكم (٢/ ١٩٨) وابن حزم في أصول الأحكام (٥/ ١٤٩) كلهم من طريق الأوزاعي، عن عطاء بن أبي رباح، عن عبيد بن عمير، عنه، بلفظ «تجاوز...».

قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي وقال الألباني احتج به ابن حزم، وصححه الشيخ أحمد شاكر ـ محقق المُحلّى ـ وصححه الألباني لكن أعله أبو حاتم في العلل (١/ ٤٣١) بدعوى أن الأوزاعي لم يسمعه عن عطاء، إنما سمعه من رجل لم يسمه.

ورده الألباني فقال: إن الأوزاعي ثقة. بل إمام جليل، فلا يجوز تضعيف حديث الثقة لا سيما إذا كان مثل الأوزاعي.

● وأخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ١٣٣ رقم ١١٢٧٤) من طريق مسلم بن خالد الزنجي عن سعيد العلاف، عنه. ومسلم الزنجي، وسعيد العلاف كلاهما ضعيفان.

● وأخرجه ابن عدي في الكامل (٥/ ١٩٢١) في ترجمة عبدالرحيم بن زيد العمي، بلفظ «عفا لي، أو غفر لي...» والعمي ضعيف.

● وله شاهد من حديث أبي ذر، وثوبان، وابن عمر، وأبي بكرة كلها فيها كلام تكلم عليها ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» رقم (٣٩). =

عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ عبأً ثقيلاً يأصِر صاحبه أي يحبسه في مكانه، يريد به التكاليف الشاقة. وقرىء ولا تُحَمِّل بالتشديد للمبالغة. ﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ حَمْلاً مثل حَمْلك إياه على من قبلنا، أو مثل الذي حمّلته إياهم فيكون صفة لإصراً. والمراد به ما كُلف به بنو إسرائيل من قتل الأنفس وقطع موضع النجاسة وخمسين صلاة في اليوم والليلة وصرف ربع المال للزكاة، أو ما أصابهم من الشدائد والمحن. ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ من البلاء والعقوبة، أو من التكاليف التي لا تفي بها الطاقة البشرية، وهو يدل على جواز التكليف بما لا يُطاق وإلا لما سئل التخلص منه، والتشديد ههنا لتعدية الفعل إلى المفعول الثاني. ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ وامح ذنوبنا. ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ واستر عيوبنا ولا تفضحنا بالمؤاخذة. ﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾ وتعطّف بنا وتفضل علينا. ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ سيدنا. ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فإن من حق المولى أن ينصر مواليه على الأعداء، أو المراد به عامة الكفرة.

روي أنه عليه الصلاة والسلام لما دعا بهذه الدعوات قيل له عند كل كلمة فعلت[1]. وعنه عليه الصلاة والسلام «أنزل الله تعالى آيتين من كنوز الجنة، كتبها الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألفي سنة، من قرأهما بعد العشاء الأخيرة أجزأتاه عن قيام الليل»[2]. وعنه عليه الصلاة والسلام «من قرأ

= وأورده السخاوي في المقاصد الحسنة رقم (٥٢٨). وقال: «ومجموع هذه الطرق تُظْهر أن للحديث أصلاً.... وقد صحح ابن حبان والحاكم وغيرهما هذا الخبر كما أشرت إليه، وقال النووي في الروضة وفي الأربعين: إنه حسن...» هـ.

وخلاصة القول: إن الحديث حسن والله أعلم.

(١) أخرجه مسلم (١/١١٦ رقم ٢٠٠/١٢٦) والطبري في «جامع البيان» (٣/١٤٣ - ١٤٤) والترمذي (٥/٢٢١ رقم ٢٩٩٢) والنسائي في الكبرى - كما في تحفة الأشراف (٤/٣٩٢) - والبيهقي في الأسماء والصفات (ص٢١٠ - ٢١١). من حديث ابن عباس. وغفل الحاكم فاستدركه في المستدرك (٢/٢٨٦ - ٢٨٧).

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل (٧/٢٥٤٥) من حديث أبي مسعود الأنصاري وفي إسناده الوليد بن عباد، قال عنه ابن عدي: ليس من المعروفين. وأبان بن أبي سلمة عياش وهو متروك.

● قلت: أخرج الترمذي (٥/١٥٩ - ١٦٠ رقم ٢٨٨٢) والنسائي في عمل اليوم والليلة (رقم ٩٦٧) والدارمي (٢/٤٤٩) وأحمد (٤/٢٧٤) والحاكم في المستدرك (١/٥٦٢).

من حديث النعمان بن بشير، عن النبي ﷺ قال: إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، ولا يقرآن في دار ثلاث ليالٍ فيقربها شيطان.

وقال الترمذي: حسن غريب.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

● وأخرج الطبراني في الكبير (٧/٣٤٢ رقم ٧١٤٦) من حديث شداد بن أوس مثل حديث النعمان بن بشير المتقدم.

وأورده الهيثمي في «المجمع» (٦/٣١٢) وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات.

وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (٢/١٣٨) وقال: أخرجه الطبراني بسند جيد.

● وأخرج أحمد (٥/٣٨٣) والطبراني في الكبير (٣/١٨٨ رقم ٣٠٢٥) والبيهقي في الشعب (٢/٤٦٠ رقم ٢٣٩٩) وفي دلائل النبوة (٥/٤٧٤ - ٤٧٥) كلهم من طريق ربعي بن حراش عن حذيفة عن النبي ﷺ. قال: «أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش».

وقال الهيثمي في «المجمع» (٦/٣١٢، ٣٢٤): «رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط، ورجال أحمد رجال=

الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»[١]. وهو يرد قول من استكْرَه أن يقال سورة البقرة، وقال: ينبغي أن يقال السورة التي تذكر فيها البقرة، كما قال عليه الصلاة والسلام «السورة التي تذكر فيها البقرة فسطاط القرآن فتعلموها، فإن تعلمها بركة وتركها حسرة، ولن يستطيعها البَطَلَة قيل: يا رسول الله وما البطلة؟ قال: السحرة»[٢].

☆ ☆ ☆

= الصحيح» هـ.

● وأخرج مسلم (١/ ٣٧١ رقم ٤/ ٥٢٢) من هذا الوجه قال: قال النبي ﷺ «فضلنا على الناس بثلاث: جُعِلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت تربتُها لنا طَهوراً إذا لم نجد الماء» وذكر خصلةً أخرى، قلت: هذه الخصلة: «أعطيت خواتيم البقرة من كنز تحت العرش». فقد قال الحاكم في المستدرك (١/ ٥٦٣): أخرج مسلم حديث أبي مالك الأشجعي عن ربعي بن حراش عن حذيفة، فذكره.

● وأخرج ابن الفريس في «فضائل القرآن» رقم (١٧٤) من طريق حماد بن سلمة عن عاصم بن بهدلة، عن علقمة ـ عن أبي مسعود البدري قوله «من قرأ خاتمة سورة البقرة في ليلة أجزأت عنه عن قيام الليل» ـ.

قلت: ولعل هذا هو الأشبه أي الموقوف فجعله أبان بن عياش مرفوعاً.

لكن يشهد له الحديث الآتي في التعليقة التالية.

(١) أخرجه البخاري (٧/ ٣١٧ رقم ٤٠٠٨) و(٩/ ٥٥ رقم ٥٠٠٨، ٥٠٠٩) و(٩/ ٨٧ رقم ٥٠٤٠) و(٩/ ٩٤ رقم ٥٠٥١) ومسلم (١/ ٥٥٤ رقم ٢٥٥/ ٨٠٧) وأبو داود (٢/ ١١٨ رقم ١٣٩٧) والترمذي (٥/ ١٥٩ رقم ٢٨٨١) والنسائي في «فضائل القرآن» رقم (٤٣، ٤٤، ٤٥) وفي عمل اليوم والليلة رقم (٧١٨ و٧١٩ و٧٢٠ و٧٢١) وابن ماجة (١/ ٤٣٥ رقم ١٣٦٩) والدارمي (٢/ ٤٥٠) كلهم من رواية عبدالرحمن بن يزيد، عن أبي مسعود. وفي بعض الطرق عن عبدالرحمن بن يزيد، عن علقمة عنه، ثم قال عبدالرحمن: ثم لقيته وهو يطوف بالبيت فحدثنيه».

(٢) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد الخدري ـ كما في الجامع الصغير رقم (٤٨٤١). وقال المناوي: فيه إسماعيل بن أبي زياد الشامي. قال الذهبي، قال الدارقطني: يضع الحديث. وأورده الألباني في ضعيف الجامع (٣/ ٢٤٢ رقم ٣٣٦٥) وحكم عليه بالوضع.

وأورده السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٥١) وكذلك الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب (٢/ ٣٤٤ رقم ٣٥٥٩).

● وأخرج الحديث مسلم في صحيحه (١/ ٥٥٣ رقم ٢٥٢/ ٨٠٤) من حديث أبي أمامة مرفوعاً «اقرؤوا سورة البقرة، فإن أخذها بركةٌ، وتركها حَسْرَةُ، ولا تستطيعُها البطلَةُ». قال معاوية: بلغني أن البطلةَ السحرةُ.

سورة آل عمران

ترتيبها ٣ — آياتها ٢٠٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ
وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ
عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾
هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾

(١) ﴿الٓمٓ﴾.

(٢) ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ إنما فتَحَ الميمَ في المشهور ـ وكان حقها أن يوقف عليها لإلقاء حركة الهمزة عليها ـ ليدلّ على أنها في حكم الثابت لأنها أسقطت للتخفيف لا للدّرْج، فإن الميم في حكم الوقف كقولهم واحدٌ اثْنان بإلقاء حركة الهمزة على الدالِ لا لالتقاء الساكنين فإنه غير محذور في باب الوقف، ولذلك لم تحرك الميم في لام. وقرىء بكسرها على توهم التحريك لالتقاء الساكنين، وقرأ أبو بكر بسكونها والابتداء بما بعدها على الأصل. ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾[1] روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إن اسم الله الأعظم في ثلاث سور في البقرة الله لا إله إلا هو الحي القيوم، وفي آل عمران الله لا إله إلا هو الحي القيوم، وفي طه وعنت الوجوه للحي القيوم»[2].

---

(١) الحيّ: الباقي الذي لا سبيل عليه للموت والفناء، والقيوم: الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه. ومن ضرورة اختصاص هذين الوصفين به تعالى استحقاق المعبودية به تعالى (س٢/٢).

(٢) أخرج الطبراني في الكبير (٨/ ٢٨٢ رقم ٧٩٢٥) من حديث أبي أمامة مرفوعاً بلفظ «اسْمُ اللهِ الأَعْظَمُ الذي إذا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ في ثلاث سُوَر من القرآن في البَقَرة وآل عِمْران وطه». وأخرجه الطحاوي في مشكل الآثار (١/ ٦٣). والحاكم (١/ ٥٠٦) كلهم من طريق الوليد بن مسلم، عن عبدالله بن العلاء بن زبر، عن أبي القاسم عنه.

وأخرجه الطبراني في الكبير أيضاً (٨/ ٢١٤ ـ ٢١٥ رقم ٧٧٥٨) وابن ماجة (٢/ ١٢٦٧ رقم ٣٨٥٦) من طريق عمرو بن أبي سلمة عن عيسى بن موسى عن غيلان بن أنس عن القاسم عنه. =

(٣) ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن نُجُوماً. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالعدل، أو بالصدق في أخباره، أو بالحجج المحققة أنه من عند الله، وهو في موضع الحال[1]. ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب. ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ جُمْلَةً على موسى وعيسى. واشتقاقهما من الوَرى والنَّجْل، ووزنُهما بتَفْعِلَة وإفْعِيل تعسّفٌ لأنهما أعجميان، ويؤيد ذلك أنه قرىء الأنجيل بفتح الهمزة وهو ليس من أبنية العربية، وقرأ أبو عمرو وابن ذكوان والكسائي التوراة بالإمالة في جميع القرآن، ونافعٌ وحمزةُ بين اللفظين إلا قالون فإنه قرأ بالفتح كقراءة الباقين.

(٤) ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل تنزيل القرآن. ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ على العموم إن قلنا إنا متعبدون بشرع مَنْ قبلنا، وإلا فالمراد به قومهما. ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ يريد به جنسَ الكتب الإلهية، فإنّها فارقة بين الحق والباطل. ذُكِرَ ذلك بعد ذكر الكتب الثلاثة ليعمّ ما عداها، كأنه قال: وأنزل سائر ما يفرق به بين الحق والباطل، أو الزبور أو القرآن. وكُرِّر ذكره بما هو نعت له مدحاً وتعظيماً وإظهاراً لفضله من حيث إنه يشاركهما في كونه وحياً مُنَزّلاً ويتميز بأنه معجز يفرّق بين المحق والمبطل، أو المعجزات ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ من كتبه المنزلة وغيرها. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بسبب كفرهم[2]. ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يمنع من التعذيب. ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ لا يقدر على مثله منتقم، والنِّقْمةُ عقوبة المجرم، والفعل منه نَقَمَ بالفتح والكسر، وهو وعيد جيء به بعد تقرير التوحيد والإشارة إلى ما هو العمدة في إثبات النبوة تعظيماً للأمر وزجراً عن الإعراض عنه.

(٥) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أيُّ شيء كائن في العالم كلياً كان أو جزئياً إيماناً أو كفراً، فعبّر عنه بالسماء والأرض إذِ الحِسّ لا يتجاوزُهما. وإنما قدّم الأرض ترقياً من الأدنى إلى الأعلى، ولأن المقصود بالذكر ما اقترف فيها، وهو كالدليل على كونه حياً.

(٦) وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ أي من الصور المختلفة، كالدليل على القيومية والاستدلال على أنه عالم بإتقان فعله في خلق الجنين وتصويره. وقرىء تَصَوَّرَكم أي صوركم

= ● وله شاهد من حديث أسماء بنت يزيد:
أخرج أبو داود (٢/١٦٨ رقم ١٤٩٦) والترمذي (٥/٥١٧ رقم ٣٤٧٨) وابن ماجة (٢/١٢٦٧ رقم ٣٨٥٥) كلهم من طريق عبيدالله بن أبي زياد، عن شهر بن حوشب، عنها عن النبي ﷺ: قال: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين «وإلٰهكم إله واحد لا إله إلاّ هو الرحمٰن الرحيم» [البقرة: ١٦٣] وفاتحة آل عمران «الٓمٓ اللهُ لا إله إلا هو الحيُّ القيوم» وأخرجه أحمد(٦ـ٤٦١) من هذا الوجه لكن عنده قال في هاتين الآيتين:(اللَّهُ لا إله إلا هو الحي القيوم) و«آلم الله لا إله إلا هو الحي القيوم»: إن فيها اسم الله الأعظم.
قال الترمذي: حسن صحيح. قلت: لعله نظراً إلى شاهده المذكور من حديث أبي أمامة، وإلا ففيه «عبيدالله بن أبي زياد القداح» ليس بالقوي [التقريب: ١/٥٣٣].
وشهر بن حوشب: ليس بالقوي أيضاً [الضعفاء والمتروكين للنساء (رقم: ٣١٠)].
وحسن الألباني حديث أسماء بنت يزيد، وحديث أبي أمامة وانظر «الصحيحة» رقم: (٧٤٦) وصحيح أبي داود.

(١) وصيغة التفعيل في «نَزّل» للدلالة على التنجيم.
وتقديم الظرف «عليك» على المفعول «الكتاب» للاعتناء بالمقدم والتشويق للمؤخر (س ٢/٤).

(٢) التنوين في عذاب للتفخيم.

لنفسه وعبادته. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا يَعْلمُ غيرُه جملةَ ما يَعْلمُه ولا يقْدِر على مثل ما يفعله. ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ إشارة إلى كمال قدرته وتناهي حكمته. قيل: هذا حِجاج على من زعم أن عيسى كان رباً، فإن وفد نجران لما حاجّوا فيه رسول الله ﷺ نزلت السورة من أولها إلى نَيِّف وثمانين آية تقريراً لما احتجَّ به عليهم وأجاب عن شبههم.

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾

(٧) ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ أُحكمت عبارتها بأن حُفِظت من الإجمال والاحتمال. ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أصْلُهُ يُرد إليها غيرها. والقياسُ أمهاتُ فأُفرد على تأويل كل واحدة، أو على أن الكل بمنزلة آية واحدة. ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ محتمِلات لا يتضح مقصودها ـ لإجمالٍ أو مخالفةِ ظاهرٍ ـ إلا بالفحص والنظر، ليظهر فيها فضلُ العلماء ويزداد حرصهم على أن يجتهدوا في تدبرها وتحصيل العلوم المتوقِّف عليها استنباط المراد بها، فينالوا بها وبإتعاب القرائح في استخراج معانيها والتوفيق بينها وبين المحكمات معاليَ الدرجات. وأما قوله تعالى ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾[١] فمعناه أنها حُفظت من فساد المعنى وركاكة اللفظ، وقوله ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾[٢] فمعناه أنه يشبه بعضه بعضاً في صحة المعنى وجزالة اللفظ. وأُخَرُ جمع أخرى، وإنما لم ينصرف لأنه وصف معدول عن الآخر ولا يلزم منه معرفته، لأن معناه أن القياس أن يعرفَ ولم يعرفْ لا أنه في معنى المعرف أو عن أخر من. ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ عُدول عن الحق كالمبتدِعة[٣]. ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ فيتعلقون بظاهره أو بتأويل باطل ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ طَلَبَ أن يفتنوا الناس عن دينهم بالتشكيك والتلبيس ومناقضة المحكم بالمتشابه. ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ وطَلَبَ أن يؤولوه على ما يشتهونه، ويُحتمل أن يكون الداعي إلى الاتباع مجموع الطَّلِبتين أو كل واحدة منهما على التعاقب، والأول يناسب المعانِد والثاني يلائم الجاهل. ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ﴾ الذي يجب أن يحمل عليه. ﴿إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ أي الذين ثبتوا وتمكنوا فيه. وَمنْ وقف على إلا الله فَسَّرَ المتشابه بما استأثر الله بعلمه، كمدة بقاء الدنيا ووقت قيام الساعة وخواص الأعداد كعدد الزبانية، أو بمُبَادِلِ القاطِع على أن ظاهره غير مراد ولم يدل على ما هو المراد. ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ استئناف موضح لحال الراسخين، أو حال منهم، أو خبر إنْ جَعَلْته مبتدأ. ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ أي كل من المتشابه والمحكم من عنده، ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ مدح للراسخين بجودة الذهن

---

(١) هود: «١».

(٢) الزمر: «٢٣».

(٣) والزيغ هو الميل عن الاستقامة.

وجعل قلوبهم مقراً للزيغ مبالغة في عُدُولهم عن سنن الرشاد وإصرارهم على الشر والفساد (س ٢/ ٨).

وحسن النظر وإشارة إلى ما استعدوا به للاهتداء إلى تأويله، وهو تجرد العقل عن غواشي الحس. واتصالُ الآية بما قبلها من حيث إنها في تصوير الروح بالعلم وتربيته وما قبلَها في تصوير الجسد وتسويته، أو أنها جواب عن تشبث النصارى بنحو قوله تعالى ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[1]. كما أنه جواب عن قولهم لا أب له غير الله، فتعين أن يكون هو أباه بأنه تعالى مصوِّر الأجنة كيف يشاء فيصور من نطفةِ أبٍ ومن غيرها، وبأنه صوره في الرحم والمصوِّر لا يكون أبَ المصوَّر.

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾

(٨) ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ من مقال الراسخين. وقيل: استئناف، والمعنى لا تزغ قلوبنا عن نهج الحق إلى اتباع المتشابه بتأويلٍ لا ترتضيه، قال عليه الصلاة والسلام «قلب ابن آدم بين أُصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أقامه على الحق وإن شاء أزاغه عنه»[2]. وقيل: لا تُبلنا ببلايا تَزيغ فيها قلوبُنا. ﴿بَعْدَ

---

(١) النساء: «١٧١».

(٢) وهو حديث صحيح بمتابعاته وشواهده:

● أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٣٠٢، ٣١٥) والترمذي (٥/ ٥٣٨ رقم ٣٤٢٢) كلاهما من طريق شهر بن حوشب عن أم سلمة رضي الله عنها.

وقال الترمذي: حديث حسن. فلعله نظراً إلى شاهدة عند مسلم، وإلا شهر بن حوشب ليس بالقوي كما تقدم.

● وأخرجه أحمد في المسند (٦/ ٢٥١) وابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ١٠٠ رقم ٢٢٤) والآجري في الشريعة ص٣١٧ من طريق علي بن زيد ـ بن جدعان ـ عن أم محمد عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: إن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمٰن... الحديث.

وفي سنده: علي بن زيد بن جدعان: ضعيف.

وللحديث شواهد:

(منها): حديث عبدالله بن عمرو بن العاص. أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٤٥ رقم ١٧/ ٢٦٥٤) وأحمد (٢/ ١٦٨) وابن أبي عاصم (١/ ١٠٠ رقم ٢٢٢) والآجري في الشريعة ص٣١٦ كلهم من طريق أبي عبدالرحمٰن الحُبُلي عنه.

(منها): حديث أنس بن مالك: أخرجه أحمد (٣/ ١١٢) وابن أبي عاصم (١/ ١٠١ رقم ٢٢٥) والآجري في الشريعة ص٣١٦ كلهم من طريق الأعمش عن أبي سفيان ـ طلحة بن نافع ـ عنه.

(ومنها): حديث النواس بن سمعان أخرجه النسائي في الكبرى ـ كما في تحفة الأشراف (٩/ ٦١) ـ وابن ماجة (١/ ٧٢ رقم ١٩٩) وأحمد (٤/ ١٨٢) وابن أبي عاصم: (١/ ٩٨ رقم ٢١٩) والآجري في الشريعة (ص٣١٧) والحاكم (١/ ٥٢٥) و(٤/ ٣٢١) والبغوي في شرح السنة (١/ ١٦٦) وابن حبان (رقم: ٢٤١٩ ـ موارد) كلهم من طريق عبدالرحمن بن يزيد، عن بسر بن عبيدالله الحضرمي عن أبي إدريس الخولاني عنه.

قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (١/ ٦٩ رقم ٦٩): هذا إسناد صحيح.

(ومنها): حديث نعيم بن همار أخرجه ابن أبي عاصم (١/ ٩٩ رقم ٢٢١) والطبراني في الكبير ـ كما في «المجمع» (٧/ ٢١١) ـ وقال الهيثمي: رجاله ثقات.

وقال الألباني: حديث صحيح وإسناده حسن.

إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ إلى الحق والإيمان بالقِسمين من المحكم والمتشابه، وبعدَ نصب على الظرف، وإذ في موضع الجر بإضافته إليه، وقيل إنه بمعنى إن. ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ تُزلِفُنا إليك ونفوز بها عندك، أو توفيقاً للثبات على الحق أو مغفرة للذنوب. ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ لكل سؤال، وفيه دليل على أن الهدى والضلال من الله وأنه متفضل بما ينعم على عباده لا يجب عليه شيء.

رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾

(٩) ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ لحساب يوم أو لجزائه[١]. ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ في وقوع اليوم وما فيه من الحشر والجزاء، نبهوا به على أن معظم غرضهم من الطلبتين ما يتعلق بالآخرة فإنها المقصد والمآل. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ فإن الإلهية تنافيه، وللإشعارِ به وتعظيمِ الموعودِ لَوّنَ الخطاب. واستدل به الوعيديةُ[٢]، وأجيب بأن وعيد الفساق مشروط بعدم العفو لدلائل منفصلة كما هو مشروط بعدم التوبة وفاقاً[٣].

(١٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ عام في الكفرة. وقيل: المراد به وفد نجران، أو اليهود، أو مشركو العرب. ﴿لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي من رحمته، أو طاعته على معنى البدلية، أو من عذابه[٤] ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ حطبها. وقرىء بالضم بمعنى أهل وقودها[٥].

(١١) ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ متصل بما قبله أي لن تغني عنهم كما لم تغن عن أولئك أو تُوقَد بهم كما توقد بأولئك، أو استئناف مرفوع المحل تقديره دأبُ هؤلاء كدأبهم في الكفر والعذاب، وهو مصدر دَأَبَ في العمل إذا كدح فيه فنقل إلى معنى الشأن. ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ عطف على آل فرعون. وقيل استئناف. ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ حال بإضمار قد، أو استئناف بتفسير حالهم، أو خبر إن ابتدأْتَ بالذين من قبلهم[٦]. ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ تهويل للمؤاخذة وزيادة تخويف الكفرة.

---

(١) حُذِف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه تهويلاً له وتفظيعاً لما يقع فيه (س ٢/٩).

(٢) الوعيدية هم المعتزلة الذين يقولون بأنه تعالى وعد المؤمنين بالثواب وأوعد العاصين بالعقاب. فيقولون بالوعد والوعيد. أما أهل السنة فيقولون بالعفو نتيجة للتوبة.

(٣) وقوله «إن الله لا يخلف الميعاد» إظهار للاسم الجليل مع الالتفات لإبراز كمال التعظيم والإجلال الناشىء من ذكر اليوم المهيب وللإشعار بعلة الحكم فإن الألوهية منافية للإخلاف (س ٢/٩).

(٤) وتقديم الأموال على الأولاد مع توسيط حرف النفي إما لعراقة الأولاد في كشف الكروب أو لأن الأموال هي أول ما يفزع إليها عند نزول الخطوب (س ٢/١٠).

(٥) وإيثار الجملة الإسمية في قوله «وأولئك هم وقود النار» للدلالة على تحقق الأمر وتقرره وللدلالة على كمال ملابستهم للنار (س ٢/١٠).

(٦) والالتفات إلى التكلم بقوله «كذبوا بآياتنا» للجري على سنن الكبرياء، وإلى الغيبة ثانياً بقوله «فأخذهم الله» =

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾

(١٢) ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي قل لمشركي مكة ستغلبون يعني يوم بدر، وقيل لليهود فإنه عليه الصلاة والسلام جمعهم بعد بدر في سوق بني قينقاع فحذّرهم أن يَنْزل بهم ما نزل بقريش، فقالوا لا يغرنك أنك أصبت أغماراً[1] لا علم لهم بالحرب لئن قاتلتنا لعلمت أنا نحن الناس، فنزلت[2]. وقد صَدَّق الله وعده لهم بقتل قريظة وإجلاء بني النضير وفتح خيبر وضرب الجزية على من عداهم وهو من دلائل النبوة. وقرأ حمزة والكسائي بالياء فيهما على أن الأمر بأن يحكي لهم ما أخبره به من وعيدهم بلفظه. ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ تمام ما يقال لهم، أو استئناف وتقديره بئس المهاد جهنم أو ما مهدوه لأنفسهم.

(١٣) ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ الخطاب لقريش أو لليهود، وقيل للمؤمنين. ﴿فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾ يوم بدر. ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ﴾ يرى المشركون المؤمنين مثلي عدد المشركين، وكان قريباً من ألف، أو مثلي عدد المسلمين وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر، وذلك كان بعد ما قلّلهم في أعينهم حتى اجترؤوا عليهم وتوجهوا إليهم، فلما لاقوهم كثروا في أعينهم حتى غُلِبوا مِدَداً من الله تعالى للمؤمنين، أو يرى المؤمنون المشركين مثلي المؤمنين وكانوا ثلاثة أمثالهم ليثبتوا لهم ويتيقنوا بالنصر الذي وعدهم الله به في قوله: ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾[3]. ويؤيده قراءة نافع ويعقوب بالتاء، وقرىء بهما على البناء للمفعول أي يريهم الله أو يريكم ذلك بقدرته. وفئة بالجرّ على البدل من فئتين والنصب على الاختصاص، أو الحال من فاعل التقتا[4]. ﴿رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ رؤية ظاهرة معاينة. ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ نصره كما أيد أهل بدر. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي التقليل والتكثير أو غلبة القليل عديم العدة في الكثير شاكي السلاح، وكون الواقعة آية أيضاً يحتملها ويحتمل وقوع الأمر على ما أخبر به الرسول ﷺ. ﴿لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي لعظة لذوي البصائر. وقيل لمن أبصرهم.

= بإظهار الجلالة لتربية المهابة وإدخال الروعة (س ٢/ ١١).

(١) أغماراً أي لا تجربة لهم ولا علم.

(٢) أخرجه ابن إسحاق في السيرة (٢/ ٢٢٩) معلقاً، وأخرجه الواحدي في «أسباب النزول» (٨١ ـ ٨٢) من طريق ابن إسحاق، وأخرجه البيهقي في الدلائل (٣/ ١٧٣ ـ ١٧٤) والطبري في جامع البيان (٣/ ١٩٢).
وأبو داود في السنن (٣/ ٤٠٢ رقم ٣٠٠١) من طريق ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت عن سعيد بن جبير أو عكرمة عنه ومحمد هذا مجهول والخلاصة أن الحديث ضعيف.

(٣) الأنفال: «٦٦».

(٤) وصف الفئة الأولى «المؤمنة» بالقتال في سبيل الله مدحاً لهم واعتداداً بقتالهم وإيذاناً بأنه المدار في تحقق الآية.
بينما وصف الفئة الثانية بالكفر ولم يصفها بما يقابل صفة الفئة الأولى إسقاطاً لقتالهم عن درجة الاعتبار وإيذاناً بأنهم لم يتصدوا للقتال لما اعتراهم من الرعب والهيبة (س ٢/ ١٢).

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾

(١٤) ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ أي المشتهَيات سماها شهوات مبالغة وإيماء على أنهم انهمكوا في محبتها حتى أحبوا شهوتها كقوله تعالى ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾[(١)]. والمزيِّن هو الله تعالى لأنه الخالق للأفعال والدواعي، ولعله زينه ابتلاء، أو لأنه يكون وسيلة إلى السعادة الأخروية إذا كان على وجه يرتضيه الله تعالى، أو لأنه من أسباب التعيش وبقاء النوع. وقيل الشيطان فإن الآية في معرض الذم. وفرق الجبائي[(٢)] بين المباح والمحرم[(٣)]. ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ بيان للشهوات. والقنطار المال الكثير. وقيل مائةُ ألف دِينار. وقيل ملءِ مَسْك ثور. واختلف في أنه فِعْلال أو فِنْعَال، والمقنطرة مأخوذة منه للتأكيد كقولهم بدرة مبدرة. والمسوَّمة المُعْلَمة من السَّوْمة وهي العلامة، أو المرعية من أسام الدابة وسوَّمها، أو المطهمة[(٤)]. والأنعام الإبل والبقر والغنم[(٥)] ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ إشارة إلى ما ذكر. ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ أي المرجع، وهو تحريض على استبدال ما عنده من اللذات الحقيقية الأبدية بالشهوات المخدجة الفانية.

(١٥) ﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ يريد به تقرير أن ثواب الله تعالى خير من مستلذات الدنيا[(٦)]. ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ استئناف لبيان ما هو خير، ويجوز أن يتعلق اللام بخير ويرتفع جنات على هو جنات، ويؤيده قراءة من جرها بدلاً من خير. ﴿وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ مما يستقذر من النساء. ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ قرأ عاصم في رواية أبي بكر في جميع القرآن بضم الراء ما خلا الحرف الثاني في المائدة وهو قوله تعالى ﴿رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾[(٧)] بكسر الراء، وهما لغتان. ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي بأعمالهم فيثيب المحسن ويعاقب المسيء، أو بأحوال الذين اتقوا

---

(١) ص: «٣٢».

(٢) الجبائي هو: محمد بن عبدالوهاب الجُبَّائي البصري، ولد سنة (٢٣٥هـ) من أئمة المعتزلة بالبصرة، وإليه تنسب فرقة الجبائية، ونسبته إلى «جبى» من قرى البصرة له تفسير مطول، رد عليه الأشعري. توفي سنة (٣٠٣هـ) ودفن بـ«جبى» [الأعلام للزركلي (٦/ ٢٥٦)].

(٣) وفي قوله تعالى «زين» إيثار صيغة المبني للمفعول جرياً على سنن الكبرياء (س ٢/ ١٤).

(٤) قوله «المطهمة» أي التامة الخلق.

(٥) وفي قوله «من النساء والبنين» فقدم حب النساء لعراقتهن في معنى الشهوة فإنهن حبائل الشيطان. ولم يتعرض للبنات لعدم الاطراد في حبهن (س ٢/ ١٤).

(٦) إبهام الخير لتفخيم شأنه والتشويق إليه (س ٢/ ١٥).

(٧) المائدة: «١٦».

فلذلك أعد لهم جنات[١]. وقد نبه بهذه الآية على نعمه فأدناها متاع الحياة الدنيا وأعلاها رضوان الله تعالى لقوله تعالى ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[٢] وأوسطها الجنة ونعيمها.

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧) شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)﴾

(١٦) ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ صفة للمتقين، أو للعباد، أو مدح منصوب أو مرفوع. وفي ترتيب السؤال على مجرد الإيمان دليل على أنه كاف في استحقاق المغفرة أو الاستعداد لها.

(١٧) ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ حصر لمقامات السالك على أحسن ترتيب، فإن معاملته مع الله تعالى إما توسل وإما طلب، والتوسل إما بالنفس وهو منعها عن الرذائل وحبسها على الفضائل والصبر يشملهما، وإما بالبدن، وهو إما قولي وهو الصدق وإما فعلي وهو القنوت الذي هو ملازمة الطاعة، وإما بالمال وهو الإنفاق في سبل الخير، وأما الطلب فبالاستغفار لأن المغفرة أعظم المطالب بل الجامع لها. وتوسيطُ الواو بينهما للدلالة على استقلال كل واحد منها وكمالهم فيها أو لتغاير الموصوفين بها، وتخصيص الأسحار لأن الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة، لأن العبادة حينئذ أشق والنفس أصفى والروع أجمع سيما للمجتهدين، قيل إنهم كانوا يصلون إلى السحر ثم يستغفرون ويدعون.

(١٨) ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بيّن وحدانيته بنصب الدلائل الدالة عليها وإنزالِ الآيات الناطقة بها. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ بالإقرار. ﴿وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ بالإيمان بها والاحتجاج عليها، شبه ذلك في البيان والكشف بشهادة الشاهد. ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ مقيماً للعدل في قسمه وحكمه، وانتصابه على الحال من الله وإنما جاز إفراده بها ولم يَجُز جاء زيد وعمرو راكباً لعدم اللبس كقوله تعالى ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾[٣]، أو مِنْ هو والعاملُ فيها معنى الجملة أي تفرّد قائماً أو أَحُقُّه لأنها حال مؤكدة، أو على المدح، أو الصفةِ للمنفي وفيه ضَعْف للفصل وهو مندرج في المشهود به إذا جعلته صفة أو حالاً من الضمير. وقرىء القائمُ بالقسط على البدل عن هو أو الخبر لمحذوف. ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كرره للتأكيد ومزيد الاعتناء بمعرفة أدلة التوحيد والحُكم به بعد إقامة الحجة وليبني عليه قوله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فيعلم أنه الموصوف بهما. وقَدّم العزيز لتقدم العلم بقدرته على العلم بحكمته. ورفعُهما على البدل من الضمير أو الصفة لفاعل شهد.

---

(١) قوله «والله بصير بالعباد» إشارة وإشعار إلى أن من ذكر يستحق وصفه بالعبودية الحقة (س ٢/ ١٦).
(٢) التوبة: «٧٢».
(٣) الأنبياء: «٧٢».

وقد روي في فضلها أنه عليه الصلاة والسلام قال «يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله تعالى: إن لعبدي هذا عندي عهداً وأنا أحق من وفّى بالعهد، أدْخِلوا عبدي الجنة». وهي دليل على فضل علم أصول الدين وشرف أهله.

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾

(١٩) ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ جملة مستأنفة مؤكدة للأولى أي لا دين مرضي عند الله سوى الإسلام، وهو التوحيد والتدرع بالشرع الذي جاء به محمد ﷺ. وقرأ الكسائي بالفتح على أنه بدل من أنه بدل الكل إنْ فُسِّر الإسلام بالإيمان أو بما يتضمنه، وبدل اشتمال إنْ فُسِّر بالشريعة، وقرىء إنّه ـ بالكسر ـ وأنَّ ـ بالفتح ـ على وقوع الفعل على الثاني واعتراضٍ ما بينهما أو إجراءِ شَهِدَ مجرى قال تارة وعلم أخرى لتضمنه معناهما. ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ من اليهود والنصارى، أو من أرباب الكتب المتقدمة في دين الإسلام فقال قوم إنه حق وقال قوم إنه مخصوص بالعرب ونفاه آخرون مطلقاً، أو في التوحيد فثلثت النصارى ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾(١). وقيل هم قوم موسى اختلفوا بعده. وقيل هم النصارى اختلفوا في أمر عيسى عليه السلام. ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي بعد ما علموا حقيقة الأمر وتمكنوا من العلم بها بالآيات والحجج. ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ حسداً بينهم وطلباً للرئاسة، لا لشبهة وخفاءٍ في الأمر. ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ وعيد لمن كفر منهم(٢).

(٢٠) ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾ في الدين، أو جادلوك فيه بعدما أقمت الحجج. ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾ أخلصت نفسي وجملتي له لا أشرك فيها غيره، وهو الدين القويم الذي قامت به الحجج ودعت إليه الآيات والرسل. وإنما عبّر بالوجه عن النفس لأنه أشرف الأعضاء الظاهرة ومظهر القوى والحواس ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ عطف على التاء في أسلمت وحسُن للفصل، أو مفعول معه. ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ﴾ الذين لا كتاب لهم كمشركي العرب(٣). ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ كما أسلمت لما وضّحت لكم الحجة، أم أنتم بعدُ على كفركم ونظيره وقوله ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾(٤) وفيه تعيير لهم بالبلادة أو المعاندة. ﴿فَإِنْ

(١) التوبة: «٣٠».

(٢) قوله «فإن الله» إظهار الجلالة لتربية المهابة وإدخال الروعة.
وفي ترتيب العقاب على مطلق الكفر بآياته تعالى من غير تعرض لخصوصية حالهم من كون كفرهم بعد إيتاء الكتاب وحصول الاطلاع على ما فيه.. دلالة على كمال شدة عقابهم (س٢/١٨).

(٣) قوله «للذين أوتوا الكتاب» وضع الموصول موضع الضمير لرعاية التقابل بين وصفي المتعاطفين (س ٢/١٩).

(٤) المائدة: «٩١».

أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ فقد نفعوا أنفسهم بأن أخرجوها من الضلال. ﴿وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي فلم يضروك إذ ما عليك إلا أن تبلغ وقد بلغت. ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ وعد ووعيد.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ
بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا
وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ
لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

(٢١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هم أهل الكتاب الذين في عصره عليه السلام، قتل أولهم الأنبياء ومتابعيهم وهم رضُوا به وقصدوا قتل النبي ﷺ والمؤمنين ولكن الله عصمهم، وقد سبق مثله في سورة البقرة. وقرأ حمزة ويقاتِلون الذين. وقد منع سيبويه إدخال الفاء في خبر إنْ كليت ولعل ولذلك قيل الخبر[1].

(٢٢) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ كقولك زيدٌ فافهم رجلٌ صالح، والفرق أنه لا يغير معنى الابتداء بخلافهما. ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يدفع عنهم العذاب.

(٢٣) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي التوراة أو جنس الكتب السماوية، ومن للتبعيض أو للبيان. وتنكير النصيب يحتمل التعظيم والتحقير[2]. ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ الداعي محمد عليه الصلاة والسلام وكتاب الله القرآن، أو التوراة لما روي أنه عليه الصلاة والسلام دخل مدراسهم فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد على أي دين أنت. فقال: على دين إبراهيم. فقالا له إن إبراهيم كان يهودياً فقال: هلموا إلى التوراة فإنها بيننا وبينكم. فأبيا فنزلت . وقيل نزلت في الرجم. وقرىء لِيُحْكَمَ على البناء للمفعول فيكون الاختلاف فيما بينهم، وفيه دليل على أن الأدلة السمعية حجة في الأصول. ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ استبعاد لتوليهم مع علمهم بأن الرجوع إليه واجب. ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ وهم قوم عادتهم الإعراض، والجملة حال من فريق وإنما ساغ لتخصصه بالصفة.

---

(١) تقييد قتل النبيين بغير حق للإيذان بأنه كان عندهم أيضاً بغير حق.
وقوله «ويقتلون الذين يأمرون بالقسط» كرر فعل القتل للإشعار بما بين القتلين من التفاوت أو باختلافهما في الوقت (س ٢/ ١٩).

(٢) التعبير عما أوتوه بالنصيب للإشعار باختصاصه بهم وكونه حقاً من حقوقهم التي يجب مراعاتها والعمل بموجبها. وتنكير النصيب للتفخيم لا للتحقير لأنه لا يساعده مقام المبالغة في تقبيح حالهم (س ٢/ ٢٠).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/ ٢١٧) وفي سنده (محمد بن أبي محمد) مجهول. وأورده السيوطي في «الدر» (٢/ ١٧٠) وعزاه لابن إسحاق وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من حديث ابن عباس.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾

(٢٤) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى التولي والإعراض. ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ بسبب تسهيلهم أمر العقاب على أنفسهم لهذا الاعتقاد الزائغ والطمع الفارغ. ﴿وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من أن النار لن تمسهم إلا أياماً قلائل، أو أن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، أو أنه تعالى وعد يعقوب عليه السلام أن لا يعذب أولاده إلا تَحِلّة القَسَم.

(٢٥) ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ استعظام لما يحيق بهم في الآخرة وتكذيب لقولهم لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات. روي أن أول راية ترفع يوم القيامة من رايات الكفار راية اليهود فيفضَحُهم الله تعالى على رؤوس الأشهاد ثم يأمر بهم إلى النار[(١)]. ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ جزاء ما كسبت. وفيه دليل على أن العبادة لا تَحْبُط وأن المؤمن لا يخلَّد في النار، لأن توفية إيمانه وعمله لا تكون في النار ولا قبل دخولها، فإذن هي بعد الخلاص منها[(٢)] ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الضمير لكل نفس على المعنى لأنه في معنى كل إنسان.

(٢٦) ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ﴾ الميم عوض عن يا، ولذلك لا يجتمعان، وهو من خصائص هذا الاسم كدخول يا عليه مع لام التعريف وقطع همزته وتاء القسم. وقيل: أصله يا الله أُمّنا بخير[(٣)]، فخفف بحذف حرف النداء ومتعلقات الفعل وهمزته. ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ يتصرف فيما يمكن التصرف فيه تصرفَ المُلاّك فيما يملكون، وهو نداء ثان عند سيبويه فإن الميم عنده تمنع الوصفية. ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ تعطي منه ما تشاء مَنْ تشاء وتسترد، فالملك الأول عام والآخران بعضان منه. وقيل: المراد بالملك النبوة ونزعها نقلها من قوم إلى قوم[(٤)] ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ في الدنيا أو في الآخرة، أو فيهما بالنصر والإدبار والتوفيق والخذلان. ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ذكر الخير وحده لأنه المقضي بالذات والشر مقضي بالعَرَض، إذ لا يوجد شر جزئي مالم يتضمن خيراً كليا، أو لمراعاة الأدب في الخطاب، أو لأن الكلام وقع فيه إذ روي أنه عليه السلام لما خط الخندق وقطع لكل عشرة أربعين ذراعاً، وأخذوا يحفرون، فظهر فيه صخرة عظيمة لم يعمل فيها المعاوِل، فوجهوا سلمان إلى رسول الله ﷺ يخبره، فجاء عليه الصلاة والسلام فأخذ المعول منه فضربها ضربة صدعتها

---

(١) ذكره الألوسي في تفسيره (٣/ ١١٢) بدون سند. ولم يعزهُ لأحد.

(٢) المراد به جزاء ما كسبت، إلا أنه أقيم المكسوب مقام جزائه إيذاناً بكمال الاتصال والتلازم بينهما حتى كأنهما شيء واحد (س ٢/ ٢١).

(٣) أي دلّنا على خير أو اقصِدنا به.

(٤) وإيثار الإيتاء على التملك لأن ملك غيره بطريق المجاز (س ٢/ ٢١).

وبرق منها برقٌ أضاء منه ما بين لابَتَيْها[(١)] لكأن بها مصباحاً في جوف بيت مظلم، فكبر وكبر معه المسلمون وقال «أضاءت لي منها قصور الحيرة كأنها أنياب الكلاب، ثم ضرب الثانية فقال: أضاءت لي منها القصور الحمر من أرض الروم، ثم ضرب الثالثة فقال: أضاءت لي منها قصور صنعاء. وأخبرني جبريل عليه السلام أن أمتي ظاهرةٌ على كلها فأبشِروا». فقال المنافقون: ألا تعجبون يُمَنِّيكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفَرَق فنزلت[(٢)]. فنبه على أن الشر أيضاً بيده بقول ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[(٣)].

تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾

(٢٧) ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ عَقّب ذلك ببيان قدرته على معاقبة الليل والنهار والموت والحياة وسعة فضله دلالة على أن من قدر على ذلك قدر على معاقبة الذلّ والعز وإيتاء الملك ونزعه. والولوج: الدخول في مَضيق، وإيلاج الليل والنهار: إدخال أحدهما في الآخر بالتعقيب أو الزيادة والنقص. وإخراج الحي من الميت وبالعكس إنشاء الحيوانات من موادها وإماتتُها، أو إنشاء الحيوان من النطفة والنطفة منه. وقيل: إخراج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر الميْت

---

(١) اللابة هي الحرة وهي الأرض ذات الحجارة السوداء (المصباح المنير مادة «لوب»).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ج٢١/١٣٣ ـ ١٣٤) والواحدي في أسباب النزول (ص٨٣ ـ ٨٤) والبغوي في تفسيره (٣/ ٥١٠) عن كثير بن عبدالله بن عمرو بن عوف المزني قال: ثنى أبي، عن أبيه به.
وأخرجه ابن سعد في الطبقات (٤/ ٨٣) في ترجمة سلمان، قال: أخبرنا محمد بن إسماعيل بن أبي قديك، قال: حدثني كثير بن عبدالله المزني عن أبيه عن جده به.
قلت: وكثير بن عبدالله بن عمرو بن عوف المزني، المدني، ضعيف، ومنهم من نسبه إلى الكذب [التقريب (٢/ ١٣٢ رقم ١٧)].
والخلاصة أن الحديث ضعيف.
وأخرجه أبو يعلى في المسند (٣/ ٢٤٤ رقم ٣٢/ ١٦٨٥) وأحمد في المسند (٤/ ٣٠٣) وأبو نعيم في «دلائل النبوة» رقم (٤٣٠) وابن أبي شيبة في المصنف (١٤/ ٤٢١ ـ ٤٢٢) والنسائي في السير ـ كما في تحفة الأشراف (٢/ ١٦٥) ـ من طرق كلهم من رواية ميمون أبي عبدالله عن البراء بن عازب مختصراً، وإسناده ضعيف. وتصحفت «عن ميمون» في الدلائل «ابن ميمون».
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٦/ ١٣٠ ـ ١٣١) وقال: رواه أحمد وفيه ميمون أبو عبدالله، وثقه ابن حبان وضعفه جماعة، وبقية رجاله ثقات.
والخلاصة أن الحديث ضعيف.

(٣) وقوله «بيدك الخير» قدم الخير فأفاد التخصيص أي بقدرتك الخير كله لا بقدرة أحد غيرك. (س ٢/ ٢١).

بالتخفيف.

(٢٨) ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ نُهوا عن موالاتهم لقرابة وصداقة جاهلية ونحوهما حتى لا يكون حبهم وبغضهم إلا في الله، أو عن الاستعانة بهم في الغزو وسائر الأمور الدينية. ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى أنهم الأحقاء بالموالاة، وأن في موالاتهم مندوحة عن موالاة الكفرة. ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي اتخاذهم أولياء[1]. ﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ أي من ولايته في شيء يصح أن يسمى ولاية، فإن موالاة المتعاديين لا يجتمعان قال:

تَـوَدُّ عَـدُوي ثُـمَّ تَـزْعُـمُ أَنَّنـي صـدِيقُـكَ لَيْـسَ النوك عَنْـكَ بِعَـازِبِ

﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ إلا أن تخافوا من جهتهم ما يجب اتقاؤه، أو اتقاء. والفعل معدى بمن لأنه في معنى تحذروا وتخافوا. وقرأ يعقوب تَقِيَّة. منع عن موالاتهم ظاهراً وباطناً في الأوقات كلها إلا وقتَ المخافة، فإن إظهار الموالاة حينئذ جائز كما قال عيسى عليه السلام: كن وسطاً وامش جانباً. ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فلا تتعرضوا لسخطه بمخالفة أحكامه وموالاة أعدائه، وهو تهديد عظيم مُشْعِر بتناهي النهي في القبح. وذِكْرُ النفس ليُعْلَم أن المحذَّرَ منه عقاب يَصْدُر منه تعالى فلا يُؤْبَه دونه بما يُحْذَرُ من الكفرة.

قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾

(٢٩) ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ أي أنه يَعلم ضمائركم من ولاية الكفار وغيرها إن تخفوها أو تبدوها. ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فيعلم سركم وعلنكم. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على عقوبتكم إن لم تنتهوا عما نُهيتم عنه. والآية بيان لقوله تعالى ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾[2] وكأنه قال ويحذركم نفسه لأنها متصفة بعلم ذاتي محيط بالمعلومات كلها وقدرة ذاتية تعم المقدورات بأسرها، فلا تجسُروا على عصيانه إذ ما من معصية إلا وهو مطلع عليها قادر على العقاب بها[3].

(٣٠) ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ يوم منصوب بتودّ، أي تتمنى كل نفس يوم تجد صحائف أعمالها أو جزاء أعمالها من الخير والشر حاضرة لو أن بينها وبين ذلك اليوم وهو له أمداً بعيداً، أو بمضمر نحوُ اذكُر، وتود حال من الضمير في عملت

---

(١) «ومن يفعل» عبر عنه بالفعل للاختصار أو لإيهام الاستهجان بذكره (س ٢/ ٢٣).

(٢) آل عمران: «٢٨».

(٣) وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار في قوله «والله على كل شيء قدير» لتربية المهابة وتهويل الخطب.

أو خبر لما عملت من سوء، وتجد مقصور على ما عملت من خير، ولا تكون ما شرطية لارتفاع تود. وقرىء وَدّت وعلى هذا يصح أن تكون شرطية ولكن الحمل على الخبر أَوْقعُ معنى لأنه حكاية كائن وأوفق للقراءة المشهورة[1]. ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ كرره للتأكيد والتذكير. ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ إشارة إلى أنه تعالى إنما نهاهم وحذرهم رأفة بهم ومراعاة لصلاحهم، أو أنه لذو مغفرة وذو عقاب أليم فترجى رحمته ويخشى عذابه.

قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ ۞ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾

(٣١) ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ المحبة ميل النفس إلى الشيء لكمالٍ أدركته فيه بحيث يحملها على ما يقربها إليه، والعبد إذا علم أن الكمالَ الحقيقي ليس إلا لله وأن كل ما يراه كمالاً من نفسه أو غيره فهو من الله وبالله وإلى الله لم يكن حبه إلا لله وفي الله، وذلك يقتضي إرادة طاعته والرغبة فيما يقربه إليه، فلذلك فسرت المحبة بإرادة الطاعة وجعلت مستلزمة لاتباع الرسول في عبادته والحرص على مطاوعته. ﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ جواب للأمر أي يرضَ عنكم ويكشف الحجب عن قلوبكم بالتجاوز عما فرط منكم فيقربكم من جناب عزه ويبوئكم في جوار قدسه، عبر عن ذلك بالمحبة على طريق الاستعارة أو المقابلة. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن تحبب إليه بطاعته واتباع نبيه[2] ﷺ. روي: أنها نزلت لما قالت اليهود نحن أبناء الله وأحباؤه[3]. وقيل: نزلت في وفد نجران لما قالوا: إنما نعبد المسيح حباً لله[4]. وقيل: في أقوام زعموا على عهده ﷺ أنهم يحبون الله فأُمِروا أن يَجْعَلوا لقولهم تصديقاً من العمل[5].

(٣٢) ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا﴾ يحتمل المضي والمضارعة بمعنى فإن تتولوا. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ لا يرضى عنهم ولا يثني عليهم، وإنما لم يقل لا يحبهم لقصد العموم والدلالة على أن التولي كفر، وإنه من هذه الحيثية ينفي محبة الله وأن محبته مخصوصة بالمؤمنين.

(٣٣) ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بالرسالة والخصائص الروحانية

---

(١) «ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء» ذكر إحضار الخير دون الشر للإشعار بكون الخير مراداً بالذات، وكون إحضار الشر من مقتضيات الحكمة التشريعية (س ٢/ ٢٤).

(٢) وضع الاسم الجليل موضع الإضمار للإشعار باستتباع وصف الألوهية للمغفرة والرحمة (س ٢/ ٢٥).

(٣) أخرجه الواحدي في «أسباب النزول» (ص٨٦) من رواية الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/ ٢٣٣) عن محمد بن جعفر بن الزبير.
وكذلك الواحدي في «أسباب النزول» (ص٨٧). وفي سنده ضعف.

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/ ٢٣٢) من ثلاثة طرق عن الحسن مرسلاً. وهو ضعيف. وكذا أخرجه عن ابن جريج أيضاً.

والجسمانية، ولذلك قَوُوا على مالم يقوَ عليه غيرهم. لما أوجب طاعة الرسول وبين أنها الجالبة لمحبة الله عقّب ذلك ببيان مناقبهم تحريضاً عليها. وبه استُدِل على فضلهم على الملائكة. وآلُ إبراهيم: إسماعيلُ وإسحق وأولادهما ـ وقد دخل فيهم الرسول ﷺ ـ وآل عمران موسى وهٰرون ابنا عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب، أو عيسى وأمه مريم بنت عمران بن ماثان بن العازار بن أبي يوذ بن يوزن بن زربابل بن ساليان بن يوحنا بن أوشيا بن أمون بن منشكن بن حازقا بن أخاز بن يوثام بن عوزيا بن يورام بن سافط بن ايشا بن راجعيم بن سليمان بن داود بن ايشى بن عويد بن سلمون بن ياعز بن نحشون بن عمياد بن رام بن حصروم بن فارص بن يهوذا بن يعقوب عليه السلام، وكان بين العمرانين ألف وثمانمائة سنة(١).

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾

(٣٤) ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ﴾ حال أو بدل من الآلين أو منهما ومن نوح، أي إنهم ذرية واحدة متشعبة بعضها من بعض. وقيل بعضها من بعض في الدين. والذرية الولد يقع على الواحد والجمع فِعْليَّة من الذر أو فُعُولَة من الذرء أبدلت همزتها ياء ثم قلبت الواو ياء وأدغمت. ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ بأقوال الناس وأعمالهم فيصطفي من كان مستقيم القول والعمل، أو سميع بقول امرأة عمران عليم بنيتها.

(٣٥) ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾ فينتصب به إذ على التنازع. وقيل نصبه بإضمار اذكر، وهذه حنة بنت فاقوذ جدة عيسى، وكانت لعمران بن يصهر بنت اسمها مريم أكبر من موسى وهٰرون فظن أن المراد زوجته، ويرده كفالة زكريا فإنه كان معاصراً لابن ماثان وتزوج ابنته ايشاع، وكان يحيى وعيسى عليهما السلام ابني خالة من الأب روي أنها كانت عاقراً عجوزاً، فبينما هي في ظل شجرة إذ رأت طائراً يُطعم فرخه فحنت إلى الولد وتمنته فقالت: اللهم إن لك علي نذراً إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من خَدَمِه، فحملت بمريم وهلك عمران. وكان هذا النذر مشروعاً في عهدهم للغلمان فلعلها بَنَت الأمر على التقدير أو طلبت ذَكَراً(٢) ﴿مُحَرَّرًا﴾ معتقاً

---

(١) خص آل عمران بالذكر مع اندراجهم في آل إبراهيم لإظهار مزيد الاعتناء بأمر عيسى بسبب الاختلاف في شأنه.
والاصطفاء أخذ ما صفا من الشيء.
ولم يذكر اصطفاء إبراهيم نفسه لأنه مفهوم من اصطفاء آله، ولم يصرح به لكمال شهرة أمره في الخلة وكونه إمام الأنبياء (س ٢/ ٢٦).

(٢) التعرض لوصف الربوبية المنبئة عن
إفاضة ما فيه صلاح المربوب مع الإضافة إلى ضميرها لتحريك سلسلة الإجابة.
وتأكيد الجملة لإبراز وفور الرغبة في مضمونها.
وتقديم الجار والمجرور «لك» للاعتناء به (س٢/ ٢٧).

لخدمته لا أشغله بشيء، أو مخلَصاً للعبادة ونصبه على الحال. ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾ ما نذرته. ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ لقولي ونيتي[١].

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

(٣٦) ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ الضمير لما في بطنها وتأنيثه لأنه كان أنثى، وجاز انتصاب أنثى حالاً عنه لأن تأنيثها علم منه فإن الحال وصاحبَها بالذات واحداً، أو على تأويل مؤنث كالنفس والحَبَلَةِ. وإنما قالته تحسراً وتحزناً إلى ربها لأنها كانت ترجو أن تلد ذكراً ولذلك نذرت تحريره. ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ أي بالشيء الذي وضعت. هو استئناف من الله تعالى تعظيماً لموضوعها وتجهيلاً لها بشأنها. وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم ويعقوب وَضَعْتُ على أنه من كلامها تسلية لنفسها أي ولعل لله سبحانه وتعالى فيه سراً، أو الأنثى كانت خيراً. وقرىء وَضَعْتِ على أنه خطاب الله تعالى لها. ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ بيان لقوله والله أعلم أي وليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وُهِبت، واللام فيهما للعهد ويجوز أن يكون من قولها بمعنى وليس الذكر والأنثى سيان فيما نذرت فتكون اللام للجنس. ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ عطف على ما قبلها من مقالها وما بينهما اعتراض، وإنما ذكرت ذلك لربها تقرباً إليه وطلباً لأن يعصمها ويصلحها حتى يكون فعلها مطابقاً لاسمها فإن مريم في لغتهم بمعنى: العابدة. وفيه دليل على أن الاسم والمسمى والتسمية أمور متغايرة. ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ﴾ أجيرها بحفظك[٢]. ﴿وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ المطرود، وأصل الرجم الرمي بالحجارة. وعن النبي ﷺ «ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد، فيستهل من مسه إلا مريم وابنها»[٣]. ومعناه أن الشيطان يطمع في إغواء كل مولود بحيث يتأثر منه إلا مريم وابنها فإن الله تعالى عصمهما ببركة هذه الاستعاذة.

(٣٧) ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾ فرضي بها في النذر مكان الذَّكَر. ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أي بوجه حسن يُقبَل به النذائر، وهو إقامتها مقام الذَّكَر، أو تسلمها عقيب ولادتها قبل أن تكبر وتصلح للسدانة. روي أن حنة لما ولدتها لَفَّتْها في خِرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار وقالت: دونكم هذه النذيرة،

---

(١) قصر صفتي السمع والعلم عليه تعالى لعرض اختصاص دعائها به تعالى وانقطاع حبل رجائها عما عداه بالكلية مبالغة في الضراعة والابتهال (س٢/ ٢٨).

(٢) وصيغة المضارعة للدلالة على الاستمرار (س٢/ ٢٩).

(٣) أخرجه البخاري (٦/ ٤٦٩ رقم ٣٤٣١) و(٨/ ٢١٢ رقم ٤٥٤٨) ومسلم (٤/ ١٨٣٨ رقم ١٤٦ و١٤٧/ ٢٣٦٦) كلاهما من طريق الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة.

فتنافسوا فيها لأنها كانت ابنة إمامهم وصاحب قربانهم، فإن بني ماثان كانت رؤوس بني إسرائيل وملوكهم فقال زكريا: أنا أحق بها، عندي خالتها فأبوْا إلا القرعة، وكانوا سبعة وعشرين فانطلقوا إلى نهر فألقوا فيه أقلامهم فطفا قلم زكريا ورسبت أقلامهم فتكفلها زكريا. ويجوز أن يكون مصدراً على تقدير مضاف أي بذي قبول حسن، وأن يكون تقبّل بمعنى استقبل كتقضّى وتعجل أي فأخذها في أول أمرها حين ولدت بقبول حسن. ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا﴾ مجاز عن تربيتها بما يصلحها في جميع أحوالها ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾ شدد الفاء حمزة والكسائي وعاصم، وقصروا زكريا غير عاصم في رواية ابن عياش على أن الفاعل هو الله تعالى وزكريا مفعول أي جعله كافلاً لها وضامناً لمصالحها، وخفف الباقون. ومدّوا زكرياء مرفوعاً. ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ﴾ أي الغرفة التي بنيت لها، أو المسجد، أو أشرف مواضعه ومقدمها، سمي به لأنه محل محاربة الشيطان كأنها وضعت في أشرف موضع من بيت المقدس[1]. ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ﴾ جواب كلما وناصبُه. روي: أنه كان لا يدخل عليها غيره وإذا خرج أغلق عليها سبعة أبواب، وكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وبالعكس. ﴿قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾ من أين لك هذا الرزق الآتي في غير أوانه والأبوابُ مغلقة عليك، وهو دليل جواز الكرامة للأولياء. وجعل ذلك معجزة زكريا يدفعه اشتباه الأمر عليه. ﴿قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ فلا تستبعده. قيل تكلمت صغيرة كعيسى عليه السلام ولم ترضَع ثدياً قط وكان رزقها ينزل عليها من الجنة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ بغير تقدير لكثرته، أو بغير استحقاق تفضلاً به. وهو يحتمل أن يكون من كلامهما وأن يكون من كلام الله تعالى. روي أن فاطمة رضي الله تعالى عنها أهدت لرسول الله ﷺ رغيفين وبضعة لحم فرجع بها إليها وقال: «هلمي يا بنيّة» فكشفت عن الطبق فإذا هو مملوء خبزاً ولحماً فقال لها: «أنّى لك هذا؟!» فقالت: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، فقال: «الحمد لله الذي جعلك شبيهة سيدة نساء بني إسرائيل» ثم جمع علياً والحسن والحسين وجمع أهل بيته عليه حتى شبعوا وبقي الطعام كما هو فأوسعت على جيرانها[2].

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾

(٣٨) ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ﴾ في ذلك المكان أو الوقت، إذ يستعار هنا وثم وحيث للزمان،

---

(١) وتقديم الظرف «عليها» للاعتناء بأمرها (س٢/ ٣٠).

(٢) أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ١٨٦) وعزاه لأبي يعلى من حديث جابر.

وأورده الحافظ في «الكافي الشاف» رقم (٢١٣) وقال: رواه أبو يعلى من حديث جابر، وهو من رواية ابن لهيعة عن ابن المنكدر عنه. والمتن ظاهر النكارة.

● ولم أعثر عليه في مسند أبي يعلى المطبوع والله أعلم.

لِمَا رأى كرامة مريم ومنزلتها من الله تعالى. ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ كما وهبتها لحنَّة العجوز العاقر. وقيل لما رأى الفواكه في غير أَوَانِهَا انتبه على جواز ولادة العاقر من الشيخ، فسأل وقال هب لي من لدنك ذرية، لأنه لم يكن على الوجوه المعتادة وبالأسباب المعهودة. ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ مجيبه.

(٣٩) ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي من جنسهم كقولهم زيد يركب الخيل. فإن المنادي كان جبريل وحده. وقرأ حمزة والكسائي فناداه بالإمالة والتذكير. ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ أي قائماً في الصلاة. ويصلي صفة قائم، أو خبر، أو حال آخر، أو حال من الضمير في قائم. ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ أي بأن الله. وقرأ نافع وابن عامر بالكسر على إرادة القول، أو لأن النداء نوع منه. وقرأ حمزة والكسائي يَبْشُرُك[1]، ويحيى اسم أعجمي، وإن جُعل عربياً فمنع صرفه للتعريف ووزن الفعل. ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي بعيسى عليه السلام سمي بذلك لأنه وُجِد بأمره تعالى[2] دون أب فشابه البدْعيات التي هي عالم الأمر، أو بكتاب الله سمي كلمة كما قيل كلمة الحويدرة لقصيدته. ﴿وَسَيِّدًا﴾ يسود قومه ويفوقهم، وكان فائقاً للناس كلهم في أنه مَا هَمَّ بمعصية قط. ﴿وَحَصُورًا﴾ مبالغاً في حبس النفس عن الشهوات والملاهي. روي أنه مر في صباه بصبيان فدعُوه إلى اللعب فقال ما للعب خلقت. ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ ناشئاً منهم أو كائناً من عداد من لم يأت كبيرة ولا صغيرة.

قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾

(٤٠) ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ استبعاداً من حيث العادة، أو استعظاماً، أو تعجيباً، أو استفهاماً عن كيفية حدوثه. ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ أدركني كبر السن وأثر فيّ، وكان له تسع وتسعون ولامرأته ثمانٍ وتسعون سنة. ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ لا تلد، من العَقْر وهو القطع لأنها ذات عقر من الأولاد. ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ أي يفعل ما يشاء من العجائب مثل ذلك الفعل، وهو إنشاء الولد من شيخ فانٍ وعجوز عاقر، أو كما أنت عليه وزوجك من الكبر والعقر يفعل ما يشاء من خلق الولد، أو كذلك الله مبتدأ وخبر أي الله على مثلِ هذه الصفة، ويفعل ما يشاء بيان له، أو كذلك خبر مبتدأ محذوف أي الأمر كذلك، والله يفعل ما يشاء بيان له.

(٤١) ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾ علامة أعرف بها الحَبَلَ لاستقبله بالبشاشة والشكر وتزيح مشقة

---

(١) قال تعالى في سورة مريم «إنا نبشرك بغلام» ـ مريم «٧» ـ بإسناد التبشير إلى نون العظمة. بينما عدل هنا عن إسناد التبشير إلى نون العظمة ـ كما وقع في سورة مريم ـ للجري على سنن الكبرياء كما في قولهم: أمير المؤمنين يأمر لك بكذا، فالمعنى واحد (س٢/ ٣٢).

(٢) أي بقوله كنْ.

الانتظار. ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ أي لا تقدر على تكليم الناس ثلاثاً، وإنما حَبَسَ لسانه عن مكالمتهم خاصة ليُخْلص المدة لذكر الله تعالى وشكره قضاءً لحق النعمة، وكأنه قال آيتك أن يُحْبَس لسانك إلا عن الشكر، وأحسنُ الجواب ما اشتق من السؤال. ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ إشارة بنحو يدٍ أو رأس، وأصله التحرك ومنه الراموز للبحر، والاستثناء منقطع وقيل متصل والمراد بالكلام ما دل على الضمير. وقرىء رَمَزاً بفتحتين ـ كخدم ـ جمع رَامز ورُمُزاً ـ كرُسُل ـ جمع رَموز على أنه حال منه ومن الناس بمعنى مترامزين كقوله:

متى ما تَلْقَني فردَيْنِ تَرْجُفْ روانِفُ أَلْيَتَيْكَ وتُسْتَطارا

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾ في أيام الحبسة، وهو مؤكد لما قبله مبين للغرض منه، وتقييد الأمر بالكثرة يدل على أنه لا يفيد التكرار. ﴿وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ﴾ من الزوال إلى الغروب. وقيل من العصر أو الغروب إلى ذهاب صدر الليل. ﴿وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ من طلوع الفجر إلى الضحى. وقرىء بفتح الهمزة جمع بِكَرٍ كسِحَر وأسحار.

وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾

(٤٢) ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كلموها شفاهاً كرامة لها، ومن أنكر الكرامة زعم أن ذلك كانت معجزة لزكريا أو إرهاصاً لنبوة عيسى عليه الصلاة والسلام، فإن الإجماع على أنه سبحانه وتعالى لم يستنبىء امرأة لقوله تعالى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾[1]، وقيل ألهموها. والاصطفاء الأول تقبُّلها من أمها ـ ولم يُقبلْ قبلها أنثى ـ وتفريغُها للعبادة وإغناؤُها برزق الجنة عن الكسب وتطهيرُها عما يُستقذر من النساء، والثاني هدايتُها وإرسال الملائكة إليها وتخصيصُها بالكرامات السنية كالولد من غير أب وتبرئتُها مما قذفتها به اليهود بإنطاق الطفل وجعلها وابنها آية للعالمين[2].

(٤٣) ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أمرت بالصلاة في الجماعة بذكر أركانها مبالغة في المحافظة عليها. وقدّم السجود على الركوع إما لكونه كذلك في شريعتهم أو للتنبيه على أن الواو لا توجب الترتيب، أو ليقترن اركعي بالراكعين للإيذان بأن من ليس في صلاتهم ركوع ليسوا مصلين. وقيل المراد بالقنوت إدامة الطاعة كقوله تعالى ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾[3]، وبالسجود

(١) يوسف: «١٠٩».
(٢) «وإذ قالت الملائكة» أي واذكر إذ قالت... كرر التذكير للإشعار بمزيد الاعتناء بما يحكى من أحكام الاصطفاء والتنبيه على استقلالها وانفرادها عن الأحكام السابقة، فإنها من أحكام التربية الجسمانية اللائقة بحال صغر مريم وهذه من باب التربية الروحانية بالتكاليف الشرعية المتعلقة بحال كبرها (س٢/ ٣٥).
(٣) الزمر: «٩».

الصلاة كقوله تعالى ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾[١]، وبالركوع الخشوع والإخبات.

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ
لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ
مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾

(٤٤) ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أي ما ذكرنا من القصص من الغيوب التي لم تعرفها إلا بالوحي. ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ أقداحهم للاقتراع، وقيل اقترعوا بأقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة تبركاً. والمراد تقرير كونه وحياً على سبيل التهكم بمنكريه، فإن طريق معرفة الوقائع المشاهَدة والسماع وعدم السماع معلوم لا شبهة فيه عندهم فبقي أن يكون الاتهام باحتمال العيان ولا يظن به عاقل. ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ متعلق بمحذوف دل عليه يلقون أقلامهم أي يلقونها ليعلموا، أو يقولوا أيهم يكفل مريم. ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ تنافساً في كفالتها[٢].

(٤٥) ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بدل من إذ قالت الأولى وما بينهما اعتراض، أو مِنْ إذ يختصمون على أنّ وقوع الاختصام والبشارة في زمان متسع كقولك لقيته سنة كذا. ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ المسيح لقبه وهو من الألقاب المشرَّفة كالصِدِّيق، وأصله بالعبرية مشيحا ومعناه: المبارك، وعيسى معرب ايشوع واشتقاقُهُما من المسْح لأنهما مَسْحٌ بالبركة أو بما طهره من الذنوب أو مَسَحَ الأرضَ ولم يَقُم في موضع أو مَسَحه جبريل، ومن العَيْس وهو بياض يعلوه حمرة، تَكَلُّفٌ لا طائل تحته. وابنُ مريم لما كان صفةً تُمَيِّزُ تمييزَ الأسماء نُظِمَت في سلكها، ولا ينافي تعدد الخبر وإفراد المبتدأ فإنه اسم جنس مضافٌ، ويُحتمل أن يراد به أن الذي يُعرف به ويتميز عن غيره هذه الثلاثة فإن الاسم علامة المسمى والمميز له ممن سواه، ويجوز أن يكون عيسى خبر مبتدأ محذوف وابن مريم صفته، وإنما قيل ابن مريم والخطاب لها تنبيهاً على أنه يولد من غير أب إذ الأولاد تنسب إلى الآباء ولا تنسب إلى الأم إلا إذا فقد الأب. ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ حال مقدرة من كلمة، وهي وإن كانت نكرة لكنها موصوفة، وتذكيره للمعنى. والوجاهة في الدنيا النبوة وفي الآخرة الشفاعة ﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ من الله، وقيل إشارة إلى علو درجته في الجنة أو رَفْعه إلى السماء وصحبة الملائكة.

(٤٦) ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي يكلمهم حال كونه طفلاً وكهلاً كلامَ الأنبياء من غير تفاوت. والمهْد مصدر سمي به ما يُمَهَّد للصبي في مضجعه. وقيل إنه رُفِع شاباً والمراد وكهلاً بعد

---

(١) ق: «٤٠».

(٢) وتكرير «وما كنت لديهم» مع تحقق المقصود بعطف «إذ يختصمون» على «إذ يقولون»... للدلالة على أن كل واحد من عدم حضوره عليه السلام عند إلقاء الأقلام وعدم حضوره عند الاختصام مستقل بالشهادة على نبوته عليه الصلاة والسلام، لا سيما إذا أريد باختصامهم تنازعُهم قبل الاقتراع فإن تغيير الترتيب في الذكر مؤكد له (س٢/ ٣٦).

نزوله، وذِكْرُ أحواله المختلفة المتنافية إرشاداً إلى أنه بمعزل عن الألوهية ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ حال ثالث من كلمة أو ضميرُها الذي في يُكَلِّم.

قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾

(٤٧) ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ تعجب، أو استبعاد عادي، أو استفهام عن أنه يكون بتزوج أو غيره. ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ القائل جبريل، أو الله تعالى وجبريل حكى لها قول الله تعالى. ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ إشارة إلى أنه تعالى كما يقدر أن يخلق الأشياء مدرجاً بأسباب ومواد يقدر أن يخلقها دفعة من غير ذلك.

(٤٨) ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ كلام مبتدأ ذكر تطييباً لقلبها وإزاحة لما همها من خوف اللوم لما علمت أنها تلد من غير زوج، أو عطف على يبشرك أو وجيهاً. والكتاب الكِتْبَة أو جنس الكتب المنزلة، وخصّ الكتابان لفضلهما. وقرأ نافع وعاصم ويعلمه بالياء[1].

(٤٩) ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ منصوب بمضمر على إرادة القول تقديره: ويقول أُرْسِلت رسولاً بأني قد جئتكم، أو بالعطف على الأحوال المتقدمة مضمناً معنى النطق فكأنه قال: وناطقاً بأني قد جئتكم، وتخصيص بني إسرائيل لخصوص بعثته إليهم أو للرد على من زعم أنه مبعوث إلى غيرهم[2]. ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ نَصْبٌ بدل من أني قد جئتكم، أو جَرّ بدل من آية، أو رفع على هي أني أخلق لكم والمعنى: أقدر لكم وأصور شيئاً مثل صورة الطير، وقرأ نافع إني بالكسر ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ الضمير للكاف أي في ذلك الشيء المماثل. ﴿فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فيصير حياً طياراً بأمر الله، نبه به على أن إحياءه من الله تعالى لا منه. وقرأ نافع هنا وفي المائدة طائراً بالألف والهمزة. ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾ الأكمه الذي ولد أعمى أو الممسوح العين، روي: أنه ربما كان يجتمع عليه ألوف من المرضى مَنْ أطاق منهم أتاه ومن لم يطق أتاه عيسى عليه الصلاة والسلام وما يداوي إلا بالدعاء[3]. ﴿وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ كرر بإذن الله دفعاً لتوهم الألوهية، فإن

---

(١) وهي قراءة أبو جعفر ويعقوب أي بالياء. وقرأ الباقون بالنون «ونعلمه» (المبسوط ص١٤٣).

(٢) وقوله «من ربكم» تعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لتأكيد إيجاب الامتثال بما سيأتي من الأوامر (س٢/٣٨).

(٣) وتخصيص هذين الداءين لأنهما مما أعيا الأطباء رغم أنهم كانوا في غاية الحذاقة في زمنه عليه السلام (س٢/٣٩).

الإحياء ليس من جنس الأفعال البشرية. ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ بالمغيبات من أحوالكم التي لا تشكون فيها. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ موفقين للإيمان فإن غيرهم لا ينتفع بالمعجزات، أو مصدقين للحق غير معاندين.

وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن
رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّا أَحَسَّ
عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ
بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾

(٥٠) ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ عطف على رسولاً على الوجهين، أو منصوب بإضمار فعلٍ دلّ عليه قد جئتكم أي وجئتكم مصدقاً. ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم﴾ مقدر بإضماره، أو مردود على قوله: أني قد جئتكم بآية، أو معطوف على معنى مصدقاً كقولهم جئتك معتذراً ولأطيّب قلبك. ﴿بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي في شريعة موسى عليه الصلاة والسلام كالشحوم والثُّروب والسمك ولحوم الإبل والعمل في السبت، وهو يدل على أن شرعه كان ناسخاً لشرع موسى عليه الصلاة والسلام ولا يُخِلُّ ذلك بكونه مصدقاً للتوراة، كما لا يعود نسخ القرآن بعضه ببعض عليه بتناقض وتكاذب، فإن النسخ في الحقيقة بيان وتخصيص في الأزمان ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

(٥١) ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي جئتكم بآية أخرى ألهمنيها ربُّكم وهو قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ فإنه دعوة الحق المجمع عليها فيما بين الرسل الفارقة بين النبي والساحر، أو جئتكم بآية على أن الله ربي وربكم وقوله ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ اعتراض والظاهر أنه تكرير لقوله ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي جئتكم بآية بعد أخرى مما ذكرت لكم، والأول لتمهيد الحجة والثاني لتقريبها إلى الحكم ولذلك رتَّب عليه بالفاء قوله تعالى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي لما جئتكم بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة فاتقوا الله في المخالفة وأطيعون فيما أدعوكم إليه، ثم شرع في الدعوة وأشار إليها بالقول المجمل فقال ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ إشارة إلى استكمال القوة النظرية بالاعتقاد الحق الذي غايته التوحيد، وقال ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ إشارة إلى استكمال القوة العلمية فإنه بملازمة الطاعة التي هي الإتيان بالأوامر والانتهاء عن المناهي، ثم قرر ذلك بأن بيّن أن الجمع بين الأمرين هو الطريق المشهود له بالاستقامة، ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام «قل آمنت بالله ثم استقم»[1].

(٥٢) ﴿۞ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ تحقَّق كفرُهم عنده تَحَقُّقَ ما يُدركُ بالحواس. ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ ملتجئاً إلى الله تعالى أو ذاهباً أو ضاماً إليه، ويجوز أن يتعلق الجارّ بأنصاري مضمناً

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٦٥ رقم ٦٢/ ٣٨) من حديث سفيان بن عبدالله الثقفي.
وكذلك أخرجه ابن ماجة (٢/ ١٣١٤ رقم ٣٩٧٢) والترمذي (٤/ ٦٠٧ رقم ٢٤١٠) والنسائي في الكبرى ـ كما في تحفة الأشراف (٤/ ٢٠) وأحمد في المسند (٣/ ٤١٣) و(٤/ ٣٨٥).

معنى الإضافة، أي من الذين يضيفون أنفسهم إلى الله تعالى في نصري. وقيل (إلى) ههنا بمعنى مع أو في أو اللام. ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ حواري الرجل خاصته من الحَوَر وهو البياض الخالص، ومنه الحواريات للحضريات لخلوص ألوانهن، سمي به أصحاب عيسى عليه الصلاة والسلام لخلوص نيتهم ونقاء سريرتهم، وقيل كانوا ملوكاً يلبسون البيض استنصر بهم عيسى عليه الصلاة والسلام من اليهود، وقيل قصارين يحُورون الثياب أي يبيضونها. ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي أنصار دين الله. ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ لتشهد لنا يوم القيامة حين تشهد الرسل لقومهم وعليهم[1].

رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾

(٥٣) ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي مع الشاهدين بوحدانيتك، أو مع الأنبياء الذين يشهدون لأتباعهم، أو مع أمة محمد ﷺ فإنهم شهداء على الناس.

(٥٤) ﴿وَمَكَرُوا۟﴾ أي الذين أحس منهم الكفر من اليهود بأن وَكّلوا عليه من يقتلُه غِيْلة. ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ حين رفع عيسى عليه الصلاة والسلام وألقى شَبَهَه على من قصد اغتياله حتى قُتل. والمكر من حيث إنه في الأصل حيلة يجلب بها غيره إلى مضرة لا يُسند إلى الله تعالى إلا على سبيل المقابلة والازدواج[2] ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ أقواهم مكراً وأقدرهم على إيصال الضرر من حيث لا يحتسب.

(٥٥) ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ ظرف لمَكْر الله أو خير الماكرين أو لمضمر مثل وقع ذلك. ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ أي مستوفي أجلك ومؤخرك إلى أجلك المسمى عاصماً إياك من قتلهم، أو قابضك من الأرض من توفيت مالي، أو متوفيك نائماً إذ روي أنه رفع نائماً، أو مميتك عن الشهوات العائقة عن العروج إلى عالم الملكوت. وقيل أماته الله سبع ساعات ثم رفعه إلى السماء وإليه ذهبت النصارى[3]. ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ إلى محل كرامتي ومقر ملائكتي. ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من سوء جوارهم أو

---

(١) طلبوا منه عليه السلام الشهادة بذلك يوم القيامة إيذاناً بأن مرمى غرضهم السعادة الأخروية (س٢/ ٤٢).

(٢) المكر هو صرف الغير عما يقصده بحيلة، وهو ضربان محمود ومذموم، ولا يمنع وصفه تعالى بذلك فإن مكره بحق حيث يعاقب الجاحدين والظالمين بما يستحقون، ومن مكره تعالى أنه يملي للظالمين ويستدرجهم من حيث لا يعلمون ثم يأخذهم بغتة. . .

(٣) الخلاف الذي حصل بين العلماء في وفاة عيسى عليه السلام ورفعه للسماء، لعل أرجح الأقوال فيها أنه تعالى رفعه من غير وفاة ولا نوم. انظر (روح المعاني ٣/ ١٧٩ وفتح القدير ١/ ٣٤٥).
ولعله الأوفق بظاهر الآيات، ولا يوجد ما يمنعه حتى نقول بخلاف الظاهر.

تصدهم ﴿ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ يعاونهم بالحجة أو السيف في غالب الأمر، ومتبعوه من آمن بنبوته من المسلمين والنصارى وإلى الآن لم تسمع غلبة لليهود عليهم ولم يتفق لهم ملك ودولة. ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ الضمير لعيسى عليه الصلاة والسلام ومن تبعه ومن كفر به، وغلّب المخاطبين على الغائبين. ﴿ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمر الدين.

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ
وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾
ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا
وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾

(٥٦) ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾.

(٥٧) ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ تفسير للحكم وتفصيل له. وقرأ حفص فيوفيهم بالياء[1]. ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ تقرير لذلك.

(٥٨) ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ عيسى وغيره، وهو مبتدأ خبره ﴿ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ ﴾ وقوله: ﴿ مِنَ ٱلْآيَٰتِ ﴾ حال من الهاء ويجوز أن يكون الخبرَ ونتلوه حالاً على أن العامل معنى الإشارة، وأن يكونا خبرين، وأن ينتصب بمضمر يفسره نتلوه. ﴿ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ المشتمل على الحكم، أو المحكم الممنوع عن تطرق الخلل إليه، يريد به القرآن وقيل اللوح.

(٥٩) ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾ إن شأنه الغريب كشأن آدم عليه الصلاة والسلام. ﴿ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ﴾ جملة مفسرة للتمثيل مبينة لما به الشَّبه، وهو أنه خُلِق بلا أب كما خلق آدم من التراب بلا أب وأم، شُبِّه حالُه بما هو أغرب منه إفحاماً للخصم وقطعاً لمواد الشبهة، والمعنى خلق قالَبه من التراب. ﴿ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن ﴾ أي أنشأه بشراً كقوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾[2] أو قدّر تكوينه من التراب ثم كوّنه، ويجوز أن يكون ثم لتراخي الخبر لا المخبَر. ﴿ فَيَكُونُ ﴾ حكاية حال ماضية.

(٦٠) ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ خبر محذوف أي هو الحق، وقيل الحق مبتدأ ومن ربك خبره، أي الحق المذكور من الله تعالى. ﴿ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ خطاب للنبي ﷺ على طريقة التهييج لزيادة الثبات أو لكل سامع.

(٦١) ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ ﴾ من النصارى. ﴿ فِيهِ ﴾ في عيسى. ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ أي من البينات الموجبة للعلم. ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْاْ ﴾ هلموا بالرأي والعزم. ﴿ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا

---

(١) وقرأ الباقون بالنون «فنوفيهم» (المبسوط ص١٤٣).
(٢) المؤمنون: «١٤».

﴿وَأَنفُسَكُمْ﴾ أي يدعُ كل منا ومنكم نفسَه وأعزة أهله وألصقهم بقلبه إلى المباهلة ويَحمِل عليها، وإنما قدمهم على الأنفس لأن الرجل يخاطر بنفسه لهم ويحارب دونهم. ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أي نتباهل بأن نلعن الكاذب منا. والبُهْلة بالضم والفتح اللعنة، وأصله الترك من قولهم بَهَلْت الناقة إذا تركتُها بلا صرار. ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ عطف فيه بيان. روي أنهم لما دُعوا إلى المباهلة قالوا حتى ننظر فلما تخالَوْا قالوا للعاقب ـ وكان ذا رأيهم ـ ما ترى؟ فقال: والله لقد عرفتم نبوته، ولقد جاءكم بالفصل في أمر صاحبكم، والله ما باهَلَ قوم نبياً إلا هَلَكوا، فإن أبيتم إلا إلف دينكم فوادِعوا الرجل وانصرِفوا فأتوا رسول الله ﷺ وقد غدا محتضناً الحسين آخذاً بيد الحسن وفاطمةُ تمشي خلفه وعلي رضي الله عنه خلفها وهو يقول: «إذا أنا دعوت فأمِّنوا» فقال أسقُفُهم: يا معشر النصارى إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله تعالى أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله فلا تباهِلُوا فتَهْلِكوا. فأذعنوا لرسول الله ﷺ وبذلوا له الجزية ألفي حُلّة حمراء وثلاثين درعاً من حديد. فقال عليه الصلاة والسلام: والذي نفسي بيده لو تَبَاهَلُوا لمُسِخوا قردة وخنازير، ولاضطرم عليهم الوادي ناراً، ولاستأصلَ اللهُ نجران وأهلَه حتى الطير على الشجر»[(١)]. وهو دليل على نبوته وفضل من أتى بهم من أهل بيته.

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾

(٦٢) ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي ما قُص من نبأ عيسى ومريم. ﴿لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ بجملتها خبر إنّ، أو هو فصل يفيد أنّ ما ذكره في شأن عيسى ومريم حق دون ما ذكروه، وما بعدَه خبرٌ واللام دخلت فيه لأنه أقرب إلى المبتدأ من الخبر، وأصلها أن تدخل على المبتدأ ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ صَرّح فيه بِمَنْ المزيدة للاستغراق تأكيداً للرد على النصارى في تثليثهم ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ لا أحد سواه يساويه في القدرة التامة والحكمة البالغة ليشاركه في الألوهية.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «دلائل النبوة» (٢/٤٥٧ ـ ٤٥٨) رقم (٢٤٥): من طريق محمد بن مروان السدي، عن محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس به وليس فيه ذكر ما صالح عليه، أي ألفي حلة.
قلت: فيه ابن مروان: متروك متهم بالكذب.
● وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/٢٩٩) عن محمد بن حميد، عن جرير، عن المغيرة عن الشعبي، ومحمد بن حميد: ضعيف.
● وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/٣٠٠) عن محمد بن حميد، عن سلمة، عن ابن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير ومحمد بن حميد وسلمة: ضعيفان.
● وأخرج أبو داود (٣/٤٢٩ ـ ٤٣٠ رقم ٣٠٤١) من طريق إسماعيل بن عبدالرحمٰن القرشي ـ وهو المعروف بالسُّدِّي ـ عن ابن عباس قال: صالح رسول الله ﷺ أهل نجران على ألفَيْ حُلَّةٍ، النِّصْفُ في صَفَر والبقيّةُ في رجب، يؤدونها إلى المسلمين، وعارية ثلاثين درعاً، وثلاثين فرساً، وثلاثين بعيراً، وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح يغزون بها، والمسلمون ضامنون لها حتى يردوها عليهم. . . .» وهو طرف من هذه القصة.
قال المنذري في «المختصر» (٤/٢٥١): «في سماع السُّدِّي من عبدالله بن عباس نظر. وإنما قيل: إنه رآهُ، ورأى ابن عمر، وسمع من أنس بن مالك رضي الله عنهم» هـ.
وقال الألباني في «ضعيف أبي داود»: ضعيف الإسناد.

فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٦٤﴾

(٦٣) ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ وعيد لهم. ووَضَعَ المظهر موضع المضمر ليدل على أن التولي عن الحجج والإعراضَ عن التوحيد إفسادٌ للدين والاعتقادِ المؤدي إلى فساد النفس بل وإلى فساد العالم.

(٦٤) ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يعم أهل الكتابين، وقيل يريد به وفد نجران أو يهود المدينة. ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ لا يختلف فيها الرسل والكتب ويفسرها ما بعدها. ﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أن نوحده بالعبادة ونخلص فيها. ﴿وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ ولا نجعل غيره شريكاً له في استحقاق العبادة ولا نراه أهلاً لأن يعبد. ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ ولا نقول عزيز بن الله ولا المسيح بن الله ولا نطيع الأحبار فيما أحدثوا من التحريم والتحليل، لأن كلاً منهم بعضُنا بشرٌ مثلُنا. روي أنه لما نزلت ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1] قال عدي بن حاتم: ما كنا نعبدهم يا رسول الله. قال: «أليس كانوا يُحِلّون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم؟» قال: نعم قال: «هو ذاك»[2]. ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ عن التوحيد. ﴿فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ أي لزمتكم الحجة فاعترِفوا بأنا مسلمون دونكم، أو اعترِفوا بأنكم كافرون بما نطقت به الكتب وتطابقت عليه الرسل.

(تنبيه) انظر إلى ما راعى في هذه القصة من المبالغة في الإرشاد وحسن التدرج في الحِجاج، بيّن أولاً أحوال عيسى عليه الصلاة والسلام وما تعاوَرَ عليه من الأطوار المنافية للألوهية، ثم ذكر ما يَحُل عُقدتهم ويُزيح شبهتهم، فلما رأى عنادهم ولجاجهم دعاهم إلى المباهلة بنوع من الإعجاز، ثم لما

---

(١) التوبة: «٣١».

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٧٨ رقم ٣٠٩٥) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث «عبدالسلام بن حرب» و«غطيف بن أعين» ليس بمعروف في الحديث» هـ.

قلت: عبدالسلام هذا ثقة حافظ له مناكير كما ذكره ابن حجر في التقريب (١/ ٥٠٥ رقم ١١٨٦) وأما غطيف هذا ضعفه ابن حجر في التقريب (٢/ ١٠٦ رقم ٢١) والذهبي في الميزان (٣/ ٣٣٦) ووثقه ابن حبان (٧/ ٣١١) وذكره ابن أبي حاتم (٧/ ٥٥ رقم ٣١٥) ولم يتكلم فيه بشيء، وكذلك البخاري في التاريخ الكبير (٧/ ١٠٦ رقم ٤٧١) مع إخراجه للحديث، وللحديث شاهدان:

(الأول): من حديث حذيفة بن اليمان أخرجه ابن عبدالبر (٢/ ١٠٩) والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١١٦) وابن جرير الطبري في «جامع البيان» (٦/ ج١٠/ ١١٤) وهو إن كان موقوفاً فله حكم المرفوع كما هو مقرر في مصطلح الحديث.

(والثاني): من حديث أبي العالية عند ابن جرير الطبري في «جامع البيان» (٦/ ج١٠/ ١١٥).

وبذلك يكون الحديث حسناً إن شاء الله.

وقد حسنهُ الألباني في غاية المرام رقم (٦) وابن تيمية في «الإيمان» ص٦٤.

أعرضوا عنها وانقادوا بعض الانقياد عاد عليهم بالإرشاد وسلك طريقاً أسهل وألزَمَ بأن دعاهم إلى ما وافق عليه عيسى والإنجيل وسائر الأنبياء والكتب، ثم لما لم يجد ذلك أيضاً عليهم وعلم أن الآيات والنذر لا تغني عنهم أعرض عن ذلك وقال: ﴿فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾

(٦٥) ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ تنازعت اليهود والنصارى في إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وزعم كل فريق أنه منهم وترافعوا إلى رسول الله ﷺ فنزلت. والمعنى أن اليهودية والنصرانية حدثتا بنزول التوراة والإنجيل على موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، وكان إبراهيم قبل موسى بألف سنة وعيسى بألفين فكيف يكون عليهما؟ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتدّعون المحال.

(٦٦) ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ ها حرف تنبيه نُبِّهوا بها على حالهم التي غفلوا عنها، وأنتم مبتدأ، وهؤلاء خبره، وحاججتم جملة أخرى مبينة للأولى، أي أنتم هؤلاء الحمقى، وبيان حماقتكم أنكم جادلتم فيما لكم به علم مما وجدتموه في التوراة والإنجيل عناداً، أو تدّعون وروده فيه فلم تجادلون فيما لا علم لكم به ولا ذِكر له في كتابكم من دين إبراهيم. وقيل هؤلاء بمعنى الذين وحاججتم صلته. وقيل ها أنتم أصله أأنتم على الاستفهام للتعجب من حماقتهم فقُلبت الهمزة هاء. وقرأ نافع وأبو عمرو ها انتُم حيث وقع بالمد من غير همز، وورش أقل مداً، وقنبل بالهمز من غير ألف بعد الهاء، والباقون بالمد والهمز، والبزي بقصر المد على أصله. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما حاججتم فيه. ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وأنتم جاهلون به.

(٦٧) ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ تصريح بمقتضى ما قرره من البرهان. ﴿وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا﴾ مائلاً عن العقائد الزائغة. ﴿مُّسْلِمًا﴾ منقاداً لله وليس المراد أنه كان على ملة الإسلام وإلا لاشترك الإلزام ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ تعريض بأنهم مشركون لإشراكهم به عزيراً والمسيحَ وردّ لادعاء المشركين أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام.

(٦٨) ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ﴾ إن أخصهم به وأقربهم منه، من الوَلْي وهو القرب. ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ من أمته. ﴿وَهَـٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لموافقتهم له في أكثر ما شرع لهم على الأصالة. وقرىء والنبي بالنصب عطفاً على الهاء في اتبعوه، وبالجر عطفاً على إبراهيم. ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ينصرهم ويجازيهم الحسنى لإيمانهم.

وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَهْلَ
ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ
وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ
ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ
أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

(٦٩) ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾ نزلت في اليهود لما دَعوْا حذيفة وعماراً ومعاذاً إلى اليهودية. ولو بمعنى أنْ. ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ وما يتخطاهم الإضلال ولا يعود وبالُه إلا عليهم إذ يضاعف به عذابهم، أو ما يضلون إلا أمثالهم. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ وِزره واختصاص ضرره بهم.

(٧٠) ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ بما نطقت به التوراة والإنجيل ودلت على نبوة محمد ﷺ. ﴿ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أنها آيات الله، أو بالقرآن وأنتم تشهدون نعْتَه في الكتابين، أو تعلمون بالمعجزات أنه حق.

(٧١) ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ بالتحريف وإبراز الباطل في صورته، أو بالتقصير في التمييز بينهما. وقرىء تَلَبَّسون بالتشديد وتلْبَسون بفتح الباء أي تلبسون الحق مع الباطل كقوله عليه السلام: «كلابس ثوبيْ زور»[(١)] ﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ نبوة محمد عليه السلام ونعته. ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ عالمين بما تكتمونه.

(٧٢) ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي أَظْهِروا الإيمان بالقرآن أول النهار. ﴿وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ واكفروا به آخره لعلهم يَشُكُّون في دينهم ظناً بأنكم رجعتم لخللٍ ظهر لكم، والمراد بالطائفة كعب بن الأشرف[(٢)] ومالك بن الصيف قالا لأصحابهما لما حولت القبلة: آمنوا بما أنزل عليهم من الصلاة إلى الكعبة وصَلّوا إليها أول النهار ثم صلّوا إلى الصخرة آخره لعلهم يقولون هم أعلم منا وقد رجعوا فيرْجعون. وقيل اثنا عشر من أحبار خيبر تقاوَلُوا بأن يدخلوا في الإسلام أول النهار ويقولوا آخره نَظَرْنا في كتابنا وشاورنا علماءنا فلم نجد محمداً عليه الصلاة والسلام بالنعت الذي ورد في التوراة لعل أصحابه يشكّون فيه.

(٧٣) ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ ولا تُقِرّوا عن تصديق قلب إلا لأهل دينكم، أو لا تُظهِروا

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٣/ ١٦٨١ رقم ١٢٦/ ٢١٢٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.
وأخرج البخاري (٩/ ٣١٧ رقم ٥٢١٩) وأبو داود (٥/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠ رقم ٤٩٩٧) وأحمد في المسند (٦/ ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٥٣) من حديث أسماء بنت أبي بكر الصديق مثله.

(٢) كعب بن الأشرف: هو كعب بن الأشرف الطائي، من نبهان: شاعر جاهلي، كانت أمه من بني النضر، فدان باليهودية، أدرك الإسلام ولم يسلم، وأكثر من هجو النبي ﷺ وأصحابه، والتشبيب بنسائهم. أمر النبي ﷺ بقتله، فانطلق إليه خمسة من الأنصار، فقتلوه في ظاهر حصنه، وحملوا رأسه في مخلاة إلى المدينة.
[الأعلام للزركلي (٥/ ٢٢٥)].

إيمانكم وجه النهار إلا لمن كان على دينكم فإن رجوعهم أرجى وأهمّ. ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ هو يهدي من يشاء إلى الإيمان ويثبّته عليه. ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ متعلق بمحذوف أي دبَّرْتُمْ ذلك وقلتم لأن يؤتى أحد، والمعنى أن الحسد حملكم على ذلك، أو بلا تؤمنوا أي ولا تُظهِروا إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لأشياعكم ولا تفشوه إلى المسلمين لئلا يزيد ثباتهم ولا إلى المشركين لئلا يدعوهم إلى الإسلام. وقوله ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ اعتراض يدل على أن كيدهم لا يجدي بطائل، أو خبرُ إنّ على أنّ هدى الله بدل من الهدى. وقراءة ابن كثير أن يؤتى على الاستفهام للتقريع[1] تؤيد الوجه الأول أي إلا أن يؤتى أحد دبَّرتم، وقرىء إنْ على أنها نافية فيكونُ من كلام الطائفة أي ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم وقولوا لهم ما يؤتى أحد مثل ما أوتيتم. ﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ عطف على أن يؤتى على الوجهين الأولين، وعلى الثالث معناه: حتى يحاجوكم عند ربكم فيُدْحِضوا حجتكم عند ربكم، والواو ضمير أحد لأنه في معنى الجمع إذ المراد به غير أتباعهم. ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

(٧٤) ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ رد وإبطال لما زعموه بالحجة الواضحة.

(٧٥) ﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ كعبدالله بن سلام استودعه قرشي ألفاً ومائتي أوقيةٍ ذهباً فأداه إليه ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ كفنحاص بن عازوراء استودعه قرشي آخر ديناراً فجحده. وقيل المأمونون على الكثير النصارى إذ الغالب فيهم الأمانة، والخائنون في القليل اليهود إذ الغالب عليهم الخيانة. وقرأ حمزة وأبو بكر وأبو عمرو يؤدّهْ إليك ولا يؤدّهْ إليك بإسكان الهاء، وقالونِ باختلاس كسرة الهاء وكذا روي عن حفص، والباقون بإشباع الكسرة. ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ إلا مدة دوامك قائماً على رأسه مبالغاً في مطالبته بالتقاضي والترافع وإقامة البينة. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ترك الأداء المدلول عليه بقوله لا يؤده. ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟﴾ بسبب قولهم. ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ أي ليس علينا في شأن من ليسوا من أهل الكتاب ـ ولم يكونوا على ديننا ـ عتاب وذم. ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ بادعائهم ذلك ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون، وذلك لأنهم استحلوا ظلم من خالفهم وقالوا: لم يجعل لهم في التوراة حرمة. وقيل عامل اليهودُ رجالاً من قريش فلما أسلموا تقاضوْهم فقالوا سقط حقكم حيث تركتم دينكم وزعموا أنه كذلك في كتابهم. وعن النبي ﷺ أنه قال عند نزولها «كذب أعداء الله ما من شيء في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر ....

(١) أي قراءته «أأن يؤتى...».

والفاجر»[١].

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾

(٧٦) ﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لما نفوه أي بلى عليهم فيهم سبيل. ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ استئناف مقرِّر للجملة التي سدت بلى مسدَّها، والضمير المجرور لمَنْ أو لله، وعموم المتقين ناب عن الراجع من الجزاء إلى مَنْ وأشعر بأن التقوى ملاك الأمر وهو يعم الوفاء وغيره من أداء الواجبات والاجتناب عن المناهي.

(٧٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ﴾ يستبدلون. ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ بما عاهدوا الله عليه من الإيمان بالرسول والوفاء بالأمانات. ﴿وَأَيْمَـٰنِهِمْ﴾ وبما حلفوا به من قولهم والله لنؤمنن به ولننصرنه، ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ متاع الدنيا. ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ بما يَسُرُّهم أو بشيء أصلاً وأن الملائكة يسألونهم يوم القيامة، أو لا ينتفعون بكلمات الله وآياته، والظاهر أنه كناية عن غضبه عليهم لقوله: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ فإن من سَخِط على غيره واستهان به أعرض عنه وعن التكلم معه والالتفات نحوه، كما أن من اعتد بغيره يقاوله ويكثر النظر إليه. ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ ولا يثني عليهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على ما فعلوه. قيل: إنها نزلت في أحبار حرفوا التوراة وبدلوا نعت محمد ﷺ وحُكم الأمانات وغيرهما وأخذوا على ذلك رشوة[٢]. وقيل: نزلت في رجل أقام سلعة في السوق فحلف لقد اشتراها بما لم يشترها به[٣]. وقيل: نزلت في ترافع كان بين الأشعث بن قيس[٤] ويهودي في بئر أو أرض وتوجه الحلف على ....

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/ ٣١٨) من طرق عن يعقوب القمي، عن جعفر، عن سعيد بن جبير به مرسلاً بسند حسن.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/ ٣٢١) عن عكرمة، وفي إسناده ضعف. وليس فيه ذكر تبديل نعت النبي ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ٣١٦ رقم ٢٠٨٨) و(٥/ ٢١٦ رقم ٢٦٧٥) و(٨/ ٢١٣ رقم ٤٥٥١) من حديث عبدالله بن أبي أوفى.

● وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٢١٣) جمعاً بين حديث عبدالله بن أبي أوفى وحديث ابن مسعود: لا منافاة بينهما، ويحمل على أن النزول كان بالسببين جميعاً، ولفظ الآية أعم من ذلك.

(٤) الأشعث بن قيس بن معْدي كَرب بن معاوية بن جَبَلة بن عديِّ بن ربيعةَ بنِ معاوية الأكرمين بن الحارث بن معاوية بن ثَور بن مُرْتِع بن كندة.
له صحبة، ورواية.
وأصيبت عينُه يوم اليرموك. وكان أكبرَ أمراء عليٍّ يومَ صفِّين. [الإصابة (١/ ٧٩) وطبقات ابن سعد (٦/ ٢٢)].

اليهودي[١].

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ
وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ
أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟
رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾

(٧٨) ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا﴾ يعني المحرفين ككعب ومالك وحيي بن أخطب. ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾ يفتلونها بقراءته فيميلونها عن المنزل إلى المحرف، أو يعطفونها بشبه الكتاب. وقرىء يلُون على قلب الواو المضمومة همزة ثم تخفيفها بحذفها وإلقاء حركتها على الساكن قبلها. ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الضمير للمحرف المدلول عليه بقوله يلوون. وقرىء ليحسبوه بالياء والضمير أيضاً للمسلمين. ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ تأكيد لقوله ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وتشنيع عليهم وبيان لأنهم يزعمون ذلك تصريحاً لا تعريضاً، أي ليس هو نازلاً من عنده. وهذا لا يقتضي أن لا يكون فعلُ العبد فعلَ الله تعالى[٢]. ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تأكيد وتسجيل عليهم بالكذب على الله والتعمد فيه.

(٧٩) ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تكذيب ورد على عبدة عيسى عليه السلام. وقيل: إن أبا رافع القرظي والسيد النجراني قالا: يا محمد أتريد أن نعبدك ونتخذك رباً؟ فقال: معاذ الله أن نعبد غير الله وأن نأمر بعبادة غير الله، فما بذلك بعثني ولا بذلك أمرني فنزلت[٣]. وقيل: قال رجل يا رسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أفلا

---

(١) أخرجه البخاري (٥/ ١٤٥ رقم ٢٥١٥، ٢٥١٦) و(٥/ ٢٧٩ رقم ٢٦٦٧) و(٥/ ٢٨٦ رقم ٢٦٧٦) و(٨/ ٢١٢ ـ ٢١٣ رقم ٤٥٥٠) و(١١/ ٥٤٤ رقم ٦٦٥٩، ٦٦٦٠) و(١١/ ٥٥٨ رقم ٦٦٧٦، ٦٦٧٧) و(١٣/ ١٧٧ رقم ٧١٨٣، ٧١٨٤).
ومسلم (١/ ١٢٢ ـ ١٢٣ رقم ٢٢٠/ ١٣٨).
وأبو داود (٣/ ٥٦٥ رقم ٣٢٤٣) والترمذي (٣/ ٥٦٩ رقم ١٢٦٩).
والنسائي في الكبرى ـ كما في تحفة الأشراف (١/ ٧٧) ـ كلهم من حديث ابن مسعود.

(٢) قوله «وما هو من عند الله» إظهار للاسم الجليل، وكذا قوله «وما هو من الكتاب» إظهار في موقع الإضمار لتهويل ما أقدموا عليه من القول (س٢/ ٥٢).

(٣) أخرج ابن جرير في «جامع البيان» (٣/ ٣٢٥) والبيهقي في دلائل النبوة (٥/ ٣٨٤) من طريق ابن إسحاق، قال: حدثنا محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، قال حدثنا سعيد بن جبير، أو عكرمة، عن ابن عباس قال: «اجتمعت نصارى نجران، وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارى ما كان إبراهيم إلا نصرانياً، فأنزل الله عز وجل فيهم «يا أهل الكتاب لِمَ تحاجون في إبراهيم، وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بَعْده» إلى قوله «والله وليُّ المؤمنين» [آل عمران: ٦٥ ـ ٦٨]، فقال =

نسجد لك؟ قال: لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله ولكن أكرِموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله[١] ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّۦنَ﴾ ولكن يقول كونوا ربانيين، والربانيّ منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون كاللّحياني والرقْباني، وهو الكامل في العلم والعمل. ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ بسبب كونكم معلمين الكتاب وبسبب كونكم دارسين له، فإن فائدة التعليم والتعلم معرفة الحق والخير للاعتقاد والعمل، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب تَعْلَمُون بمعنى عالمين. وقرىء تُدَرِّسُون من التدريس وتُدْرِسون من أدرس بمعنى دَرَس كأكرم وكرم، ويجوز أن تكون القراءة المشهورة أيضاً بهذا المعنى على تقدير وبما كنتم تدرسونه على الناس[٢].

وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾

(٨٠) ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا﴾ نصبه ابن عامر وحمزة وعاصم ويعقوب عطفاً على ثم يقول، وتكون لا مزيدة لتأكيد معنى النفي في قوله ما كان أي ما كان لبشر أن يستنبئه الله ثم يأمر الناس بعبادة نفسه ويأمر باتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً، أو غير مزيدة على معنى أنه ليس له أن يأمر بعبادته ولا يأمر باتخاذ أكفائه أرباباً بل ينهى عنه وهو أدنى من العبادة، ورفعه الباقون على الاستئناف ويحتمل الحال، وقرأ أبو عمرو على أصله برواية الدورى باختلاس الضم. ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ﴾ إنكار،

= أبو رافع القرظي حين اجتمع عنده النصارى والأحبار فدعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام أتُريدُ منّا يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني، يقال له الرِّبِّيسُ: وذلك تُريد يا محمد وإليه تدعو؟ أو كما قال. فقال رسول الله ﷺ: «معاذَ الله أن أعبد غير الله أو آمر بعبادة غيره، وما بذلك بعثني ولا أمرني، فأنزل الله ـ عز وجل ـ في ذلك من قولهما: «ما كان لبشر أن يؤتيهُ اللهُ الكتابَ والحُكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا.

(١) أورده الحافظ في «الكافي الشافِ» رقم (٢٢١): وقال: لم أجد له إسناداً.
ونقله الواحدي في الأسباب ـ ص٩٦ ـ عن الحسن البصري «أن رجلاً، فذكره».
قلت: ومرسل الحسن البصري لا يحتج به.
وأخرجه عبد بن حميد عن الحسن مرسلاً ـ كما في «الدر المنثور» (٢/ ٢٥٠) ـ.

(٢) قوله تعالى «ما كان لبشر» إشعار بعلة الحكم، فإن البشرية منافية للأمر الذي أسنده الكفرة إليهم.
وقوله «بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون»:
جعل خبر كان مضارعاً لإفادة الاستمرار التجددي.
وتكرير بما كنتم للإيذان باستقلال كل من استمرار التعليم واستمرار القراءة بالفضل وتحصيل الربانية.
وتقديم التعليم على الدراسة لزيادة شرفه عليها، أو لأن الخطاب الأول لرؤسائهم والثاني لمن دونهم (س٢/ ٥٣).

والضمير فيه للبشر وقيل لله. ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ دليل على أن الخطاب للمسلمين وهم المستأذِنون لأن يسجدوا له.

(٨١) ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ قيل إنه على ظاهره، وإذا كان هذا حكم الأنبياء كان الأمم به أولى. وقيل معناه أنه تعالى أخذ الميثاق من النبيين وأممِهم واستغنى بذكرهم عن ذكر الأمم. وقيل إضافة الميثاق إلى النبيين إضافته إلى الفاعل، والمعنى وإذ أخذ الله الميثاق الذي وثّقه الأنبياء على أممهم. وقيل المراد أولاد النبيين على حذف المضاف وهم بنو إسرائيل، أو سماهم نبيين تهكماً لأنهم كانوا يقولون نحن أولى بالنبوة من محمد لأنا أهل الكتاب والنبيون كانوا مِنا. واللام في لما موطئة للقسم لأن أخذ الميثاق بمعنى الاستحلاف، وما تحتملُ الشرطية، ولتؤمنن ساد مسد جواب القسم والشرط وتحتمل الخبرية. وقرأ حمزة لِمَا بالكسر على أنّ ما مصدرية أي لأجل إيتائي إياكم بعض الكتاب ثم مجيءِ رسولٍ مصدق له أَخَذَ الله الميثاق لتؤمنن به ولتنصرنه، أو موصولة والمعنى أخذه للذي آتيتكموه وجاءكم رسول مصدق له، وقرىء لَمَّا بمعنى حين آتيتكم أو لِمَنْ أجل ما آتيتكم على أن أصله لمن ما بالإدغام فحذف إحدى الميمات الثلاث استثقالاً، وقرأ نافع آتيناكم بالنون والألف جميعاً. ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ أي عهدي، سمي به لأنه يُؤصَرُ أي يُشَدّ. وقرىء بالضم[1] وهو إما لغة فيه كعُبْر وعِبْر أو جمع إصار وهو ما يشد به. ﴿قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟﴾ أي فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار، وقيل الخطاب فيه للملائكة. ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ وأنا أيضاً على إقراركم وتشاهُدِكُم شاهدٌ، وهو توكيد وتحذير عظيم.

فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

(٨٢) ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد الميثاق والتوكيدِ بالإقرار والشهادةِ. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ المتمردون من الكفرة.

(٨٣) ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ عَطْفٌ على الجملة المتقدمة، والهمزة متوسطة بينهما للإنكار، أو محذوف تقديره أتتولون فغير دين الله تبغون. وتقديم المفعول لأنه المقصود بالإنكار. والفعْلُ بلفظ الغيبة عند أبي عمرو وعاصم في رواية حفص ويعقوب، وبالتاء عند الباقين على تقدير وقل له. ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ أي طائعين بالنظر واتباع الحجة وكارهين بالسيف ومعاينة ما يلجىء إلى الإسلام كنتق الجبل وإدراك الغرق والإشراف على الموت، أو مختارين ـ كالملائكة والمؤمنين ـ ومسخَّرين كالكفرة فإنهم لا يقدرون أن يمتنعوا عما قُضِي عليهم ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ وقرىء بالياء على أن الضمير لمن[2].

(١) أي بضم الهمزة (أُصْري).
(٢) وقرىء بتاء الخطاب «وإليه تُرجعون».

قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ
وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن
يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟
بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾

(٨٤) ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أمرٌ للرسول ﷺ بأن يخبر عن نفسه ومتابعيه بالإيمان والقرآن، كما هو منزل عليهم بتوسط تبليغه إليهم، وأيضاً المنسوب إلى واحد من الجمع قد ينسب إليهم، أو بأن يتكلم عن نفسه على طريقة الملوك إجلالاً له. والنزول كما يُعدّى بإلى لأنه ينتهي إلى الرسل يعدى بعلى لأنه من فوق، وإنما قُدِّم المنزَّلُ عليه السلام على المنزل على سائر الرسل لأنه المعرَّف له والعيار عليه ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ بالتصديق والتكذيب. ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ منقادون أو مخلصون في عبادته[١].

(٨٥) ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾ أي غير التوحيد والانقياد لحكم الله. ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الواقعِين في الخسران، والمعنى أن المُعْرِض عن الإسلام والطالبَ لغيره فاقد للنفع واقع في الخسران بإبطال الفطرة السليمة التي فُطِر الناسُ عليها. واستُدِل به على أن الإيمان هُو الإسلام إذ لو كان غيره لم يقبل، والجواب إنه ينفي قبول كل دين يغايره لا قبول كل ما يغايره، ولعل الدين أيضاً للأعمال[٢].

(٨٦) ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ استبعاد لأن يهديهم الله فإن الحائد عن الحق بعد ما وَضَح له منهمك في الضلال بعيد عن الرشاد. وقيل نفيٌ وإنكار له وذلك يقتضي أن لا تُقبل توبة المرتد[٣]، وشهِدوا عطفٌ على ما في إيمانهم من معنى الفعل ونظيره فأصّدّق وأكُن، أو حال بإضمار قد مِنْ كفروا وهو على الوجهين دليلٌ على أن الإقرار باللسان خارج عن حقيقة الإيمان. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالإخلال بالنظرِ وَوَضْعِ الكفرِ موضعَ الإيمان، فكيف من جاءه الحق وعرفه ثم أعرض عنه؟!

---

(١) «الأسباط» جمع سبط وهو الحافد، والمراد بهم حفَدَة يعقوب عليه السلام.
وخص موسى وعيسى من بين النبيين لأن الكلام مع اليهود والنصارى.
وذكر عدم التفريق بين أحد منهم ولم يتعرض لنفي التفريق بين الكتب لأنه ذلك مستلزم له (س/٢ ٥٥).

(٢) الإسلام هنا بمعنى الدين الذي جاء به محمد ﷺ، لا الإسلام الذي هو مرتبة من مراتب الشريعة.

(٣) والقول الأول أولى، فإن توبة المرتد تُقبل. ويدل عليه ما بعده وهو قوله تعالى: «إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا. .» ـ آل عمران «٨٩» ـ.

أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ
ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ
وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

(٨٧) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ يدل بمنطوقه على جواز لعنهم ويمفهومه على نفي جواز لعن غيرهم، ولعل الفرق أنهم مطبوعون على الكفر ممنوعون عن الهدى مؤيسون عن الرحمة رأساً بخلاف غيرهم، والمراد بالناس المؤمنون أو العموم فإن الكافر أيضاً يلعن مُنكِر الحق والمرتد عنه ولكن لا يعرف الحق بعينه.

(٨٨) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ في اللعنة أو العقوبة أو النار، وإن لم يجز ذكرهما لدلالة الكلام عليهما. ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾.

(٨٩) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ أي من بعد الارتداد. ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ ما أفسدوا، ويجوز أن لا يقدّر له مفعول، بمعنى ودخلوا في الصلاح. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ يقبل توبته. ﴿رَّحِيمٌ﴾ يتفضل عليه. قيل: إنها نزلت في الحارث بن سويد حين ندم على رِدّته فأرسل إلى قومه أن سلوا هل لي من توبة، فأرسل إليه أخوه الجُلاّس بالآية فرجع إلى المدينة فتاب[(١)].

(٩٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾ كاليهود كفروا بعيسى والإنجيل بعد الإيمان بموسى والتوراة ثم ازدادوا كفراً بمحمد والقرآن، أو كفروا بمحمد بعد ما آمنوا به قبل مبعثه ثم ازدادوا كفراً بالإصرار والعناد والطعن فيه والصد عن الإيمان ونقض الميثاق، أو كقوم ارتدوا ولحقوا بمكة ثم ازدادوا كفراً بقولهم نتربص بمحمد ريب المنون أو نرجع إليه وننافقه بإظهاره. ﴿لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾ لأنهم لا يتوبون، أو لا يتوبون إلا إذا أشرفوا على الهلاك فكنى عن عدم توبتهم بعدم قبولها تغليظاً في شأنهم وإبرازاً لحالهم في صورة حال الآيسين من الرحمة، أو لأن توبتهم لا تكون إلا نفاقاً لارتدادهم وزيادة كفرهم، ولذلك لم تدخل الفاء فيه. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ الثابتون على الضلال.

(٩١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا﴾ لمّا كان الموت على الكفر سبباً لامتناع قبول الفدية أَدْخَلَ الفاء ههنا للإشعار به. وملءُ الشيء ما يملؤه. وذهباً نصب على

---

(١) أخرجه ابن حبان (رقم ١٧٢٨ ـ موارد) والحاكم (٢/ ٢٤٢) وابن جرير الطبري (٣/ ٣٤٠) والنسائي (٧/ ١٠٧ رقم ٤٠٦٨).
كلهم من طريق يزيد بن زريع عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس.
قال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.
وأخرجه أحمد (١/ ٢٤٧) من طريق علي بن عاصم عن داود به مختصراً، وصحح الشيخ أحمد شاكر إسناده.

التمييز. وقرىء بالرفع على البدل من ملء أو الخبر لمحذوف. ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ محمول على المعنى كأنه قيل: فلن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً، أو معطوف على مضمر تقديره فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً لو تقرب به في الدنيا ولو افتدى به من العذاب في الآخرة، أو المراد ولو افتدى بمثله قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ﴾[1] والمثل يحذف ويراد كثيراً لأن المثلين في حكم شيء واحد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مبالغة في التحذير وإقناط لأن من لا يقبل منه الفداء ربما يعفى عنه تكرماً ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ في دفع العذاب. ومن مزيدة للاستغراق[2].

لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ
حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾

(٩٢) ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ﴾ أي لن تبلغوا حقيقة البر الذي هو كمال الخير، أو لن تنالوا بِرّ الله الذي هو الرحمة والرضى والجنة. ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أي من المال، أو ما يعمه رغيره كبذل الجاه في معاونة الناس، والبَدَن في طاعة الله والمهجة في سبيله. روي أنها لما نزلت جاء أبو طلحة فقال: يا رسول الله إن أحب أموالي إلي بيرحاء فضعها حيث أراك الله، فقال: بخ بخ ذاك مال رابح أو رائح، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين[3]. وجاء زيد بن حارثة بفرس كان يحبها فقال: هذه في سبيل الله، فحمل عليها رسول الله ﷺ أسامة بن زيد، فقال: زيد إنما أردت أن أتصدق بها، فقال عليه السلام: «إن الله قد قبلها منك»[4]. وذلك يدل على أن إنفاق أحب الأموال على أقرب الأقارب أفضل، وأن الآية تعم الإنفاق الواجب والمستحب. وقرىء بعض ما تحبون وهو يدل على أن مِنْ للتبعيض ويحتمل التبيين. ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ﴾ أي من أي شيء محبوب أو غيره ومن لبيان ما. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ فيجازيكم بحسبه.

(٩٣) ﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾ أي المطعومات والمراد أكْلُها. ﴿كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ حلالاً لهم، وهو مصدر نعت به ولذلك استوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث قال تعالى ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾[5] ﴿إِلَّا

---

(١) المائدة: «٣٦».
(٢) «ناصرين» صيغة الجمع لمراعاة الضمير، أي ليس لواحد منهم ناصر واحد (س٢/ ٥٧).
(٣) أخرجه البخاري (٣/ ٣٢٥ رقم ١٤٦١) و(٤/ ٤٩٣ رقم ٢٣١٨) و(٥/ ٣٩٦ رقم ٢٧٦٩) و(٨/ ٢٢٣ رقم ٤٥٥٤) و(١٠/ ٧٤ رقم ٥٦١١) ومسلم (٢/ ٦٩٣ رقم ٤٢/ ٩٩٨) ومالك في الموطأ (٢/ ٩٩٥ رقم ٢) من حديث عن أنس بن مالك.
(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ ٣٤٨) عن عمرو بن دينار مرسلاً. ورجاله ثقات وكذلك أخرجه عن أيوب معضلاً وانظر «الكافي الشاف» رقم (٢٢٤) لابن حجر.
(٥) الممتحنة: «١٠».

مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ﴾ يعقوب. ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ كلحوم الإبل وألبانها. وقيل كان به عِرق النَّسَا فنذر إن شفي لم يأكل أحب الطعام إليه وكان ذلك أحبه إليه[1]. وقيل: فعل ذلك للتداوي بإشارة الأطباء. واحتج به من جوز للنبي أن يجتهد، وللمانع أن يقول ذلك بإذن من الله فيه فهو كتحريمه ابتداء. ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ أي من قبل إنزالها مشتملة على تحريم ما حرم عليهم لظلمهم وبغيهم عقوبة وتشديداً، وذلك رد على اليهود في دعوى البراءة مما نعى عليهم في قوله تعالى ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ﴾[2] وقوله ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾[3] الآيتين، بأن قالوا لسنا أول من حرمت عليه وإنما كانت محرمة على نوح وإبراهيم ومَنْ بعده حتى انتهى الأمر إلينا فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا، وفي منع النسخ والطعن في دعوى الرسول عليه السلام موافقةُ إبراهيم عليه السلام بتحليله لحوم الإبل وألبانها. ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أمر بمحاجتهم بكتابهم وتبكيتهم بما فيه من أنه قد حرم عليهم بسبب ظلمهم ما لم يكن محرماً. روي: أنه عليه السلام لما قاله لهم بُهِتوا ولم يَجْسُروا أن يخرجوا التوراة، وفيه دليل على نبوته.

فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾

(٩٤) ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ ابتدعه على الله بزعمه أنه حرم ذلك قبل نزول التوراة على بني إسرائيل ومن قبلهم. ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ من بعد ما لزمتهم الحجة. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الذين لا ينصفون من أنفسهم ويكابرون الحق بعدما وضح لهم[4].

(٩٥) ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ تعريض بكذبهم، أي ثبت أن الله صادق فيما أنزل وأنتم الكاذبون. ﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي ملة الإسلام التي هي في الأصل ملة إبراهيم، أو مثل ملته حتى تتخلصوا من اليهودية التي اضطرتكم إلى التحريف والمكابرة لتسوية الأغراض الدنيوية وألزمتكم تحريم طيبات

---

(١) أخرج الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٩٢) من طريق الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفاً: أن إسرائيل أخذه عرق النساء فطار ببيت فجعل إن شفاه الله أن لا يأكل لحماً فيه عروق قال فحرمته اليهود فنزلت: «كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة، قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين» إن هذا كان قبل التوراة.
وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.
● وأخرجه أحمد (١/ ٢٧٨) من طريق عبدالحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب عن ابن عباس مرفوعاً مثله.
وعبدالحميد بن بهرام: صدوق. وشهر بن حوشب ليس بالقوي.

(٢) النساء: «١٦٠».

(٣) الأنعام: «١٤٦».

(٤) «فأولئك» ما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم في الضلال (س٢/ ٥٩).

أحلها الله لإبراهيم ومن تبعه[١] ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فيه إشارة إلى أن اتباعه واجب في التوحيد الصرف والاستقامة في الدين والتجنب عن الإفراط والتفريط، وتعريض بشرك اليهود.

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾

(٩٦) ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ أي وضع للعبادة وجُعل متعبداً لهم، والواضع هو الله تعالى. ويدل عليه أنه قرىء على البناء للفاعل[٢]. ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ للبيت الذي ببكة[٣]، وهي لغة في مكة كالنبيط والنميط وأمرٌ راتبٌ وراتم ولازب ولازم، وقيل هي موضع المسجد. ومكة البلد من بَكّه إذا زحمه، أو من بكه إذا دقه فإنها تبك أعناق الجبابرة روي أنه عليه السلام سئل عن أول بيت وضع للناس فقال: المسجد الحرام ثم بيت المقدس. وسئل كم بينهما فقال أربعون سنة[٤]. وقيل أول من بناه إبراهيم ثم هُدِم، فبناه قوم من جُرْهم، ثم العمالقة، ثم قريش. وقيل هو أول بيت بناه آدم فانطمس في الطوفان، ثم بناه إبراهيم. وقيل: كان في موضعه قبل آدم بيت يقال له الضُّراح يطوف به الملائكة، فلما أهبط آدم أمر بأن يحجه ويطوف حوله ورفع في الطوفان إلى السماء الرابعة تطوف به ملائكة السموات وهو لا يلائم ظاهر الآية. وقيل المراد إنه أول بيت بالشرف لا بالزمان. ﴿مُبَارَكًا﴾ كثير الخير والنفع لمن حجه واعتمره واعتكف دونه وطاف حوله، حال من المستكنّ في الظرف ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ لأنه قبلتهم ومتعبدهم، ولأن فيه آيات عجيبة كما قال:

(٩٧) ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ كانحراف الطيور عن موازاة البيت على مدى الأعصار، وأن ضواري السباع تخالط الصيود في الحرم ولا تتعرض لها، وإن كل جبار قصده بسوء قهره الله كأصحاب الفيل. والجملة مفسرة للهدى، أو حال أخرى. ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ مبتدأ محذوف خبره أي منها مقام إبراهيم، أو بدل من آيات بدل البعض من الكل. وقيل عطف بيان على أن المراد بالآيات أثَرُ القدم في الصخرة الصماء وغوصها فيها إلى الكعبين وتخصيصُها بهذه الإلانة من بين الصخار وإبقاؤه دون سائر آثار الأنبياء وحفظُه مع كثرة أعدائه ألوف سنة، ويؤيده أنه قرىء آيةٌ بينة على التوحيد. وسبب هذا الأثر أنه لما ارتفع بنيان الكعبة قام على هذا الحجر ليتمكن من رفع الحجارة فغاصت فيه قدماه. ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ

(١) «فاتبعوا» الفاء للدلالة على أن ظهور صدقه تعالى موجب للاتباع وترك ما كانوا عليه (س٢/٥٩).

(٢) أي «وَضَعَ للناس».

(٣) قوله تعالى: «للذي ببكة» خبر إنّ، وأخبر بالمعرفة مع كون اسمها نكرة لتخصصها بسببين: الإضافة والوصف بالجملة بعدها أي للبيت الذي ببكة (س٢/ ٦٠).

(٤) أخرجه البخاري (٦/ ٤٠٧ رقم ٣٣٦٦) و(٦/ ٤٥٨ رقم ٣٤٢٥) ومسلم (١/ ٣٧٠ رقم ١/ ٥٢٠) كلاهما من طرق عن الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن أبي ذر.

﴿ءَامِنًا﴾ جملة ابتدائية، أو شرطية معطوفة من حيث المعنى على مقام لأنه في معنى أَمِنَ مَنْ دخله أي ومنها أَمْنُ من دخله، أو فيه آيات بينات مقام إبراهيم وأَمْنُ من دخله. اقتَصر بذكرهما من الآيات الكثيرة وطوى ذِكْر غيرهما كقوله عليه السلام «حبب إليَّ من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وقرة عيني في الصلاة»[(١)] لأن فيهما غُنْيَةً عن غيرهما في الدارين بقاءَ الأثَرِ مدى الدهْر والأَمْنَ من العذاب يوم القيامة. قال عليه السلام «من مات في أحد الحرمين، بعث يوم القيامة آمناً»[(٢)]. وعند أبي حنيفة من لزمه القتل بردَّة أو قصاص أو غيرهما والتجأ إلى الحرم لم يُتعرض له ولكن أُلجِىء إلى الخروج. ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ قصده للزيارة على الوجه المخصوص. وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص حِجُّ بالكسر وهو لغة نجد[(٣)]. ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ بدل من الناس بدل البعض من الكل مخصص له، وقد فسر رسول الله ﷺ الاستطاعة بالزاد والراحلة[(٤)] وهو يؤيد قول الشافعي رضي الله تعالى عنه إنها بالمال، ولذلك أَوْجَبَ الاستنابة على الزمن إذا وَجَدَ أُجْرة من ينوب عنه. وقال مالك

---

(١) أخرجه النسائي (٧/ ٦١) وأحمد (٣/ ١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥) من حديث أنس بن مالك. وإسناده حسن.

(٢) وهو حديث ضعيف.

● أخرجه البيهقي في «الشعب» (٣/ ٤٩٠ رقم ٤١٥٨) من طريق ابن أبي قديك عن سليمان بن يزيد الكعبي عن أنس به وزاد «ومن زارني محتسباً إلى المدينة كان في جواري يوم القيامة».

وفيه سليمان بن يزيد الكعبي الخزاعي منكر الحديث ليس بقوي، قاله أبو حاتم في الجرح (٣/ ١٤٩).

● وأخرجه الطيالسي في المسند (ص١٢ ـ ١٣) والبيهقي في «الشعب» (٣/ ٤٨٨ رقم ٤١٥٣) وفي «السنن الكبرى» (٥/ ٢٤٥) من طريق سوار بن ميمون أبو الجراح العبدي حدثني رجل من آل عمر عن عمر به. وفيه رجل من آل عمر: مجهول.

● وأخرجه الدارقطني في السنن (٢/ ٢٧٨ رقم ١٩٣) من رواية هارون بن أبي قَزعة عن رجل من آل حاطب، عن حاطب به وفيه هارون بن أبي قزعة: ضعيف. ورجل من آل حاطب مجهول.

● وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٣/ ٤٩٦ رقم ٤١٨٠) والطبراني في الكبير (٦/ ٢٤٠ رقم ٦١٠٤) من حديث عبدالغفور بن سعيد الأنصاري عن أبي هاشم الرماني عن زاذان، عن سلمان عن النبي ﷺ أنه قال: «من مات في أحد الحرمين استوجب شفاعتي وجاء يوم القيامة من الآمنين».

قال البيهقي: عبدالغفور هذا ضعيف. وروي بإسناد آخر أحسن من هذا. ثم ذكر طريق عبدالله بن المؤمل (٣/ ٤٩٧ رقم ٤١٨١).

وقد أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٢/ ٢١٨) من طريق عبدالله بن المؤمل أيضاً.

وتعقبه السيوطي في اللآلىء (٢/ ١٢٩) فقال: أفرط المؤلف في إيراد هذين الحديثين في الموضوعات. ثم قال: والذي أستخير الله فيه وأحكم لمتن الحديث بالحسن لكثرة شواهده ثم ذكر الطرق المذكورة، والتي لا تصل بالحديث إلى درجة الحسن لغيره فهو حديث ضعيف بجميع طرقه.

وانظر تنزيه الشريعة لابن عراق (٢/ ١٧٣) والكافي الشافِ لابن حجر رقم (٢٣١).

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب وعاصم برواية أبي بكر (حَجُّ البيت) بفتح الحاء (المبسوط) (ص١٤٦).

(٤) أخرجه ابن ماجة (٢/ ٩٦٧ رقم ٢٨٩٧) وإسناده ضعيف لأن فيه «سويد بن سعيد» قال فيه الحافظ في التقريب: (١/ ٣٤٠) صدوق في نفسه إلا أنه عمي فصار يتلقن ما ليس من حديثه، وأفحش فيه ابن معين القول. والخلاصة أن الحديث ضعيف.

رحمه الله تعالى إنها بالبدن فيجب على من قَدِر على المشي والكسب في الطريق. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى إنها بمجموع الأمرين[١]. والضمير في إليه للبيت أو الحج، وكل ما أتى إلى الشيء فهو سبيله. ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وَضَعَ كَفَرَ موضع من لم يحج تأكيداً لوجوبه وتغليظاً على تاركه، ولذلك قال عليه السلام «من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً»[٢]. وقد أُكِّدَ أمرُ الحج في هذه الآية من وجوه الدلالة على وجوبه بصيغة الخبر، وإبرازِه في الصورة الاسمية، وإيرادِه على وجهٍ يفيد أنه حق واجب لله تعالى في رقاب الناس، وتعميم الحكم أولاً ثم تخصيصِه ثانياً فإنه كإيضاح بعد إيهام وتثنية وتكرير للمراد، وتسميةِ ترك الحج كفراً من حيث إنه فِعْلُ الكفرة، وذكرِ الاستغناء فإنه في هذا الموضع مما يدل على المقت والخذْلان. وقولُه ﴿عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يدل عليه لما فيه من مبالغة التعميم والدلالة على الاستغناء عنه بالبرهان والإشعار بعِظَمِ السُّخْط، لأنه تكليف شاق جامع بين كسر النفس وإتعاب البدن وصرف المال والتجرد عن الشهوات والإقبال على الله. روي أنه لما نزل صَدْرُ الآية جَمَعَ رسول الله ﷺ أرباب الملل فخطبهم وقال: «إن الله تعالى كتب عليكم الحج فحُجُّوا». فآمنت به ملة واحدة وكفرت به خمسُ ملل، فنزل وَمَنْ كَفَرَ[٣].

---

(١) ما ذهب إليه أبو حنيفة من تفسير الاستطاعة بمجموع الأمرين أي الاستطاعة البدنية والمالية هو الأوْلى.
وما وقع من بعض الأحاديث في بيان الاستطاعة بأنها الزاد والراحلة فإنه بيان لبعض شروط الاستطاعة، وتؤخذ بقية الشروط من أدلة أخرى. ولم يتعرض لصحة البدن لظهور الأمر. وعليه فتفسر الاستطاعة بعمومها.

(٢) أخرجه الترمذي (٣/١٧٦ رقم ٨١٢) من حديث علي.
وقال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وفي إسناده مقال.
وهلال بن عبدالله مجهول، والحارث يُضعَّفُ في الحديث.
وقال ابن حجر في التقريب (٢/ ٣٢٤): عن هلال بن عبدالله هذا بأنه متروك.
وأخرجه ابن عدي في الكامل (٧/ ٢٥٨٠) والعقيلي في الضعفاء (٤/٣٤٨) في ترجمة هلال، ونقلاً عن البخاري أنه منكر الحديث.
وقال ابن عدي: ليس الحديث بمحفوظ.
وله شاهد من حديث أبي أمامة:
أخرجه الدارمي (٢/٢٨) والبيهقي في «الشعب» (٣/ ٤٣٠ رقم ٣٩٧٩) وفي السنن الكبرى (٤/ ٣٣٤) عنه مرفوعاً بلفظ «من لم تحبسه حاجة ظاهرة أو مرض حابس أو سلطان جائر ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً».
وفيه: شريك القاضي: صدوق يخطىء كثيراً، تغير حفظه منذ ولي القضاء. [التقريب (١/ ٣٥١)].
وليث بن أبي سليم: صدوق اختلط أخيراً ولم يتميز حديثه فترك. [التقريب (٢/١٣٨)].
وعبدالرحمن بن سابط الجمحي المكي: ثقة كثير الإرسال. [التقريب (١/ ٤٨٠)].
والخلاصة أن الحديث ضعيف. انظر «الكافي الشافِ» رقم (٢٣٦)، والموضوعات لابن الجوزي (٢/٢٠٩ ـ ٢١٠).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/٢٠) من طريق جويبر عن الضحاك وهو معضل ـ لأن الضحاك بينه وبين النبي ﷺ واسطتان ـ وجويبر متروك الحديث ساقط. وانظر «الكافي الشافِ» رقم (٢٣٨).

﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ
تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾

(٩٨) ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي بآياته السمعية والعقلية الدالة على صدق محمد ﷺ فيما يدّعيه من وجوب الحج وغيره. وتخصيصُ أهل الكتاب بالخطاب دليل على أن كفرهم أقبح، لأن معرفتهم بالآيات أقوى وأنهم وإن زعموا أنهم مؤمنون بالتوراة والإنجيل فهم كافرون بهما. ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ والحال أنه شهيد مطلع على أعمالكم فيجازيكم عليها لا ينفعكم التحريف والاستسرار[1].

(٩٩) ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾ كرر الخطاب والاستفهام مبالغةً في التقريع ونفيِ العذر لهم، وإشعاراً بأن كل واحد من الأمرين مُستَقْبَح في نفسه مستقل باستجلاب العذاب[2]. وسبيلُ الله في دينه الحقُّ المأمور بسلوكه وهو الإسلام. قيل كانوا يَفتنون المؤمنين ويُحَرِّشون بينهم حتى أتوْا الأوس والخزرج فذكّروهم ما بينهم في الجاهلية من التعادي والتحارب ليعودوا لمثله ويحتالون لصدهم عنه. ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ حال من الواو أي باغين طالبين لها اعوجاجاً بأن تُلبِسوا على الناسِ وتوهموا أن فيه عوجاً عن الحق بمنع النسخ وتغيير صفة رسول الله ﷺ ونحوهما، أو بأن تحرِّشوا بين المؤمنين لتختلف كلمتهم ويختل أمر دينهم. ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ إنها سبيل الله والصدُّ عنها ضلال وإضلال، أو أنتم عُدول عند أهل ملتكم يثقون بأقوالكم ويستشهدونكم في القضايا. ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وعيد لهم. ولما كان المُنكَرُ في الآية الأولى كُفرُهم وهم يجهرون به خَتَمَها بقوله ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾، ولما كان في هذه الآية صدُّهم للمؤمنين عن الإسلام وكانوا يُخفونه ويحتالون فيه قال ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

(١٠٠) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ﴾[3] نزلت في نفر من الأوس والخزرج كانوا جلوساً يتحدثون، فمر بهم شاس بن قيس اليهودي فغاظه تألُّفهم واجتماعهم فأَمَرَ شاباً من اليهود أن يجلس إليهم ويذكِّرَهم يوم بُعاث ويُنْشِدَهم بعض ما قيل فيه، وكان الظَّفَر في ذلك اليوم للأوس، ففعل، فتنازع القوم وتفاخروا وتغاضبوا وقالوا: السلاحَ السلاحَ، واجتمع مع القبيلتين خلق عظيم، فتوجه إليهم رسول الله ﷺ وأصحابُه وقال «أتدعون الجاهلية وأنا بين أَظْهُرِكم

---

(١) قوله تعالى: «والله شهيد..» إظهار الجلالة في مع الإضمار لتربية المهابة وتهويل الخطب. وصيغة المبالغة في شهيد للتشديد في الوعيد (س٢/ ٦٣).
(٢) ولذلك لم يعطفه على سابقه.
(٣) تلوين الخطاب وتوجيه له إلى المؤمنين تحذيراً لهم عن طاعة أهل الكتاب والافتتان بفتنتهم. إثر توبيخهم بالإغواء والإضلال ردعاً لهم عن ذلك.
وتعليق الرد بطاعة فريق منهم للمبالغة في التحذير عن طاعتهم وإيجاب الاجتناب عن مصاحبتهم.. (س٢/ ٦٤).

بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألَّفَ بين قلوبكم» فعلموا أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح واستغفروا وعانق بعضهم بعضاً وانصرفوا مع رسول الله ﷺ[(١)]. وإنما خاطبهم الله بنفسه بعدما أمر الرسول بأن يخاطب أهل الكتاب إظهاراً لجلالة قدرهم، وإشعاراً بأنهم هم الأحقاء بأن يخاطبهم الله ويكلمهم.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

(١٠١) ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ إنكار وتعجيبٌ لكفرهم في حال اجتمع لهم الأسباب الداعية إلى الإيمان الصارفة عن الكفر[(٢)]. ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ ومن يتمسك بدينه أو يلتجىء إليه في مجامع أموره. ﴿فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فقد اهتدى لا مَحالة[(٣)].

(١٠٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ حق تقواه وما يجب منها، وهو استفراغُ الوُسع في القيام بالواجب والاجتناب عن المحارم كقوله ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[(٤)] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: هو أن يُطيع فلا يَعصي، ويَشكر فلا يَكفر، ويَذكُر فلا يَنسى، وقيل هو: أن تنزه الطاعةَ عن الالتفات إليها وعن توقع المجازاة عليها، وفي هذا الأمر تأكيد للنهي عن طاعة أهلِ الكتاب. وأصل تقاة وُقْية، فقلبت واوها المضمومةُ تاء كما في تُؤدَة وتخمة والياءُ ألِفاً[(٥)]. ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي ولا تكونن على حال سوى حال الإسلام إذا أدرككم الموت، فإن النهي عن المُقيَّد بحالٍ أو غيرِها قد يَتوجّه بالذات نحو الفعلِ تارةً والقيدِ أخرى وقد يَتوجه نحو المجموع دونهما، وكذلك النفي.

(١٠٣) ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ بدين الإسلام، أو بكتابه لقوله عليه السلام: «القرآن حبل الله المتين»[(٦)]. استعار له الحبل من حيث إن التمسك به سبب للنجاة من الردى، كما أن التمسك بالحبل

---

(١) أخرجه ابن إسحاق، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ ـ كما في «الدر المنثور» (٢/ ٢٧٨) ـ وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٤/ج٤/ ٢٣) عن زيد بن أسلم وفي سنده ضعف.

(٢) عدم إسناد التلاوة إلى رسول الله ﷺ للإيذان باستقلال كل منهما في الباب (س٢/ ٦٥).

(٣) وصف الصراط بالاستقامة للتصريح بالرد على الذين يبغونها عوجاً (س٢/ ٦٥).

(٤) التغابن: «١٦».

(٥) تكرير الخطاب بيا أيها الذين آمنوا تشريف إثر تشريف لندائهم بوصف الإيمان (س٢/ ٦٥).

(٦) أخرجه الترمذي (٥/ ١٧٢ رقم ٢٩٠٦) من حديث علي مطولاً وفيه قصة.
وقال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول. وفي الحارث مقال.
قلت: قوله وإسناده مجهول: لجهالة أبي المختار الطائي، وابن أخي الحارث الأعور [التقريب: (٢/ ٤٧٠، ٥٣٤)].

=

سبب للسلامة من التردي والوثوقِ به والاعتماد عليه الاعتصام ترشيحاً للمجاز. ﴿ جَمِيعًا ﴾ مجتمعين عليه ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ أي ولا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كأهل الكتاب، أو لا تتفرقوا تفرقكم في الجاهلية يحارب بعضكم بعضاً، أو لا تذكروا ما يوجب التفرق ويزيل الألفة. ﴿ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ التي من جملتها الهداية والتوفيق للإسلام المؤدي إلى التآلف وزوال الغِلّ. ﴿ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً ﴾ في الجاهلية متقاتلين. ﴿ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ بالإسلام. ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَانًا ﴾ متحابين مجتمعين على الأخوة في الله. وقيل كان الأوس والخزرج أخوين فوقع بين أولادهما العداوة وتطاولت الحروب مائة وعشرين سنة حتى أطفأها الله بالإسلام وألف بينهم برسوله ﷺ. ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ مشفين على الوقوع في نار جهنم لكفركم، إذ لو أدرككم الموت على تلك الحالة لوقعتم في النار. ﴿ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ بالإسلام. والضمير للحفرة، أو للنار، أو للشَّفا، وتأنيثه لتأنيث ما أُضيف إليه أو لأنه بمعنى الشَّفة فإن شفا البئر وشفتها طرفُها كالجانب والجانبة، وأصله شَفَوٌ فقلبت الواو ألفاً في المذكر وحذفت في المؤنث. ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثل ذلك التبيين. ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ دلائله. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إرادة ثباتكم على الهدى وازديادكم فيه.

= وأخرجه الدارمي (٢/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥) والبزار في مسنده (٣/ ٧١ رقم ٨٣٦) وابن أبي شيبة في المصنف (١٠/ ٤٨٢).

كلهم من طرق عن أبي المختار الطائي، عن ابن أخي الحارث عن الحارث به.

وقال البزار: وهذا الحديث لا نعلمه يروى إلا عن علي، ولا نعلم رواه عن علي إلا الحارث.

والخلاصة أن الحديث ضعيف.

وقال الحافظ في «الكافي الشاف» (رقم ٢٤٥): «وله شاهد عن معاذ بن جبل، أخرجه الطبراني من رواية عمرو بن واقد، عن يونس بن ميسرة، وعن ابن إدريس بلفظ «ذكر رسول الله ﷺ الفتن فشدّدها. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما المخرج منها؟ قال: كتاب الله ـ فذكر الحديث بطوله ـ».

قلت: فيه عمرو بن واقد الدمشقي مولى قريش متروك [التقريب: (٢/ ١٨)].

وأخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٥٥٥) من حديث ابن مسعود مرفوعاً أيضاً بلفظ: «إن هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا من مأدبته ما استطعتم. إن هذا القرآن حبل الله والنور المبين والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن تبعه لا يزيغ فيستعتب ولا يعوج فيقوم ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد.

اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات أما إني لا أقول (آلم) حرف ولكن ألف ولام وميم».

قال الحاكم: «هذا الحديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بصالح بن عمر» وقال الذهبي: «صالح ثقة خرج له مسلم. لكن إبراهيم بن مسلم ضعيف».

قلت: هنا متابعان لإبراهيم في رفعه، لكن ليس فيه قوله: القرآن حبل الله....

(الأول): عطاء بن السائب عن أبي الأحوص عن ابن مسعود مرفوعاً، عند الخطيب في تاريخه (١/ ٢٨٥).

(الثاني): عاصم بن أبي النجود عن أبي الأحوص عنه، عند الحاكم (١/ ٥٦٦) كلاهما بلفظ: اقرؤوا القرآن فإنكم تؤجرون عليه، أما إني لا أقول (آلم) حرف ولكن (ألف) عشر و(لام) عشر و(ميم) عشر».

وحسن المحدث الألباني هذا القدر لمتابعة أحدهما للآخر.

انظر الصحيحة رقم (٦٦٠).

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾

(١٠٤) ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ مِنْ للتبعيض، لأن الأمر بالمعروف والنهيَ عن المنكر من فروض الكفاية، ولأنه لا يَصْلُحُ له كل أحد إذ للمتصدي له شروط لا يشترك فيها جميع الأمة كالعلم بالأحكام ومراتب الاحتساب وكيفية إقامتها والتمكن من القيام بها. خاطب الجميع وطلب فعل بعضهم ليدل على أنه واجب على الكل حتى لو تركوه رأساً أثموا جميعاً ولكن يسقط بفعلِ بعضهم، وهكذا كل ما هو فرض كفاية. أو للتبيين بمعنى وكونوا أمة يَدْعون وقوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾[(١)]. والدعاء إلى الخير يعم الدعاء إلى ما فيه صلاح ديني أو دنيوي، وعطفُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عليه عطفُ الخاص على العام للإيذان بفضله[(٢)]. ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ المخصوصون بكمال الفلاح. روي أنه عليه السلام سئل من خير الناس فقال «آمَرُهم بالمعروف وأنهاهُم عن المنكر وأتقاهم لله وأوصلُهم للرحم»[(٣)]. والأمر بالمعروف يكون واجباً ومندوباً على حسب ما يُؤمَر به، والنهي عن المنكر واجب كله لأن جميع ما أنكره الشرع حرام. والأظهر أن العاصي يجب عليه أن ينهى عما يرتكبه لأنه يجب عليه تركُه وإنكارُه فلا يسقط بترك أحدهما وجوب الآخر.

(١٠٥) ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ كاليهود والنصارى اختلفوا في التوحيد والتنزيه وأحوال الآخرة على ما عرفت. ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الآيات والحجج المبينة للحق الموجبة للاتفاق عليه. والأظهر أن النهي فيه مخصوص بالتفرق في الأصول دون الفروع لقوله عليه السلام «اختلاف أمتي رحمة»[(٤)]. ولقوله عليه الصلاة والسلام «من اجتهد فأصاب فله أجران ومن أخطأ فله أجر واحد»[(٥)].

---

(١) آل عمران: «١١٠».

(٢) حذف المفعول من الأفعال الثلاثة: يدعون ويأمرون وينهون إما للإيذان بظهوره أي يدعون الناس ويأمرونهم وينهونهم، أو للقصد إلى إيجاد نفس الفعل كما في قولك فلان يعطي ويمنع (س٢/٦٨).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٦/٤٣٢) والطبراني في الكبير (٢٤/٢٥٧ رقم ٦٥٧) كلاهما من رواية سماك عن عبدالله بن عميرة، عن زوج درة، عن درة به.
وأورده الهيثمي في «المجمع» وقال: «رواه أحمد ورجاله ثقات».

(٤) لا أصل له. بل باطل سنداً ومعنى. وقد نقل العلامة المناوي في فيض القدير (١/٢١٢) عن السبكي أنه قال: «وليس بمعروف عند المحدثين، ولم أقف له على سند صحيح ولا ضعيف ولا موضوع» هـ.
وانظر تذكرة الموضوعات للفتني ص٩٠، والمقاصد الحسنة للسخاوي ص٦٩ وسلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني (١/٧٦ رقم ٥٧) وغيرها.

(٥) أخرجه البخاري (١٣/٣١٨ رقم ٧٣٥٢) ومسلم (٣/١٣٤٢ رقم ١٧١٦) وأبو داود (٤/٧ رقم ٣٥٧٤) وابن ماجة (٢/٧٧٦ رقم ٢٣١٤).
من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر».
=

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وعيد للذين تفرقوا وتهديد على التشبه بهم.

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا
كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا
عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ
ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾

(١٠٦) ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ نصب بما في لهم من معنى الفعل، أو بإضمار اذكر. وبياضُ الوجه وسواده كنايتان عن ظهور بهجة السرور وكآبة الخوف فيه[١]. وقيل يوسم أهل الحق ببياض الوجه والصحيفة وإشراق البشرة وسعي النور بين يديه وبيمينه، وأهل الباطل بأضداد ذلك. ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ على إرادة القول أي فيقال لهم أكفرتم، والهمزة للتوبيخ والتعجيب من حالهم، وهم المرتدون أو أهل الكتاب كفروا برسول الله ﷺ بعد إيمانهم به قبل مبعثه، أو جميعُ الكفار كفروا بعدما أقروا به حين أشهدهم على أنفسهم أو تمكنوا من الإيمان بالنظر في الدلائل والآيات[٢]. ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أمر إهانة. ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بسبب كفركم أو جزاء لكفركم[٣].

(١٠٧) ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ يعني الجنة والثواب المخلد، عَبّر عن ذلك بالرحمة تنبيهاً على أن المؤمن وإن استغرق عمره في طاعة الله تعالى لا يدخل الجنة إلا برحمته وفضله، وكان حقُّ الترتيب أن يُقدَّمَ ذكرهم لكن قصد أن يكون مطلع الكلام ومقطعه حليةَ المؤمنين وثوابَهم. ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أخرجه مخرج الاستئناف للتأكيد كأنه قيل: كيف يكونون فيها؟ فقال هم فيها خالدون.

(١٠٨) ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ الواردة في وعده ووعيده ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ ملتبسة بالحق لا شبهة فيها[٤]. ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ إذ يستحيل الظلم منه لأنه لا يحق عليه شيء فيظلم بنقصه، ولا يمنع عن شيء فيظلم بفعله، لأنه المالك على الإطلاق كما قال[٥].

(١٠٩) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ فيجازي كلاً بما وعد له

= وأخرج الترمذي (٣/ ٦١٥ رقم ١٣٢٦) والنسائي (٨/ ٢٢٣ رقم ٥٣٨١) من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ، فله أجرٌ واحد».
قال الترمذي: حديث حسن غريب من هذا الوجه. وقد صححه الألباني في الإرواء (٨/ ٢٢٣ رقم ٢٥٩٨).

(١) والأَوْلى حمل بياض الوجه وسواده على الظاهر، إذ لا يوجد ما يمنعه.

(٢) قدم قوله «وأما الذين اسودت وجوههم» لأن المقام مقام التحذير عن التشبه بهم (س٢/ ٦٩).

(٣) جمع بين صيغتي الماضي والمستقبل «بما كنتم تكفرون» للدلالة على استمرار كفرهم، أو على مضيه في الدنيا (س٢/ ٦٩).

(٤) والالتفات في «نتلوها» لإبراز كمال العناية بالتلاوة (س٢/ ٧٠).

(٥) قوله «وما الله يريد ظلماً للعالمين» تذييلٌ مقرر لمضمون ما قبله على أبلغ وجه وآكده، فإن تنكيرَ الظلم وتوجيهَ النفي إلى إرادته بصيغة المضارع وتعليقَ الحكم بآحاد الجمع المعرف والالتفاتَ إلى الاسم الجليل للإشعارِ بعلة الحكم بيانٌ لكمال نزاهته عز وجل عن الظلم بما لا مزيد عليه (س٢/ ٧٠). =

وأوعد(١).

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾

(١١٠) ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ دل على خيريتهم فيما مضى ولم يدل على انقطاع طَرَأ كقوله تعالى ﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾ وقيل كنتم في علم الله أو في اللوح المحفوظ أو فيما بين الأمم المتقدمين. ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أي أظهرت لهم. ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ استئناف بَيَّن به كونَهم خير أمة، أو خبر ثان لكنتم. ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ يتضمن الإيمان بكل ما يجب أن يؤمن به، لأن الإيمان به إنما يحق ويُعتدّ به إذا حصل الإيمان بكل ما أُمِرَ أن يؤمن به. وإنما أخره وحقه أن يُقدَّم لأنه قصَدَ بذكره الدلالة على أنهم أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر إيماناً بالله وتصديقاً به وإظهاراً لدينه. واستُدِل بهذه الآية على إن الإجماع حجة لأنها تقتضي كونَهم آمرين بكل معروف وناهين عن كل منكر، إذ اللام فيهما للاستغراق فلو أجمعوا على باطل كان أمرهم على خلاف ذلك. ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ إيماناً كما ينبغي ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ لكان الإيمان خيراً لهم مما هم عليه. ﴿مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ كعبدالله بن سلام وأصحابه. ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ المتمردون في الكفر، وهذه الجملة والتي بعدها واردتان على سبيل الاستطراد.

(١١١) ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ ضرراً يسيراً كطَعْنٍ وتهديد. ﴿وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾ ينهزموا ولا يضروكم بقتل وأسر. ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ ثم لا يكون أحد ينصرهم عليكم أو يدفع بأسكم عنهم، نفى إضرارَهم سوى ما يكون بقول وقرَّرَ ذلك بأنهم لو قاموا إلى القتال كانت الدُّبُرةُ عليهم، ثم أخبر بأنه تكون عاقبتهم العجز والخذلان. وقرىء لا يُنْصَرُوا عطفاً على يولّوا على أن ثم للتراخي في الرتبة فيكون عدم النصر مقيداً بقتالهم. وهذه الآية من المغيبات التي وافقها الواقع إذ كان ذلك حال قريظة والنضير وبني قينقاع ويهود خيبر.

(١١٢) ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ هدر النفس والمال والأهل، أو ذل التمسك بالباطل والجزية. ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾ وجدوا ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ استثناء من أعم عام الأحوال، أي ضربت عليهم الذلة في عامة الأحوال إلا معتصمين أو ملتبسين بذمة الله أو كتابه الذي آتاهم وذمة المسلمين أو بدين الإسلام واتباع سبيل المؤمنين. ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ رجعوا به مستوجبين له ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ

(١) إيراد كلمة «ما» إما لتغليب غير العقلاء على العقلاء أو لتنزيلهم منزلة غيرهم إظهاراً لحقارتهم في مقام بيان عظمته تعالى (س٢/ ٧٠).

﴿ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ فهي محيطة بهم إحاطة البيت المضروب على أهله، واليهود في غالب الأمر فقراء ومساكين. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من ضرب الذلة والمسكنة والبَوْء بالغضب. ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بسبب كفرهم بالآيات وقتلهم الأنبياء. والتقييدُ بغير حق مع أنه كذلك في نفس الأمر للدلالة على أنه لم يكن حقاً بحسب اعتقادهم أيضاً(١). ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الكفر والقتل. ﴿بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله، فإن الإصرار على الصغائر يفضي إلى الكبائر والاستمرارُ عليها يؤدي إلى الكفر. وقيل معناه أن ضرب الذلة في الدنيا واستيجاب الغضب في الآخرة كما هو معلل بكفرهم وقتلهم فهو مسبب عن عصيانهم واعتدائهم من حيث إنهم مخاطبون بالفروع أيضاً.

﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾

(١١٣) ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً﴾ في المساوي، والضمير لأهل الكتاب. ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ استئناف لبيان نفي الاستواء(٢)، والقائمة المستقيمة العادلة من أقمت العود فقام وهم الذين أسلموا منهم. ﴿يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ يتلون القرآن في تهجدهم. عبر عنه بالتلاوة في ساعات الليل مع السجود ليكون أبين وأبلغ في المدح. وقيل المراد صلاة العشاء لأن أهل الكتاب لا يصلونها لما روي أنه عليه الصلاة والسلام آخرها ثم خرج فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال: «أما أنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيرُكم»(٣).

(١١٤) ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾

---

(١) إسناد القتل إليهم مع أنه فعل أسلافهم لرضاهم به، كما أن التحريف مع كونه من أفعال أحبارهم ينسب إلى كل من يسير بسيرتهم (س٢/ ٧٢).

(٢) وضع أهل الكتاب موضع الضمير العائد إليهم لتحقيق ما به الاشتراك بين الفريقين، والإيذان بأن تلك الأمة ممن أوتي نصيباً وافراً من الكتاب (س٢/ ٧٣).

(٣) وهو حديث حسن.
أخرجه أحمد (١/ ٣٩٦) والنسائي في الكبرى ـ كما في تحفة الأشراف (٧/ ٢٥) ـ وابن حبان (رقم: ٢٧٤ ـ موارد)، والبزار في كشف الأستار (١/ ١٩٠ ـ ١٩١) من حديث ابن مسعود.
وأورده الهيثمي في المجمع (١/ ٣١٢) وقال: رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني في الكبير.
● وله شاهد من حديث عائشة، أخرجه البخاري (٢/ ٤٧ رقم ٥٦٦) و(٢/ ٤٩ رقم ٥٦٩) و(٢/ ٣٤٩ رقم ٨٦٢) و(٢/ ٣٤٧ رقم ٨٦٤).
ومسلم (١/ ٤٤١ رقم ٢١٨/ ٦٣٨) بلفظ «ما ينتظرها أحد من أهل الأرض غيركم وذلك قبل أن يفشو الإسلام في الناس».
● وشاهد آخر من حديث ابن عمر، أخرجه البخاري (٢/ ٥٠ رقم ٥٧٠) ومسلم (١/ ٤٤٢ رقم ٢٢٠/ ٦٣٩) وأبو داود (١/ ١٣٧ رقم ١٩٩) نحوه.

صفات أخر لأمة، وَصَفَهم بخصائصَ ما كانت في اليهود، فإنهم منحرفون عن الحق غير متعبدين في الليل مشركون بالله ملحدون في صفاته واصفون اليوم الآخر بخلاف صفته مداهنون في الاحتساب متباطئون عن الخيرات [١].

﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي الموصوفون بتلك الصفات ممن صلحت أحوالهم عند الله واستحقوا رضاه وثناءه.

وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ
أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ
وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

(١١٥) ﴿ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ فلن يَضيع ولا ينقص ثوابُه البتة. سمّي ذلك كفراناً كما سمي توفية الثواب شكراً، وتعديته إلى مفعولين لتضمنه معنى الحرمان. وقرأ حفص وحمزة والكسائي وما يفعلوا من خير فلن يكفروه بالياء والباقون بالتاء. ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ بشارة لهم وإشعار بأن التقوى مبدأ الخير وحسن العمل، وأن الفائز عند الله هو أهل التقوى [٢].

(١١٦) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ من العذاب، أو من الغناء فيكون مصدراً. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ ملازموها. ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

(١١٧) ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ﴾ ما ينفق الكفرةُ قربةً أو مفاخرة وسمعة، أو المنافقون رياء أو خوفاً. ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ برد شديد، والشائع إطلاقه للريح الباردة كالصرصر، فهو في الأصل مصدر نُعِتَ بِهِ أو نَعْتٌ وُصِف به البرد للمبالغة كقولك برد بارد. ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾ عقوبة لهم لأن الإهلاك عن سخط أشد، والمراد تشبيه ما أنفقوا في ضياعه بحرثِ كفار ضربته صِرّ فاستأصلته ولم يبقَ لهم فيه منفعة ما في الدنيا والآخرة، وهو من التشبيه المركّب ولذلك لم يبالِ بإيلاء كلمة التشبيه للريح دون الحرث، ويجوز أن يقدرَ كَمَثَل مَهْلِك ريح وهو الحرث. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي ما ظَلَمَ المنفقين بضَياع نفقاتهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم لما لم ينفقوها بحيث يعتدّ بها، أو ما ظُلِمَ أصحابُ الحرث بإهلاكه ولكنهم ظَلَموا أنفسهم بارتكاب ما استحقوا به . . . .

---

(١) قوله «يسارعون في الخيرات» فقال في الخيرات ولم يقل إلى الخيرات كما وقع في قوله تعالى: «وسارعوا إلى مغفرة من ربكم» ـ آل عمران «» ـ للإيذان بأنهم مستقرون في أصل الخير متقلبون في فنونه المترتبة في طبقات الفضل، لا أنهم خارجون عنها منتهون إليها.

«وأولئك من الصالحين» آثر اسم الإشارة على الضمير للإشعار بعلة الحكم والمدح (س٢/ ٧٤).

(٢) قوله «فلن يُكفَرُوه» إيثار صيغة البناء للمفعول للجري على سنن الكبرياء (س٢/ ٧٤).

العقوبة[١]. وقرىء ولكنّ أي ولكنّ أنفسَهم يظلمونها، ولا يجوز أن يُقدَّر ضميرُ الشأن لأنه لا يحذف إلا في ضرورة الشعر كقوله:

وَمَا كُنْتُ مِمَّنْ يَدْخُلُ العِشْقُ قَلْبَهُ ... وَلَكِنَّ مَنْ يُبْصِرْ جُفُونَكِ يَعْشَقِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾

(١١٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً﴾ وليجة، وهو الذي يُعَرِّفُه الرجل أَسراره ثقة به، شُبه ببطانة الثوب كما شُبِّه بالشِّعار قال عليه الصلاة والسلام: «الأنصار شِعار والناس دثار»[٢]. ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ من دون المسلمين، وهو متعلق بلا تتخذوا أو بمحذوف هو صفةُ بطانة أي بطانة كائنة من دونكم. ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ أي لا يقصرون لكم في الفساد، والألْوُ التقصير وأصله أن يُعدى بالحرف وعدي إلى مفعولين كقولهم: لا آلوك نصحاً على تضمين معنى المنع أو النقص. ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾ تمنوْا عنتكم، وهو شدة الضرر والمشقة وما مصدرية. ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي في كلامهم لأنهم لا يتمالكون أنفسهم لفَرْط بغضهم. ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ مما بدا لأن بُدُوَّه ليس عن رُوِيّة واختيار. ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالة على وجوب الإخلاص وموالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما بُيِّن لكم. والجمل الأربع جاءت مستأنفات على التعليل، ويجوز أن تكون الثلاث الأول صفات لِبطانة.

(١١٩) ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ أي أنتم أولاء الخاطئون في موالاة الكفار وتحبونهم ولا يحبونكم، بيان لخطئهم في موالاتهم وهو خبر ثان أو خبر لأولاء، والجملة خبر لأنتم كقولك: أنت زيد تحبه، أو صلته، أو حال والعامل فيها معنى الإشارة، ويجوز أن يُنصبَ أولاء بفعل مضمر يفسره ما بعده وتكون الجملة خبراً. ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ بجنس الكتاب كله، وهو حال مِنْ لا يحبونكم والمعنى: إنهم لا يحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتابهم أيضاً فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بكتابكم، وفيه توبيخ بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم. ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ نفاقاً وتغريراً ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ من أجله تأسفاً وتحسراً حيث لم يجدوا إلى التشفي

---

(١) قوله «ولكن أنفسهم يظلمون» قال أبو السعود: (وتقديم المفعول لرعاية الفواصل لا للتخصيص، إذ الكلام في الفعل باعتبار تعلقه بالفاعل لا بالمفعول... وصيغة المضارع للتجدد والاستمرار) (س٢/٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (٨/٤٧ رقم ٤٣٣٠) ومسلم (٢/٧٣٨ رقم ١٣٩/١٠٦١) وأحمد (٤/٤٢) من حديث عبدالله بن زيد بن عاصم في أثناء حديث طويل.

● وأخرجه أحمد عن أبي هريرة (٢/٤١٩) وعن أبي قتادة (٥/٣٠٧) بلفظ: «الناس دثاري والأنصار شعاري».

سبيلاً. ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ دعاء عليهم بدوام الغيظ وزيادته بتضاعف قوة الإسلام وأهله حتى يهلكوا به. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فيعلم ما في صدورهم من البغضاء والحنق، وهو يحتمل أن يكون من المقول أي وقل لهم إن الله عليم بما هو أخفى مما تُخفونه من عض الأنامل غيظاً، وأن يكون خارجاً عنه بمعنى قل لهم ذلك ولا تتعجب من إطْلاعي إياك على أسرارهم فإني عليم بالأخفى من ضمائرهم.

إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

(١٢٠) ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ بيان لتناهي عداوتهم إلى حدٍّ حَسَدوا ما نالهم من خير ومنفعة. وشمِتوا بما أصابهم من ضر وشدة، والمسّ مستعار للإصابة[1] ﴿وَإِن تَصْبِرُوا﴾ على عداوتهم، أو على مشاق التكاليف. ﴿وَتَتَّقُوا﴾ موالاتهم، أو ما حرم الله جل جلاله عليكم. ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ بفضل الله عز وجل وحفظِه الموعودِ للصابرين والمتقين ولأن المجِدَّ في الأمر المتدرِّبَ بالاتقاء والصبر يكون قليلَ الانفعال جرياً على الخصم، وضَمَّة الراء للاتباع كضَمَّةِ مُدّ. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب لا يَضِرْكُم من ضارَه يضيرُه. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من الصبر والتقوى وغيرهما. ﴿مُحِيطٌ﴾ أي محيط عِلْمُه فيجازيَكم مما أنتم أهله[2]. وقرىء بالياء أي: بما يعملون في عداوتكم عليم فيعاقبهم عليه.

(١٢١) ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾ أي واذكر إذ غدوت[3]. ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي من حجرة عائشة رضي الله عنها. ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تُنَزِّلهم، أو تسوي وتهيىء لهم ويؤيده القراءة باللام[4]. ﴿مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ مواقف وأماكن له، وقد يستعمل المَقْعَد والمقام بمعنى المكان على الاتساع كقوله تعالى ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾[5] وقوله تعالى ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾[6]. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم[7]. روي أن المشركين نزلوا بأُحُدٍ يوم الأربعاء ـ ثاني عشر شوال سنة ثلاث من الهجرة ـ فاستشار الرسول عليه الصلاة والسلام أصحابه، وقد دعا عبدالله بن أبيّ بن سلول ولم يَدْعُه قبلُ. فقال هو وأكثر الأنصار:

---

(١) أو للإيذان بأن مدار مساءتهم أدنى مراتب إصابة الحسنة ومناط فرحهم تمام إصابة السيئة (س٢/ ٧٧).

(٢) وهذا المعنى الذي ذكره على قراءة من قرأ «بما تعملون».

(٣) أي حين غدوت. وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات للمبالغة في إيجاب ذكرها واستحضار الحادثة بتفاصيلها (س٢/ ٧٧).

(٤) أي «تبوىء للمؤمنين».

(٥) القمر: «٥٥».

(٦) النمل: «٣٩».

(٧) وعبر عن خروجه عليه السلام بالغدو مع أن خروجه كان بعد صلاة الجمعة ـ والغدو هو الخروج غدوة ـ لأن المقصود بتذكير الوقت هو تذكير مخالفتهم لأمر النبي عليه السلام (س٢/ ٧٨).

أَقِمْ يا رسول الله بالمدينة ولا تَخْرُج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه فكيف وأنت فينا؟ فَدَعْهم فإن أقاموا أقاموا بِشَرِّ مَحْبَس، وإن دخلوا قاتلهم الرجالُ ورماهم النساءُ والصبيان بالحجارة، وإن رجعوا رجعوا خائبين. وأشار بعضهم إلى الخروج فقال عليه الصلاة والسلام: «رأيت في منامي بقرة مذبوحة حولي فأوّلتُها خيراً، ورأيت في ذباب سيفي ثَلْماً فأوّلتُه هزيمة، ورأيت كأني أدخلت يدي في درع حصينة فأوّلتها المدينة. فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتَدَعُوهم». فقال رجال فاتتهم بدر وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد اخرج بنا إلى أعدائنا، وبالَغُوا حتى دخل ولبِسَ لأمَتَه. فلما رأوا ذلك ندموا على مبالغَتِهم وقالوا: اصنع يا رسول الله ما رأيت. فقال: «لا ينبغي لنبي أن يلبس لأمته فيضعَها حتى يقاتل». فخرج بعد صلاة الجمعة وأصبح بِشِعْبِ أُحُد يوم السبت، ونزل في عُدْوَة الوادي وجعل ظهره وعسكره إلى أُحُد وسوّى صفهم، وأَمَّر عبدالله بن جبير على الرماة وقال: «انضحوا عنا بالنبل لا يأتونا من ورائنا»[(١)].

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

(١٢٢) ﴿إِذْ هَمَّت﴾ متعلق بقوله ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أو بدل من إذ غدوت. ﴿طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ﴾ بنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس وكانا جناحَيْ العسكر. ﴿أَن تَفْشَلَا﴾ أن تجبُنا وتضعفا. روي أنه عليه الصلاة والسلام خرج في زَهاء ألف رجل ووَعَد لهم النصر إن صبروا، فلما بلغوا الشوط انخذل ابن أبيّ في ثلاثمائة رجل وقال: علام نَقْتُلُ أنفسنا وأولادنا، فتبعهم عمرو بن حزم الأنصاري[(٢)] وقال: أُنشِدُكم اللهَ والإسلام في نبيكم وأنفسكم. فقال: ابن أبيّ لو نعلم قتالاً لاتبعناكم، فهَمَّ الحيانِ باتباعه فعصمهم اللهُ فمضوْا مع رسول الله ﷺ: والظاهر أنها ما كانت عزيمة لقوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي عاصمُهما من اتباع تلك الخَطْرة، ويجوز أن يراد والله ناصرُهما فما لهما يفشلان ولا يتوكلان على الله! ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي فليتوكلوا عليه ولا يتوكلوا على غيره لينصرهم كما نصرهم ببدر[(٣)].

(١٢٣) ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ تذكير ببعض ما أفادهم التوكل. وبَدْرٌ ماءٌ بين مكة والمدينة كان

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ٧٠ ـ ٧١) من طريق ابن إسحاق.
وأخرجه الطبري أيضاً (٣/ج٤/ ٧٣) من رواية أسباط عن السدي.
وأخرجه عبدالرزاق في المصنف (٥/ ٣٦٣ ـ ٣٦٥) عن معمر عن الزهري عن عروة.

(٢) عمرو بن حزم الأنصاري: هو عمرو بن حزم بن زيد بن لوذان الأنصاري. يكنى أبا الضحاك، شهد الخندق وما بعدها، واستعمله النبي ﷺ على نجران. قال أبو نعيم مات في خلافة عمر وقيل غير ذلك ـ الإصابة (٢/ ٥٣٢) ـ وقال ابن عبدالبر في «الاستيعاب» (٢/ ٥١٧): ... لم يشهد بدراً فيما يقولون وأول مشاهده الخندق. قلت: والصواب أن الذي تبع المنافقين: عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصاري كما سيأتي.

(٣) إظهار الاسم الجليل «وعلى الله» للتبرك والتعليل فإن الألوهية من موجبات التوكل عليه تعالى وفيه إشعار بأن وصف الإيمان من دواعي التوكل وموجباته (س٢/ ٧٩).

لرجل يُسمى بدراً فسمي به. ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ حال من الضمير، وإنما قال أذلة ولم يقل ذلائِلُ تنبيهاً على قِلَّتهم مع ذلتهم لضَعْف الحال وقلة المراكب والسلاح. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الثبات[١]. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ بتقواكم ما أنعم به عليكم من نصره، أو لعلكم يُنْعِم الله عليكم فتشكرون، فَوَضَع الشكر موضع الإنعام لأنه سببه.

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟
وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾

(١٢٤) ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ظرف لنصَرَكم. وقيل بدل ثانٍ من إذ غدوت على أنّ قوله لهم يوم أحد وكان مع اشتراط الصبر والتقوى عن المخالفة، فلما لم يصبروا عن الغنائم وخالفوا أمر الرسول ﷺ لم تنزل الملائكة[٢] ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ إنكارٌ أنْ لا يكفيَهم ذلك وإنما جيء بلَنْ إشعاراً بأنهم كانوا كالآيسين من النصر لضَعفهم وقلتهم وقوة العدو وكثرتهم. قيل أمدهم الله يوم بدر أولاً بألف من الملائكة ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم صاروا خمسة آلاف. وقرأ ابن عامر مُنَزَّلين بالتشديد للتكثير أو للتدريج.

(١٢٥) ﴿بَلَىٰٓ﴾ إيجاب لما بعد لن، أي بلى يكفيكم. ثم وَعَدَ لهم الزيادة على الصبر والتقوى حثاً عليهما وتقوية لقلوبهم فقال: ﴿إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم﴾ أي المشركون. ﴿مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ من ساعتهم هذه، وهو في الأصل مصدرٌ من فارت القِدْرُ إذ غلت، فاستعير للسرعة ثم أطلق للحال التي لا رَيْث فيها ولا تراخي، والمعنى إن يأتوكم في الحال. ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ في حال إتيانهم بلا تراخ ولا تأخير. ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ مُعلَّمين من التسويم الذي هو إظهارُ سِيمَا الشيء لقوله عليه الصلاة والسلام لأصحابه: «تسوَّمُوا فإن الملائكة قد تسوَّمَت»[٣]، أو مُرْسَلين من التسويم بمعنى الأسامة[٤].

---

(١) اقتصر على الأمر بالتقوى مع كونه مشفوعاً بالصبر فيما سبق وما لحق للإشعار بأصالته وكون الصبر من مباديه اللازمة له، ولذلك قدم عليه في الذكر.
وفي ترتيب الأمر بالتقوى على الإخبار بالنصر إيذان بأن نصرهم المذكور كان بسبب تقواهم (س٢/ ٧٩).

(٢) وتخصيصه عليه السلام لتشريفه والإيذان بأن وقوع النصر كان ببشارته عليه السلام وصيغة المضارع «تقول» لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها (س٢/ ٨٠).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ٨٢) عن يعقوب عن ابن عليه عن ابن عوف عن عمير بن إسحاق قال: «إن أول ما كان الصوف ليومئذٍ، يعني يوم بدر، قال رسول الله ﷺ. فذكره.
وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٢/ ٢٦١).
والخلاصة أنه مرسل ضعيف.
● تسوموا: أي اعملوا لها علامة يعرف بها بعضكم بعضاً.
[النهاية: ٢/ ٤٣٩].

(٤) وهذا المعنى على قراءة من قرأ «مسوَّمين» بفتح الواو.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ويعقوب بكسر الواو.

وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ
طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ
فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾

(١٢٦) ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ وما جعل إمدادكم بالملائكة. ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ إلا بشارة لكم بالنصر[١]. ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ ولتسكن إليه من الخوف. ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لا من العِدَّة والعُدَدِ، وهو تنبيه على أنه لا حاجة في نصرهم إلى مَدَدٍ وإنما أمدهم ووعد لهم به إشارة لهم وربطاً على قلوبهم، من حيث إن نظر العامة إلى الأسباب أكثر وحثّاً على أن لا يُبالوا بمن تأخر عنهم. ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي لا يُغالَب في أقضيته. ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ الذي يَنصُر ويَخْذُل بوسط وبغير وسط على مقتضى الحكمة والمصلحة.

(١٢٧) ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ متعلق بنصركم، أو وما النصر إن كان اللام فيه للعهد، والمعنى ليُنْقِص منهم بقتلِ بعضٍ وأَسْر آخرين، وهو ما كان يوم بدر من قَتْل سبعين وأَسْر سبعين من صناديدهم. ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ أو يخزيهم، والكبت شدة الغيظ، أو وَهَنٌ يقع في القلب، وأو للتنويع دون الترديد ﴿فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ﴾ فينهزموا منقطعي الآمال.

(١٢٨) ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ اعتراض[٢]. ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ عطف على قوله أو يكبتَهم، والمعنى أن الله مالكُ أمرِهم فإما أن يهلكهم أو يكبتهم أو يتوبَ عليهم إن أسلموا أو يعذبَهم إن أصروا وليس لك من أمرهم شيء وإنما أنت عبد مأمور لإنذارهم وجهادهم. ويحتمل أن يكون معطوفاً على الأمر أو شيءٌ بإضمار أنْ، أي ليس لك من أمرهم أو من التوبة عليهم أو من تعذيبهم شيء، أو ليس لك من أمرهم شيء، أو التوبةُ عليهم أو تعذيبُهم. وأَنْ تكون أَوْ بمعنى إلاّ أنْ، أي ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب الله عليهم فَتُسَرَّ به أو يعذبَهم فتتشفّى منهم. روي أن عتبة بن أبي وقاص شجَّه يوم أُحُد وكَسَر رُباعيَته، فجعل يمسحُ الدم عن وجهه ويقول: «كيف يفلحُ قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم»؟ فنزلت[٣]. وقيل هَمَّ أن يدعوَ عليهم فنهاه الله لعلمه بأن فيهم من يؤمن.

---

(١) وهو تلوين للخطاب لتشريف المؤمنين وللإيذان بأنهم المحتاجون إلى البشارة وتسكين القلوب بتوفيق الأسباب الظاهرة وأن رسول الله ﷺ غنيّ عنه بماله من التأييد الروحاني (س٢/ ٨١).

(٢) وتخصيص النفي به عليه السلام للدلالة على الانتفاء من غيره بطريق أَوْلى (س٢/ ٨٢).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ٨٨) عن معمر عن قتادة ومن طريق معمر أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٢/ ٤٥) عن محمد بن حُميد العبدي عن معمر به ولفظهما: «كيف يفلح قوم صنعوا هذا بنبيهم».

● والحديث أخرجه البخاري (٦/ ٩٣ رقم ٢٩٠٣) و(٧/ ٣٧٢ رقم ٤٠٧٥) و(١٠/ ١٧٣ رقم ٥٧٢٢) ومسلم (٣/ ١٤١٦ رقم ١٠١/ ١٧٩٠) كلاهما من رواية أبي حازم عن سهل بن سعد وليس فيه ذكر من أصابه أو شجه. =

﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ قد استحقوا التعذيب بظلمهم.

= ● وقال الحافظ بن حجر في «الكافي الشافِ» رقم (٢٥٥): «وسيأتي ـ رقم ٢٦٤ ـ أن الذي شجه عبدالله بن قمئة.

وقال الواقدي: المثبت عندنا أن الذي رمى وجه النبي ﷺ عبدالله بن قمئة. والذي رمى شفته وأصاب رباعيته، عتبة بن أبي وقاص. وفي السيرة لابن هشام ـ (٣/ ١١٥) تعليقاً من حديث أبي سعيد الخدري أن عتبة بن أبي وقاص رمى رسول الله ﷺ يومئذٍ فكسر رباعيته اليمنى السفلى. وجرح شفته السفلى، وأن عبدالله بن شهاب شجه في وجهه، وأن ابن قمئة جرح وجنته فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، ووقع رسول الله ﷺ في حفرة من الحفر، فأخذ عليّ بيده ورفعه طلحة حتى استوى قائماً، ومصّ مالك بن سنان أبو أبي سعد الدم عن وجه النبي ﷺ ثم ازدروه. فقال النبي ﷺ: «من مسّ دمه دمي لم تصبه النار».

● وأخرج الطبراني في الكبير (٨/ ١٥٤ رقم ٧٥٩٦) من حديث أبي أمامة، أن عبدالله بن قمئة رمي رسول الله ﷺ فشج وجهه وكسر رباعيته، فقال خذها وأنا ابن قمئة، فقال له رسول الله ﷺ: مالك أقمأك الله، فسلط الله عليه تيس جبل فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة.

وأورده الهيثمي في المجمع (٦/ ١١٧) وقال: فيه: حفص بن عمر العدني وهو ضعيف.

● وأخرج الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ١٣٦) عن الزهري وغيره أن الذي أصاب النبي ﷺ عتبة، وأما عبدالله بن قمئة فأصاب مصعب بن عمير فقتله وظن أنه قتل محمداً ﷺ، وصاح أن محمداً قد قتل، فحصل ما حصل بهذه الإشاعة.

● وأخرج الطبري في تاريخه (٢/ ٥٧٧) عن السدي قال: أتى ابن قمئة الحارثي فرمى رسول الله ﷺ بحجر فكسر أنفه وشجه في رأسه فأثقله، وتفرق عنه أصحابه. . . الحديث.

ويمكن الجمع بينهما أن الاثنين اشتركا في مجموع الفعل فنقل كل راوٍ ما رأى.

● وأما سبب النزول:

● فقد أخرج مسلم (٣/ ١٤١٧ رقم ١٠٤/ ١٧٩١) من حديث أنس أنها نزلت بسبب قوله ﷺ في غزوة أحد: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته».

وأخرج البخاري (٧/ ٣٦٥ رقم ٤٠٦٩) و(٨/ ٢٢٥ رقم ٤٥٥٩) من حديث ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر يقول: «اللهم العن فلاناً وفلاناً، فأنزل الله «ليس لك من الأمر شيء».

وأورد البخاري تسميتهم في صحيحه (٧/ ٣٦٥ رقم ٤٠٧٠) عن سالم بن عبدالله مرسلاً، ووصله أحمد في مسنده (٢/ ٩٣).

● وأخرج البخاري (٨/ ٢٢٦ رقم ٤٥٦٠) من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر «اللهم العن فلاناً وفلاناً ـ لأحياء من العرب ـ حتى أنزل الله «ليس لك من الأمر شيء».

وفي رواية مسلم (١/ ٤٦٦ ـ ٤٦٧ رقم ٢٩٤/ ٦٧٥): «اللهم العن لحيان ورعلاً وذكوان وعصية» ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما أنزل «ليس لك من الأمر شيء».

وقال الحافظ في فتح الباري (٧/ ٣٦٥) توفيقاً بين هذه الأحاديث في سبب نزول هذه الآية: «يحتمل أن تكون نزلت في الأمرين جميعاً، فإنهما كانا في قصة واحدة».

والمقصود بالأمرين قصة شج النبي ﷺ ودعاءه على فلان وفلان.

وانظر الفتح (٧/ ٣٦٦) و(٨/ ٢٢٧) فقد أجاد وأفاد. . .

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةًۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ
أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن
رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ
وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾

(١٢٩) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ خلقاً وملكاً فله الأمر كله لا لك. ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ صريح في نفي وجوب التعذيب، والتقييد بالتوبة وعدمها كالمنافي له[١]. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لعباده فلا تبادر إلى الدعاء عليهم.

(١٣٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةًۖ﴾ لا تزيدوا زيادات مكررة. ولعل التخصيص بحسب الواقع، إذ كان الرجل منهم يُرْبِي إلى أجل ثم يزيد فيه زيادة أخرى حتى يستغرق بالشيء الطفيف مال المديون[٢]. وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب مُضَعَّفَة. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما نهيتم عنه. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ راجين الفلاح.

(١٣١) ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ بالتحرز عن متابعتهم وتعاطي أفعالهم، وفيه تنبيه على أن النار بالذات مُعَدّة للكافرين وبالعَرَض للعصاة.

(١٣٢) ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أتبع الوعيد بالوعد ترهيباً عن المخالفة وترغيباً في الطاعة، ولعل وعسى في أمثال ذلك دليلُ عزة التوصل إلى ما جُعل خبراً له.

(١٣٣) ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ﴾ بادروا وأقبلوا. ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إلى ما يستحق به المغفرة كالإسلام والتوبة والإخلاص. وقرأ نافع وابن عامر سارعوا بلا واو. ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي عرضُها كعرضهما، وذكر العَرْض للمبالغة في وصفها بالسَّعة على طريقة التمثيل لأنه دون الطول، وعن ابن عباس كسبع سموات وسبع أرضين لو وُصل بعضها ببعض[٣]، ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ هيئت لهم، وفيه دليل على أن الجنة مخلوقة وأنها خارجة عن هذا العالم.

(١٣٤) ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ صفة مادحة للمتقين، أو مدح منصوب أو مرفوع. ﴿فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ في حالتي الرخاء والشدة، أو الأحوال كلها إذ الإنسان لا يخلو عن مسرة أو مضرة، أي لا يَخْلُون في حالٍ ما بإنفاق ما قدروا عليه من قليل أو كثير. ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ الممسكين عليه الكافِّين عن إمضائه

---

(١) قوله «يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء» آثر كلمة مِنْ في الموضعين لاختصاص المغفرة والتعذيب بالعقلاء.. وتقديم المغفرة على التعذيب للإيذان بسبق رحمته تعالى غضبه (س٢/ ٨٤).

(٢) المراد بأكل الربا أخذه ولكن عُبر عنه بالأكل لأنه معظم ما يقصد بالأخذ، ولشيوعه في المأكولات.. (س٢/ ٨٤).

(٣) قدم المغفرة على الجنة لأن التخلية مقدمة على التحلية (س٢/ ٨٥).

مع القدرة، مِنْ كظمت القِربة إذا ملأتها وشددت رأسها[1] . وعن النبي ﷺ «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً»[2] . ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ التاركين عقوبة من استحقوا مؤاخذته، وعن النبي عليه الصلاة والسلام «إن هؤلاء في أمتي قليل إلا من عصم الله وقد كانوا كثيراً في الأمم التي مضت»[3] ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يحتمل الجنس ويدخل تحته هؤلاء، والعهد فتكون الإشارة إليهم.

وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾

(١٣٥) ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ فِعلة بالغة في القبح كالزنى. ﴿أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بأن أذنبوا أي

---

(١) قوله «والكاظمين» عدل إلى صيغة الفاعل للدلالة على الاستمرار، أما الإنفاق فحيث كان أمراً متجدداً عبر عنه بما يفيد الحدوث والتجدد (س٢/ ٨٥).

(٢) أخرج أبو داود (٥/ ١٣٧ رقم ٤٧٧٧) والترمذي (٤/ ٣٧٢ رقم ٢٠٢١) وابن ماجة (٢/ ١٤٠٠ رقم ٤١٨٦) عن سهل بن معاذ عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: «من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفِذَه دعاهُ الله عز وجل على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيِّرهُ الله من الحور العين ما يشاء».
قال أبو داود: اسم أبي مرحوم عبدالرحمٰن بن ميمون.
وقال الترمذي: حديث حسن غريب.
وقال المنذري (٧/ ١٦٤) وسهل بن معاذ بن أنس الجهني: ضعيف.
والذي روى عنه هذا الحديث: أبو مرحوم عبدالرحيم بن ميمون الليثي، مولاهم المصري، ولا يحتج بحديثه».
وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٦٥١٨/ ٢٢٢٩) وصحيح ابن ماجة وغيرهما.
● وأخرج أبو داود (٥/ ١٣٨ رقم ٤٧٧٨) عن رجل من أبناء أصحاب النبي ﷺ، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: نحوه، قال: «ملأه الله أمناً وإيماناً».
قال المنذري (٧/ ١٦٤): فيه رواية مجهول.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ٥٨٣٤/ ٩٦٨) وضعيف أبي داود.
● وأخرج العقيلي في الضعفاء (٣/ ١٠٣) والبخاري في التاريخ الكبير (٦/ ١٢٣) والطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ٩٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال: قال النبي ﷺ: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاده ملأه الله أمناً وإيماناً».
قال العقيلي: وقد رُوِي من غير هذا الطريق بأسانيد صالحة.
وقال ابن حجر في «الكافي الشاف» رقم (٢٥٧): وعبدالجليل مجهول.
● وأخرج أحمد في المسند (١/ ٣٢٧) من حديث ابن عباس بلفظ: «.... وما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد ما كظمها عبدالله إلا ملأ الله جوفه إيماناً».
وأورده ابن كثير في تفسيره (١/ ٤١٤) وقال: «انفرد به أحمد، وإسناده حسن ليس فيه مجروح، ومتنه حسن» هـ.
والخلاصة أن حديث أبي هريرة حسن لغيره والله أعلم.

(٣) أخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن مقاتل بن حيان ـ كما في «الدر المنثور» (٢/ ٣١٦) ـ.

ذنب كان. وقيل الفاحشة الكبيرة وظلم النفس الصغيرة، ولعل الفاحشة ما يتعدّى وظلم النفس ما ليس كذلك. ﴿ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ تذكروا وعيده أو حكمه أو حقه العظيم. ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ بالندم والتوبة[(١)].
﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ استفهام بمعنى النفي معترض بين المعطوفين، والمراد به وصفه تعالى بسعة الرحمة وعموم المغفرة والحث على الاستغفار والوعد بقبول التوبة ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟﴾ ولم يقيموا على ذنوبهم غير مستغفرين لقوله ﷺ «ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة»[(٢)].
﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ حال من يصروا أي ولم يصروا على قبيح فعلهم عالمين به.

أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾

(١٣٦) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ خبر للذين إنْ ابتدأت به، وجملة مستأنفة مبينة لما قبلها إن عطفتَه على المتقين أو على الذين ينفقون. ولا يلزم من إعداد الجنة للمتقين والتائبين جزاء لهم إن لا يدخلَها المصِرُّون، كما لا يلزم من إعداد النار للكافرين جزاء لهم أن لا يدخلها غيرُهم. وتنكير جنات على الأول يدل على أن ما لهم أدْوَن مما للمتقين الموصوفين بتلك الصفات المذكورة في الآية المتقدمة، وكفاك فارقاً بين القبيلين أنه فَصَّل آيتهم بأن بيَّن أنهم محسنون ،مستوجبون لمحبة الله، وذلك لأنهم حافظوا على حدود الشرع وتخطوا إلى التخصص بمكارمه. وفصَّل آية هؤلاء بقوله: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ لأن المتدارِك لتقصيره كالعامِل لتحصيل بعض ما فوّت على نفسه، وكم بين المحسن والمتدارِك والمحبوب والأجير، ولعل تبديل لفظ الجزاء بالأجْر لهذه النكتة، والمخصوص بالمدح محذوف تقديره ونعم أجر العاملين ذلك يعني المغفَرة والجنات.

---

(١) قدم الاستغفار على عدم الإصرار مع أن الواقع خلافه لبيان العناية بشأن الاستغفار (س٢/٨٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٢/١٧٧ رقم ١٥١٤) والترمذي (٥/٥٥٨ رقم ٣٥٥٩) والطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/٩٨) والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/١٨٨) والبزار في مسنده (رقم: ٩٣) وأبو يعلى في مسنده (١/ ١٢٤، ١٢٥) من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه.
قال الترمذي: هذا حديث غريب، إنما نعرفه من حديث أبي نُصيرة، وليس إسناده بالقوي.
وقال البزار: رأيت في هذا الإسناد رجلين مجهولين، فتركت ذكر هذا الحديث.
قلت: الرجلان المجهولان هما: أبو رجاء مولى أبي بكر الصديق [التقريب: ٢/ ٤٢١] وأبو نصيرة مسلم بن عبيد [تهذيب التهذيب: ١٢/ ٢٨١].
وقال ابن حجر في «الكافي الشافِ» رقم (٢٦١) «له شاهد أخرجه الطبراني في الدعاء ـ (٣/١٦٠٨ رقم ١٧٩٧) ـ من حديث ابن عباس» اهـ. وقال محقق كتاب الدعاء الدكتور محمد سعيد البخاري: «وفي إسناده: أبو شيبة، وهو سعيد بن عبدالرحمن الأسدي، وهو مقبول. وبقية رجاله ثقات» هـ.
وحكم المحدث الألباني على حديث أبي بكر بالضعف في ضعيف أبي داود، وضعيف الترمذي وضعيف الجامع (٥/ ٨٢ رقم ٥٠٠٦).

قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ
وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن
يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ
آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾

(١٣٧) ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ وقائع سنها الله في الأمم المكذبة كقوله تعالى ﴿وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾(١) وقيل أمم قال:

ما عَايَنَ النَّاسُ مِنْ فَضْلٍ كَفَضْلِكُمُو　　ولاَ رَأَوْا مِثْلَهُ فِي سَالِفِ السُّنَنِ

﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ لتعتبروا بما ترون من آثار هلاكهم.

(١٣٨) ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ إشارة إلى قوله قد خلت، أو مفهوم قوله فانظروا أي أنه مع كونه بياناً للمكذبين فهو زيادة بصيرة وموعظة للمتقين، أو إلى ما لخص من أمر المتقين والتائبين، وقوله قد خلت جملة معترضة للحث على الإيمان والتوبة وقيل إلى القرآن.

(١٣٩) ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ تسلية لهم عما أصابهم يوم أحد، والمعنى لا تَضْعُفوا عن الجهاد بما أصابكم ولا تحزنوا على من قتل منكم. ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ وحالكم أنكم أعلى منهم شأناً، فإنكم على الحق وقتالكم لله وقتلاكم في الجنة وإنهم على الباطل وقتالهم للشيطان وقتلاهم في النار، أو لأنكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم اليوم، أو وأنتم الأعلون في العاقبة فيكون بشارةً لهم بالنصر والغلبة. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ متعلق بالنهي أي لا تهنوا إن صح إيمانكم، فإنه يقتضي قوة القلب بالوثوق على الله أو بالأعلون.

(١٤٠) ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ قرأ حمزة والكسائي وابن عياش عن عاصم بضم القاف، والباقون بالفتح وهما لغتان كالضَّعف والضُّعف. وقيل هو بالفتح الجراح وبالضم ألَمُها، والمعنى إن أصابوا منكم يوم أحد فقد أصبتم منهم يوم بدر مثلَه، ثم إنهم لم يضعفوا ولم يجبنوا فأنتم أولى بأن لا تضعفوا، فإنكم ترجون من الله ما لا يرجون. وقيل كِلا المَسَّيْن كان يوم أحد فإن المسلمين نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر الرسول ﷺ. ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ نصرفها بينهم تدليل لهؤلاء تارة ولهؤلاء أخرى كقوله:

فَيَوْماً عَلَيْنَا وَيَوْماً لَنَا　　وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرُّ

والمداولة كالمعاودة يقال داولت الشيء بينهم فتداولوه، والأيامُ تحتمل الوصف والخبر ونداولها يحتمل الخبر والحال والمراد بها: أوقات النصر والغلبة(٢). ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عطف على علة

(١) الأحزاب: «٦١ ـ ٦٢».
(٢) «نداولها» عبر بصيغة المضارع الدالة على التجدد والاستمرار للإيذان بأنها سنة مسلوكة في جميع الأمم (س٢/٨٩).

محذوفة أي نداولها ليكون كيْت وكيْت وليعلم الله إيذاناً بأن العلة فيه غير واحدة وأن ما يصيب المؤمن فيه من المصالح ما لا يُعْلَم، أو الفعلُ المعلَّل به محذوف تقديره وليتميز الثابتون على الإيمان من الذين على حَرْفٍ فَعَلْنا ذلك، والقصدُ في أمثاله ونقائضه ليس إلى إثباتُ علمه تعالى ونفيُه بل إلى إثبات المعلوم ونفيه على طريق البرهان. وقيل معناه ليَعْلَمَهم علماً يتعلق به الجزاء وهو العلم بالشيء موجوداً. ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ ويكرم ناساً منكم بالشهادة يريدُ شهداءَ أُحُد، أو يتخذ منكم شهوداً معدلين بما صودف منهم من الثبات والصبر على الشدائد. ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ الذين يضمرون خلاف ما يظهرون، أو الكافرين وهو اعتراض، وفيه تنبيه على أنه تعالى لا يَنْصُر الكافرين على الحقيقة وإنما يُغَلِّبُهم أحياناً استدراجاً لهم وابتلاء للمؤمنين.

وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

(١٤١) ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ليطهرهم ويصفيهم من الذنوب إن كانت الدُّولة عليهم[١]. ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ ويهلكهم إن كانت عليهم، والمحق نقص الشيء قليلاً قليلاً.

(١٤٢) ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ بل أحسبتم ومعناه الإنكار. ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ ولما تجاهدوا، وفيه دليل على أن الجهاد فرض كفاية. والفرق بين لمَّا ولَمْ إن فيه توقع الفعل فيما يستقبل. وقرىء يَعْلَمَ بفتح الميم على أن أصله يعلمن فحذفت النون[٢] ﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ نصب بإضمار أن على أن الواو للجمع. وقرىء بالرفع على أن الواو للحال كأنه قال: ولما تجاهدوا وأنتم صابرون[٣].

(١٤٣) ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾ أي الحرب فإنها من أسباب الموت، أو الموت بالشهادة. والخطاب للذين لم يشهدوا بدراً وتمنوا أن يشهدوا مع رسول الله ﷺ مشهداً لينالوا ما نال شهداء بدر من الكرامة فألحّوا يوم أحد على الخروج. ﴿مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ من قبل أن تشاهدوه وتعرفوا شدته. ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ أي فقد رأيتموه معاينين له حين قتل دونكم من قتل من إخوانكم، وهو

(١) قوله «وليمحص الله» كرر اللام لتذكير التعليل لوقوع الفصل بينهما بالاعتراض.
وأظهر الاسم الجليل في موقع الإضمار لإبراز مزيد الاعتناء بشأن التمحيص (س٢/ ٩١).

(٢) وعدم العلم كناية عن عدم المعلوم، لما بينهما من اللزوم المبني على لزوم تحقق الأول لتحقق الثاني ضرورة استحالة تحقق شيء بدون علمه تعالى به. وإيثارها على التصريح للمبالغة في تحقيق المعنى المراد فإنها إثبات لعدم جهادهم بالبرهان، وللإيذان بأن مدار ترتب الجزاء على الأعمال إنما هو علم الله تعالى (س٢/ ٩١).

(٣) قوله «ويعلم الصابرين» آثر اسم الفاعل على الموصول، أي قال الصابرين ولم يقل الذين صبروا للدلالة على أن المعتبر هو الاستمرار على الصبر وللمحافظة على الفواصل (س٢/ ٩١).

توبيخ لهم على أنهم تمنوْا الحرب وتسببوا لها ثم جَبُنوا وانهزموا عنها، أو على تمني الشهادة فإن في تمنيها تمني غلبة الكفار [١].

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًاۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَاۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

(١٤٤) ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ فسيخلُو كما خلوْا بالموت أو القتل. ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ إنكاراً لارتدادهم وانقلابهم على أعقابهم عن الدين لخلوِّه بموت أو قتل بعد علمهم بخلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكاً به. وقيل الفاء للسببية والهمزة لإنكار أن يجعلوا خُلُوَّ الرسل قبله سبباً لانقلابهم على أعقابهم بعد وفاته [٢]. روي أنه لما رمى عبدُالله بن قمئة الحارثي رسولَ الله ﷺ بحجر فكسر رباعيته وشج وجهه، فذبّ عنه مصعب بن عمير رضي الله عنه وكان صاحبَ الراية حتى قتله ابنُ قميئة وهو يرى أنه قتل النبي عليه الصلاة والسلام فقال: قد قتلت محمداً وصرخ صارخٌ ألا إن محمداً قد قتل، فانكفأ الناس وجعل الرسول عليه الصلاة والسلام يدعو. إليَّ عبادَ الله، فانحاز إليه ثلاثون من أصحابه وحموْه حتى كشفوا عنه المشركين وتفرق الباقون. وقال بعضهم: ليت ابن أبيّ يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان، وقال ناس من المنافقين لو كان نبياً لما قُتل ارجعوا إلى إخوانكم ودينكم. فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك رضي الله عنهما: يا قوم إن كان قُتِل محمد فإن رب محمد حي لا يموت وما تصنعون بالحياة بعده؟ فقاتِلُوا على ما قاتل عليه، ثم قال اللهم إني أعتذر إليك مما يقولون وأبرأ إليك منه وشد بسيفه فقاتل حتى قتل. فنزلت [٣] ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ بارتداده بل يضرُّ نفسه. ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ على نعمة الإسلام بالثبات عليه كأنسٍ وأضرابه.

(١٤٥) ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ إلا بمشيئة الله تعالى أو بإذنه لمَلَكِ الموت عليه

---

(١) وفي قوله «فقد رأيتموه» إيثار الرؤية على الملاقاة وتقييدها بالنظر مزيد مبالغة في مشاهدتهم (س٢/ ٩٢).

(٢) قدم تقدير الموت مع أن تقدير القتل هو الذي ثار منه الفتنة وعظم فيه المحنة لما أن الموت في شرف الوقوع فزجر الناس عن الانقلاب عنده وحملهم على التثبت هناك أهمّ ولأن الوصف الجامع بينه وبين الرسل عليهم السلام هو الخلو بالموت دون القتل (س٢/ ٩٣).

(٣) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ١١١) عن السدي قال: لما برز رسول الله ﷺ يوم أحد إليهم، يعني إلى المشركين. . . . قال أنس بن النضر: يا قوم إن كان محمد قد قتل، فإن رب محمد لم يقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد ﷺ اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل. .» وسنده منقطع.

الصلاة والسلام في قبض روحه، والمعنى أن لكل نفس أجلاً مسمى في علمه تعالى وقضائه ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[١] بالإحجام عن القتال والإقدام عليه، وفيه تحريض وتشجيع على القتال، ووعد للرسول ﷺ بالحفظ وتأخير الأجل. ﴿كِتَٰبًا﴾ مصدر مؤكِّد إذ المعنى كُتِبَ الموت كتاباً. ﴿مُّؤَجَّلًا﴾ صفة له أي مؤقتاً لا يتقدم ولا يتأخر. ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ تعريض لمن شغلتهم الغنائم يوم أحد، فإن المسلمين حملوا على المشركين وهزموهم وأخذوا ينهبون، فلما رأى الرماة ذلك أقبلوا على النهب وخَلَّوا مكانهم فانتهز المشركون وحملوا عليهم من ورائهم فهزموهم. ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي من ثوابها. ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ الذين شكروا نعمة الله فلم يشغلهم شيء عن الجهاد.

وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾

(١٤٦) ﴿وَكَأَيِّن﴾ أصله أيْ دخلت الكاف عليها وصارت بمعنى كَمْ والنونُ تنوينٌ أُثبت في الخط على غير قياس. وقرأ ابن كثير وكائِن ككاعِن، ووجهه أنه قُلِبَ قَلْبَ الكلمة الواحدة كقولهم وعملي في لعمري فصار كأين ثم حذفت الياء الثانية للتخفيف ثم أبدلت الياء الأخرى ألفاً كما أبدلت من طائي ﴿مِّن نَّبِيٍّ﴾ بيان له. ﴿قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ ربانيون علماء أتقياء، أو عابدون لربهم. وقيل جماعات والرِّبيُّ منسوب إلى الرِّبَّة وهي الجماعة للمبالغة. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب قُتِل، وإسناده إلى ربيون أو ضمير النبي، ومعه ربيون حال منه، ويؤيد الأول أنه قرىء بالتشديد وقرىء رَبِّيون بالفتح على الأصل وبالضم وهو من تغييرات النسب كالكسر. ﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فما فتروا ولم ينكسر جِدُّهم لما أصابهم من قتل النبي أو بعضهم. ﴿وَمَا ضَعُفُوا۟﴾ عن العدو أو في الدين. ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ وما خضعوا للعدو، وأصله استكن من السكون لأن الخاضع يَسْكُن لصاحبه ليفعل به ما يريده، والألف من إشباع الفتحة أو استَكْوَن من الكوْن لأنه يطلب من نفسه أن يكون لمن يخضع له، وهذا تعريف بما أصابهم عند الإرجاف بقتله عليه الصلاة والسلام. ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فينصرهم ويعظم قدرهم[٢].

(١٤٧) ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي وما كان قولهم مع ثباتهم وقوتهم في الدين وكونهم ربانيين إلا هذا القول، وهو إضافةُ الذنوب والإسراف إلى أنفسهم هضماً لها وإضافةً لما أصابهم إلى سوء أعمالها والاستغفار عنها، ثم طَلَبُ التثبيت في مواطن الحرب والنصر على العدو ليكون عن خضوع وطهارة، فيكون أقرب إلى

---

(١) الأعراف: «٣٤».

(٢) أظهر لفظة «الصابرين» في موضع الإضمار للثناء عليهم بالصبر وللإشعار بعلة الحكم (س٢/٩٦).

الإجابة، وإنما جعل قولهم خيراً لأنّ أنْ قالوا أَعْرَفُ لدلالته على جهة النسبة وزمان الحدث.

فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ
ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ
سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾

(١٤٨) ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فآتاهم الله بسبب الاستغفار واللجأ إلى الله النصر والغنيمة والعز وحسن الذكر في الدنيا والجنة والنعيم في الآخرة، وخُصَّ ثوابُها بالحسن إشعاراً بفضله وأنه المعتد به عند الله[1].

(١٤٩) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ﴾ أي إلى الكفر. ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ﴾ نزلت في قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة: ارجعوا إلى دينكم وإخوانكم ولو كان محمد نبياً لما قُتِل. وقيل إن تستكينوا لأبي سفيان وأشياعه وتستأمنوهم يردوكم إلى دينهم. وقيل عامّ في مطاوعة الكفرة والنزول على حكمهم فإنه يستجر إلى موافقتهم[2].

(١٥٠) ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ ناصركم. وقرىء بالنصب على تقدير بل أطيعوا اللهَ مولاكم. ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ﴾ فاستغْنُوا به عن ولاية غيره ونصره.

(١٥١) ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ يريد ما قُذِف في قلوبهم من الخوف يوم أحد حتى تركوا القتال ورجعوا من غير سبب، ونادى أبو سفيان يا محمد موعدُنا موسمُ بدرٍ القابِلُ إن شئت فقال عليه الصلاة والسلام: «إن شاء الله». وقيل لما رجعوا وكانوا ببعض الطريق ندموا وعزموا أن يعودوا عليهم ليستأصلوهم، فألقى الله الرعب في قلوبهم. وقرأ ابن عامر والكسائي ويعقوب بالضم على الأصل في كل القرآن[3] ﴿بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ بسبب إشراكهم به. ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾ أي آلهة ليس على إشراكها حجة ولم ينزل عليهم به سلطاناً وهو كقوله:

وَلاَ تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرُ

وأصل السلطنة القوة ومنه السليط لقوة اشتعاله والسلاطة لحِدّة اللسان. ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي مثواهم، فوُضِعَ الظاهرُ موضع المضمر للتغليظ

(١) قوله «والله يحب المحسنين» أظهر وصف الإحسان موضع ضمير المعهودين للإشعار بأن ما حكي عنهم من الأقوال والأفعال من باب الإحسان (س٢/ ٩٧).

(٢) صدر الخطاب بالنداء والتنبيه لإظهار الاعتناء بما في حيزه.
ووصفهم بالإيمان لتذكير حالهم وتنبيهم عليها بإظهار مباينتها لحال أعدائهم (س٢/ ٩٧).

(٣) أي بضم العين (الرُّعُب).

والتعليل [١].

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

(١٥٢) ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ أي وَعْدَه إياكم بالنصر بشرط التقوى والصبر، وكان كذلك حتى خالف الرماة، فإن المشركين لما أقبلوا جعل الرماةُ يرشُقونهم بالنبل والباقون يضربونهم بالسيف حتى انهزموا والمسلمون على آثارهم. ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ تقتلونهم، من حَسَّه إذا أبطل حِسّه. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ جبنتم وضعُف رأيكم، أو مِلْتم إلى الغنيمة فإن الحرص من ضعف العقل. ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ يعني اختلاف الرماة حين انهزم المشركون فقال بعضهم فما موقفنا ها هنا، وقال آخرون لا نخالف أمر الرسول فثبت مكانَه أميرُهم في نفر دون العشرة ونفر الباقون للنهب وهو المعني بقوله: ﴿وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ من الظفر والغنيمة وانهزام العدو، وجواب إذا محذوف وهو امتحنكم، ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ وهم التاركون المركز للغنيمة. ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ وهم الثابتون محافظةً على أمر الرسول عليه السلام. ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ ثم كفكم عنهم حتى حالت الحالُ فغلبوكم. ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ على المصائب ويمتحن ثباتكم على الإيمان عندها. ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ تفضلاً ولِمَا علم من ندمكم على المخالفة. ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يتفضل عليهم بالعفو، أو في الأحوال كلها سواء أديل لهم أو عليهم إذ الابتلاءُ أيضاً رحمة.

(١٥٣) ﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ متعلقٌ بصَرَفكُم أو ليبتليكم أو بمقدر كاذكروا. والإصعاد الذهاب والإبعاد في الأرض يقال: أَصْعَدْنا من مكة إلى المدينة. ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ لا يقف أحد لأحد ولا ينتظره. ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ كان يقول إليّ عبادَ الله إليّ عباد الله أنا رسول الله من يَكُرُّ فله الجنة [٢]. ﴿فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ في ساقتكم أو جماعتكم الأخرى ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ عطفٌ على صرفكم، والمعنى فجازاكم الله عن فشلكم وعصيانكم غماً متصلاً بغم، من الاغتمام بالقتل والجرح وظفر المشركين والإرجاف بقتل الرسول ﷺ، أو فجازاكم غماً بسبب غم أذقتموه رسول الله ﷺ

(١) أي أظهر لفظ الظالمين للإشعار بظلمهم في ذلك.

(٢) إيراده عليه السلام بعنوان الرسالة للإيذان بأن دعوته عليه السلام كانت بطريق الرسالة من جهته سبحانه إشباعاً في توبيخ المنهزمين (س٢/ ١٠٠).

بعصيانكم له. ﴿ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ﴾ لتتمرنوا على الصبر في الشدائد فلا تحزنوا فيما بعد على نفع فائت ولا ضر لاحق. وقيل لا مزيدة والمعنى لتأسفوا على ما فاتكم من الظفر والغنيمة وعلى ما أصابكم من الجرح والهزيمة عقوبة لكم. وقيل الضمير في فأثابكم للرسول ﷺ أي فآساكم في الاغتمام فاغتم بما نَزَل عليكم كما اغتممتم بما نزل عليه ولم يُثَرِّبْكم على عصيانكم تسلية لكم كيلا تحزنوا على ما فاتكم من النصر ولا على ما أصابكم من الهزيمة ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ عليم بأعمالكم وبما قصدتم بها.

ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾

(١٥٤) ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا ﴾ أنزل الله عليكم الأمنَ حتى أخذَكُم النعاسُ، وعن أبي طلحة غَشِيَنا النعاسُ في المصافّ حتى كان السيف يسقط من يد أحدنا فيأخذه ثم يسقط فيأخذه. والأَمَنَةُ الأمنُ نُصِبَ على المفعول ونُعاساً بدلٌ منها، أو هو المفعولِ وأَمَنَةً حالٌ منه متقدِّمةٌ أو مفعول له أو حال من المخاطبين بمعنى ذوي أَمَنَةٍ، أو على أنه جمع آمِنٍ كبارّ وبَرَرَة. وقرىء أَمْنَة بسكون الميم كأنها المرة من الأمن[1]. ﴿ يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ﴾ أي النعاسُ. وقرأ حمزة والكسائي بالتاء رداً على الأَمَنَة. والطائفةُ المؤمنون حقاً. ﴿ وَطَآئِفَةٌ ﴾ هم المنافقون. ﴿ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ أوقعتهم أنفسهم في الهموم، أو ما يهمهم إلا همُّ أنفسهم وطلبُ خلاصها. ﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ صفة أخرى لطائفة أو حال أو استئناف على وجه البيان لما قبله، وغيرَ الحق نُصِبَ على المصدر أي: يظنون بالله غير الظن الحق الذي يحق أن يظن به، وظنَّ الجاهلية بدله وهو الظن المختص بالملة الجاهلية وأهلها. ﴿ يَقُولُونَ ﴾ أي لرسول الله ﷺ وهو بدلٌ من يظنون. ﴿ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ﴾ هل لنا مما أمر الله ووعد من النصر والظفر نصيب قط. وقيل: أخبر ابن أبيّ بقتل بني الخزرج فقال ذلك، والمعنى إنا منعنا تدبير أنفسنا وتصريفها باختيارنا، فلم يبقَ لنا من الأمر شيء أو هل يزول عنا هذا القهر فيكون لنا من الأمر شيء ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ أي الغلبة الحقيقية لله تعالى ولأوليائه فإن حزب الله هم الغالبون، أو القضاء له يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وهو اعتراض. وقرأ أبو عمرو ويعقوب كلُّه بالرفع على الابتداء. ﴿ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾ حال من الضمير يقولون أي يقولون مُظْهِرين أنهم مسترشدون طالبون النصر مبطنين الإنكار والتكذيب. ﴿ يَقُولُونَ ﴾ أي في أنفسهم وإذا خلا

---

(١) وتقديم الظرفين «عليكم» و«من بعد الغم» على المفعول «أمنة» للاعتناء بشأن المقدم والتشويق إلى المؤخر (س٢/ ١٠١).

بعضهم إلى بعض، وهو بدل من يُخفون أو استئناف على وجه البيان له. ﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ كما وعد محمد أو زعم أن الأمر كله لله ولأوليائه، أو لو كان لنا اختيار وتدبير ولم نبرح كما كان رأي ابن أبيّ وغيره. ﴿ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ﴾ لما غلبنا، أو لما قتل من قتل منا في هذه المعركة. ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ أي لخرج الذين قدر الله عليهم القتل وكتبه في اللوح المحفوظ إلى مصارعهم ولم تنفعهم الإقامةُ بالمدينة ولم ينجُ منهم أحد، فإنه قدر الأمور ودبرها في سابق قضائه لا معقب لحكمه. ﴿ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ ﴾ وليمتحن ما في صدوركم ويظهر سرائرها من الإخلاص والنفاق وهو علةٌ فعل محذوف أي وفعل ذلك ليبتلي، أو عطفٌ على محذوف أي لبرز لِنَفَاذِ القضاء أو لمصالحَ جمة وللابتلاء، أو على قوله لكيلا تحزنوا. ﴿ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ وليكشفه ويميزه أو يُخلِّصه من الوساوس. ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ بخفياتها قبل إظهارها، وفيه وعد ووعيد وتنبيه على أنه غني عن الابتلاء وإنما فَعَل ذلك لتمرين المؤمنين وإظهار حال المنافقين.

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾

(١٥٥) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ﴾ يعني إن الذين انهزموا يوم أحد إنما كان السببُ في انهزامهم أن الشيطان طلب منهم الزلل فأطاعوه واقترفوا ذنوباً لمخالفة النبي ﷺ بترك المركز والحرصِ على الغنيمة أو الحياة، فمُنِعُوا التأييد وقوة القلب. وقيل استزلال الشيطان توليهم وذلك بسبب ذنوب تقدمت لهم فإن المعاصي يجرّ بعضها بعضاً كالطاعة. وقيل استزلهم بذكر ذنوب سلَفَت منهم فكرهوا القتال قبل إخلاص التوبة والخروج من المظلمة. ﴿ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ لتوبتهم واعتذارهم. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾ للذنوب ﴿ حَلِيمٌ ﴾ لا يعاجل بعقوبة الذنب كي يتوب.

(١٥٦) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ يعني المنافقين. ﴿ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ ﴾ لأجلهم وفيهم، ومعنى أخُوَّتِهم اتفاقُهم في النسب أو المذهب ﴿ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ إذا سافروا فيها وأبعدوا للتجارة أو غيرها، وكان حقُّه إذ لقوله قالوا لكنه جاء على حكاية الحال الماضية ﴿ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى ﴾ جمع غازٍ كعافٍ وعُفًّى[1]. ﴿ لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ ﴾ مفعول قالوا وهو يدل على أن إخوانهم لم يكونوا مخاطَبين

---

(١) وإفراد كونهم غزاة بالذكر مع اندراجه تحت الضرب في الأرض لأنه المقصود بيانه في المقام، وذكر الضرب في الأرض توطئة له، وتقديمه لكثرة وقوعه.
وقال «أوكانوا غزاً» ولم يقل أو غزوا للإيذان باستمرار اتصافهم بعنوان كونهم غزاة، أو بانقضاء ذلك أي كانوا غزاة فيما مضى (س٢/ ١٠٣).

به. ﴿ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ متعلق بقالوا على أن اللام لامُ العاقبة مثلُها في «ليكون لهم عدواً وحزناً»[1]، أوْ لا تكونوا أيْ لا تكونوا مِثْلَهم في النطق بذلك القول والاعتقاد ليجعلَه حسرةً في قلوبهم خاصة، فذلك إشارة إلى ما دل عليه قولهم من الاعتقاد، وقيل إلى ما دل عليه النهي أي لا تكونوا مثلَهم ليجعل الله انتفاءَ كونِكم مِثْلَهم حسرة في قلوبهم، فإن مخالفتهم ومضادتهم مما يغمهم. ﴿ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ رداً لقولهم أي هو المؤثر في الحياة والممات لا الإقامةُ والسفرُ فإنه تعالى قد يحيي المسافر والغازي ويميت المقيم والقاعد. ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ تهديد للمؤمنين على أن يماثلوهم. وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بالياء على أنه وعيد للذين كفروا[2].

وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾

(١٥٧) ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ ﴾ أي متم في سبيله وقرأ نافع وحمزة والكسائي بكسر الميم من مات يَمات. ﴿ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ جواب القسم وهو سادّ مسد الجزاء والمعنى: إن السفر والغزوَ ليس مما يجلب الموت ويقدم الأجل وإن وقع ذلك في سبيل الله فما تنالون من المغفرة والرحمة بالموت خير مما تجمعون من الدنيا ومنافعها لو لم تموتوا. وقرأ حفص بالياء[3].

(١٥٨) ﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ ﴾ أي على أي وجه اتفق هلاككم. ﴿ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ لإلىٰ معبودكم الذي توجهتم إليه وبذلتم مُهَجكم لوجهه لا إلى غيره لا محالة تحشرون، فيوفي جزاءكم ويعظم ثوابكم. وقرأ نافع وحمزة والكسائي مِتُّم بالكسر.

(١٥٩) ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ أي فبرحمة، وما مزيدة للتأكيدِ والتنبيهِ والدلالةِ على أن لِينَه لهم ما كان إلا برحمة من الله وهو ربطه على جأشه وتوفيقُه للرفق بهم حتى اغتم لهم بعد أن خالفوه. ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا ﴾ سيىء الخُلُق جافياً ﴿ غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ ﴾ قاسيه ﴿ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ لتفرقوا عنك ولم يسكنوا إليك. ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ ﴾ فيما يختص بك ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ فيما لله ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ أي في أمر الحرب

---

(١) القصص: «٨».

(٢) وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لتربية المهابة وإلقاء الروعة والمبالغة في التهديد والتشديد في الوعيد.
وتعرض لعنوان البصر دون السمع لأن قوله «بما تعملون» أو «بما يعملون» عام يشمل القول والاعتقاد وما ينتج عنه من عمل (س٢/ ١٠٤).

(٣) اقتصر على بيان خيرية القتل والموت في سبيله تعالى دون التعرض للإخبار بحصولهما لهم للإيذان بعدم الحاجة إليه بناء على استحالة التخييب منه تعالى بعد أن أطمعهم فيه.
وقدم القتل في سبيله على الموت للترغيب فيه (س٢/ ١٠٤).
وقرأ الباقون بالتاء «تجمعون» (المبسوط ص١٤٨).

إذ الكلام فيه، أو فيما يصح أن يُشاوَرَ فيه استظهاراً برأيهم وتطييباً لنفوسهم وتمهيداً لسنة المشاورة للأمة. ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ فإذا وطنت نفسك على شيء بعد الشورى. ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في إمضاء أمرك على ما هو أصلح لك، فإنه لا يعلمه سواه. وقرىء فإذا عَزَمْتُ على التكلم، أي فإذا عزمتُ لك على شيء وعينته لك فتوكل على الله ولا تشاور فيه أحداً. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ فينصرهم ويهديهم إلى الصلاح.

إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾

(١٦٠) ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾ كما نصركم يوم بدر. ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ فلا أحد يغلبُكم. ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ كما خذلكم يوم أحد. ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد خذلانه، أو من بعد الله بمعنى إذا جاوزتموه فلا ناصر لكم، وهذا تنبيه على المقتضي للتوكل وتحريض على ما يستحق به النصر من الله وتحذير عما يستجلب خذلانه. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فليخصوه بالتوكل عليه لما علموا أن لا ناصر لهم سواه وآمنوا به[1].

(١٦١) ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ﴾ وما صح لنبي أن يخون في الغنائم فإن النبوة تنافي الخيانة، يقال غل شيئاً من المغنم يَغُلّ غُلولاً وأغلّ إغلالاً إذا أخذه في خُفية، والمراد منه: إما براءة الرسول عليه السلام عما اتهم به إذ روي أن قطيفة حمراء فُقِدت يوم بدر فقال بعض المنافقين لعل رسول الله ﷺ أخذها، أو ظن به الرماة يوم أحد حين تركوا المركز للغنيمة وقالوا نخشى أن يقول رسول الله ﷺ من أخذ شيئاً فهو له ولا يقسم الغنائم. وإما المبالغةُ في النهي للرسول ﷺ على ما روي أنه بعث طلائع، فغنم رسول الله ﷺ فقسم على من معه ولم يقسم للطلائع فنزلت[2]. فيكون تسمية حرمان بعض المستحقين غُلولاً تغليظاً ومبالغة ثانية. وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب أن يُغَلّ على البناء للمفعول والمعنى: وما صح له أن يُوجَد غالاً أو أن ينسب إلى الغلول. ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يأت بالذي غلّه يحمله على عنقه كما جاء في الحديث أو بما احتمل من وَباله وإثمه. ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ يعني تعطى جزاء ما كسبت وافياً، وكان اللائق بما قبله أن يقال ثم يوفى ما كسبت لكنه عمم الحكم ليكون كالبرهان على المقصود والمبالغة فيه، فإنه إذا كان كل كاسب مجزياً بعمله فالغالّ مع عظم جرمه بذلك أولى. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فلا ينقص ثواب مطيعهم ولا يزاد في عقاب عاصيهم.

---

(١) تقديم الجار والمجرور «وعلى الله» لإفادة قصره عليه تعالى، والفاء لترتيبه أو ترتيب الأمر به (س٢/١٠٦).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/١٥٦) والواحدي في أسباب النزول ص١٢٧ عن الضحاك مرسلاً. والضحاك لم يسمع من صغار الصحابة فحديثه معضل.

أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ
وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ
ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَ
لَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾

(١٦٢) ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ بالطاعة. ﴿كَمَنۢ بَآءَ﴾ رجع. ﴿بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بسبب المعاصي. ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ الفرق بينه وبين المرجع أنّ المصير يجب أنْ يخالِف الحالة الأولى ولا كذلك المرجع.

(١٦٣) ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ شُبّهوا بالدرجات لما بينهم من التفاوت في الثواب والعقاب، أو هم ذوو درجات. ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ عالِمٌ بأعمالهم ودرجاتهم صادرة عنهم فيجازيَهم على حسبها[١].

(١٦٤) ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنعم على من آمن مع الرسول ﷺ من قومه. وتخصيصُهم مع أن نعمة البعثة عامة لزيادة انتفاعهم بها. وقرىء لِمَنْ مَنَّ اللهِ على أنه خبر مبتدأ محذوف مثل مَنُّه أو بَعْثُه. ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ من نَسَبِهم، أو من جنسهم عربياً مثْلَهم ليفهموا كلامه بسهولة ويكونوا واقفين على حاله في الصدق والأمانة مفتخرين به. وقرىء من أَنْفَسِهم أي من أشرفهم لأنه عليه السلام كان من أشرف قبائل العرب وبطونهم. ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي القرآن بعدما كانوا جُهّالاً لم يسمعوا الوحي. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يطهرهم من دنس الطباع وسوء الاعتقاد والأعمال[٢]. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي القرآن والسنة. ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إنْ هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة، والمعنى وإنّ الشأن كانوا من قبل بعثة الرسول ﷺ في ضلال ظاهر.

(١٦٥) ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ الهمزة للتقريع والتقرير، والواو عاطفة للجملة على ما سبق من قصة أُحُد أو على محذوف مِثْل أفعلتم كذا وقلتم، ولمّا ظرفُه المضاف إلى

---

(١) فسر البيضاوي أن الله بصير أي عالم، وهو يدل على أن كون الله تعالى بصيراً هو نفس كونه عالماً.
وقد تبع في هذا التفسير الزمخشريَّ فنقله عنه (الكشاف ١/ ٢٢٧).
ومذهب الجمهور من أهل السنة بل والمعتزلة أن صفتي السمع والبصر زائدتان على العلم، وإن كان العلم مسبَّباً عن البصر إلا أنه يخالفه. فلو علمنا بشيء علماً تاماً ثم أبصرناه لوجدنا فرقاً بين الحالتين مما يدل على مخالفة العلم للبصر.
(انظر حاشية الكازروني على البيضاوي ٢/ ٥١ وانظر روح المعاني ٤/ ١١٢).

(٢) وسّط التزكية بين قوله «يتلو... ويعلمهم» للإيذان بأن كل واحد من الأمور المترتبة نعمة جليلة مستقلة بنفسها. لأنه لو روعي نفس الترتيب الموجود بقوله تعالى: «.. ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم» ـ البقرة «١٢٩» ـ لتبادر للفهم أن الكل نعمة واحدة (س٢/ ١٠٨).

ما أصابتكم أي أَقْلتُم حين أصابتكم مصيبة وهي قتل سبعين منكم يومَ أُحُد والحال إنكم نلتم ضعفها يوم بدر مِنْ قَتْل سبعين وأسر سبعين من أين هذا أصابنا وقد وعدنا الله النصر. ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ أي مما اقترفَتْه أنفسُكم من مخالفة الأمر بترك المركز فإن الوعد كان مشروطاً بالثبات والمطاوعة، أو اختيارِ الخروج من المدينة. وعن علي رضي الله تعالى عنه باختياركم الفداء يوم بدر. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على النصر ومَنْعِه وعلى أن يصيبَ بكم ويصيبَ منكم.

وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ
بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ۗ قُلْ
فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾

(١٦٦) ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ جمع المسلمين وجمع المشركين يريد يوم أحد. ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فهو كائن بقضائه أو تخليته الكفار، سماها إذناً لأنها من لوازمه. ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

(١٦٧) ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ وليتميز المؤمنون والمنافقون فيظهَر إيمانُ هؤلاء وكفر هؤلاء[1]. ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ عطف على نافقوا داخلٌ في الصلة أو كلام مبتدأ. ﴿تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾ تقسيم للأمر عليهم وتخيير بين أن يقاتلوا للآخرة أو للدفع عن الأنفس والأموال. وقيل معناه قاتلوا الكفرة أو ادفعوهم بتكثيركم سواد المجاهدين، فإن كثرة السواد مما يروع العدو ويكسر منه. ﴿قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾ لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالاً لاتبعناكم فيه لكن ما أنتم عليه ليس بقتال بل إلقاءٌ بالأنفس إلى التهلُكة، أو لو نُحْسِن قتالاً لاتبعناكم فيه، وإنما قالوه دَغَلاً واستهزاء. ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ لانخذالِهم وكلامِهم هذا، فإنهما أول أمارات ظهرت منهم مؤذنة بكفرهم. وقيل هم لأهل الكفر أقرب نصرةً منهم لأهل الإيمان، إذ كان انخذالهم ومقالهم تقوية للمشركين وتخذيلاً للمؤمنين. ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ يُظهرون خلاف ما يضمرون، لا تواطىء قلوبُهم ألسنتهم بالإيمان. وإضافة القول إلى الأفواه تأكيدٌ وتصوير. ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ من النفاق. وما يخلوا به بعضهم إلى بعض فإنه يعلمه مفصلاً بعلمٍ واجب وأنتم تعلمونه مجملاً بأمارات.

(١٦٨) ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟﴾ رُفع بدلاً من واو يكتمون، أو نصب على الذم أو الوصف للذين نافقوا، أو جُرَّ بدلاً من الضمير في بأفواههم أو قلوبهم كقوله:

---

(١) قوله «وليعلم الذين نافقوا» أعاد الفعل لتشريف المؤمنين وتنزيههم عن الانتظام في قرن المنافقين باختلاف حال العلم بحسب التعلق بالفريقين، فإنه متعلق بالمؤمنين على نهج تعلقه بالسابق وبالمنافقين على وجه جديد. وهو السرّ في إيراد الأولين بصيغة اسم الفاعل المنبئة عن الاستمرار والآخرين بموصول دال على الحدوث (س٢/١٠٩).

عَلَى حَالَةٍ لَوْ أَنَّ فِي القَوْمِ حَاتِماً عَلَى جُودِهِ لَضَنَّ بِالمَاءِ حَاتِمُ

﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾ أي لأجلهم، يريد مَنْ قُتل يوم أحد من أقاربهم أو من جنسهم. ﴿وَقَعَدُوا۟﴾ حال مقدرة بقد أي قالوا قاعدين عن القتال. ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ في القعود بالمدينة. ﴿مَا قُتِلُوا۟﴾ كما لم نُقتل. قرأ هشام ما قُتّلوا بتشديد التاء. ﴿قُلْ فَادْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي إن كنتم صادقين أنكم تقدرون على دفع القتل عمن كتب عليه فادفعوا عن أنفسكم الموت وأسبابه، فإنه أحرى بكم، والمعنى أن القعود غيرُ مغن عن الموت، فإن أسباب الموت كثيرة كما أن القتال يكون سبباً للهلاك والقعودُ سبباً للنجاة قد يكون الأمر بالعكس.

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾

(١٦٩) ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا﴾ نزلت في شهداء أُحُد. وقيل في شهداء بدر والخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل أحد. وقرىء بالياء على إسناده إلى ضمير الرسول، أو منْ يحسب أو إلى الذين قتلوا. والمفعول الأول محذوف لأنه في الأصل مبتدأ جائز الحذف عند القرينة. وقرأ ابن عامر قُتّلوا بالتشديد لكثرة المقتولين. ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ أي بل هم أحياء. وقرىء بالنصب على معنى بل أَحْسَبُهُم أحياءً ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ذوو زلفى منه[(١)]. ﴿يُرْزَقُونَ﴾ من الجنة وهو تأكيد لكونهم أحياء.

(١٧٠) ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وهو شرف الشهادة والفوز بالحياة الأبدية والقرب من الله تعالى والتمتع بنعيم الجنة. ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ يُسَرُّون بالبشارة. ﴿بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم﴾ أي بإخوانهم المؤمنين الذين لم يقتلوا فيلحقوا بهم. ﴿مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي الذين من خلفهم زماناً أو رتبة. ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بدل من الذين والمعنى: أنهم يستبشرون بما تبين لهم من أمر الآخرة وحالَ مَنْ تركوا من خلفهم من المؤمنين، وهو أنهم إذا ماتوا أو قتلوا كانوا أحياء حياة لا يكدرها خوفُ وقوعِ محذور وحزنُ فوات محبوب. والآية تدل على أن الإنسان غيرُ الهيكل المحسوس بل هو جوهرٌ مدركٌ بذاته لا يفنى بخراب البدن ولا يتوقف عليه إدراكه وتألمه والتذاذه، ويؤيد ذلك قوله تعالى في آل فرعون ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾[(٢)] الآية، وما روى ابن عباس رضي الله عنهما أنه عليه الصلاة والسلام قال «أرواح الشهداء في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل معلقة في ظل العرش»[(٣)]. ومن أنكر ذلك ولم يرَ الروح إلا ريحاً وعَرَضاً قال هم أحياءٌ يوم القيامة، وإنما وصفوا به في الحال لتحققه ,دنُوّه أو أحياء بالذكر أو بالإيمان. وفيها حث على الجهاد وترغيب في

---

(١) والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية والتبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميرهم مزيد تكرمة لهم (س٢/١١٢).

(٢) غافر: ٤٦.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٩/٦٦ رقم ١٢٥) من حديث كعب، وكذلك أخرجه أحمد (٦/٣٨٦).

الشهادة وبعث على ازدياد الطاعة وإحماد لمن يتمنى لإخوانه مثل ما أنعِم عليه وبشرى للمؤمنين بالفلاح.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾

(١٧١) ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ كرره للتأكيد وليعلق به ما هو بيان لقوله ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، ويجوز أن يكون الأول بحال إخوانهم وهذا بحال أنفسهم. ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ثواباً لأعمالهم. ﴿وَفَضْلٍ﴾ زيادة عليه كقوله تعالى ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[١] وتنكيرهما للتعظيم. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من جملة المستبشر به عطف على فضل. وقرأ الكسائي بالكسر على أنه استئناف معترِض دال على أن ذلك أجر لهم على إيمانهم مشعرٌ بأن من لا إيمان له أعماله محبَطة وأجوره مضيَّعة.

(١٧٢) ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ صفة للمؤمنين، أو نصب على المدح، أو مبتدأ خبره: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ بجملته، ومِنْ البيان، والمقصود من ذكر الوصفين المدح والتعليل لا التقييد، لأن المستجيبين كلهم محسنون متقون. روي أن أبا سفيان وأصحابه لما رجعوا فبلغوا الرَّوْحاء ندموا وهموا بالرجوع، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فنَدَب أصحابَه للخروج في طلبه وقال لا يخرجن معنا إلا من حضر يومنا بالأمس، فخرج عليه الصلاة والسلام مع جماعة حتى بلغوا حمراء الأسد ـ وهي ثمانية أميال من المدينة ـ وكان بأصحابه القَرْح فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر، وألقى الله الرعب في قلوب المشركين فذهبوا. فنزلت[٢].

(١٧٣) ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ يعني الركبُ الذين استقبلوهم من عبد قيس أو نعيم بن مسعود الأشجعي، وأطلق عليه الناسَ لأنه من جنسهم كما يقال فلان يركب الخيل وماله إلا فرس واحد لأنه انضم إليه ناسٌ من المدينة وأذاعوا كلامه. ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ يعني أبا سفيان وأصحابه روي: أنه نادى عند انصرافه من أحد: يا محمد موعدنا موسمُ بدرٍ القابِل إن شئت فقال عليه الصلاة والسلام: إن شاء الله تعالى، فلما كان القابِلُ خرج في أهل مكة حتى نزل بمرّ الظهران فأنزل الله

(١) يونس: «٢٦».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/١٧٦ ـ ١٧٧) عن عكرمة والسدي وغيرهما.

وأخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ٣١٤) عن ابن إسحاق عن شيوخه وهو حديث مرسل بجميع طرقه.

● وقد أخرج البخاري (٧/ ٣٧٣ رقم ٤٠٧٧) ومسلم (٤/ ١٨٨٠ رقم ٥١/ ٥٢/ ٢٤١٨) عن عائشة رضي الله عنها «الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهمُ القرحُ للذين أحسنوا منهم واتقَوا أجرٌ عظيم» قالت لعروة: يا ابن أختي، كان أبوك منهم: الزبيرُ، وأبو بكر، لما أصاب رسول الله ﷺ ما أصابَ يومَ أُحدٍ وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا، قال: من يذهب في إثرهم؟ فانتدبَ منهم سبعون رجلاً، قال: كان فيهم أبو بكر والزبير».

الرعب في قلبه وبَدَا له أن يرجع، فمر به ركبٌ من عبد قيس يريدون المدينة للميرة فَشُرَط لهم حمل بعير من زبيب إن ثَبَّطوا المسلمين. وقيل: لقي نُعَيْمَ بن مسعود وقد قدم معتمراً فسأله ذلك والتزم له عشراً من الإبل، فخرج نُعَيْمُ فوجد المسلمين يتجهزون فقال لهم أَتَوْكم في دياركم فلم يَفْلِت منكم أحد إلا شريد أفَتروْن أن تخرُجوا وقد جمعوا لكم فَفَتَرُوا، فقال عليه السلام: «والذي نفسي بيده لأخرجن ولو لم يخرج معي أحد» فخرج في سبعين راكباً وهم يقولون حسبنا الله[1]. ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ الضمير المستكنّ للمقول أو لمصدر قال أو لفاعله أن أريد به نُعَيْم وحدَه، والبارز للمقول لهم، والمعنى: إنهم لم يلتفتوا إليه ولم يضعفوا بل ثبت به يقينهم بالله وازداد إيمانهم وأظهروا حمية الإسلام وأخلصوا النية عنده، وهو دليل على أن الإيمان يزيد وينقص ويعضده قول ابن عمر رضي الله عنهما قلنا يا رسول الله الإيمان يزيد وينقص، قال: «نعم يزيد حتى يُدْخِلَ صاحبَهُ الجنة ويَنْقُصُ حتى يُدْخِل صاحبَه النارَ»[2] وهذا ظاهر إن جَعَلَ الطاعةَ من جملة الإيمان وكذا إن لم تُجْعَل فإن اليقين يزداد بالألف وكثرة التأمل وتناصر الحُجج[3]. ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ مُحْسِبنا وكافينا، من أَحْسَبَهُ إذا كفاه، ويدلّ على أنه بمعنى المُحْسِب أنه لا يستفيد بالإضافة تعريفاً في قولك هذا رجل حسبك. ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ ونعم الموكول إليه هو فيه.

﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾

(١٧٤) ﴿فَٱنقَلَبُوا۟﴾ فرجعوا من بدر. ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عافية وثبات على الإيمان وزيادة فيه ﴿وَفَضْلٍ﴾ وربح في التجارة فإنهم لما أتَوْا بدراً وافَوْا بها سوقاً فاتّجَرُوا وربحوا. ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾

---

(١) ذكره ابن سعد في الطبقات (٢/٥٩ ـ ٦٠) بدون إسناد. كما ليس فيه أنه صلى الله عليه وسلم خرج في سبعين راكباً، بل فيه (هم ألف وخمسمائة وكانت الخيل عشرة أفراس) كما ليس فيه (هم يقولون: حسبنا الله) وهذا في قصة غزوة بدر الصغرى. قد تقدم أن ابن جرير رجح نزول الآية في غزوة حمراء الأسد.

(٢) أخرجه الثعلبي من رواية علي بن عبدالعزيز، عن حبيب بن عيسى بن فروخ عن إسماعيل بن عبدالرحمن عن مالك عن نافع عنه. كما في «الكافي الشاف» رقم: (٢٨٥).

(٣) قضية زيادة الإيمان ونقصانه من المسائل الخلافية الشهيرة، ولكل فريق أدلته.
وقد نصت نصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة على زيادة الإيمان ونقصانه.
إلا أن من أنكر الزيادة والنقصان أوّل النصوص على أن المراد هو زيادة ثمرته وآثاره والواقع أن الخلاف لفظي، فمن أنكر الزيادة والنقصان كان حديثه عن أصل الإيمان الذي يُخرج من الكفر ويُدخِل في الإسلام وقالوا لو قلنا بالزيادة والنقصان وأبقيناه في إطار الإيمان فيكون قد نقص عن الحد المطلوب وهو الذي إذا نقص أدخل في الكفر، وبالتالي فأصل الإيمان وأساسه لا يزيد ولا ينقص.
إلا أن كلمة الإيمان عامة فتشمل التصديق القلبي وما ينتج عنه من قول وعمل، وقد يطلق على القول والعمل إيمانٌ باعتبارهما مسبَّبَيْن عنه.. وإذا زاد عمل المؤمن الصالحُ فهو دليل على زيادة إيمانه وتصديقه وقوة يقينه، لأن لكل عمل أساسه من القلب.
وعليه فالأوْلى ترك النصوص على ظاهرها.
وذهب الرازي إلى أن المراد بزيادة إيمانهم هو ما حصل في قلوبهم من تأكيد العزم على محاربة الكفار (التفسير الكبير ٩/١٠٠).

من جراحة وكيدِ عدوّ. ﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ﴾ الذي هو مناط الفوز بخير الدارين بجَراءتهم وخروجهم. ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ قد تفضل عليهم بالتثبيت وزيادة الإيمان والتوفيق للمبادرة إلى الجهاد والتصلبِ في الدين وإظهارِ الجراءة على العدو وبالحفظ عن كل ما يسوءهم وإصابةِ النفع مع ضمان الأجر حتى انقلبوا بنعمة من الله وفضل، وفيه تحسير للمتخلِّف وتخطئةُ رأيه حيث حرم نفسه ما فازوا به.

إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾

(١٧٥) ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ يريد به المثبِّطَ نُعَيْماً أو أبا سفيان. والشيطانُ خبرُ ذلكم وما بعده بيان لشيطنته، أو صفته وما بعده خبر، ويجوز أن تكون الإشارة إلى قوله على تقدير مضاف أي إنما ذلكم قول الشيطان يعني إبليس عليه اللعنة. ﴿يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ القاعدين عن الخروج مع الرسول، أو يخوفكم أولياؤه الذين هم أبو سفيان وأصحابه. ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ﴾ الضمير للناس الثاني على الأول وإلى الأولياء على الثاني. ﴿وَخَافُونِ﴾ في مخالفة أمري فجاهدوا مع رسولي. ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ فإن الإيمان يقتضي إيثار خوف الله تعالى على خوف الناس.

(١٧٦) ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ﴾ يقعون فيه سريعاً حرصاً عليه، وهم المنافقون من المتخلفين، أو قومٍ ارتدوا عن الإسلام. والمعنى لا يحزنك خَوْفَ أن يضروك ويعينوا عليك لقوله: ﴿إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ﴾ أي لن يضروا أولياء الله شيئاً بمسارعتهم في الكفر، وإنما يضرون بها أنفسهم. وشيئاً يحتملِ المفعول والمصدر. وقرأ نافع يُحْزِنْك بضم الياء وكسر الزاي حيث وقع ما خلا قوله في الأنبياء ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾[1] فإنه فتح الياء وضم الزاي فيه، والباقون كذلك في الكلّ. ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ نصيباً من الثواب في الآخرة، وهو يدل على تمادي طغيانهم وموتهم على الكفر، وفي ذكر الإرادة إشعارٌ بأن كفرهم بلغ الغايةَ حتى أراد أرحمُ الراحمين أن لا يكون لهم حظ من رحمته، وأن مسارعتهم في الكفر لأنه تعالى لم يرد أن يكون لهم حظ في الآخرة. ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ مع الحرمان عن الثواب[2].

---

(١) الأنبياء: «١٠٣».

(٢) قوله «يسارعون في الكفر» عدّى الفعل بكلمة «في» التي تفيد الدخول والإحاطة للإشعار باستقرارهم في الكفر ودوام ملابستهم له في مبدأ المسارعة ومنتهاها، وهو كقوله تعالى: «يسارعون في الخيرات» ـ المؤمنون: «٦١» ـ فإنه مؤذن بملابستهم للخيرات وتقلبهم في فنونها.
وهو بخلاف قوله تعالى «وسارعوا إلى مغفرة من ربكم..» ـ آل عمران: «١٣٣» ـ حيث عدى الفعل «سارعوا» بكلمة «إلى» لأن المغفرة والجنة منتهى المسارعة وغايتها (س٢/ ١١٥).
وقولُه تعالى: «لن يضروا الله» علق نفي الضرر به تعالى لتشريفهم وللإيذان بأن مضارتهم بمنزلة مضارته سبحانه (س٢/ ١١٦).
وقولُه تعالى «ولهم عذاب عظيم» وصف العذاب بالعظم ليتناسب مع حقارة ما أقدموا عليه وسارعوا فيه =

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ
أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ
عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن
رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٧٩﴾

(١٧٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ تكرير للتأكيد، أو تعميم للكفرة بعد تخصيص من نافق من المتخلفين، أو ارتد من العرب.

(١٧٨) ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ﴾ خطاب للرسول عليه السلام، أو لكل من يَحْسَب. والذين مفعول، وأنما نملي لهم بدلٌ منه. وإنما اقتصر على مفعول واحد لأن التعويل على البدل وهو ينوب عن المفعولين كقوله تعالى ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ﴾[1]، أو المفعولُ الثاني على تقديرِ مضاف مثل: ولا تحسبن الذين كفروا أصحابَ أنَّ الإملاء خيرٌ لأنفسهم، أو ولا تحسبن حال الذين كفروا أن الإملاء خير لأنفسهم، وما مصدرية وكان حقها أن تفصل في الخط ولكنها وقعت متصلة في الإمام فاتُّبع. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم والكسائي ويعقوب بالياء على أنّ الذين فاعلٌ، وإنّ مع ما في حيِّزه مفعول، وفتحَ سينَهُ في جميع القرآن ابنُ عامر وحمزةُ وعاصم. والإملاء الإمهالُ وإطالةُ العمر، وقيل تخليتُهم وشأنَهم، مِنْ أملى لفرسه إذا أرخى له الطول ليرعى كيف شاء. ﴿إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ﴾ استئناف بما هو العلة للحكم قبلها، وما كافّة، واللامُ لام الإرادة، وعند المعتزلة لام العاقبة. وقرىء إنّما بالفتح هنا وبكسر الأولى، ولا يحسبن بالياء على معنى ولا يحسبن الذين كفروا أن إملاءَنا لهم لازدياد الإثم بل للتوبة والدخول في الإيمان، وإنما نملي لهم خيرٌ اعتراضٌ، معناه أن إملاءنا خير لهم إن انتبهوا وتداركوا فيه ما فرط منهم. ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ على هذا يجوز أن يكون حالاً من الواو أي ليزدادوا إثماً مُعَدّاً لهم عذاب مهين.

(١٧٩) ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ الخطاب لعامة المخلصين والمنافقين في عصره، والمعنى لا يترككم مختلطين لا يعرفُ مخلِصكم من منافقكم حتّى يميز المنافق من المخلص بالوحي إلى نبيه بأحوالكم، أو بالتكاليف الشاقة التي لا يصبر عليها ولا يذعن لها إلا الخُلَّص المخلصون منكم، كبذل الأموال والأنفس في سبيل الله، ليختبر النبيُّ به بواطنكم ويستدل به على عقائدكم. وقرأ حمزة والكسائي حتى يُمَيِّز هنا وفي الأنفال بضم الياء وفتح الميم وكسر الياء وتشديدها، والباقون بفتح الياء وكسر الميم وسكون الياء. ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ﴾ وما كان الله ليؤتيَ أحَدَكم علمَ الغيب فيطَّلع على ما في القلوب من كفر وإيمان، ولكن الله يجتبي لرسالته من يشاء فيوحيَ إليه ويخبره ببعض المغيبات أو ينصب له ما يدل عليها. ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ

= (س٢/١١٦).

(١) الفرقان: «٤٤».

﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ بصفة الإخلاص، أو بأن تَعْلَموه وحدَه مطّلعاً على الغيب وتَعْلَموهم عباداً مجتبين لا يعلمون إلا ما علمهم الله ولا يقولون إلا ما أوحي إليهم. روي أن الكفرة قالوا: إن كان محمد صادقاً فليخبرنا من يؤمن منا ومن يكفر فنزلت(١)، وعن السدي أنه عليه السلام قال «عرضت عليَّ أمتي وأُعْلِمتُ من يؤمن بي ومن يكفر». فقال المنافقون إنه يزعم أنه يعرف من يؤمن به ومن يكفر ونحن معه ولا يعرفُنا فنزلت(٢). ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟﴾ حق الإيمان. ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ النفاق. ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقادر قدره.

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

(١٨٠) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾ القراءات فيه على ما سبق. ومن قرأ بالتاء قَدَّر مضافاً ليتطابق مفعولاه أي ولا تحسبن بُخل الذين يبخلون هو خيراً لهم، وكذا من قرأ بالياء إن جعل الفاعل ضمير الرسول ﷺ، أو مَنْ يحسب وإن جعله الموصول كان المفعول الأول محذوفاً لدلالة يبخلون عليه أي ولا يحسبن البخلاء بخلَهم هو خيراً لهم. ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي البخل. ﴿شَرٌّ لَّهُمْ﴾ لاستجلاب العقاب عليهم(٣). ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ بيان لذلك، والمعنى سيُلزَمون وَبَال ما بخِلوا به إلزام الطوق، وعنه عليه الصلاة والسلام «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعله الله شجاعاً في عنقه يوم القيامة»(٤). ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وله ما فيهما مما يتوارث، فما لهؤلاء يبخلون عليه بمالِهِ ولا ينفقونه في سبيله، أو أنه يرث منهم ما يُمْسِكونه ولا ينفقونه في سبيله بهلاكهم وتبقى عليهم الحسرة والعقوبة. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من المنع والإعطاء. ﴿خَبِيرٌ﴾ فمجازيهم(٥). وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي بالتاء على الالتفات وهو أبلغ في الوعيد.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/١٨٨) عن السدي.

(٢) أخرجه الواحدي في أسباب النزول (ص١٣٦) وهو من رواية السدي وبدون سند فهو مرسل، وقال المناوي في الفتح السماوي ص٤٢٤: لم أقف عليه. لم أجده.

(٣) نص على كونه شراً رغم أنه مفهوم من نفي خيريته للمبالغة في ذلك (س٢/ ١٢٠).

(٤) يشير المؤلف رحمه الله إلى الحديث الذي أخرجه البخاري (٣/ ٢٦٨ رقم ١٤٠٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من آتاهُ الله مالاً فلم يُؤَدِّ زكاتهُ مُثِّل له يوم القيامة شُجاعاً أقرعَ له زَبيبتان يُطوَّقُه يومَ القيامةِ ثمَّ يأخذُ بِلِهْزِمَتيهِ ـ يعني شِدْقيهِ ـ ثمَّ يقول: أنا مالك، أنا كنزُكَ. ثم تَلا «ولا يحسبنَّ الذين يبخلونَ» [آل عمران: ١٨٠].

وأخرجه النسائي (٥/ ٣٩ رقم ٢٤٨٢) وأحمد في المسند (٢/ ٢٧٩، ٣٥٥).

● زَبِيبَتَان: الزبيبتان: هما الزَّبَدَتان في الشِّدْقين. يقال: تكلم فلان حتى زبَّب شدقاه، أي خرج الزَّبد عليهما، ومنها الحية ذو الزبيبتين. وقيل: هما النكتَتَان السَّوداوَان فوق عينيه.

● بلهزمتيهِ: اللِّهزِمتان: عظمان ناتئان في اللحيين تحت الأذنين. ويقال: هما مضيفتان عَلْيَتان تحتهما.

(٥) قوله «فمجازيهم، هذا المعنى على قراءة من قرأ «يعملون» بالياء، وقرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (المبسوط ص١٥٠).

=

﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ الْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِالْبَيِّنَٰتِ وَبِالَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾

(١٨١) ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ قالته اليهود لما سمعوا ﴿مَّن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[١]. وروي أنه عليه الصلاة والسلام كتب مع أبي بكر رضي الله تعالى عنه إلى يهود بني قينُقاع يدعوهم إلى الإسلام وإقامِ الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً، فقال فنحاص بن عازوراء: إن الله فقير حتى سأل القرض، فلَطَمه أبو بكر رضي الله عنه على وجهه وقال: لولا ما بيننا من العهد لضربت عنقك، فشكاه إلى رسول الله ﷺ وجحد ما قاله. فنزلت[٢]. والمعنى أنه لم يَخْفَ عليه وأنه أعدّ لهم العقاب عليه[٣]. ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ الْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي سنكتبه في صحائف الكتبة، أو سنحفظه في علمنا لا نهمله لأنه كلمة عظيمة إذ هو كفر بالله عز وجل واستهزاء بالقرآن والرسول، ولذلك نَظَمَه مع قتل الأنبياء، وفيه تنبيه على أنه ليس أولَ جريمة ارتكبوها وأنّ من اجترأ على قتل الأنبياء لم يُستَبْعدْ منه أمثالُ هذا القول. وقرأ حمزة سيُكْتَب بالياءِ وضمِّها وفتح التاء وقتلُهم بالرفع ويَقولُ بالياء. ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي وننتقم منهم بأنْ نقولَ لهم ذوقوا العذابَ المُحْرِق، وفيه مبالغات في الوعيد. والذوقُ إدراك الطعوم، وعلى الاتساعُ يُستَعْمَل لإدراك سائر المحسوسات والحالات، وذِكْرُه ههنا لأن العذاب مُرَتَّبٌ على قولهم الناشىءِ عن البخل والتهالك على المال، وغالبُ حاجة الإنسان إليه لتحصيل المطاعم، ومعظمُ بخله به للخوف من فُقدانه، ولذلك كَثُرَ ذِكْرُ الأكل مع المال.

(١٨٢) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى العذاب. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ من قتل الأنبياء وقولهم هذا وسائر معاصيهم. عبر بالأيدي عن الأنفس لأن أكثر أعمالها بهن. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ عطف على ما قدمت وسببيته للعذاب من حيث إن نفي الظلم يستلزم العدل المقتضي إثابة المحسن ومعاقبة المسيء[٤].

(١٨٣) ﴿الَّذِينَ قَالُوٓا۟﴾ هم كعب بن الأشرف ومالك وحيي وفنحاص ووهب بن يهوذا. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ﴾ أمرنا في التوراة وأوصانا. ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ بأن لا نؤمن

---

(١) البقرة: «٢٤٥».
(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ١٩٤) عن ابن عباس وفي سنده: محمد بن أبي محمد مجهول.
(٣) والذي قال واحد كما يدل سبب النزول ولكنه اعتبره جمعاً لرضا الباقين به(س٢/ ١٢١).
(٤) عبر عن ذلك بنفي الظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه سبحانه من الظلم، كما يعبر عن ترك الإثابة على الأعمال بإضاعتها مع أن الأعمال غير موجبة للثواب حتى يلزم من تخلفه عنها ضياعها (س٢/ ١٢١).

لرسول حتى يأتينا بهذه المعجزة الخاصة التي كانت لأنبياء بني إسرائيل وهو أن يقرب بقربان فيقوم النبي فيدعو فتنزل نار سماوية فتأكله، أي تحيله إلى طبعها بالإحراق. وهذا من مفترياتهم وأباطيلهم لأن أكل النار القربان لم يوجب الإيمان إلا لكونه معجزة فهو وسائر المعجزات شرع في ذلك. ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ تكذيب وإلزام بأن رسلاً جاؤوهم قبله كزكريا ويحيى بمعجزاتٍ أخر موجبة للتصديق وبما اقترحوه فقتلوهم، فلو كان الموجب للتصديق هو الإتيان به وكان توقفهم وامتناعهم عن الإيمان لأجله فما لهم لم يؤمنوا بمن جاء به في معجزات أخر واجترؤوا على قتله.

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾

(١٨٤) ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ تسلية للرسول ﷺ من تكذيب قومه واليهود، والزبر جمع زبور وهو الكتاب المقصور على الحكم من زبرت الشيء إذا حبسته، والكتاب في عرف القرآن ما يتضمن الشرائع والأحكام ولذلك جاء الكتاب والحكمة متعاطفين في عامة القرآن. وقيل الزبر المواعظ والزواجر، من زبرته إذا زجرته. وقرأ ابن عامر وبالزبر، وهشام وبالكتاب بإعادة الجار للدلالة على أنها مغايرة للبينات بالذات.

(١٨٥) ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ وعد ووعيد للمصدق والمكذب. وقرىء ذائقةٌ الموتَ بالنصب مع التنوين وعدمه كقوله: وَلاَ ذَاكِرَ الله إلا قَلِيلاً ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ﴾ تعطون جزاء أعمالكم خيراً كان أو شراً تاماً وافياً. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يوم قيامكم من القبور، ولفظ التوفية يشعر بأنه قد يكون قبلها بعض الأجور ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام: «القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار»[١]. ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ بُعْدَ عنها، والزحزحة في الأصل تكرير الزحّ وهو الجذب بعجلة.

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ٦٣٩ ـ ٦٤٠ رقم ٢٤٦٠) من حديث أبي سعيد الخدري.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.
قلت: في سنده عطية العوفي وهو ضعيف. انظر التقريب (٢/ ٢٤).
والحديث ضعيف. انظر ضعيف الترمذي (رقم: ٤٣٧/ ٢٥٩١).
وقال ابن حجر في «الكافي الشاف» رقم (٢٩١): «... وهو ضعيف.
ورواه الطبراني في الأوسط في ترجمة مسعود بن محمد الرملي بإسناده إلى أبي هريرة. وقال: لم يروه عن الأوزاعي إلاّ أيوب بن سويد. تفرد به ولده محمد ـ بن أيوب ـ عنه. قلت وهو ضعيف» اهـ.
قلت: محمد بن أيوب بن سويد الرملي. قال عنه ابن حبان: يروى عن أبيه عن الأوزاعي الأشياء الموضوعة لا يحل الاحتجاج به ولا الرواية عنه. وكان أبو زرعة يقول: هذا الشيخ أدخل في كتب أبيه أشياء موضوعة بخط طَرِيّ، وكان يُحَدِّث بها، وضعفه الدارقطني أيضاً.
=

﴿وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾ بالنجاة ونيل المراد، والفوز الظفر بالبُغية. وعن النبي ﷺ «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيتُه وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، ويأتي إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه»[1]. ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ﴾ أي لذاتها وزخارفها. ﴿إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ شبهها بالمتاع الذي يُدَلَّسُ به على المُسْتَام ويُغَرُّ حتى يشتريَه، وهذا لِمَنْ آثرها على الآخرة، فأما من طلب بها الآخرة فهي له متاع بلاغ. والغرور مصدر أو جمع غار.

﴿۞ لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٨٦ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ١٨٧﴾

(١٨٦) ﴿۞ لَتُبۡلَوُنَّ﴾ أي والله لتختبرن. ﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ﴾ بتكليف الإنفاق وما يصيبها من الآفات. ﴿وَأَنفُسِكُمۡ﴾ بالجهاد والقتل والأسر والجراح، وما يرد عليها من المخاوف والأمراض والمتاعب. ﴿وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ﴾ من هجاء الرسول ﷺ والطعن في الدين وإغراء الكفرة على المسلمين، أخبرهم بذلك قبل وقوعها ليوطنوا أنفسهم على الصبر والاحتمال ويستعدوا للقائها حتى لا يرهقهم نزولها. ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ﴾ على ذلك[2]. ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ مخالفة أمر الله. ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ﴾ يعني الصبر والتقوى. ﴿مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ من معزومات الأمور التي يجب العزم عليها، أو مما عزم الله عليه أي أَمَرَ به وبالغ فيه. والعزم في الأصل ثبات الرأي على الشيء نحو إمضائه.

(١٨٧) ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾ أي اذكر وقت أخذه[3]. ﴿مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يريد به العلماء. ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ حكاية لمخاطبتهم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية ابن عياش بالياء لأنهم غيب، واللام جواب القسم الذي ناب عنه قوله ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ﴾ والضمير للكتاب. ﴿فَنَبَذُوهُ﴾ أي الميثاق. ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾ فلم يراعوه ولم يتلفتوا إليه. والنَّبْذُ وراء الظهر مَثَلٌ في ترك الاعتداد وعدم الالتفات، ونقيضه جَعْلُه نصب عينيه وإلقاؤه بين عينيه. ﴿وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ﴾. وأخذوا بَدَله. ﴿ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ﴾ من حطام الدنيا ....

= انظر «المجروحين» (٢/ ٢٩٩) والضعفاء للدارقطني رقم (٤٩٣).

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٤٧٣ رقم ٤٦/ ١٨٤٤) والنسائي (٧/ ١٥٢ رقم ٤١٩١) وابن ماجة (٢/ ١٣٠٦ رقم ٣٩٥٦). من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص في حديث طويل.

(٢) والمراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى، وقد عبر عنهم بذلك للإشعار بمدار الشقاق والإيذان بأن بعض ما يسمعونه منهم مستند في زعمهم إلى الكتاب (س٢/ ١٢٣).

(٣) توجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه ـ مع أنه المقصود ـ للمبالغة في إيجاب ذكره (س٢/ ١٢٤).

وأعراضها[١]. ﴿فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ﴾ يختارون لأنفسهم، وعن النبي ﷺ «من كتم علماً عن أهله أُلجِم بلِجَام من نار»[٢]. وعن علي رضي الله تعالى عنه ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا[٣].

لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨٨﴾

(١٨٨) ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، ومن ضَمَّ الباءَ جعل الخطاب له وللمؤمنين[٤]، والمفعول الأول الذين يفرحون

---

(١) وفي تصوير هذه المعاملة بعقد المعاوضة ما يدل على فظاعة حالهم وغاية قبحها بإيثارهم الحقير على الشريف وتعكيسهم بجعلهم المقصد الأصلي وسيلة والوسيلة مقصداً.
فقد عبر بالاشتراء وهو مؤذن بالرغبة في المأخوذ والإعراض عن المعطى، وعبر عن المشترى بالثمن الذي شأنه أن يكون وسيلة، وجَعْل الكتاب ـ الذي حقه التنافس فيه ـ مصحوباً بالباء الداخلة على الآلات والوسائل (س٢/ ١٢٥).

(٢) وهو حديث حسن.
● أخرجه أبو داود (٤/ ٦٧ ـ ٦٨ رقم ٣٦٥٨) وأحمد في المسند (٢/ ٢٦٣، ٣٠٥، ٣٤٤، ٣٥٣) من طريق حماد، عن علي بن الحكم، عن عطاء، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سُئِلَ عنْ عِلْمٍ فكتمهُ أَلْجَمَهُ الله بلجامٍ من نارٍ يومَ القيامة».
● وأخرجه الترمذي (٥/ ٢٩ ـ ٣٠ رقم ٢٦٤٩) وابن ماجة (١/ ٩٦ رقم ٢٦١) وأبو يعلى في المسند (١١/ ٢٦٨ رقم ٦٣٨٣/٥٤٣) وأحمد (٢/ ٤٩٥) والطيالسي (١/ ٣٧ رقم ٨٩ ـ منحة المعبود) من طريق عِمَارَة بن زَاذان، عن علي بن الحكم، عن عطاء بن أبي رباح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سُئِلَ عن عِلْمٍ ثم كتمَهُ أُلْجِمَ يومَ القيامة بلجام من نارٍ».
قال الترمذي: حديث أبي هريرة: حديث حسنٌ وهو كما قال. وقد حسنه الألباني في صحيح ابن ماجة.
قلت: ويشهد له حديث عبدالله بن عمرو، عند الخطيب البغدادي في «التاريخ» (٥/ ٣٩) وصححه الحاكم (١/ ١٠٢) إذ قال: «هذا إسناد صحيح من حديث المصريين، على شرط الشيخين وليس له علة وفي الباب عن جماعة من الصحابة غير أبي هريرة رضي الله عنهم» ووافقه الذهبي. وصححه ابن حبان (١/ ١٥٤ رقم ٩٦).
كما يشهد له حديث جابر عند الخطيب في «تاريخ بغداد» (٧/ ١٩٨) و(٩/ ٩٢) و(١٢/ ٣٦٩).
وانظر العلل المتناهية لابن الجوزي (١/ ٩٦ ـ ١٠٧) باب إثم من سئل عن علم فكتمهُ.
تنبيه: قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشافِ» رقم (٢٩٤): «ليس في شيء من طرقه (عن أهله)».

(٣) رواه الثعلبي من طريق الحارث بن أبي أسامة، أخبرنا عبدالوهاب الحقافي، حدثنا الحسن بن عمارة، حدثني الحكم بن عيينه، عن يحيى بن الجزار: سمعت علياً يقول: فذكره. والحسن متروك ـ (الجرح والتعديل (٣/ ٢٨)) ـ كما قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشافِ» (رقم ٢٩٥).
وقال الحافظ أيضاً: ورُوِّيناه في جزء الذراع، قال: كتب الحارث بن أسامة فذكره، وذكره ابن عبدالبر في العلم. قال ويروي عن عليّ، وذكره صاحب الفردوس عن عليّ. فكأنه وقف عليه مرفوعاً.
قلت: الذراع: هو أبو بكر أحمد بن نصر بن عبدالله بن الفتح الذراع، له جزء في الحديث رواه الحافظ بإسناده.

(٤) أي قرأ «فلا تَحْسَبُنَّهم».

والثاني بمفازة، وقوله فلا تحسبنهم تأكيد والمعنى: لا تحسبن الذين يفرحون بما فعلوا من التدليس وكتمان الحق ويحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا من الوفاء بالميثاق وإظهار الحق والإخبار بالصدق بمفازة: بمنجاة من العذاب أي فائزين بالنجاة منه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياءِ وفتح الباءِ في الأول وضمِّها في الثاني، على أن الذين فاعلٌ ومفعولاً يحسبن محذوفان يدل عليهما مفعولاً مؤكِّدِه، فكأنه قيل: ولا يحسبن الذين يفرحون بما أتوا فلا يحسبن أنفسَهم بمفازة، أو المفعول الأول محذوف وقوله فلا تحسبنهم تأكيد للفعل وفاعله ومفعوله الأول. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بكفرهم وتدليسهم. روي أنه عليه الصلاة والسلام سأل اليهود عن شيء مما في التوراة فأخبروه بخلاف ما كان فيها وأروْه أنهم قد صدقوه وفرحوا بما فعلوا. فنزلت[١]. وقيل: نزلت في قوم تخلفوا عن الغزو ثم اعتذروا بأنهم رأوا المصلحة في التخلف واستحمدوا به[٢]. وقيل: نزلت في المنافقين فإنهم يفرحون بمنافقتهم ويستحمدون إلى المسلمين بالإيمان الذي لم يفعلوه على الحقيقة[٣].

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾

(١٨٩) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهو يملك أمرهم. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على عقابهم. وقيل هو ردّ لقولهم إن الله فقير.

(١٩٠) ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ لدلائلُ واضحة على وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته لذوي العقول المجلوة الخالصة عن شوائب الحس والوهم كما سبق في سورة البقرة، ولعل الاقتصار على هذه الثلاثة في هذه الآية لأن مناط الاستدلال هو التغيُّر، وهذه متعرِضةٌ لجملة أنواعه فإنه إما أن يكون في ذات الشيء كتغير الليل والنهار، أو جزئه كتغير العناصر بتبدل صورها أو الخارج عنه كتغير الأفلاك بتبدل

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٢٣٣ رقم ٤٥٦٨) ومسلم (٤/ ٢١٤٣ رقم ٨/ ٢٧٧٨) عن ابن أبي مُليكه أنَّ علقمةَ بن وقاص أخبرَهُ: أنَّ مروانَ قال لبوّابه: اذهب يا رافعُ إلى ابن عباس فقل: لئن كان كلُّ امرىءٍ فرحَ بما أوتي وأحبَّ أن يُحْمَد بما لم يعملَ معذَّباً لنعذَّبن أجمعون. فقال ابن عباس: ما لكم ولهذه؟ إنما دعا النبيُّ ﷺ يهودَ فسألهم عن شيء. . . .» فذكراه بطوله.

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٢٣٣ رقم ٤٥٦٧) ومسلم (٤/ ٢١٤٢ رقم ٧/ ٢٧٧٧) من حديث أبي سعيد الخدري. أن رجالاً من المنافقين، في عهد رسول الله ﷺ كانوا إذا خرج النبي ﷺ إلى الغزوِ تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدِهم خلافَ رسول الله ﷺ فإذا قَدِمَ النبي ﷺ اعتذروا إليه. وأحبُّوا أن يُحمدوا بما لم يفعَلوا. فنزلت: «لا تحسَبَنَّ الذين يفرحون بما أَتَوْا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبَنَّهُمْ بمفازة من العذاب» [آل عمران: ١٨٨].
قلت: يحتمل أن تكون الآية نزلت فيهما جميعاً، وإلاَّ فحديث أبي سعيد أرجح، لان حديث ابن عباس مما انتقد على الشيخين. انظر «الإلزامات والتتبع» للإمام أبي الحسن، علي بن عمر الدارقطني (ص٤٩٦ ـ ٤٩٩ رقم ١٧٧) تحقيق وتخريج الشيخ مقبل بن هادي الوادعي. وفتح الباري (٨/ ٢٣٤).

(٣) لم أقف عليه.

أوضاعها[١]. وعن النبي ﷺ «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»[٢].

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾

(١٩١) ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ أي يذكرونه دائماً على الحالات كلها قائمين وقاعدين ومضطجعين، وعنه عليه الصلاة والسلام «من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله»[٣]. وقيل معناه يُصلّون على الهيئات الثلاث حسب طاقتهم لقوله عليه الصلاة والسلام لعمران بن حصين[٤]. «صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب تومىء إيماء»[٥]. فهو حجة للشافعي رضي الله عنه في أن المريض يصلي مضطجعاً على جنبه الأيمن مستقبلاً بمقاديم بدنه. ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استدلالاً واعتباراً، وهو أفضل العبادات كما قال عليه الصلاة والسلام «لا عبادة ....

---

(١) وتقديم الليل على النهار إما لأنه الأصل فإن غرر الشهور تظهر في الليالي، وإما لتقدمه في الخلقية كما في قوله تعالى: «وآية لهم الليل نسلخ منه النهار» ـ يس «٣٧» ـ أي نزيله منه فيخلفه (س٢/١٢٧).

(٢) أخرجه ابن حبان (٢/٨ ـ ٩ رقم ٦١٩) من طريق عثمان بن أبي شيبة، حدثنا يحيى بن زكريا، عن إبراهيم ابن سويد النَّخَعي، حدثنا عبدالملك بن أبي سليمان، عن عطاء، قال: دخلتُ أنا وعُبَيْدُ بن عُميرٍ على عائشة، فقالت لعُبيد بن عُمير: قد آن لكَ أن تزورَنا، فقال: أقولُ يا أُمَّهْ كما قال الأولُ: زُر غِبّاً تَزْدَدْ حباً. قال: قالت: دعُونا من رطانَتِكم هذِهِ. قال ابن عُمير: أخبرينا بأعجب شيءٍ رأيتِهِ من رسول الله ﷺ، قال: فسكتَت، ثم قالت: لما كان ليلةٌ من الليالي، قال: «يا عائشة ذريني أتعبّد الليلة لربي» فذكر الحديث.
وقال الشيخ شعيب في تخريجه (٢/٣٨٧): «إسناده قوى على شرط مسلم، وأخرجه أبو الشيخ في «أخلاق النبي» ص١٨٦ عن الفريابي، عن عثمان بن أبي شيبة، بهذا الإسناد.
وله طرق أخرى عن عطاء عند أبي الشيخ ص١٩٠ و١٩١ وفيه أبو جناب الكلبي يحيى بن أبي حية، ضعفوه لكثرة تدليسه، لكن صرح بالتحديث هنا، فانتفت شبهة تدليسه» هـ.
وأورده السيوطي في الدر المنثور (٢/٤٠٩) وعزاه لعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في التفكر، وابن المنذر، وابن مردويه، والأصبهاني في الترغيب، وابن عساكر.
وانظر «الكافي الشافِ» لابن حجر (رقم: ٢٩٨).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٠/٣٠٢) والطبراني في الكبير (٢٠/١٥٧ رقم ٣٢٦) قال ابن حجر في الكافي الشافِ (ص٣٦ رقم ٣٠١): وفي إسناده موسى بن عبيدة وهو ضعيف.

(٤) عمران بن الحصين هو: عمران بن حصين بن عبيد بن خلف، القدوة الإمام، صاحب رسول الله ﷺ، أبو نجيد الخزاعي، أسلم هو وأبوه وأبو هريرة في وقت واحد سنة سبع، وله عدة أحاديث.
توفي سنة اثنتين وخمسين.
[الاستيعاب (٩/١٩) وشذرات الذهب (١/٦٢)].

(٥) أخرجه البخاري (٢/٥٨٧ رقم ١١١٧) وأبو داود (١/٥٨٥ رقم ٩٥٢) والترمذي (٢/٢٠٨ رقم ٣٧٢) وابن ماجة (١/٣٨٦ رقم ١٢٢٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٣/١٥٥).

كالتفكر»[١]. لأنه المخصوص بالقلب والمقصود من الخلق، وعنه عليه الصلاة والسلام: «بينما رجل مستلق على فراشه إذ رفع رأسه فنظر إلى السماء والنجوم فقال: أشهد أن لك رباً وخالقاً: اللهم اغفر لي فنظر الله إليه فغفر له»[٢]. وهذا دليل واضح على شرف علم الأصول وفضل أهله. ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ على إرادة القول أي يتفكرون قائلين ذلك، وهذا إشارة إلى المتفكَّر فيه أي الخلق على أنه أريد به المخلوق من السموات والأرض، أو إليهما لأنهما في معنى المخلوق، والمعنى ما خلقتَه عبثاً ضائعاً من غير حكمة بل خلقتَه لحكم عظيمة من جملتها أن يكون مبدأ لوجود الإنسان وسبباً لمعاشه ودليلاً يدله على معرفتك ويحثه على طاعتك لينال الحياة الأبدية والسعادة السرمدية في جوارك. ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيهاً لك من العبث وخلق الباطل وهو اعتراض. ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ للإخلال بالنظر فيه والقيام بما يقتضيه. وفائدة الفاء هي الدلالة على أن علمَهم بما لأجله خُلِقَت السموات والأرض حَمَلَهم على الاستعاذة.

رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾

(١٩٢) ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ غايةَ الإخزاء، وهو نظيرُ قولهم: من أدرك مَرْعى الضَّمَان فقد أدرك[٣]، والمرادُ به تهويل المستعاذِ منه تنبيهاً على شدة خوفهم وطلبهم الوقاية منه، وفيه إشعار بأن العذاب الروحاني أفظع. ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أراد بهم المُدْخَلِين، ووضع المظهر موضع المضمر للدلالة على أن ظلمهم سببٌ لإدخالهم النار وانقطاعِ النصرة عنهم في الخلاص منها، ولا يلزم من نفي النصرة نفيُ الشفاعة لأن النصر دفعٌ بقهر[٤].

(١٩٣) ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾ أوقع الفعل على المُسْمِع وحذف المسموع لدلالة وصْفِه عليه، وفيه مبالغة ليست في إيقاعه على نفس المسموع. وفي تنكير المنادي وإطلاقِه ثم تقييده تعظيمٌ لشأنه، والمرادُ به الرسول عليه الصلاة والسلام[٥] وقيل القرآن، والنداء والدعاء ونحوهما يعدى

---

(١) وهو حديث ضعيف.
أخرجه ابن حبان في «المجروحين» (٢/٣٠٧) من حديث علي رضي الله عنه وفيه أبو رجاء محمد بن عبدالله الحبطي، قال عنه ابن حبان: «يروي عن الثقات ما ليس من حديث الأثبات».

(٢) قال ابن حجر في الكافي الشافِ (ص٣٦ رقم ٣٠٣): رواه الثعلبي من رواية زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة، وفي إسناده من لا يعرف.

(٣) أي فقد أدرك غاية المرعى أو المرعى الكامل. . .

(٤) صدر الآية بالنداء للمبالغة في التضرع والجؤار. وأكدها بإنّ لإظهار كمال التعيين بمضمونها والإيذان لشدة الخوف. وأظهر النار في موضع الإضمار لتهويل أمرها. وذكر الإدخال في مورد العذاب لتعيين كيفيته وتبيين غاية فظاعته (س٢/ ١٣١).

(٥) آثر لفظ المنادي على الداعي للدلالة على كمال اعتنائه بشأن الدعوة وتبليغها إلى الداني والقاصي لما فيه من =

بإلى واللام لتضمنها معنى الانتهاء والاختصاص. ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ أي بأن آمنوا فامتثلنا. ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ كبائرنا فإنها ذاتُ تبعة. ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ صغائرنا فإنها مستقبحة، ولكن مُكفَّرة عن مجتنب الكبائر. ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ مخصوصين بصحبتهم معدودين في زمرتهم، وفيه تنبيه على أنهم محبون لقاء الله، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه. والأبرار جمع بَرّ أو بارّ كأرباب وأصحاب.

رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾

(١٩٤) ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ أي ما وعدتّنا على تصديقِ رسلك من الثواب. لمّا أظهر امتثاله لما أُمِرَ به سأل ما وُعِدَ عليه لا خوفاً من إخلاف الوعد بل مخافة أن لا يكون من الموعودين لسوء عاقبة أو قصور في الامتثال أو تعبداً واستكانة. ويجوز أن يعلق على بمحذوف تقديره: ما وعدتنا منزلاً على رسلك، أو محمولاً عليهم. وقيل معناه على ألسنة رسلك. ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ بأن تعصمَنا عما يقتضيه. ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ بإثابة المؤمن وإجابة الداعي وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الميعاد البعث بعد الموت. وتكرير ربَّنا للمبالغة في الابتهال والدلالة على استقلال المطالب وعلو شأنها. وفي الآثار: من حزبه أمر فقال خمس مرات ربنا أنجاه الله مما يخاف[(١)].

(١٩٥) ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ إلى طلبتهم، وهو أخص من أَجاب ويُعدى بنفسه وباللام[(٢)]. ﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم﴾ أي بأني لا أضيع. وقرىء بالكسر على إرادة القول[(٣)]. ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ بيان عامل. ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ لأن الذكر من الأنثى والأنثى من الذكر، أو لأنهما من أصل واحد، أو لفرط الاتصال والاتحاد، أو للاجتماع والاتفاق في الدين. وهي جملة معترضة بيّن بها شركة النساء مع الرجال فيما وعد للعمال. روي أن أم سلمة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله إني أسمع الله يذكر الرجال في الهجرة ولا يذكر النساء. فنزلت[(٤)]. ﴿فَٱلَّذِينَ هَـٰجَرُوا۟﴾ إلخ، تفصيل لأعمال العمال وما أعد

= الإيذان برفع الصوت (س٢/ ١٣٢).

(١) هو من قول جعفر الصادق (روح المعاني ٤/ ١٦٧).

(٢) وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الاستجابة (س٢/ ١٣٣).

(٣) والالتفات هنا إلى التكلم والخطاب لإظهار كمال الاعتناء بشأن الاستجابة وتشريف الداعين بشرف الخطاب (س٢/ ١٣٣).

(٤) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٣٧ رقم ٣٠٢٣) والطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ٢١٥) والطبراني في الكبير (٢٣/ ٢٩٤ رقم ٦٥٢) وفي سنده رجل من بني سلمة، وقد بينه الحاكم (٢/ ٣٠٠) وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجه ووافقه الذهبي.

قلت: قال الحافظ في «التقريب (١/ ٣١٧ رقم ٣٧١): «سلمة بن عبدالله بن عمر بن أبي سلمة بن عبدالأسد =

لهم من الثواب على سبيل المدح والتعظيم، والمعنى فالذين هاجروا الشرك أو الأوطان والعشائر للدين. ﴿وَأُخْرِجُوا مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي﴾ بسبب إيمانهم بالله ومن أجله ﴿وَقَـٰتَلُوا﴾ الكفار. ﴿وَقُتِلُوا﴾ في الجهاد. وقرأ حمزة والكسائي بالعكس لأن الواو لا توجب ترتيباً والثاني أفضل أو لأن المراد لمّا قُتِل منهم قوم قاتل الباقون ولم يضعُفوا. وشدد ابن كثير وابن عامر قُتِّلوا للتكثير. ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ لأمحونها. ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي أثيبُهم بذلك إثابةً من عند الله تفضلاً منه، فهو مصدر مؤكد. ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ على الطاعات قادر عليه.

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾

(١٩٦) ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ والخطاب للنبي ﷺ والمراد أمتُه، أو تثبيته على ما كان عليه كقوله ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[(١)] أو لكل أحد، والنهي في المعنى للمخاطب وإنما جعل للتقلب تنزيلاً للسبب منزلة المسبب للمبالغة، والمعنى لا تنظر إلى ما الكفرة عليه من السعة والحظ ولا تغتر بظاهر ما ترى من تَبَسُّطهم في مكاسبهم ومتاجرهم ومزارعهم. روي أن بعض المؤمنين كانوا يرون المشركين في رخاء ولينِ عيشٍ فيقولون: إن أعداء الله فيما نرى من الخير وقد هلكنا من الجوع والجهد. فنزلت[(٢)].

(١٩٧) ﴿مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي ذلك التقلب متاع قليل لقصر مدته في جنب ما أعد الله للمؤمنين. قال عليه الصلاة والسلام «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدُكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع»[(٣)]. ﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي ما مهدوا لأنفسهم.

= المخزومي، وربما نسب إلى جد أبيه، وإلى جده، أخرج له الترمذي حديثاً فلم يسمه، قال: عن رجل من ولد أم سلمة، وسماه الحاكم. مقبول، من الثالثة، لم يذكره المزي» هـ.

قلت: ليس كما قال الحاكم فإن سلمة هذا لم يخرج له سوى الترمذي ولم يوثقه غير ابن حبان. وأما يعقوب بن حميد قال عنه الحافظ في التقريب (٢/ ٣٧٥): «صدوق ربما وهم» ومع ذلك فقد توبع.

● وأخرج الترمذي (٥/ ٢٣٧ رقم ٣٠٢٢) وأحمد (٦/ ٣٢٢) والحاكم (٢/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦).

وابن جرير في «جامع البيان» (٤/ج٥/ ٤٦، ٤٧) والطبراني في الكبير (٢٣/ ٢٨٠ رقم ٦٠٩) كلهم من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد عن أم سلمة قالت: يغزو الرجال ولا يغزو النساء وإنما لنا نصف الميراث، فأنزل الله: «ولا تتمنّوا ما فضل الله به بعضكم على بعض» وعند الطبراني زيادة في آخره «ثم أنزلت» (إني لا أُضِيعُ عملَ عاملٍ) الآية.

والخلاصة أن الحديث صحيح لغيره والله أعلم.

(١) القلم: «٨».

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص١٣٩) بدون إسناد.

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٩٣ رقم ٥٥/ ٢٨٥٨) والترمذي (٤/ ٥٦١ رقم ٢٣٢٢) وابن ماجة (٢/ ١٣٧٦ رقم ٤١٠٨) وأحمد (٢/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠) من حديث ابن شداد.

(١٩٨) ﴿لَكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ النُّزُل والنُّزُول ما يعد للنازل من طعام وشراب وصلة قال أبو الشعر الضبي[١]:

وكُنَّا إِذَا الجَبَّارُ بِالْجَيْشِ ضَافَنَا جعَلْنَا القَنَا وَالمُرْهَفَاتِ لَهُ نُزلا

وانتصابه على الحال من جنات والعامل فيها الظرف. وقيل إنه مصدر مؤكد والتقدير أنزلوها نزلاً[٢]. ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ لكثرته ودوامه. ﴿خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ مما يتقلب فيه الفجار لقلته وسرعة زواله.

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾

(١٩٩) ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ نزلت في عبدالله بن سلاّم وأصحابه[٣]. وقيل في أربعين من نجران واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم كانوا نصارى فأسلموا[٤]. وقيل في أصحمة النَّجاشي لما نعاه جبريل إلى رسول الله ﷺ فخرج فصلى عليه فقال المنافقون انظروا إلى هذا يصلي على عِلْجٍ نصراني لم يره قط[٥]. وإنما دخلت اللام على الاسم للفصل بينه وبين إنّ بالظرف.

---

(١) أبو الشعر الضبي هو: يونس بن حبيب أبو عبدالرحمن الضَّبِّيُّ وقيل الليثيُّ بالولاءِ، إمامُ نُحاةِ البصرة في عصره، ومرجع الأدباء والنحويين في المشكلات، كانت حَلْقَتُهُ مجمعَ فصحاء الأعراب وأهل العلم والأدب.... وكان يونسُ عالماً بالشعر نافذ البصر في تمييز جيِّدِهِ من رديئهِ، عارفاً بطبقات شعراء العرب حافظاً لأشعارهم يُرْجَعُ إليه في ذلك كلِّهِ. وكان مولده سنة ثمانين، ومات سنة اثنتين وثمانين ومائةٍ.
[معجم الأدباء (٢٠/ ٦٤ ـ ٦٧ رقم ٣٩)].

(٢) إيراد التقوى في حيز الصلة للإشعار بكون الخصال المذكورة من باب التقوى.
وكذا إيراد البر في قوله «للأبرار» (س٢/ ١٣٥).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ٢١٩) عن ابن جريج.

(٤) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٤/ ١٧٣) عن عطاء بدون سند.

(٥) ● أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ٢١٨) وابن عدي في التكامل (٣/ ١١٧١) من طريق أبي بكر الهذلي، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن جابر بن عبدالله مرفوعاً، دون قوله: «ونظر إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشي» وزاد فيه: «وكبر أربعاً».
وفيه أبو بكر الهذلي، قيل اسمه (سلمى بن عبدالله) قال الحافظ في التقريب (٢/ ٤٠١) أخباري متروك الحديث.
● وأخرج الطبراني في الأوسط ـ كما في «المجمع» (٣/ ٣٨ ـ ٣٩) ـ عن أبي سعيد الخدري، قال لما قدم على النبي ﷺ وفاه النجاشي قال اخرجوا فصلوا على أخ لكم لم تروه قط فخرجنا وتقدم النبي ﷺ وصففنا خلفه فصلى وصلينا فلما انصرفنا قال المنافقون انظروا إلى هذا خرج فصلى على علج نصراني لم يره قط فأنزل الله «وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم». إلى آخر الآية.
قال الهيثمي: وفيه عبدالرحمن بن أبي الزناد وهو ضعيف.
● وأخرج الطبراني في الكبير (٢٢/ ١٣٦ رقم ٣٦١) وأورده الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٣٩) عن وحشي بن حرب قال: لما مات النجاشي قال رسول الله ﷺ لأصحابه إن أخاكم النجاشي قد مات قوموا فصلوا عليه فقال رجل =

﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ ﴾ من القرآن. ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ ﴾ من الكتابين. ﴿ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ حال من فاعل يؤمن وجمعه باعتبار المعنى ﴿ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ ﴾ كما يفعله المحرِّفون من أحبارهم. ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ ﴾ ما خص بهم من الأجر ووعده في قوله تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ ﴾[1] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ لعلمه بالأعمال وما يستوجبه من الجزاء واستغنائه عن التأمل والاحتياط، والمراد أن الأجر الموعود سريع الوصول فإن سرعة الحساب تستدعي سرعة الجزاء.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

(٢٠٠) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ ﴾ على مشاق الطاعات وما يصيبكم من الشدائد. ﴿ وَصَابِرُواْ ﴾ وغالبوا أعداء الله بالصبر على شدائد الحرب وأعدى عدوكم في الصبر على مخالفة الهوى، وتخصيصُه بعد الأمر بالصبر مطلقاً لشدته. ﴿ وَرَابِطُواْ ﴾ أبدانكم وخيولكم في الثغور مترصدين للغزو، وأنفسكم على الطاعة كما قال عليه الصلاة والسلام «من الرباط انتظار الصلاة بعدالصلاة»[2]. وعنه عليه الصلاة والسلام «من رابط يوماً وليلة في سبيل الله كان كعدل صيام شهر رمضان وقيامه، لا يفطر ولا ينفتل عن صلاته إلا لحاجة»[3]. ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ فاتقوه بالتبري عما سواه لكي تفلحوا غاية الفلاح، أو واتقوا القبائح لعلكم تفلحون بنيل المقامات الثلاثة المرتبة التي هي الصبر على مضض الطاعات ومصابرة النفس في رفض العادات ومرابطة السر على جناب الحق لترصد الواردات، المعبَّر

= يا رسول الله كيف نصلي عليه وقد مات في كفره فقال «ألا تسمعون إلى قول الله: «وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم» إلى آخر الآية.
قال الهيثمي: وفيه سليمان بن أبي داود الحراني وهو ضعيف.
● وأما صلاة النبي ﷺ على النجاشي فقد ثبت. أخرجه البخاري في صحيحه (٣/ ١١٦ رقم ١٢٤٥) وأطرافه في: (١٣١٨)، (٧، ١٣)، (٨، ١٣)، (١٣٣٣)، (٣٨٨٠)، (٣٨٨١). ومسلم (٢/ ٦٥٦ ـ ٦٥٧ رقم ٦٢، ٦٣/ ٩٥١) من حديث أبي هريرة.

(١) القصص: «٥٤».

(٢) أخرج مسلم (١/ ٢١٩ رقم ٤١/ ٢٥١) والترمذي (١/ ٧٢ رقم ٥١).
عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أدُلُّكم على ما يمحو اللهُ به الخطايا ويرفعُ به الدرجات؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «إسباغُ الوُضوءِ على المكاره، وكثرة الخُطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط».
● ولم أجده بلفظ الكتاب.

(٣) أخرج مسلم في صحيحه (٣/ ١٥٢٠ رقم ١٦٣/ ١٩١٣) عن سلمان، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «رباطُ يومٍ وليلةٍ خيرٌ من صيامِ شهرٍ وقيامِهِ. وإن ماتَ، جرى عليه عملُهُ الذي كان يعملُهُ، وأُجْرِيَ عليه رزقُهُ، وأَمِنَ الفتَّانَ».
وأخرجه أحمد في المسند (٥/ ٤٤٠، ٤٤١) وابن شيبة في المصنف (٥/ ٣٢٧) (٥/ ٣٣٧) بألفاظ متقاربة.

عنها بالشريعة والطريقة والحقيقة. عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة آل عمران أعطي بكل آية منها أماناً على جسر جهنم»(١). وعنه عليه الصلاة والسلام «من قرأ السورة التي يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه وملائكته حتى تجب الشمس»(٢). والله أعلم.

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث موضوع:
أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠) من طريق أبي الخليل بَزِيع بن حسَّان، ومَخْلَد بن عبدالواحد، كلاهما عن علي بن زيد بن جدعان، عن زر بن حبيش عن أبي بن كعب مرفوعاً: «من قرأ سورة كذا وكذا، فله كذا وكذا، فذكر سورة سورة».
وقال: «وهذا حديث فضائل السور مصنوع بلا شك، وفي إسناد الطريق الأول (بَزِيع) قال الدارقطني: وهو متروك، وفي الطريق الثاني (مَخْلَد) بن عبدالواحد قال ابن حبان: منكر الحديث جداً ينفرد بمناكير لا تشبه أحاديث الثقاة، وقد اتفق (بَزِيع) و(مَخْلَد) على رواية هذا الحديث عن علي بن زيد، وقد قال أحمد ويحيى: علي بن زيد ليس بشيء. وبعد هذا فنفى الحديث يدل على أنه مصنوع فإنه قد استنفذ السور وذكر في كل واحدة ما يناسبها من الثواب بكلام ركيك في نهاية البزودة لا يناسب كلام رسول الله ﷺ» هـ.
قلت: انظر ترجمة أبي الخليل بزيع بن حسان في «الجرح» (٢/ ٤٢١) والمجروحين ـ (١/ ١٩٨ ـ ١٩٩) ـ والميزان (١/ ٣٠٦).
وترجمة مخلد بن عبدالواحد في «الجرح» (٨/ ٣٤٨) والمجروحين (٣/ ٤٣) والميزان (٤/ ٨٣).
● قال الشوكاني في «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» ص٣١٧: «ولا خلاف بين الحفاظ بأن حديث أبي بن كعب هذا موضوع. وقد اغتر به جماعة من المفسرين فذكروه في تفاسيرهم: كالثعلبي، والواحدي، والزمخشري ولا جرم فليسوا من أهل هذا الشأن» هـ.
● وقال ابن قيم الجوزية في «المنار المنيف» (ص١١٣ رقم ٢٢٥): ومنها ـ أي من الأحاديث التي لم تثبت ـ «ذِكْرُ فضائل السور وثواب من قرأ سورة كذا فله أَجْرُ كذا» من أول القرآن لآخره، كما ذكر ذلك الثعلبي والواحديُّ في أول كُلِّ سورة، والزمخشري في آخرها. قال عبدالله بن المبارك: أظنُّ الزنادقة وضعوها.

(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٤٨ رقم ١١٠٠٢) وأورده الهيثمي في المجمع (٢/ ١٦٨) وابن حجر في «الكافي الشافِ» رقم (٣١١) من حديث ابن عباس.
قال الهيثمي: وفيه حماد بن شعيب وهو ضعيف جداً.
وقال ابن حجر: إسناده ضعيف.
وحكم عليه المحدث الألباني بالوضع في «الضعيفة» رقم (٤١٥).

سورة النساء

ترتيبها ٤ — آياتها ١٧٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطاب يعم بني آدم. ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هي آدم[١]. ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ عطف على خلقكم أي خلقكم من شخص واحد وخلق منه أمكم حواء من ضِلع من أضلاعه، أو محذوف تقديره من نفس واحدة خلقها وخلق منها زوجها، وهو تقرير لخَلْقهم من نفس واحدة. ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ بيان لكيفية تولدهم منهما، والمعنى ونَشَر من تلك النفس والزوج المخلوقة منها بنين وبنات كثيرة، واكتفى بوصف الرجال بالكثرة عن وصف النساء بها، إذ الحكمة تقتضي أن يكنّ أكثر، وذَكَر كثيراً حملاً على الجمع، وترتيب الأمر بالتقوى على هذه القصة لما فيها من الدلالة على القدرة القاهرة التي من حقها أن تخشى والنعمة الباهرة التي توجب طاعة موليها، أو لأن المراد به تمهيد الأمر بالتقوى فيما يتصل بحقوق أهل منزله وبني جنسه على ما دلت عليه الآيات التي بعدها. وقرىء وخالقٌ وباثٌّ على حذف مبتدأ تقديره وهو خالق وباث. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ أي يسأل بعضكم بعضاً تقول أسألك بالله، وأصله تتساءلون فأُدغمت التاء الثانية في السين[٢]. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بطرحها. ﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾ بالنصب عَطْفٌ على محلِ الجار والمجرور كقولك: مررت بزيد وعمراً، أو على الله أي اتقوا الله واتقوا الأرحام فَصِلُوها ولا تقطعوها. وقرأ حمزة بالجرِّ عطفاً

(١) قوله «اتقوا ربكم» تعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية والتربية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لتأييد الأمر وتأكيد إيجاب الامتثال به على طريقة الترغيب والترهيب (س٢/ ١٣٧).

(٢) وهذا على قراءة من قرأ بتشديد السين «تسَّاءلون» وهي قراءة الجمهور.

على الضمير المجرور وهو ضعيف لأنه كبعض الكلمة[١]. وقرىء بالرفع على أنه مبتدأ محذوفُ الخبر تقديره والأرحامُ كذلك، أي مما يُتقى أو يُتساءل به. وقد نبه سبحانه وتعالى إذ قرن الأرحامَ باسمه الكريم على أنّ صلتها بمكانٍ منه. وعنه عليه الصلاة والسلام «الرحم معلقة بالعرش تقول ألا من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله»[٢]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ حافظاً مطلعاً.

(٢) ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ أي إذا بلغوا، واليتامى جمع يتيم وهو الذي مات أبوه، من اليتم وهو الانفراد. ومنه الدرّة اليتيمة، إما على أنه لما جرى مجرى الأسماء كفارس وصاحب جُمع على يتائم، ثم قُلِب فقيل يتامى أو على أنه جمع على يَتْمَى كأسرى لأنه من باب الآفات. ثم جمع يَتْمى على يتامى كأسرى وأسارى، والاشتقاق يقتضي وقوعه على الصغار والكبار، لكن العرف خصصه بمن لم يبلغ. ووروده في الآية إما للبُلّغ على الأصل أو الاتساع لقرب عهدهم بالصغر، حثاً على أن يُدْفعَ إليهم أموالهم أولَ بلوغهم قبل أن يزول عنهم هذا الاسم إن أونس منهم الرشد، ولذلك أمر بابتلائهم صغاراً. أو لغير البُلّغ والحُكْم مقيّد فكأنه قال: وآتوهم إذا بلغوا. ويؤيد الأول ما روي: أن رجلاً من غَطَفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم فلما بلغ طلب المال منه فمنعه فنزلت[٣]. فلما سمعها العمّ قال: أطعنا الله ورسوله نعوذ بالله من الحوب الكبير. ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ ولا تستبدلوا الحرام من أموالهم بالحلال من أموالكم، أو الأمر الخبيث وهو اختزال أموالهم بالأمر الطيب الذي هو حفظها. وقيل ولا تأخذوا الرفيع من أموالهم وتعطوا الخسيس مكانها، وهذا تبديل وليس بتبدل. ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ ولا تأكلوها مضمومة إلى أموالكم، أي لا تنفقوهما معاً ولا تسوّوا بينهما، وهذا حلال وذاك حرام وهو فيما زاد على قدر أجره لقوله تعالى ﴿فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[٤] ﴿إِنَّهُۥ﴾ الضمير للأكل. ﴿كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ ذنباً عظيماً. وقرىء حَوْباً وهو مصدر حاب حَوْباً وحَاباً كقال قوْلاً وقالاً[٥].

---

(١) ما ذكره البيضاوي من ضعف قراءة حمزة «والأرحامِ» بالجرّ قول غير مقبول منه.
وقد نقله عن الزمخشري في الكشاف ١/ ٢٤١ وهو مذهب البصريين.
أما حمزة فهو من القراء السبعة المشهورين الذين تلقت الأمة قراءتهم بالقبول. ثم إن هذه القراءة قد قرأ بها غير السبعة كابن مسعود وابن عباس والنخعي والحسن البصري وغيرهم.
وأما ما ذكر من أنه غير موافق للعربية فغير صحيح، بل الصحيح جوازه فقد رجح ابن مالك جوازه واستشهد له بالنثر والنظم. (شرح ابن عقيل ٢/ ٢٤٠) وانظر رد أبي حيان في البحر المحيط ٣/ ١٥٩ على الزمخشري وابن عطية في رد قراءة حمزة.

(٢) أخرجه البخاري (١٠/ ٤١٧ رقم ٥٩٨٩) عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: «الرَّحِمُ شِجْنة، فمن وصلها وصلتُه، ومن قطعَها قطعتُه».
ـ وأخرجه مسلم (٤/ ١٩٨١ رقم ١٧/ ٢٥٥٥) عنها بلفظ الكتاب.

(٣) ذكره الثعلبي عن مقاتل والكلبي وسنده إليهما مذكور في أول الكتاب ـ كما في «الكافي الشافِ» لابن حجر رقم (٣١٥) ـ. وذكره الواحدي في أسباب النزول (ص١٤٢) من قول مقاتل والكلبي.
قلت: مقاتل والكلبي هما كذابان.

(٤) النساء: «٦».

(٥) في الآية قدم أمر اليتامى للاعتناء بأمرهم ولملابستهم للأرحام، إذ الخطاب للأولياء والأوصياء وقلما تفوض الوصاية إلى الأجانب.
=

وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾

(٣) ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ أي إن خفتم أن لا تعدلوا في يتامى النساء إذا تزوجتم بهن، فتزوجوا ما طاب لكم من غيرهن، إذ كان الرجل يجد يتيمة ذات مال وجمال فيتزوجها ضناً بها، فربما يجتمع عنده منهن عدد ولا يقدر على القيام بحقوقهن. أو إن خفتم أن لا تعدلوا في حقوق اليتامى فتحرجتم منها فخافوا أيضاً أن لا تعدلوا بين النساء فانكحوا مقداراً يمكِّنكم الوفاءَ بحقه، لأن المتحرِّج من الذنب ينبغي أن يتحرج من الذنوب كلها على ما روي: أنه تعالى لما عَظَّم أمر اليتامى تحرَّجوا من وَلايتهم وما كانوا يتحرجون من تكثير النساء وإضاعتهن فنزلت[1]. وقيل: كانوا يتحرجون من ولاية اليتامى ولا يتحرجون من الزنى، فقيل لهم إن خفتم أن لا تعدلوا في أمر اليتامى فخافوا الزنى، فانكحوا ما حل لكم. وإنما عبر عنهن بما ذهاباً إلى الصفة أو إجراءً لهنّ مجرى غير العقلاء لنقصان عقلهن، ونظيره ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[2]. وقرىء تَقسطوا بفتح التاء على أنّ لا مزيدة أي إن خفتم أن تجوروا. ﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ معدولة عن أعداد مكررة وهي: ثنتين ثنتين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً. وهي غير منصرفة للعدل والصفة فإنها بُنِيَت صفاتٍ وإن كانت أصولُها لم تُبْن لها. وقيل لتكرير العدل فإنها معدولة باعتبار الصفة والتكرير منصوبةً على الحال من فاعل طاب، ومعناها: الإذن لكل ناكح يريد الجمع أن ينكح ما شاء من العدد المذكور متفقين فيه ومختلفين كقولك: اقتسموا هذه البدرة درهمين درهمين، وثلاثة ثلاثة، ولو أُفردت كان المعنى تجويز الجمع بين هذه الأعداد دون التوزيع، ولو ذكرت بأَوْ لذهب تجويز الاختلاف في العدد. ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ بين هذه الأعداد أيضاً. ﴿فَوَاحِدَةً﴾ فاختاروا أو فانكحوا واحدة وذروا الجمع. وقرىء بالرفع على أنه فاعل محذوف أو خبره تقديره فتكفيكم واحدة، أو فالمقنع واحدة. ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ سوى بين الواحدة من الأزواج والعدد من السراري لخفة مؤنهن وعدم وجوب القَسْم بينهن ﴿ذَلِكَ﴾ أي التقليل منهن أو اختيار الواحدة أو التسرِّي. ﴿أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ أقرب من أن لا تميلوا، يقال عال الميزان إذا مال وعال الحاكم إذا جار، وعَوْلُ الفريضة الميْلُ عن حدّ السهام المسمَّاة. وفُسِّر بأن لا تكثُر عيالُكم على أنه من عال الرجل عياله يعولهم إذا مانهم، فعبر عن كثرة العيال بكثرة المؤن على الكناية، ويؤيده قراءة أن لا تعيلوا من أعال الرجل إذا كثر عيالُه، ولعل المراد بالعيال الأزواج وإن أريد الأولاد فلأن التسري

= والمراد بإيتاء أموالهم أن يقطع المخاطبون أطماعهم الفارغة عنها. وعبر عنه بالإيتاء مجازاً للإيذان بأنه ينبغي أن يكون مرادهم بذلك إيصالها إليهم لا مجرد ترك التعرض لها (س٢/١٣٩).

(١) أخرجه ابن جرير (٤/٢٣٣ ـ ٢٣٤) عن سعيد بن جبير والسدي وقتادة وابن عباس، وفي سنده عن ابن عباس أبو صالح كاتب الليث وهو ضعيف.

(٢) النساء: «٣».

مظنة قلة الولد بالإضافة إلى التزوج لجواز العزل فيه كتزوج الواحدة بالإضافة إلى تزوج الأربع.

(٤) ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ مهورهن. وقرىء بفتح الصاد وسكون الدال على التخفيف، وبضم الصاد وسكون الدال، جمع صُدْقة كغرفة، وبضمهما على التوحيد وهو تثقيل صدَقة كظُلُمة في ظُلْمة. ﴿نِحۡلَةً﴾ أي عطية يقال نَحَله كذا نِحْلة ونُحْلاً إذا أعطاه إياه عن طيب نفس بلا توقع عوض، ومن فسرها بالفريضة ونحوها نظر إلى مفهوم الآية لا إلى موضوع اللفظ، ونَصْبُها على المصدر لأنها في معنى الإيتاء أو الحال من الواو، أو الصدقات أي آتوهن صدقاتهن ناحلين أو منحولة. وقيل المعنى نِحْلة من الله وتفضلاً منه عليهن فتكون حالاً من الصدقات. وقيل ديانة من قولهم انتحل فلان كذا إذا دان به على أنه مفعول له، أو حال من الصدقات أي ديناً من الله تعالى شَرَعَه، والخطاب للأزواج، وقيل للأولياء لأنهم كانوا يأخذون مهور مُوَلّياتهم. ﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا﴾ للصداق حملاً على المعنى، أو جرى مجرى اسم الإشارة كقول رؤبة:

كأَنَّهُ في الجلْدِ تَوَلِيْعُ البُهَق

إذ سئل فقال: أردت كأنّ ذاك، وقيل للإيتاء، ونفساً تمييز لبيان الجنس ولذلك وحّد، والمعنى فإن وَهَبْن لكم شيئاً من الصداق عن طيب نفس، لكن جَعَلَ العمدة طيبَ النفس للمبالغة وعدّاه بعن لتضمن معنى التجافي والتجاوز، وقال: «منه» بَعْثاً لهنّ على تقليل الموهوب ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا﴾ فخذوه وأنفقوه حلالاً بلا تبعة. والهنيء والمريء صفتان من هنأ الطعام ومرأ إذا ساغ من غير غَصَص، أقيمتا مقام مصدريهما أو وصف بهما المصدر أو جُعلتا حالاً من الضمير. وقيل: الهنيء ما يلذه الإنسان، والمريء ما تحمد عاقبته. روي: أن ناساً كانوا يتأثمون أن يَقْبَل أحدهم من زوجته شيئاً مما ساق إليها. فنزلت[١].

وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٥﴾

(٥) ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ﴾ نهي للأولياء عن أن يؤتوا الذين لا رَشَد لهم أموالَهم فيضيّعوها، وإنما أضاف الأموال إلى الأولياء لأنها في تصرفهم وتحت ولايتهم، وهو الملائم للآيات المتقدمة والمتأخرة. وقيل نهي لكل أحد أن يعمد إلى ما خوّله الله تعالى من المال فيعطي امرأته وأولاده، ثم ينظر إلى أيديهم. وإنما سماهم سفهاء استخفافاً بعقولهم واستهجاناً لجعلهم قُوّاماً على أنفسهم وهو أوفق لقوله[٢]: ﴿ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا﴾ أي تقومون بها وتنتعشون، وعلى الأول يؤول بأنها التي من

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ٢٤٣) عن المعتمر عن أبيه، به.

(٢) أضاف الأموال إلى الأولياء لا لكونها تحت ولايتهم ـ كما ذكر البيضاوي ـ بل تنزيلاً لاختصاصها بأصحابها مَنْزِلَةَ اختصاصها بالأولياء، فكأن أموالهم عين أموالهم كما في قوله تعالى: «ولا تقتلوا أنفسكم» ـ النساء «٢٩» ـ أي لا يقتل بعضكم بعضاً، حيث عبر عن بني نوعهم بأنفسهم مبالغة في زجرهم. (س٢/ ١٤٤).

إلا أنه تعالى أضاف الأموال إلى اليتامى في قوله «وآتوا اليتامى أموالهم» ـ النساء «٢» ـ ولم يضفه للأولياء مع أن =

جنس ما جعل الله لكم قياماً سمي ما به القيام قياماً للمبالغة. وقرأ نافع وابن عامر قِيَماً بمعناه كعِوَذٍ بمعنى عِيَاذ. وقرىء قِوَاماً وهو ما يقام به. ﴿ وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ ﴾ واجعلوها مكاناً لرزقهم وكسوتهم بأن تتجروا فيها وتحصلوا من نفعها ما يحتاجون إليه. ﴿ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ عدة جميلة تطيب بها نفوسهم. والمعروف ما عرفه الشرع أو العقل بالحُسْن، والمنكر ما أنكره أحدُهما لقبحه.

وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾

(٦) ﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾ اختبروهم قبل البلوغ بتتبع أحوالهم في صلاح الدين والتهدي إلى ضبط المال وحسن التصرف، بأن يَكِل إليه مقدمات العقد. وعن أبي حنيفة رحمه الله تعالى بأن يُدفَع إليه ما يتصرف فيه. ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ ﴾ حتى إذا بلغوا حد البلوغ بأن يحتلم، أو يستكمل خمس عشرة سنة عندنا لقوله عليه الصلاة والسلام: «إذا استكمل الولد خمس عشرة سنة كُتِب مالَه وما عليه وأقيمت عليه الحدود»[1]. وثماني عشرة عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى، وبلوغُ النكاح كنايةٌ عن البلوغ، لأنه يصلح للنكاح عنده. ﴿ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا ﴾ فإن أبصرتم منهم رشداً. وقرىء أحستم بمعنى أَحْسَسْتُم. ﴿ فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ من غير تأخير عن حد البلوغ، ونَظْمُ الآيةِ أَنَّ إِنْ الشرطية جواب إذا المتضمنة معنى الشرط، والجملةُ غاية الابتلاء فكأنه قيل: وابتلوا اليتامى إلى وقت بلوغهم واستحقاقِهم دَفْعَ أموالهم إليهم بشرط إيناس الرشْد منهم، وهو دليل على أنه لا يُدفعُ إليهم ما لم يُؤنَس منهم الرشدُ. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: إذا زادت على سن البلوغ سبعُ سنين وهي مدة معتبرة في تغير الأحوال، إذ الطفل يميز بعدها ويؤمر بالعبادة، دُفِعَ إليه المال وإن لم يؤنس منه الرشد. ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ﴾ مسرفين ومبادرين كِبَرَهم، أو لإسرافكم ومبادرتكم كِبَرَهم. ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾ من أكلها. ﴿ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ بقدر حاجته وأجرة سعيه، ولفظ الاستعفاف والأكل بالمعروف مشعر بأن الولي له حق في مال الصبي، وعنه عليه الصلاة والسلام «أن رجلاً قال له إن في حجري يتيماً أفآكل من ماله؟ قال: كُلْ بالمعروف غير متأثِّل مالاً ولا واقٍ مالَك بماله»[2] وإيراد

= الأموال في الصورتين لهم، وذلك للإيذان بترتب الحكم على الوصف فيهما، فإن تسميتهم يتامى هناك يناسب قطع الطمع فيفيد المبالغة في ردّ الأموال إليهم فاقتضى أن يقال «أموالهم»، أما الوصف هنا فهو السفاهة فناسب أن لا يختصوا بشيء من المالكية لئلا يتورطوا في الأموال، فلذلك لم يضف أموالهم إليهم بل أضافها للأولياء (روح المعاني ٤/ ٢٠١).

(١) أخرجه البيهقي في الخلافيات من حديث أنس، وقال: إسناده ضعيف (الفتح السماوي ص٤٥٩).

(٢) وهو حديث حسن.
أخرجه الثعلبي من طريق معاوية بن هشام. حدثنا الثوري عن ابن أبي نجيح عن الحسن العرني عن ابن عباس.

هذا التقسيم بعد قوله ولا تأكلوها يدل على أنه نهي للأولياء أن يأخذوا وينفقوا على أنفسهم أموالَ اليتامى. ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾ بأنهم قبضوها فإنه أنفى للتُّهمة وابْعَدُ من الخصومة، ووجوبُ الضمان وظاهرُه يدل على أن القَيِّم لا يُصَدَّق في دعواه إلا بالبينة وهو المختار عندنا وهو مذهب مالك خلافاً لأبي حنيفة. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ محاسباً فلا تخالفوا ما أُمِرتم به ولا تتجاوزوا ما حدَّ لكم.

(٧) ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ يريد بهم المتوارثين بالقرابة. ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ بدل مما ترك بإعادة العامل. ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ نصب على أنه مصدر مؤكد كقوله تعالى ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾(١) أو حال إذ المعنى: ثبت لهم مفروضاً نصيبُ، أو على الاختصاص بمعنى أعني نصيباً مقطوعاً واجباً لهم، وفيه دليل على أن الوارث لو أعرض عن نصيبه لم يسقط حقُّه. روي أن أوس بن الصامت الأنصاري خلف زوجتَه أم كُحّة وثلاثَ بنات، فزوى ابنا عمه سويد وعرفطة، أو قتادة وعرفجة ميراثَه عنهن على سُنّة الجاهلية، فإنهم ما كانوا يورثون النساء والأطفال ويقولون: إنما يرثُ من يحارب ويذبّ عن الحَوْزة، فجاءت أم كحة إلى رسول الله ﷺ في مسجد الفضيخ فشكت إليه فقال: ارجعي حتى أنظر ما يحدث الله. فنزلت فبعث إليهما: لا تُفرقا من مال أوسٍ شيئاً فإن الله قد جعل لهن نصيباً ولم يبين حتى يبين. فنزلت ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾(٢) فأعطى أمَّ كحة الثمن والبناتِ الثلثين والباقي ابني العم(٣). وهو دليل على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب(٤).

= ورواه عبدالرزاق ـ كما في الدر المنثور (٢/ ٤٣٧) ـ وابن المبارك في البر والصلة ـ رقم ٢٠٩ ـ والطبري ـ (٣/ ج٤/ ٢٦٠) ـ عن سفيان بن عينية، عن ابن دينار، عن الحسن العرني فذكره مرسلاً. ووقع عند الطبري «الحسن البصري» والصواب «الحسن العرني» وقد كان يرسل عن ابن عباس.

وروى أحمد ـ (٢/ ٢٨٦، ٢١٥) ـ وأبو داود ـ (٣/ ٢٩٢ رقم ٢٨٧٢) ـ والنسائي ـ (٦/ ٢٥٦ رقم ٣٦٦٨) ـ وابن ماجة ـ (٢/ ٩٠٧ رقم ٢٧١٨) ـ وغيرهم من رواية عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده: «جاء رجل النبي ﷺ........» الحديث.

وروى ابن حبان ـ (ص٥٠١ رقم ٢٠٤٨ ـ موارد) ـ من رواية صالح بن رستم، عن عمرو بن دينار عن جابر، قال: قال رجل لرسول الله ﷺ..... الحديث.

وأخرجه ابن عدي في الكامل (٤/ ١٣٩٠) في ترجمة صالح بن رستم وهو أبو عامر الخزان وضعفه عن ابن معين. وقال: لم أجد له حديثاً منكراً.

ورواه أبو نعيم في الحلية ـ (٣/ ٣٥١) ـ في ترجمة عمرو بن دينار.

وقال: تفرد به الخزان وهو ثقات البصريين.

«الكافي الشافِ» (رقم: ٣٢٣).

(١) النساء: «١١».

(٢) النساء: «١١».

(٣) وهو حديث ضعيف.

أخرجه أبو الشيخ ابن حيان في كتاب الفرائض ـ كما في الدر المنثور (٢/ ٤٣٨) ـ، وابن حجر في الإصابة (١/ ٨٠).

والحديث ضعيف بهذا الإسناد لأن الحافظ صرح بأنه من طريق الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس، والكلبي متروك.

وانظر كلام ابن حجر في الإصابة (١/ ٨٠) و(٤/ ٤٨٧) «والكافي الشافِ» رقم: ٣٢٦ فإنه مفيد في ذكر الاختلاف في ذلك الصحابي ووفاته وورثته، والاختلاف في سبب نزول هذه الآية.

(٤) قوله «وللنساء نصيب» أورد حكم النساء على الاستقلال ولم يقل للرجال وللنساء لبيان أصالتهن باستحقاق =

وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾
وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا
سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ
سَعِيرًا ﴿١٠﴾

(٨) ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ممن لا يرث ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ فأعطوهم شيئاً من المقسوم تطييباً لقلوبهم وتصدقاً عليهم. وهو أمر نُدِب للبُلَّغ من الورثة، وقيل أمر وجوب، ثم اختُلف في نسخه. والضمير لما تَرَك أو ما دل عليه القسمة ﴿وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ وهو أن يدعوا لهم ويستقلوا ما أعطوهم ولا يمنّوا عليهم.

(٩) ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ﴾ أمرٌ للأوصياء بأن يخشوا الله تعالى ويتقوه في أمر اليتامى فيفعلوا بهم ما يحبون أن يُفْعَل بذراريهم الضعاف بعد وفاتهم، أو للحاضرين المريضَ عند الإيصاء بأن يخشوا ربهم أو يخشوا على أولاد المريض ويشفقوا عليهم شَفَقَتَهم على أولادهم فلا يتركوه أن يضرَّ بهم بصرف المال عنهم، أو للورثة بالشفقة على من حضر القسمة من ضعفاء الأقارب واليتامى والمساكين متصورين أنهم لو كانوا أولادهم بقوا خلفهم ضعافاً مثلهم هل يجوزون حرمانهم، أو للموصين بأن ينظروا للورثة فلا يسرفوا في الوصية ولو بما في حيزه، جُعِلَ صلة للذين على معنى ولْيخش الذين حالهم وصفتهم أنهم لو شارفوا أن يخلفوا ذرية ضعافاً خافوا عليهم الضياع. وفي ترتيب الأمر عليه إشارة إلى المقصود منه والعلة فيه وبَعْثٌ على الترحم وأن يحب لأولاد غيره ما يحب لأولاده وتهديد للمخالف بحال أولاده. ﴿فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أَمَرَهم بالتقوى التي هي غاية الخشية بعدما أمرهم بها مراعاة للمبدأ والمنتهى إذ لا ينفع الأول دون الثاني، ثم أمرهم أن يقولوا لليتامى مثل ما يقولون لأولادهم بالشفقة وحسن الأدب، أو للمريض ما يَصُدُّه عن الإسراف في الوصية وتضييع الورثة ويذكِّره التوبة وكلمة الشهادة، أو لحاضري القسمة عذراً جميلاً ووعداً حسناً، أو أن يقولوا في الوصية ما لا يؤدي إلى مجاوزة الثلث وتضييع الورثة.

(١٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ ظالمين، أو على وجه الظلم. ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ﴾ ملء بطونهم. ﴿نَارًا﴾ ما يجرّ إلى النار ويؤول إليها. وعن أبي بردة[١] رضي الله تعالى عنه أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «يبعث الله قوماً من قبورهم تتأجج أفواههم ناراً». فقيل: من هم؟ فقال: «ألم تر أن الله يقول: إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً»[٢]

= الميراث والإشارة لتفاوت نصيب كل من الفريقين ولإبطال حكم الجاهلية (س٢/ ١٤٦).

(١) أبو بردة هو: أبو بردة بن نِيَار، بكسر النون بعدها تحتانية خفيفة، البَلَوي، حليف الأنصار، صحابي، اسمه هانيء، وقيل الحارث بن عمرو وقيل مالك بن هبيرة، مات سنة إحدى وأربعين، وقيل بعدها.
[التقريب (٢/ ٣٩٤ رقم ٨)].

(٢) أخرجه ابن حبان (ص٦٣٩ رقم ٢٥٨٠ ـ موارد) وابن أبي شيبة في المسند، وأبو يعلى، والطبراني، =

﴿ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ سيدخلون ناراً وأيَّ نار!. وقرأ ابن عامر وابن عياش عن عاصم بضم الياء مخففاً، وقرىء به مشدداً(١)، يقال صَلَى النار قاسى حرها وصليته شويتُه وأصليته وصَلَّيته ألقيته فيها، والسعير فعيل بمعنى مفعول من سَعَرت النار إذا ألهبتها.

يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

(١١) ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ ﴾ يأمُركم ويعهدُ إليكم. ﴿ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ﴾ في شأن ميراثهم، وهو إجمالٌ، تفصيلُهُ: ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ أي يعدّ كل ذكر بأنثيين حيث اجتمع الصنفان فيضعف نصيبُه. وتخصيصُ الذَّكر بالتنصيص على حظه لأن القصد إلى بيان فضله، والتنبيهُ على أن التضعيف كافٍ للتفضيل فلا يُحرَمنَ بالكلية وقد اشتركا في الجهة، والمعنى للذكر منهم فحذف للعلم به. ﴿ فَإِن كُنَّ نِسَآءً ﴾ أي إن كان الأولاد نساءً خلصاً ليس معهن ذكر، فأنَّث الضمير باعتبار الخبر أو على تأويل المولودات. ﴿ فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ ﴾ خبر ثان، أو صفة للنساء أي نساء زائدات على اثنتين. ﴿ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ﴾ المتوفى منكم، ويدل عليه المعنى. ﴿ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ﴾ أي وإن كانت المولودة واحدة. وقرأ نافع بالرفع على كان التامّة. واختلف في الثنتين فقال ابن عباس رضي الله عنهما حكمُهما حكم الواحدة، لأنه تعالى جعل الثلثين لما فوقهما، وقال الباقون حكمهما حكم ما فوقهما، لأنه تعالى لما بين أن حظ الذكر مثل حظ الأنثيين إذا كان معه أنثى وهو الثلثان اقتضى ذلك أن فرضهما الثلثان. ثم لما أوهم ذلك أن يزاد النصيب بزيادة العدد ردّ ذلك بقوله ﴿ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ ﴾ ويؤيد ذلك أن البنت الواحدة لما استحقت الثلث مع أخيها فبالحريّ أن تستحقه مع أخت مثلها. وأن البنتين أَمَسُّ رحماً من الأختين وقد فُرض لهما الثلثين بقوله تعالى ﴿ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ﴾(٢). ﴿ وَلِأَبَوَيْهِ ﴾ ولأبوي الميت. ﴿ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ﴾ بدل منه بتكرير العامل، وفائدته التنصيصُ على استحقاقِ كل واحد منهما السدس والتفصيلُ بعد الإجمال تأكيداً. ﴿ ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ ﴾ أي للميت. ﴿ وَلَدٌ ﴾ ذكر أو أنثى، غيرَ أن الأب يأخذ السدس مع الأنثى بالفريضة وما بقي من ذوي الفروض أيضاً بالعُصوبة. ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ ﴾ فَحَسْب. ﴿ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ﴾ مما ترك. وإنما لم يذكر حصّة الأب لأنه لما فرض أن

= وابن أبي حاتم ـ كما في الدر المنثور (٢/ ٤٤٣) ـ وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢) وعزاه لأبي يعلى والطبراني وقال: فيه زياد بن المنذر وهو كذاب.
انظر ترجمته في (المجروحين) (١/ ٣٠٦) والجرح والتعديل (٣/ ٥٤٥).
والتاريخ الكبير للبخاري (٣/ ٣٧١) والتقريب (١/ ٢٧٠).

(١) أي (سَيُصْلَوْنَ﴾ وقراءة تشديد اللام أي (سَيُصلَّون).
(٢) النساء: «١١».

الوارث أبواه فقط وعين نصيب الأم عُلِم أن الباقي للأب، وكأنه قال: فلهما ما ترك أثلاثاً، وعلى هذا ينبغي أن يكون لها حيث كان معهما أحد الزوجين ثلث ما بقي من فرضه كما قاله الجمهور، لا ثلث المال كما قاله ابن عباس، فإنه يفضي إلى تفضيل الأنثى على الذكر المساوي لها في الجهة والقُرب وهو خلاف وضع الشرع. ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ﴾ بإطلاقه يدل على أن الإخوة يَرُدُّونها من الثلث إلى السدس وإن كانوا لا يرثون مع الأب. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنهم يأخذون السدس الذي حجَبُوا عنه الأم، والجمهور على أن المراد بالإخوة عدد ممن له إخوة من غير اعتبار التثليث سواء كان من الإخوة أو الأخوات، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لا يحجب الأم من الثلث ما دون الثلاثة ولا الأخوات الخلّص أخذا بالظاهر. وقرأ حمزة والكسائي فلإمّه بكسر الهمزة اتباعاً للكسرة التي قبلها. ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾ متعلق بما تقدمه من قسمة المواريث كلها أي هذه الأنصباء للورثة من بعد ما كان من وصية أو دين. وإنما قال بأو التي للإباحة دون الواو للدلالة على أنهما متساويان في الوجوب مقدمان على القسمة مجموعين ومنفردين، وقدم الوصية على الدّين وهي متأخِّرة في الحكم لأنها مشبَّهة بالميراث شاقة على الورثة مندوب إليها الجميع والدين إنما يكون على الندور. وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر بفتح الصاد[1]. ﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ﴾ أي لا تعلمون من أنفعُ لكم ممن يرثكم من أصولكم وفروعكم في عاجلكم وآجلكم، فتحروا فيهم ما أوصاكم الله به، ولا تعمدوا إلى تفضيل بعض وحرمانه. روي أن أحد المتوالدين إذا كان أرفع درجة من الآخَر في الجنة سأَلَ أن يُرفعَ إليه فيرفع بشفاعته. أو من مورثيكم منهم، أو مَنْ أوصى منهم فعرّضكم للثواب بإمضاء وصيته، أو مَنْ لم يوص فوفَّر عليكم ماله، فهو اعتراض مؤكد لأمر القسمة أو تنفيذ الوصية. ﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ مصدر مؤكد، أو مصدر يوصيكم الله لأنه في معنى يأمركم ويفرض عليكم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالمصالح والرتب. ﴿حَكِيمٗا﴾ فيما قضى وقدر.

۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾

(١٢) ﴿۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ﴾ أي ولد وارث من بطنها، أو من صلب بنيها أو بني بنيها، وإن سفُل ذكراً كان أو أنثى منكم أو من غيركم. ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن

(١) أي «يوصَى» بالبناء للمفعول.

كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ فرضَ للرجل بحق الزواج ضِعْفَ ما للمرأة كما في النَّسب، وهكذا قياس كل رجل وامرأة اشتركا في الجهة والقرب، ولا يستثنى منه إلا أولاد الأم والمعتِق والمعتِقة، وتستوي الواحدة والعدد منهم في الربع والثمن. ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ﴾ أي الميت. ﴿يُورَثُ﴾ أي يورث مِنْهُ مِنْ وَرِثَ صفةُ رجلٍ. ﴿كَلَٰلَةً﴾ خبر كان، أو يورث خبره وكلالة حالٌ من الضمير فيه، وهو من لم يُخَلِّف ولداً ولا والداً، أو مفعول له والمراد بها قرابة ليست من جهة الوالد والولد، ويجوز أن يكون الرجلُ الوارث ويُورَثُ من أَوْرَثَ، وكلالة من ليس له بوالد ولا ولد. وقرىء يورِث على البناء للفاعل فالرجل الميِّت، وكلالة تحتمل المعاني الثلاثة، وعلى الأول خبر أو حال وعلى الثاني مفعول له وعلى الثالث مفعول به، وهي في الأصل مصدر بمعنى الكَلاَل قال الأعشى:

فَآلَيْتُ لاَ أَرْثِي لَهَا مِنْ كَلاَلَةٍ ولاَ مِنْ حَفَا حَتى أُلاَقِي مُحَمَّداً

فاستعيرت لقرابة ليست بالبعضية، لأنها كالة بالإضافة إليها، ثم وصف بها المورِّث والوارث بمعنى ذي كلالة كقولك فلان من قرابتي. ﴿أَوِ ٱمْرَأَةٌ﴾ عطف على رجل. ﴿وَلَهُۥ﴾ أي وللرجل، واكتفي بحكمه عن حكم المرأة لدلالة العطف على تشاركهما فيه. ﴿أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ أي من الأم، ويدل عليه قراءة أبيّ[1] وسعد بن مالك وله أخ أو أخت من الأم، وأنه ذكر في آخر السورة أن للأختين الثلثين وللأخوة الكل، وهو لا يليق بأولاد الأم وأن ما قدر ههنا فَرْضُ الأم فيناسب أن يكون لأولادها. ﴿فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ﴾ سوى بين الذكر والأنثى في القسمة لأنّ الإدلاء بمحض الأنوثة، ومفهوم الآية أنهم لا يرثون ذلك مع الأم والجدة كما لا يرثون مع البنت وبنت الابن فخص فيه بالإجماع. ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ أي غير مضارّ لورثته بالزيادة على الثلث، أو قصد المضارة بالوصية دون القربة والإقرار بدينٍ لا يلزمُه، وهو حال من فاعل يوصى المذكور في هذه القراءة والمدلول عليه بقوله يوصى على البناء للمفعول في قراءة ابن كثير وابن عامر وابن عياش عن عاصم. ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد أو منصوب بغير مضار على المفعول به، ويؤيده أنه قرىء غير مضارِّ وصيةٍ بالإضافة أي لا يضار وصية من الله، وهو الثلث فما دونه بالزيادة، أو وصية منه بالأولاد بالإسراف في الوصية والإقرار الكاذب. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالمضار وغيره. ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل بعقوبته.

---

(١) أبيّ: هو أبيّ بن كعب، أبو المنذر، أو أبو الطفيل، شهد العقبة وبدراً، وهو أول من كتب لرسول الله ﷺ مقدمه المدينة، واختلف في وفاته على أقوال كثيرة، والأكثر أنه مات في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان أبيّ بن كعب سيد القراء، وأحد كتاب الوحي لرسول الله ﷺ وأعلم الصحابة بكتاب الله تعالى.
[أسد الغابة (١/ ٤٩ ـ ٥١)].

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ
حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ وَٱلَّـٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مِن
نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ
ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا
فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾

(١٣) ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الأحكام التي قدمت في أمر اليتامى والوصايا والمواريث. ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ﴾ شرائعه التي هي كالحدود المحدودة التي لا يجوز مجاوزتها. ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

(١٤) ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ توحيد الضمير في يدخله وجَمْعُ خالدين للفظ والمعنى[1]. وقرأ نافع وابن عامر نُدْخِلْه بالنون. وخالدين حال مقدرة كقولك: مررت برجل معه صقر صائداً به غداً، وكذلك خالداً وليستا صفتين لجنات وناراً وإلا لوجب إبرازُ الضمير لأنهما جرَيَا على غير من هُما لَهُ.

(١٥) ﴿وَٱلَّـٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ أي يفعلنها، يقال: أتى الفاحشة وجاءها وغَشِيَها ورهقها إذا فعلها، والفاحشة الزنى لزيادة قبحها وشناعتها. ﴿فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ﴾ فاطلبوا ممن قَذَفهنّ أربعةً من رجال المؤمنين تشهد عليهن. ﴿فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ﴾ فاحبسوهن في البيوت واجعلوها سجناً عليهن. ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ﴾ يستوفي أرواحهن الموتُ، أو يتوفاهن ملائكةُ الموت. قيل: كان ذلك عقوبتهن في أوائل الإسلام فنُسخ بالحدّ، ويحتمل أن يكون المراد به التوصيةُ بإمساكهنّ بعد أن يُجْلدن كيلا يجري عليهن ما جرى بسبب الخروج والتعرض للرجال، لم يُذْكَرَ الحدُّ استغناءً بقوله تعالى ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾[2] ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ كتعيين الحدّ المخلص عن الحبس، أو النكاح المغني عن السفاح.

(١٦) ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ﴾ يعني الزانية والزاني. وقرأ ابن كثير واللذانّ بتشديد النون وتمكين مد الألف، والباقون بالتخفيف من غير تمكين. ﴿فَـَٔاذُوهُمَا ۖ﴾ بالتوبيخ والتقريع، وقيل بالتعيير والجَلْد. ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ﴾ فاقطعوا عنهما الإيذاء، أو أعرضوا عنهما بالإغماض والستر. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ علةُ الأمر بالإعراض وترك المذمة. قيل هذه الآية سابقة على الأولى نزولاً وكان عقوبة الزنا الأذى ثم الحبس ثم الجلد. وقيل الأولى في السَّحَاقات، وهذه في اللوّاطين، والزانية والزاني في الزناة.

---

(١) وذلك أن الخلود في دار الثواب بصفة الاجتماع أجلب للأنس فقال: «خالدين» أما الخلود في دار العذاب بصفة الانفراد أشد في استجلاب الوحشة، فقال «خالداً» (س٢/ ١٥٤).
(٢) النور: «٢».

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾

(١٧) ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي إن قبول التوبة كالمحتوم على الله بمقتضى وعده مِنْ تاب عليه إذا قَبِل توبته. ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ متلبسين بها سفهاً فإن ارتكاب الذنب سفهٌ وتجاهل، ولذلك قيل من عصى الله فهو جاهل حتى ينزع عن جهالته. ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ من زمان قريب، أي قبل حضور الموت لقوله تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾[١] وقوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله يقبل توبة عبده ما لم يغرغر»[٢] وسماه قريباً لأن أمد الحياة قريب لقوله تعالى ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[٣]. أو قبل أن يشرب في قلوبهم حبّه فيطبعَ عليها فيتعذر عليهم الرجوع، ومِنْ للتبعيض أي يتوبون في أي جزء من الزمان القريب الذي هو ما قبل أن ينزل بهم سلطان الموت، أو يزين السوء. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ﴾ وعد بالوفاء بما وعد به وكَتَب على نفسه بقوله ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ فهو يعلم بإخلاصهم في التوبة ﴿حَكِيمًا﴾ والحكيم لا يعاقب التائب.

(١٨) ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ﴾ سوّى بين من سوف يتوب إلى حضور الموت من الفسقة والكفار وبين من مات على الكفر في نفي التوبة للمبالغة في عدم الاعتداد بها في تلك الحالة، وكأنه قال وتوبة هؤلاء وعدمُ توبة هؤلاء سواء. وقيل المراد بالذين يعملون السوء عُصاة المؤمنين، وبالذين يعملون السيئات

---

(١) النساء: «١٨».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/٣٠١ ـ ٣٠٢) من حديث أبي أيوب واسمه «بشير بن كعب» وهو تابعي. فالحديث مرسل.

● وأخرج الترمذي (٥/٥٤٧ رقم ٣٥٣٧) وابن ماجة (٢/١٤٢٠ رقم ٤٢٥٣) والحاكم (٤/٢٥٧) وأحمد (٢/١٣٢، ١٥٣) كلهم من طريق عبدالرحمن بن ثابت بن ثوبان عن أبيه عن مكحول عن جبير بن نفير عن ابن عمر، وإلا عند ابن ماجة عن (عبدالله بن عمرو بن العاص) وقال المزي: هذا وهم ـ تحفة الأشراف (٥/٣٢٨) ـ.

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وقال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٢/٣٤٨ رقم ١٥٢٣): «هذا إسناد ضعيف لتدليس الوليد ومكحول الدمشقي. . .» هـ.

وللحديث شاهدين:

(الأول): أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/٣٠١) عن الحسن مرسلاً.

(والثاني): أخرجه أحمد (٥/١٧٤) والحاكم (٤/٢٥٧) من حديث أبي ذر مرفوعاً.

قلت: فبهذين الشاهدين يرتقي حديث ابن عمر إلى درجة الحسن والله أعلم.

(٣) النساء: «٧٧».

المنافقون لتضاعف كفرهم وسوء أعمالهم، وبالذين يموتون الكفار. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ تأكيد لعدم قبول توبتهم وبيانُ أن العذاب أعده لهم لا يعجزه عذابهم متى شاء، والاعتداد التهيئة من العتاد وهو العدة، وقيل أصله أعددنا فأبدلت الدال الأولى تاء[1].

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾

(١٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ﴾ كان الرجل إذا مات وله عصبة ألقى ثوبه على امرأته وقال: أنا أحق بها ثم إن شاء تزوجها بصَدَاقها الأول، وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقها، وإن شاء عَضَلها لتفتدي بما ورثت من زوجها، فنهوا عن ذلك. وقيل: لا يحل لكم أن تأخذوهن على سبيل الإرث فتتزوجوهن كارهات لذلك أو مكرهات عليه. وقرأ حمزة والكسائي كُرْهاً بالضم في مواضعه وهما لغتان، وقيل بالضمّ المشقة وبالفتح ما يُكره عليه. ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ عطف على أن ترثوا، ولا لتأكيد النفي أي ولا تمنعوهن من التزويج، وأصل العَضْل التضييق يقال عَضَلَت الدجاجةُ ببيضها. وقيل الخطاب مع الأزواج كانوا يحبسون النساء من غير حاجة ورغبة حتى يرثوا منهن أو يختلعن بمهورهن. وقيل تم الكلام بقوله كَرْهاً ثم خاطب الأزواج ونهاهم عن العضل[2]. ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ﴾ كالنشوز وسوء العشرة وعدم التعفف، والاستثناء من أعمِّ عامّ الظرف أو المفعول له تقديره ولا تعضلوهن للافتداء إلا وقت أن يأتين بفاحشة، أو ولا تعضلوهن لعلة إلا أن يأتين بفاحشة. وقرأ ابن كثير وأبو بكر مُبَيَّنة هنا وفي الأحزاب والطلاق بفتح الياء والباقون بكسرها فيهن. ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾ بالإنصاف في الفعل والإجمال في القول. ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أي فلا تفارقوهن لكراهة النفس فإنها قد تكره ما هو أصلح ديناً وأكثر خيراً، وقد تحب ما هو بخلافه. وليكن نظركم إلى ما هو أصلح للدين وأدنى إلى الخير، وعسى في الأصل علة الجزاء فأقيم مقامَه. والمعنى فإن كرهتموهن فاصبروا عليهن فعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.

(٢٠) ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ تطليق امرأة وتزوُّج أخرى. ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ﴾ أي إحدى الزوجات، جَمَع الضمير لأنه أراد بالزوج الجنس. ﴿قِنطَارًا﴾ مالاً كثيراً. ﴿فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ

---

(١) الإشارة بأولئك لبيان بعد منزلتهم في السوء. وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لإظهار الاعتناء بكون العذاب معداً لهم. وتنكيرُ العذاب ووصفُه للتفخيم الذاتي والوصفي (س٢/١٥٧).

(٢) وعبر عنه بالإذهاب لا بالأخذ للمبالغة في تقبيحه ببيان تضمنه لأمرين كل منهما محظور وهما الأخذ والإذهاب منهن لأنه عبارة عن الذهاب مستَصحباً به (س٢/١٥٨).

شَيْـًٔا﴾ أي من قنطار. ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ استفهام إنكارٍ وتوبيخ، أي أتأخذونه باهتين وآثمين، ويحتمل النصب على العلة كما في قولك: قعدت عن الحرب جبناً، لأن الأخذ بسبب بهتانهم واقترافهم المآثم. قيل لكان الرجل منهم إذا أراد امرأة جديدة بَهَت التي تحته بفاحشة حتى يُلْجِئها إلى الافتداء منه بما أعطاها ليَصْرِفه إلى تزوج الجديدة، فنُهوا عن ذلك والبهتان الكذب الذي يَبْهَتُ المكذوب عليه، وقد يستعمل في الفعل الباطل ولذلك فسر ههنا بالظلم.

وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾

(٢١) ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ إنكار لاسترداد المهر، والحالُ أنه وصل إليها بالملامسة ودخل بها وتقرر المهر. ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ عهداً وثيقاً، وهو حق الصحبة والممازحة، أو ما أوثق الله عليهم في شأنهن بقوله ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾[(١)] أو ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله»[(٢)].

(٢٢) ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾ ولا تنكحوا التي نكحها آباؤكم، وإنما ذكر «ما» دون «مِنْ» لأنه أريد به الصفة، وقيل ما مصدرية على إرادة المفعول من المصدر. ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ بيان ما نكح على الوجهين. ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ﴾ استثناء من المعنى اللازم للنهي وكأنه قيل: وتستحقون العقاب بنكاح ما نكح آباؤكم إلا ما قد سلف، أو مِنَ اللفظِ للمبالغة في التحريم والتعميم كقوله:

---

(١) البقرة: «٢٢٩».

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ٨٨٩ رقم ١٤٧/ ١٢١٨) في سياق حديث حجة النبي ﷺ، الطويل. من حديث جابر.

وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ٣١١) مقتصراً على ما يتعلق بالنساء من حديث جابر أيضاً.

● وأخرجه البزار (٢/ ٣٤ ـ كشف الأستار) أثناء حديث خطبة منى.

وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣/ج٤/ ٣١١) في سياق طويل.

من رواية موسى بن عبيدة الربذي ـ أحد الضعفاء ـ عن صدقة بن يسار، عن ابن عمر، رفعه: «أيها الناس إن النساء عوان في أيديكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله».

وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٢٦٨) وقال: رواه البزار وفيه عبيدالله بن موسى وهو ضعيف.

ـ العوان: جمع عانية وهي الأسيرة. [النهاية مادة: عنا]

ـ كلمة الله: قيل: معناه قوله تعالى «بإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان»، وقيل: المراد بكلمة التوحيد إذ لا تحل مسلمة لغير مسلم.

وقيل قوله: قوله تعالى «فانكحوا ما طاب لكم من النساء» وهذا الثالث هو الصحيح. [صحيح مسلم بشرح النووي (٨/ ١٨٣)].

ولاَ عَيْبَ فِيهِمْ غيرَ أَنَّ سُيُوفَهُم		بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ

والمعنى ولا تنكِحوا حَلائلَ آبائكم إلا ما قد سلف إن أمكنكم أن تنكحوهن، وقيل الاستثناء منقطع ومعناه لكن ما قد سلف فإن لا مؤاخذة عليه لأنه مقرر. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا﴾ علة للنهي أي إن نكاحَهن كان فاحشة عند الله ما رخَّص فيه لأمةٍ من الأمم، ممقوتاً عند ذوي المروءات ولذلك سمي ولد الرجل من زوجة أبيه المَقْتِيّ ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ سبيلُ من يراه ويفعلُه.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾

(٢٣) ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ ليس المراد تحريم ذواتهن بل تحريم نكاحهن، لأنه معظم ما يُقصد منهن، ولأنه المتبادر إلى الفهم كتحريم الأكل من قوله ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ ولأن ما قبله وما بعده في النكاح. وأمهاتُكم تعمُّ مَنْ ولدَتْكَ أو ولَدتْ من وَلَدكَ وإن عَلَتْ، وبناتُكم تتناول من وَلَدْتَهَا أو وَلَدْتَ مَنْ وَلَدَهَا وإن سفُلت، وأخواتُكم الأخوات من الأوجهِ الثلاثة، وكذلك الباقيات، والعمةُ كل أنثى وَلَدَهَا مَنْ وَلَدَ ذَكَراً وَلَدَكَ، والخالةُ كل أنثى وَلَدَهَا مَنْ وَلَدَ أنثى وَلَدَتْكَ قريباً أو بعيداً، وبنات الأخ وبنات الأخت تتناول القُربى والبُعدى. ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ نَزَّلَ اللهُ الرَّضاعة منزلةَ النسب حتى سمّى المرضِعَةَ أمّاً والمُرْضَعَةَ أختاً، وأَمَرُها على قياس النسب باعتبار المُرْضِعَة والدِ الطفل الذي دَرَّ عليه اللبن، قال عليه الصلاة والسلام: «يَحْرُم من الرَّضاع ما يحرم من النسب»[1]. واستثناء أخت ابن الرجل وأمّ أخيه من الرضاع من هذا الأصل ليس بصحيح فإن حُرمتُهما من النسب بالمصاهرة دون النسب. ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ ذَكَر أولاً محرمات النسب، ثم محرمات الرضاعة لأن لها لُحمةً كلُحمة النسب، ثم محرمات المصاهرة فإن تحريمهن عارض لمصلحة الزواج. والربائبُ جمع ربيبة، والربيبُ ولد المرأة من آخر سمّي به لأنه يَرُبُّه كما يَرُبّ ولدَه في غالب الأمر، فعيل بمعنى مفعول، وإنما لحقه التاء لأنه صار اسماً، ومن نسائكم متعلق بربائبكم، واللاتي بصِلتِها صفةٌ لها مقيِّدة للفظ والحُكم بالإجماع قضية للنظم،

(١) أخرجه البخاري (٥/ ٢٥٣ رقم ٢٦٤٦) و (٦/ ٢١١رقم ٣١٠٥) و (٩/ ١٣٩ رقم ٥٠٩٩) ومسلم (٢/ ١٠٦٨ ـ ١٠٧٠ رقم ١، ٢، ٩/ ١٤٤٤) من حديث عائشة.
وأخرجه البخاري (٥/ ٢٥٣رقم ٢٦٤٥) ومسلم (٢/ ١٠٧١ ـ ١٠٧٢ رقم ١٢، ١٣/ ١٤٤٧) من حديث ابن عباس.

ولا يجوز تعليقُها بالأمهات أيضاً لأنّ مِنْ إذا علقتَها بالربائب كانت ابتدائيةً وإذا علقتها بالأمهات لم يُجْزَ ذلك بل وجَبَ أن يكون بياناً لنسائكم، والكلمةُ الواحدة لا تُحمَل على معنيين عند جمهور الأدباء اللهم إذا جعلتها للاتصالِ كقوله:

إذَا حَـاوَلْـتَ فِـي أَسَـدٍ فُجُـوراً فـإنِّـي لَسْـتُ مِنْـكَ وَلَسْـتَ مِنـي

على معنى أن أمهاتِ النساء وبناتهن متصلات بهن، لكنّ الرسول ﷺ فرق بينهما فقال في رجل تزوج امرأة وطلقها قبل أن يَدخل بها «إنه لا بأس أن يتزوج ابنتها ولا يحل له أن يتزوج أمها»[(١)]، وإليه ذهب عامة العلماء، غير أنه روي عن علي رضي الله تعالى عنه تقييدُ التحريم فيهما. ولا يجوز أن يكون الموصول الثاني صفة للنساءَيْن لأن عاملهما مختلف ـ وفائدة قوله في حجوركم تقويةُ العلة وتكميلها ـ والمعنى أن الربائب إذا دخلتم بأمهاتهن وهن في احتضانكم أو بصدده تقوى الشُّبَهُ بينها وبين أولادكم وصارت أحقاء بأن تُجْروها مجراهم لا تقييد الحرمة، وإليه ذهب جمهور العلماء، وقد روي عن علي رضي الله تعالى عنه أنه جعله شرطاً، والأمهات والربائب يتناولان القريبة والبعيدة. وقوله دخلتم بهن أي دخلتم معهن السِتْر وهي كناية عن الجماع، ويؤثّرُ في حرمة المصاهرة ما ليس بزنا كالوطء بشبهة أو ملك يمين، وعند أبي حنيفة لمس المنكوحة ونحوه كالدخول. ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ تصريح بعد إشعار دفعاً للقياس. ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ﴾ زوجاتهم، سميت الزوجة حليلة لحِلِّها أو لحلولها مع الزوج. ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ احتراز عن المتبنين لا عن أبناء الولد ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ في موضع الرفع عطفاً على المحرمات، والظاهرُ أن الحرمة غير مقصورة على النكاح فإن المحرمات المعدودة كما هي محرمة في النكاح فهي محرمة في ملك اليمين، ولذلك قال عثمان وعلي رضي الله تعالى عنهما: حرَّمتْهما آيةٌ وأحلَّتهما آية[(٢)]، يعنيان هذه الآية وقولَه ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، فرجّح علي كرم الله وجهه التحريمَ وعثمانُ رضي

---

(١) أخرجه أبو قرّة موسى بن طارق الزَّبِيْدي ـ ثقة يغرب (التقريب: ٢/ ٢٨٤) ـ في السنن، قال ذكر المثنى بن الصباح ـ ضعيف اختلط بآخره (التقريب: ٢/ ٢٢٨) ـ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. رفعه «أيما رجل نكح امرأة فدخل بها فلا يحل له نكاح ابنتها وإن لم يكن دخل بها فلينكح ابنتها. وأيما رجل نكح امرأة فدخل بها أو لم يدخل فلا يحل له نكاح أمها».
وأخرجه أبو يعلى والبيهقي ـ في السنن الكبرى (٧/ ١٦٠) ـ من طريق ابن المبارك عن المثنى به. والمثنى ضعيف.
لكن رواه الترمذي ـ في السنن (٣/ ٤٢٥ رقم ١١١٧) ـ والبيهقي ـ (٧/ ١٦٠) ـ أيضاً من طريق ابن لهيعة عن عمرو به. وقال: لا يصح، وإنما يرويه المثنى وابن لهيعة وهما ضعيفان.
ويشبه أن يكون ابن لهيعة أخذه عن المثنى لأن أبا حاتم قال ـ في المراسيل ص١١٤ ـ لم يسمع ابن لهيعة بن عمرو بن شعيب شيئاً.
فلهذا لم يرتق هذا الحديث إلى درجة الحسن.
[انظر «الكافي الشافِ» (رقم: ٣٣٧)].

(٢) حديث عثمان أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٥٣٨ ج٣٤) وابن أبي شيبة في المصنف (٤/ ١٦٩) والدارقطني في السنن (٣/ ٢٨١). أما حديث علي فرواه البزار (كشف الأستار ٢/ ١٦٦) وابن أبي شيبة في المصنف (٤/ ١٦٩) =

الله عنه التحليلَ، وقولُ عليٍّ أظْهَرُ لأن آية التحليل مخصوصة في غير ذلك ولقوله عليه الصلاة والسلام «ما اجتمع الحلال والحرام إلا غلب الحرام»(١). ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ﴾ استثناء من لازمِ المعنى، أو منقطعٌ معناه لكن ما قد سلف مغفور لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾.

﴿۞ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٢٤﴾

(٢٤) ﴿۞ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ ذواتُ الأزواج، أحصنهن التزويج أو الأزواج. وقرأ الكسائي بكسر الصاد في جميع القرآن لأنهن أحْصَنّ فروجَهن. ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ﴾ يريد ما ملكت أيمانكم من اللاتي سُبِين ولهن أزواج كفار فهن حلالٌ للسابين، والنكاحُ مرتفِع بالسبْيِ لقول أبي سعيد رضي الله تعالى عنه: أصبنا سبايا يوم أوطاس(٢) ولهن أزواج كفار، فكرهنا أن نقع عليهن فسألنا النبي ﷺ، فنزلت الآية فاستحللناهنّ(٣). وإياه عنى الفرزدقُ بقوله:

وذَاتِ حَلِيـلٍ أَنْكَحَتْهَـا رِمَـاحُنَـا ... حَـلاَلٌ لِمَـنْ يَبْنِـي بِهَـا لَـمْ تُطَلَّـقِ

وقال أبو حنيفة: لو سُبِي الزوجان لم يرتفع النكاح ولم تَحُلّ للسابي. وإطلاق الآية والحديث حجة عليه. ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ مصدر مؤكد، أي كَتَبَ الله عليكم تحريم هؤلاء كتاباً. وقرىء كُتُبُ الله بالجمع والرفع أي هذه فرائض الله عليكم، وكَتَبَ اللهُ بلفظ الفعل. ﴿وَأُحِلَّ لَكُم﴾ عطف على الفعل المضمر الذي نَصَبَ كتاب الله(٤). وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم على البناء للمفعول عطفاً على حرمت. ﴿مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ﴾ ما سوى المحرمات الثمان المذكورة. وخُصّ عنه بالسنة ما في معنى المذكورات، كسائر محرمات الرضاع والجمع بين المرأة وعمتها وخالتها. ﴿أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ﴾ مفعول له والمعنى أحِل لكم ما وراء ذلكم إرادة أن تبتغوا النساء بأموالكم بالصرف في مهورهن، أو أثمانَهن في حال كونكم محصِنين غير مسافحين، ويجوز أن لا يُقدَّر مفعول تبتغوا وكأنه قيل إرادة أن تصرفوا أموالكم محصنين غير مسافحين، أو بدل مما وراء ذلك بدل الاشتمال. واحتج به الحنفية على أن المهر لا بد وأن يكون مالاً، ولا حُجة فيه. والإحصانُ العفة فإنها تحصين

= وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح (المجمع ٤/ ٢٦٩).

(١) قال الولي العراقي: لا أصل لهذا الحديث (الفتح السماوي ص٤٧٤) وكذا قال البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ١٦٩) وقد رواه عبدالرزاق في المصنف (٧/ ١٩٩ ج١٢٧٧٢) موقوفاً.

(٢) أوطاس هو واد في ديار هوازن جنوبي مكة بنحو ثلاث مراحل، وكان يوم أوطاس في شوال بعد فتح مكة بنحو شهر (المصباح المنير مادة وطس).

(٣) أسباب النزول للواحدي ص١٠٩ ولباب النقول ص٢٢١.

(٤) وهذا على معنى من قرأ «وأَحَلّ» بالبناء للفاعل وقد قرىء بها (المبسوط ص١٥٦).

للنفس عن اللوم والعقاب، والسفاح الزنا من السَّفْح وهو صبُّ المني فإنه الغرض منه. ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾ فمَنْ تمتعتم به من المنكوحات، أو فما استمعتم به منهن من جماع أو عُقِد عليهن. ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن فإن المهر في مقابلة الاستمتاع. ﴿فَرِيضَةً﴾ حال من الأجور بمعنى مفروضة، أو صفة مصدر محذوف أي إيتاءً مفروضاً، أو مصدرٌ مؤكِّد. ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾ فيما يزاد على المسمّى أو يحط عنه بالتراضي، أو فيما تراضيا به من نفقة أو مقام أو فِراق. وقيل: نزلت الآية في المُتْعة التي كانت ثلاثة أيام حين فتحت مكة ثم نسخت، لما روي أنه عليه الصلاة والسلام أباحها ثم أصبح يقول: «يا أيها الناس إني كنت أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء ألا إن الله حرم ذلك إلى يوم القيامة»[١]، وهي النكاح المؤقت بوقت معلوم سمي بها، إذ الغرض منه مجرد الاستمتاع بالمرأة أو تمتيعها بما تعطي. وجوزها ابن عباس رضي الله عنهما ثم رجع عنه[٢].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢/ ١٠٢٥ رقم ٢١/ ١٤٠٦) من رواية الرَّبيع بن سَبْرة الجُهَني عن أبيه.
وزاد «فمن كان عِنْدَهُ منهنَّ شيءٌ فليُخَلِّ سبيله، ولا تأخذوا مما آتيتموهُنَّ شيئاً».
● وأما قوله: ثم أصبح: لم يُرِد به أنه قال ذلك صبيحة الليلة التي أباحه قبلها بيوم، بل أراد أنه قال ذلك صباحاً («الكافي الشافِ» رقم: ٣٤١).

(٢) أما رجوعه عن المتعة، فحديثه ضعيف.
أخرجه الترمذي (٣/ ٤٣٠ رقم ١١٢٢) والطبراني في الكبير (١٠/ ٣٨٩ رقم ١٠٧٨٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦) كلهم من طريق موسى بن عبيدة الربذي وهو ضعيف.
● وأما قوله: «اللهم إني أتوب إليك من قولي بالمتعة» فلم أجده. قاله ابن حجر في «الكافي الشافِ» (رقم: ٣٤٤).
● وإليك بعض أدلة تحريم نكاح المتعة:
١ ـ روى سَبْرة الجُهَنِيُ قال: «أذن لنا رسولُ الله ﷺ في المُتْعَةِ، فلم يخرج من مكة حتى حرَّمَها رسول الله ﷺ» وهو حديث صحيح.
أخرجه مسلم (٢/ ١٠٢٦، ١٠٢٧ رقم ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٨/ ١٤٠٦) وأحمد في المسند (٣/ ٤٠٤) والدارمي (٢/ ١٤٠) وأبو داود (٢/ ٥٥٨، ٥٥٩ رقم ٢٠٧٢، ٢٠٧٣) والنسائي (٦/ ١٢٦، ١٢٧) وابن ماجة (١/ ٦٣١ رقم ١٩٦٢) وابن الجارود في المنتقى (رقم ٦٩٨ ورقم ٦٩٩) وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٣٦٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٢٠٢، ٢٠٣) والخطيب في تاريخ بغداد (٦/ ١٠٥، ١٠٦) من طرق عنه.
وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «إنَّ رسولَ الله ﷺ نهى عن المتعة يوم خيبر» أخرجه البخاري (٧/ ٤٨١ رقم ٤٢١٦) ومسلم (٢/ ١٠٢٧، ١٠٢٨ رقم ٢٩، ٣٢/ ١٤٠٧) والترمذي (٣/ ٤٢٩ رقم ١١٢١) والنسائي (٦/ ١٢٥، ١٢٦) وابن ماجة (١/ ٦٣٠ رقم ١٩٦١) ومالك في الموطأ (٢/ ٥٤٢ رقم ٤١) والطيالسي في المسند (ص١٨ رقم ١١١) وأحمد في المسند (١/ ٧٩) والدارمي (٢/ ١٤٠) وابن الجارود في المنتقى رقم (٦٩٧) والدارقطني في السنن (٣/ ٢٥٧ رقم ٥١) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ١٧٧) والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٢٠١) والخطيب في تاريخ بغداد (٦/ ٨٠٢) من طرق عنه..
قال ابن الجوزي في «أخبار أهل الرسوخ» بتحقيقنا (رقم ١٥): الأحاديث متفقة على نسخ المتعة، إلاّ أن الأوائل تدل على وقوع التحريم بمكة. وحديث علي يدل على أن ذلك كان بخيبر وهو متقدم...
«وقال المازري: واختلفت الرواية في صحيح مسلم في النهي عن المتعة ففيه أنه ﷺ نهى عنها يوم خيبر، وفيه أنه نهى عنها يوم فتح مكة فإن تعلق بهذا من أجاز نكاح المتعة وزعم أن الأحاديث تعارضت، وأن هذا الاختلاف=

وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا ﴾ بالمصالح. ﴿ حَكِيمًا ﴾ فيما شرع من الأحكام.

(٢٥) ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا ﴾ غنًى واعتلاءً، وأصلُه الفضل والزيادة. ﴿ أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ في موضع النصب بطولاً، أو بفعل مقدَّرٍ صفةً له أي ومن لم يستطع منكم أن يعتلي نكاح المحصنات أو من لم يستطع منكم غنًى يبلُغ به نكاحَ المحصنات يعني الحرائر لقوله: ﴿ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ يعني الإماء المؤمنات. فظاهرُ الآية حجة للشافعي رضي الله تعالى عنه في تحريم نكاح الأمة على من مَلَكَ ما يجعلُه صداق حرة، ومَنْعُ نكاح الأمة الكتابية مطلقاً، وأوّلَ أبو حنيفة رحمه الله تعالى طَوْلَ المحصَنات بأن يملِكَ فراشهن، على أن النكاح هو الوطء وحَمَل قوله ﴿ مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾[1] على الأفضل، كما حمل عليه في قوله ﴿ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾. ومِنْ أصحابنا مَنْ حمله أيضاً على التقييد وجوّز نكاح الأمة لمن قدر على الحرة الكتابية دون المؤمنة حذراً عن مخالطة الكفار وموالاتهم، والمحذور في نكاح الأَمَة رقُّ الولد وما فيه من المهانة ونقصان حق الزوج. ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ﴾ فاكتفوا بظاهر الإيمان فإنه العالم بالسرائر وبتفاضل ما بينكم في الإيمان، فربّ أَمَةٍ تفضُل الحرة فيه، ومن حقكم أن تعتبروا فضل الإيمان لا فضل النسب، والمراد

= قادح فيها. قلنا: هذا الزعم خطأ وليس هذا تناقضاً لأنه يصح أن ينهى عنه في زمن ثم ينهى عنه في زمن آخر توكيداً أو ليشتهر النهي ويسمعه من لم يكن سمعه أولاً فسمع بعض الرواة النهي في زمن وسمعه آخرون في زمن آخر فنقل كلاً منهم ما سمعه وأضافه إلى زمان سماعه» اهـ أورده النووي في شرح مسلم (٩/ ١٧٩).

«وأما قول الله عز وجل في سورة النساء (الآية: ٢٤) ـ بعقب ما حرم من النساء ـ فقال: «وأُحِلَّ لكم ما وراءَ ذلِكُمْ أن تبتغُوا بأموالكم محصنينَ غير مسافحين ـ أي عاقدي النكاح الحلال غير زناة ـ فما استمتعتم به منهنَّ فآتوهُنَّ أجُورَهنَّ فريضةً». فإن الزجاج ذكر أنَّ هذه آية غلط فيها قوم غلطاً عظيماً لجهلهم باللغة، وذلك أنهم ذهبوا إلى قوله «فما استمتعتم به منهنَّ» من المتعة التي قد أجمع أهل العلم أنها حرام، وإنما معنى فما استمتعتم به منهنَّ، فما نكحتم منهن على الشريعة التي جرى في الآية أنه الإحصان أن تبتغوا بأموالكم محصنين أي عاقدين التزويج أي فيما استمتعتم به منهـن على عقد التزويج الذي جرى ذكره فآتوهنَّ أجورهنَّ فريضة أي مهورهن، فإن استمتع بالدخول بها أتى المهر تاماً، وإن استمتع بعقد النكاح أتى نصف المهر.

قال الأزهري: المتاع في اللغة كل ما انتفع به فهو متاع، وقوله «ومتعوهُنَّ على الموسِع قَدَرُهُ» ـ [البقرة: ٢٣٦] ـ ليس بمعنى زودوهنَّ المُتَعَ، إنما معناه أعطوهن ما يَسْتمتِعْنَ، وكذلك قوله: «وللمطلقاتِ متاعٌ بالمعروف» ـ [البقرة: ٢٤١] ـ قال: ومن زعم أن قوله فما استمتعتم به منهن التي هي الشرط في التمتع الذي يفعله الرافضة، فقد أخطأ خطأً عظيماً لأن الآية واضحة بينة» اهـ ذكره ابن منظور في لسان العرب (١٣/ ١٤ ـ ١٥).

(١) النساء: «٢٥».

تأنيسهم بنكاح الإماء ومنعهم عن الاستنكاف منه، ويؤيده: ﴿ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍۚ ﴾ أنتم وأرقاؤكم متناسبون نَسَبُكم من آدم ودينكم الإسلام. ﴿ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ﴾ يريد أربابهن، واعتبارُ إذنهم مطلقاً لا إشعار له على أنّ لهنّ أنْ يباشرْن العقد بأنفسهم حتى يحتج به الحنفية. ﴿ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ أي أدوا إليهن مهورهن بإذن أهلهن، فحُذِف ذلك لتقدم ذكره، أو إلى مواليهن فحُذف المضاف للعلم بأن المهر للسيد لأنه عِوَضُ حقِّه فيجب أن يؤدى إليه، وقال مالك رضي الله عنه: المهر للأمة، ذهاباً إلى الظاهر ﴿ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ بغير مطل وإضرار ونقصان. ﴿ مُحْصَنَٰتٍ ﴾ عفائف. ﴿ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ ﴾ غير مجاهرات بالسفاح. ﴿ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍۚ ﴾ أخلاء في السرّ ﴿ فَإِذَآ أُحْصِنَّ ﴾ بالتزويج. قرأ أبو بكر وحمزة بفتح الهمزة والصاد والباقون بضم الهمزة وكسر الصاد. ﴿ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ ﴾ زنى. ﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ ﴾ يعني الحرائر. ﴿ مِنَ ٱلْعَذَابِۚ ﴾ من الحدّ لقوله تعالى ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] وهو يدل على أن حد العبد نصفُ حدِّ الحر، وأنه لا يُرجم لأن الرجم لا يتنصف. ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي نكاح الإماء. ﴿ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْۚ ﴾ لمن خاف الوقوع في الزنى، وهو في الأصل انكسار العَظْم بعد الجَبْر، مستعار لكل مشقة وضرر ولا ضررَ أعظمُ من مواقعة الإثم بأفحش القبائح. وقيل: المراد به الحد وهذا شرط آخر لنكاح الإماء. ﴿ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْۗ ﴾ أي وصبركم عن نكاح الإماء متعففين خير لكم. قال عليه الصلاة والسلام «الحرائر صلاح البيت والإماء هلاكه»[2]. ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ ﴾ لمن لم يصبر. ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بأن رَخَّص له.

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٢٦ ﴾

(٢٦) ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ ما تعبدكم به من الحلال والحرام، أو ما خفي عنكم من مصالحكم ومحاسن أعمالكم، وليبين مفعول يريدُ، واللام زيدت لتأكيد معنى الاستقبال اللازم للإرادة كما في قول قيس بن سعد[3].

أَرَدْتُ لِكَيْمَا يَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّهُ   سَرَاوِيلُ قَيْسٍ وَالوُفُودُ شُهُودُ

وقيل المفعول محذوف، وليبينَ مفعول له أي يريد الحق لأجله. ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ مناهج مَنْ تقدمكم من أهل الرشد لتسلكوا طرقهم. ﴿ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْۗ ﴾ ويغفر لكم ذنوبكم، أو يرشدكم إلى ما يمنعكم عن المعاصي ويحثكم على التوبة، أو إلى ما يكون كفارةً لسيئاتكم. ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بها ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في وضعها.

---

(١) النور: «٢».

(٢) عزاه السيوطي في الجامع الصغير رقم (٣٨١١) للديلمي في مسند الفردوس عن أبي هريرة، ورمز لضعفه.
وقال المناوي في «فيض القدير شرح الجامع الصغير» (٣/ ٤١١): قال السخاوي وغيره وفيه متروك.
وحكم الألباني على الحديث بالوضع في «ضعيف الجامع الصغير» (٣/ ١١٠ رقم ٢٧٧٦).

(٣) هو قيس بن سعد بن عبادة، الأمير المجاهد أبو عبدالله سيد الخزرج وابن سيدهم أبي ثابت الأنصاري الخزرجي الساعدي صاحب رسول الله ﷺ وابن صاحبه له عدة أحاديث.
وتوفي في آخر خلافة معاوية رضي الله عنه [أسد الغابة (٤/ ٤٢٤) الجرح والتعديل (٧/ ٩٩)].

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

(٢٧) ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ كرره للتأكيد والمبالغة. ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ يعني الفجرة فإن اتباع الشهوات الائتمار لها، وأما المتعاطي لما سوّغه الشرع منها دون غيره فهو متبع له في الحقيقة لا لها. وقيل: المجوس. وقيل: اليهود فإنهم، يُحِلون الأخوات من الأب وبنات الأخ وبنات الأخت. ﴿أَن تَمِيلُوا۟﴾ عن الحق بموافقتهم على اتباع الشهوات واستحلال المحرمات. ﴿مَيْلًا عَظِيمًا﴾ بالإضافة إلى ميل من اقترف خطيئة على ندور غير مستحلّ لها[1].

(٢٨) ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ فلذلك شرع لكم الشّرْعة الحنيفية السمحة السهلة، ورخص لكم في المضايق كإحلال نكاح الأمَة. ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ لا يصبر عن الشهوات ولا يتحمل مشاق الطاعات. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ثمان آيات في سورة النساء هن خير لهذه الأُمَّة مما طلعت عليه الشمس وغربت، هذه الثلاث و﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾[2]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾[3]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[4]، ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[5]، ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾[6].[7]

(٢٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ بما لم يبحه الشرعُ كالغصب والربا والقمار. ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ استثناء منقطع أي ولكن كونُ تجارةٍ عن تراض غيرُ منهي عنه، أو اقصدوا كونَ تجارة وعَنْ تراضٍ صفةٌ لتجارةٍ أي تجارة صادرة عن تراضي المتعاقدين، وتخصيصُ التجارة من الوجوه التي بها يَحِل تناول مال الغير لأنها أغلب وأرفق لذوي المروءات، ويجوز أن يراد بها الانتقال مطلقاً. وقيل: المراد بالنهي المنعُ عن صرف المال فيما لا يرضاه الله، وبالتجارة صرفهُ فيما يرضاه. وقرأ الكوفيون تجارةً بالنصب على كان الناقصة وإضمار الاسم أي إلا أن تكون التجارةُ أو الجهة تجارةً. ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ بالبخع كما تفعله جَهَلة الهند أو بإلقاء النفس إلى التهلُكة، ويؤيده ما روي: أن عمرو بن العاص تأوّله التيمم لخوف البرد فلم ينكر عليه النبي

---

(١) غير الأسلوب بين الجملتين «والله يريد»... «ويريد الذين» فالأولى اسمية للدلالة على استمرار الإرادة، والثانية فعلية للدلالة على حدوثها وللمباينة بين الإرادتين (س٢/١٦٩).

(٢) النساء: «٣١».

(٣) النساء: «٤٨».

(٤) النساء: «٤٠».

(٥) النساء: «١٢٣».

(٦) النساء: «١٤٧».

(٧) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٤/ج٥/ ٤٥) عن ابن عباس وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٤/ج٥/ ٤٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/٤٦٨ رقم ٢٤٢٥) عن ابن مسعود وفيه «خمس آيات» وفي إسناده رجل لم يسم. =

ﷺ[١]، أو بارتكاب ما يؤدي إلى قتلها، أو باقتراف ما يُذلها ويُرْديها فإنه القتل الحقيقي للنفس. وقيل المراد بالأنفس مَنْ كان من أهل دينهم، فإن المؤمنين كنفس واحدة. جَمَعَ في التوصية بين حفظ النفس والمال الذي هو شقيقُها من حيث إنه سببُ قوامها استبقاء لهم ريثما تُستكمل النفوس وتستوفي فضائلُها رأفة بهم ورحمة[٢]، كما أشار إليه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ أي أمر ما أمر ونهى عما نهى لفَرْط رحمته عليكم. وقيل: معناه إنه كان بكم يا أمة محمد رحيماً لِمَا أمر بني إسرائيل بقتل الأنفس ونهاكم عنه.

وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾

(٣٠) ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى القتل، أو ما سبق من المحرمات. ﴿عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا﴾ إفراطاً في التجاوز عن الحق وإتياناً بما لا يستحقه. وقيل أراد بالعدوان التعدي على الغير، وبالظلم ظلم النفس بتعريضها للعقاب. ﴿فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ﴾ ندخلُه إياها. وقرىء بالتشديد من صَلَّى، وبفتح النون من صَلاَه يَصْليه ومنه شاة مصلية، ويُصْلِيه بالياء والضمير لله تعالى أو لذلك من حيث إنه سبب الصلي. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ لا عسر فيه ولا صارف عنه.

(٣١) ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ﴾ كبائر الذنوب التي نهاكم الله ورسوله عنها، وقرىء كبيرَ على إرادة الجنس. ﴿نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ نغفر لكم صغائركم ونمحها عنكم.

واختُلف في الكبائر، والأقربُ أن الكبير كلُّ ذنب رتب الشارع عليه حداً أو صرح بالوعيد فيه،

---

(١) وهو حديث صحيح.
أخرجه أبو داود (١/ ٢٣٨ رقم ٣٣٤) لفظه قال: احتلمتُ في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك فتيممت، ثم صليت بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟ فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال وقلت: إني سمعتُ الله يقول «ولا تقتلوا أنفسكم» فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً.
وعلقه البخاري في صحيحه (١/ ٤٥٤) باب (٧) فقال: يذكر عن عمرو بن العاص....
وقال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشافِ» (رقم: ٣٥١): «وهذا الحديث اختلف فيه على يزيد بن أبي حبيب عن عمران بن أنس عن عبدالرحمن فرواه عنه يحيى بن أيوب هكذا وخالف عمرو بن الحارث سنداً ومتناً، أما السند فزاد بين عبدالرحمن وعمرو أبا قيس مولى عمر، وأما المتن: فقال: بدل التيمم: فتوضأ وغسل مغابنه ـ أي بواطن الأفخاذ عند الحوالب «النهاية: ٣/ ٣٤١» ـ ووافق يحيى بن أيوب ـ الغافقي المصري أبو العباس: صدوق ربما وهم «التقريب: ٢/ ٣٤٣» ـ عليه ابنُ لهيعة عند إسحاق بن راهويه ـ وعند أحمد أيضاً في المسند (٤/ ٢٠٣) ـ وأخرجه بالسند الأول.
وأخرجه ابن حبان ـ في الإحسان (٢/ ٤٣٨) ـ بالسند الثاني، وأخرجه بالسندين الحاكم ـ (١/ ١٧٧) ـ والدارقطني ـ (١/ ١٧٨ رقم ١٢) و(١/ ١٧٩ رقم ١٣) هـ.

(٢) وإيثار النهي عن قتل الأنفس على عدم التعرض لها لأنه أكثر وقوعاً (س٢/ ١٧٠).

وقيل ما عُلِم حرمتُه بقاطِعٍ، وعن النبي ﷺ «أنها سبع: الإشراك بالله، وقتل النفس التي حرم الله، وقذف المحصنة، وأكل مال اليتيم، والربا، والفرار من الزحف، وعقوق الوالدين»[(١)]. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: الكبائر إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع[(٢)]. وقيل أراد به ههنا أنواعَ الشرك لقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[(٣)] وقيل صِغَرُ الذنوب وكبرُها بالإضافة إلى ما فوقها وما تحتها، فأكبر الكبائر الشرك وأصغر الصغائر حديثُ النفس وبينهما وسائط يصْدُق عليها الأمران، فمن عَنّ له أمران منها ودَعَتْ نفسُه إليها بحيث لا يتمالك فكفَّها عن أكبرها كُفِّرَ عنه ما ارتكبَه لما استحق من الثواب على اجتناب الأكبر، ولعل هذا مما يتفاوت باعتبار الأشخاص والأحوال، ألا ترى أنه تعالى عاتب نبيه عليه الصلاة والسلام في كثير من خطواته التي لم تُعَدّ على غيره خطيئة فضلاً عن أن يؤاخذه عليها. ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ الجنة وما وعد من الثواب، أو إدخالاً مع كرامة. وقرأ نافع هنا وفي الحج بفتح الميم وهو أيضاً يَحتمل المكان والمصدر.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾

(٣٢) ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ من الأمور الدنيوية كالجاه والمال فلعل عدمه خير، والمقتضي للمنع كونُه ذريعةً إلى التحاسد والتعادي معربةً عن عدم الرضا بما قسم الله له، وأنه تشهٍّ لحصول الشيء له من غير طلب وهو مذموم، لأن تمني مالم يقدّر له معارضَةٌ لحكمة القدر وتمني ما قُدر له بكسْب بَطالَةٌ وتضييع حظ وتمني ما قدر له بغير كسب ضائع ومحَال[(٤)]. ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ بيان لذلك أي لكل من الرجال والنساء فضل ونصيب بسبب ما اكتسب ومن أجله، فاطلبوا الفضل من الله تعالى بالعمل لا بالحسد والتمني، كما قال عليه الصلاة والسلام «ليس الإيمان بالتمني»[(٥)]. وقيل المراد نصيبُ الميراث، وتفضيلُ الورثة بعضهم على بعض فيه، وجَعْلُ ما قُسم لكل منهم على حسب ما عُرِف من حاله الموجبة للزيادة والنقص كالمكتسب له.

---

(١) أخرجه البخاري (٥/ ٣٩٣ رقم ٢٧٦٦) و(١٢/ ١٨١ رقم ٦٨٥٧) ومسلم (١/ ٩٢ رقم ١٤٥/ ٨٩) وأبو داود (٣/ ٢٩٤ رقم ٢٨٧٤) والنسائي (٦/ ٢٥٧ رقم ٣٦٧١) عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ «اجتنبوا السبع الموبقات» إلا عندهم «السحر» بدل «عقوق الوالدين».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٤/ ج٥/ ٤١) عنه.

(٣) النساء: «٤٨».

(٤) وإيثار الإبهام فيما فضل الله به بعضهم على بعض للتفادي عن المواجهة بما يشق عليهم (س٢/ ١٧١).

(٥) أخرجه ابن عدي في الكامل (٦/ ٢٢٩٠) عن أبي هريرة في ترجمة محمد بن عبدالرحمن بن مجبر.
وأخرج أحاديث أخرى وقال في آخرها: «وهذه الأحاديث عن مالك بأسانيدها بواطيل وله من البواطيل غير ما ذكر».
وذكره محمد الصفدي اليمني في «النوافح العطرة» (ص٢٨٧ رقم ١٥٩٧) وعزاه لابن النجار من حديث أنس وضعفه.

﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي لا تتمنوا ما للناس واسألوا الله مِثْلَه من خزائنه التي لا تنفد، وهو يدل على أن المنهي عنه هو الحسد، أوْ لا تتمنوْا واسألوا الله من فضله بما يقرِّبه ويسوقه إليكم. وقرأ ابن كثير والكسائي وَسَلُوا الله من فضله وَسَلْهم فَسَلْ الذين وَشِبْهَه إذا كان أَمْراً مُواجَهاً به وقبْلَ السين واوٌ أو فاء بغير همز، وحمزةُ في الوقف على أصله، والباقون بالهمز. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ فهو يعلم ما يستحقه كل إنسان فيفضل عن علم وتبيان. روي أن أم سلمة قالت: يا رسول الله يغزو الرجال ولا نغزو وإنما لنا نصف الميراث ليتنا كنا رجالاً. فنزلت(١).

وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

(٣٣) ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ﴾ أي ولكلٍّ تَركة جعلنا ورّاثاً يلُونها ويحرزونها ومما تَرَك بيانٌ لكلٍّ مع الفصلِ بالعامل، أو لكلٍّ ميت جعلنا وراثاً مما ترك على أن مِنْ صلة موالي لأنه في معنى الوراث، وفي ترك ضميرِ كلٍّ والوالدان والأقربون استئنافٌ مفسِّر للموالي، وفيه خروج الأولاد فإنّ الأقربون لا يتناولهم كما لا يتناول الوالدين، أو لكل قوم جعلناهم موالي حظٌّ مما ترك الوالدان والأقربون، على أنَّ جعلنا مواليَ صفةُ كلٍّ والراجعُ إليه محذوف على هذا فالجملةُ من مبتدأ وخبر. ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ موالي الموالاة، كان الحليفُ يُوَرَّث السدس من مال حليفه فنُسِخَ بقوله: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾(٢) وعن أبي حنيفة رحمه الله تعالى: لو أسلم رجل على يد رجل وتعاقد على أن يتعاقلا ويتوارثا صحّ وَوُرِّث. أو الأزواج(٣) على أن العقد عقد النكاح،

(١) أخرج الترمذي (٥/ ٢٣٧ رقم ٣٠٢٢) والحاكم (٢/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦) وأحمد (٦/ ٣٢٢) وابن جرير (٤/ج٥/ ٤٦ ـ ٤٧) والطبراني في الكبير (٢٣/ ٢٨٠ رقم ٦٠٩) عنها أنها قالت: «يغزو الرِّجال ولا يغزو النساء، وإنما لنا نصفُ الميراثِ. فأنزل الله «ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضَكُمْ على بعض».....
قال الترمذي: هذا حديث مرسل.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط الشيخين إن كان سمع مجاهد أم سلمة، ووافقه الذهبي على تصحيحه.
«وقد رد العلامة أحمد شاكر في تعليقه على الطبري قول الترمذي: «حديث مرسل» فقال إنه جزم بلا دليل، ومجاهد أدرك أم سلمة يقيناً وعاصرها، فإنه ولد سنة (٢١هـ) وأم سلمة ماتت بعد سنة (٦٠هـ) على اليقين، والمعاصرة من الراوي الثقة تحمل على الاتصال إلا أن يكون الراوي مدلساً، ولم يزعم أحد أن مجاهداً مدلس، إلا كلمة قالها القطب الحلبي في شرح البخاري، حكاها عنه الحافظ في التهذيب (١٠/ ٤٤) ثم عقب عليها بقوله: ولم أرَ من نسبه إلى التدليس، وقال الحافظ في الفتح أيضاً (٦/ ١٩٤) رداً على من زعم أن مجاهداً لم يسمع من عبدالله بن عمرو، لكن سماع مجاهد من عبدالله بن عمرو ثابت، وليس بمدلس فثبت عندنا اتصال الحديث وصحته والحمد لله» اهـ. ـ كما في حاشية جامع الأصول (٢/ ٨٧ ـ ٨٨) ـ.
● تنبيه: لم أجده بلفظ القاضي المذكور والله أعلم.

(٢) الأنفال: «٥٧».

(٣) قوله أو الأزواج عطف على قوله موالي الموالاة.

وهو مبتدأٌ ضُمِّن معنى الشرط وخَبَرُه: ﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ أو منصوبٌ بمضمَر يفسره ما بعده كقولك: زيداً فاضربه، أو معطوفٌ على الوالدان، وقوله فآتوهم جملة مسبَّبَة عن الجملة المتقدمة مؤكدة لها، والضمير للموالي[١]. وقرأ الكوفيون عَقَدَتْ بمعنى عقدت عهودَهم إيمانُكم فحُذِف العهود وأقيم الضمير المضاف إليه مقامَه ثم حُذِف كما حذف في القراءة الأخرى. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ تهديد على منعِ نصيبهم.

ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾

(٣٤) ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ يقومون عليهن قيام الولاة على الرعية، وعُلِّل ذلك بأمرين وَهْبيّ وكَسْبي فقال: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بسبب تفضيله تعالى الرجال على النساء بكمال العقل وحسن التدبير ومزيد القوة في الأعمال والطاعات، ولذلك خُصُّوا بالنبوة والإمامة والولاية وإقامةِ الشعائر والشهادةِ في مجامع القضايا ووجوبِ الجهاد والجمعة ونحوها والتعصيبِ وزيادة السهم في الميراث والاستبداد بالفِراق. ﴿وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ في نكاحهن كالمهر والنفقة. روي أن سعد بن الربيع[٢] أحد نُقَباء الأنصار نشَزَت عليه امرأتُه حبيبة بنت زيد بن أبي زهير فلطمها، فانطلق بها أبوها إلى رسول الله ﷺ فشكى، فقال رسول الله ﷺ: لتقتص منه، فنزلت، فقال عليه الصلاة والسلام: «أردنا أمراً وأراد الله أمراً والذي أراد الله خير»[٣]. ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ﴾ مطيعات لله قائمات

---

(١) وهذا المعنى على قراءة من قرأ «والذين عاقدت أيمانكم» وقد قرأ بها غير الكوفيين وأثبتها في الأصل «عاقدت» وانظر المبسوط ص١٥٦.

(٢) سعد بن الربيع الأنصاري الخزرجي الحارثي البدريُّ النقيب الشهيد الذي آخى النبي ﷺ بينه وبين عبدالرحمن بن عوف، فعزم على أن يُعطى عبدالرحمن شطر ماله، ويطلِّقَ إحدى زوجتيه، ليتزوج بها، فامتنع عبدالرحمن من ذلك، ودعا له.
واستشهد في غزوة أحد وبه سبعون ضربة وهو الذي قال: رداً على رسول رسول الله ﷺ حينما سأله وهو في الرمق الأخير: «جزاك الله عني خير ما جُزي نبياً عن أمته، وأبلغ قومَك مني السلام، وقل لهم: إن سعداً يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خُلِصَ إلى نبيكم ومنكم عينٌ تطرِف». [انظر الإصابة (٤/ ١٤٤) والاستيعاب (٤/ ١٤٥)].

(٣) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» رقم (٣٥٣): «كذا ذكره الثعلبي والواحدي ـ ص١٥١ ـ عن مقاتل به.
ولأبي داود في المراسيل ـ رقم: ٢٧٤ ـ وابن أبي شيبة في المصنف (٩/ ٢٩٩) ـ والطبري في جامع البيان (٤/ج٥/ ٥٨) ـ عن الحسن أن رجلاً لطم وجه امرأته، فأتت النبي ﷺ فشكت إليه. فقال: القصاص. فنزلت «الرجال قوامون على النساء».
ولابن مردويه عن علي بإسناد واه ـ انظر هذا الإسناد في تفسير ابن كثير (١/ ٥٠٣) ـ نحوه ولم يقل القصاص، =

بحقوق الأزواج. ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ لمواجب الغيب أي يحفظن في غيبة الأزواج ما يجب حفظه في النفس والمال، وعنه عليه الصلاة والسلام: «خير النساء امرأة إن نَظَرْتَ إليها سرتك، وإن أمرتها أطاعتك، وإن غبت عنها حفظتك في مالها ونفسها». وتلا الآية(١). وقيل لأسرارهم. ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ بحفظ الله إياهن بالأمر على حفظ الغيب والحث عليه بالوعد والوعيد والتوفيق له، أو بالذي حَفِظَه الله لهنّ عليهم من المهر والنفقة والقيام بحفظهن والذب عنهن. وقرىء بما حَفِظَ اللهَ بالنصب على أنّ ما موصولةٌ فإنها لو كانت مصدريةً لم يكن لِحَفِظَ فاعلٌ، والمعنى بالأمر الذي حفظ حقّ اللهِ وطاعتَه وهو التعفف والشفقة على الرجال. ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ عِصيانهن وترفُّعهن عن مطاوعة الأزواج من النشز. ﴿فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ﴾ في المراقد فلا تُدْخِلوهن تحت اللُّحُف أو لا تباشروهن، فيكون كناية عن الجماع. وقيل المضاجع المبايت أي لا تبايتوهن ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ يعني

= وزاد «أردت أمراً وأراد الله غيره» ـ قلت: وأخرج هذه الزيادة الطبري (٤/ج٥/٥٨) والواحدي في أسباب النزول (ص١٥١ ـ ١٥٢) عن الحسن مرسلاً.

والخلاصة: أن الحديث مرسل، وإسناده إلى الحسن صحيح، ولكن مراسيل الحسن لا تقبل.

(١) أخرجه أبو داود (٢/ ٣٠٥ رقم ١٦٦٤) والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٣٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٨٣)، وأبو يعلى في المسند (٤/٣٧٨ ـ ٣٧٩ رقم ١٧٢٠/٢٤٩٩) كلهم من طريق غيلان بن جامع عن عثمان أبي اليقظان عن جعفر بن إياس، عن مجاهد عن ابن عباس، إلا أبا داود فأخرجه من طريق غيلان عن جعفر بن إياس به، ورجال الإسناد كلهم ثقات وصحح الحاكم الحديث، وتعقبه الذهبي بقوله: عثمان لا أعرفه والخبر عجيب. بينما ضعف الألباني الحديث، كما في ضعيف الجامع (٣/ ٩٩). وهو الصواب.

● وأخرج النسائي (٦/ ٦٨ رقم ٣٢٣١) والحاكم (٢/ ١٦١، ١٦٢) وأحمد (٢/ ٢٥١، ٤٣٢، ٤٣٨) كلهم من طريق ابن عجلان عن سعيد عن أبي هريرة قال: قيل لرسول الله ﷺ: أيُّ النساء خيرٌ قال التي تسرُّهُ إذا نظرَ وتطيعُهُ إذا أمرَ ولا تخالفُهُ في نفسها ومالها بما يكرهُ».

قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وقال العراقي في تخريج الإحياء (٢/ ٣٩): «سنده صحيح» وتعقبهم الألباني في الصحيحة (٤/ ٤٥٣ ـ ٤٥٤): «وكذا قالوا، وليس كذلك، بل هو حسن فقط كما ذكرنا، فإن ابن عجلان متكلم فيه خاصة في روايته عن سعيد عن أبي هريرة، وهو في نفسه صدوق كما في «التقريب» وكذا «الميزان» قال: «وكان من الرفعاء والأئمة أولى الصلاح والتقوى، ومن أهل الفتوى، له حلقة في مسجد رسول الله ﷺ» ثم إنه لم يروِ له مسلم إلا متابعة. قال الحاكم كما في «الميزان»: «أخرج له مسلم في كتابه ثلاثة عشر حديثاً كلها شواهد، وقد تكلم المتأخرون من أئمتنا في سوء حفظه».

قلت: فهو حسن الحديث إن شاء الله تعالى» هـ.

وتابع ابن عجلان أبو معشر السندي عند الطيالسي (ص٣٠٦ رقم ٢٣٢٥).

والطبري (٤/ج٥/ ٦٠) وأبو معشر اسمه: نجيح وهو ضعيف.

وللحديث شواهد (منها) ما أخرجه ابن ماجة (١/ ٥٩٦ رقم ١٨٥٧) من طريق علي بن يزيد الألهاني عن القاسم عن أبي أمامة، وعلي بن يزيد ضعيف جداً.

(ومنها) ما أخرجه الطبراني ـ كما في المجمع (٤/ ٢٧٣) من حديث عبدالله بن سلام ـ. وقال الهيثمي: وفيه زريك بن أبي زريك ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات» قلت: زريك: وثقه ابن معين وابن الجنيد كما في الجرح (٣/ ٦٢٤). وانظر «الكافي الشافِ» رقم (٣٥٤) والصحيحة (٤/ ٤٥٤ ـ ٤٥٥).

وخلاصة القول إن حديث أبي هريرة حسن والله أعلم.

ضرباً غيرَ مبرِّح ولا شائن، والأمور الثلاثة مُرَتَّبَة ينبغي أن يُتَدَرَّج فيها. ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ بالتوبيخ والإيذاء، والمعنى فأزيلوا عنهن التعرض واجعلوا ما كان منهن كأنْ لم يكن فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ فاحذروه فإنه أقدر عليكم منكم على مَنْ تحت أيديكم، أو إنه على علو شأنه يتجاوز عن سيئاتكم ويتوب عليكم فأنتم أحق بالعفو عن أزواجكم، أو إنه يتعالى ويتكبر أن يظلمَ أحداً أو يُنقص حقه(١).

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾

(٣٥) ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ خلافاً بين المرأة وزوجها. أَضْمَرَهما وإنْ لم يَجْرِ ذكرُهما لجرى ما يدلُّ عليهما، وإضافةُ الشقاق إلى الظرف إما لإجرائه مجرى المفعول به كقوله: يَا سَارِقُ اللَّيْلَةَ أَهْلَ الدَّارِ أو الفاعل كقولهم نهارك صائم. ﴿فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ فابعثوا أيها الحكام ـ متى اشتبه عليكم حالهما لتبيين الأمر أو إصلاح ذات البين ـ رجلاً وسطاً يصلح للحكومة والإصلاح من أهله وآخر من أهلها، فإن الأقارب أعرف ببواطن الأحوال وأطلب للصلاح، وهذا على وجه الاستحباب فلو نَصَبا من الأجانب جاز. وقيل الخطاب للأزواج والزوجات، واستُدِل به على جواز التحكيم، والأظهرُ أن النصب لإصلاح ذات البين أو لتبيين الأمر ولا يليان الجمع والتفريق إلا بإذن الزوجين، وقال مالك لهما أن يتخالعا إن وَجدَا الصلاح فيه. ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ الضمير الأول للحَكَمَيْن والثاني للزوجين، أي إن قصدا الإصلاح أوقع الله بحسن سعيهما الموافقة بين الزوجين. وقيل كلاهما للحكمين أي إن قصدا الإصلاح يوفق الله بينهما لتتفق كلمتهما ويحصل مقصودهما. وقيل للزوجين أي إن أرادا الإصلاح وزوال الشقاق أوقع الله بينهما الألفة والوفاق، وفيه تنبيه على أن من أصلح نيته فيما يتحراه أصلح الله مبتغاه(٢). ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ بالظواهر والبواطن، فيعلم كيف يَرْفع الشقاق ويوقِع الوفاق.

---

(١) قوله تعالى: «الرجال قوامون» أوردها بالجملة الاسمية والخبر بصيغة المبالغة للإيذان بعراقتهم في الاتصاف بما أسند إليهم.
وقوله «بعضهم على بعض» وَضَع البعض موضع الضميرين للإشعار بغاية ظهور الأمر وعدم الحاجة إلى التصريح بالمفضل والمفضل عليه.
وقوله «فإن أطعنكم» تعرض لطاعتهن ولم يتعرض لعدم طاعتهن للإيذان بأن ذلك ليس مما ينبغي تحققه أو يتوقع منهن ذلك. . (س٢/ ١٧٤).

(٢) تعرض لإرادتهم للإصلاح ولم يتعرض لعدم إرادتهم لذلك لأنه هو الذي ينبغي أن يكون ويليق بشأنهما، وهو مرغب للحكمَيْن في السعي بالإصلاح (س٢/ ١٧٥).

(٣٦) ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ صنماً أو غيره أو شيئاً من الإشراك جلياً أو خفياً[١] ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ وأحسنوا بهما إحساناً. ﴿ وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ وبصاحب القرابة. ﴿ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ أي الذي قرب جواره، وقيل الذي له مع الجوار قرب واتصال بنسب أو دين. وقرىء بالنصب على الاختصاص تعظيماً لحقه. ﴿ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ البعيد، أو الذي لا قرابة له. وعنه عليه الصلاة والسلام: «الجيران ثلاثة. فجار له ثلاثة حقوق: حق الجوار، وحق القرابة، وحق الإسلام. وجار له حقان: حق الجوار وحق الإسلام، وجار له حق واحد: حق الجوار وهو المشرك من أهل الكتاب»[٢]. ﴿ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ ﴾ الرفيق في أمر حسن كتعلم وتصرف وصناعة وسفر، فإنه صَحِبَك وحصل بجنبك. وقيل المرأة. ﴿ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ المسافر أو الضعيف. ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ العبيد والإماء. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا ﴾ متكبراً يأنف عن أقاربه وجيرانه وأصحابه ولا يلتفت إليهم. ﴿ فَخُورًا ﴾ يتفاخر عليهم.

ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾

(٣٧) ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ﴾ بدل من قوله من كان، أو نصب على الذم، أو رفع عليه أي هم الذين، أو مبتدأ خبره محذوف تقديره الذين يبخلون بما منحوا به ويأمرون الناس بالبخل به. وقرأ حمزة والكسائي ههنا وفي الحديد بالبَخَل بفتح الحرفين وهي لغة. ﴿ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ الغنى والعلم فهم أحقاء بكل ملامة. ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ وضع الظاهر فيه موضع المضمر إشعاراً بأن مَنْ هذا شأنه فهو كافر لنعمة الله، وما كان كافراً لنعمة الله فله عذاب يهينه كما أهان النعمة بالبخل والإخفاء. والآية نزلت في طائفة من اليهود كانوا يقولون للأنصار تنصيحاً: لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفقر[٣]. وقيل في الذين كتموا صفة محمد ﷺ[٤].

---

(١) صدّر الآية بالأمر بعبادته والنهي عن الإشراك به حيث ابتدأ بما يتعلق بحقوقه تعالى، فهي آكد الحقوق. وقرنها بحقوق الوالدين تنبيهاً على عظم شأن حقوقهما (س٢/ ١٧٥).

(٢) وهو حديث ضعيف.
أخرجه البزار (٢/ ٣٨٠ رقم ١٨٩٦) وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٢٠٧) من حديث جابر بن عبدالله.
قال البزار: لا نعلمه عن النبي ﷺ إلاَّ بهذا الإسناد.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٨/ ١٦٤) وقال: رواه البزار عن شيخه عبدالله بن محمد الحارثي وهو وضاع.
قلت: عبدالله هذا تابعه الحسين بن عيسى البسطامي عند أبي نعيم. وهو صدوق.
وقال أبو نعيم: غريب من حديث عطاء عن الحسن لم نكتبه إلا من حديث ابن أبي فديك. قلت: مدار الإسناد عند البزار وأبي نعيم على «عطاء الخراساني» وهو صدوق يهم كثيراً، ويرسل ويدلس [التقريب: ٢/ ٣٢]. وقد ضعف الألباني الحديث في ضعيف الجامع (٣/ ٨٨).

(٣) أخرجه ابن إسحاق، وابن جرير ـ (٤/ ج٥/ ٨٦) ـ وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ـ كما في الدر المنثور (٢/ ٥٣٨) ـ وإسناده حسن.

(٤) أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير ـ (٤/ ج٥/ ٨٥) ـ وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة ـ كما في الدر المنثور =

وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

(٣٨) ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ عطف على الذين يبخلون، أو الكافرين. وإنما شاركهم في الذم والوعيد لأن البخل والسَّرَف الذي هو الإنفاق لا على من ينبغي من حيث إنهما طرفا إفراط وتفريط سواءٌ في القبح واستجلاب الذم، أو مبتدأ خبرُه محذوف مدلول عليه بقوله: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا﴾. ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ ليتحروا بالإنفاق مراضيه وثوابه وهم مشركو مكة. وقيل هم المنافقون. ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ تنبيه على أن الشيطان قَرَنَهم فحملهم على ذلك وزيّنه لهم كقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[1]. والمراد إبليس وأعوانُه الداخلة والخارجة، ويجوز أن يكون وعيداً لهم بأن يُقرَن بهم الشيطان في النار.

(٣٩) ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي وما الذي عليهم، أو أيُّ تبعة تحيق بهم بسبب الإيمان والإنفاق في سبيل الله، وهو توبيخ لهم على الجهل بمكان المنفعة والاعتقاد في الشيء على خلاف ما هو عليه، وتحريض على الفكر لطلب الجواب لعله يؤدي بهم إلى العلم بما فيه من الفوائد الجليلة والعوائد الجميلة، وتنبيه على أن المدعو إلى أمر لا ضرر فيه ينبغي أن يجيب إليه احتياطاً فكيف إذا تضمن المنافع؟!. وإنما قَدَّم الإيمان ههنا وأخره في الآية الأخرى[2] لأن القصد بذكره إلى التخصيص ههنا، والتعليل ثَمَّ[3] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ وعيد لهم.

(٤٠) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ لا يُنقص من الأجر ولا يَزيد في العقاب أصغرَ شيء كالذرة، وهي النملة الصغيرة، ويقال لكل جزء من أجزاء الهَبَاء، والمثْقالُ مفعال من الثِّقَل، وفي ذكره إيماء إلى أنه وإن صغُر قدْرُه عظُم جزاؤه. ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً﴾ وإن يكن مثقال الذرة حسنة، وأنت الضمير لتأنيث الخبر أو لإضافة المثقال إلى مؤنث، وحذف النون من غير قياس تشبيهاً بحروف العلة. وقرأ ابن كثير ونافع حسنةٌ بالرفع على كان التامة. ﴿يُضَٰعِفْهَا﴾ يضاعِفُ ثوابها. وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب يُضَعِّفْها وكلاهما بمعنى[4]. ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ﴾ ويعط صاحبها من عنده على سبيل التفضل زائداً على

= (٢/ ٥٣٨ ـ ٥٣٩) ـ وإسناده صحيح.
وأخرج ابن جرير (٤/ ج٥/ ٨٥) عن الحضرمي نحو ذلك بإسناد صحيح.

(١) الإسراء: «٢٧».
(٢) أي في الآية السابقة «والذين ينفقون».
(٣) قدم الإيمان هنا لأهميته ولعدم الاعتداد بالإنفاق بدونه. أما تقديم إنفاقهم رئاء الناس على عدم إيمانهم ـ مع كون المؤخر أقبح ـ فلرعاية المناسبة بين إنفاقهم ذلك وبين ما قبله من بخلهم وأمرهم للناس به (س٢/ ١٧٧).
(٤) قول البيضاوي (كلاهما بمعنى) أي أن من قرأ (يضاعفها ويُضعِّفها) بمعنى واحد. وقد ذهب إلى هذا أبو علي الفارسي وهو المختار عند أهل اللغة، كما ذكر الألوسي في روح المعاني ٥/ ٣٣.
لكن أبا حيان ذهب إلى أن كلام العرب يقتضي خلافه وقال: (لأن المضاعفة تقتضي زيادة المثْل، فإذا شدّدت =

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ
سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟
بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

ما وعد في مقابلة العمل ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ عطاء جزيلاً، وإنما سماه أجراً لأنه تابع للأجر مزيد عليه.

(٤١) ﴿فَكَيْفَ﴾ أي فكيف حال هؤلاء الكفرة من اليهود والنصارى وغيرهم ﴿إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾؟! يعني نبيُّهم يشهد على فساد عقائدهم وقبح أعمالهم، والعاملُ في الظرف مضمونُ المبتدأِ والخبرِ من هوْل الأمر وتعظيم الشأن. ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد. ﴿عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ تشهد على صدق هؤلاء الشهداء لعلمك بعقائدهم واستجماع شرعك مجامعَ قواعدهم. وقيل هؤلاء إشارة إلى الكفرة المستفهَم عن حالهم. وقيل إلى المؤمنين كقوله تعالى ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(١).

(٤٢) ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ بيان لحالهم حينئذ أيْ يود الذين جمعوا بين الكفر وعصيان الأمر، أو الكفرةُ والعصاةُ في ذلك الوقت أنْ يدفنوا فتسوى بهم الأرضُ كالموتى أو لم يُبْعَثوا أو لم يُخْلَقوا وكانوا هم والأرض سواء(٢). ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ ولا يقدرون على كتمانه لأن جوارحهم تشهد عليهم. وقيل الواو للحال أي يودون أن تسوى بهم الأرض وحالُهم أنهم لا يكتمون من الله حديثاً ولا يكذبونه بقولهم ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾(٣) إذ روي أنهم إذا قالوا ذلك ختم الله على أفواههم فتشهدُ عليهم جوارحُهم، فيشتد الأمرُ عليهم فيتمنوْن أن تسوى بهم الأرض. وقرأ نافع وابن عامر تَسَّوَّى بهم على أن أصله تتسوى فأدغمت التاء في السين، وقرأ حمزة والكسائي تُسَوَّى على حذف التاء الثانية يقال سويته فتسوى.

(٤٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ أي لا تقوموا إليها وأنتم سكارى من نحو نوم أو خمر حتى تنتهوا وتعلموا ما تقولون في صلاتكم. روي أن عبدالرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه صنع مأدبة ودعا نفراً من الصحابة ـ حين كانت الخمر مباحة ـ فأكلوا وشربوا حتى . . . .

= اقتضت البنية التكثير فوق مرتين إلى أقصى ما يزيد من العدد (البحر المحيط ٣/٢٥١).

(١) البقرة: «١٤٣».

(٢) قوله «الذين كفروا» عبر عنهم بالموصول لذمهم بما في حيز الصلة وللإشعار بعلة ما اعتراهم من الحال الفظيعة والأمر الهائل.
وقوله «وعصوا الرسول» أورده بعنوان الرسالة لتشريفه وزيادة تقبيح حال مكذبيه (س٢/١٧٨).

(٣) الأنعام: «٢٣».

ثَمِلُوا[١]، وجاء وقت صلاة المغرب فتقدم أحدهم ليصلي بهم فقرأ: أعبد ما تعبدون. فنزلت[٢]. وقيل أراد بالصلاة مواضعَها وهي المساجد وليس المراد منه نهي السكران عن قربان الصلاة، وإنما المراد النهي عن الإفراط في الشرب، والسَّكَرُ من السُّكْر وهو السدّ. وقرىء سَكَارى بالفتح، وسَكْرى على أنه جمعٌ كهَلْكى أو مفردٌ بمعنى وأنتم قوم سَكْرى أو جماعة سَكْرى وسُكْرَى كحُبْلى على أنها صفة للجماعة. ﴿وَلَاجُنُبًا﴾ عطف على قوله وأنتم سُكارى إذ الجملة في موضع النصب على الحال. والجُنُب الذي أصابته الجنابة، يستوي فيه المذكر والمؤنث والواحد والجمع، لأنه يجري مجرى المصدر. ﴿إِلَّاعَابِرِي سَبِيلٍ﴾ متعلق بقوله ولا جنباً، استثناءٌ من أعمّ الأحوال أي لا تقربوا الصلاة جنباً في عامة الأحوال إلا في السفر وذلك إذا لم يجد الماء وتيمم، ويشهد له تعقيبُه بذكر التيمم، أو صفةٌ لقوله جنباً أي جنباً غير عابري سبيل، وفيه دليل على أن التيمم لا يرفع الحدث[٣]. ومَنْ فسر الصلاة بمواضعها فسر عابري سبيل بالمجتازين فيها، وجوّزَ للجنب عبور المسجد، وبه قال الشافعي رضي الله عنه. وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه: لا يجوز له المرور في المسجد إلا إذا كان فيه الماء أو الطريق. ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾ غاية النهي عن القربان حال الجنابة. وفي الآية تنبيه على أن المصلي ينبغي أن يتحرز عما يلهيه ويشغل قلبه، ويزكي نفسه عما يجب تطهيرها عنه. ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ مَرَضاً يخاف معه من استعمال الماء فإن الواجد كالفاقد، أو مرضاً يمنعه عن الوصول إليه. ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ لا تجدونه فيه. ﴿أَوْجَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ فأحدث بخروج الخارج من أحد السبيلين، وأصل الغائط المكان المطمئنّ من الأرض. ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ أو ما مَسَسْتم بَشَرَتهن ببَشَرَتكم، وبه استدل الشافعي على أن اللمس ينقض الوضوء. وقيل: أو جامعتموهن[٤]. وقرأ حمزة والكسائي هنا وفي المائدة لَمَسْتُم، واستعماله كناية عن الجماع أقلّ من الملامسة. ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً﴾ فلم تتمكنوا من استعماله، إذ الممنوع عنه كالمفقود. ووجه هذا التقسيم أن المترخص بالتيمم إما محدث أو جنب، والحالة المقتضية له في غالب الأمر مرض أو سفر، والجنُب لما سبق ذكره اقتُصر على بيان حاله، والمُحْدِث لما لم يجرِ ذكره ذُكِر من أسبابه ما يحدث بالذات وما يحدث بالعَرَض واستُغني عن تفصيل أحواله بتفصيل حال الجنب وبيان العذر مجملاً، فكأنه قيل: وإن كنتم جنباً مرضى أو على سفر أو محدثين جئتم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء ﴿فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾. أي

---

(١) ثملوا أي فتروا من الشرب.

(٢) وهو حديث صحيح.
أخرجه أبو داود (٤/ ٨٠ رقم ٣٦٧١) والنسائي (٧/ ٤٠٧) ـ كما في تحفة الأشراف والترمذي (٥/ ٢٣٨ رقم ٣٠٢٦) والحاكم (٢/ ٣٠٧) و(٤/ ١٤٢) والطبري (٤/ ج٥/ ٩٤). من حديث علي بن أبي طالب.
وصححه الحاكم وأقره الذهبي. وصحح الألباني الحديث في صحيح أبي داود وغيره.

(٣) إلا أنه ضعيف والأحاديث الصحيحة تبين أن التيمم يرفع الحدث. انظر فتح القدير للشوكاني ١/ ٤٧٠.

(٤) قوله (وقيل أو جامعتموهن) ليدل على تضعيف رأي من قال: بأن لمس المرأة لا ينقض الوضوء إلا أن الأحاديث الصحيحة تفيد بأن لمس المرأة لا ينقض الوضوء كحديث وضع يد عائشة على قدميه عليه السلام وهو في الصلاة، ورواه مسلم والترمذي وحديث أنه عليه السلام قَبّل بعض نسائه ثم خرج إلى الصلاة ولم يتوضأ.
وانظر مجمل الأدلة في فقه السنة ١/ ٥٠.

فتعمدوا شيئاً من وجه الأرض طاهراً. ولذلك قالت الحنفية: لو ضرب المتيمم يده على حجر صلد ومسح به أجزأه. وقال أصحابنا لا بد من أن يعلق باليد شيء من التراب لقوله تعالى في المائدة ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾[١] أي بعضه، وجَعْلُ مِنْ لابتداء الغاية تعسف إذ لا يفهم من نحو ذلك إلا التبعيض، واليد اسم للعضو إلى المنكب، وما روي أنه عليه الصلاة والسلام تيممَ ومسحَ يديه إلى مرفقيه والقياس على الوضوء دليلٌ على أن المراد ههنا وأيديكم إلى المرافق[٢]. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ فلذلك يسر الأمر عليكم ورخص لكم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾

(٤٤) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا﴾ من رؤية البصر أي ألم تنظر إليهم، أو القلب. وعدي بإلى لتضمن معنى الانتهاء. ﴿نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ حظاً يسيراً من علم التوراة لأن المراد أحبار اليهود. ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾ يختارونها على الهدى، أو يستبدلونها به بعد تمكنهم منه، أو حصوله لهم بإنكار نبوة محمد ﷺ. وقيل: يأخذون الرُّشى ويحرفون التوراة. ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا﴾ أيها المؤمنون. ﴿السَّبِيلَ﴾ سبيل الحق[٣].

(٤٥) ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾ منكم. ﴿بِأَعْدَائِكُمْ﴾ وقد أخبركم بعداوة هؤلاء وما يريدون بكم فاحذروهم. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾ يلي أمركم. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ يعينكم فثِقوا عليه واكتفوا به عن غيره. والباء تزاد في فاعل كفىٰ لتوكيد الاتصال الإسنادي بالاتصال الإضافي.

(٤٦) ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ﴾ بيان للذين أوتوا نصيباً فإنه يحتملهم وغيرَهم، وما بينهما اعتراضٌ

---

(١) المائدة: «٦».

(٢) لكن الأحاديث الصحيحة صرحت بمسح الكفين فقط، كحديث عمار في الصحيحين:
أن النبي عليه السلام قال له: «إنما كان يكفيك هكذا». وضرب النبي ﷺ بكفيه الأرض ونفخ فيهما، ثم مسح بهما وجهه وكفيه.
أما حديث مسح اليدين إلى المرفقين فليس بصحيح، فقد رواه أبو داود (٣٣٠) عن ابن عمر بلفظ «ضرب بيديه على الحائط مسح بهما وجهه، ثم ضرب ضربة أخرى فمسح ذراعيه» وهو ضعيف كما في الفتح السماوي (ص٤٩٣).

(٣) وقد عبر عنهم بالموصول للتنبيه على ما في حيز الصلة على كمال شناعتهم.
وعبر عن فعلهم بالاشتراء ـ الذي هو استبدال السلعة بالثمن ـ لبيان كمال رغبتهم في الضلالة والإعراض عن الكتاب وما أوتوه.
وصيغة المضارع بقوله «يشترون» و«يريدون» للدلالة على استمرارهما وتجددهما (س٢/ ١٨٢).

أو بيان لأعدائكم أو صلةٌ لنصيراً. أي ينصركم من الذين هادوا ويحفظكم منهم، أو خبر محذوف صفته يحرفون. ﴿ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ أي من الذين هادوا قوم يحرفون الكلم أي يُمِيلُونه عن مواضعه التي وضعه الله فيها بإزالته عنها وإثبات غيره فيها. أو يُؤَوِّلونه على ما يشتهون فيُميلونه عما أنزل الله فيه. وقرىء الكِلْمَ بكسر الكاف وسكون اللام جَمْعُ كِلْمَة تخفيف كلمة. ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا﴾ قولَك. ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرَك. ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ أي مدعوّاً عليك بلا سمعت لصمم أو موت، أو اسمع غيرَ مجاب إلى ما تدعو إليه، أو اسمع غير مسمَع كلاماً ترضاه، أو اسمع كلاماً غير مسمَع إياك لأن أذُنك تنبُو عنه فيكون مفعولاً به، أو اسمع غير مسمَع مكروهاً من قولهم أسمعه فلان إذا سبّه، وإنما قالوه نفاقاً. ﴿وَرَٰعِنَا﴾ أنظِرنا نكلمْك أو نفهم كلامك. ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ فتْلاً بها وصرفاً للكلام إلى ما يشبه السب، حيث وضعوا راعِنا المشابِه لما يتسابّون به موضعَ انظرنا وغيرَ مسمَعٍ موضعَ لا أسمعت مكروهاً، أو فتلاً بها وضماً لما يظهرون من الدعاء والتوقير إلى ما يضمرون من السب والتحقير نفاقاً. ﴿وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ استهزاء به وسخرية. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا﴾ ولو ثبت قولهم هذا مكان ما قالوه. ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ لكان قولهم ذلك خيراً لهم وأعدل، وإنما يجب حذف الفعل بعد لو في مثل ذلك لدلالة أنَّ عليه ووقوعه موقعه. ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ ولكن خذلهم الله وأبعدهم عن الهدىٰ بسبب كفرهم. ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إلا إيماناً قليلاً لا يُعبأ به وهو الإيمان ببعض الآيات والرسل، ويحتمل أن يراد بالقِلّة العدم كقوله:

قليلُ التَشَكّي لِلْمُهِمّ يَصِيبُهُ

أو إلا قليلاً منهم آمنوا أو سيؤمنون

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾

(٤٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ من قبل أن نمحوَ تخطيط صورها ونجعلها على هيئة أدبارها، يعني الإقفاء، أو ننكسُها إلى ورائها في الدنيا أو في الآخرة. وأصل الطمْس إزالة الأعْلام المائلة، وقد يطلق بمعنى الطلس في إزالة الصورة، ولمطلق القَلْب والتغيير، ولذلك قيل معناه من قبل أن نغير وجوهاً فنسلب وَجاهتها وإقبالها ونكْسُوها الصَّغارَ والإدبار، أو نردها إلى حيث جاءت منه، وهي أذرعات الشام يعني إجلاء بني النضير، ويَقرُب منه قول من قال إن المراد بالوجوه الرؤساء، أو مِنْ قبل أن نطمس وجوهاً بأن نَعْمي الأبصار عن الاعتبار ونَصمَّ الأسماع عن الإصغاء إلى الحق بالطبع ونردَّها عن الهداية إلى الضلالة. ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾ أو نخزيَهم بالمسخ كما أخزينا به أصحاب السبت، أو نمسخَهم مسخاً مثل مسخهم، أو نلعنهم على لسانك كما لعناهم على لسان داود. والضمير لأصحاب الوجوه أو للذين على طريقة الالتفات، أو للوجوه إن أريد به الوجهاء، وعطفه على الطمس بالمعنى الأول يدل على أن المراد به ليس مسخ الصورة في الدنيا. ومن حمل الوعيد على تغيير الصورة في الدنيا قال إنه بَعْدُ مترقب أو كان وقوعه مشروطاً بعدم إيمانهم وقد آمن منهم طائفة. ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ بإيقاع شيء أو وعيده، أو ما حكم به وقضاه. ﴿مَفْعُولًا﴾ نافذاً وكائناً فيقع لا محالة ما أُوعِدْتم به إن لم تؤمنوا.

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾
أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ
ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ
وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾

(٤٨) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ لأنه بتَّ الحكم على خلود عذابه وأن ذنبه لا ينمحي عنه أثره فلا يستعد للعفو بخلاف غيره. ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي ما دون الشرك صغيراً كان أو كبيراً. ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ تفضلاً عليه وإحساناً. والمعتزلة عَلَّقوه بالفعلين على معنى إن الله لا يغفر الشرك لمن يشاء. وهو من لم يتب ويغفر ما دونه لمن يشاء وهو من تاب، وفيه تقييد بلا دليل إذ ليس عموم آيات الوعيد بالمحافظة أولى منه ونقض لمذهبهم فإن تعليق الأمر بالمشيئة ينافي وجوب التعذيب قبل التوبة والصفح بعدها، فالآية كما هي حجة عليهم فهي حجة على الخوارج الذين زعموا أن كل ذنب شرك وأن صاحبه خالد في النار. ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ ارتكب ما يستحقر دونه الآثام، وهو إشارة إلى المعنى الفارق بينه وبين سائر الذنوب، والافتراء كما يطلق على القول يطلق على الفعل وكذلك الاختلاق.

(٤٩) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ يعني أهل الكتاب قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾[1] وقيل: ناس من اليهود جاؤوا بأطفالهم إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: هل على هؤلاء ذنب؟ قال: «لا» قالوا: والله ما نحن إلا كهيئتهم ما عَمِلنا بالنهار كُفِّر عنّا بالليل وما عملنا بالليل كُفِّر عنا بالنهار[2]. وفي معناهم من زكى نفسه وأثنى عليها. ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ تنبيه على أن تزكيته تعالى هي المعتدّ بها دون تزكية غيره، فإنه العالم بما ينطوي عليه الإنسان من حسن وقبيح، وقد ذمهم وزكّىٰ المرتضين من عباده المؤمنين. وأصل التزكية نفي ما يستقبح فعلاً أو قولاً. ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ بالذم أو العقاب على تزكيتهم أنفسَهم بغير حق. ﴿فَتِيلًا﴾ أدنى ظلم وأصغره، وهو الخيط الذي في شَقِّ النَّواة يُضربُ به المثَل في الحقارة.

(٥٠) ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ في زعمهم أنهم أبناء الله وأزكياء عنده. ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ﴾ بزعمهم هذا أو بالافتراء. ﴿ٱللَّهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ لا يخفى كونه مأثماً من بين آثامهم.

(٥١) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ نزلت في يهود كانوا يقولون إن عبادة الأصنام أرضى عند الله مما يدعوهم إليه محمد. وقيل في حُيَيّ بن أخطب وكعب بن الأشرف في جمع من اليهود خرجوا إلى مكة يحالفون قريشاً على محاربة رسول الله ﷺ فقالوا: أنتم أهل كتاب وأنتم أقرب إلى محمد منكم إلينا فلا نأمن مكْركم فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم

---

(١) المائدة: «١٨».

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» رقم (٣٦٦): «ذكره الثعلبي عن الكلبي» وذكره الواحدي في أسباب النزول ص١٥٥، والبغوي في تفسيره (٢/ ٢٣٣) عن الكلبي بدون سند. والكلبي متهم.

ففعلوا[١]. والجبْتُ في الأصل اسمُ صنم فاستُعمل في كل ما عُبِد من دون الله، وقيل أصله الجبس وهو الذي لا خير فيه فقلبت سينه تاء. والطاغوت يطلق لكل باطل من معبود أو غيره. ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لأجلهم وفيهم. ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ إشارة إليهم. ﴿أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ أقوم ديناً وأرشد طريقاً[٢].

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾

(٥٢) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ يمنع العذاب منه بشفاعة أو غيرها.

(٥٣) ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾ أم منقطعة، ومعنى الهمزة إنكارُ أن يكون لهم نصيب من الملك وجَحْدٌ لما زعمت اليهود من أن الملك سيَصير إليهم. ﴿فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ أي لو كان لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون أحداً ما يوازي نقيراً، وهو النُّقْرة في ظهر النواة. وهذا هو الإغراق في بيان شحّهم فإنهم إن بخلوا بالنقير وهم ملوك فما ظنك بهم إذا كانوا فقراء أذلاء متفاقرين، ويجوز أن يكون المعنى إنكار أنهم أوتوا نصيباً من الملك على الكناية، وأنهم لا يؤتون الناس شيئاً. وإذا وقع بعد الواو والفاء «لا» لتشريك مفردٍ جاز فيه الإلغاءُ والإعمال، ولذلك قرىء فإذاً لا يؤتوا الناس على النصب.

(٥٤) ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ بل أيحسدون رسول الله ﷺ وأصحابه، أو العرب، أو الناس جميعاً لأن

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٢٥١ رقم ١١٦٤٥) والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ١٩٣) عن ابن عباس.
وليس عند أيهما قوله: «وأنتم أقرب إلى محمد...» إلى آخره، بل لفظهما: «أنتم أهل العلم القديم وأهل الكتاب فأخبرونا عنا وعن محمد، فقالوا: أنتم خير منه وأهدى سبيلاً» فأنزل الله: «ألم ترَ إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب» إلى آخر الآية.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٥ ـ ٦) وقال: «رواه الطبراني وفيه «يونس بن سليمان الجَمَّال» ولم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح» هـ.
قلت: عند البيهقي في الدلائل «محمد بن يونس الجمَّال» لعل هذا هو الصواب لأن المزي ذكره في «تهذيب الكمال» (١١/ ١٨٧) في تلاميذ ابن عيينة ولم يذكر من اسمه «يونس بن سليمان الجمال».
ومحمد بن يونس الجمَّال بغدادي ضعيف ـ كما في «التقريب» (٢/ ٢٢٢) ـ. وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٤/ج٥/ ١٣٤) عن عكرمة قوله: وهو أقرب لسياق القاضي، وعزاه السيوطي لعبدالرزاق أيضاً في الدر المنثور (٢/ ٥٦٣) وإسناده حسن.
وأخرج الطبري أيضاً في «جامع البيان» (٤/ج٥/ ١٣٣) عن ابن عباس، ورجاله ثقات.
وأخرج الطبري كذلك (٤/ج٥/ ١٣٤ ـ ١٣٥) عن عكرمة، وقتادة، وابن زيد بنحوه، وهي مراسيل صحيحة الإسناد.
وبهذا يتقوى حديث ابن عباس فيكون صحيحاً إن شاء الله.

(٢) قوله «من الذين آمنوا» هو من قبل الله لا من القائلين. وأوردهم بوصف الإيمان تعريفاً لهم بالوصف الجميل وتخطئة لمن رجح عليهم المتصفين بأقبح القبائح (س٢/ ١٨٩).

من حسد على النبوة فكأنما حسد الناسَ كلهم كمالهم ورشدهم، وبّخهم وأنكر عليهم الحسد كما ذمهم على البخل وهما شر الرذائل وكأن بينهما تلازماً وتجاذباً. ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ﴾ يعني النبوة والكتاب والنصرة والإعزاز وجعل النبي الموعود منهم. ﴿فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ الذين هم أسلاف محمد صلى الله عليه وسلم وأبناء عمه. ﴿ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ النبوة. ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا﴾ فلا يبعد أن يؤتيه الله مثل ما آتاهم[1].

فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

(٥٥) ﴿فَمِنۡهُم﴾ من اليهود. ﴿مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ بمحمد صلى الله عليه وسلم أو بما ذكر من حديث آل إبراهيم. ﴿وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ﴾ أعرض عنه ولم يؤمن به، وقيل معناه فمن آل إبراهيم من آمن به ومنهم من كفر ولم يكن في ذلك توهين أمره فكذلك لا يوهِنُ كفرُ هؤلاء أمرَك. ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ ناراً مسعورة يعذبون بها أي إن لم يُعَجَّلوا بالعقوبة فقد كفاهم ما أعد لهم من سعير جهنم.

(٥٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا﴾ كالبيان والتقرير لذلك. ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا﴾ بأن يعاد ذلك الجِلْد بعينه على صورة أخرى كقولك: بدلت الخاتم قِرطاً، أو بأن يُزالَ عنه أثر الإحراق ليعود إحساسه للعذاب كما قال: ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾ أي ليدوم لهم ذوْقه. وقيل يخلق لهم مكانه جلد آخر، والعذاب في الحقيقة للنفس العاصية المدرِكة لا لآلة إدراكها فلا محذور. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا﴾ لا يمتنع عليه ما يريده. ﴿حَكِيمٗا﴾ يعاقب على وفق حكمته[2].

(٥٧) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾ قدَّم ذكر الكفار ووعيدهم على ذكر المؤمنين ووعدهم لأن الكلام فيهم وذكْر المؤمنين بالعَرَض. ﴿لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾ فَيْناناً لا جَوْب فيه[3] ودائماً لا تنسخه الشمس، وهو إشارة إلى النعمة التامة الدائمة. والظليل صفة مشتقة من الظل لتأكيده كقولهم: شمسٌ شامِسٌ وليل أَلْيَل ويوم أيوم.

---

(١) تكرير الإيتاء لما يقتضيه مقام التفضيل مع الإشعار بما بين النبوة والملك من المغايرة (س٢/ ١٩٠).

(٢) عبر عن إدراك العذاب بالذوق لبيان إحساسهم بالعذاب في كل مرة كإحساس الذائق بالمذوق من حيث إنه لا يدخله نقصان لدوام الملابسة، أو للإشعار بمرارة العذاب مع إيلامه، أو للتنبيه على شدة تأثيره من حيث إن القوة الذائقة أشد الحواس تأثراً.
ولعل السر في تبديل الجلود مع قدرته تعالى على إبقاء إدراك العذاب لأن النفس ربما تتوهم زوال الإدراك بالاحتراق (س٢/ ١٩٢).

(٣) لا جَوْب أي لا انقطاع فيه، من جاب الأرض إذا قطعها (المصباح المنير مادة جوب).

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم
بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي
شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾

(٥٨) ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ خطاب يعم المكلفين والأماناتِ، وإن نزلت يوم الفتح في عثمان بن طلحة بن عبدالدار(١) لما أغلق باب الكعبة وأبىٰ أن يدفع المفتاح ليدخل فيها رسول الله وقال: لو علمتُ أنه رسول الله لم أمنعه، فلوىٰ علي كرم الله وجهه يدَه وأخذه منه وفتح، فدخل رسول الله ﷺ وصلى ركعتين، فلما خرج سأله العباسُ رضي الله عنه أن يعطيه المفتاحَ ويجمعَ له السقاية والسدانة، فنزلت(٢)، فأمره الله أن يرده إليه، فأمر علياً رضي الله عنه أن يرده ويعتذر إليه، وصار ذلك سبباً لإسلامه ونزل الوحي بأن السدانة في أولاده أبداً ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ أي وأن تحكموا بالإنصاف والسوية إذا قضيتم بين من ينفذ عليه أمرُكم، أو يرضى بحكمكم، ولأن الحكم وظيفة الولاة قيل الخطاب لهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ﴾ أي نعم شيئاً يعظكم به، أو نعم الشيءُ الذي يعظكم به، فما منصوبةٌ موصوفة بيعَظِكم به أو مرفوعة موصولة به والمخصوص بالمدح محذوف وهو المأمور به من أداء الأمانات والعدل في الحكومات. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ بأقوالكم وأحكامكم وما تفعلون في الأمانات

(٥٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ يريد بهم أمراء المسلمين في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وبعده، ويندرج فيهم الخلفاء والقضاة وأمراء السرية. أمر الناس بطاعتهم بعدما أمرهم بالعدل تنبيهاً على أن وجوب طاعتهم ما داموا على الحق. وقيل علماءُ الشرع لقوله تعالى ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾(٣). ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ﴾ أنتم وأولو الأمر منكم. ﴿فِي شَيۡءٖ﴾ من أمور الدين، وهو يؤيد الوجه الأول إذ ليس للمقلِّد أن ينازع المجتهد في حكمه بخلاف المرؤوس إلا أن يقال الخطاب لأولي الأمر على طريقة الالتفات. ﴿فَرُدُّوهُ﴾ فراجعوا فيه. ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى كتابه. ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾ بالسؤال عنه في زمانه، والمراجعة إلى سنته بعده. واستدل به منكرو القياس وقالوا: إنه تعالى أوجب رد المختلف إلى الكتاب والسنة دون القياس. وأُجيب بأن رد المختلف إلى المنصوص عليه إنما يكون بالتمثيل والبناء عليه وهو القياس، ويؤيد ذلك الأمر به بعد الأمر بطاعة الله وطاعة رسوله فإنه يدل على أن الأحكام ثلاثة مُثْبَت بالكتاب ومثبت بالسنة ومثبت بالردّ إليهما على وجه القياس. ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ فإن الإيمان يوجب ذلك. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الرد. ﴿خَيۡرٞ﴾ لكم. ﴿وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ عاقبة أو أحسن تأويلاً من تأويلكم بلارد(٤).

---

(١) عثمان بنُ طلحةَ حاجب البيت الحرام وأحد المهاجرين، له رواية خمسة أحاديث. توفي سنة إحدى وأربعين». [أسد الغابة (٣/ ٥٧٨) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ٣٢٠)].

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص١٥٧ ـ ١٥٨) وقال ابن حجر في «الكافي الشافِ» رقم (٣٦٩): هكذا ذكره الثعلبي ثم البغوي (٢/ ٢٣٨) بغير إسناد». وعزاه في الدر المنثور (٢/ ٥٧٠) لابن مردويه من طريق الكلبي عن ابن عباس.

(٣) النساء: «٨٣».

(٤) قدم خيريته لهم على أحسنيته في نفسه لتعلق أنظارهم بما ينفعهم (س٢/ ١٩٤).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢)﴾

(٦٠) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما أن منافقاً خاصَم يهودياً، فدعاه اليهودي إلى النبي ﷺ، ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف، ثم إنهما احتكما إلى رسول الله ﷺ، فحكم لليهودي، فلم يرضَ المنافق بقضائه وقال: نتحاكم إلى عمر، فقال اليهودي لعمر: قضى لي رسول الله ﷺ فلم يرضَ بقضائه وخاصم إليك، فقال عمر رضي الله تعالى عنه للمنافق: أكذلك؟ فقال نعم، فقال: مكانكُما حتى أَخرج إليكما، فدخل فأخذ سيفه ثم خرج فضرب به عنق المنافق حتى برد وقال: هكذا أقضي لمن لم يرضَ بقضاء الله ورسوله. فنزلت[(١)]. وقال جبريل إن عمر قد فرق بين الحق والباطل فسمي الفاروق، والطاغوتُ على هذا كعب بن الأشرف وفي معناه مَنْ يحكم بالباطل ويؤثر لأجله، سمي بذلك لفرط طغيانه أو لتشبهه بالشيطان، أو لأن التحاكم إليه تحاكم إلى الشيطان من حيث إنه الحامل عليه، كما قال: ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾. وقرىء أن يكفروا بها على أن الطاغوت جمعٌ كقوله تعالى: ﴿أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم﴾[(٢)].

(٦١) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ وقرىء تعالُوا بضم اللام على أنه حذف لام الفعل اعتباطاً ثم ضم اللام لواو الضمير. ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ هو مصدر أو اسم للمصدر الذي هو الصدّ، والفرق بينه وبين السدّ أنه غير محسوس والسد محسوس، ويصُدون في موضع الحال[(٣)].

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» رقم (٣٧١): «ذكره الثعلبي من رواية الكلبي عن أبي عاصم عن ابن عباس في هذه الآية: نزلت في رجل من المنافقين يقال له: بشر وإسناده إلى الكلبي في خطبة كتابه.

وذكره الواحدي ـ في أسباب النزول ص١٦٢ ـ أيضاً، ولابن أبي حاتم. وابن مردويه من رواية وهب عن ابن لهيعة عن أبي الأسود: «اختصم رجلان إلى النبي ﷺ، فقضى بينهما، فقال الذي قضى عليه ردنا إلى عمر، فانطلقنا إليه، فضرب عنق الذي قال: ردنا إلى عمر، فجاء الآخرَ فأخبره، فقال: ما كنت أظن عمر يجترىء على قتل مؤمن. فأنزل الله تعالى: «فلا وربك لا يؤمنون» الآية. فأهدر دمه».

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٣٣ ـ ٥٣٤) عن هذا الأثر بأنه أثر غريب وهو مرسل وابن لهيعة ضعيف.

قلت: هو من رواية أحد العبادلة (ابن وهب) عنه، ورواية العبادلة عنه مقبولة عند المحدثين. لكن بقي كونه مرسلاً ومخالفاً لما جاء في الصحيحين من حديث الزبير الذي سيأتي تخريجه في الآية (٦٥) من هذه السورة.

(٢) البقرة: «٢٥٧».

(٣) قوله «رأيت المنافقين» أظهر لفظ المنافقين في مقام الإضمار للتسجيل عليهم بالنفاق وذمهم به والإشعار بعلة الحكم (س٢/ ١٩٥).

(٦٢) ﴿فَكَيْفَ﴾ يكون حالهم. ﴿إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ كقتل عمر المنافقَ أو النقمة من الله تعالى. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من التحاكم إلى غيرك وعدم الرضى بحكمك. ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ﴾ حين يصابون للاعتذار، عطف على أصابتهم. وقيل على يصدون وما بينهما اعتراض. ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ حال. ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ ما أردنا بذلك إلا الفصل بالوجه الأحسن والتوفيق بين الخصمين، ولم نرد مخالفتك. وقيل جاء أصحاب القتيل طالبين بدمه وقالوا ما أردنا بالتحاكم إلى عمر إلا أن يُحْسِن إلى صاحبنا ويوفقَ بينه وبين خصمه.

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

(٦٣) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من النفاق فلا يغني عنهم الكتمان والحلف الكاذب من العقاب. ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي عن عقابهم لمصلحة في استبقائهم أو عن قبول معذرتهم. ﴿وَعِظْهُمْ﴾ بلسانك وكفَّهم عما هم عليه. ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي في معنى أنفسهم أو خالياً بهم فإن النصح في السر أنجع. ﴿قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ يبلغ منهم ويؤثر فيهم. أَمَرَهم بالتجافي عن ذنوبهم والنصح لهم والمبالغة فيه بالترغيب والترهيب، وذلك مقتضى شفقة الأنبياء عليهم السلام. وتعليقُ الظرف ببليغاً على معنى بليغاً في أنفسهم مؤثراً فيها ضعيفٌ لأن معمول الصفة لا يتقدم على الموصوف، والقول البليغ في الأصل هو الذي يطابق مدلوله المقصود به.

(٦٤) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بسبب إذنه في طاعته وأمره المبعوث إليهم بأن يطيعوه، وكأنه احتج بذلك على أن الذي لم يرضَ بحكمه وإن أظهر الإسلام كان كافراً مستوجبَ القتل، وتقريره أن إرسال الرسول لما لم يكن إلا ليطاع كان من لم يطعه ولم يرضَ بحكمه لم يقبل رسالته ومن كان كذلك كان كافراً مستوجب القتل. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بالنفاق أو التحاكم إلى الطاغوت. ﴿جَآءُوكَ﴾ تائبين من ذلك وهو خبر أنّ وإذ متعلق به. ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ بالتوبة والإخلاص. ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ واعتذروا إليك حتى انتصبتَ لهم شفيعاً، وإنما عدل عن الخطاب تفخيماً لشأنه وتنبيهاً على أن من حق الرسول أن يقبل اعتذار التائب وإن عظم جرمه ويشفع له، ومن مَنْصِبه أن يشفع في كبائر الذنوب. ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ لعلموه قابلاً لتوبتهم متفضلاً عليهم بالرحمة، وإن فسر وجد بصادف كان تواباً حالاً ورحيماً بدلاً منه أو حالاً من الضمير فيه.

(٦٥) ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ أي فوربك، ولا مزيدةٌ لتأكيد القسم لا لِتُظاهِر لا في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأنها تُزاد أيضاً في الإثبات كقوله تعالى ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾[١]. ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾

---

(١) البلد: «١».

فيما اختلف بينهم واختلط ومنه الشجر لتداخل أغصانه. ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ ضيقاً مما حكمت به، أو مِنْ حُكْمك أو شكّاً من أجله، فإن الشاك في ضيق من أمره. ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ وينقادوا لك انقياداً بظاهرهم وباطنهم.

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾

(٦٦) ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ تعرضوا بها للقتل في الجهاد، أو اقتلوها كما قتل بنو إسرائيل، وأنْ مصدرية أو مفسّرة لأن كتبنا في معنى أمرنا. ﴿أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم﴾ خروجهم حين استُتيبوا من عبادة العجل. وقرأ أبو عمرو ويعقوب أَنِ اقتلوا بكسر النون على أصل التحريك، أَوُ اخرجوا بضم الواو للاتباع والتشبيه بواو الجمع في نحو قوله تعالى ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ﴾[1] وقرأ حمزة وعاصم بكسرهما على الأصل، والباقون بضمهما إجراءً لهما مجرى الهمزة المتصلة بالفعل. ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ إلا أناس قليل وهم المخلصون. لما بين أن إيمانهم لا يتم إلا بأن يسلموا حق التسليم نبه على قصور أكثرهم ووهْن إسلامهم، والضميرُ للمكتوب ودل عليه كتبنا، أو لأحد مصدري الفعلين وقرأ ابن عامر بالنصب على الاستثناء أو على إلا فعلاً قليلاً. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ من متابعة الرسول ﷺ مطاوعته طوعاً ورغبة. ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في عاجلهم وآجلهم. ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ في دينهم لأنه أشد لتحصيل العلم ونفي الشك أو تثبيتاً لثواب أعمالهم، ونصبه على التمييز. والآية أيضاً مما نزلت في شأن المنافق واليهودي. وقيل إنها والتي قبلها نزلتا في حاطب بن أبي بلتعة خاصم زبيراً في شِراج من الحرة كانا يسقيان بها النخل، فقال عليه الصلاة والسلام: «اسق يا زبير ثم أرسِل الماء إلى جارك، فقال حاطب: لأن كان ابن عمتك. فقال عليه الصلاة والسلام اسق يا زبير ثم احبس الماء إلى الجُدُر واستوف حقك، ثم أرسِلْه إلى جارك»[2].

(٦٧) ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ جواب لسؤال مقدر كأنه قيل: وما يكون لهم بعد التثبيت فقال وإذا لو تثبتوا لآتيناهم لأن إذا جواب وجزاء.

(٦٨) ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ يَصِلون بسلوكه جناب القدس ويفتح عليهم أبواب الغيب، قال النبي ﷺ «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم . . . .

---

(١) البقرة: «٢٣٧».

(٢) أخرجه البخاري (٥/ ٣٤ رقم ٢٣٥٩، ٢٣٦٠) ومسلم (٤/ ١٨٢٩ ـ ١٨٣٠ رقم ١٢٩/ ٢٣٥٧) وأبو داود (٤/ ٥١ رقم ٣٦٣٧) والنسائي (٨/ ٢٣٨ رقم ٥٤٠٧) والترمذي (٣/ ٦٤٤ رقم ١٣٦٣) وابن ماجة (٢/ ٨٢٩ رقم ٢٤٨٠) كلهم من طريق عروة عن عبدالله بن الزبير، عن الزبير.

يعلم»(١).

(٦٩) ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ مزيد ترغيب في الطاعة بالوعد عليها مرافقة أكرم الخلائق وأعظمهم قدراً. ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بيان للذين، أو حالٌ منه أو من ضميره. قسمهم أربعةَ أقسام بحسب منازلهم في العلم والعمل، وحث كافة الناس على أن لا يتأخروا عنهم، وهم: الأنبياء الفائزون بكمال العلم والعمل المتجاوزون حد الكمال إلى درجة التكميل، ثم الصدِّيقون الذين صَعِدت نفوسُهم تارة بمراقي النظر في الحجج والآيات وأخرى بمعارج التصفية والرياضات إلى أوج العرفان حتى اطلعوا على الأشياء وأخبروا عنها على ما هي عليها، ثم الشهداء الذين أدى بهم الحرص على الطاعة والجد في إظهار الحق حتى بذلوا مهجهم في إعلاء كلمة الله تعالى، ثم الصالحون الذين صرفوا أعمارهم في طاعته وأموالهم في مرضاته. ولك أن تقول المنعم عليهم هم العارفون بالله وهؤلاء إما أن يكونوا بالغين درجة العيان أو واقفين في مقام الاستدلال والبرهان، والأولون إما أن ينالوا مع العيان القرب بحيث يكونون كمن يرى الشيء قريباً وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أولاً فيكونون كمن يرى الشيء بعيداً وهم الصديقون، والآخرون إما أن يكون عرفانُهم بالبراهين القاطعة وهم العلماء الراسخون في العلم الذين هم شهداء الله في أرضه، وإما أن يكون بأمارات وإقناعات تطمئن إليها نفوسهم وهم الصالحون. ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ في معنى التعجب، ورفيقاً نصب على التمييز أو الحال، ولم يُجمع لأنه يقال للواحد والجمع كالصديق، أو لأنه أريد وحَسُنَ كلُّ واحد منهم رفيقاً. روي أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أتاه يوماً وقد تغير وجهه ونحل جسمه، فسأله عن حاله فقال: ما بي من وجع غير أني إذا لم أرك اشتَقْت إليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرتُ الآخرة فخِفْتُ أن لا أراك هناك لأني عرفت أنك ترتفع مع النبيين وإن أُدخِلتُ الجنة كنتُ في منزل دون منزلك، وإن لم أُدخَل فذلك حين لا أراك أبداً. فنزلت(٢).

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ١٥) وقال: ذكره أحمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين عن عيسى بن مريم عليه السلام، فوهم بعض الرواة أنه ذكره عن النبي ﷺ فوضع هذا الإسناد عليه لسهولته وقربه، وهذا الحديث لا يحتمل بهذا الإسناد عن أحمد بن حنبل.
وقال الألباني في الضعيفة رقم (٤٢٢): موضوع؛ في الطريق إلى أحمد بن حنبل جماعة لم أعرفهم فلا أدري من وضعه منهم.

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» رقم (٣٧٤): «ذكره الثعلبي بغير سند، ونقله الواحدي في الأسباب ـ ص١٦٥ ـ عن الكلبي. لكن لم يقل في آخره «فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده إلى آخره» حكى ذلك عن جماعة من الصحابة، قال سعيد بن جبير: حدثنا خلف بن خليفة عن عطاء بن السائب، عن الشعبي قال: «جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ فقال له: أنت أحبُّ إليَّ من نفسي وولدي وأهلي ومالي، ولولا أني آتيتك فأراك لكنت: أي سأموت وبكى الأنصاري. فقال له النبي ﷺ: ما يبكيك؟ فقال: ذكرت أنك ستموت مع النبيين عليهم الصلاة والسلام، ونحن إن دخلنا الجنة كنا دونك فأنزل الله على رسوله ﷺ «ومن يطع الله ـ الآية» فقال له: أبشر».
ومن طريقه أخرجه البيهقي في الشعب ـ (٢/ ١٣١ رقم ١٨٣٠) ـ ووصله الطبراني ـ في الكبير (١٢/ ٨٦ ـ ٨٧ =

ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ
ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ
شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ
فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾

(٧٠) ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ إشارةٌ إلى ما للمطيعين من الأجر ومزيد الهداية ومرافقة المنعم عليهم، أو إلى فضل هؤلاء المنعَم عليهم ومزيتهم. ﴿ٱلْفَضْلُ﴾ صفته. ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ خبرُه أو الفضلُ خبرُه ومِنَ الله حال والعامل فيه معنى الإشارة. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ بجزاء من أطاعه، أو بمقادير الفضل واستحقاق أهله.

(٧١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ تيقظوا واستعدوا للأعداء، والحذر والحذر كالأثر والأثر. وقيل ما يحذر به كالحزم والسلاح. ﴿فَٱنفِرُوا۟﴾ فاخرجوا إلى الجهاد. ﴿ثُبَاتٍ﴾ جماعات متفرقة، جمع ثبة من ثَبَّيْت على فلان تثبية إذا ذكرت متفرق محاسنه ويُجمع أيضاً على ثِبين جبراً لما حذف من عجزه. ﴿أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾ مجتمعين كوكبة واحدة، والآية وإن نزلت في الحرب لكن يقتضي إطلاق لفظها وجوبُ المبادرة إلى الخيرات كلها كيفما أمكن قبل الفوات.

(٧٢) ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ الخطاب لعسكر رسول الله ﷺ المؤمنين منهم والمنافقين. والمبطِّئون منافقوهم تثاقلوا وتخلفوا عن الجهاد من بطّأ بمعنى أبطأ وهو لازم، أو ثبّطوا غيرهم كما ثبط ابن أبيّ ناساً يوم أحد، من بطأ منقولاً من بطُؤ كثقل من ثقل. واللام الأولى للابتداء دخلت اسم إن للفصل بالخبر، والثانية جواب قسم محذوف، والقسم بجوابه صلةُ مَنْ والراجع إليه ما استكن في ليبطئن والتقدير: وإن منكم لمَنْ أقسم بالله ليبطئن. ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ كقتل وهزيمة. ﴿قَالَ﴾ أي المبطىء. ﴿قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ حاضراً فيصيبني ما أصابهم.

(٧٣) ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ كفتح وغنيمة. ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ أكده تنبيهاً على فرْط تحسره. وقرىء بضم اللام إعادةً للضمير إلى معنى من. ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ اعتراضٌ بين الفعل ومفعوله

= رقم ١٢٥٥٩) وقال الهيثمي في المجمع (٧/٧): فيه عطاء بن السائب وقد اختلط ـ وعنه ابن مردويه ـ كما في الدر المنثور (٢/٥٨٨) ـ ومن طريق خالد بن عبدالرحمن عن عطاء بن السائب عن الشعبي عن ابن عباس نحوه.
ورواه الطبري ـ (٤/ج٥/١٦٣) ـ من طريق يعقوب القمي عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير نحوه مرسلاً.
ورواه الطبراني في الصغير ـ (١/٢٦) ـ والواحدي ـ في الأسباب ص١٦٦ رقم٢ ـ موصولاً من طريق عبدالله بن عمران العابدي عن فضيل بن عياض عن منصور بن إبراهيم عن الأسود عن عائشة رضي الله عنها قالت: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله والله إنك لأحبّ إليّ من نفسي ـ الحديث بنحوه ـ.
وأخرجه الواحدي ـ في الأسباب ص١٦٥ رقم١ ـ من طريق أخرى عن مسروق قال: قال: أصحاب محمد ﷺ فذكره مختصراً ـ وأخرجه الواحدي أيضاً ص١٦٦ رقم١ ـ من طريق روح عن قتادة كذلك مرسلاً.

وهو ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾ للتنبيه على ضعف عقيدتهم وأن قولهم هذا قولُ مَنْ لا مواصلة بينكم وبينه وإنما يريد أن يكون معكم لمجرد المال، أو حال من الضمير في ليقولن أو داخل في المقول أي يقول المبطىء لمن يبطئه من المنافقين وضعفة المسلمين تضريباً وحسداً، كأن لم يكن بينكم وبين محمد ﷺ مودة حيث لم يستعن بكم فتفوزوا بما فاز يا ليتني كنت معهم. وقيل: إنه متصل بالجملة الأولى وهو ضعيف، إذ لا يفصل أبعاضُ الجملة بما لا يتعلق بها لفظاً ومعنًى. وكأنْ مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن وهو محذوف. وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم ورويس عن يعقوب تكن بالتاء لتأنيث لفظ المودة(١)، والمنادى في يا ليتني محذوف أي: يا قوم وقيل يا أُطلِقُ للتنبيه على الاتساع، فأفوزَ نصب على جواب التمني وقرىء بالرفع على تقدير فأنا أفوز في ذلك الوقت، أو العطف على كنت.

۞ فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

(٧٤) ﴿۞ فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ أي الذين يبيعونها بها، والمعنى إن بطأ هؤلاء عن القتال فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم في طلب الآخرة، أو الذين يشترونها ويختارونها على الآخرة وهم المبطئون، والمعنى حثهم على ترك ما حكي عنهم. ﴿وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ وعد له الأجر العظيم غَلَبَ أو غُلِبَ، ترغيباً في القتال وتكذيباً لقولهم ﴿قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا﴾ وإنما قال ﴿فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ﴾ تنبيهاً على أن المجاهد ينبغي أن يثبت في المعركة حتى يعزّ نفسه بالشهادة أو الدين بالظفر والغلبة، وأن لا يكون قصده بالذات إلى القتل بل إلى إعلاء الحق وإعزاز الدين(٢).

(٧٥) ﴿وَمَا لَكُمۡ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ حال والعامل فيها ما في الظرف من معنى الفعل. ﴿وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ﴾ عطف على اسم الله تعالى أي وفي سبيل المستضعفين وهو تخليصهم من الأسر وصونهم عن العدو، أو على سبيل بحذف المضاف أي وفي خلاص المستضعفين، ويجوز نصبه على الاختصاص فإن سبيل الله تعالى يعم أبواب الخير وتخليصُ ضعفة المسلمين من أيدي الكفار أعظمُها وأخصُّها. ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾ بيان للمستضعفين وهم المسلمون الذين بقُوا بمكة لصد المشركين، أو ضعفهم عن الهجرة مستذلين ممتحنين، وإنما ذكر الولدان مبالغة في الحث وتنبيهاً على

---

(١) وفي الأصل «كأن لم يكن بينكم. . .» بالياء.

(٢) قوله: «فليقاتل في سبيل الله. . .» قدم الظرف «في سبيل» على الفاعل للاهتمام به. وقوله: «فيقتل أو يغلب» قدم القتل للإيذان بتقدمه في استتباع الأجر (س٢/ ٢٠١).

تناهي ظلم المشركين بحيث بلغ أذاهم الصبيان، وأن دعوتهم أجيبت بسبب مشاركتهم في الدعاء حتى يشاركوا في استنزال الرحمة واستدفاع البلية. وقيل المراد به العبيد والإماء وهو جمع وليد. ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ فاستجاب الله دعاءهم بأن يَسَّر لبعضهم الخروج إلى المدينة وجعل لمن بقي منهم خيرَ وليٍّ وناصرٍ بفتح مكة على نبيه صلى الله عليه وسلم، فتولاهم ونصرهم ثم استعمل عليهم عتاب بن أسيد فحماهم ونصرهم حتى صاروا أعزّ أهلها، والقريةُ مكة والظالم صفتُها، وتذكيرُه لتذكير ما أُسند إليه فإن اسم الفاعل أو المفعول إذا جرى على غير من هُوَ لهُ كان كالفعل يذكّر ويؤنث على حسب ما عَمِلَ فيه[1].

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾

(٧٦) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيما يَصِلون به إلى الله سبحانه وتعالى. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ فيما يبلغ بهم إلى الشيطان. ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ لما ذكر مقصد الفريقين أمر أولياءه أن يقاتلوا أولياءَ الشيطان ثم شجعهم بقوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ أي إن كيده للمؤمنين بالإضافة إلى كيد الله سبحانه وتعالى للكافرين ضعيفٌ لا يؤبه به فلا تخافوا أولياءه، فإن اعتمادهم على أضعف شيء وأوهنه.

(٧٧) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ﴾ أي عن القتال. ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ واشتغلوا بما أمرتم به. ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ يخشون الكفار أن يقتلوهم كما يخشون الله أن ينزل عليهم بأسه، وإذا للمفاجأة جوابُ لمّا، وفريق مبتدأ، منهم صفتُه، ويخشون خبرُه، وكخشية الله من إضافة المصدر إلى المفعول، وقع موقع المصدر أو الحال من فاعل يخشون على معنى يخشون الناس مثل أهل خشية الله منه. ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ عطف عليه إن جعلته حالاً وإن جعلته مصدراً فلا، لأن أفعَل التفضيل إذا نصب ما بعده لم يكن من جنسه بل هو معطوف على اسم الله تعالى أي: وكخشية الله تعالى أو كخشيةٍ أشد خشيةً منه على الفرض، اللهم إلا أن تجعل الخشية ذات خشية كقولهم: جَدّ جِدّه على معنى يخشون الناس خشية مثل خشية الله تعالى، أو خشية أشد خشية من خشية الله. ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ استزادة في مدة الكفّ عن

---

(١) قوله «وما لكم» فيه التفات للمبالغة في التحريض عليه وتأكيد وجوبه.
وقوله «واجعل لنا من لدنك ولياً» قدم المجرورين على المفعول الصريح لإظهار الاعتناء بهما وإبراز الرغبة في المؤخر.
وتقديم اللام على مِنْ للمسارعة إلى إبراز كون المسؤول نافعاً لهم مرغوباً فيه لديهم (س٢/ ٢٠٢).

القتال حذراً عن الموت، ويحتمل أنهم ما تفوهوا به ولكن قالوا في أنفسهم فحكى الله تعالى عنهم. ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ سريع التقضي ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي ولا تنقصون أدنى شيء من ثوابكم فلا ترغبوا عنه، أو من آجالكم المقدرة. وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي ولا يُظلمون لتقدم الغيبة[١].

أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

(٧٨) ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ قرىء بالرفع على حذف الفاء كما في قوله:

مَنْ يَفْعَلِ الحسناتِ اللهُ يَشكُرُها

أو على أنه كلام مبتدأ، وأينما متصل بلا تُظلمون. ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ في قصور أو حصون مرتفعة، والبروج في الأصل بيوت على أطراف القصور، من تبرجت المرأةُ إذا ظهرت. وقرىء مَشِيدَة بكسر الياء وصفاً لها بوصف فاعلها كقولهم: قصيدة شاعِرة، ومَشِيدَة من شاد القصر إذا رفعه. ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ كما تقع الحسنة والسيئة على الطاعة والمعصية يقعان على النعمة والبلية، وهما المراد في الآية أي: وإن تصبهم نعمة كخَصْب نسبوها إلى الله سبحانه وتعالى، وإن تصبهم بلية كقحط ضافوها إليك وقالوا إن هي إلا بشؤمك كما قالت اليهود: منذ دخل محمد المدينة نقصت ثمارها وغلت أسعارها. ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي يبسط ويقبض حسب إرادته. ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ يوعظون به وهو القرآن فإنهم لو فهموه وتدبروا معانيه لعلموا أن الكل من عند الله سبحانه وتعالى، أو حديثاً ما كبهائمَ لا أفهام لها، أو حادثاً من صروف الزمان فيفتكرون فيه فيعلمون أن القابض والباسط هو الله سبحانه وتعالى[٢].

(٧٩) ﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾ يا إنسان. ﴿مِنْ حَسَنَةٍ﴾ من نعمة. ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ أي تفضلاً منه، فإن كل ما يفعله الإنسان من الطاعة لا يكافىء نعمة الوجود، فكيف يقتضي غيره، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «ما يدخل أحد الجنة إلا برحمة الله تعالى». قيل ولا أنت؟ قال: «ولا أنا»[٣]. ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾ من

---

(١) قوله: «الذين قيل لهم» ورد بناء القول للمفعول مع أن القائل هو النبي ﷺ للإيذان بكون ذلك بأمر الله تعالى.
وقوله: «إذا فريق منهم يخشون الناس. . .» ولعل توجيه التعجيب إلى الكل مع صدور الخشية من بعضهم للإيذان بأنه ما كان ينبغي أن يصدر عن أحدهم ما ينافي حالتهم الأولى (س٢/ ٢٠٣).

(٢) قوله: «أينما تكونوا. . .» تلوين للخطاب بصرفه عن رسول الله ﷺ إلى المخاطبين اعتناء بإلزامهم إثر بيان حقارة الدنيا وعلو شأن الآخرة بواسطته عليه السلام (س٢/ ٢٠٤).

(٣) أخرجه البخاري (١٠/ ١٢٧ رقم ٥٦٧٣) و(١١/ ٢٩٤ رقم ٦٤٦٣). ومسلم (٤/ ٢١٧٠ رقم ٧٦/ ٢٨١٦) من حديث أبي هريرة.

=

بلية. ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ لأنها السبب فيها لاستجلابها بالمعاصي، وهو لا ينافي قوله سبحانه وتعالى ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ فإن الكل منه إيجاداً وإيصالاً غير أن الحسنة إحسان وامتنان والسيئة مجازاة وانتقام كما قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: «ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب حتى الشوكةُ يشاكُها وحتى انقطاع شَسَع نعله إلا بذنب وما يعفو الله أكثر»[(١)]. والآيتان كما ترى لا حجة فيهما لنا وللمعتزلة. ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ حالٌ قصد بها التأكيدُ إن علق الجارّ بالفعل والتعميمُ إن علّق بها أي رسولاً للناس جميعاً كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾[(٢)] ويجوز نصبه على المصدر كقوله: ولا خَارِجاً مِنْ فِيَّ زُور كَلَامِ. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على رسالتك بنصب المعجزات[(٣)].

﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ۖ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾

(٨٠) ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ لأنه عليه الصلاة والسلام في الحقيقة مُبلِّغ، والآمر هو الله سبحانه وتعالى. روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «من أحبني فقد أحب الله ومن أطاعني فقد أطاع الله». فقال: المنافقون لقد قارف الشرك وهو ينهى عنه، ما يريد إلا أن نتخذه رباً كما اتخذت النصارى عيسى رباً. فنزلت[(٤)]. ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾ عن طاعته. ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب، وهو حال من الكاف[(٥)].

= وأخرج البخاري (١١/ ٢٩٤ رقم ٦٤٦٧) ومسلم (٤/ ٢١٧١ رقم ٧٨/ ٢٨١٨) من حديث عائشة نحوه.
وأخرج مسلم (٤/ ٢١٧١ رقم ٧٧/ ٢٨١٧) من حديث جابر نحوه أيضاً.

(١) هذان حديثان:
فإن حديث عائشة أخرجه البخاري (١٠/ ١٠٣ رقم ٥٦٤٠) ومسلم (٤/ ١٩٩٢ رقم: ٤٩/ ٢٥٧٢) عنها مرفوعاً بلفظ: «ما من مصيبة، تُصيبُ المسلم إلاَّ كفَّرَ اللهُ بها عنه، حتى الشوكةِ يُشَاكَهَا».
وأخرج البخاري (١٠/ ١٠٣ رقم ٥٦٤١، ٥٦٤٢) ومسلم (٤/ ١٩٩٢ رقم ٥٢/ ٢٥٧٣) من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة مرفوعاً بلفظ: «ما يُصيبُ المؤمنَ من وصبٍ، ولا نصبٍ، ولا سَقَمٍ، ولا حزنٍ، حتى الهمِّ يُهَمُّهُ إلاَّ كُفِّرَ به من سيئاته».
وأخرج الترمذي (٥/ ٣٧٨ رقم ٣٢٥٢) من حديث أبي موسى مرفوعاً بلفظ: «لا يصيبُ عبداً نكبَةٌ فما فوقها أو دونها إلا بذنب، وما يعفُو اللهُ عنه أكثر، قال: وقرأ «وما أصابكم من مصيبة... الآية». وفي سنده شيخ من بني مرة مجهول.

(٢) سبأ: «٢٨».

(٣) قوله: «ما أصابك» تلوينٌ للخطاب وتوجيهه لكل واحد من الناس والالتفات فيه لمزيد الاعتناء به والاهتمام برد مقالتهم الباطلة والإيذان بأن مضمونه مبني على حكمة دقيقة حقيقة بأن يتولى بيانها علام الغيوب (س٢/ ٢٠٦).

(٤) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» رقم (٣٧٥): لم أجده.

(٥) قوله: «من يطع الرسول» عبر عنه بالرسول للإيذان بأن مناط كون طاعته عليه السلام طاعة له تعالى ليس =

(٨١) ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ إذا أمرتهم بأمر. ﴿ طَاعَةٌ ﴾ أي أمْرُنا طاعة أو منّا طاعة، وأصلها النصب على المصدر ورفعها للدلالة على الثبات. ﴿ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ ﴾ خرجوا. ﴿ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ ﴾ أي زوّرتْ خلاف ما قلتَ لها، أو ما قالت لك من القبول وضمان الطاعة، والتبييت إما من البيتوتة لأن الأمور تدبر بالليل، أو من بيْت الشعر، أو البيت المبني لأنه يُسوّىٰ ويدبر. وقرأ أبو عمرو وحمزة بَيَّتْ طائفة بالإدغام لقربهما في المخرج. ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ﴾ يثبته في صحائفهم للمجازاة، أو في جملة ما يوحىٰ إليك لتطلع على أسرارهم. ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ قلل المبالاة بهم أو تجافَ عنهم. ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ في الأمور كلها سيما في شأنهم. ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ يكفيك مضرتهم وينتقم لك منهم.

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِۦ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُولِى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾

(٨٢) ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ ﴾ يتأملون في معانيه ويتبصرون ما فيه، وأصل التدبر النظر في أدبار الشيء. ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ ﴾ أي ولو كان من كلام البشر كما تزعم الكفار. ﴿ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ من تناقض المعنى وتفاوت النظم، وكان بعضه فصيحاً وبعضه ركيكاً وبعضه يصعب معارضته وبعضه يسهل، ومطابقةُ بعض أخباره المستقبلة للواقع دون بعض، وموافقةُ العقل لبعض أحكامه دون بعض، على ما دل عليه الاستقراء لنقصان القوة البشرية. ولعل ذِكْره ههنا للتنبيه على أن اختلاف ما سبق من الأحكام ليس لتناقض في الحُكْم بل لاختلاف الأحوال في الحِكَم والمصالح.

(٨٣) ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ ﴾ مما يوجب الأمن أو الخوف. ﴿ أَذَاعُوا بِهِۦ ﴾ أفشوْه كما كان يفعله قوم من ضعفة المسلمين إذا بلغهم خبر عن سرايا رسول الله ﷺ، أو أخبرهم الرسول ﷺ بما أوحي إليه من وعد بالظفر أو تخويف من الكفرة أذاعوا به لعدم حزمهم فكانت إذاعتهم مفسدة. والباء مزيدة أو لتضمن الإذاعة معنى التحدث. ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ ﴾ أي ولو ردوا ذلك الخبر. ﴿ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُولِى الْأَمْرِ مِنْهُمْ ﴾ إلى رأيه ورأي كبار أصحابه البصراء بالأمور، أو الأمراء. ﴿لَعَلِمَهُ ﴾ لَعلم ما أخبروا به على أي وجه يذكر. ﴿ الَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ يستخرجون تدابيره بتجاربهم وأنظارهم. وقيل كانوا يسمعون أراجيف المنافقين فيذيعونها فتعود وبالاً على المسلمين، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم حتى يسمعوه منهم وتعرفوا أنه هل يذاع لعلم ذلك من هؤلاء الذين يستنبطونه من الرسول وأولي الأمر أي: يستخرجون علمه من جهتهم، وأصل الاستنباط إخراج النبط وهو الماء، يخرج من البئر أول ما يحفر. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ بإرسال الرسول وإنزال الكتاب.

= لخصوصية ذاته بل من حيثية رسالته (س٢/ ٢٠٦).

﴿ لَاتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾ والكفر والضلال. ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي إلا قليلاً منكم تفضل الله عليه بعقل راجح اهتدى به إلى الحق والصواب وعصمه عن متابعة الشيطان كزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل، أو إلا اتباعاً قليلاً على الندور.

فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾

(٨٤) ﴿ فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أنْ تثبطوا وتركوك وحدك. ﴿ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ إلا فعل نفسك لا يضرك مخالفتهم وتقاعدهم، فتقدم إلى الجهاد وإن لم يساعدك أحد فإن الله ناصرك لا الجنود. روي أنه عليه الصلاة والسلام دعا الناس في بدر الصغرى إلى الخروج، فكرهه بعضهم. فنزلت. فخرج عليه الصلاة والسلام وما معه إلا سبعون لم يَلْوِ على أحد. وقرىء لا تُكلَّفْ بالجزم ولا نُكَلِّفُ بالنون على بناء الفاعل أي لا نُكلفك إلا فعل نفسك، لا أنّا لا نكلف أحداً إلا نفسك لقوله: ﴿ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ على القتال إذ ما عليك في شأنهم إلا التحريض ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ يعني قريشاً، وقد فعل بأن ألقى في قلوبهم الرعب حتى رجعوا. ﴿ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا ﴾ من قريش. ﴿ وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾ تعذيباً منهم، وهو تقريع وتهديد لمن لم يتبعه.

(٨٥) ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً ﴾ راعىٰ بها حق مسلم ودفع بها عنه ضراً أو جلب إليه نفعاً ابتغاء لوجه الله تعالى، ومنها الدعاء لمسلم قال عليه الصلاة والسلام: «من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له وقال له المَلَك ولك مثلُ ذلك»[1]. ﴿ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾ وهو ثواب الشفاعة والتسبب إلى الخير الواقع بها. ﴿ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً ﴾ يريد بها محرماً. ﴿ يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ﴾ نصيب من وزرها مساوٍ لها في القدر. ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾ مقتدراً من أقات على الشيء إذا قدر قال:

وذِي ضُغْنٍ كَفَفْتُ الضُّغْنَ عَنْهُ ... وكُنْتُ عَلَى مَسَاءَتِهِ مُقِيتا

أو شهيداً حافظاً، واشتقاقه من القُوت فإنه يقوي البدن ويحفظه.

---

(١) أخرج مسلم (٤/ ٢٠٩٤ رقم ٨٦/ ٢٧٣٢) عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ عَبْدٍ مُسلمٍ يَدْعُو لأخيه بظهرِ الغيب إلا قال الملكُ، ولك، بمِثْلٍ».
وأخرج مسلم (٤/ ٢٠٩٤ رقم ٨٨/ ٢٧٣٣) والبخاري في الأدب المفرد رقم (٦٢٥) وأحمد في المسند (٥/ ١٩٥).
عن صفوان (وهو ابن عبدالله بنِ صفوان) وكانت تحته الدَّرداءُ. قال: قدمتُ الشام، فأتيتُ أبا الدرداء في منزله فلم أجده. ووجدتُ أم الدرداءِ فقالت: أتريد الحجَّ العامَ؟ فقلت: نعم. قالت: فادعُ الله لنا بخيرٍ. فإن النبي ﷺ كان يقول: «دعوةُ المرءِ المسلمِ لأخيه، بظهر الغيب مستجابةٌ، عِندَ رأسِهِ مَلَكٌ موكَّلٌ. كلما دَعَا لأخيه بخيرٍ، قال الملكُ المُوكَل به: آمين ولك بمثلٍ».

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ
لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ
وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾

(٨٦) ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ﴾ الجمهور على أنه في السلام، ويدل على وجوب الجواب إما بأحسنَ منه وهو أن يزيد عليه ورحمة الله فإن قاله المسلم زاد وبركاته وهي النهاية، وإما برد مثله لما روي أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: السلام عليك. فقال: «وعليك السلام ورحمة الله». وقال آخر: السلام عليك ورحمة الله. فقال: «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته». وقال آخر: السلام عليك ورحمة الله وبركاته. فقال: «وعليك». فقال الرجل: نقصتني، فأين ما قال الله تعالى، وتلا الآيةَ. فقال صلى الله عليه وسلم: «إنك لم تترك لي فضلاً فرددت عليك مثله»[1]. وذلك لاستجماعه أقسام المطالب السالِمَة عن المضار وحصول المنافع وثباتها، ومنه قيل: أوْ للترديد بين أن يحيِّي المسلمُ ببعض التحية وبين أن يحيي بتمامها، وهذا الوجوب على الكفاية، وحيث السلام مشروعٌ فلا يُرَدُّ في الخطبة وقراءة القرآن وفي الحمام وعند قضاء الحاجة ونحوها. والتحيةُ في الأصل مصدر حياك الله على الإخبار من الحياة، ثم استعمل للحكم والدعاء بذلك، ثم قيل لكل دعاء فغلب في السلام. وقيل المراد بالتحية العطية وواجب الثواب أو الرد على المتهب، وهو قول قديم للشافعي رضي الله تعالى عنه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا﴾ يحاسبكم على التحية وغيرها.

(٨٧) ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ مبتدأ وخبر، أو الله مبتدأ والخبر: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي اللهُ، واللهُ لَيَحشرنكم من قبوركم إلى يوم القيامة، أو مفضين إليه، أو في يوم القيامة، ولا إله إلا هو اعتراض. والقيام والقيامة كالطِّلاب والطِّلابة وهي قيام الناس من القبور أو للحساب. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في اليوم أو في الجمع فهو حال من اليوم، أو صفة للمصدر ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ إنكارٌ أن يكون أحد أكثر صدقاً منه، فإنه لا يتطرق الكذب إلى خبره بوجه لأنه نقص وهو على الله محال.

(٨٨) ﴿۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فما لكم تفرقتم في أمر المنافقين. ﴿فِئَتَيْنِ﴾ أي فرقتين ولم تتفقوا على كفرهم، وذلك أن ناساً منهم استأذنوا رسول الله ﷺ في الخروج إلى البدو لاجتواء المدينة، فلما

---

(١) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (٤/ج٥/ ١٩٠) وابن أبي حاتم وابن مردويه ـ كما في الدر المنثور (٢/ ٦٠٥) ـ والطبراني في الكبير (٦/ ٢٤٦ رقم ٦١١٤) من حديث سلمان وأورده الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٣٣) وقال: «رواه الطبراني وفيه هشام بن لاحق قواه النسائي وترك أحمد حديثه، وبقية رجاله رجال الصحيح» هـ.
وقال السيوطي: سنده حسن.
وأخرج الطبراني في الكبير (١١/ ٣٥٨ رقم ١٢٠٠٧) من حديث ابن عباس.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٣٣) وقال: «رواه الطبراني في الكبير، والأوسط وفيه نافع بن هرمز وهو ضعيف جداً» هـ.
قلت: حديث سلمان يتقوى بحديث ابن عباس إلى درجة الحسن لغيره.

خرجوا لم يزالوا راحلين مرحلة مرحلة حتى لحقوا بالمشركين، فاختلف المسلمون في إسلامهم[(١)]. وقيل نزلت في المتخلفين يوم أحد[(٢)]، أو في قوم هاجروا ثم رجعوا معتلّين باجتواء المدينة والاشتياق إلى الوطن، أو قوم أظهروا الإسلام وقعدوا عن الهجرة[(٣)]. وفئتين حال عاملُها لكم كقولك: ما لك قائماً. وفي المنافقين حال من فئتين أي متفرقتين فيهم، أو من الضمير أي فما لكم تفترقون فيهم، ومعنى الافتراق مستفاد من فئتين. ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ ردهم إلى حكم الكفرة، أو نكَّسهم بأن صيرهم للنار. وأصل الركس ردُّ الشيء مقلوباً. ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ أن تجعلوه من المهتدين. ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ إلى الهدى[(٤)].

وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾

(٨٩) ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾ تمنَّوْا أن تكفروا ككفرهم. ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ فتكونون معهم سواء في الضلال، وهو عطف على تكفرون ولو نُصِب على جواب التمني لجاز. ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فلا توالوهم حتى يؤمنوا وتتحققوا إيمانهم بهجرة هي لله ورسوله لا لأغراض الدنيا، وسبيل الله ما أمر بسلوكه. ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن الإيمان الظاهر بالهجرة أو عن إظهار الإيمان. ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ كسائر الكفرة. ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي جانبوهم رأساً ولا تقبلوا منهم ولاية ولا نصرة.

(٩٠) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ استثناء من قوله فخذوهم واقتلوهم أي: إلا الذين يتصلون وينتهون إلى قوم عاهدوكم ويفارقون محاربتكم. والقوم هم خزاعة. وقيل: هم الأسلميون فإنه عليه الصلاة والسلام وادَعَ وقت خروجه إلى مكة هلال بن عويمر الأسلمي على أن لا يعينه ولا يعين عليه، ومن لجأ إليه فله من الجوار مثل ماله. وقيل بنو بكر بن زيد مناة. ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ﴾

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ١٩٢) عن أبي سلمة. بلفظ مقارب.
قلت: ابن إسحاق مدلس وقد عنعن، وروايته هذه مخالفة للحديث الذي سيأتي بعد هذا الحديث.

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ٩٦ رقم ١٨٨٤) و(٧/ ٣٥٦ رقم ٤٠٥٠) و(٨/ ٢٥٦ رقم ٤٥٨٩). ومسلم (٤/ ٢١٤٠ رقم ٦/ ٢٧٧٦) من حديث زيد بن ثابت.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان (٤/ ج٥/ ١٩٣) بسند ضعيف.

(٤) قوله «أتريدون أن تهدوا من أضل الله» وضع الموصول موضع ضمير المنافقين لتشديد الإنكار وتأكيد استحالة الهداية بما ذكر في حيز الصلة.
وتوجيه الإنكار إلى الإرادة لا إلى متعلقها كأن يقال: أتهدون..؟ للمبالغة في إنكاره ببيان أنه مما لا يمكن إرادته فضلاً عن إمكان نفسه (س٢/ ٢١٣).

عطف على الصلة، أي أو الذين جاؤوكم كافين عن قتالكم وقتال قومهم، استثني من المأمور بأخذهم وقتلهم مَنْ ترك المحاربين فلحق بالمعاهدين، أو أتى الرسول ﷺ وكف عن قتال الفريقين، أو على صفةِ قومٍ وكأنه قيل: إلا الذين يصلون إلى قوم معاهدين، أو قوم كافين عن القتال لكم وعليكم. والأول أظهر لقوله، فإن اعتزلوكم». وقرىء بغير العاطف على أنه صفةٌ بعد صفة، أو بيانٌ لِيَصِلون، أو استئناف. ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ حال بإضمار قد، ويدل عليه أنه قرىء حَصِرةً صدورُهم وحَصِراتٍ صدُورُهم، أو بيان لجاءوكم، وقيل صفة محذوف أي جاؤوكم قوماً حصرت صدورهم، وهم بنو مدلج جاؤوا رسول الله ﷺ غير مقاتلين. والحصر الضيق والانقباض. ﴿أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ أي عن أن، أو لأن، أو كراهة أن يقاتلوكم. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ بأن قوّى قلوبهم وبسط صدورهم وأزال الرعب عنهم. ﴿فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ ولم يكفوا عنكم. ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ فإن لم يتعرضوا لكم. ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ الاستسلام والانقياد. ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ فما أذن لكم في أخذهم وقتلهم.

سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾

(٩١) ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ هم أسد وغطفان، وقيل بنو عبدالدار أتوا المدينة وأظهروا الإسلام ليأمنوا المسلمين فلما رجعوا كفروا. ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ﴾ دُعوا إلى الكفر وإلى قتال المسلمين. ﴿أُرْكِسُوا۟ فِيهَا﴾ عادوا إليها وقُلِبوا فيها أقبح قلب. ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ وينبذوا إليكم العهد. ﴿وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن قتالكم. ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ حيث تمكنتم منهم فإن مجرد الكف لا يوجب نفي التعرض. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ حجة واضحة في التعرض لهم بالقتل والسبي لظهور عداوتهم ووضوح كفرهم وغدرهم، أو تسلطاً ظاهراً حيث أذنّا لكم في قتلهم.

(٩٢) ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ وما صح له وليس من شأنه. ﴿أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ بغير حق. ﴿إِلَّا خَطَـًٔا﴾ فإنه على عرضته. ونصبُه على الحال أو المفعول له أي: لا يقتلُه في شيء من الأحوال إلا حالَ الخطأ أو لا يقتلُه لعلة إلا للخطأ، أو على أنه صفةُ مصدر محذوف أي إلا قتلاً خطأ. وقيل: «ما كان» نفيٌ في معنى النهي. والاستثناء منقطع أي لكن إنْ قتله خطأ فجزاؤه ما يُذكر. والخطأ ما لا يضامّه القصد إلى الفعل أو الشخص، أو لا يقصد به زهوق الروح غالباً، أو لا يقصد به محظور كرمي مسلم في

صف الكفار مع الجهل بإسلامه، أو يكون فعلُ غير المكلَّف. وقرىء خَطَاءً بالمد وخَطا كعصا بتخفيف الهمزة. والآية نزلت في عياش بن أبي ربيعة أخي أبي جهل من الأم، لقي حارث بن زيد في طريق وكان قد أسلم ولم يشعر به عياشٌ فقتله[١]. ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي فعليه أو فواجبه تحرير رقبة والتحريرُ الإعتاق، والحر كالعتيق للكريم من الشيء ومنه حر الوجه لأكرم موضع منه، سمي به لأن الكَرَم في الأحرار واللؤم في العبيد. والرقبةُ عبر بها عن النَّسَمة كما عبر عنها بالرأس. ﴿مُّؤْمِنَةٍ﴾ محكومٍ بإسلامها وإن كانت صغيرة. ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ مؤداة إلى ورثته يقتسمونها كسائر المواريث، لقول ضحاك بن سفيان الكلابي[٢]: كَتَب إليَّ رسول الله ﷺ يأمرني أن أورِّث امرأة أشيم الضبابي من عَقْلِ زوجها. وهي على العاقِلَة، فإن لم تكن فعلىٰ بيت المال، فإن لم يكن ففي ماله. ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ إلا أن يتصدقوا عليه بالدية، سمي العفو عنها صدقة حثاً عليه وتنبيهاً على فضله، وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «كل معروف صدقة»[٣]. وهو متعلق بعَلَيْه، أو بمُسَلَّمة، أي تجب الدية عليه أو يسلِّمها إلى أهله إلا حالَ تصدقهم عليه، أو زمانُه فهو في محل النصب على الحال من القاتل أو الأهلِ أو الظرفِ. ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي فإن كان المؤمن المقتول من قوم كفار محاربين، أو في تضاعيفهم ولم يُعْلم إيمانُه فعلىٰ قاتله الكفارة دون الدية لأهله إذ لا وراثة بينه وبينهم ولأنهم محاربون. ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي وإن كان من قوم كفرة معاهَدين أو أهل الذمة فحكمُه حكمُ المسلمين في وجوب الكفارة والدية، ولعله فيما إذا كان المقتول معاهَداً أو كان له وارث مسلم. ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ رقبة بأنْ لم يملكها ولا ما يُتَوصلُ به إليها. ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ فعليه أو فالواجب عليه صيام شهرين متتابعين. ﴿تَوْبَةً﴾ نصب على المفعول له أي شَرَع ذلك توبةً، مِنْ تاب الله عليه إذا قَبِلَ توبته، أو على المصدر أي وتاب الله عليكم توبة، أو الحال بحذف مضاف أي فعليه صيام شهرين ذا توبة. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ صِفَتُها. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بحاله. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما أمر في شأنه.

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» ذكره الثعلبي بغير سند، والواحدي ـ ص١٦٩ ـ ١٧٠ ـ عن الكلبي.
ورواه الطبري ـ في جامع البيان (٤/ج٥/٢٠٤) ـ من طريق أسباط عن السدي بتغيير يسير. ـ قلت: سنده ضعيف ـ ولم يسم الحارث. فقال: ومعه رجل من بني عامر. وقال ابن إسحاق في المغازي: حدثني نافع عن ابن عمر عن أبيه قال: «أبعدت أنا وعياش عن أبي ربيعة هشام بن العاص، لما أردنا الهجرة، فأصبحت أنا وعياش. وحبس عنا هشام وفتي. وخرج أبو جهل وأخوه الحارث إلى عياش بالمدينة فكلماه وقالا له: إنَّ أمك نذرت أن لا تمسَّ رأسها بمشط، فذكر القصة بطولها» هـ.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (٢/٨٦٦ رقم ٩) والترمذي (٤/٢٧ رقم ١٤١٥) من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب أن عمر كان يقول: الدية على العاقلة، ولا ترث المرأة من دية زوجها شيئاً حتى أخبرَهُ الضحاك بن سفيان الكِلابي أن رسول الله. . . فذكره.
وقال الترمذي: حديث حسن صحيح وهو كما قال.

(٣) أخرجه البخاري (١٠/٤٤٧ رقم ٦٠٢٢) من حديث جابر.
وأخرجه مسلم (٢/٦٩٧ رقم ٥٢/١٠٠٥) من حديث حذيفة.

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾

(٩٣) ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ لما فيه من التهديد العظيم. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لا تقبل توبة قاتل المؤمن عمداً[١]، ولعله أراد به التشديد إذ روي عنه خلافه، والجمهور على أنه مخصوص بمن لم يتب لقوله تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾[٢] ونحوه، وهو عندنا إما مخصوص بالمُستحِلِّ له كما ذكره عكرمة[٣] وغيره، ويؤيده أنه نزل في مقيس بن ضبابة[٤] وجد أخاه هشاماً قتيلاً في بني النجار ولم يَظْهَر قاتلُه، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يدفعوا إليه ديتَه، فدفعوا إليه، ثم حمل على مسلم فقتله ورجع إلى مكةمرتداً[٥]، أو المرادُ بالخلود المكث الطويل فإن الدلائل متظاهِرَة على أن عصاة المسلمين لا يدوم عذابهم.

(٩٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ سافرتم وذهبتم للغزو. ﴿فَتَبَيَّنُوا۟﴾ فاطلبوا بيان الأمر وثباته ولا تعجلوا فيه. وقرأ حمزة والكسائي فتثبتوا في الموضعين هنا وفي الحجرات، من التثبت. ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ﴾ لمن حياكم بتحية الإسلام. وقرأ نافع وابن عامر وحمزة السَّلَمَ بغير الألف أي الاستسلام والانقياد، وفُسر به السلام أيضاً. ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ وإنما فعلتَ ذلك متعوِّذاً. وقرىء مُؤْمَناً بالفتح أي مبذولاً له الأمان. ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ تطلبون ماله الذي هو حطام سريع النفاذ، وهو حال من الضمير في تقولوا مُشْعِر بما هو الحامل لهم على العجلة وترك التثبت. ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ﴾ لكم. ﴿كَثِيرَةٌ﴾ تغنيكم عن قتل أمثاله لمالِه. ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾ أي أول ما دخلتم في الإسلام تفوَّهتم بكلمتي الشهادة فحصُنت بها دماؤكم وأموالكم من غير أن يُعْلَمَ مواطأةُ قلوبكم ألسنتكم. ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بالاشتهار بالإيمان والاستقامة في الدين. ﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ وافعلوا بالداخلين في الإسلام كما فَعَل اللهُ بكم، ولا تبادروا إلى قتلهم ظناً بأنهم دخلوا فيه اتقاء وخوفاً، فإن إبقاء ألْفِ كافر أهون عند الله من قتل امرىء مسلم. وتكريره تأكيدٌ لتعظيم الأمر وترتيبِ الحكم على ما ذُكر من حالهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ عالماً به

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٤٩٣ رقم ٤٧٦٤). ومسلم (٤/ ٢٣١٨ رقم ١٩/ ٣٠٢٣) من رواية سعيد بن جبير عنه.

(٢) طه: «٨٢».

(٣) عكرمة ص١/ ١٤٧ أبي السعود.

(٤) قيس بن ضبابة: استثناه رسول الله ﷺ يوم الفتح ممن أمّنه فقتل وهو متعلق بأستار الكعبة.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن جبير (روح المعاني ٥/ ١١٥).

وبالغرض منه فلا تتهافتوا في القتل واحتاطوا فيه. روي أن سرية رسول الله ﷺ غزت أهل فِدْك فهربوا وبقي مرداس ثقةً بإسلامه، فلما رأى الخيل ألجأ غنمه إلى عاقولٍ من الجبل وصعِد، فلما تلاحقوا به وكبّروا كبّر ونزل وقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله السلام عليكم، فقتله أسامة واستاق غنمه(١) وقيل نزلت في المقداد مر برجل في غنيمة فأراد قتله فقال: لا إله إلا الله. فقتله وقال: وَدّ لو فرّ بأهله وماله(٢). وفيه دليل على صحة إيمان المكْرَه(٣) وأن المجتهد قد يخطىء وأن خطأه مغتفر.

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾

(٩٥) ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ عن الحرب. ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في موضع الحال من القاعدين، أو من الضمير الذي فيه. ﴿غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾ بالرفع صفة للقاعدون لأنه لم يُقْصد به قوم بأعيانهم، أو بدل منه. وقرأ نافع وابن عامر والكسائي بالنصب على الحال أو الاستثناء، وقرىء بالجرّ على أنه صفة للمؤمنين أو بدل منه. وعن زيد بن ثابت أنها نزلت ولم يكن فيها غير أولي الضرر فقال ابن أم مكتوم: وكيف وأنا أعمىٰ؟ فغشِيَ رسولَ الله ﷺ في مجلسه الوحيُ، فوقعت فخِذُه على فخذي حتى خشيت أن ترضّها ثم سري عنه فقال: «اكتب ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾»(٤) أي لا مساواة بينهم وبين من قعد عن الجهاد من غير علة، وفائدتُه تذكير ما بينهما من التفاوت ليرغب القاعد في الجهاد رفعاً لرتبته وأَنَفة عن انحطاط منزلته. ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» رقم (٣٨٩): أخرجه الثعلبي من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.
قلت: سنده هالك.
وأخرجه الطبري في «جامع البيان (٤/ج٥/ ٢٢٤) من رواية أسباط عن السدي بتغيير يسير.
وقد أخرج البخاري (٧/ ٥١٧ رقم ٤٢٦٩) و(١٢/ ١٩١ رقم ٦٨٧٢) ومسلم (١/ ٩٦ ـ ٩٧ رقم ١٥٨، ١٥٩/ ٩٦) كلاهما من طريق أبي طبيان عن أسامة بن زيد، قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية، فصبحنا الحرقات من جهينة فأدركت رجلاً فقال: «لا إله إلا الله فطعنته فوقع في نفسي من ذلك فذكرته للنبي ﷺ فقال: أقال لا إله إلا الله وقتلته؟ قلت: يا رسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح، قال: «أفلا شققت عن قلبه» إلى آخر الحديث.
(٢) أخرجه البزار (كشف الأستار ٣/ ٤٥) وقال الهيثمي: إسناده جيد (المجمع ٧/ ٨ ـ ٩).
(٣) قوله (وفيه دليل على صحة إيمان المكره) ليس على إطلاقه فهو يعد بظاهره مسلماً وأمره إلى الله تعالى، إذ لا يعرف حقيقة الإيمان إلا الله تعالى.
(٤) أخرجه البخاري (٦/ ٤٥ رقم ٢٨٣٢) و(٨/ ٢٥٩ رقم ٤٥٩٢) من رواية مروان بن الحكم عن زيد بن ثابت نحوه. وأخرجه أبو داود (٣/ ٢٤ رقم ٢٥٠٧) والحاكم (٢/ ٨١ ـ ٨٢) من رواية خارجة بن زيد عن زيد بن ثابت بنحوه أيضاً.
قلت: وقد أخرج البخاري (٦/ ٤٥ رقم ٢٨٣١) ومسلم (٣/ ١٥٠٨ رقم ١٤١/ ١٨٩٨) من حديث البراء بن عازب أيضاً نحوه.
=

﴿وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ جملة موضِّحة لما نُفي الاستواء فيه، والقاعدون على التقييد السابق، ودرجةً نُصِبَ بنزع الخافض أي بدرجة، أو على المصدر لأنه تضمن معنى التفضيل ووقع موقع المَرَّة منه، أو الحال بمعنى ذوي درجة. ﴿وَكُلًّا﴾ من القاعدين والمجاهدين. ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ المثوبة الحسنى وهي الجنة لحسن عقيدتهم وخلوص نيتهم، وإنما التفاوت في زيادة العمل المقتضي لمزيد الثواب. ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ نُصِب على المصدر لأن فَضل بمعنى أجر، أو المفعول الثاني له لتضمنه معنى الإعطاء كأنه قيل: وأعطاهم زيادة على القاعدين أجراً عظيماً.

(٩٦) ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ كل واحد منها بدل من أجراً، ويجوز أن ينتصب درجات على المصدر كقولك: ضربته أسواطاً، وأجراً على الحال عنها تقدمت عليها لأنها نكرة، ومغفرة ورحمة على المصدر بإضمار فعليهما. كرّر تفضيل المجاهدين وبالغ فيه إجمالاً وتفصيلاً تعظيماً للجهاد وترغيباً فيه وقيل: الأول ما خولهم في الدنيا من الغنيمة والظفر وجميل الذكر، والثاني ما جعل لهم في الآخرة. وقيل المراد بالدرجة الأولى ارتفاع منزلتهم عند الله سبحانه وتعالى، وبالدرجات منازلهم في الجنة. وقيل القاعدون الأول هم الأضرّاء والقاعدون الثاني هم الذين أُذن لهم في التخلف اكتفاء بغيرهم. وقيل المجاهدون الأولون من جاهد الكفار والآخرون من جاهد نفسه وعليه قوله عليه الصلاة والسلام «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»[١]. ﴿وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لما عسىٰ أن يفرط منهم. ﴿رَّحِيمًا﴾ بما وعد لهم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾

(٩٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يحتمل الماضي والمضارع، وقرىء توفتهم وتُوَفَّاهم على مضارع وَفيت بمعنى أن الله يوفي الملائكةَ أنفسَهم فيتوفونها أي يمكنهم من استيفائها فيستوفونها. ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ في حال ظلمهم أنفسهم بترك الهجرة وموافقة الكفرة فإنها نزلت في أناس من مكة أسلموا ولم يهاجروا حين كانت الهجرة واجبة[٢]. ﴿قَالُوا۟﴾ أي الملائكة توبيخاً لهم. ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ في أي شيء كنتم من أمر دينكم؟ ﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ اعتذروا مما وُبّخوا به بضعفهم وعجزهم عن الهجرة، أو عن إظهار الدين وإعلاء كلمة الله. ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي الملائكة تكذيباً لهم أو تبكيتاً ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه (٣/ ٥٢٣ ـ ٥٢٤) في ترجمة واصل بن حمزة، وأخرجه البيهقي في الزهد (رقم ٣٧٤ ص١٩٨) بلفظ: أنه عليه السلام قال: «قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» قيل: وما الجهاد الأكبر؟ قال: «مجاهدة العبد هواه». وفي سنده ليث بن أبي سليم وهو ضعيف، وفيه غيره.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٢٠٥، ٢٧٢) بلفظ «إن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين فكثروا سواد المشركين فيأتي السهم برماية فيصيب أحدهم فيقتله أو يضرب فيقتل فأنزل الله عز وجل فيهم «إن الذين توفّاهم الملائكة» الآية.

قلت: وقد أخرج هذا الحديث البخاري (٨/ ٢٦٢ رقم ٤٥٩٦) و(١٣/ ٣٧ رقم ٧٠٨٥).

فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ إلى قطر آخر كما فعل المهاجرون إلى المدينة والحبشة. ﴿فَأُولَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ لتركهم الواجب ومساعدتهم الكفار. وهو خبر إنّ، والفاء فيه لتضمن الاسم معنى الشرط، وقالوا فيمَ كنتم حالٌ من الملائكة بإضمار قد، أو الخبر قالوا والعائد محذوف أي قالوا لهم، وهو جملة معطوفة على الجملة التي قبلها مستنتجة منها. ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ مصيرهم نار جهنم. وفي الآية دليل على وجوب الهجرة من موضع لا يتمكن الرجل فيه من إقامة دينه، وعن النبي صلى الله عليه وسلم «من فرّ بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض استوجبت له الجنة، وكان رفيق أبيه إبراهيم ونبيه محمد عليهما الصلاة والسلام»[1].

إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾

(٩٨) ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ استثناء منقطع لعدم دخولهم في الموصول وضميرِه والإشارةُ إليه. وذِكْر الولد إن أريد به المماليك فظاهر، وإن أريد به الصبيان فللمبالغة في الأمر والإشعارِ بأنهم على صدد وجوب الهجرة، فإنهم إذا بَلغوا وقَدِروا على الهجرة فلا محيص لهم عنها وأن قوامهم يجب عليهم أن يهاجروا بهم متى أمكنت. ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ صفة للمستضعفين إذ لا توقيت فيه، أو حال منه أو من المستكن فيه. واستطاعة الحيلة وُجدانُ أسباب الهجرة وما تتوقف عليه، واهتداء السبيل معرفة الطريق بنفسه أو بدليل.

(٩٩) ﴿فَأُولَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ ذُكِر بكلمة الإطماع ولفظ العفو إيذاناً بأن ترك الهجرة أمر خطير حتى إن المضطر من حقه أن لا يأمن ويترصد الفرصة ويعلق بها قلبه. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

(١٠٠) ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا﴾ متحوَّلاً من الرَّغام وهو التراب. وقيل طريق يُرَاغِم قومه بسلوكه أي يفارِقُهم على رغم أنوفهم وهو أيضاً من الرَّغام[2]. ﴿وَسَعَةً﴾ في الرزق وإظهار الدين. ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ﴾ وقرىء يُدْرِكُه بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي ثم هو يدركه، وبالنصب على إضمار أنْ كقوله:

سَأَتْرُكُ مَنْزِلِي لِبَنِي تَمِيمٍ وأَلْحَقُ بِالحِجَازِ فَأَسْتَرِيحا

﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ الوقوع والوجوب متقاربان، والمعنى: ثبت أجره عند الله

---

(١) أخرجه الثعلبي في تفسير العنكبوت من رواية عباد بن منصور الناجي عن الحسن مرسلاً ـ كما في الكافي الشافِ رقم (٣٩٢) ـ قلت: مراسيل الحسن لا تقبل.

(٢) قوله «يجد في الأرض مراغماً..» عبر عنه بذلك لما فيه من الإشعار بكون ذلك المتحول بحيث يصل فيه المهاجرين الخير والنعمة إلى ما يكون سبباً لرغم أنف قومه الذين هاجرهم (س٢/ ٢٢٤).

تعالى ثبوت الأمر الواجب. والآية الكريمة نزلت في جندب بن ضمرة[١] حَمَلَه بنوه على سرير متوجهاً إلى المدينة، فلما بلغ التنعيم أشرف على الموت فصفق بيمينه على شماله فقال: اللهم هذه لك وهذه لرسولك أبايعُك على ما بايع عليه رسولُك صلى الله عليه وسلم فمات[٢].

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾

(١٠١) ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ سافرتم. ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ بتنصيف ركَعاتها. ونفيُ الحرج فيه يدل على جوازه دون وجوبه، ويؤيده أنه عليه الصلاة والسلام أتمّ في السفر[٣]، وأن عائشة رضي الله تعالى عنها اعتمرت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت: يا رسول الله قَصَرْت وأتممت وصمت وأفطرت. فقال: «أحسنت يا عائشة»[٤]، وأوجبه أبو حنيفة لقول عمر رضي الله تعالى عنه: صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم صلى الله عليه وسلم[٥]، ولقول عائشة رضي الله

---

(١) جندب بن ضمرة هو: ولعله ضمرة بن جندب.
رجح ابن حجر أن اسمه جندع بن ضمرة (الإصابة ١/ ٢٥١ رقم ١٢٣٢) الإصابة القسم الأول من حرف الضاد ٢/ ٢١٣.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٢٧٢ رقم ١١٧٠٩) وأبو يعلى (٥/ ٨١ رقم ٣٥٢/ ٢٦٧٩).
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٠) وقال: رواه أبو يعلى ورجاله ثقات.
وأخرجه الطبري في جامع البيان (٤/ج٥/ ٢٤٠) عن ابن عباس بإسناد صحيح نحوه.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٢/ ٤٥٢) والبزار (١/ ٣٢٩ رقم ٦٨٢) والدارقطني (٢/ ١٨٩ رقم ٤٤) والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ١٤١) كلهم عن عطاء عن عائشة رضي الله عنها.
ونقل البيهقي عن الدارقطني أن هذا إسناد صحيح. وقال: لهذا شاهد من حديث دلهم بن صالح، والمغيرة بن زياد، وطلحة بن عمرو وكلهم ضعيف.
وقال ابن قيم الجوزية في (زاد المعاد): (١/ ٤٦٥): «إن النبي ﷺ كان يقصُر دائماً، فركب بعض الرواة من الحدثين حديثاً، وقال: فكان رسول الله ﷺ يقصُر وتتم هي، فغلط بعضُ الرواة، فقال: كان يقصُرُ ويُتِمُّ، أي: «هو» هـ.

(٤) أخرجه النسائي (٣/ ١٢٢ رقم ١٤٥٦) والدارقطني (٢/ ١٨٨ رقم ٤٠) والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ١٤٢).
قال البيهقي: الأول متصل وهو إسناد حسن وعبدالرحمن قد أدرك عائشة فدخل عليها وهو مراهق.
وحكم الدارقطني على الحديث بالاتصال. لكن شيخ الإسلام ابن تيمية حكم عليه بالانقطاع، بين عبدالرحمن بن أسود وعائشة. وضَعّف الحديث بسبب هذا الانقطاع، وبدليل أن النبي ﷺ لم يعتمر في رمضان، كما هو مستفاض، ولم تكن عائشة تخالف النبي ﷺ، وهو يصلي بأصحابه مقصراً [مجموع الفتاوى (٢٤/ ١٤٤ ـ ١٥٥)].
وحكم الألباني في الإرواء (٣/ ٨ ـ ٩) عليه بالنكارة.
وخلاصة القول أن حديث عائشة منكر والله أعلم.

(٥) أخرجه النسائي (٣/ ١١١ رقم ١٤٢٠) و(٣/ ١١٨ رقم ١٤٤٠) و(٣/ ١٨٣ رقم ١٥٦٦) وابن ماجة (١/ ٣٣٨ رقم ١٠٦٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٢٠٠) من طرق عنه.
وهو حديث صحيح. انظر الإرواء (٣/ ١٠٥ ـ ١٠٦).

تعالى عنها أول ما فرضت الصلاة فرضت ركعتين ركعتين فأقِرت في السفر وزيدت في الحضر[(١)]. فظاهرهما يخالف الآية الكريمة، فإن صحّا فالأول مؤوّل بأنه كالتامّ في الصحة والإجزاء، والثاني لا ينفي جواز الزيادة فلا حاجة إلى تأويل الآية: بأنهم أَلِفُوا الأربع فكانوا مظنةً لأن يخطر ببالهم أن ركعتي السفر قَصْر ونقصان، فسمي الإتيان بهما قصراً على ظنهم، ونفي الجناح فيه لتطيب به نفوسُهم. وأقل سفر تُقصر فيه أربعة بُرُد عندنا وستة عند أبي حنيفة[(٢)]. قرىء تُقْصِرُوا من أقصر بمعنى قصر. ومِنَ الصلاة صفةُ محذوفٍ أي: شيئاً من الصلاة عند سيبويه ومفعولُ تَقْصُروا بزيادة من عند الأخفش. ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ شريطةٌ باعتبار الغالب في ذلك الوقت، ولذلك لم يُعْتبر مفهومها كما لم يُعتبر في قوله تعالى ﴿فإن خفتم أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾ وقد تظاهرت السنن على جوازه أيضاً في حال الأمن. وقرىء مِنَ الصلاة أنْ يفتنكم بغير إنْ خِفتم، بمعنى كراهةَ أن يفتنكم وهو القتال والتعرّض بما يُكْرَه.

---

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٥٦٩ رقم ١٠٩٠) ومسلم (١/ ٤٧٨ رقم ٦٨٥) كلاهما من طريق ابن عيينه عن الزهري عن عروة عنها.
وفيه: قال الزهري: قلت لعروة: فما بال عائشة كانت تتم في السفر؟
قال: تأولت كما تأول عثمان.
وقال الحافظ: والمنقول أن سبب إتمام عثمان أنه كان يرى القصر مختصاً بمن كان شاخصاً سائراً، وأما من أقام في مكان في أثناء سفره، فله حكم المقيم فيتم والحجة فيه ما رواه أحمد (٤/ ٩٤) بإسناد حسن عن عباد بن عبدالله بن الزبير قال: لما قدم علينا معاوية حاجاً. صلى بنا الظهر ركعتين بمكة، ثم انصرف إلى دار الندوة، فدخل عليه مروان وعمرو بن عثمان، فقالا: لقد عبت أمر ابن عمك لأنه كان قد أتم الصلاة، قال: وكان عثمان حين أتم الصلاة إذا قدم مكة صلى بها الظهر والعصر والعشاء أربعاً أربعاً، ثم إذا خرج إلى منى وعرفة قصر الصلاة، فإذا فرغ من الحج وأقام بمنى، أتم الصلاة.

(٢) ما وقع الخلاف فيه في وجوب القصر وعدمه بين الأحناف والشافعية لكل فريق منهم دليله من صحيح السنة.
أما مسافة القصر وهي أربعة بُرُد عند الشافعية وستة عند أبي حنيفة. ـ والبريد مسافة اثني عشر ميلاً ـ فقد صح من السنة والآثار خلافه، وأصح حديث وأصرحه في الباب حديث أنس حيث قال: كان النبي ﷺ إذا خرج مسيرة ثلاثة أميال أو فراسخ يصلي ركعتين. ـ رواه مسلم ـ وغيره.
وقد قال عنه ابن حجر في فتح الباري: (وهو أصح حديث ورد في بيان ذلك وأصرحه).
ولا داعي لرد الحديث باضطرابه، وخاصة إذا أخذنا بالأكثر وهو ثلاثة فراسخ.

وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾

(١٠٢) ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تعلّقَ بمفهومه من خَصَّ صلاة الخوف بحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم لفضل الجماعة، وعامةُ الفقهاء على أنه تعالى عَلَّم الرسول صلى الله عليه وسلم كيفيتها ليأتم به الأئمة بعده فإنهم نوّاب عنه فيكون حضورُهم كحضوره. ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ فاجعلهم طائفتين فلْتَقم إحداهما معك يصلون وتقوم الطائفة الأخرى تجاه العدو. ﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ أي المصلون حزماً. وقيل الضمير للطائفة الأخرى، وذِكْر الطائفة الأولى يدل عليهم[1]. ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ﴾ يعني المصلين. ﴿فَلْيَكُونُواْ﴾ أي غير المصلين. ﴿مِن وَرَآئِكُمْ﴾ يحرسونكم يعني النبي صلى الله عليه وسلم ومن يصلي معه، فغلّب المخاطَب على الغائب. ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ﴾ لاشتغالهم بالحراسة. ﴿فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ ظاهرُه يدل على أن الإمام يصلي مرتين بكل طائفة مرة كما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ببطن نخل، وإن أريد به أَنْ يصلي بكلٍّ ركعةً إن كانت الصلاة ركعتين، فكيفيتُه: أن يصلي بالأولى ركعة وينتظر قائماً حتى يتموا صلاتهم منفردين ويذهبوا إلى وجه العدو، وتأتي الأخرى فيتم بهم الركعة الثانية. ثم ينتظر قاعداً حتى يتموا صلاتهم ويسلموا بهم كما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم بذات الرقاع. وقال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه: يصلي بالأولى ركعة ثم تذهب هذه وتقف بإزاء العدو وتأتي الأخرى فتصلي معه ركعة، ويتم صلاته ثم تعود إلى وجه العدو، وتأتي الأولى فتؤدي الركعة الثانية بغير قراءة وتتم صلاتها ثم تعود وتأتي الأخرى فتؤدي الركعة بقراءة وتتم صلاتها. ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ جعَل الحِذر آلةً يَتحصّن بها المغازي فجمع بينه وبينَ الأسلحة في وجوب الأخذ، ونظيرُه قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾[2] ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ تمنوْا أن ينالوا منكم غِرّةً في صلاتكم فيشدون عليكم شدة واحدة، وهو بيان ما لأجله أُمروا بأخذ الحذر والسلاح. ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ﴾ رخصة لهم في وَضْعها إذا ثقل عليهم أخذها بسبب مطر أو مرض، وهذا مما يؤيد أن الأمر بالأخذ للوجوب دون الاستحباب. ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ أمرهم مع ذلك بأخذ الحذر كي لا يهجم عليهم العدو. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ وعد للمؤمنين بالنصر على الكفار بعد الأمر بالحزم لتقوى قلوبُهم وليعلموا أن الأمر بالحزم ليس لضعفهم وغلبة

---

(١) أي لا يضعوها ولا يلقوها، وإنما عبر عن ذلك بالأخذ للإيذان بالاعتناء باستصحابها كأنهم يأخذونها ابتداء (س٢/ ٢٢٧).

(٢) الحشر: «٩».

عدوهم، بل لأن الواجب أن يحافظوا في الأمور على مراسم التيقظ والتدبر فيتوكلوا على الله سبحانه وتعالى.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَىٰكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾

(١٠٣) ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ﴾ أديتم وفرغتم منها. ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ فداوموا على الذكر في جميع الأحوال، أو إذا أردتم أداء الصلاة واشتد الخوف فأدّوها كيفما أمكن، قياماً مسايِفين ومقارعين، وقعوداً مُرامين وعلى جنوبكم مُثخَنين. ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ﴾ سكنت قلوبكم من الخوف. ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ فعدِّلوا واحفظوا أركانها وشرائطها وائتوا بها تامة. ﴿إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ فرضاً محدود الأوقات لا يجوز إخراجها عن أوقاتها في شيء من الأحوال. وهذا دليل على أن المراد بالذكر الصلاة وأنها واجبةُ الأداء حال المسايَفة والاضطراب في المعركة، وتعليلٌ للأمر بالإيتاء بها كيفما أمكن. وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى لا يصلي المحارب حتى يطمئنّ.

(١٠٤) ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ ولا تضعفوا. ﴿فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ في طلب الكفار بالقتال. ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ إلزام لهم وتقريع على التواني فيه، بأن ضرر القتال دائر بين الفريقين غير مختص بهم، وهم يرجون من الله بسببه من إظهار الدين واستحقاق الثروات ما لا يرجو عدوهم، فينبغي أن يكونوا أرغب منهم في الحرب وأصبر عليها. وقرىء أن تكونوا بالفتح بمعنى ولا تَهنوا لأنْ تكونوا تألمون، ويكون قوله فإنهم يألمون علة للنهي عن الوهْن لأجله. والآية نزلت في بدر الصغرى. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بأعمالكم وضمائركم. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يأمر وينهى.

(١٠٥) ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾ نزلت في طعمة بن أبيرق من بني ظفر، سرق درعاً من جاره قتادة بن النعمان في جِرابِ دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه وخبأها عند زيد بن السمين اليهودي، فالتُمِسَت الدرعُ عند طعمة فلم توجد، وحلف ما أخذها وماله بها علم، فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتُهي إلى منزل اليهودي فأخذوها، فقال دفعها إليّ طعمة وشهد له ناس من اليهود، فقالت بنو ظفر: انطلِقُوا بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وقالوا: إن لم تفعل هلك وافتضح وبرىء اليهودي، فهمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن

يفعل[1] ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ بما عرّفك الله وأوحى به إليك، وليس من الرؤية بمعنى العلم وإلا لاستدعى ثلاثة مفاعيل. ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ﴾ أي لأجلهم والذب عنهم ﴿خَصِيمًا﴾ للبُرَاء.

وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا
يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا
لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾

(١٠٦) ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَۖ﴾ مما هممت به. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لمن يستغفر.

(١٠٧) ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْۚ﴾ يخونونها فإن وبال خيانتهم يعود عليها، أو جَعَل المعصيةَ خيانة لها كما جُعِلت ظلماً عليها، والضمير لطعمةَ وأمثاله أو له ولقومه فإنهم شاركوه في الإثم حيث شهدوا على براءته وخاصموا عنه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا﴾ مبالِغاً في الخيانة مصراً عليها. ﴿أَثِيمًا﴾ منهمكاً فيها. روي: أن طعمة هرب إلى مكة وارتد ونقب حائطاً بها ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فقتله.

(١٠٨) ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ يستترون منهم حياء وخوفاً. ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ ولا يستحيون منه وهو أحق بأن يستحيا ويخاف منه. ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ لا يخفي عليه سرهم فلا طريق معه إلا ترك ما يستقبحه ويؤاخذ عليه. ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ﴾ يدبرون ويزورون. ﴿مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِۚ﴾ من رمي البريء والحلف الكاذب وشهادة الزور. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾. لا يفوت عنه شيء.

(١٠٩) ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مبتدأ وخبر[2]. ﴿جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ جملة مبينة لوقوع أولاء خبراً أو صلة عند من يجعله موصولاً. ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ محامياً يحميهم من عذاب الله.

---

(١) ذكره الواحدي في الأسباب (ص١٨١) عن المفسرين.
وأخرجه الطبري (٤/ج٥/٢٦٧) من رواية سعيد عن قتادة، قال: ذكر لنا أن هذه الآية نزلت في شأن طُعمه بن أُبيرق فذكر القصة.
وأخرج الترمذي (٥/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥ رقم ٣٠٣٦) والحاكم (٤/ ٣٨٥ ـ ٣٨٨) والطبراني في المعجم الكبير (١٩/ ٩ ـ ١٢ رقم ١٥) وفي إسناده لين بسبب عمر بن قتادة [التقريب: ٢/ ٦٢] وأما ابن إسحاق فقد صرح بالتحديث عند الحاكم ويشهد لها:
ما أخرجه الطبري (٤/ج٥/٢٦٨) عن قتادة وابن زيد مرسلاً بمعناه مختصراً وإسناده صحيح.
وظفر: بطن من الأنصار وبطن في بني سليم. ١ .هـ ـ قاموس.

(٢) وفيه تلوين للخطاب وتوجيهه لهم بطريق الالتفات إيذاناً بأن تعديد جنايتهم يوجب مشافهتهم بالتوبيخ والتقريع (س٢/ ٢٣٠).

وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا
يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ
بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا
يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ
تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ
أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا
عَظِيمًا ﴿١١٤﴾

(١١٠) ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾ قبيحاً يسوء به غيره. ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ بما يختص به ولا يتعداه. وقيل المراد بالسوء ما دون الشرك، وبالظلم الشرك. وقيل: الصغيرة والكبيرة. ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ بالتوبة. ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا﴾ لذنوبه. ﴿رَّحِيمًا﴾ متفضلاً عليه، وفيه حث لطعمة وقومه على التوبة والاستغفار.

(١١١) ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ﴾ فلا يتعداه وباله كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾[1]. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فهو عالم بفعله حكيم في مجازاته.

(١١٢) ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً﴾ صغيرة أو مالا عمد فيه. ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ كبيرة أو ما كان عن عمد. ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾ كما رمىٰ طعمة زيداً، ووحّد الضمير لمكان أو[2] ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ بسبب رمي البريء وتبرئة النفس الخاطئة، ولذلك سوى بينهما وإن كان مُقْتَرَف أحدهما دون مقترف الآخر[3].

(١١٣) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بإعلام ما هُمْ عليه بالوحي، والضميرُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم. ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي من بني ظفر. ﴿أَن يُضِلُّوكَ﴾ عن القضاء بالحق مع علمهم بالحال، والجملة جواب لولا، وليس القصد فيه إلى نفي همِّهم بل إلى نفي تأثيره فيه. ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ﴾ لأنه ما أزلّك عن الحق وعاد وَبَالُه عليهم. ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ﴾ فإن الله سبحانه وتعالى عصمك، وما خطر ببالك كان اعتماداً منك على ظاهر الأمر لا ميلاً في الحكم، ومن شيء في موضع النصب على المصدر أي شيء من الضرر ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ﴾ من خفيات الأمور، أو من أمور الدين والأحكام. ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ إذ لا فضل أعظم من النبوة.

(١١٤) ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾ من متناجيهم كقوله تعالى ﴿وَإِذْ هُمْ

(١) الإسراء: «٧».
(٢) وتذكيره «به» لتغليب الإثم على الخطيئة، كأنه قيل ثم يرم بأحدهما (س٢/ ٢٣٠).
(٣) وقوله «احتمل بهتاناً» آثر الاحتمال على الاكتساب ونحوه لما فيه من الإيذان بانعكاس تقديره مع ما فيه من الإشعار بثقل الوزر وصعوبة الأمر.
واكتفى ببيان عظم البهتان بالتنكير التفخيمي، كأنه قيل: بهتاناً لا يقادر قدره (س٢/ ٢٣١).

﴿نَّجْوَىٰهُمْ﴾[١]. أو من تناجيهم فقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ على حذف مضاف أي إلا نجوى من أمر، أو على الانقطاع بمعنىٰ ولكن من أمر بصدقة ففي نجواه الخير. والمعروف كل ما يستحسنه الشرع ولا ينكره العقل، وفُسِّر ههنا بالقرض وإغاثةِ الملهوف وصدقةِ التطوع وسائر ما فسر به. ﴿أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أو إصلاح ذات البين[٢]. ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ بَنَىٰ الكلام على الأمر ورَتَّب الجزاء على الفعل ليدل على أنه لما دخل الآمِر في زمرة الخيِّرين كان الفاعل أدخل فيهم، وأن العمدة والغرض هو الفعل واعتبارُ الأمر من حيث إنه وُصْلة إليه، وقيّد الفعل بأن يكون لطلب مرضاة الله سبحانه وتعالى لأن الأعمال بالنيات وأن كل من فعل خيراً رياءً وسمعة لم يستحق به من الله أجراً. ووَصَفَ الأجر بالعِظَم تنبيهاً على حقارة ما فات في جنبه من أعراض الدنيا. وقرأ حمزة وأبو عمرو يؤتيه بالياء.

وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾

(١١٥) ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ يخالفه، من الشّق فإن كلا من المتخالفين في شق غير شق الآخر[٣]. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾ ظهر له الحق بالوقوف على المعجزات. ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ غير ما هم عليه من اعتقاد أو عمل. ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ نجعله والياً لما تولى من الضلال، ونُخَلِّ بينه وبين ما اختاره. ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ وندخله فيها. وقرىء بفتح النون من صلاهُ. ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ جهنم. والآية تدل على حرمة مخالفة الإجماع، لأنه سبحانه وتعالى رتب الوعيد الشديد على المشاقة واتباع غير سبيل المؤمنين، وذلك إما لحرمة كل واحد منهما أو أحدهما أو الجمع بينهما، والثاني باطل إذ يقبح أن يقال من شرب الخمر وأكل الخبز استوجب الحد، وكذا الثالث لأن المشاقة محرمة ضمّ إليها غيرها أو لم يضم، وإذا كان اتباع غير سبيلهم محرماً كان اتباع سبيلهم واجباً، لأن ترك اتباع سبيلهم ممن عرف سبيلَهم اتباعُ غير سبيلهم، وقد استقصيت الكلام فيه في (مرصاد الأفهام إلى مبادىء الأحكام).

(١١٦) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ كرره للتأكيد، أو لقصة طعمة. وقيل جاء شيخ إلى رسول الله ﷺ وقال: إني شيخ منهك في الذنوب، إلا أني لم أشرك بالله شيئاً منذ

---

(١) الإسراء: «٤٧».

(٢) وآثر هذه الثلاثة «الصدقة، والأمر بالمعروف، والإصلاح بين الناس» لأنه رأس عمل الخير المتعدي للناس ولأنه يحتاج للإسرار في أكثر الأحيان.

(٣) التعرض لعنوان الرسالة لإظهار كمال شناعتهم فيما اجترأوا عليه من المشاقة والمخالفة، وتعليل الحكم الآتي بذلك (س٢/ ٢٣٢).

عرفته وآمنت به ولم أتخذ من دونه ولياً ولم أوقع المعاصي جرأة وما توهمت طرفة عين أني أُعْجِز الله هرباً، وإني لنادم تائب، فما ترى حالي عند الله سبحانه وتعالى؟. فنزلت[1] ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ عن الحق فإن الشرك أعظم أنواع الضلالة وأبعدها عن الصواب والاستقامة، وإنما ذكر في الآية الأولى فقد افترىٰ لأنها متصلة بقصة أهل الكتاب ومنشأ شركهم كان نوع افتراء وهو دعوى التبني على الله سبحانه وتعالى.

إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾

(١١٧) ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ يعني اللات والعزى ومناة ونحوها، كان لكل حي صنم يعبدونه ويسمونه أنثى بني فلان وذلك إما لتأنيث أسمائها كما قال:

وَمَا ذَكَرٌ فَإِنْ يَسْمَنْ فَأُنْثَى شَدِيدُ الأزمِ لَيْسَ لَهُ ضُرُوسٌ

فإنه عَنىٰ القِراد وهو ما كان صغيراً سمي قراداً فإذا كَبُر سمي حَلَمَة، أو لأنها كانت جمادات والجمادات تؤنث من حيث إنها ضاهت الإناث لا نفعاً لها، ولعله سبحانه وتعالى ذكرها بهذا الاسم تنبيهاً على أنهم يعبدون ما يسمونه إناثاً لأنه ينفعل ولا يَفْعل، ومن حق المعبود أن يكون فاعلاً غيرَ منفعل ليكون دليلاً على تناهي جهلهم وفَرط حماقتهم. وقيل المراد الملائكة لقولهم: الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى، وهو جمع أنثى كرباب ورُبىٰ. وقرىء أنثى على التوحيد، وأُنُثًا على أنه جمع أَنِيث كخُبُث وخبيث، ووُثْنا بالتخفيف وَوُثُناً بالتثقيل وهو جمع وَثَن كأسد وأُسْد وأُسُد وأُثْنَا وأُنُثا بهما على قلب الواو لضمها همزة. ﴿وَإِن يَدْعُونَ﴾ وإن يعبدون بعبادتها. ﴿إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ لأنه الذي أمرهم بعبادتها وأغراهم عليها، فكأن طاعته في ذلك عبادة له. والمارد والمريد الذي لا يعلق بخير، وأصل التركيب للملابسة، ومنه صرح ممرّد وغلام أمرد وشجرة مرداء للتي تناثر ورقها.

(١١٨) ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ صفة ثانية للشيطان. ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ عطف عليه أي شيطاناً مَرِيداً جامعاً بين لعنة الله، وهذا القول الدال على فرط عداوته للناس.

وقد برهن سبحانه وتعالى أولاً على أن الشرك ضلال في الغاية على سبيل التعليل بأن ما يشركون به ينفعل ولا يفعل فعلاً اختيارياً، وذلك ينافي الألوهية غاية المنافاة، فإن الإله ينبغي أن يكون فاعلاً غير منفعل، ثم استدل عليه بأنه عبادةُ الشيطان وهي أفظع الضلال لثلاثة أوجه: الأول: أنه مَرِيد منهمك في الضلال لا يعلق بشيء من الخير والهدى، فتكون طاعته ضلالاً بعيداً عن الهدى. والثاني: أنه ملعون لضلاله فلا تَسْتَجْلِبُ مطاوعته سوى الضلال واللعن. والثالث: أنه في غاية العداوة والسعي

(١) ذكره الثعلبي من رواية الضحاك عن ابن عباس (الفتح السماوي ص٥٢٦) وقال ابن حجر: وهو منقطع (الكافي الشافِ ص٤٩ رقم ٤٠٣) وذلك أن الضحاك لم يسمع من ابن عباس.

في إهلاكهم، وموالاةُ مَنْ هذا شأنه غاية الضلال فضلاً عن عبادته. والمفروض المقطوع أي نصيباً قُدِّر لي وفُرِض، مِنْ قولهم فرض له في العطاء.

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ
وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ
وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ
حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾

(١١٩) ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ عن الحق. ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ الأمانيَّ الباطلة كطول الحياة وأنْ لا بعث ولا عقاب. ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ يَشُقُّونها لتحريم ما أحل الله، وهي عبارة عما كانت العرب تفعل بالبحائر والسوائب، وإشارة إلى تحريم ما أَحَلّ ونَقْصِ كل ما خُلِقَ كاملاً بالفعل أو القوة. ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ﴾ عن وجهه وصورته أو صفته، ويندرجُ فيه ما قيل من فَقْء عين الحامي[1] وخِصاء العبيد والوشم والوشْر[2] واللواط والسَّحْق ونحو ذلك وعبادةِ الشمس والقمرِ وتغييرِ فطرة الله تعالى التي هي الإسلام واستعمال الجوارح والقُوى فيما لا يعود على النفس كمالاً ولا يوجِب لها من الله سبحانه وتعالى زُلفى، وعموم اللفظ يمنع الخِصاء مطلقاً لكن الفقهاءَ خَصُّوا في خصاء البهائم للحاجة. والجمل الأربع حكاية عما ذكره الشيطان نطقاً أو أتاه فعلاً. ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بإيثاره ما يدعو إليه على ما أَمَر الله به ومجاوزته عن طاعة الله سبحانه وتعالىٰ إلى طاعته. ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ إذا ضيع رأس ماله وبدل مكانه من الجنة بمكان من النار.

(١٢٠) ﴿يَعِدُهُمْ﴾ ما لا ينجزه. ﴿وَيُمَنِّيهِمْ ۖ﴾ ما لا ينالون. ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وهو إظهار النفع فيما فيه الضرر، وهذا الوعد إما بالخواطر الفاسدة أو بلسان أوليائه.

(١٢١) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ معدِلاً ومهرباً من حاص يحيص إذا عدل. وعنها حالٌ منه، وليس صلةً له لأنه اسم مكان، وإن جُعِلَ مصدراً فلا يَعْمل أيضاً فيما قبله.

(١٢٢) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ﴾. أي وَعَدَه وعداً وحَقَّ ذلك حقاً، فالأول مؤكّد لنفسه لأن مضمون الجملة الإسمية التي قبله

---

(١) الحامي هو الفحل الذي حمى ظهره عن أن يُرْكَب، وقيل فيه أنه إذا لُقح ولد ولده فيقولون حمى ظهره فيهمل ولا يطرد عن ماء ولا مرعى، وقيل: الذي يولد من ظهره عشرة أبطن... (روح المعاني ٧/ ٤٣).

(٢) الوشم هو: غرز الإبرة في الجلد ثم يذر فوقها ما يجعلها تخضرّ. والوشر هو: أن تحدِّد المرأة أنيابها وترققها (المصباح المنير مادة وشم ووشر).

وَعْد، والثاني مؤكِّد لغيره. ويجوز أن يُنصب الموصول بفعل يفسره ما بعده، ووعْدُ الله بقوله سندخلهم، لأنه بمعنى نعِدُهم إدخالهم، وحقاً على أنه حال من المصدر. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ جملة مؤكدة بليغة. والمقصود من الآية معارضةُ المواعيد الشيطانية الكاذبة لقُرَنائه بوعد الله الصادق لأوليائه، والمبالغةُ في توكيده ترغيباً للعباد في تحصيله.

لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾

(١٢٣) ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ﴾ أي ليس ما وعد الله من الثواب يُنال بأمانيكم أيها المسلمون ولا بأماني أهل الكتاب، وإنما يُنال بالإيمان والعمل الصالح. وقيل: ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل. روي أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا، فقال أهلُ الكتاب: نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ونحن أوْلىٰ بالله منكم، وقال المسلمون: نحن أولى منكم نبينا خاتم النبيين وكتابنا يقضى على الكتب المتقدمة. فنزلت[١]. وقيل[٢]: الخطاب مع المشركين ويدل عليه تقدُّم ذكرهم، أي: ليس الأمر بأماني المشركين، وهو قولهم: لا جنة ولا نار وقولُهم إن كان الأمر كما يزعم هؤلاء لنكونن خيراً منهم وأحسنَ حالاً، ولا أماني أهل الكتاب وهو قولهم: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى وقولُهم: لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة. ثم قرر ذلك وقال: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ عاجلاً أو آجلاً، لما روي أنها لما نزلت قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: فمن ينجو مع هذا يا رسول الله؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «أما تحزنُ» أما تمرضُ، أما يصيبك ا للأواء؟ قال: بلى يا رسول الله، قال: «هو ذاك»[٣]. ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ولا يجد لنفسه إذا جاوز

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٤/ج٥/٢٨٨) من طرق عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق مرسلاً، ورجاله ثقات.
وأخرج نحوه عن قتادة، بسند رجاله ثقات.

(٢) أخرج ابن جرير في «جامع البيان» (٤/ج٥/ ٢٩٠) من طرق عن مجاهد قال في قوله «ليس بأمانيكم ولا أمانيِّ أهل الكتاب» قال: قالت قريش: لن نُبعث ولن نُعذب. ورجال إحدى الطرق ثقات.
وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: جاء حُيي بن أخطب إلى المشركين فقالوا: يا حيي إنكم أصحاب كتب فنحن خير أم محمد وأصحابه؟ فقال: أنتم خير منه فذلك قوله: «ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب» إلى قوله: «ومن يلعنِ اللهُ فلن تجدَ له نصيراً». ثم قال للمشركين «ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب». . .

(٣) وهو حديث حسن بشواهده.
أخرجه أحمد (١/ ١١) وابن حبان (ص٤٢٩ رقم ١٧٣٤ و١٧٣٥) موارد. والحاكم (٣/ ٧٤ ـ ٧٥) وأبو يعلى (١/ ٩٧ رقم ٩٨) والطبري في جامع البيان (٤/ج٥/ ٢٩٤).
قال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي. قلت: ضعيف لانقطاعه، فإن أبا بكر بن أبي زهير لم يدرك أبا بكر الصديق (انظر المراسيل لابن أبي حاتم ص٢٥٨ رقم ٩٦٠).
وله شاهد من حديث أبي هريرة أخرجه مسلم (٤/ ١٩٩٣ رقم ٢٥٧٤) والترمذي (٥/ ٢٤٧ رقم ٣٠٣٨) عن =

موالاة الله ونصرته من يواليه وينصره في دفع العذاب عنه.

وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ
نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ
إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾

(١٢٤) ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بعضها أو شيئاً منها فإن كل أحد لا يتمكن من كلها وليس مكلفاً بها. ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ في موضع الحال من المستكن في يعمل، ومِنْ للبيان، أو من الصالحات أيْ كائنةً من ذكر أو أنثى، ومِنْ للابتداء. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ حالٌ، شَرْط اقترانِ العمل بها في استدعاء الثواب المذكور وتنبيهاً على أنه لا اعتداد به دونه فيه. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ بنقص شيء من الثواب، وإذا لم يُنْقَص ثوابُ المطيع فبالحريّ أن لا يُزاد عقاب العاصي، لأن المُجَازي أرحمُ الراحمين، ولذلك اقتصر على ذكره عقيب الثواب. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر يدخلون الجنة هنا، وفي غافر ومريم بضم الياء وفتح الخاء، والباقون بفتح الياء وضم الخاء.

(١٢٥) ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ أخلص نفسه لله لا يعرف لها رباً سواه. وقيل بَذَل وجهه له في السجود. وفي هذا الاستفهام تنبيه على أن ذلك منتهى ما تبلغه القوة البشرية. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ آت بالحسنات تارك للسيئات. ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الموافِقَة لدين الإسلام المتفق على صحتها ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن سائر الأديان. وهو حالٌ من المتبع أو من الملة أو إبراهيم. ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ اصطفاه وخصصه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله، وإنما أعاد ذِكْرَه ولم يُضمر تفخيماً لشأنه وتنصيصاً على أنه الممدوح. والخُلَّة من الخِلال، فإنه وُدٌّ تخلل النفسَ وخالطها. وقيل من الخَلَل فإن كل واحد من الخليلين يسد خلل الآخر، أو من الخل وهو الطريق في الرمل فإنهما يترافقان في الطريقة، أو من الخَلَّة بمعنى الخَصْلة فإنهما يتوافقان في الخصال. والجملة استئناف جيء بها للترغيب في اتباع ملته صلى الله عليه وسلم والإيذانِ بأنه نهاية في الحسن وغايةُ كمال البشر. روي أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام بعث إلى خليل له بمصر في أزمةٍ أصابت الناس يمتار منه (١)، فقال

ابن عيينة عن ابن محيض عن محمد بن قيس بن مخرمة عنه قال: لما نزل «من يعمل سوءاً يجز به» شق ذلك على المسلمين فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ فقال: «قاربوا وسددوا، وفي كل ما يصيب المؤمن كفارة حتى الشوكة يشاكها أو النكبة ينكبها».

ورجاله كلهم ثقات إلا ابن محيض وهو عبدالرحمن بن محيض قال الحافظ: مقبول [التقريب ٢/ ٥٩].

لكن قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. قاله نظراً لشواهده.

وله شاهد من حديث عائشة مرفوعاً أخرجه ابن حبان (رقم ١٧٣٦ ـ موارد) ورجاله ثقات وله شاهد من حديث عائشة موقوفاً عليها أخرجه الحاكم (٢/ ٣٠٨) ورجاله رجال الشيخين إلا أبا المهلب فهو من رجال مسلم فقط.

والخلاصة أن الحديث حسن والله أعلم.

(١) يمتار منه: أي يطلب منه الميرة وهي الطعام.

خليله: لو كان إبراهيم يريد لنفسه لفعلت، ولكن يريد للأضياف وقد أصابنا ما أصاب الناس، فاجتاز غلمانُه ببطحاءَ ليّنة فملؤوا منها الغرائر حياءً من الناس، فلما أخبَروا إبراهيم ساءه الخبر فغلبتْه عيناه فنام، وقامت سارةُ إلى غرارة منها فأخرجت حوارى واختبزت، فاستيقظ إبراهيم عليه السلام فاشتمّ رائحة الخبز فقال: من أين لكم هذا؟ فقالت: من خليلك المِصري، فقال: بل هو من عند خليلي الله عز وجل فسماه الله خليلاً(١).

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾

(١٢٦) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً يختار منهما من يشاء وما يشاء. وقيل هو متصل بذكْر العمال مقرِّر لوجوب طاعته على أهل السموات والأرض وكمال قدرته على مجازاتهم على الأعمال. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ إحاطة علم وقدرة فكان عالماً بأعمالهم فيجازيهم على خيرها وشرها.

(١٢٧) ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ في ميراثهن، إذ سبب نزوله أن عيينة بن حصن(٢) أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أُخبِرنا أنك تعطي الابنة النصف والأخت النصف، وإنما كنا نورِّث مَنْ يشهد القتال ويحوز الغنيمة. فقال عليه الصلاة والسلام: «كذلك أُمِرت»(٣) ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ يبين لكم حكمه فيهن. والإفتاء تبيين المبهَم. ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ عطف على اسم الله تعالى أو ضميرِه المستكنّ في يفتيكم، وساغ للفصل، فيكون الإفتاء مسنَداً إلى الله سبحانه وتعالى وإلى ما في القرآن من قوله تعالى ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾ ونحوِه، والفِعْلُ الواحد يُنسب إلى فاعلين مختلفين باعتبارَيْن مختلفيـن، ونظيرُه أغنـانـي زيـدٌ وعطـاؤه، أو. . . . .

---

(١) أخرجه ابن جرير (٥/ ١٩١) وابن المنذر وابن أبي حاتم في تفاسيرهم (الفتح السماوي ص٥٣٠).
قال ابن كثير: (وفي صحة هذا ووقوعه نظر، وغايته أن يكون خبراً إسرائيلياً لا يصدق ولا يكذب، وإنما سمي خليل الله لشدة محبته لربه عز وجل لما قام له به من الطاعة التي يحبها ويرضاها) تفسير ابن كثير (١/ ٥٣٠).

(٢) عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري من المؤلفة، شهد حنيناً والطائف وكان أحمق مطاعاً دخل على النبي ﷺ بغير إذن وأساء الأدب فصبر النبي ﷺ على جفوته وأعرابيته وقد ارتد وآمن بطليحة ثم أسر فمن عليه الصديق ثم لم يزل مظهراً للإسلام وكان يتبعه عشرة آلاف فتاة، كان من الجرارة واسمه حذيفة ولقبه عيينة لشتر عينه.
انظر (تجريد أسماء الصحابة) للذهبي (١/ ٤٣٢ رقم ٤٦٧٥).

(٣) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٠٨) وابن جرير (٥/ ٢٩٩) وغيرهما، وفي سنده مقال، إلا أن له طرقاً كثيرة مرفوعة ومرسلة (الفتح السماوي ص٥٣١).

استئناف[1] معترِض لتعظيم المتلو عليهم على أن ما يُتلى عليكم مبتدأ وفي الكتاب خبرُه، والمراد به اللوح المحفوظ، ويجوزُ أن يُنصب على معنى ويبينُ لكم ما يُملَى عليكم، أو يُخفَضَ على القَسَم كأنه قيل: وأُقسِم بما يتلى عليكم في الكتاب، ولا يجوز عطفه على المجرور في فيهن لاختلالِه لفظاً ومعنىً ﴿فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ صلة يُتلى إنْ عُطِفَ الموصول على ما قبله، أي يُتلى عليكم في شأنهن، وإلا فبدلٌ مِنْ فيهن، أو صلةٌ أخرى ليفتيكم على معنى اللهُ يفتيكم فيهن بسبب يَتامى النساء كما تقول: كلمْتُك اليوم في زيد، وهذه الإضافة بمعنى مِنْ لأنها إضافة الشيء إلى جنسه. وقرىء ييامىٰ بياءين على أنه أيامىٰ فقُلبت همزته ياء. ﴿ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ أي فُرِضَ لهنّ من الميراث. ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ في أن تنكحوهن أو عَنْ أن تنكحوهن، فإن أولياء اليتامى كانوا يرغبون فيهن إن كنّ جميلات ويأكلون ما لَهن، وإلا كانوا يعضُلونهن طمعاً في ميراثهن، والواو تحتَمِل الحال والعطف. وليس فيه دليل على جواز تزويج اليتيمة، إذ لا يلزم من الرغبة في نكاحها جَرَيان العقد في صغرها. ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ عطف على يتامىٰ النساء والعرب ما كانوا يورثونهم كما لا يورثون النساء. ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾ أيضاً عطفٌ عليه أي ويفتيكم، أو ما يُتلى في أن تقوموا، هذا إذا جَعلتَ في يتامى صلةً لأحدهما، فإنْ جعلتَه بدلاً فالوجه نصبُهما عطفاً على موضع فيهن، ويجوز أن يُنصبَ وأن تقوموا بإضمار فعْلٍ أي: ويأمركم أن تقوموا، وهو خطاب للأئمة في أن ينظروا لهم ويستوفوا حقوقهم، أو للقُوّام بالنَّصَفة في شأنهم. ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾ وعد لمن آثر الخير في ذلك.

وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾

(١٢٨) ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا﴾ توقَّعتْ منه لما ظهر لها من المَخايل. وامرأة فاعل فعل يفسره الظاهر. ﴿نُشُوزًا﴾ تجافياً عنها وترفعاً عن صحبتها كراهة لها ومنعاً لحقوقها. ﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾ بأن يُقِلّ مجالستَها ومحادثتها. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ أن يتصالحا بأن تَحُطّ له بعضَ المهر، أو القَسْم، أو تهب له شيئاً تستميلُه به[2]. وقرأ الكوفيون أن يُصْلحا من أصلح بين المتنازعين، وعلى هذا جاز أن ينتصب صُلحاً على المفعول به، وبينهما ظرف أو حال منه، أو على المصدر كما في القراءة الأولى، والمفعول بينهما أو هو محذوف. وقرىء يَصَّلحا من أصلح بمعنى اصطلح. ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ من الفِرقة أو سوءِ العشرة أو من الخصومة، ولا يجوز أن يراد به التفضيل بل بيان أنه من الخيور كما أن الخصومة من الشرور، وهو اعتراض وكذا قوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ ولذلك اغتُفر عدم مجانستهما، والأول للترغيب في المصالحة، والثاني لتمهيد العذر في المماكسة. ومعنى إحضار

---

(١) قوله (أو استئناف) معطوف على قوله: (عطف على اسم الله تعالى)...

(٢) هذا المعنى على قراءة من قرأ «يَصّالحا» وقد كتبت في الأصل كذلك.

الأنفس الشحّ جعلها حاضرة له مطبوعة عليه، فلا تكاد المرأة تسمح بالإعراض عنها والتقصير في حقها ولا الرجل يسمح بأن يمسكها ويقوم بحقها على ما ينبغي إذا كرهها أو أحب غيرها. ﴿ وَإِن تُحْسِنُوا۟ ﴾ في العُشْرة. ﴿ وَتَتَّقُوا۟ ﴾ النشوز والإعراض ونقص الحق. ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الإحسان والخصومة. ﴿ خَبِيرًا ﴾ عليماً به وبالغرض فيه فيجازيكم عليه، أقام كونه عالماً بأعمالهم مقام إثابته إياهم عليها الذي هو في الحقيقة جواب الشرط إقامةً للسبب مقام المسبّب[1].

وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾

(١٢٩) ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ لأن العدل أن لا يقع ميل البتة وهو متعذر، فلذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَقْسم بين نسائه فيعدل ويقول: «هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك»[2] ﴿ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ أي على تحري ذلك وبالغتم فيه. ﴿ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ ﴾ بترك المستطاع والجور على المرغوب عنها، فإن ما لا يُدْرك كله لا يترك جله. ﴿ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾ التي ليست ذاتَ بعل ولا مطلقة. وعن النبي صلى الله عليه وسلم «من كانت له

---

(١) قوله: «فلا جناح عليهما» تعرض لنفي الجناح عنهما ـ مع أنه ليس من جانبها الأخذ الذي هو المظنة للجناح ـ لبيان أن هذا الصلح ليس من قبيل الرشوة المحرمة للمعطي والآخذ (س٢/ ٢٣٩).
وفي قوله: «وإن تحسنوا وتتقوا. .» خطاب للأزواج بطريق الالتفات، والتعبير عن رعاية حقوقهن بالإحسان ولفظ التقوى، وترتيب الوعد الكريم عليه من لطف الاستمالة والترغيب في حسن المعاملة مالا يخفى (س٢/ ٢٣٩).

(٢) وهو حديث ضعيف.
أخرجه أحمد في المسند (٦/ ١٤٤) وأبو داود (٢/ ٦٠١ رقم ٢١٣٤) والترمذي (٣/ ٤٤٦ رقم ١١٤٠) والنسائي (٧/ ٦٣ رقم ٣٩٤٣) وابن ماجة (١/ ٦٣٤ رقم ١٩٧١) وابن حبان (ص٣١٧ رقم ١٣٠٥ ـ موارد) والحاكم في المستدرك (٢/ ١٨٧) وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي. وصححه الشيخ عبدالقادر الأرنؤوط في جامع الأصول (١١/ ٥١٤) لكن المحققين من الأئمة قد أعلوه. فقال النسائي عقبه: «أرسله حماد بن زيد».
وقال الترمذي: «هكذا رواه غير واحدٍ عن حماد بن سلمة، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن عبدالله بن يزيد، عن عائشة: أن النبي ﷺ كان يقسِمُ ورواه حماد بن زيد وغير واحدٍ عن أيوب، عن أبي قلابة، مرسلاً، أن النبي ﷺ كان يقسم.
وهذا أصح من حديث حماد بن سلمة» هـ.
وأورده ابن أبي حاتم في «العلل» (١/ ٤٢٥) من طريق حماد بن سلمة ثم قال: «فسمعت أبا زرعة يقول: لا أعلم أحداً تابع حماداً على هذا» وأيده ابن أبي حاتم بقوله: «قلت: روى ابن عليّه عن أيوب عن أبي قلابة. قال: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه. الحديث مرسلاً».
وقال الألباني في الإرواء (٧/ ٨٢): «قلت: وصله ابن أبي شيبة. فقد اتفق حماد بن زيد وإسماعيل بن عليه على إرساله. وكل منهما احفظ وأضبط من حماد ابن سلمة، فروايتهما أرجح عند المخالفة، لا سيما إذا اجتمعا عليها. لكن الشطر الأول منه له طريق أخرى عن عائشة بلفظ «كان رسول الله ﷺ: لا يفضل بعضنا على بعض في القسم. . .» الحديث رقم (٢٠٢٠) وإن إسناده حسن» هـ.

امرأتان يميل مع إحداهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل»[1]. ﴿وَإِن تُصْلِحُوا﴾ ما كنتم تفسدون من أمورهن. ﴿وَتَتَّقُوا﴾ فيم يستقبل من الزمان. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يغفر لكم ما مضى من ميلكم.

وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾

(١٣٠) ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾ وقرىء وإن يتفارقا أي وإنْ يفارق كل منهما صاحبه. ﴿يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا﴾ منهما عن الآخر ببدل أو سَلْوة. ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾ غناه وقدرته. ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ مقتدراً متقناً في أفعاله وأحكامه.

(١٣١) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تنبيه على كمال سعته وقدرته. ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعني اليهود والنصارى ومَنْ قبلهم، والكتاب للجنس، ومِنْ متعلقة بوصينا أو بأوتوا، ومساق الآية لتأكيد الأمر بالإخلاص. ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ عطف على الذين. ﴿أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ بأن اتقوا الله، ويجوز أن تكون أنْ مفسِّرة لأن التوصية في معنى القول. ﴿وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ على إرادة القول أي: وقلنا لهم ولكم أن تكفروا فإن الله مالك الملك كله لا يتضرر بكفركم ومعاصيكم، كما لا ينتفع بشكركم وتقواكم، وإنما وصاكم لرحمته لا لحاجته، ثم قرر ذلك بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا﴾ عن الخلق وعبادتهم. ﴿حَمِيدًا﴾ في ذاته حُمِد وإن لم يُحمد.

(١٣٢) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ذكره ثالثاً للدلالة على كونه غنياً حميداً، فإن جميع المخلوقات تدل بحاجتها على غناه وبما أفاض عليها من الوجود وأنواع الخصائص والكمالات على كونه حميداً. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ راجع إلى قوله يغن الله كلاً من سعته، فإنَّه توكَّل بكفايتهما، وما بينهما تقرير لذلك.

(١٣٣) ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يفنكم، ومفعول يشأ محذوف دل عليه الجواب. ﴿وَيَأْتِ

---

(١) وهو حديث صحيح.
أخرجه أحمد في المسند (٢/٣٤٧، ٤٧١) وأبو داود (٢/ ٦٠٠ رقم ٢١٣٣) والنسائي (٧/٦٣) والترمذي (٣/٤٤٧ رقم ١١٤١) وابن ماجة (١/٦٣٣ رقم ١٩٦٩) والدارمي (٢/١٤٣) وابن حبان (ص٣١٧ رقم ١٣٠٧ موارد) والحاكم في المستدرك (٢/١٨٦) وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وكذا ابن دقيق العيد، واستغربه الترمذي مع تصحيحه. وقال عبدالحق: هو خبر ثابت، لكن عليه أن هماماً تفرد به، وأن هماماً رواه عن قتادة فقال: كان يقول ـ كما في تلخيص الجبير لابن حجر (٣/٢٠١ رقم ١٥٧٩) ـ. قلت: قوله عبدالحق لا يعتبر علة قادحة. وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٧/٨٠ ـ ٨١ رقم ٢٠١٧).

﴿بِـَٔاخَرِينَ﴾ ويوجد قوماً آخرين أو خلقاً آخرين مكان الإنس. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ من الإعدام والإيجاد. ﴿قَدِيرًا﴾ بليغ القدرة لا يعجزه مراد، وهذا أيضاً تقرير لغناه وقدرته وتهديد لمن كفر به وخالف أمره. وقيل: هو خطاب لمن عادى رسول الله ﷺ من العرب، ومعناه معنى قوله تعالى ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾(١) لما روي: أنه لما نزلت ضرب رسول الله ﷺ يده على ظهر سلمان وقال: «إنهم قوم هذا»(٢).

مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾

(١٣٤) ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ كالمجاهد يجاهد للغنيمة. ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ فما له يطلب أَخَسَّهما فَلْيطلبهما كمن يقول: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، أو لِيطلب الأشرف منهما، فإن من جاهد خالصاً لله سبحانه وتعالى لم تخطئه الغنيمة وله في الآخرة ما هي في جَنْبه كلا شيء، أو فعند الله ثواب الدارين فيعطي كلاً ما يريده كقوله تعالى ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾(٣) الآية ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ عالماً بالأغراض فيجازي كلاً بحسب قصده.

(١٣٥) ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ مواظبين على العدل مجتهدين في إقامته. ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ بالحق تقيمون شهاداتكم لوجه الله سبحانه وتعالى. وهو خبر ثان أو حال. ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ ولو كانت الشهادة على أنفسكم بأن تُقروا عليها، لأن الشهادة بيان للحق سواء كان عليه أو على غيره.

---

(١) التوبة: «٣٩».

(٢) ذكره الطبري في «جامع البيان» (٤/ ج٥/ ٣١٩) تعليقاً فقال: حُدِّثْتُ عن عبدالعزيز بن محمد ـ وهو الدراوردي ـ عن سهيل به.

وقد وصله الطبري في تفسير سورة محمد (١٣/ج٢٦/ ٦٦ ـ ٦٧) عند قوله تعالى: «وإن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم» [الآية: ٣٨]، لكنه من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة، وفيه زيادة: «ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجاله من الفرس».

وقد أخرجه البخاري (٨/ ٦٤١ رقم ٤٨٩٨) من طريق عبدالعزيز الدراوردي أيضاً لكنه عنه عن ثور عن أبي الغيث عن أبي هريرة، في تفسير قوله تعالى: «وآخرين منهم لما يلحقوا بهم» [الجمعة: ٣].

وحديث الدراوردي هذا أخرجه البخاري (٨/ ٦٤١ رقم ٤٨٩٧) متابعة بعد حديث سليمان بن بلال، عن ثور عن أبي الغيث عن أبي هريرة بلفظ «لو كان الإيمان عند الثريا لنالَهُ رجال ـ أو رجلٌ ـ من هؤلاء».

وأخرجه مسلم (٤/ ١٩٧٢ رقم ٢٣١) من طريق الدراوردي عن ثوربه أصولاً دون متابعة.

وقد استوعب أبو نعيم طرقه في أول تاريخ أصبهان.

(٣) الشورى: «٢٠».

﴿ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ ولو على والديكم وأقاربكم. ﴿ إِن يَكُنْ ﴾ أي المشهود عليه أو كل واحد منه ومن المشهود له. ﴿ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا ﴾ فلا تمتنعوا عن إقامة الشهادة، أو لا تجوروا فيها ميلاً أو ترحُّماً. ﴿ فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾ بالغني والفقير وبالنظر لهما فلو لم تكن الشهادة عليهما أو لهما صلاحاً لما شَرَعها، وهو علة الجواب أقيمت مقامه، والضمير في بهما راجع لما دل عليه المذكور، وهو جنسا الغني والفقير لا إليه وإلاَّ لَوُحِّدَ، ويشهد عليه أنه قرىء فالله أولى بهم. ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ﴾ لأن تعدلوا عن الحق أو كراهة أن تعدلوا مِنْ العدل. ﴿ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ ﴾ ألسنتكم عن شهادة الحق، أو حكومة العدل. قرأه نافع وابن كثير وأبو بكر وأبو عمرو وعاصم والكسائي بإسكان اللام وبعدها واوان الأولى مضمومة والثانية ساكنة، وقرأ حمزة وابن عامر وإن تَلُوا بمعنى وإن وليتم إقامة الشهادة فأديتموها. ﴿ أَوْ تُعْرِضُوا۟ ﴾ عن أدائها. ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ فيجازيكم عليه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾

(١٣٦) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ خطاب للمسلمين، أو للمنافقين، أو لمؤمني أهل الكتاب إذ روي: أن ابن سلام وأصحابه قالوا يا رسول الله: إنا نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير ونكفر بما سواه. فنزلت[١]. ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ اثبتوا على الإيمان بذلك وداوموا عليه، أو آمنوا به بقلوبكم كما آمنتم بألسنتكم، أو آمنوا إيماناً عاماً يعم الكتب والرسل، فإن الإيمان بالبعض كَلاَ إيمان. والكتابُ الأول القرآن والثاني الجنس. وقرأ نافع والكوفيون: الذي نَزَّل والذي أَنْزَلَ بفتح النون والهمزة والزاي، والباقون بضم النون والهمزة وكسر الزاي. ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ أي ومن يكفر بشيء من ذلك. ﴿ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ عن المقصد بحيث لا يكاد يعود إلى طريقه[٢].

(١٣٧) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ يعني اليهود آمنوا بموسىٰ عليه الصلاة والسلام. ﴿ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ﴾ حين عبدوا العجل. ﴿ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ﴾ بعد عوده إليهم. ﴿ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ﴾ بعيسىٰ عليه الصلاة والسلام. ﴿ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا ﴾ بمحمد صلى الله عليه وسلم، أو قوماً تكرر منهم الارتداد ثم أصروا على الكفر وازدادوا تمادياً في

---

١) أخرجه الثعلبي عن ابن عباس ـ كما في الدر المنثور (٢/ ٧١٦) ـ بسند هالك وذكره الواحدي في أسباب النزول (ص١٨٦) عن الكلبي وهو هالك.

٢) قوله «ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر» فقد زاد الملائكة واليوم الآخر في جانب الكفر لأن بالكفر بأحدهما لا يتحقق الإيمان أصلاً.
وجمع الكتب والرسل لأن الكفر بكتاب أو برسول كفر بالكل.
وتقديم الملائكة والكتب على الرسل لأنهم وسائط بين الله عز وجل وبين الرسل في إنزال الكتب (س/٢/ ٢٤٣).

الغي. ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ إذ يستبعد منهم أن يتوبوا عن الكفر ويثبتوا على الإيمان، فإن قلوبَهم ضربت بالكفر وبصائرَهم عميت عن الحق، لا أنهم لو أخلصوا الإيمان لم يُقْبل منهم ولم يغفر لهم. وخبر كان في أمثال ذلك محذوف تعلق به اللام مثل: لم يكن الله مريداً ليغفر لهم.

بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾

(١٣٨) ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يدل على أن الآية في المنافقين وهم قد آمنوا في الظاهر وكفروا في السر مرة بعد أخرى ثم ازدادوا بالإصرار على النفاق وإفساد الأمر على المؤمنين. ووَضْعُ «بَشِّر» مكان أنذر تهكُّم بهم.

(١٣٩) ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في محل النصب أو الرفع على الذم، بمعنى أريد الذين أو هم الذين. ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ أيتعززون بموالاتهم. ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ لا يتعزز إلا من أعزه الله، وقد كتَب العزة لأوليائه فقال ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[(1)] ولا يُؤْبَهُ بعزة غيرهم بالإضافة إليهم. .

(١٤٠) ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني القرآن. وقرأ عاصم نزَّل وقرأ الباقون نُزِّلَ على البناء للمفعول والقائم مقام فاعله. ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وهي المخففة، والمعنى أنه إذا سمعتم[(2)]. ﴿يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ حالان من الآيات جيء بهما لتقييد النهي عن المجالسة في قوله: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ الذي هو جزاء الشرط بما إذا كان من يجالسه هازئاً معانداً غير مرجو، ويؤيده الغاية. وهذا تذكار لما نزل عليهم بمكة من قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾[(3)] الآية. والضميرُ في معهم للكفرة المدلول عليهم بقوله يُكفَر بها ويُستهزأ بها. ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ في الإثم لأنكم قادرون على الإعراض عنهم والإنكار عليهم، أو الكفر إن رضيتم بذلك، أو لأن الذين يُقاعِدون الخائضين في القرآن من الأحبار كانوا منافقين، ويدل عليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ يعني القاعدين والمقعود معهم[(4)]. وإذا ملغاة لوقوعها بين الاسم والخبر، ولذلك لم يُذْكَر بعدها الفعلُ. وإفراد مثْلَهم لأنه كالمصدر، أو للاستغناء بالإضافة إلى الجمع. وقرىء بالفتح على البناء لإضافته إلى مبني، كقوله تعالى ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[(5)].

---

(١) المنافقون: «٨».
(٢) إضافة الآيات إلى الاسم الجليل لتشريفها وإبانة خطرها وتهويل أمر الكفر بها (س٢/ ٢٤٥).
(٣) الأنعام: «٦٨».
(٤) قدم المنافقين على الكافرين لتشديد الوعيد على المخاطبين (س٢/ ٢٤٥).
(٥) الذاريات: «٢٣».

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ
أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ
عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ
يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ
ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾

(١٤١) ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ ينتظرون وقوع أمر بكم. وهو بدل من الذين يتخذون، أو صفة للمنافقين والكافرين، أو ذم مرفوع أو منصوب، أو مبتدأ خبرُه: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ مظاهرين لكم فأسهِموا لنا ممّا غنمتم. ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ من الحرب فإنها سِجَال ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ أي قالوا للكفرة: ألم نغلبكم ونتمكن من قتلكم فأبْقينا عليكم. والاستحواذ: الاستيلاء، وكان القياس أن يقال استحاذ يستحيذ استحاذة فجاءت على الأصل. ﴿وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بأن خذلناهم بتخييل ما ضعفت به قلوبُهم وتوانينا في مظاهرتهم فأشرِكونا فيما أصبتم. وإنما سمي ظفر المسلمين فتحاً وظفر الكافرين نصيباً لخسة حظهم، فإنه مقصور على أمر دنيوي سريع الزوال. ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ حينئذ أو في الدنيا. والمراد بالسبيل الحجة، واحتج به أصحابنا على فساد شراء الكافر المسلم، والحنفيةُ على حصول البينونة بنفس الارتداد، وهو ضعيف لأنه لا ينفي أن يكون إذا عاد إلى الإيمان قبل مضي العدة.

(١٤٢) ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ سبق الكلام فيه أول سورة البقرة. ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ متثاقلين كالمكره على الفعل. وقرىء كَسَالَى بالفتح وهما جَمْعَا كسلان. ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ لِيَخالُوهم مؤمنين. والمراءاة مفاعلة بمعنى التفعيل كَنِعمَ وناعَمَ، أو للمقابلة فإن المرائي يُري مَنْ يرائيه عمله وهو يريه استحسانه. ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إذ المرائي لا يفعل إلا بحضرة من يرائيه وهو أقل أحواله، أو لأن ذكرهم باللسان قليل بالإضافة إلى الذكر بالقلب. وقيل: المراد بالذكر الصلاة. وقيل الذِّكْر فيها فإنهم لا يذكرون فيها غير التكبير والتسليم.

(١٤٣) ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ حال من واوِ يراؤون كقوله: ولا يذكرون أي يراؤونهم غير ذاكرين مذبذبين أو واوِ يذكرون، أو منصوب على الذم، والمعنى: مرددين بين الإيمان والكفر، مِنَ الذبذبة وهي جعل الشيء مضطرباً، وأصله الذي بمعنى الطرد. وقرىء بكسر الذال بمعنى يُذَبذِبُون قلوبَهم أو دينهم أو يتذبذبون كقولهم: صلصل بمعنى تصلصل، وقرىء بالدال غير المعجمة بمعنى أخذوا تارة في دبّة وتارة في دبّة وهي الطريقة[1]. ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ لا منسوبين إلى المؤمنين ولا إلى الكافرين، أو لا صائرين إلى أحدِ الفريقين بالكلية. ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ إلى الحق والصواب، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[2].

---

(١) أي قرىء «مُذَبْذِبِين» وقرىء «مدَبْدِبِين».
(٢) النور: «٤٠».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾

(١٤٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنه صنيع المنافقين ودَيْدَنهم فلا تتشبهوا بهم. ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ حجة بينة فإن موالاتِهم دليل على النفاق، أو سلطاناً يسلط عليكم عقابه.

(١٤٥) ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ وهو الطبقة التي في قعر جهنم، وإنما كان كذلك لأنهم أخبث الكفرة إذ ضموا إلى الكفر استهزاءً بالإسلام وخداعاً للمسلمين، وأما قوله عليه الصلاة والسلام «ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اتئمن خان»[(١)] ونحوه فمن باب التشبيه والتغليظ. وإنما سميت طبقاتُها السبع دَرَكَات لأنها متدارَكة متتابعة بعضها فوق بعض. وقرأ الكوفيون بسكون الراء[(٢)] وهي لغة كالسَّطْر والسَّطَر، والتحريكُ أوْجَه لأنه يجمع على أدراك[(٣)]. ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ يخرجهم منه.

(١٤٦) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ عن النفاق. ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ ما أفسدوا من أسرارهم وأحوالهم في حال النفاق. ﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ وثقوا به أو تمسكوا بدينه. ﴿وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ لا يريدون بطاعتهم إلا وجه سبحانه وتعالى. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ومن عدادهم في الدارين. ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فيساهمونهم فيه.

(١٤٧) ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ أيتشفَّىٰ به غيظاً أو يدفع به ضرراً أو يستجلب به نفعاً وهو الغني المتعالي عن النفع والضر، وإنما يعاقِبُ المصرَّ بكفره لأن إصراره عليه كسوء مزاج يؤدي إلى مرض فإذا أزاله بالإيمان والشكر ونقَّى نفسَه عنه تخلص من تبعته. وإنما قَدَّم الشكرَ لأن الناظر يدرك النعمة أولاً فيشكر شكراً مبهماً، ثم يمعن النظر حتىٰ يعرف المنعم فيؤمن به. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا﴾ مثيباً يقبل اليسير ويعطي الجزيل. ﴿عَلِيمًا﴾ بحق شكركم وإيمانكم.

(١٤٨) ﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ إلا جَهْر من ظُلِم بالدعاء على الظالم

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/٧٨ ـ ٧٩ رقم ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠/٥٩) من حديث أبي هريرة.

(٢) وقرأ الباقون بنصب الراء، أي «الدَّرَك».

(٣) وما ذكره البيضاوي من ترجيح القراءة بفتح الراء غير مسلَّم، فكلاهما صحيح سنداً ولغة أما سنداً فكلاهما من المتواتر، وأما لغة فقد قال أبو حيان: (ولا يلزم ما ذكره من التأنيث، لأن الجنس المميزَ مفرده بهاءِ التأنيث يؤنث في لغة الحجاز ويذكَّر في لغة تميم ونجد. فعلى هذا يجوز تذكير الدرك وتأنيثه).

والتظلم منه. روي أن رجلاً ضافَ قوماً فلم يُطعِموه فاشتكاهم فعوتب عليه. فنزلت[١]. وقرىء مَنْ ظَلَمَ على البناء للفاعل، فيكون الاستثناء منقطعاً أي ولكن الظالم يفعل مالا يحبه الله. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا﴾ لكلام المظلوم. ﴿عَلِيمًا﴾ بالظالم.

إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ
وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ
وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا
مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَكَانَ
ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾

(١٤٩) ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا﴾ طاعةً وبراً. ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ أو تفعلوه سراً. ﴿أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ﴾ لكم المؤاخذة عليه، وهو المقصودُ. وذِكرُ إبداء الخير وإخفائه تشبيب له[٢]، ولذلك رتب عليه قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أي يكثر العفو عن العصاة مع كمال قدرته على الانتقام فأنتم أولى بذلك، وهو حث للمظلوم على العفو بعدما رَخّص له في الانتظار حملاً على مكارم الأخلاق.

(١٥٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ بأن يؤمنوا بالله ويكفروا برسله. ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعضهم. ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ طريقاً وسطاً بين الإيمان والكفر، ولا واسطة: إذ الحق لا يختلف فإن الإيمان بالله سبحانه وتعالى لا يتم إلا بالإيمان برسله وتصديقهم فيما بلّغوا عنه تفصيلاً أو إجمالاً، فالكافر ببعض ذلك كالكافر بالكل في الضلال كما قال الله تعالى ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾[٣].

(١٥١) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ هم الكاملون في الكفر لا عبرة بإيمانهم هذا. ﴿حَقًّاۚ﴾ مصدر مؤكد لغيره، أو صفة لمصدر الكافرين بمعنى: هم الذين كفروا كفراً حقاً أي يقيناً محققاً. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[٤].

(١٥٢) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أضدادهم ومقابلوهم. وإنما دَخَل «بَيْن» على «أحد» وهو يقتضي متعدداً لعمومه من حيث إنه وقع في سياق النفي. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْۗ﴾ الموعودة لهم. وتصديرُه بسوف لتأكيد الوعد والدلالة على أنه كائن لا محالة وإن تأخر.

---

(١) أخرجه ابن جرير (٦/٢-٣) وعبدالرزاق في المصنف (١٤٨/٦٢٩) عن مجاهد مرسلاً، وروي من طريقين الأول فيه سنيد والثاني فيه المثنى بن الصباح وهما ضعيفان، وفيه علة إرسال مجاهد.

(٢) قوله: (تشبيب له) الضمير يعود على العفو. ومعنى ذلك: التمهيد والتوطئة له، ولعله من قولهم: شبَّبَ الشاعر بفلانة إذا قال فيها الغزل وعَرَّض بحبها (انظر المصباح المنير مادة شبب).

(٣) يونس: «٣٢».

(٤) قوله «للكافرين» وضع المظهر موضع المضمر ذماً لهم وتذكيراً لوصفهم (س٢/٢٤٩).

وقرأ حفص عن عاصم وقالون عن يعقوب بالياء على تلوين الخطاب[١]. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لما فرط منهم. ﴿رَّحِيمًا﴾ عليهم بتضعيف حسناتهم.

يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ
جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ
وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا
تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ
بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾

(١٥٣) ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ نزلت في أحبار اليهود قالوا: إن كنت صادقاً فائتنا بكتاب من السماء جُمْلةً كما أتى به موسى عليه السلام[٢]، وقيل: كتاباً محرراً بخط سماوي على ألواح كما كانت التوراة، أو كتاباً نعاينه حين ينزل، أو كتاباً إلينا بأعياننا بأنك رسول الله. ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ جواب شرط مقدر أي: إن استكبرتَ ما سألوه منك فقد سألوا موسى عليه السلام أكبر منه، وهذا السؤال وإن كان من آبائهم أُسند إليهم لأنهم كانوا آخذين بمذهبهم تابعين لهديهم، والمعنى أنّ عِرْقهم راسخ في ذلك وأن ما اقترحوه عليك ليس بأول جهالاتهم وخيالاتهم. ﴿فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ عياناً أي أرناه نره جهرة، أو مجاهرين معاينين له. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ نار جاءت من قبل السماء فأهلكتهم. ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾ بسبب ظلمهم، وهو تعنتهم وسؤالُهم ما يستحيل في تلك الحال التي كانوا عليها وذلك لا يقتضي امتناع الرؤية مطلقاً. ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ هذه الجناية الثانية التي اقترفها أيضاً أوائلُهم، والبينات: المعجزات، ولا يجوز حملها على التوراة إذ لم تأتهم بعد. ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ تسلطاً ظاهراً عليهم حين أمرهم بأن يَقتلوا أنفسهم توبة عن اتخاذهم.

(١٥٤) ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ بسبب ميثاقهم ليَقْبَلوه. ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ على لسان موسى والطور مطل عليهم. ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ على لسان داود عليه الصلاة والسلام، ويحتمل أن يراد على لسان موسى حين ظلل الجبل عليهم، فإنه شرع السبت ولكن كان الاعتداء فيه والمسخ به في زمن داود عليه الصلاة والسلام. وقرأ ورش عن نافع لا تَعَدُّوا على أن أصله لا تتعدوا فأدغمت التاء في الدال، وقرأ قالون بإخفاء حركة العين وتشديد الدال والنص عنه بالإسكان. ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ على ذلك وهو قولهم سمعنا وأطعنا.

---

(١) وقرأ الباقون «نؤتيهم» بالنون.
وقد كتب الأصل كذلك، أي بالنون.

(٢) أخرجه ابن جرير (٦/٧) عن السدي وأخرج نحوه عن قتادة بسند صحيح ٦/٨).

(١٥٥) ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ أي فخالَفوا ونَقَضوا ففعلنا بهم ما فعلنا بنقضهم، وما مزيدة للتأكيد، والباء متعلقة بالفعل المحذوف، ويجوز أن تتعلق بحَرَّمنا عليهم طيبات فيكون التحريم بسبب النقض، وما عطْفٌ عليه إلى قوله فبظلم لا بما دل عليه قوله ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا﴾ مِثْلَ لا يؤمنون لأنه رد لقولهم قلوبنا غلف فيكون مِنْ صلة وقولهم المعطوف على المجرور فلا يعمل في جارّه. ﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بالقرآن، أو بما جاء في كتابهم. ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ أوعية للعلوم، أو في أكنّة مما تدعونا إليه. ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ فجعَلها محجوبة عن العلم، أو خَذَلها ومنعها التوفيق للتدبر في الآيات والتذكر في المواعظ. ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ منهم كعبدالله بن سلام، أو إيماناً قليلاً إذ لا عبرة به لنقصانه.

وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾

(١٥٦) ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ بعيسى عليه الصلاة والسلام، وهو معطوف على «بكفرهم» لأنه من أسباب الطبع، أو على قوله «فبما نقضهم» ويجوز أن يعطف مجموع هذا وما عطف عليه على مجموع ما قبله، ويكون تكرير ذكر الكفر إيذاناً بتكرر كفرهم، فإنهم كفروا بموسى ثم بعيسى ثم بمحمد عليه الصلاة والسلام. ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ يعني نسبتها إلى الزنا.

(١٥٧) ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي بزعمه ويحتمل أنهم قالوه استهزاء، ونظيره «أن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون» وأن يكون استئنافاً من الله سبحانه وتعالى بمدحه، أو وضعا للذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح. ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ روي أن رهطاً من اليهود سبُّوه وأمه فدعا عليهم فمسخهم الله تعالى قردة وخنازير، فاجتمعت اليهود على قتله فأخبره الله تعالى بأنه يرفعُه إلى السماء، فقال لأصحابه: أيكم يرضى أن يُلقَى عليه شَبَهِي فيُقْتل ويُصْلب ويدخل الجنة؟ فقام رجل منهم فألقى الله عليه شَبَهَه فقُتِل وصُلِب. وقيل: كان رجلاً ينافقه فخرج ليدل عليه، فألقى الله عليه شَبَهَه فأُخِذ وصُلب وقتل. وقيل: دخل طيطانوس اليهودي بيتاً كان هو فيه فلم يجده، وألقى الله عليه شَبَهه فلما خرج ظُنَّ أنه عيسى فأخذ وصلب، وأمثال ذلك من الخوارق التي لا تستبعد في زمان النبوة، وإنما ذمهم الله سبحانه وتعالى بما دل عليه الكلام من جراءتهم على الله سبحانه وتعالى، وقصدهم قتل نبيه المؤيَّد بالمعجزات الباهرة، وتبجحهم به لا بقولهم هذا على حسب حسبانهم. وشُبِّه مُسْنَدٌ إلى الجارّ والمجرور كأنه قيل ولكن وقع لهم التشبيه بين عيسى والمقتول، أو في الأمر على قول من قال: لم يُقْتل أحد ولكن أُرجِف بقتله فشاع بين الناس، أو إلى ضمير المقتول لدلالة إنا قتلنا على أن ثَمَّ قتيلاً. ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ في شأن عيسى عليه الصلاة والسلام، فإنه لما وقعت تلك الواقعة اختلف الناس فقال بعض اليهود: إنه كان كاذباً فقتلناه حقاً، وتردد آخرون فقال بعضهم: إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟ وقال بعضهم: الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا، وقال من سمع

منه أن الله سبحانه وتعالى يرفعني إلى السماء: أنه رفع إلى السماء، وقال قوم: صُلِبَ الناسوت وصَعَد اللاهوت. ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ لفي تردد، والشك كما يطلق على مالا يترجح أحد طرفيه يطلق على مطلق التردد، وعلى ما يقابل العلم ولذلك أكده بقوله: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ استثناء منقطع أي لكنهم يتبعون الظن، ويجوز أن يفسر الشك بالجهل والعلم بالاعتقاد الذي تسكن إليه النفس جزماً كان أو غيره فيتصل الاستثناء. ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ قتلاً يقيناً كما زعموه بقولهم إنا قتلنا المسيح، أو متيقنين. وقيل معناه ما علموه يقيناً كقول الشاعر:

كَـذَاكَ تُخْبِـرُ عَنْهَـا العَـالِمَـاتُ بِهَـا وقَـدْ قَتَلْـتُ بِعِلْمِـي ذلِكُـمْ يَقِينـاً[1]

من قولهم قتلت الشيء عِلْماً ونحرته علماً إذا أردت أن تبالغ في علمك.

بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾

(١٥٨) ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِۚ﴾ وإنكار لقتله وإثبات لرفعه. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ لا يغلب على ما يريده. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبره لعيسى عليه الصلاة والسلام.

(١٥٩) ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦۖ﴾ أي وما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به، فقوله ليؤمنن به جملة قَسَمِية وقعت صفة لأحد ويعود إليه الضمير الثاني، والأول لعيسى عليه الصلاة والسلام. والمعنى ما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمنن بأن عيسى عبد الله ورسوله قبل أن يموت ولو حين أن تُزْهَق روحه ولا ينفعه إيمانه، ويؤيد ذلك أنه قرىء إلا ليُؤْمِنُنّ به قبل موتهم بضم النون لأن أحداً في معنى الجمع، وهذا كالوعيد لهم والتحريض على معاجلة الإيمان به قبل أن يضطروا إليه ولم ينفعهم إيمانهم. وقيل الضميران لعيسى عليه أفضل الصلاة والسلام، والمعنى: أنه إذا نزل من السماء آمن به أهل الملل جميعاً. روي: أنه عليه الصلاة والسلام ينزل من السماء حين يخرج الدجال فيهلكه ولا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن به، حتى تكون الملة واحدة وهي ملة الإسلام، وتقع الأَمَنَةُ حتى ترتع الأُسود مع الإبل والنمور مع البقر والذئاب مع الغنم وتلعب الصبيان بالحيات، ويلبث في الأرض أربعين سنة ثم يُتوفى ويصلي عليه المسلمون ويدفنونه[2]، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ فيشهد على اليهود بالتكذيب وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله.

(١٦٠) ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ أي فبأي ظلم منهم. ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ يعني ما ذكره

---

(١) من البسيط واليقين محركة. اليقين فهو من باب طرب.

(٢) أخرجه ابن حبان (رقم ١٩٠١ و١٩٠٣ ـ موارد) وأبو داود (٤/٤٩٨ رقم ٤٣٢٤) وأحمد في المسند (٢/٤٠٦، ٤٣٧) والحاكم (٢/٥٩٥) والطبري (٤/ج٦/٢٢). عن أبي هريرة.
قال الحاكم: صحيح الإسناد. وقال الذهبي: صحيح. قلت وهو حديث صحيح.

في قوله: «وعلى الذين هادوا حرمنا» ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ ناساً كثيراً، أو صداً كثيراً[١].

وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾

(١٦١) ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾ كان الربا محرماً عليهم كما هو محرم علينا، وفيه دليل على دلالة النهي على التحريم. ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ بالرشوة وسائر الوجوه المحرمة. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ دون من تاب وآمن.

(١٦٢) ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ كعبدالله بن سلام وأصحابه. ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي منهم، أو من المهاجرين والأنصار. ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ خبر المبتدأ ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ نصب على المدح إن جعل يؤمنون الخبر لأولئك، أو عطف على ما أنزل إليك، والمراد بهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أي: يؤمنون بالكتب والأنبياء. وقرىء بالرفع عطفاً على الراسخون، أو على الضمير في يؤمنون، أو على أنه مبتدأ والخبر أولئك سنؤتيهم. ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ رفعه لأحد الأوجه المذكورة. ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ قدم عليه الإيمان بالأنبياء والكتب وما يصدقه من اتباع الشرائع لأنه المقصود بالآية. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ على جمعهم بين الإيمان الصحيح والعمل الصالح وقرأ حمزة سيؤتيهم بالياء.

(١٦٣) ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ جواب لأهل الكتاب عن اقتراحهم أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، واحتجاج عليهم بأن أمره في الوحي كسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ خصهم بالذكر مع اشتمال النبيين عليهم تعظيماً لهم، فإن إبراهيم أول أولي العزم منهم وعيسى آخرهم، والباقين أشرف الأنبياء ومشاهيرهم. ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ وقرأ حمزة زُبوراً بالضم وهو جمع زُبُر، بمعنى مزبور.

(١٦٤) ﴿وَرُسُلًا﴾ نصب بمضمر دل عليه أوحينا إليك كأرسلنا، أو فسره: ﴿قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل هذه السورة أو اليوم. ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ وهو

(١) قوله: «فبظلم من الذين هادوا» لعل ذكرهم بهذا العنوان للإيذان بكمال عظم ظلمهم بتذكير وقوعه بعدما هادوا أي تابوا مثل تلك التوبة الهائلة المشروطة ببخع النفوس (س٢/ ٢٥٣).

منتهى مراتب الوحي خص به موسى من بينهم، وقد فضل الله محمداً صلى الله عليه وسلم بأن أعطاه مثل ما أعطى كل واحد منهم.

﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾﴾

(١٦٥) ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ نصب على المدح أو بإضمار أرسلنا، أو على الحال ويكون رسلاً موطِّئاً لما بعده كقولك مررت بزيد رجلاً صالحاً. ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ فيقولوا لولا أرسَلْت إلينا رسولاً فينبهنا ويعلمنا مالم نكن نعلم، وفيه تنبيه على أن بعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى الناس ضرورة لقصور الكل عن إدراك جزئيات المصالح والأكثر عن إدراك كلياتها. واللام متعلقة بأرسلنا أو بقوله مبشرين ومنذرين، وحجةٌ اسم كان وخبرُه للناس أو على الله والآخر حال، ولا يجوز تعلقه بحجة لأنه مصدر، وبعدَ ظرف لها أو صفة. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ لا يغلب فيما يريد. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبر من أمر النبوة وخص كل نبي بنوع من الوحي والإعجاز.

(١٦٦) ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ﴾ استدراك عن مفهوم ما قبله فكأنه لما تعنتوا عليه بسؤال كتابٍ ينزل عليهم من السماء، واحتج عليهم بقوله إنا أوحينا إليك، قال: إنهم لا يشهدون ولكنْ اللهُ يشهد، أو أنهم أنكروه ولكن الله يُثبِتُه ويقرره. ﴿بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن المعجز الدال على نبوتك. روي أنه لما نزل «إنـا أوحينا إليك» قالوا «ما نشهد لك» فنزلت[1]. ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ أنزله متلبساً بعلمه الخاص به، وهو العلم بتأليفه على نَظْم يعجز عنه كل بليغ، أو بحالِ مَنْ يستعد للنبوة ويستأهل نزول الكتاب عليه، أو بعلمه الذي يحتاج إليه الناس في معاشهم ومعادهم، فالجار والمجرور على الأولين حال من الفاعل وعلى الثالث حال من المفعول، والجملة كالتفسير لما قبلها ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ أيضاً بنبوتك. وفيه تنبيه على أنهم يودون أن يعلموا صحة دعوىٰ النبوة على وجه يستغني عن النظر والتأمل، وهذا النوع من خواص الملك ولا سبيل للإنسان إلى العلم بأمثال ذلك سوى الفكر والنظر، فلو أتى هؤلاء بالنظر الصحيح لعرفوا نبوتك وشهدوا بها كما عرفت الملائكة وشهدوا. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي وكفى بما أقام من الحجج على صحة نبوتك عن الاستشهاد بغيره.

(١٦٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال ولأن المضل يكون أغرق في الضلال وأبعد من الانقلاع عنه.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٤/ج٦/ ٣١) من طريقين عن ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس. ومحمد بن أبي محمد مجهول.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ
أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ
وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي
دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ
إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ
سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾

(١٦٨) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ﴾ محمداً عليه الصلاة والسلام بإنكار نبوته، أو الناسَ بصدهم عما فيه صلاحهم وخلاصهم، أو بأعم من ذلك. والآية تدل على أن الكفار مخاطبون بالفروع إذ المراد بهم الجامعون بين الكفر والظلم. ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾.

(١٦٩) ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ لِجَرْيِ حكمه السابق ووعده المحتوم على أن من مات على كفره فهو خالد في النار. وخالدين حال مقدرة. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ لا يصعب عليه ولا يستعظمه.

(١٧٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ لمّا قرر أمر النبوة وبين الطريق الموصل إلى العلم بها ووعيد من أنكرها خاطب الناس عامة بالدعوة وإلزام الحجة والوعد بالإجابة والوعيد على الرد. ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ أي إيماناً خيراً لكم، أو ائتوا أمراً خيراً لكم مما أنتم عليه. وقيل تقديره يكن الإيمان خيراً لكم، ومَنَعَه البصريون لأن كان لا يحذف مع اسمه إلا فيما لابد منه ولأنه يؤدي إلى الشرط وجوابه. ﴿وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني وإن تكفروا فهو غني عنكم لا يتضرر بكفركم كما لا ينتفع بإيمانكم، ونبه على غناه بقوله ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهو يعم ما اشتملتا عليه وما رُكِّبتا منه. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بأحوالهم. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبر لهم[(١)].

(١٧١) ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ﴾ الخطاب للفريقين، غلت اليهود في حط عيسى عليه الصلاة والسلام حتى رموه بأنه ولد من غير رشدة، والنصارى في رفعه حتى اتخذوه إلهاً. وقيل الخطاب للنصارى خاصة فإنه أوفق لقوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ يعني تنزيهه عن الصاحبة والولد. ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ أوصلها إليها وحصلها فيها[(٢)]. ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ وذو روح صَدَرَ منه لا بتوسُّط ما يجري مجرى الأصل والمادة له. وقيل سمي روحاً لأنه كان يحيي الأموات أو القلوب. ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ﴾ أي الآلهة ثلاثة الله والمسيح

---

(١) قوله «جاءكم الرسول بالحق من ربكم» إيراده عليه السلام بعنوان الرسالة لتأكيد وجوب طاعته.
والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين للإيذان بأن ذلك لتربيتهم وتبليغهم إلى كمالهم اللائق بهم ترغيباً لهم في الامتثال بما بعده (س٢/٢٥٨).

(٢) وقوله «كَلِمَتُه» أي مكون بكلمته وأمره الذي هو كنْ من غير واسطة أب ولا نطفة (س٢/٢٥٩).

ومريم، ويشهد عليه قوله تعالى ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾(١) أو الله ثلاثة إن صح أنهم يقولون الله ثلاثة أقانيم الأب والابن وروح القدس، ويريدون بالأب الذات وبالابن العلم وبروح القدس الحياة. ﴿ٱنتَهُوا﴾ عن التثليث. ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾ نصبه كما سبق. ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي واحد بالذات لا تعدد فيه بوجه ما. ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أي أسبِّحه تسبيحاً من أن يكون له ولد فإنه يكون لمن يعادله مثل ويتطرق إليه فناء. ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً لا يماثله شيء من ذلك فيتخذه ولداً. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ تنبيه على غناه عن الولد فإن الحاجة إليه ليكون وكيلاً لأبيه والله سبحانه وتعالى قائم بحفظ الأشياء كاف في ذلك مستغن عمن يخلفه أو يعينه.

لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾

(١٧٢) ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ﴾ لن يأنف، من نكَفْتُ الدمع إذا نحّيته بأصبعك كيلا يُرى أثره عليك. ﴿أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ من أن يكون عبداً له، فإن عبوديته شرف يتباهى به، وإنما المذلة والاستنكاف في عبودية غيره. روي أن وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ: لمَ تَعِيبُ صاحبنَا؟ قال رسول الله ﷺ: ومن صاحبُكم؟ قالوا: عيسى عليه الصلاة والسلام، قال عليه السلام: «وأي شيء أقول»؟ قالوا: تقول إنه عبدالله ورسوله، قال: «إنه ليس بعار أن يكون عبداً لله» قالوا: بلى. فنزلت(٢) ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ عطف على المسيح أي ولا يستنكف الملائكة المقربون أن يكونوا عبيداً لله. واحتج به من زعم فضل الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقال: مَساقُه لرد قول النصارى في رفع المسيح عن مقام العبودية، وذلك يقتضي أن يكون المعطوف أعلى درجة من المعطوف عليه حتى يكون عدمُ استنكافهم كالدليل على عدم استنكافه. وجوابُه: أن الآية للرد على عَبَدة المسيح والملائكة فلا يتجه ذلك، وإن سُلِّم اختصاصُها بالنصارى فلعله أراد بالعطف المبالغة باعتبار التكثير دون التكبير كقولك: أصبح الأمير لا يخالفه رئيس ولا مرؤوس، وإنْ أراد به التكبير فغايته تفضيل المقربين من الملائكة وهم الكروبيون الذين هم حول العرش، أو مَنْ أعلى منهم رتبة من الملائكة على المسيح من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وذلك لا يستلزم فضل أحد الجنسين على الآخر مطلقاً والنزاعَ فيه ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ﴾ ومن يرتفع عنها، والاستكبار دون الاستنكاف ولذلك عطف عليه وإنما يستعمل من حيث الاستحقاق بخلاف التكبر فإنه قد يكون بالاستحقاق. ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ فيجازيهم(٣).

---

(١) المائدة: «١١٦».

(٢) عزاه الواحدي في أسباب النزول للكلبي (ص١٩٠) والكلبي ضعيف، وهو بدون إسناد.

(٣) قوله «ومن يستنكف عن عبادته» جعل المستنكَفَ عنه ههنا عبادته تعالى لا ما سبق لتعليق الوعيد بوصف ظاهر الثبوت للكفرة (س٢/ ٢٦١). =

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ
ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ
فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى
ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن
كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ
لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾

(١٧٣) ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ تفصيل للمجازاة العامة المدلول عليها من فحوى الكلام، وكأنه قال: فسيحشرهم إليه جميعاً يوم يحشر العباد للمجازاة، أو لمجازاتهم فإن إثابة مُقابِليهم والإحسان إليهم تعذيب لهم بالغم والحسرة[(١)].

(١٧٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ عنىٰ بالبرهان المعجزات وبالنور القرآن، أي قد جاءكم دلائل العقل وشواهد النقل ولم يبقَ لكم عذر ولا علة، وقيل: البرهان الدين أو رسول الله ﷺ أو القرآن[(٢)].

(١٧٥) ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ في ثوابٍ قَدَّرَه بإزاء إيمانه وعَمَلِه رحمةً منه، لا قضاءً لحق واجب. ﴿وَفَضْلٍ﴾ إحسان زائد عليه. ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ﴾ إلى الله سبحانه وتعالى، وقيل إلى الموعود. ﴿صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ هو الإسلام والطاعة في الدنيا وطريق الجنة في الآخرة.

(١٧٦) ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ أي في الكلالة، حُذِفت لدلالة الجواب عليه. روي أن جابر بن عبدالله كان مريضاً فعاده رسول الله ﷺ فقال: إني كَلَالَة فكيف أصنع في مالي؟ فنزلت وهي آخر ما نزل من الأحكام[(٣)].

= وكذلك فإن في اتخاذ عيسى معبوداً استنكاف عن عبادته تعالى.

(١) وقدم الذين آمنوا على الذين استنكفوا لبيان فضلهم. وأوردهم بعنوان الإيمان والعمل الصالح لا بوصف عدم الاستنكاف المناسب لما قبله وما بعده للتنبيه على أنه المستتبع لما يعقبه من الثمرات (س٢/ ٢٦٢).

(٢) وقوله «برهان من ربكم» تعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لإظهار اللطف بهم والإيذان بأن مجيئه إليهم لتربيتهم وتكميلهم (س٢/ ٢٦٢).

(٣) أخرجه البخاري (١٠/ ١١٤ رقم ٥٦٥١) و(١٢/ ٣ رقم ٦٧٢٣) و(١٣/ ٢٩٠ رقم ٧٣٠٩). ومسلم (٣/ ١٢٣٤ رقم ٥/ ١٦١٦) وأبو داود (٣/ ٣٠٨ رقم ٢٨٨٦) والترمذي (٤/ ٤١٧ رقم ٢٠٩٧) و(٥/ ٢٣٤ رقم ٣٠١٥) والنسائي (١/ ٨٧ رقم ١٣٨) وابن ماجة (١/ ٤٦٢ رقم ١٤٣٦) مختصراً، و(٢/ ٩١١ رقم ٢٧٢٨).
= كلهم من طريق سفيان بن عيينة، عن محمد بن المنكدر ـ به.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ سبق تفسيرُها في أول السورة. ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ ارتفع امرُؤ بفعل يفسره الظاهر، وليس له ولد صفةٌ له أو حال من المستكنّ في هلك، والواو في «وله» يحتمل الحال والعطف. والمراد بالأخت الأخت من الأبوين أو الأب لأنه جُعِل أخوها عَصَبة وابن الأم لا يكون عَصَبة، والولدُ على ظاهره فإن الأخت وإن ورثت مع البنت عند عامة العلماء - غير ابن عباس رضي الله تعالى عنهما - لكنها لا ترث النصف. ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ﴾ أي والمرء يرث إن كان الأمر بالعكس. ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ ذكراً كان أو أنثى إن أريد بيرثها يرث جميع مالها، وإلا فالمراد به الذَّكَر إذ البنت لا تحجب الأخ، والآية كما لم تدلَّ على سقوط الإخوة بغير الولد لم تدل على عدم سقوطهم به، وقد دلت السنة على أنهم لا يرثون مع الأب وكذا مفهوم قوله ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ إن فسرت بالميت. ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ الضمير لمن يرث بالأخوة، وتثنيته محمولة على المعنى، وفائدة الإخبار عنه باثنتين التنبيهُ على أن الحكم باعتبار العدد دون الصغر والكبر وغيرهما. ﴿وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أصله وإن كانوا إخوة وأخوات فغُلِّب المذكر. ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ أي يبين الله لكم ضلالَكم الذي من شأنكم إذا

= وأخرجه أيضاً أحمد في المسند (٣/ ٣٠٧) والطبري في جامع البيان (٤/ج٦/ ٤١) وأبو يعلى (٤/ ١٥ رقم ٢٠١٨) وابن الجارود (رقم: ٩٥٨) والحميدي (رقم: ١٢٢٩) وابن خزيمة (رقم: ١٠٦).
كلهم من طريق ابن عيينة عن ابن المنكدر عن جابر - به.
وأخرجه عبد بن حميد (رقم ١٠٦٤ - منتخب) وأبو داود (٣/ ٣٠٨ رقم ٢٨٨٧).
والنسائي في الكبرى (تحفة رقم: ٢٩٧٧) والطبري في جامع البيان (٤/ج٦/ ٤١) والطيالسي (رقم: ١٧٤٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٢٣١) والواحدي في أسباب النزول (ص١٨٧ - ١٨٨).
من طريق أبي الزبير عن جابر - به.
وأخرج البخاري (٨/ ٢٤٣ رقم ٤٥٧٧) ومسلم (٣/ ١٢٣٤ رقم ٦/ ١٦١٦) والنسائي (تحفة رقم: ٣٠٦٠) والطبري في جامع البيان (٣/ج٤/ ٢٧٦) والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٢١٢) والواحدي في أسباب النزول (ص١٤٤ - ١٤٥) من طريق ابن جريج عن ابن المنكدر عن جابر - به.
قلت: قد اختلفت الطرق والروايات في حديث جابر هذا وجاء في بعضها أن الآية التي نزلت في قصة فرضه هي آية «يوصيكم الله في أولادكم..» [النساء: ١١].
وفي بعض الروايات أن الآية هي «يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة..» [النساء: ١٧٦].
وفي بعضها فنزلت آية الفرائض وفي البعض الآخر فنزلت آية المواريث. فقال الحافظ بالنسبة لرواية ابن جريج - في الفتح (٨/ ٢٤٣) -: «وقيل إنه وهم في ذلك وأن الصواب أن الآية التي نزلت في قصة جابر هذه الآية الأخيرة من النساء... لأن جابراً يومئذٍ لم يكن له والد ولا ولد، والكلالة من لا ولد له ولا والد..» ا.هـ.
ثم قال الحافظ في الفتح أيضاً (٨/ ٢٤٤): «ولم ينفرد ابن جريج بتعيين الآية المذكورة فقد ذكرها ابن عيينة أيضاً على الاختلاف عنه... فالحاصل أن المحفوظ عن ابن المنكدر أنه قال (آية المواريث أو آية الفرائض)، والظاهر أنها «يوصيكم الله» كما صرح به في رواية ابن جريج ومن تابعه، وأما من قال إنها «يستفتونك» فعمدته أن جابراً لم يكن له حينئذٍ وله، وإنما كان يورث كلالة، فكان المناسب لقصته نزول الآية الأخيرة، لكن ليس بلازم، لأن الكلالة مختلف في تفسيرها: فقيل هم اسم المال الموروث، وقيل اسم الميت، وقيل اسم الإرث، وقيل ما تقدم...» ا.هـ وانظر بقية كلام ابن حجر فإنه مفيد.

خُلُقُتُم وطباعَكم لتحترزوا عنه وتتحروا خلافه، أو يبين لكم الحق والصواب كراهة أن تضلوا. وقيل لئلا تضلوا فحذف لا وهو قول الكوفيين. ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىۡءٍ عَلِيمٌۢ﴾ فهو عالم بمصالح العباد في المحيا والممات. عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة النساء فكأنما تصدق على كل مؤمن ومؤمنة، ووُرِّث ميراثاً وأُعطي من الأجر كمن اشترى محرراً، وبرىء من الشرك وكان في مشيئة الله تعالى من الذين يتجاوز عنهم»[1].

☆ ☆ ☆

(١) رواه الثعلبي والواحدي في تفسيرهما، وهو موضوع.
وأورده ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠) أبواب تتعلق بالقرآن، باب فضائل القرآن.

سورة المائدة

ترتيبها ٥ — آياتها ١٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ
حُرُمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا
الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ
قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ
وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢)

(١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ الوفاء هو القيام بمقتضى العهد، وكذلك الإيفاء. والعقد العهد الموثّق قال الحطيئة:

قَـوْمٌ إِذَا عَقَـدُوا عَقْـداً لِجَـارِهِـمُ شَـدُّوا العِنَـاجَ وَشَـدُّوا فَـوْقَـهُ الكَـرَبَـا

وأصله الجمع بين الشيئين بحيث يعسر الانفصال، ولعل المراد بالعقود ما يعم العقود التي عقدها الله سبحانه وتعالى على عباده وألزمها إياهم من التكاليف، وما يَعْقِدون بينهم من عقود الأمانات والمعاملات ونحوها مما يجب الوفاء به، أو يحسن إن حملنا الأمر على المشترك بين الوجوب والندب. ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ تفصيل للعقود. والبهيمة كل حي لا يميز. وقيل كل ذات أربع، وإضافتها إلى الأنعام للبيان كقولك: ثوب خز، ومعناه البهيمة من الأنعام، وهي الأزواج الثمانية وألحق بها الظباء وبقر الوحش. وقيل هما المراد بالبهيمة ونحوهما مما يماثل الأنعام في الاجترار وعدم الأنياب، وإضافتها إلى الأنعام لملابسة الشبه[1]. ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ إلا محرم ما يتلى عليكم كقوله تعالى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾[2] أو إلا ما يتلى عليكم تحريمه. ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ حال من الضمير

---

(١) وقدم الجار والمجرور «لكم» على القائم الفاعل «بهيمةُ..» لإظهار العناية بالمقدم من تعجيل المسرة والتشويق إلى المؤخر، فإن ما حقه التقديم إذا أخر تبقى النفسُ مترقبة إلى وروده (س٣/ ٢).

(٢) المائدة: «٣».

في لكم. وقيل من واو ﴿أَوۡفُواْ﴾ وقيل استثناء وفيه تعسف، والصيد يحتمل المصدر والمفعول. ﴿وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ﴾ حال مما استكن في مُحِلي، والحرم جمع حرام وهو المحرم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ من تحليل أو تحريم.

(٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ يعني مناسك الحج، جمع شعيرة وهي اسم ما أُشْعِر أي جُعِل شعاراً، سمّي به أعمال الحج ومواقفه لأنها علامات الحج وأعلام النسك. وقيل دين الله لقوله سبحانه وتعالى ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾[(١)] أي دينه. وقيل فرائضه التي حدها لعباده. ﴿وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ بالقتال فيه أو بالنسيء. ﴿وَلَا ٱلۡهَدۡيَ﴾ ما أهدي إلى الكعبة، جمع هدية كجَدْي في جمع جدية السّرح. ﴿وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ﴾ أي ذوات القلائد من الهدي، وعطفها على الهدي للاختصاص فإنها أشرف الهدي، أو القلائد أنفسها والنهي عن إحلالها مبالغة في النهي عن التعرض للهدي، ونظيره قوله تعالى ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾[(٢)]. والقلائد جمع قلادة وهي ما قُلّد به الهدي من نعل أو لَحَاء شجر أو غيرهما ليُعْلم به أنه هدي فلا يُتعرض له. ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾ قاصدين لزيارته. ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ﴾ أن يثيبهم ويرضى عنهم، والجملةُ في موضع الحال من المستكن في آ مِّين وليست صفة له، لأنه عامل، والمختار أن اسم الفاعل الموصوف لا يَعْمل، وفائدته استنكار تعرض مَنْ هذا شأنه والتنبيه على المانع له. وقيل معناه يبتغون من الله رزقاً بالتجارة ورضواناً بزعمهم، إذ روي أن الآية نزلت عام القضية في حُجّاج اليمامة لما همّ المسلمون أن يتعرضوا لهم بسبب أنه كان فيهم الحطيم بن شريح بن ضبيعة وكان قد استاق سَرْح المدينة[(٣)]، وعلى هذا فالآية منسوخة. وقرىء تبتغون على خطاب المؤمنين ﴿وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ﴾ أَذِن في الاصطياد بعد زوال الإحرام، ولا يلزم من إرادة الإباحة ههنا من الأمر دلالة الأمر الآتي بعد الحظر على الإباحة مطلقاً. وقرىء بكسر الفاء على إلقاء حركة الوصل عليها وهو ضعيف جداً[(٤)] وقرىء أَحْلَلْتُم يقال حل المحرم وأحل ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾ لا يحملنكم أو لا يكسبنكم. ﴿شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ﴾ شدة بغضهم وعداوتهم، وهو مصدر أضيف إلى المفعول أو الفاعل. وقرأ ابن عامر وإسماعيل عن نافع وابن عياش عن عاصم بسكون النون، وهو أيضاً مصدر كليان أو نعت بمعنى: بغيض قوم، وفَعْلان في النعت أكثر كعطشان وسكران. ﴿أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ لأن صدوكم عنه عام الحديبية. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر الهمزة على أنه شرط معترِض أغنى عن جوابه لا يجرمنكم. ﴿أَن تَعۡتَدُواْۘ﴾ بالانتقام، وهو ثاني مفعولي يجرمنكم فإنه يعدّى إلى واحد وإلى اثنين ككسِب. ومن قرأ يُجْرِمنكم بضم الياء جعله منقولاً من المتعدي إلى مفعولٍ بالهمزة إلى مفعولين. ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ

(١) الحج: «٣٢».

(٢) النور: «٣١».

(٣) أخرجه ابن جرير عن عكرمة وعن السدي (٦/٥٨، ٥٩) وطريق السدي حسن (تخريج الفتح السماوي ص٥٤٧) والحطيم جاء للنبي عليه السلام وأظهر له الإسلام فلما خرج مرّ بسرح المدينة فاستاق فطلبوه فعجزوا عنه.

(٤) قوله (ضعيف جداً) أي من جهة العربية لأن النقل إلى المتحرك مخالف للقياس. لكن أبا حيان بين أنه لم يُقرأ بكسرٍ محض، بل قرىء بالإمالة المحضة لتوهم وجود كسرة همزة الوصل، كما أمالوا الفاء في فإذا لوجود كسرة إذا (البحر المحيط ٣/٤٢١).

﴿وَالتَّقْوَىٰ﴾ على العفو والإغضاء ومتابعة الأمر ومجانبة الهوى. ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ للتشفي والانتقام. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فانتقامه أشد.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾

(٣) ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ بيان ما يتلى عليكم، والميتة ما فارقه الروح من غير تذكية. ﴿وَالدَّمُ﴾ أي الدم المسفوح لقوله تعالى: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾[1] وكان أهل الجاهلية يصبّونه في الأمعاء ويشوونها. ﴿وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أي رفع الصوت لغير الله به كقولهم: باسم اللات والعزّى عند ذبحه. ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾ أي التي ماتت بالخنق. ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ المضروبة بنحو خشب أو حجر حتى تموت، مِنْ وَقَذْتُه إذا ضربته. ﴿وَالْمُتَرَدِّيَةُ﴾ التي تردت من علوّ أو في بئر فماتت. ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ التي نطحتها أخرى فماتت بالنطح، والتاء فيها للنقل. ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ وما أكل منه السبع فمات، وهو يدل على أن جوارح الصيد إذا أكَلَتْ مما اصطادته لم تحل. ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ إلا ما أدركتم ذكاته وفيه حياة مستقرة من ذلك. وقيل الاستثناء مخصوص بما أكل السبع. والذكاة في الشرع لقطع الحلقوم والمريء بمحدَّد. ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ النصب واحدُ الأنصاب، وهي أحجار كانت منصوبة حول البيت يذبحون عليها ويَعدُّون ذلك قربة. وقيل هي الأصنام، وعلى بمعنى اللام، أو على أصلها بتقدير وما ذبح مسمّىً على الأصنام. وقيل هو جمع والواحد نصاب. ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ أي وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام، وذلك أنهم إذا قصدوا فعلاً ضربوا ثلاثة أقداح، مكتوب على أحدها: أمرني ربي وعلى الآخر: نهاني ربي والثالث غَفْل، فإن خرج الآمِرُ مَضَوْا على ذلك وإن خرج الناهي تجنبوا عنه وإن خرج الغفل أجلوها ثانياً، فمعنى الاستقسام طلبُ معرفة ما قُسِم لهم دون ما لم يقسم لهم بالأزلام. وقيل: هو استقسام الجُزُور بالأقداح على الأنصباء المعلومة. وواحد الأزلام زَلَم كجَمَل وزُلَم كصُرَد. ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ إشارة إلى الاستقسام، وكونه فسقاً لأنه دخول في علم الغيب وضلال باعتقاد أن ذلك طريق إليه، وافتراء على الله سبحانه وتعالى إن أريد بربي الله، وجهالة وشِرْك إن أريد به الصنم أو الميسر المحرم أو إلى تناول ما حرم عليهم. ﴿الْيَوْمَ﴾ لم يرد به يوماً بعينه وإنما أراد الزمان الحاضر وما يتصل به من الأزمنة الآتية: وقيل أراد يوم نزولها وقد نزلت بعد عصر يوم الجمعة في عرفة حجة الوداع. ﴿يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ﴾ أي من إبطاله ورجوعكم عنه بتحليل هذه الخبائث وغيرها، أو مِنْ أن يغلبوكم عليه. ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ أن يظهروا عليكم. ﴿وَاخْشَوْنِ﴾ وأخلصوا الخشية لي. ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بالنصر والإظهار على الأديان كلها، أو بالتنصيص على قواعد العقائد والتوقيف على

---

(١) الأنعام: «١٤٥».

أصول الشرائع وقوانين الاجتهاد. ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ بالهداية والتوفيق، أو بإكمال الدين، أو بفتح مكة وهدم منار الجاهلية. ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ اخترته لكم ديناً من بين الأديان وهو الدين عند الله لا غير. ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ متصل بذكر المحرمات، وما بينهما اعتراض لما يوجب التجنب عنها، وهو أن تناولها فسوق وحرمتها من جملة الدين الكامل والنعمة التامة والإسلام المرضي، والمعنى: فمن اضطُر إلى تناول شيء من هذه المحرمات. ﴿فِي مَخۡمَصَةٍ﴾ مجاعة ﴿غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾ غير مائل له ومنحرف إليه بأن يأكلها تلذذاً أو مجاوزاً حد الرخصة كقوله ﴿غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ لا يؤاخذه بأكله.

يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٤﴾

(٤) ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ﴾ لما تضمن السؤال معنى القول أوقع على الجملة، وقد سبق الكلام في ماذا، وإنما قال لهم ولم يقل لنا على الحكاية، لأن يسألونك بلفظ الغيبة وكلا الوجهين سائغ في أمثاله، والمسؤول ما أُحِل لهم من المطاعم كأنهم لما تُلي عليهم ما حُرم عليهم سألوا عما أُحِل لهم. ﴿قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ مالم تستخبثه الطباع السليمة ولم تنفر عنه، ومن مفهومه حَرَّم مستخبثاتِ العرب، أو مالم يدل نص ولا قياس على حرمته. ﴿وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ﴾ عطف على الطيبات إنْ جُعِلت ما موصولةً على تقدير وصيْدِ ما علمتم، وجملة شرطية إن جُعلت شرطاً وجوابُها فكلوا. والجوارحُ كواسب الصيد على أهلها، من سباع ذوات الأربع والطير ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ معلِّمين إياه الصيد، والمكلِّبُ مُؤدِّبُ الجوارح ومُضْريها[1] بالصيد، مشتق من الكَلْب، لأن التأديب يكون أكثر فيه وآثر، أو لأن كل سبع يسمى كلباً لقوله عليه الصلاة والسلام «اللهم سلط عليه كلباً من كلابك»[2]. وانتصابُه على الحال من علَّمتم، وفائدتها المبالغة في التعليم. ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾ حال ثانية، أو استئناف. ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ من الحيل وطرق التأديب، فإن العلم بها إلهام من الله تعالى، أو مكتسب بالعقل الذي هو منحة منه سبحانه وتعالى، أو مما علمكم الله أن تُعلِّموه من اتباع الصيد بإرسال صاحبه وأن ينزجر بزجره وينصرف بدعائه ويمسك عليه الصيد ولا يأكل منه. ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾ وهو مالم تأكل منه، لقوله عليه الصلاة والسلام لعدي بن حاتم «وإن أكل منه فلا تأكل إنما أمسك على

---

(١) مضْري الجوارح هو الذي اعتادها واجترأ عليها (المصباح المنير مادة ضري).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٥٣٩) من حديث أبي نوفل بن أبي عقرب، عن أبيه كان لهب بن أبي لهب يسب النبي عليه السلام، فقال: «اللهم سلط عليه كلبك» فخرج في قافلة يريد الشام فنزلوا منزلاً فقال: إني أخاف دعوة محمد فحطوا متاعه حوله وقعدوا يحرسونه، فجاء الأسد فانتزعه فذهب.
قال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.
قلت: فيه العباس بن الفضل الأنصاري، عن الأسود بن شيبان، وذكره المزي في تلاميذ الأسود (العباس بن الفضل الأزرق). أياً كان منهما فكلاهما متروك. انظر التقريب (١/٣٩٨ ـ ٣٩٩). فالحديث موضوع.

نفسه»[١]، وإليه ذهب أكثر الفقهاء، وقال بعضهم: لا يشترط ذلك في سباع الطير لأن تأديبها إلى هذا الحد متعذر، وقال آخرون: لا يشترط مطلقاً. ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ الضمير لما علمتم والمعنى: سموا عليه عند إرساله، أو لما أمسكن بمعنى سموا عليه إذا أدركتم ذكاته. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في محرماته. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فيؤاخذكم بما جلّ ودقّ.

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٥ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦﴾

(٥) ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ يتناول الذبائح وغيرها، ويعم الذين أوتوا الكتاب اليهود والنصارى، واستثنى علي رضي الله تعالى عنه نصارى بني تغلب وقال: ليسوا على النصرانية ولم يأخذوا منها إلا شرب الخمر[٢]، ولا يُلحق بهم المجوس في ذلك وإن أُلحقوا بهم في التقرير على الجزية لقوله عليه الصلاة والسلام: «سُنّوا بهم سنة أهل الكتاب، غير ناكحي نسائهم ولا آكلي ذبائحهم»[٣] ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ فلا عليكم أن تُطعِموهم وتبيعوه منهم، ولو حَرُم عليهم لم يجزَ ذلك. ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي الحرائر، أو العفائف. وتخصيصُهن بَعْثٌ على ما هو الأولى. ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ وإن كن حربيات، وقال ابن عباس لا تَحِل الحربيات. ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن، وتقييد الحل بإيتائها لتأكيد وجوبها والحث على ما هو الأولى. وقيل

(١) أخرجه البخاري (٩/ ٦٠٩ رقم ٥٤٨٣) و(٩/ ٦١٢ رقم ٥٤٨٦ ورقم ٥٤٨٧) ومسلم (٣/ ١٥٢٩ رقم ٢، ٣/ ١٩٢٩) من حديث عدي بن حاتم.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٦/ ٧٢ رقم ١٠٠٣٤) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٢٨٤) عن علي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ٢٧٨ رقم ٤٢) والشافعي في ترتيب المسند (٢/ ١٣٠ رقم ٤٣٠) وعبدالرزاق في المصنف (٦/ ٦٨ رقم ١٠٠٢٥) و(١٠/ ٣٢٥ رقم ١٩٢٥٣) عن جعفر بن محمد عن أبيه أن عمر بن الخطاب ذكرَ المجوسَ فقال: ما أدري كيف أصنعُ في أمرهم، فقال عبدالرحمن بن عوفٍ: أشهدُ لسمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «سنوا بهم سُنَّةَ أهلِ الكتاب». وإسناده منقطع. وأخرج عبدالرزاق في المنصف (٦/ ٦٨ رقم ١٠٠٢٤) من طريق ابن جريج قال: أخبرني عمرو بن دينار عن بجالة التميمي، أن عمر بن الخطاب لم يرد أن يأخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبدالرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر». وإسناده متصل صحيح.

المراد بإيتائها التزامها ﴿مُحْصِنِينَ﴾ أعِفّاء بالنكاح. ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ غير مجاهرين بالزنا. ﴿وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ مسرين به. والخِدْن الصديق، يقع على الذكر والأنثى. ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ يريد بالإيمان شرائع الإسلام وبالكفر إنكاره والامتناع عنه.

(٦) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي إذا أردتم القيام كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾(١) عبّر عن إرادة الفعل بالفعل المسبب عنها للإيجاز والتنبيه على أن من أراد العبادة ينبغي أن يبادر إليها، بحيث لا ينفك الفعل عن الإرادة. أو إذا قصدتم الصلاة لأن التوجه إلى الشيء والقيام إليه قصد له. وظاهر الآية يوجب الوضوء على كل قائم إلى الصلاة وإن لم يكن محدثاً، والإجماع على خلافه لما روي أنه عليه الصلاة والسلام صلى الصلوات الخمس بوضوء واحد يوم الفتح، فقال عمر رضي الله تعالى عنه: صنعت شيئاً لم تكن تصنعه، فقال: «عمداً فعلته»(٢) فقيل مُطلقٌ أُريد به التقييد، والمعنى إذا قمتم إلى الصلاة محدثين. وقيل الأمر فيه للندب. وقيل كان ذلك أول الأمر ثم نُسخ، وهو ضعيف لقوله عليه الصلاة والسلام: «المائدة من آخر القرآن نزولاً فأَحِلُّوا حلالها وحرموا حرامها»(٣) ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ أَمِرُّوا الماء عليها. ولا حاجة إلى الدلك خلافاً لمالك. ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ الجمهور على دخول المرفقين في المغسول، ولذلك قيل: «إلى» بمعنى «مع» كقوله تعالى: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾(٤) أو متعلقة بمحذوف تقديره: وأيديكم مضافةً إلى المرافق، ولو كان كذلك لم يبقَ لمعنى التحديد ولا لذكره مزيد فائدة، لأن مطلق اليد يشتمل عليها. وقيل: إلى تفيد الغاية مطلقاً، وأما دخولها في الحكم أو خروجها منه فلا دلالة لها عليه وإنما يعلم من خارج ولم يكن في الآية، وكانت الأيدي متناولة لها فحكم بدخولها احتياطاً. وقيل إلى من حيث إنها تفيد الغاية تقتضي خروجها وإلا لم تكن غاية لقوله تعالى: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾(٥) وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾(٦) لكنْ لمّا لم تتميز الغاية ههنا عن ذي الغاية وجب إدخالها احتياطاً. ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ الباء مزيدة. وقيل للتبعيض، فإنه الفارق بين قولك مسحت المنديل وبالمنديل، ووجهه أن يقال إنها تدل على تضمين الفعل معنى الإلصاق فكأنه قيل: وألصِقوا المسح برؤوسكم، وذلك لا يقتضي الاستيعاب بخلاف ما لو قيل: وامسحوا رؤوسكم فإنه كقوله: ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾. واختلف العلماء في قدر الواجب، فأوجب الشافعي رضي الله عنه تعالى أقل ما يقع عليه الاسم أخذاً باليقين، وأبو حنيفة رضي الله تعالى عنه مَسَحَ ربع الرأس لأنه عليه الصلاة والسلام مسح

---

(١) النحل: «٩٨».

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٢٣٢ رقم ٨٦/ ٢٧٧) وأبو داود (١/ ١٢٠ رقم ١٧٢) والترمذي (١/ ٨٩ رقم ٦١) والنسائي (١/ ٨٦ رقم ١٣٣) وابن ماجة (١/ ١٧٠ رقم ٥١٠) من حديث بريدة.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣١١) من طريق جبير بن نفير، قال: «دخلت على عائشة. فقالت لي: يا جبير، تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم. فقالت: أما إنها آخر سورة نزلت سورة المائدة... الحديث.
قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٤) هود: «٥٢».

(٥) البقرة: «٢٨٠».

(٦) البقرة: «١٨٧».

على ناصيته[١] وهو قريب من الربع، ومالك رضي الله تعالى عنه مسح كله أخذاً بالاحتياط. ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ نصبه نافع وابن عامر وحفص والكسائي ويعقوب عطفاً على وجوهكم، ويؤيده: السنة الشائعة وعمل الصحابة وقول أكثر الأئمة والتحديد إذ المسح لم يُحَدّ. وجره الباقون على الجِوار، ونظيره كثيرٌ في القرآن والشعر كقوله تعالى: ﴿عذاب يوم أليم﴾ ﴿وحورٍ عين﴾ بالجر في قراءة حمزة والكسائي، وقولهم: جُحْر ضَب خرب. وللنحاة باب في ذلك، وفائدته التنبيه على أنه ينبغي أن يَقْتَصِد في صب الماء عليها ويغسِل غسلاً يقرب من المسح. وفي الفصل بينه وبين أخويه إيماء على وجوب الترتيب. وقرىء بالرفع على وأرجُلكم مغسولةٌ. ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾ فاغتسلوا. ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ سبق تفسيره، ولعل تكريرَه ليتصل الكلام في بيان أنواع الطهارة. ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ أي ما يريد الأمر بالطهارة للصلاة أو الأمر بالتيمم تضييقاً عليكم. ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ لينظفكم، أو ليطهركم عن الذنوب فإن الوضوء تكفير للذنوب، أو ليطهركم بالتراب إذا أعوزكم التطهير بالماء، فمفعول يريد في الموضعين محذوف. واللام للعلة، وقيل مزيدة، والمعنى: ما يريد الله أن يجعل عليكم من حرج حتى لا يرخص لكم في التيمم، ولكن يريد أن يطهركم وهو ضعيف لأن أنْ لا تقدَّرُ بعد المزيدة. ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ ليتم بشرعه ما هو مطهرة لأبدانكم ومكفرة لذنوبكم نعمتَه عليكم في الدين، أو ليتمّ برخصه إنعامه عليكم بعزائمه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمته. والآية مشتملة على سبعة أمور كلها مثنىٰ: طهارتان أصل وبدل، والأصل اثنان مستوعِب وغير مستوعب، وغير المستوعب باعتبار الفعل غسل ومسح وباعتبار المحل محدود وغير محدود، وأن آلتهما مائع وجامد، وموجبهما حدث أصغر وأكبر، وأن المبيح للعدول إلى البدل مرض أو سفر، وأن الموعود عليهما تطهير الذنوب وإتمام النعمة.

﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾

(٧) ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلام لتذكركم المنعم وترغبكم في شكره. ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ يعني الميثاق الذي أخذه على المسلمين حين بايعهم رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، أو ميثاق ليلةِ العقبة أو بيعةِ الرضوان[٢].

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٢٣٠ ـ ٢٣١ رقم ٨١، ٨٢، ٨٣/ ٢٧٤) من حديث المغيرة بن شعبة في قصة فيها: «ومسح بناصيته وعلى العمامة وعلى خفيه». وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٠/ ٣٨٠ رقم ٨٨٦، ٨٨٧، ٨٨٨) من حديثه أيضا: «أن النبي ﷺ توضأ ومسح على ناصيته».
والناصية: مقدم الرأس.

(٢) وفائدة التقييد بقوله «إذ قلتم سمعنا وأطعنا» تأكيد وجوب مراعاته بتذكر قبولهم والتزامهم بالمحافظة عليه (س٣/ ١١).

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ في إنساء نعمته ونقض ميثاقه. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أي بخفياتها فيجازيكم عليها فضلاً عن جليات أعمالكم[١].

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا
تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ
أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ
أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

(٨) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ﴾ عدّاه بعلىٰ لتضمنه معنى الحمل، والمعنى لا يحملنكم شدة بغضكم للمشركين على ترك العدل فيهم فتعتدوا عليهم بارتكاب مالا يحل، كمُثْلَة وقَذْف وقتل نساء وصبية ونقض عهد تشفِّياً مما في قلوبكم. ﴿ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ أي العدل أقرب للتقوى، صرح لهم بالأمر بالعدل وبين أنه بمكان من التقوى بعدما نهاهم عن الجوْر وبين أنه مقتضى الهوىٰ، وإذا كان هذا للعدل مع الكفار فما ظنك بالعدل مع المؤمنين. ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فيجازيكم به. وتكرير هذا الحكم إما لاختلاف السبب كما قيل إن الأولى نزلت في المشركين وهذه في اليهود، أو لمزيد الاهتمام بالعدل والمبالغة في إطفاء ثائرة الغيظ.

(٩) ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ إنما حذف ثاني مفعولي وَعَد استغناء بقوله لهم مغفرة فإنه استئناف يبينه. وقيل الجملة في موضع المفعول فإن الوعد ضرب من القول وكأنه قال: وعدهم هذا القول.

(١٠) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ هذا من عادته تعالى، أن يتبع حال أحد الفريقين حال الآخر وفاء بحق الدعوة، وفيه مزيد وعد للمؤمنين وتطيب لقلوبهم.

(١١) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ روي أن المشركين رأوا رسول الله ﷺ وأصحابه بعَسَفان قاموا إلى الظهر معاً، فلما صلوا ندموا ألا كانوا أكَبُّوا عليهم، وهمّوا أن يُوقِعُوا بهم إذا قاموا إلى العصر، فرد الله عليهم كيدهم بأن أنزل عليهم صلاة الخوف[٢]. والآية إشارة إلى ذلك،

---

(١) وإظهار الاسم الجليل بقوله «إن الله» وهو موقع إضمار لتربية المهابة وتعليل الحكم وتقوية استقلال الجملة (س٣/ ١٢).

(٢) قال ابن حجر في (الكافي الشاف) رقم (٤٤٦):
أخرجه «الطبري من رواية النضر بن عمر عن عكرمة عن ابن عباس بتغيير فيه، ولفظه قال: «خرج رسول الله ﷺ في غزاة. فلقي المشركين بعسقلان. فلما صلى الظهر فرأوه يركع ويسجد قال بعضهم لبعض: كان فرصة لكم لو أغرتم عليهم ما علوا بكم قال قائل منهم: فإن لهم صلاة أخرى». والباقي نحوه..

وقيل إشارة إلى ما روي أنه عليه الصلاة والسلام أتى قريظة ومعه الخلفاء الأربعة يستقرضهم لدية مسلمَيْن قتلهما عمرو بن أمية الضمري يحسبُهما مشركَيْن، فقالوا: نعم يا أبا القاسم اجلس حتى نطعمك ونقرضك، فأجلسوه وهموا بقتله، فعمد عمرو بن جحاش إلى رحًى عظيمة يطرحها عليه، فأمسك الله يده فنزل جبريل فأخبره فخرج[١]. وقيل: نزل رسول الله ﷺ منزلاً وعلق سلاحه بشجرة وتفرق الناس عنه، فجاء أعرابي فسلّ سيفه وقال: مَنْ يمنعك مني؟ فقال: الله! فأسقطه جبريل من يده، فأخذه الرسول ﷺ وقال: «مَنْ يمنعك مني»؟ فقال: لا أحد أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فنزلت[٢] ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بالقتل والإهلاك، يقال بسط إليه يده إذا بطش به وبسط إليه لسانه إذا شتمه. ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ منعها أن تمد إليكم ورد مضرتها عنكم. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنه الكافي لإيصال الخير ودفع الشر[٣].

= وأصله في مسلم (١/ ٥٧٥ رقم ٣٠٨/ ٨٤٠) من رواية أبي الزبير عن جابر «غزونا مع النبي ﷺ قوماً من جهينة فقاتلونا قتالاً شديداً فلما صلينا الظهر قال المشركون: لو ملنا عليهم لاقتطعناهم فقالوا: إنهم سيأتيهم صلاة هي أحبّ إليهم من الأولى فأخبر جبريل النبي ﷺ، وذكر ذلك لنا رسول الله ﷺ فلما حضرت العصر صفّنا صفين.. الحديث».

وللترمذي (٥/ ٢٤٣ رقم ٣٠٣٥) والنسائي (٣/ ١٧٤ رقم ١٥٤٤) من طريق عبدالله بن شقيق عن أبي هريرة نحوه.

(١) أخرج البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ١٨٠) وأبو نعيم في الدلائل (٢/ ٦٢٩) من طريق محمد بن عمرو بن خالد الحراني عن أبيه عن ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير، قال: خرج رسول الله ﷺ فذكر نحوه..

كما أخرج البيهقي في الدلائل أيضاً (٣/ ٣٥٤) من طريق ابن إسحاق عن يزيد بن رومان مرسلاً أيضاً.

وعند أبي نعيم في الدلائل (٢/ ٦٢٨) من طريق ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس ومن طريق مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس. وعند الجميع (أتى بني النضير) دون (بني قريظة) وهو الصواب.

وكذا أخرج الطبري في جامع البيان (٤/ج٦/ ١٤٤) من طريق ابن إسحاق عن عمر بن عاصم وعبدالله بن أبي بكر بن حزم.

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٩٦ رقم ٢٩١٠) و(٦/ ٩٧ رقم ٢٩١٣)، (٧/ ٤٢٦ رقم ٤١٣٤ ورقم ٤١٣٥ ورقم ٤١٣٦) ومسلم (٤/ ١٧٨٦ ـ ١٧٨٧ رقم ١٣، ١٤/ ٨٤٣) من طرق عن جابر.

(٣) قوله «أن يبسطوا إليكم أيديهم» قدم الجار والمجرور على المفعول الصريح للمسارعة إلىٰ بيان رجوع ضرر البسط وغائلته إليهم حملاً لهم من أول الأمر على الاعتداد بنعمة دفعه.

وقوله «فكف أيديهم عنكم» أظهر أيديهم في موقع الإضمار لزيادة التقرير. (س٣/ ١٣).

وقوله «وعلىٰ الله فليتوكل المؤمنون» آثر صيغة أمر الغائب وأسندها للمؤمنين لإيجاب التوكل على المخاطبين بالطريق البرهاني، وللإيذان بأن ما وصفوا به عند الخطاب من وصف الإيمان داع إلى ما أمروا به من التوكل والتقوىٰ وازع عن الإخلال بهما (س٣/ ١٤).

۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى
مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ
قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن
كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ
وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا
تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ
ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ
وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾

(١٢) ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ﴾ شاهداً من كل سبط ينقب عن أحوال قومه ويفتش عنها، أو كفيلاً يكفل عليهم بالوفاء بما أمروا به. روي أن بني إسرائيل لما فرغوا من فرعون واستقروا بمصر، أمرهم الله سبحانه وتعالى بالمسير إلى أريحاء من أرض الشام، وكان يسكنها الجبابرة الكنعانيون وقال: إني كتبتها لكم داراً وقراراً فاخرجوا إليها وجاهدوا مَنْ فيها فإني ناصركم، وأُمِر موسى عليه الصلاة والسلام أن يأخذ من كل سِبْط كفيلاً عليهم بالوفاء بما أُمِروا به، فأَخَذ عليهم الميثاق واختار منهم النقباء وسار بهم، فلما دنا من أرض كنعان بعث النقباء يتجسسون الأخبار ونهاهم أن يحدِّثوا قومهم، فرأوْا أجراماً عظيمة وبأساً شديداً فهابوا ورجعوا وحدثوا قومَهم، ونكث الميثاق إلا كالب بن يوفنا من سبط يهوذا ويوشع بن نون من سبط أفراييم بن يوسف.
﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ﴾ بالنصرة ﴿ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ أي نصرتموهم وقويتموهم، وأصله الذب، ومنه التعزيز. ﴿ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بالإنفاق في سبيل الخير، وقرضاً يحتمل المصدر والمفعول. ﴿ لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ جواب للقسم المدلول عليه باللام في لئن سادّ مسد جواب الشرط. ﴿ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد ذلك الشرط المؤكّد المعلق به الوعد العظيم. ﴿ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ ضلالاً لا شبهة فيه ولا عذر معه بخلاف من كفر قبل ذلك، إذ قد يمكن أن يكون له شبهة ويتوهم له معذرة.

(١٣) ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾ طردناهم من رحمتنا، أو مسخناهم، أو ضربنا عليهم الجزية. ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾ لا تنفعل عن الآيات والنذر. وقرأ حمزة والكسائي قَسِيَّة، وهي إما مبالغة قاسية أو بمعنى رديئة من قولهم درهم قَسِي إذا كان مغشوشاً، وهو أيضاً من القسوة فإن المغشوش فيه يبس وصلابة، وقرىء قِسِيَّة بإتباع القاف للسين. ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ﴾ استئناف لبيان قسوة قلوبهم، فإنه لا قسوة أشد من تغيير كلام الله سبحانه وتعالى والافتراء عليه، ويجوز أن يكون حالاً من مفعول لعناهم لا من القلوب إذ لا ضمير له فيه[1]. ﴿ وَنَسُوا۟ حَظًّا﴾

---

(١) قوله «يحرفون» بصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار.

وتركوا نصيباً وافياً. ﴿مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِۦ﴾ من التوراة، أو من اتباع محمد ﷺ، والمعنى أنهم حرفوا التوراة وتركوا حظهم مما أنزل عليهم فلم ينالوه، وقيل معناه أنهم حرفوها فزَلَّت بشؤمه أشياءُ منها عن حفظهم، لما روي أن ابن مسعود قال: قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية، وتلا هذه الآية[1]. ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ خيانة منهم أو فرقة خائنة أو خائن، والتاء للمبالغة، والمعنى أن الخيانة والغدر من عادتهم وعادة أسلافهم لا تزال ترى ذلك منهم. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ لم يخونوا وهم الذين آمنوا منهم، وقيل استثناء من قوله: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ إن تابوا وآمنوا، أو عاهدوا والتزموا الجزية. وقيل: مطلقٌ نُسِخ بآية السيف. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل للأمر بالصفح وحث عليه وتنبيه على أن العفو عن الكافر الخائن إحسان فضلاً عن العفو عن غيره.

(١٤) ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ﴾ أي وأخذنا من النصارى ميثاقهم كما أخذنا ممن قبلهم، وقيل تقديره ومن الذين قالوا إنا نصارى قوم أخذنا، وإنما قال: «قالوا إنا نصارى» ليدل على أنهم سَمُّوا أنفسهم بذلك ادعاء لنصرة الله سبحانه وتعالى. ﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا﴾ فألزمنا، من غَرِيَ بالشيء إذا لصق به. ﴿بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بين فرق النصارى، وهم نسطورية[2] ويعقوبية[3] ....

---

(١) قال ابن حجر في الكافي الشافِ رقم (٤٤٩).
«أخرجه ابن المبارك في الزهد ـ (ص٢٢٩ رقم ٨٥١) ـ، قال أخبرنا عبدالرحمن المسعودي عن القاسم عن عبدالله بن مسعود قال: «إني لأحسب الرجل ينسى العلم تعلمه بالخطيئة يعملها» وهذا منقطع.
ـ قلت: القاسم بن عبدالرحمن ثقة، يروي عن أبيه وجده مرسلاً ـ وكذا أخرجه الدارمي ـ (١/ ١٠٥) ـ والطبراني في الكبير (٩/ ٢١٢ رقم ٨٩٣٠) ـ.
قلت: وكذا وكيع في الزهد رقم (٢٦٩) في إحدى طريقيه، وأبو خيثمة في العلم رقم (١٣٢) والخطيب في اقتضاء العلم العمل (رقم: ٩٦) وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٣١) وابن عبدالبر في بيان العلم (١/ ٢٣٩) كلهم من طريق المسعودي عن القاسم عن عبد الله بن مسعود.
وأخرجه. وكيع في الزهد (٢٦٩) في إحدى طريقيه) والبيهقي في المدخل (رقم: ٤٨٧) عن المسعودي عن الحسن بن سعد عن عبدالرحمٰن بن عبدالله بن مسعود عن أبيه.
قلت: سماع وكيع من المسعودي قبل الاختلاط. وقد سمع عبدالرحمن بن عبدالله من أبيه انظر الجرح والتعديل (٥/ ٢٤٨) فإسناده صحيح.

(٢) النّسطورية: أصحاب نسطور الحكيم الذي ظهر في زمان المأمون، وتصرف في الأناجيل بحكم رأيه. وإضافته إليهم إضافة المعتزلة إلى هذه الشريعة. قال: إن الله تعالى واحد، ذو أقانيم ثلاثة: الوجود، والعلم، والحياة. وهذه الأقانيم ليست زائدة على الذات، ولا هي هو. واتحدت الكلمة بجسد عيسى عليه السلام، لا على طريق الامتزاج كما قالت الملكانية، ولا على طريق الظهور به كما قالت اليعقوبية، ولكن كإشراق الشمس في كوة على بلورة. وكظهور النقش في الشمع إذا طبع بالخاتم.
انظر «الملل والنحل» للشهرستاني (ص٢٢٥ ـ ٢٢٦).

(٣) اليعقوبية: أصحاب يعقوب. قالوا بالأقانيم الثلاثة كما ذكرنا، إلا أنهم قالوا: انقلبت الكلمة لحماً ودماً، فصار الإله هو المسيح. وهو الظاهر بجسده، بل هو هو. وعنهم أخبرنا القرآن الكريم [لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم (المائدة الآية ٧٢)].
=

وملكانية[١]، أو بينهم وبين اليهود. ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ بالجزاء والعقاب[٢].

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

(١٥) ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ يعني اليهود والنصارى، ووحّد الكتاب لأنه للجنس. ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ كنعت محمد ﷺ وآيةِ الرجم في التوراة وبشارةِ عيسى عليه الصلاة والسلام بأحمد صلى الله عليه وسلم في الإنجيل. ﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ مما تخفونه لا يُخبر به إذا لم يَضْطر إليه أمرٌ ديني، أو عن كثير منكم فلا يؤاخذه بجرمه. ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ يعني القرآن فإنه الكاشف لظلمات الشك والضلال والكتاب الواضح الإعجاز، وقيل يريد بالنور محمد ﷺ[٣].

(١٦) ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ﴾ وحّد الضمير لأن المراد بهما واحد، أو لأنهما كواحد في الحكم. ﴿مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ من اتبع رضاه بالإيمان منهم. ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ طرق السلامة من العذاب، أو سبل الله. ﴿وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من أنواع الكفر إلى الإسلام. ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بإرادته

انظر (الملل والنحل) للشهرستاني (ص٢٢٦ ـ ٢٢٩).

(١) الملكانية: أصحاب ملكا الذي ظهر بأرض الروم واستولى عليها. ومعظم الروم ملكانية. قالوا: إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح، وتدرعت بناسوته. ويعنون بالكلمة أقنوم العلم، ويعنون بروح القدس: أقنوم الحياة، ولا يسمون العلم قبل تدرعه ابنا، بل المسيح مع ما تدرع به ابن، فقال بعضهم: إن الكلمة مازجت جسد المسيح كما يمازج الخمر أو الماء اللبن.
انظر (الملل والنحل) للشهرستاني (ص٢٢٣ ـ ٢٢٥).

(٢) وعبر عن العمل بالصنع للإيذان برسوخهم في ذلك. وعبر عن المجازاة بالتنبئة للتنبيه على أنهم لا يعلمون حقيقة ما يعملونه من الأعمال السيئة واستتباعها للعذاب (س٣/١٧).

(٣) قوله «يا أهل الكتاب» أوردهم بعنوان أهلية الكتاب لانطواء الكلام المصدر به على ما يتعلق بالكتاب، وللمبالغة في التشنيع فإن أهلية الكتاب من موجبات مراعاته والعمل بمقتضاه وبيان ما فيه من الأحكام وقد فعلوا من الكتم والتحريف ما فعلوا وهم يعلمون.
وقوله «رسولنا» الإضافة فيه للتشريف والإيذان بوجوب اتباعه (س٣/١٨).

أو توفيقه. ﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ طريق هو أقرب الطرق إلى الله سبحانه وتعالى ومؤدٍّ إليه لا محالة.

(١٧) ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ هم الذين قالوا بالاتحاد منهم. وقيل: لم يصرح به أحدٌ منهم، ولكن لما زعموا أن فيه لاهوتاً وقالوا لا إله إلا واحد لزمهم أن يكون هو المسيح، فَنَسَبَ إليهم لازمَ قولهم توضيحاً لجهلهم وتفضيحاً لمعتقدهم. ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ فمن يمنع من قدرته وإرادته شيئاً. ﴿ إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ﴾ عيسى. ﴿ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ احتج بذلك على فساد عقولهم، وتقريرُه: أن المسيح مقدور مقهور قابلٌ للفناء كسائر الممكنات، ومن كان كذلك فهو بمعزِل عن الألوهية. ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ إزاحة لما عرض لهم من الشبهة في أمره، والمعنىٰ أنه سبحانه وتعالى قادر على الإطلاق يخلق من غير أصل كما خلق السموات والأرض ومن أصلٍ كخلْقِ ما بينهما، فيُنْشِيء من أصل ليس من جنسه كآدم وكثير من الحيوانات ومن أصلٍ يُجَانسه إما مِنْ ذَكَرٍ وحدَه كما خَلَق حواء أو من أنثى وحدها كعيسى أو منهما كسائر الناس[١].

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾

(١٨) ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ أشياعُ ابنيه عُزَيْراً والمسيح، كما قيل لأشياع ابن الزبير الخَبيبون أو المقربون عنده قُرْبَ الأولاد من والدهم، وقد سبق لنحو ذلك مزيد بيان في سورة آل عمران. ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ أي فإن صح ما زعمتم فَلِمَ يعذبكم بذنوبكم فإنَّ مَنْ كان بهذا المنصب لا يفعل ما يوجب تعذيبه، وقد عذبكم في الدنيا بالقتل والأسر والمسخ، واعترفتم بأنه سيعذبكم بالنار أياماً معدودات. ﴿ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ ممن خلقه الله تعالى. ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ وهم من آمن به وبرسله. ﴿ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ وهم من كفر، والمعنى أنه يعاملُكم معاملةَ سائر الناس لا مزية لكم عنده. ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ كلها سواء في كونها خلقاً وملكاً له. ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

(١٩) ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ ﴾ أي الدينَ وحُذِفَ لظهوره، أو ما كتمتُم وحُذِفَ لتقدم ذِكْره، ويجوز أن لا يُقدَّرَ مفعول على معنى يبذل لكم البيان، والجملةُ في موضع الحال أي جاءكم

---

(١) وإظهار المسيح على الوجه الذي نسبوا إليه الألوهية في مقام الإضمار لزيادة التقرير والتنصيص على أنه من تلك الحيثية بعينها داخل تحت قهره وملكوته تعالى (س٣/ ١٩).

رسولنا مبيناً لكم. ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ متعلق بجاءكم أي جاءكم على حين فتور من الإرسال وانقطاع من الوحي، أو «يبين» حالٌ من الضمير فيه. ﴿أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ كراهة أن تقولوا ذلك وتعتذروا به. ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ متعلق بمحذوف أي لا تعتذروا بـ ﴿مَا جَآءَنَا﴾ فقد جاءكم. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على الإرسال تترى كما فعل بين موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام إذْ كان بينهما ألف وسبعمائة سنة وألفُ نبي، وعلى الإرسال على فترة كما فعل بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام كان بينهما ستمائة أو خمسمائة وتسع وستون سنة وأربعةُ أنبياء: ثلاثةٌ من بني إسرائيل وواحد من العرب خالد بن سنان العبسي[1]، وفي الآية امتنان عليهم بأن بعث إليهم حين انطمست آثار الوحي وكانوا أحوج ما يكونون إليه.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾

(٢٠) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾ فأرشدكم وشرفكم بهم، ولم يَبْعث في أمة ما بَعَث في بني إسرائيل من الأنبياء. ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ أي وجعل منكم أو فيكم، وقد تكاثر فيهم الملوك تكاثُرَ الأنبياء بعد فرعون حتى قتلوا يحيى وهمّوا بقتل عيسى، وقيل: لما كانوا مملوكين في أيدي القبط فأنقذهم الله وجعلهم مالكين لأنفسهم وأمورِهم سمّاهم ملوكاً. ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من فَلْق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، ونحوها مما آتاهم الله، وقيل: المراد بالعالَمين عالمي زمانهم.

(٢١) ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ أرضَ بيت المقدس، سميت بذلك لأنها كانت قرار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومسكن المؤمنين. وقيل: الطور وما حوله. وقيل: دمشق وفلسطين وبعض الأردن. وقيل الشام. ﴿ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ قَسَمها لكم، أو كتب في اللوح أنها تكون مسكناً لكم، ولكن إن آمنتم وأطعتم لقوله لهم بعدما عصَوْا: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾[2]. ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ ولا تَرْجِعوا مدبرين خوفاً من الجبابرة، قيل لما سمعوا حالهم من النقباء بَكَوا وقالوا: ليتنا مِتْنا بمصر، تعالَوْا نجعلُ علينا رأساً ينصرف بنا إلى مصر. أو لا ترتدّوا عن دينكم بالعصيان وعدم الوثوق على الله

(١) خالد بن سنان العبسي تردد فيه البعض، وبعضهم لم يثبته، وبعضهم قال: إنه كان قبل عيسى عليه السلام. إلا أنه مثبت في التاريخ، وله قصة في كتب الآثار مفصلة.
وصحح بعضهم إثبات نبوته وأنه كان قبل عيسى ـ عليهما السلام ـ (انظر روح المعاني ٦/ ١٠٥).

(٢) المائدة: «٢٦».

سبحانه وتعالى. ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ ثوابَ الدارين. ويجوز في فتنقلبوا الجزم على العطف، والنصب على الجواب.

(٢٢) ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ متغلبين لا تتأتىٰ مقاومتُهم، والجبّار فعّال من جَبَرَه على الأمر بمعنىٰ أجبره وهو الذي يُجْبِر الناس على ما يريده. ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ إذ لا طاقة لَنا بهم.

(٢٣) ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ كالب ويوشع. ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ أي يخافون الله سبحانه وتعالى ويتقونه. وقيل كان رجلان من الجبابرة أسلما وسارا إلى موسى عليه الصلاة والسلام، فعلىٰ هذا الواو لبني إسرائيل، والراجع إلى الموصول محذوف أي من الذين يخافهم بنو إسرائيل، ويشهد له أنه قرىء الذين يُخَافُون بالضم أي المَخُوفين، وعلى المعنىٰ الأول يكون هذا من الإخافة أي من الذين يُخَوَّفُون من الله عز وجل بالتذكير أو يخوفهم الوعيد. ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بالإيمان والتثبيت وهو صفة ثانية لرجلان، أو اعتراض. ﴿ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ﴾ بابَ قريتهم أي باغِتُوهم وضاغطوهم في المضيق وامنعوهم من الأصحار. ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾ لتعسر الكرّ عليهم في المضايق من عظم أجسامهم ولأنهم أجسام لا قلوب فيها، ويجوز أن يكون عِلمُهما بذلك من إخبار موسىٰ عليه الصلاة والسلام وقولِهِ ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾(1). أو مما عَلِما من عادة الله سبحانه وتعالىٰ في نصرة رسله، وما عَهِدا من صنعه لموسى عليه الصلاة والسلام في قهر أعدائه. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي مؤمنين به ومصدقين بوعده.

قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾

(٢٤) ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا﴾ نفوْا دخولهم على التأكيد والتأبيد. ﴿مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾ بدل البعض. ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ قالوا ذلك استهانة بالله ورسوله وعدم مبالاة بهما، وقيل تقديره اذهب أنت وربك يعينك.

(٢٥) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ قاله شكوىٰ بثّه وحزنه إلى الله سبحانه وتعالىٰ لمّا خالفه قومُه وأيس منهم ولم يبق معه موافق يثق به غير هارون عليه السلام، والرجلان المذكوران وإن كانا يوافقانه لم يَثِق عليهما لِمَا كابد من تلون قومه، ويجوز أن يراد بأخي من يواخيني في الدين فيدخلان فيه. ويحتمل نصبُه عطفاً علىٰ نفسي أو على اسم إن، ورفعُه عطفاً على الضمير في لا أملك أو على محل إن واسمها، وجرُّه عند الكوفيين عطفاً على الضمير في نفسي. ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ بأن تحكم لنا بما نستحقه وتحكم عليهم بما يستحقونه، أو بالتبعيد بيننا وبينهم وتخليصنا من صحبتهم.

(1) المائدة: «٢١».

قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾
۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ
لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾

(٢٦) ﴿قَالَ فَإِنَّهَا﴾ فإن الأرض المقدسة. ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ لا يدخلونها ولا يملكونها بسبب عصيانهم. ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ عامِلُ الظرف إما مُحرَّمَة فيكون التحريم موقتاً غير مؤبد فلا يخالِفُ ظاهرَ قوله: ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾[1]، ويؤيد ذلك ما روي: أن موسى عليه الصلاة والسلام سار بعده بمن بقي من بني إسرائيل ففتح أريحاء وأقام بها ما شاء الله ثم قبض، وقيل: إنه قُبِض في التيه ولمّا احتَضَر أخبرهم بأن يوشع بعده نبي وأن الله سبحانه وتعالى أَمَرَه بقتال الجبابرة، فسار بهم يوشع وقتل الجبابرةَ وصار الشامُ كلّه لبني إسرائيل، وإما يتيهون[2] أي يسيرون فيها متحيرين لا يرون طريقاً فيكون التحريم مطلقاً، وقد قيل: لم يَدْخُل الأرض المقدسة أحد ممن قال إنا لن ندخلَها بل هلكوا في التيه وإنما قاتل الجبابرةَ أولادُهم. روي: أنهم لبثوا أربعين سنة في ستة فراسخ يسيرون من الصباح إلى المساء فإذا هم بحيث ارتحلوا عنه، وكان الغمام يُظلهم من الشمس وعمودٌ من نور يطلع بالليل فيضيء لهم، وكان طعامهم المن والسلوى وماؤُهم من الحجر الذي يحملونه، والأكثرُ علىٰ أن موسى وهارون كانا معهم في التيه إلا أنه كان ذلك رَوْحاً لهما وزيادة في درجتهما، وعقوبة لهم، وأنهما ماتا فيه مات هارون، وموسى بعده بسنة. ثم دخل يوشع أريحاء بعد ثلاثة أشهر، ومات النُّقباء فيه بغتة غير كالب ويوشع. ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ خاطب به موسىٰ عليه الصلاة والسلام لما ندم علىٰ الدعاء عليهم وبين أنهم أحقاء بذلك لفسقهم.

(٢٧) ﴿۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ﴾ قابيل وهابيل، أوحىٰ الله سبحانه وتعالى إلى آدم أن يزوج كلَّ واحد منهما توأمةَ الآخر، فسخِط منه قابيلُ لأن توأمته كانت أجمل، فقال لهما آدم: قَرِّبا قُرباناً فمِنْ أيُّكما قُبِلَ تزوجها، فَقُبِلَ قربان هابيل بأن نزلت نارٌ فأكلته، فازداد قابيل سخطاً وفعل ما فعل. وقيل لم يُرِدْ بهما ابني آدم لصلبه وأنهما رجلان من بني إسرائيل، ولذلك قال: ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[3]. ﴿بِالْحَقِّ﴾ صفةُ مصدرٍ محذوف أي تلاوة ملتبسة بالحق، أو حالٌ من الضمير في اتلُ، أو من «نبأ» أي ملتبساً بالصدق موافقاً لما في كُتُب الأولين ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ ظرفٌ لنبأ، أو حال منه، أو بدل على حذف مضاف أي واتل عليهم نبأهما نبأ ذلك الوقت، والقربان اسم ما يُتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى من ذبيحة أو غيرها، كما أن الحُلْوَان اسمُ ما يُحلّىٰ به أي يعطىٰ، وهو في الأصل مصدر ولذلك لم يُثَنَّ، وقيل: تقديرُه إذ قرب كل واحد منهما قرباناً. قيل كان قابيل صاحب زرع وقَرَّب أردأ قمح عنده، وهابيلُ صاحب ضرع وقرب جملاً سميناً. ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ لأنه سخط

---

(١) المائدة: «٢١».

(٢) قوله (وإما يتيهون) عطف على قوله: (عامل الظرف إما محرمة... وإما يتيهون..).

(٣) المائدة: «٣٢».

حكم الله سبحانه وتعالىٰ ولم يُخلص النية في قربانه وقصد إلى أخس ما عنده. ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ توعده بالقتل لفَرْط الحسد له على تقبل قربانه ولذلك. ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ في جوابه أي إنما أُتيت من قِبَلِ نفسك بترك التقوىٰ لا مِن قبلي فَلِمَ تقتلُني؟ وفيه إشارة إلى أن الحاسد ينبغي أن يُرىٰ حرمانه من تقصيره ويَجْتهدَ في تحصيل ما به صار المحسود محظوظاً، لا في إزالة حظه فإن ذلك مما يضره ولا ينفعه، وأن الطاعة لا تقبل إلا من مؤمن متقٍ.

لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾

(٢٨) ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قيل: كان هابيل أقوى منه ولكن تحرج عن قتله واستسلم له خوفاً من الله سبحانه وتعالىٰ لأن الدفع لم يُبَح بعدُ، أو تحرياً لما هو الأفضل قال عليه الصلاة والسلام: «كن عبدالله المقتول ولا تكن عبدالله القاتل»[(١)]. وإنما قال: ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ﴾ في جواب ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ﴾ للتبري عن هذا الفعل الشنيع رأساً والتحرز من أن يوصف به ويطلق عليه، ولذلك أكد النفي بالباء[(٢)].

(٢٩) ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تعليل ثان للامتناع عن المعارضة والمقاومة، والمعنى إنما أَستسلم لك إرادة أن تَحْمِلَ إثمي لو بسطتُ إليك يدي وإثمَك ببسطك يدك إليّ، ونحوُه: «المستبّان ما قالا فعلىٰ البادىء ما لم يَعْتَدِ المظلوم»[(٣)]. وقيل معنى بإثمي بإثم قتلي، وبإثمك الذي لم يتقبل من أجله قربانك، وكلاهما في موضع الحال أي ترجع ملتبساً بالإثمين حاملاً لهما، ولعله لم يُرِد معصية أخيه وشقاوتَه بل قَصْده بهذا الكلام إلى أن ذلك إنْ كان لا محالة واقفاً فأريدُ أن يكون لك لا لي، فالمراد بالذات أن لا يكون له لا أن يكون لأخيه، ويجوز أن يكون المراد بالإثم عقوبته وإرادةُ عقاب العاصي جائزة.

(٣٠) ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ فسهلته له ووسعته، مِنْ طاع له المرتَعُ إذا اتسع. وقرىء

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ١١٠) عن خباب وفي سنده رجل مجهول.
وأخرجه أحمد في المسند (٥/ ٢٩٢) عن خالد بن عرفطة. وفي إسناده: علي بن زيد بن جدعان: وهو ضعيف.
ومن طريق علي بن زيد أخرجه الطبراني في الكبير (٤/ ٢٢٥ رقم ٤٠٩٩).
والحاكم في المستدرك (٤/ ٥١٧ وقال: تفرد به علي بن زيد عن أبي عثمان النهدي ولم يحتجبا بعلي، وسكت عنه الذهبي.

(٢) قوله: «لئن بسطت إليّ» صدره باللام الموطئة للقسم وقدم الجار والمجرور علىٰ المفعول الصريح إيذاناً من أول الأمر برجوع ضرر البسط وغائلته إليه (س ٣/ ٢٧).

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٠٠ رقم ٦٨/ ٢٥٨٧) والبخاري في الأدب المفرد رقم (٤٢٣) وأبو داود (٥/ ٢٠٣ رقم ٤٨٩٤) والترمذي (٤/ ٣٥٢ رقم ١٩٨١) وغيرهم، كلهم من حديث أبي هريرة.

فطاوعت على أنه فَاعَلَ بمعنىٰ فَعَلَ، أو على أنّ قَتل أخيه كأنه دعاها إلى الإقدام عليه فطاوعته، وله لزيادة الربط كقولك حفظت لزيد ماله. ﴿فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ ديناً ودنيا، إذ بقي مدة عمره مطروداً محزوناً. قيل قتل هابيل وهو ابن عشرين سنة عند عَقَبة حراء. وقيل: بالبصرة في موضع المسجد الأعظم.

فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ
مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ
إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ
أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ
ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ﴿٣٢﴾

(٣١) ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ﴾ روي أنه لما قتله تحير في أمره ولم يَدْرِ ما يصنع به إذ كان أولَ ميت من بني آدم، فبعث الله غرابين فاقتتلا فقَتَل أحدهما الآخر، فحَفَر له بمنقاره ورجليه ثم ألقاه في الحفرة، والضمير في لِيُرِيَ لله سبحانه وتعالىٰ، أو للغراب، وكيف حالٌ من الضمير في يواري، والجملة ثاني مفعولي يرى، والمراد بسوأة أخيه جسده الميت فإنه مما يستقبح أن يُرىٰ. ﴿قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ كلمة جزع وتحسر، والألفُ فيها بدل من ياء المتكلم. والمعنى يا ويلتي احْضُري فهذا أوانُك، والويل والويلة الهَلَكَة. ﴿أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ﴾ لا أهتدي إلى مثل ما اهْتَدىٰ إليه، وقوله: فأواري عطف على أكون وليس جواب الاستفهام إذ ليس المعنىٰ ههنا لو عجزت لَوَارَيْت. وقرىء بالسكون على فأنا أواري، أو على تسكين المنصوب تخفيفاً. ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ على قتله لِمَا كابد فيه من التحير في أمره وحمْله على رقبته سنة أو أكثر على ما قيل، وتلمذِه للغراب واسوداد لونه وتبري أبويه منه. إذ روي أنه لما قتله اسود جسده، فسأله آدم عن أخيه، فقال: ما كنت عليه وكيلاً، فقال: بل قتلتَه ولذلك اسود جسدك، وتبرأ منه ومكث بعد ذلك مائة سنة لا يضحك، وعُدِمَ الظَّفر بما فعله من أجله.

(٣٢) ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ بسببه قضينا عليهم، وأَجْل في الأصل مصدر أَجَلَ شرّاً إذا جناه استُعمل في تعليل الجنايات كقولهم: من جَرَاك فعلته، أي من أن جررته أي جنيته، ثم اتسع فيه فاستُعمل في كل تعليل، ومِنْ ابتدائية متعلقة بكتبنا أي ابتداء الكَتْب ونشؤه من أجل ذلك. ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ﴾ أي بغير قتل نفس يوجب الاقتصاص. ﴿أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أو بغير فساد فيها كالشرك أو قطع الطريق. ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ من حيث إنه هتك حرمة الدماء وسن القتل وجرأ الناس عليه، أو من حيث إن قتل الواحد وقتل الجميع سواء في استجلاب غضب الله سبحانه وتعالى والعذاب العظيم. ﴿وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ﴾ أي ومن تسبب لبقاء حياتها بعفو أو منع عن القتل أو استنقاذ من بعض أسباب الهلكة فكأنما فعل ذلك بالناس جميعاً، والمقصود منه تعظيم قتل النفس وإحيائها في القلوب ترهيباً عن التعرض لها وترغيباً في المحاماة عليها. ﴿وَلَقَدۡ

جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ أي بعد ما كتبنا عليهم هذا التشديد العظيم من أجل أمثال تلك الجناية، وأرسلنا إليهم الرسل بالآيات الواضحة تأكيداً للأمر وتجديداً للعهد كي يتحاموا عنها وكثير منهم يسرفون في الأرض بالقتل ولا يبالون به، وبهذا اتصلت القصة بما قبلها. والإسراف التباعد عن حد الاعتدال في الأمر[1].

إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾

(٣٣) ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي يحاربون أولياءهما وهم المسلمون، جَعَل محاربتهم محاربتهما تعظيماً. وأصل الحرب السلب والمراد به ههنا قطع الطريق، وقيل المكابرة باللصوصية وإن كانت في مِصْر. ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ أي مفسدين، ويجوز نصبه على العلة أو المصدر لأن سعيهم كان فساداً فكأنه قيل: ويفسدون في الأرض فساداً. ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ﴾ أي قِصاصاً من غير صلب إن أفردوا القتل. ﴿أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ﴾ أي يصلبوا مع القتل إن قَتَلوا وأخذوا المال، وللفقهاء خلاف في أنه يقتل ويصلب أو يصلب حياً ويترك أو يطعن حتى يموت. ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ تقطع أيديهم اليمنىٰ وأرجلهم اليسرى إن أخذوا المال ولم يَقتلوا. ﴿أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ ينفوا من بلد إلى بلد بحيث لا يتمكنون من القرار في موضع إن اقتصروا على الإخافة، وفسر أبو حنيفة النفي بالحبس، وأو في الآية على هذا للتفصيل، وقيل: إنه للتخيير والإمام مخير بين هذه العقوبات في كل قاطع طريق. ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ ذل وفضيحة. ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لعظم ذنوبهم.

(٣٤) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ﴾ استثناء مخصوص بما هو حق الله سبحانه وتعالى، ويدل عليه قوله تعالى ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أما القتل قصاصاً فإلىٰ الأولياء يسقط بالتوبة وجوبُه لا جوازُه، وتقييد التوبة بالتقدم على القدرة يدل على أنها بعد القدرة لا تُسقط الحد وإن أسقطت العذاب، وأن الآية في قُطاع المسلمين لأن توبة المشرك تدرأ عنه العقوبة قبل القدرة وبعدها.

---

(١) قوله: «ولقد جاءتهم رسلنا» صدر الآية بحرف التحقيق لكمال العناية بتحقق مضمونها.
وقال «جاءتهم» ولم يقل أرسلنا إليهم.. للتصريح بوصول الرسالة إليهم، فإنه أدل علىٰ تناهيهم في العتو والمكابرة.
وقوله «بعد ذلك» وضع اسم الإشارة موضع الضمير للإيذان بكمال تميزه وانتظامه بسبب ذلك في سلك الأمور المشاهدة. وما فيه من معنىٰ البعد للإيماء إلى علوّ درجته وبعد منزلته في عظم الشأن.
و«ثم» للتراخي في الرتبة والاستبعاد (س ٣/ ٣٠).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ۝٣٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ
عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٣٦ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم
بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٣٧ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا
مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٣٨﴾

(٣٥) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ أي ما تتوسلون به إلى ثوابه والزلفىٰ منه من فعل الطاعات وترك المعاصي، مِنْ وَسَل إلى كذا إذا تقرب إليه وفي الحديث «الوسيلة منزلة في الجنة»(١). ﴿وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ بمحاربة أعدائه الظاهرة والباطنة. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ بالوصول إلى الله سبحانه وتعالى والفوز بكرامته.

(٣٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من صنوف الأموال. ﴿جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ﴾ ليجعلوه فدية لأنفسهم. ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ واللام متعلقة بمحذوف تستدعيه لو، إذ التقدير لو ثبت أن لهم ما في الأرض، وتوحيد الضمير في به والمذكورُ شيئان: إما لإجرائه مجرىٰ اسم الإشارة في نحو قوله تعالى: ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ﴾(٢)، أو لأن الواو في «ومثله» بمعنى مع. ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ﴾ جواب لو، ولَوْ بما في حيزه خبرُ إن، والجملة تمثيل للزوم العذاب لهم وأنه لا سبيل لهم إلى الخلاص منه. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تصريح بالمقصود منه، وكذلك قوله:

(٣٧) ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ وقرىء يُخْرَجُوا من أخرج وإنما قال ﴿وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ﴾ بدل وما يخرجون للمبالغة.

(٣٨) ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ جملتان عند سيبويه إذ التقدير فيما يتلى عليكم السارق والسارقة أي حكمُهُما وجملة عند المبرِّد، والفاء للسببية دخل الخبر لتضمنهما معنى الشرط إذ المعنى: والذي سرق والتي سرقت. وقرىء بالنصب، وهو المختار في أمثاله لأن الإنشاء لا يقع خبراً إلا بإضمار وتأويل(٣). والسرقةُ: أخذ مال الغير في خفية، وإنما توجب القطع إذا كانت من حِرْزٍ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٢٨٨ رقم ١١/ ٣٨٤).
(٢) البقرة: «٦٨».
(٣) قول البيضاوي (وهو المختار في أمثاله) لا يفيد اختيار قراءة النصب والتي قرأ بها عيسىٰ بن عمر على قراءة عامة القراء بالرفع.
وقد فهم البعضُ من كلام سيبويه أنه يختار قراءة النصب ويرجحها على قراءة عامة القراء بالرفع كما فهم منها الفخر الرازي في التفسير الكبير (١١/ ٢٢٢) وقد رد على سيبويه في ذلك مبيناً أن سيبويه طعن بالتواتر... وكذا فهم الشوكاني في فتح القدير (٢/ ٣٩).
لكن أبا حيان وغيره دافعوا عن سيبويه مبينين أنه لم يقصد إلى ذلك. وذلك أن جملة الأمر لا يصح أن تكون خبراً إذا جُرِّدت عن الفاء، فلما دخلت الفاء عليها حَسُن ذلك. فسيبويه يقوي قراءة الرفع بسبب دخول الفاء علىٰ =

والمأخوذُ ربعُ دينار أو ما يساويه لقوله عليه الصلاة والسلام: «القطع في ربع دينار فصاعداً»[١] وللعلماء خلاف في ذلك لأحاديثَ وردت فيه، وقد استقصيت الكلام فيه في شرح المصابيح. والمراد بالأيدي الأَيمان، ويؤيده قراءة ابن مسعود رضي الله عنه أيمانهما، ولذلك ساغ وضع الجمع موضع المثنى كما في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[٢] اكتفاءً بتثنية المضاف إليه، واليدُ اسمٌ لتمام العضو ولذلك ذهب الخوارج إلى أن المقطع هو المِنكب، والجمهور على أنه الرسغ لأنه عليه الصلاة والسلام أتي بسارق فأمر بقطع يمينه منه[٣]. ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ منصوبان على المفعول له، أو المصدر ودل على فعلهما فاقطعوا ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٤].

فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

(٣٩) ﴿فَمَن تَابَ﴾ من السراق. ﴿مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ﴾ أي بعد سرقته. ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أمْرَه بالتقصي عن التبعات والعزم على أن لا يعود إليها. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يقبل توبته فلا يعذبه في الآخرة. وأما القطع فلا يَسقطُ بها عند الأكثرين لأن فيه حقَّ المسروق منه.

(٤٠) ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أو لكل أحد. ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ قدَّم التعذيب على المغفرة إيتاء على ترتيب ما سبق، أو لأن استحقاق التعذيب مُقدم، أو لأن المراد به القطع وهو في الدنيا.

(٤١) ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ أي صنيع الذين يقعون في الكفر

= جملة الأمر «فاقطعوا» ولولاه لكان النصب أولى. (انظر البحر المحيط ٣/ ٤٧٦ وروح المعاني ٦/ ١٣٢).

(١) أخرجه البخاري (٦٧٨٩) بلفظ «تقطع يد السارق في ربع دينار» وأخرجه مسلم (٣/ ١٣١٢ ج٢ ـ ٣) بلفظ «لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعداً».

(٢) التحريم: «٤».

(٣) أخرجه البغوي وأبو نعيم في معرفة الصحابة من حديث الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة.

(٤) قوله تعالى «والسارق والسارقة» لما كانت السرقة معهودة من النساء كالرجال صرح بالسارقة أيضاً ـ مع أن المعهود في الكتاب والسنة إدراج النساء في الأحكام الواردة في شأن الرجال بطريق الدلالة ـ وذلك لمزيد الاعتناء بالبيان والمبالغة في الزجر (س ٣/ ٣٤).

سريعاً أي في إظهاره إذا وجدوا منه فرصة[١]. ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْۛ﴾ أي من المنافقين، والباء متعلقة بقالوا لا بآمنا، والواو تحتمل الحال والعطف. ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ﴾ عطف على مِنَ الذين قالوا ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ خبر محذوف أي هم سماعون. والضمير للفريقين، أو للذين يسارعون، ويجوز أن يكون مبتدأ ومِنَ الذين خبره أي ومن اليهود قوم سماعون. واللام في للكذب: إما مزيدة للتأكيد، أو لتضمين السماع معنى القبول، أي: قابلون لما تفتريه الأحبار، أو للعلة والمفعول محذوف أي: سماعون كلامك ليَكْذِبوا عليك فيه. ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَۖ﴾ أي لجمع آخرين من اليهود لم يحضروا مجلسك وتجافَوْا عنك تكبراً وإفراطاً في البغضاء، والمعنى على الوجهين أي مُصْغون لهم قابلون كلامَهم، أو سماعون منك لأجلهم والإنهاءِ إليهم، ويجوز أن تتعلق اللام بالكذب لأن سماعون الثاني مكرَّر للتأكيد أي: سماعون ليكذبوا لقوم آخرين. ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾ أي يُميلونه عن مواضعه التي وضعه الله فيها، إما لفظاً: بإهماله أو تغيير وضعه، وإما معنىً: بحمْلِهِ على غير المراد وإجرائه في غير مورده. والجملة صفةٌ أخرى لقوم، أو صفة لسماعون، أو حال من الضمير فيه، أو استئناف لا موضع له، أو في موضع الرفع خبراً لمحذوف أي هم يحرفون، وكذلك ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ أي إن أوتيتم هذا المحرف فاقبلوه واعملوا به. ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ﴾ بل أفتاكم محمد بخلافه ﴿فَٱحْذَرُواْۚ﴾ أي احذروا قبول ما أفتاكم به. روي أن شريفاً من خيبر زنىٰ بشريفة، وكانا محصنين، فكرهوا رجمهما، فأرسلوهما مع رَهْط منهم إلىٰ بني قريظة ليسألوا رسولَ الله ﷺ عنه وقالوا: إن أمَرَكم بالجلد والتحميم فاقبلوا وإن أمركم بالرجم فلا، فأمَرَهم بالرجم، فأبوْا عنه، فَجَعَلَ ابنَ صوريا حكماً بينه وبينهم وقال له: «أُنشِدُكَ الله الذي لا إله إلا هو الذي فلق البحر لموسى ورفع فوقكم الطور وأنجاكم وأغرق آل فرعون والذي أنزل عليكم كتابه وحلاله وحرامه هلْ تجدون فيه الرجم على من أحصن؟» قال: نعم، فوثبوا عليه، فقال: خِفْت إن كَذَبْتُه أن يَنْزل علينا العذاب، فأمر رسول الله ﷺ بالزانيين فَرُجِما عند باب المسجد[٢]. ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾ ضلالته أو فضيحته. ﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ﴾ فلن تستطيع له من الله شيئاً في دفعها. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ﴾ من الكفر، وهو كما ترى نص على فساد قول المعتزلة. ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا

---

(١) قوله تعالىٰ «يا أيها الرسول..» خوطب عليه السلام بعنوان الرسالة للتشريف والإشعار بما يوجب عدم الحزن.
وقوله «يسارعون في الكفر» فآثر كلمة «في» علىٰ كلمة «إلىٰ» كما في قوله تعالىٰ: «وسارعوا إلى مغفرة..» ـ آل عمران «» ـ للإيماء إلى أنهم مستقرون في الكفر وإنما ينتقلون بالمسارعة عن بعض فنونه وأحكامه إلىٰ بعض آخر (س ٣/ ٣٦).

(٢) أخرجه ابن إسحاق في المغازي، وابن المنذر ـ كما في الدر المنثور (٣/ ٧٥) ـ وليس فيه ذكر (خيبر) وفيه (إن أحبار اليهود اجتمعوا في بيت المدارس حين قدم رسول الله ﷺ المدينة، وقد زنى رجل بعد إحصانه بامرأة من اليهود)، فذكر نحوه.
وأخرجه ابن جرير (٤/ج٦/ ٢٣٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧) من حديث أبي هريرة. وإسناده ضعيف لجهالة رجل من مزينة.
وأصله في الصحيحين من حديث ابن عمر، فقد أخرجه البخاري (٦/ ٦٣١ رقم ٣٦٣٥) و(١٢/ ١٦٦ رقم ٦٨٤١) و(١٣/ ٥١٦ رقم ٧٥٤٣) ومسلم (٣/ ١٣٢٦ رقم ٢٦/ ١٦٩٩).

خِزْيٌ﴾ هَوَانٌ بالجزية والخوف من المؤمنين. ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو الخلود في النار. والضمير للذين هادوا إن استأنَفْتَ بقوله: «ومن الذين وإلا فللفريقين».

سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾

(٤٢) ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ كرره للتأكيد. ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ أي الحرام كالرُّشا، مِنْ سَحَتَهُ إذا استأصَلَه لأنه مسحوت البركة. وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب في المواضع الثلاثة بضمتين وهما لغتان كالعُنُق والعُنْق، وقرىء بفتح السين على لفظ المصدر. ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ تخيير لرسول الله ﷺ إذا تحاكموا إليه بين الحُكْم والإعراض، ولهذا قيل: لو تحاكم كتابيان إلى القاضي لم يجب عليه الحكم، وهو قول للشافعي، والأصح وجوبُه إذا كان المترافعان أو أحدهما ذمياً لأنا ألتزمنا الذبّ عنهم ودفعَ الظلم منهم، والآية ليست في أهل الذمة، وعند أبي حنيفة يجب مطلقاً. ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا﴾ بأن يعادوك لإعراضك عنهم فإن الله سبحانه وتعالى يعصمك من الناس. ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ أي بالعدل الذي أمر الله به. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ فيحفظهم ويعظم شأنهم.

(٤٣) ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ تعجيبٌ من تحكيمهم مَنْ لا يؤمنون به، والحالُ أن الحكم منصوص عليه في الكتاب الذي هو عندهم، وتنبيهٌ على أنهم ما قصدوا بالتحكيم معرفة الحق وإقامة الشرع. وإنما طلبوا به ما يكون أهون عليهم وإن لم يكن حُكْمَ الله تعالى في زعمهم، و﴿فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ حال من التوراة إن رفعتها بالظرف، وإن جَعَلْتَها مبتدأ فمِنْ ضميرها المستكِن فيه، وتأنيثها لكونها نظيرة المؤنث في كلامهم لفظاً كمُوماة ودوداة. ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ ثم يعرضون عن حكمك الموافق لكتابهم بعد التحكيم، وهو عطف على يحكمونك داخِلٌ في حكم التعجيب. ﴿وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بكتابهم لإعراضهم عنه أولاً وعما يوافقه ثانياً، أو بك وبه.

(٤٤) ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى﴾ يهدي إلى الحق. ﴿وَنُورٌ﴾ يكشف عما استُبْهِم من الأحكام. ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾ يعني أنبياء بني إسرائيل، أو موسى ومَنْ بعده إن قلنا شَرْعُ مَنْ قبلَنا شرعٌ لنا ما لم يُنْسَخ، وبهذه الآية تمسك القائل به. ﴿ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ صفة أجريت على النبيين مدحاً لهم وتنويهاً بشأن المسلمين، وتعريضاً باليهود وأنهم بمعزل عن دين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واقتفاءِ هديهم. ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ متعلق بأنزل، أو بيحكم أي يحكمون بها في تحاكمهم، وهو يدل على أن

النبيين أنبياؤهم[1]. ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ زُهّادهم وعلماؤهم السالكون طريقةَ أنبيائهم، عطف على النبيون ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ بسبب أمر الله إياهم بأن يحفظوا كتابه من التضييع والتحريف، والراجع إلى «ما» محذوفٌ، ومِنْ للتبيين. ﴿وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ رقباء لا يتركون أن يغير، أو شهداء يبينون ما يَخفىٰ منه كما فعل ابنُ صوريا. ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ نهي للحكام أن يخشوا غير الله في حكوماتهم ويُداهِنوا فيها خشية ظالم أو مراقبة كبير. ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى﴾ ولا تستبدلوا بأحكامي التي أنزلتُها. ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ هو الرِّشوة والجاه ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ مستهيناً به منكراً له. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لاستهانتهم به وتمردهم بأن حكموا بغيره، ولذلك وصفهم بقوله: الكافرون والظالمون والفاسقون، فكفرهم لإنكاره، وظلمهم بالحكم على خلافه، وفسقهم بالخروج عنه. ويجوز أن يكون كل واحدة من الصفات الثلاث باعتبار حالٍ انضمت إلى الامتناع عن الحكم به ملائمةً لها، أو لطائفة كما قيل هذه في المسلمين لاتصالها بخطابهم، والظالمون في اليهود، والفاسقون في النصارى.

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾

(٤٥) ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ وفرضنا على اليهود. ﴿فِيهَآ﴾ في التوراة. ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ أي أن النفس تُقتل بالنفس. ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾ رَفعَها الكسائي على أنها جمل معطوفةٌ على أنَّ وما في حيزها باعتبار المعنىٰ وكأنه قيل: وكتبنا عليهم النفسُ بالنفسِ، والعينُ بالعين، فإن الكتابة والقراءة تقعان على الجُمَل كالقول، أو مستأنفةٌ ومعناها: وكذلك العينُ مفقوءةٌ بالعين، والأنفُ مجدوعة بالأنف، والأذُنُ مصلومة بالأذن، والسن مقلوعة بالسن أو على أن المرفوع منها معطوف على المستكن في قوله بالنفس وإنما ساغ لأنه في الأصل مفصول عنه بالظرف والجار والمجرور حال مبيِّنة للمعنىٰ، وقرأ نافع والأُذْن بالأُذْن وفي أُذْنيه بإسكان الذال حيث وقع. ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ أي ذات قصاص، وقرأة الكسائي أيضاً بالرفع ووافقه ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر على أنه إجمال للحكم بعد التفصيل. ﴿فَمَن تَصَدَّقَ﴾ من المستحقين[2]. ﴿بِهِۦ﴾ بالقصاص أي فمن عفا عنه. ﴿فَهُوَ﴾ فالتصدق. ﴿كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ للمتصدق يكفِّر الله به ذنوبه. وقيل للجاني يُسقط عنه ما لزمه. وقرىء فهو كفارته له، أي فالمتصدق كفارته التي يستحقها بالتصدق له لا ينقص منها شيء. ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من القصاص وغيره. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

(١) قوله «للذين هادوا» وَسَّطهم بين النبيين وبين الربانيين والأحبار للإيذان بأن الأصل في الحكم بها وحمل الناس علىٰ ما فيها هم النبيون، وإنما الربانيون والأحبار خلفاء ونواب لهم في ذلك، كما ينبىء عنه قوله تعالى: «بما استحفظوا..» (س ٣/ ٤١).

(٢) عبر عنه بالتصدق للمبالغة في الترغيب (س ٣/ ٤٣).

وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾

(٤٦) ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي وأتبعناهم على آثارهم، فحذف المفعول لدلالة الجار والمجرور عليه، والضمير للنبيون. ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ مفعولٌ ثان، عدِّي إليه الفعل بالباء. ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ وقرىء بفتح الهمزة. ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ في موضع النصب بالحال. ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ عطف عليه وكذا قوله: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[١] ويجوز نصبهما على المفعول له عطفاً على محذوف، أو تعلقاً به، وعَطَفَ.

(٤٧) ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ عليه في قراءة حمزة[٢]، وعلى الأول اللامُ متعلقة بمحذوفٍ أي وآتيناه ليحكم، وقرىء وأَنْ لِيَحْكم على أَنَّ أَنْ موصولة بالأمر كقولك: أمرتك بأن قم أي وأمرنا بأن ليحكم ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ عن حكمه أو عن الإيمان إن كان مستهيناً به والآية تدل على أن الإنجيل مشتمل على الأحكام، وأن اليهودية منسوخة ببعثة عيسىٰ عليه الصلاة والسلام، وأنه كان مستقلاً بالشرع، وحملها على وليحكموا بما أنزل الله فيه من إيجاب العمل بأحكام التوراة خِلافُ الظاهر.

(٤٨) ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي القرآن. ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ من جنس الكتب المنزلة، فاللام الأولى للعهد والثانية للجنس. ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ ورقيباً على سائر الكتب يحفظه عن التغيير ويشهد له بالصحة والثبات. وقرىء على بُنْية المفعول أي هُومِنَ عليه وحُوفظ من التحريف والحافظ له هوَ الله سبحانه وتعالى، أو الحفّاظ في كل عصر. ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي بما أنزل الله إليك[٣]. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ بالانحراف عنه إلى ما يشتهونه، فعن صلةٌ لِلاَ تتَّبع لتضمنه معنىٰ لا تنحرف، أو حال من فاعله أي لا تتبع أهواءهم مائلاً عما جاءك. ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ﴾ أيها الناس. ﴿شِرْعَةً﴾ شريعة وهي الطريق إلى الماء، شُبِّه بها الدين لأنه طريق إلى ما هو سبب الحياة الأبدية. وقرىء بفتح الشين. ﴿وَمِنْهَاجًا﴾ وطريقاً واضحاً في الدين من نهج الأمرُ إذا وضح. واستدل به على أنا غير متعبدين بالشرائع المتقدمة. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ جماعة

---

(١) تخصيص كونه هدًى وموعظة بالمتقين لأنهم المهتدون بهداه والمنتفعون بجدواه (س ٣/ ٤٣).

(٢) قراءة حمزة بكسر اللام «وَلِيَحْكُمَ».

(٣) قدم بينهم للاعتناء ببيان تعميم الحكم لهم. ووضَع الموصول موضع الضمير للتنبيه علىٰ علية ما في حيز الصلة للحكم. والالتفاف بإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة والإشعار بعلة الحكم (س ٣/ ٤٥).

متفقة على دين واحد في جميع الأعصار من غير نسخ وتحويل، ومفعول لو شاء محذوفٌ دل عليه الجواب، وقيل المعنى لو شاء الله اجتماعَكم على الإسلام لأجبركم عليه. ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ من الشرائع المختلفة المناسبة لكل عصر وقرن، هل تعملون بها مذعنين لها معتقدين أن اختلافها بمقتضى الحكمة الإلهية، أم تزيغون عن الحق وتفرّطون في العمل. ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ فابتدروها انتهازاً للفرصة وحيازة لفضل السبق والتقدم. ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ استئناف فيه تعليل الأمر بالاستباق ووعد ووعيد للمبادرين والمقصرين. ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ بالجزاء الفاصل بين المحق والمبطل والعامل والمقصر.

وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

(٤٩) ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ﴾ عطف على الكتاب أي أنزلنا إليك الكتاب والحكم، أو على الحق أي أنزلناه بالحق وبأنْ احكم، ويجوز أن يكون جملة بتقدير وأَمَرْنا أن احكم. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي أن يضلوك ويصرفوك عنه، وأَنْ بصلته بدل من هُمْ بدلُ الاشتمال أي احذر فتنتهم، أو مفعول له أي احذرهم مخافة أن يفتنوك. روي أن أحبار اليهود قالوا: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه، فقالوا: يا محمد قد عرفت أنا أحبار اليهود وأنا إنْ اتبعناك اتَّبعَنا اليهودُ كلهم، إنّ بيننا وبين قومنا خصومة فنتحاكم إليك فتقضي لنا عليهم ونحن نؤمن بك ونصدقك، فأبى ذلك رسول الله ﷺ. فنزلت[(١)]. ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن الحكم المنزل وأرادوا غيره. ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ يعني ذنب التولي عن حكم الله سبحانه وتعالى، فعبّر عنه بذلك تنبيهاً على أن لهم ذنوباً كثيرة وهذا مع عظمه واحد منها معدود من جملتها، وفيه دلالة على التعظيم كما في التنكير ونظيره قول لبيد:

أَوْ يَرْتَبِطْ بَعْضَ النُّفُوسِ حِمَامُهَا

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ لمتمردون في الكفر معتدون فيه.

(٥٠) ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ الذي هو الميل والمداهنة في الحكم، والمراد بالجاهلية الملة الجاهلية التي هي متابعة الهوىٰ. وقيل نزلت في بني قريظة والنضير طلبوا إلى رسول الله ﷺ أن يحكم بما كان يحكم به أهل الجاهلية من التفاضل بين القتلىٰ[(٢)]. وقرىء برفع الحكم على أنه مبتدأ ويبغون

---

(١) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (٤/ج٦/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٥٣٦) وابن أبي حاتم ـ كما في الدر المنثور (٣/ ٩٦ ـ ٩٧) ـ كلهم من طريق ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد، عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس. وفيه محمد بن أبي محمد مجهول.

(٢) أخرج ابن أبي شيبة نحوه عن الشعبي قال: كان بين حيين من العرب قتال... فذكر القصة (الكافي الشاف

خبره، والراجعُ محذوف حَذَفه في الصلة في قوله تعالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾(١) واستُضْعف ذلك في غير الشعر، وقرىء أَفَحَكَمَ الجاهلية أي يبغون حاكماً كحكام الجاهلية يحكم بحسب شهيتهم، وقرأ ابن عامر تبغون بالتاء على قُلْ لهم أفحكم الجاهلية تبغون. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي عندهم، واللام للبيان كما في قوله تعالى: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾(٢) أي هذا الاستفهام لقوم يوقنون فإنهم هم الذين يتدبرون الأمور ويتحققون الأشياء بأنظارهم فيعلمون أن لا أحسن حكماً من الله سبحانه وتعالى(٣).

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾

(٥١) ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ فلا تعتمدوا عليهم ولا تعاشروهم معاشرة الأحباب. ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ إيماء إلىٰ علة النهي، أي فإنهم متفقون على خلافكم يوالي بعضهم بعضاً لاتحادهم في الدين وإجماعهم على مضادتكم. ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ أي ومن والاهم منكم فإنه من جملتهم، وهذا التشديد في وجوب مجانبتهم كما قال عليه الصلاة والسلام: «لا تتراءى ناراهما»(٤) أو لأن المَوالي لهم كانوا منافقين. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكفار، أو المؤمنين بموالاة أعدائهم(٥).

= ص٥٤ رقم ٤٥٥).

(١) الفرقان: «٤١».

(٢) يوسف: «٢٣».

(٣) قوله «أفحكمَ الجاهلية» قدم المفعول للتخصيص المفيد لتأكيد الإنكار والتعجيب، لأن التولي عن حكمه عليه السلام وطلب حكم آخر منكر عجيب وطلب حكم الجاهلية أقبح وأعجب (س ٣/٤٧).

(٤) أخرجه أبو داود (٢٦٤٥) والترمذي (١٦٠٤) مرفوعاً من حديث جابر، وأخرجه النسائي (٤٧٨٤) عن قيس مرسلاً، وأخرجه الطبراني في الكبير (٤/١٣٤ ج٣٨٣٦) من حديث خالد بن الوليد، وقال الهيثمي: رجاله ثقات (المجمع ٥/٢٥٣) فهو حديث صحيح وصححه الألباني في الإرواء رقم (١٢٠٧) وفي صحيح الجامع (٢/١٦).

(٥) قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا» وصفهم بعنوان الإيمان لحملهم من أول الأمر علىٰ الانزجار عما نهوا عنه.
وقوله «بعضهم أولياء بعض» أوثر الإجمال في البيان تعويلاً على ظهور المراد لوضوح انتفاء الموالاة بين فريقي اليهود والنصارىٰ.
وقوله «لا يهدي القوم الظالمين» وضع المظهر «الظالمين» موضع ضميرهم تنبيهاً على أن توليهم ظلم =

(٥٢) ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يعني ابن أبيّ وأضرابه[١]. ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ أي في موالاتهم ومعاونتهم[٢]. ﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ يعتذرون بأنهم يخافون أن تصيبهم دائرة من دوائر الزمان بأن ينقلب الأمر وتكون الدولة للكفار. روي أن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه قال لرسول الله ﷺ: إن لي مواليَ من اليهود كثيراً عددهم، وإني أبرأ إلىٰ الله والىٰ رسوله من ولايتهم وأوالي الله ورسوله، فقال ابن أبيّ: إني رجل أخاف الدوائر ولا أبرأ من ولاية موالي. فنزلت[٣]. ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ﴾ لرسول الله ﷺ على أعدائه وإظهار المسلمين. ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ يقطع شأفة اليهود من القتل والإجلاء، أو الأمر بإظهار أسرار المنافقين وقتلهم. ﴿فَيُصْبِحُوا۟﴾ أي هؤلاء المنافقون. ﴿عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ على ما استبطنوه من الكفر والشك في أمر الرسول ﷺ، فضلاً عما أظهروه مما أشعر على نفاقهم.

(٥٣) ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ بالرفع قراءةُ عاصم وحمزة والكسائي علىٰ أنه كلام مبتدأ، ويؤيده قراءة ابن كثير ونافع وابن عامر مرفوعاً بغير واو على أنه جواب قائل يقول فماذا يقول المؤمنون حينئذ، وبالنصب قراءة أبي عمرو ويعقوب عطفاً على أن يأتي باعتبار المعنى، وكأنه قال: عسىٰ أن يأتي الله بالفتح ويقولَ الذين آمنوا، أو يجعله بدلاً من اسم الله تعالى داخلاً في اسم عسىٰ مُغْنياً عن الخبر بما تضمنه من الحدث، أو على الفتح بمعنىٰ عسىٰ الله أن يأتي بالفتح وبقول المؤمنين فإن الإتيان بما يوجبه كالإتيان به. ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ﴾ بقول المؤمنين بعضهم لبعض تعجباً من حال المنافقين وتبجحاً بما منَّ الله سبحانه وتعالىٰ عليهم من الإخلاص، أو يقولونه لليهود. فإن المنافقين حلفوا لهم بالمعاضدة كما حكىٰ الله تعالى عنهم: ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾[٤] وجَهْدُ الأيمان أغلظُها، وهو في الأصل مصدر، ونصبه على الحال على تقدير وأقسموا بالله يجهدون جهد أيمانهم، فحُذِف الفعل وأقيم المصدر مقامه ولذلك ساغ كونها معرفة، أو على المصدر لأنه بمعنىٰ أقسموا. ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ إما من جملة المقول، أو من قول الله سبحانه وتعالى شهادة لهم بحبوط أعمالهم، وفيه معنى التعجب كأنه قيل ما أحبط أعمالهم فما أخسرهم.

(٥٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ قرأه على الأصل نافع وابن عامر وهو كذلك في الإمام[٥]، والباقون بالإدغام. وهذا من الكائنات التي أخبر الله تعالى عنها قبل وقوعها، وقد ارتد من

= (س ٣/ ٤٨).

(١) وضع الموصول موضع الضمير للإشارة إلى أن ما ارتكبوه بسبب مرض النفاق (س ٣/ ٤٨).

(٢) وعدىٰ فعل المسارعة بفي للدلالة على استقرارهم في الموالاة. (س ٣/ ٤٨).

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في جامع البيان (٤/ ج٦/ ٢٧٥) وابن أبي شيبة ـ كما في الدر المنثور (٣/ ٩٩) من رواية عطية بن سعد.
وأخرج ابن جرير الطبري في جامع البيان (٤/ ج٦/ ٢٧٥) من طريق ابن إسحاق عن إسحاق بن يسار عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت.

(٤) الحشر: «١١».

(٥) أي بدالين «يَرْتَدِدْ».

العرب في أواخر عهد رسول الله ﷺ ثلاث فرق: بنو مدلج وكان رئيسهم ذا الخمار الأسود العنسي، تنبأ باليمن واستولى على بلاده ثم قتله فيروزُ الديلمي ليلةَ قُبِضَ رسول الله ﷺ من غدها وأَخبر الرسولُ ﷺ في تلك الليلة فسُرَّ المسلمون وأتى الخبرُ في أواخر ربيع الأول[١]. وبنو حنيفة أصحاب مسيلمة تنبأ وكتبَ إلى رسول الله ﷺ: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ﷺ أما بعد فإن الأرض نصفها لي ونصفها لك، فأجاب: «من محمد رسول الله ﷺ إلى مسيلمة الكذاب أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين» فحاربه أبو بكر رضي الله تعالى عنه بجند من المسلمين وقتله وَحْشيٌ قاتلُ حمزة. وبنو أسد قومُ طليحة بن خويلد تنبأ فبعث إليه رسولُ الله ﷺ خالداً فهرب بعد القتال إلى الشام ثم أسلم وحسُن إسلامه. وفي عهد أبي بكر رضي الله عنه سبعٌ: فَزَارة قوم عيينة بن حصن، وغَطَفان قوم قرة بن سلمة القشيري، وبنو سُلَيم قوم الفجاءة بن عبد يا ليل، وبنو يُربوع قوم مالك بن نويرة، وبعضُ تميم قوم سجاح بنت المنذر المتنبئة زوجة مسيلمة، وكِنْدة قوم

---

(١) قال ابن حجر في الكافي الشاف (ص٥٥ رقم ٤٦٠): «وفي هذا الكلام من التخليط غير شيء، فإنَّ قوله: استولى على بلاد اليمن وأخرج عمال رسول الله ﷺ، ظاهره يقتضي أن لا يبقى منهم هناك أحد وليس الأمر كذلك، بل بقي منهم على ما كان عليه جماعة منهم من المهاجرين: ابن أبي أمية ومعه جميع السواحل. وكان باليمن أيضاً معاذ بن جبل وغيره من عمال رسول الله ﷺ في سواحل اليمن، وإنما استولى العنسي على صنعاء، وبعض البلاد الجبالية. وقد نقض الزمخشري ـ والقاضي ـ كلامه بقوله: فإنه ﷺ كتب إلى معاذ بن جبل وإلى سادات اليمن. ولكن الجمع بين كلاميه: بأن مراده، إخراج عمال رسول الله ﷺ الذين حاربهم فيكون المراد إخراج بعضهم لا جميعهم» هـ.

وقال ابن حجر أيضاً في الكافي الشاف (رقم: ٤٦١). قوله: في آخر شهر ربيع الأول: ليس بصحيح فإنه ﷺ مات في أول شهر ربيع الأول. وقيل: في ثامنه. وقيل: في ثاني عشر. وسيأتي بيان الاختلاف في وقت المجيء برأس الأسود وقصة الأسود العنسي قد أخرجها مطولة جميع من صنف في الردة كابن إسحاق والواقدي وسيف بن عمر. وسيمة بن الفرات. وأخرجها الحاكم في الإكليل والبيهقي في الدلائل. قال الواقدي: اسم الأسود ذو الخمار. وقال غيره: اسمه عبهلة ولقبه ذو الخمار، لأنه كان يلقي على وجهه قناعاً ويهمهم. وكان له شيطانان أحدهما سحيق والآخر بشقيق، قال الواقدي: وملك الأسود نجران وأقام بها ستة أشهر ثم خرج في ستمائة ممن تبعه إلى صنعاء فحاصر الأساورة منهم باذان، وفيروز ودادويه في آخرين، وكانوا أسلموا وأرسلوا بإسلامهم فردة بن مسك المرادي فاقتتل الفريقان حتى غلب الأسود فقتل منهم طائفة، وخيَّر طائفة بين أن يخرجوا من صنعاء إلى بلد آخر ويقيموا بها ويضرب عليهم الخراج ويصيروا عبيداً له. واصطفى الأسود المرزبانة امرأة باذان لنفسه. وكانت جميلة وكان يشرب الخمر ويقع عليها ولا يغتسل ولا يصلي، فكرهته المرزبانة وأرسلت الأساورة وفيهم فيروز. فواعدتهم البستان في الوقت الذي يسكر فيه الأسود. فدخل عليه فيروز ودادويه وقيس بن مكشوح وهو سكران. فقالت المرزبانة: لفيروز وهو أحدثهم سناً: دونك الرجل. قال فيروز: كنت قد أنسيت سيفي من الدهش فوقعت على الأسود فخنقته حتى حوّلت وجهه إلى قفاه. ثم دخل صاحباه فحرزوا رأسه. واجتمع الأساورة بباب المدينة يقتلون أصحاب العنس. فذكر تمام القصة. إنما اختصرناها.

وروى النسائي من حديث عبدالله بن فيروز الديلمي عن أبيه قال: «أتيت النبي ﷺ برأس الأسود العنسي» قال عبدالحق: لا يصح في هذا الباب شيء. وتعقبه ابن القطان بأن إسناد النسائي صحيح، ولا يعارضه ما جاء أن الخبر بقتله إنما جاء أثر موت النبي ﷺ لأن رواية النسائي ليس فيها التصريح أنه صادف النبي ﷺ. نعم رواية الطبري زيادة تدل على ذلك» هـ. =

الأشعث بن قيس، وبنو بكر بن وائل بالبحرين قومُ الحطم بن زيد، وكفىٰ اللهُ أمرهم على يده، وفي إمرة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه غسانُ قوم جِبلّة بن الأيهم تنصّر وسار إلى الشام. ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ قيل هم أهل اليمن لما روي أنه عليه الصلاة والسلام أشار إلى أبي موسى الأشعري وقال: «هم قوم هذا»[1] وقيلَ الفُرْس لأنه عليه الصلاة والسلام سئل عنهم فضرب يده على عاتق سلمان وقال: «هذا وذووه»[2]. وقيل الذين جاهدوا يوم القادسية ألفان من النّخع وخمسة آلاف من كِنْدة وبَجِيلة، وثلاثة آلاف من أفناء الناس. والراجع إلىٰ مَنْ محذوف تقديره فسوف يأتي الله بقوم مكانَهم. ومحبةُ الله تعالى للعباد إرادة الهدى والتوفيق لهم في الدنيا وحسن الثواب في الآخرة، ومحبة العباد له إرادة طاعته والتحرز عن معاصيه[3]. ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عاطفين عليهم متذللين لهم، جمع ذليل لا ذَلُول فإن جمعَه ذُلُل، واستعماله مَعَ «علىٰ» إما لتضمنه معنى العطف والحنو أو للتنبيه على أنهم مع علو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خاضعون لهم أو للمقابلة. ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ شِداد متغلبين عليهم مِنْ عَزَّهُ إذا غلبه. وقرىء بالنصب على الحال[4]. ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صفة أخرى لقوم، أو حال من الضمير في أعزة. ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ عطف على يجاهدون بمعنى أنهم الجامعون بين المجاهدة في سبيل الله والتصلب في دينه. أو حال بمعنى أنهم مجاهدون وحالُهم خلافُ حال المنافقين، فإنهم يَخْرجون في جيش المسلمين خائفين ملامَةَ أوليائهم من اليهود فلا يعملون شيئاً يلحقهم فيه لوم من جهتهم. واللومَةُ المرَّة من اللوم، وفيها وفي تنكير لائم مبالغتان. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من الأوصاف. ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ يمنحه ويوفق له ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ كثير الفضل. ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن هو أهله.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٧/ ٢٧١ رقم ١٠١٦) وأورده الهيثمي في المجمع (٧/ ١٦) وقال: رجاله رجال الصحيح.
وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣١٣) من حديث عياض الأشعري وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.
وأخرجه ابن جرير في جامع البيان (٤/ ٦٩٠/ ٢٨٤) من طرق وفي إحدى طرقه (عن عياض عن أبي موسى نفسه) كما أخرج عن شريح بن عبيدة نحوه، وساق أقوالاً وآثاراً في تفسير هذه الآية ورجح ما روي عن عياض الأشعري.

(٢) قال ابن حجر في الكافي الشاف رقم (٤٦٤): «هكذا رواه. وهو وهم منه فإن هذا الكلام إنما ورد في آية الجمعة ـ (٣) ـ من طريق أبي الغيث عن أبي هريرة وهو متفق عليه ـ البخاري (٨/ ٦٤١ رقم ٤٨٩٧) ومسلم (٤/ ١٩٧٢ رقم ٢٣١) ـ وفي آية القتال ـ يعني سورة محمد الآية ٣٨ ـ رواه الترمذي ـ (٥/ ٣٨٣ رقم ٣٢٦٠) ـ وقال: حديث غريب في إسناده مقال. لأن فيه شيخاً مجهولاً من أهل المدينة ـ من حديث أبي هريرة ـ.
قلت: وانظر تفسير الآية (١٣٣) من سورة النساء.

(٣) انظر التعليق على محبة الله للعباد ومحبة العباد لله وحقيقة ذلك الآية «١٦٥» من سورة البقرة.

(٤) قوله «أذِلَّة . . أعِزَّة» صفتان لقوم وترك بينهما العاطف للدلالة على استقلالهم بالاتصاف بكل منهما (س٣/ ٥١).

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ
أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾

(٥٥) ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لما نهىٰ عن موالاة الكفرة ذكر عقبيه من هو حقيق بها، وإنما قال وليكم الله ولم يقل أولياؤكم للتنبيه على أن الولاية لله سبحانه وتعالىٰ على الأصالة ولرسوله ﷺ وللمؤمنين على التبع. ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ صفة للذين آمنوا فإنه جرىٰ مجرى الاسم، أو بدل منه، ويجوز نصبه ورفعُه على المدح. ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ متخشعون في صلاتهم وزكاتهم، وقيل هو حال مخصوصة بيُؤتون، أو يؤتون الزكاة في حال ركوعهم في الصلاة حرصاً على الإحسان ومسارعةً إليه. وإنها نزلت في علي رضي الله عنه حين سأله سائل وهو راكع في صلاته، فطرح له خاتمة[1]، واستدل بها الشيعةُ على إمامته زاعمين أن المراد بالولي المتولِّي للأمور والمستحق للتصرف فيها، والظاهرُ ما ذكرناه، مع أن حمل الجمع على الواحد أيضاً خلاف الظاهر، وإن صح أنه نزل فيه فلعله جيء بلفظ الجمع لترغيب الناس في مثل فعله فيندرجوا فيه، وعلىٰ هذا يكون دليلاً على أن الفعل القليل في الصلاة لا يبطلها وأن صدقة التطوع تسمى زكاة.

(٥٦) ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ومن يتخذهم أولياء. ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ أي فإنهم هم الغالبون، ولكنْ وَضَعَ الظاهر موضع المضمر تنبيهاً على البرهان عليه فكأنه قيل: ومن يتول هؤلاء فهم حزب الله وحزبُ الله هم الغالبون وتنويهاً بذكرهم وتعظيماً لشأنهم وتشريفاً لهم بهذا الاسم، وتعريضاً لمن يوالي غير هؤلاء بأنه حزب الشيطان. وأصل الحزب القوم يجتمعون لأمر حَزَبَهمْ.

(٥٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ﴾ نزلت في رفاعة بن زيد وسويد بن الحرث أظهرا الإسلام ثم نافقا، وكان رجال من المسلمين

(١) قال ابن حجر في الكافي الشاف رقم (٤٦٣): «رواه ابن أبي حاتم من طريق سلمة بن كهيل قال تصدق علي بخاتمة وهو راكع فنزلت «إنما وليكم الله ورسوله» ولابن مردويه من رواية سفيان الثوري عن ابن سنان عن الضحاك، عن ابن عباس قال كان علي قائماً يصلي، فمر سائل وهو راكع فأعطاه خاتمة فنزلت ـ قلت: الضحاك لم يلقَ ابن عباس ـ وروى الحاكم في علوم الحديث ـ ص١٠٢ ـ من رواية عيسى بن عبدالله بن عمر بن علي. حدثنا أبي عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب قال: نزلت هذه الآية «إنما وليكم الله ورسوله» الآية. فدخل رسول الله ﷺ المسجد، والناس يصلون بين قائم وراكع وساجد، وإذا سائل فقال له رسول الله ﷺ أعطاك أحد شيئاً، قال: لا. إلاّ هذا الراكع يعنى علياً أعطاني خاتمه. رواه الطبراني في الأوسط ـ (المجمع: ٧/١٧) وقال الهيثمي: فيه من لم أعرفهم ـ في ترجمة محمد بن على الصائغ. وعند ابن مردويه من حديث عمار بن ياسر، قال: وقف بعلي سائل وهو واقف في صلاته. الحديث وفي إسناده خالد بن يزيد العمري. وهو متروك ـ المجروحين (١/ ٢٨٤) والميزان (١/ ٦٤٦) ـ ورواه الثعلبي من حديث أبي ذر مطولاً وإسناده ساقط» هـ.
وانظر تفسير ابن كثير (٢/ ٧٤) فقد ساق هذه الآثار وضعفها كلها. وقال: هذه الآيات كلها نزلت في عبادة بن الصامت كما تقدم. . . قلت: وهذا هو الصواب.

يوادُّونهما[١]. وقد رتب النهي عن موالاتهم على اتخاذهم دينهم هزواً ولعباً إيماءً إلى العلة وتنبيهاً على أن مَنْ هذا شأنُه بعيد عن الموالاة جدير بالمعاداة والبغضاء. وفَصّل المستهزئين بأهل الكتاب والكفارِ على قراءة من جرّه وهم أبو عمرو والكسائي ويعقوب. والكفارُ وإن عمّ أهل الكتاب يطلق على المشركين خاصة لتضاعف كفرهم، ومَنْ نصبه عطفَه على الذين اتخذوا على أن النهي عن موالاة مَنْ ليس على الحق رأساً سواءٌ مَنْ كان ذا دين تَبِع فيه الهوى وحرفه عن الصواب كأهل الكتاب ومن لم يكن كالمشركين. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بترك المناهي. ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ لأن الإيمان حقاً يقتضي ذلك. وقيل إن كنتم مؤمنين بوعده ووعيده[٢].

وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾

(٥٨) ﴿وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ﴾ أي اتخذوا الصلاة أو المناداة، وفيه دليل على أن الأذان مشروع للصلاة. روي: أن نصرانياً بالمدينة كان إذا سمع المؤذن يقول أشهد أن محمداً رسول الله، قال: أَحْرَقَ اللهُ الكاذب، فدخل خادمُه ذات ليلة بنار وأهلُه نيام فتطاير شررُها في البيت فأحرقه وأهلَه[٣]. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾ فإن السفه يؤدي إلى الجهل بالحق والهزؤ به، والعقل يمنع منه.

(٥٩) ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ هل تُنكرون منا وتُعيبون، يقال نَقَم منه كذا إذا أنكره وانتقَمَ إذا كافأه. وقرىء تَنْقَمُون بفتح القاف وهي لغة. ﴿إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ﴾ الإيمان بالكتب المنزّلة كلها. ﴿وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ عطف على أَنْ آمنا وكأن المستثنى لازمُ الأمرين وهو المُخالفة أي: ما تنكرون منا إلا مخالَفتكم حيث دَخَلْنا الإيمان وأنتم خارجون منه، أو كان الأصلُ واعتقاد أَنّ أكثركم فاسقون فَحُذِف المضاف، أو على مَا أَيْ: وما تنقمون منا إلا الإيمان بالله وبما أُنزل وبأن أكثركم فاسقون، أو على علة محذوفة والتقدير: هل تنقمون منا إلا أنْ آمنا لقلة إنصافكم وفِسْقكم، أو نصب بإضمار فِعْلٍ يدل عليه هل تنقمون أي: ولا تنقمون أن أكثركم فاسقون، أو رفعٌ على الابتداء والخبرُ محذوفٌ أي: وفسقُكم ثابت معلوم عندكم ولكنْ حبُّ الرياسة والمال يمنعكم عن

---

(١) أخرجه ابن جرير (٦/ ٢٩٠) وابن المنذر وابن أبي حاتم، وفي سنده محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت وهو مجهول (الفتح السماوي وتخريجه ص٥٧٣).

(٢) قوله «من الذين أوتوا الكتاب» تعرض لعنوان إيتاء الكتاب لبيان كمال شناعتهم وغاية ضلالتهم، لأن إيتاء وازع لهم عن الاستهزاء بالدين المؤسس على الكتاب المصدّق لكتابهم (س٣/ ٥٣).

(٣) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (٤/ج٦/ ٢٩١) عن السدي. وفي إسناده ضعف.

الإنصاف[١]. والآية خطاب ليهود سألوا رسول الله ﷺ عمّن يؤمن به فقال: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾[٢] إلى قوله ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ فقالوا حين سمعوا ذكر عيسى: لا نعلم ديناً شراً من دينكم[٣].

(٦٠) ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ أي من ذلك المنقوم. ﴿مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ جزاء ثابتاً عند الله سبحانه وتعالى. والمثوبةُ مختصة بالخير كالعقوبة بالشر فوضعت ههنا موضعها على طريقة قوله:

تَحِيَّةُ بَيْنِهِم ضَرْبٌ وَجِيع

ونصبُها على التميز عن بِشَرٍّ. ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ بدلٌ مِنْ بِشَرٍّ على حذف مضاف أي بشرٍّ من أهل ذلك مَنْ لعنه الله، أوْ بشر مِنْ ذلك دينُ مَنْ لعنه الله، أو خبرٌ محذوف أي هو من لعنه الله وهم اليهود أبعدهُم الله من رحمته وسَخِط عليهم بكفرهم وانهماكهم في المعاصي بعد وضوح الآيات، ومَسَخَ بعضهم قردة وهم أصحاب السبت، وبعضهم خنازير وهم كفار أهل مائدة عيسىٰ عليه الصلاة والسلام. وقيل كِلا المسخين في أصحاب السبت مُسِخَت شُبّانهم قردة ومشايخُهم خنازير. ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ عطف علىٰ صلة مَنْ، وكذا عُبِدَ الطاغوتُ على البناءِ للمفعول ورفع الطاغوت، وعُبِدَ بمعنى صار معبوداً، فيكون الراجعُ محذوفاً أي فيهم أو بينهم، ومن قرأ وعَابِدَ الطاغوت أو عَبِدَ على أنه نعت كفَطِن ويَقِظ أو عَبَدَةَ أو عَبَدَ الطاغوتِ على أنه جمع كخدم أو أن أصله عبدة فحذف التاء للإضافة عطَفَهُ على القردة، ومَنْ قرأ وعَبُدِ الطاغوتِ بالجرّ عطفه على مَنْ. والمراد من الطاغوت العجل، وقيل الكهنة وكل من أطاعوه في معصية الله تعالى. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي الملعونون. ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ جَعَلَ مكانهم شراً ليكون أبلغ في الدلالة على شرارتهم، وقيل مكاناً منصرفاً. ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ قَصدَ الطريقَ المتوسط بين غلوّ النصارى وقدح اليهود، والمراد من صيغتي التفضيل الزيادة مطلقاً لا بالإضافة إلى المؤمنين في الشرارة والضلالة.

وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾

(٦١) ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ نزلت[٤] في يهود نافقوا رسولَ الله ﷺ، أو في عامة المنافقين. ﴿وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ﴾ أي يخرجون من عندك كما دخلوا لم يؤثّر فيهم ما سمعوا منك. والجملتان حالان من فاعل قالوا، وبالكفر وبه حالان من فاعِلَيْ دخلوا وخرجوا. وقَدْ ـ وإن دخلت لتقريب

---

(١) وأسند الفسق لأكثرهم لأنهم الحاملون لأعقابهم على التمرد والعناد (س٣/ ٥٤).
(٢) البقرة: «١٣٦».
(٣) أخرجه ابن جرير (٦/ ٢٩٢) عن ابن عباس، وفي سنده محمد بن أبي محمد وهو مجهول. وأخرجه البيهقي في الدلائل (٦/ ٢٧٥) وفي إسناده الكلبي وهو متروك.
(٤) أخرجه ابن جرير الطبري في جامع البيان (٤/ج٦/ ٢٩٦) وعبد بن حميد، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ـ كما في الدر المنثور (٣/ ١١٠) ـ.

الماضي من الحال ليصحَّ أن يقع حالاً ـ أفادت أيضاً ـ لما فيها من التوقع ـ أنّ أمارة النفاق كانت لائحةً عليهم، وكان الرسول ﷺ يظنه ولذلك قال: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ﴾ أي من الكفر، وفيه وعيد لهم.

وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

(٦٢) ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ أي من اليهود، أو من المنافقين. ﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ﴾ أي الحرام وقيل الكذب لقوله: ﴿عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ﴾[1] ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ الظلم، أو مجاوزة الحد في المعاصي. وقيل الإثم ما يختص بهم، والعدوان ما يتعدىٰ إلى غيرهم. ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ أي الحرام خصه بالذكر للمبالغة. ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ لبئس شيئاً عملوه.

(٦٣) ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ تحضيض لعلمائهم على النهي عن ذلك، فإن لولا إذا دخل على الماضي أفاد التوبيخ وإذا دخل على المستقبل أفاد التحضيض. ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ أبلغ من قوله لبئس ما كانوا يعملون من حيثُ إن الصنع عملُ الإنسان بعد تدرّب فيه وتروٍّ وتحري إجادة، ولذلك ذمَّ به خواصَّهم، ولأن ترك الحسنة أقبح من مواقعة المعصية، لأن النفس تلتذ بها وتميل إليها ولا كذلك ترك الإنكار عليها فكان جديراً بأبلغ الذم.

(٦٤) ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أي هو ممسِك يُقتِّر بالرزق، وغَلُّ اليد وبسطُها مجاز عن البخل والجود، ولا قصد فيه إلى إثباتِ يَدٍ وغلٍّ وبسطٍ، ولذلك يستعمل حيث لا يُتصور ذلك كقوله:

جـادَ الحِمَـى بَسَـطَ اليـديـنِ بِـوَابـلٍ   شكَـرَتْ نَـدَاهُ تِـلاعُـهُ وَوِهَـادُه

ونظيره من المجازات المركبة: شابت لمّة الليل. وقيل معناه إنه فقير لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾[2]. ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾ دعاء عليهم بالبخل والنكد، أو بالفقر والمسكنة، أو بغلّ الأيدي حقيقة يُغلّون أسارىٰ في الدنيا ومسحوبين إلى النار في الآخرة فتكون المطابقة من حيث اللفظُ وملاحظة الأصل كقولك: سبَّني سبَّ اللهُ دابِرَه. ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ ثنّىٰ اليد مبالغةً في الرد ونفي البخل عنه تعالى، وإثباتاً لغاية الجود. فإن غاية ما يبذله السخي من ماله أن يعطيَه

---

(١) المائدة: «٦٣».
(٢) آل عمران: «١٨١».

بيديه، وتنبيهاً على منح الدنيا والآخرة وعلى ما يُعطىٰ للاستدراج وما يُعطىٰ للإكرام. ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ﴾ تأكيد لذلك أي هو مختار في إنفاقه يوسع تارة ويضيق أخرى على حسب مشيئته ومقتضى حكمته، لا علىٰ تَعَاقُب سَعَةٍ وضيق في ذات يد، ولا يجوز جَعْلُه حالاً من الهاء للفصل بينهما بالخبر ولأنها مضاف إليها، ولا مِنَ اليدين إذ لا ضمير لهما فيه ولا من ضميرهما لذلك. والآيةُ نزلت في فنحاص بن عازوراء فإنه قال ذلك لما كفَّ الله عن اليهود ما بَسَط عليهم من السَّعة بشؤم تكذيبهم محمداً ﷺ، وأُشرِك فيه الآخرون لأنهم رضوا بقوله. ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۚ﴾ أي هم طاغون كافرون ويزدادون طغياناً وكفراً بما يسمعون من القرآن كما يزداد المريض مرضاً من تناول الغذاء الصالح للأصحاء[1]. ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾ فلا تتوافقُ قلوبُهم ولا تتطابق أقوالهم. ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾ كلما أرادوا حرب الرسول ﷺ وإثارة شرٍّ عليه ردهم الله سبحانه وتعالى بأن أوقع بينهم منازعةً كفَّ بها عنه شرهم، أو كلما أرادوا حربَ أحدٍ غُلبوا فإنهم لما خالفوا حكم التوراة سلط الله عليهم بَخْتنصر ثم أفسدوا فسلّط عليهم فطرس الرومي ثم أفسدوا فسلط عليهم المجوس ثم أفسدوا فسلط عليهم المسلمين. وللحرب صلةُ أوقدوا أو صفة ناراً. ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ﴾ أي للفساد وهو اجتهادهم في الكيد وإثارة الحروب والفتن وهتك المحارم. ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فلا يجازيهم إلا شراً.

(٦٥) ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ﴾ بمحمد ﷺ وبما جاء به. ﴿وَٱتَّقَوْاْ﴾ ما عددنا من معاصيهم ونحوه. ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ التي فعلوها ولم نؤاخذهم بها. ﴿وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ وجعلناهم داخلين فيها. وفيه تنبيه على عظم معاصيهم وكثرة ذنوبهم، وأن الإسلام يَجُبُّ ما قبلَه وإنْ جَلَّ، وأنّ الكتابي لا يدخل الجنة ما لم يُسْلم[2].

(٦٦) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ بإذاعة ما فيهما من نعت محمد عليه الصلاة والسلام والقيام بأحكامها. ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ يعني سائر الكتب المنزلة فإنها من حيث إنهم مكلفون بالإيمان بها كالمنزّل إليهم، أو القرآن[3] ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمۚ﴾ لوسّع عليهم أرزاقَهم بأن يفيض عليهم بركات من السماء والأرض، أو يكثر ثمرة الأشجار وغَلة الزروع، أو يرزقهم الجنان اليانعةَ الثمارِ. فيجتنونَها من رأس الشجر ويلتقطون ما تساقط على الأرض. بيَّن بذلك أنّ ما كُفَّ عنهم بشؤم كفرهم ومعاصيهم لا لقُصورِ الفيض، ولو أنهم آمنوا وأقاموا ما أمروا به لوسع عليهم وجعل لهم خير الدارين. ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌۖ﴾ عادلة غير غاليَة ولا مقصّرة، وهم الذين آمنوا بمحمد ﷺ، وقيل مقتصدة متوسطة في عداوته. ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ أي بئس ما يعملونه، وفيه معنى التعجب أي ما أَسْوَأَ عَمَلَهم وهو المعاندة وتحريف الحق والإعراضُ عنه والإفراط في العداوة.

---

(١) قدم المفعول «كثيراً» للاعتناء به. وتخصيص الكثير منهم بهذا الحكم لأن بعضهم ليس كذلك (س٣/٥٨).

(٢) وإيرادهم بعنوان أهل الكتاب للتشنيع عليهم لأن أهلية الكتاب توجب إيمانهم به وإقامتهم له (س٣/٥٩).

(٣) وإضافة الرب إلى ضميرهم مزيد لطف بهم في الدعوة إلى الإقامة (س٣/ ٦٠).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ رُسُلٗاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ ﴿٧٠﴾

(٦٧) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ ﴾ جميع ما أنزل إليك غيرَ مراقبٍ أحداً ولا خائف مكروهاً. ﴿ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ ﴾ وإن لم تبلغ جميعَه كما أمرتُك. ﴿ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ ﴾ فما أديت شيئاً منها، لأن كِتمان بعضها يضيع ما أُدي منها كترك بعض أركان الصلاة، فإن غرض الدعوة ينتقض به، أو فكأنك ما بلغت شيئاً منها كقوله: ﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا ﴾[1] من حيث إن كِتمان البعض والكل سواءٌ في الشفاعة واستجلاب العقاب. وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر رسالاتِه بالجمع وكسر التاء. ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾ عِدَةٌ وضمان من الله سبحانه وتعالى بعصمة روحه صلى الله عليه وسلم من تعرض الأعادي وإزاحةٌ لمعاذيره. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ لا يمكنهم مما يريدون بك. وعن النبي ﷺ: «بعثني الله برسالاته فضِقْتُ بها ذرعاً، فأوحىٰ الله تعالى إليَّ إن لم تبلغ رسالتي عذبتُك، وضمن لي العصمةَ فقويتُ»[2].
وعن أنس رضي الله تعالى عنه، كان رسول الله ﷺ يُحرَسُ حتى نزلت، فأخرج رأسه من قبةِ أَدَمٍ فقال: «انصرفوا يا أيها الناس فقد عصمني الله من الناس»[3]. وظاهرُ الآية يوجب تبليغ كل ما أُنزِل، ولعل المرادَ به تبليغُ ما يتعلق به مصالح العباد، وقَصَدَ بإنزاله إطلاعهَم عليه فإن من الأسرار الإلهية ما يَحْرُم إفشاؤُه.

(٦٨) ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ ﴾ أيْ دينٍ يُعتدُّ به ويصح أن يسمىٰ شيئاً لأنه باطل ﴿ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ ﴾ ومن إقامتها الإيمان بمحمد ﷺ والإذعانُ لحكمه، فإن الكتب الإلهية بأسرها آمرة بالإيمان بمن صدقه والمعجزةُ ناطقةٌ بوجوب الطاعة له، والمرادُ إقامةُ أصولها وما لم ينسخ من فروعها[4]. ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ

---

(١) المائدة: «٣٢».
(٢) أخرجه أبو الشيخ عن الحسن. انظر الدر المنثور (٣/١١٦ ـ ١١٧) كذلك ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢/٣٩٦) والشوكاني في (فتح القدير) (٢/٦٠).
(٣) أخرجه الترمذي (٥/٢٥١ رقم ٣٠٤٦) وقال: هذا حديث غريب، وروى بعضهم هذا الحديث عن الجُريري عن عبدالله بن شقيق قال: كان النبي ﷺ يُحرس ولم يذكروا فيه عن عائشة.
وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٣١٣) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.
وأخرجه الطبري (٤/ج٦/٣٠٧) كلهم من حديث عائشة.
وقد حسنه ابن حجر في الفتح. وكذلك الألباني في صحيح الترمذي.
(٤) تقديم إقامة الكتابين على ما أُنزل مع أن ما أُنزل هو المقصود لرعاية حق الشهادة واستنزالهم عن رتبة الشقاق. =

﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فلا تحزن عليهم لزيادة طغيانهم وكفرهم بما تبلّغه إليهم، فإن ضرر ذلك لاحق بهم لا يتخطاهم وفي المؤمنين مندوحة لك عنهم[١].

(٦٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ سبق تفسيره في سورة البقرة والصابئون رفعٌ على الابتداء وخبره محذوف والنية به التأخير عما في حيز إنّ، والتقديرُ: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمُهم كذا والصابئون كذلك كقوله:

فإنّي وقَيّارٌ بها لَغَرِيبُ

وقوله:

وإلا فَـــاعْلَمُـــوا أَنَّـــا وَأَنْتُـــمْ بغَـــاةٌ مَـــا بَقِينـــا فـــي شِقَـــاق

أي فاعلموا أنا بغاة وأنتم كذلك، وهو كاعتراضٍ دلّ به على أنه لما كان الصابئون مع ظهور ضلالهم وميلهم عن الأديان كلها يُتاب عليهم إن صح منهم الإيمان والعمل الصالح كان غيرُهم أولىٰ بذلك، ويجوز أن يكون والنصارى معطوفاً عليه ومَنْ آمن خبرُهما وخبرُ إنّ مقدر دل عليه ما بعده كقوله:

نحْـــنُ بِمَـــا عِنْـــدَنَـــا وَأَنْـــتَ بِمَـــا عنْـــدَكَ رَاضٍ وَالـــرَّأْيُ مُخْتَلِـــفُ

ولا يجوزُ عطفه على محل إنّ واسمِها فإنه مشروط بالفراغ من الخبر، إذ لو عطف عليه قبله كان الخبرُ خبرَ المبتدأ وخبرَ إنّ معاً فيجتمع عليه عاملان، ولا على الضمير في هادوا لعدم التأكيد والفصل، ولأنه يوجب كون الصابئين هوداً. وقيل إنّ بمعنى نعم وما بعدها في موضع الرفع بالابتداء. وقيل الصابئون منصوب بالفتحة وذلك كما جُوِّز بالياء جوز بالواو. ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ في محل الرفع بالابتداء وخبرُه: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والجملةُ خبرُ إنّ أو خبر المبتدأ كما مرّ والراجع محذوف، أي: من آمن منهم، أو النصب على البدل من اسم إن وما عُطف عليه. وقرىء والصابئين وهو الظاهر، والصابيون بقلب الهمزة ياء، والصابون بحذفها من صبأ بإبدال الهمزة ألفاً أو من صبوت لأنهم صَبَوْا إلى اتباع الشهوات ولم يتبعوا شرعاً ولا عقلاً.

(٧٠) ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ ليُذَكِّروهم وليبينوا لهم أمر دينهم. ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ﴾ بما يخالف هواهم من الشرائع ومشاق التكاليف. ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ جواب الشرط، والجملة صفةُ رسلاً، والراجع محذوف أي رسول منهم. وقيل الجواب محذوف دل عليه ذلك وهو استئناف. وإنما جيء بيقتلون موضع قتلوا على حكاية الحال الماضية استحضاراً لها واستفظاعاً للقتل وتنبيهاً على أن ذلك من ديدنهم ماضياً ومستقبلاً، ومحافظة على رؤوس الآي[٢].

وإيراده بعنوان الإنزال إليهم لأنهم مأمورون بإقامته والإيمان به لا كما يزعمون من اختصاصه بالعرب. وفي إضافة الرب إلى ضميرهم من اللطف في الدعوة (س٣/ ٦١) وهذا على معنى أن ما أنزل هو القرآن الكريم.

(١) وإظهار لفظ الكافرين للتسجيل عليهم بالرسوخ في الكفر (س٣/ ٦٢).

(٢) وتقديم فريقاً في الموضعين للاهتمام به وتشويق السامع إلى ما فعلوا به، لا للقصر (س٣/ ٦٣).

وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ
بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ
يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا
لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ
وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

(٧١) ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ أي وحسب بنو إسرائيل أن لا يصيبهم بلاء وعذاب بقتل الأنبياء وتكذيبهم. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب لا تكونُ بالرفع علىٰ أَنّ أَنْ هي المخففة من الثقيلة، وأصلُه أنه لا تكون فتنة فَخُفِّفت أن وحُذِف ضمير الشأن فصار: أن لا تكون، وإدخالُ فِعْل الحُسْبان عليها وهي للتحقيق تنزيلٌ له منزلة العلم لتمكنه في قلوبهم، وأَنَّ أو أَنْ بما في حيزها سادّ مسد مفعوليه. ﴿فَعَمُواْ﴾ عن الدين، أو الدلائل والهدىٰ. ﴿وَصَمُّواْ﴾ عن استماع الحق كما فعلوا حين عبدوا العجل. ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي ثم تابوا فتاب الله عليهم. ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ كرة أخرى. وقرىء بالضم فيهما على أن الله تعالى أعماهم وأصمهم أي رماهم بالعَمىٰ والصَّمم، وهو قليل، واللغة الفاشية أعمى وأصم. ﴿كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ﴾ بدل من الضمير، أو فاعل والواو علامة الجمع كقولهم: أكلوني البراغيث، أو خبر مبتدأ محذوف أي العمى والصم كثير منهم. وقيل مبتدأ والجملةُ قبله خبرُه وهو ضعيف لأن تقديم الخبر في مثله ممتنع. ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ فيجازيهم على وفق أعمالهم[١].

(٧٢) ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ﴾ أي إني عبد مربوب مثلُكم فاعبدوا خالقي وخالقكم. ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾ أي في عبادته، أو فيما يختص به من الصفات والأفعال. ﴿فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ يُمنَع من دخولها كما يُمنع المُحَرَّمُ عليه من المحرم فإنها دار الموحدين[٢]. ﴿وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾ فإنها المعَدة للمشركين. ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ أي وما لهم أحد ينصرهم من النار، فوضَعَ الظاهر موضع المضمر تسجيلاً على أنهم ظلموا بالإشراك وعَدَلوا عن طريق الحق، وهو يُحْتَمَل أن يكون من تمام كلام عيسىٰ عليه الصلاة والسلام، وأن يكون من كلام الله تعالى نبه به علىٰ أنهم قالوا ذلك تعظيماً لعيسىٰ ﷺ وتقرباً إليه وهو معاديهم بذلك ومخاصمهم فيه، فما ظنّك بغيره؟

(٧٣) ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ﴾ أي أَحَدُ ثلاثة، وهو حكاية عمّا قاله النسطورية والملكانية منهم القائلون بالأقانيم الثلاثة وما سبق قول اليعقوبية القائلين بالاتحاد. ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ﴾ وما في الوجود ذاتٌ واجب مستحقٌ للعبادة ـ من حيث إنه مُبدِىء جميع الموجودات ـ إلا إله واحدٌ. موصوفٌ بالوحدانية متعالٍ عن قبول الشَّرِكَة. ومِنْ مزيدةٌ للاستغراق. ﴿وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ ولم يُوَحِّدوا. ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ليمسن الذين بَقُوا منهم على

١) وصيغة المضارع في «يعملون» لحكاية الحال الماضية استحضاراً لصورتها الفظيعة (س٣/ ٦٥).
٢) وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لتهويل الأمر وتربية المهابة (س٣/ ٦٦).

الكفر، أو ليمسنّ الذين كفروا من النصارى، وضَعَه موضِعَ ليمسنهم تكريراً للشهادة على كفرهم وتنبيهاً على أن العذاب على من دام على الكفر ولم ينقلع عنه فلذلك عقبه بقوله:

أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا
رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ
نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ
لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ
الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾

(٧٤) ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ أي أفلا يتوبون بالانتهاء عن تلك العقائد والأقوال الزائغة ويستغفرونه بالتوحيد والتنزيه عن الاتحاد والحلول بعد هذا التقرير والتهديد. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر لهم ويمنحهم من فضله إن تابوا. وفي هذا الاستفهام تعجيب من إصرارهم.

(٧٥) ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي ما هو إلا رسول كالرسل قبْلَه خصه الله سبحانه وتعالى بالآيات كما خصهم بها، فإن إحياءَ الموتىٰ على يده فقد أحيا العصا وجعلها حية تسعىٰ علىٰ يد موسى عليه السلام وهو أعجب، وإنْ خَلَقَه من غير أب فقد خلق آدم من غير أب وأم وهو أغرب. ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ كسائر النساء اللاتي يُلازمن الصدق، أو يُصَدِّقْن الأنبياءَ عليهم الصلاة والسلام. ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ ويفتقران إليه افتقار الحيوانات. بيّن أولاً أقصىٰ ما لهما من الكمال ودل على أنه لا يوجب لهما ألوهيةً لأن كثيراً من الناس يشاركُهما في مثله، ثم نبه على نَقْصِهما وذَكَرَ ما ينافي الربوبية ويقتضي أن يكونا من عِداد المركَّبات الكائنة الفاسدة، ثم عَجِبَ لمن يدعي الربوبية لهما مع أمثال هذه الأدلة الظاهرة فقال: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يُصْرَفون عن استماع الحق وتأمله. وثم لتفاوت ما بين العجبين أي إن بياننا للآيات عَجَبٌ وإعراضهم عنها أعجب[١].

(٧٦) ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ يعني عيسى عليه الصلاة والسلام، وهو وإن ملك ذلك بتمليك الله سبحانه وتعالى إياه لا يَمْلِكُه من ذاته، ولا يملك مِثْلَ ما يَضُرُّ اللهُ تعالى به من البلايا والمصائب وما ينفع به من الصحة والسعة، وإنما قال «ما» نظراً إلى ما هو عليه في ذاته توطئةً لنفي القدرة عنه رأساً وتنبيهاً على أنه مِنْ هذا الجنس ومَنْ كان له حقيقة تَقْبَل المجانسة والمشاركة فبمعزلٍ عن الألوهية، وإنما قدم الضر لأن التحرز عنه أهم من تحري النفع. ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ بالأقوال والعقائد فيجازي عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

(٧٧) ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي غُلُوّاً باطلاً فترفعوا عيسى عليه الصلاة

---

١) وتكرير الأمر بالنظر للمبالغة في التعجيب (س٣/٦٨).

والسلام إلى أن تدّعوا له الألوهية، أو تضعوه فتزعُموا أنه لغير رشدة. وقيل الخطاب للنصارىٰ خاصة[1]. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ﴾ يعني أسلافهم وأئمتهم الذين قد ضلوا قبل مبعث محمد ﷺ في شريعتهم. ﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾ ممن شايعهم على بدعهم وضلالهم. ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ عن قصد السبيل الذي هو الإسلام بعد مبعثه ﷺ لما كذبوه وبَغَوْا عليه، وقيل الأول إشارة إلى ضلالهم عن مقتضى العقل والثاني إشارة إلى ضلالهم عما جاء به الشرع.

لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ
وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ
يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن
سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ
إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ
ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا
نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾

(٧٨) ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أي لعنهم الله في الزبور والإنجيل على لسانهما. وقيل إن أهل أيلة لما اعتدوْا في السبت لعنهم الله تعالى على لسان داود فمسخهم الله تعالى قردة، وأصحاب المائدة لما كفروا دعا عليهم عيسى عليه السلام ولعنهم فأصبحوا خنازيرَ وكانوا خمسة آلاف رجل. ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ أي ذلك اللعنُ الشنيعُ المقتضي للمسخ بسبب عصيانهم واعتدائهم ما حرم عليهم[2].

(٧٩) ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أي لا ينهى بعضهم بعضاً عن معاودة منكر فعلوه، أو عن مثل منكر فعلوه، أو عن منكر أرادوا فعله وتهيؤوا له، أو لا ينتهون عنه من قولهم تناهىٰ عن الأمر وانتهى عنه إذا امتنع. ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ تعجيب من سوء فعلهم مؤكد بالقسم[3].

(٨٠) ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ من أهل الكتاب. ﴿يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يوالون المشركين بغضاً لرسول الله ﷺ والمؤمنين. ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي لبئس شيئاً قدموه ليَرِدُوا عليه يوم القيامة. ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ هو المخصوص بالذم، والمعنى موجب سخط الله والخلود في العذاب، أو علةُ الذمّ والمخصوص محذوف أي لبئس شيئاً ذلك لأنه كسّبهم السخط

---

(١) وذكرهم بعنوان أهل الكتاب للتذكير بأن الإنجيل أيضاً ينهاهم عن الغلو (س٣/ ٦٩).

(٢) قوله «لُعِن» بناؤه للمفعول للجري علىٰ سنن الكبرياء.
وقوله «ذلك» أثر اسم الإشارة على الضمير للتنبيه على كمال ظهوره وامتيازه عن نظائره وانتظامه بسببه في سلك الأمور المشاهدة، وما فيه من معنى البعد للإيذان بكمال فظاعته وبعده في الشناعة (س٣/ ٦٩).

(٣) قوله «كانوا لا يتناهون» جمع بين صيغتي الماضي والمستقبل لاستمرار عدم تناهيهم عن المنكر (س٣/ ٦٩).

والخلود.

(٨١) ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ﴾ يعني نبيَّهم وإن كانت الآية في المنافقين فالمراد نبينا عليه السلام. ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ إذ الإيمان يمنع ذلك. ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ خارجون عن دينهم، أو متمردون في نفاقهم.

(٨٢) ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ لشدة شكيمتهم وتضاعف كفرهم وانهماكهم في اتباع الهوى ورُكونهم إلى التقليد وبعدهم عن التحقيق وتمرنهم على تكذيب الأنبياء ومعاداتهم. ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾ لِلِين جانبهم ورقة قلوبهم وقلة حرصهم على الدنيا وكثرة اهتمامهم بالعلم والعمل، وإليه أشار بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن قبول الحق إذا فهموه، أو يتواضعون ولا يتكبرون كاليهود. وفيه دليل على أن التواضع والإقبال على العلم والعملِ والإعراضَ عن الشهوات محمود وإن كانت من كافر(١).

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾

(٨٣) ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ عطف على لا يستكبرون، وهو بيان لرقة قلوبهم وشدة خشيتهم ومسارعتهم إلى قبول الحق وعدم تأبِّيهم عنه. والفيضُ انصباب عن امتلاء، فوُضِع موضع الامتلاء للمبالغة، أو جعلت أعينهم من فرط البكاء كأنها تفيض بأنفسها. ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ مِنْ الأولى للابتداء، والثانية لتبيين ما عَرَفوا أو للتبعيض بأنه بعض الحق، والمعنى أنهم عرفوا بعض الحق فأبكاهم فكيف إذا عرفوا كله؟!. ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾ بذلك أو بمحمد. ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ مِنَ الذين شهدوا بأنه حق، أو بنبوته، أو مِنْ أمته الذين هم شهداء على الأمم يوم القيامة.

(٨٤) ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ استفهام إنكار واستبعاد لانتفاء الإيمان مع قيام الداعي وهو الطمعُ في الانخراط مع الصالحين والدخول في مداخلهم، أو جوابُ سائلٍ قال لِمَ آمنتم؟ ولا نؤمنُ حال من الضمير والعامل ما في اللام من معنى

---

١) وتقديم اليهود على المشركين مع كونهما في قرن واحد للإشعار بتقدمهم عليهم في العداوة، كما أن في تقديمهم عليهم في قوله تعالى: «ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا..». إيذاناً بتقدمهم عليهم في الحرص.

وقوله «الذين قالوا إنا نصارى» عبر عنهم بذلك إشعاراً بقرب مودتهم حيث يدعون أنهم أنصار الله.

واختلاف التعبير بين اليهود والنصارى لما بينهما من التباين (س٣/ ٧١).

الفعل، أي أيّ شيء حصل لنا غير مؤمنين بالله أي بوحدانيته فإنهم كانوا مُثلِّثين أو بكتابه ورسوله فإن الإيمان بهما إيمان به حقيقة، وذَكَره توطئة وتعظيماً، ونطمعُ عطف على نؤمن أو خبر محذوف، والواو للحال أي ونحن نطمع والعامل فيها عامل الأولىٰ مقيَّداً بها أو نؤمن.

(٨٥) ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ﴾ أي عن اعتقاد من قولك هذا قول فلان أي معتقَده. ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ الذين أحسنوا النظر والعمل، أو الذين اعتادوا الإحسان في الأمور. والآيات الأربع روي أنها نزلت في النجاشي وأصحابه بعث إليه الرسول ﷺ بكتابه فقرأه، ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين معه وأحضر الرهبان والقسيسين، فأَمَر جعفراً أن يقرأ عليهم القرآن فقرأ سورة مريم فبكَوا وآمنوا بالقرآن[1] وقيل نزلت في ثلاثين أو سبعين رجلاً من قومه وفدوا على رسول الله ﷺ فقرأ عليهم سورة يسٓ فبكوا وآمنوا[2].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ٨٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٨٧ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾

(٨٦) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ عَطَف التكذيب بآيات الله على الكفر وهو ضرب منه لأن القصد إلى بيان حال المكذبين، وذَكَرهم في معرض المصدقين بها جمعاً بين الترغيب والترهيب.

(٨٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ أي ما طاب ولذ منه، كأنه لما تضمن ما قبلَه مَدْحَ النصارى على ترهبهم والحث على كسر النفس ورفض الشهوات عَقَّبَه النهيَ عن الإفراط في ذلك والاعتداء عما حد الله سبحانه وتعالى بجعل الحلال حراماً فقال: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ

---

(١) قال الولي العراقي: لم أجده.
وقال ابن حجر في الكافي الشاف رقم (٤٧٢): «أظن صاحب الكشاف ذكره بالمعنى من قصة جعفر بن أبي طالب مع عمرو بن العاص لما أرسلته قريش بهديتها إلى النجاشي ليدفع إليهم جعفراً ورفقاه فإن معنى ما ذكر موجوداً فيها إلا قراءة (مريم) أخرجه ابن إسحاق في المغازي من طريق ابن هشام من حديث أم سلمة» هـ.
● في الكافي الشاف: (طه) والصواب (مريم) وذكر قراءتها موجود في المغازي. و(ابن حبان) والصواب (ابن هشام) كما في المغازي. انظر المغازي (ص١٩٤ ـ ١٩٧). وأخرج ابن جرير في جامع البيان (٥/ج٧/ ٥) عن الزهري أنه قال: ما زلت أسمع علماءنا يقولون: نزلت في النجاشي وأصحابه. وإسناد الأثر حسن.
وأخرج ابن جرير في جامع البيان (٥/ج٧/ ٥) عن عروة قال: كانوا يرون أن هذه الآيات نزلت في النجاشي. وإسناد الأثر صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في جامع البيان (٥/ج٧/ ٤) عن سعيد بن جبير.
وأخرجه ابن جرير في جامع البيان (٥/ج٧/ ٥) عن السدي أنه قال: بعث النجاشي إلى النبي ﷺ اثني عشر رجلاً يسألونه ويأتون بخبره، فقرأ عليهم رسول الله ﷺ القرآن فبكوا فأنزل الله فيهم «وإذا سمعوا» إلى آخر الآية.

﴿ٱلْمُعْتَدِينَ﴾. ويجوز أن يراد به ولا تعتدوا حدود ما أحل الله لكم إلى ما حرم عليكم، فتكون الآية ناهية عن تحريم ما أحل وتحليل ما حَرَّم داعيةً إلى القصد بينهما. روي أن رسول الله ﷺ وصف القيامة لأصحابه يوماً وبالغ في إنذارهم، فرقُّوا واجتمعوا في بيت عثمان بن مظعون واتفقوا على أن لا يزالوا صائمين قائمين وأن لا يناموا على الفرش ولا يأكلوا اللحم والودَكَ(١) ولا يقربوا النساء والطيب ويرفضوا الدنيا ويلبسوا المسوح(٢) ويسيحوا في الأرض ويَجُبّوا مذاكيرهم(٣)، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فقال لهم: «إني لم أومر بذلك، إن لأنفسكم عليكم حقاً، فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا، فإني أقوم وأنام وأصوم وأفطر وآكل اللحم والدسم وآتي النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني. فنزلت(٤).

(٨٨) ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ أي كلوا ما حل لكم وطاب مما رزقكم الله، فيكونُ حلالاً مفعولَ كلوا وممّا حال منه تقدمت عليه لأنه نكرة، ويجوز أن تكون مِنْ ابتدائية متعلقة بكلوا، ويجوز أن تكون مفعولاً وحلالاً حال من الموصول، أو العائد المحذوف، أو صفة لمصدر محذوف. وعلى الوجوه لو لم يقع الرزق على الحرام لم يكن لذكر الحلال فائدة زائدة. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

---

(١) الودك: هو دسم اللحم.
(٢) المسح: كساء الشعر، والكثير منه (المسوح) بضم الميم. لسان العرب. مادة: مسح.
(٣) يَجُبّوا مذاكيرهم: ـ أي يقطعوها ـ.
(٤) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٢٠٥ ـ ٢٠٦ بلفظ المصنف عن المفسرين بغير إسناد.
وقد أخرجه الطبري في جامع البيان (٥/ ج٧/ ٩ ـ ١٠) عن السدي.
وقال ابن حجر في الكافي الشاف (ص٥٨): «وهو منتزع من أحاديث. وأصله في الصحيحين ـ البخاري (٩/ ١٠٤ رقم ٥٠٦٣) ومسلم (٢/ ١٠٢٠ رقم ٥/ ١٤٠١) ـ عن عائشة أن أناساً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواجه عن عمله في السر. فقال بعضهم: لا آكل اللحم. وقال بعضهم: لا أتزوج النساء. وقال بعضهم: لا أنام على فراشي. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا ولكني أصوم وأفطر وأنام وأقوم. وآكل اللحم وأتزوج النساء. فمن رغب عن سنتي فليس مني.
وفي الصحيحين ـ البخاري (٩/ ١١٧ رقم ٥٠٧٣) ومسلم (٢/ ١٠٢٠ رقم ٦، ٧، ٨/ ١٤٠٢) عن سعد بن أبي وقاص قال: «رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل، ولو أذن له لاختصينا».
وفي الصحيحين ـ البخاري (٣/ ٣٨ رقم ١١٥٣) ومسلم (٢/ ٨١٤ رقم ١٨٦/ ١١٥٩) ـ عن عبدالله بن عمرو بن العاص في قصة مراجعته النبي ﷺ في الصوم والصلاة. فقال: صلى الله عليه وسلم «صم وأفطر، وقم ونم. فإن لنفسك عليك حقاً. . . الحديث».
وروى الطبري (٥/ ج٧/ ١٠ ـ ١١) ـ من طريق ابن جريج عن مجاهد قال «أراد رجال منهم عثمان بن مظعون وعبدالله بن عمرو أن يتبتلوا ويخصوا أنفسهم ويلبسوا المسوح». وفي سنده «سنيد» وهو ضعيف.
ومن طريق ابن جريج عن عكرمة (٥/ ج٧/ ١١) «أن عثمان بن مظعون، وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود، والمقداد بن الأسود، وسالماً مولى أبي حذيفة، في جماعة من الصحابة تبتلوا فجلسوا في البيوت واعتزلوا النساء ولبسوا المسوح وحرموا طيبات الطعام واللباس، وهموا بالاختصاء واجتمعوا لقيام الليل وصيام النهار فنزلت «يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ـ الآية» قال: فبعث إليهم رسول الله ﷺ فقال: إنّ لأنفسكم عليكم حقاً فصوموا وأفطروا، وصلوا وناموا. فليس منا من ترك سننا» وفي سنده «سنيد» وهو ضعيف.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

(٨٩) ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ هو ما يبدو من المرء بلا قصد كقول الرجل: لا والله وبلىٰ والله، وإليه ذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه، وقيل الحلف على ما يَظُنّ أنه كذلك ولم يكن وإليه ذهب أبو حنيفة رحمه الله تعالى. وفي أيمانكم صلةُ يؤاخذكم أو اللغو لأنه مصدر، أو حال منه. ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ بما وثّقتم الأيمان عليه بالقصد والنية، والمعنىٰ ولكن يؤاخذكم بما عقَّدتم إذا حنثتُم أو بنكث ما عقدتم فحُذِفَ للعلم بهِ. وقرأ حمزة والكسائي وابن عياش عن عاصم عَقَدْتُم بالتخفيف، وابنُ عامر برواية ابن ذكوان عاقَدْتُم وهو من فاعَلَ بمعنى فَعَل. ﴿فَكَفَّارَتُهُ﴾ فكفارة نَكْثه أي الفِعْلة التي تذهب إثمَه وتستره، واستُدل بظاهره على جواز التكفير بالمال قبل الحنث وهو عندنا خلافاً للحنفية لقوله عليه الصلاة والسلام: «من حلف على يمين ورأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليأتِ الذي هو خير»[1]. ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ مِنْ أَقْصَدِهِ في النوع أو القدر، وهو مُدٌّ لكل مسكين عندنا ونصفُ صاع عند الحنفية. و«ما» محلّه النصب لأنه صفة مفعول محذوف تقديرُه: أن تطعموا عشرة مساكين طعاماً من أوسط ما تُطعِمون، أو الرفعُ على البدل من إطعام. وأَهلُون كأَرَضُون. وقرىء أهالِيكم بسكون الياء على لغة من يسكّنها في الأحوال الثلاث كالألف، وهو جمع أَهْل كالليالي في جمع ليل والأراضي في جمع أرض، وقيل هو جمع أهلاة. ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ عطفٌ على إطعام، أو من أوسط إنْ جُعِل بدلاً. وهو ثوب يغطي العورة، وقيل ثوب جامع قميص أو رداء أو إزار. وقرىء بضم الكاف وهو لغة كقُدوة في قِدْوة وكأُسوتِهم بمعنى، أوَ كمِثْل ما تطعمون أهليكم إسرافاً كان أو تقتيراً تواسون بينهم وبينهم إن لم تُطْعموهم الأوسط، والكافُ في محل الرفع وتقديرُه: أو إطعامُهم كأسوتِهم. ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أو إعتاق إنسان، وشَرَط الشافعي رضي الله تعالى عنه فيه الإيمان قياساً على كفارة القتل، ومعنى أو إيجابُ إحدى الخصال الثلاث مطلقاً وتخييرُ المكفِّر في التعيين. ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ أي واحداً منها. ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ فكفارته صيام ثلاثة أيام، وشَرَط فيه أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه التتابع لأنه قرىء ثلاثة أيام متتابعات، والشواذ ليست بحجة عندنا إذا لم تثبتِ كتاباً ولم تُرْوَ سنة. ﴿ذَلِكَ﴾ أي المذكور. ﴿كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ وحنثتم. ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ بأن تضنُّوا بها ولا تبذلوها لكل أمر، أو بأن تبرُّوا فيها ما استطعتم ولم يَفُت بها خير، أو بان تكفِّروها إذا حنثتم. ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك البيان. ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أعلام شرائعه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمة التعليم أو نعمَهُ الواجب شكرها، فإن مثل هذا التبيين يسهل لكم المخرج منه.

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٢٧١ ـ ١٢٧٢ رقم ١١، ١٢، ١٣، ١٤/ ١٦٥٠) من حديث أبي هريرة.
كما أخرجه مسلم (٣/ ١٢٧٢ ـ ١٢٧٣ رقم ١٥، ١٦، ١٧/ ١٦٥١) من حديث عدي بن حاتم.
وأخرج البخاري (١١/ ٥١٧ رقم ٦٦٢٣) ومسلم (٣/ ١٢٦٨ رقم ١٦٤٩) من حديث أبي موسى: «.. وإني والله إن شاء اللهُ لا أحلف على يمين ثم أرى خيراً منها، إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾
إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ
أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾

(٩٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ﴾ أي الأصنام التي نصبت للعبادة. ﴿وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾ سبق تفسيرها في أول السورة. ﴿رِجْسٌ﴾ قذر تعاف عنه العقول، وأفرده لأنه خبر للخمر، وخبرُ المعطوفات محذوفٌ أو لمضاف محذوفٍ كأنه قال: إنما تعاطي الخمر والميسر. ﴿مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ لأنه مسبب عن تسويله وتزيينه. ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ الضمير للرجس، أو لما ذكر، أو للتعاطي. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لكي تفلحوا بالاجتناب عنه.

واعلم أنه سبحانه وتعالى أكد تحريم الخمر والميسر في هذه الآية، بأنْ صدَّر الجملة بإنما، وقرنهما بالأنصاب والأزلام. وسماهما رجساً، وجعلهما من عمل الشيطان تنبيهاً على أن الاشتغال بهما شرّ بحت أو غالب، وأَمَرَ بالاجتناب عن عينهما، وجعله سبباً يرجىٰ منه الفلاح، ثم قرر ذلك بأن بيّن ما فيهما من المفاسد الدنيوية والدينية المقتضية للتحريم فقال تعالى:

(٩١) ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ وإنما خصهما بإعادة الذكر وشَرَح ما فيهما من الوبال تنبيهاً على أنهما المقصود بالبيان، وذكر الأنصاب والأزلام للدلالة على أنهما مثلهما في الحرمة والشرارة لقوله عليه الصلاة والسلام «شارب الخمر كعابد الوثن»[1]. وخص الصلاة من الذكر بالإفراد للتعظيم والإشعارِ بأن الصادّ عنها كالصادِّ عن الإيمان من حيث إنها عِمادُه والفارق بينه وبين الكفر، ثم أعاد الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام مرتَّباً على ما تقدم من أنواع الصوارف فقال: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ إيذاناً بأن الأمر في المنع والتحذير بلغ الغاية وأن الأعذار قد انقطعت.

---

(١) أخرجه البزار (٣/ ٣٥٣ ـ كشف) من حديث مجاهد عن عبدالله بن عمرو بهذا. ورواه الحارث بن أسامة (٢/ ١٠٥ ـ المطالب العالية) وأبو نعيم في الحلية (رقم: ٤٧٧ ـ الكافي الشاف) قلت: وأخرجه أبو نعيم في تاريخ أصبهان (١/ ٢٥٤) ـ من طريقه من رواية الحسن عن عبدالله بن عمرو به.
وفيه الخليل بن زكريا ـ (متروك: التقريب (١/ ٢٢٨) ـ وفي الذي قبله ثابت بن محمد ـ (صدوق يخطىء في أحاديث: التقريب (١/ ١٧٧) ـ وهو أصلح حالاً من الخليل. ولابن ماجه (٢/ ١١٢٠ رقم ٣٣٧٥) من حديث أبي هريرة، بلفظ «مد من خمر كعابد وثن» وإسناده جيد ـ قلت: وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه ـ قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا محمد بن سليمان الأصبهاني عن سهيل عن أبيه عنه به.
ورواه ابن حبان ـ (ص٣٣٥ رقم ١٣٧٩ ـ موارد) ـ من حديث ابن عباس. بهذا اللفظ وقال: الشبه أن يكون فيمن استحلها. وفي مسند إسحاق ومن رواية عمر بن عبدالعزيز عن بعض أصحابه بلفظ «من شرب الخمر فمات مات كعابد وثن».
وللطبراني في الأوسط ـ (المجمع: ٥/ ٧٥) ـ من حديث أنس بلفظ: «المقيم على الخمر كعابد وثن. وإسناده ضعيف. والخلاصة أن الحديث حسن بمجموع طرقه والله أعلم.
[انظر (الكافي الشاف رقم: ٤٧٧) والصحيحة للمحدث الألباني (رقم: ٦٧٧)].

وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ
وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ
ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾

(٩٢) ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ فيما أمرا به. ﴿وَٱحْذَرُواْ﴾ ما نَهيا عنه أو مخالفتهما. ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي فاعلموا أنكم لم تضروا الرسول ﷺ بتوليكم، فإنما عليه البلاغ وقد أدّى، وإنما ضررتم به أنفسكم.

(٩٣) ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ مما لم يحرّم عليهم لقوله: ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي اتقوا المحرم وثبتوا على الإيمان والأعمال الصالحة. ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ﴾ ما حرم عليهم بعد كالخمر. ﴿وَّءَامَنُواْ﴾ بتحريمه. ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ﴾ ثم استمروا وثبتوا على اتقاء المعاصي. ﴿وَّأَحْسَنُواْ﴾ وتحروا الأعمال الجميلة واشتغلوا بها. روي أنه لما نزل تحريم الخمر قالت الصحابة رضي الله تعالى عنهم: يا رسول الله فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر. فنزلت[1]. ويحتمل أن يكون هذا التكرير باعتبار الأوقات الثلاثة، أو باعتبار الحالات الثلاث استعمالُ

---

(١) أخرج أحمد في المسند (٢/ ٣٥١) من رواية ابن وهب مولى أبي هريرة قال: حرمت الخمر. . إلى قوله: فنزلت «يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر. الآية» فقالوا انتهينا يا رب. وقال الناس: يا رسول الله، ناس قتلوا في سبيل الله أو ماتوا على فرشهم كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر وقد جعله الله رجساً من عمل الشيطان. فأنزل الله «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح ـ الآية». فقال النبي ﷺ «لو حرمت عليهم لتركوها كما تركتم». قال ابن حجر في الكافي الشاف رقم (٤٧٨): إسناده ضعيف فإنه من رواية أبي معشر عن أبي وهب. وأبو معشر ضعيف.

● وأخرج الطبري في «جامع البيان» (٥/ج٧/ ٣٨) من حديث علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: في قوله تعالى «ليس على الذين آمنوا. . الآية» قالوا يا رسول الله: ما تقول في إخواننا الذين ماتوا كانوا يشربون الخمر، ويأكلون الميسر. فأنزل الله الآية.

قلت: في إسناده عبدالله بن صالح وهو أبو صالح كاتب الليث وهو ضعيف [التقريب (١/ ٤٢٣)] ولكن روايته هذه مقبولة نظراً إلى متابعاته.

● وأخرج البخاري (٥/ ١١٢ رقم ٢٤٦٤) ومسلم (٣/ ١٥٧٠ رقم ٣/ ١٩٨٠) عن أنس رضي الله عنه «كنت ساقي القوم في منزل أبي طلحة، وكان خمرهم يومئذٍ الفضيخ، فأمر رسول الله ﷺ منادياً ينادي: «ألا إن الخمر قد حرمت. قال فقال لي أبو طلحة: اخرج فأهرقها فخرجت فهرقتها، فجرت في سكك المدينة، فقال بعض القوم قد قتل قوم وهي في بطونهم. فأنزل الله «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا» الآية.

● وأخرج الترمذي (٥/ ٢٥٤ رقم ٣٠٥٠) والطيالسي (ص٩٧ رقم ٧١٥) وابن حبان (ص٤٣٠ رقم ١٧٤٠ ـ موارد) والطبري في جامع البيان (٥/ج٧/ ٣٧) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: مات رجال من أصحاب النبي ﷺ قبل أن تحرّم الخمر. فلما حرمت الخمر قال رجال: كيف بأصحابنا وقد ماتوا يشربون الخمر؟ فنزلت «ليس على الذين آمنوا، وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات» =

الإنسان التقوى والإيمان بينه وبين نفسه وبينه وبين الناس وبينه وبين الله تعالى، ولذلك بدّل الإيمان بالإحسان في الكرة الثالثة إشارةً إلى ما قاله عليه الصلاة والسلام في تفسيره، أو باعتبار المراتب الثلاث المبدأ والوسط والمنتهى، أو باعتبار ما يُتقىٰ فإنه ينبغي أن يترك المحرمات توقياً من العقاب والشبهات تحرزاً عن الوقوع في الحرام، وبعض المباحات تحفظاً للنفس عن الخسة وتهذيباً لها عن دنس الطبيعة. ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فلا يؤاخذهم بشيء، وفيه أن من فعل ذلك صار محسناً ومن صار محسناً صار لله محبوباً.

(٩٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ نزلت في عام الحديبية ابتلاهم الله سبحانه وتعالى بالصيد، وكانت الوحوش تغشاهم في رحالهم بحيث يتمكنون من صيدها أخذاً بأيديهم وطعناً برماحهم وهم محرِمون. والتقليل والتحقير في بشيء للتنبيه على أنه ليس من العظائم التي تدحض الأقدام كالابتلاء ببذل الأنفس والأموال، فمن لم يثبت عنده كيف يثبت عند ما هو أشد منه. ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ ليتميز الخائف من عقابه وهو غائب منتظر لقوة إيمانه ممن لا يخافه لضَعف قلبه وقلة إيمانه، فذَكَر العلم وأراد وقوع المعلوم وظهوره أو تعلق العلم. ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد ذلك الابتلاء بالصيد. ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فالوعيد لاحقٌ به، فإن من لا يملك جأشه في مثل ذلك ولا يراعي حكم الله فيه فكيف به فيما تكون النفس أميل إليه وأحرص عليه؟!.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾

(٩٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ أي محرِمون جمع حرام كرداح ورُدُح، ولعله ذكر القتل دون الذبح والذكاة للتعميم، وأراد بالصيد ما يؤكل لحمه لأنه الغالب فيه عرفاً ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام «خمس يقتلن في الحل والحرم»: الحدأة والغراب والعقرب والفأرة والكلب العقور»[(١)]، وفي رواية أخرى الحيّة بدل العقرب[(٢)]، مع ما فيه من التنبيه على جواز قتل كل مؤذ واختُلف في أن هذا النهي هل يُلغي حكم الذبح فيُلحق مذبوح المُحْرِم بالميتة ومذبوحِ الوثني أو

= [المائدة: ٩٤].
قال الترمذي: حديث حسن صحيح. وصححه الألباني بشواهده.

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٣٥٥ رقم ٣٣١٤)، ومسلم (٢/ ٨٥٦ رقم ١١٩٨).
والترمذي (٣/ ١٩٧ رقم ٨٣٧) والنسائي (٥/ ١٨٨)، وابن ماجه (٢/ ١٠٣١ رقم ٣٠٨٧)، والطيالسي في المسند (ص٢١٤ رقم ١٥٢١)، وأحمد في المسند (٦/ ٩٧، ٩٨)، والدارمي (٢/ ٣٦، ٣٧)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٢/ ١٦٦)، والبيهقي (٥/ ٢٠٩). من رواية جماعة عن عائشة بألفاظ.

(٢) أخرجه مسلم (٢/ ٨٥٨ رقم ٧٥/ ١٢٠٠).

لا فيكون كالشاة المغصوبة إذا ذبحها الغاصب. ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾ ذاكراً لإحرامه عالماً بأنه حرام عليه قبلَ ما يقتله، والأكثرُ على أنّ ذِكْره ليس لتقييد وجوب الجزاء فإن إتلاف العامد والمخطىء واحد في إيجاب الضمان، بل لقوله ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُۚ﴾ والآية نزلت فيمن تعمد إذ روي: أنه عَنّ لهم في عمرة الحديبية حمارُ وحشٍ فطعنه أبو اليسر[1] برمحه فقتله. فنزلت[2]. ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ برفع الجزاء، والمِثْل قراءة الكوفيين ويعقوب بمعنى فعَلَيه أي فواجِبُه جزاءٌ يماثل ما قتل من النعم، وعليه لا يتعلق الجارّ بجزاءٌ للفصل بينهما بالصفة فإن متعلّق المصدر كالصلة له فلا يوصَفُ ما لم يتم بها، وإنما يكون صفته، وقرأ الباقون على إضافة المصدر إلى المفعول وإقحام مِثْل كما في قولهم مثلي لا يقول كذا[3]، والمعنى فعليه أن يُجزىٰ مثلُ ما قتل، وقرىء فجزاءً مثلَ ما قتل بنصبهما على فليُجْز جزاءً، أو فعليه أن يَجزي جزاءً يماثل ما قتل، وفجزاؤُه مثلُ ما قتل، وهذه المماثلة باعتبار الخلقة والهيئة عند مالك والشافعي رضي الله تعالى عنهما، والقيمةِ عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى وقال: يُقَوَّم الصيد حيثُ صِيد فإن بلغت القيمةُ ثَمَنَ هديٍ تخير بين أن يهدي ما قيمتَه قيمته وبين أن يشتري بها طعاماً فيعطي كل مسكين نصف صاع من بُر أو صاعاً من غيره وبين أن يصوم عن طعام كلِّ مسكين يوماً، وإن لم تبلغ تخير بين الإطعام والصوم، واللفظُ للأول أوفقُ. ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ صفةُ جزاء، ويحتمل أن يكون حالاً من ضميره في خبره أو منه إذا أضفته أو وصفته ورفعته بخبر مقدر لمن، وكما أن التقويم يحتاج إلى نظر واجتهاد يحتاج إلى المماثلة في الخلقة والهيئة إليها، فإن الأنواع تتشابه كثيراً. وقرىء ذو عدل على إرادة الجنس أو الإمام. ﴿هَدْيًا﴾ حال من الهاء في به أو مِنْ جزاء وإنْ نُوِّن لتخصصه بالصفة، أو بدلٌ من مِثْل باعتبار محله أو لفظِهِ فيمن نصبه. ﴿بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ وصف به هدياً لأن إضافته لفظية، ومعنى بلوغه الكعبة ذبحُه بالحرم والتصدق به، وقال أبو حنيفة يذبح بالحرم ويتصدق به حيث شاء. ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ﴾ عطف على جزاء إنْ رفعتَه، وإنْ نصبتَه فخبر محذوف. ﴿طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ عطف بيان، أو بدل منه، أو خبر محذوف أي هي طعام. وقرأ نافع وابن عامر كفارةُ طعامِ بالإضافة للتبيين كقولك: خاتم فضة، والمعنى عند الشافعي أو أن يكفِّر بإطعام مساكين ما يساوي قيمةَ الهدي من غالب قوت البلد فيعطي كل مسكين مُداً. ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ أو ما ساواه من الصوم فيصوم عن طعام كل مسكين يوماً، وهو في الأصل مصدر أطلق للمفعول. وقرىء بكسر العين وهو ما عدل بالشيء في المقدر كعِدْل الحمل وذلك إشارة إلى الطعام، وصياماً تمييز للعدل. ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ متعلق بمحذوف أي فعليه الجزاءُ أو الطعام أو الصوم ليذوق ثقل فعله وسوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام، أو الثقل الشديد على مخالفة أمر الله تعالى. وأصل الوَبْل الثقل ومنه الطعام الوبيل. ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ﴾ منْ قتل الصيد محْرِماً في الجاهلية أو قبل التحريم، أو في هذه المرة. ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلىٰ مثل هذا. ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُۚ﴾ فهو ينتقم الله منه. وليس فيه ما يمنع الكفارة على العائد كما حكي عن ابن عباس وشريح. ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ مما أصر على عصيانه.

---

(١) أبو اليسر هو كعب بن عمرو الأنصاري، صحابي، بدري، توفي بالمدينة ٥٥هـ (التقريب ٢/ ١٣٥).

(٢) البخاري (١٨٢١ ـ ١٨٢٣) ومسلم (٥٦ ـ ٦٤).

(٣) أي قرؤوا «فجزاءُ مِثْلِ..».

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ
وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾

(٩٦) ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ ما صيد منه مما لا يعيش إلا في الماء، وهو حلال كله لقوله عليه الصلاة والسلام في البحر «هو الطهور ماؤه الحل ميتته»[1]، وقال أبو حنيفة لا يحل منه إلا السمك، وقيل يَحِل السمك وما يؤكل نظيره في البرّ. ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ ما قذفه أو نَضبَ عنه. وقيل الضمير للصيد وطعامه أكلُه. ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾ تمتيعاً لكم نصب على الغرض. ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ أي ولسيارتكم يتزودونه قَديداً. ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ﴾ أي ما صيد فيه أو الصيد فيه، فعلى الأول يَحْرُم على المُحْرِم أيضاً ما صاده الحلال وإن لم يكن له فيه مَدْخل، والجمهورُ على حِلِّهِ لقوله عليه الصلاة والسلام «لحم الصيد حلال لكم، ما لم تصطادوه أو يُصَدْ لكم»[2] ﴿مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ أي محرمين وقرىء بكسر الدال من دام يَدَام. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

(٩٧) ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ﴾ صيّرها، وإنما سمي البيت كعبة لتكعُّبه. ﴿ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ عطفُ بيان على جهة المدح، أو المفعول الثاني ﴿قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ انتعاشاً لهم أي سبب انتعاشهم في أمر معاشهم ومعادهم يلوذ به الخائف ويأمن فيه الضعيف ويربح فيه التجار ويتوجه إليه الحجاج والعمار، أو ما يقوم به أَمْرُ دينهم ودنياهم. وقرأ ابن عامر قِيَماً على أنه مصدر على فعل كالشبع أُعِلّ عينه كما أعل في فعله، ونصبه على المصدر أو الحال. ﴿وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ سبق تفسيرها، والمراد بالشهر الشهرُ الذي يؤدّىٰ فيه الحج وهو ذو الحجة لأنه المناسب لقرنائه، وقيل الجنس. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الجعل، أو إلى ما ذكر من الأمر بحفظ حُرمة الإحرام وغيره. ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى

---

(١) وهو حديث صحيح.
أخرجه مالك في الموطأ (١/ ٢٢ رقم ١٢) وأبو داود (١/ ٦٤ رقم ٨٣)، والترمذي (١/ ١٠٠ رقم ٦٩) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (١/ ٥٠ رقم ٥٩) و(١/ ١٧٦ رقم ٣٣٢)، و(٧/ ٢٠٧ رقم ٤٣٥٠)، وابن ماجة (١/ ١٣٦ رقم ٣٨٦)، وابن أبي شيبة في المصنف (١/ ١٣١)، وابن خزيمة (١/ ٥٩ رقم ١١١) والشافعي في الأم (١/ ١٦)، وفي ترتيب المسند (١/ ٢٣ رقم ٤٢)، وأحمد في المسند (٢/ ٢٣٧، ٣٦١، ٣٧٨، ٣٩٢)، والدارمي (١/ ١٨٦)، والبخاري في التاريخ الكبير (٣/ ٤٧٨)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٢٧١ رقم ١٢٤٠) و(ص٦٠ رقم ١١٩ ـ موارد)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٤٠)، وفي علوم الحديث ص٨٧، والبيهقي (١/ ٣) وغيرهم.
وهو من رواية مالك عن صفوان بن سُليم، عن سعيد بن سلمة من آل ابن الأزرق، عن المغيرة بن أبي بُرْدَة أنه سمع أبا هريرة يقول: .... الحديث.
وانظر الكلام عليه في تخريجنا لبلوغ المرام الحديث الأول.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٣٦٢)، وأبو داود (٣/ ٤٢٨ رقم ١٨٥١)، والترمذي (٣/ ٢٠٣ رقم ٨٤٦)، والنسائي (٥/ ١٨٧)، وابن خزيمة في صحيحه (٤/ ١٨٠ رقم ٢٦٤١)، وابن حبان في الموارد (ص٢٤٣ رقم ٩٨٠)، والحاكم في المستدرك (١/ ٤٥٢)، والدارقطني في السنن (٢/ ٢٩٠ رقم ٢٤٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (٥/ ١٩٠)، وهو حديث ضعيف.

﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ فإنّ شَرْع الأحكام لدفع المضار قبل وقوعها وجلب المنافع المترتبة عليها دليلُ حكمة الشارع وكمالِ علمه. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ تعميم بعد تخصيص ومبالغة بعد إطلاق.

ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ
وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ
لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ
يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٠١﴾

(٩٨) ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ وعيد ووعد لمن انتهك محارمه ولمن حافظ عليها، أو لمن أصر عليه ولمن أقلع عنه.

(٩٩) ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ تشديد في إيجاب القيام بما أُمِر به أي الرسول، أتى بما أُمِر به من التبليغ ولم يبقَ لكم عذر في التفريط. ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ من تصديق وتكذيب وفعل وعزيمة.

(١٠٠) ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ حكم عام في نفي المساواة عند الله سبحانه وتعالىٰ بين الرديء من الأشخاص والأعمال والأموال وجيدها، رَغّب به في مصالح العمل وحلال المال. ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ﴾ فإن العبرة بالجودة والرداءة دون القلة والكثرة، فإن المحمود القليل خير من المذموم الكثير، والخطاب لكل معتبر ولذلك قال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي فاتقوه في تحري الخبيث وإن كثر وآثروا الطيب وإن قلّ. ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ راجين أن تبلغوا الفلاح. روي: أنها نزلت في حُجّاج اليمامة لما همَّ المسلمون أن يوقعوا بهم فنهوا عنه وإن كانوا مشركين[1].

(١٠١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ﴾ الشرطيةُ وما عطف عليها صفتان لأشياء والمعنى: لا تسألوا رسول الله ﷺ عن أشياءَ إنْ تَظْهَر لكم تَغُمكم وإن تسألوا عنها في زمان الوحي تَظْهَر لكم، وهما كمقدمتين تُنْتِجان ما يمنع السؤال وهو أنه مما يغمهم والعاقلُ لا يفعل ما يغمه. وأشياء اسم جمع كطَرْفاء غير أنه قلبت لامه فجعلت لَفْعاء. وقيل أَفْعَلاء حذفت لامُه جمعٌ لشيء على أن أصله شيء كهين، أو شيء كصَدِيق فخفف. وقيل أَفْعَال جمع له من غير تغيير كبيت وأبيات ويرده منع صرفه. ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ﴾ صفة أخرى أي عن أشياء عفا الله عنها ولم يكلف بها، إذ روي أنه لما نزلت ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ﴾[2] قال سراقة بن مالك[3]: أكلَّ عامٍ؟

---

(١) أخرجه ابن جرير (٦/٥٩) عن عكرمة والسدي، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص١٢٥ عن ابن عباس بنحوه.
وهو حسن عن طريق السدي كما في الفتح السماوي ص٥٤٧.

(٢) آل عمران: «٩٧».

(٣) سراقة بن مالك بن جعشم الكناني المدلجي أبو سفيان أسلم بعد الطائف «ب د ع». =

فأعرض عنه رسولُ الله ﷺ حتى أعاد ثلاثاً فقال: «لا، ولو قلت نعم لوَجَبَت، ولو وجبت لما استطعتم، فاتركوني ما تركتكم». فنزلت[1]. أو استئناف أي عفا الله عما سلف من مسألتكم

= انظر تجريد أسماء الصحابة للذهبي (١/ ٢١٠ رقم ٢١٨٤).

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» رقم (٤٨٠):

«هذا السياق لم أجده لا عن سراقة ولا عن عكاشة. فأما سراقة: فروى مسلم ـ (٢/ ٨٨٦ رقم ١٤٧/ ١٢١٨) ـ من حديث جابر الطويل في صفة الحج: «فقال سراقة بن مالك بن جعشم: يا رسول الله، ألعامنا هذا، أم للأبد؟ قلت: وهو عند البخاري ـ (٣/ ٦٠٦ رقم ١٧٨٥) ـ أيضاً من وجه آخر عن جابر. وللنسائي ـ (٥/ ١٧٨ رقم ٢٨٠٦) ـ وابن ماجه ـ (٢/ ٩٩١ رقم ٢٩٧٧) ـ من حديث سراقة بن مالك نفسه أنه قال للنبي ﷺ: «يا رسول الله، عمرتنا هذه لعامنا أم للأبد؟ فقال: لا، بل للأبد. دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة» ـ قلت حديث سراقة صحيح ـ.

وأما عكاشة بن محصن: فرواه الطبري ـ في «جامع البيان» (٥/ج٧/ ٨٢) ـ وابن مردويه ـ وأبو الشيخ: كما في الدر المنثور (٣/ ٢٠٦) ـ من طريق محمد بن زياد: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول «خطبنا رسول الله ﷺ، فقال: يا أيها الناس، كتب عليكم الحج، فقال عكاشة بن محصن الأسدي: أفي كل عام يا رسول الله؟ فقال: أما أنا لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ثم تركتم لضللتم، اسكتوا عني ما سكت عنكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم. فأنزل الله «يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ـ الآية» وهو أقرب إلى سياق المصنف. دون ما في آخره مما ذكره المصنف فهو في الحديث الآتي.

وأخرج الطبري ـ في «جامع البيان» (٥/ج٧/ ٨٢) ـ من طريق إبراهيم بن مسلم الهجري، عن ابن عياض، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله كتب عليكم الحج فقال رجل: كل عام يا رسول الله؟ فأعرض عنه حتى أعاد مرتين أو ثلاثاً، فقال: من السائل؟ فقيل فلان. فقال «والذي نفسي بيده لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ما أطقتموه، ولو تركتموه لكفرتم. فأنزل الله تعالى هذه الآية «يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء.. الآية».

وأخرج الطبري في جامع البيان (٥/ج٧/ ٨٢ ـ ٨٣) ـ أيضاً من طريق معاوية بن يحيى عن صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر، عن أبي أمامة أنه سمعه يقول: «قام رسول الله ﷺ في الناس، وقال: كتب عليكم الحج فقام رجل من الأعراب ـ فذكر الحديث، وفيه مقال: ويحك ماذا يؤمنك أن أقول نعم، والله لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت لكفرتم، وأما بقيته ففيما أخرجه مسلم (٢/ ٩٧٥ رقم ٤١٢/ ١٣٣٧) ـ من طريق الربيع بن مسلم عن محمد بن زياد عن أبي هريرة «خطبنا رسول الله ﷺ، فقال: أيها الناس فرض الله عليكم الحج فحجوا فقال رجل: أفي كل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً فقال لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم ثم قال: ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم وإذا أمرتكم بشيء فائتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه».

وقد سأل عن الحج الأقرع بن حابس فعند بعض أصحاب السنن ـ (أبو داود ٢/ ٣٤٤ رقم ١٧٢١) والنسائي (٥/ ١١١ رقم ٢٦٢٠) وابن ماجه (٢/ ٩٦٣ رقم ٢٨٨٦) ـ من حديث ابن عباس أن الأقرع بن حابس سأل رسول الله ﷺ: الحج في كل سنة أو مرة واحدة؟ فقال: مرة واحدة، فما زاد فهو تطوع».

وأخرجه الطبري ـ (في جامع البيان ٥/ج٧/ ٨٣) ـ من هذا الوجه ـ قلت: سنده ضعيف ـ فسمى الرجل محصنا الأسدي، وعند غيره عكاشة بن محصن» اهـ، وأما حديث علي فأخرجه الترمذي (٣/ ١٧٨ رقم ٨١٤) و(٥/ ٢٥٦ رقم ٣٠٥٥) وابن ماجه (٢/ ٩٦٣ رقم ٢٨٨٤) وأحمد (١/ ١١٣) والدارقطني (٢/ ٢٨٠ رقم ٢٠٢) من طريق أبي البختري عنه.

قال الترمذي: حديث علي حديث حسن غريب. وقال ابن حجر في التلخيص (٢/ ٢٢٠ رقم ٩٥٢): عن حديث =

فلا تعودوا لمثلها. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ لا يعاجلكم بعقوبةِ ما يَفْرُط منكم ويعفو عن كثير، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنه عليه الصلاة والسلام كان يخطب ذات يوم وهو غضبان من كثرة ما يسألون عنه مما لا يَعْنيهم فقال: «لا أُسأَل عن شيء إلا أجبت» فقال رجل: أين أبي؟ فقال: «في النار» وقال آخر: مَنْ أبي؟ فقال: «حذافة» وكان يدعىٰ لغيره فنزلت[1].

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

(١٠٢) ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ﴾ الضمير للمسألة التي دل عليها تسألوا ولذلك لم يُعَدَّ بعن، أو لأشياء بحذف الجارّ. ﴿مِّن قَبْلِكُمْ﴾ متعلق بسألها وليس صفةً لقوم، فإن ظرف الزمان لا يكون صفة للجثّة ولا حالاً منها ولا خبراً عنها. ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾ أي بسببها حيث لم يأتمروا بما سألوا جحوداً.

= علي بأنه منقطع. وقد ضعفه الألباني في الإرواء (٤/ ١٥٠).

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٥/ج٧/ ٨١ ـ ٨٢) من حديث أبي هريرة وفي سنده عبدالعزيز بن أبان الأموي، من ولد سعيد بن العاص، كان كذاباً يضع الأحاديث وذمه يطول. وانظر رقم (١٠٢٩٥ ـ شاكر) لتقف على ترجمته وترجمة (الحارث بن أبي سلمة) و(قيس بن الربيع الأسدي).

● وأخرج البخاري (٢/ ٢١ رقم ٥٤٠) بعضه من حديث أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ خرج حين زاغت الشمس فصلّى الظهر فقام على المنبر فذكر الساعة، فذكر أن فيها أموراً عِظاماً، ثم قال «من أحب أن يسأل عن شيء فليسأل، فلا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم ما دمت في مقامي هذا». فأكثر الناس في البكاء، وأكثر أن يقول «سلوني» فقام عبدالله بن حذافة السهمي فقال: من أبي؟ قال: «أبوك حذافة» ثم أكثر أن يقول «سلوني» فبرك عمر على ركبتيه فقال: رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً. فسكت. ثم قال «عرضت عليّ الجنة والنار آنفاً في عُرض هذا الحائط، فلم أر كالخير والشر».

● ثم أخرج البخاري (١/ ١٨٧ رقم ٩٢) ومسلم (٤/ ١٨٣٤ رقم ١٣٨/ ٢٣٦٠) من حديث أبي موسى، قال: سئل النبي ﷺ عن أشياء كرهها، فلما أكثر عليه غضب ثم قال للناس: سلوني عما شئتم قال رجل من أبي؟ قال: أبوك حذافة. فقام آخر فقال: من أبي يا رسول الله؟ قال أبوك سالم مولى شيبة. فلما رأى عمر ما في وجهه قال: يا رسول الله إنا نتوب إلى الله عز وجل».

● وقد أخرج البخاري (٨/ ٢٨٠ رقم ٤٦٢١) ومسلم (٤/ ١٨٣٢ رقم ١٣٤/ ٢٣٥٩) من حديث أنس قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، قال: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً. قال: فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم لهم حنين فقال رجل من أبي؟ قال أبوك فلان. فنزلت هذه الآية «لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم»...

● وأخرج البخاري (٨/ ٢٨٠ رقم ٤٦٢٢) وابن جرير في جامع البيان (٥/ج٧/ ٨٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: «كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاءً، فيقول الرجل: من أبي؟ ويقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتي؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية «يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم» حتى فرغ من الآية كلها.

وقد ذكر الحافظ ابن حجر في سبب نزولها أقوال أخرى، ثم جمع بينها بقوله: «... لا مانع أن يكون الجميع سبب نزولها والله أعلم» هـ. =

مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا
يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ
كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا
ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

(١٠٣) ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍۙ﴾ ردٌّ وإنكار لما ابتدعه أهل الجاهلية وهو أنهم إذا نَتَجت الناقة خمسة أبطن آخرُها ذَكَر بَحروا أُذُنها أي شقوها وخلوا سبيلها فلا تُركَب ولا تُحلَب، وكان الرجل منهم يقول: إن شُفيت فناقتي سائبة ويجعلُها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها، وإذا وَلَدت الشاة أنثىٰ فهي لهم وإن وَلَدت ذكراً فهو لآلهتهم وإن ولدتهما قالوا: وَصَلت الأنثىٰ أخاها فلا يذبح لها الذَّكَر، وإذا نَتِجت من صلب الفحل عشرةَ أبطن حرموا ظهره ولم يمنعوه من ماء ولا مرعىٰ وقالوا: قد حُمِيَ ظهره. ومعنىٰ ما جَعَل ما شَرَع ووَضَع، ولذلك تَعدّىٰ إلىٰ مفعول واحد وهو البحيرة، ومِنْ مزيدة. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾ بتحريم ذلك ونسبته إلىٰ الله سبحانه وتعالى. ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ أي الحلال من الحرام والمبيح من المحرم، أو الآمر من الناهي ولكنهم يُقَلِّدون كبارهم، وفيه أن منهم من يعرف بطلان ذلك ولكن يمنعُهم حب الرياسة وتقليد الآباء أن يعترفوا به.

(١٠٤) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ بيان لقصور عقولهم وانهماكهم في التقليد وأن لا سند لهم سواه. ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ الواو للحال، والهمزة دخلت عليها لإنكار الفعل على هذه الحال أي أحسبهم ما وجدوا عليه آباءهم ولو كانوا جَهَلَة ضالّين، والمعنى أن الاقتداء إنما يصح بمن عُلِمَ أنه عالم مهتد وذلك لا يعرف إلا بالحجة فلا يكفي التقليد.

(١٠٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ أي احفظوها والزموا إصلاحها، والجارّ مع المجرور جُعِل اسماً لالزَمُوا ولذلك نصب أنفسَكم. وقرىء بالرفع على الابتداء. ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ لا يضركم الضلال إذا كنتم مهتدين، ومن الاهتداء أن يُنكِر المنكَر حسب طاقته كما قال عليه الصلاة والسلام «من رأى منكم منكراً واستطاع أن يغيره بيده فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه»(١). والآية نزلت لما كان المؤمنون يتحسرون على الكفرة ويتمنوْن إيمانهم، وقيل كان الرجل إذا أسلم قالوا له: سَفَّهت آباءك، فنزلت(٢). ولا يضركم يَحْتَمِل الرفعَ على أنه مستأنفٌ ويؤيده أن قرىء لا يضيرُكم، والجزمَ على الجواب أو النهي لكنه ضمت الراءُ اتباعاً لضمة الضاد المنقولةِ إليها من الراء المدغمة وتنصره قراءة من قرأ لا يَضُرَّكم بالفتح، ولا يَضِرُّكم بكسر الضاد وضمها من ضاره يضيره ويضوره. ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ وعد ووعيد للفريقين وتنبيهٌ علىٰ أن أحداً لا يؤاخَذُ بذنب غيره.

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٦٩ رقم ٧٨/ ٤٩) من حديث أبي سعيد.

(٢) أخرجه الثعلبي عن ابن زيد. انظر الفتح السماوي ص٥٩٦.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾

(١٠٦) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ﴾ أي فيما أُمِرتم شهادةُ بينكم، والمراد بالشهادة الإشهاد في الوصية، وإضافتُها إلى الظرف على الاتساع. وقرىء شهادةً بالنصب والتنوين على لِيَقُم. ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ إذا شارفه وظهرت أماراتُه، وهو ظرف للشهادة[1]. ﴿حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ﴾ بدلٌ منه، وفي إبداله تنبيه على أن الوصية مما ينبغي أن لا يُتهاون فيه، أو ظرفُ حَضَر. ﴿ٱثۡنَانِ﴾ فاعلُ شهادةُ، ويجوزُ أن يكون خبرُها على حذف المضاف. ﴿ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ أي من أقاربكم، أو من المسلمين، وهما صفتان لاثنان. ﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ عطفٌ على اثنان، ومَنْ فسر الغير بأهل الذمة جعَلَه منسوخاً، فإن شهادته على المسلم لا تُسمع إجماعاً. ﴿إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي سافرتم فيها. ﴿فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾ أي قاربتم الأجل. ﴿تَحۡبِسُونَهُمَا﴾ تَقِفُونهما وتُصَبِّرونهما، صفةٌ لآخران، والشرط بجوابه المحذوف المدلول عليه بقوله: «أو آخران من غيركم» اعتراضٌ، فائدتُه الدلالةُ على أنه ينبغي أن يشهد اثنان منكم فإن تعذر ـ كما في السفر ـ فمن غيركم، أو استئناف كأنه قيل: كيف نعمل إن ارتبنا بالشاهدين؟ فقال: تحبسونهما. ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ صلاة العصر، لأنه وقت اجتماع الناس وتصادم ملائكة الليل وملائكة النهار. وقيل أي صلاة كانت. ﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ إن ارتاب الوارث منكم. ﴿لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا﴾ مُقسَم عليه، وإن ارتبتم اعتراضٌ يفيد اختصاص القسم بحال الارتياب. والمعنى لا نستبدل بالقسم أو بالله عَرَضاً من الدنيا أي لا نحلف بالله كاذباً لطمع. ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾ ولو كان المقسَم له قريباً منا، وجوابُه أيضاً محذوف أي لا نشتري. ﴿وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ أي الشهادة التي أمرنا الله بإقامتها، وعن الشعبي[2] أنه وَقَفَ على شهادة، ثم ابتدأ الله بالمدّ على حذف

(١) وقدم المفعول «أحدكم» على الفاعل لإفادة كمال تمكن الفاعل عند النفس وقت وروده عليها، فإنه أدخل في تهوين أمر الموت (س٣/٨٨).

(٢) أخرجه الطبري في جامع البيان (٥/ج٧/١١١) عنه.
والشعبي هو: أبو عمرو، عامر بن شراحيل الشعبي، الحميري، الكوفي، التابعي الجليل، قاضي الكوفة، سمع من ثمانية وأربعين من الصحابة. قال ابن عيينة: كان الناس تقول بعد الصحابة: ابن عباس في زمانه، والشعبي في زمانه، والثوري في زمانه. وقال ابن معين، وأبو زرعة، وغير واحد: الشعبي ثقة، وقال عاصم ما رأيت أحداً أعلم بحديث أهل الكوفة والبصرة والحجاز من الشعبي، وقال ابن عطية: كان جلة من السلف كسعيد بن المسيب، وعامر الشعبي، يعظمون تفسير القرآن، ويتوقفون عنه، تورعاً واحتياطاً لأنفسهم مع إدراكهم وتقدمهم».
[تهذيب التهذيب (٥/٥٧ ـ ٦٠) ومقدمة تفسير القرطبي (١/ ٣٤)].

حرف القسم وتعويض حرف الاستفهام منه، ورُوي عنه بغيره كقولهم اللهِ لأفعلن. ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾ أي إنْ كتمنا. وقرىء لَمِلأثِمين بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام وإدغام النون فيها.

(١٠٧) ﴿فَإِنۡ عُثِرَ﴾ فإن اطُّلع. ﴿عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا﴾ أي فَعَلا ما أوجب إثماً كتحريفٍ. ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾ فشاهدان آخران. ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ﴾ من الذين جُنِي عليهم وهم الورثة[1]. وقرأ حفص استَحَق علىٰ البناء للفاعل وهو الأوليان. ﴿ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ الأحَقان بالشهادة لقرابتهما ومعرفتهما، وهو خبر محذوف أي: هما الأوليان، أو خبرُ آخَرَان، أو مبتدأ خبرُه آخران، أو بدل منهما أو من الضمير في يقومان. وقرأ حمزة ويعقوب وأبو بكر عن عاصم الأوَّلين على أنه صفة للذين، أو بدل منه أي من الأوّلين الذين استحق عليهم، وقرىء الأوَّلَيْن على التثنية وانتصابه على المدح، والأولان وإعرابه إعراب الأوليان. ﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ أصدق منها وأولىٰ بأن تقبل. ﴿وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ﴾ وما تجاوزنا فيها الحق. ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الواضِعين الباطل موضع الحق، أو الظالمين أنفسَهم إن اعتدينا. ومعنى الآيتين أن المحتضِر إذا أراد الوصية ينبغي أن يُشْهِد عدلين من ذوي نَسَبه أو دينه علىٰ وصيته، أو يوصي إليهما احتياطاً فإن لم يجدهما بأن كان في سفر فآخرين مِنْ غيرهم، ثم إن وقع نزاعٌ وارتياب أقْسَما عـلى صدق ما يقولان بالتغليظ في الوقت، فإن اطُّلع على أنهما كَذَبا بأمارة أو مظنَّةٍ حَلَفَ آخران من أولياء الميت، والحكمُ منسوخ إن كان الاثنان شاهدَيْن فإنه لا يَحْلف الشاهدُ ولا يعارَضُ يمينُه بيمين الوارث وثابتٌ إن كانا وصيين وردُّ اليمينُ إلىٰ الورثة إما لظهورِ خيانةِ الوصيين فإن تصديق الوصي باليمين لأمانته أو لتغييرِ الدعوى. إذ روي أن تميماً الداري وعدي بن يزيد[2] خرجا إلى الشام للتجارة وكانا حينئذ نصرانيين ومعهما بديل مولى عمرو بن العاص وكان مسلماً، فلما قدموا الشام مرض بديلٌ فدوَّن ما معه في صحيفة وطرحها في متاعه ولم يخبرهما به وأوصىٰ إليهما بأن يدفعا متاعه إلىٰ أهله ومات، ففتشاه وأخذا منه إناء من فضة فيه ثلثمائة مِثْقالٍ منقوشاً بالذهب فغيَّباه، فأصاب أهلُه الصحيفة فطالبوهما بالإناء، فجحدا، فترافعوا إلى رسول الله ﷺ فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآية، فَحَلَّفهما رسولُ الله ﷺ بعد صلاة العصر عند المنبر وخلّىٰ سبيلهما، ثم وُجِدَ الإناءُ في أيديهما، فأتاهما بنو سهم في ذلك، فقالا: قد اشتريناه منه ولكن لم يكن لنا عليه بيِّنة فكرهنا أن نُقِرَّ به، فرفعوهما إلى رسول الله ﷺ فنزلت: ﴿فَإِنۡ عُثِرَ﴾ فقام عمرو بن العاص والمطلب بن أبي وداعة السهميان فحلفا واستحقاه[3]. ولعل تخصيص العدد فيهما لخصوص الواقعة.

---

(١) وهذا على معنى من قرأ بالبناء للمفعول، أي «استُحِقَّ».

(٢) الصحيح أنه عدي بن بدّاء كما في الفتح السماوي ص٥٩٦.

(٣) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٥٨ رقم ٣٠٥٩) وابن جرير في جامع البيان (٥/ج٧/ ١١٥) قال الترمذي: «هذا حديث غريب، وليس إسنادُهُ بصحيح، وأبو النَّضرِ الذي روى عنه محمد بن إسحاق هذا الحديث هو عندي محمد بن السائب الكلبي، يكنى أبا النضر وقد تركه أهل الحديث، وهو صاحب التفسير، سمعت محمد بن اسماعيل يقول: محمد بن السائب الكلبي يكنى أبا النضر، ولا نعرف لسالم أبي النّضر المدني رواية عن أبي صالح مولى أمّ هانىء.

وقد روى عن ابن عباس شيء من هذا على الاختصار من غير هذا الوجه» هـ.

قلت: وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٢٢٠ ـ ٢٢١) وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم، والنحاس في ناسخه، =

ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾

(١٠٨) ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الحكم الذي تقدم، أو تحليف الشاهد. ﴿أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ على نحو ما حملوها من غير تحريف وخيانة فيها ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أن ترد اليمين على المدعين بعد أيمانهم فيفتضحوا بظهور الخيانة واليمينِ الكاذبة. وإنما جمع الضمير لأنه حكم يعم الشهود كلهم. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟﴾ ما توصون به سمع إجابة. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي فإن لم تتقوا ولم تسمعوا كنتم قوماً فاسقين ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي لا يهديهم إلى حجة أو إلى طريق الجنة. فقوله تعالى:

(١٠٩) ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ ظرف له، وقيل بدل من مفعول واتقوا بدلَ الاشتمال، أو مفعول واسمعوا على حذف المضاف أي واسمعوا خبر يوم جَمْعهم، أو منصوب بإضمار اذكر. ﴿فَيَقُولُ﴾ أي للرسل. ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ أيَّ إجابة أجبتم؟ علىٰ أن ماذا في موضع المصدر، أو بأي شيء أجبتم؟ فحذف الجار، وهذا السؤال لتوبيخ قومهم كما أن سؤال الموءودة لتوبيخ الوائد ولذلك ﴿قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ أي لا علم لنا بما لست تعلمه. ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ فتعلم ما نعلمه مما أجابونا وأظهروا لنا وما لا نعلم مما أضمروا في قلوبهم، وفيه التشكي منهم ورد الأمر إلى علمه بما كابدوا منهم. وقيل المعنى لا علم لنا إلى جنب علمك، أو لا علم لنا بما أحدثوا بعدنا وإنما الحكم للخاتمة. وقرىء علامَ بالنصب على أن الكلام قد تم بقوله: إنك أنت، أي إنك أنت الموصوف بصفاتك المعروفة وعلاَّمَ منصوبٌ على الاختصاص أو النداء، وقرأ أبو بكر وحمزة الغِيُوب بكسر الغين حيث وقع.

(١١٠) ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ بدل من يومَ يجمع وهو على طريقة

وأبو الشيخ، وابن مردويه، وأبو نعيم في المعرفة.

● وأخرجه البخاري (٤٠٩/٥ رقم ٢٧٨٠) وأبو داود (٣٠/٤ رقم ٣٦٠٦) والترمذي (٢٥٩/٥ رقم ٣٠٦٠) مختصراً من حديث ابن عباس.

وقال ابن كثير في تفسيره (١١٧/٢): «وقد ذكر هذه القصة مرسلة غير واحد من التابعين منهم عكرمة، ومحمد بن سيرين، وقتادة، وذكروا أن التحليف كان بعد صلاة العصر، رواه ابن جرير، وكذا ذكرها مرسلة مجاهد والحسن والضحاك، وهذا يدل على اشتهارها في السلف وصحتها» هـ.

والخلاصة أن الحديث حسن نظراً لما تقدم والله أعلم.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾[١] والمعنى أنه سبحانه وتعالى يوبخ الكفرة يومئذ بسؤال الرسل عن إجابتهم وتعديدِ ما أَظْهَر عليهم من الآيات فكذبتْهم طائفة وسموْهم سحرة وغلا آخرون فاتخذوهم آلهةً. أو نصبٌ بإضمار اذكر[٢]. ﴿إِذۡ أَيَّدتُّكَ﴾ قويتك وهو ظرف لنعمتي، أو حال منه. وقرىء آيدتُك. ﴿بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾ بجبريل عليه الصلاة والسلام، أو بالكلام الذي يحيا به الدينُ أو النفسُ حياةً أبدية ويَطْهر من الآثام ويؤيده قوله: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا﴾ أي كائناً في المهد وكهلاً، والمعنى تكلمهم في الطفولة والكهولة على سواء، والمعنى إلحاقُ حاله في الطفولية بحال الكهولية في كمال العقل والتكلم، وبه استُدل على أنه سينزل فإنه رفع قبل أن يَكْتهل. ﴿وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ﴾ سبق تفسيره في سورة آل عمران. وقرأ نافع ويعقوب طائراً، ويحتمل الإفراد والجمع كالباقر. ﴿وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ﴾ يعني اليهود حين همّوا بقتله. ﴿إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ ظرف لكففت. ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ أي ما هذا الذي جئت به إلا سحر مبين[٣]. وقرأ حمزة والكسائي إلا ساحر، فالإشارة إلى عيسىٰ عليه الصلاة والسلام.

وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذۡ قَالَ
ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن
كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾

(١١١) ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾ أي أمرتهم على ألسنة رسلي. ﴿أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي﴾ يجوز أن تكون أن مصدرية، وأن تكون مفسرة. ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾ مخلصون.

(١١٢) ﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ منصوب باذكر، أو ظرف لقالوا فيكونُ تنبيهاً على أن ادعاءهم الإخلاص مع قولهم. ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لم يكن بَعدُ عن تحقيق واستحكام معرفة. وقيل هذه الاستطاعة على ما تقتضيه الحكمة والإرادة لا على ما تقتضيه القدرة. وقيل المعنى هل يطيع ربكَ أي هل يجيبك، واستطاع بمعنى أطاع كاستجاب وأجاب. وقرأ الكسائي تَسْتطيعُ ربَّكَ أي سؤالَ ربك، والمعنى هل تسأله ذلك من غير صارف. والمائدة الخوان إذا كان عليه الطعام، من مَاد الماءُ يَميد إذا تحرك، أو من مادَهُ إذا أعطاه كأنها تُميد من تقدم إليه، ونظيرُها قولهم شجرة مُطْعِمة. ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ من أمثال هذا السؤال. ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ بكمال قدرته وصحة نبوتي، أو صدقتم في ادعائكم الإيمان.

---

(١) الآية في الأعراف «٤٤». وقوله: (على طريقة...) أي أن أصحاب الجنة إنما قالوا ذلك شماتة بأصحاب النار وتحسيراً لهم.

(٢) وقد خص عيسىٰ عليه السلام بالذكر لأن شأنه متعلق بكلا الفريقين من أهل الكتاب. وصيغة الماضي في قوله «إذ قال» للدلالة على تحقق الوقوع. (س٣/ ٩٤).

(٣) وقوله «الذين كفروا» حيث وضع الموصول موضع الضمير لذمهم بما في حيز الصلة (س٣/ ٩٥).

قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ
عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا
وَأَنتَ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا
مِّنَ الْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ
سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي
نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾

(١١٣) ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ تمهيد عُذْرٍ وبيان لِمَا دعاهم إلى السؤال وهو أن يتمتعوا بالأكل منها. ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ بانضمام عِلْم المشاهدة إلى تعلم الاستدلال بكمال قدرته سبحانه وتعالىٰ. ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ في ادعاء النبوة، أو أن الله يجيب دعوتنا. ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّٰهِدِينَ﴾ إذا استشهدتنا، أو من الشاهدين للعين دون السامعين للخبر.

(١١٤) ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ لمّا رأى أن لهم غرضاً صحيحاً في ذلك، أو أنهم لا يقلعون عنه فأراد إلزامَهم الحجة بكمالها. ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ أي يكون يومُ نزولها عيداً نعظمه[١]. وقيل العيد السرور العائد ولذلك سمي يوم العيد عيداً. وقرىء تَكُنْ على جواب الأمر. ﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ بدل من لنا بإعادة العامل أي عيداً لمتقدمينا ومتأخرينا. روي: أنها نزلت يوم الأحد فلذلك اتخذه النصارى عيداً. وقيل يأكل منها أولنا وآخرنا. وقرىء لأُولانا وأُخرانا بمعنى الأمة أو الطائفة. ﴿وَءَايَةً﴾ عطف على عيد. ﴿مِّنكَ﴾ صفة لها أي آية كائنة منك دالة على كمال قدرتك وصحة نبوتي. ﴿وَارْزُقْنَا﴾ المائدة والشكر عليها. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ﴾ أي خير من يرزق، لأنه خالق الرزق ومعطيه بلا عوض.

(١١٥) ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ إجابة إلى سؤالكم. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم مُنَزِّلها بالتشديد[٢]. ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا﴾ أي تعذيباً، ويجوز أن يجعل مفعولاً به على السعة. ﴿لَّا أُعَذِّبُهُ﴾ الضمير للمصدر، أو للعذاب إن أريد ما يُعَذَّبُ به على حذف حرف الجر. ﴿أَحَدًا مِّنَ الْعَٰلَمِينَ﴾ أي من عالمي زمانهم، أو العالمين مطلقاً فإنهم مُسخوا قردة وخنازير ولم يعذَّبْ بمثل ذلك غيرُهم. روي[٣]: أنها نزلت سفرةٌ حمراء بين غَمامتين وهم ينظرون إليها حتى سقطت بين أيديهم،

---

(١) قوله: «اللهم ربنا» ناداه مرتين مرة بوصف الألوهية الجامعة لجميع الكمالات ومرة بوصف الربوبية المنبئة عن التربية وذلك إظهاراً لغاية التضرع ومبالغة في الاستدعاء (س٣/ ٩٨).

(٢) كأن الأصل عند البيضاوي قراءة التخفيف «مُنزِلُها» وقد قرأ بها الأكثرون.

(٣) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» رقم (١٠١٣) عن سلمان مطولاً. وأخرجه ابن أبي حاتم. كما في تفسير ابن كثير (٢/ ١٢١ ـ ١٢٣) من نفس طريق أبي الشيخ، وقال «هذا أثر غريب جداً...» وقال القرطبي في تفسيره (٦/ ٣٧٢) «في هذا الحديث مقال ولا يصح من قبل إسناده».
وأورده السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٢٣٢) وعزاه إلى الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن أبي حاتم =

فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام وقال: اللهم اجعلني من الشاكرين اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مُثْلَةً وعقوبة، ثم قام فتوضأ وصلى وبكى، ثم كشف المنديل وقال: بسم الله خيرِ الرازقين، فإذا سمكةٌ مشوية بلا فلوس ولا شوك تسيل دسماً وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل وحولها من ألوان البقول ما خلا الكراث، وإذا خمسةُ أرغفةٍ على واحد منها زيتون وعلى الثاني عسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد، فقال شمعون: يا روح الله أمِنْ طعام الدنيا أم من طعام الآخرة؟ قال: ليس منهما ولكن اخترَعه الله سبحانه وتعالى بقدرته كلوا ما سألتم واشكروا يمددكم الله ويزدكم من فضله، فقالوا: يا روح الله لو أريتنا مِنْ هذه الآية آيةً أخرى، فقال: يا سمكةُ احيي بإذن الله تعالى فاضطربت ثم قال لها عودي كما كنتِ فعادت مشوية ثم طارت المائدة، ثم عصوْا بعدها فمسخوا. وقيل كانت تأتيهم أربعين يوماً غباً يجتمع عليها الفقراء والأغنياء والصغار والكبار يأكلون، حتى إذا فاء الفيءُ طارت وهم ينظرون في ظلها، ولم يأكل منها فقير إلا غني مدة عمره ولا مريض إلا برىء ولم يمرض أبداً، ثم أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام أن اجعل مائدتي في الفقراء والمرضى دون الأغنياء والأصحاء، فاضطرب الناس لذلك فمُسِخ منهم ثلاثة وثمانون رجلاً. وقيل لما وعد الله إنزالها بهذه الشريطة استعفَوْا وقالوا: لا نريد فلَمْ تَنْزِل. وعن مجاهد أن هذا مَثَلٌ ضربه الله لمقترحي المعجزات. وعن الصوفية: المائدة ههنا عبارة عن حقائق المعارف فإنها غذاء الروح كما أن الأطعمة غذاء البدن، وعلى هذا فلعل الحال أنهم رغبوا في حقائق لم يستعدوا للوقوف عليها، فقال لهم عيسى عليه الصلاة والسلام: إن حصلتم الإيمان فاستعملوا التقوى حتى تتمكنوا من الاطلاع عليها، فلم يقلعوا عن السؤال وألحوا فيه فسألَ لأجل اقتراحهم، فبين الله سبحانه وتعالى أن إنزاله سهل ولكن فيه خطر وخوف عاقبة، فإن السالك إذا انكشف له ما هو أعلى من مقامه لعله لا يحتمله ولا يستقر له فيضل به ضلالاً بعيداً.

(١١٦) ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يريد به توبيخ الكفرة وتبكيتهم. ومن دون الله صفة لإلهين، أو صلة اتخذوني. ومعنى «دون» إما المغايرة فيكون فيه تنبيه على أن عبادة الله سبحانه وتعالى مع عبادة غيره كلا عبادة فمن عبده مع عبادتهما كأنه عبدهما ولم يعبده، أو للقصور فإنهم لم يعتقدوا أنهما مستقلان باستحقاق العبادة وإنما زعموا أن عبادتهما توصل إلى عبادة الله سبحانه وتعالى، وكأنه قيل: اتخذوني وأمي إلهين متوصلين بنا إلى الله سبحانه وتعالى. ﴿قَالَ سُبْحَـٰنَكَ﴾ أنزهك تنزيهاً من أن يكون لك شريك. ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ ما ينبغي لي أن أقول قولاً لا يحق لي أن أقوله. ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ تعلم ما أخفيه في نفسي كما تعلم ما أعلنه، ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك. وقوله في نفسك للمشاكلة، وقيل المراد بالنفس الذات. ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ تقرير للجملتين باعتبار منطوقه ومفهومه.

= وأبو الشيخ في العظمة، وأبو بكر الشافعي في فوائده المعروفة بالغيلانيات. =

مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾

(١١٧) ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾ تصريح بنفي المستفهم عنه بعد تقديم ما يدل عليه. ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ عطف بيان للضمير في به، أو بدل منه وليس من شرط البدل جواز طرح المبدل منه مطلقاً ليلزم بقاء الموصول بلا راجع، أو خبر مضمر أو مفعوله مثل هو أو أعني، ولا يجوز إبداله مِنْ ما أمرتني به فإن المصدر لا يكون مفعول القول، ولا أن تكون أَنْ مفسرة لأن الأمر مسند إلى الله سبحانه وتعالى، وهو لا يقول اعبدوا الله ربي وربكم والقول لا يفسر بل الجملة تحكي بعده إلا أن يؤول القول بالأمر فكأن قيل: ما أمرتهم إلا بما أمرتني به أن اعبدوا الله. ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي رقيباً عليهم أمنعهم أن يقولوا ذلك ويعتقدوه، أو مشاهِداً لأحوالهم من كفر وإيمان. ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ بالرفع إلى السماء لقوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾[1] والتوفي أخذ الشيء وافياً، والموت نوع منه قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾[2]. ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ المراقب لأحوالهم فتمنع من أردت عصمته من القول به بالإرشاد إلى الدلائل والتنبيه عليها بإرسال الرسل وإنزال الآيات. ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ مطلع عليه مراقب له.

(١١٨) ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ أي إن تعذبهم فإنك تعذب عبادك ولا اعتراض على المالك المطلق فيما يفعل بملكه، وفيه تنبيه على أنهم استحقوا ذلك لأنهم عبادك وقد عَبدوا غيرك. ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فلا عجز ولا استقباح فإنك القادر القوي على الثواب والعقاب، الذي لا يثيب ولا يعاقب إلا عن حكمة وصواب فإن المغفرة مستحسنة لكل مجرم، فإن عذبتَ فعَدْل وإن غفرتَ ففضل. وعدم غفران الشرك بمقتضى الوعيد فلا امتناع فيه لذاته ليمنع الترديد والتعليق بأن.

(١١٩) ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ وقرأ نافع يومَ بالنصب على أنه ظرف لقال وخبر هذا محذوف، أو ظرف مستقر وقع خبراً والمعنى هذا الذي مر من كلام عيسى واقع يوم ينفع. وقيل إنه خبر ولكن بني على الفتح بإضافته إلى الفعل وليس بصحيح، لأن المضاف إليه معرَب. والمراد بالصدق الصدق في الدنيا فإن النافع ما كان حال التكليف. ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ بيان للنفع.

(١٢٠) ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ تنبيه على كذب النصارى وفساد دعواهم في المسيح وأمه، وإنما لم يقل ومَنْ فيهن تغليباً للعقلاء وقال وما فيهن اتباعاً لهم غير أولي العقل

(١) آل عمران: «٥٥».
(٢) الزمر: «٤٢».

إعلاماً بأنهم في غاية القصور عن معنى الربوبية والنزول عن رتبة العبودية وإهانة لهم وتنبيهاً على المجانسة المنافية للألوهية، ولأن ما يطلق متناولاً للأجناس كلها فهو أولىٰ بإرادة العموم. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة المائدة أعطي من الأجر عشر حسنات ومحي عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات بعدد كل يهودي ونصراني يتنفس في الدنيا»[١].

☆ ☆ ☆

---

(١) هذا الحديث موضوع. انظر الموضوعات لابن الجوزي (١/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠) أبواب تتعلق بالقرآن ـ باب فضائل القرآن ـ.
وانظر تخريجه مفصلاً في الكافي الشاف ص٣٧ و٦٠ رقم (٣١١ و٤٨٤).

سُورَةُ الأَنْعَامِ

ترتيبها ٦　　آياتها ١٦٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ
يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ
ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ
مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾

(١) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ خبر بأنه سبحانه وتعالى حقيق بالحمد، ونبه على أنه المستحق له على هذه النعم الجسام حُمِد أو لم يُحمد، ليكون حجة على الذين هم بربهم يعدلون. وجَمْعُ السموات دون الأرض وهي مثلهن لأن طبقاتها مختلفة بالذات متفاوتة الآثار والحركات، وقدّمها لشرفها وعلو مكانها وتقدم وجودها. ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ أنشأهما. والفرقُ بين خَلَقَ وجَعَلَ الذي له مفعول واحد: أن الخلق فيه معنى التقدير والجعْلَ فيه معنى التضمن، ولذلك عبر عن إحداث النور والظلمة بالجعل تنبيهاً على أنهما لا يقومان بأنفسهما كما زعمت الثَّنَوية. وجَمْعُ الظلمات لكثرة أسبابها والأجرامِ الحاملة لها، أو لأن المراد بالظلمة الضلال وبالنور الهدى، والهدىٰ واحد والضلال متعدد، وتقديمها لتقدم الإعدام على الملكات. ومن زعم أن الظلمة عَرَضٌ يضاد النور احتج بهذه الآية، ولم يعلم أن عدم الملكة ـ كالعَمَىٰ ـ ليس صرفَ العدم حتى لا يتعلقَ به الجعل. ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ عطفٌ على قوله: «الحمد لله» علىٰ معنىٰ: أن الله سبحانه وتعالى حقيق بالحمد على ما خلقه نعمة على العباد. ثم الذين كفروا به يعْدِلون فيكفرون نعمته، ويكون بربهم تنبيهاً على أنه خلق هذه الأشياء أسباباً لتكوُّنهم وتعيشهم، فمِن حقه أن يُحمد عليها ولا يكفَر، أو على قوله «خَلَق» على معنى أنه سبحانه وتعالى خلق ما لا يقدر عليه أحد سواه ثم هم يعدلون به ما لا يقدر على شيء منه. ومعنى «ثم»: استبعاد عدولهم بعد هذا البيان. والباء على الأول متعلقة بكفروا، وصلةُ يعدلون محذوفةٌ أي يعدلون عنه ليقع الإنكار على نفس الفعل، وعلى الثاني متعلقة بيعدلون، والمعنى: أن

الكفار يعدلون بربهم الأوثان أي يسوُّونها به سبحانه وتعالى(١).

(٢) ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ أي ابتدأ خَلْقكم منه، فإنه المادة الأولى وأن آدم الذي هو أصل البشر خلق منه، أو خلق أباكم فحُذِف المضاف. ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ أجل الموت. ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ أجل القيامة. وقيل الأول ما بين الخلق والموت والثاني ما بين الموت والبعث، فإن الأجل كما يطلق لآخر المدة يطلق لجملتها. وقيل الأول النوم والثاني الموت. وقيل الأول لمن مضى والثاني لمن بقي ولمن يأتي. وأجل نكرة خُصِّصت بالصفة ولذلك استغني عن تقديم الخبر، والاستئنافُ به لتعظيمه ولذلك نُكِّر ووصِف بأنه مسمّى أي مثبت معيّن لا يقبل التغيير، وأُخبِر عنه بأنه عند الله لا مَدْخَلَ لغيره فيه بعلم ولا قدرة ولأنه المقصودُ بيانه. ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ استبعاد لامترائهم بعد ما ثبت أنه خالقهم وخالق أصولهم ومحييهم إلى آجالهم، فإن من قَدِر على خلق المواد وجمعها وإيداع الحياة فيها وإبقائها ما يشاء كان أقدر على جمع تلك المواد وإحيائها ثانياً، فالآية الأولى دليل التوحيد والثانية دليل البعث. والامتراء الشك، وأصله المَرْي وهو استخراج اللبن من الضرع(٢).

(٣) ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ الضمير لله سبحانه وتعالى واللهُ خبره. ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق باسم الله، والمعنى: هو المستحق للعبادة فيهما لا غير، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ﴾(٣) أو بقوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ والجملة خبر ثان، أو هي الخبر والله بدل، ويكفي لصحة الظرفية كونُ المعلوم فيهما كقولك رميت الصيد في الحرم إذا كنت خارجَه والصيد فيه، أو ظرف مستقر وقع خبراً، بمعنى أنه سبحانه وتعالى لكمال علمه بما فيهما كأنه فيهما، ويعلم سركم وجهركم بيان وتقرير له، وليس متعلقاً بالمصدر لأن صفته لا تتقدم عليه. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ من خير أو شر فيثيب عليه ويعاقب، ولعله أريد بالسر والجهر ما يَخفى وما يظهر من أحوال الأنفس وبالمكتسب أعمال الجوارح.

(٤) ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ مِنْ الأولى مزيدة للاستغراق والثانية للتبعيض، أي: ما يظهر لهم دليل قط من الأدلة أو معجزة من المعجزات أو آية من آيات القرآن. ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ تاركين للنظر فيه غير ملتفتين إليه(٤).

---

(١) قوله «خلق السموات والأرض» خصهما بالذكر لاشتمالهما على مجمل النعم.
وقوله «ثم الذين كفروا بربهم يعدلون» وضع الرب موضع ضميره تعالى لزيادة التشنيع عليهم، وتقديم «بربهم» لمزيد الاهتمام والمسارعة إلى تحقيق مدار الإنكار. وترْك المفعول لظهوره أو لتوجيه الإنكار إلى نفس الفعل بتنزيله منزلة اللازم إيذاناً بأنه المدار في الاستبعاد والاستنكار لا خصوصية المفعول (س٣/ ١٠٥).

(٢) قوله تعالى «خلقكم...» خصص خلقهم بالذكر لأن محل النزاع هو بعثهم ودلالة بدء خلقهم على ذلك أظهر وهم بشؤون أنفسهم أعرف..
والالتفات إلى الخطاب لمزيد التشنيع والتوبيخ.
وقوله «ثم قضى أجلاً» فأورد كلمة «ثم» للإيذان بتفاوت ما بين خلقهم وبين تقدير آجالهم حسبما تقتضيه الحكمة البالغة. (س٣/ ١٠٦).

(٣) الزخرف: «٨٤».

(٤) والالتفات إلى الغيبة للإشعار بأن ذكر قبائحهم قد اقتضى أن يضرب عنهم الخطاب صفحاً. وصيغة المضارع =

(٥) ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ يعني القرآن وهو كاللازم مما قبله كأنه قيل: إنهم لما كانوا معرضين عن الآيات كلها كذبوا به لما جاءهم، أو كدليل عليه على معنى أنهم لما أعرضوا عن القرآن وكذبوا به وهو أعظم الآيات فكيف لا يعرضون عن غيره، ولذلك رتب عليه بالفاء. ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي سيظهر لهم ما كانوا به يستهزئون عند نزول العذاب بهم في الدنيا والآخرة، أو عند ظهور الإسلام وارتفاع أمره[1].

أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾

(٦) ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ أي من أهلِ زمان. والقرن مدة أغلب أعمار الناس وهي سبعون سنة، وقيل ثمانون، وقيل القرن أهل عصر فيه نبي أو فائقٌ في العلم، قلت: المدة وإن كثرت واشتقاقه من قرنت. ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ جعلنا لهم فيها مكاناً وقرَّرناهم فيها وأعطيناهم من القُوىٰ والآلات ما تمكنوا بها من أنواع التصرف فيها. ﴿مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ ما لم نجعل لكم من السعة وطول المقام يا أهل مكة، أو ما لم نعطكم من القوة والسعة في المال والاستظهار في العدد والأسباب. ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم﴾ أي المطر، أو السحاب، أو المظلة فإن مبدأ المطر منها. ﴿مِّدْرَارًا﴾ أي مغزاراً. ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾ فعاشوا في الخصب والريف بين الأنهار والثمار. ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي لم يغن ذلك عنهم شيئاً. ﴿وَأَنشَأْنَا﴾ وأحدثنا. ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ بدلاً منهم، والمعنىٰ أنه سبحانه وتعالى كما قدر على أن يهلك مَنْ قبلكم كعاد وثمود وينشىء مكانهم آخرين يعمر بهم بلاده يَقْدِر أن يفعل ذلك بكم.

(٧) ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾ مكتوباً في ورق. ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ فمسوه، وتخصيص اللمس لأن التزوير لا يقع فيه فلا يمكنهم أن يقولوا إنما سكرت أبصارنا، ولأنه يتقدمه الإبصار حيث لا مانع، وتقييده بالأيدي لدفعِ التجوز فإنه قد يُتجوز به للفحص كقوله ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾[2] ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ

= «تأتيهم» لحكاية الحال الماضية أو للدلالة على الاستمرار التجددي. وإضافة الآيات إلى اسم الرب المضاف إلى ضميرهم لتفخيم شأنها المستتبع لتهويل ما اجترؤوا عليه (س٣/١٠٩).

(١) قوله «.. أنباء..» أورده بلفظ الإنباء للإيذان بعظم شأنه لأن النبأ لا يطلق إلا على الخبر العظيم الوقع (س٣/ ١١٠).

(٢) الجن: «٨».

﴿هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ تعنتاً وعناداً.

(٨) ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾ هلاّ أنزل معه ملك يكلمنا أنه نبي كقوله: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾[١]. ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ جواب لقولهم وبيان هو المانع مما اقترحوه والخلل فيه، والمعنى أن المَلَك لو أنزل بحيث عاينوه كما اقترحوا لحق إهلاكهم فإن سنة الله قد جرت بذلك فيمن قبلهم. ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ بعد نزوله طرفة عين[٢].

(٩) ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾ جواب ثان إن جُعل الهاء للمطلوب، وإن جُعل للرسول فهو جواب اقتراح ثان، فإنهم تارة يقولون لولا أنزل عليه ملك وتارة يقولون لو شاء ربُّنا لأنزل ملائكة، والمعنى ولو جعلنا قريناً لك مَلَكاً يعاينونه أو الرسولَ مَلَكاً لمثَّلْناه رجلاً كما مُثِّل جبريل في صورة دحية الكلبي، فإن القوة البشرية لا تقوى على رؤية الملك في صورته، وإنما رآهم كذلك الأفرادُ من الأنبياءعليهم الصلاة والسلام بقوتهم القُدُسية. ولَلَبسنا جواب محذوف أي ولو جعلناه رجلاً للبسنا أي: لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم فيقولون ما هذا إلا بشر مثلكم. وقرىء لبسنا بلام واحد ولبَّسنا بالتشديد للمبالغة[٣].

(١٠) ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ عما يرى من قومه. ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ فأحاط بهم الذين كانوا يستهزئون به حيث أُهلكوا لأجله، أو فنزل بهم وَبَال استهزائهم[٤].

قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٤﴾

(١١) ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ كيف أهلكهم الله بعذاب الاستئصال كي تعتبروا، والفرق بينه وبين قوله ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ﴾[٥] أي السير ثَمَّة لأجل النظر

---

(١) الفرقان: «٧».

(٢) بناء الفعل الأول في الجواب للفاعل ـ أي قوله «أنزلنا» ـ مع أنه في السؤال مبنياً للمفعول لتهويل الأمر وتربية المهابة، وبناء الثاني للمفعول ـ أي «قُضي» ـ للجري على سنن الكبرياء.
وكلمة «ثم» في قوله «ثم لا ينظرون» للتنبيه على تفاوت ما بين قضاء الأمر وعدم الإنظار (س٣/ ١١٣).

(٣) قوله «لجعلناه رجلاً» إيثار كلمة «رجلاً» على بشراً للإيذان بأن الجعل بطريق التمثيل لا بطريق قلب الحقيقة (س٣/ ١١٣).

(٤) قدم المفعول «الذين سخروا» على الفاعل للمسارعة إلى بيان لحوق الشرّ بهم (س٣/ ١١٤).

(٥) النمل: «٦٩».

ولا كذلك ههنا، ولذلك قيل معناه إباحةُ السير للتجارة وغيرها وإيجابُ النظر في آثار الهالكين.

(١٢) ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً، وهو سؤال تبكيت. ﴿قُل لِّلَّهِ﴾ تقريراً لهم وتنبيهاً على أنه المتعين للجواب بالإنفاق، بحيث لا يُمكنهم أن يذكروا غيره. ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ التزمها تفضلاً وإحساناً. والمراد بالرحمة ما يعم الدارين، ومن ذلك الهدايةُ إلى معرفته والعلمُ بتوحيده بنصب الأدلة وإنزالُ الكتب والإمهالُ على الكفر. ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ استئناف وَقَسَم للوعيد على إشراكهم وإغفالهم النظر أي: ليجمعنكم في القبور مبعوثين إلى يوم القيامة فيجازيكم على شرككم، أو في يوم القيامة، وإلى بمعنى في. وقيل بدلٌ من الرحمة بدلَ البعض فإن من رحمته بعثهُ إياكم وإنعامُه عليكم. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في اليوم أو الجمع. ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بتضييع رأس مالهم، وهو الفطرةُ الأصلية والعقل السليم. وموضعُ «الذين» نصب على الذم، أو رفع على الخبر أي: وأنتم الذين، أو على الابتداءِ والخبرُ: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ والفاء للدلالة على أن عدم إيمانهم مسبَّب عن خسرانهم، فإن إبطال العقل باتباع الحواس والوهم والانهماك في التقليد وإغفال النظر أدىٰ بهم إلى الإصرار على الكفر والامتناع من الإيمانِ.

(١٣) ﴿وَلَهُ﴾ عطف على لله. ﴿مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ من السُّكنىٰ، وتَعْديتُه بفي. كما في قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾[١] والمعنىٰ ما اشتملا عليه، أو من السكون أي ما سكن فيهما وتحرك فاكْتُفِي بأحد الضدين عن الآخر. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لكل مسموع. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكل معلوم فلا يخفىٰ عليه شيء، ويجوز أن يكون وعيداً للمشركين على أقوالهم وأفعالهم.

(١٤) ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ إنكارٌ لاتخاذ غير الله ولياً لا لاتخاذ الولي، فلذلك قُدِّم وأُولي الهمزة، والمراد بالولي المعبود لأنه رد لمن دعاه إلى الشرك. ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مبدعهما، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ما عرفت معنى الفاطر حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فَطَرْتُها أي ابتدأتُها[٢]. وجرُّه على الصفة لله، فإنه بمعنى الماضي، ولذلك قرىء فَطَر. وقرىء بالرفع والنصب على المدح. ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ يرزق ولا يُرزق، وتخصيص الطعام لشدة الحاجة إليه. وقرىء ولا يَطْعَم بفتح الياء وبعكس الأول على أن الضمير لغير الله، والمعنى كيف أُشْرك بمَنْ هو فاطرُ السموات والأرض ما هو نازلٌ عن رتبة الحيوانية وببنائهما للفاعل على أن الثاني من أولهم بمعنى استطعم أو على معنى أنه يُطعِم تارة ولا يُطعِم أخرىٰ كقوله: ﴿يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾[٣]. ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ لأن النبي ﷺ سابقُ أمته في الدين. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وقيل لي ولا تكونن، ويجوز عطفه علىٰ قلْ.

---

(١) إبراهيم: «٤٥».

(٢) أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث (٤/ ٣٧٣) وفي فضائل القرآن، بإسناد حسن ليس فيه إلاّ (إبراهيم بن مهاجر) ـ كما في (الكافي الشاف) (ص٦١ رقم٣) ـ قلت: إبراهيم بن مهاجر: صدوق لين الحفظ من الخامسة من رجال مسلم.
[التقريب: (١/ ٤٤ رقم ٢٨٤) ورجال صحيح مسلم (١/ ٤٦ رقم ٤٦)].

(٣) البقرة: «٢٤٥».

قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾

(١٥) ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ مبالغةٌ أخرى في قطع أطماعهم، وتعريض لهم بأنهم عصاة مستوجبون للعذاب، والشرط معترِض بين الفعل والمفعول به وجوابه محذوف دل عليه الجملة.

(١٦) ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يُصرف العذابُ عنه. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وأبو بكر عن عاصم يَصْرِفْ عَلى أن الضمير فيه لله سبحانه وتعالى، وقد قرئ بإظهاره. والمفعول به محذوف، أو يومئذ بحذف المضاف. ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ نجاه وأنعم عليه. ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي الصرف أو الرحمة.

(١٧) ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ ببلية كمرض وفقر. ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾ فلا قادر على كشفه. ﴿إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ بنعمة كصحة وغنىً. ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فكان قادراً على حفظه وإدامته فلا يقدر غيره على دفعه كقوله تعالى: ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾[1].

(١٨) ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ تصوير لقهره وعلوه بالغلبة والقدرة. ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في أمره وتدبيره. ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بالعباد وخفايا أحوالهم.

(١٩) ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ نزلت حين قالت قريش: يا محمد لقد سألنا عنك اليهود والنصارى، فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة فأرنا مَنْ يشهد لك أنك رسول الله[2]. والشيء يقع على كل موجود، وقد سبق القول فيه في سورة البقرة. ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أي اللهُ أكبر شهادة، ثم ابتدأ ﴿شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي هو شهيد بيني وبينكم، ويجوز أن يكون الله شهيد هو الجواب لأنه سبحانه وتعالى إذا كان الشهيد كان أكبر شيء شهادة. ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ أي بالقرآن، واكتُفي بذكر الإنذار عن ذكر البشارة. ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ عطف على ضمير المخاطبين، أي لأنذركم به يا أهل مكة وسائر من بلغه من الأسود والأحمر، أو من الثقلين، أو لأنذركم به أيها الموجودون ومن بلغه إلى يوم القيامة، وفيه دليل على أن أحكام القرآن تعم الموجودين وقت نزوله ومَنْ بعدهم، وأنه لا يؤاخذ بها من لم تبلغه. ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾ تقرير لهم مع إنكار واستبعاد. ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾ بما تشهدون. ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي بل أشهد أن لا إله إلا هو. ﴿وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ يعني الأصنام.

---

(١) يونس: «١٠٧».

(٢) أورده الواحدي في أسباب النزول ص٢١٤ عن الكلبي بدون سند.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ
ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ
شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ
كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

(٢٠) ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ﴾ يعرفون رسول الله ﷺ بحِلْيته المذكورة في التوراة والإنجيل[١]. ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ بحُلاهم. ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ من أهل الكتاب والمشركين. ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لتضييعهم ما به يكتسب الإيمان.

(٢١) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ كقولهم: الملائكة بنات الله، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ كأن كذبوا بالقرآن والمعجزات وسموْها سحراً. وإنما ذكر «أو» وهم قد جمعوا بين الأمرين تنبيهاً على أن كلاً منهما وحده بالغ غاية الإفراط في الظلم على النفس. ﴿إِنَّهُۥ﴾ الضمير للشأن[٢]. ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فضلاً عمن لا أحد أظلم منه.

(٢٢) ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ منصوب بمضمر تهويلاً للأمر. ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾ أي آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله. وقرأ يعقوب يَحشرهم ويَقُول بالياء. ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي تزعمونهم شركاء، فحذف المفعولان، والمراد من الاستفهام التوبيخ، ولعله يحال بينهم وبين آلهتهم حينئذ ليفقدوها في الساعة التي علقوا بها الرجاء فيها، ويحتمل أن يشاهدوهم ولكن لمّا لم ينفعوهم فكأنهم غيب عنهم.

(٢٣) ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ أي كفرهم، والمراد عاقبته، وقيل معذرتهم التي يتوهمون أن يتخلصوا بها، مِنْ فتنْتُ الذهب إذا خلصته، وقيل جوابهم وإنما سماه فتنة لأنه كذب أو لأنهم قصدوا به الخلاص. وقرأ ابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم لم تكن بالتاء وفتنتُهم بالرفع على أنها الاسم، ونافع وأبو عمرو وأبو بكر عنه بالتاء والنصبِ على أن الاسم أنْ قالوا، والتأنيثُ للخبر كقولهم من كانت أمك، والباقون بالياء والنصب. ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ يكذبون ويحلفون عليه مع علمهم بأنه لا ينفعهم من فَرْط الحيرة والدهشة، كما يقولون: «ربنا أخرجنا منها» وقد أيقنوا بالخلود. وقيل معناه ما كنا مشركين عند أنفسنا وهو لا يوافق قوله:

(٢٤) ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي بنفي الشرك عنها، وحملُه على كذبهم في الدنيا تعسف يخلّ بالنظم، ونظير ذلك قوله ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾[٣]. وقرأ حمزة والكسائي ربنا بالنصب على النداء أو المدح. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ من الشركاء[٤].

---

(١) وإيرادهم بعنوان إيتاء الكتاب للإيذان بمدار ما أسند إليهم (س٣/١١٨).

(٢) ومدار وضع ضمير الشأن موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره. وفائدة تصدير الجملة به الإيذانُ بفخامة مضمونها مع ما فيه من زيادة تقريره في الذهن، فإن الضمير لا يفهم منه من أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقباً لما يعقبه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن، فكأنه قيل: إن الشأن الخطير هذا هو. (س٣/١١٩).

(٣) المجادلة: «١٨».

(٤) وإيقاع الافتراء عليها مع أنه في الحقيقة واقع على أحوالها من الإلهية والشركة والشفاعة ونحوها للمبالغة في=

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾

(٢٥) ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾[١] حين تتلو القرآن، والمراد أبو سفيان والوليد والنضر وعتبة وشيبة وأبو جهل وأضرابُهم، اجتمعوا فسمعوا رسول الله ﷺ يقرأ القرآن فقالوا للنضر: ما يقول؟ فقال: والذي جعلها بيتَه ما أدري ما يقول إلا أنه يحرك لسانه ويقول أساطيرَ الأولين مثل ما حدثتكم عن القرون الماضية، فقال أبو سفيان إني لأرى حقاً، فقال أبو جهل كلاّ. ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية، جمع كِنَان، وهو ما يستر الشيء. ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ كراهة أن يفقهوه. ﴿وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ يمنع من استماعه، وقد مر تحقيق ذلك في أول البقرة[٢]. ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ لفرط عنادهم واستحكام التقليد فيهم. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ أي بلغ تكذيبهم الآيات إلى أنهم جاؤوك يجادلونك. وحتى هي التي تقع بعدها الجمل، لا عمل لها، والجملةُ إذا وجوابه وهو: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ فإنَّ جَعْل أصدق الحديث خرافات الأولين غاية التكذيب، ويجادلونك حالٌ لمجيئهم، يجوز أن تكون الجارّةُ وإذا جاؤوك في موضع الجرّ ويجادلونك حال ويقول تفسير له. والأساطيرُ الأباطيلُ جمع أسطورة أو إسطارة أو أسطار جمع سطر، وأصله السّطْر بمعنى الخط[٣].

(٢٦) ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أي ينهون الناس عن القرآن، أو الرسول ﷺ والإيمان به. ﴿وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ بأنفسهم، أو ينهون عن التعرض لرسول الله ﷺ وينأون عنه فلا يؤمنون به كأبي طالب[٤]. ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ﴾ وما يهلكون بذلك. ﴿إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أنّ ضرره لا يتعداهم إلى غيرهم.

(٢٧) ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ جوابه محذوف أي: لو تراهم حين يوقَفُون على النار حتى يعاينوها أو يطلعون عليها أو يدخلونها فيعرفون مقدار عذابها لرأيتَ أمراً شنيعاً. وقرىء وَقَفُوا على البناء للفاعل من وقف عليها وقوفاً. ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ تمنياً للرجوع إلى الدنيا. ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ استئنافٌ، كلامٌ منهم على وجه الإثبات كقولهم: دعني ولا أعود، أي وأنا لا أعود تركتَني أوَلَم تتركني، أو عطفٌ على نرد، أو حالٌ من الضمير فيه فيكون في حكم التمني، وقوله ﴿وَإِنَّهُمْ

أمرها كأنها نفس المفترى (س٣/ ١٢٠).

(١) وقد أورد قوله «مَنْ يستمع إليك» بالإفراد مراعاة للفظها، أما قوله: «ومنهم من يستمعون إليك» ـ يونس «٤٢» ـ فقد راعى فيها جانب المعنى (س٣/ ١٢١).

(٢) عند قوله «ختم الله على قلوبهم...» ـ البقرة «٧» ـ.

(٣) وقوله «الذين كفروا..» حيث وضع الموصول موضع ضميرهم ذماً لهم بما في حيز الصلة وإشعاراً بعلة الحكم (س٣/ ١٢١).

(٤) قوله «وينأون عنه» أي يتباعدون عنه إظهاراً لنفورهم عنه وتأكيداً لنهيهم عنه، ولذلك أخر النأي عن النهي، لأن اجتناب الناهي عن المنهي عنه من متممات النهي (س٣/ ١٢٢).

لَكَٰذِبُونَ﴾[1] راجع إلى ما تضمنه التمني من الوعد. ونصبهما حمزة ويعقوب وحفص على الجواب بإضمار أنْ بعد الواو إجراءً لها مجرى الفاء. وقرأ ابن عامر برفع الأول على العطف ونصب الثاني على الجواب.

بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾

(٢٨) ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ الإضرابُ عن إرادة الإيمان المفهومة من التمني، والمعنى أنه ظهر لهم ما كانوا يخفون من نفاقهم أو قبائح أعمالهم فتمنوْا ذلك ضجراً لا عزماً على أنهم لو رُدُّوا لآمنوا[2]. ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾ أي إلى الدنيا بعد الوقوف والظهور. ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ من الكفر والمعاصي. ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما وُعدوا به من أنفسهم.

(٢٩) ﴿وَقَالُوا﴾ عطفٌ على لعادوا أو على إنهم لكاذبون أو على نُهوا، أو استئنافٌ بذكر ما قالوه في الدنيا. ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ الضمير للحياة ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

(٣٠) ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ مجاز عن الحبس للسؤال والتوبيخ، وقيل معناه وُقِفوا على قضاء ربهم أو جزائه، أو عرفوه حق التعريف. ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾ كأنه جواب قائل قال: ماذا قال ربهم حينئذ؟ والهمزةُ للتقريع على التكذيب والإشارةِ إلى البعث وما يتبعه من الثواب والعقاب. ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ إقرار مؤكّد باليمين لانجلاء الأمر غاية الجلاء. ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بسبب كفركم أو ببدله.

(٣١) ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ إذ فاتهم النعم واستوجبوا العذاب المقيم. ولقاءُ الله البعثُ وما يتبعه[3]. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ﴾ غاية لكذبوا لا لخسر، لأن خسرانهم لا غايةَ له. ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة. ونصبُها على الحال، أو المصدر فإنها نوع من المجي. ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا﴾ أي تعالَيْ فهذا أوانُك. ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا﴾ قصّرنا ﴿فِيهَا﴾ في الحياة الدنيا، أُضمِرت وإن لم يَجْرِ ذِكرها للعلم بها، أو في الساعة، يعني في شأنها والإيمان بها. ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ تمثيل لاستحقاقهم آصار الآثام[4]. ﴿أَلَا سَاءَ مَا

---

(١) الأنعام: «٢٨».

(٢) قوله «ما كانوا يُخفون...» آثاره على إبراز صريح التكذيب كما في قوله تعالى: «هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون» ـ الرحمن: ٤٣ ـ وذلك لمراعاة ما في مقابلته من الإبداء (س٣/ ١٢٣).

(٣) قوله «الذين كفروا» وضع الموصول موضع الضمير للإيذان بتسبب خسرانهم بما في حيز الصلة من التكذيب بلقائه تعالى (س٣/ ١٢٥).

(٤) قوله: «وهم يحملون...» حال من فاعل قالوا، وفائدته الإيذان بأن عذابهم ليس مقصوراً على ما ذكر من =

يَزِرُونَ﴾ بئس شيئاً يَزِرُونه وِزْرُهم.

وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ
ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ
فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾
وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ
وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ
يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾

(٣٢) ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي وما أعمالها إلا لعب ولَهْوٌ يلهي الناس ويشغلهم عما يعقب منفعة دائمة ولذة حقيقية، وهو جواب لقولهم ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾[١]. ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ لِدوامها وخلوص منافعها ولذاتها. وقولُه ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ تنبيه على أنّ ما ليس من أعمال المتقين لعب ولهو. وقرأ ابن عامر ولَدارُ الآخرة. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أيَّ الأمرين خير[٢]. وقرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم ويعقوب بالتاء على خطاب المخاطبين به، أو تغليب الحاضرين على الغائبين.

(٣٣) ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ معنى «قد» زيادة الفعل وكثرتُه كما في قوله:

ولكِنَّهُ قَدْ يُهْلِكُ المَالَ نَائِلُهْ

والهاء في إنه للشأن. وقرىء لَيُحْزِنُك من أحزن. ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ في الحقيقة. وقرأ نافع والكسائي لا يُكْذِبُونَكَ، مِنْ أَكْذَبَه إذا وجده كاذباً أو نسبه إلى الكذب. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ ولكنهم يجحدون بآيات الله ويكذبونها، فوضع الظالمين موضع الضمير للدلالة على أنهم ظلموا بجحودهم أو جحدوا لتمرّنهم على الظلم[٣]. والباء لتضمين الجحود معنى التكذيب. روي أن أبا جهل كان يقول: ما نكذبك وإنك عندنا لصادق وإنما نكذب ما جئتنا به. فنزلت[٤].

الحسرة على ما فات بل إنهم يقاسون مع ذلك تحمل الأوزار الثقال، وكذا للإيماء إلى أن تلك الحسرة من الشدة بحيث لا تزول ولا تنسى بما يكابدونه من فنون العقوبات، والسرّ فيه أن العذاب الروحاني أشد من الجسماني (س٣/ ١٢٥).

(١) الأنعام: «٢٩».

(٢) أثبتها في الأصل على من قرأ بالياء «أفلا يعقلون».

(٣) إيراد الجحود في مورد التكذيب للإيذان بأن آياته تعالى من الوضوح بحيث يشاهد صدقها كل أحد وأن من ينكرها فإنما ينكرها بطريق الجحود الذي هو عبارة عن الإنكار مع العلم بخلافه كما في قوله تعالى: «وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم» ـ النمل: ١٤ ـ (س٣/ ١٢٧).

(٤) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٦١ رقم ٣٠٦٤) من طريق معاوية بن هشام عن سفيان عن أبي إسحاق عن ناجية بن كعب=

(٣٤) ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ، وفيه دليل على أن قوله: لا يكذبونك ليس لنفي تكذيبه مطلقاً. ﴿ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ ﴾ على تكذيبهم وإيذائهم فتأسَّ بهم واصبر. ﴿ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ﴾ فيه إيماء بوعد النصر للصابرين[١]. ﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ لمواعيده، من قوله: ﴿ ﴾[٢] لآيات[٣]. ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أي بعض قصصهم وما كابدوا من قومهم.

(٣٥) ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ ﴾ عَظُم وشق. ﴿ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ عنك وعن الإيمان بما جئتَ به. ﴿ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ﴾ منفذاً تنفذ فيه إلى جوف الأرض فتُطْلع لهم آية، أو مصعداً تصعد به إلى السماء فتُنْزِل منها آية. وفي الأرض صفة لنفقاً، وفي السماء صفة لسُلّماً، ويجوز أن يكونا متعلقين بتبتغي، أو حالين من المستكن، وجواب الشرط الثاني محذوف تقديرُه فافعل، والجملةُ جواب الأول. والمقصودُ بيان حرصه البالغ على إسلام قومه، وأنه لو قدر أن يأتيهم بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتىٰ بها رجاء إيمانهم ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ لوفقهم للإيمان حتى يؤمنوا ولكن لم تتعلق به مشيئته، فلا تتهالَكْ عليه. والمعتزلة أوّلوه بأنه لو شاء لجمعهم على الهدىٰ بأن يأتيهم بآية ملجئة، ولكن لم يفعل لخروجه عن الحكمة. ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ بالحرص على ما لا يكون والجزعِ في مواطن الصبر، فإن ذلك من دأب الجهلة.

(٣٦) ﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ إنما يُجيب الذين يسمعون بفهم وتأمّل، لقوله تعالى: ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[٤] وهؤلاء كالموتى الذين لا يسمعون. ﴿ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ فيُعْلِمهم حين لا ينفعهم الإيمان. ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ للجزاء.

(٣٧) ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ أي آية بما اقترحوه، أو آية أخرى سوى ما أُنْزِل من الآيات المتكاثرة لعدم اعتدادهم بها عناداً ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً ﴾ مما اقترحوه، أو آية تضطرهم إلى

عن علي به.
وأخرجه الترمذي أيضاً من طريق عبدالرحمٰن بن مهدي، عن سفيان، عن أبي إسحاق عن ناجية به، وقال الترمذي «لم يذكر فيه عن علي وهذا أصح».
قلت: وهذا الموقوف على ناجية، أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ج٧/ ١٨٢).
من طريق يحيى بن آدم عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن ناجية به.
وأما الموصول فقد أخرجه الحاكم في «المستدرك (٢/ ٣١٥) من طريق إسرائيل عن أبي إسحاق عن ناجية عن علي به. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي بقوله: «ما خرجا لناجية شيئاً» ثم تعقّبه الشيخ عبدالقادر الأرنؤوط في تخريج جامع الأصول (٢/ ١٣٢) التعليقة رقم (٢): بقوله «وهذا صحيح، فإن الشيخين لم يخرجا لناجية بن كعب شيئاً، ولكنه تابعي ثقة، فالحديث صحيح، وإن لم يكن على شرطهما» هـ.

(١) الالتفات إلى نون العظمة لإبراز الاعتناء بشأن النصر (س٣/ ١٢٨).
(٢) الصافات: «٣٧».
(٣) قوله «لكلمات الله» الالتفات فيه إلى الاسم الجليل للإشعار بعلة الحكم فإن الألوهية من موجبات أن لا يغالبه أحد في فعل ولا يقع منه تعالى خُلف في قول (س٣/ ١٢٨).
(٤) ق: «٣٧».

الإيمان كنتق الجبل، أو آية إن جحدوها هلكوا. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله قادر على إنزالها[١] وأنَّ إنزالها يستجلب عليهم البلاء وأن لهم فيما أنزل مندوحة عن غيره. وقرأ ابن كثير يُنْزِل بالتخفيف والمعنى واحد.

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾

(٣٨) ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تدب على وجهها. ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ في الهواء، وصفه به قطعاً لمجاز السرعة ونحوها. وقرىء ولا طائرٌ بالرفع على المحل. ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ محفوظةٌ أحوالها مقدَّرة أرزاقها وآجالها، والمقصودُ من ذلك الدلالة على كمال قدرته وشمول علمه وسعة تدبيره، ليكون كالدليل على أنه قادر على أن ينزل آية. وجَمْعُ الأمم للحمل على المعنى. ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ يعني اللوح المحفوظ فإنه مشتمِل على ما يجري في العالم من الجَلِيل والدقيق لم يُهمل فيه أمرُ حيوانٍ ولا جماد، أو القرآن فإنه قد دُوِّن فيه ما يُحتاج إليه من أمر الدين مفصلاً أو مجملاً. ومِنْ مزيدة، وشيء في موضع المصدر لا المفعول به، فإنَّ فَرَط لا يتعدى بنفسه وقد عُدِّي بفي إلى الكتاب. وقرىء ما فَرَطْنَا بالتخفيف. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ يعني الأمم كلها فيُنْصِفُ بعضَها من بعض، كما روي أنه يأخذ للجمّاء من القرناء[٢]. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: حشرها موتها[٣].

(٣٩) ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ﴾ لا يسمعون مثل هذه الآيات الدالة على ربوبيته وكمال علمه وعظم قدرته سماعاً تتأثر به نفوسهم. ﴿وَبُكْمٌ﴾ لا ينطقون بالحق. ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ خبر ثالث أي خابطون في ظلمات الكفر، أو في ظلمة الجهل وظلمة العناد وظلمة التقليد، ويجوز أن يكون حالاً من المستكن في الخبر. ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ من يشأ الله إضلاله يُضْلله، وهو دليل واضح لنا على المعتزلة. ﴿وَمَن

---

(١) وتخصيص عدم العلم بأكثرهم لما أن بعضهم واقفون على حقيقة الحال وإنما يفعلون ما يفعلون مكابرة وعناداً (س٣/ ١٣١).

(٢) أخرج مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٩٧ رقم ٦٠/ ٢٥٨٢).
وأحمد في المسند (٢/ ٢٣٥، ٣٢٣، ٣٦٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
أن رسول الله ﷺ قال «لتؤدُّنَّ الحقوقَ إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاةِ الجلْحاء من الشاةِ القرناء».
ـ الجلحاء: التي لا قرن لها [النهاية: (١/ ٢٨٤)].
ـ الجماء: كذلك [النهاية: (١/ ٣٠٠)].

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ ج٧/ ١٨٨) عن ابن عباس.

﴿يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ بأن يرشدَه إلى الهدى ويحمله عليه.

(٤٠) ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾ استفهامُ تعجيب، والكافُ حرف خطاب أكّد به الضمير للتأكيد لا محل له من الإعراب لأنك تقول: أرأيتك زيداً ما شأنُه؟ فلو جعلْتَ الكاف مفعولاً كما قاله الكوفيون لعدّيتَ الفعل إلى ثلاثة مفاعيل، وللزم في الآية أن يقال: أرأيتموكم بل الفعل معلق أو المفعول محذوف تقديره: أرأيتكم آلهتكم تنفعكم إذ تدعونها. وقرأ نافع أرأيتكم وأرأيتَ وأرأيتُم وأفرأيتُم وأفرأيتَ وشبهَها إذا كان قبل الراء همزة بتسهيل الهمزة التي بعد الراء، والكسائي يحذفها أصلاً، والباقون يحققونها، وحمزةُ إذا وقف وافق نافعاً. ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ كما أتىٰ مَنْ قبلكم. ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ وهولُها، ويدل عليه: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ وهو تبكيت لهم. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أن الأصنام آلهة، وجوابه محذوف أي فادعوه.

(٤١) ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ بل تخصونه بالدعاء كما حكى عنهم في مواضع، وتقديمُ المفعول لإفادة التخصيص. ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي ما تدعونه إلى كشفه. ﴿إِن شَآءَ﴾ أي يتفضل عليكم، ولا يشاء في الآخرة. ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ وتتركون آلهتكم في ذلك الوقت لِمَا رَكَزَ في العقول على أنه القادر على كشف الضر دون غيره، أو وتنسونه من شدة الأمر وهوله[1].

(٤٢) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي قَبْلَكَ، وَمن زائدة[2]. ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ أي فكفروا وكذبوا المرسلين فأخذناهم. ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ بالشدة والفقر. ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ والضر والآفات، وهما صيغتا تأنيث لا مذكَّر لهما: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ يتذللون لنا ويتوبون عن ذنوبهم.

فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾
فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا
هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ
وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ
يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا
نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾

(٤٣) ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ معناه نفي تضرعهم في ذلك الوقت مع قيام ما يدعوهم أي لم يتضرعوا. ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ استدراك على المعنى وبيانٌ

---

(١) قوله «فيكشف..» توسيط الكشف بينهما مع تقارنهما وتأخر الكشف عنهما لإظهار كمال العناية بشأن الكشف والإيذان بترتبه على الدعاء خاصة (س٣/ ١٣٣).

(٢) تصدير الجملة بالقسم لإظهار مزيد الاهتمام بمضمونه (س٣/ ١٣٣).

للصارف لهم عن التضرع وأنه لا مانع لهم إلا قساوة قلوبهم وإعجابُهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم.

(٤٤) ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ من البأساء والضراء ولم يتعظوا به. ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من أنواع النعم مراوحةً عليهم بين نوبتي الضراء والسراء وامتحاناً لهم بالشدة والرخاء إلزاماً للحجة وإزاحة للعلة، أو مكراً بهم لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «مكر بالقوم ورب الكعبة»[١]. وقرأ ابن عامر فتَّحنا بالتشديد في جميع القرآن، ووافقه يعقوب فيما عدا هذا والذي في الأعراف[٢]. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟﴾ أُعجبوا ﴿بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾ من النعم ولم يزيدوا غير البطر والاشتغال بالنعم عن المنعم والقيام بحقه سبحانه وتعالى. ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ متحسرون آيسون[٣].

(٤٥) ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي آخرُهم بحيث لم يبقَ منهم أحد، مِنْ دَبَرَه دُبْراً ودُبُوراً إذا تبعه. ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على إهلاكهم، فإن هلاك الكفار والعصاة من حيث إنه تخليص لأهل الأرض من شؤم عقائدهم وأعمالهم نعمة جليلة يحق أن يحمد عليها.

(٤٦) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ أصمكم وأعماكم[٤]. ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ بأن يغطي عليها ما يزول به عقلكم وفهمكم. ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ أي بذلك، أو بما أخذ وختم عليه، أو بأحد هذه المذكورات. ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ نكررها تارة من جهة المقدمات العقلية، وتارة من جهة الترغيب والترهيب، وتارة بالتنبيه والتذكير بأحوال المتقدمين. ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ يُعرضون عنها، و«ثم» لاستبعاد الإعراض بعد تصريف الآيات وظهورها.

(٤٧) ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً﴾ من غير مقدمة. ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ بتقدمة أمارة تؤذن بحلوله، وقيل ليلاً أو نهاراً. وقرىء بَغَتَة أو جَهَرَة. ﴿هَلْ يُهْلَكُ﴾ أي ما يهلك به هلاك سخط وتعذيب. ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ولذلك صح الاستثناء المفرغ منه. وقرىء يَهلك بفتح الياء[٥].

(٤٨) ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ المؤمنين بالجنة[٦]. ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ الكافرين بالنار، ولم نرسلهم ليُقترَح عليهم ويُتلهى بهم. ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ ما يجب إصلاحه على ما شرع لهم. ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من العذاب. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بفوات الثواب[٧].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن ـ كما في الدر المنثور (٣/ ٢٧٠) ـ.

(٢) الأعراف: «٩٦».

(٣) قوله «فتحنا» في ترتيب الفتح على النسيان المذكور إشعار بأن التذكر في الجملة غير خال عن النفع (س٣/ ١٣٣).
وقوله «فإذا هم مظلمون» إيراد الجملة الاسمية للدلالة على استقرارهم على تلك الحال الفظيعة (س٣/ ١٣٤).

(٤) وتقديم السمع على البصر لأن مورد الآيات في المسموعات (س٣/ ١٣٤).

(٥) وتقديم البغتة على الجهرة لكونها أهول وأفظع (س٣/ ١٣٥).

(٦) قوله «نرسل» بصيغة المضارع لبيان أن ذلك أمر مستمر جرت عليه العادة الإلهية (س٣/ ١٣٥).

(٧) وتقديم نفي الخوف على نفي الحزن مراعاة للمقام (س٣/ ١٣٥).

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ
أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا
تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ
يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ
وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾

(٤٩) ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ جعل العذاب ماسّاً لهم كأنه الطالب للوصول إليهم، واستُغنِي بتعريفه عن التوصيف. ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ بسبب خروجهم عن التصديق والطاعة.

(٥٠) ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ مقدوراته أو خزائنِ رزقه. ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ ما لم يُوحَ إلي ولم يُنصَبْ عليه دليل، وهو من جملة المقول. ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ أي من جنس الملائكة، أو أقدر على ما يقدرون عليه. ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ تبرأ عن دعوى الألوهية والمُلْكية وادّعى النبوةَ التي هي من كمالات البشر رداً لاستبعادهم دعواه وجزمهم على فساد مُدَّعاه. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ مَثَلٌ للضالّ والمهتدي، أو الجاهل والعالم، أو مدعي المستحيل كالألوهية والمُلْكية ومدعي المستقيم كالنبوة[١]. ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ فتهتدوا أو فتميزوا بين ادعاء الحق والباطل، أو فتعلموا أن اتباع الوحي مما لا محيص عنه.

(٥١) ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ الضمير لما يوحىٰ إليّ. ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ هم المؤمنون المُفرِطون في العمل، أو المجوّزون للحشر مؤمناً كان أو كافراً مقرّاً به أو متردداً فيه، فإن الإنذار ينفع فيهم دون الفارغين الجازمين باستحالته. ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ في موضع الحال مِنْ يُحشروا، فإن المخوف هو الحشر على هذه الحالة. ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ لكي يتقوا.

(٥٢) ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ بعدما أَمَرَهُ بإنذار غير المتقين ليتقوا أَمَرَهُ بإكرام المتقين وتقريبِهم وأَنْ لا يطردهم ترضيةً لقريش. روي أنهم قالوا: لو طردتَ هؤلاء الأَعْبُد ـ يعنون فقراءَ المسلمين، كعمار وصهيب وخباب وسلمان ـ جلسنا إليك وحادثناك، فقال: «ما أنا بطارد المؤمنين» قالوا: فأَقِمْهُم عنّا إذا جئناك، قال: «نعم»[٢]. وروي أن عمر رضي الله عنه قال له: لو

---

(١) تكرير الأمر بـ«قُل» لتثنية التبكيت وتأكيد الإلزام (س٣/ ٣٠٢).

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص٦١ رقم٧): «رواه البيهقي في الشعب في أواخره. والواحدي في «الأسباب» من رواية أبي مشجعة بن ربعي عن سلمان قال: «جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله ﷺ: عيينه بن بدر، والأقرع بن حابس، وذووهم فقالوا يا رسول الله، إنك لو جلست في صدر المسجد ونفيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم يعنون أبا ذر، وسلمان، وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب صوف لم يكن عليهم غيرها جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك.
فأنزل الله تعالى «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم ـ إلى قوله ـ للظالمين ناراً» فقام النبي ﷺ يلتمسهم. الحديث».
=

فعلتَ حتى ننظر إلى ماذا يصيرون، فدعا بالصحيفة وبعلي رضي الله تعالى عنه ليكتب، فنزلت[١]. والمراد بذكر الغداة والعشي الدوام، وقيل صلاتا الصبح والعصر. وقرأ ابن عامر بالغُدْوَة هنا وفي الكهف[٢]. ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ حال من يَدْعون أي يدعون ربهم مخلصين فيه. قَيّد الدعاء بالإخلاص تنبيهاً على أنه ملاك الأمر، ورتب النهي عليه إشعاراً بأنه يقتضي إكرامَهم وينافي إبعادَهم. ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي ليس عليك حسابُ إيمانهم[٣]، فلعل إيمانهم عند الله أعظم من إيمان مَنْ تطردهم بسؤالهم طمعاً في إيمانهم لو آمنوا، أوليس عليك اعتبارُ بواطنهم وإخلاصهم لِمَا اتّسموا بسيرة المتقين وإنْ كان لهم باطن غير مرضي كما ذكره المشركون وطعنوا في دينهم فحسابُهم عليهم لا يتعداهم إليك كما أن حسابك عليك لا يتعداك إليهم، وقيل ما عليك من حساب رزقهم أي من فقرهم، وقيل الضمير للمشركين والمعنى: لا تؤاخَذُ بحسابهم ولا هم بحسابك حتى يَهُمّكَ إيمانهم بحيث تطرد المؤمنين طمعاً فيه. ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ فتبعدهم وهو جواب النفي ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جواب النهي، ويجوز عطفه على فتطردهم على وجه التسبب، وفيه نظر.

ولابن ماجه (٢/ ١٣٨٢ ـ ١٣٨٣ رقم ٤١٢٧)، وابن أبي شيبة، والطبراني في الكبير (٤/ ٧٥ ـ ٧٧ رقم ٣٦٩٣) ـ وأبو نعيم في ترجمة خباب ـ الحلية (١/ ١٤٦ ـ ١٤٧) وإسحاق وأبو يعلى، والبزار، والبيهقي. في الدلائل (١/ ٣٥٢ ـ ٣٥٣) والواحدي ـ في أسباب النزول ص٢١٧ ـ من طريق أبي الكنود عن خباب في قوله تعالى «ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء ـ الآية ـ إلى: الظالمين» قال: جاء الأقرع وعيينة فوجدوا رسول الله ﷺ مع صهيب، وبلال، وعمار وخباب قاعداً في ناس من ضعفاء المؤمنين. فذكره مطولاً» هـ.

● وأورده ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٣٩) وقال عقبة: ورواه ابن جرير (٥/ ج٧/ ٢٠١) من حديث أسباط به، وهذا حديث غريب، فإن هذه الآية مكية والأقرع بن حابس وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة بدهر» هـ.

● وأخرج مسلم في صحيحه (٤/ ١٨٧٨ رقم ٤٥، ٤٦/ ٢٤١٣) من حديث سعد بن أبي وقاص قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نَفَر، فقال المشركون للنبي ﷺ اطرُدْ هؤلاء لا يجترئون علينا.

قال: وكنت أنا وابن مسعود، ورجل من هُذيل، وبلال ورجلان لستُ أسميهما فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع. فحدَّث نفسه.

فأنزل الله عز وجل «ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه».

● وأخرج أحمد (١/ ٤٢٠) وابن جرير (٥/ ج٧/ ٢٠٠) والطبراني في الكبير (١٠/ ٢٦٨ رقم ١٠٥٢٠) من حديث عبدالله بن مسعود قال: مر الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده أناس من المسلمين وصهيب وخباب، فقالوا يا محمد أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا؟ لو طردت هؤلاء لاتبعناك. فأنزل الله عز وجل «ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه» إلى قوله «أليس الله بأعلم بالشاكرين» وأورده الهيثمي في «المجتمع» (٧/ ٢١) وقال: رجال أحمد رجال الصحيح غير كردوس وهو ثقة.

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ ج٧/ ٢٠٢) والواحدي في «الأسباب» ص٢١٨ في قوله عكرمة.
وقال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص٦١ رقم٨) «هو في حديث خباب المذكور آنفاً دون مشورة عمر واعتذاره» هـ.

(٢) الكهف: «٢٨».

(٣) وتقديم «عليك» في الجملة الأولى للقصد إلى إيراد النفي على اختصاص حسابهم به ـ عليه السلام ـ إذ هو الداعي إلى تصديه ـ عليه السلام ـ لحسابهم (س٣/ ١٣٩).

وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾

(٥٣) ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ ومثل ذلك الفتْن، وهو اختلاف أحوال الناس في أمور الدنيا. فتنّا أي ابتلينا بعضهم ببعض في أمر الدين فقدّمنا هؤلاء الضعفاء على أشراف قريش بالسبْق إلى الإيمان. ﴿لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ أي أهؤلاء مَنْ أنعم الله عليهم بالهداية والتوفيق لما يسعدهم دوننا؟ ونحن الأكابر والرؤساء وهم المساكين والضعفاء، وهو إنكار لأن يخص هؤلاء من بينهم بإصابة الحق والسبق إلى الخير كقولهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾[(١)]. واللام للعاقبة أو للتعليل على أنّ فتنا متضمن معنى خذلنا ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ بمن يقع منه الإيمان والشكر فيوفقه وبمن لا يقع منه فيخذُله.

(٥٤) ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ الذين يؤمنون هم الذين يَدْعون ربهم، وصَفَهُم بالإيمان بالقرآن واتّباع الحجج بعدما وصفهم بالمواظبة على العبادة، وأمره بأن يبدأ بالتسليم أو يبلغ سلامَ الله تعالى إليهم ويبشرَهم بسعة رحمة الله تعالى وفضله بعد النهي عن طردهم إيذاناً بأنهم الجامعون لفضيلتي العلم والعمل، ومن كان كذلك ينبغي أن يُقرَّب ولا يطرد ويعزّ ولا يُذَل ويُبَشّر من الله بالسلامة في الدنيا والرحمة في الآخرة. وقيل إن قوماً جاءوا إلى النبي ﷺ فقالوا: إنا أصبنا ذنوباً عظاماً، فلم يرد عليهم شيئاً فانصرفوا، فنزلت[(٢)]. ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا﴾ استئناف بتفسير الرحمة. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم ويعقوب بالفتح على البدل منها. ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ في موضع الحال أي من عمل ذنباً جاهلاً بحقيقة ما يتبعه من المضار والمفاسد، كعمر فيما أشار إليه، أو ملتبساً بفعل الجهالة فإن ارتكاب ما يؤدي إلى الضرر من أفعال أهل السفه والجهل. ﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ بعد العمل أو السوء. ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بالتدارك والعزم على أن لا يعود إليه. ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فتحه من فتح الأول غير نافع على إضمار مبتدأ، أو خبرٌ أي فأمره أو فله غفرانه.

(٥٥) ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك التفصيل الواضح. ﴿نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي آيات القرآن في صفة المطيعين والمجرمين المصرين منهم والأوابين. ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ قرأ نافع بالتاء ونصب السبيل على معنى ولتستوضح يا محمد سبيلَهم فتعامل كلاً منهم بما يحق له فصّلنا هذا التفصيل،

---

(١) الأحقاف: «١١».

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٥/ج٧/٢٠٧).
والفريابي وعبد بن حميد، وسدد في مسنده، وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ماهان مرسلاً ـ كما في الدر المنثور (٣/ ٢٧٦) ـ.
قلت: ماهان هو الحنفي أبو صالح الكوفي. قال الحافظ في التقريب (٢/ ٢٢٧) ثقة قتله الحجاج سنة (٨٣هـ).

وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب وحفص عن عاصم برفعه على معنى ولِتَبين سبيلُهم، والباقون بالياء والرفع على تذكير السبيل فإنه يذكر ويؤنث، ويجوز أن يعطف على علة مقدرة أي نفصل الآيات ليظهر الحق وليستبين[١].

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾

(٥٦) ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ﴾ صُرفت وزُجرت بما نُصِب لي من الأدلة وأنزل علي من الآيات في أمر التوحيد. ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ عن عبادة ما تعبدون من دون الله، أو ما تدعونها آلهةً أي تسمونها. ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ تأكيد لقطع أطماعهم وإشارةٌ إلى الموجب للنهي وعلة الامتناع عن متابعتهم واستجهالٌ لهم، وبيانٌ لمبدأ ضلالهم وأن ما هم عليه هوى وليس بهدى، وتنبيه لمن تحرى الحق على أن يتبع الحجة ولا يقلد. ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ أي اتبعت أهواءكم فقد ضللت. ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي في شيء من الهدى حتى أكون من عدادهم، وفيه تعريض بأنهم كذلك[٢].

(٥٧) ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ تنبيه على ما يجب اتباعه بعد ما بيّن ما لا يجوز اتباعه. والبينةُ الدلالة الواضحة التي تفصل الحق من الباطل. وقيل المراد بها القرآن والوحي، أو الحجج العقلية، أو ما يعمها. ﴿مِّن رَّبِّي﴾ من معرفته وأنه لا معبود سواه، ويجوز أن يكون صفة لبيّنة. ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ الضمير لربي أي كذبتم به حيث أشركتم به غيره، أو للبينة باعتبار المعنى. ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ يعني العذاب الذي استعجلوه بقولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٣]. ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ في تعجيل العذاب وتأخيره. ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾[٤] أي القضاء الحق، أو يصنع الحق ويدبره من قولهم قضى الدرع إذا صنعها، فيما يقضي من تعجيل وتأخير وأصل القضاء الفصل بتمام الأمر، وأصل الحكم المنع فكأنه منع الباطل. وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم «يَقُصُّ» من قص الأثر، أو من قص الخبر. ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ القاضين[٥].

---

(١) أثبت البيضاوي الأصل بالياء، أي «وليستبين» أي على تذكير الفعل.

(٢) قوله «قل لا أتبع» كرر الأمر بالقول اعتناء بشأن المأمور به، أو إيذاناً باختلاف المقولين، من حيث إن الأول حكاية لما من جهته تعالى من النهي والثاني لما من جهته ﷺ من الانتهاء عما ذكر من عبادة ما يعبدونه. وقوله «وما أنا من المهتدين» عدل للجملة الاسمية للدلالة على الدوام والاستمرار (س٣/ ١٤١).

(٣) الأنفال: «٣٢».

(٤) أثبتها البيضاوي في الأصل «يقضي» وقراءة حفص المتداولة «يقص».

(٥) قوله «من ربي» في التعرض فيه لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام من التشريف ورفع المنزلة=

(٥٨) ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي﴾ أي في قدرتي ومكنتي. ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾ من العذاب. ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ لأهلكتكم عاجلاً غضباً لربي، وانقطع ما بيني وبينكم. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ في معنى الاستدراك كأنه قال: ولكن الأمر إلى الله سبحانه وتعالى وهو أعلم بمن ينبغي أن يؤخذ وبمن ينبغي أن يُمْهل منهم.

(٥٩) ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ خزائنه جمع مَفْتح ـ بفتح الميم ـ وهو المخزن، أو ما يتوصل به إلى المغيبات مستعار من المفاتح الذي هو جمع مِفْتح ـ بكسر الميم ـ وهو المفتاح، ويؤيده أنه قرىء مفاتيح، والمعنى أنه المتوصل إلى المغيبات المحيط علمه بها. ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ فيعلم أوقاتها وما في تعجيلها وتأخيرها من الحكم فيُظْهرها على ما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته، وفيه دليل على أنه سبحانه وتعالى يعلم الأشياء قبل وقوعها. ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ عطف للإخبار عن تعلق علمه تعالى بالمشاهَدات على الإخبار عن اختصاص العلم بالمغيبات به. ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ مبالغة في إحاطة علمه بالجزئيات. ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ معطوفات على ورقة، وقوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ بدل من الاستثناء الأول بدلَ الكل على أن الكتاب المبين عِلْم الله سبحانه وتعالى، أو بدلُ الاشتمال إن أريد به اللوح. وقرئت بالرفع للعطف على محل ورقة، أو رفعاً على الابتداء والخبر: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾

(٦٠) ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ ينيمكم فيه ويراقبكم، استُعير التوفي من الموت للنوم لما بينهما من المشاركة في زوال الإحساس والتمييز فإن أصله قبض الشيء بتمامه. ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ كسبتم فيه خص الليلَ بالنوم والنهار بالكسب جرياً على المعتاد. ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾ يوقظكم، أطلق البعث ترشيحاً للتوفي ﴿فِيهِ﴾ في النهار. ﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ ليبلغ المتيقظ آخر أجله المسمّى له في الدنيا ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ بالموت. ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالمجازاة عليه. وقيل الآية خطاب للكفرة والمعنى أنكم مُلقَوْن كالجِيَف بالليل وكاسبون للآثام بالنهار، وأنه سبحانه وتعالى مطلع على أعمالكم يبعثكم من القبور في شأن ذلك الذي قطعتم به أعمارَكم من النوم بالليل وكسب الآثام بالنهار، ليقضي الأجل الذي سماه وضربه لبعث الموتى وجزائهم على أعمالهم، ثم إليه مرجعكم بالحساب، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون بالجزاء.

(٦١) ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ ملائكة تحفظ أعمالكم، وهم الكرام الكاتبون.

= ما لا يخفى (س٣/ ١٤٢).

والحكمةُ فيه أن المكلف إذا عَلِم أن أعماله تكتب عليه وتعرض على رؤوس الأشهاد كان أزجر عن المعاصي، وأن العبد إذا وثق بلطف سيده واعتمد على عفوه وستره لم يحتشِم منه احتشامه مِنْ خدمِه المطلعين عليه[١]. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ مَلَكُ الموت وأعوانُه. وقرأ حمزة توفّاه بالألف ممالة. ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ بالتواني والتأخير. وقرىء بالتخفيف، والمعنى: لا يجاوزون ما حدّ لهم بزيادة أو نقصان.

ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾

(٦٢) ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى حكمه وجزائه. ﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾ الذي يتولّى أمرهم. ﴿ٱلْحَقِّ ۚ﴾ العدل الذي لا يحكم إلا بالحق. وقرىء بالنصب على المدح. ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ يومئذ لا حكم لغيره فيه. ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ يحاسب الخلائق في مقدار حَلْب شاة لا يشغله حساب عن حساب.

(٦٣) ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ من شدائدهما، استعيرت الظلمة للشدة لمشاركتهما في الهول وإبطالِ الإبصار فقيل لليوم الشديد يوم مظلم ويوم ذو كواكب، أو من الخسف في البر والغرق في البحر. وقرأ يعقوب يُنْجيكُم بالتخفيف والمعنى واحد. ﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ معلنين ومسرين، أو إعلاناً وإسراراً. وقرأ أبو بكر هنا وفي الأعراف[٢] وخِفيَة بالكسر[٣]، وقرىء خيفة. ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ على إرادة القول أي تقولون لئن أنجيتنا. وقرأ الكوفيون لئن أنجانا، ليوافقَ قولَه تَدْعُونه، وهذه إشارة إلى الظُّلمة.

(٦٤) ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا﴾ شدده الكوفيون وهشام، وخففه الباقون. ﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ غمّ سواها. ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ تعودون إلى الشرك ولا توفون بالعهد، وإنما وضع «تشركون» موضع لا تشكرون تنبيهاً على أن مِن أشرك بعبادة الله سبحانه وتعالى فكأنه لم يعبده رأساً.

(٦٥) ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ كما فعل بقوم نوح ولوط وأصحاب الفيل[٤]. ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ كما أغرق فرعون وخسَف بقارون. وقيل من فوقكم أكابركم وحكامكم ومن تحت أرجلكم سفلَتكم وعبيدكم. ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ﴾ يخلطكم. ﴿شِيَعًا﴾ فِرَقاً متحزّبين على أهواء شتّى، فينشب

(١) تقديم «عليكم» على المفعول «حفظة» للاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر (س٣/ ١٤٤).
(٢) الأعراف: «٥٥».
(٣) أي بكسر الخاء «خِفيَة».
(٤) وتقديم «عليكم» على المفعول الصريح «عذاباً» للاعتناء به، والمسارعة إلى بيان كون المبعوث مما يضرهم، ولتهويل أمر المؤخر (س٣/ ١٤٦).

القتال بينكم قال:

وكَتِيبَةٍ لَبِسْتُهَا بِكَتِيبَةٍ حتَّى إذَا التَبَسَتْ نَفَضْتُ لَهَا يَدِي

﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ يقاتل بعضكم بعضاً. ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ ﴾ بالوعد والوعيد. ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾.

وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾

(٦٦) ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ ﴾ أي بالعذاب، أو بالقرآن[١]. ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ الواقع لا محالة أو الصدق. ﴿ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ بحفيظ وكِّل إليّ أمرُكم فأمنعكم من التكذيب أو أجازيكم، إنما أنا منذر والله الحفيظ.

(٦٧) ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ ﴾ خبرٌ يريد به إما بالعذاب أو الإيعاد به. ﴿ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ وقت استقرار ووقوع. ﴿ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ عند وقوعه في الدنيا والآخرة.

(٦٨) ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ بالتكذيب والاستهزاء بها والطعن فيها. ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ فلا تجالسهم وقُم عنهم. ﴿ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾ أعاد الضمير على معنى الآيات لأنها القرآن. ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ بأن يشغلك بوسوسته حتى تنسى النهي. وقرأ ابن عامر يُنَسِّينك بالتشديد. ﴿ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ بعد أن تذكره. ﴿ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي معهم، فوضع الظاهر موضع المضمر دلالة على أنهم ظلموا بوضع التكذيب والاستهزاء موضع التصديق والاستعظام.

(٦٩) ﴿ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ وما يلزم المتقين من قبائح أعمالهم وأقوالهم الذين يجالسونهم. ﴿ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ شيء مما يحاسبون عليه. ﴿ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ ﴾ ولكن عليهم أن يذكِّروهم ذكرى ويمنعوهم عن الخوض وغيره من القبائح ويُظهِروا كراهتها. وهو يحتمل النصب على المصدر، والرفع على ولكن عليهم ذكرى، ولا يجوز عطفه على محل «من شيء» لأن مِنْ حسابهم يأباه ولا على «شيء» لذلك ولأن مِنْ لا تزاد في الإثبات. ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ يجتنبون ذلك حياء أو كراهة لمساءتهم، ويحتمل أن يكون الضمير للذين يتقون والمعنى: لعلهم يثبتون على تقواهم ولا تنثلم بمجالستهم. روي: أن المسلمين قالوا لئن كنا نقوم كلما استهزءوا بالقرآن لم نستطع أن نجلس في المسجد الحرام، ونطوف، فنزلت.

---

١) وإيرادهم بلفظ «قومُكَ» لبيان كمال سوء حالهم، فإن تكذيبهم بذلك مع كونهم من قومه ـ عليه السلام ـ مما يقضي بغاية عتوهم ومكابرتهم (س٣/١٤٦).

وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾

(٧٠) ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ أي بَنَوْا أمر دينهم على التشهي وتديّنوا بما لا يعود عليهم بنفع عاجلاً وآجلاً كعبادة الأصنام وتحريم البحائر والسوائب، أو اتخذوا دينهم الذي كُلِّفوه لعباً ولهواً حيث سَخِروا به، أو جعلوا عيدَهم الذي جُعِل ميقاتُ عبادتهم زمانَ لهوٍ ولعب. والمعنى أَعْرِض عنهم ولا تبالِ بأفعالهم وأقوالهم، ويجوز أن يكون تهديداً لهم كقوله تعالى: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾[١] ومَنْ جعله منسوخاً بآية السيف حمله على الأمر بالكف عنهم وترك التعرض لهم. ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ حتى أنكروا البعث. ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾ أي بالقرآن. ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾ مخافة أن تُسْلَمَ إلى الهلاك وتُرهن بسوء عملها. وأصل الإبسال والبَسْل المنع، ومنه أسد باسل لأن فريسته لا تفلت منه، والباسل الشجاع لامتناعه من قِرْنه، وهذا بَسْل عليك أي حرام. ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ يدفع عنها العذاب. ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾ وإن تَفْدِ كل فداء، والعدلُ الفدية لأنها تعادل المفدي وههنا الفداء. وكل نصب على المصدرية. ﴿لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ الفعل مسند إلى منها لا إلى ضميره بخلاف قوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾[٢] فإنه المفدى به. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ﴾ أي سُلِّموا إلى العذاب بسبب أعمالهم القبيحة وعقائدهم الزائغة. ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ تأكيد وتفصيل لذلك، والمعنى هم بين ماء مغلي يتجرجر في بطونهم ونارٍ تشتعل بأبدانهم بسبب كفرهم.

(٧١) ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ﴾ أنعبد. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ ما لا يقدر على نفعنا وضرنا. ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾ ونرجع إلى الشرك[٣]. ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ فأنقذنا منه ورزقنا الإسلام. ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ كالذي ذهبت به مردة الجن في المهامه، استفعال من هوى يهوي هوياً إذا ذهب. وقرأ حمزة استهواه بألف ممالة. ومحل الكاف النصب على الحال من فاعل نُردّ أي: مُشْبهين الذين استهوته، أو على المصدر أي رداً مثل ردّ الذي استهوته. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ متحيراً ضالاً عن الطريق. ﴿لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ﴾ لهذا المستهوي رفقة. ﴿يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى﴾ إلى أن يهدوه الطريق المستقيم، أو إلى الطريق المستقيم، وسماه هدى تسمية للمفعول بالمصدر. ﴿ٱئْتِنَا﴾ يقولون له ائتنا. ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى

---

(١) المدثر: «١١».

(٢) البقرة: «٤٨».

(٣) وإيثار لفظ «نُرَدّ» على نرتد لتوجيه الإنكار إلى الارتداد برد الغير تصريحاً بمخالفة المضلين وقطعاً لأطماعهم الفارغة وإيذاناً بأن الارتداد من غير راد ليس في حيز الاحتمال ليحتاج إلى نفيه وإنكاره (س٣/١٤٩).

ٱللَّهِ﴾ الذي هو الإسلام[١]. ﴿هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ وحده وما عداه ضلال. ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من جملة المقول، عطفٌ على إن هدى الله، واللام لتعليل الأمر أي أمرنا بذلك لنسلم وقيل هي بمعنى الباء وقيل هي زائدة.

وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾

(٧٢) ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ﴾ عطف على لنسلم أي للإسلام ولإقامة الصلاة، أو على موقعه كأنه قيل: وأمرنا أن نسلم وأن أقيموا الصلاة. روي: أن عبدالرحمن بن أبي بكر دعا أباه إلى عبادة الأوثان، فنزلت[٢]. وعلى هذا كان أمر الرسول ﷺ بهذا القول إجابة عن الصديق رضي الله تعالى عنه تعظيماً لشأنه وإظهاراً للاتحاد الذي كان بينهما. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ يوم القيامة.

(٧٣) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ قائماً بالحق والحكمة. ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ جملة اسمية قُدِّم فيها الخبر أي قولُه الحق يوم يقول، كقولك: القتال يوم الجمعة، والمعنى أنه الخالق للسموات والأرضين وقوله الحق نافذ في الكائنات. وقيل يومَ منصوب بالعطف على السموات، أو الهاء في واتقوه، أو بمحذوف دل عليه بالحق، وقولُه الحقُّ مبتدأ وخبر أو فاعل يكون على معنى. وحين يقول لقوله الحق أي لقضائه كن فيكون، والمراد به حين يكوِّن الأشياءَ ويُحْدِثها أو حين تقوم القيامة فيكون التكوين حشرَ الأموات وإحياءَها. ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ كقوله سبحانه وتعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[٣]. ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي هو عالم الغيب. ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ كالفذلكة للآية[٤].

(٧٤) ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ هو عطف بيان لأبيه، وفي كتب التواريخ أن اسمه تارح فقيل هما عَلَمان له كإسرائيل ويعقوب، وقيل العَلَم تارح وآزرُ وصف معناه الشيخ أو المعوج، ولعل منع صرفه لأنه أعجمي حمل على موازنه أو نعت مشتق من الأزر أو الوزر، والأقرب أنه عَلَم أعجمي على فاعِل كعابِر وشالخ، وقيل اسم صنم يَعْبُدُه فلقِّب به للزوم عبادته، أو أطلق عليه بحذف المضاف.

---

(١) وتكرير الأمر بـ«قل» للاعتناء بشأن المأمور (س٣/ ١٥٠).

(٢) أورده المناوي في الفتح السماوي ص٦١٠ وسكت عنه، وقال ابن همات: لم أقف عليه.

(٣) غافر: «١٦».

(٤) قوله تعالى: «وله الملك يوم ينفخ في الصور» قيد اختصاص الملك به تعالى بذلك اليوم مع عموم الاختصاص لجميع الأوقات لغاية ظهور ذلك بانقطاع العلائق المجازية الكائنة في الدنيا المصححة للملكية المجازية في الجملة (س٣/ ١٥١).

وقيل المراد به الصنم ونصبُه بفعل مضمر يفسره ما بعده أي أتعبد آزر ثم قال: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ تفسيراً وتقريراً، ويدل عليه أنه قرئ أَأَزْراً تتخذ أصناماً بفتح همزة آزر وكسرها وهو اسم صنم، وقرأ يعقوب بالضم على النداء وهو يدل على أنه علم. ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ﴾ عن الحق. ﴿مُّبِينٍ﴾ ظاهر الضلالة.

وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا
كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ
لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ
فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

(٧٥) ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ومثلُ هذا التبصير نبصره، وهو حكاية حال ماضية. وقرئ تُري بالتاء ورفع الملكوت ومعناه تبصره دلائل الربوبية. ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ربوبيتها وملكها، وقيل عجائبها وبدائعها. والملكوت أعظم الملك، والتاء فيه للمبالغة. ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ أي ليستدل وليكون، أو وفعلنا ذلك ليكون.

(٧٦) ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ تفصيل وبيان لذلك، وقيل عطف على قال ابراهيم، وكذلك نُري اعتراضٌ فإن أباه وقومه كانوا يعبدون الأصنام والكواكب فأراد أن ينبههم على ضلالتهم ويرشدهم إلى الحق من طريق النظر والاستدلال. وجن عليه الليل ستَرَه بظلامه. والكوكب كان الزهرة أو المشتري. وقوله: هذا ربي على سبيل الوضع فإن المستدل على فساد قول يحكيه على ما يقوله الخصمُ ثم يَكرُّ عليه بالإفساد، أو على وجه النظر والاستدلال، وإنما قاله زمانَ مراهقته أَوْ أول أوان بلوغِه. ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي غاب. ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ فضلاً عن عبادتهم فإن الانتقال والاحتجاب بالأستار يقتضي الأمان والحدوث وينافي الألوهية.

(٧٧) ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ مبتدئاً في الطلوع. ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ استعجز نفسَه واستعان بربه في دَرْك الحق ـ فإنه لا يهتدي إليه إلا بتوفيقه ـ إرشاداً لقومه وتنبيهاً لهم على أن القمر أيضاً لتغير حاله لا يصلُح للألوهية، وأن من اتخذه إلهاً فهو ضال.

(٧٨) ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ ذَكَّر اسم الإشارة لتذكير الخبر وصيانةً للرب عن شبهة التأنيث. ﴿هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ كبّره استدلالاً أو إظهاراً لشبهة الخصم. ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ من الأجرام المحدثة المحتاجة إلى محدِث يحدثها ومخصص يخصصها بما تختص به، ثم لما تبرأ منها توجه إلى موجدها ومبدعها الذي دلت هذه الممكنات عليه فقال:

(٧٩) ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وإنما احتج بالأفول دون البزوغ مع أنه أيضاً انتقال لتعدد دلالته، ولأنه رأى الكوكب الذي يعبدونه في وسط السماء حين حاول الاستدلال.

وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ
رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ
أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ
عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾

(٨٠) ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ﴾ وخاصموه في التوحيد. ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾ في وحدانيته سبحانه وتعالى. وقرأ نافع وابن عامر بخلاف عن هشام بتخفيف النون. ﴿وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ﴾ إلى توحيده. ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ أي لا أخاف معبوداتكم في وقت لأنها لا تضر بنفسها ولا تنفع. ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ﴾ أن يصيبني بمكروه من جهتها، ولعله جواب لتخويفهم إياه من آلهتهم وتهديد لهم بعذاب الله. ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ﴾ كأنه علة الاستثناء، أي أحاط به علماً فلا يبعُد أن يكون في علمه أن يحيق بي مكروه من جهتها[1]. ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فتميزوا بين الصحيح والفاسد والقادر والعاجز[2].

(٨١) ﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ﴾ ولا يتعلق به ضر. ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ﴾ وهو حقيق بأن يُخاف منه كلَّ الخوف، لأنه إشراك للمصنوع بالصانع وتسوية بين المقدور العاجز بالقادر الضار النافع. ﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ﴾ ما لم ينزل بإشراكه كتاباً، أو لم ينصِب عليه دليلاً. ﴿فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ﴾ أي الموحدون أو المشركون، وإنما لم يقل أيُّنا أنا أم أنتم احترازاً من تزكية نفسه[3]. ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ ما يحق أن يخاف منه.

(٨٢) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ استئناف منه أو من الله بالجواب عما استفهم عنه، والمراد بالظلم ههنا الشرك لما روي أن الآية لما نزلت شقَّ ذلك على الصحابة وقالوا: أيُّنا لم يظلم نفسه؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «ليس ما تظنون إنما هو ما قال لقمان لابنه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم»[4] وليس الإيمان به أن يصدق بوجود الصانع الحكيم ويخلط بهذا التصديق الإشراك به. وقيل المعصية.

(٨٣) ﴿وَتِلۡكَ﴾ إشارة إلى ما احتج به إبراهيم على قومه من قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ أو من قوله: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي﴾ إليه. ﴿حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ أرشدناه إليها، أو علمناه

---

(١) وإظهار لفظ «ربي» في موضع الإضمار لتأكيد المعنى المذكور والاستلذاذ بذكره تعالى (س٣/ ١٥٥).

(٢) وفي إيراد لفظ التذكر دون التفكر ونظائره إشارة إلى أن أمر أصنامهم مركوز في العقول لا يتوقف إلا على التذكر (س٣/ ١٥٥).

(٣) وجيء بصيغة التفضيل «أحق» المشعرة باستحقاقهم له في الجملة لاستنزالهم عن رتبة المكابرة والاعتساف بسوق الكلام على سنن الإنصاف (س٣/ ١٥٦).

(٤) أخرجه البخاري (١/ ٨٧ رقم ٣٢) ومسلم (١/ ١١٤ رقم ١٢٤) والترمذي (٥/ ٢٦٢ رقم ٣٠٦٧) وأحمد في المسند (رقم: ٣٥٨٩ ـ شاكر) والطبري (رقم: ١٣٤٧٦ ـ شاكر) كلهم من حديث عبدالله بن مسعود.

إياها. ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ متعلق بحجتنا إن جُعِل خبرَ تلك وبمحذوفٍ إنْ جُعِل بدله، أي: آتيناها إبراهيم حجةً على قومه. ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ في العلم والحكمة. وقرأ الكوفيون ويعقوب بالتنوين(١). ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في رفعه وخفضه. ﴿عَلِيمٌ﴾ بحال من يرفعه واستعداده له(٢).

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾

(٨٤) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ أي كلاً منهما. ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ من قبل إبراهيم، عدّ هداه نعمة على إبراهيم من حيث إنه أبوه وشرفُ الوالد يتعدى إلى الولد. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ الضمير لإبراهيم عليه الصلاة والسلام إذ الكلام فيه، وقيل لنوح عليه السلام لأنه أقرب ولأن يونس ولوطاً ليسا من ذرية إبراهيم، فلو كان لإبراهيم اختص البيان بالمعدودين في تلك الآية والتي بعدها، والمذكورون في الآية الثالثة عطف على نوحاً. ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ﴾ أيوب بن أموص من أسباط عيص بن إسحاق. ﴿وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي ونجزي المحسنين جزاءً مثل ما جزينا إبراهيم برفع درجاته وكثرة أولاده والنبوة فيهم.

(٨٥) ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ هو ابن مريم، وفي ذِكْره دليل على أن الذرية تتناول أولاد البنت. ﴿وَإِلْيَاسَ﴾ قيل هو إدريس جد نوح فيكون البيان مخصوصاً بمَنْ في الآية الأولى، وقيل هو من أسباط هارون أخي موسى. ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الكاملين في الصلاح، وهو الإتيان بما ينبغي والتحرز عما لا ينبغي.

(٨٦) ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ﴾ هو اليسع بن أخطوب. وقرأ حمزة والكسائي والليسع، وعلى القراءتين هو عَلَم أعجمي أُدخل عليه اللام كما أدخل على اليزيد في قوله:

رأَيْتُ الوَلِيْدَ بنَ اليَزِيدِ مُبَارَكاً شَدِيداً بِأَعْبَاءِ الخِلافَةِ كَاهِلُهُ

﴿وَيُونُسَ﴾ هو يونس بن متّى. ﴿وَلُوطًا﴾ هو ابن هاران أخي إبراهيم. ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بالنبوة، وفيه دليل على فضلهم على مَنْ عداهم من الخلق.

(٨٧) ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ﴾ عطف على كلاً أو نوحاً أي فضلنا كلاً منهم، أو هدينا هؤلاء وبعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم فإن منهم من لم يكن نبياً ولا مهدياً. ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾ عطف على فضّلنا أو هدينا. ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تكرير لبيان ما هُدوا إليه.

---

(١) وقرأ آخرون بكسر التاء في درجات دون تنوينها، ولعله الأصل عند البيضاوي.

(٢) وفي وضع الرب موضع نون العظمة بطريق الالتفات في تضاعيف بيان أحوال إبراهيم عليه السلام إظهار لمزيد لطف وعناية به عليه السلام (س٣/ ١٥٧).

ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُوا۟
ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى
لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى
خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ
يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾

(٨٨) ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى ما دانوا به. ﴿يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ دليل على أنه متفضل عليهم بالهداية. ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟﴾ أي ولو أشرك هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع فضلهم وعلو شأنهم. ﴿لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ لكانوا كغيرهم في حبوط أعمالهم بسقوط ثوابها.

(٨٩) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يريد به الجنس. ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ الحكمة أو فصل الأمر على ما يقتضيه الحق. ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ والرسالة. ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا﴾ أي بهذه الثلاثة. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني قريشاً. ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾ أي بمراعاتها. ﴿قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ وهم[1] الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المذكورون ومتابعوهم. وقيل هم الأنصار أو أصحاب النبي ﷺ، أو كل من آمن به، أو الفرس. وقيل[2] الملائكة.

(٩٠) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ يريد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المتقدم ذكرهم. ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ فاختص طريقهم بالاقتداء، والمراد بهداهم ماتوافقوا عليه من التوحيد وأصول الدين، دون الفروع المختلَف فيها فإنها ليست هدًى مضافاً إلى الكل ولا يمكن التأسي بهم جميعاً، فليس فيه دليل على أنه عليه الصلاة والسلام متعبِّد بشرع من قبله. والهاء في اقْتَدِه للوقف ومَنْ أثبتها في الدَّرْج ساكنة كابن كثير ونافع وأبي عمرو وعاصم أجرى الوصل مجرى الوقف، ويحذف الهاء في الوصل خاصة حمزة والكسائي، وأشبَعَها بالكسر ابنُ عامر برواية ابن ذكوان على أنها كناية المصدر، وكسرها بغير إشباع برواية هشام. ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على التبليغ أو القرآن. ﴿أَجْرًا﴾ جُعْلاً من جهتكم كما لم يسأل من قبلي من النبيين، وهذا من جملة ما أُمر بالاقتداء بهم فيه. ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي التبليغ أو القرآن أو الغرض. ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ إلا تذكير وموعظة لهم.

(٩١) ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ وما عرفوه حق معرفته في الرحمة والإنعام على العباد. ﴿إِذْ قَالُوا۟ مَآ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ج٧/ ٢٦٥) عن قتادة.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ج٧/ ٢٦٤) عن أبي رجاء.
وأورده السيوطي في «الدر» (٣/ ٣١٢) ونسبه إلى ابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ حين أنكروا الوحي وبعثه الرسل عليهم الصلاة والسلام وذلك من عظائم رحمته وجلائل نعمته، أو في السخط على الكفار وشدة البطش بهم حين جَسَرُوا على هذه المقالة، والقائلون هم اليهود قالوا ذلك مبالغةً في إنكار إنزال القرآن بدليل نقض كلامهم وإلزامِهم بقوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾. وقراءةُ الجمهور: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ بالتاء، وإنما قرأ بالياء ابنُ كثير وأبو عمرو حملاً على قالوا وما قدروا[1]، وتضمن ذلك توبيخُهم على سوء جهلهم بالتوراة وذمهم على تجزئتها بإبداءِ بعضٍ انتخبوه وكتبوه في ورقات متفرقة وإخفاءِ بعضٍ لا يشتهونه. وروي أن مالك بن الصيف قاله لما أغضبه الرسولُ ﷺ بقوله: «أُنشدك اللهَ الذي أنزل التوراة على موسى، هل تجد فيها أن الله يَبْغُض الحبْر السمين؟» قال: نعم، إن الله يبغُض الحبر السمين، قال عليه الصلاة والسلام: «فأنت الحَبْر السمين»[2]. وقيل هم المشركون، وإلزامُهم بإنزال التوراة لأنه كان من المشهورات الذائعة عندهم، ولذلك كانوا يقولون: ﴿لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾[3]. ﴿وَعُلِّمْتُم﴾ على لسان محمد ﷺ. ﴿مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ زيادة على ما في التوراة وبياناً لما التبس عليكم وعلى آبائكم الذين كانوا أعلم منكم، ونظيرُه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[4]. وقيل الخطاب لمن آمن من قريش ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أي أنزله اللهُ أو اللهُ أنزله، أمرَه بأن يجيب عنهم إشعاراً بأن الجواب متعين لا يمكن غيره وتنبيهاً على أنهم بُهِتوا بحيث إنهم لا يقدرون على الجواب. ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ﴾ في أباطيلهم فلا عليك بعد التبليغ وإلزام الحجة. ﴿يَلْعَبُونَ﴾ حال من هم الأول ـ والظرف صلة ذرهم أو يلعبون ـ، أو حال من مفعوله، أو فاعلِ يلعبون، أو من هم الثاني والظرف متصل بالأول.

(٩٢) ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ كثير الفائدة والنفع. ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني التوراة أو الكتب التي قبله. ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ عطف على ما دل عليه مبارك أي للبركات ولِتنذر، أو علةٌ لمحذوف أي ولتنذر أهل أمِّ القرى أنزلناه. وإنما سميت مكةُ بذلك لأنها قِبْلةُ أهل القرى ومَحَجُّهم ومجتمعُهم وأعظم القرى شأناً، وقيل لأن الأرض دحيت من تحتها، أو لأنها مكان أول بيت وضع للناس. وقرأ أبو بكر عن عاصم بالياء أي ولينذر الكتاب. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أهل الشرق والغرب. ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ فإن مَنْ صدَّق بالآخرة خاف العاقبة ولا يزالُ الخوفُ يحمله على النظر والتدبر حتى يؤمن بالنبي والكتاب، والضمير يحتملهما ويحافظ على الطاعة. وتخصيص الصلاة لأنها عماد الدين وعلم الإيمان.

---

(١) قراءتهم بالياء في: تجعلونه.. ويُبدونها... ويُخفون.
(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ج٧/٢٦٧) عن سعيد بن جبير مرسلاً وفي سنده ابن حميد ضعيف.
وذكره الواحدي في «أسباب النزول» ص٢٢٠ بدون سند، عن سعيد بن جبير.
● وأخرج الطبري في «جامع البيان» (٥/ج٧/٢٦٧) عن عكرمة نحوه وفي سنده «سنيد» وهو ضعيف.
(٣) الأنعام: «١٥٧».
(٤) النمل: «٧٦».

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾

(٩٣) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فزعم أنه بَعَثَه نبياً كمسيلمة[١] والأسود العنسي[٢]، أو اختلق عليه أحكاماً كعمرو بن لحيّ ومُتابعيه[٣]. ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ كعبدالله بن سعد بن أبي سرح[٤] كان يكتب لرسول الله ﷺ، فلما نزلت ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾[٥] فلما بلغ قولَه: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾[٦]، قال عبدالله: فتبارك الله أحسن الخالقين، تعجباً من تفصيل خلق الإنسان فقال عليه الصلاة والسلام: «اكتبها فكذلك نزلت» فشكّ عبدالله وقال: لئن كان محمد صادقاً لقد أوحي إليّ كما أوحي إليه ولئن كان كاذباً لقد قلت كما قال[٧]. ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ كالذين قالوا: «لو نشاء لقلنا مثل هذا»[٨]. ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ حذف مفعولَه لدلالة الظرف عليه، أي ولو ترى الظالمين. ﴿فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ شَدَائده، مِنْ غمره الماءُ إذا غشيه. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو

---

(١) مسيلمة الكذّاب من بني حنيفة، قاتلهم المسلمون بقيادة خالد وهم يومئذٍ أكثر العرب فاستشهد خلق كثير، وهزم الله بني حنيفة وقُتِلَ مسيلمة. قتله وحشي بحربةٍ.
[تاريخ الإسلام للذهبي ـ عهد الخلفاء الراشدين ـ ص٣٩، وتاريخ خليفة ص١٠٩].

(٢) الأسود العنسي: هو الذي غلب على صنعاء اليمن وقتل باذان عامل النبي ﷺ واستصفى امرأته المرزبانة لنفسه فتزوجها، وكانت تكرهه لما صنع بقومها. وخططت لقتله وتم لها ذلك.
[المعرفة والتاريخ: للبسوي (٣/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣) وتاريخ خليفة ص١١٦ ـ ١١٧].

(٣) هو عمرو بن ربيعة أبو خزاعة، وهو أول من ولى البيت منهم، ثم رحل إلى قومه بالشام ورأى الأصنام تعبد فأعجبته عبادتها، وقدم مكة بهبل، ودعا الناس إلى عبادته وإلى مفارقته الحنيفية. . .
وعمرو بن لحي أول من بحر البحيرة، وسيب السائبة، وجعل الوصيلة والحام.
[«الأوائل» لأبي هلال العسكري ص٦٠ ـ ٦٢].

(٤) هو عبدالله بن سعد بن أبي سرح الأموي هو أخ لعثمان رضي الله عنه من الرضاعة وَلاّه عثمان على مصر، وقد فتحها مع عمرو بن العاص، وفتح في زمن ولايته على مصر بلاد إفريقية، واغتنم مالاً كثيراً، توفي في حالة الصلاة واختلف في سنة وفاته وصحح ابن كثير سنة ست وثلاثين، وكذا ابن كثير.
[الإصابة (٢/ ٣١٦ رقم ٤٧١١) وأسد الغابة (٣/ ٢٥٩ رقم ٢٩٧٤)].

(٥) المؤمنون: «١٢».

(٦) المؤمنون: «١٤».

(٧) ذكره الواحدي في «الأسباب» ص٢٢٠ من قول ابن عباس في رواية الكلبي وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ ج٧/ ٢٧٣) من رواية أحمد بن المفضل الحفري عن أسباط عن السدي بزيادة في آخره.
قلت: الحفري هذا صدوق شيعي في حفظه شيء: قاله ابن حجر في «التقريب» (١/ ٢٦ رقم ١٢٣).
● واعلم أن عبدالله بن سرح ارتد ثم إنه أسلم وحسن إسلامه.
انظر «عيون الأثر» لابن سيد الناس (٢/ ١٧٥).

(٨) الأنفال: «٣١».

﴿أَيْدِيهِمْ﴾ بقبض أرواحهم كالمتقاضي الملظ[١]، أو بالعذاب. ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ أي يقولون لهم أخرجوها إلينا من أجسادكم تغليظاً وتعنيفاً عليهم، أو أخرجوها من العذاب وخلصوها من أيدينا. ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يريدون وقت الإماتة، أو الوقت الممتد من الإماتة إلى ما لا نهاية له. ﴿تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي الهوان يريدون العذاب المتضمن لشدة وإهانة، فإضافته إلى الهُون لعراقته وتمكنه فيه. ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ كادعاء الولد والشريك له ودعوى النبوة والوحي كاذباً. ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ فلا تتأملون فيها ولا تؤمنون.

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾

(٩٤) ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ للحساب والجزاء. ﴿فُرَٰدَىٰ﴾ منفردين عن الأموال والأولاد وسائر ما آثرتموه من الدنيا، أو عن الأعوان والأوثان التي زعمتم أنها شفعاؤكم، وهو جمع فَرْد والألف للتأنيث كَكُسالى. وقرىء فُراداً كرُخال وفُرَاد كثلاث وفَرْدَى كسكرى. ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بدل منه أي على الهيئة التي ولدتم عليها في الانفراد، أو حال ثانية إن جُوِّز التعدد فيها، أو حال من الضمير في فرادى أي مشبهين ابتداء خلقكم عراة حفاة غرلاً بهما، أو صفة مصدر جئتمونا أي مجيئاً كما خلقناكم. ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ﴾ ما تفضلنا به عليكم في الدنيا فشُغلتم به عن الآخرة. ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ ما قدمتم منه شيئاً ولم تحتملوا نقيراً. ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ أي شركاء لله في ربوبيتكم واستحقاق عبادتكم. ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أي تقطع وصلكم وتشتت جمعكم. والبَيْنُ من الأضداد يستعمل للوصل والفصل، وقيل هو الظرف أُسند إليه الفعل اتساعاً والمعنى: وقع التقطع بينكم، ويشهد له قراءة نافع والكسائي وحفص عن عاصم بالنصب على إضمار الفاعل لدلالة ما قبله عليه، أو أقيم مقام موصوفه وأصلُه لقد تقطع ما بينكم وقد قرىء به. ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾ ضاع وبطل. ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنها شفعاؤكم، أو أن لا بعث ولا جزاء.

(٩٥) ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ بالنبات والشجر. وقيل المراد به الشِّقاق الذي في الحنطة والنواة. ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ﴾ يريد به ما ينمو من الحيوان والنبات ليطابق ما قبله. ﴿مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ مما لا ينمو كالنطف والحب. ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ ومخرج ذلك من الحيوان والنبات، ذَكَره بلفظ الاسم حملاً على فالق الحب فإن قوله: يخرج الحي واقع موقع البيان له. ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي ذلكم المحيي المميت هو الذي يحق له العبادة. ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ تُصرفون عنه إلى غيره.

(٩٦) ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ شاقُّ عمودَ الصبح عن ظلمة الليل أو عن بياض النهار، أو شاقّ ظُلْمَة

---

(١) الملظّ: أي الملحّ الذي يبسط يده إلى من عليه الحق ويعنف عليه في المطالبة من غير إمهال.

الإصباح وهو الغَبَش الذي يليه. والإصباح في الأصل مصدر أصبح إذا دخل في الصباح سمي به الصبح. وقرىء بفتح الهمزة على الجمع وقرىء فالقَ الإصباح بالنصب على المدح. ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ يسكن إليه التَّعِبُ بالنهار لاستراحته فيه؛ مِنْ سكن إليه إذا اطمأن إليه استئناساً به، أو يَسْكُن فيه الخلق من قوله تعالى: ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾[1]. ونصبُه بفعل دل عليه «جاعل» لا به[2] فإنه في معنى الماضي، ويدل عليه قراءة الكوفيين وجَعَلَ الليلَ حَمْلاً على معنى المعطوف عليه فإن فالقَ بمعنى فَلَق ولذلك قرىء به، أو به[3] على أن المراد منه جَعْلٌ مستمر في الأزمنة المختلفة وعلى هذا يجوز أن يكون ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ عطفاً على محل الليل ويشهد له قراءتهما بالجر، والأحسنُ نصبهما بجَعَلَ مقدراً. وقرىء بالرفع على الابتداء، والخبرُ محذوف أي مجعولان. ﴿حُسْبَانًا﴾ أي على أدوار مختلفة يُحْسَبُ بهما الأوقاتُ ويكونان علمَيْ الحسبان، وهو مصدر حَسَبَ ـ بالفتح ـ كما أن الحِسْبان ـ بالكسر ـ مصدر حَسِب، وقيل جمع حساب كشِهَاب وشُهبان. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى جعلهما حسباناً، أي ذلك التسيير بالحساب المعلوم. ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي قهرهما وسيرهما على الوجه المخصوص. ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بتدبيرهما والأنفع من التداوير الممكنة لهما.

وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

(٩٧) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ﴾ خلقها لكم. ﴿لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ في ظلمات الليل في البر والبحر وإضافتُها إليهما للملابسة، أو في مشتبهات الطرق وسماها ظلمات على الاستعارة، وهو إفراد لبعض منافعها بالذكر بعد ما أجملها بقوله «لكم» ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ﴾ بيناها فَصْلاً فَصْلاً. ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فإنهم المنتفعون به.

(٩٨) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هو آدم عليه الصلاة والسلام. ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ أي فلكم استقرار في الأصلاب أو فوق الأرض، واستيداع في الأرحام أو تحت الأرض، أو موضع استقرار واستيداع[4]. وقرأ ابن كثير والبصريان بكسر القاف على أنه اسم فاعل. والمستودَع اسم مفعول أي

(١) يونس: ٦٧.
(٢) الضمير يعود على (جاعل).
(٣) أي منصوب به أي بجاعل.
(٤) والتعبير عن كونهم في الأصلاب أو فوق الأرض بالاستقرار لأنهما مقرهم الطبيعي، كما أن التعبير عن كونهم في الأرحام أو تحت الأرض بالاستيداع لأنهما ليس بمقرهم الطبيعي (س٣/ ١٦٥).

فمنكم قارّ ومنكم مستودَع، لأن الاستقرار منّا دون الاستيداع. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ ذَكَرَ مع ذِكْر النجوم «يعلمون» لأن أمرَها ظاهر، ومع ذِكْر تخليق بني آدم «يفقهون» لأن إنشاءَهم من نفس واحدة وتصريفَهم بين أحوالٍ مختلفة دقيقٌ غامض يحتاج إلى استعمالِ فطنة وتدقيق نظر.

(٩٩) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ من السحاب، أو من جانب السماء. ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ على تلوين الخطاب. ﴿بِهِۦ﴾ بالماء. ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ نبت كل صنف من النبات. والمعنى: إظهارُ القدرة في إنبات الأنواع المختلفة المفنَّنة المَسْقية بماء واحد، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾(١). ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ من النبات، أو الماء. ﴿خَضِرًا﴾ شيئاً أخضر، يقال أخضر وخَضِر كأعْور وعَوِر، وهو الخارج من الحبة المتشعب. ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ﴾ من الخَضِر. ﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ وهو السنبل. ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ﴾ أي وأخرجنا من النخل نخلاً من طلعها قنوان، أو من النخل شيء من طلعها قنوان، ويجوز أن يكون من النخل خبرُ قنوان ومِنْ طلعِها بدلٌ منه، والمعنى: وحاصلة من طلع النخل قنوان وهو الأعذاق جمع قِنْو كصِنْوان جمع صِنْو. وقرىء بضم القاف كذئب وذُؤبان، وبفتحها على أنه اسم جمع إذ ليس فَعْلان من أبنية الجمع. ﴿دَانِيَةٌ﴾ قريبة من المتناول، أو مُتلَفة قريب بعضها من بعض. وإنما اقتصر على ذكرها عن مقابلها لدلالتها عليه وزيادة النعمة فيها. ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ عطف على نبات كل شيء. وقرأ نافع بالرفع على الابتداء أي ولكم أو ثم جنات أو من الكرم جناتٌ، ولا يجوز عطفه على قنوان إذ العنب لا يخرج من النخل. ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ أيضاً عطفٌ على نبات، أو نصب على الاختصاص لعزة هذين الصنفين عندهم. ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ حالٌ من الرمان أو من الجميع، أي بعض ذلك متشابه وبعضه غير متشابه في الهيئة والقدر واللون والطعم. ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾ أي ثمر كل واحد من ذلك. وقرأ حمزة والكسائي بضم الثاء والميم، وهو جمع ثمرة كخَشَبَة وخُشُب أو ثمار ككتاب وكتب. ﴿إِذَآ أَثْمَرَ﴾ إذا أخرج ثمَرَه كيف يُثْمِر ضئيلاً لا يكاد ينتفع به. ﴿وَيَنْعِهِۦٓ﴾ وإلى حالِ نضجه أو إلى نضيجه كيف يعود ضخماً ذا نفع ولذة، وهو في الأصل مصدر يَنَعتِ الثمرُ إذا أدركت وقيل جمع يانع كتاجر وتَجْر. وقرىء بالضم وهو لغة فيه، ويانعه. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لآيات دالة على وجود القادر الحكيم وتوحيده، فإن حدوث الأجناس المختلفة والأنواع المتفننة من أصل واحد ونقلها من حال إلى حال لا يكون إلا بإحداث قادر يعلم تفاصيلها، ويرجح ما تقتضيه حكمته مما يمكن من أحوالها ولا يعوقه عن فعله ندّ يعارضه أو ضد يعانده، ولذلك عقبه بتوبيخ من أشرك به والرد عليه فقال:

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠﴾

(١٠٠) ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ أي الملائكةَ بأنْ عبدوهم وقالوا الملائكة بناتُ الله؛ وسماهم جناً لاجتنانهم تحقيراً لشأنهم، أو الشياطينَ لأنهم أطاعوهم كما يطاع الله تعالى، أو عبدوا الأوثان بتسويلهم وتحريضهم، أو قالوا الله خالق الخير وكل نافع والشيطانُ خالق الشر وكل ضار كما هو رأي

---

(١) الرعد: «٤». وأثبتها على غير قراءة حفص عن عاصم. وقد قرأ بها قراء. وعند حفص «يُسقى».

الثنوية. ومفعولا جعلوا: لله شركاء؛ والجنَّ بدل من شركاء، أو شركاءَ الجنِّ، ولله متعلق بشركاء أو حالٌ منه. وقرىء الجنُّ بالرفع كأنه قيل مَنْ هم فقيل الجن، والجنِّ بالجر على الإضافة للتبيين. ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ حال بتقدير قد، والمعنى وقد علموا أن الله خالقهم دون الجن وليس من يخلق كمن لا يخلق. وقرىء وخَلْقَهُم عطفاً على الجن أي وما يخلقونه من الأصنام أو على شركاء أي وجعلوا له اختلافهم للإفك حيث نسبوه إليه. ﴿وَخَرَقُوا لَهُ﴾ افتعلوا وافتروا له. وقرأ نافع بتشديد الراء للتكثير، وقرىء وحرّفوا أي وزوّروا. ﴿بَنِينَ وَبَنَاتٍ﴾ فقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقالت العرب الملائكةُ بنات الله. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوه ويروا عليه دليلاً، وهو في موضع الحال من الواو أو المصدر أي خرقاً بغير علم. ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ وهو أن له شريكاً أو ولداً.

بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

(١٠١) ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها، أو إلى الظرف كقولهم: ثَبت الغدر بمعنى أنه عديم النظير فيهما. وقيل معناه المبدع وقد سبق الكلام فيه، ورفعُه على الخبر والمبتدأُ محذوفٌ أو على الابتداء وخبرُه: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي من أين أو كيف يكون له ولد. ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾ يكون منها الولد. وقرىء بالياء للفصل، أو لأن الاسم ضمير الله أو ضمير الشأن. ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا تخفى عليه خافية، وإنما لم يقل به لتطرق التخصيص إلى الأول. وفي الآية استدلال على نفي الولد من وجوه: الأول: أنه من مبدعَاته السموات والأرضون، وهي مع أنها من جنس ما يوصف بالولادة مبرأة عنها لاستمرارها وطول مدتها فهو أولى بأن يتعالى عنها، أو أن ولد الشيء نظيره ولا نظير له فلا ولد. والثاني: أن المعقول من الولد ما يتولد من ذكر وأنثى متجانسين والله سبحانه وتعالى منزه عن المجانسة. والثالث: أن الولد كفؤ الوالد ولا كفؤَ له لوجهين: الأول أن كل ما عداه مخلوقُه فلا يكافئه. والثاني أنه سبحانه وتعالى لذاته عالم بكل المعلومات ولا كذلك غيره بالإجماع.

(١٠٢) ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إشارة إلى الموصوف بما سبق من الصفات وهو مبتدأ. ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أخبارٌ مترادفة، ويجوز أن يكون البعض بدلاً أو صفة والبعض خبراً. ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ حكم مسبَّب عن مضمونها فإن من استجمع هذه الصفات استحق العبادة. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي وهو مع تلك الصفات متولي أموركم فكِلوها إليه وتوسلوا بعبادته إلى إنجاح مآربكم ورقيب على أعمالكم فيجازيكم عليها.

(١٠٣) ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ أي لا تحيط به. ﴿الْأَبْصَارُ﴾ جمع بصر، وهي حاسة النظر وقد يقال للعين من حيث إنها محلها. واستدل به المعتزلة على امتناع الرؤية وهو ضعيف، إذ ليس الإدراك مطلق

الرؤية ولا النفي في الآية عاماً في الأوقات فلعله مخصوص ببعض الحالات ولا في الأشخاص فإنه في قوة قولنا لا كل بصر يدركه مع أن النفي لا يوجب الامتناع. ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ يحيط علمه بها. ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ فيدرك ما لا تدركه الأبصار كالأبصار، ويجوز أن يكون من باب اللفّ أي لا تدركه الأبصار لأنه اللطيف وهو يدرك الأبصار لأنه الخبير، فيكون اللطيف مستعاراً من مقابل الكثيف لما لا يدرَك بالحاسة ولا ينطبع فيها.

قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ
نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾

(١٠٤) ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ البصائر جمع بصيرة، وهي للنفس كالبصر للبدن، سميت بها الدلالة لأنها تُجلي لها الحق وتبصرها به. ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ أي أبصر الحق وآمن به. ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أبصر لأن نفعه لها. ﴿وَمَنْ عَمِىَ﴾ عن الحق وضل. ﴿فَعَلَيْهَا﴾ وباله. ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ وإنما أنا منذر والله سبحانه وتعالى هو الحفيظ عليكم يحفظ أعمالكم ويجازيكم عليها، وهذا كلام ورد على لسان الرسول عليه الصلاة والسلام[١].

(١٠٥) ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ ومثلُ ذلك التصريف نصرف، وهو إجراء المعنى الدائر في المعاني المتعاقبة من الصرف وهو نقل الشيء من حال إلى حال. ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ﴾ أي وليقولوا درست صرّفنا، واللام لام العاقبة، والدَّرْس القراءة والتعلم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو دارستَ أي دارست أهل الكتاب وذاكرتَهم، وابنُ عامر ويعقوب دَرَسَتْ من الدروس أي قَدِمت هذه الآيات وعَفَت كقولهم أساطيرُ الأولين، وقرىء دَرُسَتْ بضم الراء مبالغة في درست، ودُرِسَتْ على البناء للمفعول بمعنى قرئت أو عُفِيت، ودَارسَتْ بمعنى دَرَسْتَ أو دارستِ اليهودُ محمداً ﷺ، وجاز إضمارهم بلا ذكر لشهرتهم بالدراسة، ودرسَنْ أي عنون ودرس أي درس محمد ﷺ ودارسات أي قديمات أو ذوات درس كقوله تعالى ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾[٢]. ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ﴾ اللام على أصله لأن التبيين مقصود التصريف. والضمير للآيات باعتبار المعنى، أو للقرآن وإن لم يذكَر لكونه معلوماً، أو للمصدر. ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فإنهم المنتفعون به[٣].

(١٠٦) ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ بالتدين به. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ اعتراض أكد به إيجاب الاتباع، أو حال مؤكدة مِنْ ربك بمعنى منفرداً في الألوهية. ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ولا تحتفل بأقوالهم ولا تلتفت إلى آرائهم، ومن جعله منسوخاً بآية السيف حمل الإعراض على ما يعم الكف عنهم.

---

(١) قوله «من ربكم» تعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لإظهار كمال اللطف بهم. وقوله «ومن عمي» عبر عنه بالعمى تقبيحاً له وتنفيراً عنه (س٣/ ١٧٠).

(٢) الحاقة: «٢١».

(٣) ووصفهم بالعلم للإيذان بغاية جهل الأولين وخلوهم عن العلم بالمرة (س٣/ ١٧١).

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ
مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا
يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾

(١٠٧) ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ توحيدَهم وعدمَ إشراكهم. ﴿مَا أَشْرَكُوا﴾ وهو دليل على أنه سبحانه وتعالى لا يريد إيمان الكافرين وأن مراده واجب الوقوع. ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ رقيباً. ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ تقوم بأمورهم.

(١٠٨) ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي ولا تذكروا آلهتهم التي يعبدونها بما فيها من القبائح. ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا﴾ تجاوزاً عن الحق إلى الباطل. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ على جهالة بالله سبحانه وتعالى وبما يجب أن يذكر به. وقرأ يعقوب عُدُوّاً يقال عدا فلان عَدْواً وعُدُوّاً وعداء وعدواناً. روي: أنه عليه الصلاة والسلام كان يطعن في آلهتهم فقالوا لتنتهين عن سب آلهتنا أو لنهجُون إلهك، فنزلت[1]. وقيل كان المسلمون يسبونها فنُهوا لئلا يكون سبهم سبباً لسب الله سبحانه وتعالى[2]، وفيه دليل على أن الطاعة إذا أدت إلى معصية راجحة وجب تركها فإن ما يؤدي إلى الشر شر. ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ من الخير والشر بإحداث ما يُمكِّنهم منه ويحملهم عليه توفيقاً وتخذيلاً، ويجوز تخصيص العمل بالشر وكلِّ أمة بالكفرة لأن الكلام فيهم، والمشبَّه به تزيينُ سبِّ الله لهم. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بالمحاسبة والمجازاة عليه.

(١٠٩) ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ مصدر في موقع الحال، والداعي لهم إلى هذا القَسَم والتأكيدِ فيه التحكُّمُ على الرسول ﷺ في طلب الآيات واستحقار ما رأوْا منها. ﴿لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ من مقترحاتهم. ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾ هو قادر عليها يظهر منها ما يشاء وليس شيء منها بقدرتي وإرادتي. ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ وما يدريكم، استفهام إنكار. ﴿أَنَّهَا﴾ أي أن الآية المقترحة. ﴿إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا تدرون أنهم لا يؤمنون، أنكر السبب مبالغة في نفي المسبَّب، وفيه تنبيه على أنه سبحانه وتعالى إنما لم ينزلها لعلمه بأنها إذا جاءت لا يؤمنون بها، وقيل «لا» مزيدة وقيل أنَّ بمعنى لعل إذ قرىء لعلها، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم ويعقوب إنها بالكسر كأنه قال: وما يشعركم ما يكون منهم، ثم أخبرهم بما علم منهم والخطاب للمؤمنين فإنهم يتمنون مجيء الآية طمعاً في إيمانهم، فنزلت. وقيل للمشركين إذ قرأ ابن عامر وحمزة «لا تؤمنون» بالتاء، وقرىء وما يشعِرهم أنها إذا جاءتهم فيكون إنكاراً لهم على حلفهم أي: وما يشعرهم أن قلوبهم حينئذٍ لم تكن مطبوعة كما كانت عند نزول القرآن وغيره من الآيات فيؤمنون بها.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٥/ج٧/٣٠٩) عن ابن عباس.
وفي سنده «أبو صالح كاتب الليث» ضعيف.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٥/ج٧/٣٠٩) عن قتادة، بإسناده صحيح.

وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا
نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ
وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ
بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾

(١١٠) ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾ عطف على لا يؤمنون أي: وما يشعركم أنا حينئذ نقلب أفئدتهم عن الحق فلا يفقهونه وأبصارهم فلا يبصرونه فلا يؤمنون بها. ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ﴾ أي بما أنزل من الآيات. ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وندعهم متحيرين لا نهديهم هداية المؤمنين. وقرىء وَيُقَلِّبُ ويَذَرُهم على الغيبة، وتُقَلَّبُ على البناء للمفعول والإسناد إلى الأفئدة.

(١١١) ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾ كما اقترحوا فقالوا: لولا أُنزِل علينا الملائكة فأتوا بآبائنا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا، وقُبُلاً جمع قبيل بمعنى كفيل أي: كفلاء بما بَشروا به وأنذروا به، أو جمع قبيل الذي هو جمع قبيلة بمعنى جماعات، أو مصدر بمعنى مقابلة كقِبَلاً وهو قراءة نافع وابن عامر، وهو على الوجوه حال من كل وإنما جاز ذلك لعمومه. ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟﴾ لما سبق عليهم القضاء بالكفر. ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ استثناء من أعم الأحوال أي: لا يؤمنون في حال من الأحوال إلا حال مشيئة الله تعالى إيمانهم، وقيل منقطع وهو حجة واضحة على المعتزلة[١]. ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ أنهم لو أوتوا بكل آية لم يؤمنوا فيقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لا يشعرون، ولذلك أسند الجهل إلى أكثرهم مع أن مطلق الجهل يعمهم، أو ولكن أكثر المسلمين يجهلون أنهم لا يؤمنون فيتمنون نزول الآية طمعاً في إيمانهم.

(١١٢) ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا﴾ أي كما جعلنا لك عدواً جعلنا لكل نبي سبقك عدواً، وهو دليل على أن عداوة الكَفَرة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام بفعل الله سبحانه وتعالى وخلقه. ﴿شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ مردة الفريقين، وهو بدلٌ من عدواً، أو أول مفعولَيْ جعلنا وعدواً مفعوله الثاني، ولكلٌ متعلق به أو حال منه. ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ يوسوس شياطين الجن إلى شياطين الإنس، أو بعضُ الجن إلى بعضٍ وبعض الإنس إلى بعض. ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ الأباطيل المموهة منه، مِنْ زخرفه إذازينه. ﴿غُرُورًا﴾ مفعول له، أو مصدر في موقع الحال. ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ إيمانهم[٢]. ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ أي ما فعلوا ذلك يعني معاداة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وإيحاءَ الزخارف، ويجوز أن يكون الضمير للإيحاء أو الزخرف أو الغرور، وهو أيضاً دليل على المعتزلة. ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ وكفرهم.

---

١) والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة (س٣/ ١٧٤).
٢) الالتفات فيه والتعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام لكمال اللطف في التسلية (س٣/ ١٧٦).

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾

(١١٣) ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ عطف على غروراً إن جُعِل علة، أو متعلق بمحذوف أي وليكون ذلك جَعَلْنا لكل نبيٍ عدواً. والمعتزلةُ لما اضطروا فيه قالوا: اللام لام العاقبة، أو لام القسم كُسِرت لما لم يؤكد الفعل بالنون، أو لام الأمر وضعفه أظهر. والصغو: الميل، والضمير لما له الضمير في فعلوه[1]. ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ لأنفسهم. ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟﴾ وليكتسبوا. ﴿مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ من الآثام.

(١١٤) ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ على إرادة القول أي: قل لهم يا محمد أفغير الله أطلب مَنْ يحكم بيني وبينكم ويفصل المحق منا من المبطل، وغيرَ مفعول أبتغي، وحَكَماً حال منه ويحتمل عكسه. وحَكَماً أبلغ من حاكم ولذلك لا يوصف به غير العادل. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ القرآن المعجز. ﴿مُفَصَّلًا﴾ مبيَّناً فيه الحق والباطل بحيث ينفي التخليط والالتباس. وفيه تنبيه على أن القرآن بإعجازه وتقريره مغنٍ عن سائر الآيات. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ تأييد لدلالة الإعجاز على أن القرآن حق منزل من عند الله سبحانه وتعالى، يعلم أهلُ الكتاب به لتصديقه ما عندهم مع أنه عليه الصلاة والسلام لم يمارس كتبَهم ولم يخالط علماءهم، وإنما وَصَفَ جميعَهم بالعلم لأن أكثرهم يعلمون ومن لم يعلم فهو متمكن منه بأدنىٰ تأمل. وقيل المراد مؤمنو أهل الكتاب. وقرأ ابن عامر وحفص عن عاصم منزل بالتشديد. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ في أنهم يعلمون ذلك، أو في أنه منزل لجحود أكثرهم وكفرهم به، فيكون من باب التهييج كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[2] أو خطاب الرسول ﷺ لخطاب الأمة. وقيل الخطاب لكل أحد على معنى أن الأدلة لما تعاضدت على صحته فلا ينبغي لأحد أن يمتري فيه.

(١١٥) ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بلغت الغاية أخبارُه وأحكامه ومواعيده[3]. ﴿صِدْقًا﴾ في الأخبار والمواعيد. ﴿وَعَدْلًا﴾ في الأقضية والأحكام. ونصبهما يحتمل التمييز، والحال، والمفعول له. ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ لا أحد يبدل شيئاً منها بما هو أصدق وأعدل، أو لا أحد يقدر أن يحرفها شائعاً ذائعاً كما فعل بالتوراة على أن المراد بها القرآن، فيكون ضماناً لها من الله سبحانه وتعالى بالحفظ كقوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾[4] أو لا نبي ولا كتاب بعدها ينسخها ويبدل أحكامها. وقرأ الكوفيون ويعقوب كلمةُ ربك أي ما تكلم به أو القرآن. ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما يقولون. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يضمرون فلا يهملهم.

---

(١) وخص بالذكر عدم إيمانهم بالآخرة إشعاراً بأنه المدار في إصغاء أفئدتهم لما يلقى إليهم (س٣/١٧٦).
(٢) الأنعام: «١٤».
(٣) أثبت البيضاوي الأصل بالجمع على قراءة من قرأ بها «وتمت كلمات ربك».
(٤) يوسف: «١٢».

وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن
كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ
إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾

(١١٦) ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ﴾ أي أكثر الناس يريد الكفار، أو الجهال، أو اتباع الهوى. وقيل الأرض أرض مكة. ﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عن الطريق الموصل إليه، فإن الضال في غالب الأمر لا يأمر إلا بما فيه ضلال. ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ وهو ظنهم أن آباءهم كانوا على الحق، أو جهالاتهم وآراؤهم الفاسدة فإن الظن يطلق على ما يقابل العلم. ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يكذبون على الله سبحانه وتعالىٰ فيما ينسبون إليه كاتخاذ الولد وجعل عبادة الأوثان وُصلة إليه وتحليل الميتة وتحريم البحائر، أو يُقدِّرون أنهم على شيء وحقيقتُه ما يقال عن ظن وتخمين.

(١١٧) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي أعلم بالفريقين، ومَنْ موصولة أو موصوفة في محل النصب بفعلٍ دل عليه أعلم لا به فإن أفعَلَ لا يُنصَب الظاهر في مثل ذلك، أو استفهامية مرفوعة بالابتداء والخبرُ يضل والجملةُ معلقٌ عنها الفعل المقدر. وقرىء مَنْ يُضِل أي يضله الله، فتكون مَنْ منصوبة بالفعل المقدر أو مجرورة بإضافة أعلم إليه أي: أعْلَمُ المضلين من قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾(١) أو من أضللتَه إذا وجدتَه ضالاً، والتفضيل في العلم بكثرته وإحاطته بالوجوه التي يمكن تعلق العلم بها ولزومه وكونه بالذات لا بالغير.

(١١٨) ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ مسبب عن إنكار اتباع المضلين الذين يحرمون الحلال ويحللون الحرام، والمعنى كلوا مما ذكر اسم الله على ذبحه لا مما ذكر عليه اسم غيره أو مات حتفَ أنفه. ﴿إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان بها يقتضي استباحة ما أحله الله سبحانه وتعالى واجتناب ما حرمه.

(١١٩) ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ وأي غرض لكم في أن تتحرجوا عن أكله وما يمنعكم عنه. ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ مما لم يحرم بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾(٢). وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر فُصِّل على البناء للمفعول، ونافع ويعقوب وحفص حَرَّم على البناء للفاعل. ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ مما حرم عليكم فإنه أيضاً حلال حال الضرورة.. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ﴾ بتحليل الحرام وتحريم الحلال. قرأ الكوفيون بضم الياء والباقون بالفتح. ﴿بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بتشهيهم من غير تعلق بدليل يفيد العلم. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ بالمجاوزين الحق إلى الباطل والحلالَ إلى الحرام.

---

(١) النساء: «٨٨».

(٢) المائدة: «٣».

وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠) وَلَا تَأْكُلُوا
مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ
إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١) أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي
الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢)

(١٢٠) ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ ما يُعلن وما يُسر، أو ما بالجوارح وما بالقلب. وقيل الزنا في الحوانيت واتخاذ الأخدان. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ يكتسبون.

(١٢١) ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ظاهر في تحريم متروكِ التسمية عمداً أو نسياناً، وإليه ذهب داود [1] وعن أحمد مثله، وقال مالك والشافعي بخلافه لقوله عليه الصلاة والسلام: «ذبيحة المسلم حلال وإن لم يذكر اسم الله عليه» [2] وفرق أبو حنيفة رحمه الله بين العمد والنسيان وأوّله بالميتة أو بما ذُكِر غير اسم الله عليه لقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ فإن الفسق ما أهل لغير الله به، والضمير لِمَا ويجوز أن يكون للأكل الذي دل عليه لا تأكلوا. ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ﴾ ليوسوسون. ﴿إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ من الكفار. ﴿لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ بقولهم تأكلون ما قتلتم أنتم وجوارحُكم وتَدَعون ما قتله الله، وهو يؤيد التأويل بالميتة. ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ في استحلال ما حرم. ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ فإن من ترك طاعة الله تعالى إلى طاعة غيره واتبعه في دينه فقد أشرك، وإنما حسُن حذف الفاء فيه لأن الشرط بلفظ الماضي.

(١٢٢) ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ مثّل به مَنْ هداه الله سبحانه وتعالىٰ وأنقذه من الضلال وجعل له نور الحجج والآيات يتأمل بها في الأشياء، فيميز بين الحق والباطل والمحق والمبطل. وقرأ نافع ويعقوب ميّتاً على الأصل. ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ﴾ صفتُه وهو مبتدأ خبَرُه: ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾، وقوله: ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ حال من المستكنّ في الظرف لا من الهاء في مَثَله للفصل، وهو مَثَل لمن بقي على الضلالة لا يفارقها بحال. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما زين للمؤمنين إيمانهم. ﴿زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ والآية نزلت في حمزة وأبي جهل وقيل في عمر أو عمار وأبي جهل.

---

(١) داود: هو الإمام داود بن علي بن خلف الأصبهاني الأصل الكوفي المولد البغدادي الدار الشهير بداود الظاهري، المكنى بأبي سليمان، ولد سنة ٢٠١ وتوفي سنة «٢٧٠هـ».
الجرح والتعديل، القسم الثاني من المجلد الأول ص٤١٠.

(٢) ● أخرج عبد بن حميد، عن راشد بن سعد، قال: قال رسول الله ﷺ: «ذبيحة المسلم حلال سمى أو لم يسمِّ مالم يتعمد، والصيد كذلك» كما في «الدر المنثور» (٣/ ٣٤٩).
● وأخرج أبو داود في «المراسيل» (ص٢٧٨ رقم ٣٧٨) عن الصلت، قال: قال رسول الله ﷺ «ذبيحة المسلم حلال، ذكر اسم الله أو لم يذكر، إنه إن ذكرَ لم يذكُر إلاّ اسمَ الله».
والصلت: هو السدوسي، تابعي، لين الحديث، أرسل حديثاً. (التقريب: ١/ ٣٧٠).
● ويعضد هذا المرسل بما رواه الدارقطني [في السنن (٤/ ٢٩٥ رقم ٩٦)] عن ابن عباس قال «إذا ذبح المسلم، فلم يذكر اسم الله فليأكل، فإن المسلم فيه اسماً من أسماء الله».
قلت: وذكر ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٧٤ ـ ١٧٨) مذاهب العلماء ـ وأدلتهم في المسألة، والذي يُرجح مذهب أبو حنيفة ومن معه من التفريق بين العمد والنسيان ـ والله أعلم ـ.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا
يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ
رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ
ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ
فِي ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾

(١٢٣) ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ أي كما جعلنا في مكة أكابر مجرميها ليمكروا فيها جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها. وجعلنا بمعنى صيّرنا، ومفعولاه أكابر مجرميها على تقديم المفعول الثاني، أو في كل قرية أكابر، ومجرميها بدلٌ ويجوز أن يكون مضافاً إليه إن فُسر الجعل بالتمكين، وأفعَل التفضيل إذا أضيف جاز فيه الإفراد والمطابقة ولذلك قرىء أكبر مجرميها، وتخصيص الأكابر لأنهم أقوى على استتباع الناس والمكر بهم. ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ لأن وباله يحيق بهم. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ذلك.

(١٢٤) ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ يعني كفار قريش لما روي أن أبا جهل قال زاحمَنَا بني عبد مناف في الشرف، حتى إذا صرنا كفرَسَيْ رِهان قالوا: منّا نبي يوحى إليه، واللهِ لا نرضى به إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه، فنزلت: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ استئناف للرد عليهم بأن النبوة ليست بالنَّسب والمال وإنما هي بفضائلَ نفسانية يخص الله سبحانه وتعالى بها من يشاء من عباده فيجتبي لرسالاته من علم أنه يصلح لها، وهو أعلم بالمكان الذي يضعها فيه. وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم رسالته[(١)]. ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ﴾ ذل وحقارة بعد كبرهم[(٢)]. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ يوم القيامة، وقيل تقديره من عند الله. ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾ بسبب مكرهم، أو جزاء على مكرهم.

(١٢٥) ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾ يعرفه طريق الحق ويوفقه للإيمان. ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ فيتسع له ويفسح فيه مجاله، وهو كناية عن جعل النفس قابلة للحق مهيأة لحلوله فيها مصفاة عما يمنعه وينافيه، وإليه أشار عليه أفضل الصلاة والسلام حين سئل عنه فقال: «نور يقذفه الله سبحانه وتعالى في قلب المؤمن فينشرح له وينفسح» فقالوا: هل لذلك من أمارة يعرف بها؟ فقال: «نعم، الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله»[(٣)]. ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ

---

(١) أثبت البيضاوي الأصل بالجمع (رسالاته).

(٢) ووضع الموصول موضع الضمير للإشعار بأن إصابة ما يصيبهم لإجرامهم المستتبع لجميع الشرور والقبائح (س/٣/١٨٣).

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (ص١٠٦ رقم ٣١٥) ووكيع في «الزهد» (١/٢٣٨ رقم ١٥) وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣/٢٢١ رقم ١٦١٦١) والطبري في «جامع البيان» (٥/ج٨/٢٦ ـ ٢٧) والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص١٥٦ بأسانيدهم عن عمرو بن مرة عن أبي جعفر عبدالله بن مسور المدائني. =

﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ بحيث ينبو عن قبول الحق فلا يدخله الإيمان. وقرأ ابن كثير ضَيْقاً بالتخفيف، ونافع وأبو بكر عن عاصم حَرِجاً بالكسر أي شديد الضيق، والباقون بالفتح وصفاً بالمصدر. ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ شبّهه مبالغة في ضيق صدره بمن يزاول ما لا يقدر عليه، فإن صعود السماء مَثَلٌ فيما يبعد عن الاستطاعة، ونبه به على أن الإيمان يمتنع منه كما يمتنع الصعود. وقيل معناه كأنما يتصاعد إلى السماء نبواً عن الحق وتباعداً في الهرب منه. وأصل يصَّعَّد يتصعد وقد قرىء به، وقرأ ابن كثير يَصْعَد، وأبو بكر عن عاصم يَصّاعد بمعنى يتصاعد. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كما يضيق صدره ويبعد قلبه عن الحق. ﴿يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يجعل العذاب أو الخذلان عليهم، فوضع الظاهر موضع المضمر للتعليل.

﴿وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) ۞ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٧) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨) وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩)﴾

(١٢٦) ﴿وَهَٰذَا﴾ إشارة إلى البيان الذي جاء به القرآن، أو إلى الإسلام، أو ما سبق من التوفيق والخذلان. ﴿صِرَاطُ رَبِّكَ﴾ الطريق الذي ارتضاه، أو عادته وطريقه الذي اقتضته حكمته. ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ لا عوج فيه، أو عادلاً مطَّرداً. وهو حال مؤكِّدة كقوله: «وهو الحق مصدقاً» أو مقيِّدة، والعامل فيها معنى الإشارة. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ فيعلمون أن القادر هو الله سبحانه وتعالى وأن كل

= وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٥٤) إلى ابن المنذر، والفريابي وابن أبي حاتم وابن مردويه.

وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥/ج٨/٢٧) والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص١٥٦ وسعيد بن منصور وابن أبي حاتم، كما في «الدر المنثور» (٣/ ٣٥٥) عن أبي جعفر عبدالله بن مسور المدائني عن النبي ﷺ. وقال البيهقي: وهذا منقطع.

قلت: أبو جعفر هذا: عبدالله بن مسور بن عبدالله بن عون بن جعفر بن أبي طالب القرشي الهاشمي، سكن المدائن، روى عن النبي ﷺ مرسلاً، كان يضع الحديث ويكذب.

[التاريخ الكبير (٥/ ١٩٥) والجرح والتعديل (٥/ ١٦٩)].

وقد روى الحديث موصولاً عن ابن مسعود من طرق، انظر تخريجها في «الزهد» الوكيع (١/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠) وكذلك له شواهد، عن قتادة والحسن والفضيل. انظر تخريجها كذلك المرجع السابق (١/ ٢٤٠).

وقال الشيخ عبدالرحمٰن عبدالجبار الفريوائي في الختام «وهذه الطرق كلها معلولة بالإرسال والانقطاع، هذا وقد ذكر ابن كثير طرق عبدالرزاق، وابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي جعفر، وطرق ابن مسعود، وقال: (فهذه طرق لهذا الحديث مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضاً).

قلت: كذا قال، والراجح أن الحديث من طريق ابن مسعود وهم من الرواة، وطريق أبي جعفر عبدالله بن مسور ضعيف جداً لأجله، والطرق الأخرى كلها معلولة والله أعلم» هـ.

فالخلاصة: أن الحديث ضعيف.

ما يحدث من خير أو شر فهو بقضائه وخلقه، وأنه عالم بأحوال العباد حكيم عادل فيما يفعل بهم.

(١٢٧) ﴿ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ دار الله؛ أضاف الجنة إلى نفسه تعظيماً لها، أو دار السلامة من المكاره، أو دارٌ تحيتهم فيها سلام. ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في ضمانه، أو ذخيرة لهم عنده لا يعلم كنهها غيره. ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ مُواليهم أو ناصرهم. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ بسبب أعمالهم، أو متوليهم بجزائها فيتولى إيصاله إليهم.

(١٢٨) ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ نصب بإضمار اذكر أو نقول، والضمير لمن يُحشَر من الثقلين. وقرأ حفص عن عاصم وروح عن يعقوب يحشرهم بالياء[١]. ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾ يعني الشياطين. ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ أي من إغوائهم وإضلالهم، أو منهم بأن جعلتموهم أتباعكم فحُشِروا معكم كقوله: استكثر الأميرُ من الجنود. ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ الذين أطاعوهم. ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي انتفع الإنس بالجن بأن دَلُّوهم على الشهوات وما يتوصل به إليها، والجنُّ بالإنس بأن أطاعوهم وحصلوا مرادهم. وقيل استمتاع الإنس بهم أنهم كانوا يعوذون بهم في المفاوز وعند المخاوف، واستمتاعهم بالإنس اعترافُهم بأنهم يقدرون على إجارتَهم. ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ أي البعث، وهو اعتراف بما فعلوه من طاعة الشيطان واتباع الهوى وتكذيب البعث وتحسر على حالهم. ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ منزلكم، أو ذات مثواكم. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ حال، والعاملُ فيها مثواكم إن جُعل مصدراً ومعنى الإضافةِ إن جُعل مكاناً ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ إلا الأوقات التي ينقلون فيها من النار إلى الزمهرير، وقيل إلاّ ما شاء الله قبل الدخول كأنه قيل: النار مَثْوَاكُمْ أبداً إلا ما أمهلكم. ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في أفعاله. ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمال الثقلين وأحوالهم.

(١٢٩) ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا﴾ نَكِل بعضَهم إلى بعض، أو نجعل بعضَهم يتولىٰ بعضاً فيغويهم، أو أولياءَ بعض وقرناءهم في العذاب كما كانوا في الدنيا. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والمعاصي.

يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾

(١٣٠) ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ الرسل من الإنس خاصة، لكن لما جُمِعوا مع الجن في الخطاب صح ذلك ونظيرُه: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾[٢] والمرجانُ يخرج من المَلِح دون العذب، وتعلق بظاهره قوم وقالوا بُعِث إلى كلٍّ من الثقلين رسل من جنسهم. وقيل الرسل من الجن رسل الرسل إليهم لقوله تعالى: ﴿ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾[٣] . ﴿ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ

---

(١) أثبت البيضاوي الأصل بالنون على قراءة من قرأ بها، أي «نحشرهم».
(٢) الرحمن: «٢٢».
(٣) الأحقاف: «٢٩».

يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾ يعني يوم القيامة. ﴿قَالُواْ﴾ جواباً. ﴿شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ﴾ بالجرم والعصيان وهو اعتراف منهم بالكفر واستيجاب العذاب. ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ ذم لهم على سوء نظرهم وخطأ رأيهم، فإنهم اغتروا بالحياة الدنيوية واللذات المُخْدِجة[1] وأعرضوا عن الآخرة بالكلية حتى كان عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام للعذاب المخلد تحذيراً للسامعين من مثل حالهم.

ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا
رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ
بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ
أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ
عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾

(١٣١) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى إرسال الرسل، وهو خبر مبتدأ محذوف أي الأمرُ ذلك. ﴿أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ تعليل للحكم، وأنْ مصدرية أو مخففة من الثقيلة أي: الأمر لانتفاء كون ربك أو لأن الشأن لم يكن ربك مهلك أهلِ القرى بسبب ظلم فعلوه أو ملتبسين بظلم أو ظالماً وهم غافلون لم يُنبَّهوا برسول، أو بدل من ذلك.

(١٣٢) ﴿وَلِكُلّٖ﴾ من المكلفين. ﴿دَرَجَٰتٞ﴾ مراتب ﴿مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾ من أعمالهم أو من جزائها، أو من أجلها. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ فيخفى عليه عمل أو قدر ما يستحق به من ثواب أو عقاب. وقرأ ابن عامر بالتاء على تغليب الخطاب على الغيبة.

(١٣٣) ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ عن العباد والعبادة. ﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾ يترحم عليهم بالتكليف تكميلاً لهم ويمهلهم على المعاصي، وفيه تنبيه على أن ما سبق ذكره من الإرسال ليس لنفعه بل لترحمه على العباد وتأسيسٌ لما بعده وهو قوله: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ أي ما به إليكم حاجة ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ أيها العصاة. ﴿وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ من الخلق[2]. ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ﴾ أي قرناً بعد قرن لكنّه أنبأكم ترحماً عليكم.

(١٣٤) ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ من البعث وأحواله. ﴿لَأٓتٖۖ﴾ لكائن لا محالة[3]. ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ طالبكم به.

(١٣٥) ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ على غاية تمكنكم واستطاعتكم يقال مَكُنَ مكانة إذا تمكّن

---

(١) المخدَجة أي الناقصة.

(٢) قوله «ما يشاء» آثر «ما» على من لإظهار كمال الكبرياء وإسقاطهم عن رتبة العقلاء (س٣/ ١٨٧).

(٣) إيثار كلمة «الآت» على واقع ونحوه لبيان كمال سرعة وقوعه (س٣/ ١٨٨).

أبلغ التمكن، أو على ناحيتكم وجِهتكم التي أنتم عليها من قولهم مَكَان ومكانة كمَقام ومقامة. وقرأ أبو بكر عن عاصم مكاناتِكم بالجمع في كل القرآن وهو أمر تهديد، والمعنى: اثبتوا على كفركم وعداوتكم. ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ ما كنت عليه من المصابرة والثبات على الإسلام، والتهديد بصيغة الأمر مبالغة في الوعيد كأن المهدد يريد تعذيبه مجمعاً عليه فيحمله بالأمر على ما يفضي به إليه، وتسجيل بأن المهدد لا يتأتى منه إلا الشر كالمأمور به الذي لا يقدر أن ينقضي عنه. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ إن جُعِل منْ استفهامية بمعنى أيُّنا تكون له عاقبة الدار الحسنى التي خلق الله لها هذه الدار فمحلها الرفع وفعلُ العلْم معلَّق عنه، وإن جُعِلت خبرية فالنصبُ يتعلمون أي فسوف تعرفون الذي تكون له عاقبة الدار، وفيه مع الإنذار إنصاف في المقال وحسن الأدب وتنبيه على وثوق المنذر بأنه مُحِقٌّ. وقرأ حمزة والكسائي يكون بالياء لأن تأنيث العاقبة غير حقيقي. ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ وضع الظالمين موضع الكافرين لأنه أعم وأكثر فائدة.

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

(١٣٦) ﴿وَجَعَلُوا﴾ أي مشركو العرب. ﴿لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ خلق. ﴿مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ﴾ روي: أنهم كانوا يُعيِّنون شيئاً من حرث ونتاج لله ويصرفونه إلى الضيفان والمساكين وشيئاً منهما لآلهتهم وينفقونه على سَدَنتها ويذبحونه عندها، ثم إن رأوا ما عينوا لله أزكى بدّلوه بما لآلهتهم وإن رأوا ما لآلهتهم أزكى تركوه لها حباً لآلهتهم. وفي قوله «مما ذرأ» تنبيه على فرط جهالتهم فإنهم أشركوا الخالق في خلقه جماداً لا يَقْدِر على شيء ثم رجحوه عليه بأن جعلوا الزاكي له، وفي قوله «بزعمهم» تنبيه على أن ذلك مما اخترعوه لم يأمرهم الله به. وقرأ الكسائي بالضم[1] في الموضعين وهو لغة فيه، وقد جاء فيه الكسر أيضاً كالوِدّ والوُدّ. ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ حكمهم هذا.

(١٣٧) ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك للتزيين في قِسْمة القُربان. ﴿زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ﴾ بالوأد ونحرهم لآلهتهم. ﴿شُرَكَاؤُهُمْ﴾ من الجن أو من السدنة، وهو فاعل زين. وقرأ ابن عامر زُيِّن على البناء للمفعول الذي هو القتل. ونصْبُ الأولاد وجرُّ الشركاء

---

(١) أي بضم الزاي «بزُعْمِهِم».

بإضافة القتل إليه مفصولاً بينهما بمفعوله وهو ضعيف في العربية معدود من ضرورات الشعر[1] كقوله:

فـــزَجَجْتُهَـــا بِمَـــزَجَّـــةٍ زَجَّ القلـــوصِ أبِـــي مُـــزَادَه

وقرىء بالبناء للمفعول وجرِّ أولادِهم ورفع «شركاؤُهم» بإضمار فعل دل عليه زين. ﴿ لِيُرْدُوهُمْ ﴾ ليهلكوهم بالإغواء. ﴿ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ وليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل، أو ما وجب عليهم أن يتدينوا به. واللام للتعليلِ إن كان التزيين من الشياطين والعاقبةِ إن كان من السدنة. ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾ ما فعل المشركون ما زين لهم، أو الشركاء التزيينَ، أو الفريقان جميعَ ذلك. ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ افتراءهم أو ما يفترونه من الإفك.

وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾

(١٣٨) ﴿ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ ﴾ إشارة إلى ما جعل لآلهتهم. ﴿ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ ﴾ حرام، فِعْلٌ بمعنى مفعول كالذِّبح يستوي فيه الواحد والكثير والذكر والأنثى. وقرىء حُجْر بالضم وحرج أي مضيق. ﴿ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ ﴾ يعنون خدم الأوثان والرجال دون النساء. ﴿ بِزَعْمِهِمْ ﴾ من غير حجة. ﴿ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا ﴾ يعني البحائر والسوائب والحوامي. ﴿ وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ في الذبح وإنما يذكرون أسماء الأصنام عليها، وقيل لا يَحُجّون على ظهورها. ﴿ ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ﴾ نصب على المصدر لأن ما قالوه تقول على الله سبحانه وتعالى؛ والجارّ متعلق بقالوا أو بمحذوف هو صفة له، أو على الحال، أو على المفعول له والجار متعلق به أو بالمحذوف. ﴿ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ بسببه أو بدله.

(١٣٩) ﴿ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ يعنون أجنَّةَ البحائر والسوائب. ﴿ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ﴾ حلال للذكور خاصة دون الإناث إن وُلد حياً لقوله: ﴿ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ﴾ فالذكور والإناث فيه سواء، وتأنيث الخالصة للمعنى فإن ما في معنى الأجنة، ولذلك وافق عاصم في رواية أبي بكر بن عامر في تكن بالتاء، وخالفه هو وابنُ كثير في ميتة فَنَصَبَ كغيرهم، أو التاء فيه للمبالغة كما في رواية الشعر، أو هو مصدر كالعافية وقع موقع الخالص. وقرىء بالنصب على أنه مصدر مؤكِّد والخبرُ لذكورنا، أو حال من الضمير الذي في الظرف لا من الذي في ذكورنا

(١) ما ذهب إليه البيضاوي من تضعيف قراءة ابن عامر ـ وهي قراءة متواترة ـ تبع فيه الزمخشري (الكشاف ٢/ ٤٢) وقد رد أبو حيان رداً عنيفاً على الزمخشري مبيناً صحة قراءة ابن عامر وفق العربية الصحيحة، فقال: (وأعجب لعجمي ضعيف في النحو يرد على عربي صريح محض قراءةً متواترة موجود نظيرها في لسان العرب في غير ما بيت، وأعجب لسوء ظن هذا الرجل بالقراء الأئمة الذين تخيرتهم هذه الأمة لنقل كتاب الله شرقاً وغرباً وقد اعتمد المسلمون على نقلهم لضبطهم ومعرفتهم وديانتهم. .) البحر المحيط ٤/ ٢٣٠.

ولا من الذكور لأنها لا تتقدم على العامل المعنوي ولا على صاحبها المجرور. وقرىء خالص بالرفع والنصب وخالصة بالرفع والإضافة إلى الضمير على أنه بدل من ما أو مبتدأ ثان والمراد به ما كان حياً، والتذكير في فيه لأن المراد بالميتة ما يعم الذكر والأنثى فغلب الذكر. ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ أي جزاءَ وصفِهم الكذب على الله سبحانه وتعالى في التحريم والتحليل من قوله: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾(١) ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾

(١٤٠) ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ﴾ يريد بهم العرب الذين كانوا يقتلون بناتِهم مخافة السبي والفقر. وقرأ ابن كثير وابن عامر قَتَّلوا بالتشديد بمعنى التكثير. ﴿سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لخفة عقلهم وجهلهم بأن الله سبحانه وتعالى رازق أولادهم لا هم، ويجوز نصبه على الحال أو المصدر. ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ من البحائر ونحوها. ﴿افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ يحتمل الوجوه المذكورة في مثله(٢). ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إلى الحق والصواب.

(١٤١) ﴿۞ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ﴾ من الكروم. ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾ مرفوعات على ما يحملها. ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ ملقيات على وجه الأرض. وقيل المعروشات ما غرسه الناس فعرشوه وغير معروشات ما نبت في البراري والجبال. ﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ﴾ ثمرُه الذي يؤكل في الهيئة والكيفية، والضمير للزرع والباقي مقيس عليه، أو النخل والزرعُ داخلٌ في حكمه لكونه معطوفاً عليه، أو للجميع على تقدير أُكُل ذلك أو كل واحد منهما، ومختلفاً حالاً مقدرة لأنه لم يكن ذلك عند الإنشاء. ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ يتشابه بعض أفرادهما في اللون والطعم ولا يتشابه بعضها. ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ من ثمر كل واحد من ذلك. ﴿إِذَا أَثْمَرَ﴾ وإن لم يدرك ولم يَيْنع بعدُ. وقيل فائدته رخصة المالك في الأكل منه قبل أداء حق الله تعالى. ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ يريد به ما كان يُتصدق به يوم الحصاد لا الزكاة المقدرة لأنها فُرضت بالمدينة والآية مكية. وقيل الزكاة والآية مدنية والأمر بإيتائها يوم الحصاد ليهتم به حينئذ حتى لا يؤخر عن وقت الأداء وليعلم أن الوجوب بالإدراك لا بالتنقية. وقرأ ابن كثير ونافع وحمزة والكسائي حِصَاده بكسر الحاء وهو لغة فيه. ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ في التصدق كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ لا يرتضي فعلهم.

---

(١) النحل: «٦٢».

(٢) إظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لإظهار كمال عتوهم وطغيانهم (س٣/ ١٩١).

وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ
مُّبِينٞ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا
ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ
ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ
وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا
يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾

(١٤٢) ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ﴾ عطف على جنات أي وأنشأ من الأنعام ما يَحْمِل الأثقال وما يُفرَش للذبح، أو ما يفرش المنسوج من شعره وصوفه ووبره. وقيل الكبار الصالحة للحمل والصغار الدانية من الأرض مثل الفرش المفروش عليها. ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ كلوا مما أحل لكم منه. ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ في التحليل والتحريم من عند أنفسكم. ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ ظاهر العداوة.

(١٤٣) ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ﴾ بدلٌ من حمولة وفرشاً، أو مفعولِ كُلوا ولا تتبعوا معترض بينهما أو فعلٍ دلّ عليه، أو حال من «ما» بمعنى مختلفة أو متعددة. والزوج ما معه آخر من جنسه يزاوجه، وقد يقال لمجموعهما، والمراد الأول. ﴿مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ زوجين اثنين الكبش والنعجة. وهو بدل من ثمانية. وقرىء اثنان على الابتداء. والضأن اسم جنس كالإبل وجمعه ضئين، أو جمع ضائن كتاجر وتَجْر. وقرىء بفتح الهمزة وهو لغة فيه. ﴿وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ﴾ التيس والعنز، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب بالفتح[(١)] وهو جمع ماعز كصاحب وصحب وحارس وحرس، وقرىء المعزى[(٢)]. ﴿قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ﴾ ذَكرُ الضأن وذكر المعز. ﴿حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ أم أنثييهما ونصب الذكرين والاثنين بحَرَّم ﴿أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ﴾ أو ما حملت إناث الجنسين ذكراً كان أو أنثى ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ﴾ بأمرٍ معلوم يدل على أن الله تعالى حرم شيئاً من ذلك ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في دعوى التحريم عليه.

(١٤٤) ﴿وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ﴾ كما سبق والمعنى إنكارَ أن الله حرم شيئاً من الأجناس الأربعة ذكراً كان أو أنثى أو ما تحمل إناثها رداً عليهم، فإنهم كانوا يحرمون ذكور الأنعام تارة وإناثها تارة أخرى وأولادَها كيف كانت تارة زاعمين أن الله حرمها. ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ﴾ بل أكنتم شاهدين حاضرين. ﴿إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ﴾ حين وصاكم بهذا التحريم إذ أنتم لا تؤمنون بنبي فلا طريق لكم إلى معرفة أمثال ذلك إلا المشاهدة والسماع. ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾ فنسب إليه تحريم مالم يحرم، والمراد كبراؤهم المقررون لذلك، أو عمرو بن لحي بن قمعة المؤسس لذلك. ﴿لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا

---

(١) أي بفتح العين في المعز، أي «المَعَز».

(٢) وقدم هذه الأصناف الأربعة مع تأخرها في الإجمال السابق «حمولة وفرشاً» لكون هذين النوعين عرضة للأكل الذي هو معظم ما يتعلق به الحل والحرمة، وهو السرّ في الاقتصار على الأمر به في قوله تعالى: «كلوا مما رزقكم الله» من غير تعرض للانتفاع بالحمل والركوب ونحوه (س٣/ ١٩٣).

﴿يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٤٥ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ١٤٦﴾

(١٤٥) ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ أي في القرآن، أو فيما أوحي إليَّ مطلقاً، وفيه تنبيه على أن التحريم إنما يُعلم بالوحي لا بالهوى. ﴿مُحَرَّمًا﴾ طعاماً محرماً. ﴿عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً﴾ أن يكون الطعام ميتة. وقرأ ابن كثير وحمزة تكونَ ـ بالتاء ـ لتأنيث الخبر، وقرأ ابن عامر بالياء ورفع الميتة على أن «كان» هي التامة. وقوله: ﴿أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا﴾ عطفٌ على أنْ مع ما في حيزه أي إلا وجودَ ميتة أو دماً مسفوحاً أي مصبوباً كالدم في العروق لا كالكبد والطحال. ﴿أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾ فإن الخنزير أو لحمه قذر لتعوّده أكل النجاسة أو خبيث مخبث ﴿أَوۡ فِسۡقًا﴾ عطف على لحم خنزير وما بينهما اعتراض للتعليل. ﴿أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾ صفة له موضحة، وإنما سمي ما ذبح على اسم الصنم فسقاً لتوغله في الفسق، ويجوز أن يكون فسقاً مفعولاً له من أهِلّ وهو عطف على يكون، والمستكنّ فيه راجع إلى ما رجع إليه المستكنُّ في يكون. ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ فمن دعته الضرورة. ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ لا يؤاخذه. والآية محكمة لأنها تدل على أنه لم يجد فيما أوحي إلى تلك الغاية محرماً غير هذه، وذلك لا ينافي ورود التحريم في شيء آخر، فلا يصح الاستدلال بها على نسخ الكتاب بخبر الواحد ولا على حل الأشياء غيرها إلا مع الاستصحاب.

(١٤٦) ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ﴾ كل ماله أصبع كالإبل والسباع والطيور. وقيل كل ذي مخلب وحافر وسمي الحافر ظفراً مجازاً، ولعل المسبب عن الظلم تعميم التحريم. ﴿وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ﴾ الثروب وشحوم الكِلىٰ، والإضافة لزيادة الربط. ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ﴾ إلا ما علقت بظهورهما. ﴿أَوِ ٱلۡحَوَايَآ﴾ أو ما اشتمل على الأمعاء، جمع حاوية أو حاوياء كقاصعاء وقواصع أو حوية كسفينة وسفائن. وقيل هو عطف على شحومهما، وأو بمعنىٰ الواو. ﴿أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ﴾ هو شحم الإلية لاتصالها بالعُصعص. ﴿ذَٰلِكَ﴾ التحريم، أو الجزاء. ﴿جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ﴾ بسبب ظلمهم. ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ في الإخبار، أو الوعد والوعيد.

(١) قوله «بغير علم» وصفوا بعدم العلم بذلك مع أنهم عالمون بعدم صدوره عنه تعالى إيذاناً بخروجهم في الظلم عن الحدود والنهايات، فإن من افترى عليه تعالى بغير علم بصدوره عنه تعالى مع احتمال الصدور عنه إذا كان أظلم من كل ظالم فما ظنك بمن افترى عليه تعالى وهو يعلم أنه لم يصدر عنه؟ (س٣/ ١٩٤).

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

(١٤٧) ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ يمهلكم على التكذيب فلا تغتروا بإمهاله فإنه لا يُهمِل. ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ حين ينزل، أو ذو رحمة واسعة على المطيعين وذو بأس شديد على المجرمين فأقام مقامه «ولا يرد بأسه» لتضمنه التنبيه على إنزال البأس عليهم مع الدلالة على تأنه لازِب بهم لا يمكن رده عنهم.

(١٤٨) ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ إخبار عن مستقبَل، ووقوعُ مخبَره يدل على إعجازه. ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ أي لو شاء خلاف ذلك مشيئةَ ارتضاء كقوله: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1] لَما فعلنا نحن ولا آباؤنا، أرادوا بذلك أنهم على الحق المشروع المرضي عند الله لا الاعتذار عن ارتكاب هذه القبائح بإرادة الله إياها منهم حتى ينهض ذمهم به دليلاً للمعتزلة، ويؤيده ذلك قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي مثل هذا التكذيب لك في أن الله تعالى منع من الشرك ولم يحرم ما حرموه كذَّب الذين من قبلهم الرسل، وعَطَفَ «آباؤنا» على الضمير في «أشركنا» من غير تأكيدٍ للفصل بِلاَ. ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ الذي أنزلنا عليهم بتكذيبهم. ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ من أمر معلوم يصح الاحتجاج به على ما زعمتم. ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ فتظهروه لنا. ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ ما تتبعون في ذلك إلا الظن. ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ تكذبون على الله سبحانه وتعالى، وفيه دليل على المنع من اتباع الظن سيما في الأصول، ولعل ذلك حيثُ يعارضه قاطع إذ الآية فيه.

(١٤٩) ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ البينة الواضحة التي بلغت غاية المتانة والقوة على الإثبات، أو بلغ بها صاحبها صحة دعواه، وهي من الحَجّ بمعنى القصد كأنها تقصد إثبات الحكم وتطلبه. ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بالتوفيق لها والحمل عليها، ولكن شاء هداية قوم وضلال آخرين.

(١٥٠) ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ﴾ أحضروهم، وهو اسم فعلٍ لا يَتصرف عند أهل الحجاز، وفعلٍ يؤنث ويُجمع عند بني تميم، وأصلُه عند البصريين: ها لُمَّ مِنْ لَمَّ إذا قصد حُذِفت الألف لتقدير السكون في اللام فإنه الأصل، وعند الكوفيين هلْ أُمّ فحذفت الهمزة بإلقاء حركتها على اللام، وهو بعيد لأن «هل» لا تدخل الأمر ويكون متعدياً كما في الآية ولازماً كقوله هلُمّ إلينا. ﴿الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ يعني قدوتهم فيه، استحضرهم ليلزمهم الحجة ويظهِر بانقطاعهم ضلالَتَهم وأنه لا متمسَّك لهم كمَنْ

---

(١) الأنعام: «١٤٩». النحل: «٩».

يقلدهم، ولذلك قيّد الشهداء بالإضافة ووصفهم بما يقتضي العهدَ بهم. ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ فلا تصدقهم فيه وبيِّن لهم فساده، فإن تسليمه موافقة لهم في الشهادة الباطلة. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ مِنْ وَضع المظهر موضع المضمر للدلالة على أن مكذِّب الآيات متبع الهوى لا غير، وأن متبع الحجة لا يكون إلا مصدقاً بها. ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ كعَبَدَة الأوثان. ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ يجعلون له عديلاً.

۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾

(١٥١) ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْاْ﴾ أمرٌ من التعالي، وأصلُه أن يقوله مَنْ كان في علوّ لمن كان في سفل فاتسع فيه بالتعميم. ﴿أَتْلُ﴾ أقرأْ. ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ منصوب بأتل و«ما» تحتمل الخبرية والمصدرية، ويجوز أن تكون استفهامية منصوبة بحرّم، والجملة مفعول أتل لأنه بمعنىٰ أقل، فكأنه قيل أتل أيّ شيء حرم ربكم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بحرّم أو أتل[1]. ﴿أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ﴾ أي لا تشركوا به ليصح عطف الأمر عليه، ولا يمنعه تعليق الفعل المفسَّر بما حرّم؛ فإن التحريم باعتبار الأوامر يرجع إلى أضدادها ومَنْ جعل أنْ ناصبة فمحلُّها النصبُ بعليكم ـ على أنه للإغراء ـ أو بالبدل من «ما» أو من عائده المحذوف ـ على أنّ لا زائدة ـ والجرُّ بتقدير اللام، أو الرفعُ على تقدير المتلو أن لا تشركوا أو المحرم أن تشركوا. ﴿شَيْـًٔا﴾ يحتمل المصدر والمفعول. ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ أي وأحسنوا بهما إحساناً، وضَعَه موضع النهي عن الإساءة إليهما للمبالغة وللدلالة على أن ترك الإساءة في شأنهما غير كاف بخلاف غيرهما. ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ﴾ من أجل فقر ومن خشية كقوله: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ﴾[2] ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ منعٌ لموجبيّة ما كانوا يفعلون لأجله واحتجاجٌ عليه. ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ كبائر الذنوب أو الزنا. ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ بدل منه، وهو مثْلُ قوله «ظاهر الإثم وباطنه». ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ كالقَوَد وقتل المرتد ورجم المحصن. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما ذكر مفصلاً. ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ بحفظه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ترشدون فإن كمال العقل هو الرشد.

(١٥٢) ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي بالفِعلة التي هي أحسنُ ما يُفعَل بماله كحفظه وتثميره. ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ حتى يصير بالغاً، وهو جمع شِدّة كنِعمة وأنْعُم أو شِدٍّ كصِرٍّ وأصُرّ، وقيل

(١) والتعرض لعنوان الربوبية «ربُّكم» مع الإضافة إلى ضميرهم للاعتناء بإيجاب الانتهاء (س٣/١٩٨).
(٢) الإسراء: «٣١».

مفرد كأنك. ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل والتسوية. ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلا ما يسعها ولا يعسر عليها، وذكْره عقيب الأمر معناه أن إيفاء الحق عَسِر عليكم فعليكم بما في وُسعكم وما وراءه معفوٌّ عنكم. ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ في حكومة ونحوها. ﴿فَٱعْدِلُواْ﴾ فيه. ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ ولو كان المقول له أو عليه من ذوي قرابتكم. ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ﴾ يعني ما عهد إليكم من ملازمة العدل وتأدية أحكام الشرع. ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون به. وقرأ حمزة وحفص والكسائي تَذَكَّرون بتخفيف الذال حيث وقع إذا كان بالتاء، والباقون بتشديدها.

وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى
وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن
تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾

(١٥٣) ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ الإشارة فيه إلى ما ذكر في السورة، فإنها بأسرها في إثبات التوحيد والنبوة وبيان الشريعة. وقرأ حمزة والكسائي إن بالكسر على الاستئناف، وابنُ عامر ويعقوب بالفتح والتخفيف، وقرأ الباقون بها مشددة بتقدير اللام على أنه علة لقوله: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ وقرأ ابن عامر صراطيَ بفتح الياء، وقرىء وهذا صراطي، وهذا صراطُ ربكم، وهذا صراط ربك. ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ الأديان المختلفة أو الطرق التابعة للهوى، فإن مقتضى الحجة واحد ومقتضى الهوى متعدد لاختلاف الطبائع والعادات. ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ﴾ فتفرقكم وتزيلكم. ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الذي هو اتباع الوحي واقتفاء البرهان. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الاتباع. ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الضلال والتفرق عن الحق.

(١٥٤) ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ عطف على وصاكم، وثم للتراخي في الإخبار أو للتفاوت في الرتبة كأنه قيل: ذلكم وصاكم به قديماً وحديثاً ثم أَعْظَمُ من ذلك أنا آتينا موسى الكتاب. ﴿تَمَامًا﴾ للكرامة والنعمة. ﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ على كل من أحسن القيام به، ويؤيده أن قرىء على الذين أحسنوا أو على الذي أحسن تبليغه وهو موسى عليه أفضل الصلاة والسلام، أو تماماً على ما أحسنه أي أجاده من العلم والتشريع أي زيادة على علمه إتماماً له. وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي على الذي هو أحسنُ أو على الوجه الذي هو أحسنُ ما يكون عليه الكتب. ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ وبياناً مفصلاً لكل ما يحتاج إليه في الدين، وهو عطف على تمام، ونصبهما يحتمل العلة والحال والمصدر. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم﴾ لعل بني إسرائيل. ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي بلقائه للجزاء.

(١٥٥) ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ يعني القرآن. ﴿أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ كثير النفع. ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بواسطة اتّباعه، وهو العمل بما فيه.

(١٥٦) ﴿أَن تَقُولُوٓاْ﴾ كراهة أن تقولوا، علةٌ لأنزلناه. ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ اليهود والنصارى، ولعل الاختصاص في «إنما» لأن الباقي المشهور حينئذ من الكتب السماوية لم يكن غير

كتبهم. ﴿وَإِن كُنَّا﴾ إنْ هي المخففة من الثقيلة، ولذلك دخلت اللام الفارقة في خبر كان، أي وإنه كنا. ﴿عَن دِرَاسَتِهِمْ﴾ قراءتهم. ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾ لا ندري ما هي، أو لا نعرف مثلها.

أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾

(١٥٧) ﴿أَوْ تَقُولُوا۟﴾ عطف على الأول. ﴿لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ لحدةِ أذهاننا وثقابة أفهامنا ولذلك تلقفنا فنوناً من العلم كالقصص والأشعار والخطب على أنّا أميون. ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ حجة واضحة تعرفونها. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ لمن تأمل فيه وعمل به[١]. ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بعد أن عرف صحتها، أو تمكن من معرفتها. ﴿وَصَدَفَ﴾ أعرض أو صد. ﴿عَنْهَا﴾ فضلّ أو أضل. ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ شدته. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ بإعراضهم أو صدهم.

(١٥٨) ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي ما ينتظرون، يعني أهل مكة وهم ما كانوا منتظرين لذلك، ولكن لما كان يلحقهم لحوق المنتظر شبهوا بالمنتظرين. ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ملائكة الموت أو العذاب. وقرأ حمزة والكسائي بالياء هنا وفي النحل[٢]. ﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ أي أَمْرُه بالعذاب، أو كل آية يعني آيات القيامة والهلاك الكلي لقوله: ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ يعني أشراط الساعة[٣] وعن حذيفة بن اليمان والبراء بن عازب: كنا نتذاكر الساعة إذ أشرف علينا رسول الله ﷺ فقال: ما تذاكرون؟ قلنا: نتذاكر الساعة، قال: «إنها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات: الدخان، ودابة الأرض، وخسفاً بالمشرق، وخسفاً بالمغرب، وخسفاً بجزيرة العرب، والدجال، وطلوع الشمس من مغربها، ويأجوج ومأجوج، ونزول عيسى عليه الصلاة والسلام، وناراً تخرج من عدن»[٤]. ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾

---

(١) عبر عن القرآن الكريم بالبينة إيذاناً بكمال تمكنهم من دراسته، ثم عبر عنه بالهدى والرحمة تنبيهاً على أنه مشتمل على ما اشتمل عليه التوراة من هداية الناس ورحمتهم بل هو عين الهداية والرحمة (س٣/ ٢٠٢).

(٢) النحل: «٣٣».

(٣) والتعبير عنها بالبعض للتهويل والتفخيم، كما أن إضافة الآيات في الموضعين إلى اسم الرب المنبىء عن المالكية الكلية لذلك وإضافته إلى ضميره عليه السلام للتشريف (س٣/ ٢٠٣).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٢٥ ـ ٢٢٢٦ رقم ٣٩/ ٢٩٠١).
من حديث حذيفة بن أسيدٍ الغفاري.
وهو من الأحاديث التي تتبعها الدارقطني في «التتبع» (ص٢٥٨ رقم ٥٤) وقد قال «وهذا لم يرفعه غير فرات عن أبي الطفيل من وجه يصح مثله. ورواه عبدالعزيز بن رفيع وعبدالملك بن ميسرة عن أبي الطفيل موقوفاً. . . .» =

كالمحتضر إذ صار الأمر عياناً والإيمان برهاني. وقرىء تنفع بالتاء لإضافة الإيمان إلى ضمير المؤنث. ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ صفة نفساً. ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ عطف على آمنت والمعنى: أنه لا ينفع الإيمان حينئذ نفساً غير مقدِّمة إيمانَـها أو مقدِّمة إيمانَها غير كاسبة في إيمانها خيراً، وهو دليل لمن لم يعتبر الإيمان المجرد عن العمل، وللمعتبر تخصيص هذا الحكم بذلك اليوم، وحمل الترديد على اشتراط النفع بأحد الأمرين على معنى لا ينفع نفساً خلت عنها إيمانها، والعطف على لم تكن بمعنى لا ينفع نفساً إيمانُها الذي أحدثته حينئذ وإن كسبت فيه خيراً. ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ وعيد لهم، أي: انتظروا إتيان أحد الثلاثة فإنا منتظرون له وحينئذ لنا الفوز وعليكم الويل.

(١٥٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾ بددوه فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، أو افترقوا فيه قال عليه الصلاة والسلام: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة»[(١)]. وقرأ حمزة والكسائي فارَقُوا أي باينوا. ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ فرقاً تشيع كل فرقة إماماً.

= اهـ.

وقال النووي في شرح مسلم (٢٧/١٨) بعد كلام الدارقطني «وقد ذكر مسلم رواية ابن رفيع موقوفة كما قال، ولا يقدح هذا في الحديث فإن عبدالعزيز بن رفيع ثقة حافظ متفق على توثيقه فزيادته مقبولة» اهـ.

وتعقبه الشيخ مقبل بن هادي الوادعي في «التتبع» ص٢٦٠: «كذا قال النووي والصواب فإن فراتاً القزاز فهو راوي الرفع لا ابن رفيع.

وأقول: عبدالعزيز بن رفيع وفرات القزاز كلاهما ثقة كما في التقريب، فيحمل على أن أبا الطفيل كان يحدث به على الوجهين وكلا الوجهين صحيح والله أعلم» هـ.

والخلاصة أن الحديث صحيح والله أعلم.

(١) ● أخرج أبو داود (٥/ ٤ رقم ٤٥٩٦) والترمذي (٥/ ٢٥ رقم ٢٦٤٠).

وابن ماجه (٢/ ١٣٢١ ـ ١٣٢٢ رقم ٣٩٩١) وأحمد في المسند (٢/ ٣٣٢) والحاكم (١/ ١٢٨) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «افترقتِ اليهود على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفرقتِ النصاري على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة وتفترق أمتي على ثلاثٍ وسبعين فرقة».

قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي. وتعقبهما الألباني في «الصحيحة» (١/ ٣٥٦) بقوله «وفيه نظر فإن محمد بن عمرو، فيه كلام ولذلك لم يحتج به مسلم، وإنما روى له متابعة وهو حسن الحديث. . .» هـ.

● أخرج أبو داود (٥/ ٥ رقم ٤٥٩٧) والدارمي (٢/ ٢٤١) والحاكم (١/ ١٢٨) وأحمد (٤/ ١٠٢) عن معاوية بن أبي سفيان، أنه قام فينا، فقال: ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال: «ألاَ إنَّ من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملّة وإنّ هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين: ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة».

وزاد ابن يحيى وعمرو في حديثيهما «وإنه سيخرج من أمتي أقوام تُجَارَى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب لصاحبه» وقال عمرو «الكلب بصاحبه» لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلاَّ دخله».

وقال الحاكم وقد ساقه عقب حديث أبي هريرة المتقدم «هذه أسانيد تقام بها الحجة في تصحيح هذا الحديث» ووافقه الذهبي. =

﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أي من السؤال عنهم وعن تفرقهم، أو من عقابهم، أو أنت بريء منهم. وقيل هو نهي عن التعرض لهم، وهو منسوخ بآية السيف. ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ يتولى جزاءهم. ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ بالعقاب[1].

مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾

(١٦٠) ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ أي عشر حسنات أمثالها فضلاً من الله. وقرأ يعقوب عشرٌ بالتنوين وأمثالُها بالرفع على الوصف. وهذا أقل ما وعد من الأضعاف وقد جاء الوعد بسبعين وسبعمائة وبغير حساب، ولذلك قيل: المراد بالعشر الكثرة دون العدد. ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ قضية للعدل. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص الثواب وزيادة العقاب.

(١٦١) ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ بالوحي والإرشاد إلى ما نَصَبَ من الحجج. ﴿دِينًا﴾ بدل من محل إلى صراط؛ إذ المعنى هداني صراطاً كقوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[2]، أو مفعول فعل مضمر دل عليه الملفوظ. ﴿قِيَمًا﴾ فيعل من قام كسَيِّد من ساد وهو أبلغ من المستقيم باعتبار الزنة والمستقيم باعتبار الصيغة. وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي قِيَماً على أنه مصدر نُعِت به وكان قياسه قِوَماً كعِوَض فأُعِل لإعلال فعله كالقيام. ﴿مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ عطف بيان لدِيناً. ﴿حَنِيفًا﴾ حال من إبراهيم. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ عطف عليه.

(١٦٢) (١٦٣) ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ عبادتي كلها، أو قرباني، أو حجي. ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ وما أنا عليه في حياتي وأموت عليه من الإيمان والطاعة، أو طاعات الحياة والخيرات المضافة إلى

= وقال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص٦٣ رقم ١٧): وإسناده حسن والخلاصة أن الحديث صحيح.

● وأخرج الترمذي (٥/٢٦ رقم ٢٦٤١) والحاكم (١/١٢٨).

عن عبدالله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: ليأتينّ على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذوَ النعل بالنعل، حتى إن كان منهم من أتى أمَّهُ علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك وإن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين مِلّة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلاّ مِلّة واحدة قالوا: ومن هي يا رسول الله، قال: ما أنا عليه وأصحابي.

قال الترمذي: هذا حديث مفسر غريب لا نعرفُهُ مثلَ هذا إلا من هذا الوجه.

قلت: في إسناده «عبدالرحمٰن الأفريقي» وهو ضعيف، لكن هذه الزيادة صحيحة انظر «الصحيحة» للألباني (١/٣٥٦ رقم ٢٠٣) و(١/٣٥٨ رقم ٢٠٤).

(١) عبر عن إظهاره بالتنبئة لما بينهما من الملابسة في أنهما سببان للعلم تنبيهاً على أنهم كانوا جاهلين بحال ما ارتكبوه غافلين عن سوء عاقبته (س٣/٢٠٦).

(٢) الفتح: «٢».

الممات كالوصية والتدبير، أو الحياة والممات أنفسهما. وقرأ نافع محيايْ بإسكان الياء إجراء للوصل مجرى الوقف. ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ خالصة له لا أشرك فيها غيراً. ﴿وَبِذَٰلِكَ﴾ القول أو الإخلاص. ﴿أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ لأن إسلام كل نبي متقدم على إسلام أمته.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝١٦٤ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ۝١٦٥﴾

(١٦٤) ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾ فأُشركه في عبادتي، وهو جواب عن دعائهم له إلى عبادة آلهتهم. ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ حال في موضع العلة للإنكار والدليل له، أي وكل ما سواه مربوب مثلي لا يصلح للربوبية. ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ فلا ينفعني في ابتغاء رب غيره ما أنتم عليه من ذلك. ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ جواب عن قولهم: اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة. ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ بتبيين الرشد من الغي وتمييز المحق من المبطل.

(١٦٥) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ يخلف بعضكم بعضاً، أو خلفاء الله في أرضه تتصرفون فيها على أن الخطاب عام، أو خلفاء الأمم السالفة على أن الخطاب للمؤمنين. ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ في الشرف والغنى ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ من الجاه والمال ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ لأن ما هو آت قريب، أو لأنه يسرع إذا أراده. ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ وَصفَ العقاب ولم يُضِفْه إلى نفسه ووَصَف ذاتَه بالمغفرة وضمَّ إليه الوصف بالرحمة وأتى ببناء المبالغة واللام المؤكدة تنبيهاً على أنه تعالى غفور بالذات معاقب بالعَرَض كثير الرحمة مبالِغ فيها كثيرُ العقوبة مسامِح فيها. عن رسول الله ﷺ: «أنزلت عليَّ سورة الأنعام جملة واحدة، يشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد»(١)، «فمن قرأ

---

(١) ● أخرجه الطبراني في الصغير (١/ ٨١) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٤٤) وابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٣/ ٢٤٣) من حديث ابن عمر.

قال الطبراني: لم يروه عن ابن عون إلا يوسف بن عطية تفرد به إسماعيل بن عمرو.

وقال أبو نعيم: غريب من حديث ابن عون لم نكتبه إلا من حديث إسماعيل عن يوسف.

وقال الحافظ في التقريب (٢/ ٣٨١): يوسف بن عطية: متروك.

● وأخرجه الطبراني في الكبير (١٢/ ٢١٥ رقم ١٢٩٣٠) عن ابن عباس وفيه علي بن زيد وفيه كلام وبقية رجاله رجال صحيح.

● وأخرجه الطبراني ـ كما في «المجمع» (٧/ ٢٠) ـ من حديث أنس بلفظ «ومعها موكب من الملائكة يسد ما بين الخافقين» وقال الهيثمي «رواه الطبراني عن شيخه محمد بن عبدالله بن عرس عن أحمد بن محمد بن أبي بكر السالمي. ولم أعرفها وبقية رجاله ثقات».

● وأخرجه الحاكم (٢/ ٣١٥) عن جابر، بلفظ «لما نزلت سورة الأنعام سبح رسول الله ﷺ ثم قال: لقد شيّع هذه السورة من الملائكة ما سدّ الأفق» قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم. فإن إسماعيل هذا هو السدي ولم يخرجه البخاري ورد الذهبي عليه بقوله «لا والله لم يدرك جعفر السدي، وأظن هذا موضوعاً». =

الأنعام صلى عليه واستغفر له أولئك السبعون ألف مَلَك بعدد كل آية من سورة الأنعام يوماً وليلة»[١].

☆ ☆ ☆

= قلت: وانظر «الدر المنثور» (٣/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤) فقد ساق روايات عن علي وأبي جُحيفة وابن مسعود بدون أسانيد.

(١) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص٦٣ رقم ١٨): «سبقت طرقه في سورة آل عمران. وله طريق أخرى أخرجها الثعلبي من حديث أبي بن كعب بتمامه وفيه: عصمة. وهو متهم بالكذب».
قلت: أبو عصمة: هو نوح بن أبي مريم المروزي يعرف بالجامع، قال الحافظ كذّبوه في الحديث. وقال ابن المبارك: كان يضع الحديث.
انظر ترجمته في «الجرح والتعديل» (٨/ ٤٨٤) والضعفاء للعقيلي (٤/ ٣٠٤) والمجروحين (٣/ ٤٨)، والتقريب (٢/ ٣٠٩).

سورة الأعراف

ترتيبها ٧ — آياتها ٢٠٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾
ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ
أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن
قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾

سورة الأعراف مكية غير ثمان آيات من قوله: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وإذ نتقنا الجبل﴾[1] محكمة كلها.
وقيل: إلا قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[2] وآيها مائتان وخمس أو ست آيات.

(١) ﴿الٓمٓصٓ﴾ سبق الكلام في مثله[3].

(٢) ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف أي هو كتاب، أو خبر المص، والمراد به السورة أو القرآن. ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ صفتُه[4]. ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ أي شك، فإن الشك حرج الصدر أو ضيق قلب من تبليغه مخافة أن تكذب فيه أو تقصّر في القيام بحقه، وتوجيهُ النهي فيه للمبالغة كقولهم: لا أرينّك ههنا. والفاء تحتمل العطف والجواب فكأنه قيل: إذا أنزل إليك لتنذر به فلا يحرج صدرك. ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ متعلق بأُنزل أو بلا يكن لأنه إذا أيقن أنه من عند الله جسر على الإنذار، وكذا إذا لم يخَفْهم أو علم أنه موفق للقيام بتبليغه. ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يحتمل النصب بإضمار فعلها أي لتنذر وتذكر ذكرىٰ فإنها بمعنى التذكير، والجرَّ عطفاً على محل تنذر، والرفعَ عطفاً على كتاب أو خبراً

---

(١) من (١٦٣ ـ ١٧٠).
(٢) (١٩٩).
(٣) في أول سورة البقرة.
(٤) وبناء الفعل للمفعول جرياً على سنن الكبرياء وإيذاناً بالاستغناء عن التصريح بالفاعل لغاية ظهور تعينه (س٣/٢٠٩).

لمحذوف[(١)].

(٣) ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ يعم القرآن والسنة، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾[(٢)] ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ يضلونكم من الجن والإنس. وقيل الضمير في من دونه لما أنزل، أي ولا تتبعوا من دون دين الله دين أولياء. وقرىء ولا تبتغوا. ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي تذكراً قليلاً أو زماناً قليلاً تذكرون حيث تَتْرُكون دين الله وتتبعون غيره. وما مزيدة لتأكيد القلّة، وإن جعلت مصدرية لم ينتصب قليلاً بتذكرون. وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم تذكرون بحذف التاء، وابن عامر يتذكرون على أن الخطاب بعد مع النبي ﷺ[(٣)].

(٤) ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ ﴾ وكثيراً من القرى. ﴿ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ أردنا إهلاك أهلها، أو أهلكناها بالخذلان. ﴿ فَجَاءَهَا ﴾ فجاء أهلها. ﴿ بَأْسُنَا ﴾ عذابنا. ﴿ بَيَاتًا ﴾ بائتين كقوم لوط، مصدر وقع موقع الحال. ﴿ أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ عطف عليه أي: قائلين نصف النهار كقوم شعيب، وإنما حذفت واو الحال استثقالاً لاجتماع حرفي العطف، فإنها واو عطف استعيرت للوصل لا اكتفاء بالضمير فإنه غير فصيح. وفي التعبيرين مبالغة في غفلتهم وأمنهم من العذاب، ولذلك خص الوقتين ولأنهما وقت دَعَة واستراحة فيكون مجيء العذاب فيهما أفظع.

(٥) ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ ﴾ أي دعاؤهم واستغاثتهم، أو ما كانوا يدعونه من دينهم. ﴿ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ إلا اعترافهم بظلمهم فيما كانوا عليه وبطلانه تحسراً عليهم.

(٦) ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ عن قبول الرسالة وإجابتهم الرسل. ﴿ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ عما أجيبوا به، والمراد من هذا السؤال توبيخ للكفرة وتقريعهم، والمعنى في قوله: ﴿ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾[(٤)] سؤال استعلام. أو الأول في موقف الحساب وهذا عند حصولهم على العقوبة.

فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ۝٧ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٨

(٧) ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم ﴾ على الرسل حين يقولون «لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب»، أو على الرسل والمرسل إليهم ما كانوا عليه. ﴿ بِعِلْمٍ ﴾ عالمين بظواهرهم وبواطنهم، أو بمعلومنا منهم. ﴿ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ عنهم فيخفى علينا شيء من أحوالهم.

(٨) ﴿ وَالْوَزْنُ ﴾ أي القضاء، أو وزن الأعمال وهو مقابلتُها بالجزاء. والجمهور على أن صحائف

---

(١) وتخصيص التذكير بالمؤمنين للإيذان باختصاص الإنذار بالكفرة. وتقديم الإنذار لأنه أهم بحسب المقام (س٣/ ٢١٠).

(٢) النجم: «٤».

(٣) وتخصيصهم بالذكر لمزيد تقبيح حالهم بجمعهم بين المنكرين (س٣/ ٢١١).

(٤) القصص: «٧٨».

الأعمال توزن بميزان له لسان وكفتان، ينظر إليه الخلائق إظهاراً للمَعْدلة وقطعاً للمعذِرة، كما يسألهم عن أعمالهم فتعترف بها ألسنتهم وتشهد بها جوارحهم، ويؤيده ما روي: أن الرجل يؤتى به إلى الميزان فيُنْشَر عليه تسعة وتسعون سِجلاً كل سجلٍّ مَدُّ البصر، فيخرَج له بطاقة فيها كلمتا الشهادة فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة[1]. وقيل توزن الأشخاص لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال «إنه ليأتي العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة»[2]. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ خبر المبتدأ الذي هو الوزن. ﴿ٱلْحَقُّ﴾ صفته، أو خبر محذوف ومعناه العدل السوي. ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ حسناته، أو ما يوزن به حسناته فهو جمع موزون أو ميزان وجمعه باعتبار اختلاف الموزونات وتعدد الوزن. ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالنجاة والثواب.

وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى
ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ
ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿١١﴾

(٩) ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾ بتضييع الفطرة السليمة التي فطرت عليها، واقتراف ما عرضها للعذاب. ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ فيكذبون بدل التصديق[3].

(١٠) ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي مكناكم من سكناها وزرعها والتصرف فيها. ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ﴾ أسباباً تعيشون بها، جمع معيشة. وعن نافع أنه همزه تشبيهاً بما الياء فيه زائدة كصحائف[4]. ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ فيما صنعت إليكم..

(١١) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ[5] ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ﴾ أي خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصوَّر ثم صورناه، نزَّل خلقه وتصويره منزلة خلق الكل وتصويره، أو ابتدأنا خلقكم ثم تصويرَكم بأن خلقنا آدم ثم صورناه. ﴿ثُمَّ قُلْنَا

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٤ ـ ٢٥ رقم ٢٦٣٩) وابن ماجه (٢/ ١٤٣٧ رقم ٤٣٠٠) وابن حبان (ص٦٢٥ رقم ٢٥٢٤) والحاكم (١/ ٦) من طرق عن عبدالله بن عمرو بن العاص.
قال الترمذي: حسن غريب.
وقال الحاكم: هذا حديث صحيح لم يخرج في الصحيحين، وهو صحيح على شرط مسلم فقد احتج مسلم بأبي عبدالرحمٰن الحبلي عن عبدالله بن عمرو بن العاص، وعامر بن يحيى مصري ثقة، والليث إمام، ويونس المؤدب ثقة متفق على إخراجه في الصحيحين.
قلت: ـ وكذلك رجال الترمذي وابن ماجه كلهم ثقات ـ.
وصحح الألباني الحديث. انظر «الصحيحة» (رقم: ١٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٤٢٦ رقم ٤٧٢٩) ومسلم (٤/ ٢١٤٧ رقم ١٨/ ٢٧٨٥) من حديث أبي هريرة.

(٣) والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على استمرار الظلم في الدنيا (س٣/ ٢١٤).

(٤) وتقديم اللام «لكم» على في «فيها» لما أنه المنبىء عما ذكر من المنفعة فالاعتناء بشأنه أتم والمسارعة إلى ذكره أهم (س٣/ ٢١٤).

(٥) وتصديرها والتي قبلها بالقسم وحرف التحقيق لإظهار كمال العناية بمضمونهما (س٣/ ٢١٤).

﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ وقيل ثم لتأخير الإخبار. ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ ممن سجد لآدم.

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾

(١٢) ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ أي أن تسجد، و«لا» صلةٌ، مِثْلُها في لئلا يعلم مؤكِّدة معنى الفعل الذي دخلت عليه ومنبهة على أن الموبَّخ عليه ترك السجود. وقيل الممنوع عن الشيء مضطر إلى خلافه فكأنه قيل: ما اضطرك إلى ألا تسجد[١]. ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ دليل على أن مطلق الأمر للوجوب والفور. ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ جواب من حيث المعنى، استُأنِف به استبعاداً لأن يكون مثله مأموراً بالسجود لمثله كأنه قال: المانعُ أني خير منه، ولا يحسن للفاضل أن يسجد للمفضول فكيف يحسن أن يؤمر به؟! فهو الذي سن التكبر وقال بالحسن والقبح العقليين أولاً. ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ تعليل لفضله عليه، وقد غلط في ذلك بأن رأى الفضل كله باعتبار العنصر وغفل عما يكون باعتبار الفاعل، كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾[٢] أي بغير واسطة، وباعتبار الصورة كما نبه عليه بقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[٣] وباعتبار الغاية وهو ملاكُه، ولذلك أمر الملائكة بسجوده لمّا بين لهم أنه أعلم منهم وأن له خواص ليست لغيره. والآية دليل الكون والفساد وأن الشياطين أجسام كائنة، ولعل إضافة خلق الإنسان إلى الطين والشيطان إلى النار باعتبار الجزء الغالب.

(١٣) ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ من السماء أو الجنة. ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾ فما يصح. ﴿أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ وتعصي، فإنها مكان الخاشع والمطيع. وفيه تنبيه على أن التكبر لا يليق بأهل الجنة وأنه سبحانه وتعالى إنما طرده وأهبطه لتكبره لا لمجرد عصيانه. ﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ ممن أهانه الله لتكبره، قال عليه الصلاة والسلام «من تواضع رفعه الله ومن تكبر وضعه الله»[٤].

(١٤) ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أمهلني إلى يوم القيامة فلا تُمِتني، أو لا تعجل عقوبتي.

(١٥) ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ يقتضي الإجابة إلى ما سأله ظاهراً، لكنه محمول على ما جاء مقيداً بقوله تعالى: «إلى يوم الوقت المعلوم» وهو النفخة الأولى، أو وقت يعلم الله انتهاء أجله فيه، وفي إسعافه إليه ابتلاء العباد وتعريضهم للثواب بمخالفته.

---

(١) ولعل الثاني هو الأولى، لأنه ورد «ما منعك أن تسجد..» ـ ص«٧٥» ـ وورد «ما منعك ألا تسجد» ففي الأولى سأله عن المانع من سجوده لآدم، وفي الثانية سأله عن المانع من عدم سجوده له.

(٢) ص: «٧٥».

(٣) الحجر: «٢٩».

(٤) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦/ ٢٧٥ رقم ٨١٣٩) عن عمر بن الخطاب موقوفاً بسند صحيح. وأخرجه البيهقي أيضاً (٦/ ٢٧٦ رقم ٨١٤٠) عن عمر بن الخطاب مرفوعاً. بسند صحيح أيضاً.

قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن
شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

(١٦) ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ أي بعد أن أمهلتني لاجتهدن في إغوائهم بأي طريق يمكنني بسبب إغوائك إياي بواسطتهم تسميةً أو حملاً على الغي، أو تكليفاً بما غَوَيت لأجله. والباء متعلقة بفعل القسم المحذوف لا بأقعدنّ، فإن اللام تصد عنه، وقيل الباء للقسم ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ ترصداً بهم كما يقعد القطاع للسابلة. ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ طريق الإسلام، ونصبه على الظرف كقوله:

لَـــدنٌ بِهَـــزِّ الكَـــفِّ يَعْسِـــلُ مَتْنُـــهُ فيـــهِ كَمَـــا عَسَـــلَ الطَّـــرِيـــقَ الثَّعْلَـــبُ

وقيل تقديره على صراطك كقولهم: ضرب زيد الظهر والبطن.

(١٧) ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ أي من جميع الجهات الأربع. مَثَّل قصدَه إياهم بالتسويل والإضلال من أي وجه يمكنه بإتيان العدو من الجهات الأربع، ولذلك لم يقل من فوقهم ومن تحت أرجلهم. وقيل لم يقل من فوقهم لأن الرحمة تنزل منه ولم يقل من تحتهم لأن الإتيان منه يوحش الناس. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من بين أيديهم من قبل الآخرة، ومن خلفهم من قبل الدنيا، وعن أيمانهم وعن شمائلهم من جهة حسناتهم وسيئاتهم. ويحتمل أن يقال من بين أيديهم من حيث يعلمون ويقدرون على التحرز عنه، ومن خلفهم من حيث لا يعلمون ولا يقدرون، وعن أيمانهم وعن شمائلهم من حيث يتيسر لهم أن يعلموا ويتحرزوا ولكن لم يفعلوا لعدم تيقظهم واحتياطهم. وإنما عدى الفعل إلى الأولين بحرف الابتداء لأنه منهما موجه إليهم، وإلى الأخيرين بحرف المجاوزة فإن الآتي منهما كالمنحرف عنهم المار على عرضهم، ونظيره قولهم جلست عن يمينه. ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ مطيعين، وإنما قاله ظناً لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾[1] لما رأى فيهم مبدأ الشر متعدداً ومبدأ الخير واحداً، وقيل سمعه من الملائكة.

(١٨) ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا﴾ مذموماً من ذأمه إذا ذمه. وقرىء مذموماً كمَسُول في مسؤول أو كمكول في مكيل، من ذامه يذيمه ذيماً. ﴿مَّدْحُورًا﴾ مطروداً. ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ اللام فيه لتوطئة القسم، وجوابُه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وهو ساد مسد جواب الشرط. وقرىء لِمَنْ بكسر اللام على أنه خبر لأملأن على معنى: لمن تبعك هذا الوعيد، أو علة لاخرُج ولأملأن جواب قسم محذوف، ومعنى منكم منك ومنهم فغلّب المخاطب.

---

(١) سبأ: «٢٠».

وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا
ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ
تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا
سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ
ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾

(١٩) ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ﴾ أي وقلنا يا آدم[١]. ﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ وقرىء هذا وهو الأصل لتصغيره على ذيّا، والهاء بدل من الياء[٢]. ﴿ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فتصيرا من الذين ظلموا أنفسهم، وتكونا يحتمل الجزم على العطف والنصب على الجواب.

(٢٠) ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ أي فعل الوسوسة لأجلهما، وهي في الأصل الصوت الخفي كالهيمنة والخشخشة ومنه وسوس الحلي. وقد سبق في سورة البقرة كيفية وسوسته. ﴿ لِيُبْدِىَ لَهُمَا ﴾ ليظهر لهما، واللام للعاقبة أو للغرض على أنه أراد أيضاً بوسوسته أن يسوءهما بانكشاف عورتيهما، ولذلك عبر عنهما بالسوأة. وفيه دليل على أن كشف العورة في الخلوة وعند الزوج من غير حاجة قبيح مستهجن في الطباع. ﴿ مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ﴾ ما غطي عنهما من عوراتهما، وكانا لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر، وإنما لم تقلب الواو المضمومة همزة في المشهور كما قلبت في أُويصل تصغير واصل لأن الثانية مدة. وقرىء سوأتهما بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على الواو، وسوأتهما بقلبها واواً وإدغام الواو الساكنة فيها. ﴿ وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا ﴾ إلاَّ كراهة أن تكونا. ﴿ مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾ الذين لا يموتون أو يخلدون في الجنة، واستدل به على فضل الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وجوابه: أنه كان من المعلوم أن الحقائق لا تنقلب وإنما كانت رغبتهما في أن يحصل لهما أيضاً ما للملائكة من الكمالات الفطرية والاستغناء عن الأطعمة والأشربة، وذلك لا يدل على فضلهم مطلقاً.

(٢١) ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ أي أقسم لهما على ذلك، وأخرجه على زنة المفاعلة للمبالغة. وقيل أقسما له بالقبول. وقيل أقسما عليه بالله إنه لمن الناصحين فأقسم لهما فجعل ذلك مقاسمة.

(٢٢) ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا ﴾ فنزلهما إلى الأكل من الشجرة، نبه به على أنه أهبطهما بذلك من درجة عالية إلى رتبة سافلة، فإن التدلية والإدلاء إرسال الشيء من أعلى إلى أسفل. ﴿ بِغُرُورٍ ﴾ بما غرهما به من القسم فإنهما ظنّا أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً، أو ملتبسين بغرور. ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾ أي فلما وجدا طعمها آخذين في الأكل منها أخذتهما العقوبة وشؤم المعصية، فتهافت عنهما لباسهما وظهرت لهما عوراتهما. واختلف في أن الشجرة كانت السنبلة أو الكرم أو غيرهما، وأن اللباس كان نوراً أو

(١) تصدير الكلام بالنداء للتنبيه على الاهتمام بتلق المأمور به (س٣/ ٢٢٠).

(٢) وتوجيه الخطاب لهما لتعميم التشريف والإيذان بتساويهما في مباشرة المأمور به (س٣/ ٢٢٠).

حلة أو ظفراً. ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾ أخذا يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة. ﴿عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ قيل كان ورق التين، وقرىء يُخْصِفان من أخصف أي يخصفان أنفسهما ويخصفان من خصف ويَخِصِّفان وأصله يختصفان. ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ عتاب على مخالفة النهي، وتوبيخ على الاغترار بقول العدو. وفيه دليل على أن مطلق النهي للتحريم.

قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾

(٢٣) ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ أضررناها بالمعصية والتعريض للإخراج من الجنة. ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ دليل على أن الصغائر معاقب عليها إن لم تغفر. وقالت المعتزلة لا يجوز المعاقبة عليها مع اجتناب الكبائر، ولذلك قالوا: إنما قالا ذلك على عادة المقربين في استعظام الصغير من السيئات واستحقار العظيم من الحسنات.

(٢٤) ﴿قَالَ اهْبِطُوا﴾ الخطاب لآدم وحواء وذريتهما، أو لهما ولإبليس. كرر الأمر له تبعاً ليعلم أنهم قرناء أبداً وأخبر عما قال لهم متفرقاً. ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ في موضع الحال أي متعادين. ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ استقرار أي موضع استقرار. ﴿وَمَتَاعٌ﴾ وتمتع. ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى أن تقضى آجالكم.

(٢٥) ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ للجزاء. وقرأ حمزة والكسائي وابن ذكوان ومنها تَخْرُجون، وفي الزخرف كذلك تَخْرُجون بفتح التاء وضم الراء.

(٢٦) ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ أي خلقناه لكم بتدبيرات سماوية وأسباب نازلة، ونظيرُه قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ﴾(١) وقوله تعالى ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾(٢). ﴿يُوَارِي سَوْآتِكُمْ﴾ التي قصد الشيطان إبداءها، ويغنيكم عن خصف الورق. روي: أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة ويقولون لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها، فنزلت(٣). ولعله ذكر قصة آدم مقدِّمة لذلك حتى يعلم أن انكشاف العورة أول سوء أصاب الإنسان من الشيطان، وأنه أغواهم في ذلك كما أغوى أبويهم. ﴿وَرِيشًا﴾

---

(١) الزمر: «٦».

(٢) الحديد: «٢٥».

(٣) أخرجه عبد بن حميد عن سعيد بن جبير ـ كما في «الدر المنثور» (٣/ ٤٣٩).
وأصله في صحيح مسلم (٤/ ٢٣٢٠ رقم ٢٥/ ٣٠٢٨) من حديث ابن عباس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: كانت المرأةُ تطوف بالبيت وهي عُريانةٌ. فتقول: من يُعيرني تِطوافاً تَجعَلُهُ على فرجها. وتقول:
اليوم يبدو بعضُهُ أو كُلُّهُ ... فما بدا مِنهُ فلا أحِلُّهُ
فنزلت هذه الآية «خذوا زينتكم عند كلِّ مسجد» [الأعراف: ٣١].

ولباساً تتجملون به، والريش الجمال. وقيل مالاً ومنه تريش الرجل إذا تمول. وقرىء رياشاً وهو جمع ريش كشعب وشِعاب. ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾ خشية الله، وقيل الإيمان، وقيل السمت الحسن، وقيل لباس الحرب. ورفعه بالابتداء وخبرُه: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أو خبر وذلك صفتُه كأنه قيل: ولباس التقوى المشار إليه خير. وقرأ نافع وابن عامر والكسائي ولباسَ التقوى بالنصب عطفاً على لباساً. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي إنزال اللباس. ﴿مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على فضله ورحمته. ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فيعرفون نعمته، أو يتعظون فيتورعون عن القبائح.

﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا
إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧) وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً
قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨)
قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩)﴾

(٢٧) ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ لا يمتحننكم بأن يمنعكم دخول الجنة بإغوائكم[1]. ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ كما محن أبويكم بأن أخرجهما منها، والنهي في اللفظ للشيطان، والمعنى نهيهم عن اتباعه والافتتان به. ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ حال من أبويكم أو من فاعل أخرج، وإسناد النزع إليه للتسبب. ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ تعليل للنهي وتأكيد للتحذير من فتنته. وقبيلُه جنودُه، ورؤيتُهم إيانا من حيث لا نراهم في الجملة لا تقتضي امتناع رؤيتهم وتمثّلهم لنا. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بما أوجدنا بينهم من التناسب، أو بإرسالهم عليهم وتمكينهم من خذلانهم وحملهم على ما سوّلوا لهم. والآية مقصود القصة وفذلكة الحكاية.

(٢٨) ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ فعلة متناهية في القبح كعبادة الصنم وكشف العورة في الطواف. ﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ اعتذروا واحتجوا بأمرين: تقليدِ الآباء والافتراءِ على الله سبحانه وتعالى، فأَعْرَض عن الأول لظهور فساده ورد الثاني بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ لأن عادته سبحانه وتعالى جرت على الأمر بمحاسن الأفعال، أو الحث على مكارم الخصال. ولا دلالة فيه على أن أقبح الفعل بمعنى ترتب الذم عليه آجلاً عقلي، فإن المراد بالفاحشة ما ينفر عنه الطبع السليم ويستنقصه العقل المستقيم. وقيل هما جوابا سؤالين مترتبين كأنه قيل لهم لما فعلوها: لم فعلتم؟ فقالوا: وجدنا عليها آباءنا، فقيل ومن أين أخذ آباؤكم؟ فقالوا: الله أمرنا بها. وعلى الوجهين يمتنع التقليد إذا قام الدليل على خلافه لا مطلقاً. ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إنكار يتضمن النهي عن الافتراء على الله تعالى.

(٢٩) ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل، وهو الوَسَط من كل أمر المتجافي عن طرفي الإفراط والتفريط. ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ﴾ وتوجهوا إلى عبادته مستقيمين غير عادلين إلى غيرها، أو أقيموها نحو

---

(١) والتصدير بالنداء للاعتناء بمضمون ما صدر به (س٣/ ٢٢٢).

القبلة. ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ في كل وقت سجود أو مكانه وهو الصلاة، أو في أي مسجد حضرتكم الصلاة ولا تؤخروها حتى تعودوا إلى مساجدكم. ﴿وَادْعُوهُ﴾ واعبدوه. ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي الطاعة فإن إليه مصيركم. ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ كما أنشأكم ابتداء. ﴿تَعُودُونَ﴾ بإعادته فيجازيكم على أعمالكم فأخلصوا له العبادة، وإنما شبه الإعادة بالإبداء تقريراً لإمكانها والقدرة عليها. وقيل كما بدأكم من التراب تعودون إليه. وقيل كما بدأكم حفاة عراة غرلاً تعودون. وقيل كما بدأكم مؤمناً وكافراً يعيدكم.

فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوٓا إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَالطَّيِّبَٰتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾

(٣٠) ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ بأن وفقهم للإيمان. ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَٰلَةُ﴾ بمقتضى القضاء السابق. وانتصابه بفعل يفسره ما بعده أي وخذل فريقاً. ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ تعليل لخذلانهم، أو تحقيق لضلالهم. ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ يدل على أن الكافر المخطىء والمعاند سواء في استحقاق الذم، وللفارق أن يحمله على المقصر في النظر.

(٣١) ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ ثيابكم لمواراة عورتكم. ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ لطواف أو صلاة، ومن السنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئة للصلاة، وفيه دليل على وجوب ستر العورة في الصلاة. ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ ما طاب لكم. روي: أن بني عامر في أيام حجهم كانوا لا يأكلون الطعام إلا قوتاً ولا يأكلون دسماً يعظمون بذلك حجّهم فهمّ المسلمون به، فنزلت[1]. ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا﴾ بتحريم الحلال، أو بالتعدي إلى الحرام، أو بإفراط الطعام والشره عليه. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة[2]. وقال علي بن الحسين بن واقد: قد جمع الله الطب في نصف آية فقال: «كلوا واشربوا ولا تسرفوا»[3]. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي لا يرتضي فعلهم.

(٣٢) ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ من الثياب وسائر ما يتجمل به. ﴿الَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ من النبات كالقطن والكتان، والحيوان كالحرير والصوف، والمعادن كالدروع. ﴿وَالطَّيِّبَٰتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ المستلذات من

---

(١) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٢٢٥) بدون سند.
وذكره الواحدي في «الأسباب» ص٢٢٦ من قول الكلبي في أهل الجاهلية...

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/ ٤٠٥) من حديث ابن عباس وعبدالله بن عمرو معاً وأخرجه النسائي (٥/ ٧٩ رقم ٢٥٥٩) وابن ماجه (٢/ ١١٩٢ رقم ٣٦٠٥).
وأحمد في المسند (٢/ ١٨١) والحاكم في المستدرك (٤/ ١٣٥) وعبد بن حميد في تفسيره كما في «الدر المنثور» (٣/ ٤٤٣) كلهم من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص٦٤ رقم ٢٥) لم أجد لها إسناداً.

المآكل والمشارب. وفيه دليل على أن الأصل في المطاعم والملابس وأنواع التجملات الإباحة، لأن الاستفهام في من للإنكار. ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالأصالة، والكفرةُ وإن شاركوهم فيها فتبعٌ. ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لا يشاركهم فيها غيرهم، وانتصابُها على الحال. وقرأ نافع بالرفع على أنها خبر بعد خبر. ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي كتفصيلنا هذا الحكم نفصل سائر الأحكام لهم.

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ
سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا
يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾
فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا
يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

(٣٣) ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ ما تزايد قبحه، وقيل ما يتعلق بالفروج. ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ جهرها وسرها. ﴿وَٱلْإِثْمَ﴾ وما يوجب الإثم، تعميم بعد تخصيص. وقيل شرب الخمر. ﴿وَٱلْبَغْىَ﴾ الظلم أو الكبر، أفرده بالذكر للمبالغة. ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ متعلق بالبغي مؤكد له معنًى. ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ تهكم بالمشركين، وتنبيه على تحريم اتباع ما لم يدل عليه برهان. ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بالإلحاد في صفاته سبحانه وتعالى، والافتراء عليه كقولهم: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾.

(٣٤) ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ مدة أو وقت نزول العذاب بهم، وهو وعيد لأهل مكة. ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ انقرضت مدتهم، أو حان وقتهم. ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي لا يتأخرون ولا يتقدمون أقصر وقت، أو لا يطلبون التأخر والتقدم لشدة الهول[1].

(٣٥) ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ شرَط ذكرَه بحرف الشك للتنبيه على أن إتيان الرسل أمر جائز غير واجب كما ظنه أهل التعليم، وضمت إليها «ما» لتأكيد معنى الشرط ولذلك أكد فعلها بالنون، وجوابُه: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

(٣٦) ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ والمعنى فمن اتقى التكذيب وأصلح عمله منكم والذين كذبوا بآياتنا منكم، وإدخال الفاء في الخبر الأول دون الثاني للمبالغة في الوعد والمسامحة في الوعيد.

(٣٧) ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ ممن تقول على الله ما لم يقله، أو كذب ما قاله. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مما كتب لهم من الأرزاق والآجال. وقيل الكتاب اللوح

(١) صيغة الاستفعال «لا يستأخرون» للإشعار بعجزهم وحرمانهم عن ذلك مع طلبهم له (س٣/ ٢٢٥).

المحفوظ، أي مما أثبت لهم فيه. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ أي يتوفون أرواحهم، وهو حال من الرسل، وحتى غايةٌ لنيلهم وهي التي يبتدأ بعدها الكلام. ﴿قَالُوٓاْ﴾ جواب إذا ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ أي أين الآلهة التي كنتم تعبدونها؟ وما وصلت بأين في خط المصحف وحقُّها الفصل لأنها موصولة. ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ غابوا عنا. ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ اعترفوا بأنهم كانوا ضالين فيما كانوا عليه.

قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾

(٣٨) ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ﴾ أي قال الله تعالى لهم يوم القيامة، أو أحد من الملائكة. ﴿فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم﴾ أي كائنين في جملة أمم مصاحبين لهم يوم القيامة. ﴿مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ يعني كفار الأمم الماضية من النوعين. ﴿فِي ٱلنَّارِۖ﴾ متعلق بادخلوا. ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ﴾ أي في النار. ﴿لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ﴾ التي ضلت بالاقتداء بها. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا﴾ أي تداركوا وتلاحقوا واجتمعوا في النار. ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ﴾ دخولاً أو منزلة، وهم الأتباع. ﴿لِأُولَىٰهُمۡ﴾ أي لأجل أولاهم إذ الخطاب مع الله لا معهم. ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ سنُّوا لنا الضلال فاقتدينا بهم. ﴿فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ﴾ مضاعفاً لأنهم ضلّوا وأضلوا. ﴿قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ﴾ أما القادة فبكفرهم وتضليلهم، وأما الأتباع فبكفرهم وتقليدهم. ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾ ما لكم أو ما لكل فريق. وقرأ عاصم بالياء على الانفصال.

(٣٩) ﴿وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ﴾ عطفوا كلامهم على جواب الله سبحانه وتعالى لأخراهم ورتبوه عليه، أي فقد ثبت أن لا فضل لكم علينا وإنا وإياكم متساوون في الضلال واستحقاق العذاب. ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ من قول القادة، أو من قول الفريقين.

(٤٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا﴾ أي عن الإيمان بها. ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ لأدْعِيتهم وأعمالهم أو لأرواحهم، كما تفتح لأعمال المؤمنين وأرواحهم لتتصل بالملائكة. والتاء في تفتّح لتأنيث الأبواب، والتشديد لكثرتها. وقرأ أبو عمرو بالتخفيف، وحمزة والكسائي به وبالياء لأن التأنيث غير حقيقي والفعل مقدم، وقرىء على البناء للفاعل ونصب الأبواب بالتاء على أن الفعل للآيات، وبالياء لأن الفعل لله. ﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ أي حتى يدخل ما هو مَثَلٌ في عظم الجِرْم وهو البعير فيما هو مَثَل في ضيق المسلك وهو ثقبة الإبرة، وذلك مما لا يكون فكذا ما يتوقف عليه. وقرىء الجُمَّل كالقُمَّل، والجُمَل كالنُّغَر، والجُمْل كالقُفْل، والجُمُل كالنُّصُب، والجَمْل كالحبل وهو الحبل الغليظ من القنب، وقيل حبل السفينة. وسُمّ بالضم والكسر وفي سم المخيط وهو والخِياط ما يخاط به كالحِزام والمِحزم. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك الجزاء الفظيع. ﴿نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾.

لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾
وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا
لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ
وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾

(٤١) ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ فراش. ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أغطية، والتنوين فيه للبدل عن الإعلال عند سيبويه، وللصرف عند غيره. وقرىء غواشٌ على إلغاء المحذوف. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ عبر عنهم بالمجرمين تارة وبالظالمين أخرى إشعاراً بأنهم بتكذيبهم الآيات اتصفوا بهذه الأوصاف الذميمة، وذكر الجرم مع الحرمان من الجنة والظلم مع التعذيب بالنار تنبيهاً على أنه أعظم الإجرام.

(٤٢) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ على عادته سبحانه وتعالى في أن يشفع الوعيد بالوعد، ولا نكلف نفساً إلا وسعها اعتراضٌ بين المبتدأ وخبرِه للترغيب في اكتساب النعيم المقيم بما تسعه طاقتهم ويسهل عليهم. وقرىء لا تكلف نفسٌ.

(٤٣) ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أي نخرج من قلوبهم أسباب الغل، أو نطهرها منه حتى لا يكون بينهم إلا التواد[(١)]. وعن علي كرم الله وجهه: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم[(٢)]. ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ زيادة في لذتهم وسرورهم. ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾ لما جزاؤه هذا. ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ لولا هداية الله وتوفيقه، واللام لتوكيد النفي، وجواب لولا محذوف دل عليه ما قبله. وقرأ ابن عامر ما كنا بغير واو على أنها مبينة للأولى. ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ فاهتدينا بإرشادهم. يقولون ذلك اغتباطاً وتبجحاً بأن ما علموه يقيناً في الدنيا صار لهم عين اليقين في الآخرة. ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ﴾ إذا رأوها من بعيد، أو بعد دخولها والمنادى له بالذات. ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي أعطيتموها بسبب أعمالكم، وهو حال من الجنة والعامل فيها معنى الإشارة، أو خبر، والجنة صفة تلكم. وأنْ في المواقع الخمسة هي المخففة، أو المفسِّرة لأن المناداة والتأذين من القول.

(٤٤) ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ إنما قالوه تبجحاً بحالهم وشماتة بأصحاب النار وتحسيراً لهم، وإنما لم يقل ما وعدكم كما قال «ما وعدنا» لأن ما ساءهم من الموعود لم يكن بأسره مخصوصاً وعده بهم كالبعث والحساب ونعيم أهل الجنة. ﴿قَالُوا

---

(١) صيغة الماضي «نزعنا» للإيذان بتحققه وتقرره (س/٣/٢٢٨).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٥/ج٨/١٨٣) عنه وهو منقطع.
وأخرجه ابن أبي شيبة في رواية ربعي عن علي وهو متصل. قاله الحافظ في «الكافي الشاف».

نعم﴾ وقرأ الكسائي بكسر العين وهما لغتان. ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ قيل هو صاحب الصُّور. ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بين الفريقين. ﴿أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ وقرأ ابن كثير في رواية للبزي وابن عامر وحمزة والكسائي أنَّ لعنةَ الله بالتشديد والنصب، وقرىء إنّ بالكسر على إرادة القول أو إجراء أذّن مجرى قال.

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾

(٤٥) ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ صفة للظالمين مقررة، أو ذمّ مرفوع أو منصوب. ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ زيغاً وميلاً عما هو عليه. والعِوَج بالكسر في المعاني والأعيان ما لم تكن منتصبة، وبالفتح ما كان في المنتصبة كالحائط والرمح. ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾.

(٤٦) ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ أي بين الفريقين لقوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾[1] أو بين الجنة والنار ليمنع وصول أثر إحداها إلى الأخرى. ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ﴾ وعلى أعراف الحجاب أي أعاليه، وهو السور المضروب بينهما، جمع عرف، مستعار من عرف الفرس. وقيل العرف ما ارتفع من الشيء فإنه يكون لظهوره أعرف من غيره. ﴿رِجَالٌ﴾ طائفة من الموحدين قصّروا في العمل فيُحبَسون بين الجنة والنار حتى يقضي الله سبحانه وتعالى فيهم ما يشاء. وقيل قوم علت درجاتهم كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أو الشهداء رضي الله تعالى عنهم، أو خيار المؤمنين وعلمائهم، أو ملائكة يُرون في صورة الرجال. ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا﴾ من أهل الجنة والنار. ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ بعلامتهم التي أعلمهم الله بها كبياض الوجه وسواده، فِعْلى مِنْ سام إبله إذا أرسلها في المرعى معلمة، أو مِنْ وَسَمَ على القلب كالجاه من الوجه، وإنما يَعْرِفون ذلك بالإلهام أو تعليم الملائكة. ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي إذا نظروا إليهم سلموا عليهم. ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ حال من الواو على الوجه الأول، ومن أصحاب على الوجوه الباقية.

(٤٧) ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا﴾ نعوذ بالله[2]. ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي في النار[3].

(٤٨) ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ من رؤساء الكفرة. ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ كثرتكم، أو جمعُكم المال. ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الحق، أو على الخلق. وقرىء تستكثرون من الكثرة.

---

(١) الحديد: «١٣».

(٢) والتعبير عن تعلق أبصارهم بأصحاب النار بالصرف إشعار بأن التعلق الأول بطريق الرغبة والميل الثاني بخلافه (س٣/ ٢٣٠).

(٣) وفي وصفهم بالظلم دون ما هم عليه حينئذ من العذاب وسوء الحال ـ الذي هو الموجب للدعاء ـ إشعار بأن المحذور عندهم ليس نفي العذاب فقط بل مع ما يوجبه ويؤدي إليه من الظلم (س٣/ ٢٣٠).

أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾
وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ
إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ
ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾
وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ
يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ
لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٥٣﴾

(٤٩) ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾ من تتمة قولهم للرجال، والإشارةُ إلى ضعفاء أهل الجنة الذين كانت الكفَرة يحتقرونهم في الدنيا ويحلفون أن الله لا يُدخلهم الجنة. ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ أي فالتفتوا إلى أصحاب الجنة وقالوا لهم ادخلوا وهو أوفق للوجوه الأخيرة، أو فقيل لأصحاب الأعراف ادخلوا الجنة بفضل الله سبحانه وتعالى بعد أن حُبسوا حتى أبصروا الفريقين وعرفوهم وقالوا لهم ما قالوا. وقيل لما عيروا أصحاب النار أقسموا أن أصحاب الأعراف لا يدخلون الجنة فقال الله سبحانه وتعالى أو بعض الملائكة أهؤلاء الذين أقسمتم. وقرىء أُدْخِلوا ودَخَلوا على الاستئناف، وتقديره دَخَلوا الجنة مقولاً لهم لا خوف عليكم.

(٥٠) ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ أي صبوه، وهو دليل على أن الجنة فوق النار. ﴿أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ من سائر الأشربة ليلائم الإفاضة، أو من الطعام كقوله: علفتها تبناً وماء بارداً. ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ منعهما عنهم منع المحرَّم من المكلّف.

(٥١) ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾ كتحريم البَحيرة والتصدية والمُكاء حول البيت واللهوُ صرف الهمّ بما لا يحسن أن يصرف به واللعب طلب الفرح بما لا يحسن أن يطلب بهز ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ﴾ نفعل بهم فعل الناسين فنتركهم في النار. ﴿كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ فلم يخطروه ببالهم ولم يستعدوا له. ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ وكما كانوا منكرين أنها من عند الله.

(٥٢) ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ﴾ بينا معانيه من العقائد والأحكام والمواعظ مفصلة. ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ عالمين بوجه تفصيله حتى جاء حكيماً، وفيه دليل على أنه سبحانه وتعالى عالم بعلم، أو مشتملاً على علم فيكون حالاً من المفعول. وقرىء فضلناه أي على سائر الكتب عالمين بأنه حقيق بذلك. ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ حال من الهاء.

(٥٣) ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾ ينتظرون. ﴿إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ﴾ إلا ما يؤل إليه أمره مِنْ تبين صدقه بظهور ما نطق به من الوعد والوعيد. ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ﴾ تركوه ترك الناسي. ﴿قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ أي قد تبين أنهم جاؤوا بالحق. ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ﴾ اليوم. ﴿أَوۡ نُرَدُّ﴾ أو هل نرد

إلى الدنيا. وقرىء بالنصب عطفاً على فيشفعوا، أو لأن أو بمعنى إلى أن، فعلى الأول المسؤول أحد الأمرين الشفاعة أو ردهم إلى الدنيا، وعلى الثاني أن يكون لهم شفعاء إما لأحد الأمرين أو لأمر واحد وهو الرد. ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ جواب الاستفهام الثاني. وقرىء بالرفع أي فنحن نعمل. ﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بصرف أعمارهم في الكفر. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ بطل عنهم فلم ينفعهم.

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾

(٥٤) ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي في ستة أوقات كقوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ﴾[١] أو في مقدار ستة أيام، فإن المتعارف باليوم زمان طلوع الشمس إلى غروبها ولم يكن حينئذ. وفي خلق الأشياء مدرّجاً مع القدرة على إيجادها دفعةً دليل للاختيار واعتبارٌ للنظّار وحثٌ على التأني في الأمور. ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ استوى أمرُه أو استولى، وعن أصحابنا أن الاستواء على العرش صفة لله بلا كيف، والمعنى: أن له تعالى استواء على العرش على الوجه الذي عناه منزهاً عن الاستقرار والتمكن. والعرشُ الجسم المحيط بسائر الأجسام سمي به لارتفاعه، أو للتشبيه بسرير المَلِك فإن الأمور والتدابير تنزل منه. وقيل المُلْك. ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ يغطيه به ولم يُذكَر عكسه للعلم به، أو لأن اللفظ يحتملهما، ولذلك قرىء يغشي الليلَ النهارُ بنصب الليل ورفع النهار. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وأبو بكر عن عاصم بالتشديد فيه وفي الرعد[٢]، للدلالة على التكرير. ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ يعقبه سريعاً كالطالب له لا يفصل بينهما شيء. والحثيثُ فعيل من الحث، وهو صفة مصدر محذوف، أو حال من الفاعل بمعنى حاثاً أو المفعول بمعنى محثوثاً. ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ بقضائه وتصريفه، ونصبُها بالعطف على السموات ونصبُ مسخرات على الحال. وقرأ ابن عامر كلّها بالرفع على الابتداء والخبر. ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فإنه الموجد والمتصرف. ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تعالى بالوحدانية في الألوهية وتعظم بالتفرد في الربوبية. وتحقيق الآية ـ والله سبحانه وتعالى أعلم ـ أَنّ الكفرة كانوا متخذين أرباباً فبين لهم أن المستحق للربوبية واحد وهو الله سبحانه وتعالى، لأنه الذي له الخلق والأمر، فإنه سبحانه وتعالى خلق العالم على ترتيب قويم وتدبير حكيم فأبدع الأفلاك ثم زينها بالكواكب كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾[٣] وعَمَد إلى إيجاد الأجرام السفلية فخلق جسماً قابلاً للصور المتبدلة والهيئات المختلفة، ثم قسمها بصور نوعية متضادة الآثارِ والأفعال وأشارَ إليه بقوله: «وخلق الأرض» أي ما في جهة السفل في يومين، ثم أنشأ أنواع المواليد الثلاثة بتركيب موادها أولاً وتصويرها ثانياً كما قال تعالى بعد قوله: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى

(١) الأنفال: «١٦».

(٢) الرعد: «٣».

(٣) فصلت: «١٢».

يَوۡمَيۡنِ﴾(١) ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ﴾(٢) أي مع اليومين الأولين لقوله تعالى في سورة السجدة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾(٣) ثم لما تم له عالم الملك عمد إلى تدبيره كالمَلِكِ الجالس على عرشه لتدبير المملكة، فدبر الأمر من السماء إلى الأرض بتحريك الأفلاك وتسيير الكواكب وتكوير الليالي والأيام، ثم صرح بما هو فَذْلكة التقرير ونتيجته فقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾(٤) ثم أمرهم بأن يدعوه متذللين مخلصين فقال:

ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا
وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا
بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ
ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

(٥٥) ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾ أي ذوي تضرع وخفية فإن الإخفاء دليل الإخلاص. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ المجاوزين ما أمروا به في الدعاء وغيره، نبه به على أن الداعي ينبغي أن لا يطلب ما لا يليق به كرتبة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والصعود إلى السماء. وقيل هو الصياح في الدعاء والإسهاب فيه. وعن النبي ﷺ، «سيكون قوم يعتدون في الدعاء، وحسب المرء أن يقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل ثم قرأ «إنه لا يحب المعتدين»(٥).

(٥٦) ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بالكفر والمعاصي. ﴿بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ ببعث الأنبياء وشرع الأحكام. ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾ ذوي خوف من الرد لقصور أعمالكم وعدم استحقاقكم، وطمع في إجابته تفضلاً وإحساناً لفرط رحمته ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ترجيح للطمع وتنبيه على ما يتوسل به للإجابة، وتذكير قريب لأن الرحمة بمعنى الرحم، أو لأنه صفة محذوف أي أمر قريب، أو على تشبيهه بفعيل الذي هو بمعنى مفعول، أو الذي هو مصدر كالنقيض، أو الفرق بين القريب من النسب والقريب من غيره.

(٥٧) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي الريح على الوحدة. ﴿بُشۡرَۢا﴾

---

(١) فصلت: «٩».
(٢) فصلت: «١٠».
(٣) السجدة: «٤».
(٤) الأعراف: «٥٤».
(٥) أخرجه أبو يعلى في المسند (٢/ ٧١ رقم ٢٧/ ٧١٥) وأحمد (١/ ١٧٢، ١٨٢٠) من طريق عبدالرحمٰن بن مهدي، وأبي النضر كلاهما عن شعبة بهذا الإسناد. وقد تصحّف فيه «ابن عبادية» إلى أبي عبادية.
وأخرجه أحمد (١/ ١٨٢) وأبو داود (٤/ ١٦١ ـ ١٦٢ رقم ١٤٨٠) من طريقين عن شعبة به، وفيه «ابن لسعد» بدل «مولى لسعد» وعند أحمد عن الاثنين معاً. وانظر تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣١). =

جمع نشور بمعنى ناشر، وقرأ ابن عامر نُشْراً بالتخفيف حيث وقع، وحمزة والكسائي نَشْراً بفتح النون حيث وقع على أنه مصدر في موقع الحال بمعنى ناشرات أو مفعول مطلق فإن الإرسال والنشر متقاربان، وعاصم بُشْراً وهو تخفيف بشر جمع بشير وقد قرىء به، وبَشْراً بفتح الباء مصدر بشره بمعنى باشرات أو للبشارة، وبُشْرى. ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ قدّام رحمته، يعني المطر فإن الصَّبا تثير السحاب والشمال تجمعه والجنوب تدرّه والدَّبور تفرقه. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ﴾ أي حملت، واشتقاقه من القِلة فإن المقل للشيء يستقله. ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ بالماء، جمعه لأن السحاب جمع بمعنى السحائب. ﴿سُقْنَٰهُ﴾ أي السحاب، وإفراد الضمير باعتبار اللفظ. ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ لأجله، أو لإحيائه، أو لسقيه. وقرىء ميت. ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ بالبلد أو بالسحاب أو بالسوق أو بالريح وكذلك. ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ ويحتمل فيه عود الضمير إلى الماء، وإذا كان للبلد فالباء للإلصاق في الأول وللظرفية في الثاني، وإذا كان لغيره فهي للسببية فيهما. ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ من كل أنواعها. ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الإشارة فيه إلى إخراج الثمرات أو إلى إحياء البلد الميت، أي كما نحييه بإحداث القوة النامية فيه وتطريتها بأنواع النبات والثمرات نخرج الموتى من الأجداث ونحييها برد النفوس إلى مواد أبدانها بعد جمعها وتطريتها بالقوى والحواس. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمون أن من قدر على ذلك قدر على هذا.

وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾

(٥٨) ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ الأرض الكريمة التربة. ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بمشيئته وتيسيره، عبّر به عن كثرة النبات وحسنه وغزارة نفعه لأنه أوقعه في مقابلة: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ أي كالحرة والسبخة. ﴿لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ قليلاً عديم النفع، ونصبه على الحال وتقدير الكلام: والبلد الذي خبث لا يخرج نباته إلا نكداً فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فصار مرفوعاً مستتراً. وقرىء يُخرِج أي يخرجه البلد، فيكون إلا نكداً مفعولاً ونكداً على المصدر أي ذا نكد ونكْداً بالإسكان للتخفيف. ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ نرددها ونكررها. ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ نعمة الله فيتفكرون فيها ويعتبرون بها. والآية مَثَل لمن تدبر الآيات وانتفع بها، ولمن لم يرفع إليها رأساً ولم يتأثر بها.

(٥٩) ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ جواب قسم محذوف، ولا تكاد تطلق هذه اللام إلا مع قد لأنها مظنة التوقع، فإن المخاطب إذا سمعها توقع وقوع ما صدر بها. ونوح بن لمك بن متوشلح بن إدريس أول نبي بعده، بعث وهو ابن خمسين سنة أو أربعين. ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي اعبدوه وحده[1] لقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ وقرأ الكسائي غيرِه بالكسر نعتاً أو بدلاً على اللفظ حيث وقع إذا

---

(١) وترك التقييد بـ«وحده» للإيذان بأنها العبادة حقيقة، وأما العبادة بالإشراك فليست من العبادة في شيء (س٣/ ٢٣٥). =

كان قبل إله مِنْ التي تخفض، وقرىء بالنصب على الاستثناء. ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ إن لم تؤمنوا، وهو وعيد وبيان للداعي إلى عبادته. واليوم يوم القيامة، أو يوم نزول الطوفان[١].

قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ
ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ
وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

(٦٠) ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾ أي الأشراف فإنهم يملؤون العيون رُواء. ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ﴾ زوال عن الحق. ﴿مُّبِينٖ﴾ بين.

(٦١) ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾ أي شيء من الضلال، بالغَ في النفي كما بالغوا في الإثبات وعرّض لهم به. ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ استدراك باعتبار ما يلزمه، وهو كونه على هدًى كأنه قال: ولكني على هدى في الغاية لأني رسول من الله سبحانه وتعالى.

(٦٢) ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ صفات لرسول أو استئناف، ومساقها على الوجهين لبيان كونه رسولاً. وقرأ أبو عمرو أُبْلِغكم بالتخفيف. وجَمْعُ الرسالات لاختلاف أوقاتها، أو لتنوع معانيها كالعقائد والمواعظ والأحكام، أو لأن المراد بها ما أوحي إليه وإلى الأنبياء قبله كصحف شيث وإدريس. وزيادة اللام في لكم للدلالة على إمحاض النصح لهم. وفي «أعلمُ من الله» تقرير لما أوعدهم به، فإن معناه أعلم من قدرته وشدة بطشه، أو من جهته بالوحي أشياء لا علم لكم بها[٢].

(٦٣) ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف على محذوف أي أكذبتم وعجبتم. ﴿أَن جَآءَكُمۡ﴾ من أن جاءكم. ﴿ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ رسالة أو موعظة. ﴿عَلَىٰ رَجُلٖ﴾ على لسان رجل. ﴿مِّنكُمۡ﴾ من جملتكم أو من جنسكم، فإنهم كانوا يتعجبون من إرسال البشر ويقولون: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[٣]. ﴿لِيُنذِرَكُمۡ﴾ عاقبةَ الكفر والمعاصي. ﴿وَلِتَتَّقُواْ﴾ منهما بسبب الإنذار. ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ بالتقوى. وفائدة حرف الترجي: التنبيه على أن التقوى غير موجب، والترحمُ من الله سبحانه وتعالى تفضل، وأن المتقي ينبغي أن لا يعتمد على تقواه ولا يأمن من عذاب الله تعالى.

(٦٤) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ وهم من آمن به، وكانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة، وقيل

---

(١) ووصف اليوم بالعظم لبيان عظم ما يقع فيه وتكميل الإنذار (س٣/ ٢٣٥).

(٢) في قوله «رسالات ربي» تخصيص لربوبيته تعالى به عليه السلام ـ بعد بيان عمومها للعالمين ـ للإشعار بعلة الحكم الذي هو تبليغ رسالته تعالى إليهم، فإن ربوبيته تعالى له عليه السلام من موجبات امتثاله بأمره تعالى بتبليغ رسالته إليهم.
وقوله «وأنصح» بصيغة المضارع للدلالة على تجدد نصيحته لهم (س٣/ ٢٣٦).

(٣) المؤمنون: «٢٤».

تسعة بنوه سام وحام ويافث وستة ممن آمن به. ﴿فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ متعلق بمعه أو بأنجيناه، أو حال من الموصول أو من الضمير في معه. ﴿وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾ بالطوفان[1]. ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ﴾ عُمْيَ القلوب غير مستبصرين، وأصله عميين فخفف. وقرىء عامين والأول أبلغ لدلالته على الثبات.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٦٥ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦٦ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٧ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ٦٨ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٦٩﴾

(٦٥) ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ﴾ عطف على نوحاً إلى قومه. ﴿هُودٗاۚ﴾ عطف بيان لأخاهم والمراد به الواحد منهم، كقولهم يا أخا العرب للواحد منهم، فإنه هود بن عبدالله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح. وقيل هود بن عبدالله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح. وقيل هود بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح، ابن عم أبي عاد، وإنما جعل منهم لأنهم أفهم لقوله وأعرف بحاله وأرغب في اقتفائه. ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ﴾ استأنف به ولم يعطف كأنه جواب سائل قال: فما قال لهم حين أرسل؟ وكذلك جوابهم. ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله، وكأن قومه كانوا أقرب من قوم نوح عليه الصلاة والسلام ولذلك قال «أفلا تتقون».

(٦٦) ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾ إذ كان من أشرافهم من آمن به كمرثد بن سعد.

﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ﴾ متمكناً في خفة عقل راسخاً فيها حيث فارقت دين قومك. ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾.

(٦٧) ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

(٦٨) ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾.

(٦٩) ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ﴾ سبق تفسيره[2]. وفي إجابة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الكفرةَ عن كلماتهم الحمقاء بما أجابوا والإعراضِ عن مقابلتهم كمالُ النصح والشفقة وهضم النفس وحسن المجادلة، وهكذا ينبغي لكل ناصح، وفي قوله: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[3]

---

(١) وتقديم ذكر إنجاء نوح عليه السلام على إغراقهم للمسارعة إلى الإخبار به، والإيذان بسبق الرحمة ـ التي هي مقتضى الذات على الغضب ـ الذي يظهر أثره بمقتضى جرائمهم (س٣/ ٢٣٧).

(٢) قوله «وأنا لكم ناصح أمين» جيء بالجملة الاسمية للدلالة على الثبات والاستمرار (س٣/ ٢٣٨).

(٣) الآية: «٦٣».

تنبيه على أنهم عرَفوه بالأمرين. وقرأ أبو عمرو أُبْلِغكم في الموضعين في هذه السورة وفي الأحقاف[1] مخففاً. ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي في مساكنهم، أو في الأرض بأن جعلكم ملوكاً فإن شداد بن عاد ممن مَلَك معمورة الأرض من رمل عالج إلى شجر عمان. خوّفهم من عقاب الله ثم ذكّرهم بإنعامه. ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ قامة وقوة. ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ تعميم بعد تخصيص. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لكي يفضي بكم ذكر النعم إلى شكرها المؤدي إلى الفلاح.

قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ
سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾
فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

(٧٠) ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ استبعدوا اختصاصَ الله بالعبادة والإعراضَ عما أشرك به آباؤهم انهماكاً في التقليد وحباً لما ألِفوه، ومعنى المجيء في أجئتنا إما المجيء من مكان اعتزل به عن قومه أو من السماء على التهكم، أو القصد على المجاز كقولهم ذهب يسبني. ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب المدلول عليه بقوله «أفلا تتقون» ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيه.

(٧١) ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم﴾ قد وجب وحق عليكم، أو نَزَل عليكم على أن المتوقّع كالواقع. ﴿مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ﴾ عذاب من الارتجاس وهو الاضطراب. ﴿وَغَضَبٌ﴾ إرادة انتقام. ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي في أشياء سميتموها آلهةً وليس فيها معنى الإلهية، لأن المستحق للعبادة بالذات هو الموجد للكل، وأنها لو استحقت كان استحقاقُها بجعله تعالى إما بإنزال آية أو بنصب حُجة، بيّن أن منتهى حجتهم وسندهم أن الأصنام تسمى آلهة من غير دليل يدل على تحقق المسمّى، وإسنادُ الإطلاق إلى من لا يؤبه بقوله إظهاراً لغاية جهالتهم وفرط غباوتهم، واستُدِل به على أن الاسم هو المسمى وأن اللغات توقيفية إذ لو لم يكن كذلك لم يتوجه الذم والإبطال بأنها أسماء مخترعة لم ينزل الله بها سلطاناً، وضعفهما ظاهر. ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ لما وضح الحق وأنتم مصرون على العناد نزول العذاب بكم. ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

(٧٢) ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ في الدين. ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ عليهم. ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي استأصلناهم. ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ تعريض بمن آمن منهم، وتنبيه على أن الفارق بين من نجا وبين من هلك هو الإيمان. روي أنهم كانوا يعبدون الأصنام فبعث الله إليهم هوداً فكذبوه، وازدادوا عتواً فأمسك الله القطر عنهم ثلاث سنين حتى جَهدهم، وكان الناس حينئذ مسلمهم ومشركهم إذا نزل بهم بلاء توجهوا إلى البيت الحرام وطلبوا من الله الفرج، فجهزوا إليه قيل بن عنز ومرثد بن سعد في سبعين من أعيانهم، وكان إذ ذاك بمكة العمالقةُ أولاد عمليق بن لاوذ بن سام وسيدهم معاوية بن بكر، فلما

---

(١) الأحقاف: «٢٣».

قدموا عليه وهو بظاهر مكة أنزلهم وأكرمهم، وكانوا أخواله وأصهاره، فلبثوا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنّيهم الجرادتان قَيْنتان له، فلما رأى ذهولهم باللهو عما بعثوا له أهمه ذلك واستحيا أن يكلمهم فيه مخافة أن يظنوا به ثقل مقامهم فعلّم القينتين:

أَلاَ يَا قِيلُ وَيْحَكَ قُمْ فَهَيْنِمْ ... لعَلَّ الله يُسْقِينَا الغَمَامَا
فَيُسْقِي أَرْضَ عَادٍ إن عَاداً ... قَد امْسَوا مَا يُبِينُونَ الكَلاَمَا

حتى غنتا به، فأزعجهم ذلك فقال مرثد: والله لا تُسقون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيكم وتبتم إلى الله سبحانه وتعالى سُقيتم، فقالوا لمعاوية: احبسه عنا لا يقدمنّ معنا مكة فإنه قد اتبع دين هود وترك ديننا، ثم دخلوا مكة فقال قيل: اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيهم، فأنشأ الله تعالى سحابات ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء، ثم ناداه مناد من السماء يا قيل: اختر لنفسك ولقومك. فقال اخترت السوداء فإنها أكثرهن ماء، فخرجت على عاد من وادي المغيث فاستبشروا بها وقالوا: هذا عارضٌ ممطرنا فجاءتهم منها ريح عقيم فأهلكتهم ونجا هود والمؤمنون معه، فأتوا مكة وعبدوا الله سبحانه وتعالى فيها حتى ماتوا(١).

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

(٧٣) ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ قبيلة أخرى من العرب سُموا باسم أبيهم الأكبر ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح. وقيل سموا به لقلة مائهم من الثمْد وهو الماء القليل. وقرىء مصروفاً بتأويل الحي أو باعتبار الأصل. وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القُرى. ﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ صالح بن عبيد بن آسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ معجزة ظاهرة الدلالة على صحة نبوتي، وقولُه: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ استئنافٌ لبيانها، و«آيةً» نصب على الحال والعامل فيها معنى الإشارة، و«لكم» بيان لِمَنْ هي له آية، ويجوز أن تكون ناقةُ الله بدلاً أو عطفَ بيان ولكم خبراً عاملاً في آية، وإضافة الناقة إلى الله لتعظيمها ولأنها جاءت من عنده بلا وسائط وأسباب معهودة ولذلك كانت آية. ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ العشب. ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ نهي عن المس الذي هو مقدمة الإصابة بالسوء الجامع لأنواع الأذى مبالغة في الأمر وإزاحة للعذر. ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ جواب للنهي.

---

(١) أورد هذه القصة ابن كثير عن محمد بن إسحاق، وقال: وهو سياق غريب فيه فوائد كثيرة... وقد ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده قريب مما أورده محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله (تفسير ابن كثير ٢/٢١٦).

(٧٤) ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرضِ الحجر. ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أي تبنون في سهولها، أو من سهولة الأرض بما تعملون منها كاللَّبِن والآجرّ. ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ وقرىء تَنْحَتون بالفتح وتَنْحَاتُون بالإشباع، وانتصاب بيوتاً على الحال المقدرة أو المفعول على أن التقدير بيوتاً من الجبال، أو تنحتون بمعنى تتخذون ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾

(٧٥) ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾ أي عن الإيمان. ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ﴾ أي للذين استضعفوهم واستذلوهم. ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ بدل من الذين استُضعفوا بدلَ الكل إنْ كان الضمير لقومه وبدلَ البعض إن كان للذين. وقرأ ابن عامر وقال الملأ بالواو. ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ قالوه على الاستهزاء. ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ عدلوا به عن الجواب السوي الذي هو نَعَمْ تنبيهاً على أنَّ إرساله أظهرُ من أن يشك فيه عاقل ويخفى على ذوي رأي، وإنما الكلام فيمن آمن به ومن كفر فلذلك قال:

(٧٦) ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ على وجه المقابلة[1]، ووضعوا آمنتم به موضع أُرسل به رداً لما جعلوه معلوماً مُسَلَّماً.

(٧٧) ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ فنحروها. أُسْنِد إلى جميعهم فِعْلُ بعضهم للملابسة، أو لأنه كان برضاهم. ﴿وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ واستكبروا عن امتثاله، وهو ما بلّغهم صالح عليه الصلاة والسلام بقوله: فذروها. ﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

(٧٨) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة. ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ خامدين ميتين. روي: أنهم بعد عاد عمروا بلادهم وخلفوهم وكثروا، وعمّروا أعماراً طوالاً لا تفي بها الأبنية، فنحتوا البيوت من الجبال، وكانوا في خصب وسعة فعتوْا وأفسدوا في الأرض وعبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم صالحاً من أشرافهم فأنذرهم، فسألوه آية فقال: أية آية تريدون؟ قالوا: اخرج معنا إلى عيدنا فتدعو إلهك وندعو آلهتنا فمن استجيب له اتُّبع، فخرج معهم فدعوْا أصنامهم فلم تجبهم، ثم أشار سيدهم جندع بن عمرو إلى صخرة منفردة يقال لها الكاثبة وقال: له أخرج من هذه الصخرة ناقة مخترجة

(١) أعيد الموصول مع صلته «الذين استكبروا» مع كفاية الضمير إيذاناً بأنهم قد قالوا ما قالوه بطريق العتو والاستكبار (س٣/ ٢٤٣).

جوفاء وَبْراء إن فعلت صدقناك، فأخذ عليهم صالح مواثيقهم لئن فعلتُ ذلك لتؤمنن؟ فقالوا: نعم، فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النَّتُوج بولدها، فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وَبْراء كما وَصَفوا وهم ينظرون، ثم نَتِجت ولداً مثلها في العظم فآمن به جندع في جماعة، ومَنَع الباقين من الإيمان ذؤابُ بن عمرو والحباب صاحب أوثانهم ورباب بن صغر كاهنُهم، فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وتَرِد الماء غِبّاً[١] فما ترفع رأسها من البئر حتى تشرب كل ما فيها، ثم تتفحج فيحلِبون ما شاؤوا حتى تمتلىء أوانيهم، فيشربون ويدخرون وكانت تصيف بظهر الوادي فتهرب منها أنعامُهم إلى بطنه، وتشتو ببطنه فتهرب مواشيهم إلى ظهره، فشق ذلك عليهم وزينت عقْرَها لهم عنيزةُ أم غنم وصدقة بنت المختار، فعقروها واقتسموا لحمها، فرقى سَقَبُها[٢] جبلاً اسمه قارة فرَغَا ثلاثاً فقال صالح لهم أدرِكوا الفصيل عسى أن يُرفَع عنكم العذاب، فلم يقدروا عليه إذ انفجرت الصخرة بعد رُغائه فدخلها فقال لهم صالح: تصبح وجوهكم غداً مصفرة وبعد غد محمرة واليوم الثالث مسودة، ثم يصبِّحكم العذاب، فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه فأنجاه الله إلى أرض فلسطين، ولما كان ضحوة اليوم الرابع تحنطوا بالصبر وتكفنوا بالأنطاع فأتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم فهلكوا[٣].

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٧٩﴾

(٧٩) ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ ظاهره أن توليه عنهم كان بعد أن أبصرهم جاثمين، ولعله خاطبهم به بعد هلاكهم كما خاطب رسول الله ﷺ أهل قَلِيب بدر[٤] وقال «إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟»[٥]. أو ذُكِر

---

(١) غِبّاً أي يوماً بعد يوم.

(٢) سَقَبُها أي فصيلها وهو فصيل الناقة.

(٣) أورد القصة ابن كثير ولم يعلق عليها (تفسير ابن كثير ٢/٢١٨) ونسبها الألوسي لمحمد بن إسحاق (روح المعاني ٨/١٦٦).

(٤) القليب: يعني قليب بدر. وهو حفرة رميت فيها جيف كفار قريش المقتولين ببدر. وفسر بالبئر العادية القديمة. ولفظه مذكر. ليس كلفظ البئر ولذا قال: وفيه قتلى بدر، والقتلى جمع قتيل.

(٥) أخرج البخاري (٧/٣٠٠ رقم ٣٩٧٦) ومسلم (٤/٢٢٠٤ رقم ٢٨٧٥) عن أنس بن مالك عن أبي طلحة أن نبي الله ﷺ أمرَ يومَ بدرٍ بأربعةٍ وعشرين رجلاً من صناديد قريش فقُذِفوا في طوىً من أطواء بدرٍ خبيث مخبث. وكان إذا ظهر على قومٍ أقام بالعرصة ثلاث ليالٍ. فلما كان ببدر اليوم الثالث أمرَ براحلتهِ فشُدَّ عليها رحلُها، ثم مشى واتبعهُ أصحابه وقالوا ما نرى ينطلقُ إلاّ لبعض حاجته، حتى قام على شفةِ الرَّكي فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: يا فلان ابن فلان ويا فلان ابن فلان، أيسرُّكم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعدَ ربكم حقاً. قال فقال عمر: يا رسول الله، ما تكلمُ من أجساد لا أرواح لها، فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسُ محمدٍ بيده، ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم».
قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قولَه، توبيخاً وتصغيراً ونقمة وحسرةً وندماً قلت: ويؤيد تفسير قتادة حديث أخرجه البخاري (٧/٣٠١ رقم ٣٩٨١) ومسلم (٢/٦٤٣ رقم ٩٣٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال «وقف النبي ﷺ على قليب بدر فقال: هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ ثم قال: إنهم الآن يسمعون ما أقول. فذكر لعائشة، فقالت: «إنما قال النبي ﷺ: إنهم الآن ليعلمون أن الذي كنتُ أقول لهم هو الحق. ثم قرأت «إنك =

ذلك على سبيل التحسر عليهم[(١)].

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ
ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن
قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ
ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

(٨٠) ﴿وَلُوطًا﴾ أي وأرسلنا لوطاً. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ وقت قوله لهم، أو واذكر لوطاً وإذ بدلٌ منه. ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ توبيخ وتقريع على تلك الفعلة المتمادية في القبح. ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ما فعلها قبلكم أحد قط. والباء للتعدية، ومِنْ الأولى لتأكيد النفي والاستغراق، والثانية للتبعيض. والجملة استئناف مقرر للإنكار كأنه وبّخهم أولاً بإتيان الفاحشة ثم باختراعها فإنه أسوأ.

(٨١) ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ بيان لقوله: ﴿أتأتون الفاحشة﴾ وهو أبلغ في الإنكار والتوبيخ، وقرأ نافع وحفص إنكم على الإخبار المستأنف، و«شهوةً» مفعول له أو مصدر في موقع الحال، وفي التقييد بها وصفهم بالبهيمية الصرفة وتنبيه على أن العاقل ينبغي أن يكون الداعي له إلى المباشرة طلب الولد وبقاء النوع لا قضاء الوطر. ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ إضرابٌ عن الإنكار إلى الإخبار عن حالهم التي أدت بهم إلى ارتكاب أمثالها وهي اعتياد الإسراف في كل شيء، أو عن الإنكار عليها إلى الذم على جميع معايبهم، أو عن محذوف مثل لا عذر لكم فيه بل أنتم قوم عادتكم الإسراف.

(٨٢) ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ أي ما جاؤوا بما يكون جواباً عن كلامه، ولكنهم قابلوا نصحه بالأمر بإخراجه فيمن معه من المؤمنين من قريتهم والاستهزاء بهم فقالوا: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي من الفواحش[(٢)].

(٨٣) ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ أي مَنْ آمن به. ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ استثناء من أهله فإنها كانت تُسرّ الكفر. ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ من الذين بقُوا في ديارهم فهلكوا، والتذكير لتغليب الذكور.

(٨٤) ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ أي نوعاً من المطر عجيباً وهو مبيّن بقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾[(٣)]. ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ روي: أن لوط بن هاران بن تارح لما هاجر مع

= لا تُسمعُ الموتى» حتى قرأت الآية.
وإذا أردت الوقوف على المسألة وأدلتها فارجع إلى الكتاب «الآيات البينات في عدم سماع الأموات» تأليف نعمان بن المفسر الألوسي. تحقيق وتخريج وتعليق المحدث محمد ناصر الدين الألباني.

(١) قوله «لا تحبون» بصيغة المضارع للدلالة على استمرارهم بذلك (س٣/ ٢٤٤).
(٢) ووصفهم بالتطهير للاستهزاء والسخرية بهم (س٣/ ٢٤٦).
(٣) هود: «٨٢». الحجر: «٧٤».

عمه إبراهيم عليه السلام إلى الشام نزل بالأردن، فأرسله الله إلى أهل سدوم ليدعوهم إلى الله وينهاهم عما اخترعوه من الفاحشة، فلم ينتهوا عنها فأمطر الله عليهم الحجارة فهلكوا. وقيل خسف بالمقيمين منهم وأمطرت الحجارة على مسافريهم.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦)﴾

(٨٥) ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي وأرسلنا إليهم، وهم أولاد مدين بن إبراهيم خليل الله شعيب بن ميكائيل بن يسجر بن مدين، وكان يقال له خطيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لحسن مراجعته قومه. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يريد المعجزة التي كانت له وليس في القرآن أنها ما هي، وما روي[١] من محاربة عصا موسى عليه الصلاة والسلام التنين وولادة الغنم التي دفعها إليه الدرع خاصة وكانت الموعودة له من أولادها ووقوع عصا آدم على يده في المرات السبع متأخرة عن هذه المقاولة، ويحتمل أن تكون كرامة لموسى عليه السلام أو إرهاصاً لنبوته. ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أي آلة الكيل على الإضمار، أو إطلاقُ الكيل على المكيال كالعيش على المعاش لقوله: ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ كما قال في سورة هود: ﴿أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾[٢] أو الكيل ووزن الميزان، ويجوز أن يكون الميزان مصدراً كالميعاد. ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ ولا تنقصوهم حقوقهم، وإنما قال أشياءهم للتعميم تنبيهاً على أنهم كانوا يبخسون الجليل والحقير والقليل والكثير. وقيل كانوا مَكّاسين لا يدعون شيئاً إلا مكسوه[٣]. ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالكفر والحَيْف. ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بعد ما أُصلح أمرُها أو أهلَها الأنبياءُ وأتباعهم بالشرائع، أو أصلحوا فيها والإضافة إليها كالإضافة في «بل مكر الليل والنهار»[٤]. ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى العمل بما أمرهم به ونهاهم عنه، ومعنى الخيرية إما الزيادة مطلقاً أو في الإنسانية وحسن الأحدوثة وجمع المال.

(٨٦) ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ بكل طريق من طرق الدين كالشيطان، وصراطُ الحق وإن كان واحداً لكنه يتشعب إلى معارف وحدود وأحكام، وكانوا إذا رأوا أحداً يسعى في شيء منها

---

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٨/ ١٧٦) بدون راوٍ ولا سند.
(٢) هود: «٨٥».
(٣) المكس هو نقص الثمن، إذ يأخذه بغير حق.
(٤) سبأ: «٣٣». والإضافة فيها على تقدير: بل مكركم لنا دائباً ليلاً ونهاراً. (البيضاوي ٢/ ٢٦٢).

منعوه. وقيل كانوا يجلسون على المراصد فيقولون لمن يريد شعيباً إنه كذاب فلا يفسك عن دينك ويوعِدون لمن آمن به. وقيل كانوا يقطعون الطريق. ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني الذي قعدوا عليه فوضَع الظاهر موضع المضمر بياناً لكل صراط، ودلالة على عظم ما يصدون عنه وتقبيحاً لما كانوا عليه أو الإيمانِ بالله. ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ أي بالله، أو بكل صراط على الأول، ومَنْ مفعول تصدون على إعمال الأقرب ولو كان مفعول توعدون لقال وتصدونهم، وتوعِدون بما عطف عليه في موقع الحال من الضمير في تقعدوا. ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ وتطلبون لسبيل الله عوجاً بإلقاء الشبه، أو وصفها للناس بأنها معوجة. ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا﴾ عَدَدكُمْ أو عُدَدكُمْ. ﴿فَكَثَّرَكُمْ﴾ بالبركة في النسل أو المال. ﴿وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ من الأمم قبلكم فاعتبروا بهم.

وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾

(٨٧) ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟﴾ فتربصوا. ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾ أي بين الفريقين بنصر المحقين على المبطلين، فهو وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين. ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ إذ لا معقب لحكمه ولا حَيْف فيه.

(٨٨) ﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ أي لَيكوننّ أحدُ الأمرين إما إخراجكم من القرية أو عودكم في الكفر، وشعيب عليه الصلاة والسلام لم يكن في ملتهم قط لأن الأنبياء لا يجوز عليهم الكفر مطلقاً، لكن غَلَّبوا الجماعة على الواحد فخوطب هو وقومه بخطابهم، وعلى ذلك أُجري الجواب في قوله: ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ أي كيف نعود فيها ونحن كارهون لها، أو أتعيدوننا في حال كراهتنا.

(٨٩) ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ قد اختلفنا عليه. ﴿إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ شرطٌ جوابه محذوف دليلُه: قد افترينا وهو بمعنى المستقبل لأنه لم يقع لكنه جعل كالواقع للمبالغة، وأدخل عليه «قد» لتقريبه من الحال أي قد افترينا الآن إن هممنا بالعود بعد الخلاص منها حيث نزعم أن لله تعالى نداً، وأنه قد تبين لنا أن ما كنا عليه باطل وما أنتم عليه حق. وقيل إنه جواب قسم وتقديره: والله لقد افترينا. ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ﴾ وما يصح لنا. ﴿أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ خذلاننا وارتدادنا، وفيه دليل على أن الكفر بمشيئة الله. وقيل أراد به حسم طمعهم في العود بالتعليق على ما لا يكون. ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ أي أحاط علمه بكل شيء مما كان وما يكون منا ومنكم. ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ في أن يثبتنا على الإيمان ويخلصنا من الأشرار. ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ احكم بيننا وبينهم، والفتّاح

القاضي. والفِتَاحة الحُكُومة. أو أظهر أمرنا حتى ينكشف ما بيننا وبينهم ويتميز المحق من المبطل، مِنْ فَتَح المُشكِل إذا بينه. ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ على المعنيين.

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

(٩٠) ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾ وتركتم دينكم[1]. ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ لاستبدالكم ضلالته بهداكم، أو لفوات ما يحصل لكم بالبخس والتطفيف، وهو ساد مسد جواب الشرط والقسم الموطأ باللام.

(٩١) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة وفي سورة الحجر: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾[2] ولعلها كانت من مباديها. ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي في مدينتهم.

(٩٢) ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا﴾ مبتدأ خبره ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ أي استؤصلوا كأن لم يقيموا بها والمغنى المنزل ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ديناً ودنيا لا الذين صدقوه واتبعوه كما زعموا، فإنهم الرابحون في الدارين. وللتنبيه على هذا والمبالغة فيه كرر الموصول واستأنف بالجملتين وأتى بهما اسميتين.

(٩٣) ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ ليسوا أهل حزن لاستحقاقهم ما نزل عليهم بكفرهم، أو قاله اعتذاراً عن عدم شدة حزنه عليهم. والمعنى لقد بالغتُ في الإبلاغ والإنذار وبذلت وسعي في النصح والإشفاق فلم تصدقوا قولي، فكيف آسى عليكم. وقرىء فكيف أيسي بإمالتين.

(٩٤) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ بالبؤس والضر. ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ حتى يتضرعوا ويتذللوا.

(٩٥) ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ أي أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والشدة السلامة والسعة ابتلاء لهم بالأمرين. ﴿حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾ كثروا عَدَداً وعُدَداً يقال عفا النبات إذا كثر ومنه إعفاء

(١) وتغيير الصلة «الذين كفروا» لأن مدار قولهم هذا هو الكفر، كما أن مناط قولهم السابق هو الاستكبار (س/٣/٢٥١).

(٢) الحجر: «٨٣».

اللحى. ﴿وَقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ كفراناً لنعمة الله ونسياناً لذكره واعتقاداً بأنه من عادة الدهر يعاقب في الناس بين الضراء والسراء وقد مس آباءنا منه مثل ما مسنا[١]. ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ فجأة. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بنزول العذاب.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا
كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن
يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ
ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ
وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

(٩٦) ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ يعني القرى المدلول عليها بقوله: ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي﴾ وقيل مكة وما حولها. ﴿ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ﴾ مكان كفرهم وعصيانهم. ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لوسعنا عليهم الخير ويسرناه لهم من كل جانب، وقيل المراد المطر والنبات. وقرأ ابن عامر لفتّحنا بالتشديد. ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ﴾ الرسل. ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والمعاصي.

(٩٧) ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ عطف على قوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وما بينهما اعتراض، والمعنى: أبعد ذلك أَمِن أهل القرى؟! ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا﴾ تبييتاً أو وقت بيات أو مبيتاً أو مبيتين، وهو في الأصل مصدر بمعنى البيتوتة ويجيء بمعنى التبييت كالسلام بمعنى التسليم. ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ حال من ضميرهم البارز أو المستتر في بياتاً.

(٩٨) ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر «أوْ» بالسكون على الترديد. ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى﴾ ضحوة النهار، وهو في الأصل ضوء الشمس إذا ارتفعت. ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يلهون من فرط الغفلة، .أو يشتغلون بما لا ينفعهم.

(٩٩) ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ﴾ تكرير لقوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ ومكرُ الله استعارة لاستدراج العبد وأخذِه من حيث لا يحتسب. ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الذين خسروا بالكفر وترك النظر والاعتبار.

(١٠٠) ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ أي يخلفون مَنْ خلا قبلهم ويرثون ديارهم، وإنما عدي يهْدِ باللام لأنه بمعنى يبيّن[٢] ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ﴾ أنّ الشأن لو نشاء أصبناهم بجزاء ذنوبهم كما أصبنا مَنْ قبلهم، وهو فاعل يهدِ، ومن قرأه بالنون جعله مفعولاً. ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ عطف على ما دل عليه، أو لم يهدِ أي يغفلون عن الهداية، أو منقطع عنه بمعنى ونحن

(١) ولعل تأخير السراء للإشعار بأنها تعقب الضراء فلا ضير فيها (س٣/ ٢٥٣).
(٢) أو لتنزيل فعل الهداية منزلة اللازم (س٣/ ٢٥٤).

نطبع، ولا يجوز عطفه على أصبناهم على أنه بمعنى وطبعنا لأنه في سياقه جواب لو لإفضائه إلى نفي الطبع عنهم ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماع تفهم واعتبار.

تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾

(١٠١) ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ يعني قرى الأمم المارّ ذكرهم. ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ حال إن جُعِل القرى خبراً وتكون إفادته بالتقييد بها، وخبرٌ إن جُعِلتْ صفة، ويجوز أن يكونا خبرين، ومِنْ للتبعيض أي نقصّ بعض أنبائها ولها أنباء غيرها لا نقصها. ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات. ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ عند مجيئهم بها. ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ بما كذبوه من قبل الرسل بل كانوا مستمرين على التكذيب، أو فما كانوا ليؤمنوا مدة عمرهم بما كذبوا به أولاً حين جاءتهم الرسل، ولم تؤثر فيهم قط دعوتهم المتطاولة والآيات المتتابعة، واللامُ لتأكيد النفي والدلالة على أنهم ما صلحوا للإيمان لمنافاته لحالهم في التصميم على الكفر والطبع على قلوبهم. ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فلا تلين شكيمتهم بالآيات والنذر.

(١٠٢) ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم﴾ لأكثر الناس، والآية اعتراض، أو لأكثر الأمم المذكورين. ﴿مِّنْ عَهْدٍ﴾ من وفاءِ عهد، فإن أكثرهم نقضوا ما عهد الله إليهم في الإيمان والتقوى بإنزال الآيات ونصب الحجج، أو ما عاهدوا إليه حين كانوا في ضرر مخافة مثل: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[(١)]. ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ﴾ أي علمناهم. ﴿لَفَٰسِقِينَ﴾ مِنْ وجدتُ زيداً إذاً لحافظٌ لدخول إنْ المخففة واللام الفارقة، وذلك لا يسُوغ إلا في المبتدأ والخبر والأفعالِ الداخلة عليهما، وعند الكوفيين إنْ للنفي واللامُ بمعنى إلا.

(١٠٣) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ﴾ الضمير للرسل في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾[(٢)] أو للأمم[(٣)]. ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ يعني المعجزات. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ بأن كفروا بها مكان الإيمان الذي هو من حقها لوضوحها، ولهذا المعنى وضع ظلموا موضع كفروا. وفرعونُ لَقبٌ لمَنْ ملك مصر ككسرى لمَنْ ملك فارس، وكان اسمه قابوس وقيل الوليد بن مصعب بن الريان. ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[(٤)].

---

(١) يونس: «٢٢».

(٢) الأعراف: «١٠١».

(٣) التعبير بـ«ثم» الدالة على التراخي للإيذان بأن بعثه عليه السلام تجرى على سنن السنة الإلهية من إرسال الرسل تترى. وتقديم «من بعدهم» على المفعول للاعتناء بالمقدم والتشويق للمؤخر (س٣/٢٥٧).

(٤) وتخصيص الملأ بالذكر مع أنهم داخلون في رسالته عليه السلام لأصالتهم في تدبير الأمور واتباع غيرهم لهم في =

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾

(١٠٤) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إليك، وقوله:

(١٠٥) ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ لعله جواب لتكذيبه إياه في دعوى الرسالة، وإنما لم يُذكر لدلالة قوله: «فظلموا بها» عليه، وكان أصله حقيقٌ عليَّ أَنْ لا أَقُول، كما قرأ نافع فقُلب لأمن الإلباس كقوله: وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر. أو لأن ما لزمك فقد لزمتَه، أو للإغراق في الوصف بالصدق، والمعنى أنه حق واجب على القول الحق أن أكون أنا قائله لا يرضى إلا بمثلي ناطقاً به، أو ضمّن حقيق معنى حريص، أو وضع على مكان الباء لإفادة التمكن كقولهم: رميت على القوس وجئت على حال حسنة، ويؤيده قراءة أبيّ بالباء. وقرىء حقيق أن لا أقول بدون عَلَى. ﴿قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ فخلهم حتى يرجعوا معي إلى الأرض المقدسة التي هي وطن آبائهم، وكان قد استعبدهم واستخدمهم في الأعمال.

(١٠٦) ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ﴾ من عند من أرسلك. ﴿فَأۡتِ بِهَآ﴾ فأحضرها عندي ليثبت بها صدقك. ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في الدعوى.

(١٠٧) ﴿فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ﴾ ظاهرُ أمرِه لا يشك في أنه ثعبان، وهو الحية العظيمة. روي: أنه لما ألقاها صارت ثعباناً أشْعَرَ فاغراً فاهُ بين لحييه ثمانون ذراعاً، وضع لحيه الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر، ثم توجه نحو فرعون فهرب منه وأحدث، وانهزم الناس مزدحمين فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً، وصاح فرعون يا موسى أنشدك بالذي أرسلك خذه وأنا أومن بك وأرسل معك بني إسرائيل فأخذه فعاد عصا[1].

(١٠٨) ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ من جيبه، أو من تحت إبطه. ﴿فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ أي بيضاء بياضاً خارجاً عن العادة تجتمع عليها النَّظّارة، أو بيضاء للنظّار لا أنها كانت بيضاء في جِبِلّتها. روي: أنه عليه السلام كان آدمَ شديدَ الأُدْمَة، فأدخل يده في جيبه أو تحت إبطه ثم نزعها فإذا هي بيضاء نورانية غلب شعاعُها شعاعَ الشمس[2].

= الورود والصدور (س٣/ ٢٥٧).

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ ج٩/ ١٤) عن السدي.
وأورده السيوطي في «الدر» وزاد نسبته لابن أبي حاتم (٣/ ٥١٢).
وذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣) عن ابن عباس والسدي.

(٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٢٦٣) بدون راوٍ ولا سند.
وكذلك الألوسي في «روح المعاني» (٩/ ٢١).

قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓاْ
أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ
إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن
تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾

(١٠٩) ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ قيل قاله هو وأشرافُ قومه على سبيل التشاور في أمره، فحُكي عنه في سورة الشعراء[١] وعنهم ههنا.

(١١٠) ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ تشيرون في أن نفعل.

(١١١) ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾.

(١١٢) ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ كأنه اتفقت عليه آراؤهم فأشاروا به على فرعون. والإرجاءُ التأخير أي أَخِّرْ أمره، وأصلُه أَرْجِئْهُ كما قرأ أبو عمرو وأبو بكر ويعقوب مِنْ أرجأتُ، وكذلك أرجئهوه[٢] على قراءة ابن كثير على الأصل في الضمير، أو أرجهي من أرجيت كما قرأ نافع في رواية ورش وإسماعيل والكسائي، وأما قراءته في رواية قالون أَرْجِهِ بحذف الياء فللاكتفاء بالكسرة عنها، وأما قراءة حمزة وعاصم وحفص أَرْجِهْ بسكون الهاء فلتشبيه المنفصل بالمتصل وجعل جِهْ كَإِبْل في إسكان وسطه، وأما قراءة ابن عامر برواية ابن ذكوان أَرْجِئْهِ بالهمزة وكسر الهاء فلا يرتضيه النحاة فإن الهاء لا تكسر إلا إذا كان قبلها كسرة أو ياء ساكنة، ووجهُه أن الهمزة لما كانت تقلب ياء أجريت مجراها[٣]. وقرأ حمزة والكسائي بكل سحّار فيه وفي يونس ويؤيده اتفاقهم عليه في الشعراء[٤].

(١١٣) ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ بعد ما أرسل الشرطة في طلبهم[٥]. ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾[٦] استأنف به كأنه جواب سائل قال: ما قالوا إذ جاؤوا؟ وقرأ ابن كثير ونافع وحفص عن عاصم ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ على الإخبار وإيجاب الأجر كأنهم قالوا لا بد لنا من أجر، والتنكيرُ للتعظيم.

(١١٤) ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ إن لكم لأجراً. ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ عطف على ما سدّ مسدَّه «نعم» وزيادة على الجواب لتحريضهم.

(١١٥) ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ خيّروا موسى مراعاة للأدب أو إظهاراً

---

(١) الشعراء: «٣٤».
(٢) الذي وجدته في كتب القراءات «أرجئهو» بدون هاء في آخر الكلمة.
(٣) ما ذهب إليه البيضاوي من تضعيف قراءة ابن عامر... غير مقبول، فإنها قراءة متواترة وثابتة عن النبي عليه السلام وقد تلقتها الأمة بالقبول ولها توجيه في العربية. انظر في ذلك البحر المحيط (٤/ ٣٦٠).
(٤) الشعراء: «٣٧».
(٥) ولم يصرح بإرسال فرعون في طلب السحرة كما في قوله تعالى: «فأرسل فرعون في المدائن حاشرين» ـ الشعراء «٥٣» ـ للإيذان بمسارعة فرعون إلى الإرسال ومبادرة الحاشرين والسحرة إلى الامتثال (س٣/ ٢٥٩).
(٦) أثبتها في الأصل بالاستفهام على قراءة من قرأ بها، أي «أئن لنا لأجراً».

للجلادة، ولكن كانت رغبتهم في أن يُلْقوا قبله فنبَّهوا عليها بتغيير النظم إلى ما هو أبلغ وتعريفِ الخبر وتوسيطِ الفصل أو تأكيدِ ضميرهم المتصل بالمنفصل فلذلك:

قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ
مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ
وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ
فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾

(١١٦) ﴿قَالَ أَلْقُوا۟﴾ كرماً وتسامحاً، أو ازدراء بهم ووثوقاً على شأنه. ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ بأن خيلوا إليها ما الحقيقةُ بخلافه. ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ وأرهبوهم إرهاباً شديداً كأنهم طلبوا رهبتهم. ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ في فنه. روي أنهم ألقوا حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً كأنها حيات ملأت الوادي وركِبَ بعضها بعضاً.

(١١٧) ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها فصارت حية. ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي ما يزوّرونه من الإفك، وهو الصرف وقلب الشيء عن وجهه، ويجوز أن تكون «ما» مصدرية وهي مع الفعل بمعنى المفعول. روي: أنها لما تلقفت حبالَهم وعصيهم وابتلعتها بأسرها أقبلت على الحاضرين فهربوا وازدحموا حتى هلك جمع عظيم، ثم أخذها موسى فصارت عصاً كما كانت فقال السحرة: لو كان هذا سحراً لبقيت حبالُنا وعصينا[1]. وقرأ حفص عن عاصم تَلْقَفُ ههنا وفي طه والشعراء[2].

(١١٨) ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ فثبت لظهور أمره. ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من السحر والمعارضة.

(١١٩) ﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾ أي صاروا أذلاء مبهوتين، أو رجعوا إلى المدينة أذلاء مقهورين، والضمير لفرعون وقومه.

(١٢٠) ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ جعَلَهم ملقين على وجوههم تنبيهاً على أن الحق بهرهم واضطرهم إلى السجود بحيث لم يبقَ لهم تمالك، أو أن الله ألهمهم ذلك وحملهم عليه حتى ينكسر فرعونُ بالذين أراد بهم كسر موسى وينقلبَ الأمر عليه، أو مبالغة في سرعة خرورهم وشدته.

(١٢١) ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

(١٢٢) ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أبدلوا الثاني من الأول لئلا يُتوهم أنهم أرادوا به فرعون.

(١٢٣) ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ بالله أو بموسى، والاستفهام فيه للإنكار. وقرأ حمزة والكسائي

---

(١) الفاء في قوله «فإذا هي...» هي الفصيحة، أي فألقاها فصارت حية فإذا.. وحذف ذلك للإشعار بمسارعة موسى عليه السلام إلى الإلقاء وبغاية سرعة الانقلاب (س٣/ ٢٦٠).

(٢) الأصل عند البيضاوي قراءة من قرأ بالتشديد «تَلَقَّفُ». وقراءة حفص بالتخفيف هنا وفي طه: «٦٩» وفي الشعراء: «٤٥».

وأبو بكر عن عاصم وروح عن يعقوب وهشام بتحقيق الهمزتين على الأصل. وقرأ حفص آمنتم به على الإخبار، وقرأ قُنبل قال فرعون، وآمنتم يُبدل في حال الوصل من همزة الاستفهام واواً مفتوحة ويمدّ بعدها مدة في تقدير أَلِفَيْن، وقرأ في طه على الخبر بهمزة وألف، وقرأ في الشعراء على الاستفهام بهمزة ومدة مطولة في تقدير أَلِفَيْن، وقرأ الباقون بتحقيق الهمزة الأولى وتليين الثانية. ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ﴾ أي إن هذا الصنيع لحيلة احتلتموها أنتم وموسى. ﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ في مصر قبل أن تخرجوا للميعاد. ﴿لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ يعني القبط وتخلص لكم ولبني إسرائيل. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة ما فعلتم، وهو تهديد مجمل تفصيله:

لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ
أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ
وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾

(١٢٤) ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ من كل شق طرفاً. ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ تفضيحاً لكم وتنكيلاً لأمثالكم. قيل إنه أول من سن ذلك فشرعه الله للقطّاع تعظيماً لجرمهم ولذلك سماه محاربة الله ورسوله، ولكن على التعاقب لفرط رحمته.

(١٢٥) ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ بالموت لا محالة فلا نبالي بوعيدك، أو إنا منقلبون إلى ربنا وثوابه إن فعلت بنا ذلك، كأنهم استطابوه شغفاً على لقاء الله، أو مصيرُنا ومصيرك إلى ربنا فيحكم بيننا.

(١٢٦) ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾ وما تنكر منا. ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ وهو خير الأعمال وأصل المناقب ليس مما يتأتى لنا العدول عنه طلباً لمرضاتك، ثم فزعوا إلى الله سبحانه وتعالى فقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أفض علينا صبراً يغمرنا كما يُفرغ الماء، أو صبّ علينا ما يطهرنا من الآثام وهو الصبر على وعيد فرعون. ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ ثابتين على الإسلام. قيل إنه فعل بهم ما أوعدهم به. وقيل إنه لم يقدر عليهم لقوله تعالى: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[١].

(١٢٧) ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بتغيير الناس عليك ودعوتهم إلى مخالفتك. ﴿وَيَذَرَكَ﴾ عطف على يفسدوا، أو جواب الاستفهام بالواو كقول الحطيئة:

أَلَمْ أَكُ جَارَكُمْ وَيَكُونُ بَيْنِي ... وبَيْنَكُمُ المَوَدَّةُ وَالإِخَاءُ

على معنى أيكون منك ترك موسى ويكون منه تركه إياك. وقرىء بالرفع على أنه عطف على أتذر أو استئناف أو حال. وقرىء بالسكون كأنه قيل: يفسدوا ويذرك كقوله تعالى ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن﴾[٢] ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ معبوداتك. قيل كان يعبد الكواكب، وقيل صنع لقومه أصناماً وأمرهم أن يعبدوها تقرباً

(١) القصص: «٣٥».
(٢) المنافقين: «١٠».

إليه ولذلك قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[1] وقرىء إلاهتك أي عبادتك. ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ كما كنا نفعل من قبل ليُعلم أنا على ما كنا عليه من القهر والغلبة، ولا يتوهم أنه المولود الذي حكم المنجّمون والكهنةُ بذهاب ملكنا على يده. وقرأ ابن كثير ونافع سنَقْتُل بالتخفيف. ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ غالبون وهم مقهورون تحت أيدينا.

قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ
عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ
بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ
سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾

(١٢٨) ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ لما سمعوا قول فرعون وتضجروا منه تسكيناً لهم. ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ تسليةٌ لهم وتقرير للأمر بالاستعانة بالله والتثبت في الأمر. ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وعد لهم بالنصرة وتذكير لما وعدهم من إهلاك القبط وتوريثهم ديارَهم وتحقيق له. وقرىء والعاقبةَ بالنصب، عطفٌ على اسم إنّ. واللام في الأرض تحتمل العهد والجنس.

(١٢٩) ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي بنو إسرائيل. ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ بالرسالة بقتل الأبناء ﴿وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ بإعادته. ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تصريحاً بما كنّى عنه أولاً لما رأى أنهم لم يتسلوْا بذلك، ولعله أتى بفعل الطمع لعدم جزمه بأنهم المستخلفون بأعيانهم أو أولادهم. وقد روي أن مصر إنما فُتح لهم في زمن داود عليه السلام[2]. ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فيرى ما تعملون من شكر وكفران وطاعة وعصيان فيجازيكم على حسب ما يوجد منكم.

(١٣٠) ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ بالجدوب لقلة الأمطار والمياه، والسَّنَة غَلبت على عام القحط لكثرة ما يذكر عنه ويؤرخ به، ثم اشتق منها فقيل أَسْنَتِ القومُ إذا قحطوا. ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ بكثرة العاهات. ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ لكي يتنبهوا على أن ذلك بشؤم كفرهم ومعاصيهم فيتعظوا، أو ترق قلوبهم بالشدائد فيفزعوا إلى الله ويرغبوا فيما عنده[3].

(١٣١) ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ من الخصب والسعة. ﴿قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ لأجلنا ونحن مستحقوها. ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ جدب وبلاء. ﴿يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ يتشاءموا بهم ويقولوا: ما أصابتْنا إلا بشؤمهم، وهذا إغراق في وصفهم بالغباوة والقساوة، فإن الشدائد ترقق القلوب وتذلل العرائك وتزيل

---

(١) النازعات: «٢٤».

(٢) مجيء فعل الطمع للجري على سنن الكبرياء (س٣/ ٢٦٣).

(٣) وتصدير الجملة بالقسم لإظهار الاعتناء بمضمونها (س٣/ ٢٦٣).

التماسك سيمَا بعد مشاهدة الآيات، وهم لم تؤثر فيهم بل زادوا عندها عتواً وانهماكاً في الغيّ. وإنما عَرّف الحسنة وذَكَرها مع أداة التحقيق لكثرة وقوعها وتعلق الإرادةِ بإحداثها بالذات، ونكّر السيئة وأتى بها مع حرف الشك لندورها وعدم القصد لها إلا بالتبع. ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي سبب خيرهم وشرهم عنده وهو حكمته ومشيئته، أو سبب شؤمهم عند الله وهو أعمالهم المكتوبة عنده، فإنها التي ساقت إليهم ما يسوءهم. وقرىء إنما طَيْرُهم، وهو اسم الجمع وقيل هو جمع[١]. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ما يصيبهم من الله تعالى أو من شؤم أعمالهم[٢].

﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾

(١٣٢) ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا﴾ أصلها ما الشرطية ضُمّت إليها ما المزيدة للتأكيد، ثم قُلبت ألفها هاء استثقالاً للتكرير. وقيل مركبة من مَهْ الذي يصوت به الكاف وما الجزائية، ومحلها الرفع على الابتداء أو النصب بفعل يفسره. ﴿تَأْتِنَا بِهِۦ﴾ أي أيما شيء تحضرنا تأتنا به. ﴿مِنْ ءَايَةٍ﴾ بيان لمهما، وإنما سموها آية على زعم موسى لا لاعتقادهم ولذلك قالوا: ﴿لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي لتسحر بها أعيننا وتشبه علينا. والضمير في به وبها لمهما، ذكّره قبل التبيين باعتبار اللفظ وأنّثه بعده باعتبار المعنى.

(١٣٣) ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ ماءً طاف بهم وغشي أماكنهم وحروثهم من مطر أو سيل، وقيل الجدري، وقيل الموتان، وقيل الطاعون. ﴿وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ﴾ قيل هو كبار القِرْدان، وقيل أولادُ الجراد قبل نبات أجنحتها. ﴿وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾ روي[٣]: أنهم مُطروا ثمانية أيام في ظلمة شديدة لا يقدر أحد أن يخرج من بيته، ودخل الماءُ بيوتهم حتى قاموا فيه إلى تراقيهم، وكانت بيوت بني إسرائيل مشتبكة ببيوتهم فلم يدخل فيها قطرة، وركد على أراضيهم فمنعهم من الحرث والتصرف فيها ودام ذلك عليهم أسبوعاً، فقالوا لموسى: ادعُ لنا ربك يكشف عنا ونحن نؤمن بك، فدعا اللهَ فكشف عنهم ونبت لهم من الكلأ والزرع ما لم يُعهد مثله ولم يؤمنوا. فبعث الله عليهم الجراد فأكلت زروعهم وثمارهم، ثم أخذت تأكل الأبواب والسقوف والثياب، ففزِعوا إليه ثانياً، فدعا وخرج إلى الصحراء وأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب، فرجعت إلى النواحي التي جاءت منها فلم يؤمنوا. فسلط الله عليهم القمّل فأكل ما أبقاه الجراد وكان يقع في أطعمتهم ويدخل بين أثوابهم وجلودهم فيمصّها، ففزِعوا إليه، فرُفع عنهم، فقالوا: قد تحققنا الآن أنك ساحر. ثم أرسل الله عليهم الضفادع بحيث لا يكشَف ثوب

---

(١) وتصدير الجملة بأداة التنبيه «ألا» لإبراز كمال العناية بمضمونها (س٣/ ٢٦٤).

(٢) ووصف أكثرهم بأنهم لا يعلمون للإشعار بأن بعضهم يعلمون أن ما أصابهم من الخير والشر إنما هو من عند الله (س٣/ ٢٦٤).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ـ كما في الدر المنثور (٣/ ٥١٩) ـ.

ولا طعام إلا وجدت فيه، وكانت تمتلىء منها مضاجعهم وتثب إلى قدورهم وهي تغلي وأفواهِهم عند التكلم، ففزعوا إليه وتضرعوا، فأخذ عليهم العهود ودعا، فكشف الله عنهم، ثم نقضوا العهود. ثم أرسل عليهم الدم فصارت مياههم دماً حتى كان يجتمع القبطي مع الإسرائيلي على إناء فيكون ما يلي القبطي دماً وما يلي الإسرائيلي ماء، ويمص الماء من فم الإسرائيلي فيصير دماً في فيه، وقيل سلط الله عليهم الرعاف. ﴿ءَايَٰتٖ﴾ نصب على الحال. ﴿مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ مبيَّنات لا تُشْكِل على عاقل أنها آياتُ الله ونقمته عليهم، أو مفصلات لامتحان أحوالهم إذ كان بين كل اثنتين منها شهر وكان امتداد كل واحدة أسبوعاً. وقيل إن موسى لبث فيهم بعد ما غلب السحرةَ عشرين سنة يريهم هذه الآيات على مهل. ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ عن الإيمان. ﴿وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾.

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ
لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ
يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوۡرَثۡنَا
ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ
ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

(١٣٤) ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ﴾ يعني العذاب المفصل، أو الطاعون الذي أرسله الله عليهم بعد ذلك. ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ﴾ بعهده عندك وهو النبوة، أو بالذي عهده إليك أن تدعوَه به فيجيبك كما أجابك في آياتك. وهو صلةٌ لادعُ، أو حال من الضمير فيه بمعنى ادع الله متوسلاً إليه بما عهد عنك، أو متعلق بفعل محذوف دل عليه التماسهم مثل أَسْعِفْنا إلى ما نطلب منك بحق ما عهد عندك، أو قسم مجاب بقوله: ﴿لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي أَقْسَمْنا بعهد الله عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن ولنرسلن.

(١٣٥) ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾ إلى حد من الزمان هم بالغوه فمعذبون فيه أو مهلكون، وهو وقت الغرق أو الموت. وقيل إلى أجل عينوه لإيمانهم. ﴿إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾ جوابُ لمّا أي فلما كشفنا عنهم فاجؤوا النكث من غير تأمل وتوقف فيه.

(١٣٦) ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ فأردنا الانتقام منهم. ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ أي البحر الذي لا يدرَك قعره. وقيل لُجَّتُهُ. ﴿بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾ أي كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات وعدم فكرهم فيها حتى صاروا كالغافلين عنها. وقيل الضمير للنُّقْمة المدلول عليها بقوله: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾.

(١٣٧) ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ﴾ بالاستبعاد وذبح الأبناء من مستضعفيهم. ﴿مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ يعني أرض الشام مَلَكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة وتمكنوا في نواحيها. ﴿ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ﴾ بالخصب وسعة العيش. ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ ومضت عليهم واتصلت بالإنجاز عِدَتُه إياهم بالنصرة والتمكين وهو قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ إلى قوله ﴿مَّا

كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾[١]. وقرىء كلماتُ ربك لتعدد المواعيد ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ بسبب صبرهم على الشدائد. ﴿وَدَمَّرْنَا﴾ وخربنا. ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ من القصور والعمارات[٢]. ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ من الجنات، أو ما كانوا يرفعون من البنيان كصرح هامان. وقرأ ابن عامر وأبو بكر هنا وفي النحل يَعْرُشون بالضم. وهذا آخر قصة فرعون وقومه.

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾

(١٣٨) وقوله: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ وما بعدَه ذكر ما أحدثه بنو إسرائيل من الأمور الشنيعة بعد أن مَنَّ الله عليهم بالنعم الجسام وأراهم من الآيات العظام تسلية لرسول الله ﷺ مما رأى منهم، وإيقاظاً للمؤمنين حتى لا يغفلوا عن محاسبة أنفسهم ومراقبة أحوالهم. روي[٣]: أن موسى عليه الصلاة والسلام عَبَر بهم يوم عاشوراء بعد مهلك فرعون وقومه فصاموه شكراً. ﴿فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ﴾ فمروا عليهم. ﴿يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ يقيمون على عبادتها، قيل كانت تماثيل بَقَر وذلك أول شأن العجل، والقوم كانوا من العمالقة الذين أمر موسى بقتالهم، وقيل من لخم. وقرأ حمزة والكسائي يَعْكِفُون بالكسر. ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهًا﴾ مثالاً نعبدُه. ﴿كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ يعبدونها، وما كافَّة للكافِ. ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ وَصَفَهم بالجهل المطلق وأكَّده لبُعْدِ ما صدر عنهم ـ بعد ما رأوا من الآيات الكبرى ـ عن العقل.

(١٣٩) ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ إشارة إلى القوم. ﴿مُتَبَّرٌ﴾ مكسر مدمّر. ﴿مَا هُمْ فِيهِ﴾ يعني أن الله يهدم دينهم الذي هم عليه ويحطم أصنامهم ويجعلها رُضاضاً ﴿وَبَاطِلٌ﴾ مضمحلّ. ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من عبادتها وإن قصدوا بها التقرب إلى الله تعالى، وإنما بالغ في هذا الكلام بإيقاع هؤلاء اسم إن والإخبار عما هم فيه بالتَّبار وعما فعلوا بالبطلان، وتقديم الخبرين في الجملتين الواقعتين خبراً لإن للتنبيه على أن الدمار لاحق لما هم فيه لا محالة وأن الإحباط الكلي لازب لما مضى عنهم تنفيراً وتحذيراً عما طلبوا.

(١٤٠) ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا﴾ أطلب لكم معبوداً. ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ والحال أنه خصكم بنعم لم يعطها غيركم، وفيه تنبيه على سوء معاملتهم حيث قابلوا تخصيص الله إياهم من أمثالهم لما لم يستحقوه تفضلاً بأن قصدوا أن يشركوا به أخس شيء من مخلوقاته.

---

(١) القصص: «١ ـ ٢».

(٢) والعدول إلى صيغة المضارع في قوله «يصنع» لاستحضار الصورة (س٣/٢٦٧).

(٣) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٢٧٣) من قول الكلبي.
وكذلك الألوسي في «روح المعاني» (٩/ ٤٠).

وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ
نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ
فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ
ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ
إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا
فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

(١٤١) ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ واذكروا صنيعه معكم في هذا الوقت. وقرأ ابن عامر أنجاكم. ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ استئناف لبيان ما أنجاهم منه، أو حال من المخاطبين أو من آل فرعون أو منهما. ﴿ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾ بدل منه مبين. ﴿ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ وفي الإنجاء أو العذاب نعمة أو محنة عظيمة.

(١٤٢) ﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً ﴾ ذا القعدة. وقرأ أبو عمرو ويعقوب وَوَعدنا. ﴿ وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ ﴾ من ذي الحجة. ﴿ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ بالغاً أربعين. روي: أنه عليه الصلاة والسلام وعد بني إسرائيل بمصر أن يأتيهم بعد مَهْلك فرعون بكتاب من الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سأل ربه فأمره الله بصوم ثلاثين، فلما أتم أنكر خُلُوفَ فِيه فتسوّك، فقالت الملائكة كنا نشم منك رائحة المسك فأفسدتَه بالسواك، فأمره الله تعالى أن يزيد عليها عشراً. وقيل أمره بأن يتخلى ثلاثين بالصوم والعبادة ثم أنزل عليه التوراة في العشر وكلمه فيها. ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى ﴾ كن خليفتي فيهم. ﴿ وَأَصْلِحْ ﴾ ما يجب أن يصلح من أمورهم أو كن مصلحاً. ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ ولا تتبع من سلك الإفساد ولا تطع من دعاك إليه.

(١٤٣) ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا ﴾ لوقتنا الذي وقّتناه، واللام للاختصاص أي اختص مجيئه لميقاتنا. ﴿ وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ من غير وسيط كما يكلم الملائكة، وفيما روي: أن موسى عليه الصلاة والسلام كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة تنبيه على أن سماع كلامه القديم ليس من جنس كلام المُحْدَثين. ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ أرني نفسك بأن تمكنني من رؤيتك، أو تتجلى لي فأنظر إليك وأراك. وهو دليل على أن رؤيته تعالى جائزة في الجملة لأن طلب المستحيل من الأنبياء محال، وخصوصاً ما يقتضي الجهل بالله ولذلك رده بقوله تعالى: ﴿ لَن تَرَىٰنِى ﴾ دون لن أُرَى أو لن أريك أو لن تنظر إليَّ، تنبيهاً على أنه قاصر عن رؤيته لتوقفها على مَعَدّ في الرائي لم يوجد فيه بعد، وجَعَل السؤالَ لتبكيت قومه الذين قالوا: ﴿ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾[(١)] خطأ إذ لو كانت الرؤية ممتنعة لوجب أن يجهلهم ويزيح شبهتهم كما فعل بهم حين قالوا: ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا ﴾[(٢)] ولا يتبع سبيلهم كما قال لأخيه: ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[(٣)].

---

(١) النساء: «١٥٣».

(٢) الأعراف: «١٣٨».

(٣) الأعراف: «١٤٢».

والاستدلالُ بالجواب على استحالتها أشد خطأ إذ لا يدل الإخبار عن عدم رؤيته إياه على أن لا يراه أبداً وأن لا يراه غيرُه أصلاً فضلاً عن أن يدل على استحالتها، ودعوى الضرورة فيه مكابرة أو جهالة بحقيقة الرؤية. ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ استدراك يريد أن يبين به أنه لا يطيقُه، وفي تعليق الرؤية بالاستقرار أيضاً دليل على الجواز ضرورة أن المعلق على الممكن ممكن. والجبل قيل هو جبل زبير. ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ ظهر له عظمتُه وتصدى له اقتداره وأمرُه. وقيل أعطى له حياة ورؤية حتى رآه. ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ مدكوكاً مفتتاً، والدكّ والدق أخوان كالشك والشق. وقرأ حمزة والكسائي دكاءَ أي أرضاً مستوية، ومنه ناقة دكّاء التي لا سنام لها، وقرىء دُكّاً أي قطعاً جمع دكاء. ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ مغشياً عليه من هول ما رأى. ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ﴾ تعظيماً لما رأى. ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من الجراءة والإقدام على السؤال من غير إذن. ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مر تفسيره. وقيل معناه أنا أول من آمن بأنك لا تُرى في الدنيا.

قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾

(١٤٤) ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ﴾ اخترتك. ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي الموجودين في زمانك، وهارونُ وإن كان نبياً كان مأموراً باتباعه ولم يكن كليماً ولا صاحب شرع. ﴿بِرِسَٰلَٰتِى﴾ يعني أسفار التوراة. وقرأ ابن كثير ونافع برسالتي. ﴿وَبِكَلَٰمِى﴾ وبتكليمي إياك. ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ أعطيتك من الرسالة. ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ على النعمة فيه. روي أن سؤال الرؤية كان يوم عرفة، وإعطاء التوراة كان يوم النحر.

(١٤٥) ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ مما يحتاجون إليه من أمر الدين. ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ بدل من الجار والمجرور، أي وكتبنا له كل شيء من المواعظ وتفصيل الأحكام. واختلف في أن الألواح كانت عشرة أو سبعة، وكانت من زمرد أو زبرجد، أو ياقوت أحمر أو صخرة صماء لينها الله لموسى فقطعها بيده وسقفها بأصابعه وكان فيها التوراة أو غيرها. ﴿فَخُذْهَا﴾ على إضمار القول عطفاً على كتبنا، أو بدل من قوله: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ والهاء للألواح، أو لكل شيء فإنه بمعنى الأشياء، أو للرسالات. ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجد وعزيمة. ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ أي بأحسن ما فيها كالصبر والعفو بالإضافة إلى الانتصار، والاقتصاص على طريقة الندب والحث على الأفضل كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾. أو بواجباتها فإن الواجب أحسن من غيره، ويجوز أن يراد بالأحسن البالغ في الحسن مطلقاً لا بالإضافة، وهو المأمور به كقولهم الصيفُ أحر من الشتاء. ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ دار فرعون وقومه بمصر خاوية على عروشها، أو منازل عاد وثمود وأضرابهم لتعتبروا فلا تفسقوا، أو دارهم في الآخرة وهي جهنم. وقرىء سأُوْرِيكم بمعنى سأبين لكم من أوريت الزند، وسأورّثكم، ويؤيده قوله ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ﴾[1].

---

(١) الأعراف: «١٣٧».

سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن
يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأٓخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا
مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا
يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾

(١٤٦) ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ﴾ المنصوبة في الآفاق والأنفس. ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بالطبع على قلوبهم فلا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها. وقيل سأصرفهم عن إبطالها وإن اجتهدوا كما فعل فرعون فعاد عليه بإعلائها أو بإهلاكهم. ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ صلة يتكبرون أي يتكبرون بما ليس بحق وهو دينهم الباطل، أو حال من فاعله. ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٖ﴾ منزلَة أو معجزة. ﴿لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾ لعنادهم واختلال عقولهم بسبب انهماكهم في الهوى والتقليد، وهو يؤيد الوجه الأول. ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا﴾ لاستيلاء الشيطنة عليهم. وقرأ حمزة والكسائي الرَّشَد بفتحتين، وقرىء الرشاد، وثلاثتها لغات كالسقم والسقم والسقام، ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ أي ذلك الصرف بسبب تكذيبهم وعدم تدبرهم للآيات، ويجوز أن ينصب ذلك على المصدر أي سأصرف ذلك الصرف بسببهما.

(١٤٧) ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأٓخِرَةِ﴾ أي ولقائهم الدار الآخرة، أو ما وعد الله في الدار الآخرة. ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ لا ينتفعون بها. ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ إلا جزاء أعمالهم.

(١٤٨) ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد ذهابه للميقات. ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ التي استعاروا من القبط حين هموا بالخروج من مصر، وإضافتها إليهم لأنها كانت في أيديهم أو ملكوها بعد هلاكهم. وهو جمع حُلْي كثَدْي وثُدِيّ. وقرأ حمزة والكسائي بالكسر بالاتباع كدِلِي، ويعقوب على الإفراد[1]. ﴿عِجْلٗا جَسَدٗا﴾ بدناً ذا لحم ودم، أو جسداً من الذهب خالياً من الروح، ونصبه على البدل. ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ صوت البقر. روي أن السامري لما صاغ العجل ألقى في فمه من تراب أثر فرس جبريل فصار حياً، وقيل صاغه بنوع من الحيَل فتدخل الريح جوفه وتصوت. وإنما نسب الاتخاذ إليهم وهو فعلُه إما لأنهم رضوا به أو لأن المراد اتخاذهم إياه إلهاً. وقرىء جؤار أي صياح. ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ تقريع على فرط ضلالتهم وإخلالهم بالنظر، والمعنى ألم يروا حين اتخذوه إلهاً أنه لا يقدر على كلام ولا على إرشاد سبيل كآحاد البشر حتى حسبوا أنه خالق الأجسام والقوى والقُدر. ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ تكرير للذم أي اتخذوه إلهاً. ﴿وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ واضعين الأشياء في غير مواضعها فلم يكن اتخاذ العجل بدعاً منهم.

---

(١) قراءة حمزة والكسائي «حِلِيِّهم» وقراءة يعقوب «حَلْيِهم».

وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ
رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِى فَلَا
تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾

(١٤٩) ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ كناية عن اشتداد ندمهم، فإن النادم المتحسر يعض يده غماً فتصير يده مسقوطاً فيها. وقرىء سَقَطَ على بناء الفعل للفاعل، بمعنى وقع العض فيها. وقيل معناه سقط الندم في أنفسهم. ﴿وَرَأَوْا﴾ وعلموا. ﴿أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ باتخاذ العجل[١]. ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ بإنزال التوراة. ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ بالتجاوز عن الخطيئة[٢]. ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ وقرأهما حمزة والكسائي بالتاء وربَّنا على النداء[٣].

(١٥٠) ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ شديد الغضب وقيل حزيناً. ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾ فعلتم بعدي حيث عبدتُم العجل والخطاب للعَبَدة، أو أقمتم مقامي فلم تكفّوا العبدة والخطاب لهارون والمؤمنين معه! وما نكرة موصوفة تفسر المستكنّ في بئس، والمخصوص بالذم محذوف تقديرُه بئس خلافة خلفتمونيها من بعدي خلافتكم، ومعنى من بعدي من بعد انطلاقي، أو من بعد ما رأيتم مني من التوحيد والتنزيه والحمل عليه والكف عما ينافيه. ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أتركتموه غير تام، كأنه ضمَّن عَجِلَ معنى سبق فعُدي تعديتَه، أو أعجلتم وعد ربكم الذي وعدنيه من الأربعين وقدَّرتم موتي وغيرتم بعدي كما غيرتِ الأممُ بعد أنبيائهم. ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ طرحها من شدة الغضب وفرط الضجر حميَّة للدين. روي: أن التوراة كانت سبعة أسباع في سبعة ألواح فلما ألقاها انكسرت فرفع ستة أسباعها وكان فيها تفصيل كل شيء وبقي سبع كان فيه المواعظ والأحكام. ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ بشعر رأسه. ﴿يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ توهماً بأنه قصّر في كفهم، وهارون كان أكبر منه بثلاث سنين وكان حمولاً ليناً ولذلك كان أحب إلى بني إسرائيل. ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ﴾ ذكر الأم ليرققه عليه وكانا من أب وأم. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم هنا وفي طه[٤] يا ابن أمِّ بالكسر، وأصله يا ابن أمي فحذفت الياء اكتفاء بالكسرة تخفيفاً كالمنادى المضاف إلى الياء، والباقون بالفتح زيادة في التخفيف لطوله أو تشبيهاً بخمسةَ عشرَ. ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِى﴾ إزاحة لتوهم التقصير في حقه، والمعنى بذلت وسعي في كفهم حتى قهروني واستضعفوني وقاربوا قتلي. ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ فلا تفعل بي ما يشمتون بي لأجله. ﴿وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ معدوداً في عدادهم بالمؤاخذة أو نسبة التقصير.

---

(١) وتقديم ذكر ندمهم على هذه الرؤية ـ مع كونه متأخراً عنها ـ للمسارعة إلى بيانه والإشعار بغاية سرعته، كأنه سابق على الرؤية (س٣/ ٢٧٣).

(٢) وتقديم الرحمة على المغفرة ـ مع أن التخلية حقها أن تقدم على التحلية ـ إما للمسارعة إلى ما هو المقصود الأصلي وإما لأن المراد بالرحمة مطلق إرادة الخير بهم وهو مبدأ لإنزال التوبة المكفرة لذنوبهم (س٣/ ٢٧٣).

(٣) قراءة حمزة والكسائي «لئن لم ترحمنا ربَّنا وتغفر لنا».

(٤) طه: «٩٤».

قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ
سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ
تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ
ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ
فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا
فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾

(١٥١) ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى ﴾ بما صنعتُ بأخي. ﴿ وَلِأَخِى ﴾ إن فرّط في كفهم، ضمّه إلى نفسه في الاستغفار ترضية له ودفعاً للشماتة عنه. ﴿ وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ﴾ بمزيد الإنعام علينا. ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ فأنت أرحم بنا منا على أنفسنا.

(١٥٢) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ وهو ما أمرهم به من قتل أنفسهم. ﴿ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ وهي خروجهم من ديارهم، وقيل الجزية. ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾ على الله، ولا فرية أعظم من فريتهم وهي قولهم هذا إلهكم وإله موسى، ولعله لم يفترِ مثلها أحد قبلهم ولا بعدهم.

(١٥٣) ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ من الكفر والمعاصي. ﴿ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا ﴾ من بعد السيئات. ﴿ وَءَامَنُوٓا۟ ﴾ واشتغلوا بالإيمان وما هو مقتضاه من الأعمال الصالحة. ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا ﴾ من بعد التوبة. ﴿ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وإن عظم الذنب كجريمة عبدة العجل وكثُر كجرائم بني إسرائيل.

(١٥٤) ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ ﴾ سكن، وقد قرىء به. ﴿ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ ﴾ باعتذار هارون، أو بتوبتهم. وفي هذا الكلام مبالغة وبلاغة من حيث إنه جعلِ الغضبِ الحامل له على ما فعل كالآمِر به والمغري عليه، حتى عبر عن سكونه بالسكوت. وقرىء سُكِّتَ وأُسْكِتَ، على أن المسكت هو الله أو أخوه أو الذين تابوا. ﴿ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ﴾ التي ألقاها. ﴿ وَفِى نُسْخَتِهَا ﴾ وفيما نسخ فيها أي كتب، فُعْلة بمعنى مفعول كالخطبة وقيل فيما نسخ منها أي من الألواح المنكسرة. ﴿ هُدًى ﴾ بيان للحق. ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ إرشاد إلى الصلاح والخير. ﴿ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ دخلت اللام على المفعول لضعف الفعل بالتأخير، أو حذف المفعول واللام للتعليل والتقدير يرهبون معاصي الله لربهم.

(١٥٥) ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ ﴾ أي من قومه فحذف الجار وأوصل الفعل إليه ﴿ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ روي أنه تعالى أمره أن يأتيه في سبعين من بني إسرائيل، فاختار من كل سبط ستة فزاد اثنان، فقال: ليتخلف منكم رجلان، فتشاجروا، فقال: إن لمَنْ قعد أجر من خرج، فقعد كالب ويوشع وذهب مع الباقين، فلما دنوا من الجبل غشيه غمام فدخل موسى بهم الغمام وخروا سجداً، فسمعوه تعالى يكلم موسى يأمره وينهاه، ثم انكشف الغمام فأقبلوا إليه وقالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأخذتهم الرجفة أي الصاعقة أو رجفة الجبل فصعقوا منها. ﴿ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ﴾ تمنىٰ هلاكهم وهلاكه قبل أن يَرى ما رأى، أو بسبب آخر، أو عنى به أنك قدرت على إهلاكهم قبل ذلك بحمل فرعون على إهلاكهم وبإغراقهم في البحر وغيرهما فترحمت عليهم بالإنقاذ

منها فإن ترحمت عليهم مرة أخرى لم يبعد من عميم إحسانك. ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ من العناد والتجاسر على طلب الرؤية، وكان ذلك قاله بعضهم. وقيل المراد بما فعل السفهاء عبادةُ العجل، والسبعون اختارهم موسى لميقات التوبة عنها، فغشيتهم هيبة قلقوا منها ورجفوا حتى كادت تَبِينُ مفاصلُهم وأشرفوا على الهلاك، فخاف عليهم موسى فبكى ودعا فكشفها الله عنهم. ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ ابتلاؤك حين أسمعتهم كلامك حتى طمعوا في الرؤية، أو أوجدت في العجلِ خواراً فزاغوا به. ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ ضلالَه بالتجاوز عن حده، أو باتباع المخايل. ﴿وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ﴾ هداه فيقوىٰ بها إيمانه. ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ القائم بأمرنا. ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ بمغفرة ما قارفنا. ﴿وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ تغفر السيئة وتبدلها بالحسنة[١].

۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

(١٥٦) ﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ حُسْن معيشة وتوفيق طاعة. ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ الجنة. ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ تبنا إليك، من هاد يهود إذا رجع. وقرىء بالكسر[٢] من هادَه يَهيدُه إذا أماله، ويحتمل أن يكون مبنياً للفاعل وللمفعول بمعنى أَمَلْنا أنفسَنا وأُمِلْنا إليك، ويجوز أن يكونَ المضموم أيضاً مبنياً للمفعول منه على لغة من يقول عُودَ المريض. ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ تعذيبه. ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ في الدنيا المؤمن والكافر بل المكلف وغيره[٣]. ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ فسأثبتها في الآخرة، أو فسأكتبها كَتْبة خاصة منكم يا بني إسرائيل. ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الكفر والمعاصي ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ خصها بالذكر لإنافتها ولأنها كانت أشق عليهم. ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلا يكفرون بشيء منها.

(١٥٧) ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ﴾ مبتدأ خبرُه يأمرهم، أو خبرُ مبتدأ تقديره هم الذين، أو بدل من الذين يتقون بدل البعض أو الكل، والمراد من آمن منهم بمحمد ﷺ، وإنما سماه رسولاً بالإضافة إلى

---

(١) وتخصيص المغفرة بالذكر لأنها الأهم بحسب المقام (س٣/ ٢٧٧).

(٢) أي بكسر الهاء «هِدْنا».

(٣) وفي نسبة الإصابة إلى العذاب بصيغة المضارع ونسبة السعة إلى الرحمة بصيغة الماضي إيذان بأن الرحمة مقتضى الذات وأما العذاب فبمقتضىٰ معاصي العباد، والمشيئة معتبرة في جانب الرحمة أيضاً وعدم التصريح بها للإشعار بغاية الظهور (س٣/ ٢٧٨).

الله تعالى ونبياً بالإضافة إلى العباد. ﴿ٱلۡأُمِّيَّ﴾ الذي لا يكتب ولا يقرأ، وصفه به تنبيهاً على أن كمال علمه مع حاله إحدى معجزاته. ﴿ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ اسماً وصفة. ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ مما حرم عليهم كالشحوم. ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ كالدم ولحم الخنزير، أو كالربا والرشوة. ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ ويخفف عنهم ما كلفوا به من التكاليف الشاقة كتعيين القصاص في العمد والخطأ وقطع الأعضاء الخاطئة وقرض موضع النجاسة. وأصل الإصر الثِّقَل الذي يأصِر صاحبه أي يحبسه من الحراك لثقله. وقرأ ابن عامر آصارَهُم. ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ﴾ وعظموه بالتقوية. وقرىء بالتخفيف[1] وأصله المنع ومنه التعزير. ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ لي. ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ أي مع نبوته يعني القرآن، وإنما سماه نوراً لأنه بإعجازه ظاهرٌ أمرُه مظهِر غيرَه، أو لأنه كاشف الحقائق مظهر لها، ويجوز أن يكون «معه» متعلقاً باتبعوا أي واتبعوا النور المنزل مع اتباع النبي فيكون إشارة إلى اتباع الكتاب والسنة. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الفائزون بالرحمة الأبدية، ومضمون الآية جواب دعاء موسى عليه السلام.

قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

(١٥٨) ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ﴾ الخطاب عام، وكان رسول الله ﷺ مبعوثاً إلى كافة الثقلين، وسائر الرسل إلى أقوامهم. ﴿جَمِيعًا﴾ حال مِنْ إليكم. ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ صفة لله وإن حيل بينهما بما هو متعلق المضاف إليه لأنه كالتقدم عليه، أو مدح منصوب أو مرفوع، أوْ مبتدأ خبرُه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهو على الوجوه الأُوَل بيان لما قبله، فإن من ملك العالم كان هو الإله لا غيره، وفي ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ مزيد تقرير لاختصاصه بالألوهية. ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ ما أُنزل عليه وعلى سائر الرسل من كتبه ووحيه. وقرىء «وكَلِمَتِهِ» على إرادة الجنس أو القرآن، أو عيسى تعريضاً لليهود وتنبيهاً على أن من لم يؤمن به لم يعتبر إيمانه، وإنما عدل عن التكلم إلى الغيبة لإجراء هذه الصفات الداعية إلى الإيمان به والاتباع له[2]. ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ جعل رجاء الاهتداء أثر الأمرين تنبيهاً على أن مَنْ صدّقه ولم يتابعه بالتزام شرعه فهو يعد في خطط الضلالة.

---

(١) أي بتخفيف الزاي «وعَزَرُوه».

(٢) إيراده عليه السلام بعنوان الرسالة على طريقة الالتفات إلى الغيبة للمبالغة في إيجاب الامتثال بأمره. ووصفه بالنبي الأمي لمدحه عليه السلام بهما ولزيادة تقرير أمره وتحقيق أنه المكتوب في الكتابين (س٣/ ٢٨١).

وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ
مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ
عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن
طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ
ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ
لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾

(١٥٩) ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾ يعني من بني إسرائيل. ﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ يهدون الناس مُحِقِّين أو بكلمة الحق. ﴿وَبِهِۦ﴾ بالحق. ﴿يَعْدِلُونَ﴾ بينهم في الحكم، والمراد بها الثابتون على الإيمان القائمون بالحق من أهل زمانه، أَتْبَع ذكرَهم ذكر أضدادهم على ما هو عادة القرآن تنبيهاً على أن تعارض الخير والشر وتزاحم أهل الحق والباطل أمر مستمر. وقيل مؤمنو أهل الكتاب. وقيل قوم وراء الصين رآهم رسول الله ﷺ ليلة المعراج فآمنوا به[١].

(١٦٠) ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾ وصيرناهم قطعاً متميزاً بعضهم عن بعض. ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾ مفعول ثان لقطّع فإنه متضمن معنى صيّر، أو حال وتأنيثه للحمل على الأمة أو القِطْعة. ﴿أَسْبَاطًا﴾ بدل منه ولذلك جُمع، أو تمييز له على أن كل واحد من اثنتي عشرة أسباط فكأنه قيل: اثنتي عشرة قبيلة. وقرىء بكسر الشين وإسكانها. ﴿أُمَمًا﴾ على الأول بدلٌ بعد بدل أو نعت أسباط، وعلى الثاني بدل من أسباط. ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾ في التيه. ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ﴾ أي فضرب فانبجست، وحذفُه للإيماء على أن موسى عليه السلام لم يتوقف في الامتثال. وأَنّ ضربَه لم يكن مؤثراً يتوقف عليه الفعل في ذاته ﴿مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ كل سبط. ﴿مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾ ليقيهم حر الشمس. ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟﴾ أي وقلنا لهم كلوا. ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ سبق تفسيره في سورة البقرة[٢].

(١٦١) ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ بإضمار اذكر، والقريةُ بيت المقدس[٣]. ﴿وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ مثل ما في سورة البقرة معنى، غير أن قوله فكلوا فيها بالفاء أفاد تسبب سكناهم للأكل منها، ولم يتعرض له اكتفاء بذكره ثمة، أو بدلالة الحال عليه. وأما تقديم قوله «قولوا» على «وادخلوا» فلا أثر له في المعنى لأنه لا يوجب الترتيب، وكذا الواو العاطفة بينهما. ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وعد بالغفران والزيادة عليه بالإثابة، وإنما أخرج الثاني مخرج الاستئناف للدلالة على أنه تفضل محض ليس في مقابلة ما أُمروا به. وقرأ

---

(١) وصيغة المضارع في «يهدون» و«يعدلون» لحكاية الحال الماضية (س٣/ ٢٨١).

(٢) البقرة: «٥٨».

(٣) إيراد الفعل «قيل» على البناء للمفعول مع استناده إليه تعالى للجري على سنن الكبرياء، والإيذان بالغنى عن التصريح به لتعين الفاعل. وتغيير النظم بالأمر بالذكر للتشديد في التوبيخ (س٣/ ٢٨٣). =

نافع وابن عامر ويعقوب تُغفَرْ بالتاء والبناء للمفعول وخطيئاتُكم بالجمع والرفع، غير ابن عامر فإنه وَحّد، وقرأ أبو عمرو خَطَاياكم.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

(١٦٢) ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ مضىٰ تفسيره فيها[١].

(١٦٣) ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾ للتقرير والتقريع بقديم كفرهم وعصيانهم والإعلام بما هو من علومهم التي لا تُعلم إلا بتعليم أو وحي ليكون لك ذلك معجزة عليهم. ﴿عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ عن خبرها وما وقَع بأهلها. ﴿ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ قريبة منه وهي أيلة قرية بين مدين والطور[٢] على شاطىء البحر، وقيل مدين، وقيل طبرية. ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ يتجاوزون حدود الله بالصيد يوم السبت، وإذ ظرف لكانت أو حاضرة أو للمضاف المحذوف أو بدل منه بدل اشتمال. ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ﴾ ظرف ليَعْدون، أو بدل بعد بدل. وقرىء يَعَدُّون وأصله يعتدون، ويُعِدُّون من الإعداد أي يعدون آلات الصيد يوم السبت وقد نهوا أن يشتغلوا فيه بغير العبادة[٣]. ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ يوم تعظيمهم أمر السبت، مصدر سَبَتَت اليهود إذا عظمت سبتها بالتجرد للعبادة. وقيل اسم لليوم والإضافة لاختصاصهم بأحكام فيه، ويؤيد الأول أن قرىء يوم إسباتهم، وقوله: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ وقرىء لا يُسبِتون من أسبَتَ، ولا يُسْبَتُون على البناء للمفعول بمعنى لا يدخلون في السبت، وشرّعاً حال من الحيتان ومعناه ظاهرة على وجه الماء من شَرَع علينا إذا دنا وأشرف. ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ مثل ذلك البلاء الشديد نبلوهم بسبب فسقهم. وقيل كذلك متصل بما قبله أي لا تأتيهم مثل إتيانهم يوم السبت، والباء متعلق بيَعْدون[٤].

(١٦٤) ﴿وَإِذْ قَالَتْ﴾ عطف علىٰ إذ يعدون. ﴿أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ جماعة من أهل القرية يعني صلحاءهم الذين اجتهدوا في موعظتهم حتى أيسوا من اتعاظهم. ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ مخترمُهم. ﴿أَوْ

---

(١) البقرة: «٥٩».

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج٩/ ٩٠، ٩١) عن ابن عباس.

(٣) وإضافة الحيتان إليهم للإشعار باختصاصها بهم لاستقلالها بما لا يكاد يوجد في سائر أفراد الجنس من الخواص الخارقة للعادة (س٣/ ٢٨٤).

(٤) وصيغة المضارع بقوله «نبلوهم» لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها والتعجب منها (س٣/ ٢٨٥).

﴿مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في الآخرة لتماديهم في العصيان، قالوه مبالغة في أن الوعظ لا ينفع فيهم، أو سؤالاً عن علة الوعظ ونفعه وكأنه تقاول بينهم، أو قول من ارعوى عن الوعظ لمن لم يرعوِ منهم، وقيل المراد طائفة من الفرقة الهالكة أجابوا به وعّاظهم رداً عليهم وتهكماً بهم. ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ جواب للسؤال أي موعظتنا إنهاءَ عذر إلى الله حتى لا ننسب إلى تفريط في النهي عن المنكر[١]. وقرأ حفص معذرة بالنصب على المصدر أو العلة أي اعتذرنا به معذرةً، أو وعظناهم معذرة[٢]. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ إذ اليأس لا يحصل إلا بالهلاك.

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾

(١٦٥) ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ تركوا تَرْك الناسي. ﴿مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ ما ذكرهم به صلحاؤهم. ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالاعتداء ومخالفة أمر الله. ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ شديد، فعيل من بَؤُسَ يَبْؤُس بؤساً إذا اشتد. وقرأ أبو بكر بَيْئَس على فَيْعَل كضَيْغَم، وابنُ عامر بِئْس بكسر الباء وسكون الهمز على أنه بَئِس كحَذِر كما قرىء به فخفف عينه بنقل حركتها إلى الفاء ككِبْد في كَبِد، وقرأ نافع بِيسٍ على قلب الهمزة ياء كما قلبت في ذئب أو على أنه فعل الذم وصف به فجعل اسماً، وقرىء بَيِّس كريس على قلب الهمزة ياء ثم إدغامها، وبَيْسٍ بالتخفيف كهين، وبائِسٍ كفاعل[٣]. ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم.

(١٦٦) ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ﴾ تكبروا عن ترك ما نُهوا عنه كقوله تعالى: ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾[٤]. ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ كقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[٥] والظاهرُ يقتضي أن الله تعالى عذبهم أولاً بعذاب شديد فعتوا بعد ذلك فمَسَخَهم، ويجوز أن تكون الآية الثانية تقريراً وتفصيلاً للأولى. روي: إن الناهين لما أيسوا عن اتعاظ المعتدين كرهوا مساكنتَهم، فقسموا القرية بجدار فيه باب مطروق، فأصبحوا يوماً ولم يخرج إليهم أحد من المعتدين فقالوا: إن لهم شأناً فدخلوا عليهم فإذا هم قردة فلم يعرفوا أنسباءهم ولكن القردة تعرفهم، فجعلت تأتي أنسباءَهم وتشم ثيابهم وتدور باكية حولهم ثم ماتوا بعد ثلاث. وعن مجاهد مُسِخت قلوبهم لا أبدانُهم[٦].

---

(١) الأصل عند البيضاوي «معذرة» بالرفع.
(٢) في إضافة الرب إلى ضمير المخاطبين «ربكم» نوع تعريض بالسائلين (س٣/ ٢٨٥).
(٣) وتنكير العذاب للتفخيم (س٣/ ٢٨٦).
(٤) الأعراف: «٧٧».
(٥) النحل: «٤٠».
(٦) رجح ابن كثير أن المسخ كان صورياً ومعنوياً، وورد قول مجاهد (تفسير ابن كثير ١/ ١٠٢).

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ
وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم
بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا
الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا
الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾

(١٦٧) ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أي أَعْلَمَ، تَفَعَّل مِنَ الإيذان بمعناه كالتوعّد والإيعاد، أو عزم لأن العازم على الشيء يؤذن نفسه بفعله فأجري مجرىٰ فعل القسم كعَلِم الله وشهد الله، ولذلك أجيب بجوابه وهو: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ والمعنى وإذ أوجب ربك على نفسه ليسلطنّ على اليهود ﴿مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ كالإذلال وضرب الجزية. بعث الله عليهم بعد سليمان عليه السلام بختنصر فخرّب ديارهم وقتل مقاتليهم وسبى نساءهم وذراريهم وضرب الجزية على من بقي منهم، وكانوا يؤدونها إلى المجوس حتى بعث الله محمداً ﷺ ففعل ما فعل ثم ضرب عليهم الجزية، فلا تزال مضروبة إلى آخر الدهر. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ عاقبهم في الدنيا. ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن تاب وآمن.

(١٦٨) ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ وفرقناهم فيها بحيث لا يكاد يخلو قُطْر منهم تتمة لأدبارهم حتى لا يكون لهم شوكة قط، وأمماً مفعول ثان أو حال. ﴿مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ تقديره ومنهم أناس دون ذلك، أي منحطون عن الصلاح وهم كَفَرَتُهم وفسقتهم، صفة أو بدل منه، وهم الذين آمنوا بالمدينة ونظراؤهم. ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ بالنعم والنقم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ينتهون فيرجعون عما كانوا عليه.

(١٦٩) ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ من بعد المذكورين. ﴿خَلْفٌ﴾ بدل سوءَ، مصدرٌ نعت به ولذلك يقع على الواحد والجمع، وقيل جمع. وهو شائع في الشر، والخَلَف بالفتح في الخير، والمراد به الذين كانوا في عصر رسول الله ﷺ. ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ التوراة من أسلافهم يقرؤونها ويقفون على ما فيها. ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ﴾ حطام هذا الشيء الأدنى يعني الدنيا، وهو من الدنو أو الدناءة وهو ما كانوا يأخذون من الرُّشا في الحكومة وعلى تحريف الكلم، والجملة حال من الواو. ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ لا يؤاخذنا الله بذلك ويتجاوز عنه، وهو يحتمل العطف والحال. والفعل مسند إلى الجار والمجرور، أو مصدر يأخذون. ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ حال من الضمير في لنا، أي يرجون المغفرة مصرين على الذنب عائدين إلى مثله غير تائبين عنه. ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ﴾ أي في الكتاب. ﴿أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ عطف بيان للميثاق، أو متعلق به أي بأن يقولوا. والمرادُ توبيخهم على البت بالمغفرة مع عدم التوبة والدلالة على أنه افتراء على الله وخروج عن ميثاق الكتاب. ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ عطف على ألم يؤخذ من حيث المعنى فإنه تقرير، أو على ورثوا وهو اعتراض. ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ مما يأخذ هؤلاء. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فيعلموا ذلك ولا يستبدلوا الأدنى الدنيء المؤدي إلى العقاب بالنعيم المخلد. وقرأ نافع وابن عامر وحفص ويعقوب بالتاء على التلوين.

وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾

(١٧٠) ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ عطف على الذين يتقون وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ اعتراض أو مبتدأ خبرُه: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ على تقدير منهم، أو وضع الظاهر موضع المضمر تنبيهاً على أن الإصلاح كالمانع من التضييع. وقرأ أبو بكر يُمْسِكون بالتخفيف وإفراد الإقامة لإنافتها على سائر أنواع التمسكات[١].

(١٧١) ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ أي قلعناه ورفعناه فوقهم، وأصل النتق الجذب. ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ سقيفة، وهي ما أظلك. ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ وتيقنوا. ﴿أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ ساقط عليهم لأن الجبل لا يثبت في الجوّ ولأنهم كانوا يوعدون به، وإنما أطلق الظن لأنه لم يقع متعلقُه وذلك أنهم أبوْا أن يقبلوا أحكام التوراة لثقلها فرفع الله الطور فوقهم وقيل لهم إن قبلتم ما فيها وإلا ليَقعنّ عليكم. ﴿خُذُواْ﴾ على إضمار القول، أي وقلنا خذوا أو قائلين خذوا. ﴿مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ من الكتاب. ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجد وعزم على تحمل مشاقه، وهو حال من الواو. ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ بالعمل به ولا تتركوه كالمنسي. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قبائح الأعمال ورذائل الأخلاق.

(١٧٢) ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي أخرج من أصلابهم نسلهم على ما يتوالدون قرناً بعد قرن، ومن ظهورهم بدل من بني آدم بدل البعض. وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب ذرياتِهم[٢]. ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ أي ونَصَبَ لهم دلائل ربوبيته وركّب في عقولهم ما يدعوهم إلى الإقرار بها حتى صاروا بمنزلة من قيل لهم ألست بربكم؟ قالوا بلىٰ فنَزّل تمكينهم من العلم بها وتمكّنهم منه بمنزلة الإشهاد والاعتراف على طريقة التمثيل، ويدل عليه قوله: ﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي كراهة أن تقولوا. ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ لم ننبه عليه بدليل.

(١٧٣) ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ﴾ عطف على أن تقولوا. وقرأ أبو عمرو كليهما بالياء لأن أول الكلام على الغيبة. ﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ فاقتدينا بهم، لأن التقليد عند قيام الدليل والتمكن من العلم به لا يصلح عذراً. ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ يعني آباءهم المبطلين بتأسيس الشرك. وقيل لما خلق الله آدم أخرج من ظهره ذرية كالذرّ وأحياهم وجعل لهم العقل والنطق وألهمهم ذلك لحديث

---

(١) قوله «يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة» غير النظم في إقامة الصلاة للدلالة على أن التمسك بالكتاب أمر مستمر في جميع الأزمنة بخلاف إقامة الصلاة فإنها مختصة بأوقاتها.
وتخصيص الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات لإنافتها عليها (س٣/ ٢٨٨).

(٢) قوله «وإذ أخذ...» آثر الأخذ على الإخراج للإيذان بالاعتناء بشأن المأخوذ لما فيه الإخبار عن الاصطفاء وهو السبب في إسناده إلى اسم الرب بطريق الالتفات مع ما فيه من التمهيد للاستفهام الآتي (س٣/ ٢٨٩).

رواه عمر[1] رضي الله تعالى عنه، وقد حققتُ الكلام فيه في شرحي لكتاب المصابيح. والمقصودُ من إيراد هذا الكلام إلزامُ اليهود بمقتضى الميثاق العام بعد ما ألزمهم بالميثاق المخصوص بهم، والاحتجاجُ عليهم بالحجج السمعية والعقلية، ومنعُهم عن التقليد، وحملُهم على النظر والاستدلال كما قال:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾

(١٧٤) ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي عن التقليد واتباع الباطل.

(١٧٥) ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي على اليهود. ﴿نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ هو أحد علماء بني إسرائيل، أو أمية بن أبي الصلت فإنه كان قد قرأ الكتب وعلم أن الله تعالى مرسِلٌ رسولاً في ذلك الزمان، ورجا أن يكون هو فلما بعث محمد عليه السلام حسده وكفر به، أو بلعم بن باعوراء من الكنعانيين أوتي علم بعض كتب الله، ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ من الآيات بأن كفر بها وأعرض عنها[2]. ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ حتى

---

(١) أخرج مالك في الموطأ (٢/ ٨٩٨ رقم ٢) وأحمد في المسند (١/ ٤٤، ٤٥) والبخاري في التاريخ الكبير (٨/ ٩٧) وأبو داود (٥/ ٧٩ ـ ٨٠ رقم ٤٧٠٣ ورقم ٤٧٠٤) والترمذي (٥/ ٢٦٦ رقم ٣٠٧٥) وابن حبان (ص٤٤٧ رقم ١٨٠٤ ـ موارد) والحاكم (٢/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥) كلهم من طريق مالك، عن زيد بن أبي أنيسة، عن عبدالحميد بن عبدالرحمٰن بن زيد بن الخطاب، عن مسلم بن يسار عن عمر. إلا البخاري وأبا داود (رقم: ٤٧٠٤) فقد روياه عن مسلم بن يسار، عن نعيم بن ربيعة عن عمر.

وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر، وقد ذكر بعضهم في هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وبين عمر رجلاً مجهولاً.

قلت: هذا الرجل هو «نعيم بن ربيعة الأزدي» وهو مقبول كما في «التقريب» (٢/ ٣٠٥). وهو حديث صحيح بشواهده.

(منها): حديث عبد الرحمٰن بن قتادة السلمي ولفظه «إن الله عز وجل خلق آدم ثم أخذ الخلق من ظهره وقال: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي فقال قائل: يا رسول الله، فعلى ماذا نعمل؟ قال: على مواقع القدر».

أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٨٦) والحاكم في المستدرك (١/ ٣١).

وأورده الألباني في «الصحيحة» (رقم: ٤٨).

(ومنها): حديث أبي الدرداء بنحو حديث عبدالرحمٰن بن قتادة.

أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٤٤١) والبزار والطبراني ـ كما في «المجمع» (٧/ ١٨٥) ـ.

وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.

وصححه الألباني في «الصحيحة» (رقم: ٤٩).

(ومنها) حديث عبدالله بن عمرو بن العاص بنحو حديث عمر في سياق أطول منه. أخرجه أحمد (٢/ ١٦٧) وابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ١٥٤ ـ ١٥٥ رقم: ٣٤٨) وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٦٨).

وحسنه الألباني في «الصحيحة» (رقم: ٨٤٨) وتخريج السنة.

قلت: وانظر روايات أخرى عن جماعة من الصحابة في «الدر المنثور» (٣/ ٥٩٨ ـ ٦٠٧).

(٢) عبر عنه بالانسلاخ المنبىء عن اتصال المحيط بالمحاط خلقة وعن عدم الملاقاة بينهما أبداً للإيذان بكمال مباينته =

لحقه وقيل استتبعه. ﴿ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ فصار من الضالين. روي أن قومه سألوه أن يدعو على موسى ومَنْ معه فقال: كيف أدعو على مَنْ معه الملائكةُ، فألحوا حتى دعا عليهم فبقُوا في التيه.

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

(١٧٦) ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ ﴾ إلى منازل الأبرار من العلماء. ﴿ بِهَا ﴾ بسبب تلك الآيات وملازمتها. ﴿ وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ مال إلى الدنيا، أو إلى السفالة. ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ في إيثار الدنيا واسترضاء قومه وأعرض عن مقتضىٰ الآيات، وإنما علقَ رفعه بمشيئة الله تعالى ثم استدرك عنه بفعل العَبْد تنبيهاً على أن المشيئة سبب لفعله الموجب لرفعه وأن عدمه دليل عدمها دلالةَ انتفاء المسبب على انتفاء سببه، وأن السبب الحقيقي هو المشيئة وأن ما نشاهده من الأسباب وسائط معتبرة في حصول المسبب من حيث إن المشيئة تعلقت به كذلك، وكان من حقه أن يقول ولكنه أعرض عنها فأوقع موقعه أخلد إلى الأرض واتبع هواه مبالغةً وتنبيهاً على ما حمله عليه وأن حب الدنيا رأس كل خطيئة. ﴿ فَمَثَلُهُۥ ﴾ فصفته التي هي مَثَلٌ في الخسة. ﴿ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ﴾ كصفته في أخس أحواله، وهو: ﴿ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ أي يلهث دائماً سواء حُمِل عليه بالزجر والطرد أو تُرِك ولم يُتعرض له، بخلاف سائر الحيوانات لضعف فؤاده. واللهْثُ إدلاع اللسان من التنفس الشديد، والشرطية في موضع الحال والمعنى: لاهثاً في الحالتين، والتمثيل واقع موقعَ لازم التركيب الذي هو نفيُ الرفع ووضعُ المنزلة للمبالغة والبيان. وقيل لما دعا على موسى عليه السلام خرج لسانُه فوقع على صدره وجعل يلهث كالكلب. ﴿ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ ﴾ القصة المذكورة على اليهود فإنها نحو قصصهم. ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ تفكراً يؤدي بهم إلى الاتعاظ.

(١٧٧) ﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ﴾ أي مَثَلُ القوم، وقرىء ساء مَثَلُ القوم على حذف المخصوص بالذم. ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ بعد قيام الحجة عليهم وعلمهم بها. ﴿ وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ إما أن يكون داخلاً في الصلة معطوفاً على كذبوا بمعنى: الذين جمعوا بين تكذيب الآيات وظلم أنفسهم، أو منقطعاً عنها بمعنى: وما ظلموا بالتكذيب إلا أنفسهم فإن وَباله لا يتخطاها، ولذلك قدم المفعول.

(١٧٨) ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ تصريح بأن الهدىٰ والضلال من الله وأن هداية الله تختص ببعض دون بعض وأنها مستلزمة للاهتداء، والإفرادُ في الأول والجمع في الثاني باعتبار اللفظ، والمعنى تنبيه على أن المهتدين كواحد لاتحاد طريقهم بخلاف الضالين،

= للآيات بعد أن كان بينهما كمال الاتصال (س٣/ ٢٩٢).

والاقتصارُ في الإخبار عمن هداه الله بالمهتدي تعظيم لشأن الاهتداء وتنبيه على أنه في نفسه كمالٌ جسيم ونفع عظيم لو لم يحصل له غيره لكفاه وأنه المستلزم للفوز بالنعم الآجلة والعنوان لها.

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾

(١٧٩) ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ خلقنا. ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ يعني المصرين على الكفر في علمه تعالى. ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾[1] إذ لا يلقونها إلى معرفة الحق والنظر في دلائله. ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ أي لا ينظرون إلى ما خلق الله نظرَ اعتبار. ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ الآيات والمواعظ سماع تأمل وتذكر. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ في عدم الفقه والإبصار للاعتبار والاستماعِ للتدبر، أو في أن مشاعرهم وقواهم متوجهة إلى أسباب التعيش مقصورة عليها. ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ فإنها تدرك ما يمكن لها أن تدرك من المنافع والمضار، وتجتهد في جلبها ودفعها غاية جهدها، وهم ليسوا كذلك بل أكثرهم يعلم أنه معاند فيُقْدم على النار. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ الكاملون في الغفلة.

(١٨٠) ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ لأنها دالة على معان هي أحسن المعاني، والمراد بها الألفاظ وقيل الصفات. ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ فسموه بتلك الأسماء. ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ واتركوا تسمية الزائغين فيها الذين يسمونه بما لا توقيف فيه، إذ ربما يوهم معنى فاسداً كقولهم يا أبا المكارم يا أبيض الوجه، أو لا تبالوا بإنكارهم ما سمى به نفسه كقولهم: ما نعرف إلا رحمان اليمامة، أو وذروهم وإلحادَهم فيها بإطلاقها على الأصنام واشتقاق أسمائها منها كاللات من الله، والعزى من العزيز ولا توافقوهم عليه، أو أعرضوا عنهم فإن الله مجازيهم كما قال: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ وقرأ حمزة هنا وفي فصلت يَلْحدون بالفتح يقال: لحد وألحد إذا مال عن القصد.

(١٨١) ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ ذكر ذلك بعد ما بين أنه خلَقَ للنار طائفة ضالين ملحدين عن الحق للدلالة على أنه خلق أيضاً للجنة أمة هادين بالحق عادلين في الأمر، واستُدل به على صحة الإجماع لأن المراد منه أن في كل قرن طائفة بهذه الصفة لقوله عليه الصلاة والسلام «لا تزال من أمتي طائفة على الحق إلى أن يأتي أمر الله»[2]، إذ لو اختص بعهد الرسول أو

---

(١) حذف مفعول يفقهون للتعميم، أي لهم قلوب لا يفقهون بها أي شيء من شأنه أن يفقه (س٣/ ٢٩٥).

(٢) أخرج البخاري (١٣/ ٢٩٣ رقم ٧٣١١) من حديث المغيرة عن النبي ﷺ قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمرُ الله وهم ظاهرون».
وأخرجه مسلم (٢/ ١٥٢٣ رقم ١٧١/ ١٩٢١) عن المغيرة أيضاً بلفظ «لن يزالَ قوم من أمتي ظاهرين على الناس، حتى يأتيهم أمرُ الله وهم ظاهرون».
● وأخرج مسلم (٢/ ١٥٢٤ رقم ١٧٤/ ١٠٣٧) عن معاوية مرفوعاً بلفظ «لا تزالُ طائفة من أمتي قائمة بأمرِ اللهِ، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمرُ اللهِ وهم ظاهرون على الناس». =

غيره لم يكن لذكره فائدة فإنه معلوم(١).

وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾

(١٨٢) ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ سنستدنيهم إلى الهلاك قليلاً قليلاً، وأصل الاستدراج الاستصعاد أو الاستنزال درجة بعد درجة(٢). ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما نريد بهم، وذلك أن تتواتر عليهم النعم فيظنوا أنها لطف من الله تعالى بهم، فيزدادوا بطراً وانهماكاً في الغي حتى يحق عليهم كلمة العذاب.

(١٨٣) ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ وأمهلهم، عطف على سنستدرجهم. ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ إن أخذي شديد، وإنما سماه كيداً لأن ظاهره إحسان وباطنه خذلان.

(١٨٤) ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم﴾ يعني محمداً ﷺ(٣). ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ من جنون. روي: أنه صلى الله عليه وسلم صعد على الصفا فدعاهم فَخِذاً فَخِذاً يحذرهم بأس الله تعالى فقال: قائلهم إنّ صاحبكم لمجنون بات يُهَوِّت إلى الصباح، فنزلت(٤). ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ موضح إنذاره بحيث لا يخفى على ناظر.

(١٨٥) ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ﴾ نظر استدلال. ﴿فِي مَلَكُوتِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ مما يقع عليه اسم الشيء من الأجناس التي لا يمكن حصرها ليدلهم على كمال قدرة صانعها ووحدة مبدعها وعظم شأن مالكها ومتولي أمرها ليظهر لهم صحة ما يدعوهم إليه. ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ عطف على ملكوت، وأن مصدرية أو مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، وكذا اسم يكون. والمعنى: أولم ينظروا في اقتراب آجالهم وتوقع حلولها فيسارعوا إلى طلب الحق والتوجه إلى ما ينجيهم قبل

= ● وأخرج مسلم (٢/ ١٥٢٣ رقم ١٧٠/ ١٩٢٠) عن ثوبان مرفوعاً بلفظ «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم. حتى يأتيَ أمرُ الله وهم كذلك» وليس في حديث قتيبة «وهم كذلك».

● وأخرج مسلم (٢/ ١٥٢٤ رقم ١٧٣/ ١٩٢٣) عن جابر بن عبدالله مرفوعاً بلفظ «لا تزال طائفة من أمتي يُقابَلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة».

(١) والاقتصار على نعتهم بهداية الناس للإيذان بأن اهتداءهم في أنفسهم أمر محقق غني عن التصريح به (س٣/ ٢٩٧).

(٢) وإضافة الآيات إلى نون العظمة لتشريفها واستعظام الإقدام على تكذيبها (س٣/ ٢٩٧).

(٣) والتعبير عنه بصاحبهم للإيذان بأن طول مصاحبتهم له عليه السلام مما يطلعهم على نزاهته عليه السلام عن شائبة ما ذكر، ففيه تأكيد للنكير وتشديد له (س٣/ ٢٩٨).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (٦/ج٩/ ١٣٦) عن قتادة.

وذكره الحافظ في «الكافي الشاف» (ص٦٦ رقم ٤٢) ـ أخرجه ـ الطبري بإسناد صحيح إلى قتادة.

مغافصة الموت ونزول العذاب. ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعۡدَهُۥ﴾ أي بعد القرآن. ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ إذا لم يؤمنوا به، وهو النهاية في البيان كأنه إخبار عنهم بالطبع والتصميم على الكفر بعد إلزام الحجة والإرشاد إلى النظر. وقيل هو متعلق بقوله: «عسى أن يكون» كأنه قيل لعل أجلهم قد اقترب فما بالهم لا يبادرون الإيمان بالقرآن، وماذا ينتظرون بعد وضوحه، فإن لم يؤمنوا به فبأي حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا به، وقوله:

مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

(١٨٦) ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ﴾ كالتقرير والتعليل له(١). ﴿وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾ بالرفع على الاستئناف. وقرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب بالياء لقوله «من يضلل الله»، وحمزة والكسائي به وبالجزم عطفاً على محل فلا هادي له، كأنه قيل: لا يهده أحد غيرُه ويذرهم ﴿يَعۡمَهُونَ﴾ حال من هم.

(١٨٧) ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي عن القيامة، وهي من الأسماء الغالبة، وإطلاقُها عليها إما لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها أو لأنها على طولها عند الله كساعة. ﴿أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ﴾ متى إرساؤها أي إثباتُها واستقرارها. ورسوّ الشيء ثباتُه واستقراره، ومنه رسا الجبل وأرسى السفينة. واشتقاقُ أيان من أيّ لأن معناه أيُّ وقتٍ؟ وهو من أويت إليه لأن البعض أوى إلى الكل. ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ﴾ استأثر به لم يُطلع عليه مَلَكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً(٢). ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ﴾ لا يُظهر أمرها في وقتها. ﴿إِلَّا هُوَۚ﴾والمعنى أن الخفاء بها مستمر على غيره إلى وقت وقوعها، واللام للتأقيت كاللام في قوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾(٣). ﴿ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ عظمت على أهلها من الملائكة والثقلين لهولها، وكأنه إشارة إلى الحكمة في إخفائها. ﴿لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ﴾ إلا فجأة على غفلة، كما قال عليه الصلاة والسلام: «إن الساعة تهيج بالناس والرجلُ يُصلح حوضه والرجلُ يَسقي ماشيته والرجل يقوّم سلعته في سوقه والرجل يخفض ميزانه ويرفعه»(٤). ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ﴾ عالم بها، فعيل من حفىٰ عن الشيء إذا سأل عنه،

---

(١) توحيد الضمير في حيز النفي نظراً إلى لفظ مَنْ، وجمعُه في حيز الإثبات نظراً إلى معناها، وذلك للتنصيص على شمول النفي والإثبات للكل (س٣/ ٣٠٠).

(٢) التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام للإيذان بأن توفيقه عليه السلام للجواب على الوجه المذكور من باب التربية والإرشاد (س٣/ ٣٠١).

(٣) الإسراء: «٧٨».

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ج٩/ ١٤٠) عن قتادة.
وأخرج البخاري (١١/ ٣٥٢ رقم ٦٥٠٦) و(١٣/ ٨٢ رقم ١٧٢١).
عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت فرآها الناسُ آمنوا أجمعين، فذاك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبلُ أو كسبت في إيمانها خيراً. =

فإن مَنْ بالغ في السؤال عن الشيء والبحث عنه استحكم علمه فيه، ولذلك عُدِّي بعن. وقيل هي صلة يسألونك. وقيل هو من الحفاوة بمعنى الشفقة فإن قريشاً قالوا له: إن بيننا وبينك قرابة فقل لنا متى الساعة، والمعنى يسألونك عنها كأنك حفي تتحفى بهم فتحضّهم لأجل قرابتهم بتعليم وقتها. وقيل معناه كأنك حفي بالسؤال عنها تحبّه، مِنْ حَفِيَ بالشيء إذا فرح أي تكثره لأنه من الغيب الذي استأثر الله بعلمه. ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾ كرره لتكرير يسألونك لما نيط به من هذه الزيادة وللمبالغة. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن علمها عند الله لم يؤته أحداً من خلقه.

قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾

(١٨٨) ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ جلب نفع ولا دفع ضر، وهو إظهار للعبودية والتبري من ادعاء العلم بالغيوب[١]. ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ من ذلك فيلهمني إياه ويوفقني له، ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ ولو كنت أعلمه لخالفت حالي ما هي عليه من استكثار المنافع واجتناب المضار حتى لا يمسني سوء. ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ ما أنا إلا عبد مرسَل للإنذار والبشارة[٢]. ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم المنتفعون بهما، ويجوز أن يكون متعلقاً بالبشير ومتعلق النذير محذوف.

(١٨٩) ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هو آدم[٣]. ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا﴾ من جسدها من ضلع من أضلاعها، أو من جنسها كقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾[٤]. ﴿زَوْجَهَا﴾ حواء. ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ليستأنس بها ويطمئن إليها اطمئنان الشيء إلى جزئه أو جنسه، وإنما ذكر الضمير ذهاباً إلى المعنى ليناسب: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أي جامعها. ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ خف عليها ولم تلقَ منه ما تلقى منه الحوامل غالباً من الأذى، أو محمولاً خفيفاً وهو النطفة. ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ فاستمرت به أي قامت

= ولتقومنّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه. ولتقومنّ الساعة وقد انصرف الرجل بلبنِ لقحتهِ فلا يطعمهُ. ولتقومنّ الساعة وهو يَليط حوضَهُ فلا يُسقى فيه. ولتقومنّ الساعة وقد رفع أحدكم أكلتَهُ إلى فيهِ فلا يطعَمُها».

وأخرجه مسلم (٤/ ٢٢٧٠ رقم ١٤١/ ٢٩٥٤) بلفظ «تقوم الساعةُ والرجل يحلبُ اللِّقحةَ، فما يصلُ الإناءُ إلى فيهِ حتى تقوم. والرجُلان يتبايعانِ الثوب فما يتبايعان الثوب، فما يتبايعانه حتى تقوم والرجلُ يَلِطُ في حوضِهِ، فما يصدرُ حتى تقوم».

(١) وإعادة الأمر «قل» لإظهار كمال العناية بشأن الجواب، والتنبيه على استقلاله ومغايرته للأول (س٣/ ٣٠٢).

(٢) وتقديم النذير على البشير لأن المقام مقام الإنذار (س٣/ ٣٠٢).

(٣) إيقاع الموصول خبراً لتفخيم شأن المبتدأ، أي ذلك العظيم الشأن الذي خلقكم. . . (س٣/ ٣٠٣).

(٤) النحل: «٧٢».

وقعدت. وقرىء فمَرَت بالتخفيف، وفاستَمَرَت به، وفمَارَت من المور وهو المجيء والذهاب أو من المِرْية أي فظنت الحمل وارتابت منه. ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ صارت ذات ثقل بكبر الولد في بطنها. وقرىء على البناء للمفعول أي أثقلها حَمْلُها. ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ ولداً سوياً قد صلح بدنُه. ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لك على هذه النعمة المجددة.

فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾

(١٩٠) ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ جعل أولادهما له شركاء فيما آتىٰ أولادهما فسموه عبدالعزى وعبدمناف على حذف مضاف وإقامة المضاف إليه مقامه[١]، ويدل عليه قوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

(١٩١) ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ يعني الأصنام. وقيل[٢]: لما حملت حواء أتاها إبليس في صورة رجل فقال لها: ما يدريك ما في بطنك لعله بهيمة أو كلب وما يدريك من أين يخرج، فخافت من ذلك وذكرته لآدم فهما منه ثم عاد إليها وقال: إني من الله بمنزلة فإنْ دعوتِ الله أن يجعله خلقاً مثلك ويسهل عليك خروجه تسميه عبدالحرث، وكان اسمه حارثاً بين الملائكة فتقبلت، فلما ولدت سمياه عبدالحرث. وأمثال ذلك لا تليق بالأنبياء. ويحتمل أن يكون الخطاب في خلقكم لآل قصي من قريش، فإنهم خلقوا من نفس قصي وكان له زوج من جنسه عربية قرشية وطلبا من الله الولد فأعطاهما أربعة بنين فسمياهم: عبدمناف، وعبدشمس، وعبدقصي، وعبدالدار. ويكون الضمير في يشركون لهما ولأعقابهما المقتدين بهما. وقرأ نافع وأبو بكر شِرْكاً أي شَرِكة بان أشركا فيه غيره أو ذوي شرك وهم الشركاء، وهم ضمير الأصنام جيء به على تسميتهم إياها آلهة[٣].

(١٩٢) ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ أي لعبَدَتهم. ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ فيدفعون عنها ما يعتريها.

---

(١) وتخصيص إشراكهم هذا بالذكر لأن المساق لبيان إخلالهم بالشكر في مقابلة نعمة الولد الصالح (س٣/ ٣٠٤).

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٦/ج٩/ ١٤٧) عن سعيد بن جبير.
وأخرج الترمذي (٥/ ٢٦٧ رقم ٣٠٧٧) عن سمرة عن النبي ﷺ قال: لما حملتْ حواء طافَ بها إبليسُ وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سميه عبدالحارث، فعاش ذلك، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمرِه».
وأخرجه أحمد في المسند (٥/ ١١) والحاكم (٢/ ٥٤٥) وصححه ووافقه الذهبي والطبري (رقم: ١٥٥١٣) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم عن قتادة، ورواه بعضهم عن عبدالصمد بن عبدالوارث، ولم يرفعه.
قلت: الحسن قد عنعن عند الجميع وهو مدلس، وهو لم يسمع من سمرة. فالحديث ضعيف.
وأعلّه الحافظ ابن كثير من ثلاثة وجوه: انظرها في تفسيره (٢/ ٢٨٦).

(٣) إيراد الأصنام بجمع العقلاء بحسب اعتقادهم فيها وإجرائهم لها مجرىٰ العقلاء، وكذا تسميتها آلهة. ووصفها بالمخلوقية بعد وصفها بنفي الخالقية لإبانة كمال منافاة حالها لما اعتقدوه في حقها وإظهار غاية جهلهم. وعدم التعرض لخالقها للإيذان بتعينه والاستغناء عن ذكره (س٣/ ٣٠٥). =

وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ
بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ
ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن
دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ
يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

(١٩٣) ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ أي المشركين[١]. ﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ إلى الإسلام. ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ وقرأ نافع بالتخفيفِ وفتحِ الباء، وقيل الخطاب للمشركين وهم ضمير الأصنام أي: إن تدعوهم إلى أن يهدوكم لا يتبعوكم إلى مرادكم ولا يجيبوكم كما يجيبكم الله. ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ وإنما لم يقل أم صمتم للمبالغة في عدم إفادة الدعاء من حيث إنه مسوىً بالثبات على الصمات، أو لأنهم ما كانوا يدعونها لحوائجهم فكأنه قيل: سواء عليكم إحداثُكم دعاءَهم واستمراركم على الصمات عن دعائهم.

(١٩٤) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي تعبدونهم وتسمونهم آلهة. ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ من حيث إنها مملوكة مسخرة. ﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنهم آلهة، ويحتمل أنهم لما نحتوها بصور الأناسيّ قال لهم: إن قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء أمثالكم فلا يستحقون عبادتكم كما لا يستحق بعضكم عبادة بعض، ثم عاد عليه بالنقض فقال:

(١٩٥) ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ وقرىء إنْ الذين بتخفيف إنْ ونصب عباد على أنها نافية عملت عمل ما الحجازية ولم يثبت مثله، ويَبْطُشون بالضم ههنا وفي القصص والدخان[٢]. ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ واستعينوا بهم في عداوتي. ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ فبالغوا فيما تقدرون عليه من مكر، وهي أنتم وشركاؤكم. ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ فلا تُمهلون فإني لا أبالي بكم لوثوقي على ولاية الله تعالى وحفظه[٣].

(١٩٦) ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن[٤]. ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي ومن عادته تعالى أن يتولى الصالحين من عباده فضلاً عن أنبيائه.

(١٩٧) ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ من تمام التعليل لعدم مبالاته بهم.

(١٩٨) ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ يُشبهون الناظرين إليك، لأنهم صوِّروا بصورة مَنْ ينظر إلى من يواجهه.

---

(١) والالتفات من الغيبة إلى الخطاب لبيان مزيد الاعتناء بأمر التوبيخ والتبكيت (س٣/ ٣٠٥).

(٢) القصص: «١٩» والدخان: «١٦».

(٣) وتقديم الأعين على الآذان لأنها أشهر من الآذان وأظهر عيناً وأثراً (س٣/ ٣٠٧).

(٤) ووصفُه تعالى بإنزال الكتاب للإشعار بدليل الولاية (س٣/ ٣٠٧).

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾
وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ
مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

(١٩٩) ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ أي خذ مَا عفا لك من أفعال الناس وتسهل ولا تطلُب ما يشق عليهم، مِنَ العفو الذي هو ضد الجَهْد، أو خذ العفو عن المذنبين أو الفضل وما يسهل من صدقاتهم، وذلك قبل وجوب الزكاة. ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ المعروف المستحسن من الأفعال. ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ فلا تمارِهم ولا تكافئهم بمثل أفعالهم، وهذه الآية جامعة لمكارم الأخلاق آمرة للرسول باستجماعها.

(٢٠٠) ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ ينخسنك منه نخْسٌ أي وسوسة تحملك على خلاف ما أُمِرت به كاعتراء غضب وفكر، والنزغ والنسغ والنخس الغَرْزُ، شَبَّهَ وسوسته للناس إغراءً لهم على المعاصي وإزعاجاً بغرز السائق ما يسوقه. ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ يسمع استعاذتك. ﴿عَلِيمٌ﴾ يعلم ما فيه صلاح أمرك فيحملك عليه، أو سميع بأقوال من آذاك عليهم بأفعاله فيجازيه عليها مغنياً إياك عن الانتقام ومشايعة الشيطان.

(٢٠١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ لُمَّة منه، وهو اسم فاعل من طاف يطوف كأنها طافت بهم ودارت حولهم فلم تقدر أن تؤثر فيهم، أو من طاف به الخيال يطيف طيفاً. وقرأ ابن كثير وابو عمرو والكسائي ويعقوب طَيْفٌ على أنه مصدر أو تخفيف طَيِّفْ كليّن وهيّن، والمراد بالشيطان الجنس ولذلك جمع ضميرَه. ﴿تَذَكَّرُوا۟﴾ ما أمر الله به ونهىٰ عنه. ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ بسبب التذكر مواقعَ الخطأ ومكايد الشيطان فيتحرزون عنها ولا يتبعونه فيها، والآيةُ تأكيد وتقرير لما قبلها وكذا قوله:

(٢٠٢) ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ﴾ أي وإخوان الشياطين الذين لم يتقوا يمدهم الشياطين. ﴿فِى ٱلْغَىِّ﴾ بالتزيين والحمل عليه، وقرىء يُمِدُّونهم من أمدّ، ويُمَادُونهم كأنهم يُعِينونهم بالتسهيل والإغراء وهؤلاء يعينونهم بالاتّباع والامتثال. ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ ثم لا يمسكون عن إغوائهم حتى يَرُدّوهم، ويجوز أن يكون الضمير للإخوان أي لا يكفون عن الغي ولا يقصرون كالمتقين، ويجوز أن يراد بالإخوان الشياطين ويرجع الضمير إلى الجاهلين فيكون الخبر جارياً على ما هُوَ لَهُ.

(٢٠٣) ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ﴾ من القرآن أو مما اقترحوه. ﴿قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ هلا جمعتها تقوُّلاً من نفسك كسائر ما تقرؤه، أو هلاّ طلبتها من الله. ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى﴾ لستُ بمختلق للآيات، أو لست بمقترح لها. ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ هذا القرآن بصائر للقلوب بها يبصر الحق ويدرك الصواب. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ سبق تفسيره.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾

(٢٠٤) ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ نزلت في الصلاة، كانوا يتكلمون فيها فأُمروا باستماع قراءة الإمام والإنصات له . وظاهرُ اللفظ يقتضي وجوبهما حيث يُقرأُ القرآن مطلقاً، وعامةُ العلماء على استحبابهما خارج الصلاة. واحتج به من لا يرى وجوب القراءة على المأموم وهو ضعيف.

(٢٠٥) ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ عامّ في الأذكار من القراءة والدعاء وغيرهما، أو أمر للمأموم بالقراءة سراً بعد فراغ الإمام عن قراءته كما هو مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه. ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ متضرعاً وخائفاً. ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ ومتكلماً كلاماً فوق السر ودون الجهر فإنه أدْخَل في الخشوع والإخلاص. ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ بأوقات الغدو والعشيات. وقرىء والإيصال، وهو مصدر آصل إذا دخل في الأصيل، وهو مطابق للغدو. ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ عن ذكر الله.

(٢٠٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني ملائكة الملأ الأعلى. ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ وينزهونه. ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩﴾ ويخصونه بالعبادة والتذلل لا يشركون به غيره، وهو تعريض بمن عداهم من المكلفين ولذلك شرع السجود لقراءته. وعن النبي ﷺ «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكي فيقول: يا ويله أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة وأُمرتُ بالسجود فعصيت فلي النار»[٢] وعنه ﷺ «من قرأ سورة الأعراف جعل اللهُ يوم القيامة بينه وبين إبليس ستراً وكان آدمُ شفيعاً له يوم القيامة»[٣].

☆ ☆ ☆

(١) أخرجه الواحدي في أسباب النزول عن قتادة ص٢٣٣.
(٢) أخرجه مسلم (١/ ٨٧ رقم ١٣٢/ ٨١) وابن ماجه (١/ ٣٣٤ رقم ١٠٥٢) من حديث أبي هريرة.
(٣) رواه الثعلبي عن أبيّ، وهو موضوع.

فهرس السور

اسم السورة	رقم الصفحة
خطبة الكتاب	٥
تفسير سورة الفاتحة	٧
تفسير سورة البقرة	٢٤
تفسير سورة آل عمران	٢٤٢
تفسير سورة النساء	٣٢٩
تفسير سورة المائدة	٤١٦
تفسير سورة الأنعام	٤٧٧
تفسير سورة الأعراف	٥٣٣ _ ٥٩١

✲ ✲ ✲

فهرس الأجزاء

خطبة الكتاب	٥
سورة الفاتحة جـ/ ١/	٧
سورة البقرة جـ/ ٢/	١٤٥
سور البقرة جـ/ ٣/	٢١٣
سورة آل عمران جـ/ ٤/	٢٧٧
سورة النساء جـ/ ٥/	٣٤٥
سورة النساء جـ/ ٦/	٤٠٤
سورة المائدة جـ/ ٧/	٤٥٥
سورة الأنعام جـ/ ٨/	٥١٢
سورة الأعراف جـ/ ٩/	٥٥٨ _ ٥٩١